
الاكتفاء
في
سيرة خير الأنبياء
صلى الله عليه وسلم
الجزء الثاني

بطاقة فهرسة
فهرسة أثناء النشر إعداد الهيئة العامة لدار الكتب والوثائق القومية
إدارة الشئون الفنية

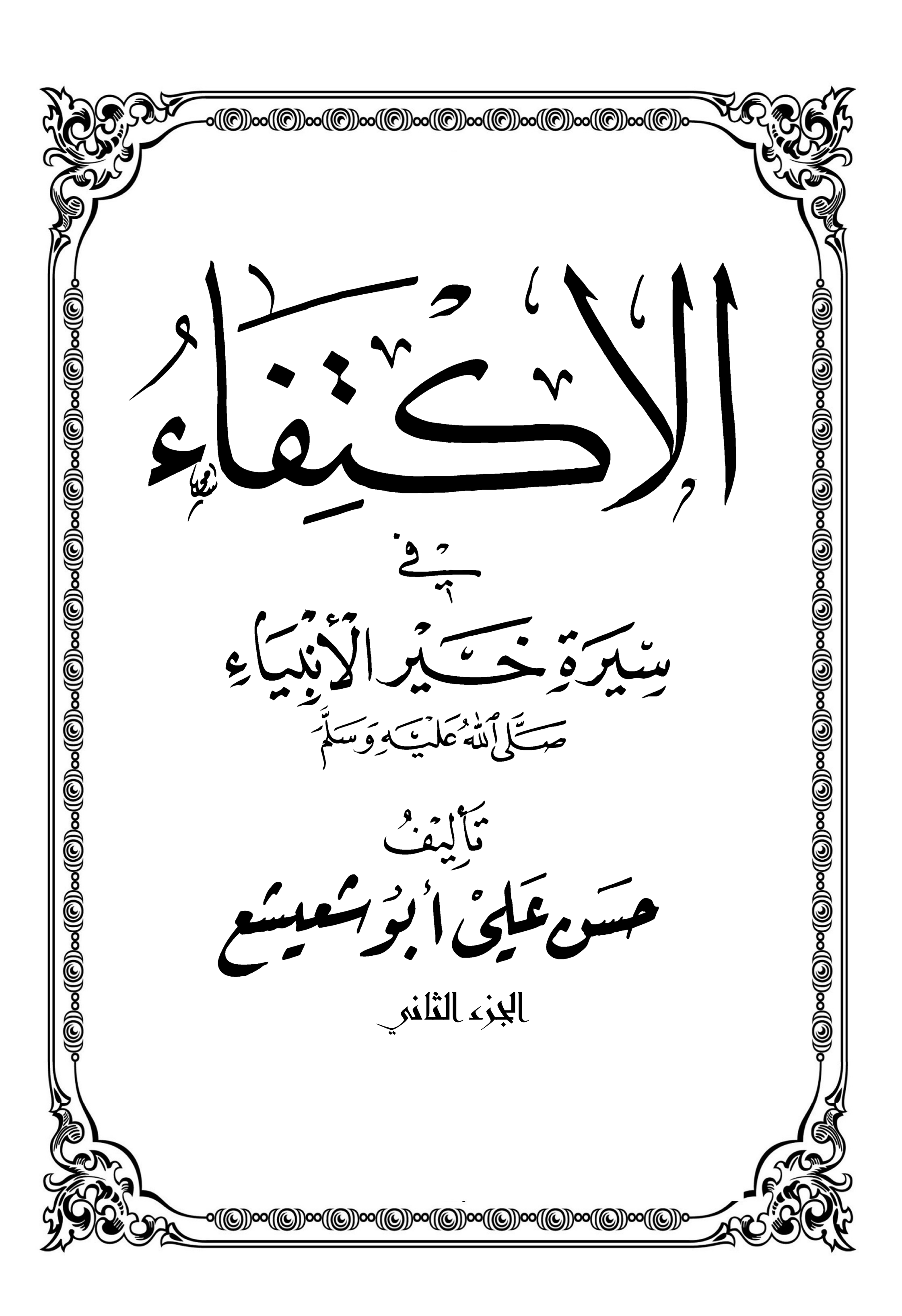
أبو شعيشع ، حسن علي
الاكتفاء في سيرة خير الأنبياء ﷺ / د. حسن علي أبو شعيشع.
ط1- القاهرة: دار الوفاء للنشر والتوزيع، 2018.
مجـ2 ، 800ص، 24سم.
تدمك 7 0677 15 977 978
1- السيرة النبوية   أ- العنوان   239

تاريخ الإصدار: 1439هـ - 2018م
حقوق الطبع: محفوظة
الطبعة: الأولى
رقم الإيداع: 1810/ 2018م
الترقيم الدولي: ISBN: 978 – 977 – 15 – 0677 – 7
الكود: 508/ 2

دار الوفاء

دار النشر للجامعات

ص.ب (130 محمد فريد) القاهرة 11518
E-mail: darannshr@hotmail.com



الاكتفاء

في

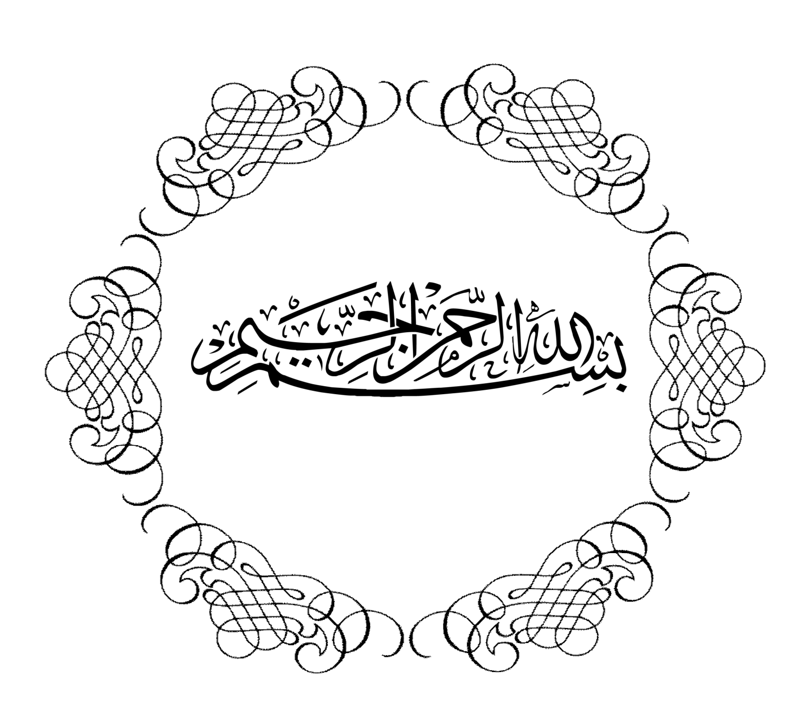
سيرة خير الأنبياء

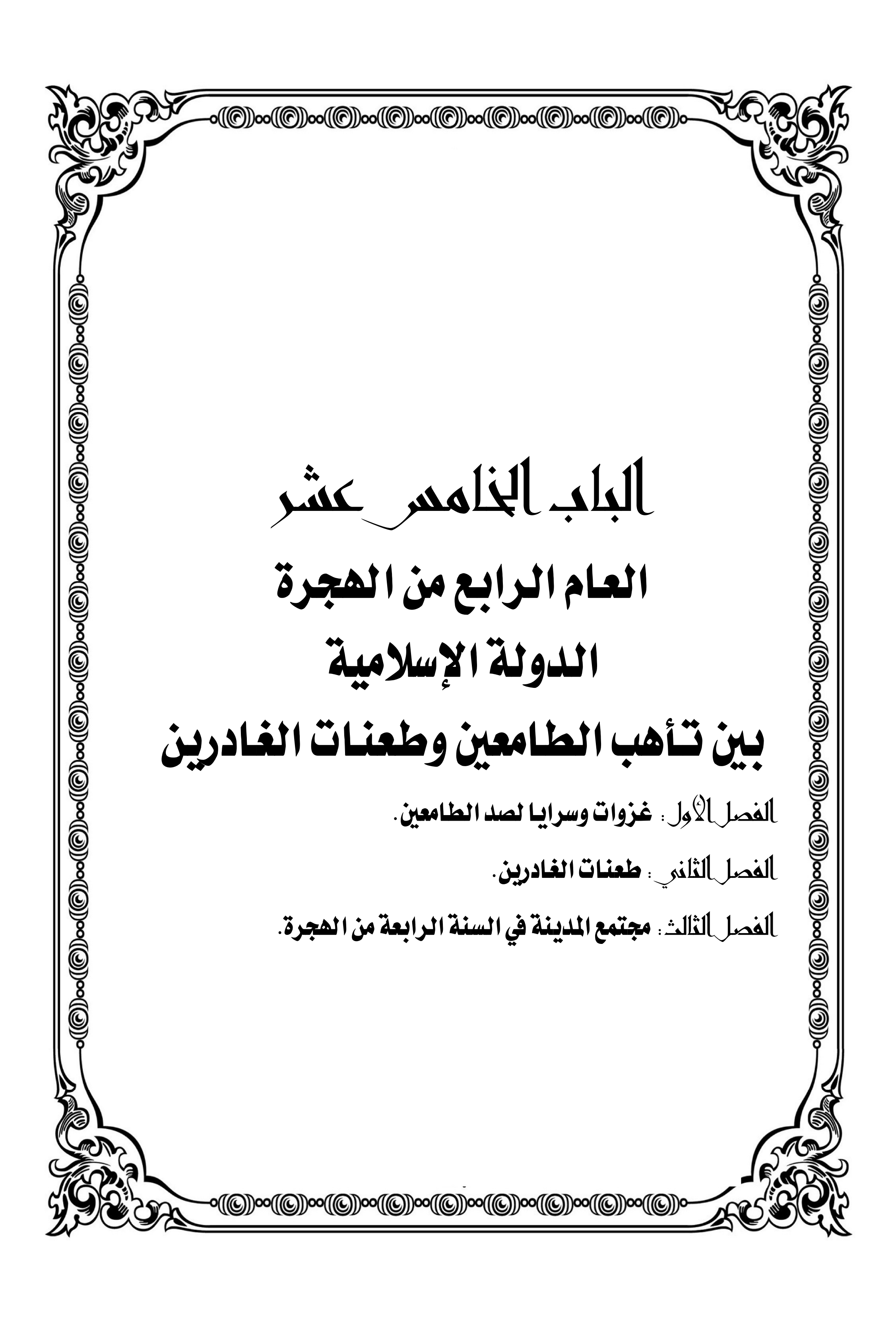
صلى الله عليه وسلم

تأليف

حسن علي أبو شعيشع

الجزء الثاني


بسم الله الرحمن الرحيم



الباب الخامس عشر

العام الرابع من الهجرة

الدولة الإسلامية

بين تأهب الطامعين وطعنات الغادرين

الفصل الأول: **غزوات وسرايا لصد الطامعين.**

الفصل الثاني: **طعنات الغادرين.**

الفصل الثالث: **مجتمع المدينة في السنة الرابعة من الهجرة.**

الفصل الأول

غزوات وسرايا لصد الطامعين

جاءت السنة الرابعة من الهجرة وقد تدهورت سمعة المسلمين العسكرية التي اكتسبوها بعد بدر، فجرأت عليهم أعراب البادية، وتأهبت للإغارة عليهم وانتهاب خيراتهم؛ «فالمسلمون مرفوضون في البيئة الوثنية، وهم منشقون عن قريش حامية الحرم، وجاءوا بدين جديد، فما أن لاح للأعراب والقبائل المجاورة بوادر ضعف عند المسلمين بعد أحد، حتى راحوا جميعًا يتهيأون لغزو المدينة، أو الغدر بالمسلمين، على طبيعة الأعراب في ذلك»[1].

وقد تصدى رسول الله ﷺ لهؤلاء جميعًا بسياسة وتخطيط دقيقين، وبقوة وشجاعة فائقتين، ومن أصعب الأمور قياد الأمم عقب الهزائم الكبيرة، وقياد الدعوات بعد الانكسارات الخطيرة[2].

وسنرى أن كل تحركات المسلمين العسكرية خلال هذه السنة كانت تعتمد الهجوم كأقوى وسيلة من وسائل الدفاع، وهو هجوم مركز مدروس مخطط له، مهمته أن يضرب العدو قبل أن يتحرك نحوه، ولم يكن فتح الجبهات كلها أو ضرب عدو هادئ هو المحرك لهذه العمليات، إنما كان الهدف منها إحباط التجمعات المضادة للإسلام، والتي تعد لغزوه، والمسلمون يحسبون في كل يوم حسابًا جديدًا يمكن أن ينقض عليهم من الشمال أو الجنوب أو الشرق.

وبذلك حطم رسول الله ﷺ كل قوة تفكر - مجرد تفكير - في غزو المدينة، وألقى الرعب في قلوب المجاورين لهذه القوى، دون أن يؤخذ على غرة من أحد. ويوفر على نفسه كثيرًا من الخسائر المادية والمعنوية التي كانت ستقع لو تماهل شيئًا طفيفًا في تحري حركات العدو، أو ضرب تجمعاته[3].

---

(1) الغضبان: المنهج الحركي، ص 335.

(2) الغزالي: فقه السيرة، ص 294.

(3) الغضبان: المنهج الحركي، ص 335، 401.

سرية أبي سلمة إلى طليحة الأسدي:

كان أول من تهيأ لغزو المدينة من أعراب البادية (بنو أسد) في نجد .. ففي المحرم من السنة الرابعة للهجرة، بلغ النبي ﷺ - عبر عيونه المبثوثة في جزيرة العرب - أن طليحة وسلمة ابني خويلد الأسديين قد جمعا الجموع لغزو المدينة وحرب رسول الله ﷺ، فأرسل إليهم أبا سلمة بن عبد الأسد المخزومي رَضِيَ اللَّهُ عَنْهُ، على رأس سرية تعدادها خمسون ومائة مقاتل من المهاجرين والأنصار.

قال الواقدي: شهد أبو سلمة أحدًا، فجرح جرحًا على عضده، فرجع إلى منزله، فأقام شهرًا يداوى، فلما كان المحرم على رأس خمسة وثلاثين شهرًا من الهجرة، دعاه رسول الله ﷺ، فقال: «اخرج في هذه السرية؛ فقد استعملتك عليها»، وعقد له لواء، وقال: «سر حتى تأتي أرض بني أسد، فأغر عليهم»، وأوصاه بتقوى الله، وبمن معه من المسلمين خيرًا. وخرج معه في تلك السرية خمسون ومائة، فانتهى إلى أدنى قطن، وهو ماء لبني أسد، وكان هناك طليحة الأسدي وأخوه سلمة ابنا خويلد، وقد جمعا حلفاء من بني أسد ليقصدوا حرب النبي ﷺ، فجاء رجل منهم إلى النبي ﷺ، فأخبره بما تمالأوا عليه، فبعث معه أبا سلمة في سريته هذه.

فلما انتهوا إلى أرضهم، تفرقوا (أي: الأعراب)، وتركوا نعمًا كثيرًا لهم من الإبل والغنم، فأخذ ذلك كله أبو سلمة، وأسر منهم معه ثلاثة مماليك، وأقبل راجعًا إلى المدينة، فأعطى (أبو سلمة) ذلك الرجل الأسدي الذي دلهم نصيبًا وافرًا من الغنم، وأخرج صفي النبي ﷺ عبدًا، وخمس الغنيمة، وقسم الباقي بين أصحابه، ثم قدم المدينة[1].

عبد الله بن أنيس وعملية جهادية خاصة:

قال المقريزي: (كان قد بلغ رسول الله ﷺ أن سفيان بن خالد نزل عرنة وما حولها في ناس من قومه وغيرهم، فجمّع لحربه. وضوى إليه بشر كثير من أفناء العرب، فبعث عبد

---

(1) البداية والنهاية 10/4.

الله بن أنيس وحده ليقتله، وقال له: انتسب إلى خزاعة. فقال عبد الله بن أنيس: يا رسول الله! انعته لي حتى أعرفه، قال: إذا رأيته هبته، وفرقت منه، وذكرت الشيطان، وآية ما بينك وبينه أن تجد له قشعريرة إذا رأيته، وأذن له أن يقول ما بدا له (من سب رسول الله ﷺ)، وكان ابن أنيس لا يهاب الرجال، فأخذ سيفه وخرج حتى إذا كان ببطن عُرَنَة لقي سفيان يمشي وراءه الأحابيش فهابه، وعرفه بالنعت الذي نعت له رسول الله ﷺ. وقد دخل وقت العصر، فصلى وهو يمشي يومئ إيماء برأسه، فلما دنا منه، قال (سفيان): من الرجل؟ قال: رجل من خزاعة، سمعت بجمعك لمحمد، فجئتك لأكون معك. ومشى معه يحادثه وينشده، وقال: عجبًا لما أحدث محمد من هذا الدين المحدث، فارق الآباء وسفه أحلامهم! فقال سفيان: لم يلق محمد أحدًا يشبهني! حتى انتهى إلى خبائه (خيمته) وتفرق عنه أصحابه، فقال: هلم يا أخا خزاعة. فدنا منه (عبد الله بن أنيس)، وجلس عنده حتى نام الناس، فقتله وأخذ رأسه واختفى في غار، والخيل تطلبه (تطارده) من كل وجه. ثم سار الليل وتوارى في النهار، إلى أن قدم المدينة ورسول الله ﷺ في المسجد، فقال: أفلح الوجه!، قال: أفلح وجهك يا رسول الله! ووضع الرأس بين يديه، وأخبره الخبر، فدفع إليه عصا، وقال: تخصر بهذه في الجنة، فإن المتخصرين في الجنة قليل .. وكانت عنده حتى أدرجت في أكفانه بعد موته[1].

وبمقتل خالد بن سفيان الهذلي، كفى الله المؤمنين القتال، وهدأت بنو لحيان من هذيل بعد موت زعيمهم، إلى أن تجد فرصة فتثأر فيها من المسلمين [2]، واستطاع عبد الله وحده – بعون الله – أن ينفذ مهمته كاملة، وكانت ذات أثر معنوي ضخم؛ فقد استطاع النبي ﷺ أن يصل بقوته إلى حدود مكة، وهو بذلك يقض مضاجع قريش؛ فبطن عرنة التي تمت بها هذه العملية الجهادية تقع بين عرفات ومزدلفة [3].

---

(1) إمتاع الأسماع 1/254-255.

(2) أبو شهبة: السيرة النبوية، ج2، ص 234.

(3) الغضبان: المنهج الحركي، ص 354، بتصرف.

وكان بعث رسول الله ﷺ لعبد الله بن أنيس إلى خالد بن سفيان الهذلي في الخامس من محرم، على رأس خمسة وثلاثين شهرًا من الهجرة [1]، وظل ابن أنيس رضي الله عنه غائبًا عن المدينة ثماني عشرة ليلة، ثم قدم المدينة يوم السبت لسبع بقين من المحرم[2].

عملية خاصة في مكة:

قال الواقدي[3]:

كان أبو سفيان بن حرب قد قال لنفر من قريش بمكة: أما أحد يغتال محمدًا؛ فإنه يمشي في الأسواق، فندرك ثأرنا؟

فأتاه رجل من العرب فدخل عليه منزله، وقال له: إن أنت وفيتني (أعطيتني أجرًا) وخرجت إليه حتى أغتاله، فإني هاد بالطريق خريت (أي: يعمل دليلًا للناس)، معي خنجر مثل خافية النسر (أستطيع أن أخفيه مثل ما يخفي النسر الريش تحت جناحه).

قال: أنت صاحبنا، وأعطاه بعيرًا ونفقة، وقال: اطوِ أمرك؛ فإني لا آمن أن يسمع هذا أحد فينميه إلى محمد.

قال: قال العربي: لا يعلمه أحد، فخرج ليلًا على راحلته، فسار خمسًا، وصبَّح ظهر الحي يوم سادسه، ثم أقبل يسأل عن رسول الله ﷺ، حتى أتى المصلى، فقال له قائل: قد توجه إلى بني عبد الأشهل.

فخرج الأعرابي يقود راحلته، حتى انتهى إلى بني عبد الأشهل، فعقل (ربط) راحلته، ثم أقبل يؤم رسول الله ﷺ، فوجده في جماعة من أصحابه يحدث في مسجده، فلما دخل ورآه رسول الله ﷺ قال لأصحابه: «إن هذا الرجل يريد غدرًا، والله حائل بينه وبين ما يريده».

فوقف وقال: أيكم ابن عبد المطلب؟

---

(1) ابن سعد (50/2).

(2) المباركفوري: الرحيق المختوم، ص 258.

(3) البداية والنهاية 4/79-81.

فقال له رسول الله ﷺ: «أنا ابن عبد المطلب».

فذهب ينحني على رسول الله ﷺ كأنه يُساره (كأنه يُسر له بحديث) فجذبه أسيد بن حضير، وقال: تنح عن رسول الله ﷺ، وجذب بداخل إزاره فإذا الخنجر.

فقال: يا رسول الله، هذا غادر، فأُسقط في يد الأعرابي، وقال: دمي دمي يا محمد. وأخذه أسيد بن حضير يلببه، فقال له النبي ﷺ: «اصدقني ما أنت، وما أقدمك؟ فإن صدقتني نفعك الصدق، وإن كذبتني فقد اطلعتُ على ما هممت به».

قال الأعرابي: فأنا آمن؟ قال: «وأنت آمن» فأخبره بخبر أبي سفيان، وما جعل له، فأمر به فحبس عند أسيد بن حضير، ثم دعا به من الغد، فقال: قد أمنتك، فاذهب حيث شئت، أو خير لك من ذلك. قال: وما هو؟ فقال: أن تشهد أن لا إله إلا الله وأني رسول الله، فقال: أشهد أن لا إله إلا الله، وأنك أنت رسول الله، والله يا محمد ما كنت أَفْرَقُ (أخاف) من الرجال، فما هو إلا أن رأيتك فذهب عقلي وضعفت، ثم اطلعت على ما هممت به، فما سبقت به الركبان (أي: لم يسبقني إليك أحد فيخبرك)، ولم يطلع عليه أحد، فعرفت أنك ممنوع، وأنك على حق، وأن حزب أبي سفيان حزب الشيطان.

فجعل النبي ﷺ يبتسم، وأقام أيامًا، ثم استأذن النبي ﷺ فخرج من عنده، ولم يُسمع له بذكر، وقال رسول الله ﷺ لعمرو بن أمية الضمري، ولسلمة بن أسلم بن حريش: «اخرجا حتى تأتيا أبا سفيان بن حرب، فإن أصبتما منه غرة فاقتلاه».

قال عمرو: فخرجت أنا وصاحبي حتى أتينا بطن «يأجج»، فقدنا بعيرنا، وقال لي صاحبي: يا عمرو، هل لك في أن نأتي مكة فنطوف بالبيت سبعًا ونصلي ركعتين؟

فقلت: أنا أعلم بأهل مكة منك، إنهم إذا أظلموا (إذا دخل عليهم الظلام) رشُّوا أفنيتهم ثم جلسوا بها (أي: إذا طفنا سيرانا أهل مكة ويعرفوننا)، وإني أعرف بمكة من الفرس الأبلق، فأبى عليَّ، فانطلقنا فأتينا مكة، فطفنا وصلينا ركعتين، فلما خرجت لقيني معاوية بن أبي سفيان فعرفني، وقال: عمرو بن أمية! واحزناه!.

فنذر بنا أهل مكة، فقالوا: ما جاء عمرو في خير، وكان عمرو فاتكًا في الجاهلية، فحشد أهل مكة وتجمعوا، وهرب عمرو وسلمة، وخرجوا في طلبهما واشتدوا في الجبل.

قال عمرو: فدخلت في غار، فتغيبت عنهم حتى أصبحت، وباتوا يطلبوننا في الجبل، وعمَّى الله عليهم طريق المدينة أن يهتدوا له، فلما كان ضحوة الغد، أقبل عثمان بن مالك ابن عبيد التيمي (وهو من مشركي مكة) يختلي لفرسه حشيشًا، فقلت لسلمة بن أسلم (صاحبي): إذا أبصرنا أشعر بنا أهل مكة، وقد انفضوا عنا، فلم يزل (عثمان بن مالك) يدنو من باب الغار حتى أشرف علينا (اكتشف أمرنا).

قال: فخرجت إليه فطعنته طعنة تحت الثدي بخنجري، فسقط وصاح، فاجتمع أهل مكة فأقبلوا بعد تفرقهم، ورجعت إلى مكاني فدخلت فيه، وقلت لصاحبي: لا تتحرك فأقبلوا حتى أتوه وقالوا من قتلك؟

قال: عمرو بن أمية الضمري، فقال أبو سفيان قد علمنا أنه لم يأت لخير، ولم يستطع أن يخبرهم بمكاننا؛ فإنه كان بآخر رمق فمات، وشغلوا عن طلبنا بصاحبهم فحملوه، فمكثنا ليلتين في مكاننا حتى سكن عنا الطلب، ثم خرجنا إلى التنعيم، فقال صاحبي: يا عمرو بن أمية، هل لك في خبيب بن عدي (في مكانه الذي صليته فيه قريش) نُنْزله؟ (وسيأتي خبر قتله في وقعة الرجيع).

فقلت له: أين هو؟ قال: هو ذلك مصلوب حوله الحرس. فقلت: أمهلني وتنح عني، فإن خشيت شيئًا فانج إلى بعيرك فاقعد عليه، فائت رسول الله ﷺ فأخبره الخبر، ودعني فإني عالم بالمدينة.

ثم استدرت عليه حتى وجدته (أي جسد خبيب)، فحملته على ظهري، فما مشيت به إلا عشرين ذراعًا حتى استيقظوا، فخرجوا في أثري، فطرحت الخشبة فما أنسى وجيبها - يعني صوتها - ثم أهلت عليه (أي: على خبيب) التراب برجلي، فأخذت طريق الصفراء فأعيوا (تعبوا) ورجعوا، (وأما خبيب فلم يُر بعد ذلك، وكأن الأرض قد ابتلعته).

فانطلق صاحبي إلى البعير فركبه، وأتى النبي ﷺ فأخبره، وأقبلت حتى أشرقت على «الغليل»، فدخلت في غار، معي قوسي وأسهمي وخنجري، فبينما أنا فيه إذ أقبل رجل من بني الدليل بن بكر، أعور طويل، يسوق غنمًا ومعزى، فدخل الغار، وقال: من الرجل؟

فقلت: رجل من بني بكر.

فقال: وأنا من بني بكر، ثم اتكأ ورفع عقيرته يتغنى ويقول:

فلست بمسلم ما دمت حيًّا ... ولست أدين دين المسلمينا

فقلت في نفسي: والله إني لأرجو أن أقتلك.

فلما نام قمت إليه فقتلته شر قتلة قتلها أحد قط، ثم خرجت حتى هبطت، فلما أسهلت (نزلت من الجبل إلى السهل) في الطريق إذا رجلان بعثتهما قريش يتجسسان الأخبار، فقلت: استأسرا، فأبى أحدهما، فرميته فقتلته، فلما رأى ذلك الآخر استأسر، فشددته وثاقًا.

ثم أقبلت به إلى النبي ﷺ، فلما قدمت المدينة أتى صبيان الأنصار وهم يلعبون، وسمعوا أشياخهم يقولون: هذا عمرو، فاشتد الصبيان إلى النبي ﷺ فأخبروه، وأتيته بالرجل قد ربطت إبهامه بوتر قوسي، فلقد رأيت النبي ﷺ وهو يضحك، ثم دعا لي بخير[1].

غزوة نجد:

نقلت الاستخبارات إلى رسول الله ﷺ أن جموع البدو والأعراب من بني محارب وبني ثعلبة من غطفان، يحتشدون للإغارة على المدينة، فسارع النبي ﷺ إلى الخروج، يجوس فيافي نجد، ويلقي بذور الخوف في أفئدة أولئك البدو القساة، وقام النبي ﷺ وجيش المسلمين بتحركات شتى، أرهبت هذه القبائل، وخلطت بمشاعرها الرعب، حتى أضحوا لا يسمعون بمقدم المسلمين إلا حذروا وتمنعوا في رءوس الجبال، بعدما قطعوا الطرق على الدعوة ردحًا من الزمن. وهكذا أرهب المسلمون هذه القبائل الغادرة

(1) البداية والنهاية 4/80-81.

في نجد، ثم رجعوا إلى المدينة آمنين، فأخذوا يتجهزون لملاقاة عدوهم الأكبر؛ فقد استدار العام، وحضر الموعد المضروب مع قريش(1).

غزوة بدر الآخرة:

في شعبان من العام نفسه، خرج الرسول ﷺ وأصحابه إلى بدر لميعاد أبي سفيان (وكان - كما ذكرنا - قد نادى في منصرفه من بدر في المسلمين: إن موعدكم بدر العام المقبل)، واستعمل على المدينة عبد الله بن عبد الله بن أُبي، وسار في ألف وخمسمائة من أصحابه. فلما وصلوا بدرًا أقاموا بها ثمانية في انتظار أبي سفيان.

وخرج أبو سفيان في أهل مكة حتى بلغ عُسْفان، وقيل مِجَنَّة، ثم أُلقي الرعب في قلبه، فبدا له أن يرجع، فقال: يا معشر قريش إن هذا العام عام جدب، ولا يصلحكم إلا عام خصب، ترعون فيه الشجر، وتشربون فيه اللبن، وإني راجع فارجعوا، فرجعوا، فسمَّاهم أهل مكة جيش السويق، يريدون أنهم خرجوا لشرب السويق (وهو شراب يصنع من القمح أو الشعير)، لا للحرب.

وكان أبو سفيان قد لجأ إلى حيلة يقصد بها إرهاب المسلمين حتى لا يخرجوا إلى بدر، فيكون خُلف الوعد من جانب المسلمين لا من جانبه، فاتفق مع نُعيم بن مسعود الأشجعي، وجعل له جُعْلًا على أن يذهب إلى المدينة فيرجف فيها بعظم جيش أبي سفيان وعُدَّته، فذهب نعيم، وقال للنبي ﷺ وأصحابه: إن قريشًا قد جمعت لكم الجموع .. ولكنهم لم يلتفتوا إلى مقالته.

والمتتبع لمجريات الحوادث في هذه الغزوة، يرى أن المشركين قد باتوا يخشون المسلمين، ولا يجرءون على لقياهم، وكأنما كان نصرهم في أحد فلتة لا يطمعون في مثلها، فمن ثَمَّ لجأوا إلى الحيلة يدرءون بها عن أنفسهم عار خُلْف الوعد باللقاء، ولكنهم لم يفلحوا، وخيب المسلمون ظنونهم، وقد شعر المشركون بأثر تخلفهم في إذهاب هيبتهم

(1) انظر: فقه السيرة للغزالي، ص 305، والرحيق المختوم للمباركفوري.

المزعومة في النفوس، ولذلك قال صفوان بن أمية لأبي سفيان: قد - والله - نهيتك أن تَعِد القوم، قد اجترءوا علينا، رأوا أنا أخلفناهم [1].

وتسمى هذه الغزوة أيضًا: بدر الثانية، وبدر الصغرى، وبدر الموعد.

* * *

(1) انظر: السيرة لأبي شهبة، ج2، ص 243-244.

الفصل الثاني

طعنات الغادرين

كان الله ﷻ يربي الجماعة المؤمنة وهي في مطالع خطواتها لقيادة البشرية .. فرباها – فيما رباها – على الابتلاء بالهزيمة المريرة بعد الابتلاء بالنصر المبين، والابتلاء بالشدة بعد الابتلاء بالرخاء، والابتلاء بغدر الغادرين بعد الابتلاء بنعمة الحياة بين المؤمنين الصادقين .

فقد انفجر بعد (أُحد) الحقد المكبوت في نفوس خصوم الإسلام وأعدائه، فنهضوا يناوشونه بكل سلاح، وهمت كل طائفة منهم أن تنال من المؤمنين، فتجرأت عضل والقارة على خداع المسلمين، وقتل عامر بن الطفيل الدعاة الآمنين، وحاولت يهود بني النضير أن يغتالوا رسول الله ﷺ، فكان المسلمون يدخلون في محنة بعد أخرى.

المبحث الأول: يوم الرجيع

في شهر صفر من السنة الرابعة من الهجرة كانت وقعة (الرجيع)، و(الرجيع) اسم موضع من بلاد هذيل بين مكة وعسفان، على ثمانية أميال من عسفان.

وأصل قصة «الرجيع» هذه، أن وفدًا من قبائل عضل والقارة، قدم على رسول الله يذكر أن أنباء الإسلام وصلت إليهم، وأنهم يحتاجون إلى رجال يعلمونهم الدين ويقرئونهم القرآن. فأرسل النبي معهم رهطًا من الدعاة، يرأسهم «عاصم بن ثابت»، فانطلق الجميع حتى إذا كانوا بين «عسفان» و«مكة» قريبًا من مياه «هذيل»، شعر الدعاة بأن أصحابهم غدروا بهم، واستصرخوا هذيلًا عليهم.

وفزع الدعاة إلى أسلحتهم يقاتلون الغادرين ومن أعانهم من قبيلة هذيل، وماذا يجدي قتال نفر يعدون على الأصابع لنحو مائة من الرماة، وراءهم قومهم يشدون أزرهم؟! لذلك لم يلبث عاصم وصحبه أن قتلوا.

واستسلم للأسر ثلاثة نفر: «خبيب» و«زيد بن الدثنة» و«عبد الله بن طارق». فاسترقهم الهذيليون وخرجوا بهم إلى مكة ليبيعوهم بها. ومعنى بيعهم بمكة تسليمهم للقتلة

المتربصين؛ فإن أولئك النفر من الرجال الذين قاتلوا مع رسول الله ﷺ في «بدر» و«أحد»، لأهل مكة لديهم ثارات يودون الاشتفاء منها. وقد حاول عبد الله بن طارق الإفلات من هذا المصير فقتل. وأما «خبيب» و«زيد» فأخذهما رجال قريش ليقتلوهما، أخذًا بثأرهم القديم[1].

وقد روى تفاصيل هذه الوقعة ابن إسحاق في «المغازي»، فقال: حدثنا عاصم بن عمر ابن قتادة، قال: قدم على رسول الله ﷺ بعد أحد رهط من عضل والقارة، فقالوا: يا رسول الله إن فينا إسلامًا، فابعث معنا نفرًا من أصحابك يفقهوننا في الدين، ويقرئوننا القرآن، ويعلموننا شرائع الإسلام.

فبعث رسول الله ﷺ معهم نفرًا ستة من أصحابه، وهم: مرثد بن أبي مرثد الغنوي حليف حمزة بن عبد المطلب. قال ابن إسحاق: وهو أمير القوم، وخالد بن البكير الليثي - حليف بني عدي - وعاصم بن ثابت بن أبي الأقلح أخو بني عمرو بن عوف، وخبيب بن عدي أخو بني جَحْجَبى بن كلفة بن عمرو بن عوف، وزيد بن الدثنة أخو بني بياضة بن عامر، وعبد الله بن طارق حليف بني ظفر رضي الله عنهم.

«هكذا قال ابن إسحاق أنهم كانوا ستة، وكذا ذكر موسى بن عقبة، وسماهم كما قال ابن إسحاق، وعند البخاري أنهم كانوا عشرة، وأن كبيرهم عاصم بن ثابت بن أبي الأقلح، فالله أعلم».

قال بن إسحاق: فخرجوا مع القوم حتى إذا كانوا على الرجيع (ماء لهذيل بناحية الحجاز) غدروا بهم، فاستصرخوا عليهم هذيلًا، فلم يرع القوم (الصحابة) وهم في رحالهم إلا الرجال بأيديهم السيوف، قد غشوهم، فأخذوا أسيافهم ليقاتلوا القوم، فقالوا لهم: إنا والله ما نريد قتلكم، ولكنا نريد أن نصيب بكم شيئًا (مالًا) من أهل مكة، ولكم عهد الله وميثاقه أن لا نقتلكم. فأما مرثد، وخالد بن البكير، وعاصم بن ثابت، فقالوا: والله لا نقبل من مشرك عهدًا ولا عقدًا أبدًا.

---

(1) الغزالي: فقه السيرة، ص 296.

ثم قاتلوا حتى قُتلوا. فلما قُتل عاصم أرادت هذيل أخذ رأسه ليبيعوه من سلافة بنت سعد بن سهيل، وكانت قد نذرت حين أصاب (قتل) (عاصم) ابنيها يوم أُحد، لئن قدرتْ على رأس عاصم لتشربن في قحفه الخمرة (وقد سبق ذكر ذلك)، فمنعته الدَّبْر (أي: منعتهم أسراب من النحل من أخذ رأس عاصم)، فلما حالت بينهم وبينه قالوا: دعوه حتى يمسي فيذهب عنه، فنأخذه، فبعث الله سيلًا إلى الوادي فاحتمل عاصمًا فذهب به.

وقد كان عاصم قد أعطى الله عهدًا أن لا يمسه مشرك، ولا يمس مشركًا أبدًا تنجسًا (فوفى عهد ربه حيًّا، فوفى الله عهده ميتًا، ومنع جسده من المشركين).

«فكان عمر بن الخطاب يقول حين بلغه أن الدبر (دُبر النحل) منعته: يحفظ الله العبد المؤمن، كان عاصم نذر أن لا يمسه مشرك، ولا يمس مشركًا أبدًا في حياته، فمنعه الله بعد وفاته، كما امتنع منه في حياته.

قال ابن إسحاق: وأما خبيب، وزيد بن الدثنة، وعبد الله بن طارق، فلانوا ورقُّوا ورغبوا في الحياة، وأعطوا بأيديهم فأسروهم، ثم خرجوا بهم إلى مكة ليبيعوهم بها، حتى إذا كانوا بالظهران انتزع عبد الله بن طارق يده من القِران ثم أخذ سيفه (ليقاتلهم)، واستأخر عنه القوم، فرموه بالحجارة حتى قتلوه، فقبره بالظهران.

وأما خبيب بن عدي وزيد بن الدثنة فقدموا بهما مكة، فباعوهما من قريش بأسيرين من هذيل كانا بمكة. قال ابن إسحاق: فابتاع خبيبًا حجير بن أبي إهاب التميمي حليف بني نوفل لعقبة بن الحارث بن عامر بن نوفل، وكان أبو إهاب أخا الحارث بن عامر لأمه ليقتله بأبيه (الذي قتله خبيب يوم بدر).

قال: وأما زيد بن الدثنة فابتاعه صفوان بن أمية ليقتله بأبيه (الذي قتله زيد يوم بدر)، فبعثه مع مولى له يقال له: نسطاس إلى التنعيم، وأخرجه من الحرم ليقتله.

واجتمع رهط من قريش، فيهم: أبو سفيان بن حرب، فقال له أبو سفيان حين قَدِمَ ليُقتل: أنشدك بالله يا زيد، أتحب أن محمدًا الآن عندنا مكانك نضرب عنقه، وأنك في أهلك؟

قال: والله ما أحب أن محمدًا الآن في مكانه الذي هو فيه تصيبه شوكة تؤذيه، وإني جالس في أهلي. قال: يقول أبو سفيان: ما رأيت من الناس أحدًا يحب أحدًا كحب أصحاب محمد محمدًا، قال: ثم قتله نسطاس.

قال: وأما خبيب بن عدي: فحدثني عبد الله بن أبي نجيح، أنه حُدِّث عن ماوية مولاة حجير بن أبي إهاب، وكانت قد أسلمت، قالت: كان عندي خبيب حبس في بيتي، فلقد اطلعت عليه يومًا وإن في يده لقطفًا من عنب، مثل رأس الرجل يأكل منه، وما أعلم في أرض الله عنبًا يؤكل.

قالت: وقال لي حين حضره القتل: ابعثي إليَّ بحديدة أتطهر بها للقتل (يحلق بها شعر عانته)، قالت: فأعطيت غلامًا من الحي الموسي، فقلت له: ادخل بها على هذا الرجل البيت.

فقالت: فوالله إن هو إلا أن ولى الغلام بها إليه، فقلت: ماذا صنعتُ! أصاب (نال) والله الرجل ثأره يقتل هذا الغلام، فيكون رجلًا برجل، فلما ناوله الحديدة أخذها من يده، ثم قال: لعمرك، ما خافت أمك غدري حين بعثتك بهذه الحديدة إليَّ، ثم خلى سبيله.

قال ابن هشام: ويقال إن الغلام ابنها.

قال ابن إسحاق: قال عاصم: ثم خرجوا بخبيب حتى جاءوا به إلى التنعيم ليصلبوه، وقال لهم: إن رأيتم أن تدعوني حتى أركع ركعتين فافعلوا، قالوا: دونك فاركع، فركع ركعتين أتمهما وأحسنهما، ثم أقبل على القوم، فقال: أما والله لولا أن تظنوا أني إنما طوَّلت جزعًا من القتل لاستكثرت من الصلاة.

قال: فكان خبيب أول من سنَّ هاتين الركعتين عند القتل للمسلمين.

قال: ثم رفعوه على خشبة، فلما أوثقوه، قال: اللَّهم إنا قد بلّغنا رسالة رسولك، فبلغه الغداة ما يُصنع بنا، ثم قال: اللَّهم أحصهم عددًا، واقتلهم بددًا، (متفرقين) ولا تغادر منهم أحدًا، ثم قتلوه.

وكان معاوية بن أبي سفيان يقول: حَضَرْتُه يومئذ فيمن حضره مع أبي سفيان، فلقد رأيته يلقيني (أي: أبو سفيان) إلى الأرض؛ فرقًا «خوفًا» من دعوة خُبيب، وكانوا يقولون:

إن الرجل إذا دُعي عليه، فاضطجع لجنبه زلّت (زالت) عنه (الدعوة)[1]؛ (ولذا فقد ألقاه أبوه ليضطجع فتزول عنه دعوة خبيب).

وزاد المقريزي في وصف قتل خبيب رَضِيَ اللَّهُ عَنْهُ، قال: (... ثم حَضَّروا أبناء من قتل ببدر وهم أربعون غلامًا، فأعطوا كل غلام رمحًا فطعنوه برماحهم، فاضطرب على الخشبة، وقد رفعوه عليها، وانفلت فصار وجهه إلى الكعبة، فقال: الحمد لله، فطعنه أبو سروعة حتى أخرجها من ظهره، فمكث ساعة يوحد ويشهد أن محمدًا رسول الله، ثم مات رَضِيَ اللَّهُ عَنْهُ [2]، وقد أنزل الله تعالى في أصحاب الرجيع قرآنًا يُتلى إلى يوم القيامة.

روى ابن إسحاق، عن ابن عباس رَضِيَ اللَّهُ عَنْهُمَا، قال: لما قُتل أصحاب الرجيع، قال ناس من المنافقين: يا ويح هؤلاء المفتونين الذين هلكوا هكذا، لا هم أقاموا في أهلهم، ولا هم أدوا رسالة صاحبهم التي أرسلهم من أجلها، فأنزل الله فيهم: ﴿ وَمِنَ ٱلنَّاسِ مَن يُعْجِبُكَ قَوْلُهُۥ فِى ٱلْحَيَوٰةِ ٱلدُّنْيَا وَيُشْهِدُ ٱللَّهَ عَلَىٰ مَا فِى قَلْبِهِۦ وَهُوَ أَلَدُّ ٱلْخِصَامِ ﴿٢٠٤﴾ ﴾ [البقرة]، وما بعدها، وأنزل الله في أصحاب السرية:

﴿ وَمِنَ ٱلنَّاسِ مَن يَشْرِى نَفْسَهُ ٱبْتِغَآءَ مَرْضَاتِ ٱللَّهِ ۗ وَٱللَّهُ رَءُوفٌۢ بِٱلْعِبَادِ ﴿٢٠٧﴾ ﴾ [البقرة]، وروى البخاري في صحيحه، عن أبي هريرة رَضِيَ اللَّهُ عَنْهُ، أن خبيبًا رَضِيَ اللَّهُ عَنْهُ لما قدموه للقتل قال:

ولست أبالي حين أقتل مسلمًا ... على أي شق كان في الله مصرعي
وذلك في ذات الإله وإن يشأ ... يبارك على أوصال شلو ممزع [3]

فرضي الله عنه وعن أصحابه أجمعين. قال حسان رَضِيَ اللَّهُ عَنْهُ يرثي خبيبًا:

ما بالُ عينك لا ترقى مدامعُها ... سحًّا على الصدر مثل اللؤلؤ الفلق
على خبيب فتى الفتيان قد علموا ... لا فشل حين تلقاه ولا نزق

---

(1) البداية والنهاية 4/74-76.

(2) إمتاع الأسماع 1/177.

(3) **الشلو**: العضو. **ممزع**: ممزق.

فاذهب خبيب جزاك الله طيبةً وجنة الخلد عند الحور في الرفق

ماذا تقولون إن قال النبي لكم حين الملائكة الأبرار في الأفق

فيم قتلتم شهيد الله في رجل طاغ قد أوعث في البلدان والرفق[1]

وقال يهجو الذين غدروا به وبأصحاب الرجيع من بني لحيان:

إن سرك الغدر صرفًا لا مزاج له فائتِ الرجيع فسل عن دار لحيان

قوم تواصوا بأكل الجار بينهم فالكلب والقرد والإنسان مثلان

لو ينطق التيس يومًا قام يخطبهم وكان ذا شرف فيهم وذا شأن[2]

المبحث الثاني: بئر معونة (سرية القراء)

وفي شهر صفر نفسه الذي وقعت فيه مأساة الرجيع، وقعت مأساة أخرى أشد وأفظع من الأولى، وهي التي تعرف بوقعة بئر معونة[3]، وإليك تفصيل ذلك:

كان عامر بن الطفيل زعيمًا من زعماء بني عامر، وكان متكبرًا متغطرسًا، طامعًا في الملك، وكان يرى أن النبي ﷺ سوف تكون له الغلبة على الجزيرة؛ ولذلك جاء إلى النبي ﷺ وقال له: أخيِّرك بين ثلاث خصال: أن يكون لك أهل السهل، ولي أهل المدر (البدو)، أو أن أكون خليفتك، أو أغزوك بأهل غطفان بألفٍ وألفٍ[4]، فرفض ﷺ. وجاء إلى المدينة ملاعب الأسنة سيد بني عامر عم عامر بن الطفيل، وقدّم إلى النبي ﷺ هدية، فعرض عليه النبي ﷺ الإسلام، فأبى أن يسلم، فقال النبي ﷺ: «فإني لا أقبل هدية من مشرك»، فقال ملاعب الأسنة: فابعث إلى أهل نجد (قومي) من شئت (من الدعاة)، فأنا لهم جار (أحميهم)، فبعث إليهم (رسول الله ﷺ) بقوم فيهم المنذر بن عمرو رضي الله عنه، وهو الذي يقال له - المُعنق ليموت - فاستجاش عليهم (أراد أن يجمع عليهم جيشًا)

(1) البداية والنهاية 4/77.

(2) المصدر السابق، ج/ص:4/78.

(3) المباركفوري: الرحيق المختوم، ص 260.

(4) البخاري (4091).

عامر بن الطفيل بني عامر (قومه)، فأبوا أن يطيعوه، وأبوا أن يخفروا (ينقضوا عهد) ملاعب الأسنة (سيدهم)، فاستجاش عليهم بني سليم، فأطاعوه، فاتبعهم (أي: الدعاة) بقريب من مائة رجل رام، فأدركهم ببئر معونة، فقتلوهم، إلا عمرو بن أمية. وفي حديث أنس رَضِيَ اللَّهُ عَنْهُ، قال: جاء ناس إلى النبي ﷺ، فقالوا: أن ابعث معنا رجالًا يعلمونا القرآن والسنة، فبعث إليهم سبعين رجلًا من الأنصار، يقال لهم القُرّاء، فيهم خالي حرام (بن ملحان)، (وكانوا) يقرأون القرآن، ويتدارسون بالليل ويتعلمون، وكانوا بالنهار يجيئون بالماء فيضعونه في المسجد، ويحتطبون فيبيعونه، ويشترون به الطعام لأهل الصفة وللفقراء، فبعثهم النبي ﷺ إليهم فعرضوا لهم فقتلوهم قبل أن يبلغوا المكان، فقالوا: اللّهم بلّغ عنا نبينا، أنّا قد لقيناك فرضينا عنك، ورضيت عنا، قال: وأتى رجل (من بني سليم) حرامًا (خال أنس) من خلفه، فطعنه برمح حتى أنفذه، فقال حرام: فزت ورب الكعبة، فقال رسول الله ﷺ (بالمدينة) لأصحابه: «إن إخوانكم قد قتلوا»، وإنهم قالوا: اللّهم بلّغ عنا نبينا أنا قد لقيناك، فرضينا عنك، ورضيت عنا[1].

وقد تركت هذه الوقعة في نفس رسول الله ﷺ آثارًا غائرة بعيدة الأعماق، حتى أنه لبث شهرًا يقنت في صلاة الفجر، داعيًا على قبائل سُلَيم التي عصت الله ورسوله .. فعن ابن عباس قال: قنت رسول الله ﷺ شهرًا متتابعًا في الظهر، والعصر، والمغرب، والعشاء، وصلاة الصبح في دبر كل صلاة، إذا قال: «سمع الله لمن حمده» من الركعة الأخيرة، يدعو على أحياء من بني سُلَيم على رعلٍ وذَكْوان وعُصيَّة، ويؤمن من خلفه[2]، قال أنس بن مالك رَضِيَ اللَّهُ عَنْهُ: وذلك بدء القنوت وما كنا نقنت[3].

حرام بن ملحان:

عندما نزل أصحاب رسول الله ﷺ ببئر معونة، بعثوا حرام بن ملحان رَضِيَ اللَّهُ عَنْهُ بكتاب رسول الله ﷺ إلى عدو الله عامر بن الطفيل، فلم ينظر فيه، وأمر رجلًا فطعنه

---

(1) رواه مسلم، الإمارة، باب ثبوت الجنة للشهيد (677)، والسيرة للصلابي، ص 537-538.

(2) انظر: سنن أبي داود في الصلاة، باب القنوت في الصلوات (1443).

(3) البخاري، رقم (4088)، والسيرة للصلابي، ص 538.

بالحربة من خلفه فقتله. وقد وصف أنس رَضِيَ اللَّهُ عَنْهُ ما كان من حرام بن ملحان رَضِيَ اللَّهُ عَنْهُ حين قُتل، فقال - فيما رواه البخاري: لما طعن حرام بن ملحان (وكان خاله) يوم بئر معونة، قال (أخذ) بالدم هكذا، فنضحه على وجهه ورأسه، وقال: فزت ورب الكعبة[1].

وكان الذي طعنه يُدعى (جبار بن سلمى)، فتعجب من فعل حرام بن ملحان رَضِيَ اللَّهُ عَنْهُ، وسأل عن هؤلاء الذين يفرحون بالقتل في سبيل دينهم، فكان ذلك سببًا في إسلامه، وكان يقول: إن مما دعاني إلى الإسلام أني طعنت رجلًا منهم يومئذ بالرمح بين كتفيه، فنظرت إلى سنان الرمح حين خرج من صدره، فسمعته يقول: فزت والله، فقلت في نفسي: ما فاز؟! ألست قد قتلت الرجل؟ قال: حتى سألت بعد ذلك عن قوله، فقالوا: إنها الشهادة، فقلت: فاز لعمر الله[2].

عامر بن فهيرة:

ظهرت لعامر بن فهيرة رَضِيَ اللَّهُ عَنْهُ كرامة في وقعة بئر معونة، رواها البخاري في صحيحه، فقال: لما قُتل الذين ببئر معونة وأُسِر عمرو بن أمية الضمري رَضِيَ اللَّهُ عَنْهُ، قال له ابن الطفيل (المشرك): من هذا؟ فأشار إلى قتيل، فقال له عمرو بن أمية: هذا عامر بن فهيرة، فقال: لقد رأيته بعدما قتل رفع إلى السماء حتى إني لأنظر إلى السماء بينه وبين الأرض، ثم وضع[3].

عمرو بن أمية الضمري:

حين غدر عامر بن الطفيل بأصحاب رسول الله ﷺ، فأحاط بهم هو وبنو سليم، هرع الصحابة رَضِيَ اللَّهُ عَنْهُمْ إلى سيوفهم، يدفعون عن أنفسهم دون جدوى؛ إذ استطاع الأعراب أن يغشوهم في رحالهم فقتلوهم جميعًا[4]، إلا كعب بن زيد بن النجار رَضِيَ اللَّهُ عَنْهُ الذي تُرك وبه رمق، فعاش حتى استشهد في غزوة الخندق، وعمرو بن أمية الضمري

(1) البخاري، (المغازي)، رقم (4091).

(2) ابن هشام (3/201).

(3) الفتح (15/212، حديث 4093).

(4) الغزالي: فقه السيرة، ص 299.

والمنذر بن عقبة بن عامر رَضِيَ اللَّهُ عَنْهُمَا؛ فقد كانا في سرح المسلمين (حيث ترعى إبلهم ودوابهم)، فلم ينبئهما بمصاب أصحابهما إلا الطير تحوم حول المعسكر. فقالا: والله إن لهذا الطير لشأنًا، فأقبلا لينظرا فإذا القوم (أصحابهم) في دمائهم، وإذا الخيل التي أصابتهم واقفة، فقال المنذر لعمرو: ما ترى؟ فقال: أرى أن نلحق برسول الله ﷺ فنخبره الخبر، فقال المنذر ابن عقبة، لكن لا أرغب بنفسي عن موطن قتل فيه المنذر بن عمرو (وكان صديقًا له)، وما كنت لأخبر عنه الرجال[1]، وقاتل القوم حتى قُتل رَضِيَ اللَّهُ عَنْهُ، وأخذوا عمرو بن أمية أسيرًا[2]. ولما علم عامر بن الطفيل أنه من (قبيلة) مضر أطلقه، وأعتقه من رقبة زعم أنها كانت على أمه، فلما خرج عمرو قاصدًا المدينة نزل في طريقه في ظل، والتقى برجلين من بني عامر (قوم عامر بن الطفيل الغادر)، وكان معهم عقد (أمان) من رسول الله وجوار لم يعلم به عمرو بن أمية (قبل ذلك)، وقد سألهما حين نزلا: ممن أنتما؟ فقالا: من بني عامر، فأمهلهما حتى ناما، ثم عدا عليهما فقتلهما، وهو يرى أنه قد أصاب بهما ثُؤرة من بني عامر، فيما أصابوا من أصحاب رسول الله ﷺ، فلما قدم عمرو بن أمية على رسول الله فأخبره الخبر، قال رسول الله ﷺ: «لقد قتلت قتيلين لأديَّنهما»، وهذا موقف رفيع، فقد ودى (دفع دية) ﷺ ذينك الرجلين العامريين اللذين قتلهما عمرو بن أمية الضمري؛ لكونها يحملان عقدًا منه ﷺ، ولم يؤاخذهما بما فعل بعض أفراد قومهما، وهذا يمثل منتهى القمة في الوفاء بالعهود.

لقد كان بإمكان النبي ﷺ أن يعتبر عمل عمرو بن أمية جزءًا من الانتقام الذي ينبغي أن يُواجه به المجرمون المعتدون، ولكن ما ذنب الأبرياء حتى يؤاخذوا بجريرة المعتدين من قومهم؟![3].

ما حاق بعامر بن الطفيل:

أغضب مقتل أصحاب رسول الله ﷺ عامر بن مالك (أبو براء) الذي تعهد لرسول

(1) أي لا أقبل أن يكون كل ما أفعل أن أحكي خبر موته للرجال.

(2) أبو شهبة: السيرة النبوية، ج2، ص 240.

(3) السيرة للصلابي، ص 540.

الله ﷺ أن يكون جارًا لهم حتى يبلغوا قومه من أهل نجد الإسلام، وبلغه أن رسول الله ﷺ قال: «هذا عمل (مسئولية) أبي براء، فقد كنت لهذا كارهًا متخوفًا»، فشق عليه ذلك وآلمه. كما بلغ بنيه تحريض حسان بن ثابت رَضِيَ اللَّهُ عَنْهُ لهم على قتل عامر بن الطفيل؛ لاستهانته بأبيهم وبعهده؛ حيث قال:

بني أم البنين[1] ألم يرعكم ... وأنتم من ذوائب أهل نجد

تهكم عامر بأبي براء ... ليُخفره وما خطأ كعمد

ألا أبلغ ربيعة ذا المساعي ... فما أحدثت في الحدثان بعدي

أبوك أبو الحروب أبو براء ... وخالك ماجدٌ حكم بن سعد[2]

فقام ربيعة بن أبي براء إلى عامر بن الطفيل - لعنه الله - وهو في نادي قومه، فجرحه، ولكنه لم يمت. قال ابن إسحاق: فحمل ربيعة بن عامر بن مالك على عامر بن الطفيل، فطعنه بالرمح، فوقع في فخذه فأشواه (أصابه إصابة غير قاتلة)، ووقع عن فرسه، وقال (عامر ابن الطفيل): هذا عمل أبي براء، إن أمت فدمي لعمي فلا يُتبعن به، وإن أعش فسأرى رأيي[3].

ثم وفد على النبي ﷺ بعدُ قاصدًا الغدر به، فمنعه الله منه، وقد دعا عليه النبي ﷺ: فقال: «اللّهم اكفني عامرًا»[4]، فأصابه الله بغدة (نوع من الطاعون) في بيت امرأة من بني سلول، فكان يقول: غُدة كغدة البعير (لأن هذا الطاعون كان يصيب الإبل) في بيت امرأة سلولية، ثم ركب فرسه، فمات على ظهره بالعراء[5]، تطعم منه الطيور والسباع[1] (وسيأتي تفصل ذلك في حديثنا عن عام الوفود).

---

(1) **أم البنين:** هي أم أبي براء، وهي بنت عمرو بن عامر بن ربيعة بن صعصعة.

(2) البداية والنهاية 4/84-85.

(3) المصدر السابق.

(4) الأساس في السنة وفقهها (2/631).

(5) روى البخاري مثل ذلك عن أنس.

ما نزل في أهل بئر معونة من قرآن:

نزل في شهداء بئر معونة قرآن نُسخ بعد ذلك، فقد روى البخاري عن أنس رَضِيَ اللَّهُ عَنْهُ قال: «... فقرأنا فيهم قرآنًا، ثم إن ذلك رفع (أي نسخ): (بلغوا عنا قومنا أنا قد لقينا ربنا فرضي عنا وأرضانا)»[2].

رثاء حسان شهداء بئر معونة:

وقال حسان بن ثابت رَضِيَ اللَّهُ عَنْهُ يبكي شهداء بئر معونة، ويخص المنذر بن عمرو:

على قتلى معونة فاستهلي ... بدمع العين سحًّا غير نزر[3]

على خيل السول غداة لاقوا ... ولاقتهم مناياهم بقدر

أصابهم الفناء بعقد قوم ... تخوَّن عقد حبلهم بغدر

فيا لهفي لمنذر إذ تولى ... وأعنق في منيته بصبر

وكان قد أصيب غداة ذاكم ... من أبيض ماجد من سر عمرو[4]

المبحث الثالث: أسماء شهداء (الرجيع) و(بئر معونة)

أولا: شهداء يوم الرجيع:

1- مرثد بن أبي مرثد رَضِيَ اللَّهُ عَنْهُ: من المهاجرين، شهد بدرًا وأحدًا.

2- عاصم بن ثابت الأنصاري رَضِيَ اللَّهُ عَنْهُ: ويكنى أبا سليمان، شهد أحدًا وثبت مع رسول الله ﷺ.

3- خالد بن البكير بن عبد يا ليل رَضِيَ اللَّهُ عَنْهُ: من المهاجرين السابقين بالإسلام، وأحد الإخوة الأربعة الذين بايعوا رسول الله ﷺ في دار الأرقم (عاقل وعامر وإياس وخالد)،

---

(1) أبو شهبة، السيرة النبوية، ج2، ص 240.

(2) صحيح البخاري، كتاب المغازي، باب سرية الرجيع وبئر معونة، ح رقم (4002).

(3) غير قليل.

(4) البداية والنهاية 4/85.

شهد بدرًا وأحدًا، وآخى رسول الله ﷺ بينه وبين زيد بن الدثنة.

4- زيد بن الدثنة رَضِيَ اللَّهُ عَنْهُ: أنصاري خزرجي، شهد بدرًا وأحدًا.

5- عبد الله بن طارق بن عمرو بن مالك رَضِيَ اللَّهُ عَنْهُ: أنصاري، حليف بني ظفر بن الخزرج، شهد بدرًا وأحدًا.

6- خبيب بن عدي بن مالك رَضِيَ اللَّهُ عَنْهُ: أنصاري أوسي، شهد بدرًا وأحدًا.

ثانيًا: شهداء بئر معونة:

لم أجد في كتب السيرة مصدرًا جمع أسماء شهداء (بئر معونة) رَضِيَ اللَّهُ عَنْهُمْ، وما ضرهم ألا تحفظ الكتب أسماءهم، فربهم أعلم بهم، وقد منَّ عليهم فرضي عنهم وأرضاهم.

قال الواقدي[1]: (فجميع من استشهد ممن يحفظ اسمه ستة عشر)، ثم ذكر أسماءهم، وهم:

من المهاجرين:

1- عامر بن فهيرة رَضِيَ اللَّهُ عَنْهُ: مولى أبي بكر الصديق رَضِيَ اللَّهُ عَنْهُ، وهو من السابقين إلى الإسلام، أعتقه أبو بكر بعد أن اشتراه من الطفيل بن سخبرة الأزدي، وكان يرعى الغنم عند غار ثور ليمسح آثار الأقدام في رحلة هجرة النبي ﷺ وصاحبه. شهد بدرًا وأحدًا.

2- الحكم بن كيسان رَضِيَ اللَّهُ عَنْهُ: حليف بني مخزوم، كان ممن أُسر في سرية عبد الله بن جحش في السنة الأولى من الهجرة، أسره المقداد، قال المقداد: فأراد أميرنا ضرب عنقه، فقلت دعه يقدم على رسول الله ﷺ، فقدمنا به على رسول الله ﷺ، فأسلم وحسن إسلامه، شهد بدرًا وأحدًا.

3- نافع بن بديل بن ورقاء رَضِيَ اللَّهُ عَنْهُ، وأبوه هو بديل بن ورقاء الخزاعي، وكان هو وأبوه وإخوته من فضلاء الصحابة وجلتهم رَضِيَ اللَّهُ عَنْهُمْ أجمعين.

---

(1) انظر مغازي الواقدي، ج1، ص 352-353.

من الأنصار:

4- المنذر بن عمرو بن خنيس بن الخزرج الأنصاري: وكان أمير القوم يومئذ، شهد بيعة العقبة، وكان أحد النقباء الاثنا عشر، شهد بدرًا وأحدًا.

5- معاذ بن ماعص بن قيس بن خلدة[1] الأنصاري رَضِيَ اللَّهُ عَنْهُ: من بني زريق من الخزرج، شهد بدرًا وأحدًا.

6- حرام بن ملحان بن خالد بن حرام الأنصاري رَضِيَ اللَّهُ عَنْهُ: من بني النجار من الخزرج، وهو أخو أم سليم أم أنس بن مالك، وأخو أم حرام امرأة عبادة بن الصامت، شهد بدرًا وأحدًا.

7- سليم بن ملحان بن خالد بن حرام الأنصاري رَضِيَ اللَّهُ عَنْهُ: وهو أخو حرام بن ملحان رَضِيَ اللَّهُ عَنْهُ.

8- الحارث بن الصمة بن عمرو الأنصاري رَضِيَ اللَّهُ عَنْهُ: ولقبه مبذول بن مالك، وكان رسول الله صَلَّى اللَّهُ عَلَيْهِ وَسَلَّمَ قد آخى بينه وبين صهيب رَضِيَ اللَّهُ عَنْهُ، وكان فيمن سار مع رسول الله صَلَّى اللَّهُ عَلَيْهِ وَسَلَّمَ إلى بدر، فكُسر بالروحاء، فرده وضرب له بسهمه وأجره، وشهد معه أحدًا.

9- سهل بن عامر بن سعد بن عمرو بن ثقيف الأنصاري رَضِيَ اللَّهُ عَنْهُ: من بني النجار من الخزرج.

10- الطفيل بن سعد بن عمرو بن ثقيف الأنصاري رَضِيَ اللَّهُ عَنْهُ: من بني النجار من الخزرج.

11- أنس بن معاوية بن أنس الأنصاري رَضِيَ اللَّهُ عَنْهُ: من بني عمرو بن مالك.

12- أبو شيخ أُبَيّ بن ثابت بن المنذر الأنصاري رَضِيَ اللَّهُ عَنْهُ: من بني عمرو بن مالك، وهو أخو حسان بن ثابت[2] رَضِيَ اللَّهُ عَنْهُ.

---

(1) وغير الواقدي يقول: جرح معاذ ببدر ومات منه بالمدينة.

(2) قال ابن الكلبي والواقدي وابن حبان وغيرهم: هو أبو شيخ أبي بن ثابت، وأنه قد شهد بدرًا، وخالفهم ابن إسحاق، فقال: إن أبي بن ثابت مات في الجاهلية، وأن الذي شهد بدرًا وأحدًا هو ابنه أبو شيخ بن أبي بن ثابت.

13- عطية بن عبد عمرو الأنصاري رَضِيَ اللَّهُ عَنْهُ.

14- عروة بن أسماء بن الصلت الأنصاري رَضِيَ اللَّهُ عَنْهُ: حليف بني عمرو بن عوف، وهو من بني سليم (الذين قتلوا الدعاة)، وكان ذا خلة لعامر بن الطفيل - لعنه الله - وقومه من بني سليم حرضوا به أن يؤمنوه (من القتل) يومئذ، قال ابن إسحاق: فأبى، وقال: لا أقبل منهم أمانًا، ولا أرغب بنفسي عن مصارع أصحابي، ثم تقدم فقاتل حتى قتل.

15- مالك بن ثابت الأنصاري رَضِيَ اللَّهُ عَنْهُ: من بني النبيت.

16- سفيان بن ثابت الأنصاري رَضِيَ اللَّهُ عَنْهُ: من بني النبيت.

وقد ذكر كُتاب السير (غير الواقدي) أسماء أخرى[1] من أصحاب رسول الله ﷺ الذين قتلوا يوم (بئر معونة)، وهم:

17- المنذر بن محمد بن عقبة بن أحيحة بن الجلاح الأوسي الأنصاري رَضِيَ اللَّهُ عَنْهُ[2].

18- أبو عبيدة بن عمرو بن محصن الأنصاري رَضِيَ اللَّهُ عَنْهُ.

19- أُبيّ بن معاذ بن أنس بن قيس الأنصاري رَضِيَ اللَّهُ عَنْهُ: من بني النجار من الخزرج.

20- أنس بن معاذ بن أنس بن قيس الأنصاري رَضِيَ اللَّهُ عَنْهُ: أخو أبي بن معاذ[3].

21- قطبة بن عبد عمرو بن مسعود الأنصاري رَضِيَ اللَّهُ عَنْهُ: من بني عبد الأشهل من الأوس.

22- عائذ بن ماعص بن قيس بن خلدة الأنصاري رَضِيَ اللَّهُ عَنْهُ: من بني زريق من الخزرج[4].

---

(1) **انظر:** عيون الأثر في فنون المغازي والسير، ج2، ص 19-20.

(2) **انظر:** ابن حجر، فتح الباري، ص 448، كتاب المغازي، باب غزوة الرجيع وبئر معونة.

(3) **قال الواقدي:** إن أنسًا هذا مات في خلافة عثمان.

(4) **قيل:** بل مات يوم اليمامة.

23- مسعود بن سعد بن قيس بن خلدة الأنصاري رَضِيَ اللَّهُ عَنْهُ: من بني زريق من الخزرج[1].

24- خالد بن ثابت بن النعمان بن الحارث الأنصاري رَضِيَ اللَّهُ عَنْهُ[2].

25- سفيان بن حاطب بن أمية بن حرام الأنصاري رَضِيَ اللَّهُ عَنْهُ.

26- سعد بن عمرو بن ثقيف الأنصاري رَضِيَ اللَّهُ عَنْهُ.

27- عبد الله بن قيس بن حرمة بن أبي قيس الأنصاري رَضِيَ اللَّهُ عَنْهُ.

28- الضحاك بن عبد عمرو بن مسعود الأنصاري رَضِيَ اللَّهُ عَنْهُ: من بني دينار بن النجار[3].

29- عمرو بن معبد بن الأزعر الأنصاري رَضِيَ اللَّهُ عَنْهُ: من بني عمرو بن عوف[4].

30- خالد بن كعب بن عمرو بن عوف الأنصاري رَضِيَ اللَّهُ عَنْهُ: من بني النجار من الخزرج[5].

المبحث الرابع: دروس متفردة من حادثتي الغدر والخيانة

كشفت حادثتيا الرجيع وبئر معونة عما تخبئه الوثنية في ضميرها من غلٍ كامن على الإسلام وأهله، غل عصف بكل مبادئ الشرف والوفاء، حتى إنهم ارتضوا لأنفسهم أحط مظاهر الخيانة والغدر؛ ابتغاء إطفاء غليل أحقادهم على المسلمين. وكان هذا الغل قد كمن أمدًا بعد انتصار بدر، بل لعل هذا النصر أغرى جمهورًا من الضعاف والمترددين بالانضواء تحت علم الدين الجديد، فلما تقلبت الليالي بالمسلمين، ولحقتهم الهزيمة في (أحد)، انفجر الحقد المكبوت، ونهض خصوم الإسلام يناوشونه في كل مكان[6].

---

(1) **قال ابن القداح:** مات بخيبر.

(2) **قيل:** بل مات بمؤتة.

(3) ذكره ابن سعد.

(4) ذكره ابن القداح.

(5) ذكره ابن الكلبي.

(6) الغزالي: فقه السيرة، ص 300-301، مختصرًا، وبتصرف.

على أن الخسائر التي تلاحقت بالمسلمين في (الرجيع) و(بئر معونة) حملت لنا دروسًا متفردة يجب ألا تنسى .. ومن هذه الدروس:

أولا: أهمية القيام بواجب الدعوة:

لم يكن هدف الدعوة لينسى أبدًا على الطريق؛ إنه دائمًا الهدف الأول، وفي الوقت الذي رأى فيه رسول الله ﷺ فرصة سانحة لهذه الدعوة أن تنتشر لم يتوان أبدًا عن بث الدعاة لذلك، وما المحنتان الضخمتان اللتان حلتا بالمسلمين في الرجيع وبئر معونة إلا بسبب ذلك. وكان هذا بعد أشهر قليلة من محنة أحد، ولا شك أن انتشار الدعوة في أرض جديدة، يعني كسب أنصار جدد لها، وهذا ما حدا برسول الله ﷺ أن يبعث ستة إلى عضل والقارة، وأن يبعث أضخم تجمع دعوي إلى نجد، قوامه سبعون من قراء المسلمين وفضلائهم وساداتهم. فنجاح هؤلاء في دعوتهم يعني أن تنضم نجد كلها لدولة الإسلام، وقبائل نجد تشكل خطرًا ضخمًا على الإسلام، وبالتالي ستكون أقوى أسلحته يوم تنضم له. وحتى ندرك بأس قبائل نجد، نذكر موقف عامر بن الطفيل، يوم هدد رسول الله ﷺ بغزو المدينة، وذلك في المرحلة الثانية للدولة المسلمة، في ألف شقراء من الخيل وألف فارس. وما كان من رسول الله ﷺ إلا أن دعا: «اللّهم اكفني عامر بن الطفيل». وكانت رسالة رسول الله ﷺ إلى هذا الطاغية على أمل أن يسلم، وتدخل قواته كلها في حظيرة الإسلام والجهاد. وهذا ما يحسن أن تذكره الحركة الإسلامية دائمًا وفي كل وقت .. إنها دعوة قبل أن تكون ثورة، وإنها مسئولة عن نشر هذه العقيدة وإبلاغها إلى الناس في أي ظرف، ولن تصل إلى النصر حين تنسى الدعوة، وتنسى بناء رجالها على ضوء وجوب دعوة الناس إلى هذا الدين[1].

ثانيًا: عزيمة الجيل القدوة:

وإنَّ لنا لوقفة ترينا كيف يستهين الإيمان بالكثرة، حينما قاتل (في يوم الرجيع) بضعة نفر غرباء عن ديارهم مائتي رجل في عقر دارهم، وكيف يسمو الإيمان عن الضعف والاستخذاء

(1) الغضبان: المنهج الحركي، ص 366-337، مختصرًا.

والترخيص، ويأبى إلا العزيمة؛ فقد كان يمكن لزيد وخبيب أن يظهرا كلمة الكفر، أو أن ينالا من النبي وقلبهما مطمئن بالإيمان، ليكون سببًا في نجاتهما من القتل والصلب، ولكن أولي العزائم الثابتة، والعقائد الصادقة، يأبون إلا أن يموتوا أبطالًا كما عاشوا أبطالًا[1].

ونرى أيضًا ما كان (في بئر معونة) من المنذر بن عقبة رَضِيَ اللَّهُ عَنْهُ حينما كان هو وعمرو بن أمية رَضِيَ اللَّهُ عَنْهُ مع إبل إخوانهم ودوابهم في المراعي، فأقبلا فإذا إخوانهم في دمائهم، والمشركون في المكان لم يغادروه، فتشاورا، فرأى عمرو أن يلحقا برسول الله ﷺ، فيخبراه الخبر، فأبى المنذر أن يرغب بنفسه عن موطن قُتل فيه صاحبه المنذر بن عمرو رَضِيَ اللَّهُ عَنْهُ شهيدًا، وأن يكون كل دوره أن يحكي خبر موت صاحبه للرجال، فقاتل القوم وحده حتى قُتل. وما كان من عروة بن الصلت رَضِيَ اللَّهُ عَنْهُ، وقومه هم (بنو سليم) الذين استعان بهم عامر بن الطفيل للغدر بالمسلمين يومئذ، وقد أرادوا أن يؤمنوه، فأبى، ولم يقبل أن يرغب بنفسه عن مصارع أصحابه، فتقدم فقاتل حتى قُتل.

ثالثًا: رسالة إلى شباب الدعوة: لا تحكموا بسقوط القيادة لأنها خُدعت من عدو:

إن شباب الدعوة كثيرًا ما يحكمون بسقوط القيادة لأنها خُدعت من عدو، ولأنها لم تستطع كشف هويته (وهذا ما جرى في وقتنا الحاضر).

فها هو سيد الخلق الموحى إليه من السماء يُخدع من أعراب همج رعاع، ويرسل الدعاة من خيرة أصحابه رَضِيَ اللَّهُ عَنْهُمْ يدعون للإسلام، فإذا بهم يُسَلَّمون للأعداء من هؤلاء الغادرين، لتكون فاجعة ومحنة لا تقل عن محنة «أحد»، من حيث حجم الخسائر ونوعية الشهداء. «ذلك كله في شهر واحد»، ولم يملك رسول الله ﷺ لهم أكثر من استمطار الرحمة عليهم، والدعاء على الغادرين بهم في قنوته، ولم يكن قادرًا على الثأر لهم من أعدائهم،[2] فلم يتأزم الصف المسلم، ولم يتخلخل أو يضطرب، ولم يفقد ثقته بقيادته التي اجتهدت وفق وسع البشر وطاقتهم.

---

(1) أبو شهبة: السيرة النبيوية، ج2، ص 241.

(2) الغضبان: المنهج الحركي، ص 337-338، بتصرف.

إن ضعف الثقة في صفوف الحركة الإسلامية، سرعان ما يدفع شبابها إلى النقمة على القيادة، وتوجيه السباب والاتهام لها، والطعن في صلاحيتها وإخلاصها ونيتها، وهو أخطر المحن التي يمكن أن تواجه الحركة.

رابعًا: رسالة إلى قادة النهضة: الإعلام .. الإعلام .. الإعلام:

كان حسان بن ثابت رَضِيَ اللَّهُ عَنْهُ من رجالات المؤسسة الإعلامية، فكان يشن الحرب النفسية على الأعداء، ويرد على هجائهم، ويؤلب عليهم أهل الفضائل والخلق من العرب، وكان بجانبه كعب بن مالك، وعبد الله بن رواحة رَضِيَ اللَّهُ عَنْهُمَا. فلم يتركوا حدثًا من أحداث السيرة إلا قالوا فيه شعرًا، وكل قصيدة للكافرين يردون عليها بقصائد، وقد رأينا ما أحدثه شعر حسان من تحريض لربيعة بن عامر بن مالك (ابن أبي براء) على قتل عامر بن الطفيل – لعنه الله – لاستهانته بأبيه وبعهده، وكيف تأثر ربيعة بكلمات حسان، فقام إلى عامر بن الطفيل فطعنه؛ فقد كان الشعر عندهم أوجع من رشق النبل، وقطع السيوف للرقاب.

وكان رسول الله ﷺ يتعهد شعراء المسلمين، ويشجعهم على خوض هذا الباب من الجهاد. فعلى قادة النهضة المعاصرين وعلماء وفقهاء وكوادر الدعوة أن يرعوا الإعلام الإسلامي، ويشجعونه لخوض هذا الجهاد العظيم [1].

إن معركة المشروع الإسلامي والدعوة الإسلامية مع أعدائها هي معركة إعلام في المقام الأول، ولابد للحركة الإسلامية أن توجه طاقاتها لتكوين الاختصاصيين المبدعين في هذا الفن؛ كي يملكوا مقود الفكر والعاطفة؛ ليحققوا القاعدة الأساسية التي يقوم عليها حرم النهضة، فيكونوا كما قال الله ﷻ: ﴿ أَلَمْ تَرَ كَيْفَ ضَرَبَ ٱللَّهُ مَثَلًا كَلِمَةً طَيِّبَةً كَشَجَرَةٍ طَيِّبَةٍ أَصْلُهَا ثَابِتٌ وَفَرْعُهَا فِى ٱلسَّمَآءِ ﴿٢٤﴾ تُؤْتِىٓ أُكُلَهَا كُلَّ حِينٍۭ بِإِذْنِ رَبِّهَا ۗ وَيَضْرِبُ ٱللَّهُ ٱلْأَمْثَالَ لِلنَّاسِ لَعَلَّهُمْ يَتَذَكَّرُونَ ﴿٢٥﴾ ﴾ [إبراهيم].

(1) انظر: السيرة النبوية، الأساس في السنة وفقهها (656/2)؛ والسيرة النبوية للصلابي، ص 541، بتصرف.

وكم كانت الأضرار فادحةً في وقتنا الحاضر حين خاضت الحركة الإسلامية معركةً غير متكافئة مع وحش إعلامي كاذب، يشن حربًا يومية على الإسلام والإسلاميين، حربًا قوامها الكذب والافتراء والتضليل وقلب الحقائق، كان من نتيجتها أن كُذب الصادق، وصُدق الكاذب، وائتُمن الخائن، وخون الأمين، وصار المعروف منكرًا، والمنكر معروفًا، واستخف الرويبضة بعقول العامة، بعد أن صاروا هم مصدر التلقي والحكم على الأحداث، فألبوا الشعوب على الدعاة الصادقين، والمصلحين الأطهار، فكان البلاء وكانت المحن.

المبحث الخامس: غدر بني النضير

ذكرنا أن عمرو بن أمية الضمري رَضِيَ اللَّهُ عَنْهُ لما نجاه الله يوم بئر معونة من القتل، لقي أثناء رجوعه إلى المدينة رجلين من بني عامر، وهي القبيلة التي منها عامر بن الطفيل - لعنه الله - فقتلهما، وهو يظن أنه بذلك قد ثأر لإخوانه الشهداء، ولم يكن رَضِيَ اللَّهُ عَنْهُ يعلم أن لهما عهدًا مع رسول الله ﷺ، فقال له النبي ﷺ: «لقد قتلت رجلين لأدِيَنَّهما» أي لأدفعن الدية إلى أهليهما.

وكانت المعاهدة التي بين رسول الله ﷺ ويهود المدينة تقضي بأن يؤدي كل من الطرفين ما لزمه من الدية إن قتل أحدٌ من سكان المدينة رجلًا بينه أو بين قبيلته وبين أهل المدينة عهد. وكان بين بني عامر هؤلاء ويهود بني النضير أيضًا عهد وحلف، فخرج رسول الله ﷺ إلى بني النضير، يستعينهم في دية الرجلين، فكان الغدر، وكانت الخيانة.

قال المقريزي: (... ثم كانت غزوة بني النضير في ربيع الأول على رأس سبعة وثلاثين شهرًا من مهاجر النبي ﷺ .. وسببها: أن عمرو بن أمية الضميري لما قتل الرجلين من بني عامر، خرج رسول الله ﷺ إلى بني النضير؛ يستعين في ديتهما - لأن بني النضير كانوا حلفاء لبني عامر، وكان ذلك يوم السبت - فصلى في مسجد قباء ومعه رهط من المسلمين، ثم جاء بني النضير، ومعه دون العشرة من أصحابه، فيجدهم في ناديهم، فجلس يكلمهم أن يعينوه في دية الكلابيين اللذين قتلهما عمرو بن أمية. فقالوا: نفعل، اجلس حتى نطعمك. ورسول الله ﷺ مستند إلى بيت، فخلا بعضهم إلى بعض، وأشار

عليهم حييّ بن أخطب أن يطرحوا عليه حجارة من فوق البيت الذي هو تحته فيقتلوه. فانتدب لذلك عمرو بن جحاش؛ ليطرح عليه صخرة، وهيأ الصخرة ليرسلها على رسول الله ﷺ، وأشرف بها، فجاء الوحي بما هموا به، فنهض ﷺ سريعًا كأنه يريد حاجة، ومضى إلى المدينة. فلما أبطأ لحق به أصحابه - وقد بعث في طلب محمد بن مسلمة - فأخبرهم بما همت به يهود، وجاء محمد بن مسلمة، فقال: اذهب إلى يهود بني نضير، فقل لهم: إن رسول الله أرسلني إليكم أن اخرجوا من بلده؛ فإنكم قد نقضتم العهد بما هممتم به من الغدر، وقد أجلتهم عشرًا، فمن رؤي بعد ذلك ضربت عنقه[1].

لم يكن غدر بني النضير إذًا اندفاعًا أعمى من رجل متعصب منهم؛ فالتمالؤ متوفر من قادتهم، ورئيسهم حيي بن أخطب هو صاحب الفكرة والاقتراح، فقد سيطرت عليهم السجية اليهودية وطغت، فدأبهم في تاريخهم نكث المواثيق، وخفر الذمم، وقتل الأنبياء .. لقد قتلوا من قبل يحيى وزكريا أنبياءهم من بين إسرائيل، فكيف لا يقتلون محمدًا وقد نزع منهم النبوة والملك، وهو من بني إسماعيل؟![2].

﴿ وَإِمَّا تَخَافَنَّ مِن قَوْمٍ خِيَانَةً فَانۢبِذْ إِلَيْهِمْ عَلَىٰ سَوَآءٍ ۚ إِنَّ ٱللَّهَ لَا يُحِبُّ ٱلْخَآئِنِينَ ﴿٥٨﴾ ﴾ [الأنفال].

أرسل رسول الله ﷺ محمد بن مسلمة رضي الله عنه إلى حيي بن أخطب وزعماء يهود بني النضير برسالة شفهية: (أن اخرجوا من بلدي؛ فإنكم قد نقضتم العهد بما هممتم به من الغدر). فالهم بالغدر ثابت، ولم يناقش اليهود به؛ لأنهم يعلمون صدق نبوة محمد ﷺ، ولم يعترضوا على الأصل، بل كان ردهم سفيهًا في الاستعداد للحرب ورفض الجلاء: (إنا لا نخرج، فليصنع ما بدا له)[3]، وكان سلام بن مشكم - وهو من سادتهم - قد قال لهم: لا تفعلوا (الغدر) والله ليُخَبَرَنَّ بما هممتم به، وإنه لنقض العهد الذي بيننا وبينه[4].

(1) إمتاع الأسماع، ج1، ص 178-179.
(2) الغضبان: المنهج الحركي، ص 289، بتصرف.
(3) المصدر السابق، ص 290.
(4) طبقات ابن سعد (99/3).

رسالة رسول الله ﷺ إلى يهود بني النضير بانتهاء العهد بينه وبينهم كانت وفق القاعدة الإسلامية العظيمة: ﴿ وَإِمَّا تَخَافَنَّ مِن قَوْمٍ خِيَانَةً فَانۢبِذْ إِلَيْهِمْ عَلَىٰ سَوَآءٍ ۚ إِنَّ ٱللَّهَ لَا يُحِبُّ ٱلْخَآئِنِينَ ﴿٥٨﴾ ﴾ [الأنفال].

قال سيد قطب رَحِمَهُ ٱللَّهُ: إن الإسلام يعاهد ليصون عهده، فإذا خاف الخيانة من غيره نبذ العهد القائم جهرة وعلانية، ولم يخن ولم يغدر، ولم يغش ولم يخدع، وصارح الآخرين بأنه نقض يده من عهدهم، فليس بينه وبينهم أمان .. وبذلك يرتفع الإسلام بالبشرية إلى آفاق من الشرف والاستقامة، وإلى آفاق من الأمن والطمأنينة .. إنه لا يبيت الآخرين بالهجوم الغادر وهم آمنون مطمئنون إلى عهود ومواثيق لم تنقض ولم تنبذ، حتى وهو يخشى الخيانة من جانبهم. فأما بعد نبذ العهد فالحرب خدعة؛ لأن كل خصم قد أخذ حذره.

إن الإسلام لا يبيح الغدر في سبيل الغلب، ولا يسمح للغاية الشريفة أن تستخدم الوسيلة الخسيسة؛ فهو يكره الخيانة، ويحتقر الخائنين الذين ينقضون العهود، ومن ثم لا يحب للمسلمين أن يخونوا أمانة العهد في سبيل غاية، مهما تكن شريفة؛ لأنه لا انفصال بين الوسائل والغايات. والشط الممرع لا يغري المسلم بخوض بركة من الوحل؛ فإن الشط الممرع لابد أن تلوثه الأقدام الملوثة في النهاية، من أجل هذا كله يكره الله الخائنين ويكره الله الخيانة (1).

الحصار:

كانت رسالة رسول الله ﷺ إلى يهود بني النضير مع محمد بن مسلمة رَضِيَ ٱللَّهُ عَنْهُ واضحة محددة: «أن اخرجوا من بلدي؛ فقد هممتم بما هممتم به من الغدر، وقد أجلتكم عشرًا، فمن رُئي بعد ذلك ضربت عنقه»(2)، فصاروا متحيرين، لا يدرون ما يفعلون، بل وأخذوا يتهيئون للخروج وترك المدينة، بيد أن منافقي المدينة، وعلى رأسهم عبد الله بن

(1) في ظلال القرآن.

(2) طبقات ابن سعد (57/2)، مغازي الواقدي (1/363-310).

أبي بن سلول أرسلوا إليهم: أن اثبتوا وتمنعوا، ونحن ننصركم على محمد وصحبه، ولن نسلمكم أبدًا، وإن قوتلتم قاتلنا معكم، وإن أُخرجتم خرجنا معكم، فعادت لليهود ثقتهم، وقويت نفوسهم، واستقر رأيهم على المناوأة. قال الواقدي (... فبعث إليهم أهل النفاق يثبتونهم، ويحرضونهم على المقام، ويعدونهم النصر، فقويت عند ذلك نفوسهم، وحمي حيي بن أخطب، وبعثوا إلى رسول الله ﷺ أنهم لا يخرجون. فعند ذلك أمر الناس بالخروج إليهم)[1].

وتهيأ المسلمون للحرب والقتال، واستخلف رسول الله ﷺ على المدينة ابن أم مكتوم رَضِيَ اللَّهُ عَنْهُ، وجعل على اللواء علي بن أبي طالب رَضِيَ اللَّهُ عَنْهُ، وسار إلى حصون بني النضير في شهر ربيع الأول من السنة الرابعة حتى نزل بدارهم فحاصرهم.

المنافقون من جديد:

كانت وقعة بني النضير جولة جديدة بين المنافقين والجماعة المؤمنة .. فلئن كان التحدي سافرًا في أحد، فلقد خنسوا اليوم، وراحوا يعملون في الخفاء كخفافيش الظلام، ولم يعودوا يملكون القوة على المواجهة، إنما يتآمرون من وراء الأقنعة [2].

قال ابن إسحاق: وقد كان رهط من بني عوف بن الخزرج، منهم عبد الله بن أبي بن سلول ووديعة ومالك بن أبي قوقل وسويد وداعس، قد بعثوا إلى بني النضير أن اثبتوا وتمنعوا؛ فإنا لن نسلمكم ، إن قوتلتم قاتلنا معكم، وإن أخرجتم خرجنا معكم، فتربصوا ذلك من نصرهم، فلم يفعلوا[3].

ويحدثنا القرآن الكريم عن ذلك في قوله تعالى: ﴿أَلَمْ تَرَ إِلَى ٱلَّذِينَ نَافَقُواْ يَقُولُونَ لِإِخْوَٰنِهِمُ ٱلَّذِينَ كَفَرُواْ مِنْ أَهْلِ ٱلْكِتَٰبِ لَئِنْ أُخْرِجْتُمْ لَنَخْرُجَنَّ مَعَكُمْ وَلَا نُطِيعُ فِيكُمْ أَحَدًا أَبَدًا

---

(1) البداية والنهاية 86/4.

(2) الغضبان، المنهج الحركي، ص 255.

(3) تهذيب السيرة، ص 181.

وَإِن قُوتِلْتُمْ لَنَنصُرَنَّكُمْ وَٱللَّهُ يَشْهَدُ إِنَّهُمْ لَكَٰذِبُونَ ﴿١١﴾ لَئِنْ أُخْرِجُوا۟ لَا يَخْرُجُونَ مَعَهُمْ وَلَئِن قُوتِلُوا۟ لَا يَنصُرُونَهُمْ وَلَئِن نَّصَرُوهُمْ لَيُوَلُّنَّ ٱلْأَدْبَٰرَ ثُمَّ لَا يُنصَرُونَ ﴿١٢﴾ ﴾ [الحشر].

أحداث الحصار:

ما أن وصل رد اليهود على رسول الله ﷺ في الصباح، حتى كان ﷺ محاصرهم عصرًا، واستمر مشددًا الحصار عليهم ست ليال (وقيل خمس عشرة ليلة)، فتحصن اليهود بحصونهم المنيعة، وأخذوا يرشقون المسلمين بالنبل والحجارة، وكان قائد النبالة وأمهرهم (عزوك) اليهودي، فكمن له عليّ رَضِيَ اللَّهُ عَنْهُ، فقتله، وحاولت كتيبة من عشرة من اليهود أن تغتال رسول الله ﷺ، فتصدى لهم أبو دجانة رَضِيَ اللَّهُ عَنْهُ في عشرة من المسلمين فقتلوهم عن بكرة أبيهم، وأتوا برءوسهم فطرحت في الآبار، فلم يجرؤ اليهود بعدها على مغادرة حصونهم[1].

ثم أمر رسول الله ﷺ أبا ليلى المازني، وعبد الله بن سلام رَضِيَ اللَّهُ عَنْهُمَا بتقطيع نخيلهم وتحريقها؛ ليكون ذلك أدعى إلى تسليمهم، فجزع اليهود وتصايحوا ونادوه: أن يا محمد قد كنت تنهى عن الفساد وتعيب من صنعه، فما بال قطع النخيل وتحريقها؟!![2].

فاستجاب رسول الله ﷺ لرجائهم، وأبقى على بقية نخيلهم، فانبثقت حيرة بين المسلمين، كادت أن تكون فتنة؛ لما في تقطيع النخيل ثم الإبقاء عليه من تناقض، فأكد القرآن صحة التصرفين بقوله تعالى: ﴿ مَا قَطَعْتُم مِّن لِّينَةٍ[3] أَوْ تَرَكْتُمُوهَا قَآئِمَةً عَلَىٰٓ أُصُولِهَا فَبِإِذْنِ ٱللَّهِ وَلِيُخْزِىَ ٱلْفَٰسِقِينَ ﴿٥﴾ ﴾ [الحشر]. فطمأن الله سبحانه المؤمنين على صواب ما أوقعوه بهؤلاء اليهود من تقطيع نخيلهم وتحريقه، أو تركه قائمًا، فاستقرت قلوبهم المتحرجة، وشُفيت صدورهم مما حاك فيها.

---

(1) انظر: المنهج الحركي، ص 291.

(2) البداية والنهاية 4/86.

(3) **لينة:** شجرة التمر.

الاستسلام والجلاء:

جد الجد، ووقع الرعب في قلوب اليهود، ووجدوا أنفسهم وقد وقفوا وحدهم أمام محمد ﷺ والمسلمين، فقد اعتزلهم إخوانهم من بني قريظة، فلم يعينوهم بسلاح ولا رجال، وخذلهم ابن أبي وجماعته من المنافقين، وتخلى عنهم حلفاؤهم من غطفان .. فقذف الله في قلوبهم اليأس واندحروا، وعلموا أن حصونهم لا تمنعهم من الله شيئًا.

فطلبوا التسليم من رسول الله ﷺ، معلنين استعدادهم للخروج، وهنا اختلف الأمر؛ فلقد كان طلب رسول الله ﷺ منهم أن يخرجوا، لكن الأمر الآن وبعد هذا الحصار لن يكون كما كان من قبل، والحساب بعد الحرب غير الحساب قبلها، فقال عليه الصلاة والسلام لهم: «لا أقبله اليوم، ولكن اخرجوا منها، ولكم دماؤكم (أي: النجاة بأنفسكم) وما حملت الإبل (من أمتعتكم وأموالكم) إلا الحلقة»[1] (أي السلاح).

فلم يقبل حيي بن أخطب وزعماؤهم الخروج بدون سلاح، فتابع رسول الله ﷺ حصارهم من جديد[2]، فجاءت النتيجة بأسرع مما يتصور المسلمون، فقد نزل اليهود على حكم رسول الله ﷺ، الذي أذن لهم بالجلاء عن ديارهم، ولهم ما تستطيع إبلهم حمله من أموال ما عدا السلاح.

قال المقريزي: (وولي إخراجهم محمد بن مسلمة، وكانوا في حصارهم يخربون بيوتهم بأيديهم مما يليهم، والمسلمون يخربون ما يليهم ويحرقون، حتى وقع الصلح، فجعلوا يحملون الخشب، ويحملون النساء والذرية، وشقوا سوق المدينة، والنساءُ في الهوادج عليهن الحرير والديباج وحلي الذهب والمعصفرات، وهن يضربن الدفوف، ويزمرن بالمزامير تجلدًا (كي لا يشمت بهم المسلمون)، وقد صُف لهم الناس وهم يمرون، فكانوا على ستمائة بعير. فنزل أكثرهم بخيبر فدانت لهم، وذهبت طائفة منهم إلى الشام، فكان ممن

---

(1) انظر: ابن هشام (ج3/109).

(2) المنهج الحركي، ص 292.

صار منهم إلى خيبر أكابرهم كحيي بن أخطب وسلام بن أبي الحقيق، وكنانة بن الربيع بن أبي الحقيق، وحزن المنافقون لخروجهم أشد حزن[1].

وأسلم منهم رجلان، فقط: يامين بن عمرو بن جحاش، وأبو سعد بن وهب، فأحرزا أموالهما. واستطاع أحدهما – وهو يامين بن عمرو رَضِيَ اللَّهُ عَنْهُ – أن ينفذ عملية جهادية خاصة في قلب يهود، وهي اغتيال ابن عمه عمرو بن جحش، الذي دبر لاغتيال رسول الله ﷺ، وكانت عملية الاغتيال هذه على يد رجل من قيس، جعل يامين له عشرة دنانير أو خمسة أوسق من تمر على قتله[2].

تقسيم أموال بني النضير:

كان اليهود قبل جلائهم قد حملوا معهم كل ما يمكن حمله .. فحملوا كميات كبيرة من الذهب والفضة، حتى أن سلام بن أبي الحقيق وحده حمل جلد ثور مملوءًا ذهبًا وفضة، وكان يقول – مهددًا للمسلمين: هذا الذي أعددناه لرفع الأرض وخفضها، وإن كنا تركنا نخلًا ففي خيبر النخل[3]، بل وعمدوا إلى بيوتهم فخَرَّبوها؛ ليحملوا منها ما وافقهم، حتى إن أحدهم ليهدم سقف بيته ويحمل بعض أخشابه، أو يهد نجف الباب (أي عتبته) ليأخذ الباب. قال تعالى: ﴿يُخْرِبُونَ بُيُوتَهُم بِأَيْدِيهِمْ وَأَيْدِي الْمُؤْمِنِينَ فَاعْتَبِرُوا يَا أُولِي الْأَبْصَارِ ۝٢﴾ [الحشر].

ومع ذلك، فقد ترك بنو النضير وراءهم نخلًا وغلالًا وسلاحًا[4] ومزارع ودورًا كثيرة. ولما كان المسلمون قد أخذوا كل ذلك بلا حرب ولا قتال، ولم يوجفوا (يسرعوا) عليها بخيل ولا ركاب، فقد صارت (فيئًا) خالصًا لرسول الله ﷺ، يضعها حيث شاء،

---

(1) إمتاع الأسماع 181/1.

(2) انظر: المنهج الحركي للغضبان، ص 293، وحكى ذلك ابن هشام عن ابن إسحاق.

(3) انظر السيرة الحلبية (566/2)، والصلابي (553).

(4) ذكر المباركفوري أنهم تركوا خمسين درعًا وخمسين بيضة، وثلاثمائة وأربعين سيفًا.

فلا تُقَسَّم كما تقسم الغنائم، قال تعالى: ﴿ وَمَآ أَفَآءَ ٱللَّهُ عَلَىٰ رَسُولِهِۦ مِنۡهُمۡ فَمَآ أَوۡجَفۡتُمۡ عَلَيۡهِ مِنۡ خَيۡلٖ وَلَا رِكَابٖ وَلَٰكِنَّ ٱللَّهَ يُسَلِّطُ رُسُلَهُۥ عَلَىٰ مَن يَشَآءُۚ وَٱللَّهُ عَلَىٰ كُلِّ شَيۡءٖ قَدِيرٞ ﴿٦﴾ مَّآ أَفَآءَ ٱللَّهُ عَلَىٰ رَسُولِهِۦ مِنۡ أَهۡلِ ٱلۡقُرَىٰ فَلِلَّهِ وَلِلرَّسُولِ وَلِذِي ٱلۡقُرۡبَىٰ وَٱلۡيَتَٰمَىٰ وَٱلۡمَسَٰكِينِ وَٱبۡنِ ٱلسَّبِيلِ كَيۡ لَا يَكُونَ دُولَةَۢ بَيۡنَ ٱلۡأَغۡنِيَآءِ مِنكُمۡۚ وَمَآ ءَاتَىٰكُمُ ٱلرَّسُولُ فَخُذُوهُ وَمَا نَهَىٰكُمۡ عَنۡهُ فَٱنتَهُواْۚ وَٱتَّقُواْ ٱللَّهَۖ إِنَّ ٱللَّهَ شَدِيدُ ٱلۡعِقَابِ ﴿٧﴾ ﴾ [الحشر].

فجعل رسول الله ﷺ السلاح عدةً في سبيل الله، أما الأموال والنخيل فكان ينفق منها على ذوي القربى واليتامى والمساكين وابن السبيل [1]، وقسم المزارع والدور بين المهاجرين خاصة، فأغناهم الله بذلك وأزال فاقتهم، قال تعالى: ﴿ لِلۡفُقَرَآءِ ٱلۡمُهَٰجِرِينَ ٱلَّذِينَ أُخۡرِجُواْ مِن دِيَٰرِهِمۡ وَأَمۡوَٰلِهِمۡ يَبۡتَغُونَ فَضۡلٗا مِّنَ ٱللَّهِ وَرِضۡوَٰنٗا وَيَنصُرُونَ ٱللَّهَ وَرَسُولَهُۥٓۚ أُوْلَٰٓئِكَ هُمُ ٱلصَّٰدِقُونَ ﴿٨﴾ ﴾ [الحشر].

ولم يأخذ من الفيء من الأنصار إلا أبو دجانة وسهل بن حنيف رَضِيَ اللَّهُ عَنْهُمَا؛ فقد شكوا فقرًا وحاجة.

وقد روى الإمام مسلم في صحيحه في كتاب الجهاد في باب (حكم الفيء) ما كان من الأنصار رَضِيَ اللَّهُ عَنْهُمْ من حب لإخوانهم المهاجرين، وإيثار لا يحجبه فقر ولا خصاصة، فقال: ولما غنم ﷺ أموال بني النضير، دعا ثابت بن قيس، فقال: «ادع لي قومك»، قال ثابت: الخزرج؟، فقال ﷺ: «الأنصار كلها»، فدعا له الأوس والخزرج.

فحمد الله وأثنى عليه بما هو أهله، ثم ذكر الأنصار وما صنعوا بالمهاجرين وإنزالهم إياهم في منازلهم وأموالهم، وأثرتهم على أنفسهم، ثم قال: «إن أحببتم قسمت بينكم وبين المهاجرين ما أفاء الله عليَّ من بني النضير، وكان المهاجرون على ما هم عليه من السكنى في منازلكم وأموالكم، وإن أحببتم أعطيتهم وخرجوا من دوركم».

---

(1) وذكر البلاذري في (فتوح البلدان) أنه ﷺ كان يزرع تحت النخل في أرضهم، فيدخر من ذلك قوت أهله وأزواجه سنة، انظر عيون الأثر 2/51.

فقال سعد بن عبادة وسعد بن معاذ: يا رسول الله، بل تقسم بين المهاجرين، ويكونون في دورنا كما كانوا، وقالت الأنصار: رضينا وسلمنا يا رسول الله [1].

قال سيد قطب رَحِمَهُ ٱللَّهُ: وهذه كذلك صورة وضيئة صادقة، تبرز أهم الملامح المميزة للأنصار، هذه المجموعة التي تفردت بصفات، وبلغت إلى آفاق لولا أنها وقعت بالفعل لحسبها الناس أحلامًا طائرة، ورؤى مجنحة ومثلًا عليا، قد صاغها خيال محلق[2]. وقد قال تعالى في شأنهم: ﴿ وَٱلَّذِينَ تَبَوَّءُو ٱلدَّارَ وَٱلْإِيمَٰنَ مِن قَبْلِهِمْ يُحِبُّونَ مَنْ هَاجَرَ إِلَيْهِمْ وَلَا يَجِدُونَ فِى صُدُورِهِمْ حَاجَةً مِّمَّآ أُوتُوا۟ وَيُؤْثِرُونَ عَلَىٰٓ أَنفُسِهِمْ وَلَوْ كَانَ بِهِمْ خَصَاصَةٌ ۚ وَمَن يُوقَ شُحَّ نَفْسِهِۦ فَأُو۟لَٰٓئِكَ هُمُ ٱلْمُفْلِحُونَ ﴿٩﴾ ﴾ [الحشر].

تعقيب:

قال الشيخ منير الغضبان:

إنها أمة من أمم اليهود تهزم، ويبلغ غيظها أن تهدم بيوتها بأيديها، وترغم على الصلح بترك سلاحها كله غنيمةً للمسلمين، وتمضي في محنتها مشردة في الأرض؛ جزاءً نكالًا لنقضها العهد، وطعنها بالمواثيق، تحمل حليها ومتاعها، وتترك شرفها وسلاحها غنيمة للمؤمنين، كما وصفها الله تعالى: ﴿ هُوَ ٱلَّذِىٓ أَخْرَجَ ٱلَّذِينَ كَفَرُوا۟ مِنْ أَهْلِ ٱلْكِتَٰبِ مِن دِيَٰرِهِمْ لِأَوَّلِ ٱلْحَشْرِ ۚ مَا ظَنَنتُمْ أَن يَخْرُجُوا۟ ۖ وَظَنُّوٓا۟ أَنَّهُم مَّانِعَتُهُمْ حُصُونُهُم مِّنَ ٱللَّهِ فَأَتَىٰهُمُ ٱللَّهُ مِنْ حَيْثُ لَمْ يَحْتَسِبُوا۟ ۖ وَقَذَفَ فِى قُلُوبِهِمُ ٱلرُّعْبَ ۚ يُخْرِبُونَ بُيُوتَهُم بِأَيْدِيهِمْ وَأَيْدِى ٱلْمُؤْمِنِينَ فَٱعْتَبِرُوا۟ يَٰٓأُو۟لِى ٱلْأَبْصَٰرِ ﴿٢﴾ وَلَوْلَآ أَن كَتَبَ ٱللَّهُ عَلَيْهِمُ ٱلْجَلَآءَ لَعَذَّبَهُمْ فِى ٱلدُّنْيَا ۖ وَلَهُمْ فِى ٱلْءَاخِرَةِ عَذَابُ ٱلنَّارِ ﴿٣﴾ ذَٰلِكَ بِأَنَّهُمْ شَآقُّوا۟ ٱللَّهَ وَرَسُولَهُۥ ۖ وَمَن يُشَآقِّ ٱللَّهَ فَإِنَّ ٱللَّهَ شَدِيدُ ٱلْعِقَابِ ﴿٤﴾ ﴾ [الحشر].

فلقد أخرجهم الله تعالى، وقذف في قلوبهم الرعب؛ لأنهم شاقوا الله وحاربوا رسوله. فما بالهم اليوم يعودون ظافرين إلى أرض الميعاد - كما يزعمون - ويكون الخروج

---

(1) صحيح مسلم (1376/3)، رقم (1751).

(2) في ظلال القرآن.

والتهجير لأبناء الأرض الإسلامية؟! من لاجئين إلى نازحين إلى وافدين بعد كل حرب مع اليهود يقع الجلاء لمن يسمون – مسلمين – وتصبح الأرض وراثة ليهود!! إنه السبب نفسه الذي أُجلي اليهود من أجله، وذلك بأنهم (أي: المسلمون) شاقوا الله ورسوله، ومن يشاق الله فإن الله شديد العقاب[1].

* * *

(1) المنهج الحركي، ص 293-294.

الفصل الثالث

مجتمع المدينة في السنة الرابعة من الهجرة

وفاة أبي سلمة رَضِيَ اللَّهُ عَنْهُ:

في هذه السنة توفي أبو سلمة عبد الله بن عبد الأسد بن هلال المخزومي رَضِيَ اللَّهُ عَنْهُ، ابن عمة رسول الله ﷺ برة بنت عبد المطلب، ورضيع رسول الله ﷺ، ارتضعا من ثويبة مولاة أبي لهب، وأحد السابقين الأولين إلى الإسلام .. هاجر هو وزوجته أم سلمة رَضِيَ اللَّهُ عَنْهَا إلى أرض الحبشة، ثم عاد إلى مكة وقد ولد لهما بالحبشة أولاد، ثم هاجر من مكة إلى المدينة، وتبعته أم سلمة رَضِيَ اللَّهُ عَنْهَا - كما تقدم - وشهد بدرًا وأحدًا[1]. فأصيب فيها بجرح، فمكث شهرًا يداويه حتى برأ، ثم بعثه رسول الله ﷺ في سرية في أول هذا العام، فلما عاد انتقض جرحه، فمات لثلاث بقين من جمادى الأولى، فرضي الله عنه وأرضاه[2].

زواج النبي ﷺ من زينب بنت خزيمة رَضِيَ اللَّهُ عَنْهَا:

وفي شهر رمضان من هذه السنة، تزوج رسول الله ﷺ من زينب بنت خزيمة بن الحارث الهلالية رَضِيَ اللَّهُ عَنْهَا، من بني عبد مناف بن هلال بن عامر بن صعصعة، وكانت قبله عند الطفيل بن الحارث بن المطلب، ثم خلف عليها أخوه عبيدة بن الحارث بن المطلب رَضِيَ اللَّهُ عَنْهُ أحد شهداء بدر (وقيل: كانت تحت عبد الله بن جحش رَضِيَ اللَّهُ عَنْهُ، فقتل عنها يوم أحد)، فتزوجها رسول الله ﷺ؛ إكرامًا لها بعد أن فجعت في زوجها. فمكثت عنده ثمانية أشهر، ثم توفيت رَضِيَ اللَّهُ عَنْهَا بالمدينة في آخر ربيع الأول، على رأس تسعة وثلاثين شهرًا من الهجرة.

---

(1) انظر البداية والنهاية 102/4.

(2) أبو شهبة: السيرة النبوية، ج1، ص 245.

موت حفيد ومولد حفيد:

في جمادى الأولى من هذه السنة مات عبد الله بن عثمان بن عفان، ابن السيدة رقية بنت رسول الله ﷺ، وهو ابن ست سنين، فصلى عليه رسول الله ﷺ ودفن في المدينة، ونزل في قبره عثمان بن عفان رَضِيَ اللَّهُ عَنْهُ.

وفي شعبان من هذه السنة، ولدت فاطمة بنت رسول الله ﷺ الحسين بن علي بن أبي طالب، سيد شباب أهل الجنة، فكان رسول الله ﷺ يحبه هو والحسن حبًّا شديدًا، وكان يشمهما ويقبلهما، ويقول: «هما ريحانتي من الدنيا».

زواج النبي ﷺ من أم سلمة رَضِيَ اللَّهُ عَنْهَا:

في شوال من هذه السنة تزوج رسول الله ﷺ من أم سلمة هند بنت أمية المخزومية رَضِيَ اللَّهُ عَنْهَا، وكانت قبله عند ابن عمها أبي سلمة بن عبد الأسد المخزومي رَضِيَ اللَّهُ عَنْهُ، وأنجبت منه سلمة وعمر وزينب ورقية، فأراد رسول الله ﷺ أن يحفظها ويحفظ أولادها من الضيعة، فلما انقضت عدتها خطبها، فتحرجت؛ لكونها شديدة الغيرة، ولكونها كبيرة السن وذات عيال ... وقد روى الإمام أحمد في مسنده أنها رَضِيَ اللَّهُ عَنْهَا قالت: أتاني أبو سلمة يومًا من عند رسول الله ﷺ، فقال: لقد سمعت من رسول الله ﷺ قولًا سررت به، قال: «لا يصيب أحدًا من المسلمين مصيبة فيسترجع عند مصيبته، ثم يقول: اللَّهم آجرني في مصيبتي، وأخلف لي خيرًا منها، إلا آجره الله، وأخلف له خيرًا منها»، قالت أم سلمة: فحفظت ذلك منه، فلما توفي أبو سلمة استرجعت، وقلت: اللَّهمَّ آجرني في مصيبتي، واخلف لي خيرًا منها، ثم رجعت إلى نفسي، فقلت: من أين لي خير من أبي سلمة؟!

فلما انقضت عدَّتي استأذن عليَّ رسول الله ﷺ وأنا أدبغ إهابًا لي، فغسلت يدي من القَرَظ وأذنت له، فوضعت له وسادة أدَم حَشْوها ليف، فقعد عليها، فخطبني إلى نفسه، فلما فرغ من مقالته، قلت: يا رسول الله ما بي أن لا تكون بك الرغبة، ولكني امرأة بي غَيْرة شديدة، فأخاف أن ترى مني شيئًا يعذبني الله به، وأنا امرأة قد دخلت في السن، وأنا ذات عيال، فقال: «أما ما ذكرتِ من الغَيْرة فسيذهبها الله عنك - يعني بسبب دعائه لها

كما في رواية أخرى - وأما ما ذكرتِ من السن فقد أصابني مثل الذي أصابك، وأما ما ذكرت من العيال فإنما عيالك عيالي»، فقالت: قد سلَّمت لرسول الله، فقالت أم سلمة: فقد أبدلني الله بأبي سلمة خيرًا منه، رسولَ الله ﷺ.

وقد أصدقها رسول الله ﷺ فراشًا حشوه ليف، وقدحًا، وصحفة (إناء من آنية الطعام كبير الحجم)، ومجشة (أي رحى).

وكانت أم سلمة رَضِيَ اللَّهُ عَنْهَا راجحة العقل، ويكفيها جودة رأيها يوم الحديبية (كما سيأتي)، وكانت عالمة، وراوية لحديث رسول الله ﷺ، ونزلت بعض آيات القرآن وتشريعاته بسبب سؤالها النبي ﷺ، وتوفيت رَضِيَ اللَّهُ عَنْهَا سنة اثنتين وستين من الهجرة، وهي آخر أمهات المؤمنين وفاة - كما قال الذهبي وابن حجر.

زيد بن ثابت يتعلم كتابة اليهود ولغتهم:

وفي هذه السنة تعلَّم زيد بن ثابت كتابة اليهود، ففي صحيح البخاري تعليقًا، عن خارجة بن زيد بن ثابت، عن زيد بن ثابت «أن رسول الله ﷺ أمره أن يتعلَّم كتاب يهود؛ ليقرأه النبي ﷺ إذا كتبوا إليه، فتعلَّمه في خمسة عشر يومًا»(1). وفي مسند الإمام أحمد أن رسول الله لما قدم المدينة ذُهب بزيد إلى رسول الله، وقالوا: يا رسول الله، هذا غلام من بني النجار معه مما أنزل الله عليك بضع عشرة سورة، فأعجب ذلك رسول الله وقال: «يا زيد تعلَّم لي كتاب يهود، فإني والله ما آمن يهود على كتاب»، قال زيد: فتعلمت له كتابهم، ما مرَّت خمس عشرة ليلة حتى حذقته، وكنت أقرأ له كتبهم إذا كتبوا إليه، وأجيب عنه إذا كتب.

وهذا ذكاء مفرط، وقوة حافظة، ومن لوازم تعلُّم الكتابة تعلم اللسان، وقد ثبت أنه كان يعرف السريانية والعبرانية(2)، وقد كان رَضِيَ اللَّهُ عَنْهُ ممن حفظ القرآن كله على عهد رسول الله، ومن أشهر كتاب الوحي بين يديه، وهو الذي تولى كتابة القرآن وحده في

---

(1) صحيح البخاري، كتاب الأحكام، باب ترجمة الحكام 2631/1.

(2) فتح الباري، ج13، ص 158-159.

الصحف في عهد الصدِّيق، وكان أحد كاتبي المصاحف في عهد عثمان رَضِيَ اللَّهُ عَنْهُ، وأمر رسول الله زيدًا بتعلم لغة اليهود وكتابتهم، يدل على أن الإسلام يحبب إلى المسلم أن يتعلم لغة غيره وكتابتهم، ويتعرف على علومهم ومعارفهم، ولا سيما إذا دعت لذلك ضرورة[1].

رجم يهودي ويهودية:

في هذه السنة رجم رسول الله ﷺ يهودي ويهودية زنيا، بعد أن كان اليهود يخفون آية الرجم عندهم في التوراة.

روى البخاري عن عبد الله بن عمر رَضِيَ اللَّهُ عَنْهُمَا، أن اليهود جاءوا إلى النبي ﷺ برجل منهم وامرأة قد زنيا، فقال لهم: كيف تفعلون بمن زنى منكم؟ فقالوا: نحممهما (أي نسود وجوههما) ونضربهما. فقال: لا تجدون في التوراة الرجم؟ فقالوا: لا نجد فيها شيئًا، فقال لهم عبد الله بن سلام: كذبتم، فائتوا بالتوراة فاتلوها إن كنتم صادقين. فوضع مُدارسها الذي يُدَرِّسُها منهم كفه على آية الرجم (ليخفيها)، فطفق يقرأ ما دون يده وما وراءها ولا يقرأ آية الرجم، فنزع (عبد الله بن سلام) يده عن آية الرجم، فقال: (أي عبد الله بن سلام) ما هذه؟ فلما رأوا ذلك قالوا هي آية الرجم. فأمر بهما فرجما قريبًا من حيث موضع الجنائز عند المسجد، فرأيت صاحبها يحني عليها يقيها الحجارة[2].

وفي ذلك نزل قول الله ﷻ: ﴿وَمِنَ ٱلَّذِينَ هَادُوا۟ سَمَّـٰعُونَ لِلْكَذِبِ سَمَّـٰعُونَ لِقَوْمٍ ءَاخَرِينَ لَمْ يَأْتُوكَ يُحَرِّفُونَ ٱلْكَلِمَ مِنۢ بَعْدِ مَوَاضِعِهِۦ يَقُولُونَ إِنْ أُوتِيتُمْ هَـٰذَا فَخُذُوهُ وَإِن لَّمْ تُؤْتَوْهُ فَٱحْذَرُوا۟ وَمَن يُرِدِ ٱللَّهُ فِتْنَتَهُۥ فَلَن تَمْلِكَ لَهُۥ مِنَ ٱللَّهِ شَيْـًٔا أُو۟لَـٰٓئِكَ ٱلَّذِينَ لَمْ يُرِدِ ٱللَّهُ أَن يُطَهِّرَ قُلُوبَهُمْ لَهُمْ فِى ٱلدُّنْيَا خِزْىٌ وَلَهُمْ فِى ٱلْـَٔاخِرَةِ عَذَابٌ عَظِيمٌ ﴿٤١﴾﴾ [المائدة].

قال الطاهر بن عاشور رَحِمَهُ اللَّهُ: وسبب نزول هذه الآية وما أشارت إليه، هو ما رواه أبو داود والواحدي في أسباب النزول، والطبري في تفسيره، ما محصله: أن اليهود اختلفوا

(1) أبو شهبة: السيرة النبوية، ج2، ص 249.

(2) صحيح البخاري (6819)، كتاب: الحدود، باب: الرجم في البلاط.

في حد الزنى حين زنى فيهم رجل بامرأة من أهل خيبر أو أهل فدك، بين أن يرجم وبين أن يجلد ويحمم، اختلافًا ألجأهم إلى أن أرسلوا إلى يهود المدينة أن يُحَكِّموا رسول الله في شأن ذلك، وقالوا: إن حكم بالتحميم قبلنا حكمه، وإن حكم بالرجم فلا تقبلوه، وأن رسول الله قال لأحبارهم بالمدينة: ما تجدون في التوراة على من زنى إذا أُحصن؟ قالوا: يُحمم ويُجلد ويُطاف به، وأن النبي ﷺ كذبهم، وأعلمهم بأن حكم التوراة هو الرجم على من أحصن، فأنكروا، فأمر بالتوراة أن تنشر، أي تفتح طياتها، وكانوا يلفونها على عود بشكل أسطواني، وجعل بعضهم يقرؤها، ويضع يده على آية الرجم، فقال رسول الله: ارفع يدك، فرفع يده فإذا تحتها آية الرجم، فقال رسول الله: لأكونن أول من أحيا حكم التوراة، فحكم بأن يرجم الرجل والمرأة[1].

وقال سيد قطب رَحِمَهُ ٱللَّهُ: روي أن هذه الآيات نزلت في قوم من اليهود، ارتكبوا جرائم، منها الزنا، وهي من جرائم الحدود في التوراة، ولكن القوم كانوا قد اصطلحوا على غيرها؛ لأنهم لم يريدوا أن يطبقوها على الشرفاء فيهم في مبدأ الأمر. ثم تهاونوا فيها، وأحلوا محلها عقوبات أخرى وضعية، كما صنع المسلمون في هذا الزمان، فلما وقعت منهم هذه الجرائم في عهد رسول الله ﷺ تآمروا على أن يستفتوه فيها، فإذا أفتى لهم بالعقوبات المخففة التي وضعوها عملوا بها، وكانت هذه حجة لهم عند الله، فقد أفتاهم بها رسول، وإن حكم فيها بمثل ما عندهم في التوراة لم يأخذوا بحكمه .. فدسوا بعضهم يستفتيه، ومن هنا حكاية قولهم: ﴿إِنۡ أُوتِيتُمۡ هَٰذَا فَخُذُوهُ وَإِن لَّمۡ تُؤۡتَوۡهُ فَٱحۡذَرُواْ﴾ [المائدة:٤١].

وهكذا بلغ منهم العبث، وبلغ منهم الاستهتار، وبلغ منهم الالتواء أيضًا في التعامل مع الله والتعامل مع رسول الله ﷺ هذا المبلغ .. وهي صورة تمثل أهل كل كتاب حين يطول عليهم الأمد، فتقسوا قلوبهم، ويصبح التخفف من العقيدة وشرائعها وتكاليفها هو الهدف الذي يُبحث له عن الوسائل. أليس الشأن كذلك اليوم بين المسلمين؟! أليسوا يتلمسون الفتوى للاحتيال على الدين لا لتنفيذ الدين؟! أليسوا يتمسحون بالدين أحيانًا

(1) التحرير والتنوير، الجزء السادس، ص 159.

لكي يقر لهم أهواءهم ويوقع بالموافقة عليها؟! فأما إن قال الدين كلمة الحق وحكم الحق فلا حاجة بهم إليه .. ﴿يَقُولُونَ إِنْ أُوتِيتُمْ هَٰذَا فَخُذُوهُ وَإِن لَّمْ تُؤْتَوْهُ فَاحْذَرُوا﴾ [المائدة:٤١]، إنه الحال نفسه، ولعله لهذا كان الله سبحانه يقص قصة بني إسرائيل بهذا الإسهاب وهذا التفصيل، ولتحذر منه أجيال المسلمين، وينتبه الواعون منها لمزالق الطريق(1).

ولا تكن للخائنين خصيما:

حدث في هذه السنة أن سرق رجل من المسلمين من إحدى قبائل الأنصار من بني أبيرق بن ظفر بن الحارث - وكان اسمه (بشير بن أبيرق) - درعًا من جاره رفاعة بن زيد، وكانت الدرع في جراب فيه دقيق، فجعل الدقيق ينتشر من خرق في الجراب حتى انتهى إلى داره، ثم خبأها عند رجل من اليهود، يقال له: «زيد بن السمين»، فلما أصبح رفاعة أخذ يلتمس درعه، فسار خلف ما انتثر من الدقيق حتى انتهى إلى دار بشير بن أبيرق، فحلف له (أنه لم يأخذ الدرع) فتركه، ثم اتبع أثر الدقيق إلى منزل اليهودي، فوجد الدرع عنده، فقال اليهودي: دفعها إليَّ بشير بن أبيرق، فجاء بنو ظفر (وهم قوم بشير) إلى رسول الله ﷺ، وسألوه أن يجادل (يدافع) عن صاحبهم (المسلم)، وظن رسول الله ﷺ أن السارق هو اليهودي؛ لوجود القرائن ضده، فهَمَّ أن يعاقب اليهودي، فأنزل الله ﷻ هذه الآيات من سورة النساء: ﴿إِنَّا أَنزَلْنَا إِلَيْكَ الْكِتَابَ بِالْحَقِّ لِتَحْكُمَ بَيْنَ النَّاسِ بِمَا أَرَاكَ اللَّهُ ۚ وَلَا تَكُن لِّلْخَائِنِينَ خَصِيمًا ﴿١٠٥﴾ وَاسْتَغْفِرِ اللَّهَ ۖ إِنَّ اللَّهَ كَانَ غَفُورًا رَّحِيمًا ﴿١٠٦﴾ وَلَا تُجَادِلْ عَنِ الَّذِينَ يَخْتَانُونَ أَنفُسَهُمْ ۚ إِنَّ اللَّهَ لَا يُحِبُّ مَن كَانَ خَوَّانًا أَثِيمًا ﴿١٠٧﴾﴾ [النساء]، إلى قوله تعالى: ﴿وَمَن يَكْسِبْ إِثْمًا فَإِنَّمَا يَكْسِبُهُ عَلَىٰ نَفْسِهِ ۚ وَكَانَ اللَّهُ عَلِيمًا حَكِيمًا ﴿١١١﴾ وَمَن يَكْسِبْ خَطِيئَةً أَوْ إِثْمًا ثُمَّ يَرْمِ بِهِ بَرِيئًا فَقَدِ احْتَمَلَ بُهْتَانًا وَإِثْمًا مُّبِينًا ﴿١١٢﴾﴾ [النساء].

وكان (بشير بن أبيرق) هذا الذي سرق الدرع واتهم بها اليهودي منافقًا، وقد ظهر نفاقه، وتأكد بعد هذه الحادثة، فقد روى الترمذي عن قتادة بن النعمان رَضِيَ اللَّهُ عَنْهُ، قال: كان

(1) في ظلال القرآن.

أهل بيت منا يقال لهم بنو أبيرق بشر وبشير ومبشر، وكان بشير رجلًا منافقًا، يقول الشعر يهجو به أصحاب رسول الله ﷺ، ثم ينحله (ينسبه إلى) بعض العرب، ثم يقول: قال فلان كذا وكذا، قال فلان كذا وكذا، فإذا سمع أصحاب رسول الله ﷺ ذلك الشعر قالوا: والله ما يقول هذا الشعر إلا هذا الخبيث، وقالوا: ابن الأبيرق قالها.

وكانوا أهل بيت حاجة وفاقة (فقر) في الجاهلية والإسلام، وكان الناس إنما طعامهم بالمدينة التمر والشعير، وكان الرجل إذا كان له يسار (غنى)، فقَدِمَت ضافطة (بضاعة) من الدرمك (الدقيق) ابتاع (اشترى) الرجل منها، فخص بها نفسه، وأما العيال فإنما طعامهم التمر والشعير، فقدمت ضافطة من الشام فابتاع عمي رفاعة بن زيد حملًا من الدرمك، فجعله في مشربة (غرفة) له، وفي المشربة سلاح: درع وسيف، فعُدي عليه (سرق) من تحت البيت فنُقبت المشربة وأُخذ الطعام والسلاح، فلما أصبح أتاني عمي رفاعة، فقال: يا ابن أخي، إنه قد عدي علينا في ليلتنا هذه، ونُقبت مشربتنا، فذُهب بطعامنا وسلاحنا. فتحسسنا في الدار (الحي الذي نسكنه) وسألنا، فقيل لنا: قد رأينا بني أبيرق استوقدوا (أي صنعوا طعامًا) في هذه الليلة (رغم فقرهم)، ولا نرى فيما نرى إلا على بعض طعامكم (الذي سرقوه). قال: وكان بنو أبيرق قالوا – ونحن نسأل في الدار: والله ما نرى صاحبكم (الذي سرقكم) إلا لبيد بن سهل – رجل منا له صلاح وإسلام – فلما سمع لبيد اخترط (حمل) سيفه وقال: أنا أسرق؟! فوالله ليخالطنكم هذا السيف أو لتبينُنَّ هذه السرقة. قالوا: إليك عنه أيها الرجل، فما أنت بصاحبها (الذي سرقها)، فذكرت ذلك له (أي لعمه)، فسألنا في الدار حتى لم نشك أنهم أصحابها (الذين سرقوها)، فقال لي عمي: يا ابن أخي، لو أتيت رسول الله فقلت: إن أهل بيت منا أهل جفاء، عمدوا إلى عمي رفاعة بن زيد فنقبوا مشربة له، وأخذوا سلاحه وطعامه، فليردوا علينا سلاحنا، فأما الطعام فلا حاجة لنا فيه. فقال النبي ﷺ «سآمُر في ذلك»، فلما سمع بنو أبيرق أتوا رجلًا منهم يقال له: أسير بن عروة فكلموه في ذلك، فاجتمع في ذلك ناس من أهل الدار، فقالوا: يا رسول الله، إن قتادة بن النعمان وعمه عمدوا إلى أهل بيت منا أهل إسلام وصلاح يرمونهم بالسرقة من غير بينة ولا ثبت. قال قتادة: فأتيت رسول الله

ﷺ فكلمته، فقال: (عمدت) إلى أهل بيت ذُكر منهم إسلام وصلاح ترميهم بالسرقة على غير ثبت ولا بينة، قال: فرجعت (من عنده) ولوددت أني خرجت من بعض مالي ولم أكلم رسول الله ﷺ في ذلك، فأتاني عمي رفاعة، فقال: يا ابن أخي، ما صنعت؟ فأخبرته بما قال لي رسول الله ﷺ، فقال: الله المستعان. فلم يلبث أن نزل القرآن: ﴿إِنَّآ أَنزَلْنَآ إِلَيْكَ ٱلْكِتَٰبَ بِٱلْحَقِّ لِتَحْكُمَ بَيْنَ ٱلنَّاسِ بِمَآ أَرَىٰكَ ٱللَّهُ ۚ وَلَا تَكُن لِّلْخَآئِنِينَ خَصِيمًا ﴿١٠٥﴾﴾ [النساء].

فلما نزل القرآن، أتى رسول الله ﷺ بالسلاح، فرده إلى رفاعة، فقال قتادة: لما أتيت عمي بالسلاح - وكان شيخًا قد عمي أو عشي في الجاهلية - وكنت أرى إسلامه مدخولًا (غير خالص)، فلما أتيته بالسلاح قال: يا ابن أخي، هو في سبيل الله فعرفتُ أن إسلامه كان صحيحًا، فلما نزل القرآن (يفضح بشيرًا) لحق بشير بالمشركين، فنزل على سلافة بنت سعد بن سمية، فأنزل الله: ﴿وَمَن يُشَاقِقِ ٱلرَّسُولَ مِنۢ بَعْدِ مَا تَبَيَّنَ لَهُ ٱلْهُدَىٰ وَيَتَّبِعْ غَيْرَ سَبِيلِ ٱلْمُؤْمِنِينَ نُوَلِّهِۦ مَا تَوَلَّىٰ وَنُصْلِهِۦ جَهَنَّمَ ۖ وَسَآءَتْ مَصِيرًا ﴿١١٥﴾ إِنَّ ٱللَّهَ لَا يَغْفِرُ أَن يُشْرَكَ بِهِۦ وَيَغْفِرُ مَا دُونَ ذَٰلِكَ لِمَن يَشَآءُ ۚ وَمَن يُشْرِكْ بِٱللَّهِ فَقَدْ ضَلَّ ضَلَٰلًۢا بَعِيدًا ﴿١١٦﴾﴾ [النساء].

تحريم الخمر:

في هذا العام كان تحريم الخمر تحريمًا باتًّا بعد أن تدرج الشارع الحكيم في تحريمها. وكان تحريمها في حصار بني النضير.

قال ابن هشام: وذلك (أي غزو بني النضير) في شهر ربيع الأول، فحاصرهم ست ليالٍ ونزل تحريم الخمر.

قال القرطبي رَحِمَهُ ٱللَّهُ: وتحريم الخمر كان بتدريج ونوازل كثيرة؛ فإنهم كانوا مولعين بشربها، وأول ما نزل في شأنها: ﴿يَسْـَٔلُونَكَ عَنِ ٱلْخَمْرِ وَٱلْمَيْسِرِ ۖ قُلْ فِيهِمَآ إِثْمٌ كَبِيرٌ وَمَنَٰفِعُ لِلنَّاسِ وَإِثْمُهُمَآ أَكْبَرُ مِن نَّفْعِهِمَا﴾ [البقرة:٢١٩]، أي: في تجارتهم، فلما نزلت هذه الآية، تركها بعض الناس، وقالوا: لا حاجة لنا فيما فيه إثم كبير، ولم يتركها بعض الناس، وقالوا: نأخذ منفعتها ونترك إثمها، فنزلت هذه الآية: ﴿لَا تَقْرَبُوا۟ ٱلصَّلَوٰةَ وَأَنتُمْ سُكَٰرَىٰ﴾ [النساء:٤٣]،

فتركها بعض الناس، وقالوا: لا حاجة لنا فيها يشغلنا عن الصلاة، وشربها بعض الناس في غير أوقات الصلاة، حتى نزلت: ﴿ يَٰٓأَيُّهَا ٱلَّذِينَ ءَامَنُوٓاْ إِنَّمَا ٱلۡخَمۡرُ وَٱلۡمَيۡسِرُ وَٱلۡأَنصَابُ وَٱلۡأَزۡلَٰمُ رِجۡسٞ مِّنۡ عَمَلِ ٱلشَّيۡطَٰنِ فَٱجۡتَنِبُوهُ لَعَلَّكُمۡ تُفۡلِحُونَ ﴿٩٠﴾ إِنَّمَا يُرِيدُ ٱلشَّيۡطَٰنُ أَن يُوقِعَ بَيۡنَكُمُ ٱلۡعَدَٰوَةَ وَٱلۡبَغۡضَآءَ فِي ٱلۡخَمۡرِ وَٱلۡمَيۡسِرِ وَيَصُدَّكُمۡ عَن ذِكۡرِ ٱللَّهِ وَعَنِ ٱلصَّلَوٰةِۖ فَهَلۡ أَنتُم مُّنتَهُونَ ﴿٩١﴾ ﴾ [المائدة]، فصارت حرامًا عليهم، حتى صار يقول بعضهم: ما حرم الله شيئًا أشد من الخمر(1).

وقال الإمام الجصاص: ولم يختلف أهل النقل في أن الخمر قد كانت مباحة في أول الإسلام، وأن المسلمين قد كانوا يشربونها بالمدينة، ويتبايعون بها، مع علم النبي ﷺ بذلك، وإقرارهم عليها، إلى أن حرمها الله تعالى (2).

ومهما يكن من شيء، فقد كانت الخمر ممتزجة بلحوم العرب ودمائهم، حتى بلغ من بعضهم – وهو أبو محجن الثقفي – أن قال في الجاهلية:

إذا مت فادفني إلى جنب كرمة ... تروِّي عظامي بعد موتي عروقها

ولا تدفنَّي بالفلاة فإنني ... أخاف إذا ما مت أن لا أذوقها

لذلك كان حكمة الشارع الحكيم أن حرمها بالتدريج؛ فإن النفوس البشرية يشق عليها ترك ما تعودته دفعة واحدة، فقد نزل فيها أول ما نزل قوله سبحانه:

﴿ يَسۡـَٔلُونَكَ عَنِ ٱلۡخَمۡرِ وَٱلۡمَيۡسِرِۖ قُلۡ فِيهِمَآ إِثۡمٞ كَبِيرٞ وَمَنَٰفِعُ لِلنَّاسِ وَإِثۡمُهُمَآ أَكۡبَرُ مِن نَّفۡعِهِمَا ﴾ [البقرة:٢١٩].

والآية وإن لم تقطع بالتحريم إلا أن فيها ترجيح جانب الحرمة على الحلِّ، فمن ثَمَّ تركها قوم واستمر على شربها آخرون.

ثم إن بعض المسلمين – وهو عبد الرحمن بن عوف – صنع طعامًا لأصحابه، فأكلوا وشربوا، ثم قام أحدهم يصلِّي بهم وهو لا يعي، فقرأ: «قل يا أيها الكافرون .. أعبد ما تعبدون»،

(1) تفسير القرطبي، ج4، ص 2283.

(2) أحكام القرآن للجصاص، ج1، ص 392.

فترك حرف النفي في الآية وهو (لا)، فأنزل الله سبحانه:

﴿ يَٰٓأَيُّهَا ٱلَّذِينَ ءَامَنُواْ لَا تَقۡرَبُواْ ٱلصَّلَوٰةَ وَأَنتُمۡ سُكَٰرَىٰ حَتَّىٰ تَعۡلَمُواْ مَا تَقُولُونَ ﴾ [النساء:٤٣].

فقالوا: ما لنا ولشيء يمنعنا عن صلاتنا، فكانوا يتركونها عند الصلوات، وفي الأوقات القريبة منها، حتى إذا ما صلَّوا العشاء شربوا وناموا، فيصحون وقد زال أثر السكر، وبذلك صار من السهل تحريمها تحريمًا باتًّا، وهذا ما كان.

فقد صنع بعض المسلمين طعامًا، فأكلوا وشربوا حتى لعبت الخمر برءوسهم، فتهاجوا بالأشعار، فتشاجروا حتى شجَّ أحدهم رأس الآخر بعظم، فقال الفاروق عمر: اللَّهم بيِّن لنا في الخمر بيانًا شافيًا، فأنزل الله سبحانه:

﴿ يَٰٓأَيُّهَا ٱلَّذِينَ ءَامَنُوٓاْ إِنَّمَا ٱلۡخَمۡرُ وَٱلۡمَيۡسِرُ وَٱلۡأَنصَابُ وَٱلۡأَزۡلَٰمُ رِجۡسٌ مِّنۡ عَمَلِ ٱلشَّيۡطَٰنِ فَٱجۡتَنِبُوهُ لَعَلَّكُمۡ تُفۡلِحُونَ ﴿٩٠﴾ إِنَّمَا يُرِيدُ ٱلشَّيۡطَٰنُ أَن يُوقِعَ بَيۡنَكُمُ ٱلۡعَدَٰوَةَ وَٱلۡبَغۡضَآءَ فِي ٱلۡخَمۡرِ وَٱلۡمَيۡسِرِ وَيَصُدَّكُمۡ عَن ذِكۡرِ ٱللَّهِ وَعَنِ ٱلصَّلَوٰةِۖ فَهَلۡ أَنتُم مُّنتَهُونَ ﴿٩١﴾ ﴾ [المائدة].

فقال عمر: انتهينا .. انتهينا، وبذلك حرمت الخمر تحريمًا باتًّا قاطعًا، روى هذا الإمام أحمد، وأصحاب السنن.

ولما حرمت نادى منادي رسول الله: ألا إن الخمر قد حرمت، فقام الناس إلى ما عندهم منها فأهرقوه، حتى سالت بها طرق المدينة، وبذلك نجح الإسلام - أيما نجاح - في تحريمها، على تأصُّلها فيهم، وفي العصر الحديث حاولوا تحريمها بسطوة القانون ففشلت، وأين قانون الإنسان من شريعة الرحمن؟! فاعتبروا يا أولي الأبصار.

وروي أنه لما نزلت آية التحريم البات، قال ناس: يا رسول الله، فكيف بمن قتلوا في سبيل الله أو ماتوا على فراشهم وكانوا يشربونها؟ فأنزل الله سبحانه قوله:

﴿ لَيۡسَ عَلَى ٱلَّذِينَ ءَامَنُواْ وَعَمِلُواْ ٱلصَّٰلِحَٰتِ جُنَاحٌ فِيمَا طَعِمُوٓاْ إِذَا مَا ٱتَّقَواْ وَّءَامَنُواْ وَعَمِلُواْ ٱلصَّٰلِحَٰتِ ثُمَّ ٱتَّقَواْ وَّءَامَنُواْ ثُمَّ ٱتَّقَواْ وَّأَحۡسَنُواْۚ وَٱللَّهُ يُحِبُّ ٱلۡمُحۡسِنِينَ ﴿٩٣﴾ ﴾ [المائدة][1].

---

(1) والحديث رواه البخاري برقم (2421).

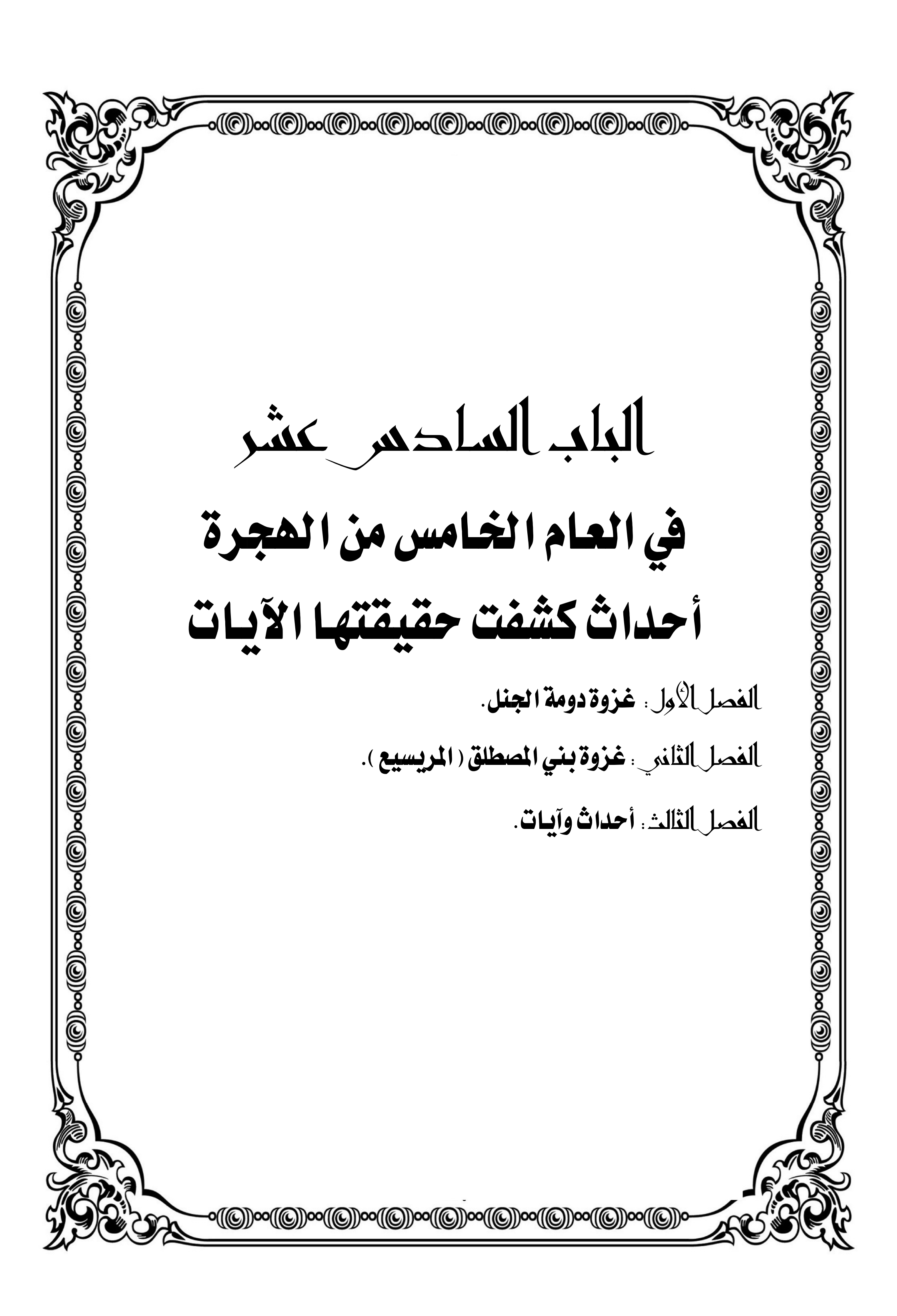
فالآية إعذار لمن كان يشربها قبل التحريم ومات على ذلك، وليس فيها إباحة شربها؛ لأن شربها لا يجامع التقوى بأي حال من الأحوال.

قال الشيخ القرضاوي:

(وهذه السنة الإلهية في رعاية التدرج ينبغي أن تتبع في سياسة الناس، وعندما يُراد تطبيق نظام الإسلام في الحياة، واستئناف حياة إسلامية متكاملة، فإذا أردنا أن نقيم مجتمعًا إسلاميًّا حقيقيًّا فلا نتوهم أن ذلك يتحقق بجرة قلم، أو بقرار يصدر من ملك أو رئيس، أو مجلس قيادة أو برلمان، إنما يتحقق ذلك بطريقة التدرج، أي بالإعداد والتهيئة الفكرية والنفسية والأخلاقية والاجتماعية، وهو المنهج نفسه الذي سلكه النبي ﷺ لتغيير الحياة الجاهلية إلى حياة إسلامية)[1].

* * *

(1) الخصائص العامة للإسلام، ص 167.



الباب السادس عشر

في العام الخامس من الهجرة

أحداث كشفت حقيقتها الآيات

الفصل الأول: **غزوة دومة الجندل.**

الفصل الثاني: **غزوة بني المصطلق (المريسيع).**

الفصل الثالث: **أحداث وآيات.**

تميز العام الخامس من الهجرة بأحداث ومواقف مبهمة، ذات جوانب خفية، أثارت لغطًا في المجتمع المسلم، وأحدثت فيه بلبلة واضطرابًا، كاد أن يصل إلى حد الفتنة، لولا أن أنزل الله عز وجل فيها آيات كاشفات، جلت الحقيقة وفضحت الكاذبين والمرجفين من المنافقين، كما شهدت هذه السنة غزوات ومعارك، تُوجت بغزوة الخندق، آخر الحروب الدفاعية التي خاضها المسلمون ضد قريش والمشركين.

الفصل الأول

غزوة دومة الجندل

زمانها:

يتفق جمهور أهل المغازي والسير أنها كانت في ربيع الأول سنة خمس من الهجرة، وبالتحديد لخمس ليالٍ بقين من ربيع الأول، على رأس تسعة وأربعين شهرًا من الهجرة [1].

سببها:

بعد أن عاد رسول الله ﷺ من غزوة بدر الثانية (بدر الموعد)، مكث في المدينة ستة أشهر، ثم بلغه أن جمعًا من المشركين بدومة الجندل يقطعون الطريق وينهبون ما يمر بهم من قوافل، وأنهم قد حشدوا جموعهم يريدون المدينة.

ودومة[2] الجندل بلدة تبعد شمالًا عن المدينة مسيرة خمس عشرة ليلة، وعن حدود الغساسنة الموالين للروم مسيرة خمس ليال، وكان بها سوق عظيم وتجارة؛ لأنها تقع على الحدود بين الحجاز والشام، ومع ذلك كان أهلها يظلمون الناس ويقطعون الطريق، وينهبون ما مر بهم من قوافل .. فأراد النبي ﷺ أن يؤدبهم، وأن يُسمع من حولهم من

---

(1) انظر: السيرة النبوية لمهدي رزق الله، ص 429.

(2) دُومة بضم الدال.

الأعراب، ومن جاورهم من الروم والغساسنة، فلا يفكرون في حربه، وأن يفرض نفوذ دولته على هذه المنطقة، فيؤمن لسكانها طريق تجارتهم، فلا تتعرض قوافلهم للسلب والنهب، وأراد - قبل كل ذلك وبعده - أن يحمل دعوة الله ويبلغها سكان تلك الديار، فكانت غزوة «دومة الجندل» لنشر الدعوة، وتثبيت أركان الدولة.

وقد روى «الواقدي» ذلك بسنده عن شيوخه، عن جماعة من السلف، قالوا: أراد رسول الله ﷺ أن يدنو إلى أداني الشام، وقيل له: إن ذلك مما يفزع قيصر، وذُكر له أن بدومة الجندل جمعًا كبيرًا، وأنهم يظلمون من مر بهم، وكان لها سوق عظيم، وهم يريدون أن يدنوا من المدينة[1].

الغزوة:

استخلف رسول الله ﷺ على المدينة سِباع بن عُرْفطة الغفاري رضي الله عنه، وخرج في ألف مقاتلٍ من أصحابه رضي الله عنهم، وأخذ رجلًا من بني عُذرة دليلًا للطريق يقال له: مذكور.

خرج يسير الليل ويكن النهار؛ حتى يفاجئ أعداءه، فلما انتهى إليهم كانوا قد علموا بمقدمه، فرعبوا وتفرقوا وفروا هاربين، فغنم من نعمهم وماشيتهم، وأصاب الكثير. وأسر محمد بن مسلمة رضي الله عنه رجلًا منهم، وأحضره إلى رسول الله ﷺ، فعرض عليه الإسلام فأسلم. وأقام ﷺ هناك أيامًا، أرسل فيها السرايا هنا وهناك، فلم يثبت للقائهم هارب، وعاد ﷺ إلى المدينة بعد أن غاب عنها شهرًا، ولم يلق قتالًا.

موادعة عيينة بن حصن:

وصالح رسول الله ﷺ - وهو عائد - عيينة بن حصن الفزاري، وهو الذي كان يسميه النبي ﷺ: (الأحمق المطاع)؛ لأنه كان يتبعه بنو فزارة، فلا يسأله أحدٌ منهم فيم غضب (أي فيم غضب فأعلن الحرب على قوم)، وقد أقطعه الرسول ﷺ أرضًا يرعى فيها دوابه على بعد ست وثلاثين ميلًا من المدينة؛ لأن أرضه كانت قد أجدبت[2].

(1) البداية والنهاية 4/105.

(2) انظر: السيرة النبوية لأبي شهبة، ج2، ص 252.

الفصل الثاني

غزوة بني المصطلق (المريسيع)

من هم (بنو المصطلق)؟ :

يتفق النسابون على أن بني المصطلق بطن من بطون قبيلة خزاعة. ويرى أكثرهم أن خزاعة قبيلة قحطانية يمنية، ويلتقون في نسبهم مع الأوس والخزرج في عمرو بن عامر، الجد الثاني للأوس والخزرج، والرابع لبني المصطلق. وكانوا يسكنون قديدًا وعسفان في منطقة متوسطة لديار خزاعة المنتشرة على الطريق من المدينة إلى مكة، ما بين مَرّ الظهران [1]، وبين الأبواء[2]. ولهذا الموقع أهمية كبرى في الصراع بين المسلمين وقريش على طريق القوافل التجارية. وقد عرفت بموقفها المسالم للمسلمين في هذا الصراع، على الرغم مما عليه خزاعة من الشرك، ووجود صنم مناة على هضبة المُشَلَّل بقَدِيد من ديارهم، ويحج إليه العرب، وعلى الرغم من قربهم إلى مكة، وما كان بينهم وبين قريش من أحلاف قديمة؛ وربما كان ذلك لسببين رئيسين.

الأول: لصلاتهم القديمة بعبد المطلب جد الرسول ﷺ ومحالفتهم له؛ إذ إن العداء القديم بينهم وبين قريش والذي انتهى بإخراجهم من مكة في العهود القديمة، قد تبلور قبل ظهور الإسلام، واتخذ شكل صراع شبه دائم بينهم وبين بني بكر من كنانة، الذين كانوا في حلف مع قريش، وقد دفعهم هذا الوضع الأمني الخطير إلى السعي لمحالفة عبد المطلب. وقد روي أن الرسول ﷺ قد أقر هذا الحلف عندما جاءته خزاعة بنص الوثيقة يوم الحديبية في العام السادس الهجري.

ولعل وجود مناة في ديارهم والاستفادة من ذلك ماديًّا ومعنويًّا هو الذي أبطأ بحركة انتشار الإسلام وسط خزاعة عامة وبني المصطلق خاصة، كما كان الحال في مكة [3].

---

(1) تبعد عن مكة ثلاثين كيلو مترًا.

(2) تبعد عن مكة 240 كيلو مترًا.

(3) **انظر:** السيرة لمهدي رزق الله، ص 431-432.

سبب الغزوة:

وأول موقف وقفته خزاعة ضد المسلمين هو انضمامهم لجيش الأحابيش[1] الذي ساند الجيش المكي في غزوة أحد.

وعندما أصابت قريش ما أصابت من المسلمين في أحد، تجرأ فيمن تجرأ من الأعراب على المسلمين بنو المصطلق. فقد أخذ زعيمهم الحارث بن أبي ضرار في جمع السلاح والرجال وتأليب القبائل المجاورة؛ للقيام بهجوم على المدينة. وعندما شعر الرسول ﷺ بهذه الحركة المريبة، أرسل بريدة بن الحصيب الأسلمي؛ للتأكد من نيتهم، وأظهر لهم بريدة أنه جاء لعونهم، فتأكد من نيتهم، فأخبر الرسول ﷺ بذلك[2].

أحداث الغزوة:

في يوم الاثنين لليلتين خلتا من شهر شعبان من السنة الخامسة للهجرة، خرج رسول الله ﷺ من المدينة في سبعمائة مقاتل[3]، وثلاثين فرسًا[4] متوجهًا إلى بني المصطلق. واستخلف على المدينة أبا ذر الغفاري رَضِيَ اللَّهُ عَنْهُ - وقيل غيره - وأعطى راية المهاجرين إلى أبي بكر رَضِيَ اللَّهُ عَنْهُ، وراية الأنصار إلى سعد بن عبادة رَضِيَ اللَّهُ عَنْهُ. قال ابن هشام: وكان شعار المسلمين: يا منصور، أمت أمت.

وخرج مع المسلمين في هذه الغزوة عدد كبير من المنافقين، كان يغلب عليهم التخلف في الغزوات السابقة، وذلك بما رأوا من اطراد النصر للمسلمين، وطمعًا في الغنيمة[5].

وانتهى المسلمون إلى ماء لبني المصطلق يقال له (المريسيع)، من ناحية قديد إلى الساحل، فأغاروا عليهم وهم غافلون وأنعامهم تسقى على الماء، دون أن ينذروهم؛

---

(1) **الأحابيش:** هم من تحبشوا (أي اجتمعوا) مع قريش من غيرها.

(2) السيرة لمهدي رزق الله، ص 432.

(3) الذهبي، تاريخ الإسلام، المغازي، ص 259.

(4) الواقدي (1/405).

(5) البوطي: فقه السيرة، ص 298.

لأنهم قد بلغتهم دعوة الإسلام، واشتركوا مع الكفار في غزوة أحد، وكانوا يجمعون الجموع لحرب المسلمين، وقد روى البخاري ومسلم في صحيحيهما: (أغار رسول الله ﷺ على بني المصطلق وهم غارون - أي غافلون - وأنعامهم تُسقى على الماء، فقتل مقاتِلتهم، وسبى سبيهم، وأصاب يومئذ جويرية ابنة الحارث)[1].

ويذكر الواقدي[2] أن المسلمين قتلوا عشرة من بني المصطلق، وأسروا سائرهم ممن وجدوه على الماء، وهم مائتا أهل بيت، وغنموا ألفي بعير وخمسة آلاف شاة. ويذكر ابن إسحاق[3] أن الأسرى كانوا مائة أهل بيت، وهو الصحيح. ويذكر الزرقاني أنهم أكثر من سبعمائة، ولا تعارض بين القولين كما قال؛ لأن أهل البيت الواحد يمكن أن يكونوا أكثر من واحد[4].

هشام بن صُبابة:

أصيب رجل من المسلمين من بني كلب بن عوف، يدعى هشام بن صُبَابَة، أخو مقيس بن صُبَابَة، وذلك أثناء المعركة .. أصابه رجل من الأنصار، من رهط عُبَادَة بن الصامت، وهو يرى أنه من العدو، فقتله خطأ. وقدم مقيس من مكة مظهرًا الإسلام، وطالب بدية أخيه، فأُعطي الدية، ولكنه لم يكتف بهذا، بل عدا على قاتل أخيه فقتله، وفر إلى مكة مرتدًّا. وقد أهدر النبي ﷺ دمه يوم فتح مكة، فقتله نُمَيْلَة بن عبد الله، وكان من قومه [5].

جويرية بنت الحارث .. أعظم النساء بركة على قومها:

روت عائشة رَضِيَ اللَّهُ عَنْهَا قصة جويرية بنت الحارث رَضِيَ اللَّهُ عَنْهَا، فقالت: (لما قسم رسول الله ﷺ سبايا بني المصطلق وقعت جويرية بنت الحارث في سهم لثابت بن قيس بن

(1) الفتح (264/15، حديث: 2541)، صحيح مسلم (135/3،حديث: 1730).

(2) الواقدي، المغازي (410/1).

(3) ابن هشام (409/3).

(4) السيرة لمهدي رزق الله، ص 433.

(5) المصدر السابق، ص 434.

شماس، أو لابن عم له، فكاتبته على نفسها (أي: تدفع له مالًا تفتدي به نفسها من السبي)، وكانت امرأة حلوة ملحة، لا يراها أحد إلا أخذت بنفسه، فأتت رسول الله ﷺ؛ لتستعينه في كتابتها.

قالت: فوالله ما أن رأيتها على باب حجرتي فكرهتها، وعرفت أنه سيرى منها ما رأيت، فدخلت عليه فقالت: يا رسول الله، أنا جويرية بنت الحارث بن أبي ضرار، سيد قومه، وقد أصابني من البلاء ما لم يخف عليك، فوقعت في السهم لثابت بن قيس بن شماس، أو لابن عم له، فكاتبته على نفسي، فجئتك أستعينك (تعينني بالمال) على كتابتي.

قال: «فهل لك في خير من ذلك».

قالت: وما هو يا رسول الله؟

قال: «أقض عنك كتابك وأتزوجك».

قالت: نعم يا رسول الله قد فعلت.

قالت: وخرج الخبر إلى الناس، أن رسول الله ﷺ قد تزوّج جويرية بنت الحارث.

فقال الناس: أصهار رسول الله ﷺ، فأرسلوا ما بأيديهم (أي أطلقوا أسراهم).

قالت: فلقد أعتق بتزويجه إياها مائة أهل بيت من بني المصطلق، فما أعلم امرأة أعظم بركة على قومها منها)(1).

وجاء الحارث بن أبي ضرار - بعد الوقعة - بفداء ابنته إلى المدينة، فدعاه النبي ﷺ إلى الإسلام، فأسلم.

وكانت غزوة المريسيع من الغزوات الفريدة المباركة، التي أسلمت عقبها قبيلة بأسرها. وكان الحدث الذي أسلمت القبيلة من أجله، هو أن الصحابة حرروا وردوا الأسرى الذين أصابوهم إلى ذويهم بعد أن تملكوهم باليمين في قسم الغنائم، واستكثروا

(1) البداية والنهاية (4/160-161).

على أنفسهم أن يتملكوا أصهار نبيهم عليه الصلاة والسلام، وحيال هذا العتق الجماعي وإزاء هذه الأريحة الفذة، دخلت القبيلة كلها في دين الله(1).

جواز العزل:

روى البخاري ومسلم، أن بعض الصحابة استفتى رسول الله ﷺ في شأن العزل في هذه الغزوة - وذلك عندما قسَّم رسول الله ﷺ السبي من النساء - فقال لهم: «ما عليكم ألا تفعلوا؛ ما من نسمة كائنة إلى يوم القيامة إلا وهي كائنة». أي ليس عليكم وزر في العزل؛ لأن ما قدر الله واقع لا ريب فيه، سواء عزلتم أو لم تعزلوا، فلا يمتنع القدر بعملكم .. والعزل هو عزل الرجل ماءه عن زوجته إذا جامعها لئلا تحمل، فيقذفه خارج فرجها، وقد أجازه جمهور الفقهاء، بشرط أن يكون برضا الزوجة به؛ لأن ذلك قد يؤذيها نفسيًّا، فلا يفعل ذلك بغير رضاها.

* * *

(1) **انظر**: السيرة للصلابي، ص 573.

الفصل الثالث

أحداث وآيات

كان المنافقون يعرفون جيدًا أن قوة المجتمع المسلم تكمن في تماسك أفراده، وفي التفافهم حول رسولهم ﷺ، فعملوا على تفريق المسلمين وتشتيتهم، وإثارة الفتن بينهم، وعملوا على أن يجعلوا شخص رسول الله ﷺ هدفًا لإفكهم ولأكاذيبهم. فلما كانت غزوة بني المصطلق، وخرج فيها جماعة كبيرة منهم، سجلت لهم آيات القرآن الكريم وكتب السير والمغازي، موقفين من مواقف الخسة والوضاعة؛ أحدهما كاد يحدث فتنةً عظيمة بين المهاجرين والأنصار، لولا رحمة الله بعباده المؤمنين، ثم حكمة رسول الله ﷺ، وقدراته الفائقة. والآخر: حادث الإفك الذي آذى رسول الله ﷺ وطعنه في عرضه، إلى أن حُسم بوحي من السماء، فنزل بشأنه تشريع وحَدٌّ من الحدود الزاجرة.

المبحث الأول: فتنة جهجاه وسنان بن وبر

قال المقريزي: (وبينا المسلمون على ماء المريسيع، إذ أقبل سنان بن وبر الجهني - حليف الأنصار - ومعه فتيان من بني سالم يستقون، وعلى الماء جمع من المهاجرين والأنصار، فأدلى دلوه، وأدلى جهجاه الغفاري - أجير عمر بن الخطاب رضي الله عنه - دلوه، فالتبست دلو سنان ودلو جهجاه وتنازعا، فضرب جهجاه سنانًا فسال الدم، فنادى يا للخزرج، وثارت الرجال، فهرب جهجاه، وجعل ينادي في العكسر: يا لقريش، يا لكنانة، فأقبلت قريش وأقبلت الأوس والخزرج، وشهروا السلاح، حتى كادت تكون فتنة عظيمة، فقام رجل في الصلح، فترك سنان حقه[1].

عبد الله بن أبي يشعل لهيب الفتنة:

وكان عبد الله بن أبي جالسًا في عشرة من المنافقين، فغضب وقال: والله ما رأيت كاليوم مذلة، والله إن كنت لكارهًا لوجهي (إسلامي) هذا، ولكن قومي قد غلبوني، قد

---

(1) إمتاع الأسماع للمقريزي، ج1، ص 199.

فعلوها (أي: المهاجرون) وقد نافرونا وكاثرونا في بلادنا، وأنكروا منتنا (فضلنا عليهم)، والله ما صرنا وجلابيب قريش هذه إلا كما قال القائل: سمن كلبك يأكلك. والله لقد ظننت أني سأموت قبل أن أسمع هاتفًا يهتف بها هتف به جهجاه وأنا حاضر، لا يكون لذلك مني غير، والله لئن رجعنا إلى المدينة ليخرجن الأعز منها الأذل. ثم أقبل على من حضر من قومه، فقال: هذا ما فعلتم بأنفسكم! أحللتموهم بلادكم، ونزلوا منازلكم، وآسيتموهم في أموالكم حتى استغنوا، أما والله لو أمسكتم عنهم ما بأيديكم لتحولوا إلى غير بلادكم، ثم لم ترضوا ما فعلتم حتى جعلتم أنفسكم أغراضًا للمنايا، فقُتِلْتم دونهم، فأيتمتم أولادكم وقللتم وكثروا[1].

زيد بن أرقم:

وكان زيد بن أرقم حاضرًا - وهو غلام لم يبلغ أو قد بلغ - فحدَّث رسول الله ﷺ بذلك وعنده نفر من المهاجرين والأنصار، فتغير وجهه، ثم قال: يا غلام، لعلك غضبت عليه؟ قال: لا والله، لقد سمعت منه. قال: لعله أخطأ سمعك، قال: لا يا نبي الله، قال: فلعله شبِّه عليك؟، قال: لا والله، لقد سمعت منه يا رسول الله. وشاع في المعسكر ما قال ابن أبي، حتى ما كان للناس حديث إلا هو. وأنّب جماعة من الأنصار زيد بن أرقم، فقال - في جملة كلام: والله إني أرجو أن ينزل الله على نبيه (وحيًا) حتى تعلموا أني كاذب أم غيري. وقال عمر بن الخطاب رَضِيَ اللهُ عَنْهُ: يا رسول الله! مُر به (أي: بعبد الله بن أُبي) عباد بن بشر فليأتك برأسه. فكره ذلك، وقال: لا يتحدث الناس أن محمدًا يقتل أصحابه[2].

ابن أبيّ الكذاب الأشر:

قال ابن إسحاق (... وقد مشى عبد الله بن أبي بن سلول إلى رسول الله ﷺ حين بلغه أن زيد بن أرقم بَلَّغَه ما سمع منه، فحلف بالله: ما قلت ما قال، ولا تكلمت به،

---

(1) المصدر السابق.

(2) المصدر السابق.

وكان في قومه شريفًا عظيمًا. فقال من حضر رسول الله ﷺ من الأنصار من أصحابه: يا رسول الله، عسى أن يكون الغلام أوهم في حديثه، ولم يحفظ ما قال الرجل (قالوا ذلك) حدبًا (عطفًا) على ابن أبي، ودفعًا عنه[1].

إن هذا الرجل حلف كاذبًا بعد أن أنكر مقولته الثابتة، ولو أن الجبان ذهب (إلى رسول الله ﷺ) يطلب النجاة من عقباها، لكان ذلك أجدى عليه، لكنه لم يزدد - على السماح الذي قوبل به - إلا خسة وخصامًا، والبون بعيد بين أصناف الرجال الذين عادوا الإسلام ورسوله. لقد كان «أبو جهل» خصمًا لدودًا لكل من دخل هذا الدين، وكان طاغية عنيدًا لا تنتهي لجاجته، إلا أنه كالضبع المفترس لا يحسن الالتواء والوقيعة، حمل السيف في وضح النهار، ومازال يقاتل به حتى صرع.

أما عبد الله بن أبي، فقد اختفى كالعقرب الخائنة، ثم شرع يلسع الغافلين[2] .

العلاج العملي:

وارتحل النبي بالمسلمين في وقت لم يكن يرتحل فيه، فلقيه أسيد بن حضير، فحياه بتحية الإسلام وسلَّم عليه، وقال: يا رسول الله لقد رحت في ساعة ما كنت تروح في مثلها؟ فقال له: «أوما بلغك ما قال صاحبكم؟»، قال (أُسيد): وما قال؟، قال: «زعم أنه إن رجع إلى المدينة ليخرجنَّ الأعز منها الأذل»!

فقال أسيد: فأنت يا رسول الله تخرجه منها إن شئت، هو - والله - الذليل وأنت العزيز، ثم قال: يا رسول الله، ارفق به، فوالله لقد جاءنا الله بك وإن قومه لينظمون له الخرز ليتوجوه (ملكًا)، فإنه ليرى أنك قد استلبته مُلكًا.

وسار رسول الله بالناس يومهم ذلك حتى أمسى، وليلتهم حتى أصبح، وصدر يومهم الثاني حتى آذتهم الشمس، ثم نزل بالناس فلم يلبثوا أن وجدوا مسَّ الأرض فوقعوا نيامًا.

---

(1) البداية والنهاية 180/4.

(2) الغزالي: فقه السيرة، ص 310.

وبهذا التصرف البالغ الغاية في السياسة الرشيدة، قضى على الفتنة قضاءً مبرمًا، ولم يدع مجالًا للحديث فيما قال ابن أُبي[1].

فقد نزل أصحابه رَضِيَ اللَّهُ عَنْهُمْ، فناموا من فورهم؛ من شدة الإجهاد، وانشغلوا عن الخوض في حديث يمكن أن يؤدي إلى فتنة.

قال منير الغضبان: فلابد إذًا من إشغال الناس عن الفتنة، والقاعدون حين تشتعل الفتنة لا يكون لهم حديث إلاها حتى في المجتمع النبوي، والقيادة الحكيمة هي التي تملأ فراغ شبابها بعمل مثمر، أو تدريب مناسب، أو جهاد مباشر للعدو؛ بحيث يستفرغ العمل وسعهم، ويستنفدوا طاقتهم، ويصرفهم عن الانشغال بالقيل والقال، وعن تأثرهم سلبًا أو إيجابًا بهذه الترهات [2].

لا تخوفوها؛ فإنما هبت لموت عظيم من عظماء الكفار:

قال ابن إسحاق: (... فلما راح رسول الله ﷺ هبت على الناس ريح شديدة، فآذتهم وتَخَوَّفُوها، فقال رسول الله ﷺ: «لا تَخوفوها؛ فإنما هبت لموت عظيم من عظماء الكفار». فلما قدموا المدينة وجدوا رفاعة بن زيد بن التابوت أحد بني قينقاع، وكان عظيمًا من عظماء اليهود وكهفًا للمنافقين، مات ذلك اليوم.

قال ابن كثير: وهكذا ذكر موسى بن عقبة، والواقدي[3].

وروى مسلم عن جابر رَضِيَ اللَّهُ عَنْهُ نحو هذه القصة، إلا أنه لم يسم الذي مات من المنافقين قال: هبت ريح شديدة والنبي ﷺ في بعض أسفاره، فقال: «هذه لموت منافق»، فلما قدمنا المدينة إذا هو قد مات عظيم من عظماء المنافقين[4].

---

(1) السيرة لأبي شهبة، ج2، ص 255.

(2) المنهج الحركي، ص 277.

(3) البداية والنهاية 4/180.

(4) المصدر السابق.

وفت أذنك يا غلام:

قال المقريزي: (... وبينا رسول الله ﷺ يسير من يومه ذلك، وزيد بن أرقم يعارضه براحلته يريد وجهه، ورسول الله ﷺ يستحث راحلته؛ فهو يفذ في المسير، إذ نزل عليه الوحي، فسُري عنه. فأخذ بأذن زيد بن أرقم حتى ارتفع من مقعده عن راحلته، وهو يقول: «وفت أذنك يا غلام، وصدَّق الله حديثك»[1]. ونزل في ابن أبيّ سورة (المنافقون) بتمامها، وفيها قوله سبحانه: ﴿ هُمُ ٱلَّذِينَ يَقُولُونَ لَا تُنفِقُواْ عَلَىٰ مَنْ عِندَ رَسُولِ ٱللَّهِ حَتَّىٰ يَنفَضُّواْۗ وَلِلَّهِ خَزَآئِنُ ٱلسَّمَٰوَٰتِ وَٱلۡأَرۡضِ وَلَٰكِنَّ ٱلۡمُنَٰفِقِينَ لَا يَفۡقَهُونَ ﴿٧﴾ يَقُولُونَ لَئِن رَّجَعۡنَآ إِلَى ٱلۡمَدِينَةِ لَيُخۡرِجَنَّ ٱلۡأَعَزُّ مِنۡهَا ٱلۡأَذَلَّۚ وَلِلَّهِ ٱلۡعِزَّةُ وَلِرَسُولِهِۦ وَلِلۡمُؤۡمِنِينَ وَلَٰكِنَّ ٱلۡمُنَٰفِقِينَ لَا يَعۡلَمُونَ ﴿٨﴾ ﴾ [المنافقون].

﴿ وَإِذَا قِيلَ لَهُمۡ تَعَالَوۡاْ يَسۡتَغۡفِرۡ لَكُمۡ رَسُولُ ٱللَّهِ لَوَّوۡاْ رُءُوسَهُمۡ وَرَأَيۡتَهُمۡ يَصُدُّونَ وَهُم مُّسۡتَكۡبِرُونَ ﴿٥﴾ ﴾:

وكان عبادة بن الصامت قبل ذلك قال لابن أبي: إيت رسول الله يستغفر لك، فلوى رأسه معرضًا، فقال له عبادة: والله لينزلن في ليِّ رأسك قرآنًا يصلى به. ومر عبادة بن الصامت بابن أُبيّ عشية راح رسول الله ﷺ من المريسيع، وقد نزل فيه القرآن، فلم يسلم عليه، ثم مر أوس بن خولي فلم يسلم عليه، فقال: إن هذا الأمر قد تمالأتما عليه. فرجعا إليه فأنبآه وبكتاه بما صنع، وبما نزل من القرآن إكذابًا لحديثه، فقال: لا أعود أبدًا[2].

عبد الله بن عبد الله بن أبي .. والولاء الخالص لله ورسوله:

وجاء ابنه عبد الله بن عبد الله بن أبي، فقال: يا رسول الله، إن كنت تريد أن تقتل أبي فيما بلغك عنه، فمرني به، فوالله لأحملن إليك رأسه قبل أن تقوم من مجلسك هذا، والله لقد علمت الخزرج ما كان فيها رجل أبر بوالده مني، وإني لأخشى – يا رسول الله – أن تأمر غيري فيقتله، فلا تدعني نفسي أن أنظر إلى قاتل أبي يمشي في الناس، فأقتله، فأدخل

(1) إمتاع الأسماع، ح1، ص 201.

(2) إمتاع الأسماع للمقريزي، ج1، ص 202.

النار، وعفوك أفضل، ومَنُّكَ أعظم، فقال رسول الله ﷺ: ما أردت قتله، وما أمرت به، ولنحسنن صحبته ما كان بين أظهرنا. فقال: يا رسول الله، إن أبي كانت هذه البحيرة قد اتسقوا عليه ليتوجوه، فجاء الله بك فوضعه ورفعنا بك، ومعه قوم يطيفون به يذكرونه أمورًا قد غلب الله عليها[1].

قال سيد قطب رَحِمَهُ ٱللَّهُ: هذا عبد الله بن أبي بن سلول، يعيش بين المسلمين، قريبًا من رسول الله ﷺ، تتوالى الأحداث والآيات من بين يديه ومن خلفه على حقيقة هذا الدين، وصدق هذا الرسول. ولكن الله لا يهدي قلبه للإيمان؛ لأنه لم يكتب له هذه الرحمة وهذه النعمة. وتقف دونه ودون هذا الفيض المتدفق من النور والتأثير، تقف دونه إحنة في صدره، أن لم يكن ملكًا على الأوس والخزرج؛ بسبب مقدم رسول الله ﷺ بالإسلام إلى المدينة، فتكفه هذه وحدها عن الهدى الذي تواجهه دلائله من كل جانب، وهو يعيش في فيض الإسلام ومده في يثرب.

وهذا ابنه عبد الله رَضِيَ ٱللَّهُ عَنْهُ، نموذج رفيع للمسلم المتجرد الطائع، يشقى بأبيه، ويضيق بأفاعيله، ويخجل من مواقفه .. ولكنه يكن له ما يكنه الولد البار العطوف، ويسمع أن رسول الله ﷺ يريد أن يقتل أباه هذا، فيختلج قلبه بعواطف ومشاعر متباينة، يواجهها هو في صراحة وفي قوة وفي نصاعة .. إنه يحب الإسلام، ويحب طاعة رسول الله ﷺ، ويحب أن ينفذ أمره ولو في أبيه، ولكنه لا يطيق أن يتقدم أحد فيضرب عنق أبيه ويظل يمشي على الأرض بعده أمام ناظريه، وهو يخشى أن تخونه نفسه، وألا يقدر على مغالبة شيطان العصبية، وهتاف الثأر .. وهنا يلجأ إلى نبيه وقائده؛ ليعينه على خلجات قلبه، ويرفع عنه هذا العنت الذي يلاقيه، فيطلب منه إن كان لابد فاعلًا أن يأمره هو بقتل أبيه، وهو لابد مطيع، وهو يأتيه برأسه؛ كي لا يتولى ذلك غيره، فلا يطيق أن يرى قاتل أبيه يمشي على الأرض فيقتله، فيقتل مؤمنًا بكافر، فيدخل النار .. والرسول الكريم يرى هذه

(1) المقريزي: إمتاع الأسماع، ج1، ص 203.

النفس المؤمنة المحرجة، فيمسح عنها الحرج في سماحة وكرامة: «بل نترفق به ونحسن صحبته ما بقي معنا»[1].

وقد ذكر عكرمة، وابن زيد وغيرهما، أن عبد الله بن عبد الله بن أبي رَضِيَ اللَّهُ عَنْهُ وقف لأبيه عبد الله بن أبي بن سلول عند مضيق المدينة، فقال: قف فوالله لا تدخلها حتى يأذن رسول الله ﷺ في ذلك، فلما جاء رسول الله ﷺ استأذنه في ذلك، فأذن له، فأرسله حتى دخل المدينة [2].

لأمر رسول الله ﷺ أعظم بركة من أمري:

وقد كان لتسامح رسول الله ﷺ مع رأس المنافقين عبد الله بن أبي أبعد الآثار فيما بعد، وهو أمر أقرب لما نسميه في المصطلح الإسلامي بالسياسة الشرعية، فكان ابن سلول إذا أحدث بعد ذلك حدثًا يعاتبه قومه ويأخذونه ويعنفونه، فأراد رسول الله ﷺ أن يكشف لعمر رَضِيَ اللَّهُ عَنْهُ آثار هذه السياسة الحكيمة، فقال: «كيف ترى يا عمر؟، أما والله لو قتلته يوم قلت، لأرعدت له آنف، لو أمرتها اليوم بقتله لقتلته». قال عمر: قد - والله - علمت لأمر رسول الله ﷺ أعظم بركةً من أمري[3].

إننا لا نتصور موقفًا عدائيًا للجماعة المسلمة أخطر من موقف عبد الله بن أبي، وإن مجرد قناعته أن يخرج العزيز منها الذليل، ويعني بها نفسه ورسول الله ﷺ، فهوخلع لربقة الإسلام من عنقه، وصار كافرًا خالصًا، وحكمه هو القتل. لكنَّ ظاهر الأمر أنه من الصف، فالإقدام على قتله - والمعركة الدعائية على أشدها بين المسلمين والكافرين -يجعل للكفار سبيلًا كبيرًا للتشهير بالمسلمين والنيل منهم، وتشويه سمعتهم لدى الآخرين، وظاهر الأمر أن رسول الله ﷺ لم يكن يخشى تأثير ابن أبي في هذه المرحلة، ومع أن الأمر لم يثبت عليه بعد، ومع أنه حلف أنه لم يقل هذا الكلام، فلم نر في الصف كله واحدًا يقبل كلامه

---

(1) في ظلال القرآن.

(2) البداية والنهاية 4/181.

(3) ابن هشام (3/406).

أو يقرُّ به، إنما أقصى ما وصل التأثر به، هو اعتبار زيد واهمًا في النقل، أو طلب الرأفة به لفقدانه الملك العضوض الذي فاته. ولا يوجد في ظاهر الأمر إلا هؤلاء العشرة من الصف كله قبلوا كلامه وسكنوا عليه، والمقصود في هذا التأكيد هو أن رسول الله ﷺ حين رفض قتله، لم يكن بسبب خوف من تصدع الصف الداخلي عنده، ولم يكن خوفًا من تأثيره في داخل صفه إنما كان فقط توقفًا سياسيًّا؛ حتى لا يعطي العدو فرصة للتشهير بالصف الإسلامي أمام المحايدين: (فكيف إذا تحدث الناس أن محمدًا يقتل أصحابه؟!).

لقد امتنع رسول الله ﷺ عن قتل رجلٍ نزل الوحي فيما بعد بتكذيبه، وبصحة ما وجه إليه من كفر بواح، وهو يهدد ليخرجن الأعز منها الأذل؛ وذلك لاعتبارات سياسية بحتة، ولسمعة الجماعة المسلمة أن لا تتفتت عند أعدائها، فيستغل العدو هذه الفرصة [1].

دروس من الفتنة [2]:

غزوة بني المصطلق وإن لم تكن كبيرة من الناحية العسكرية، إلا أنها اشتملت على وقائع وأحداث جسام، حركتها أحقاد المنافقين ومكائدهم؛ فقد وجدوا فرصتهم في الاحتقان الذي كان بين المهاجرين والأنصار عند ماء المريسيع؛ كي يمزقوا الصف المسلم بإعادة النصرة الجاهلية، وبث الفتنة والشقاق بين أصحاب رسول الله ﷺ .. وكاد أن يتحقق لهم ما أرادوا، لولا أن وقى الله عباده المؤمنين مكرهم وخبثهم، فخابوا وذُلوا وافتُضح أمرهم، وازداد الصف المسلم تماسكًا وقوة .. وكان في هذه الوقائع والأحداث درسًا، بل دروسًا للمجتمع المسلم الأول، ثم لأجيال المؤمنين بعد ذلك، ونحن في أيامنا هذه في أمس الحاجة أن نقف عند هذه الدروس التي ذكرنا بعضًا منها مع سرد الأحداث، وبقي أن نقف عند درسين لم نذكرهما قبلُ:

الدرس الأول: الدين وحده هو الذي يكبح جماح النفس البشرية:

تتجلى عظمة هذا الدين - فيما تتجلى - في ضبط وكبح جماح النفس البشرية، فاختلاف

---

(1) الغضبان، المنهج الحركي، ص 270-271.

(2) المصدر السابق، ص 261-280، باختصار وتصرف.

بسيط على الدلاء قاد إلى تنازع لفظي، والتنازع اللفظي قاد إلى تشاجر وتشابك بالأيدي، فاستصرخ كلٌّ من المتشاجرين قومه، فثار القوم للسلاح، حتى كادت تكون فتنة عظيمة. هذه هي النفس البشرية في سرعة انفعالها وغضبها، حتى ولو كان أصحابها هم أفراد هذا الجيل الفريد الذي لم تعرف البشرية له مثيلًا.

وقد كان من الممكن لهذه الفتنة أن تعيد أمثال يوم بعاث بين الأوس والخزرج، وأن تعيد أيام داحس والغبراء، أو يوم حليمة ويوم البسوس، فيفني القبائل بعضها بعضًا في شهور أو سنين أو عقود من السنين. كان هذا الشجار كافيًا لحرب ضروس، تأكل الأنصار والمهاجرين، ونصل من هذه الملاحظة إلى أنه لا غرابة أن تتحرك في المجتمع الإسلامي نوازع الجاهلية ونزعاتها وتثور بعد كمون طويل؛ فلقد تحركت هذه العصبية لأول مرة على هذا المستوى نتيجة إثارة طائشة، وذلك في أفضل مجتمعات الأرض، وليس مجتمعنا أفضل من هذا المجتمع وهو خريج مدرسة النبوة، وهو الأمة التي أخرجت للناس خير أمة، وليست قيادتنا تعادل غبارًا على قدم رسول الله ﷺ، وهو بين ظهرانيهم، وتتحرك الفتنة إلى درجة أن يحمل الفريقان السلاح للمواجهة. وكم نتمنى أن تستوعب الحركة الإسلامية والصف المسلم هذا المعنى، أن لا تحبط الأخطاء والخلافات أمانينا، فنيأس حين نجد مثل هذه الظاهرة!!.

لكن الفارق الكبير نلحظه باستمرار هذه الظاهرة أو اختفائها؛ فلقد استطاع الصف الإسلامي الأول أن يتلافى هذه الظاهرة مباشرة وبأقوى ما يكون، فيمشي رجل من المسلمين بالصلح بين الفريقين، ويتخلى سنان عن حقه، وتحبط الفتنة في مهدها .. وهذا ما نريد أن نؤكده لنقتدي به، فلا غرابة أن نخطئ، ولا غرابة أن نزل، لكن الغرابة - كل الغرابة، والجفوة كل الجفوة للمنهج الإسلامي - هو أن يستمر الخطأ، ويستفحل؛ فعندئذ نكون أقرب للمجتمع الجاهلي منا إلى المجتمع الإسلامي، ونعجز عن إيجاد حلول تنهي الخلاف داخل الصف الإسلامي وتجتث جذور الخلاف[1].

---

(1) الغضبان: المنهج الحركي، ص 262-263.

الدرس الثاني: زيد بن أرقم .. فتًى صغير، ووعي كبير:

لقد استطاع فتًى صغير - من فتيان الصف المسلم - أن يحبط فتنة هذا الأخطبوط عبد الله بن أبي بن سلول، حين نقل كل تفصيلات المخطط الخائن لرسول الله ﷺ.

وأي وعي في صف جيش النبوة أعمق من هذا الوعي؟! أن يصمت زيد بن أرقم وهو يسمع عبد الله بن أبي؛ ليتحدث بكل ما في نفسه، ثم يمضي مباشرة إلى القائد الأعظم ﷺ وحده، فيبلغه بما سمع، ولا يُحدث بهذا الموضوع أحدًا غير رسول الله.

إنه فتى الإسلام الذي لم يبلغ بعد - أو في سن البلوغ - أدرك هذه المعاني جميعًا، وحصر الفتنة في مهدها، فأبلغ كل تفاصيلها لرسول الله ﷺ، فكان حارسًا أمينًا على دعوته.

إنه درس عظيم في الحركية الواعية لشبابنا المسلم، يتلقونه من هذا الغلام. ونقطة أخرى في هذا المجال كذلك، هي أن معسكر النفاق لم يكن ليأبه بمثل هذا الغلام زيد بن أرقم، ومن أجل هذا لم يجد حرجًا في الحديث أمامه بكل ما في نفسه وبكل مخططاته، وهذا ما يجعلنا نطمئن إلى أن نفثات معسكر النفاق وأحابيله لابد أن تظهر بشكل ما في الصف، وعلى الشباب المسلم أن يكون يقظًا واعيًا لمثل هذه الاتجاهات.

ولا يفوتنا أن نستعرض موقف الغلام المؤمن وهو يمضي سريعًا لرسول الله ﷺ؛ ليخبره بما سمع وهو ثابت كالطود أمام تكذيبه. ويصر على صدق ما سمعه، وينفي أمام قائده أن يكون له هوًى بهذا الأمر، أو يكون قد أخطأ في نقله، أو أخطأ في فهمه، وموقفه في مواجهة التيار العام الذي ثار ضده من قادة قبيلته، وهو يتحداهم جميعًا بقوله: والله إني لأرجو أن ينزل الله على نبيه حتى تعلموا أني كاذب أم غيري. فلم تزلزله هذه الهجمات كلها، بل بقي على موقفه، وثقته برب السموات والأرض أن يظهر الحق لنبيه، وأن يأتي الوحي تصديقًا له، ويتعبد به الناس إلى يوم الدين.

ومن أجل هذا حرص رسول الله ﷺ على رفع معنوياته أمام هذا الهجوم الرهيب عليه، حين جاء الوحي مصداقًا لقوله: فإذا هو يأخذ بأذني زيدٍ ويقول: «وفت أذنك يا غلام، وصدَّق الله حديثك». وإذا بكل تمالؤ الحسب والنسب ينهار أمام الوحي، ويرتفع

هذا الفتى المؤمن بالله وبرسوله فوق الشبهات وفوق الزعامات، بعد أن صدَّقه الله تعالى، وكذَّب رأس النفاق، الذي لم يتورع عن الحلف كاذبًا في سبيل المحافظة على مركزه وسطوته[1].

المبحث الثاني: حديث الإفك

في عودة الرسول ﷺ من غزوة بني المصطلق إلى المدينة، نبت حديث الإفك وشاع، واجتهد خصوم الله ورسوله أن ينقلوا شرره في كل مكان، قاصدين - من وراء هذا الأسلوب الجديد في حرب الإسلام - أن يدمروا على الرسول ﷺ بيته، وأن يسقطوا مكانة أقرب الرجال لديه، وأن يدعوا جمهور المسلمين - بعد ذلك - يضطرب في عماية من الأسى والغم!!

وللوصول إلى هذه الغاية، استباح ابن أبيّ لنفسه أن يرمي بالفحشاء سيدة لما تجاوز مرحلة الطفولة البريئة، لا تعرف الشر، ولا تهم بمنكر، ولا تحسن الحياة إلا في فلك النبوة العالي .. وهي التي تربت في حجر صديق، وأُعِدت لصحبة نبي في الدنيا والآخرة، وتلقف العامة هذا الحديث الغريب، وهم في غمرة الدهشة، لا يدرون مبلغ الخطر الكامن في قبوله ونقله[2].

هذا الحادث قد كلف أطهر النفوس في تاريخ البشرية كلها آلامًا لا تطاق، وكلف الأمة المسلمة كلها تجربة من أشق التجارب في تاريخها الطويل، وعلق قلب رسول الله ﷺ، وقلب زوجه عائشة التي يحبها، وقلب أبي بكر الصديق وزوجه، وقلب صفوان بن المعطل، شهرًا كاملًا .. علقها بحبال الشك والقلق والألم الذي لا يطاق[3]. فلندع عائشة رَضِيَ اللَّهُ عَنْهَا تروي قصة هذا الألم، وتكشف عن سر ما نزل فيه من آيات:

---

(1) **انظر:** المنهج الحركي للغضبان، ص 265،266،276، باختصار وبتصرف.

(2) الغزالي: فقه السيرة، ص 310-311.

(3) سيد قطب: في ظلال القرآن.

روى البخاري ومسلم في صحيحيهما عن عائشة رَضِيَ اللَّهُ عَنْهَا - واللفظ للبخاري - قالت :

كان رسول الله ﷺ إذا أراد أن يخرج - يعني إلى سفر - أقرع بين أزواجه، فأيتهن خرج سهمها خرج بها رسول الله ﷺ معه، فأقرع بيننا في غزوة غزاها فخرج سهمي، فخرجت مع رسول الله ﷺ بعدما نزل الحجاب، فأنا أُحمل في هودجي وأُنزل فيه، فسرنا حتى إذا فرغ رسول الله ﷺ من غزوته تلك وقفل، ودنَونا من المدينة قافلين، آذن ليلة بالرحيل، فقمت حين آذنوا بالرحيل فمشيت، حتى جاوزت الجيش - يعني لقضاء حاجتها - فلما قضيت شأني أقبلت إلى رحلي، فإذا عِقْد لي من جَزْع ظَفَار[1] قد انقطع، فالتمست عقدي (أبحث عنه)، وحبسني (أخرني عن الجيش) ابتغاؤه.

وأقبل الرهط الذين كانوا يرحلون لي (يحملونني)، فاحتملوا هودجي، فرَحَلُوه على بعيري الذي كنت ركبت، وهم يحسبون أني فيه، وكان النساء إذ ذاك خفافًا لم يثقلهن اللحم، إنما يأكلن العلقة[2] من الطعام، وكنت جارية حديثة السن، فبعثوا الجمل وساروا .

فوجدت عقدي بعدما استمر (ابتعد) الجيش، فجئت منازلهم (أماكنهم) وليس لها داع ولا مجيب (خالية)، فأممت (قصدت) منزلي (مكاني) الذي كنت فيه، وظننت أنهم سيفقدونني فيرجعون إلي، فبينا أنا جالسة في منزلي غلبتني عيني فنمت، وكان صفوان بن المعطل السلمي (يسير) من وراء الجيش، فأدلج[3]، فأصبح عند منزلي، فرأى سواد إنسان نائم، فأتاني فعرفني حين رآني، وكان يراني قبل الحجاب، فاستيقظت باسترجاعه[4] حين عرفني، فخمَّرت - غطيت - وجهي بجلبابي، والله ما كلمني كلمة، ولا سمعت منه كلمة غير استرجاعه، حتى أناخ راحلته فركبتها، فانطلق يقود بي الراحلة (ماشيًا)، حتى أتينا

(1) **جَزْع:** نوع الخرز، **وظفار:** مدينة باليمن.

(2) **العلقة:** القليل من الطعام.

(3) **أدلج:** سار من آخر الليل.

(4) قوله: ﴿إِنَّا لِلَّهِ وَإِنَّآ إِلَيۡهِ رَٰجِعُونَ﴾.

الجيش بعدما نزلوا موغرين[1] في نحر الظهيرة، فهلك من هلك (بالخوض في عرضها)، وكان الذي تولَّى كِبْره عبد الله بن أبي بن سلول.

فقدمنا المدينة، فاشتكيت (مرضت) حين قدمت شهرًا، والناس يفيضون في قول أصحاب الإفك، لا أشعر بشيء من ذلك، وهو يريبني (يقلقني) في وجعي أني لا أعرف من رسول الله ﷺ اللطف الذي كنت أرى منه حين أشتكي، إنما يدخل عليَّ رسول الله ﷺ، فيسلِّم، ثم يقول: «كيف تيكم؟» ثم ينصرف، فذاك يريبني ولا أشعر بالشر (الذي كان من أصحاب الإفك).

حتى خرجت بعدمَا نَقَهت[2]، فخرجت مع أم مسطح قِبَل المناصع[3] وهو متبرزنا (مكان قضاء الحاجة)، وكنا لا نخرج إلا ليلًا إلى ليل .. فانطلقت أنا وأم مسطح وهي ابنة أبي رُهْم بن المطلب بن عبد مناف، وأمها بنت صخر بن عامر خالة أبي بكر الصديق، وابنها مسطح بن أثاثة، فأقبلت أنا وأم مسطح قِبَل بيتي وقد فرغنا من شأننا، فعثرت أم مسطح في مرطها، فقالت: تعس مسطح، فقلت لها: بئس ما قلت، أتسبين رجلًا شهد بدرًا؟! قالت: أي هَنْتاه[4] أولم تسمعي ما قال؟ قلت: وما قال؟ فأخبرتني بقول أهل الإفك.

فازددت مرضًا على مرضي، فلما رجعت إلى بيتي ودخل عليَّ رسول الله ﷺ فسلَّم ثم قال: «كيف تيكم»؟ فقلت: أتأذن لي أن آتي أبويَّ؟ وأنا حينئذ أريد أن أستيقن الخبر من قِبَلِهما، فأذن لي رسول الله ﷺ، فجئت أبويَّ، فقلت لأمي: يا أمتاه، ما يتحدث الناس؟ فقالت يا بنية هوِّني عليك، فوالله لقلما كانت امرأة قط (مثلك) وضيئة عند رجل يحبها ولها ضرائر إلا أكثرن عليها، فقلت: سبحان الله، أوقد تحدث الناس بهذا؟! قالت: فبكيت تلك الليلة حتى أصبحت لا يرقأ لي دمع، ولا أكتحل بنوم، حتى أصبحت أبكي.

---

(1) **موغرين:** نازلين للاستراحة.

(2) **نقهت:** وأنا في فترة النقاهة.

(3) **المناصع:** مكان خارج المدينة.

(4) يعني يا هذه.

فدعا رسول الله ﷺ عليَّ بن أبي طالب وأسامة بن زيد حين استلبثى (تأخَّر) الوحي، يستأمرهما في فراق أهله، فأما أسامة بن زيد فأشار على رسول الله ﷺ بالذي يعلم من براءة أهله، وبالذي يعلم لهم في نفسه من الود، فقال: يا رسول الله، أهلك وما نعلم إلا خيرًا، وأما علي بن أبي طالب، فقال: يا رسول الله لم يضيِّق الله عليك والنساء سواها كثير، وإن تسأل الجارية (يقصد بريرة جارية عائشة) تصدقك.

فدعا رسول الله ﷺ بريرة، فقال: «أيْ بريرة، هل رأيت من شيء (من أمر عائشة) يريبك؟»، قالت بريرة: لا والذي بعثك بالحق، إن رأيت عليها أمرًا أغمضه[1] عليها أكثر من أنها جارية حديثة السنة تنام عن عجين، فتأتي الداجن[2] فتأكله.

فقال رسول الله وهو على المنبر: «يا معشر المسلمين، من يعذرني[3] من رجل قد بلغني أذاه في أهل بيتي؟ فوالله ما علمت على أهلي إلا خيرًا، لقد ذكروا رجلًا (هو صفوان بن المعطل) ما علمت عليه إلا خيرًا، وما كان يدخل على أهلي إلا معي». فقام سعد بن معاذ الأنصاري، فقال: أنا أعذرك منه، إن كان من الأوس ضربت عنقه، وإن كان من إخواننا من الخزرج أمرتنا ففعلنا أمرك. فقام سعد بن عبادة – وهو سيد الخزرج – وكان قبل ذلك رجلًا صالحًا، ولكن احتملته الحمية، فقال لسعد: كذبت – لعمر الله – لا تقتله ولا تقدر على قتله، فقام أسيد بن حُضَير وهو ابن عم سعد بن معاذ، فقال لسعد بن عبادة: كذبت – لعمر الله – لنقتلنه، فإنك منافق تجادل عن المنافقين، فتثاور الحيان الأوس والخزرج، حتى هموا أن يقتتلوا ورسول الله ﷺ قائم على المنبر، فلم يزل رسول الله يخفِّضهم حتى سكتوا وَسكَتَ.

فمكثت يومي ذلك لا يرقأ لي دمع ولا أكتحل بنوم، فأصبح أبواي عندي، وقد بقيت ليلتين ويومًا .. فبينما هما جالسان عندي وأنا أبكي، فاستأذنت عليَّ امرأة من الأنصار،

---

(1) **أغمضه:** أعيبه.

(2) **الداجن:** ما يألف البيوت من شاة أو طير.

(3) **يعذرني من رجل:** ينصرني عليه وينتقم منه.

فأذنت لها، فجلست تبكي معي، فبينما نحن على ذلك، دخل رسول الله ﷺ فسلَّم ثم جلس، ولم يجلس عندي منذ قيل ما قيل قبلها، وقد لبث شهرًا لا يوحى إليه في شأننا، فتشهد رسول الله ﷺ حين جلس، ثم قال:

«أما بعد: يا عائشة، فإنه قد بلغني عنك كذا وكذا، فإن كنت بريئة فسيبرئك الله، وإن كنت ألممت بذنب، فاستغفري الله وتوبي إليه؛ فإن العبد إذا اعترف بذنبه ثم تاب إلى الله، تاب الله عليه». فلما قضى مقالته قلص دمعي[1]، حتى ما أحس منه قطرة، فقلت لأبي: أجب رسول الله فيما قال، قال: والله ما أدري ما أقول لرسول الله، فقلت لأمي: أجيبي رسول الله، قالت: ما أدري ما أقول لرسول الله، قلت - وأنا جارية حديثة السن لا أقرأ كثيرًا من القرآن: إني والله لقد علمت أنكم سمعتم هذا الحديث، حتى استقر في أنفسكم، وصدقتم به، فلئن قلت لكم إني بريئة - والله يعلم أني بريئة - لا تصدقونني بذلك، ولئن اعترفت لكم بأمر - والله يعلم أني منه بريئة - لتصدقني، والله ما أجد لكم ولي مثلًا إلا قول أبي يوسف: ﴿فَصَبْرٌ جَمِيلٌ وَٱللَّهُ ٱلْمُسْتَعَانُ عَلَىٰ مَا تَصِفُونَ ۝١٨﴾ [يوسف].

ثم تحولت فاضطجعت على فراشي، وأنا حينئذ أعلم أني بريئة، وأن الله مبرئي ببراءتي، ولكن والله ما كنت أظن أن الله منزل في شأني وحيًا يُتلى، ولشأني في نفسي كان أحقر من أن يتكلم الله فيَّ بأمر يتلى، ولكن كنت أرجو أن يرى رسول الله ﷺ في النوم رؤيا يبرئني الله بها، فوالله ما رام رسول الله ﷺ ولا خرج أحد من أهل البيت حتى أُنزل عليه، فأخذه ما كان يأخذه من البرحاء[2]، حتى إنه لينحدر منه مثل الجُمان[3] من العرق وهو في يوم شات من ثقل الوحي الذي ينزل عليه.

فلما سُرِّي عن رسول الله ﷺ، سرِّي عنه وهو يضحك، فكان أول كلمة تكلم بها: «يا عائشة، أما الله ﷻ فقد برَّأك»، فقالت أمي: قومي إليه، فقلت: والله لا أقوم إليه، ولا أحمد إلا

(1) **قلص:** جف من شدة الحزن.

(2) **البرحاء:** الحالة التي كانت تعتريه عند الوحي.

(3) **الجمان:** حبات اللؤلؤ أو الفضة.

الله ﷻ ، وأنزل الله ﷻ: ﴿إِنَّ ٱلَّذِينَ جَآءُو بِٱلۡإِفۡكِ عُصۡبَةٞ مِّنكُمۡ﴾ العشر الآيات كلها - يعني إلى قوله تعالى: ﴿وَأَنَّ ٱللَّهَ رَءُوفٞ رَّحِيمٞ ٢٠﴾ [النور].

فلما أنزل الله هذا في براءتي، قال أبو بكر الصديق - وكان ينفق على مسطح بن أثاثة لقرابته منه وفقره: والله لا أنفق على مسطح شيئًا أبدًا بعد الذي قال لعائشة - يعني عنها- ما قال، فأنزل الله:

﴿ وَلَا يَأۡتَلِ [(1)] أُوْلُواْ ٱلۡفَضۡلِ مِنكُمۡ وَٱلسَّعَةِ أَن يُؤۡتُوٓاْ أُوْلِي ٱلۡقُرۡبَىٰ وَٱلۡمَسَٰكِينَ وَٱلۡمُهَٰجِرِينَ فِي سَبِيلِ ٱللَّهِۖ وَلۡيَعۡفُواْ وَلۡيَصۡفَحُوٓاْۗ أَلَا تُحِبُّونَ أَن يَغۡفِرَ ٱللَّهُ لَكُمۡۚ وَٱللَّهُ غَفُورٞ رَّحِيمٌ ٢٢ ﴾ [النور].

قال أبو بكر: بلى والله إني أحب أن يغفر الله لي!! فرجع إلى مسطح النفقة التي كان ينفق عليه، وقال: والله لا أنزعها منه أبدًا.

قالت عائشة: وكان رسول الله ﷺ يسأل زينب ابنة جحش (زوجته) عن أمري، فقال: «يا زينب ماذا علمت أو رأيت؟»، فقالت: يا رسول الله أحمي سمعي وبصري، ما علمت إلا خيرًا، قالت: وهي التي كانت تُساميني[(2)] من أزواج رسول الله ﷺ، فعصمها الله بالورع، وطفقت أختها حمنة تحارب لها (فتخوض في الإفك)، فهلكت فيمن هلك من أصحاب الإفك[(3)].

وعند أبي داود وابن ماجه وابن إسحاق وغيرهم، أن عائشة رَضِيَ اللَّهُ عَنْهَا قالت: (... ثم خرج رسول الله ﷺ إلى الناس فخطبهم، وتلا عليهم ما أنزل الله تعالى من القرآن في ذلك، ثم أمر بمسطح بن أثاثة، وحسان بن ثابت، وحمنة بنت جحش، وكانوا ممن أفصح بالفاحشة، فضُربوا حدهم (أي: حد القذف).

---

(1) **ولا يأتل:** لا يحلف.

(2) **تساميني:** تناظرني.

(3) البخاري، كتاب التفسير، باب (لولا إذا سمعتموه...)، رقم (4150).

تعليق:

قال سيد قطب رَحِمَهُ ٱللَّهُ:

وهكذا عاش رسول الله ﷺ وأهل بيته، وعاش أبو بكر رَضِيَٱللَّهُعَنْهُ وأهل بيته، وعاش صفوان بن المعطل، وعاش المسلمون جميعًا هذا الشهر كله في مثل هذا الجو الخانق، وفي ظل تلك الآلام الهائلة؛ بسبب حديث الإفك.

وإن الإنسان ليقف متململًا أمام هذه الصورة الفظيعة لتلك الفترة الأليمة في حياة الرسول ﷺ، وأمام تلك الآلام العميقة اللاذعة لعائشة زوجه المقربة، وهي فتاة صغيرة في نحو السادسة عشرة.

فها هي ذي عائشة الطيبة الطاهرة .. ها هي ذي براءتها ووضاءة ضميرها، ونظافة تصوراتها .. ها هي ذي تُرمى في أعز ما تعتز به .. تُرمى في شرفها، وهي ابنة الصديق الناشئة في العش الطاهر الرقيق، وترمى في أمانتها، وهي زوج محمد بن عبد الله ﷺ .. وترمى في وفائها، وهي الحبيبة المدللة القريبة من ذلك القلب الكبير .. ثم ترمى في إيمانها، وهي المسلمة الناشئة في حجر الإسلام، من أول يوم تفتحت عيناها فيه على الحياة.

ها هي ذي تُرمى، وهي بريئة غارة غافلة، لا تحتاط لشيء، ولا تتوقع شيئًا، فلا تجد ما يبرئها إلا أن ترجو في جناب الله، وتترقب أن يرى رسول الله رؤيا، تبرئها مما رميت به، ولكن الوحي يتلبث – لحكمة يريدها الله – شهرًا كاملًا، وهي في مثل هذا العذاب.

ويا لله لها وهي تفاجأ بالنبأ من أم مسطح، وهي مهدودة من المرض، فتعاودها الحمى، وهي تقول لأمها في أسى: سبحان الله! وقد تحدث الناس بهذا؟! وفي رواية أخرى تسأل: وقد علم به أبي؟ فتجيب أمها: نعم! فتقول: ورسول الله ﷺ؟، فتجيبها أمها كذلك: نعم.

ويا لله لها ورسول الله ﷺ نبيها الذي تؤمن به، ورجلها الذي تحبه، يقول لها: «أما بعد، فإنه بلغني عنك كذا وكذا، فإن كنت بريئة فسيبرئك الله تعالى، وإن كنت ألممت بذنب فاستغفري الله تعالى وتوبي إليه؛ فإن العبد إذا اعترف بذنبه، ثم تاب، تاب الله

عليه» .. فتعلم أنه شاك فيها، لا يستيقن من طهارتها، ولا يقضي في تهمتها، وربه لم يخبره بعدُ، ولم يكشف له عن براءتها التي تعلمها، ولكن لا تملك إثباتها، فتمسي وتصبح وهي متهمة في ذلك القلب الكبير الذي أحبها، وأحلها في سويدائه.

وها هو أبو بكر الصديق - في وقاره وحساسيته وطيب نفسه - يلدغه الألم، وهو يُرمى في عرضه .. في ابنته، زوج محمد صاحبه، الذي يحبه ويطمئن إليه، ونبيه الذي يؤمن به ويصدقه تصديق القلب المتصل .. وإذا الألم يفيض على لسانه، وهو الصابر المحتسب القوي على الألم، فيقول: والله ما رُمينا بهذا في جاهلية، أفنرضى به في الإسلام؟! وهي كلمة تحمل من المرارة ما تحمل .. حتى إذا قالت له ابنته المريضة المعذبة: أجب عني رسول الله ﷺ، قال في مرارة هامدة: والله ما أدري ما أقول لرسول الله ﷺ، وأم رومان - زوج الصديق رَضِيَ اللَّهُ عَنْهُمَا، وهي تتماسك أمام ابنتها المفجوعة في كل شيء، المريضة التي تبكي، حتى تظن أن البكاء فالق كبدها، فتقول لها: يا بنية، هوني على نفسك الشأن، فوالله لقلما كانت امرأة قط وضيئة عند رجل يحبها ولها ضرائر، إلا أكثرن عليها .. ولكن هذا التماسك يتزايل وعائشة تقول لها: أجيبي عني رسول الله ﷺ!، فتقول كما قال زوجها من قبل: والله ما أدري ما أقول لرسول الله ﷺ، والرجل المسلم الطيب الطاهر المجاهد في سبيل الله صفوان بن المعطل، وهو يُرمى بخيانة نبيه في زوجه، فيرمى بذلك في إسلامه، وفي أمانته، وفي شرفه، وفي حميته، وفي كل ما يعتز له صحابي، وهو من ذلك كله بريء .. وهو يفاجأ بالاتهام الظالم وقلبه بريء من تصوره، فيقول: سبحان الله! والله ما كشفت كتف أنثى قط .. ويعلم أن حسان بن ثابت يروج لهذا الإفك عنه، فلا يملك نفسه أن يضربه بالسيف على رأسه ضربة تكاد تودي به .. فالألم قد تجاوز طاقته، فلم يملك زمام نفسه الجريح.

ثم ها هو ذا رسول الله ﷺ .. وهو رسول الله .. ها هو ذا يُرمى في بيته .. وفي من؟! في عائشة التي حلت من قلبه في مكان الابنة والزوجة والحبيبة .. وها هو ذا يُرمى في طهارة فراشه، وهو الطاهر الذي تفيض منه الطهارة .. وها هو ذا يُرمى في صيانة حرمته، وهو القائم على الحرمات في أمته .. وها هو ذا يُرمى في حياطة ربه له، وهو الرسول المعصوم

من كل سوء .. ها هو ذا ﷺ يُرمى في كل شيء حين يُرمى في عائشة رَضِيَ اللَّهُ عَنْهَا .. يُرمى في فراشه وعرضه، وقلبه ورسالته، ويتحدث الناس به في المدينة شهرًا كاملًا، فلا يملك أن يضع لهذا كله حدًّا .. والله يريد - لحكمة يراها - أن يدع هذا الأمر شهرًا كاملًا لا يبين فيه بيانًا .. ومحمد الإنسان يعاني ما يعانيه الإنسان في هذا الموقف الأليم .. يعاني من العار، ويعاني فجيعة القلب، ويعاني - فوق ذلك - الوحشة المؤرقة .. الوحشة من نور الله الذي اعتاد أن ينير له الطريق .. والشك يعمل في قلبه - مع وجود القرائن الكثيرة على براءة أهله، ولكنه لا يطمئن نهائيًّا إلى هذه القرائن - والفرية تفوح في المدينة، وقلبه الإنساني المحب لزوجه الصغيرة يتعذب بالشك، فلا يملك أن يطرد الشك؛ لأنه في النهاية بشر، ينفعل في هذا انفعالات البشر، وزوج لا يطيق أن يمس فراشه، ورجل تتضخم بذرة الشك في قلبه متى استقرت، ويصعب عليه اقتلاعها دون دليل حاسم.

وها هو ذا يثقل عليه العبء وحده، فيبعث إلى أسامة بن زيد .. حبه القريب إلى قلبه .. ويبعث إلى علي بن أبي طالب .. ابن عمه وسنده .. يستشيرهما في خاصة أمره. فأما علي فهو من عصب محمد، وهو شديد الحساسية بالموقف لهذا السبب. ثم هو شديد الحساسية بالألم والقلق اللذين يعتصران قلب محمد، ابن عمه وكافله. فهو يشير بأن الله لم يضيق عليه، ويشير مع هذا بالتثبت من الجارية؛ ليطمئن قلب رسول الله ﷺ، ويستقر على قرار. وأما أسامة فيدرك ما بقلب رسول الله ﷺ من الود لأهله، والتعب لخاطر الفراق، فيشير بما يعلمه من طهارة أم المؤمنين، وكذب المفترين الأفاكين.

ورسول الله ﷺ في لهفة الإنسان، وفي قلق الإنسان، يستمد من حديث أسامة، ومن شهادة الجارية مددًا وقوة يواجه بهما القوم في المسجد، فيستعذر ممن نالوا عرضه، ورموا أهله، ورموا رجلًا من فضلاء المسلمين، لا يعلم أحد عليه من سوء .. فيقع بين الأوس والخزرج ما يقع من تناور، وهم في مسجد رسول الله ﷺ، وفي حضرة رسول الله ﷺ، ويدل هذا على الجو الذي كان يظلل الجماعة المسلمة في هذه الفترة الغريبة، ويحز هذا في نفس الرسول ﷺ، والنور الذي اعتاد أن يسعفه لا ينير له الطريق! فإذا هو يذهب إلى عائشة نفسها، يصارحها بما يقول الناس، ويطلب منها هي البيان الشافي المريح.

وعندما تصل الآلام إلى ذروتها على هذا النحو، يتنزل القرآن ببراءة عائشة الصديقة الطاهرة، وبراءة بيت النبوة الطيب الرفيع، ويكشف المنافقين الذين حاكوا هذا الإفك، ويرسم الطريق المستقيم للجماعة المسلمة في مواجهة مثل هذا الشأن العظيم.

ولقد قالت عائشة عن هذا القرآن الذي تنزل: «وأنا والله أعلم حينئذ أني بريئة، وأن الله تعالى مبرئي ببراءتي، ولكني والله ما كنت أظن أن ينزل الله تعالى في شأني وحيًا يتلى، ولشأني في نفسي كان أحقر من أن يتكلم الله فيَّ بأمر يتلى، ولكن كنت أرجو أن يرى رسول الله ﷺ في النوم رؤيا يبرئني الله تعالى بها .. ولكن الأمر – كما يبدو من ذلك الاستعراض – لم يكن أمر عائشة رَضِيَ اللَّهُ عَنْهَا، ولا قاصرًا على شخصها؛ فلقد تجاوزها إلى شخص الرسول ﷺ ووظيفته في الجماعة يومها؛ بل تجاوزه إلى صلته بربه ورسالته كلها. وما كان حديث الإفك رمية لعائشة وحدها، إنما كان رمية للعقيدة في شخص نبيها وبانيها .. من أجل ذلك أنزل الله القرآن؛ ليفصل في القضية المبتدعة، ويرد المكيدة المدبرة، ويتولى المعركة الدائرة ضد الإسلام ورسول الإسلام، ويكشف عن الحكمة العليا وراء ذلك كله[1].

إن الذين جاءوا بالإفك عصبة منكم:

وقد بينت الروايات الأخرى في الصحيحين وغيرهما، أن الذين خاضوا في هذا الحديث الآثم رأس النفاق ابن أُبيّ، وحمنة بنت جحش، ومسطح بن أثاثة، وحسان بن ثابت، وأن الذي تولَّى معظم الحديث والإرجاف به ابن أُبي، وتليه حمنة في هذا، وقد تاب هؤلاء – ما عدا ابن أُبي – ولا سيما حسان بن ثابت، فقد اعتذر عما كان منه، وقال يمدح عائشة بما هي له أهل[2]:

حَصَانٌ رَزَانٌ ما تُزَنُّ بريبة ... وتصبح غَرْثى من لحوم الغوافل

(1) في ظلال القرآن، سورة النور.

(2) أبو شهبة، السيرة النبوية، ج1، ص 263-264.

عقيلة حي من لؤي بن غالب ... كرام المساعي مجدهم غير زائل

مهذبة قد طيب الله خيمها ... وطهرها من كل سوءٍ وباطل

وزاد الحاكم في رواية له من غير رواية ابن إسحاق:

حليلة خير الخلق دينًا ومنصبًا ... نبي الهدى والمكرمات الفواضل

رأيتك - وليغفر لي الله - حرة ... من المحصنات غير ذات الغوائل

وقد تخلَّقت السيدة عائشة بأخلاق زوجها وأبيها فعفَت، وكان حسان يستأذن عليها لما كبر وعمي فتأذن له، بل كانت تكره رَضِيَ اللَّهُ عَنْهَا أن يُسب عندها؛ لمنافحته عن رسول الله وآل بيته، وتقول: إنه الذي قال:

فإنَّ أبي ووالدتي وعرضي ... لعرض محمد منكم وقاء

وأقام رسول الله ﷺ حد القذف على حسان ومسطح وحمنة، أما عبد الله بن أبي بن سلول، الذي تولى كبر الإفك، فلم يقم عليه الحد؛ لأنه لم يترك دليلًا ضده؛ إذ كان يستشريه (أي يستخرجه بالبحث والحديث فيه)، ثم يفشيه ويشيعه ويحركه، ولا يدعه يخمد[1].

والذي يتبادر إلى الذهن أن حديث الإفك كله هو من صنع المنافقين، وأنهم هم الذين خاضوا فيه، غير أن النص القرآني واضح في أن الذي جاء بالإفك فريق من المؤمنين: ﴿إِنَّ ٱلَّذِينَ جَآءُو بِٱلْإِفْكِ عُصْبَةٌ مِّنكُمْ ۚ لَا تَحْسَبُوهُ شَرًّا لَّكُم ۖ بَلْ هُوَ خَيْرٌ لَّكُمْ ﴾[النور:١١]، والآيات المتتالية تناقش المؤمنين الذين خاضوا فيه ﴿ظَنَّ ٱلْمُؤْمِنُونَ وَٱلْمُؤْمِنَٰتُ بِأَنفُسِهِمْ خَيْرًا ﴾ [النور:١٢]. لكن دور المنافقين كان في تأجيج هذا الحدث ونشره. فقد أشارت عائشة رَضِيَ اللَّهُ عَنْهَا إلى أن الذي تولى كبره هو عبد الله بن أبي، حيث تقول: (وكان كبر ذلك عند عبد الله بن أبي بن سلول في رجالٍ من الخزرج).

---

(1) مهدي رزق الله، السيرة النبوية، ص 439، وصحيح مسلم (2134/4)، حديث (2770).

وما كان المنافقون ليجرءوا على بث هذا الحديث والخوض فيه بعد الفضيحة التي نالتهم بعد التعرية التي نزلت (في القرآن) بابن أُبيّ. لكن انتشار الحديث واستفاضته في الصف الإسلامي، جعل المجال رحبًا لهم أن يدسوا أنوفهم فيه، ويشعلوا النار من خلف الستار. ولعل عبد الله بن أبي وحده هو الذي برز من خلال النص، أنه تولى كبره، ومعه ثلاثة من الصف الإسلامي الخالص: حسان بن ثابت، شاعر رسول الله ﷺ، وممن قال له رسول الله: «اهجهم وروح القدس معك» .. ومسطح بن أثاثة، وهو من المهاجرين، وممن شهد بدرًا، وابن خالة عائشة رَضِيَ اللَّهُ عَنْهَا، ومن المقيمين في بيت أبي بكر رَضِيَ اللَّهُ عَنْهُ .. وحمنة بنت جحش، ابنة عمة رسول الله ﷺ، وزوج شهيد الإسلام العظيم مصعب بن عمير[1].

وبذا ندرك أنه لا عصمة لأحد سوى الأنبياء والمرسلين، وندرك أن المجتمع المسلم الأول - وإن كان هو أفضل المجتمعات التي عرفتها البشرية، إلا أنه - في النهاية - مجتمع من البشر، يخطئ أفراده ويصيبون، ويذنبون ويتوبون، ولكن العبرة بأمرين:

أولهما: أن غالب المجتمع مستمسك بالصلاح، ملتزم بشريعة ربه، متعايش وفق تعاليم الإسلام وأخلاقه.

ثانيهما: أن من يشذ فله العقوبة، يستوي في ذلك أهل الغواية والضلال، مع أصحاب المكانة والصلاح.

سبحانك .. هذا بهتان عظيم:

وعاتب القرآن أولئك النفر الذين وقعوا في حبائل المنافقين: حمنة ومسطحًا وحسَّانًا، فقال: ﴿ لَّوْلَآ إِذْ سَمِعْتُمُوهُ ظَنَّ ٱلْمُؤْمِنُونَ وَٱلْمُؤْمِنَٰتُ بِأَنفُسِهِمْ خَيْرًا وَقَالُوا۟ هَٰذَآ إِفْكٌ مُّبِينٌ ﴿١٢﴾ ﴾ [النور].

وسجل القرآن ذلك الموقف الرائع لأولئك النفر من المؤمنين الذين وقفوا من هذا الإفك موقف المؤمن اليقظ، والواثق ثقة كبيرة بآل بيت النبوة، الذين طهروا من الدنس والأرجاس، منهم أبو أيوب الأنصاري وأم أيوب؛ فقد نزل في هؤلاء قوله تعالى: ﴿ وَلَوْلَآ إِذْ سَمِعْتُمُوهُ قُلْتُم مَّا يَكُونُ لَنَآ أَن نَّتَكَلَّمَ بِهَٰذَا سُبْحَٰنَكَ هَٰذَا بُهْتَٰنٌ عَظِيمٌ ﴿١٦﴾ ﴾ [النور].

---

(1) الغضبان: المنهج الحركي، ص 280.

روى الواحدي بإسناد متصل إلى عائشة رَضِيَ اللَّهُ عَنْهَا في سبب نزول هذه الآية: «كان أبو أيوب الأنصاري حين أخبرته امرأته، وقالت: يا أبا أيوب ألم تسمع بما تحدث الناس؟ قال: ما يتحدثون؟ فأخبرته بقول أهل الإفك، فقال: ما يكون لنا أن نتكلم بهذا سبحانك هذا بهتان عظيم، قالت: فأنزل الله ﷻ: ﴿ وَلَوْلَآ إِذْ سَمِعْتُمُوهُ قُلْتُم مَّا يَكُونُ لَنَآ أَن نَّتَكَلَّمَ بِهَٰذَا سُبْحَٰنَكَ هَٰذَا بُهْتَٰنٌ عَظِيمٌ ﴿١٦﴾ ﴾ [النور].

وروى البخاري[1] أن رجلًا من الأنصار عندما سمع هذه الفرية، قال: «سبحانك ما يكون لنا أن نتكلم بهذا، سبحانك هذا بهتان عظيم»[2].

وقد ذكر الواقدي أن هذه الآية نزلت أيضًا في أم الطفيل وزوجها أبي بن كعب رَضِيَ اللَّهُ عَنْهُمَا، وفي تفسير سنيد من مرسل سعيد بن جبير، أن سعد بن معاذ لما سمع ما قيل في أمر عائشة، قال: سبحانك هذا بهتان عظيم [3].

أما أكثر الناس في المدينة فقد سكتوا حين رميت الصديقة بنت الصديق بالإفك، فحموا أسماعهم وألسنتهم، ولم ينطقوا إلا بخير، ولم يخوضوا في حديث الإفك بتكذيب أو تصديق.

درس من حديث الإفك: المناعة من الإشاعة:

قال الشيخ منير الغضبان:

وأهم ما في هذا الحدث، هو أن مصدر الفرية - على ما يبدو - هم المنافقون، تحت راية زعيمهم عبد الله بن أبي. وحين يتحصن الصف من الفرية، وتبقى في صفوف المنافقين، فلا خطر منهم، ولكن عندما تنتقل إلى داخل الصف المسلم، فتسري فيه سريان النار في الهشيم، عندئذ يبدو خطرهم الكبير.

---

(1) الفتح (110/28، حديث 17370).

(2) مهدي رزق الله: السيرة النبوية، ص 438.

(3) ابن حجر، الفتح (110/28).

والنص القرآني حين تحدث عن هذه الحادثة، كان يخاطب الصف المسلم أكثر مما يخاطب صف المنافقين، ويحمل على المؤمنين الصادقين الذين تأثروا بهذه الفرية، واستجابوا للحديث في الظنة دون بينة .. والنقاط المحددة التي نعرض لها في هذا الحديث المؤتفك هي ما يلي:

أولًا: البعد عن مظان التهمة واجب أساسي على الصف المسلم: وعليه أن يعلم - وخاصة القيادة - أنه هدف لأنظار العدو والصديق، فيتجنب ما استطاع البعد عن موطن الريبة.

ثانيًا: عدم الأخذ بالإشاعة، كما يقول القرآن الكريم:

﴿ لَّوْلَا جَآءُو عَلَيْهِ بِأَرْبَعَةِ شُهَدَآءَ ۚ فَإِذْ لَمْ يَأْتُوا۟ بِٱلشُّهَدَآءِ فَأُو۟لَٰٓئِكَ عِندَ ٱللَّهِ هُمُ ٱلْكَٰذِبُونَ ﴿١٣﴾ ﴾ [النور]، وأي خبر غير موثَّق بالنسبة للفرد المسلم هو مرفوض عنده، وليعلم هذا الأخ أن رواية الإشاعة، وتناقل الخبر غير الموثَّق، تحيله إلى أخٍ كاذب .. وهذا حكم القرآن في أمثال هؤلاء .. هم الكاذبون عند الله، ولو لم يفتر الكذب .. لو كان نقله صدقًا محصنًا عمن سمع منه، فهو عند الله تعالى من الكاذبين.

ثالثًا: ليبق الميزان الحساس في الحكم على الإشاعة هو الميزان الذاتي: فلابد من ثقة الأخ بإخوانه ثقته بنفسه، وقد أقر القرآن هذا الميزان، وأثنى عليه، وذلك بمناسبة الحديث الذي جرى بين أبي أيوب الأنصاري وزوجه أم أيوب رَضِيَ ٱللَّهُ عَنْهُمَا؛ إذ قالت لزوجها: «أما تسمع ما يقول الناس في عائشة؟ قال: نعم، وذلك الكذب .. أكنت فاعلة ذلك يا أم أيوب؟ قالت: لا والله ما كنت لأفعله. فقال: فعائشة والله خير منك»(1)، ونتمنى لكل أخ وهو يثير الإشاعة بحق أخيه أو قيادته، أن يحسب - على أقل تقدير - أن أخاه أو مسئوله ليس أقل حرصًا على دينه منه، وليس أقل دينًا وورعًا منه .. ولو نفذ هذا الميزان الذاتي، لانهارت الشائعة، وانهار الإفك من جذوره.

(1) ابن هشام، ج3، ص 305.

رابعًا: أن لا يتدخل الهوى إطلاقًا في قضية النقل للإشاعة والمساهمة فيها: وصورتان متنافرتان لاتباع الهوى في الإفك، وللتبرؤ منه، والصورتان هما لأختين مسلمتين شقيقتين ؛ الأولى: هي زينب بنت جحش رَضِيَ اللَّهُ عَنْهَا، والثانية: لأختها حمنة بنت جحش؛ فقد أورد المقريزي عن زينب هذا الحوار بينها وبين رسول الله ﷺ: قالت: «حاشى سمعي وبصري، ما علمت عليها إلا خيرًا، والله ما أكلمها وإني لمهاجرتها، وما كنت أقول إلا الحق»[1].

وأن تستطيع ضرة أن تكتم هواها، فلا تمضي في الإشاعة يدل على المستوى العظيم الذي بلغته هذه المرأة المسلمة، والأفق العالي الذي ارتقت عليه.

أما الموقف الثاني، فهو موقف أختها حمنة، التي انطلقت في الإشاعة تنقلها من بيت إلى بيت، ولا شيء يقف في وجهها؛ وذلك ثأرًا لأختها زينب.

تقول عائشة رَضِيَ اللَّهُ عَنْهَا:

(أما أختها حمنة فأشاعت من ذلك ما أشاعت، تضادُني لأختها، فهلكت).

خامسًا: موقف المفترى عليه، هو أثقل الأدوار وأضخمها في حديث الإفك:

والمنهج الذي يجب أن يسود في هذا الصدد هو أن لا يقابل الافتراء بافتراء آخر، ولا تقابل الإشاعة المؤتفكة بإشاعة أخرى .. وأن يتمالك الأخ المفترى عليه، فلا يطلق لسانه في أعراض الآخرين - ولو اعتدي عليه - حتى تتم براءته وتبرئته. ونلحظ موطن القدوة من العناصر الثلاثة الذين نيل من عرضهم في حديث الإفك.

أولهم: محمد رسول الله ﷺ، وهو سيد الأمة والبشرية، وهو الحاكم والقائد، وبيده السلطة، وبإشارة واحدة منه يمكنه أن ينهي حياة الوالغين في عرضه، ومع ذلك لم يملك في هذا الأمر - بعد أن استشار كبار أصحابه - إلا أن يخطب في المسلمين قائلًا على المنبر، بعد أن حمد الله وأثنى عليه: «أيها الناس، ما بال رجال يؤذونني في أهلي، ويقولون عليهم غير الحق، والله ما علمت منهم إلا خيرًا .. ويقولون ذلك لرجل والله ما علمت عليه إلا خيرًا، وما يدخل بيتًا من بيوتي إلا وهو معي».

(1) إمتاع الأسماع، ج1، ص 208.

وعندما وقعت الأزمة بين الفريقين الأوس والخزرج، لم يكن ليملك عليه الصلاة والسلام، إلا أن يكون حكمًا بينهما، رغم أن أحد الفريقين يدافع عن الوالغين في عرض عائشة رَضِيَ اللَّهُ عَنْهَا، والآخر يهاجمهم، ومع ذلك فقد أرضى الفريقين، ولم يتحيز لأحدهما؛ لأنه لا يملك البينة ليرد بها على الفريق المتهم، وحتى عندما تجاوز صفوان رَضِيَ اللَّهُ عَنْهُ في ثورته لنفسه، وضرب حسان بن ثابت على اتهامه، لم يسنده رسول الله ﷺ من الخلف، ويشجعه على تجاوزه قبل صدور البينة، مع أنه يبرئ أحب الناس إليه عائشة رَضِيَ اللَّهُ عَنْهَا، وقد حضر حسان وصفوان عند رسول الله ﷺ، ولنستمع إلى تلك المحاكمة الهادئة للجنديين المتجاوزين!

(قال صفوان بن المعطل: يا رسول الله آذاني وهجاني، فاحتملني الغضب فضربته. فقال رسول الله ﷺ لحسان: «أحسن يا حسان، أتشوهت على قومي أن هداهم الله للإسلام؟!»، ثم قال: «أحسن يا حسان في الذي أصابك»، قال: هي لك يا رسول الله.

قال ابن إسحاق: فحدثني محمد بن إبراهيم، أن رسول الله ﷺ أعطاه عوضًا عنها .. وأعطاه سيرين (أمة قبطية)، فولدت له عبد الرحمن بن حسان [1].

وهكذا كلفت ضربة صفوان لحسان أرضًا وجارية، وهبها رسول الله ﷺ لحسان بن ثابت بعد عفوه عن صفوان بن المعطل، وكان هذا العطاء لمن ينشد الشعر في اتهام زوجته، ويمضي في الإشاعة دون توقف.

وثانيهم: هو أبو بكر رَضِيَ اللَّهُ عَنْهُ وزوجه أم رومان، وقد نزل بهم من البلاء ما لم ينزل بمسلم، وأقصى ما قالته أم عائشة التي تعرض عرضها للثلم والإهانة:

(أي بنية خفضي عليك الشأن؛ فوالله لقلما كانت امرأة حسناء عند رجل يحبها، لها ضرائر، إلا كثرن وكثر الناس عليها).

ولم يتمالك أبو بكر رَضِيَ اللَّهُ عَنْهُ أن يقول:

---

(1) ابن هشام، ج3، ص:318-319.

«ما أعلم أهل بيت من العرب دخل عليهم ما دخل على آل أبي بكر .. والله ما قيل لنا هذا في الجاهلية حيث لا نعبد الله، فيقال لنا في الإسلام؟!».

وثالثهم: عائشة رَضِيَ اللَّهُ عَنْهَا، التي لم تنته عن البكاء حتى ظنت أن البكاء سيصدع كبدها.

وحين ووجهت بالأمر من رسول الله ﷺ يسألها عن الحديث، فقالت:

(إني والله قد علمت أنكم سمعتم بهذا الحديث، فوقع في أنفسكم فصدقتم به، فلئن قلت لكم إني بريئة لا تصدقوني، ولئن اعترفت لكم بأمر يعلم الله أني منه بريئة لتصدقنني .. وإني والله ما أجد لي مثلًا إلا أبا يوسف؛ إذ يقول: ﴿فَصَبْرٌ جَمِيلٌ وَاللَّهُ الْمُسْتَعَانُ عَلَىٰ مَا تَصِفُونَ (١٨)﴾ [يوسف]).

إنها مواقف لا يحمل التاريخ لها مثيلًا من أطهر أهل الأرض، يوصمون بشرفهم وعرضهم، ومع ذلك فلم يخرج أحد منهم عن طوره، ولا أطلق لسانه في عرض أحد، وضبط كل واحد منهم أعصابه، وأما الذي خرج عن طوره، فهو صفوان بن المعطل رَضِيَ اللَّهُ عَنْهُ، وضرب حسان بالسيف، وكاد الأمر أن يستفحل، لولا أن عالجه رسول الله ﷺ.

إنه أدب الإسلام العظيم مع الذين يرددون الإشاعة، ويسيرون في الإفك قبل أن تعرف أنها إفك أو إشاعة.

سادسًا: والموقف الأخير الذي نستخلصه من حديث الإفك، هو عقوبة المفترين اللاغطين المثيرين للفتنة .. فلا يكفي أن تثبت براءة المتهم، ولا يكفي أن تدفع القيادة عنها قالة السوء وانتهى الأمر؛ بل لابد في الصف المسلم من العقوبة الصارمة مع من يثير الإشاعة، ويسعى في نشرها بعد التثبت منها. ويكفي أن نعلم أن حكم الإسلام كان في هؤلاء الثلاثة الذين ساروا في الإفك: مسطح بن أثاثة، وحسان بن ثابت، وحمنة بنت جحش، أن أقيم عليهم حد القذف ثمانين جلدة [1].

---

(1) المنهج الحركي، القسم الثالث، ص 8-11.



الباب السابع عشر

غزوة الأحزاب .. آخر الحروب الدفاعية

الباب السابع عشر

غزوة الأحزاب .. آخر الحروب الدفاعية

شهدت السنة الخامسة للهجرة آخر الحروب التي خاضها المسلمون دفاعًا عن دولتهم في المدينة؛ إذ بدأوا بعدها سلسلة من الحروب الهجومية لطلب المجرمين المشركين في أماكنهم وبلادهم وحصونهم، إلى أن صار الإسلام هو دين جزيرة العرب الأوحد.

في هذه السنة تحزبت الأحزاب من ملل الكفر والشرك: المشركون برجالهم وجيوشهم، واليهود بغدرهم وأموالهم، والمنافقون بانخذالهم وإرجافهم. وقد جمع هؤلاء جميعًا هدف واحد، هو استئصال المسلمين، وقتل رسولهم ﷺ، واحتلال المدينة، ونهب خيراتها ﴿يُرِيدُونَ أَن يُطْفِـُٔواْ نُورَ ٱللَّهِ بِأَفْوَٰهِهِمْ وَيَأْبَى ٱللَّهُ إِلَّآ أَن يُتِمَّ نُورَهُۥ وَلَوْ كَرِهَ ٱلْكَٰفِرُونَ ﴿٣٢﴾﴾ [التوبة]. فنصر الله عبده، وأعز جنده، وهزم الأحزاب وحده.

* * *

الفصل الأول

غزوة الأحزاب

وقعت غزوة الأحزاب (الخندق) في شوال سنة خمس من الهجرة. قال ابن كثير: وقد كانت غزوة الخندق في شوال سنة خمس من الهجرة، نص على ذلك ابن إسحاق، وعروة ابن الزبير، وقتادة والبيهقي، وغير واحد من العلماء سلفًا وخلفًا[1].

المبحث الأول: الأحزاب

كانت قريش تود لو أتيحت لها الفرصة للقضاء على النبي والإسلام، ولا سيما بعدما أصابها من نكسة؛ بسبب نكوصها عن الخروج في بدر الآخرة. وكان الأعراب الذين نال منهم النبي وصحابته موتورين، ويتحينون الفرصة للانتقام. وكان اليهود من بني قينقاع وبني النضير الذين أجلاهم النبي عن المدينة، مغيظين محنقين، ويسعَوْن - ما وسعتهم الحيلة - في القضاء على هؤلاء الذين أجلوهم عن ديارهم، فلا تعجب إذا كانت قوى الشر الثلاث هذه قد تعاونت؛ قصد القضاء على الإسلام والمسلمين، فكانت غزوة الأحزاب[2].

اليهود يحزبون الأحزاب:

إن السبب الأقوى والمباشر لحدوث هذه الغزوة، هو أن رؤساء بني النضير الذين نزلوا بخيبر يوم جلائهم - وهم حيي بن أخطب، وعبد الله بن أبي الحقيق، وكنانة بن الربيع بن أبي الحقيق، وغيرهم - رأوا أن يثأروا لما أصابهم من الذل والهوان، وينقموا من الرسول ﷺ والمؤمنين، فخرجوا إلى مكة لتأليب قريش، وتحزيب الأحزاب لقتال النبّي ﷺ، والقضاء عليه، فوجدوا قريشًا مستعدة لذلك؛ من أجل الهزائم التي لحقتها في غير ما ميدان وساحة قتال، وضللها هؤلاء اليهود؛ إذ أعلموها أنها على حق، وأن دينها خير

---

(1) البداية والنهاية 107/4.

(2) أبو شهبة: السيرة النبوية، ج2، ص 274.

من دين محمد، وأنها أهدى منه سبيلًا في حياتها الدينية والاجتماعية والسياسية. وفي هذا نزل قول الله تعالى من سورة النساء: ﴿ أَلَمْ تَرَ إِلَى الَّذِينَ أُوتُوا نَصِيبًا مِّنَ الْكِتَابِ يُؤْمِنُونَ بِالْجِبْتِ وَالطَّاغُوتِ وَيَقُولُونَ لِلَّذِينَ كَفَرُوا هَٰؤُلَاءِ أَهْدَىٰ مِنَ الَّذِينَ آمَنُوا سَبِيلًا ﴿٥١﴾ أُولَٰئِكَ الَّذِينَ لَعَنَهُمُ اللَّهُ ۖ وَمَن يَلْعَنِ اللَّهُ فَلَن تَجِدَ لَهُ نَصِيرًا ﴿٥٢﴾ ﴾ [النساء].

فخرجوا من عند قريش وتركوها تعد العدة، وتجمع الرجال من قبائلها على اختلافهم مُجمعة الخروج إلى المدينة لحرب محمد ﷺ واستئصاله[1].

ثم اتجهوا بعد هذا إلى قبيلة غطفان النجدية الكبرى، وأغروها بالتحالف معهم ومع قريش على حرب المسلمين، على أن يكون لهم نصف تمر خيبر إذا اشتركت معهم في الحرب، وكان وافدهم إلى غطفان كنانة بن الربيع بن أبي الحقيق، فأجابه عيينة بن حصن الفزاري إلى ذلك[2].

خروج الأحزاب:

وتجمعت[3] الأحزاب لحرب رسول الله والمسلمين، فخرجت قريش - وعلى رأسها أبو سفيان بن حرب - في أربعة آلاف، معهم ثلاثمائة فرس وألف وخمسمائة بعير، ويحمل لواءهم عثمان بن طلحة بن أبي طلحة، الذي قُتل أبوه وهو يحمل اللواء يوم أحد .. وخرجت غطفان، يرأسها عُيينة بن حصن (الأحمق المطاع)، الذي صالحه رسول الله وأقطعه أرضًا يرعى فيها سوائمه، وكان معه ألف فارس .. وخرج بنو مرة في أربعمائة، برئاسة الحارث بن عوف المري .. وتجهزت بنو سُلَيم في سبعمائة مقاتل، وبنو أسد يرأسهم طليحة بن خويلد الأسدي، وبنو أشجع .. وهكذا تحزبت الأحزاب، حتى صاروا عشرة آلاف، قائدهم العام أبو سفيان بن حرب، وساروا قاصدين المدينة.

---

(1) الجزائري: هذا الحبيب يا محب، ص 299-300.

(2) مهدي رزق الله، السيرة النبوية، ص 445.

(3) أبو شهبة، ص 276،277.

رصد استخباراتي:

لم تكد تتحرك هذه الجيوش عن مواضعها، حتى نقلت استخبارات المدينة إلى رسول الله ﷺ خبرها؛ فقد أتى وفد من خزاعة[1] – عندما تحرك أبو سفيان بجيشه من مكة إلى النبي ﷺ – فأخبروه، فندب الناس وأخبرهم خبر عدوهم وعدده وعتاده [2]، وما كان بين اليهود وقريش وغطفان، فشرع المسلمون في اتخاذ الإجراءات الدفاعية اللازمة، وكانت إجراءات فريدة لم تسمع العرب بمثلها.

المبحث الثاني: الخندق

سلمان الفارسي .. وكيد لا تعرفه العرب:

استشار رسول الله ﷺ أصحابه رَضِيَ اللَّهُ عَنْهُمْ: أيقيمون في المدينة متحصنين بها، أم يخرجون للقاء عدوهم، فأشار سلمان رَضِيَ اللَّهُ عَنْهُ بضرب خندق حول المدينة، يحميها من قريش والأحزاب، وكان رَضِيَ اللَّهُ عَنْهُ قد خبر في بلاد الفرس الكثير من وسائل الحرب وخدعها، ومنها حفر الخندق؛ للتحصن من العدو، فقال: «يا رسول الله، إنا إذا كنا بأرض فارس، وتخوفنا الخيل، خندقنا علينا، فهل لك يا رسول الله أن تخندق»[3] فاستحسن رسول الله ﷺ وأصحابه الفكرة، وأخذوا قرارهم بحفر الخندق، ثم بادروا بذلك.

تحديد مكان الخندق:

اختار رسول الله ﷺ الجهة الشمالية للمدينة مكانًا لحفر الخندق؛ فهي الجهة الوحيدة التي لن يجد المهاجمون للمدينة نفاذًا إلا منها؛ إذ إن مدخل المدينة من الجنوب كان كالحصن المنيع، تتشابك فيه البيوت والأبنية وأشجار النخيل، وكانت مسالكه ضيقة لا تتسع إلا لعدد قليل من المهاجمين؛ مما يسهل على المسلمين اصطيادهم.

---

(1) أبو شهبة: السيرة النبوية، ج2، ص 276-277.

(2) انظر: المنهج الحركي للغضبان، ص 400.

(3) انظر: مغازي الواقدي (2/444).

وكانت حرة «واقم» تحمي المدينة من جهة الشرق، وحرة «وبرة» تحميها من جهة الغرب، فهذه الحرات يصعب على الإبل والمشاة التحرك فيها.

وكانت آطام (حصون) بني قريظة في الجنوب الشرقي كفيلة بتأمين ظهر المسلمين؛ فقد كان بينهم وبين الرسول ﷺ عهد ألا يمالئوا (يعاونوا) عليه أحدًا، ولا يناصروا عدوًّا ضده.

قال الواقدي: ... وركب رسول الله ﷺ فرسًا له، ومعه نفر من أصحابه من المهاجرين والأنصار، فارتاد موضعًا ينزله، فكان أعجب المنازل إليه أن يجعل سلعًا (أي جبل سلع) خلف ظهره، ويخندق من المذاد إلى ذباب (تل صغير في المدينة يفصل بينه وبين جبل سلع ثنية الوداع)، إلى راتج (حصن من حصون اليهود)، وقد استفاد ﷺ من مناعة جبل سلع في حماية ظهور الصحابة.

توزيع مهام الحفر:

خرج المسلمون من المدينة، فعسكر بهم رسول الله ﷺ في سفح جبل سلع، فجعلوه خلفهم، ثم هبوا جميعًا يحفرون الخندق في جو شديد البرودة.

وكان طول الخندق خمسة آلاف ذراع، وعرضه تسعة أذرع، وعمقه من سبعة أذرع إلى عشرة(1). وكان على كل عشرة من المسلمين حفر أربعين ذراعا(2). حفر المهاجرون من ناحية حصن راتج في الشرق إلى حصن ذباب، والأنصار من حصن ذباب إلى جبل عبيد في الغرب(3).

وعمل المسلمون في الحفر على عجل، يبادرون قدوم القوم(4)، وقد تراوحت مدة الحفر ما بين ستة أيام وأربعة وعشرين يومًا. فعند ابن عقبة استغرق قريبًا من عشرين

---

(1) مهدي رزق الله: السيرة النبوية، ص 446-447.

(2) وردت بذلك روايات ضعيفة من الناحية الحديثية، من طريق كثير بن عبد الله المزني، وهو ضعيف، فانظرها في: مجمع الزوائد (130/6) وتفسير الطبري (33/21) وفتح الباري (280/15)، وغيرهم.

(3) الواقدي (2/445-450)، وابن سعد (2/66-67) معلقًا، شرح ثلاثيات مسند أحمد (1/199-200).

(4) من رواية ابن عقبة في الدلائل والفتح - سبق ذكره.

ليلة، وعند الواقدي أربعًا وعشرين ليلة، وفي الروضة للنووي خمسة عشر يومًا، وعند ابن سعد ستة أيام.

قال ابن إسحاق: «... وأبطأ عن رسول الله ﷺ وعن المسلمين في عملهم ذلك رجال من المنافقين، وجعلوا يورُّون بالضعيف من العمل (أي يؤدون الأعمال البسيطة تظاهرًا)، ويتسللون إلى أهليهم بغير علم من رسول الله ﷺ ولا إذن، وجعل الرجل من المسلمين إذا نابته النائبة من الحاجة التي لابد له منها يذكر ذلك لرسول الله ﷺ، ويستأذنه في اللحوق بحاجته، فيأذن له، فإذا قضى حاجته رجع إلى ما كان فيه من عمله؛ رغبة في الخير، واحتسابًا له». فأنزل الله تعالى في أولئك من المؤمنين: ﴿إِنَّمَا ٱلْمُؤْمِنُونَ ٱلَّذِينَ ءَامَنُوا۟ بِٱللَّهِ وَرَسُولِهِۦ وَإِذَا كَانُوا۟ مَعَهُۥ عَلَىٰٓ أَمْرٍ جَامِعٍ لَّمْ يَذْهَبُوا۟ حَتَّىٰ يَسْتَـْٔذِنُوهُ ۚ إِنَّ ٱلَّذِينَ يَسْتَـْٔذِنُونَكَ أُو۟لَـٰٓئِكَ ٱلَّذِينَ يُؤْمِنُونَ بِٱللَّهِ وَرَسُولِهِۦ ۚ فَإِذَا ٱسْتَـْٔذَنُوكَ لِبَعْضِ شَأْنِهِمْ فَأْذَن لِّمَن شِئْتَ مِنْهُمْ وَٱسْتَغْفِرْ لَهُمُ ٱللَّهَ ۚ إِنَّ ٱللَّهَ غَفُورٌ رَّحِيمٌ ﴿٦٢﴾﴾ [النور]. فنزلت هذه الآية فيمن كان من المسلمين من أهل الحسبة، والرغبة في الخير، والطاعة لله ولرسوله ﷺ. ثم قال تعالى عن المنافقين الذين كانوا يتسللون من العمل، ويذهبون بغير إذن من النبي ﷺ: ﴿قَدْ يَعْلَمُ ٱللَّهُ ٱلَّذِينَ يَتَسَلَّلُونَ مِنكُمْ لِوَاذًا ۚ فَلْيَحْذَرِ ٱلَّذِينَ يُخَالِفُونَ عَنْ أَمْرِهِۦٓ أَن تُصِيبَهُمْ فِتْنَةٌ أَوْ يُصِيبَهُمْ عَذَابٌ أَلِيمٌ ﴿٦٣﴾﴾ [النور].

النبي ﷺ مع أصحابه:

تقدم النبي ﷺ رجاله، فأخذ يحفر بيده، ويحمل الأتربة والأحجار على عاتقه، وحوله رجال يتأسون به ممن لم يألفوا هذا العمل قط، فشهدت المدينة منظرًا عجبًا: وجوهًا ناصعة تتألف منها فرق شتى، تضرب بالفئوس وتحمل المكاتل، وتتعرى من بعض لباسها لتلبس حللًا من نسج الغبار المتراكم والعرق واللغوب (1).

(1) الغزالي: فقه السيرة، ص 318.

روى البخاري ومسلم في صحيحيهما، عن البراء بن عازب رَضِيَ اللَّهُ عَنْهُ، قال: لما كان يوم الأحزاب، وخندق رسول الله ﷺ، رأيته يحمل من تراب الخندق حتى وارى عنه التراب جلدة بطنه، وكان كثير الشَّعَر، فسمعته يرتجز بكلمات عبدالله بن رواحة، وهو ينقل التراب يقول:

اللّٰهم لـــولا أنـــت مـــا اهتـــدينا ولا تـــــــصدقنا ولا صـــــــلينا

فـــــأنزلن ســـــكينة علينـــــا وثبـــــت الأقـــــدام إن لاقينـــــا

إن الألى قـــــد بغـــــوا علينـــــا وإن أرادوا فتنـــــــة أبينـــــــا

ثم يمد صوته بآخرها، يعني يقول: أبينا، أبينا.

وروى البخاري عن أنس رَضِيَ اللَّهُ عَنْهُ، قال: خرج رسول الله ﷺ إلى الخندق، فإذا المهاجرون والأنصار يحفرون في غداة باردة، ولم يكن لهم عبيد يعملون ذلك لهم، فلما رأى ما بهم من النصب والجوع، قال: (اللّٰهم إن العيش عيش الآخرة، فاغفر للأنصار والمهاجرة)، فقالوا مجيبين له:

نحـــن الـــذين بـــايعوا محمـــدًا عـــلى الجهـــاد مـــا بقينـــا أبـــدًا

وكان طعامهم القليل من الشعير، يُخلط بدهن متغير الرائحة لِقَدمه، ويُطبخ فيأكلونه، على الرغم من بشاعة طعمه في الحلق ورائحته المنتنة؛ وذلك لشدة جوعهم[1]، وحتى هذا لا يجدونه أحيانًا، فيأكلون التمر، وأحيانًا لا يجدون هذا ولاذاك لمدة ثلاثة أيام متتالية، إلى الحد الذي يعصب فيه النبي ﷺ بطنه بحجر من شدة الجوع[2]. قال أبو طلحة: شكونا إلى رسول الله ﷺ الجوع، فرفعنا عن بطوننا عن حجر حجر، فرفع رسول الله ﷺ عن حجرين[3].

---

(1) البخاري/ الفتح (15/218/ حديث 4100).

(2) البخاري/ الفتح (15/279)، مهدي رزق الله، السيرة النبوية، ص: 7447.

(3) انظر: الرحيق المختوم للمباركفوري، ص 267.

أهازيج الصحابة:

كان الصحابة رَضِيَ اللَّهُ عَنْهُمْ ينشطون أنفسهم من النصب والتعب بالأرجاز والأهازيج، فيشتد عزمهم، ويزداد جَلَدُهم، وكان رسول الله ﷺ - كما ذكرنا - يتجاوب معهم، فإذا تقاولوا يقول كما يقولون، وإذا ارتجزوا ارتزج كما يرتجزون. وكانوا رَضِيَ اللَّهُ عَنْهُمْ يرتجزون برجل من المسلمين يقال له «جُعَيْل»، وسماه النبي ﷺ «عَمْرًا»، فيقولون:

سماه من بعد جعيل عمرًا. فيقول ﷺ: (عَمْرًا).

فيقولون: وكان للبائس يومًا ظَهْرًا. فيقول ﷺ: (ظَهْرًا)[1].

وكان رسول الله ﷺ يبتغي من وراء ذلك تدعيم القوى المعنوية لرجاله؛ حتى يوقنوا بأن الضائقة التي تواجههم سحابة صيف، عن قليل تقشع، ثم يستأنف الإسلام مسيره بعدُ، فيدخل الناس فيه أفواجًا، وتندك أمامه معاقل الظلم، فلا يصدر عنها كيد، ولا تخشى منها فتنة، ومن إحكام السياسة أن يقارن هذا الأمل الواسع مراحل الجهد المضني [2].

معجزات:

قال ابن إسحاق: وكان في حفر الخندق أحاديث بلغتني، فيها عبرة من الله تعالى في تصديق رسول الله ﷺ، وتحقيق نبوته، عاين ذلك المسلمون [3]، فكان من ذلك:

1- **طعام جابر:**

عن جابر بن عبد الله رَضِيَ اللَّهُ عَنْهُمَا، قال: إنا يوم الخندق نُحفر[4]، فعرضت كُدْيَة شديدة، فجاءوا النبي ﷺ، فقالوا: هذه كُدية (صخرة) عرضت في الخندق، فقال: «أنا نازل»، ثم قام وبطنه معصوب بحجر، ولبثنا ثلاثة أيام لا نذوق ذواقًا، فأخذ النبي ﷺ المعول، فضرب في الكدية، فعاد كثيبًا أهيل[5] أو أهيم.

---

(1) انظر: هذا الحبيب يا محب، للجزائري، ص 301.

(2) الغزالي: فقه السيرة، ص 320.

(3) البداية والنهاية 4/111.

(4) اسم فاعل من حفر.

(5) رملًا سائلًا.

قال جابر: فقلت يا رسول الله، ائذن لي إلى البيت، فقلت لامرأتي: رأيت بالنبي ﷺ شيئًا (من الجهد) ما كان في ذلك صبرٌ، فعندك شيء؟ فقالت: عندي شعير وعَناق[1]، فذبحت العَناق وطحنت الشعير، حتى جعلنا اللحم في البرمة[2]، ثم جئت النبي ﷺ والعجين قد انكسر والبرمة بين الأثافي[3]. وقد كادت أن تنضج، فقلت: طُعَيِّمٌ لي، فقم أنت يا رسول الله ورجل أو رجلان، قال: «كم هو؟»، فذكرت له، فقال: «كثير طيب»، قال: «قل لها: لا تنزع البرمة، ولا الخبز من التنُّور حتى آتي»، فقال: «قوموا»، فقام المهاجرون والأنصار، فلما دخل على امرأته، قال: ويحك، جاء النبي ﷺ بالمهاجرين والأنصار ومن معهم، قالت: هل سألك؟ قلت: نعم، فقال ﷺ: «ادخلوا ولا تضاغطوا»[4]، فجعل يكسر الخبز ويجعل عليه اللحم، ويخمر البرمة والتنور إذا أخذ منه، ويقرب إلى أصحابه ثم ينزع، فلم يزل يكسّر الخبز، ويغرف حتى شبعوا وبقي بقية، قال: «كلي هذا وأهدي، فإن الناس أصابتهم مجاعة»[5].

2- حفنة من التمر تكفي:

قال ابن إسحاق: وحدثني سعيد بن مَيْناء، أنه حُدث: أن ابنة لبشير بن سعد، أخت النعمان بن بشير، قالت: دعتني أمي عمرة بنت رواحة، فأعطتني حفنة من تمر في ثوبي، ثم قالت: أي بُنيَّة، اذهبي إلى أبيك وخالك عبد الله بن رواحة بغدائهما، قالت: فأخذتها فانطلقت بها، فمررت برسول الله ﷺ وأنا ألتمس أبي وخالي، فقال: «تعالي يا بنية، ما هذا معك؟»، فقلت: يا رسول الله، هذا تمر بعثتني به أمي إلى أبي بشير بن سعد وخالي عبد الله ابن رواحة يتغديانه، قال: «هاتيه»، قالت: فصببته في كفي رسول الله ﷺ، فما ملأتهما، ثم

---

(1) **العناق:** الأنثى من أولاد المعز.

(2) **البرمة:** القِدْر.

(3) **الأثافي:** الحجارة التي تنصب، ويجعل القدر عليها.

(4) **ولا تضاغطوا:** لا تزاحموا.

(5) البخاري، كتاب المغازي، رقم (4101).

أمر بثوب فبسط له، ثم دعا بالتمر عليه، فتبدد فوق الثوب، ثم قال لإنسان عنده: «اصرخ في أهل الخندق أن هلمَّ إلى الغداء»، فاجتمع أهل الخندق عليه، فجعلوا يأكلون منه، وجعل (التمر) يزيد حتى صدر (انصرف) أهل الخندق عنه، وإنه ليسقط من أطراف الثوب[1].

3- بشرى بالفتوح:

وعندما اعترضت صخرة للصحابة وهم يحفرون، ضربها الرسول ﷺ ثلاث ضربات فتفتت. قال إثر الضربة الأولى: «الله أكبر، أعطيت مفاتيح الشام، والله إني لأبصر قصورها الحمراء الساعة، ثم ضربها الثانية، فقال: الله أكبر، أعطيت مفاتيح فارس والله إني لأبصر قصر المدائن أبيض، ثم ضرب الثالثة، وقال: الله أكبر أعطيت مفاتيح اليمن، والله إني لأبصر أبواب صنعاء من مكاني الساعة» [2].

قال ابن إسحاق: وحدثني من لا أتهم، عن أبي هريرة، أنه كان يقول حين فتحت هذه الأمصار في زمان عمر وزمان عثمان وما بعده: افتتحوا ما بدا لكم، فوالذي نفس أبي هريرة بيده ما افتتحتم من مدينة ولا تفتتحونها إلى يوم القيامة، إلا وقد أعطى الله سبحانه محمدًا ﷺ مفاتيحها قبل ذلك.

4- عمار بن ياسر .. تقتله الفئة الباغية:

وأخبر رسول الله ﷺ عمار بن ياسر رَضِيَ اللَّهُ عَنْهُ وهو يحفر معهم الخندق، بأن ستقتله الفئة الباغية، فقتل في صفين، وكان في جيش علي[3].

- اكتمال الخندق:

واصل النبي ﷺ وأصحابه أعمال الحفر، فكانوا يحفرون طول نهارهم ويرجعون إلى أهليهم في المساء، حتى تكامل الخندق قبل أن يصل مشركو مكة ومن معهم من الأحزاب إلى المدينة.

---

(1) ابن هشام (3/ 241).

(2) من رواية أحمد والنسائي بإسناد حسن، انظر: السيرة النبوية لمهدي رزق الله، ص 448.

(3) مسلم (4/ 2235، حديث 2915).

حصن بني حارثة:

أراد رسول الله ﷺ أن يكون النساء والأطفال وأصحاب الأعذار في مأمن من خطر المشركين، فجمعهم في حصن (فارع) وهو حصن لبني حارثة، وكان أمنع حصون المسلمين آنذاك [1].

المبحث الثالث: أرض المعركة

قال ابن إسحاق: ولما فرغ رسول الله ﷺ من الخندق، أقبلت قريش حتى نزلت بمجتمع الأسيال من رومة، بين الجرف وزغابة في عشرة آلاف من أحابيشهم ومن تبعهم من بني كنانة وأهل تهامة، وأقبلت غطفان ومن تبعهم من أهل نجد، حتى نزلوا بذنب نقمي إلى جانب أُحد، وخرج رسول الله ﷺ والمسلمون حتى جعلوا ظهورهم إلى جبل سلع، في ثلاثة آلاف من المسلمين، فضرب هناك عسكره، والخندق بينه وبين القوم، وأمر بالذراري والنساء، فجعلوا في الآطام (الحصون) [2]. فكان عامة قوات قريش ومن حالفها تقدر باثني عشر ألف مقاتل، والمسلمون قرابة ثلاثة آلاف مقاتل.

واستعمل رسول الله ﷺ على المدينة عبد الله بن أم مكتوم، وجعل لواء المهاجرين لزيد بن حارثة رَضِيَ اللَّهُ عَنْهُ، ولواء الأنصار لسعد بن عبادة رَضِيَ اللَّهُ عَنْهُ، وكان شعار أصحاب رسول الله ﷺ يومئذ (حم، لا ينصرون).

ولما رأى الصحابة رَضِيَ اللَّهُ عَنْهُمْ الأحزاب قالوا: (هذا ما وعدنا الله ورسوله، وصدق الله ورسوله)، فنزلت فيهم آية الأحزاب: ﴿وَلَمَّا رَءَا ٱلْمُؤْمِنُونَ ٱلْأَحْزَابَ قَالُوا۟ هَٰذَا مَا وَعَدَنَا ٱللَّهُ وَرَسُولُهُۥ وَصَدَقَ ٱللَّهُ وَرَسُولُهُۥ ۚ وَمَا زَادَهُمْ إِلَّآ إِيمَٰنًا وَتَسْلِيمًا ﴿٢٢﴾﴾ [الأحزاب]. فواجهوا هذا الخطر وهذا الهول بالإيمان الواثق المطمئن، والثقة والاستبشار واليقين؛ فقد كانت صلتهم رَضِيَ اللَّهُ عَنْهُمْ بربهم لا تنقطع، وإدراكهم لا يضل عن سنن الله الثابتة، وأنهم إذا حققوا أوائلها بالثقة واليقين والثبات وبذل الوسع، تحقق أواخرها بالنصر والعزة والتمكين.

---

(1) رواه الطبراني كما في المجمع (6/133).

(2) ابن هشام 2/219.

أما المنافقون .. فإنهم حين رأوا الهول الذي روع المدينة، والكرب الذي شملها حين أطبق عليها المشركون، وجدوا في ذلك فرصتهم في التوهين والتشكيك، فجهروا بما في نفوسهم، غير مبقين ولا متجملين: ﴿ وَإِذْ يَقُولُ ٱلْمُنَٰفِقُونَ وَٱلَّذِينَ فِى قُلُوبِهِم مَّرَضٌ مَّا وَعَدَنَا ٱللَّهُ وَرَسُولُهُۥٓ إِلَّا غُرُورًا ﴿١٢﴾ ﴾ [الأحزاب]، أما المشركون .. فإنهم لما رأوا الخندق دُهشوا وعجبوا؛ لأن العرب لم يكن لهم سابق عهد بهذا النوع من الدفاع، ولم يكونوا قد أدخلوه في حسابهم حين خرجوا من ديارهم، فلم يعدوا له عدةً، فتحيروا وعجزوا، وقالوا: هذه مكيدة ما عرفتها العرب[1] .. فقرروا أن يضربوا حصارًا على المدينة؛ لتجويعها، وإنهاك أهلها، إلى أن يجدوا منفذًا لاقتحامها.

المبحث الرابع: غدر بني قريظة

كان غدر بني قريظة يوم الخندق أعظم الغدر، وكان يمثل الطبيعة اليهودية أكبر تمثيل، وكان الدور الأكبر فيه للزعيم اليهودي المهزوم حيي بن أخطب، سيد بني النضير، الذي جلا إلى خيبر، وعاد إلى مكة يشعل النار فيها؛ لتغزو محمدًا في عقر داره، فيثأر بذلك لقومه من محمدٍ ﷺ، ولم يقف مكره عند ذلك، بل راح يؤجج النار مع إخوانه من بني قريظة؛ لنقض العهد مع رسول الله ﷺ، وذلك في قلب المعركة [2].

حيي بن أخطب .. الوسواس المشئوم:

قال ابن إسحاق: وخرج حيي بن أخطب النضري، حتى أتى كعب بن أسد القرظي صاحب عقدهم وعهدهم، فلما سمع به كعب أغلق باب حصنه دون حيي، فاستأذن عليه، فأبى أن يفتح له، فناداه: ويحك يا كعب!، افتح لي.

قال: ويحك يا حيي، إنك امرؤ مشئوم، وإني قد عاهدت محمدًا، فلست بناقض ما بيني وبينه، ولم أر منه إلا وفاء وصدقًا.

---

(1) ابن القيم: زاد المعاد 240/3.

(2) انظر: المنهج الحركي للغضبان، ص 295.

قال: ويحك، افتح لي أكلمك.

قال: ما أنا بفاعل، قال: والله إن أغلقت دوني إلا خوفًا على جشيشتك [1] أن آكل معك منها، فأحفظ الرجل، ففتح له، فقال: ويحك يا كعب، جئتك بعز الدهر وبحر طام.

قال: وما ذاك؟

قال: جئتك بقريش على قادتها وسادتها، حتى أنزلتهم بمجتمع الأسيال من رومة، وبغطفان على قادتها وسادتها حتى أنزلتهم بذنب نقمي، إلى جانب أُحد، وقد عاهدوني وعاقدوني على أن لا يبرحوا حتى نستأصل محمدًا ومن معه. فقال كعب: جئتني والله بذل الدهر وبجهام (سحاب لا ماء فيه) قد هراق ماؤه، يرعد ويبرق، وليس فيه شيء، ويحك يا حيي، فدعني وما أنا عليه؛ فإني لم أر من محمد إلا وفاءً وصدقًا[2].

وقد تكلم عمر بن سعد القرظي فأحسن - فيما ذكره موسى بن عقبة: ذكرهم ميثاق رسول الله ﷺ وعهده ومعاقدتهم إياه على نصره، وقال: إذا لم تنصروه فاتركوه وعدوه.

قال ابن إسحاق: فلم يزل حيي بكعب يفتله في الذروة والغارب، حتى سمع له -يعني في نقض عهد رسول الله ﷺ وفي محاربته مع الأحزاب - على أن أعطاه حيي عهد الله وميثاقه لئن رجعت قريش وغطفان ولم يصيبوا محمدًا أن أدخل معك في حصنك حتى يصيني ما أصابك، فنقض كعب بن أسد العهد، وبرئ مما كان بينه وبين رسول الله ﷺ.

قال المقريزي: «... واستدعى رؤساءهم، وهم الزبير بن باطا، ونباش بن قيس، وعزَّال بن سمؤال، وعقبة بن زيد، وأعلمهم بما صنع من نقض العهد، فلحم الأمر (أي تم إحكام الأمر) لما أراد الله بهم من هلاكهم»[3].

وقال موسى بن عقبة: «... فعند ذلك نقضوا العهد، ومزقوا الصحيفة التي كان فيها العقد إلا بني سعنة أسد وأسيد وثعلبة؛ فإنهم خرجوا إلى رسول الله ﷺ، ووفوا

(1) **الجشيشة:** الحب المجروش يُلقى عليه اللحم.

(2) البداية والنهاية 118/4.

(3) إمتاع الأسماع، ج1، ص 226.

بالعهد»[1]. وبذا صار المسلمون بين عدوين: الأحزاب بأعدادهم الهائلة من أمامهم، واليهود خلف خطوطهم.

وفد من الأنصار للتأكد من موقف بني قريظة:

وكان رسول الله ﷺ يعلم أن اليهود لا عهد لهم ولا ذمة، فكان يتتبع أخبارهم قبل أن يبلغه خبر غدرهم ونقضهم للعهد، فأرسل الزبير بن العوام رَضِيَ اللَّهُ عَنْهُ؛ ليأتيه من أخبارهم، فنظر الزبير ثم رجع، فقال: يا رسول الله رأيتهم يصلحون حصونهم ويُدربون (يسهلون) طرقهم، وقد جمعوا ماشيتهم[2]، وكل ذلك يدل على أنهم قد دبروا أمرًا بليل. ويومها قال النبي ﷺ للزبير: «فداك أبي وأمي، إن لكل نبي حواريًّا، وحواريّ الزبير»[3].

وأراد رسول الله ﷺ أن يتأكد، فمثل هذه الأمور الخطيرة تُأخذ باليقين والتثبت، لا بالظن والاستنتاج، فأرسل وفدًا من الأنصار إلى بني قريظة، فوجدوهم قد نكثوا العهد ومزقوا الصحيفة التي بينهم وبين رسول الله ﷺ.

قال ابن إسحاق[4]: فلما انتهى الخبر إلى رسول الله ﷺ وإلى المسلمين، بعث سعد بن معاذ وهو يومئذ سيد الأوس، وسعد بن عبادة وهو يومئذ سيد الخزرج، ومعهما عبد الله ابن رواحة، وخوات بن جبير.

قال: «انطلقوا حتى تأتوا هؤلاء القوم، فتنظروا أحقٌّ ما بلغنا عنهم، فإن كان حقًّا فالحنوا لي لحنًا أعرفه (أي: اجعلوا بيني وبينكم كلمات لا يفهمها غيرنا)، ولا تفتوا في أعضاد المسلمين (إذا علموا بغدر اليهود)، وإن كانوا على الوفاء فاجهروا به للناس».

قال: فخرجوا حتى أتوهم.

---

(1) البداية والنهاية 118/4.

(2) انظر مغازي الواقدي (457/2).

(3) البخاري، الفتح (291/15، حديث 4113)، ومسلم (1819/4، حديث 2415).

(4) البداية والنهاية 119/4.

قال موسى بن عقبة: فدخلوا معهم حصنهم، فدعوهم إلى الموادعة وتجديد الحلف، فقالوا (أي: اليهود): الآن وقد كسر جناحنا وأخرجهم «يريدون بني النضير»، ونالوا من رسول الله ﷺ (بألسنتهم)، فجعل سعد بن عبادة يشاتمهم، فأغضبوه، فقال له سعد بن معاذ: إنا والله ما جئنا لهذا، ولما بيننا أكبر من المشاتمة.

ثم ناداهم سعد بن معاذ، فقال: إنكم قد علمتم الذي بيننا وبينكم يا بني قريظة، وأنا خائف عليكم مثل يوم بني النضير، أو أمر منه.

فقالوا: أكلت أير أبيك.

فقال: غير هذا من القول كان أجمل بكم وأحسن.

وقال ابن إسحاق: نالوا من رسول الله ﷺ، وقالوا: من رسول الله؟ لا عهد بيننا وبين محمد.

فشاتمهم سعد بن عبادة وشاتموه، وكان رجلًا فيه حدة، فقال له سعد بن معاذ: دع عنك مشاتمتهم؛ لما بيننا وبينهم أربى من المشاتمة، ثم أقبل السعدان ومن معهما إلى رسول الله ﷺ، فسلموا عليه، ثم قالوا: عضل والقارة (أي: كغدرهم بأصحاب الرجيع: خبيب وأصحابه).

فقال رسول الله ﷺ: «الله أكبر، أبشروا يا معشر المسلمين».

قال موسى بن عقبة: ثم تقنع رسول الله ﷺ بثوبه حين جاءه الخبر عن بني قريظة، فاضطجع ومكث طويلًا، فاشتد على الناس البلاء والخوف حين رأوه اضطجع، وعرفوا أنه لم يأته عن بني قريظة خير، ثم إنه رفع رأسه، وقال: «أبشروا بفتح الله ونصره».

﴿وَإِذْ زَاغَتِ ٱلْأَبْصَٰرُ وَبَلَغَتِ ٱلْقُلُوبُ ٱلْحَنَاجِرَ﴾:

عظم البلاء على المسلمين واشتد الكرب؛ فقد صاروا لا يأمنون في أية لحظة أن ينقض عليهم المشركون من الخندق، أو أن يميل عليهم اليهود من الخلف، فأصبح حالهم كما وصف الله تعالى في كتابه: ﴿ إِذْ جَآءُوكُم مِّن فَوْقِكُمْ وَمِنْ أَسْفَلَ مِنكُمْ وَإِذْ زَاغَتِ ٱلْأَبْصَٰرُ وَبَلَغَتِ

﴿ٱلْقُلُوبُ ٱلْحَنَاجِرَ وَتَظُنُّونَ بِٱللَّهِ ٱلظُّنُونَا ۝١٠ هُنَالِكَ ٱبْتُلِيَ ٱلْمُؤْمِنُونَ وَزُلْزِلُوا۟ زِلْزَالًا شَدِيدًا ۝١١﴾ [الأحزاب] .. إنه الهول الذي روع المدينة، والكرب الذي شملها، والذي لم ينج منه أحد من أهلها، وقد أطبق عليها المشركون من قريش وغطفان واليهود من بني قريظة من كل جانب، من أعلاها ومن أسفلها، فلم يختلف الشعور بالكرب والهول في قلب عن قلب، وإنما الذي اختلف هو استجابة تلك القلوب، وظنها بالله، وسلوكها في الشدة؛ ومن ثم كان الابتلاء كاملًا، والامتحان دقيقًا، والتمييز بين المؤمنين والمنافقين حاسمًا لا تردد فيه(1).

فكان ظن المسلمين بالله قويًّا، وكانوا كما وصفهم الله ﷻ: ﴿وَلَمَّا رَءَا ٱلْمُؤْمِنُونَ ٱلْأَحْزَابَ قَالُوا۟ هَٰذَا مَا وَعَدَنَا ٱللَّهُ وَرَسُولُهُۥ وَصَدَقَ ٱللَّهُ وَرَسُولُهُۥ ۚ وَمَا زَادَهُمْ إِلَّآ إِيمَٰنًا وَتَسْلِيمًا ۝٢٢﴾ [الأحزاب].

فازدادوا إيمانًا، وأيقنوا أن نصر الله لابد أن يكون .. وكانت الأحداث تقسو عليهم حتى لتبلغ درجة الفتنة، وكانت فتنة كفتنة الذهب، تفصل بين الجوهر الأصيل والزبد الزائف، وتكشف عن حقائق النفوس ومعادنها، فلا تعود خليطًا مجهول القيمة، فقد علم الله أن هذه الخليقة البشرية (وهو أعلم بمن خلق) لا تصاغ صياغة سليمة، ولا تنضج نضجًا صحيحًا، ولا تصح وتستقيم على منهج إلا بذاك النوع من التربية التجريبية الواقعية(2).

﴿يَٰٓأَهْلَ يَثْرِبَ لَا مُقَامَ لَكُمْ فَٱرْجِعُوا۟﴾:

أما المنافقون فقد كشفوا عن خبيئة نفوسهم، فأخذوا في الإرجاف والتخذيل، وتندروا بما كان قد تحدث به رسول الله ﷺ عن الفتوح، وظنوها أماني المغرورين.

قال ابن إسحاق: «... ونجم النفاق، حتى قال معتب بن قشير - أخو بني عمرو بن عوف - كان محمد يعدنا أن نأكل كنوز كسرى وقيصر، وأحدنا لا يأمن على نفسه أن يذهب إلى الغائط»، وحتى قال أوس بن قيظي: يا رسول الله، إن بيوتنا عورة من العدو،

---

(1) سيد قطب: في ظلال القرآن.

(2) سيد قطب: في ظلال القرآن.

– وذلك عن ملأ من رجال قومه – فائذن لنا أن نرجع إلى دارنا؛ فإنها خارج من المدينة[1].

وهو ومن مالأه من قومه، المعنيون بقول الله تعالى: ﴿ وَإِذْ قَالَت طَّآئِفَةٌ مِّنْهُمْ يَٰٓأَهْلَ يَثْرِبَ لَا مُقَامَ لَكُمْ فَٱرْجِعُوا۟ ۚ وَيَسْتَـْٔذِنُ فَرِيقٌ مِّنْهُمُ ٱلنَّبِىَّ يَقُولُونَ إِنَّ بُيُوتَنَا عَوْرَةٌ وَمَا هِىَ بِعَوْرَةٍ ۖ إِن يُرِيدُونَ إِلَّا فِرَارًا ﴿١٣﴾ وَلَوْ دُخِلَتْ عَلَيْهِم مِّنْ أَقْطَارِهَا ثُمَّ سُئِلُوا۟ ٱلْفِتْنَةَ لَءَاتَوْهَا وَمَا تَلَبَّثُوا۟ بِهَآ إِلَّا يَسِيرًا ﴿١٤﴾ وَلَقَدْ كَانُوا۟ عَٰهَدُوا۟ ٱللَّهَ مِن قَبْلُ لَا يُوَلُّونَ ٱلْأَدْبَٰرَ ۚ وَكَانَ عَهْدُ ٱللَّهِ مَسْـُٔولًا ﴿١٥﴾ قُل لَّن يَنفَعَكُمُ ٱلْفِرَارُ إِن فَرَرْتُم مِّنَ ٱلْمَوْتِ أَوِ ٱلْقَتْلِ وَإِذًا لَّا تُمَتَّعُونَ إِلَّا قَلِيلًا ﴿١٦﴾ قُلْ مَن ذَا ٱلَّذِى يَعْصِمُكُم مِّنَ ٱللَّهِ إِنْ أَرَادَ بِكُمْ سُوٓءًا أَوْ أَرَادَ بِكُمْ رَحْمَةً ۚ وَلَا يَجِدُونَ لَهُم مِّن دُونِ ٱللَّهِ وَلِيًّا وَلَا نَصِيرًا ﴿١٧﴾ ﴾ [الأحزاب].

عزم المنافقون على الرجوع إلى المدينة، وتعللوا بأن بيوتهم مكشوفة غير محصنة، واستأذنوا النبي ﷺ ورجعوا؛ بل وحرضوا أهل المدينة على ترك الصفوف والعودة إلى بيوتهم؛ بحجة أن إقامتهم أمام الخندق مرابطين هكذا، لا موضع لها ولا محل، وبيوتهم معرضة للخطر من ورائهم .. وهي دعوة خبيثة تأتي النفوس من الثغرة الضعيفة فيها، ثغرة الخوف على النساء والذراري، والخطر محدق والهول جامح، والظنون لا تثبت ولا تستقر.

كان المنافقون مثالًا فجًا لوهن العقيدة وخور القلب، والاستعداد للانسلاخ من الصف عند كل محنة، وقد فضح القرآن نفوسهم المريضة، وبيّن استعدادهم للردة عن الدين إذا ما اقتحمت عليهم المدينة من أطرافها، فقال تعالى: ﴿ وَلَوْ دُخِلَتْ عَلَيْهِم مِّنْ أَقْطَارِهَا ثُمَّ سُئِلُوا۟ ٱلْفِتْنَةَ لَءَاتَوْهَا وَمَا تَلَبَّثُوا۟ بِهَآ إِلَّا يَسِيرًا ﴿١٤﴾ ﴾ [الأحزاب]، ثم وصمهم بعد هذا بنقض العهد وخُلف الوعد مع الله، الذي عاهدوه من قبل في يوم أحد، ثم لم يرعوا معه عهدًا: ﴿ وَلَقَدْ كَانُوا۟ عَٰهَدُوا۟ ٱللَّهَ مِن قَبْلُ لَا يُوَلُّونَ ٱلْأَدْبَٰرَ ۚ وَكَانَ عَهْدُ ٱللَّهِ مَسْـُٔولًا ﴿١٥﴾ ﴾ [الأحزاب].

ولم يدرك هؤلاء أن قدر الله هو المسيطر على الأحداث والمصائر، يدفعها في الطريق المرسوم، وينتهي بها إلى النهاية المحتومة .. والموت أو القتل قدر لا مفر من لقائه في موعده، لا يستقدم لحظة ولا يستأخر. ولن ينفع الفرار في دفع القدر المحتوم عن فارّ ..

---

(1) البداية والنهاية 4/ 199.

فإذا فروا فإنهم ملاقون حتفهم المكتوب، في موعده القريب .. وكل موعد في الدنيا قريب، وكل متاع فيها قليل .. ولا عاصم من الله، ولا من يحول دون نفاذ مشيئته، سواء أراد بهم سوءًا، أم أراد بهم رحمة، ولا مولى لهم ولا نصير من دون الله، يحميهم ويمنعهم من قدر الله ﴿قُل لَّن يَنفَعَكُمُ ٱلْفِرَارُ إِن فَرَرْتُم مِّنَ ٱلْمَوْتِ أَوِ ٱلْقَتْلِ وَإِذًا لَّا تُمَتَّعُونَ إِلَّا قَلِيلًا ﴿١٦﴾ قُلْ مَن ذَا ٱلَّذِى يَعْصِمُكُم مِّنَ ٱللَّهِ إِنْ أَرَادَ بِكُمْ سُوٓءًا أَوْ أَرَادَ بِكُمْ رَحْمَةً ۚ وَلَا يَجِدُونَ لَهُم مِّن دُونِ ٱللَّهِ وَلِيًّا وَلَا نَصِيرًا ﴿١٧﴾﴾ [الأحزاب]»[1].

ويتضح من السياق القرآني، ومن الأحداث أن المنافقين وضعاف النفوس كانوا يوم الخندق أكثر من فريق:

1- الفريق الأول: من انهار إيمانهم أمام هول الصدمة وعنف المحنة، فقالوا: ما وعدنا الله ورسوله إلا غرورًا. ومثال هؤلاء معتب بن قشير، إذ قال في ساعات الخوف: (يعدنا محمد أن نأكل كنوز كسرى وقيصر، وأحدنا لا يأمن من أن يذهب إلى حاجته، ما وعدنا الله ورسوله إلا غرورًا».

2- الفريق الثاني: وهم طائفة محددة، تذكر حوادث السيرة أنهم «بنو حارثة»، وكانوا من الطائفتين اللتين همتا بالرجوع مع عبد الله بن أبي يوم أحد، فكرروا ذلك يوم الخندق، وتعللوا بأن بيوتهم عورة. قال ابن هشام من رواية ابن إسحاق في السيرة: هم بنو حارثة، وهم الذين هموا أن يفشلوا يوم أحد مع بني سلمة حين همتا بالفشل يومها، ثم عاهدوا الله ألا يعودوا لمثلها أبدًا.

وقال المقريزي: «هم الذين قالوا: إن بيوتنا عورة، وليس دار من دور الأنصار مثل دارنا، ليس بيننا وبين غطفان أحد يردهم عنا، فائذن لنا فلنرجع إلى دورنا، فنمنع ذرارينا ونساءنا، فأذن ﷺ لهم، فبلغ سعد بن معاذ ذلك، فقال: يا رسول الله لا تأذن لهم؛ إنا والله ما أصابنا وإياهم شدة إلا صنعوا هكذا»[2].

---

(1) سيد قطب: في ظلال القرآن، باختصار وتصرف.

(2) إمتاع الأسماع، ج1، ص 229.

3- الفريق الثالث: هم المعوقون الذين كانوا يخذلون عن رسول الله ﷺ، والقابعون في جحورهم في المدينة .. وهم جبناء مثل أسلافهم، لكنهم لخذلانهم وتخاذلهم عن رسول الله ﷺ، أصبح مهوى قلبهم مع العدو .. وكان الوصف دقيقًا ولاذعًا لهم: ﴿ فَإِذَا جَآءَ ٱلْخَوْفُ رَأَيْتَهُمْ يَنظُرُونَ إِلَيْكَ تَدُورُ أَعْيُنُهُمْ كَٱلَّذِى يُغْشَىٰ عَلَيْهِ مِنَ ٱلْمَوْتِ ﴾ [الأحزاب:١٩] .. طارت قلوبهم من صدورهم رعبًا، وهؤلاء حكم القرآن عليهم أنهم غير مؤمنين: ﴿ أُوْلَٰٓئِكَ لَمْ يُؤْمِنُواْ فَأَحْبَطَ ٱللَّهُ أَعْمَٰلَهُمْ ۚ وَكَانَ ذَٰلِكَ عَلَى ٱللَّهِ يَسِيرًا ﴿١٩﴾ ﴾ [الأحزاب] .. وهم على استعداد أن يتركوا المدينة ومن فيها إذا حاق الخوف واشتدت المصيبة. إن المشكلة ليست هي الخوف؛ فالمؤمنون يخافون، إنما المشكلة هي بواعث الخوف ونتائجه، وارتباط ذلك بالإيمان وعدمه.

إن المحنة هي التي تمحص القلوب، وتكشف ما في الصدور؛ من إيمان أو نفاق أو كفر، وقد يتزلزل المؤمن، لكنه لا يفقد إيمانه، قد يفقد موقفه، وقد يفقد شجاعته وثباته، لكن إيمانه لا يتزلزل أبدًا .. أما ضعيف الإيمان فينهار إيمانه أمام الحادثات، وأما الكافر المتجلبب بجلباب الإسلام حين يكشف الغطاء، ويرى أن دولة الإيمان على وشك الزوال يكشف خبيئة نفسه، ويظهر نتن قلبه، ويعلن شكه بربه، وهؤلاء لم يؤمنوا، وبالتالي أحبط الله أعمالهم في الدارين[1].

حراسة المدينة:

اضطر رسول الله ﷺ - وقد نقضت قريظة العهد - أن يرسل مسلمة بن أسلم في مائتين، وزيد بن حارثة في ثلاثمائة لحراسة المدينة؛ خوفًا على النساء والذراري من غدر اليهود، فجعلوا يطوفون المدينة ويكبرون؛ لإشعار بني قريظة باليقظة؛ حتى لا تحدثهم أنفسهم بأن يغدروا بالذرية في الحصون، وهكذا تضاءل عدد الجيش الواقف للدفاع قبالة الخندق، بانسحاب بعض المنافقين أولًا، ثم بهذا العدد الذي وجهه النبي ﷺ لحراسة المدينة[2].

---

(1) انظر: المنهج الحركي، ص 257-259.

(2) أبو شهبة: السيرة النبوية، ص 282-283، والواقدي (2/460).

أما قصة صفية عمة رسول الله ﷺ، وقتلها لليهودي بعد امتناع حسان بن ثابت رَضِيَ اللَّهُ عَنْهُ عن قتله، فهي رواية بلا سند، ولا يجوز أن تروى، فيساء بها إلى صحابي من صحابة رسول الله ﷺ، كان ينافح عن الدعوة، وعن رسول الله ﷺ عمره كله[1].

المبحث الخامس: محاولة التفريق بين الأحزاب

رأى رسول الله ﷺ صعوبة الموقف، وشدة البلاء، وما أصاب المسلمين من مخاوف، فأراد أن يكسر شوكة المشركين ويخذل بينهم، فبعث إلى عيينة بن حصن والحارث بن عوف قائدا غطفان، يعرض عليهما صلحًا، فيعطيهما ثلث ثمار المدينة لسنة واحدة، على أن يرجعوا بمن معهم من قومهم، ويخذلوا بين الأعراب.

وقبل أن تقع الشهادة وعزيمة الصلح، أراد رسول الله ﷺ استشارة أهل المدينة من الأنصار في ذلك، فأرسل إلى السعدين (سعد بن معاذ، وسعد بن عبادة) واستشارهما، فكان لهما رأي آخر:

قال ابن إسحاق: فلما اشتد على الناس البلاء، بعث رسول ﷺ إلى عيينة بن حصن، والحارث بن عوف المري وهما قائدا غطفان، وأعطاهما ثلث ثمار المدينة (أي: عرض عليهما ذلك)، على أن يرجعا بمن معهما عنه وعن أصحابه .. فجرى بينه وبينهم الصلح حتى كتبوا الكتاب، ولم تقع الشهادة ولا عزيمة الصلح إلا المراوضة (المفاوضة)، فلما أراد رسول الله ﷺ أن يفعل ذلك، بعث إلى السعدين، فذكر لهما ذلك واستشارهما فيه، فقالا: يا رسول الله أمرًا تحبه فنصنعه، أم شيئًا أمرك الله به ولابد لنا من العمل به، أم شيئًا تصنعه لنا؟ فقال: «بل شيء أصنعه لكم، والله ما أصنع ذلك إلا لأني رأيت العرب رمتكم عن قوس واحدة، وكالبوكم من كل جانب، فأردت أن أكسر عنكم من شوكتهم إلى أمر ما».

فقال له سعد بن معاذ: يا رسول الله قد كنا وهؤلاء على الشرك بالله وعبادة الأوثان، لا نعبد الله ولا نعرفه، وهم لا يطمعون أن يأكلوا منها ثمرة واحدة إلا قرى أو بيعًا،

(1) انظر: السيرة النبوية للصلابي، ص 615.

أفحين أكرمنا الله بالإسلام وهدانا له وأعزنا بك وبه، نعطيهم أموالنا؟! ما لنا بهذا من حاجة، والله لا نعطيهم إلا السيف حتى يحكم الله بيننا وبينهم.

فقال النبي ﷺ: «أنت وذاك»، فتناول سعد بن معاذ الصحيفة، فمحا ما فيها من الكتاب، ثم قال: ليجهدوا علينا(1).

فسبر رسول الله ﷺ بذلك غور الأنصار، وعرف مبلغ استعدادهم للذود عن مدينتهم، والتضحية بالنفس في سبيل عقيدتهم، وأن ما ظهر لهم من أخطار لم يزدهم إلا إيمانًا وصلابة، فقطع ﷺ المفاوضة مع غطفان.

فائدتان:

الأولى:

ظهرت الحنكة السياسية لرسول الله ﷺ حين اختار غطفان لمصالحتها على مال يدفعه إليها، على أن تترك محاربته، وترجع إلى بلادها؛ فهو يعلم ﷺ أن غطفان وقادتها ليس لهم من وراء الاشتراك في هذا الغزو أي هدف سياسي يريدون تحقيقه، أو باعث عقائدي يقاتلون تحت رايته، وإنما كان هدفهم الأول والأخير من الاشتراك في هذا الغزو الكبير هو الحصول على المال، بالاستيلاء عليه من خيرات المدينة عند احتلالها، ولهذا لم يحاول الرسول ﷺ الاتصال بقيادة الأحزاب من اليهود (كحيي بن أخطب، وكنانة بن الربيع)، أو قادة قريش كأبي سفيان بن حرب؛ لأن هدف أولئك الرئيس لم يكن المال، وإنما كان هدفهم هدفًا سياسيًّا وعقائديًّا، يتوقف تحقيقه والوصول إليه على هدم الكيان الإسلامي من الأساس؛ لذا فقد كان اتصاله (فقط) بقادة غطفان، الذين لم يترددوا (فعلًا) في قبول العرض الذي عرضه عليهم النبي ﷺ(2).

---

(1) البداية والنهاية 4/120.

(2) الصلابي: السيرة النبوية، ص 601-602.

الثانية:

لا تحمل المفاوضات بين النبي ﷺ وغطفان أي دلالة تشريعية، على جواز صرف المسلمين أعداءهم عن ديارهم إذا ما اقتحموها، باقتطاع شيء من أرضهم أو خيراتهم لهم؛ إذ مما هو متفق عليه في أصول الشريعة الإسلامية أن الذي يُحتج به من تصرفاته ﷺ إنما هو أقواله، وأفعاله التي قام بها، ثم لم يرد اعتراض عليها من كتاب الله تعالى، فأما ما كان من ذلك في حدود الاستشارة والرأي المجردين، فلا يعتبر دليلًا بحال؛ إذ الاستشارة أولًا: يمكن أن يكون المقصود منها مجرد استطلاع لما في النفوس كما ذكرنا، أي فهي ممارسة لعمل تربوي بحت، وهي ثانيًا: حتى ولو انتهت بعمل تنفيذي، يمكن أن يرد عقبه اعتراض من كتاب الله تعالى، فلا تبقى فيه أي دلالة تشريعية.

على أن علماء السيرة نصّوا، على أن النبي ﷺ لم يبرم صلحًا مع غطفان، ولم تقع شهادة ولا عزيمة على الصلح، وإنما كان الأمر مراوضة لم يتجاوزها[1].

المبحث السادس: القتال عند الخندق

وقف المسلمون والمشركون وجهًا لوجه، والخندق بينهما .. وكان المشركون قد فُجئوا بالخندق حين قدموا، فأخذوا يتيممون مكانًا ضيقًا فيه يقتحمونه؛ لينفسوا عن حنقهم المكتوم، ويقطعوا أوصال المسلمين المترسين خلفه، ولكنهم فشلوا في ذلك؛ لأن المسلمين كانوا ينضحون بالنبل كل مقترب .. فقد كان أسيد بن حضير رَضِيَ اللَّهُ عَنْهُ في مائتين من الصحابة يرقبون المشركين، ويمطرونهم بالسهام كلما هموا باقتحام الخندق.

وكره فوارس من قريش أن يقفوا حول المدينة على هذا النحو، فقرروا اقتحام الخندق مهما كلفهم ذلك من ثمن، قال ابن إسحاق:

فأقام النبي ﷺ وأصحابه محاصرين، ولم يكن بينهم وبين عدوهم قتال، إلا أن فوارس من قريش – منهم عمرو بن عبد ود بن أبي قيس أحد بني عامر بن لؤي، وعكرمة بن أبي

(1) البوطي: فقه السيرة، ص 325.

جهل، وهبيرة بن أبي وهر المخزوميان، وضرار بن الخطاب بن مرداس، أحد بني محارب ابن فهر - تلبسوا للقتال. ثم خرجوا على خيلهم حتى مروا بمنازل بني كنانة، فقالوا: تهيئوا يا بني كنانة للحرب، فستعلمون من الفرسان اليوم، ثم أقبلوا تعنق بهم خيلهم حتى وقفوا على الخندق، فلما رأوه قالوا: والله إن هذه لمكيدة ما كانت العرب تكيدها، ثم تيمموا مكانًا من الخندق ضيقًا، فضربوا خيلهم، فاقتحمت منه، فجالت بهم في السبخة بين الخندق وجبل سلع.

وخرج علي بن أبي طالب في نفر معه من المسلمين، حتى أخذوا عليه الثغرة التي أقحموا منها خيلهم، وأقبلت الفرسان تعنق نحوهم، وكان عمرو بن عبد ود قد قاتل يوم بدر حتى أثبتته الجراحة، فلم يشهد يوم أحد، فلما كان يوم الخندق خرج مُعلمًا ليُرى مكانه، فلما خرج هو وخيله قال: من يبارز؟ فبرز له علي بن أبي طالب رَضِيَ اللَّهُ عَنْهُ، فقال له: يا عمرو، إنك كنت عاهدت الله لا يدعوك رجل من قريش إلى إحدى خلتين إلا أخذتها منه.

قال: أجل.

قال له عليّ: فإني أدعوك إلى الله وإلى رسوله، وإلى الإسلام.

قال: لا حاجة لي بذلك.

قال: فإني أدعوك إلى النزال.

قال له: لمَ يا ابن أخي، فوالله ما أحب أن أقتلك.

قال له عليّ: لكني والله أحب أن أقتلك، فحمي عمرو عند ذلك، فاقتحم عن فرسه، فعقره وضرب وجهه، ثم أقبل على عليّ فتنازلا وتجاولا، فقتله عليّ رَضِيَ اللَّهُ عَنْهُ، وخرجت خيلهم منهزمة، حتى اقتحمت من الخندق هاربة.

قال ابن هشام: وألقى عكرمة رمحه يومئذ وهو منهزم عن عمرو، فقال في ذلك حسان ابن ثابت:

فـــر وألقـــى لنـــا رمحـــه   لعلـــك عكـــرم لم تفعـــل

ووليـــت تعـــدو كعـــدو الظليـــم مـــا إن يحـــور عـــن المعـــدل

ولم تلـــو ظهـــرك مستأنـــسًا   كـــأن قفـــاك قفـــا فرعـــل

قال ابن هشام: الفراعل صغار الضباع.

وذكر الحافظ البيهقي في (دلائل النبوة): عن ابن إسحاق في موضع آخر من السيرة، قال: خرج عمرو بن عبد ود، وهو مقنع بالحديد، فنادى: من يبارز؟

فقام علي بن أبي طالب فقال: أنا لها يا نبي الله.

فقال: «إنه عمرو اجلس».

ثم نادى عمرو: ألا رجل يبرز؟

فجعل (عمرو) يؤنبهم ويقول: أين جنتكم التي تزعمون أنه من قُتل منكم دخلها، أفلا تُبرزون إليَّ رجلًا؟

فقام عليّ، فقال: أنا يا رسول الله؟

فقال: «اجلس».

ثم نادى الثالثة فقال:

ولقـــد بححـــت مـــن النـــداء   لجمعهـــم هـــل مـــن مبـــارز

ووقفـــت إذ جـــبن المـــشجع   موقـــف القـــرن المنـــاجز

ولـــــــــــــذاك إني لم أزل   متـــسرعًا قبـــل الهزاهـــز

إن الـــــشجاعة في الفتـــــى   والجـــود مـــن خـــير الغرائـــز

قال: فقام علي رَضِيَٱللَّهُعَنْهُ، فقال: يا رسول الله، أنا.

فقال: «إنه عمرو».

فقال: وإن كان عمرًا. فأذن له رسول الله ﷺ، فمشى إليه حتى أتى وهو يقول:

لا تعجلـــن فقـــد أتـــاك ... مجيـــب صـــوتك غـــير عـــاجز

في نيـــــة وبـــــصيرة ... والـــصدق منجـــي كـــل فـــائز

إني لأرجـــــو أن أُقيـــــ ... ـم عليـــك نائحـــة الجنـــائز

مـــن ضربـــةٍ نجـــلاء ... يبقـــى ذكرهـــا عنـــد الهزاهـــز

فقال له عمرو: من أنت؟

قال: أنا عليّ.

قال: ابن عبد مناف؟

قال: أنا علي بن أبي طالب.

فقال: يا ابن أخي من أعمامك من هو أسن منك، فإني أكره أن أهريق دمك؟

فقال له عليّ: لكني والله لا أكره أن أهريق دمك، فغضب فنزل وسل سيفه كأنه شعلة نار، ثم أقبل نحو عليّ مغضبًا، واستقبله عليّ بدرقته (درعه)، فضربه عمرو في درقته فقدها، وأثبت فيها السيف، وأصاب رأسه فشجه، وضربه عليّ على حبل عاتقه فسقط وثار العجاج (الصياح)، وسمع رسول الله ﷺ التكبير، فعرفنا أن عليًّا قد قتله، فثم يقول علي:

أعـــلي تقـــتحم الفـــوارس هكـــذا ... عنـــي وعـــنهم أخـــروا أصـــحابي

اليـــوم يمنعنـــي الفـــرار حفيظتـــي ... ومـــصمم في الـــرأس لـــيس بنـــابي

إلى أن قال:

عَبَــدَ الحجــارة مــن ســفاهة رأيــهِ ... وعبَـــدتُ ربَّ محمـــد بـــصوابِ

قال: ثم أقبل عليّ نحو رسول الله ﷺ، ووجهه يتهلل، فقال له عمر بن الخطاب: هلا استلبته درعه، فإنه ليس للعرب درع خير منها؟ فقال: ضربته فاتقاني بسوءته، فاستحييت ابن عمي أن أسلبه(1).

نحن لا نأكل ثمن الموتى:

وأقبل نوفل بن عبد الله بن المغيرة على فرس له بعدما غربت الشمس؛ يريد أن يجتاز الخندق، فهوى هو والفرس، فصرعا، وقيل: بل نزل إليه علي بن أبي طالب فقتله، وقيل قتله الزبير بن العوام.

فأرسل أبو سفيان بن حرب يعرض دية جثته مائة من الإبل، فرفض عليه الصلاة والسلام ذلك، وقال: «خذوه؛ فإنه خبيث، خبيث الدية، نحن لا نأكل ثمن الموتى!!»(2).

القنص والرماية:

ولم يقدر المشركون بعد هذه الجولة أن يقتحموا الخندق، لا فرسانًا ولا رجالًا، وقد جعل رسول الله ﷺ حراسًا على الخندق؛ حتى لا يقتحمه المشركون بليل، وكان يحرس بنفسه جزءًا من الليل مع شدة البرودة آنذاك.

فلجأ المشركون إلى أعمال القنص والرماية، وبادلهم المسلمون رميًا برمي، واستمر ذلك طيلة مدة الحصار دون انقطاع، وقد قتل في أعمال القنص هذه ثلاثة من المشركين وستة من المسلمين، فرمى وحشي بن حرب (قاتل حمزة) الطفيل بن النعمان رَضِيَ اللهُ عَنْهُ بحربة عبر الخندق فقتله، ورمى حبان بن العرقة سعد بن معاذ رَضِيَ اللهُ عَنْهُ بسهم أصابه في أكحله (عرق في وسط الذراع إذا قطع لم يرقأ الدم)، وكان جرحه هذا سببًا في وفاته رَضِيَ اللهُ عَنْهُ بعد ذلك يوم بني قريظة كما سيأتي. وقد روى ابن إسحاق أن عائشة أم المؤمنين كانت في حصن بني حارثة يوم الخندق، وكان من أحرز حصون المدينة، وكانت أم سعد بن معاذ

---

(1) البداية والنهاية 4/120-122.

(2) أبو شهبة: السيرة النبوية، ج2، ص 283-284.

معها في الحصن .. قالت عائشة: وذلك قبل أن يُضرب علينا الحجاب. قالت: فمر سعد وعليه درع مقلصة قد خرجت منها ذراعه كلها، وفي يده حربته يرفل بها ويقول:

لبّثْ قليلًا يشهد الهيجا جمَل   لا بأس بالموت إذا حان الأجل

فقالت له أمه: الحق بني فقد والله أُخرت.

قالت عائشة: فقلت لها يا أم سعد، والله لوددت أن درع سعد كانت أسبغ مما هي (أي أنها لم تكن تغطي من جسده ما يكفي).

قالت: وخفت عليه، حيث أصاب السهم منه، فرُمي سعد بن معاذ بسهم فقطع منه الأكحل.

قال ابن إسحاق: حدثني عاصم بن عمر بن قتادة، قال: رماه حبان بن قيس بن العرقة أحد بني عامر بن لؤي، فلما أصابه قال: خذها مني وأنا ابن العرقة، فقال له سعد: عرق الله وجهك في النار، اللّهم إن كنت أبقيت من حرب قريش شيئًا فأبقني لها؛ فإنه لا قوم أحب إليَّ أن أجاهد من قوم آذوا رسولك وكذبوه وأخرجوه، اللّهم وإن كنت وضعت الحرب بيننا وبينهم فاجعلها لي شهادة، ولا تمتني حتى تقر عيني من بني قريظة.

قال ابن كثير: وقد استجاب الله دعوة وليه سعد بن معاذ في بني قريظة، أقر الله عينه، فحكم فيهم بقدرته وتيسيره، وجعلهم هم الذين يطلبون ذلك (كما سيأتي بيانه)، فحكم بقتل مقاتلتهم وسبي ذراريهم، حتى قال له رسول الله ﷺ: «لقد حكمت فيهم بحكم الله من فوق سبع أرقعة» [1].

المستشفى الميداني:

أنشأ المسلمون أول مستشفى ميداني في الإسلام، وذلك في غزوة الأحزاب، فقد ضرب الرسول ﷺ خيمة في مسجده الشريف في المدينة، عندما دارت رحى حرب الأحزاب، فأمر ﷺ أن تكون رفيدة الأسلمية الأنصارية رئيسة ذلك المستشفى النبوي

(1) البداية والنهاية 124/4.

الحربي، وبذلك أصبحت أول ممرضة عسكرية في الإسلام، وجاء في السيرة النبوية لابن هشام: وكان ﷺ قد جعل سعد بن معاذ في خيمة لامرأة من أسلم، يقال لها رفيدة، في مسجده، كانت تداوي الجرحى، وتحتسب بنفسها على خدمة من به ضيعة من المسلمين، وكان ﷺ قد قال لقومه حين أصابه السهم بالخندق: «اجعلوه في خيمة رفيدة حتى أعوده من قريب ...»[1].

ملأ الله بطونهم وقبورهم نارًا:

وجه المشركون كتيبة منهم نحو مقر رسول الله ﷺ، فقاتلهم المسلمون يومًا إلى الليل، حتى أنهم لم يقدروا أن يصلوا العصر، فدعا عليهم رسول الله ﷺ[2].

قال موسى بن عقبة: ووجهوا نحو منزل (مكان) رسول الله ﷺ كتيبة غليظة، فقاتلوهم يومًا إلى الليل، فلما حانت صلاة العصر دنت الكتيبة، فلم يقدر النبي ﷺ ولا أحد من أصحابه الذين كانوا معه أن يصلوا الصلاة على نحو ما أرادوا، فانكفأت الكتيبة مع الليل، فقال رسول الله ﷺ: «شغلونا عن صلاة العصر، ملأ الله بطونهم وقلوبهم وقبورهم نارًا»[3].

المبحث السابع: نعيم بن مسعود

ساق الله ﷻ إلى رسوله ﷺ نعيم بن مسعود الأشجعي (وهو من غطفان)، فأتاه مسلمًا لا يعرف بإسلامه أحد، وعرض عليه أن يقوم بتنفيذ أي أمر يريده ﷺ، فقال له رسول الله ﷺ: «إنما أنت رجل واحد فينا، ولكن خذل عنا إن استطعت؛ فإن الحرب خدعة»، وكان «نعيم» صديقًا لقريش واليهود، فأحدث بينهما مكرًا محكمًا، فرق الله به بين قريظة والأحزاب.

---

(1) السيرة النبوية لابن هشام (263/3)، وانظر: السيرة النبوية للصلابي، ص 615-616.

(2) انظر: البخاري، كتاب المغازي، باب غزوة الخندق، رقم 4111.

(3) البداية والنهاية 125/4.

قال ابن إسحاق: وأقام رسول الله ﷺ وأصحابه فيما وصف الله (في كتابه) من الخوف والشدة؛ لتظاهر عدوهم عليهم، وإتيانهم إياهم من فوقهم ومن أسفل منهم.

قال: ثم إن نعيم بن مسعود بن عامر الغطفاني أتى رسول الله ﷺ، فقال: يا رسول الله إني قد أسلمت، وإن قومي لم يعلموا بإسلامي، فمرني بما شئت.

فقال رسول الله ﷺ: «إنما أنت فينا رجل واحد، فخذل عنا إن استطعت؛ فإن الحرب خدعة» .. فخرج نعيم بن مسعود حتى أتى بني قريظة، وكان لهم نديمًا في الجاهلية، فقال: يا بني قريظة قد عرفتم ودي إياكم، وخاصة ما بيني وبينكم. قالوا: صدقت، لست عندنا بمتهم.

فقال لهم: إن قريشًا وغطفان ليسوا كأنتم، البلد بلدكم، فيه أموالكم وأبناؤكم ونساؤكم، لا تقدرون على أن تتحولوا منه إلى غيره، وإن قريشًا وغطفان قد جاءوا لحرب محمد وأصحابه، وقد ظاهرتموهم عليه، وبلدهم ونساؤهم وأموالهم بغيره، فليسوا كأنتم؛ فإن رأوا نهزة (فرصة لنصر) أصابوها .. وإن كان غير ذلك لحقوا ببلادهم وخلو بينكم وبين الرجل ببلدكم، ولا طاقة لكم به إن خلا بكم، فلا تقاتلوا مع القوم حتى تأخذوا منهم رهنًا من أشرافهم، يكونوا بأيديكم ثقة لكم على أن تقاتلوا معهم محمدًا حتى تناجزوه.

قالوا: لقد أشرت بالرأي: ثم خرج حتى أتى قريشًا، فقال لأبي سفيان بن حرب ومن معه من رجال قريش: قد عرفتم ودي لكم وفراقي محمدًا، وإنه قد بلغني أمر قد رأيت عليَّ حقًّا أن أبلغكموه، نصحًا لكم، فاكتموا عني.

قالوا: نفعل.

قال: تعلمون أن معشر يهود قد ندموا على ما صنعوا فيما بينهم وبين محمد، وقد أرسلوا إليه أنا قد ندمنا على ما فعلنا، فهل يرضيك أن نأخذ لك من القبيلتين من قريش وغطفان رجالًا من أشرافهم فنعطيكهم، فتضرب أعناقهم، ثم نكون معك على من بقي منهم حتى تستأصلهم؟

فأرسل إليهم: أن نعم، فإن بعثت إليكم يهود يلتمسون منكم رهنًا من رجالكم فلا تدفعوا إليهم منكم رجلًا واحدًا، ثم خرج حتى أتى غطفان، فقال: يا معشر غطفان إنكم أصلي وعشيرتي، وأحب الناس إليَّ، ولا أراكم تتهموني.

قالوا: صدقت، ما أنت عندنا بمتهم.

قال: فاكتموا عني.

قالوا: نفعل، ثم قال لهم ما قال لقريش، وحذرهم ما حذرهم.

فلما كانت ليلة السبت من شوال سنة خمس، وكان من صنيع الله تعالى لرسوله ﷺ أن أرسل أبو سفيان بن حرب ورءوس غطفان إلى بني قريظة، عكرمة بن أبي جهل في نفر من قريش وغطفان.

فقال لهم: إنا لسنا بدار مقام، هلك الخف والحافر، فأعدوا للقتال حتى نناجز محمدًا، ونفرغ مما بيننا وبينه. فأرسلوا إليهم، إن اليوم يوم السبت، وهو يوم لا نعمل فيه شيئًا، وقد كان أحدث فيه بعضنا حدثًا، فأصابهم ما لم يخف عليكم، ولسنا مع ذلك بالذين نقاتل معكم محمدًا حتى تعطونا رهنًا من رجالكم، يكونون بأيدينا ثقة لنا، حتى نناجز محمدًا؛ فإنا نخشى إن ضرستكم الحرب، واشتد عليكم القتال أن تنشمروا إلى بلادكم وتتركونا، والرجل في بلادنا ولا طاقة لنا بذلك منه.

فلما رجعت إليهم الرسل بما قالت بنو قريظة، قالت قريش وغطفان: والله إن الذي حدثكم نعيم بن مسعود لحق، فأرسلوا إلى بني قريظة: إنا والله لا ندفع إليكم رجلًا من رجالنا، فإن كنتم تريدون القتال فاخرجوا فقاتلوا.

فقالت بنو قريظة حين انتهت إليهم الرسل بهذا: إن الذي ذكر لكم نعيم بن مسعود لحق، ما يريد القوم إلا أن تقاتلوا، فإن رأوا فرصة (لنصر) انتهزوها، وإن كان غير ذلك انشمروا إلى بلادهم، وخلوا بينكم وبين الرجل في بلدكم.

فأرسلوا إلى قريش وغطفان: إنا والله ما نقاتل معكم حتى تعطونا رهنًا، فأبوا عليهم، وخذل الله بينهم[1].

اللهم منزل الكتاب، سريع الحساب، اهزم الأحزاب:

وفي هذه الغمرة من الشدائد والمخاوف، كان النبي ﷺ وأصحابه لا ينفكون عن الدعاء والتوجه إلى رب السماء. ففي الصحيحين أن رسول الله ﷺ دعا يوم الأحزاب فقال: «اللّٰهم منزل الكتاب، سريع الحساب، اهزم الأحزاب .. اللّٰهم اهزمهم وزلزلهم»، وفي رواية: «اللّٰهم اهزمهم وانصرنا عليهم». وعن أبي سعيد الخدري، قال: قلت يوم الخندق: يا رسول الله، هل من شيء نقوله؛ فقد بلغت القلوب الحناجر؟! قال: «نعم، اللّٰهم استر عوراتنا، وآمِنْ روعاتنا»[2].

المبحث الثامن: نصر عبده .. وأعز جنده .. وهزم الأحزاب وحده

واستجاب الله لرسوله والمؤمنين، ونزل المدد من السماء، وأرسل الله عليهم ريحًا شديدة في ليلة شاتية باردة، فهدمت خيامهم، وكفأت قدورهم، وأطفأت نيرانهم، وفعلت فيهم جنود الله غير المرئية الأفاعيل، فامتلأت قلوبهم رعبًا وخوفًا، وساد الهرج والمرج والجلبة والصياح[3].

وأرسل رسول الله ﷺ في تلك الليلة الباردة القارسة حذيفة بن اليمان رضي الله عنه يأتيه بخبرهم، فوجدهم على هذه الحالة، وقد تهيأوا للرحيل، فرجع إلى رسول الله ﷺ، فأخبره خبر القوم، فأصبح رسول الله ﷺ، وقد رد الله عدوه، وكفاه القتال، فصدق وعده، وأعز جنده، ونصر عبده، وهزم الأحزاب وحده[4].

---

(1) البداية والنهاية 4/128-129.

(2) رواه أحمد في المسند، انظر: السيرة النبوية لأبي شهبة، ج2، ص 287.

(3) أبو شهبة: السيرة النبوية، ج2، ص 287.

(4) المباركفوري: الرحيق المختوم، ص 276.

قال ابن إسحاق: فلما انتهى إلى رسول الله ﷺ ما اختلف من أمرهم، وما فرق الله من جمعهم، دعا حذيفة بن اليمان، فبعثه إليهم؛ لينظر ما فعل القوم ليلًا.

قال ابن إسحاق: فحدثني يزيد بن زياد، عن محمد بن كعب القرظي، قال: قال رجل من أهل الكوفة لحذيفة بن اليمان: يا أبا عبد الله، أرأيتم رسول الله ﷺ وصحبتموه؟

قال: نعم، يا ابن أخي.

قال: فكيف كنتم تصنعون؟ قال: والله لقد كنا نجتهد.

قال: والله لو أدركناه ما تركناه يمشي على الأرض، ولحملناه على أعناقنا.

قال: فقال حذيفة: يا ابن أخي، والله لقد رأيتنا مع رسول الله ﷺ بالخندق، وصلى رسول الله ﷺ هويًا من الليل، ثم التفت إلينا، فقال: من رجل يقوم فينظر لنا ما فعل القوم، ثم يرجع - فشرط له رسول الله ﷺ الرجعة - أسأل الله أن يكون رفيقي في الجنة؟ فما قام رجل - من شدة الخوف وشدة الجوع والبرد - فلما لم يقم أحد دعاني، فلم يكن لي بد من القيام حين دعاني، فقال: «يا حذيفة، اذهب فادخل في القوم، فانظر ماذا يفعلون، ولا تحدثن شيئًا حتى تأتينا».

قال: فذهبت فدخلت في القوم، والريح وجنود الله تفعل بهم ما تفعل، لا تقر لهم قدرًا ولا نارًا ولا بناء، فقام أبو سفيان، فقال: يا معشر قريش، لينظر امرؤ من جليسه.

قال حذيفة: فأخذت بيد الرجل الذي كان إلى جنبي، فقلت: من أنت؟

قال: فلان ابن فلان، ثم قال أبو سفيان: يا معشر قريش، إنكم والله ما أصبحتم بدار مقام، لقد هلك الكراع والخف، وأخلفتنا بنو قريظة، وبلغنا عنهم الذي نكره، ولقينا من شدة الريح ما ترون، ما تطمئن لنا قدر، ولا تقوم لنا نار، ولا يستمسك لنا بناء، فارتحلوا فإني مرتحل.

ثم قام إلى جمله وهو معقول، فجلس عليه، ثم ضربه فوثب به على ثلاث، فما أطلق عقاله إلا وهو قائم، ولولا عهد رسول الله ﷺ إليَّ لا تحدث شيئًا حتى تأتيني لقتلته بسهم.

قال حذيفة: فرجعت إلى رسول الله ﷺ وهو قائم يصلي في مرط لبعض نسائه مرحل، فلما رآني أدخلني إلى رجليه، وطرح عليَّ طرف المرط (ليدفئه)، ثم ركع وسجد وإني لفيه، فلما سلم أخبرته الخبر .. وسمعت غطفان بما فعلت قريش، فانشمروا راجعين إلى بلادهم(1).

وقد روى الحاكم والبيهقي في (الدلائل) هذا الحديث مبسوطًا عن عبد العزيز ابن أخي حذيفة، قال: ذكر حذيفة مشاهدهم مع رسول الله ﷺ، فقال جلساؤه: أما والله لو كنا شهدنا ذلك لكنا فعلنا وفعلنا. فقال حذيفة: لا تمنوا ذلك، لقد رأيتنا ليلة الأحزاب ونحن صادقون قعود، وأبو سفيان ومن معه فوقنا، وقريظة اليهود أسفل منا، نخافهم على ذرارينا، وما أتت علينا ليلة قط أشد ظلمة، ولا أشد ريحًا منها في أصوات ريحها، أمثال الصواعق وهي ظلمة، ما يرى أحدنا أصبعه.

فجعل المنافقون يستأذنون النبي ﷺ، ويقولون: إن بيوتنا عورة، وما هي بعورة، فما يستأذنه أحد منهم إلا أذن له، ويأذن لهم ويتسللون، ونحن ثلاثمائة ونحو ذلك إذا استقبلنا رسول الله ﷺ رجلًا رجلًا.

حتى أتى عليَّ وما عليَّ جنة (وقاية) من العدو ولا من البرد، إلا مرط لامرأتي، ما يجاوز ركبتي، قال: فأتاني وأنا جاث على ركبتي، فقال: «من هذا؟»، فقلت: حذيفة، فقال: «حذيفة!» فتقاصرت للأرض، فقلت: بلى يا رسول الله؛ كراهية أن أقوم، فقمت، فقال: «إنه كائن في القوم خبر، فائتني بخبر القوم»، قال: وأنا من أشد الناس فزعًا، وأشدهم قرًّا.

قال: فخرجت، فقال رسول الله ﷺ: «اللّٰهم احفظه من بين يديه ومن خلفه، وعن يمينه وعن شماله، ومن فوقه ومن تحته».

قال: فوالله ما خلق الله فزعًا، ولا قرًّا في جوفي إلا خرج من جوفي، فما أجد فيه شيئًا.

---

(1) البداية والنهاية 130/4، وقال ابن كثير: وقد روى هذا الحديث مسلم في صحيحه، عن إبراهيم بن زيد التيمي عن أبيه (4595).

قال: فلما وليت، قال: «يا حذيفة لا تحدثن في القوم شيئًا حتى تأتيني».

قال: فخرجت حتى إذا دنوت من عسكر القوم، نظرت في ضوء نار لهم توقد، وإذا رجل أدهم (أسمر) ضخم، يقول بيديه على النار، ويمسح خاصرته، ويقول: الرحيل الرحيل، ولم أكن أعرف أبا سفيان قبل ذلك. فانتزعت سهمًا من كنانتي أبيض الريش، فأضعه في كبد قوسي لأرميه به في ضوء النار، فذكرت قول رسول الله ﷺ: «لا تحدثن فيهم شيئًا حتى تأتيني» فأمسكت، ورددت سهمي إلى كنانتي. ثم إني شجعت نفسي حتى دخلت العسكر، فإذا أدنى الناس مني بنو عامر، يقولون: يا آل عامر الرحيل الرحيل، لا مقام لكم، وإذا الريح في عسكرهم ما تجاوز عسكرهم شبرًا، فوالله إني لأسمع صوت الحجارة في رحالهم وفرشهم، الريح تضرب بها.

ثم إني خرجت نحو رسول الله ﷺ، فلما انتصفت بي الطريق أو نحو من ذلك، إذا أنا بنحو من عشرين فارسًا أو نحو ذلك معتمين، فقالوا (أي لحذيفة): أخبر صاحبك أن الله قد كفاه (وهم جند الله من الملائكة الذين فعلوا بالأحزاب الأفاعيل).

قال: فرجعت إلى رسول الله ﷺ وهو مشتمل في شملة يصلي، فوالله ما عدا أن رجعت راجعني القر، وجعلت أقرقف، فأومأ إليَّ رسول الله ﷺ بيده وهو يصلي، فدنوت منه فأسبل علي شملته، وكان رسول الله ﷺ إذا حزبه أمر صلى، فأخبرته خبر القوم، أخبرته أني تركتهم يرحلون.

قال وأنزل الله تعالى:

﴿ يَٰٓأَيُّهَا ٱلَّذِينَ ءَامَنُواْ ٱذۡكُرُواْ نِعۡمَةَ ٱللَّهِ عَلَيۡكُمۡ إِذۡ جَآءَتۡكُمۡ جُنُودٞ فَأَرۡسَلۡنَا عَلَيۡهِمۡ رِيحٗا وَجُنُودٗا لَّمۡ تَرَوۡهَاۚ وَكَانَ ٱللَّهُ بِمَا تَعۡمَلُونَ بَصِيرًا ﴿٩﴾ ﴾ [الأحزاب]، إلى قوله: ﴿ وَرَدَّ ٱللَّهُ ٱلَّذِينَ كَفَرُواْ بِغَيۡظِهِمۡ لَمۡ يَنَالُواْ خَيۡرٗاۚ وَكَفَى ٱللَّهُ ٱلۡمُؤۡمِنِينَ ٱلۡقِتَالَۚ وَكَانَ ٱللَّهُ قَوِيًّا عَزِيزٗا ﴿٢٥﴾ ﴾ [الأحزاب] .. يعني الآيات كلها[1].

(1) البداية والنهاية 4/131-132.

المبحث التاسع : الآن نغزوهم ولا يغزونا

في صباح اليوم التالي، كان المشركون قد ولوا مدبرين، بعد أن أقاموا محاصرين رسول الله ﷺ والمسلمين قرابة الشهر .. فعاد ﷺ وأصحابه إلى المدينة يوم الأربعاء لسبع بقين من ذي القعدة، وقد أزال الله عنهم الكرب، وكشف الغمة، وقال لهم رسول الله ﷺ: «الآن نغزوهم ولا يغزونا» .. فلم تقم لقريش بعد ذلك قائمة، ومازال أمر المسلمين في ازدياد، حتى فتح الله عليهم مكة، ودخل الناس في دين الله من يومها أفواجًا. فقفل رسول الله ﷺ وأصحابه وهم يقولون: «لا إله إلا الله وحده، لا شريك له، له الملك وله الحمد، وهو على كل شيء قدير، آيبون تائبون عابدون ساجدون لربنا حامدون، صدق الله وعده، ونصر عبده، وهزم الأحزاب وحده»[1].

قال ابن إسحاق: واستشهد من المسلمين يوم الخندق ستة، وهم: سعد بن معاذ (وستأتي وفاته مبسوطة)، وأنس بن أوس بن عتيك بن عمرو، وعبد الله بن سهل، والطفيل بن النعمان، وثعلبة بن غنمة الجشميان السلميان، وكعب بن زيد النجاري، أصابه سهم غرب (طائش) فقتله. قال: وقُتل من المشركين ثلاثة، وهم: منبه بن عثمان بن عبيد بن السباق بن عبد الدار، أصابه سهم فمات منه بمكة، ونوفل بن عبد الله بن المغيرة، اقتحم الخندق بفرسه فتورط فيه، فقتل هناك، وطلبوا جسده بثمن كبير كما تقدم، وعمرو ابن عبد ود العامري، قتله علي بن أبي طالب.

قال الغزالي رَحِمَهُ ٱللَّهُ: إن معركة الأحزاب لم تكن معركة خسائر بل معركة أعصاب.

فقتلى الفريقين من المؤمنين والكفار يعدون على الأصابع .. ومع تلك الحقيقة، فهي من أحسم المعارك في تاريخ الإسلام؛ إذ إن مصير هذه الرسالة العظمى كان فيها أشبه بمصير رجل يمشي على حافة قمة سامقة، أو حبل ممدود، فلو اختل توازنه لحظة، وفقد السيطرة على موقفه، لهوى من مرتفعه إلى واد سحيق، ممزق الأعضاء، ممزع الأشلاع[2].

---

(1) رواه البخاري، عن عبد الله بن عمر رَضِيَٱللَّهُعَنْهُمَا (1776).

(2) فقه السيرة، ص 321-322.

وقال المباركفوري: كانت غزوة الأحزاب من أحسم المعارك في تاريخ الإسلام، تمخضت عن تخاذل المشركين، وأفادت أن أية قوة من قوات العرب لا تستطيع استئصال القوة الصغيرة التي تنمو في المدينة؛ لأن العرب لم تستطع أن تأتي بجمع أقوى مما أتت به في الأحزاب؛ ولذلك قال رسول الله ﷺ حين أجلى الله الأحزاب: «الآن نغزوهم ولا يغزونا، نحن نسير إليهم»[1].

وقال منير الغضبان: لقد انتهت مرحلة الدفاع، وابتدأت مرحلة الهجوم .. مرحلة انتشار الإسلام في الأرض، وانسياح هذا الدين في الوجود: «الآن نغزوهم ولا يغزونا».

وما أحوجنا إلى فقه سمات كل مرحلة؛ لنكون على بينة منها، ونحن نشق طريقنا الجديد لإقامة دولة الإسلام في الأرض، ونعرف موطن القدوة والأسوة، ونتمثل السمات نفسها لكل مرحلة، دون أن نعسف الطريق، ونتعجل الخطى؛ فإن المنبت لا أرضًا قطع ولا ظهرًا أبقى[2].

* * *

---

(1) الرحيق المختوم، ص 276.

(2) المنهج الحركي، ص 442.

الفصل الثاني

غزوة بني قريظة

انفضت حشود الأحزاب حول المدينة، وعادت المطيّ بها من حيث أتت، تذرع رحاب الصحراء وليس تحمل معها إلا الفشل والخيبة، وبقي يهود بني قريظة وحدهم، بقوا وبقيت معهم غدرتهم التي فضحت طواياهم، فأصبحوا وأمسوا أشبه بالمجرم الذي ثبتت إدانته، فهو يرقب - بوجه كالح - قصاص العدالة منه. وكانت مشاعر التغيظ في أفئدة المسلمين نحو أولئك اليهود قد بلغت ذروتها .. إنهم هم الذين استخرجوا العرب استخراجًا، واستقدموهم إلى دار الهجرة ليجتاحوها من أقطارها، ويستأصلوا المسلمين فيها. إن جراحات المسلمين لطردهم من ديارهم ومطاردتهم في عقيدتهم، واستباحة أموالهم ودمائهم لكل ناهب ومغتال لما تندمل بعد؛ بل لن تندمل أبدًا .. فكيف ساغ لأولئك الخونة من بني إسرائيل أن يرسموا بأنفسهم الخطة لإهلاك الإسلام وأبنائه على هذا النحو الذليل؟!

ثم ما الذي يجعل بني قريظة خاصة وهم لم يروا في جوار محمد ﷺ إلا البر والوفاء يستدبرون بأسلحتهم، منضمين إلى أعداء الإسلام؛ كي يشركوهم في قتل المسلمين وسلبهم؟! [1].

إنهم يهود .. وإنهم لا يرضيهم شيء أكثر من إنهاء الوجود الإسلامي؛ فهو الهدف النهائي لليهود والنصارى في كل زمان ومكان، مهما أظهروا على الطريق من سلام وود، فهم يرفضون المعايشة مع الإسلام فكرًا وواقعًا طالما أنهم قادرون على إنهاء ذلك[2]: ﴿وَلَن تَرْضَىٰ عَنكَ ٱلْيَهُودُ وَلَا ٱلنَّصَٰرَىٰ حَتَّىٰ تَتَّبِعَ مِلَّتَهُمْ ۗ قُلْ إِنَّ هُدَى ٱللَّهِ هُوَ ٱلْهُدَىٰ ۗ وَلَئِنِ ٱتَّبَعْتَ أَهْوَآءَهُم بَعْدَ ٱلَّذِى جَآءَكَ مِنَ ٱلْعِلْمِ ۙ مَا لَكَ مِنَ ٱللَّهِ مِن وَلِىٍّ وَلَا نَصِيرٍ ﴿١٢٠﴾﴾ [البقرة]. **قال ابن القيم رَحِمَهُ ٱللَّهُ:** «ومن ظن إزالة أهل الكفر من أهل الإسلام إزالة تامة، فقد ظن بالله سوءًا».

(1) الغزالي: فقه السيرة، ص 335.

(2) منير الغضبان: المنهج الحركي، ص 300، بتصرف.

فما وضعت الملائكة السلاح بعدُ:

في ظهر يوم الأربعاء الذي عاد فيه رسول الله ﷺ والمؤمنون إلى المدينة، أتى جبريل عَلَيْهِ السَّلَامُ النبي ﷺ، يبلغه أمر ربه بالمسير إلى بني قريظة وقتالهم.

قال محمد بن إسحاق: ولما أصبح رسول الله ﷺ، انصرف عن الخندق راجعًا إلى المدينة والمسلمون، ووضعوا السلاح، فلما كانت الظهر أتى جبريل رسول الله ﷺ - كما حدثني الزهري - معتجرًا بعمامة من إستبرق، على بغلة عليها رحالة، عليها قطيفة من ديباج، فقال: أوقد وضعت السلاح يا رسول الله؟

قال: «نعم»، فقال جبريل: ما وضعت الملائكة السلاح بعدُ، وما رجعت الآن إلا من طلب القوم، إن الله يأمرك يا محمد بالمسير إلى بني قريظة، فإني عامد إليهم فمزلزل بهم[1].

وروى الإمام أحمد عن عائشة رَضِيَ اللَّهُ عَنْهَا، أن رسول الله ﷺ لما فرغ من الأحزاب دخل المغتسل ليغتسل، وجاء جبريل، فرأيته من خلل البيت قد عصب رأسه الغبار، فقال: يا محمد أوضعتم أسلحتكم؟

فقال: «وضعنا أسلحتنا»، فقال: إنا لم نضع أسلحتنا بعدُ، انهض إلى بني قريظة.

وقد رأى أنس رَضِيَ اللَّهُ عَنْهُ غبار موكب جبريل عَلَيْهِ السَّلَامُ وهو في طريقه إلى بني قريظة، كما روى عنه البخاري، قال: كأني أنظر إلى الغبار ساطعًا في زقاق بني غنم موكب جبريل، حين سار رسول الله ﷺ إلى بني قريظة.

من كان سامعًا مطيعًا، فلا يصلين العصر إلا في بني قريظة:

امتثل رسول الله ﷺ لأمر ربه، وشدد على المسلمين أن يسارعوا في إنفاذه، فأمر مؤذنًا، فأذن في الناس: «من كان سامعًا مطيعًا فلا يصلين العصر إلا في بني قريظة[2] .. فابتدرها

(1) البداية والنهاية 4/134.

(2) ابن هشام (2/194-195)، وقد أخرجه البخاري (7/327)، ومسلم (5/162)، وغيرهما من حديث ابن عمر، دون قوله: «من كان سامعًا مطيعًا».

الناس ممتثلين أمره ﷺ.

قال الغزالي رَحِمَهُ ٱللَّهُ: والأذان للقتال في هذه الصحوة المشرقة بالظفر والنجاة قرع مسامع المسلمين نديًّا جليًّا، فهم في غمرة من الشعور بتأييد الله وملائكته لهم .. أين هم اليوم مما كانوا عليه بالأمس القريب؟! إنهم مدينون بحياتهم وكرامتهم لعناية الله وحده[1].

وكانت حصون بني قريظة وديارهم على بعد أميال من المدينة، فانطلق المسلمون إليها بعد صلاة الظهر، فلما أدركتهم صلاة العصر في طريقهم اختلفوا .. فقال بعضهم: لا نصلي حتى نأتي قريظة، وقال البعض الآخر: بل نصلي؛ فلم يرد رسول الله ﷺ منا إلا تعجيل السير، فذُكر ذلك للنبي ﷺ، فلم يعنف واحدًا منهم[2]، وأقرهما على فهمهما لأمره، فصار ذلك حجة للأمة، ودلالة مهمة على أصل من الأصول الشرعية الكبرى، وهو تقرير مبدأ الخلاف في مسائل الفروع، واعتبار كل من المتخالفين معذورًا ومثابًا، كما أن فيه تقريرًا لمبدأ الاجتهاد في استنباط الأحكام الشرعية، وفيه ما يدل على أن استئصال الخلاف في مسائل الفروع، أمر لا يمكن أن يتصور أو يتم[3].

خروج النبي ﷺ إلى بني قريظة:

استخلف رسول الله ﷺ على المدينة عبد الله بن أم مكتوم رَضِيَ ٱللَّهُ عَنْهُ، وخرج إلى بني قريظة في ثلاثة آلاف مقاتل، معهم ستة وثلاثون فرسًا[4]. وأعطى الراية لعلي بن أبي طالب رَضِيَ ٱللَّهُ عَنْهُ، وأمره أن يتقدم بها إلى بني قريظة؛ لمعرفة أحوالهم، وما هم عليه قبل أن يصلها رسول الله ﷺ.

فسمع عليّ رَضِيَ ٱللَّهُ عَنْهُ فيهم قولًا مسيئًا لرسول الله ﷺ وأزواجه - رضي الله عنهن - فكره أن يسمع ذلك النبي ﷺ، فلما رآه مقبلًا تلقاه، محاولًا أن يحول بينه وبين سماع ما يكره.

---

(1) فقه السيرة، ص 336.

(2) انظر: البخاري، الفتح (15/294، حديث 4119)، وصحيح مسلم (3/1391، حديث 1770).

(3) البوطي: فقه السيرة، ص 332، مختصرًا.

(4) ابن سعد 3/74.

قال ابن إسحاق: وقدَّم رسول الله ﷺ علي بن أبي طالب برايته إلى بني قريظة، وابتدرها الناس، فسار علي بن أبي طالب، حتى إذا دنا من الحصون، سمع منها مقالة قبيحة لرسول الله ﷺ، فرجع حتى لقي رسول الله ﷺ بالطريق، فقال: يا رسول الله، لا عليك أن لا تدنو من هؤلاء الأخابث، قال: لم؟ أظنك سمعت منهم لي أذى؟ قال: نعم يا رسول الله، قال: لو رأوني لم يقولوا من ذلك شيئًا. فلما دنا رسول الله ﷺ من حصونهم، قال: يا إخوان القردة، هل أخزاكم الله وأنزل بكم نقمته؟ قالوا: يا أبا القاسم، ما كنت جهولًا [1].

وهذه هي خلال اليهود دائمًا، يسفهون إذا أمنوا، ويقتلون إذا قدروا، ويذكرون الناس بالمثل العليا إذا وجلوا، أما العهود، فهي آخر شيء في الحياة يقفون عنده [2].

الطريق إلى بني قريظة:

قال ابن إسحاق: ومر رسول الله ﷺ بنفر من أصحابه بـ (الصَّورَيْن) قبل أن يصل إلى بني قريظة، فقال: هل مر بكم أحد؟ قالوا: يا رسول الله، قد مر بنا دحية بن خليفة الكلبي على بغلة بيضاء، عليها رحاله، عليها قطيفة ديباج. فقال رسول الله ﷺ: ذلك جبريل، بُعث إلى بني قريظة يزلزل بهم حصونهم، ويقذف الرعب في قلوبهم.

الحصار:

نزل رسول الله ﷺ وأصحابه على بئر من آبار بني قريظة، يقال لها: أنا أو أنَّى، ثم تلاحق وصول المسلمين أرسالًا حتى اكتملوا، فلما عاينهم اليهود وهم متحصنون في حصونهم، ملأ الله قلوبهم رعبًا، فحاصرهم رسول الله ﷺ خمسًا وعشرين ليلة (ويقال: خمسة عشر يومًا)، حتى جهدهم الحصار، وعظم عليها البلاء .. وكان الرماة من الصحابة رَضِيَ اللَّهُ عَنْهُمْ هم سلاح الردع في ذلك الحصار.

---

(1) السيرة النبوية لابن هشام (244-245).

(2) الغزالي: فقه السيرة، ص 339.

قال المقريزي: وتقدمت الرماة من المسلمين، وقال ﷺ لسعد بن أبي وقاص: يا سعد تقدم فارمهم، فرماهم والمسلمون ساعة، ويهود تراميهم، ورسول الله ﷺ واقف على فرسه فيمن معه، ثم انصرفوا إلى منازلهم (معسكرهم)، وباتوا وقد بعث إليهم سعد بن عبادة بأحمال تمر فأكلوا، وقال رسول الله ﷺ: نعم الطعام التمر، واجتمع المسلمون عنده عشاء، ومنهم من صلى (العصر)، ومنهم من لم يصل، حتى جاء بني قريظة، فما عاب على أحدٍ من الفريقين، ثم غدا سحرًا، وقدَّم الرماة، وعبأ أصحابه، فأحاطوا بحصون يهود، ورموهم بالنبل والحجارة، وهم يرمون من حصونهم حتى أمسوا، فباتوا حول الحصون. فنزل نباش بن قيس (من الحصون)، وكلم رسول الله ﷺ على أن ينزلوا على ما نزلت عليه بنو النضير (يوم أجلاهم رسول الله ﷺ من المدينة): له الأموال والحلقة (السلاح)، ويحقن دماءهم، ويخرجون من المدينة بالنساء والذراري، ولهم ما حملت الإبل إلا الحلقة. فأبى رسول الله ﷺ إلا أن ينزلوا على حكمه .. وعاد نباش إليهم بذلك ...»[1].

هكذا كانت الجولة الأولى من الغزوة، جبريل عَلَيْهِ السَّلَامُ يقود الحرب ويزلزل الحصون ورسول الله ﷺ يعلن: من كان سامعًا مطيعًا فلا يصلين العصر إلا في بني قريظة. وعلي ابن أبي طالب يغرز الراية عند حصونهم، وتتم تعبئة الجيش وتكامله عند الحصون، وتبتدئ الرماية عنيفة، وهكذا نجد اليهود في كل مرة لا يقاتلون، إنما يهزمون بالرعب. ففي بني قينقاع يخورون بعد الحصار، وفي بني النضير يخورون بعد الحصار، وفي بني قريظة يخورون بعد الحصار، وحَسِبَ اليهود أن تكون هذه المحاصرة كأخواتها، وينجون بأنفسهم، ولكن لا نجاة هذه المرة، فيرفض رسول الله ﷺ المفاوضات، ولا يقبل إلا الاستسلام التام له؛ لأن نقضهم للعهد كان أشنع نقض، ولأنهم استغلوا أسوأ الظروف للبطش بالمسلمين، ولو انتصروا لأبادوا المسلمين عن آخرهم، وبلغ بهم السفه قبل أن يُفاجأوا بقوة المسلمين أن يسبوا الرسول ﷺ ويشتموه، ثم هاهم الآن يتذللون ويتمسكنون، ويودون النجاة بأشخاصهم وأموالهم ونسائهم، مثل كل مرة، ويتنازلون عن سلاحهم،

(1) إمتاع الأسماع، ص 243.

ولكن هيهات؛ فلن يلدغ المؤمن من جحر مرتين، وهل الخندق إلا ثمرة من ثمارهم المرة، يوم نجوا بأرواحهم، فراحوا يخططون لإبادة المسلمين، فأين النجاة لهم بعد هذا الغدر والكيد؟! .. لقد وُضعوا بين فكي الكماشة، الاستسلام بدون قيد ولا شرط، أو الموت جوعًا وعطشًا كما قال لهم حليفهم أسيد بن حضير: يا أعداء الله لا نبرح حصنكم حتى تموتوا جوعًا، إنما أنتم بمنزلة ثعلب في جحر. ولقد ذكَّروه بحِلفه معهم قبل الإسلام، قائلين: يا ابن الحضير نحن مواليك دون الخزرج! وخاروا، فقال: لا عهد بيني وبينكم ولا إل. لقد بعثوا نباش بن قيس بالمهمة التالية: أن ينزلوا على ما نزلت عليه بنو النضير: له الأموال والحلقة، ويحقن دماءهم، ويخرجون من المدينة بالنساء والذراري ولهم ما حملت الإبل إلى الحلقة، ولعلها مشورة حيي بن أخطب زعيم بني النضير، الذي ظن أن الحيلة تتكرر. وكان جواب رسول الله ﷺ حاسمًا قاطعًا .. أبى إلا أن ينزلوا على حكمه[1].

كعب بن أسد .. شيطان حكيم:

وكان كعب بن أسد زعيم بني قريظة أقل حقدًا من حيي بن أخطب، ومن أجل ذلك كان في بعض الأحيان لا يغلبه الحقد ويدرك مصلحته. ولقد كان ثاقب النظر حين قال لحيي قبل الغزوة: إنك امرؤ مشئوم، جئتني بذل الدهر، وبجهام (سحاب) قد هراق ماؤه فهو يرعد ويبرق .. وأنى له الندم ولات ساعة مندم، فدعا قادة اليهود وأولي الرأي منهم، وعرض عليهم أمام إصرار محمد ﷺ حلولًا ثلاثة، قائلًا لهم: «قد نزل بكم من الأمر ما ترون، وإني عارض عليكم خلالًا ثلاثًا، فخذوا أيها شئتم!، قالوا: وما هي؟ قال: نتابع هذا الرجل ونصدقه؛ فوالله لقد تبين لكم أنه لنبي مرسل، وأنه للذي تجدونه في كتابكم، فتأمنون على دمائكم وأموالكم وأبنائكم ونسائكم. قالوا: لا نفارق حكم التوراة أبدًا، ولا نستبدل به غيره. قال: فإذا أبيتم عليَّ هذه، فهلمَّ فلنقتل أبناءنا ونساءنا، ثم نخرج إلى محمد وأصحابه رجالًا مصلتين بالسيوف، لم نترك وراءنا ثقلًا، حتى يحكم الله بيننا وبين محمد، فإن نهلك ولم نترك وراءنا نسلًا نخشى عليه، وإن نظهر فلعمري لنجدن النساء والأبناء.

(1) الغضبان: المنهج الحركي، ص 243-244.

قالوا: نقتل هؤلاء المساكين! فما خير العيش بعدهم؟ قال: فإن أبيتم عليَّ هذه الليلة ليلة السبت، وإنه عسى أن يكون محمد وأصحابه قد أمنونا فيها، فانزلوا لعلنا نصيب من محمد وأصحابه غرة. قالوا: نفسد سبتنا علينا، ونحدث فيه ما لم يحدث من كان قبلنا إلا من قد علمت فأصابه ما لم يخف عليك من المسخ! قال: ما بات رجل منكم ولدته أمه ليلة واحدة من الدهر حازمًا» (1) (2).

أبو لبابة:

ضاق الخناق على بني قريظة، فرغبوا في الاستسلام وقبول حكم رسول الله ﷺ فيهم .. وقبل أن يفعلوا أرادوا أن يستشيروا في ذلك حليفهم أبا لبابة بن عبد المنذر رَضِيَ اللَّهُ عَنْهُ؛ في محاولة منهم لمعرفة طبيعة حكم رسول الله ﷺ فيهم. وقد كانوا حلفاء للأوس قبل بعثة النبي ﷺ وهجرته إلى المدينة .. فبعثوا إلى رسول الله ﷺ ليرسله إليهم يستشيروه في أمرهم .. فكانت هذه القصة كما رواها ابن إسحاق: قال: ثم إنهم بعثوا إلى رسول الله ﷺ: أن ابعث إلينا أبا لبابة بن عبد المنذر، أخا بني عمرو بن عوف، وكانوا حلفاء الأوس؛ لنستشيره في أمرنا، فأرسله رسول الله ﷺ إليهم، فلما رأوه قام إليه الرجال، وجهش إليه النساء والصبيان يبكون في وجهه، فرق لهم، وقالوا له: يا أبا لبابة! أترى أن ننزل على حكم محمد؟ قال: نعم، وأشار بيده إلى حلقه، إنه الذبح. قال أبو لبابة: فوالله مازالت قدماي من مكانهما حتى عرفت أني قد خنت الله ورسوله ﷺ (بأن أفشى سر رسول الله ﷺ وتوجهه في الحكم عليهم ليهود).

ثم انطلق أبو لبابة على وجهه (نادمًا)، ولم يأت رسول الله ﷺ حتى ارتبط في المسجد إلى عمود من عمده، وقال: لا أبرح مكاني هذا حتى يتوب الله علي مما صنعت، وعهد الله: أن لا أطأ بني قريظة أبدًا، ولا أُرى في بلد خنت الله ورسوله فيه أبدًا. قال ابن هشام: وأنزل الله تعالى في أبي لبابة: ﴿ يَٰٓأَيُّهَا ٱلَّذِينَ ءَامَنُوا۟ لَا تَخُونُوا۟ ٱللَّهَ وَٱلرَّسُولَ وَتَخُونُوٓا۟ أَمَٰنَٰتِكُمْ وَأَنتُمْ تَعْلَمُونَ ﴿٢٧﴾ ﴾ [الأنفال].

(1) المصدر السابق، ص 303-304.

(2) السيرة النبوية لابن هشام، ج3، ص 246-247.

قال ابن إسحاق: فلما بلغ رسول الله ﷺ خبره، وكان قد استبطأه، قال: أما إنه لو جاءني لاستغفرت له، فأما إذ قد فعل ما فعل، فما أنا بالذي أطلقه من مكانه حتى يتوب الله عليه.

قال ابن إسحاق: فحدثني يزيد بن عبد الله بن قُسيط، أن توبة أبي لبابة نزلت على رسول الله ﷺ من السحر، وهو في بيت أم سلمة. فقالت أم سلمة: فسمعت رسول الله ﷺ من السحر وهو يضحك. قالت: فقلت: مم تضحك يا رسول الله؟ أضحك الله سنك، قال: تِيب على أبي لبابة، قالت: قلت: أفلا أبشره يا رسول الله؟ قال: بلى، إن شئت.

قال: فقامت على باب حجرتها، وذلك قبل أن يُضرب عليهنّ الحجاب، فقالت: يا أبا لبابة، أبشر؛ فقد تاب الله عليك، قالت: فثار الناس إليه ليطلقوه، فقال: لا والله حتى يكون رسول الله ﷺ هو الذي يطلقني بيده، فلما مر عليه رسول الله ﷺ خارجًا إلى صلاة الصبح أطلقه. قال ابن هشام: أقام أبو لبابة مرتبطًا بالجذع ست ليال، تأتيه امرأته في كل وقت صلاة، فتحله للصلاة، ثم يعود فيرتبط بالجذع، فيما حدثني بعض أهل العلم، والآية التي نزلت في توبته قول الله عز وجل: ﴿وَءَاخَرُونَ ٱعْتَرَفُوا۟ بِذُنُوبِهِمْ خَلَطُوا۟ عَمَلًا صَـٰلِحًا وَءَاخَرَ سَيِّئًا عَسَى ٱللَّهُ أَن يَتُوبَ عَلَيْهِمْ ۚ إِنَّ ٱللَّهَ غَفُورٌ رَّحِيمٌ ﴿١٠٢﴾﴾ [التوبة].

هؤلاء نجاهم الله:

تحركت ضمائر ثلاثة من يهود، ففروا ليلًا إلى معسكر المسلمين وأسلموا، فعصموا دماءهم وأموالهم، كما وُجد فيهم شريف واحد يرعى الزمام وهو عمرو بن سُعدى القرظي، غادر معسكرهم يوم أعلنوا غدرهم برسول الله ﷺ، قائلًا: لا أغدر بمحمد أبدًا، فنجاه الله (1).

قال ابن إسحاق: ثم إن ثعلبة بن سعية، وأسيد بن سعية، وأسد بن عبيد، وهم نفر من بني هدل، ليسوا من بني قريظة ولا النضير، هم بنو عم القوم، أسلموا تلك الليلة التي نزلت فيها بنو قريظة على حكم رسول الله ﷺ.

---

(1) انظر: المنهج الحركي، ص 307.

وخرج في تلك الليلة عمرو بن سُعْدى القرظي، فمر بحرس رسول الله ﷺ، وعليه محمد بن مسلمة تلك الليلة، فلما رآه قال: من هذا؟ قال: أنا عمرو بن سُعدى - وكان عمرو قد أبى أن يدخل مع بني قريظة في غدرهم برسول الله ﷺ، وقال: لا أغدر بمحمد أبدًا - فقال محمد بن مسلمة حين عرفه: اللّهم لا تحرمني إقالة عثرات الكرام، ثم خلى سبيله.

فخرج على وجهه حتى أتى باب مسجد رسول الله ﷺ بالمدينة تلك الليلة، ثم ذهب فلم يُدر أين توجه من الأرض إلى يومه هذا، فذُكر لرسول الله ﷺ شأنه؛ فقال: ذاك رجل نجاه الله بوفائه.

اليهود يستسلمون .. والأوس يشفعون:

برغم ما أشار إليه أبو لبابة، قررت قريظة النزول على حكم رسول الله ﷺ، ولقد كان باستطاعة اليهود أن يتحملوا الحصار الطويل؛ لتوفر الغذاء والمياه والآبار لديهم، ولأن المسلمين كانوا يقاسون البرد والجوع الشديد، مع شدة التعب الذي اعتراهم لمواصلتهم الأعمال الحربية من قبل بداية معركة الأحزاب، إلا أن حرب قريظة كانت حرب أعصاب؛ فقد قذف الله في قلوبهم الرعب، وأخذت معنوياتهم تنهار، وبلغ هذا الانهيار إلى نهايته حين تقدم علي بن أبي طالب والزبير بن العوام رَضِيَ اللَّهُ عَنْهُمَا، فصاح عليّ: (يا كتيبة الإيمان، والله لأذوقن ما ذاق حمزة أو لأفتحن حصنهم).

وحينئذ بادروا إلى النزول على حكم رسول الله ﷺ، وأمر رسول الله ﷺ بالرجال فوضعت القيود في أيديهم، تحت إشراف محمد بن مسلمة الأنصاري رَضِيَ اللَّهُ عَنْهُ، وجعلت النساء والذراري بمعزل عن الرجال في ناحية [1].

وقامت الأوس إلى رسول الله ﷺ يشفعون في حلفائهم كما روى ابن إسحاق، فقال:

(1) المباركفوري: الرحيق المختوم، بتصرف بسيط، ص 278.

فلما أصبحوا نزلوا على حكم رسول الله ﷺ، فتواثبت الأوس، فقالوا: يا رسول الله، إنهم موالينا دون الخزرج، وقد فعلت في موالي إخواننا بالأمس ما قد علمت - وقد كان رسول الله ﷺ قبل بني قريظة قد حاصر بني قينقاع، وكانوا حلفاء الخزرج، فنزلوا على حكمه، فسأله إياهم عبد الله بن أبي بن سلول، فوهبهم له - فلما كلمته الأوس، قال رسول الله ﷺ: ألا ترضون يا معشر الأوس أن يحكم فيهم رجل منكم؟ قالوا: بلى، قال رسول الله ﷺ: فذاك إلى سعد بن معاذ.

السيد الجريح يحكم بحكم الله من فوق سبع سماوات:

قال ابن إسحاق: وكان رسول ﷺ قد جعل سعد بن معاذ في خيمة لامرأة من أسلم، يقال لها: رفيدة في مسجده، كانت تداوي الجرحى، وتحتسب بنفسها على خدمة من كانت به ضيعة من المسلمين، وكان رسول الله ﷺ قد قال لقومه حين أصابه السهم بالخندق: «اجعلوه في خيمة رُفيدة حتى أعوده من قريب».

فلما حكَّمه رسول الله ﷺ في بني قريظة، أتاه قومه، فحملوه على حمار، قد وطَّئوا له بوسادة من أدم، وكان رجلًا جسيمًا جميلًا، ثم أقبلوا معه إلى رسول الله ﷺ، وهم يقولون: يا أبا عمرو، أحسن في مواليك (من بني قريظة)؛ فإن رسول الله ﷺ إنما ولاك ذلك لتحسن فيهم، فلما أكثروا عليه قال: لقد آن لسعد أن لا تأخذه في الله لومة لائم.

فرجع بعض من كان معه من قومه إلى دار بني عبد الأشهل، فنَعَى لهم رجال بني قريظة، قبل أن يصل إليهم سعد، عن كلمته التي سمع منه.

فلما انتهى سعد إلى رسول الله ﷺ والمسلمين، قال رسول الله ﷺ: قوموا إلى سيدكم - فأما المهاجرون من قريش، فيقولون: إنما أراد رسول الله ﷺ الأنصار، وأما الأنصار، فيقولون: قد عم بها رسول الله ﷺ - فقاموا إليه، فقالوا: يا أبا عمرو، إن رسول الله ﷺ قد ولاك أمر مواليك لتحكم فيهم، فقال سعد بن معاذ: عليكم بذلك عهد الله وميثاقه، أنّ الحكم فيهم لما حكمت (فترضوا بحكمي)؟ قالوا: نعم، فقال: وعلى من

هاهنا؟ في الناحية التي فيها رسول الله ﷺ، وهو معرض عن رسول الله ﷺ؛ إجلالًا له، فقال رسول الله ﷺ: نعم، قال سعد: فإني أحكم فيهم أن تُقَتل الرجال، وتقسم الأموال، وتُسبى الذراري والنساء.

قال ابن إسحاق:

فقال رسول الله ﷺ لسعد: «لقد حكمت فيهم بحكم الله من فوق سبعة أرقعة».
وقبل أن يستعظم أحدٌ حكم سعد رَضِيَ اللَّهُ عَنْهُ، واعتبار ذلك قسوة، عليه أن يتدبر فيما لو نجح المشركون في دخول المدينة بمعاونة هؤلاء اليهود .. ماذا يكون الحال؟ مصير النساء والذراري؟

وإلى أي مدى ستكون الكارثة؟، وهل كان المشركون واليهود سيرقبون في المسلمين إلًّا أو ذمة؟، وهل كانوا سيستثنون النساء والذراري من القتل كما حكم سعد رَضِيَ اللَّهُ عَنْهُ.
لقد عاملهم سعد رَضِيَ اللَّهُ عَنْهُ كمجرمي حرب؛ لغدرهم ونقضهم الميثاق، وتآمرهم مع الأحزاب؛ بهدف إحداث إبادة جماعية لمواطنيهم المسلمين من سكان المدينة.

يوم التنفيذ:

قال ابن إسحاق: ثم استُنزلوا (من حصونهم)، فحبسهم رسول الله ﷺ بالمدينة في دار بنت الحارث، امرأة من بني النجار، ثم خرج رسول الله ﷺ إلى سوق المدينة، فخندق بها خنادق، ثم بعث إليهم، فضرب أعناقهم في تلك الخنادق، فخُرِج بهم إليه أرسالًا، وفيهم عدو الله حيي بن أخطب، وكعب بن أسد، رأس القوم، وهم ستمائة أو سبعمائة. والمكثر لهم يقول: كانوا ما بين الثمانمائة والتسعمائة.

قال ابن إسحاق: وقد قالوا لكعب بن أسد، وهم يُذهب بهم إلى رسول الله ﷺ أرسالًا: يا كعب ما تراه يصنع بنا؟ قال: أفي كل موطن لا تعقلون، ألا ترون الداعي لا ينزع، ومن ذُهب به منكم لا يرجع، هو والله القتل!!

وفي شأن بني قريظة، نزل قول الله ﷻ: ﴿ وَأَنزَلَ ٱلَّذِينَ ظَٰهَرُوهُم مِّنْ أَهْلِ ٱلْكِتَٰبِ مِن صَيَاصِيهِمْ وَقَذَفَ فِى قُلُوبِهِمُ ٱلرُّعْبَ فَرِيقًا تَقْتُلُونَ وَتَأْسِرُونَ فَرِيقًا ﴿٢٦﴾ وَأَوْرَثَكُمْ أَرْضَهُمْ وَدِيَٰرَهُمْ وَأَمْوَٰلَهُمْ وَأَرْضًا لَّمْ تَطَـُٔوهَا ۚ وَكَانَ ٱللَّهُ عَلَىٰ كُلِّ شَىْءٍ قَدِيرًا ﴿٢٧﴾ ﴾ [الأحزاب].

كعب بن أسد من جديد:

وجيء برئيس بني قريظة كعب بن أسد، وقبل أن يضرب رسول الله ﷺ عنقه، جرى بينهما الحوار التالي:

قال رسول الله ﷺ: «كعب بن أسد؟»

قال كعب بن أسد: نعم يا أبا القاسم.

قال رسول الله ﷺ: «ما انتفعتم بنصح ابن خراش (رجل منهم) لكم، وكان مصدقًا بي، أما أمركم باتباعي، وإن رأيتموني تقرئوني منه السلام؟»

قال كعب: بلى والتوراة يا أبا القاسم، ولولا أن تعيرني يهود بالجزع من السيف لاتبعتك، ولكن (أنا) على دين يهود.

فأمر رسول الله ﷺ بضرب عنقه فضُربت(1).

حيي بن أخطب .. ومكابرة حتى الموت:

جيء بحيي بن أخطب ليلقى جزاءه ... وحيي - كما علمت - جرثومة هذه الفتن. فلو أنه هو وأحزابه سكنوا في جوار الإسلام، وعاشوا على ما أوتوا من حقوق، ما تعرضوا ولا تعرض قومهم لهذا القصاص الحاسم، ولكن الشعوب تدفع من دمها ثمنًا فادحًا لجرائم قادتها(2).

(1) انظر: اليهود في السنة المطهرة (1/368)، والسيرة النبوية للصلابي، ص 621-622.

(2) الغزالي: فقه السيرة، ص 342-343، بتصرف.

وكان حيي بن أخطب (وهو من بني النضير) قد دخل مع بني قريظة حصنهم حين رجعت الأحزاب؛ وفاءً لعهده مع كعب بن أسد سيد بني قريظة، حين جاء ينفث فيه الغدر والخيانة أيام غزوة الخندق .. روى عبد الرزاق في مصنفه، عن سعيد بن المسيب قال: (... فلما فض الله جموع الأحزاب، انطلق (يعني حيي بن أخطب)، حتى إذا كان بالروحاء ذكر العهد والميثاق الذي أعطاهم، فرجع حتى دخل معهم، فلما أقبلت بنو قريظة أُتي به مكتوفًا بعد ...)[1].

قال ابن إسحاق: وأُتي بحيي بن أخطب وعليه حلة له فقاحية، قد شقها عليه من كل ناحية قدر أنملة؛ لئلا يُسلبها (تُأخذ منه)، مجموعة يداه إلى عنقه بحبل.

فلما نظر إلى رسول الله ﷺ، قال: أما والله ما لمت نفسي في عداوتك، ولكنه من يخذل (الله يخذله) ثم أقبل على الناس، فقال: أيها الناس إنه لا بأس بأمر الله، كتاب وقدر وملحمة كتبها الله على بني إسرائيل .. ثم جلس فضربت عنقه.

سألتك بيدي عندك إلا ألحقتني[2] بالأحبة:

وذكر ابن إسحاق قصة الزبير بن باطا، وكان شيخًا كبيرًا قد عمي، وكان قد منَّ يوم بعاث على ثابت بن قيس بن شماس رَضِيَ اللَّهُ عَنْهُ، وجزَّ ناصيته (أي خَلَّصه من القتل)، فلما كان هذا اليوم أراد أن يكافئه (أي: ثابت)، فجاءه، فقال: هل تعرفني يا أبا عبد الرحمن؟ قال: وهل يجهل مثلي مثلك؟ فقال له ثابت: أريد أن أكافئك، فقال: إن الكريم يجزي الكريم. فذهب ثابت إلى رسول الله ﷺ، فاستطلقه، فأطلقه له، ثم جاءه فأخبره، فقال: شيخ كبير لا أهل له ولا ولد، فما يصنع بالحياة؟ فذهب إلى رسول الله ﷺ، فاستطلق له امرأتـه وولده، فأطلقهم له، ثم جاءه، فقال: أهل بيت بالحجاز لا مال لهم، فما بقاؤهم على ذلك؟

---

(1) انظر: مصنف عبد الرزاق (5/ 371)، رقم (9727)، والصلابي: السيرة النبوية، ص 620.

(2) البداية والنهاية 4/ 142.

فأخبره، فأتى ثابت إلى رسول ﷺ، فاستطلق مال الزبير بن باطا، فأطلقه له، ثم جاءه فقال له: يا ثابت ما فعل الذي كان وجهه مرآة صينية تتراءى فيها عذارى الحي (كعب بن أسد)؟

قال: قُتل.

قال: قال: فما فعل سيد الحاضر والبادي (حيي بن أخطب)؟

قال: قُتل.

قال: قال: فما فعل مقدمتنا إذا شددنا وحاميتنا إذا فررنا: (عزال بن سموأل)؟

قال: قُتل.

قال: فما فعل المجلسان؟ - (يعني بني كعب بن قريظة وبني عمرو بن قريظة) - قال: ذهبوا قتلوا.

قال: فإني أسألك يا ثابت بيدي عندك إلا ألحقتني بالقوم، فوالله ما في العيش بعد هؤلاء من خير، فما أنا بصابر لله فيلة دلو ناضح (معناه: إفراغه دلو) حتى ألقى الأحبة، فقدمه ثابت فضربت عنقه.

فلما بلغ أبا بكر الصديق قوله: (ألقى الأحبة)، قال: يلقاهم والله في نار جهنم خالدًا فيها مخلدًا [1].

قتل امرأة قصاصًا:

وقتل من نساء بني قريظة امرأة واحدة، كانت قد طرحت الرحا على خلاد بن سويد رَضِيَ اللَّهُ عَنْهُ فقتلته، فقتلت لأجل ذلك[2]، وهذه المرأة اسمها في سنن أبي داوود (نباتة)[3]، وعند ابن إسحاق (بثائة)[4].

---

(1) البداية والنهاية 4/143.

(2) من رواية أحمد في المسند (6/277).

(3) (3/123، ك: الجهاد، حديث 2671).

(4) ابن هشام (3/334).

روى ابن إسحاق، عن عائشة، قالت: لم يقتل من نسائهم إلا امرأة واحدة، قالت: والله إنها لعندي تحدث معي، تضحك ظهرًا وبطنًا، ورسول الله ﷺ يقتل رجالها في السوق، إذ هتف هاتف باسمها: أين فلانة؟

قالت: أنا والله، قالت: قلت لها: ويلك ما لك؟ قالت: أُقتل! قلت: ولم؟ قالت: لحدث أحدثته، قالت: فانطلق بها فضربت عنقها.

وكانت عائشة تقول: فوالله ما أنسى عجبًا منها طيب نفسها، وكثرة ضحكها، وقد عرفت أنها تُقتل[1].

من تُرك من الغلمان حيًّا فأسلم وصارت له صحبة:

لم يقتل رسول الله ﷺ غلمان بني قريظة ممن لم يبلغوا الحلم، فكان من هؤلاء عطية القرظي، فتُرك حيًّا، فأسلم، وصارت له صحبة رضي الله عنه، وقد روى ذلك عنه ابن إسحاق في مغازيه، قال: كان رسول الله ﷺ قد أمر أن يُقتل من بني قريظة كل من أنبت منهم (أي كل من ظهر عليه علامات البلوغ)، وكنت غلامًا، فوجدوني لم أُنبت، فخلوا سبيلي[2].

وكان منهم أيضًا رفاعة بن سموأل القرظي، إلا أنه كان شابًّا قد بلغ، فلاذ بسلمى بنت قيس النجارية رضي الله عنها، فوهبه لها رسول الله ﷺ فأسلم.

قال ابن إسحاق: وحدثني أيوب بن عبد الرحمن بن عبد الله بن أبي صعصعة، أخو بني عدي بن النجار: أن سلمى بنت قيس، أم المنذر، أخت سليط بن قيس، وكانت إحدى خالات رسول الله ﷺ، قد صلت معه القبلتين، بايعته بيعة النساء، سألته رفاعة بن سموأل القرظي، وكان رجلًا قد بلغ، فلاذ بها، وكان يعرفهم قبل ذلك، فقالت: يا نبي الله، بأبي أنت وأمي، هب لي رفاعة، فإنه قد زعم أنه سيصلي ويأكل لحم الجمل، قال: فوهبه لها، فاستحيته (فلم يُقتل).

---

(1) المصدر السابق (335/3).

(2) ورواه أهل السنن الأربعة من حديث عبد الملك بن عمير، عن عطية القرظي نحوه.

تقسيم أموال بني قريظة:

جمع صحابة رسول الله ﷺ الغنائم التي خلفها بنو قريظة، فكانت كما يلي:

من السيوف ألفًا وخمسمائة سيف، ومن الرماح ألفي رمح، ومن الدروع ثلاثمائة درع، ومن التروس ألفًا وخمسمائة ترس وجحفة، كما تركوا عددًا كبيرًا من الشياه والإبل، وأثاثًا كثيرًا، وآنية كثيرة، ووجد المسلمون دنانًا من الخمر، فوزعت الغنائم - وهي الأموال المنقولة كالسلاح والأثاث وغيرها - بين المحاربين من أنصار ومهاجرين ممن شهدوا الغزوة، فأعطى ﷺ أربعة أخماس الغنائم لهم؛ إذ جعل للفرس سهمين، وللراجل سهمًا، فالفارس يأخذ ثلاثة أسهم له ولفرسه، وغير الفارس يأخذ سهمًا واحدًا له، والخمس المتبقي هو سهم الله ورسوله المقرر في كتابه تعالى.

وأما ما وجده رسول الله ﷺ والمسلمون من الخمر عند بني قريظة فقد أراقوه، ولم يأخذوا منه شيئًا، ولم ينتفعوا به كذلك، وقد أسهم رسول الله ﷺ لسويد بن خلاد الذي قتلته المرأة اليهودية بالرحى، وأعطى سهمه لورثته، ولصحابي آخر مات أثناء حصار بني قريظة[1].

وبعث رسول الله ﷺ سعيد بن زيد رَضِيَ اللَّهُ عَنْهُ بسبايا من بني قريظة إلى نجد، فاشترى بها خيلًا وسلاحًا، وبعث أيضًا سعد بن عبادة إلى الشام، فباع سبيًا واشترى سلاحًا وخيلًا، كما اشترى عثمان بن عفان وعبد الرحمن بن عوف رَضِيَ اللَّهُ عَنْهُمَا جملة من السبايا[2].

ريحانة بنت عمرو:

وكان رسول الله ﷺ قد اصطفى من نسائهم ريحانة بنت زيد بن عمرو بن خنافة، فعرض عليها الإسلام فامتنعت، ثم أسلمت بعد ذلك، فسرَّ الرسول بإسلامها، وقد عرض عليها أن يعتقها ويتزوجها، فاختارت أن تستمر على الرق؛ ليكون أسهل عليها وعليه، وقيل إن رسول الله ﷺ لما خيَّرها اختارت الإسلام، فأعتقها وتزوجها، وضرب

---

(1) انظر: السيرة النبوية للصلابي، ص 624.

(2) انظر: السيرة النبوية لمهدي رزق الله، ص 462-463.

عليها الحجاب، فغارت عليه غيرة شديدة، فطلقها، فشق عليها، وأكثرت البكاء فراجعها، ولم تختلف الروايات أنها ماتت في حياة النبي، قيل لما رجع من حجة الوداع، وقيل قبلها، فرضي الله عنها[1].

من استشهد من المسلمين:

استشهد من المسلمين يوم بني قريظة خلاد بن سويد رَضِيَ اللَّهُ عَنْهُ، طرحت عليه نباتة امرأة الحكم القرظي رحى، فجرحته جرحًا بالغًا مات منه، فقال النبي ﷺ: «إن له لأجر شهيدين»، وقد أمر رسول الله ﷺ بهذه المرأة فقتلت (كما ذكرنا).

ومات في أثناء الحصار أبو سنان بن محصن رَضِيَ اللَّهُ عَنْهُ أخو عكاشة بن محصن رَضِيَ اللَّهُ عَنْهُ، فدفن هو وخلاد هناك، فرضي الله عنهما وأرضاهما.

واهتز عرش الرحمن:

تقدم أن حبان بن العرقة - لعنه الله - رمى سعدًا رَضِيَ اللَّهُ عَنْهُ يوم الأحزاب، فأصاب أكحله، فدعا رَضِيَ اللَّهُ عَنْهُ ربه أن لا يميته حتى يقر عينه من بني قريظة، فاستجاب الله دعاءه، وأقر عينه، فحكم فيهم بحكم الله ﷻ من فوق سبع سماوات (وقد تقدم تفصيل ذلك).

فلما انقضى شأن بني قريظة، عادوا به رَضِيَ اللَّهُ عَنْهُ إلى خيمة رفيدة بمسجد رسول الله ﷺ، فانفجر جرحه الذي كان قد رقأ .. قالت عائشة رَضِيَ اللَّهُ عَنْهَا: «... فلم يرعهم (وفي المسجد خيمة من بني غفار) إلا والدم يسيل إليهم، فقالوا: يا أهل الخيمة، ما هذا يأتينا من قبلكم، فإذا سعد يغدوا جرحه دمًا، فمات منها»[2].

فأتى جبريل عَلَيْهِ السَّلَامُ النبي ﷺ - كما روى ابن إسحاق - من جوف الليل معتجرًا بعمامة (يشد العمامة حول رأسه) من إستبرق، فقال: يا محمد، من هذا الميت الذي فتحت له أبواب السماء، واهتز له العرش؟ قال ابن إسحاق: فقام رسول الله ﷺ سريعًا يجر ثوبه إلى سعد، فوجده قد مات رَضِيَ اللَّهُ عَنْهُ.

---

(1) انظر: الإصابة ج4، ص 309، والسيرة النبوية لأبي شهبة، ص 410-411.

(2) صحيح البخاري (2/591).

وروى البيهقي في (الدلائل)، عن جابر بن عبد الله رَضِيَ اللَّهُ عَنْهُمَا، قال: جاء جبريل إلى رسول الله ﷺ، فقال: من هذا العبد الصالح الذي مات، فتحت له أبواب السماء، وتحرك له العرش؟ قال: فخرج رسول الله ﷺ فإذا سعد بن معاذ.

ولحق أبو بكر وعمر رَضِيَ اللَّهُ عَنْهُمَا برسول الله ﷺ في المسجد، فلما وجدا سعدًا رَضِيَ اللَّهُ عَنْهُ قد مات، أجهشا في البكاء، حتى كانت عائشة رَضِيَ اللَّهُ عَنْهَا تسمع بكاءهما وتميزه، وهي في حجرتها وهم في المسجد، وقد روت رَضِيَ اللَّهُ عَنْهَا ذلك، فقالت: حضر رسول الله ﷺ وأبو بكر وعمر سعد بن معاذ، وهو يموت في القبة التي ضربها عليه رسول الله ﷺ في المسجد. قالت: والذي نفس محمد بيده إني لأعرف بكاء أبي بكر من بكاء عمر، وإني لفي حجرتي، فكأنما قال الله: ﴿ رُحَمَآءُ بَيۡنَهُمۡ ﴾ [الفتح:29].

جنازته رَضِيَ اللَّهُ عَنْهُ:

غسل الحارث بن أوس بن معاذ وأسيد بن حضير وسلمة بن سلامة بن وقش سعدًا رَضِيَ اللَّهُ عَنْهُ، ثم كُفن في ثلاثة أثواب، وحمل في سرير[1]، وكان ذلك بحضرة رسول الله ﷺ، وقد ودعه ﷺ قائلًا: «جزاك الله خيرًا من سيد قوم؛ فقد أنجزت ما وعدته، ولينجزك الله ما وعدك»[2].

وقالت أم سعد، حين احتمل نعشه وهي تبكيه (كما روى ابن إسحاق):

ويـــــل أم ســـــعد ســـــعدًا ... صرامــــــــة وحــــــــدًا

وســــــــؤددًا ومجـــــــدًا ... وفارسًــــــــا مُعــــــــدًّا

سُـــــدَّ بــــــه مـــــسَدًّا ... يَقُـــــدُّ هـــــا مـــــا قـــــدّا

فقال رسول الله ﷺ: كل نائحة تكذب، إلا نائحة سعد بن معاذ.

---

(1) انظر: ثلة من الأولين، د. محمد عبد القادر أبو فارس.

(2) انظر: سير أعلام النبلاء (1/288)، ورجاله ثقات.

ثم خُرج به رَضِيَ اللَّهُ عَنْهُ ... فقال القوم: ما حملنا يا رسول الله ميتًا أخف علينا منه. قال: «وما يمنعه أن يخف، وقد هبط من الملائكة كذا وكذا، لم يهبطوا قط قبل يومهم قد حملوه معكم»[1]. قال ابن إسحاق: وحدثني من لا أتهم عن الحسن البصري، قال: كان سعد رجلًا بادنًا، فلما حمله الناس وجدوا له خفة، فقال رجال من المنافقين: والله إن كان لبادنا وما حملنا من جنازة أخف منه (أي عقابًا من الله له لِحُكْمِه في بني قريظة)، فبلغ ذلك رسول الله ﷺ، فقال: إن له حملة غيركم، والذي نفسي بيده، لقد استبشرت الملائكة بروح سعد، واهتز له العرش. وروى الترمذي عن أنس رَضِيَ اللَّهُ عَنْهُ، قال: لما حملت جنازة سعد بن معاذ، قال المنافقون: ما أخف جنازته، فقال رسول الله ﷺ: «إن الملائكة كانت تحمله»[2].

دفنه رَضِيَ اللَّهُ عَنْهُ:

ولما انتهوا إلى قبره رَضِيَ اللَّهُ عَنْهُ نزل فيه أربعة: الحارث بن أوس، وأسيد بن الحضير، وأبو نائلة سلكان، وسلمة بن سلامة بن وقش، ورسول الله ﷺ واقف، فلما وضع في قبره، تغير وجه رسول الله ﷺ، وسبح ثلاثًا، فسبح المسلمون، حتى ارتج البقيع، ثم كبر ثلاثًا، وكبر المسلمون، فسئل عن ذلك، فقال: «تضايق على صاحبكم القبر، وضُم ضمة لو نجا منها أحد لنجا هو، ثم فرج الله عنه»[3]، أي أن الله سبحانه قدر ضمة القبر على كل ميت، ولو كان أحد نجا منها - لفضله ومكانته عند ربه وقربه منه - لكان سعد بن معاذ رَضِيَ اللَّهُ عَنْهُ.

وقد روت عائشة رَضِيَ اللَّهُ عَنْهَا، أن النبي ﷺ قال: «إن للقبر ضغطة ولو كان أحدٌ ناجيًا منها نجا منها سعد بن معاذ»[4].

(1) انظر: سير أعلام النبلاء (287/1) إسناده حسن.

(2) جامع الترمذي (225/2).

(3) انظر: مسند الإمام أحمد (141/6).

(4) رواه أحمد (55/6، 98)، وقال الألباني في (الصحيحة) (1695): صحيح بلا ريب.

قال أهل العلم: تصيب ضمة القبر كل مؤمن وتشتد عليه، غير أن المؤمن الصالح سرعان ما يفرج عنه، ويفسح له في قبره، فلا يطول العذاب عليه، أما الفاسق فتشتد عليه الضمة، ويطول عليه ضيق لحده بحسب ذنبه ومعصيته.

قال الذهبي في السير، في سيرة سعد بن معاذ رَضِيَ اللَّهُ عَنْهُ: (... فسعد ممن نعلم أنه من أهل الجنة، وأنه من أرفع الشهداء رَضِيَ اللَّهُ عَنْهُ .. كأنك يا هذا تظن أن الفائز لا يناله هول في الدارين ولا روع ولا ألم ولا خوف .. سل ربك العافية، وأن يحشرنا في زمرة سعد).

وجاءت أم سعد تنظر إليه في اللحد، وقالت: أحتسبك عند الله تعالى، فعزاها رسول الله صَلَّى اللَّهُ عَلَيْهِ وَسَلَّمَ على قبره[1]، فقال لها: «ألا يرقأ دمعك، ويذهب حزنك؛ فإن ابنك أول من ضحك الله له، واهتز له العرش»[2].

وقد كان سعد رَضِيَ اللَّهُ عَنْهُ يوم وافته منيته شهيدًا في السابعة والثلاثين من عمره، وهذا يعني أنه قاد قومه إلى الإسلام وهو في الثلاثين من عمره، وكانت له السيادة عليهم في العشرينيات من عمره، وقبل أن يكون على مشارف الثلاثين، فأي طراز من الرجال هذا الذي حفل تاريخه بهذه المآثر كلها في هذا العمر[3].

وكان رَضِيَ اللَّهُ عَنْهُ رجلًا أبيض، طوالًا، جميلًا، حسن الوجه، أعين، حسن اللحية[4].

قال ابن كثير: وكانت وفاته رَضِيَ اللَّهُ عَنْهُ بعد انصراف الأحزاب بنحو من خمس وعشرين ليلة؛ إذ كان قدوم الأحزاب في شوال سنة خمس (كما تقدم)، فأقاموا قريبًا من شهر، ثم خرج رسول الله صَلَّى اللَّهُ عَلَيْهِ وَسَلَّمَ لحصار بني قريظة، فأقام عليهم خمسًا وعشرين ليلة، ثم نزلوا على حكم سعد، فمات بعد حكمه عليهم بقليل، فيكون ذلك في أواخر ذي القعدة، أو أوائل ذي الحجة من سنة خمس، والله أعلم[5].

---

(1) د. محمد عبد القادر أبو فارس: ثلة من الأولين.

(2) المعجم الكبير للطبراني (12/6).

(3) الصلابي، السيرة النبوية، ص 620، بتصرف.

(4) انظر: سير أعلام النبلاء (290/1).

(5) البداية والنهاية 148/4-149.

ثناء النبي ﷺ عليه:

روى النسائي بسنده، عن عبد الله بن عمر رَضِيَ اللَّهُ عَنْهُ، أن النبي ﷺ قال: «هذا العبد الصالح (يعني: سعد بن معاذ) الذي تحرك له العرش، وفُتحت أبواب السماء، وشهده سبعون ألفًا من الملائكة، لم ينزلوا إلى الأرض قبل ذلك، لقد ضُم ضمة ثم أفرج عنه»(1).

- وروى الحافظ البزار عن نافع، عن ابن عمر رَضِيَ اللَّهُ عَنْهُمَا، قال: قال رسول الله ﷺ: «لقد هبط يوم مات سعد بن معاذ سبعون ألف ملك إلى الأرض، لم يهبطوا قبل ذلك، ولقد ضمه القبر ضمة»، ثم بكى نافع.

وروى البخاري ومسلم، عن جابر بن عبد الله رَضِيَ اللَّهُ عَنْهُمَا، قال: سمعت النبي ﷺ يقول: «اهتز العرش لموت سعد بن معاذ»(2).

قال الذهبي رَحِمَهُ اللَّهُ: هذا متواتر، أشهد أن رسول الله ﷺ قاله، ثم قال: (والعرش خلق لله مسخر، إذا شاء أن يهتز اهتز بمشيئة الله، وجعل فيه شعورًا لحب سعد، كما جعل تعالى شعورًا في جبل أحد بحبه النبي ﷺ، وقال تعالى: ﴿يَٰجِبَالُ أَوِّبِي مَعَهُۥ﴾ [سبأ:١٠]، وقال: ﴿تُسَبِّحُ لَهُ ٱلسَّمَٰوَٰتُ ٱلسَّبۡعُ وَٱلۡأَرۡضُ﴾ [الإسراء:٤٤]، ثم عم، فقال: ﴿وَإِن مِّن شَيۡءٍ إِلَّا يُسَبِّحُ بِحَمۡدِهِۦ﴾ [الإسراء:٤٤]، وهذا حق، وفي صحيح البخاري قول ابن مسعود: كنا نسمع تسبيح الطعام وهو يؤكل، وهذا باب واسع سبيله الإيمان)(3).

- وروى البراء بن عازب رَضِيَ اللَّهُ عَنْهُ، قال: أهديت لرسول الله ﷺ حلة حرير (وذلك قبل أن يُنهى عن الحرير)، فجعل أصحابه يلمسونها، ويعجبون من لينها، فقال: «أتعجبون من لين هذه؟! لمناديل سعد بن معاذ في الجنة خير منها وألين»(4).

---

(1) النسائي (4/100)، الجنائز.

(2) البخاري (3803)، ومسلم (2466).

(3) سير أعلام النبلاء (3/183-184).

(4) مسلم، فضائل الصحابة، رقم (2468).

وروى الترمذي والنسائي، من حديث محمد بن عمرو: بعث رسول الله ﷺ جيشًا إلى أكيدر دومة، فأرسل إلى رسول الله ﷺ بجبة من ديباج منسوج فيها الذهب، فلبسها رسول الله ﷺ، فقام على المنبر، وجلس فلم يتكلم، ثم نزل فجعل الناس يلمسون الجبة وينظرون إليها. فقال رسول الله ﷺ: «أتعجبون منها، لمناديل سعد بن معاذ في الجنة أحسن مما ترون».

حسان يرثي:

قال ابن إسحاق: وقال حسان بن ثابت يرثي سعد بن معاذ رَضِيَ اللَّهُ عَنْهُ:

لقد سجمت من دمع عيني عبرة ... وحق لعيني أن تفيض على سعد

قتيل ثوى في معرك فجعت به ... عيون ذواري الدمع دائمة الوجد

على ملة الرحمن وارث جنَّة ... مع الشهداء وفدها أكرم الوفد

فإن تك قد ودعتنا وتركتنا ... وأمسيت في غبراء مظلمة اللحد

فأنت الذي يا سعد أبت بمشهد ... كريم وأثواب المكارم والمجد

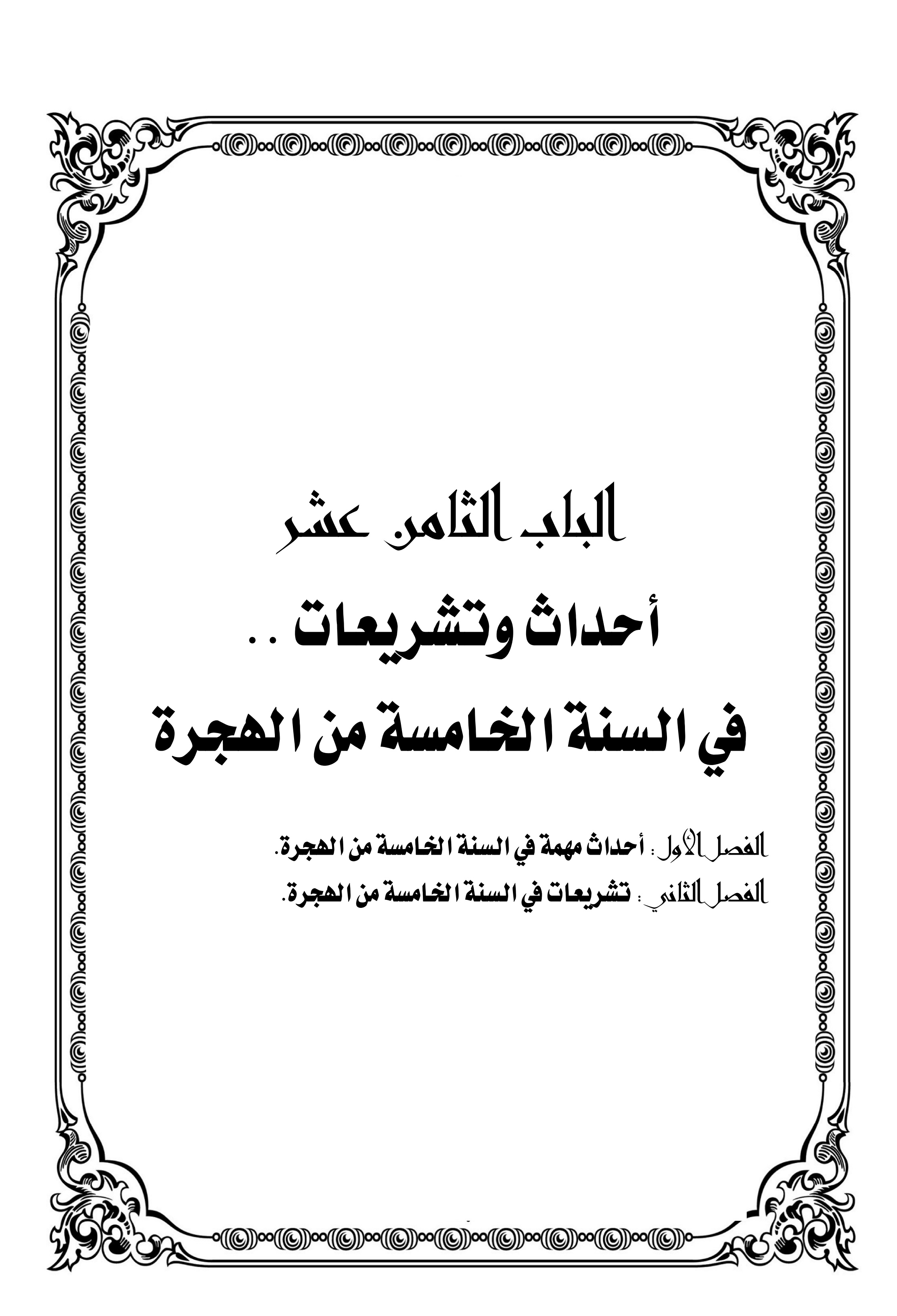
بحكمك في حيي قريظة بالذي ... قضى الله فيهم ما قضيت على عمد

فوافق حكم الله حكمك فيهم ... ولم تعف إذ ذكرت ما كان من عهد

فإن كان ريب الدهر أمضاك في الألى ... شروا هذه الدنيا بجناتها الخلد

فنعم مصير الصادقين إذا دعوا ... إلى الله يومًا للوجاهة والقصد

* * *



الباب الثامن عشر

أحداث وتشريعات ..

في السنة الخامسة من الهجرة

الفصل الأول: أحداث مهمة في السنة الخامسة من الهجرة.

الفصل الثاني: تشريعات في السنة الخامسة من الهجرة.

حفلت السنة الخامسة من الهجرة بأحداث وتشريعات، وبغزوات وسرايا، وبعمليات جهادية مهمة .. وقد ذكرنا بعضًا من ذلك في البابين السابقين، وبقي أن نستعرض البعض المتبقي في هذا الباب:

الفصل الأول

أحداث مهمة في السنة الخامسة من الهجرة

قدوم وفد مزينة:

كانت قبيلة مزينة قبيلة من الأعراب، تتخذ منازلها قريبًا من المدينة، على الطريق بينها وبين مكة، وكانت أخبار رسول الله ﷺ تصل إليهم تباعًا مع الغادين والرائحين، فلا تسمع عنه ﷺ إلا خيرًا.

وفي ذات عشية، جلس النعمان بن مقرن المزني، سيد مزينة، مع شيوخ قومه، فقال: يا قوم، والله ما علمنا عن محمدٍ إلا خيرًا، ولا سمعنا من دعوته إلا رحمة وإحسانًا وعدلًا، فما بالنا نبطئ عنه، والناس إليه يسرعون. ثم أتبع يقول: أما أنا، فقد عزمت على أن أغدو عليه إذا أصبحت، فمن شاء منكم أن يكون معي فليتجهز.

فما إن طلع الصباح حتى وجد النعمان إخوته العشرة، وأربعمائة فارس من فرسان مزينة قد جهزوا أنفسهم للمضي معه إلى المدينة؛ للقاء النبي ﷺ، والدخول في دين الله عز وجل، بيد أنهم استحوا أن يغدوا على رسول الله ﷺ دون أن يحملوا له وللمسلمين شيئًا، ولما كانت السنة مجدبة لا خضرة فيها، فلم تترك لهم ضرعًا ولا زرعًا، طاف النعمان ببيته وبيوت إخوته، وجمع كل ما أبقاه لهم القحط من غُنيمات، وساقها أمامه، وقدم بها على رسول الله ﷺ، وأعلن هو ومن معه إسلامهم بين يديه ﷺ. فاهتزت المدينة فرحًا بالنعمان وقومه؛ إذ كان حدثًا غير مسبوق، وسر رسول الله ﷺ بإسلامهم، وتقبل الله ﷻ غُنيماتهم، وأنزل فيهم قرآنًا يتلى:[1] ﴿ وَمِنَ ٱلْأَعْرَابِ مَن يُؤْمِنُ بِٱللَّهِ وَٱلْيَوْمِ ٱلْآخِرِ

(1) انظر: موسوعة النابلسي: رجال حول الرسول (33-50).

وَيَتَّخِذُ مَا يُنفِقُ قُرُبَٰتٍ عِندَ ٱللَّهِ وَصَلَوَٰتِ ٱلرَّسُولِۚ أَلَآ إِنَّهَا قُرۡبَةٞ لَّهُمۡۚ سَيُدۡخِلُهُمُ ٱللَّهُ فِي رَحۡمَتِهِۦٓۚ إِنَّ ٱللَّهَ غَفُورٞ رَّحِيمٞ ﴿٩٩﴾ ﴾ [التوبة].

قال مجاهد في قوله تعالى: ﴿ وَمِنَ ٱلۡأَعۡرَابِ مَن يُؤۡمِنُ بِٱللَّهِ وَٱلۡيَوۡمِ ٱلۡأٓخِرِ ﴾[التوبة: ٩٩]: هم بنو مقرن من مزينة، وهم الذين قال الله فيهم: ﴿ وَلَا عَلَى ٱلَّذِينَ إِذَا مَآ أَتَوۡكَ لِتَحۡمِلَهُمۡ قُلۡتَ لَآ أَجِدُ مَآ أَحۡمِلُكُمۡ عَلَيۡهِ تَوَلَّواْ وَّأَعۡيُنُهُمۡ تَفِيضُ مِنَ ٱلدَّمۡعِ حَزَنًا ﴾ [التوبة: ٩٢].

وقد عد رسول الله ﷺ مسلمي مزينة من المهاجرين وهم في ديارهم، ولو لم يهاجروا كغيرهم إلى المدينة. قال الواقدي: كان أول من وفد على رسول الله ﷺ من مضر أربعمائة من مزينة، وذاك في رجب سنة خمس، فجعل لهم رسول الله ﷺ الهجرة في دارهم، فقال: «أنتم مهاجرون حيث كنتم، فارجعوا إلى أموالكم». فرجعوا إلى بلادهم، ولم يقيموا بالمدينة، وجعلوا يدعون بقية قومهم إلى الإسلام.

وكان رسول الله ﷺ يكرم الوفود التي تقدم عليه من القبائل، فكان ﷺ يمنحهم الأرزاق والهدايا، وقد روى الإمام أحمد بسنده عن النعمان بن مقرن رَضِيَ اللَّهُ عَنْهُ، قال: قدمنا على رسول الله ﷺ أربعمائة من مزينة، فلما أردنا أن ننصرف، قال: «يا عمر زود القوم»، فقال: ما عندي إلا شيء من تمر، ما أظنه يقع من القوم موقعًا، قال: «انطلق فزودهم»، قال: فانطلق بهم عمر، فأدخلهم منزله، ثم أصعدهم إلى عُلَيَّة، فلما دخلنا، إذا فيها تمر مثل البكر الأورق (الجمل الأسمر)، فقال: خذوا. فأخذ القوم حاجتهم، قال: وكنت أنا في آخر القوم، قال: فالتفت وما أفقد موضع تمرة، وقد احتمل منه أربعمائة رجل (أي: أن التمر لا ينقص)[1].

وقد شهد النعمان بن مقرن رَضِيَ اللَّهُ عَنْهُ غزوة الخندق، وكانت أول مشاهده مع رسول الله ﷺ، وشهد بيعة الرضوان، وشارك في حروب الردة زمن أبي بكر، وشارك في معركة القادسية، وكان من ضمن رسل سعد بن أبي وقاص إلى يزدجرد في فارس، وبعثه عمر بن

(1) إسناده صحيح، أخرجه أحمد (23636).

الخطاب رَضِيَ اللَّهُ عَنْهُ قائدًا لجيش المسلمين يوم وقعة نهاوند، فكان يؤمئذ أول شهيد، وكانت في سنة إحدى وعشرين. فرضي الله عنه وعمن آمن من قومه أجمعين، وصدق عبد الله بن مسعود رَضِيَ اللَّهُ عَنْهُ في قوله: «إن للإيمان بيوتًا وللنفاق بيوتًا، وإن بيت بني مقرن من بيوت الإيمان».

وفاة أم سعد بن عبادة رَضِيَ اللَّهُ عَنْهُمَا:

توفيت في هذه السنة أم سعد بن عبادة رَضِيَ اللَّهُ عَنْهُمَا، وابنها رَضِيَ اللَّهُ عَنْهُ مع النبي ﷺ في غزوة دومة الجندل. **قال الواقدي:** وكان خروجه عَلَيْهِ السَّلَامُ إلى دومة الجندل في ربيع الآخر سنة خمس، وفيه توفيت أم سعد بن عبادة وابنها مع رسول الله ﷺ في هذه الغزوة [1].

فلما رجع رسول الله ﷺ من دومة الجندل صلى عليها بعد موتها بشهر، وقد روى الترمذي عن سعيد بن المسيب: أن أم سعد ماتت والنبي ﷺ غائب، فلما قدم ﷺ صلى عليها، وقد مضى لذلك شهر[2].

عملية جهادية خاصة تستهدف أبا رافع اليهودي:

لم تنته الخصومة بين المسلمين واليهود بانهزام قريظة وانكسار شوكتها؛ فإن بعض مؤلبي الأحزاب على الإسلام (من اليهود) فَرَّ إلى خيبر، لائذًا بحصونها، مستظهرًا بإخوانه فيها، مثل أبي رافع بن أبي الحقيق، وهو شريك حييّ بن أخطب في التطواف بالقبائل (قبل الأحزاب) يستجلبها إلى يثرب؛ بغية الإتيان على الإسلام وأهله[3]. وكان أبو رافع (واسمه سلام بن أبي الحقيق) تاجرًا مشهورًا بأرض الحجاز، وكان واسع الثراء، فاتخذ من ثرائه وسيلة لمحاربة رسول الله ﷺ والإسلام[4]. حتى إنه جعل لغطفان ومن

---

(1) البداية والنهاية 106/4.

(2) الترمذي (1037)، كتاب الجنائز، باب: ما جاء في الصلاة على القبر.

(3) الغزالي: فقه السيرة، ص 344.

(4) أبو شهبة: السيرة النبوية، ج2، ص 412.

حولها من قبائل مشركي العرب الجُعل العظيم، إن هي قامت لحرب رسول الله ﷺ، وشاع أمر أبي رافع وانتشر، وكان ممن ألب الأحزاب على رسول الله ﷺ، وأصبح تحريضه على دولة الإسلام من الأخطار التي يجب أن يوضع لها الحد[1].

وكان مما صنع الله لرسوله ﷺ أن هذين الحيين من الأوس والخزرج كانا يتسابقان بين يدي رسول الله ﷺ في الخيرات، لا تصنع الأوس شيئًا إلا وقالت الخزرج: والله لا يذهبون بهذا الفضل، فلا ينتهون حتى يفعلوا مثله أو أكثر منه، وإذا فعلت الخزرج شيئًا قالت الأوس مثل ذلك.

وكان الأوس قد قتلوا كعب بن الأشرف، فقال الخزرج: والله لا يذهبون بهذا الفضل علينا، فتذاكروا من رجل في عداوة رسول الله كابن الأشرف؟ فذكروا ابن أبي الحقيق، وكان بقصره بخيبر، فاستأذنوا رسول الله ﷺ في قتله فأذن لهم، فخرج من الخزرج خمسة نفر، وهم: عبد الله بن عتيك، ومسعود بن سنان الأسلمي، وعبد الله بن أنيس الجهني حليف الأنصار، وأبو قتادة الأنصاري، وخزاعي بن أسود، وأمَّر عليهم رسول الله ﷺ عبد الله بن عتيك، وأوصاهم أن لا يقتلوا وليدًا ولا امرأة [2].

روى البخاري بسنده عن البراء رَضِيَ اللَّهُ عَنْهُ، قال: بعث رسول الله ﷺ إلى أبي رافع عبد الله بن عتيك، وعبد الله بن عتبة في ناس معهم، فانطلقوا حتى دنوا من الحصن، فقال لهم عبد الله بن عتيك: امكثوا أنتم حتى أنطلق أنا فأنظر.

قال: فتلطفت حتى أدخل الحصن، ففقدوا (أي: أهل الحصن) حمارًا لهم، فخرجوا بقبس (ضوء) يطلبونه، قال: فخشيت أن أُعرف، قال: فغطيت رأسي، وجلست كأني أقضي حاجة، ثم نادى صاحب الباب، فقال: من أراد أن يدخل (الحصن) فليدخل قبل أن أغلقه، فدخلت ثم اختبأت في مربط حمار عند باب الحصن، فتعشوا عند أبي رافع

---

(1) محمد قلعجي: قراءة سياسية للسيرة النبوية، ص 212، والصلابي: السيرة النبوية، ص 651.

(2) أبو شهبة: السيرة النبوية، ج2، ص 412، وصحيح البخاري (2/577).

وتحدثوا حتى ذهب ساعة من الليل، ثم رجعوا إلى بيوتهم، فلما هدأت الأصوات ولا أسمع حركة خرجت.

قال: ورأيت صاحب الباب حيث وضع مفتاح الحصن في كوة، فأخذته ففتحت به باب الحصن.

قال: قلت: إن نذر بي القوم انطلقت على مهل، ثم عمدت إلى أبواب بيوتهم فغلقتها عليهم من ظاهر، ثم صعدت إلى أبي رافع في سلم، فإذا البيت مظلم قد طفئ سراجه، فلم أدر أين الرجل. فقلت: يا أبا رافع. قال: من هذا؟ فعمدت نحو الصوت فأضربه، وصاح فلم تغن شيئًا (أي: لم تقتله الضربة)، قال: ثم جئته كأني أغيثه، فقلت: ما لك يا أبا رافع؟ وغيرت صوتي.

قال: ألا أعجبك - لأمك الويل - دخل عليَّ رجل فضربني بالسيف.

قال: فعمدت إليه أيضًا فأضربه أخرى، فلم تغن شيئًا، فصاح وقام أهله، ثم جئت وغيرت صوتي كهيئة المغيث، فإذا هو مستلق على ظهره، فأضع السيف في بطنه ثم أنكفئ عليه، حتى سمعت صوت العظم، ثم خرجت دهشًا حتى أتيت السلم أريد أن أنزل، فأسقط منه، فانخلعت رجلي فعصبتها، ثم أتيت أصحابي أحجل، فقلت: انطلقوا فبشروا رسول الله ﷺ فإني لا أبرح حتى أسمع الناعية.

فلما كان وجه الصبح صعد الناعية، فقال: أنعي أبا رافع.

قال: فقمت أمشي ما بي قلبة، فأدركت أصحابي قبل أن يأتوا رسول الله ﷺ فبشرته.

قال الزهري: قال أبي بن كعب: فقدموا على رسول الله ﷺ وهو على المنبر، فقال: «أفلحت الوجوه»، قال: أفلح وجهك يا رسول الله.

قال: «أفتكتموه؟»، قالوا: نعم، قال: «ناولني السيف»، فسله، فقال: أجل هذا طعامه في ذباب السيف.

وفي رواية أخرى عند البخاري، قال عبد الله بن عتيك: (... فانتهيت إلى النبي ﷺ فحدثته، فقال ابسط رجلك، فبسطت رجلي، فمسحها، فكأنما لم أشتكها)[1].

وكان قتل أبي رافع في ذي الحجة سنة خمس من الهجرة، وقد ذكر الواقدي أنهم خرجوا ليلة الاثنين في السحر لأربع خلون من ذي الحجة، على رأس ستة وأربعين شهرًا من الهجرة، وغابوا عشرة أيام[2].

تعقيب:

إنها أمثولة خالدة نضعها بين يدي المجاهدين، نموذج حي لتنفيذ المهمات الموكلة إليهم في أعلى مستوى يمكن أن تصل إليه عبقرية العمليات الخاصة .. لقد اغتال عبد الله ابن عتيك سلام بن أبي الحقيق بعد أن اقتحم عليه حصنه، وقتله في فراشه وبين أهله، وأخذ مفاتيح الحصن والبيت بيده .. وأين؟ .. في خيبر، في قلب حصون العدو، حيث أمضى المسلمون فيها بعد قرابة شهر وهم يفتحون هذه الحصون.

ولقد رأينا عبد الله بن عتيك رَضِيَ اللَّهُ عَنْهُ يقوم بكل هذه العمليات الضخمة، وينال أكبر رأس من رءوس الطغاة. ومع ذلك يأتي ليقول لإخوانه: النجاء؛ فقد قتل الله أبا رافع. ولم يقل لهم: النجاء، فقد قتلت أبا رافع. إن عظمة العبودية لله عز وجل عنده أن لا ينسب القتل إليه، مع أنه هو الذي خطط ونفذ وتأكد من نجاح مهمته، وأصيبت رجله .. ونحن بحاجة لمثل هذه النفسيات التي تخلص الغاية لله، وتحسن الوسيلة وتحكمها، وتهيئ لها وسائلها؛ ليتاح لنا النصر على أعدائنا، ولا حرج عندئذ في التنافس في الجهاد في سبيل الله، فلم يبحث الخزرج عن رجل عادي يقتلونه نفاسة للأوس، بل بحثوا عن رأس من رءوس الطغاة على مستوى كعب بن الأشرف، ونود أن لا يدفعنا التنافس إلى هم الفتك فقط، بل لابد من البحث عن طاغية جبار عنيد، يكافئ الجهد المبذول لذلك[3] .

---

(1) صحيح البخاري (2/577).

(2) المغازي (1/391).

(3) انظر: المنهج الحركي للغضبان، ص 357.

إسلام عمرو بن العاص على يد النجاشي:

في هذه السنة أسلم داهية قريش، ورجل العالم، ومن يُضرب به المثل في الفطنة والدهاء والحزم، أبو عبد الله عمرو بن العاص بن وائل، الشاعر السيد، سهم الإسلام، الفارس، والفاتح العظيم الذي جاء بالإسلام إلينا في الديار المصرية، فهدى الله على يديه آباءنا الأولين، فكنا من بعدهم مسلمين، فجزاه الله خير الجزاء عن كل من آمن في بلادنا فصلى وصام، وسبح وكبر، وتعلم الإسلام وعَلَّمَ، وكل من جاهد ونصر دين ربه.

قال طلحة رَضِيَ اللَّهُ عَنْهُ: ألا أحدثكم عن رسول الله ﷺ بشيء؟ إني سمعته يقول: «عمرو ابن العاص من صالحي قريش، نِعْم أهل البيت أبو عبد الله، وأم عبد الله، وعبد الله»[1].

ورُوي عنه أيضًا أنه قال: سمعت رسول الله ﷺ يقول: «إن عمرو بن العاص لرشيد الأمر أحمد»[2].

ورُوي عن عقبة رَضِيَ اللَّهُ عَنْهُ، قال: سمعت رسول الله ﷺ يقول: «أسلم الناس وآمن عمرو بن العاص» [3].

قال ابن إسحاق: وحدثني يزيد بن أبي حبيب، عن راشد مولى حبيب بن أبي أوس الثقفي، عن حبيب بن أبي أوس الثقفي، قال: حدثني عمرو بن العاص من فيه (فمه) قال:

لما انصرفنا مع الأحزاب عن الخندق، جمعت رجالًا من قريش كانوا يرون رأيي، ويسمعون مني، فقلت لهم: تعلمون والله أني أرى أمر محمد يعلو الأمور علوًّا منكرًا، وإني قد رأيت أمرًا فما ترون فيه؟ قالوا: وماذا رأيت؟ قال: رأيت أن نلحق بالنجاشي فنكون عنده، فإن ظهر محمد على قومنا كنا عند النجاشي؛ فإنا أن نكون تحت يديه أحب إلينا من أن نكون تحت يدي محمد. وإن ظهر قومنا فنحن من قد عرفوا، فلن يأتينا منهم إلا خير،

---

(1) سير أعلام النبلاء، ج3، ص 56.

(2) المصدر السابق، ج3، ص 64.

(3) المصدر السابق.

قالوا: إن هذا الرأي، قلت: فاجمعوا له ما نهديه له .. وكان أحب ما يهدى إليه من أرضنا الأدم، فجمعنا له أدمًا كثيرًا، ثم خرجنا حتى قدمنا عليه.

فوالله إنا لعنده (النجاشي) إذ جاءه عمرو بن أمية الضَّمري، وكان رسول الله قد بعثه إليه في شأن جعفر وأصحابه، قال: فدخل عليه ثم خرج من عنده. قلت لأصحابي: هذا عمرو بن أمية الضمري. لو قد دخلت على النجاشي وسألته إياه فأعطانيه، فضربت عنقه، فإذا فعلت ذلك، رأت قريش أني قد أجزأت عنها حين قتلت رسول محمد. قال: فدخلت عليه فسجدت له كما كنت أصنع، فقال: مرحبًا بصديقي، أهديت إليَّ من بلادك شيئًا؟ قلت: نعم، أيها الملك قد أهديت إليك أدمًا كثيرًا، قال: ثم قربته إليه، فأعجبه واشتهاه، ثم قلت له: أيها الملك، إني قد رأيت رجلًا خرج من عندك، وهو رسول رجل عدوٍّ لنا، فأعطنيه لأقتله، فإنه قد أصاب من أشرافنا وخيارنا، قال: فغضب، ثم مدَّ يده فضرب بها أنفه ضربة ظننت أنه قد كسره، فلو انشقت لي الأرض لدخلت فيها فرقًا (خوفًا) منه، ثم قلت له: أيها الملك، والله لو ظننت أنك تكره هذا ما سألتكه، قال: أتسألني أن أعطيك رسول رجل يأتيه الناموس الأكبر الذي كان يأتي موسى لتقتله! قلت: أيها الملك، أكذاك هو؟ قال: ويحك يا عمرو، أطعني واتبعه؛ فإنه والله لعلى الحق، وليظهرن على من خالفه، كما ظهر موسى على فرعون وجنوده، قلت: أفتبايعني له على الإسلام؟ قال: نعم. فبسط يده فبايعته على الإسلام، ثم خرجت إلى أصحابي وقد حال رأيي عما كان عليه، وكتمت أصحابي إسلامي[1].

كتم عمرو رَضِيَ اللَّهُ عَنْهُ ما بقلبه حتى اقترب فتح مكة، والتقى بخالد بن الوليد، وكان خالد قد أجمع أمره على الإسلام، وانتوى الذهاب إلى النبيِّ ﷺ في مهجره ليتبعه، قال له عمرو: أين يا أبا سليمان؟ قال: والله لقد استقام المنسم (وضح الطريق) وإن الرجل لنبيّ! أذهبُ - والله - فأسلم، فحتى متى؟!

(1) السيرة النبوية لابن هشام، ج3، ص 289.

وسُرَّ عمرو أن يجد له صاحبًا كخالد، فصارحه بما في نفسه، وانطلق الرجلان إلى يثرب مسلمين مهاجرين.

وقصة إسلامهما – كما قلنا – كانت قبيل الفتح؛ فإن خالدًا كان في عمرة الحديبية قائدًا لجيش قريش، وهي تصد المسلمين عن زيارة البيت العتيق(1).

قدوم وفد أشجع على رسول الله ﷺ:

قبيلة أشجع هي إحدى بطون قبيلة غطفان المضرية .. وغطفان قبيلة عربية كبيرة، سكنت بادية نجد والحجاز جهة وادي القرى وبوادي المدينة المنورة.

فلما عاهد رسول الله ﷺ القبائل البدوية التي كانت تقيم على الطريق بين مكة والمدينة، توقفت القوافل المكية المتجهة إلى الشام عبر هذا الطريق، فأضر هذا بغطفان عامةً، وأشجع خاصةً؛ لأن غطفان وبطونها كانت تستفيد من قوافل قريش التي تمر عبر أراضيها؛ بل إن أشجع كانت تعتمد في معاشها على ما يأتيها من حمايتها لهذه القوافل، فضلًا عما كانت تتزود به من مواد من هذه القوافل، ولذلك بدأت قبيلة غطفان ببطونها – ومنها أشجع – بالاعتداء على دولة الإسلام في المدينة، فقامت بعدد من الغارات المستمرة على أطراف المدينة، ولم تكن تبغي من وراء ذلك محاربة الإسلام ورسالته، وإنما كان هدفهم الأول هو الحصول على الغنائم؛ ولذا فقد كان رد المسلمين تجاههم هو إرسال السرايا والغزوات إليهم .. ومنها:

- غزوة قرقرة (الكدر) سنة 3 هـ.
- سرية غالب بن عبد الله الليثي سنة 3 هـ.
- غزوة ذات الرقاع (وسيأتي ذكرها).
- غزوة الغابة (سيأتي ذكرها).
- سرية أبي قتادة (سيأتي ذكرها).

---

(1) فقه السيرة للغزالي، ص 346.

وقد تقدم ذكر تحزبهم مع قريش في غزوة الخندق، لما خرج إليهم النفر من اليهود، ووعدوهم أن يعطوهم ثلث ثمار خيبر إن تم النصر على محمد ﷺ وأصحابه، وما كان من محاولة النبي ﷺ تحييدهم وإرجاعهم بإعطائهم ثلث ثمار المدينة، إلا أن مشاورة السعدين (ابن معاذ، وابن عبادة) صرفته عن ذلك.

وكان من أمر «أشجع» أيضًا يوم الأحزاب، أن رسول الله ﷺ استفاد من رجل منهم أسلم، وهو نعيم بن مسعود رَضِيَ اللَّهُ عَنْهُ في التخذيل والتفريق بين الأحزاب، فألب بعضهم على بعض، وشتت جموعهم بالخلاف، فكان له رَضِيَ اللَّهُ عَنْهُ دور كبير في هذه الغزوة.

فلما انتهت غزوة الأحزاب، جاء وفد أشجع (وليس كل غطفان) إلى رسول الله ﷺ؛ يطلب موادعته، وإنهاء الحروب بينهم وبينه.

قال ابن سعد: وقدمت أشجع على رسول الله ﷺ عام الخندق، وهم مائة، على رأسهم مسعود بن رخيلة، فنزلوا شعب سَلْع، فخرج إليهم رسول الله ﷺ، وأمر لهم بأحمال التمر، فقالوا: يا محمد لا نعلم أحدًا من قومنا أقرب دارًا منك منا، ولا أقل عددًا، وقد ضقنا بحربك وبحرب قومك، فجئنا نوادعك، فوادعهم. ويقال: بل قدمت أشجع بعدما فرغ رسول الله ﷺ من بني قريظة وهم سبعمائة، فوادعهم، ثم أسلموا بعد ذلك[1].

ضمام بن ثعلبة .. أفضل وافد قوم:

في رجب من هذه السنة بعثت بنو سعد بن بكر ضمامَ بن ثعلبة إلى رسول الله ﷺ .. فكان أفضل وافد قوم.

روى ابن إسحاق، عن عبد الله بن عباس، قال: بعثت بنو سعد بن بكر ضمام بن ثعلبة وافدًا إلى رسول الله ﷺ، فقدم عليه، وأناخ بعيره على باب المسجد، ثم عقله، ثم دخل المسجد ورسول الله ﷺ جالس في أصحابه، فقال: أيكم ابن عبد المطلب، فلما عرفه قال: إني سائلك ومغلظ في المسألة، فلا تجدن في نفسك (تغضب مني).

---

(1) الطبقات 306/1.

قال: «لا أجد في نفسي، فسل عما بدا لك»، قال: أنشدك الله إلهك، وإله من كان قبلك، وإله من هو كائن بعدك، آللَّهُ أمرك أن تأمرنا أن نعبد الله وحده لا نشرك به شيئًا، وأن نخلع هذه الأنداد التي كانت آباؤنا تعبد من دون الله؟ قال: «اللّهم نعم»، قال: وأنشدك الله إلهك، وإله من كان قبلك، وإله من هو كائن بعدك، آللَّهُ أمرك أن نصلي هذه الصلوات الخمس؟ قال: «اللّهم نعم»، قال: ثم جعل يذكر فرائض الإسلام فريضة فريضة: الزكاة والصيام والحج وشرائع الإسلام كلها، يناشده عند كل فريضة كما يناشد في التي قبلها، حتى إذا فرغ قال: فإني أشهد أن لا إله إلا الله، وأشهد أن محمدًا رسول الله، وسأؤدي هذه الفرائض، وأجتنب ما نهيتني عنه، ثم لا أزيد ولا أنقص، ثم انصرف راجعًا إلى بعيره، فقال رسول الله ﷺ حين ولى: «إن يصدق ذو العقيصتين[1] يدخل الجنة».

قال: فأتى إلى بعيره وأطلق عقاله، ثم خرج حتى قدم على قومه، فاجتمعوا إليه، وكان أول ما تكلم به أن قال: بئست اللات والعزى، فقالوا: مه يا ضمام، اتق البرص، اتق الجذام، اتق الجنون. قال: ويلكم إنهما - والله - ما يضران ولا ينفعان، فإن الله تعالى قد بعث رسولًا، وأنزل عليه كتابًا استنقذكم مما كنتم فيه، وإني أشهد أن لا إله إلا الله وحده لا شريك له، وأن محمدًا عبده ورسوله، قد جئتكم من عنده بما أمركم به ونهاكم عنه، قال: فوالله ما أمسى من ذلك اليوم في حاضره رجل ولا امرأة إلا مسلمًا، قال: يقول ابن عباس رَضِيَ اللَّهُ عَنْهُمَا: ما سمعنا بوافد قوم كان أفضل من ضمام بن ثعلبة[2].

قال منير الغضبان رَحِمَهُ اللَّهُ:

إنه ليدور في خلدي ذلك الإنسان الذي عاش في صحرائه .. ضِمام بن ثعلبة .. منسجمًا مع نفسه في إبله وأهله .. وله السيادة في قومه .. جاء إليه من حدثه عن محمد رسول الله، فسُرَّ في قلبه سرورًا عظيمًا، وعزم على أن يمضي بنفسه ليلقى هذا الرسول من عند رب العالمين، وسوف يناشده الله أن يصدقه، ومضى بهذا التصميم إليه، ونفسه تتوق طيلة

---

(1) **العقيصتين:** الضفيرتين.

(2) ورواه البخاري أيضًا.

الطريق إلى ذلك اللقاء الذي يتعرف به على هذا المرسل من عند الله رب السماء والأرض .. ووصل، واعتذر سلفًا عن الإغلاظ في المسألة .. وصمم على أن يناشده ربه عن كل شيء .. حتى إذا تأكد من صحة كلام هذا المبعوث من عند الله تعالى، أخذ الأوامر المرسلة، والنواهي المجتنبة، ومضى إلى قومه وقد انتهى إلى اليقين النهائي في نفسه، وأمام هذا الإيمان العجيب، دخل قومه كلهم في الإسلام، ولم يكلف دخول هذه القبيلة كلها أكثر من كلمات: «اللّٰهم نعم» من رسول الله ﷺ، بينما كلف دخول قريش في الإسلام حرب عشرين عامًا أو تزيد[1].

وقال الشيخ الغزالي رَحِمَهُ ٱللَّهُ:

ذاك وفد يمثل بساطة الأميين في منطقهم، وسلامة طويتهم في جدلهم وتساؤلهم، وخلوَّ أذهانهم من العقد التي تعترض الحق في مسيله السمح.

ولا نكران في أن جهاد الدعوة القديم، له أثره في الوصول إلى هذه النتائج السريعة .. وهذا طبيعي؛ فإن تغيير دين ليس كتجديد زي، و«ضمام بن ثعلبة» كان يستحضر في ذهنه - وهو يسأل النبيّ، ثم وهو يخطب قومه - أن هذه الرسالة الجديدة مرت بأطوار شتى من المحن والفتن، كشفت عن صدقها وسلامة جوهرها، فليس إيمانه وإيمان قومه، وليد ساعة من كلام[2].

* * *

(1) المنهج الحركي ص 182-183.

(2) فقه السيرة، ص 457.

الفصل الثاني

تشريعات في السنة الخامسة من الهجرة

أولا: إبطال التبني:

أراد رسول الله ﷺ أن يحطم الفوارق الطبقية الموروثة في الأمة المسلمة من عادات الجاهلية؛ ليكون الناس سواسية كأسنان المشط، لا فضل لأحد على أحد إلا بالتقوى، وكان الموالي - وهم الذين جرى عليهم الرق ثم تحرروا - طبقة أدنى من طبقة السادة، ومن الموالي كان زيد بن حارثة مولى رسول الله ﷺ - الذي أعتقه ثم تبناه - فرأى رسول الله ﷺ أن يزوج زيدًا من شريفة بني أسد، وهي ابنة عمته زينب بنت جحش رَضِيَ اللَّهُ عَنْهَا؛ ليبطل تلك الفوارق الطبقية بنفسه في أسرته، وكانت هذه الفوارق من العمق والعنف بحيث لا يحطمها إلا فعل واقعي من رسول الله ﷺ؛ لتتخذ منه الأمة المسلمة أسوة وقدوة، وتسير البشرية على هداه في هذا الطريق.

وأيضًا لعل من الحكمة في هذا الزواج أنه كان مقدمة لتشريع آخر، لا يقل أهمية في حفظ توازن المجتمع، وحماية الأسرة عن الأول، وإن لم تظهر هذه الحكمة في بداية الأمر.

انطلق رسول الله ﷺ ليخطب على فتاه زيد بن حارثة رَضِيَ اللَّهُ عَنْهُ، فدخل على زينب بنت جحش الأسدية رَضِيَ اللَّهُ عَنْهُ فخطبها، فقالت: لست بناكحته، فقال رسول الله ﷺ: «بلى، فانكحيه»، قالت: يا رسول الله أؤامر في نفسي؟ فبينما هما يتحادثان أنزل الله تعالى هذه الآية: ﴿وَمَا كَانَ لِمُؤْمِنٍ وَلَا مُؤْمِنَةٍ إِذَا قَضَى ٱللَّهُ وَرَسُولُهُۥٓ أَمْرًا أَن يَكُونَ لَهُمُ ٱلْخِيَرَةُ مِنْ أَمْرِهِمْ﴾ [الأحزاب: ٣٦].

فقالت: يا رسول الله قد رضيته لي زوجًا؟ قال: نعم، قالت: لا أعصي رسول الله ﷺ، وقد زوّجته نفسي.

وكان زيد بن حارثة - إذ ذاك - لا يزال يُدعى زيد بن محمد، فتزوّجها زيد، وأصدقها في هذا الزواج عشرة دنانير، وستين درهمًا، وخمارًا، وملحفة، ودرعًا، وخمسين مُدًّا من طعام، وعشرة أمداد من تمر.

ثم شاءت حكمة الله تعالى أن لا يتوافق زيد وزينب في زواجهما، وأصبحت حياة الزوجين لا تطاق، وصمم زيد على فراق زوجه زينب، وكان قبل ذلك يشتكي لرسول الله ﷺ من عدم استطاعته البقاء مع زينب، ورسول الله يأمره بإمساك زوجه، مع تقوى الله في شأنها، حتى أذن الله بالطلاق، فطلقها زيد، وانفصمت العلاقة بينهما بعد أن قضى زيد وطره، وبعد أن مكث معها ما يقرب من سنة، قال ابن كثير: فمكثت عنده قريبًا من سنة أو فوقها، ثم وقع بينهما (يعني الخلاف)، فجاء زيد يشكوها إلى رسول الله ﷺ، فجعل رسول الله ﷺ يقول له: «أمسك عليك زوجك، واتق الله»[1].

ولأنه لم يبق لزيد رغبة في إبقاء العلاقة الزوجية معها، ولأنه كان كريم النفس، لا يريد أن يبني سعادته وراحته على شقاء الآخرين وتعاستهم، والإضرار بهم؛ لهذا صمم على الفراق وعدم الإضرار بها، وانتهى زواج زيد بن حارثة رَضِيَ اللَّهُ عَنْهُ بزينب بنت جحش على هذا الوضع، دون أي تدخل خارجي بينهما، ووقع ذلك الطلاق بمحض اختياره وإرادته، بالإضافة إلى أن رسول الله ﷺ كان ينهاه عن ذلك، ويأمره بتقوى الله وإمساك زوجته[2].

شوط جديد:

ثم كان على رسول الله ﷺ أن يخوض شوطًا جديدًا في إعادة تنظيم الجماعة المسلمة على أساس التصور الإسلامي، فقد شاء الله عز وجل أن ينتدبه لإبطال ما ترتب على إبطال التبني من الناحية العملية، فيتزوج من مطلقة متبناه زيد بن حارثة، ويواجه المجتمع بهذا العمل الذي لا يستطيع أحد أن يواجه المجتمع به؛ فقد كانت العرب تُحرِّم مطلقة الابن بالتبني حرمة مُطَلَّقة الابن من النسب، وما كانت تطيق أن تحل مطلقات الأدعياء، فانتدب الله رسوله ﷺ ليحمل هذا العبء فيما يحمل من أعباء، وسنرى من موقفه ﷺ من هذه التجربة أنه ما كان أحد سواه قادرًا على احتمال مواجهة المجتمع بمثل

---

(1) تفسير ابن كثير (3/489).

(2) انظر: السيرة للصلابي، ص 628-629.

هذه الخارقة لمألوفه العميق، ويكفي أن أعداء الإسلام يتخذونها الآن تكئة للطعن على رسول الله ﷺ[1].

روى البخاري بسنده عن أنس رضي الله عنه، في قوله تعالى: ﴿وَتُخْفِي فِي نَفْسِكَ مَا اللَّهُ مُبْدِيهِ﴾ [الأحزاب:٣٧]، نزلت في شأن زينب بنت جحش وزيد بن حارثة رضي الله عنهما.

وفي رواية أخرى عنه قال: جاء زيد بن حارثة يشكو، فجعل النبي ﷺ يقول: «اتق الله وأمسك عليك زوجك». قال أنس: (لو كان رسول الله ﷺ كاتمًا شيئًا من الوحي لكتم هذه الآية)، يعني لما فيها من عتاب له من ربه، وهذا من أكبر الأدلة على أنه نبي يوحى إليه. قال الحافظ ابن حجر في فتح الباري[2]، تعليقًا على رواية البخاري: وقد أخرج ابن أبي حاتم هذه القصة من طريق السُدِّي، فساقها سياقًا واضحًا حسنًا ولفظه: بلغنا أن هذه الآية نزلت في زينب بنت جحش، وكانت أمها أميمة بنت عبد المطلب عمة رسول الله ﷺ، وكان رسول الله أراد أن يزوجها زيد بن حارثة مولاه، فكرهت ذلك، ثم رضيت بما صنع رسول الله ﷺ، فزوجها إياه، ثم أعلم الله عز وجل نبيه بعدُ أنها من أزواجه، فكان يستحي أن يأمر بطلاقها، وكان لا يزال بين زيد وزينب ما يكون بين الناس، فأمره رسول الله أن يمسك عليه زوجه، وأن يتقي الله، وكان يخشى أن يعيب عليه الناس ويقولوا: تزوج امرأة ابنه، وكان قد تبنى زيدًا. وروى ابن أبي حاتم أيضًا والطبري، عن علي بن الحسين بن علي، قال: (أعلم الله نبيه أن زينب ستكون من أزواجه قبل أن يتزوجها، فلما أتاه زيد يشكوها، وقال له: «اتق الله وأمسك عليك زوجك»، قال الله: قد أخبرتك أني مزوجكها وتخفي في نفسك ما الله مبديه).

تعقيب:

ما اتفق خصوم الإسلام على شيء كما اتفقوا على تشويه سمعة النبي في موضوع تعدد زوجاته ﷺ، وقد اعتمد هؤلاء في طعونهم على روايات مدسوسة، أغلب الظن أنها من

---

(1) سيد قطب: في ظلال القرآن، مختصرًا، وبتصرف.

(2) الفتح، ج8، ص 425.

صنع اليهود والزنادقة من الفرس وغيرهم، الذين عجزوا أن يقاوموا سلطان الإسلام وقوته، فلجأوا إلى الكذب والدس .. وجاز هذا الزور على بعض الأغرار من المسلمين، فروَوْه وذكروه في كتبهم، ولكنه ما كان يخفى على العلماء الراسخين، فنبهوا على كذبه، وحذَّروا من التصديق به، وهكذا نرى أنهم أقاموا من مزاعمهم قصرًا على أساس من خيوط العنكبوت، وما أوهنها من أساس.

وثمة حجة دامغة تذهب بالقصة من أساسها، فالسيدة زينب هي بنت عمة رسول الله، وقد ربيت على عينه، وشهدها وهي تحبو، ثم وهي شابة، وله بحكم صلة القرابة معرفة بها وبمفاتنها، ولا سيما أن النساء كن يبدين من محاسنهن ما حرمه الإسلام فيما بعد، وهو الذي خطبها لمولاه زيد، فتمنعت، حتى نزل الوحي أن لا خِيرَة لأحد بعد قضاء الله ورسوله، فغير معقول - والحال كما ذكرت - أن لا يكون شاهدها، فلو كان يهواها، أو وقعت من قلبه، فأي شيء كان يمنعه من زواجها من أول الأمر، وإشارة منه كانت كافية لأن يقدمها له أهلها وما ملكت، فمثله وهو الذروة من قريش نسبًا ودينًا وخلقًا وخلقة وصحة، ممن تتطاول إليه الأعناق وتهفو القلوب، فلو كان كما يزعم المتخرصون تمتد عينه إلى كل من يهوى ويستحسن، لتزوجها وهي بكر عذراء، لا أن يسكت حتى يجن جناها ويقطف زهرتها رجل مولى له، ثم بعد ذلك يرعى حيث رعى، فلولا أنه يتزوج لتشريع أو لحكمة سامية لما رضي بذلك.

وأيضًا فحياة رسول الله ﷺ لم تكن حياة حب واستهتار، وإنما كانت حياة الشرف والكرامة والعفة والترفع عن الدنايا قبل نبوته وبعدها، ما عرفت الدنيا أطهر ذيلًا منه، ولا أعف منه، ولا لمست يده قط يد امرأة لا تحل له، ولما بايع النساء على الإيمان والطاعة، ونبذ المعاصي والفجور، بايعهن بدون مصافحة، مع أن المصافحة كانت من ملازمات البيعة والمعاهدة في الجاهلية والإسلام، وكيف يكون على ذلك الخلق الذي لا نرضاه لرجل من سوقة الناس، فضلًا عن أنبياء الله ورسله، مَنْ خاطبه مولاه بقوله: ﴿ وَإِنَّكَ لَعَلَىٰ خُلُقٍ عَظِيمٍ ﴿٤﴾ ﴾ [القلم]؟!

ولو كان رسول الله متيَّمًا بالنساء ومغرمًا بمفاتنهن - كما زعموا - لأشبع رغبته بالأزواج الكثيرات وهو في ميعة الصبا وشرخ الشباب، أيام أن كان الغيد الكواعب، والخيرات الحسان من بنات الأشراف تشرئب أعناقهن إلى أن يكن حليلات له، ولا سيما وأن التعدد عند العرب في الجاهلية لم يكن له حد محدود، ولكنه قضى زهرة شبابه ومعظم حياته الزوجية مع سيدة كانت عند اقترانه بها تعدو الأربعين، ورضيها قانعًا بها، حتى توفاها الله قبيل الهجرة، ومهما قيل في السيدة خديجة وما كانت تتمتع به من جمال في شبابها، فهناك - ولا شك - غيرها من الأبكار الشابات من يفقنها في الجمال، وللأبكار ما لهن من جاذبية وروعة وسحر، ومن قضى بغير ذلك فقد خالف سنة الله في الفطرة [(1)].

زينب بنت جحش رَضِيَ اللَّهُ عَنْهَا:

قال ابن كثير: كانت زينب بنت جحش رَضِيَ اللَّهُ عَنْهَا من المهاجرات الأول، وكانت كثيرة الخير والصدقة، وكان اسمها برة، فسماها النبي ﷺ زينب، وكانت تكنى بأم الحكم.

قالت عائشة رَضِيَ اللَّهُ عَنْهَا: ما رأيت امرأة قط خيرًا في الدين من زينب، وأتقى لله، وأصدق حديثًا، وأوصل للرحم، وأعظم أمانة وصدقًا.

وثبت في الصحيحين كما ذكرنا في حديث الإفك، عن عائشة أنها قالت: وسأل رسول الله ﷺ عني زينب بنت جحش، وهي التي كانت تساميني من نساء النبي ﷺ، فعصمها الله بالورع، فقالت: يا رسول الله، أحمي سمعي وبصري، ما علمت إلا خيرًا [(2)].

وروى مسلم في صحيحه عن عائشة رَضِيَ اللَّهُ عَنْهَا، قالت: قال رسول الله ﷺ: «أسرعكن لحاقًا بي أطولكن يدًا» [(3)]. قالت: فكنا نتطاول أينا أطول يدًا، فكانت زينب أطولنا يدًا؛ لأنها كانت تعمل بيدها وتتصدق.

---

(1) د. محمد أبو شهبة: السيرة النبوية، ج2، ص 299-301.

(2) البخاري (2609)؛ ومسلم (6969) .

(3) برقم (6269).

قال الواقدي: توفيت سنة عشرين من الهجرة، وصلى عليها أمير المؤمنين عمر بن الخطاب، ودفنت بالبقيع[1].

ثانيًا: نزول آية الحجاب:

في صبيحة عرس زينب بنت جحش رَضِيَ اللَّهُ عَنْهَا، نزلت على رسول الله ﷺ آية الحجاب من سورة الأحزاب: ﴿ يَـٰٓأَيُّهَا ٱلَّذِينَ ءَامَنُوا۟ لَا تَدْخُلُوا۟ بُيُوتَ ٱلنَّبِىِّ إِلَّآ أَن يُؤْذَنَ لَكُمْ إِلَىٰ طَعَامٍ غَيْرَ نَـٰظِرِينَ إِنَىٰهُ وَلَـٰكِنْ إِذَا دُعِيتُمْ فَٱدْخُلُوا۟ فَإِذَا طَعِمْتُمْ فَٱنتَشِرُوا۟ وَلَا مُسْتَـْٔنِسِينَ لِحَدِيثٍ ۚ إِنَّ ذَٰلِكُمْ كَانَ يُؤْذِى ٱلنَّبِىَّ فَيَسْتَحْىِۦ مِنكُمْ ۖ وَٱللَّهُ لَا يَسْتَحْىِۦ مِنَ ٱلْحَقِّ ۚ وَإِذَا سَأَلْتُمُوهُنَّ مَتَـٰعًا فَسْـَٔلُوهُنَّ مِن وَرَآءِ حِجَابٍ ۚ ذَٰلِكُمْ أَطْهَرُ لِقُلُوبِكُمْ وَقُلُوبِهِنَّ ۚ وَمَا كَانَ لَكُمْ أَن تُؤْذُوا۟ رَسُولَ ٱللَّهِ وَلَآ أَن تَنكِحُوٓا۟ أَزْوَٰجَهُۥ مِنۢ بَعْدِهِۦٓ أَبَدًا ۚ إِنَّ ذَٰلِكُمْ كَانَ عِندَ ٱللَّهِ عَظِيمًا ﴿٥٣﴾ ﴾ [الأحزاب].

سبب نزولها:

عن أنس بن مالك رَضِيَ اللَّهُ عَنْهُ، قال: تزوج رسول الله ﷺ فدخل بأهله، قال: فصنعت أمي أم سليم حيسًا، فجعلته في تَوْر (إناء)، فقالت: يا أنس: اذهب بهذا إلى رسول الله ﷺ، فَقُلْ: بعثت بهذا إليك أمي، وهي تقرئك السلام، وتقول: إن هذا لك منا قليل يا رسول الله! قال: فذهبت بها إلى رسول الله ﷺ، فقلت: إن أمي تقرئك السلام وتقول: إن هذا لك منا قليل يا رسول الله! فقال: «ضعه»، ثم قال: «اذهب فادْعُ لي فلانًا وفلانًا (إلى الطعام)، ومن لقيت»، وسمى رجالًا، قال: فدعوت من سمى ومن لقيت، قلت (أي: راوي الحديث) لأنس: عدد كم كانوا؟ قال: زهاء ثلاثمائة.

وقال لي رسول الله ﷺ: «يا أنس: هات التور»، قال: فدخلوا حتى امتلأت بهم الصفة والحجرة، فقال رسول الله ﷺ: «ليتحلق عشرة عشرة، وليأكل كل إنسان مما يليه» قال: فأكلوا حتى شبعوا، قال: فخرجت طائفة ودخلت طائفة حتى أكلوا كلهم، فقال لي:

---

(1) البداية والنهاية 4/ 169.

«يا أنس، ارفع» قال: فرفعت (الطعام) فما أدري حين وضعت كان أكثر أم حين رفعت، قال: وجلس طوائف منهم يتحدثون في بيت رسول الله ﷺ، ورسول الله ﷺ جالس، وزوجته مولية وجهها إلى الحائط، فثقلوا على رسول الله ﷺ، فخرج رسول الله ﷺ على نسائه ثم رجع، فلما رأوا رسول الله ﷺ قد رجع، ظنوا أنهم قد ثقلوا عليه، قال (أنس): فابتدروا الباب فخرجوا كلهم، وجاء رسول الله ﷺ حتى أرخى الستر ودخل، وأنا جالس في الحجرة، فلم يلبث إلا يسيرًا حتى خرج عليَّ، وأنزلت هذه الآية، فخرج رسول الله ﷺ وقرأها على الناس: ﴿ يَـٰٓأَيُّهَا ٱلَّذِينَ ءَامَنُوا۟ لَا تَدْخُلُوا۟ بُيُوتَ ٱلنَّبِىِّ إِلَّآ أَن يُؤْذَنَ لَكُمْ إِلَىٰ طَعَامٍ غَيْرَ نَـٰظِرِينَ إِنَىٰهُ وَلَـٰكِنْ إِذَا دُعِيتُمْ فَٱدْخُلُوا۟ فَإِذَا طَعِمْتُمْ فَٱنتَشِرُوا۟ وَلَا مُسْتَـْٔنِسِينَ لِحَدِيثٍ ۚ إِنَّ ذَٰلِكُمْ كَانَ يُؤْذِى ٱلنَّبِىَّ فَيَسْتَحْىِۦ مِنكُمْ ۖ وَٱللَّهُ لَا يَسْتَحْىِۦ مِنَ ٱلْحَقِّ ۚ وَإِذَا سَأَلْتُمُوهُنَّ مَتَـٰعًا فَسْـَٔلُوهُنَّ مِن وَرَآءِ حِجَابٍ ۚ ذَٰلِكُمْ أَطْهَرُ لِقُلُوبِكُمْ وَقُلُوبِهِنَّ ۚ وَمَا كَانَ لَكُمْ أَن تُؤْذُوا۟ رَسُولَ ٱللَّهِ وَلَآ أَن تَنكِحُوٓا۟ أَزْوَٰجَهُۥ مِنۢ بَعْدِهِۦٓ أَبَدًا ۚ إِنَّ ذَٰلِكُمْ كَانَ عِندَ ٱللَّهِ عَظِيمًا ﴿٥٣﴾ ﴾ [الأحزاب].

قال الجَعْدُ (من أصحاب أنس): قال أنس بن مالك: أنا أَحْدَث الناس عهدًا بهذه الآيات، وحُجبن نساءُ النبي ﷺ (1).

وروى البخاري ومسلم في صحيحيهما وغيرهما - واللفظ للبخاري - عن أنس رَضِيَ اللَّهُ عَنْهُ أيضًا، قال: (بُني على النبي ﷺ بزينب بنت جحش بخبز ولحم، فأُرسلت على الطعام داعيًا (الناس)، فيجيء قوم فيأكلون ويخرجون، ثم يجيء قوم فيأكلون ويخرجون، فدعوت حتى ما أجد أحدًا أدعو، فقلت يا نبي الله ما أجد أحدًا أدعوه، قال: «ارفعوا طعامكم»، وبقي ثلاثة رهط يتحدثون في البيت (يعني حجرة زينب رَضِيَ اللَّهُ عَنْهَا)، فخرج النبي ﷺ فانطلق إلى حجرة عائشة، فقال: «السلام عليكم أهل البيت ورحمة الله»، فقالت: وعليك السلام ورحمة الله، كيف وجدت أهلك بارك الله لك، فتقرَّى حُجَر نسائه كلهن، يقول لهن كما يقول لعائشة، ويقلن له كما قالت عائشة، ثم رجع النبي ﷺ

(1) مسلم، كتاب النكاح، رقم (1428).

فإذا ثلاثة من رهط في البيت يتحدثون، وكان النبي شديد الحياء، فخرج منطلقًا نحو حجرة عائشة، فما أدري أخبرته أو أُخبر أن القوم خرجوا، فرجع، حتى إذا وضع رجله في أسكفة[1] الباب داخلةً وأخرى خارجةً، أرخى الستر بيني (أي: أنس رَضِيَ اللَّهُ عَنْهُ) وبينه، وأنزلت آية الحجاب.

علامة للنبوة .. وموافقة لعمر:

وكانت وليمة عرسه ﷺ علامة من علامات نبوته، ودلالة من دلائلها، وذلك بتكثير الطعام بوضع يده ﷺ عليه ودعائه، حتى أكل منه زهاء الثلاثمائة. كما كان في نزول آية الحجاب موافقة من موافقات عمر بن الخطاب رَضِيَ اللَّهُ عَنْهُ مع الوحي، فقد روى البخاري في صحيحه، عن أنس رَضِيَ اللَّهُ عَنْهُ قال: قال عمر رَضِيَ اللَّهُ عَنْهُ: قلت: يا رسول الله يدخل عليك البر والفاجر، فلو أمرت أمهات المؤمنين بالحجاب .. فأنزل الله آية الحجاب.

بعد نزول آية الحجاب:

وبنزول هذه الآية كان تشريع الحجاب بالنسبة لأزواج النبي ﷺ، والمراد عدم إبداء شيء من أجسامهن للأجانب عنهن، وعدم محادثتهن أو طلب شيء منهن إلا من وراء حجاب، أي ستر يكون بينهن وبين غيرهن، ولما نزلت قال الآباء والأبناء والأقارب لرسول الله ﷺ: ونحن أيضًا نكلمهن من وراء حجاب؟ فأنزل الله قوله: ﴿لَّا جُنَاحَ عَلَيْهِنَّ فِىٓ ءَابَآئِهِنَّ وَلَآ أَبْنَآئِهِنَّ وَلَآ إِخْوَٰنِهِنَّ وَلَآ أَبْنَآءِ إِخْوَٰنِهِنَّ وَلَآ أَبْنَآءِ أَخَوَٰتِهِنَّ وَلَا نِسَآئِهِنَّ وَلَا مَا مَلَكَتْ أَيْمَٰنُهُنَّ ۗ وَٱتَّقِينَ ٱللَّهَ ۚ إِنَّ ٱللَّهَ كَانَ عَلَىٰ كُلِّ شَىْءٍ شَهِيدًا ﴿٥٥﴾﴾ [الأحزاب][2].

قال الدكتور محمد أبو شهبة[3]:

وقد فصَّل الله سبحانه وتعالى في كتابه الكريم ما يتعلق بالنساء المسلمات: من غض البصر، وحفظ الفروج، وعدم إبداء مواضع الزينة من عنق وصدر وساق وعضد وساعد

---

(1) **الأسكفة:** عتبة الباب السفلى.

(2) انظر السيرة للصلابي، ص 635.

(3) أبو شهبة، ص 312 – 314.

وشعر، ونحوها من العورة الظاهرة إلا للمحارم، قال سبحانه وتعالى:

﴿ وَقُل لِّلْمُؤْمِنَاتِ يَغْضُضْنَ مِنْ أَبْصَارِهِنَّ وَيَحْفَظْنَ فُرُوجَهُنَّ وَلَا يُبْدِينَ زِينَتَهُنَّ إِلَّا مَا ظَهَرَ مِنْهَا ۖ وَلْيَضْرِبْنَ بِخُمُرِهِنَّ عَلَىٰ جُيُوبِهِنَّ ۖ وَلَا يُبْدِينَ زِينَتَهُنَّ إِلَّا لِبُعُولَتِهِنَّ أَوْ آبَائِهِنَّ أَوْ آبَاءِ بُعُولَتِهِنَّ أَوْ أَبْنَائِهِنَّ أَوْ أَبْنَاءِ بُعُولَتِهِنَّ أَوْ إِخْوَانِهِنَّ أَوْ بَنِي إِخْوَانِهِنَّ أَوْ بَنِي أَخَوَاتِهِنَّ أَوْ نِسَائِهِنَّ أَوْ مَا مَلَكَتْ أَيْمَانُهُنَّ أَوِ التَّابِعِينَ غَيْرِ أُولِي الْإِرْبَةِ مِنَ الرِّجَالِ أَوِ الطِّفْلِ الَّذِينَ لَمْ يَظْهَرُوا عَلَىٰ عَوْرَاتِ النِّسَاءِ ۖ وَلَا يَضْرِبْنَ بِأَرْجُلِهِنَّ لِيُعْلَمَ مَا يُخْفِينَ مِن زِينَتِهِنَّ ۚ وَتُوبُوا إِلَى اللَّهِ جَمِيعًا أَيُّهَ الْمُؤْمِنُونَ لَعَلَّكُمْ تُفْلِحُونَ ﴿٣١﴾ ﴾ [النور].

﴿الخُمُر﴾ بضم الخاء والميم: جمع خمار، وهو ما تستر به المرأة رأسها وعنقها، والجيوب: فتحات الثياب من عند العنق، كُنَّ في الجاهلية يسدلن الخمر على ظهورهن فتبدو نحورهن وصدورهن وما حواليها، فأمرن بلفها على الأعناق والصدور؛ كي لا يظهر شيء منها، وكُنَّ يضربن بأرجلهن؛ ليتنبه الناس إلى أنهن ذوات خلخال، فيلتفتوا إليهن، فنهين عن ذلك .. وفي النهي عن الزينة نهي عن إبداء مواضعها بطريق أولى وأبلغ.

أما احتجاب المرأة بالنسبة إلى الأجانب منها، فكل بدن المرأة عورة إلا وجهها وكفيها، ويستأنس لهذا بالحديث الذي رواه أبو داود في سننه عن عائشة رَضِيَ اللَّهُ عَنْهَا، أن أسماء بنت أبي بكر دخلت على النبي ﷺ وعليها ثياب رقاق، فأعرض عنها، وقال: «يا أسماء، إنَّ المرأة إذا بلغت المحيض لم يصلح أن يرى منها إلا هذا»، وأشار إلى وجهه وكفيه. وجمهور الفقهاء على تقييد إظهار الوجه والكفين بأمن الافتتان بها، وإلا فلا يجوز.

وكان النساء في أول الإسلام - كما كُنَّ في الجاهلية - متبذلات، تبرز المرأة في دِرْع وخمار لا فرق بين الحرة والأمة، وكان الفتيان وأهل الشطارة(1) يتعرضون للإماء إذا خرجن بالليل إلى قضاء حوائجهن في الخلاء، وربما تعرضوا للحرائر؛ ظنًّا أنهن إماء، فأمرن أن يخالفن بزيهن زي الإماء، بأن يدنين عليهن من جلابيبهن، فيغطِّين الوجه والأعطاف، فيُعْرفن ويُهَبْن، ولا يطمع فيهن فاسق .. قال تعالى شأنه:

(1) **أهل الشطارة:** أهل الهوى واللؤم والتعدي على الحُرم.

﴿يَا أَيُّهَا النَّبِيُّ قُل لِّأَزْوَاجِكَ وَبَنَاتِكَ وَنِسَاءِ الْمُؤْمِنِينَ يُدْنِينَ عَلَيْهِنَّ مِن جَلَابِيبِهِنَّ ذَٰلِكَ أَدْنَىٰ أَن يُعْرَفْنَ فَلَا يُؤْذَيْنَ وَكَانَ اللَّهُ غَفُورًا رَّحِيمًا ﴿٥٩﴾﴾ [الأحزاب].

(يدنين): أي يرخين.

(جلابيبهن): جمع جلباب، وهو ما تلتف به المرأة فوق درعها وثيابها كالملاءة والملحفة، بحيث يستر جميع البدن، ولا يصفه، ولا يشفُّ ما تحته.

وقد بينت السنة النبوية كل ما يتعلق بالنساء من احتجاب وتصوُّن وتعفُّف، وعدم السفور والخلاعة والابتذال بها لا مزيد عليه.

* * *



الباب التاسع عشر

العام السادس من الهجرة

عام الحديبية

الفصل الأول: **الجيش الإسلامي سيد الجزيرة العربية** .

الفصل الثاني: **صلح الحديبية.**

الفصل الثالث: **مكاتبة النبي ﷺ الملوك والأمراء.**

الفصل الرابع: **تشريعات وعبادات في السنة السادسة من الهجرة.**

الباب التاسع عشر

العام السادس من الهجرة .. عام الحديبية

كان للسنة السادسة من الهجرة معالم ثلاثة:

الأول: تنامي قوة الجيش الإسلامي، حتى صار أقوى جيش في جزيرة العرب.

الثاني: الصلح المحوري مع قريش.

الثالث: مراسلة النبي ﷺ للملوك والأمراء.

فأنبأت هذه المعالم الثلاثة أن دولة الإسلام قد بدأت خطوات السيادة على جزيرة العرب، وأنها قد أخذت مسارها الذي رسمته لنفسها بعد غزوة الأحزاب بانتهاء الحروب الدفاعية، وبداية الحروب الهجومية؛ لإزالة الوثنية من بلاد العرب، ورفع راية وحيدة لعقيدة عرب الجزيرة، وهي راية التوحيد؛ كي لا يكون في بلادهم إلا دين واحد، وهو دين الإسلام.

❊ ❊ ❊

الفصل الأول

الجيش الإسلامي سيد الجزيرة العربية

رست أصول الإسلام واطمأنت دولته بعد الأحزاب وبني قريظة .. فما انتهت السنة الخامسة للهجرة حتى أصبح المسلمون قوة تفرض نفسها، وتذيق المعاندين بأسها[1].

وحين ينظر المرء إلى خطوات الجهاد الأولى التي ابتدأت بثلاثين راكبًا في أول سرية أرسلها رسول الله ﷺ على رأس سبعة أشهر من مقدمه المدينة، وهي سرية حمزة بن عبد المطلب رَضِيَ اللَّهُ عَنْهُ إلى سيف البحر، ويلاحظ أنها ارتفعت وخلال خمس سنوات إلى ثلاثة آلاف جندي في غزوة الخندق، يلاحظ مدى التقدم الضخم الذي أحرزه الجيش الإسلامي في المدينة.

وملاحظة أخرى كذلك من حيث العدة، وهي الخيل، فالخيل من أهم عناصر الحرب على الإطلاق، والخيل معقود في نواصيها الخير إلى يوم القيامة كما يقول عليه الصلاة والسلام. فإذا أعدنا إلى الذاكرة غزوة بدر، وأنه لم يكن لدى المسلمين فيها إلا فرسان. ثم نذكر أن خيل المسلمين في الخندق بلغت مائتي فرس، تبين مدى التقدم العسكري الضخم في هذا المجال .. حتى الإبل في بدر كان كل ثلاثة من المسلمين يعتقبون بعيرًا (يتناوبون ركوبها)، أي كان عند المسلمين حوالي سبعين من الإبل، يكفي أن نذكر أن غنائمهم من بدر وحدها كانت مائة وخمسين بعيرًا.

أما السلاح فحدث ولا حرج .. كان سلاحهم في بدر السيوف في الخرق .. فلننظر إلى بعض الغنائم التي حصل عليها المسلمون من أعدائهم في هذا المجال .. كانت غنائم بني قينقاع من السلاح: ثلاث قسي، وثلاثة سيوف وثلاثة رماح ودرعين، ووجدوا في منازلهم سلاحًا كثيرًا وآلة الصياغة. ولم تكن غنائم بني قينقاع لتذكر في هذا المجال؛ لأنهم مضوا بسلاحهم، وكان اليهود يمثلون ترسانة أسلحة عندهم، ويقومون بصنعها، وعندما حاول

(1) الغزالي: فقه السيرة، ص 345.

بنو النضير أن يخرجوا بأسلحتهم، منعهم رسول الله ﷺ إلا بتسليم سلاحهم، وكما يقول النص: (ثم نزلت يهود على أن لهم ما حملت الإبل إلا الحلقة «أي السلاح»)[1]. (وقبض رسول ﷺ الأموال والحلقة، فوجد خمسين درعًا وخمسين بيضة وثلاثمائة وأربعين سيفًا)[2].

أما غنائم بني قريظة فكانت كالتالي:

(جمعت أمتعتهم وما وجد في حصونهم من الحلقة والأثاث والثياب، فوجد فيها ألف وخمسمائة سيف وثلاثمائة درع، وألفا رمح، وألف وخمسمائة ترس وجحفة[3]. وبذلك غدا للمسلمين قوة ضخمة من السلاح والرجال، وتحولت معظم قوة العدو من اليهود إلى المسلمين .. إضافة إلى ما كانوا يبتاعونه من الأسواق .. فكانت كل أنواع السلاح متوفرة عندهم.

صحيح أن المسلمين ما خاضوا معركة مع عدوهم إلا كانوا أقل من عدوهم عددًا وعدة، وكانوا بإيمانهم وثباتهم أقوى من خصومهم، لكن هذا التطور في العدد والعدة، يعني أن مقومات الدولة أصبحت أكبر، وأن إمكانية القضاء عليهم أصبح ميئوسًا منها .. فقد كان أبو جهل يقول عنهم في بدر، إنهم أكلة جزور (يقلل من عددهم وقيمتهم) .. غير أن الصورة اختلفت اليوم، وازدادوا عشرة أضعاف ما كانوا عليه[4].

وقد استثمر رسول الله ﷺ وأصحابه كل هذه النجاحات، فباشروا نشاطًا واسع النطاق ضد خصومهم على جميع الجبهات، فقد ضيقوا الخناق الاقتصادي على قريش من جديد، كما نفذوا العديد من السرايا؛ لمعاقبة المشاركين في الأحزاب من جهة، أو للثأر من القبائل التي كانت قد غدرت بالدعاة، أو ناصبت الإسلام العداء[5]. وقد تمثل النشاط العسكري الإسلامي خلال هذه الفترة فيما يلي:

---

(1)، (2)، (3) إمتاع الأسماع للمقريزي 1/181، 1/245.

(4) الغضبان: المنهج الحركي، ص 370-372.

(5) الصلابي: السيرة النبوية، ص 637.

في المحرم: سرية محمد بن مسلمة إلى القرطاء:

كانت القبائل النجدية من أكثر قبائل الجزيرة جرأة على المسلمين في المدينة، وقد رأينا أن قبائل منهم كانت ضمن الأحزاب التي قادها أبو سفيان في حصار المدينة؛ ولذا فقد كانت أول سرية بعد الفراغ من الأحزاب وقريظة، هي السرية التي وجهها رسول الله ﷺ إلى القبائل النجدية من بكر بن كلاب، الذين كانوا يقطنون القرطاء، بناحية ضرية بالبكرات من أرض نجد، وذلك في العاشر من المحرم من السنة السادسة.

قال ابن سعد: خرج محمد بن مسلمة إلى القرطاء لعشر ليال خلون من المحرم، على رأس تسعة وخمسين شهرًا من مهاجر رسول الله ﷺ .. بعثه في ثلاثين راكبًا إلى القرطاء، وهم بطن من بني بكر بن كلاب، وكانوا ينزلون البكرات بناحية ضرية (اسم بئر)، وبين المدينة وضرية سبع ليال، وأمره أن يشن عليهم الغارة، فسار الليل وكمن النهار، وأغار عليهم، فقتل نفرًا منهم، وهرب سائرهم، واستاق نعمًا وشاءً، ولم يعرض للظعن (أي لم يتعرض للنساء)، وانحدروا إلى المدينة فخمَّس رسول الله ﷺ ما جاء به؛ أي أخذ الخمس للفقراء والمساكين وذي القربى واليتامى .. وفض (فرق) على أصحابه ما بقي، فعدلوا الجزور بعشرة من الغنم، وكانت النَّعم مائة وخمسين بعيرًا، والغنم ثلاثة آلاف شاة، وغاب تسع عشرة ليلة، وقدم لليلة بقيت من المحرم[1]. وكانوا حين قفلوا راجعين إلى المدينة، لقيهم ثمامة بن أُثال الحنفي سيد بني حنيفة، فأسروه وهم لا يعرفونه، فلما قدموا على النبي ﷺ عرفه وأحسن معاملته، وأطلق سراحه بعد أن عرض عليه الإسلام، فلم يسلم، فما كان من ثُمامة إلا أن عاد وأسلم، وصار من خيار المسلمين[2] (وقد تقدمت قصته).

في ربيع الأول: سرية عكاشة بن محصن الأسدي إلى الغَمْر:

في ربيع الأول (أو الآخر) من العام السادس الهجري، بعث رسول الله ﷺ عكاشة ابن محصن الأسدي رَضِيَ اللَّهُ عَنْهُ في أربعين رجلًا إلى الغَمْر (ماء من مياه بني أسد)، فأسرعوا

---

(1) الطبقات 78/2.

(2) انظر: عيون الأثر، أبو عبد الله الحاكم (118/2)، والسيرة النبوية لأبي شهبة، ج2، ص 321.

وعَلِم بهم القوم وهربوا، فنزل عكاشة رَضِيَ اللَّهُ عَنْهُ على مياههم، وبعث الطلائع، فوجدوا من دلهم على بعض ماشيتهم، وأصاب المسلمون مائتي بعير ساقوها إلى المدينة[1].

في ربيع الآخر: سرية محمد بن مسلمة إلى ذي القَصَّة:

في ربيع الثاني من السنة السادسة من الهجرة، بعث رسول الله ﷺ محمد بن مسلمة رَضِيَ اللَّهُ عَنْهُ في عشرة من الصحابة إلى بني ثعلبة وعُوال؛ لإرهابهم، ومنعهم من الإغارة على مراعي المدينة، فكمن القوم لسرية المسلمين، حتى نام محمد بن مسلمة رَضِيَ اللَّهُ عَنْهُ وأصحابه، فقام إليهم القوم (وكانوا مائة)، فقتلوهم جميعًا إلا محمد بن مسلمة، فقد وقع جريحًا، فظنوه ميتًا.

فمر رجل من المسلمين بالقتلى، فلما رآهم قال: (إنا لله وإنا إليه راجعون)، فسمعه ابن مسلمة فتحرك له، فإذا هو مسلم، فأطعمه وسقاه .. ثم حمله حتى ورد به المدينة[2].

الانتقام لسرية محمد بن مسلمة:

فور وصول محمد بن مسلمة رَضِيَ اللَّهُ عَنْهُ إلى المدينة، بعث رسول الله ﷺ أبا عبيدة بن الجراح رَضِيَ اللَّهُ عَنْهُ في أربعين رجلًا إلى ذي القصة، فساروا ليلتهم مشاة، ووافوها مع الصبح، فأغاروا عليهم، فهربوا منهم في الجبال، ولم يجدوا إلا رجلًا واحدًا ونعمًا، فساقوا النعم إلى المدينة، وأسلم الرجل، فتركه النبي ﷺ[3].

في ربيع الآخر: سرية زيد بن حارثة إلى بني سليم:

في ربيع الآخر سنة ست من الهجرة، بعث رسول الله ﷺ زيد بن حارثة رَضِيَ اللَّهُ عَنْهُ إلى بني سُلَيم بالجموم، والجموم ماء لبني سليم في مر الظهران، ناحية بطن نخل، عن يسارها، في سرية من المسلمين، فأصابوا امرأة من مزينة، يقال لها حليمة، فدلتهم على محلة (بلدة) من محال بني سليم، فأصابوا في تلك المحلة نعمًا وشاء وأسرى، وكان بين الأسرى

---

(1) انظر: ابن سعد (2/85).

(2) انظر: الواقدي (2/551)، وابن سعد (2/74).

(3) ابن سعد: الطبقات (2/82)، والذهبي: المغازي (353)، وابن القيم: زاد المعاد (3/250).

زوج حليمة التي دلتهم على محلة العدو. فلما عاد زيد بها أصاب، وهب رسول الله ﷺ للمزنية نفسها وزوجها[1]، أي أطلقها هي وزوجها مكافأة لها.

في جمادى الأولى سرية زيد بن حارثة إلى العِيص[2]؛ لاعتراض قافلة لقريش:

بعثه رسول الله ﷺ في جمادى الأولى سنة ست من الهجرة، في سبعين ومائة راكب؛ ليتعرض لعير لقريش، بلغه أنها أقبلت من الشام، فتمكنوا من أخذها وما فيها، وأخذوا يومئذ فضة كثيرة لصفوان بن أمية، وأسروا أناسًا ممن كان في العير، منهم أبو العاص بن الربيع، وقدموا بهم إلى المدينة، فاستجار أبو العاص بزوجته زينب بنت رسول الله ﷺ فأجارته، وقبل الرسول ﷺ إجارتها، ورد عليه ما أخذ منه. وجاء أبو العاص إلى مكة وأدى إلى كل ذي حق حقه، ثم نطق بالشهادتين، وقال لهم: وما منعني أن أقيم بالمدينة إلا أن خشيت أن تظنوا أني أسلمت لأن أذهب بالذي لكم عندي ... ثم رجع إلى المدينة، فرد عليه الرسول ﷺ زينب بذلك النكاح الأول[3].

في جمادى الأولى: غزوة بني لحيان لتأديب الغادرين:

بنو لحيان هم الذين كانوا قد غدروا بستة من أصحاب رسول الله ﷺ يوم الرجيع، وتسببوا في إعدامهم، ولكن لما كانت ديارهم متوغلة في الحجاز إلى حدود مكة، ولوجود ثارات بين المسلمين من جهة، وقريش والأعراب من جهة أخرى، رأى رسول الله ﷺ ألا يتوغل في البلاد القريبة من العدو الرئيس، فلما تخاذلت الأحزاب، واستوهنت عزائمهم، رأى أن الوقت قد حان لأن يأخذ من بني لحيان ثأر أصحابه المقتولين بالرجيع[4]، فانتدب ﷺ في جمادى الأولى من السنة السادسة من الهجرة، مائتين من أصحابه رضي الله عنهم، واستخلف على المدينة ابن أم مكتوم، وأظهر أنه يريد الشام تورية، فخرج برجاله عن

---

(1) ابن سعد (2/86).

(2) بينها وبين المدينة أربع ليال.

(3) ابن هشام (2/368)، والسيرة النبوية لمهدي رزق الله، ص 471-472.

(4) المباركفوري: الرحيق المختوم، ص 284.

الطريق المؤدي إلى ديار بني لحيان، فغمَّى على الأعداء، ثم عاد إلى الطريق القاصد؛ وذلك من أجل أن يصيب من القوم غِرَّة، وواصل سيره وأغذه، وبسرعة هائلة، حتى نزل على «غُرَان»، وهي منازل بني لحيان، وغُران هذا وادٍ بين أمج وعسفان، ممتد إلى بلد يقال له سَايَة، فلما علموا بطلبه لهم حذروا، فتمنّعوا في رءوس الجبال، فلما نزل بديارهم، ولم يلقهم لتحصنهم برءوس الجبال، رأى أن يرهب قريشًا، فيشعرهم بقدومه إلى قرب ديارهم طلبًا للغادرين من بني لحيان؛ ليكون ذلك ذَا وقْعٍ في نفوسهم، فسار ﷺ برجاله حتى هبط عسفان، ثم بعث فوارس من رجاله على رأسهم أبو بكر الصديق حتى بلغوا كراع[1] الغميم، ثم كرَّ وراح ﷺ راجعًا، وهو يقول: «آيِبُون تائبون إن شاء الله لربنا حامدون، أعوذ بالله من وعثاء السفر، وكآبة المنقلب، وسوء المنظر في الأهل والمال»[2].

صلاة الخوف:

وفي هذه الغزوة شُرعت صلاة الخوف، وذلك في عسفان[3]، لما نزلها رسول الله ﷺ وأصحابه، فاستقبلهم المشركون، وعلى رأسهم خالد بن الوليد.

فصلى النبي بأصحابه صلاة الظهر، فقال المشركون: قد كانوا على حال لو أصبنا منهم غرَّتهم، ثم قالوا تأتي عليهم صلاة[4] هي أحبُّ إليهم من أبنائهم وأنفسهم (نصيب فيها منهم غرة)، فنزل جبريل على رسول الله ﷺ بهذه الآيات:

﴿وَإِذَا كُنتَ فِيهِمْ فَأَقَمْتَ لَهُمُ ٱلصَّلَوٰةَ فَلْتَقُمْ طَآئِفَةٌ مِّنْهُم مَّعَكَ وَلْيَأْخُذُوٓاْ أَسْلِحَتَهُمْ فَإِذَا سَجَدُواْ فَلْيَكُونُواْ مِن وَرَآئِكُمْ وَلْتَأْتِ طَآئِفَةٌ أُخْرَىٰ لَمْ يُصَلُّواْ فَلْيُصَلُّواْ مَعَكَ وَلْيَأْخُذُواْ حِذْرَهُمْ وَأَسْلِحَتَهُمْ ۗ وَدَّ ٱلَّذِينَ كَفَرُواْ لَوْ تَغْفُلُونَ عَنْ أَسْلِحَتِكُمْ وَأَمْتِعَتِكُمْ فَيَمِيلُونَ عَلَيْكُم مَّيْلَةً

---

(1) موقع بين مكة والمدينة.

(2) انظر: هذا الحبيب يا محب للجزائري، ص 325.

(3) **عُسْفان:** بلدة بين مكة والمدينة.

(4) هي صلاة العصر.

وَاحِدَةً وَلَا جُنَاحَ عَلَيْكُمْ إِن كَانَ بِكُمْ أَذًى مِّن مَّطَرٍ أَوْ كُنتُم مَّرْضَىٰٓ أَن تَضَعُوٓاْ أَسْلِحَتَكُمْ وَخُذُواْ حِذْرَكُمْ إِنَّ ٱللَّهَ أَعَدَّ لِلْكَٰفِرِينَ عَذَابًا مُّهِينًا ﴿١٠٢﴾ ﴾ [النساء].

وكانت هذه أول صلاة خوف صلاها رسول الله ﷺ[1]، وبذلك شرعت هذه الصلاة، التي تدل على يسر الإسلام وسماحته، وصلاحيته لكل زمان ومكان، وقيل إن مشروعية صلاة الخوف كانت في غزوة «ذات الرقاع»، وكانت على ما ذهب إليه ابن إسحاق سنة أربع، وذهب الإمام البخاري إلى أنها كانت سنة سبع، عام خيبر، واستدل بأدلة، فليرجع إليها من يشاء[2].

غزوة ذي قرد (غزوة الغابة):

لم يختلف أصحاب السير أنها كانت سنة ست قبل الحديبية، وإن اختلفوا في شهرها[3]، **قال ابن إسحاق:** ثم قدم رسول الله ﷺ المدينة (أي من غزوة بني لحيان)، فلم يقم بها إلا ليالي قلائل، حتى أغار عيينة بن حصن بن حذيفة بن بدر الفزاري، في خيل من غطفان على لقاح (الإبل الحوامل) للنبي ﷺ بالغابة، وفيها رجل من بني غفار، ومعه امرأته، فقتلوا الرجل، واحتملوا المرأة في اللقاح[4].

سلمة بن الأكوع .. خير الرجال:

روى ابن إسحاق عن كعب بن مالك رَضِيَ اللَّهُ عَنْهُ، قال: أنه كان أول من نذر بهم (سمع بهم) سلمة بن عمرو بن الأكوع الأسلمي، غدا يريد الغابة متوشحًا قوسه ونبله، ومعه غلام لطلحة بن عبيد الله معه فرس له يقوده، حتى إذا علا ثنية الوداع، نظر إلى بعض خيولهم، فأشرف في ناحية سلع (أي: صعد جبل سلع)، ثم صرخ (ليُعْلِم المسلمين):

---

(1) البداية والنهاية 4/81، 149.

(2) المصدر السابق، ص 83، وأبو شهبة: السيرة النبوية، ج2، ص 322-323.

(3) المصدر السابق، ص 367، وجزم البخاري بأنها كانت قبل خيبر بثلاث ليال.

(4) البداية والنهاية 4/170.

واصباحاه (كلمة تقال عند استنفار الغافل)، ثم خرج يشتد في آثار القوم، وكان مثل السبع، حتى لحق القوم (وكان عاديًا لا يسبقه أحد)، فجعل يردهم بالنبل (أي يرميهم به) ، ويقول إذا رمى:

خـــــذها وأنـــــا ابـــــن الأكـــــوع   اليـــــــوم يـــــــوم الرضـــــــع

(أي اليوم يوم هلاك اللئام).

فإذا وُجِّهت الخيل نحوه (لتقاتله) انطلق هاربًا، ثم عارضهم (أي برز لهم مرة أخرى)، فإذا أمكنه الرمي رمى، ثم قال:

خـــــذها وأنـــــا ابـــــن الأكـــــوع   اليـــــــوم يـــــــوم الرضـــــــع[1]

وجعل رَضِيَ اللَّهُ عَنْهُ يجري وراء الخيل الغازية يطاردها ويرميهم بالنبل، وهم يخلون عن اللقاح (أي يتركون ما سرقوه) ويلقون برماحهم وبعض أمتعتهم تخففًا، حتى أفلت منهم أكثر اللقاح، وتركها وراءه، ومازال يطاردهم حتى وصلت خيل النبي ﷺ[2].

الفزع .. الفزع:

قال ابن إسحاق: وبلغ رسول الله ﷺ صياح ابن الأكوع، فصرخ بالمدينة: (الفزع الفزع)، فترامت الخيول إلى رسول الله ﷺ، فكان أول من انتهى إليه من الفرسان: المقداد بن الأسود، ثم عباد بن بشر، وسعد بن زيد، وأسيد بن ظهير، وعكاشة بن محصن، ومحرز بن نضلة أخو بني أسد بن خزيمة، وأبو قتادة الحارث بن ربعي أخو بني سلمة، وأبو عياش عبيد بن الصامت أخو بني زريق.

قال: فلما اجتمعوا إلى رسول الله ﷺ أمَّر عليهم سعد بن زيد، ثم قال: «اخرج في طلب القوم حتى ألحقك في الناس».

---

(1) المصدر السابق.

(2) الجزائري: هذا الحبيب يا محب، ص 327.

قال: فخرج الفرسان حتى تلاحقوا، فكان أول فارس لحق بالقوم محرز بن نضلة، وكان يقال له: الأخرم، ويقال له: قمير، وكانت الفرس التي تحته لمحمود بن مسلمة، وكان يقال للفرس ذو اللمة.

فلما انتهى إلى العدو قال لهم: قفوا معشر بني اللكيعة حتى يلحق بكم من وراءكم من أدباركم من المهاجرين والأنصار، قال: فحمل عليه رجل منهم فقتله، وجال الفرس، فلم يقدر عليه حتى وقف على أرية من بني عبد الأشهل، أي: رجع إلى مربطه الذي كان فيه بالمدينة.

قال ابن إسحاق: ولم يُقتل يومئذ من المسلمين غيره.

قال ابن هشام: وقد ذكر غير واحد من أهل العلم أنه قد قتل معه أيضًا وقاص بن مجرز المدلجي.

قال: ولما تلاحقت الخيل (خيل المسلمين بخيل المشركين)، قتل أبو قتادة حبيب بن عيينة وغشاه (غطاه) بُرده (عباءته)، ثم لحق بالناس، وأقبل رسول الله ﷺ في المسلمين. فإذا حبيب مسجى ببرد أبي قتادة، فاسترجع الناس وقالوا: قُتل أبو قتادة، فقال رسول الله ﷺ: «ليس بأبي قتادة ولكنه قتيل لأبي قتادة»، ووضع عليه برده، لتعرفوا أنه صاحبه (أي أنه هو الذي قتله).

قال: وأدرك عكاشة بن محصن أوبارًا، وابنه عمرو بن أوبار، وهما على بعير واحد فانتظمهما بالرمح فقتلهما جميعًا، واستنقذوا بعض اللقاح.

قال: وسار رسول الله ﷺ حتى نزل بالجبل من ذي قرد، وتلاحق به الناس، فأقام عليه يومًا وليلة، وقال له سلمة بن الأكوع: يا رسول الله، لو سرحتني في مائة رجل لاستنقذت بقية السرح، وأخذت بأعناق القوم. فقال رسول الله ﷺ - فيما بلغني: «إنهم الآن ليغبقون في غطفان (أي رجعوا إلى ديارهم)» .. فقسم رسول الله ﷺ في أصحابه في كل مائة رجل جزورًا، وأقاموا عليه، ثم رجع قافلًا حتى قدم المدينة(1).

(1) البداية والنهاية 4/172.

وقد أردف رسول الله ﷺ سلمة رَضِيَ اللَّهُ عَنْهُ على راحلته ﷺ حتى دخلوا المدينة[1] وقال: «خير فرساننا اليوم أبو قتادة، وخير رجالتنا سلمة»[2].

الوفاء للحيوان:

ذكرنا أن عيينة بن حصن حين أغار على إبل رسول الله ﷺ بالغابة قتل رجلًا من بني غفار كان يرعى الإبل ومعه امرأته، فغافلت هذه المرأة المشركين وركبت ناقة من إبل النبي حتى قدمت عليها المدينة، فأخبرت رسول الله الخبر، وكانت نذرت إن نجاها الله عليها لتنحرنَّها، فلما أخبرت الرسول تبسم، وقال: «بئسما جزيتيها أن حملك الله عليها ونجاك بها، ثم تنحرينها، إنه لا نذر في معصية، ولا فيما لا تملكين، وإنما هي ناقة من إبلي، فارجعي إلى أهلك على بركة الله».

وإن هذه القصة لترينا حسن العهد، وغاية الوفاء اللذين كان يتخلق بهما رسول الله ﷺ، هذا الوفاء الذي شمل الإنسان والحيوان، ورسول الله ﷺ صاحب الخلق العظيم يعلمنا أن نقابل الإحسان بالإحسان، والجميل بالجميل، والنعم بالشكر، لا بالجحود والكفران، وأن الوفاء لازم حتى للحيوان. وبعد أن بيَّن لها الرسول الكريم أن هذا وإن كان لا يليق خلقًا ومروءة، فهو لا يجوز شرعًا؛ إذ لا نذر في معصية ولا فيما لا يملكه الإنسان[3].

في جمادى الآخرة: سرية زيد بن حارثة إلى الطرف:

بعث رسول الله ﷺ زيد بن حارثة رَضِيَ اللَّهُ عَنْهُ إلى الطرف (ماء على ستة وثلاثين ميلًا من المدينة) في جمادى الأولى من السنة السادسة للهجرة، حيث «بنو ثعلبة»، وذلك في خمسة عشر رجلًا من الصحابة رَضِيَ اللَّهُ عَنْهُم، فهربت الأعراب، وخافوا أن يكون رسول الله ﷺ سار إليهم، فأصاب زيد رَضِيَ اللَّهُ عَنْهُ وأصحابه من نعمِهم عشرين بعيرًا، وغاب أربع ليال[4].

---

(1) البخاري، الفتح، (16/36-40، حديث 4194)، ومسلم (3/1432-1441، حديث 1806).

(2) أبو شهبة: السيرة النبوية، ج2، ص 368.

(3) المصدر السابق، ص 368-369.

(4) زاد المعاد (3/ 251)، وابن سعد (2/87)، والواقدي (2/555).

في جمادى الآخرة: سرية زيد بن حارثة إلى حِسْمَى لتأديب اللصوص:

بعثه رسول الله ﷺ في جمادى الآخرة سنة ست إلى الضليع (بطن من جذام)؛ لتأديبهم؛ إذ إن رجلين منهم لقيا دحية بن خليفة الكلبي رَضِيَ اللَّهُ عَنْهُ، وهو قادم من عند قيصر الروم، حين بعثه رسول الله ﷺ إليه ومعه تجارة له، فأغاروا عليه وسلبا ما معه، فلم يتركوا عليه إلا سَمَل ثوب (أي ثوب متهالك)، فسمع بذلك نفر من بني الضُبيب، فنفروا إليهم، فاستنقذوا لدحية متاعه، وقدم دحية على النبي ﷺ وأخبره قبل أن يدخل بيته. فبعث زيد بن حارثة رَضِيَ اللَّهُ عَنْهُ في خمسمائة رجل، وردَّ معه دحية، وكان زيد يسير بالليل ويكمن بالنهار، ومعه دليل له من بني عُذْرة، فأقبل بهم حتى هجم بهم مع الصبح على القوم، فأغاروا عليهم، فقتلوا فيهم فأوجعوا، وأغاروا على ماشيتهم ونعمهم ونسائهم، فأخذوا منها الكثير[1].

وقيل: إن رفاعة بن زيد الجذامي أتى النبي ﷺ، يطلب منه رد الأسرى والسبايا والأموال، فردهم النبي ﷺ[2].

في رجب: سرية زيد بن حارثة إلى وادي القرى:

في رجب سنة 6هـ، خرج زيد بن حارثة رَضِيَ اللَّهُ عَنْهُ في اثني عشر رجلًا إلى وادي القرى؛ لاستكشاف حركات العدو - إن كانت هناك - فهجم عليهم سكان وادي القرى، فقتلوا تسعة، وأفلت ثلاثة، فيهم زيد بن حارثة[3].

في شعبان: سرية عبد الرحمن بن عوف إلى دومة الجندل:

كانت هذه السرية قد وجهت إلى أبعد مدى وصلت إليه الجيوش النبوية في الجزيرة العربية، ودومة الجندل قريبة من تخوم الشام، فهي أبعد ثلاثة أضعاف عن المدينة بعدها عن دمشق، وهي تقوم في قلب الصحراء العربية واسطة الصلة بين الروم في أرض الشام

---

(1) عيون الأثر (2/152-153)، والأغصان الندية، ج1، ص 314.

(2) المصدر السابق.

(3) انظر: الرحيق المختوم، ص 284.

والعرب في الجزيرة، وسكانها من قبيلة كلب الكبرى، وقد دخلوا في النصرانية؛ نتيجة جوارهم، وتأثرهم بجوار الروم النصارى.

ومهمة هذه السرية ذات جانبين: مهمة دعوية، ومهمة حربية. لذلك انتدب لها عبد الرحمن بن عوف، الذي تربى على محضن الإسلام منذ أيامه الأولى.

وعن هذه السرية حدّثنا عبد الله بن عمر رَضِيَ اللَّهُ عَنْهُمَا، فقال: دعا رسول الله ﷺ عبد الرحمن بن عوف، فقال: «تجهز؛ فإني باعثك في سرية في يومك هذا، أو من غد إن شاء الله». قال ابن عمر: فسمعت ذلك، فقلت: لأدخلنَّ فلأصلين مع النبي الغداة، فلأسمعنَّ وصيته لعبد الرحمن بن عوف.

قال: فغدوتُ فصليت، فإذا أبو بكر وعمر، وناس من المهاجرين فيهم عبد الرحمن بن عوف، وإذا رسول الله ﷺ قد كان أمره أن يسير من الليل إلى دومة الجندل، فيدعوهم إلى الإسلام، فقال رسول الله ﷺ لعبد الرحمن: «ما خلَّفك عن أصحابك؟»، قال ابن عمر: وقد مضى أصحابه في السحر، فهم معسكرون بالجُرْف وكانوا سبعمائة رجل، فقال: أحببت يا رسول الله أن يكون آخر عهدي بك، وعليّ ثياب سفري.

قال: فأقعده (رسول الله ﷺ) بين يديه، فنقض عمامته بيده، ثم عممه بعمامة سوداء، فأرخى بين كتفيه منها، ثم قال: «هكذا فاعتم يا ابن عوف!»، قال: وعلى ابن عوف السيف مُتوشِّحه. ثم قال رسول الله ﷺ: «اغزُ باسم الله، وفي سبيل الله، فقاتل من كفر بالله، لا تَغُلَّ، ولا تغدر، ولا تقتل وليدًا». قال ابن عمر رَضِيَ اللَّهُ عَنْهُمَا: ثم بسط يده، فقال: «يا أيها الناس، اتقوا خمسًا قبل أن يُحل بكم: ما نقص مكيال قوم إلا أخذهم الله بالسنين (القحط) ونقص من الثمرات لعلهم يرجعون، وما نكث قوم عهدهم إلا سلط الله عليهم عدوهم، وما منع قوم الزكاة إلا أمسك الله عليهم قطر السماء، ولولا البهائم لم يُسقطوا (أي: لم يسقط عليهم المطر)، وما ظهرت الفاحشة في قوم إلا سلط الله عليهم الطاعون، وما حكم قوم بغير آي القرآن إلا ألبسهم (فرقهم) الله شيعًا، وأذاق بعضهم بأس بعض».

قال: فخرج عبد الرحمن حتى لحق أصحابه، فسار حتى قدم دُومة الجندل، فلما حلّ بها دعاهم إلى الإسلام، فمكث بها ثلاثة أيام يدعوهم إلى الإسلام، وقد كانوا أول ما قدم لا يعطونه إلا السيف، فلما كان اليوم الثالث أسلم الأصبغ بن عمرو الكلبي، وكان نصرانيًّا، وكان رأسهم. فكتب عبد الرحمن إلى النبي ﷺ يخبره بذلك، وبعث رجلًا من جهينة يقال له: رافع بن مكيث، وكتب يخبر النبي ﷺ أنه قد أراد (أي: عبد الرحمن بن عوف رَضِيَ اللَّهُ عَنْهُ) أن يتزوج فيهم، فكتب إليه النبي ﷺ أن يتزوج بنت الأصبغ تماضر. فتزوجها عبد الرحمن وبنى بها، ثم أقبل بها، وهي أم أبي سلمة بن عبد الرحمن بن عوف. وذكر الواقدي أن هذه السرية في شعبان سنة ست[1].

في شعبان: سرية علي بن أبي طالب لقطع الإمدادات عن خيبر:

بلغ رسول الله ﷺ أن بني سعد بن بكر بفدك يريدون أن يمدوا يهود خيبر، فبعث إليهم علي بن أبي طالب رَضِيَ اللَّهُ عَنْهُ، ومعه مائة رجل، فسار الليل وكمن النهار، وأمسك في طريقه بعين لهم (جاسوس)، فأقر أنهم بعثوه على خيبر، يعرضون عليهم نصرتهم على أن يجعلوا لهم تمر خيبر، وعندما أمنوه دلهم على موضع تجمع بني سعد، فأغار عليهم عليّ رَضِيَ اللَّهُ عَنْهُ وأصحابه، فأخذ خمسمائة بعير وألفي شاة، وهربت بنو سعد بالظعن (النساء)، وكان رئيسهم وبر بن عليم[2].

في رمضان: زيد بن حارثة يبر بقسمه ويثأر من بني فزارة في سرية إلى وادي القرى:

تقدم أن زيد بن حارثة رَضِيَ اللَّهُ عَنْهُ كان خارجًا في اثني عشر رجلًا من أصحاب رسول الله ﷺ إلى وادي القرى، فهاجمهم ناس من فزارة، فقتلوا تسعة من أصحابه، وأفلت هو واثنان ممن كانوا معه.

---

(1) انظر: مغازي الواقدي (2/560-561)، والسيرة الصلابي، ص 642-643.

(2) الواقدي (2/562-564)، وابن هشام (4/344)، وابن سعد (2/89-90).

قال ابن إسحاق:

فلما قدم زيد بن حارثة نذر أن لا يمس رأسه غسلٌ من جنابة، حتى يغزو فزارة، فلما اسْتبلَّ من جراحه (أي شفي من جراحه)، بعثه رسول الله ﷺ في جيش إلى بني فزارة، فلقيهم بوادي القرى، وأصاب فيهم، وأسر «أم قرفة»، وهي فاطمة بنت زمعة بن بدر، وكانت عند حذيفة بن بدر عجوزًا كبيرًا، وبنتًا لها، وعبد الله بن مسعدة، فأمر زيد بن حارثة أن تقتل أم قرفة، فقتلها، ثم قدموا على رسول الله ﷺ بابنة أم قرفة، وبعبد الله بن مسعدة، فكانت بنت أم قرفة لسلمة بن الأكوع، وكان هو الذي أصابها[1].

وروى الذهبي[2] من حديث ابن إسحاق رواية ثانية مختصرة، ذكر فيها سببًا آخر لإرسال الرسول ﷺ زيدًا في هذه السرية، وهو أن أم قرفة الفزارية جهزت أربعين راكبًا من ولدها وولد ولدها إلى رسول الله ﷺ ليقتلوه، فأرسل إليهم رسول الله ﷺ سرية بقيادة زيد بن حارثة. وتقول الرواية إن زيدًا قتلهم، وقتل أم قرفة، وأرسل بدرعها إلى النبي ﷺ، فنصبه بالمدينة بين رمحين، وعندما قدم زيد، قام إليه رسول الله ﷺ يجر ثوبه، فقبل وجهه؛ فرحًا بهذا الانتصار[3].

في شوال: سرية عبد الله بن رواحة إلى خيبر للصلح .. وغدر اليهود بهم:

لما قُتل أبو رافع سلام بن أبي الحقيق، أمَّرت يهود عليهم «أُسير بن رِزَام»، فسار في غطفان وغيرهم، فجمعهم لحرب رسول الله ﷺ، وبلغ ذلك رسول الله ﷺ، فوجه عبد الله بن رواحة رَضِيَ اللَّهُ عَنْهُ في ثلاثة نفر، في شهر رمضان سرًّا، فسأل عن خبره (خبر أسير بن رِزَام)، فأُخبر بذلك (أي: بإعداده لحرب المسلمين)، فقدم على رسول الله ﷺ فأخبره، فندب رسول الله ﷺ الناس، فانتُدب له ثلاثون رجلًا، فبعث عليهم عبد الله بن رواحة رَضِيَ اللَّهُ عَنْهُ، وفيهم عبد الله بن أنيس رَضِيَ اللَّهُ عَنْهُ يحملون إلى «أُسير بن رِزَام» عرضًا من رسول الله ﷺ.

---

(1) عيون الأثر (2/154)، وفي رواية مسلم (1755) أن أمير هذه السرية كان أبا بكر الصديق.

(2) سير أعلام النبلاء (1/227-228).

(3) انظر: السيرة النبوية لمهدي رزق الله، ص 474-475.

فقدموا على أُسير، فقالوا: نحن آمنون حتى نعرض عليك ما جئنا له؟

قال: نعم، ولي منكم مثل ذلك.

فقالوا: نعم، فقلنا: إن رسول الله ﷺ بعثنا إليك لتخرج إليه، فيستعملك على خيبر، ويُحسن إليك.

فطمع في ذلك، فخرج، وخرج معه ثلاثون رجلًا من اليهود، مع كل رجل رديف من المسلمين، حتى إذا كانوا بقرقرة، ندم أُسير على قبوله عرض رسول الله ﷺ، فقال عبد الله بن أنيس رَضِيَ اللَّهُ عَنْهُ: وأهوى أُسير بيده إلى سيفي ففطنت له، ودفعت بعيري، وقلت: غدرًا أي عدو الله، فعل ذلك مرتين، فنزلت، فسقت بالقوم حتى انفرد لي أُسير، فضربته بالسيف، فأسقطت عامة فخذه وساقه، وسقط عن بعيره وبيده مخرش (عصا معقوفة الرأس) من شَوْحط (شجر ينبت في الجبال)، فضربني فشجني مأمومة (أي في أم رأسي)، وملنا على أصحابه فقتلناهم كما هم، غير رجل واحد أعجزنا شدًّا (أي أفلت هربًا على رجليه)، ولم يُصب من المسلمين أحد، ثم أقبلنا إلى رسول الله ﷺ فحدثناه الحديث، فقال: «قد نجاكم الله من القوم الظالمين»[1].

وكانت هذه السرية في شوال سنة ست من الهجرة[2].

في شوال: سرية كرز بن جابر الفهري .. ونزول آية الحرابة:

قدم على رسول الله ﷺ جماعة من عُكَل وعُرَيْنَة[3]، في شوال من العام السادس الهجري وتكلموا بالإسلام، فقالوا: يا نبي الله، إنا كنا أهل ضرع ولم نكن أهل ريف، واستوخموا المدينة، فأمر لهم رسول الله ﷺ بِذَوْدٍ[4] وراع، وأمرهم أن يخرجوا فيه فيشربوا

(1) الطبقات الكبرى (2/92-93)، وابن هشام: السيرة (2/618)، والأغصان الندية، ص 319.

(2) الواقدي (2/566).

(3) اسم لقبيلتين.

(4) **الذود**: إناث الإبل، لم يتعد عددها عشرة.

من ألبانها ويتمسحوا بأبوالها (طلبًا للشفاء)، فانطلقوا حتى إذا كانوا ناحية الحَرَّة كفروا بعد إسلامهم، وقتلوا راعي النبي ﷺ، واستاقوا الذَّوْد (سرقوها). فبلغ النبي ﷺ خبرهم فبعث الطَّلَبَ في آثارهم ، فقبضوا عليهم، فأمر بهم فسمروا أعينهم، وقطعوا أيديهم وأرجلهم، وتُركوا في ناحية الحرة حتى ماتوا على حالهم. قال قتادة - راوي الحديث: بلغنا أن النبي ﷺ بعد ذلك كان يحث على الصدقة وينهى عن المثلة[1]، وقال في رواية أخرى: إن ذلك كان قبل أن تنزل الحدود[2]. وقال أبو قلابة في حديثه: «هؤلاء قوم سرقوا وقتلوا وكفروا بعد إيمانهم، وحاربوا الله ورسوله»[3].

قال الجمهور: إن الآية: ﴿ إِنَّمَا جَزَٰٓؤُاْ ٱلَّذِينَ يُحَارِبُونَ ٱللَّهَ وَرَسُولَهُۥ وَيَسۡعَوۡنَ فِي ٱلۡأَرۡضِ فَسَادًا أَن يُقَتَّلُوٓاْ أَوۡ يُصَلَّبُوٓاْ أَوۡ تُقَطَّعَ أَيۡدِيهِمۡ وَأَرۡجُلُهُم مِّنۡ خِلَٰفٍ أَوۡ يُنفَوۡاْ مِنَ ٱلۡأَرۡضِ ﴾ [المائدة:33]، قد نزلت في هؤلاء العرنيين، وقيلت أسباب أخرى في نزولها[4].

سرية الخبط (سيف البحر):

وفي هذه السنة، وقبل صلح الحديبية، كانت سرية الخبط، حيث أرسل رسول الله ﷺ أبا عبيدة بن الجراح على رأس ثلاثمائة راكب؛ لرصد عير لقريش، فأقاموا بالساحل نصف شهر، فأصابهم جوع شديد حتى أكلوا الخبط (وهو الورق الذي يتساقط من الأشجار بعد خبطها بالعصا ونحوها)، فسمي ذلك الجيش جيش الخبط [5].

عن جابر بن عبد الله رَضِيَ اللَّهُ عَنْهُمَا، قال: بَعَثَنَا رَسُولُ الله ﷺ، وَأمّر علينا أبا عبيدة، نتلقى عيرًا لقريش، وزودنا جرابًا من تمر لم يجد لنا غيره، فكان أبو عبيدة يعطينا تمرة تمرة، قيل

(1) البخاري: الفتح (34/16، حديث 4192).

(2) المصدر نفسه (253/25-254، حديث 6805).

(3) المصدر نفسه (253/25-254، حديث 6805).

(4) انظر: السيرة لمهدي رزق الله، ص 418.

(5) انظر: صحيح البخاري، المغازي، باب: غزوة سيف البحر (4361).

لجابر: كيف كنتم تصنعون بها، قال: نمصها كما يمص الصبي، ثم نشرب عليها من الماء، فتكفينا يومنا إلى الليل، وكنا نضرب بعِصِيِّنا الخبط، ثم نبله بالماء فنأكله، قال: وانطلقنا على ساحل البحر فُرفع لنا على ساحل البحر كهيئة الكثيب الضخم (كومة الرمل)، فأتيناه، فإذا هي دابة تدعى العنبر (الحوت) قال أبو عبيدة: ميتةٌ (أي لا تأكلوها)، ثم قال: لا، بل نحن رسل رسول الله ﷺ، وفي سبيل الله، وقد اضطررتم فكلوا (ولم يكونوا قد علموا بعدُ بحل ميتة البحر)، قال: فأقمنا عليه شهرًا (أي نأكل منه)، ونحن ثلاثمائةٍ حتى سَمِنَّا، قال: ولقد رأيتنا نغترف من وقب عينه (أي من داخل عينه) بالقلال الدهن، ونقتطع منه القدر (القطعة) كالثور أو كقدر الثور، فلقد أخذ منا أبو عبيدة ثلاثة عشر رجلًا فأقعدهم في وقب عينه، وأخذ ضلَعًا من أضلاعه فأقامها، ثم رحل أعظم بعير معنا، فمر (البعير) من تحتها وتزودنا من لحمه وشائق (اللحم لم ينضج يُحمل في الأسفار)، فلما قدمنا المدينة أتينا رسول الله ﷺ فذكرنا ذلك له، فقال: «هو رزق أخرجه الله لكم، فهل معكم من لحمه شيءٌ فتطعمونا»، قال: فأرسلنا إلى رسول الله ﷺ منه فأكله[1].

* * *

(1) صحيح مسلم، كتاب الصيد والذبائح، باب: إباحة ميتات البحر (1935).

الفصل الثاني

صلح الحديبية

حفلت السنة السادسة من الهجرة - كما رأينا - بسرايا كثيرة وغزوات، تمخضت عن رعب المشركين وهزيمتهم، وقوة المسلمين وسيادتهم على الجزيرة.

فبدأ المسلمون يفكرون في حقهم في أداء عبادتهم في المسجد الحرام، الذي كان المشركون قد صدوهم عنه منذ ستة أعوام، وقوي الأمل في نفوسهم برؤيا رآها رسول الله ﷺ، بأنهم يدخلون المسجد الحرام محلقين رءوسهم ومقصرين. ورأى النبي ﷺ أن يستنفر العرب ومن حوله من الأعراب؛ ليخرجوا معه معتمرين؛ كي تعلم قريش أنه لا يريد حربًا، فاستجاب له بعض الأعراب، وأبطأ عنه الكثيرون[1].

وأراد رسول الله ﷺ بهذا النسك المنشود إقرار حق المسلمين في أداء عبادتهم، وإفهام المشركين أن المسجد الحرام ليس ملكًا لقبيل يحتكر القيام عليه، ويمكنه الصد عنه، فهو ميراث الخليل إبراهيم عَلَيْهِ السَّلَامُ، والحج إليه واجب على كل من بلغه أذان أبي الأنبياء من قرون: ﴿وَإِذْ بَوَّأْنَا لِإِبْرَاهِيمَ مَكَانَ الْبَيْتِ أَن لَّا تُشْرِكْ بِي شَيْئًا وَطَهِّرْ بَيْتِيَ لِلطَّائِفِينَ وَالْقَائِمِينَ وَالرُّكَّعِ السُّجُودِ ﴿٢٦﴾ وَأَذِّن فِي النَّاسِ بِالْحَجِّ يَأْتُوكَ رِجَالًا وَعَلَىٰ كُلِّ ضَامِرٍ يَأْتِينَ مِن كُلِّ فَجٍّ عَمِيقٍ ﴿٢٧﴾﴾ [الحج].

ومن ثم فليس يجوز لأهل مكة أن يحجبوا المسلمين عنه، ولئن استطاعوا قديمًا إقصاءهم، فإنهم لن يستطيعوا اليوم، وإصرارهم على ذلك فيه خطأ عظيم[2].

---

(1) انظر: السيرة النبوية لأبي شهبة، ج2، ص 325.

(2) انظر: فقه السيرة للغزالي، ص 348.

المبحث الأول : خروج رسول الله ﷺ معتمرًا

قال ابن إسحاق: ثم أقام رسول الله ﷺ بالمدينة شهر رمضان، وشوال، وخرج في ذي القعدة معتمرًا، لا يريد حربًا[1].

خرج رسول الله ﷺ وأصحابه عبادًا مخبتين، لا غزاة منتقمين، لا يبغون إلا أن ينالوا مثل ما لغيرهم من حق الاعتمار والحج، ولا يسوغ أن يحرموا من ذلك أبدًا[2].

وكان ﷺ قد رأى في المنام - كما ذكرنا - وهو بالمدينة، أنه دخل هو وأصحابه المسجد الحرام، وأخذ مفتاح الكعبة، وطافوا واعتمروا، وحلق بعضهم وقَصَّر بعضهم، فأخبر بذلك أصحابه، ففرحوا، وحسبوا أنهم داخلون مكة عامهم ذلك[3]؛ فقد طال عهدهم بمكة والكعبة التي رضعوا بلبان حبها، ودانوا بتعظيمها، وما زادهم الإسلام إلا ارتباطًا بها وشوقًا إليها، وقد تاقت نفوسهم إلى الطواف حولها، وتطلعت إليها تطلعًا شديدًا، وكان المهاجرون أشدهم حنينًا إلى مكة؛ فقد ولدوا ونشأوا فيها، وأحبوها حبًّا شديدًا، وقد حيل بينهم وبينها، فلما أخبرهم رسول الله ﷺ بذلك تهيأوا لتلك الزيارة العظيمة[4].

﴿ شَغَلَتْنَآ أَمْوَٰلُنَا وَأَهْلُونَا فَٱسْتَغْفِرْ لَنَا ﴾:

استنفر رسول الله ﷺ جمهور المسلمين وأعراب البوادي، وآذنهم أنه يريد العمرة، ولا يريد قتالًا، وساق أمامه الهدي الذي سيذبح ليطعم فقراء مكة .. الفقراء الذين حشدوا لاستئصاله يوم الأحزاب.

لكن الأعراب المنتشرين حول المدينة، ومن على شاكلتهم من المنافقين، عرفوا أن أهل مكة سوف يقاتلون محمدًا عليه الصلاة والسلام، أمرَّ قتل، وأنه إذا أبى إلا زيارة البيت

(1) البداية والنهاية 4/188.

(2) الغزالي: فقه السيرة، ص 349.

(3) المباركفوري: الرحيق المختوم، ص 294.

(4) السيرة النبوية للندوي، ص 213.

– كما أعلن – فلن تدعه قريش حتى تهلكه أو تهلك هي دون إبلاغه مأربه .. فهي عمرة محفوفة بالأخطار في نظرهم، والفرار منها أجدى!!

ولو فرض أن الرسول عليه الصلاة والسلام نجح في مقصده هذا، فالاعتذار إليه بعد عودته سهل.

﴿ سَيَقُولُ لَكَ ٱلْمُخَلَّفُونَ مِنَ ٱلْأَعْرَابِ شَغَلَتْنَآ أَمْوَٰلُنَا وَأَهْلُونَا فَٱسْتَغْفِرْ لَنَا ۚ يَقُولُونَ بِأَلْسِنَتِهِم مَّا لَيْسَ فِى قُلُوبِهِمْ ۚ قُلْ فَمَن يَمْلِكُ لَكُم مِّنَ ٱللَّهِ شَيْـًٔا إِنْ أَرَادَ بِكُمْ ضَرًّا أَوْ أَرَادَ بِكُمْ نَفْعًۢا ۚ بَلْ كَانَ ٱللَّهُ بِمَا تَعْمَلُونَ خَبِيرًۢا ﴿١١﴾ بَلْ ظَنَنتُمْ أَن لَّن يَنقَلِبَ ٱلرَّسُولُ وَٱلْمُؤْمِنُونَ إِلَىٰٓ أَهْلِيهِمْ أَبَدًا وَزُيِّنَ ذَٰلِكَ فِى قُلُوبِكُمْ وَظَنَنتُمْ ظَنَّ ٱلسَّوْءِ وَكُنتُمْ قَوْمًۢا بُورًا ﴿١٢﴾ ﴾ [الفتح] (1).

وقد ذكر مجاهد(2) أن الأعراب الذي عنتهم الآية هم أعراب جهينة ومزينة، وذكر الواقدي(3) أن الأعراب الذين تشاغلوا بأموالهم وأولادهم وذراريهم بنو بكر ومزينة وجهينة(4).

الخروج إلى مكة:

خرج رسول الله ﷺ في زهاء ألف وأربعمائة من المهاجرين والأنصار، ومن لحق بهم من الأعراب، واستخلف على المدينة نميلة بن عبد الله الليثي رَضِيَ اللَّهُ عَنْهُ، وأحرم بالعمرة هو والكثيرون من أصحابه. **قال ابن إسحاق:** وخرج رسول الله ﷺ بمن معه من المهاجرين والأنصار ومن لحق به من العرب، وساق معه الهدي، وأحرم بالعمرة؛ ليأمن الناس من حربه، وليُعلم أنه إنما خرج زائرًا لهذا البيت ومعظمًا له(5).

---

(1) الغزالي: فقة السيرة، ص 349-350.

(2) تفسير الطبري (77/26).

(3) المغازي (574/2).

(4) مهدي رزق الله، السيرة النبوية، ص 482.

(5) البداية والنهاية 188/4.

وبعث رسول الله ﷺ بين يديه بُسر بن سفيان الخزاعي الكعبي، عينًا له على قريش؛ ليأتيه بخبرهم[1].

وعندما وصل المسلمون الروحاء (على بعد 13 كم من المدينة)، جاءه نبأ عدو (من الأعراب)، فأرسل إليهم طائفة من أصحابه، فيهم أبو قتادة الأنصاري رَضِيَ اللَّهُ عَنْهُ، ولم يكن محرمًا، فرأى حمارًا وحشيًّا، فحمل عليه فطعنه، ورفض أصحابه أن يعينوه عليه لحرمة الصيد، ولكنهم أكلوا منه وهم حُرُم، ثم شكوا في حل ذلك، فلما التقوا برسول الله ﷺ في السقيا (على بعد 180 كم من المدينة) استفتوه في الأمر، فأذن لأصحابه بأكل ما جاءوا له من بقية اللحم ما داموا لم يعينوا على صيده[2].

الوصول إلى عُسفان:

سار المسلمون ملبين يطوون الطريق إلى البيت العتيق، فلما بلغوا عُسفان (على بعد 80 كم من مكة) جاء الخبر إلى المسلمين أن قريشًا خرجت عن بكرة أبيها، قد أقسمت ألا يدخل بلدهم مسلم، وأن جيشهم استعد للقتال، يقود خيله خالد بن الوليد[3]، فقد جاء بُسر بن سفيان الكعبي بخبر قريش إلى النبي ﷺ، فقال: يا رسول الله، هذه قريش قد سمعت بمسيرك، فخرجوا معهم العُوذ[4] المطافيل[5] قد لبسوا جلود النمور، وقد نزلوا بذي طُوى، يعاهدون الله لا تدخلها عليهم أبدًا، وهذا خالد بن الوليد في خيلهم قَدِموا

---

(1) البخاري، الفتح (29/16 حديث 4178)، مسند أحمد (323/4).

(2) البخاري، الفتح (139/8-146، حديث 1821)، والسيرة لمهدي رزق الله، ص 482-483.

(3) الغزالي: فقه السيرة، ص:350.

(4) مهدي رزق الله، ص:483

(5) **العوذ:** جمع عائذ، وهو من الإبل الحديثة النتاج. **والمطافيل:** جمع مطفل: التي معها أولادها، والمراد أنهم خرجوا ومعهم النساء والأولاد؛ لئلا يفروا عنهم، وهو على الاستعارة.

كُرَاع الغَمِيم [1]. فاستشار [2] النبي ﷺ أصحابه في أن يغيروا على ديار الذين ناصروا قريشًا واجتمعوا معها؛ ليدعوا قريشًا ويعودوا للدفاع عن ديارهم، فقال أبو بكر رَضِيَ اللَّهُ عَنْهُ: «يا رسول الله، خرجت عامدًا لهذا البيت، لا تريد قتل أحد ولا حرب أحد، فتوجه له، فمن صدنا عنه قاتلناه». فقال رسول الله ﷺ: «امضوا على اسم الله»[3].

وعندما علم الرسول ﷺ بقرب خيل المشركين منهم، صلى بأصحابه صلاة الخوف بعُسْفَان[4].

تعديل الطريق:

وبدأ شبح الحرب أمام الأعين يملأ هذه البقاع المحرمة، والمسلمون لم يجيئوا لهذا، وما كان لأهل مكة أن يلجئوهم إليه. فقال رسول الله ﷺ: «يا ويح قريش لقد أكلتهم الحرب، ماذا عليهم لو خلوا بيني وبين سائر العرب، فإن هم أصابوني كان ذلك الذي

---

(1) هو واد أمام عسفان على بعد 64 ميلًا عن مكة – البلاذري، ص264، قال الزهري: «وكان أبو هريرة يقول: ما رأيت أحد قط كان أكثر مشاورة لأصحابه من رسول الله ﷺ – من رواية أحمد عن عبد الرزاق، وساقه ابن حبان عن طريقه – كما في الفتح (160/11).

(2) البخاري، الفتح (29/16، ح 4178،4179)، وفيه: «غدير الأشطاط» بدلًا عن «عسفان». وغدير الأشطاط قريبة من عسفان كما في رواية أحمد – انظر ابن حجر: الفتح (160/11)، ومسند أحمد (323/4) من حديث ابن إسحاق، ولم يصرح فيه بالسماع، والإسناد متصل ورجاله ثقات.

(3) أبو داود: السن مع معالم السنن (28/2، ك. الصلاة، ب. صلاة الخوف، ح 1236)، وقال المحقق: «وأخرجه النسائي في صلاة الخوف، وحديث 1550 و1551، وقال المنذري في مختصره: «وقال البيهقي: هذا إسناد صحيح ...». يعني هذا الإسناد الذي عند أبي داود عن مجاهد عن أبي عياش الزرقي، والحاكم (338/3)، وصححه ووافقه الذهبي. وصححه البيهقي في السنن الكبرى (257/3)، وابن كثير في تفسيره (548/1). والحديث لم يحدد الغزوة، ولكن ابن حجر في الفتح (311/15) رجح أنها الحديبية. ويؤيده أن خالد بن الوليد ذكر وجوده قرب عسفان، وكان ذلك في غزوة الحديبية، انظر الحكمي: مرويات غزوة الحديبية، ص77–86، والعمري: المجتمع المدني، الجهاد، ص 130.

(4) مسلم (2144/4، ح 2780).

أرادوا!، وإن أظهرني الله عليهم دخلوا في الإسلام وافرين، وإن لم يفعلوا قاتلوا وبهم قوة، فما تظن قريش؟! فوالله لا أزال أجاهد على الذي بعثني الله به حتى يظهره الله، أو تنفرد هذه السالفة»[1].

ولتفادي الاشتباك مع المشركين، قال رسول الله ﷺ: «من رجل يخرج بنا على طريق غير طريقهم التي هم بها؟»، فقال رجل من أسلم: أنا يا رسول الله، فسلك بهم طريقًا وعرة عبر ثنية المرار (وهي مهبط الحديبية)، خرجوا منه بعد مشقة وجهد، فأفضوا إلى أرض سهلة منبسطة، فقال لهم رسول الله ﷺ: «قولوا نستغفر الله ونتوب إليه»، فقالوا ذلك، فقال ﷺ: «والله إنها الحطة[2] التي عرضت على بني إسرائيل فلم يقولوها»[3]، ثم انتهى المسلمون إلى الحديبية أسفل مكة.

وعندما أحس خالد وفرسان قريش بتغيير المسلمين خط سيرهم، رجعوا إلى مكة مسرعين؛ ليحذروا أهلها؛ كي يحولوا بين المسلمين ودخولها .. فخرجت قريش للقاء المسلمين، فعسكرت ببلدح [4]، وسبقوا المسلمين إلى الماء هناك .

خلأت القصواء[5]:

ومضى النبي ﷺ بأصحابه في وجهتهم المحددة، فإذا بناقته تبرك، لا تجاوز مكانها! ودهش الناس لما عراها، فقالوا. خلأت القصواء! فقال النبي ﷺ: «ما خلأت، وما هو لها بخلق، ولكن حبسها حابس الفيل عن مكة .. لا تدعوني قريش اليوم إلى خطة يسألونني فيها صلة الرحم إلا أعطيتهم إياها»[6]، ثم أمر الناس أن يحلوا حيث انتهى بالناقة المسير.

---

(1) فقه السيرة للغزالي، ص 350، والحديث أخرجه أحمد (4/323-326)، وقال الألباني: سنده صحيح.

(2) معنى ﴿وَقُولُواْ حِطَّةٌ﴾: أي حط يا ربنا عنا ذنوبنا واغفرها.

(3) ابن هشام (3/338).

(4) دلائل النبوة للبيهقي (4/112)، والواقدي (2/582).

(5) **خلأت:** بركت، **والقصواء:** اسم ناقة رسول الله ﷺ.

(6) رواه البخاري (2673).

ونزل المسلمون كما أمروا، ينتظرون مع الغد القريب أن تفتح لهم أبواب مكة، فيطوفوا ويسعوا، ثم يعودوا وافرين رابحين .. إنهم واثقون من إدراك بغيتهم، ولماذا يشكون وقد سمعوا من رسول الله ﷺ بشريات كثيرة، بأنهم سيدخلون المسجد الحرام آمنين، محلقين رءوسهم ومقصرين؟![1].

وكان نزول النبي ﷺ وأصحابه بأقصى الحديبية على ثمد (بئر) قليل الماء، ما لبثوا أن نزحوه، ثم اشتكوا إلى رسول الله ﷺ العطش، فانتزع سهمًا من كنانته ثم أمرهم أن يجعلوه فيه (أي في البئر)، فجاش لهم بالري، فارتووا جميعًا[2]. وفي رواية «أنه جلس على شفة البئر فدعا بماء فمضمض ومج في البئر»[3]. ويمكن الجمع بأن يكون الأمران معًا وقعا، كما ذكر ابن حجر، ويؤيده ما ذكره الواقدي وعروة من أن الرسول ﷺ تمضمض في دلو وصبه في البئر، ونزع سهمًا من كنانته فألقاه فيها، ودعا ففارت[4]. فنزل الناس حولها يسقون ويشربون ويتوضئون، كأنهم نزلوا حول نهر[5].

وساطة:

أما قريش فقد ذُعرت لهذا الزحف المباغت، وفكرت جادة في إبعادهم عن مكة مهما كلفها من مغارم، وذلك أنها نظرت إلى الأمر من زاوية ضيقة، فرأت أن مهابتها ستنزع من أفئدة الناس قاطبة إذا دخل المسلمون بلدهم على هذا النحو، بعدما وقع من حروب طاحنة.

غير أن قريشًا تعرف حرج موقفها إن نشب قتال جديد؛ فحجتها فيه أمام نفسها وأمام أحلافها داحضة. وقد ينتهي بكارثة تودي بكيانها كله، ولهذا سيرت الوسطاء يفاوضون محمدًا ﷺ؛ علهم ينتهون معه إلى مخلص من هذه الورطة!!

---

(1) الغزالي: فقه السيرة، ص 351.

(2) البخاري، الفتح (11/162-163، حديث 2131-2732).

(3) البخاري، الفتح (14/75، حديث 3577).

(4) مهدي رزق الله: السيرة النبوية، ص 484.

(5) الجزائري: هذا الحبيب يا محب، ص 339.

وكان أول من جاءه «بديل بن ورقاء» في رجال من خزاعة؛ فكلموه وسألوه: ما الذي جاء به هنا؟ فأخبرهم أنه لم يأت يريد حربًا، وإنما جاء زائرًا للبيت ومعظمًا حرمته[1].

وكانت خزاعة عيبة نصح لرسول الله ﷺ (أي موضع سره). ولذا فقد اختارتها قريش لمهمة الوساطة بينها وبين رسول الله ﷺ. واعتبرت أن بديل بن ورقاء كفيل بأن يثني محمدًا ﷺ عن عزمه دخول مكة.

قال الزهري: (... فلما اطمأن رسول الله ﷺ (أي في المكان الذي نزل فيه في الحديبية)، أتاه بديل بن ورقاء الخزاعي، في رجال من خزاعة، فكلموه وسألوه: ما الذي جاء به؟

فأخبرهم أنه لم يأت يريد حربًا، وإنما جاء زائرًا البيت، ومعظمًا لحرمته، ثم قال لهم نحوًا مما قال لبُسر بن سفيان، فرجعوا إلى قريش، فقالوا: يا معشر قريش، إنكم تعجلون على محمد، وإن محمدًا لم يأت لقتال، وإنما جاء زائرًا هذا البيت، فاتهموهم وجبهوهم وقالوا: وإن كان جاء ولا يريد قتالًا، فوالله لا يدخلها علينا عنوة أبدًا، ولا تحدث بذلك عنا العرب[2].

رسل قريش إلى رسول الله ﷺ:

قال الزهري: ثم بعثوا إليه مكرز بن حفص بن الأخيف، أخا بني عامر بن لؤي، فلما رآه رسول الله ﷺ مقبلًا قال: هذا رجل غادر، فلما انتهى إلى رسول الله ﷺ وكلمه، قال له رسول الله ﷺ نحوًا مما قال لبديل وأصحابه، فرجع إلى قريش فأخبرهم بما قال له رسول الله ﷺ.

ثم بعثوا إليه الحليس بن علقمة أو ابن زيان، وكان يومئذ سيد الأحابيش، وهو أحد بني الحارث بن عبد مناة بن كنانة، فلما رآه رسول الله ﷺ قال: إن هذا من قوم يتألهون (أي: يعظمون الشعائر)، فابعثوا الهدي في وجهه حتى يراه، فلما رأى الهدي يسيل عليه

(1) فقه السيرة: الغزالي، ص 351-352.

(2) البداية والنهاية 189-190.

من عرض الوادي في قلائده، وقد أكل أوباره من طول الحبس عن محله، رجع إلى قريش، ولم يصل إلى رسول الله ﷺ؛ إعظامًا لما رأى، فقال لهم ذلك. قال: فقالوا له: اجلس، فإنما أنت أعرابي لا علم لك.

قال ابن إسحاق: فحدثني عبد الله بن أبي بكر: أن الحليس غضب عند ذلك، وقال: يا معشر قريش، والله ما على هذا حالفناكم، ولا على هذا عاقدناكم.

أيُصد عن بيت الله من جاء معظمًا له؟! والذي نفس الحليس بيده، لتخلن بين محمد وبين ما جاء له، أو لأنفرن (عليكم) بالأحابيش نفرة رجل واحد. قال: فقالوا له: مه، كف عنا يا حليس حتى نأخذ لأنفسنا ما نرضى به (أي: حتى نفاوضه فنحصل على ما يرضينا) .. **قال الزهري في حديثه:** ثم بعثوا إلى رسول الله ﷺ عروة بن مسعود الثقفي، فقال (قبل أن يذهب): يا معشر قريش، إني قد رأيت ما يلقى منكم من بعثتموه إلى محمد إذا جاءكم من التعنيف وسوء اللفظ، وقد عرفتم أنكم والد وأبي ولد -وكان عروة (ابنًا) لسبيعة بنت عبد شمس - وقد سمعت بالذي نابكم، فجمعت من أطاعني من قومي، ثم جئتكم حتى آسيتكم بنفسي، قالوا: صدقت ما أنت عندنا بمتهم.

فخرج حتى أتى رسول الله ﷺ، فجلس بين يديه، ثم قال: يا محمد أجمعت أوشاب الناس، ثم جئت بهم إلى بيضتك (يقصد قريشًا) لتفضها بهم .. إنها قريش قد خرجت معها العوذ المطافيل .. قد لبسوا جلود النمور، يعاهدون الله لا تدخلها عليهم عنوة أبدًا.. وايم الله، لكأني بهؤلاء (الذين اتبعوك) قد انكشفوا عنك غدًا، قال: وأبو بكر الصديق خلف رسول الله ﷺ قاعد، فقال: امصص بظر اللات، أنحن نتكشف عنه؟ قال: من هذا يا محمد؟ قال: هذا ابن أبي قحافة، قال: أما والله لولا يد (موقف فضل) كانت لك عندي لكافأتك بها، ولكن هذه بها.

قال: ثم جعل يتناول لحية رسول الله ﷺ وهو يكلمه، والمغيرة بن شعبة واقف على رأس رسول الله ﷺ في الحديد.

قال: فجعل (المغيرة) يقرع يده إذا تناول لحية رسول الله ﷺ، ويقول: اكفف يدك عن وجه رسول الله ﷺ قبل أن لا تصل إليك (أقطعها)، قال: فيقول عروة: ويحك! ما أفظك وأغلظك! قال: فتبسم رسول الله ﷺ، فقال له عروة: من هذا يا محمد؟ قال: هذا ابن أخيك المغيرة ابن شعبة؛ قال: أي غُدر، وهل غسلت سوءتك إلا بالأمس.

قال ابن هشام: أراد عروة بقوله هذا أن المغيرة بن شعبة قبل إسلامه قتل ثلاثة عشر رجلًا من بني مالك، من ثقيف، فتهايج الحيان من ثقيف: بنو مالك رهط المقتولين، والأحلاف رهط المغيرة، فودى (أي: دفع ديتهم) عروة المقتولين ثلاث عشرة دية، وأصلح ذلك الأمر.

قال ابن إسحاق: قال الزهري: فكلمه رسول الله ﷺ بنحوٍ مما كلم به أصحابه، وأخبره أنه لم يأت يريد حربًا.

فقام من عند رسول الله ﷺ، وقد رأى ما يصنع به أصحابه، لا يتوضأ إلا ابتدروا وضوءه، ولا يبصق بصاقًا إلا ابتدروه، ولا يسقط من شعره شيء إلا أخذوه .. فرجع إلى قريش، فقال: يا معشر قريش، إني قد جئت كسرى في ملكه، وقيصر في ملكه، والنجاشي في ملكه .. وإني والله ما رأيت ملكًا في قوم قط مثل محمد في أصحابه، ولقد رأيت قومًا لا يسلمونه لشيء أبدًا، فروا رأيكم.

خراش بن أمية رسول النبي إلى قريش:

ولما لم تنتج سفارات قريش شيئًا، أرسل النبي ﷺ خراش بن أمية الخزاعي إلى قريش؛ ليبلغ أشرافهم عنه ما جاء له.

قال ابن إسحاق: وحدثني بعض أهل العلم: أن رسول الله ﷺ دعا خراش بن أمية الخزاعي، فبعثه إلى قريش بمكة، وحمله على بعير له يقال له الثعلب؛ ليبلغ أشرافهم عنه ما جاء له، فعقروا به جمل رسول الله ﷺ، وأرادوا قتله، فمنعته الأحابيش، فخلوا سبيله، حتى أتى رسول الله ﷺ[1].

(1) البداية والنهاية 4/191.

﴿ وَهُوَ ٱلَّذِى كَفَّ أَيْدِيَهُمْ عَنكُمْ وَأَيْدِيَكُمْ عَنْهُم بِبَطْنِ مَكَّةَ ﴾:

بقي المسلمون في أماكنهم في الحديبية، يلتمسون حلولًا أفضل من دخول مكة عنوة، وحاول فريق من سفهاء مكة وشبابها الطائشين الطامحين إلى الحرب، أن يشعل معركة مع المسلمين، بأن ينالوا بعضًا منهم أسرًا أو قتلًا، فخرج سبعون أو ثمانون منهم ليلًا، فهبطوا من جبل التنعيم، وحاولوا التسلل إلى معسكر المسلمين، إلا أنهم أُخذوا جميعًا أسرى بيد حرس المسلمين، وهرب رئيسهم، وأتى بهم محمد بن مسلمة رَضِيَ اللَّهُ عَنْهُ قائد حرس المسلمين إلى رسول الله ﷺ، فعفا عنهم وخلى سبيلهم[1]، وفي هذا نزل قول الله تعالى: ﴿ وَهُوَ ٱلَّذِى كَفَّ أَيْدِيَهُمْ عَنكُمْ وَأَيْدِيَكُمْ عَنْهُم بِبَطْنِ مَكَّةَ مِنۢ بَعْدِ أَنْ أَظْفَرَكُمْ عَلَيْهِمْ ۚ وَكَانَ ٱللَّهُ بِمَا تَعْمَلُونَ بَصِيرًا ﴿٢٤﴾ ﴾ [الفتح].

ثم جاء سلمة بن الأكوع رَضِيَ اللَّهُ عَنْهُ إلى رسول الله ﷺ بأربعة آخرين أسرهم وحده .. وقد روى عنه ذلك الإمام مسلم في صحيحه، فقال: «... أتيت شجرة، فكسحت شوكها (أي كنست ما تحتها من الشوك)، فاضطجعت في أصلها»، قال: «فأتاني أربعة من المشركين من أهل مكة، فجعلوا يقعون في رسول الله ﷺ (يذكرونه بسوء)، فأبغضتهم، فتحوّلت إلى شجرة أخرى، وعلقوا سلاحهم، واضطجعوا .. فبينما هم كذلك إذ نادى مناد من أسفل الوادي: يا للمهاجرين! قتل ابن زنيم! قال: فاخترطت سيفي (أي سللته)، ثم شددت على أولئك الأربعة وهم رقود، فأخذت سلاحهم، فجعلته ضغثًا[2] في يدي». قال: «ثم قلت: والذي كرّم وجه محمد، ما يرفع أحد منكم رأسه إلا ضربت الذي فيه عيناه»[3]، قال: ثم جئت بهم أسوقهم إلى رسول الله ﷺ قال: وجاء عمي عامر برجل

---

(1) انظر: صحيح مسلم، كتاب الجهاد والسير (3/1442).

(2) **ضغثًا:** حزمة.

(3) **الذي فيه عيناه:** أي: رأسه.

من العبلات[1] يقال له مكرز، يقوده إلى رسول الله ﷺ على فرس مجفف[2] في سبعين من المشركين، فنظر إليهم رسول الله ﷺ، فقال: «دعوهم، يكن لهم بدء الفجور وثناه»[3]، فعفا عنهم رسول الله ﷺ، وأنزل الله: ﴿ وَهُوَ ٱلَّذِى كَفَّ أَيْدِيَهُمْ عَنكُمْ وَأَيْدِيَكُمْ عَنْهُم بِبَطْنِ مَكَّةَ مِنۢ بَعْدِ أَنْ أَظْفَرَكُمْ عَلَيْهِمْ ۚ وَكَانَ ٱللَّهُ بِمَا تَعْمَلُونَ بَصِيرًا ﴿٢٤﴾ ﴾ [الفتح][4].

سفارة عثمان إلى قريش:

رأى رسول الله ﷺ أن يعيد محاولة إقناع أهل مكة بتركه يؤدي العمرة هو وأصحابه، ثم يعودون لشأنهم .. فقرر أن يبعث سفيرًا آخر بعد خراش بن أمية الخزاعي، يؤكد لدى قريش موقفه وهدفه من المجيء إلى مكة .. فدعا عمر بن الخطاب رَضِيَ اللَّهُ عَنْهُ ليرسله سفيرًا إلى أشراف قريش.

قال ابن إسحاق: ثم دعا عمر بن الخطاب ليبعثه إلى مكة، فيبلغ عنه أشراف قريش ما جاء له، فقال: يا رسول الله، إني أخاف قريشًا على نفسي، وليس بمكة من بني عدي بن كعب (وهم عشيرته) أحد يمنعني، وقد عرفت قريش عداوتي إياها، وغلظتي عليها، ولكني أدلك على رجل أعز بها مني، عثمان بن عفان. فدعا رسول الله ﷺ عثمان بن عفان، فبعثه إلى أبي سفيان وأشراف قريش، يخبرهم أنه لم يأت لحرب، وأنه إنما جاء زائرًا لهذا البيت، ومعظمًا لحرمته.

قال ابن إسحاق: فخرج عثمان إلى مكة، فلقيه أبان بن سعيد بن العاص حين دخل مكة، أو قبل أن يدخلها، فحمله (على بعير) بين يديه، ثم أجاره حتى بلغ رسالة رسول الله ﷺ، فانطلق عثمان حين أتى أبا سفيان وعظماء قريش، فبلغهم عن رسول الله ﷺ ما

---

(1) **العبلات:** قوم من قريش نسبوا إلى أمهم عبلة بنت عبيد [شرح مسلم للنووي (12/177)].

(2) **مجفف:** عليه ثوب (أي الفرس) ليقيه من السلاح.

(3) **وثناه:** أي: عودة ثانية.

(4) مسلم، كتاب الجهاد والسير (3/1432).

أرسله به، فقالوا لعثمان حين فرغ من رسالة رسول الله ﷺ إليهم: إن شئت أن تطوف بالبيت فطف، فقال: ما كنت لأفعل حتى يطوف به رسول الله ﷺ.

واحتبسته قريش عندها، فبلغ رسول الله ﷺ والمسلمين أن عثمان بن عفان قد قتل[1].

بيعة الرضوان:

لكن قرشيًّا قد احتبست عثمان رَضِيَ اللَّهُ عَنْهُ عندها، كي يتشاوروا فيما بينهم في وضعهم، ويبرموا أمرهم، ثم يردوا عثمان بجواب ما جاء به من الرسالة، وطال الاحتباس، فشاع بين المسلمين أن عثمان رَضِيَ اللَّهُ عَنْهُ قُتل.

قال ابن إسحاق: فحدثني عبد الله بن أبي بكر: أن رسول الله ﷺ قال حين بلغه أن عثمان قد قُتل: لا نبرح حتى نناجز القوم، فدعا رسول الله ﷺ الناس إلى البيعة. فكانت بيعة الرضوان تحت الشجرة، فكان الناس يقولون: بايعهم رسول الله ﷺ على الموت، وكان جابر بن عبد الله رَضِيَ اللَّهُ عَنْهُمَا يقول: إن رسول الله ﷺ لم يبايعنا على الموت، ولكن بايعنا على أن لا نفر.

فبايع رسول الله ﷺ الناس، ولم يتخلف عنه أحد من المسلمين حضرها، إلا الجد بن قيس، أخو بني سلمة، فكان جابر بن عبد الله يقول: والله لكأني أنظر إليه لاصقًا بإبط ناقته، قد ضبأ إليها، يستتر بها من الناس .. ثم أتى رسول الله ﷺ أن الذي ذُكر من أمر عثمان باطل[2].

وقال المقريزي:

وبلغ النبي ﷺ بعد إقامة عثمان بمكة ثلاثًا أنه قُتل، وقُتل معه عشرة رجال مسلمون قد دخلوا مكة بإذن رسول الله ﷺ ليروا أهاليهم .. وأم رسول الله ﷺ منازل بني مازن ابن النجار، وقد نزلت في ناحية من الحديبية جميعًا، فجلس في رحالهم وقد بلغه قتل عثمان رَضِيَ اللَّهُ عَنْهُ، ثم قال: إن الله أمرني بالبيعة، فأقبل الناس يبايعونه حتى تداكو. فما بقي لهم متاع

---

(1) ابن هشام: السيرة (3/438-439).

(2) المصدر السابق.

إلا وطئوه (من شدة إسراعهم)، ثم لبسوا السلاح وهو معهم قليل. وقامت أم عمارة إلى عمود كانت تستظل به، فأخذته بيدها، وشدت سكينًا في وسطها، وكان رسول الله ﷺ يبايع الناس وعمر بن الخطاب رضي الله عنه آخذ بيده، فبايعهم على ألا يفروا، وقيل بايعهم على الموت .. فبايعوه إلا الجد بن قيس، اختبأ تحت بطن بعير[1].

وكان أول من بايع رسول الله ﷺ أبو سنان عبد الله بن وهب الأسدي رضي الله عنه[2]، فخرج الناس بعده يبايعون على بيعته، فأثنى عليهم رسول الله ﷺ، فقال: «أنتم خير أهل الأرض»[3]، وقال: «لا يدخل النار إن شاء الله، من أصحاب الشجرة أحد من الذين بايعوا تحتها»[4] .. وبايعه سلمة بن الأكوع رضي الله عنه ثلاث مرات، في أول الناس وأوسطهم وآخرهم[5].

وأشار رسول الله ﷺ إلى يده اليمنى، وقال: «هذه يد عثمان»، فضرب بها على يده اليسرى، وقال: «هذه لعثمان»[6]، فنال عثمان رضي الله عنه بذلك فضل البيعة.

وعرفت هذه البيعة بـ (بيعة الرضوان)؛ لأن الله تعالى أخبر بأنه رضي عن أصحابها[7] في قوله: ﴿لَّقَدْ رَضِيَ اللَّهُ عَنِ الْمُؤْمِنِينَ إِذْ يُبَايِعُونَكَ تَحْتَ الشَّجَرَةِ فَعَلِمَ مَا فِي قُلُوبِهِمْ فَأَنزَلَ السَّكِينَةَ عَلَيْهِمْ وَأَثَابَهُمْ فَتْحًا قَرِيبًا ﴿١٨﴾﴾ [الفتح]، وكانت هذه البيعة أغرب ما روى التاريخ من ولاء والتزام ونصرة؛ فلقد خرج القوم للعمرة، وألحوا على رسول الله ﷺ أن يحملوا السلاح، فرفض ذلك، وقال: لست أحمل السلاح، إنما خرجت معتمرًا. ومع ذلك فها هو

(1) إمتاع الأسماع، ج1، ص 289-291 (مختصرًا).
(2) ابن هشام (3/438-439).
(3) البخاري، الفتح (16/17، حديث 4154).
(4) مسلم (4/1942، حديث 2496).
(5) زاد المعاد (3/291).
(6) البخاري، الفتح (14/202، حديث 3699).
(7) مهدي رزق الله، ص 486-487.

يدعوهم إلى المواجهة والموت، فيتزاحمون إلى البيعة، حتى لا يبقى متاع إلا وطئوه[1]، ولم يفكر واحد منهم أن يعتب على النبي ﷺ الذي يطلب منه الآن البيعة على الموت، وقد جاء به إلى العمرة، ومنعه أن يهيئ سلاحه، بل سارعوا إلى بيعته ﷺ، ومعهم النسوة الأربع اللاتي شاركن في الخروج إلى العمرة [2].

ولذا كان التبليغ العلوي الكريم من الله العلي العظيم إلى رسوله الأمين، أن هذه الجماعة من المؤمنين في هذه البقعة المعينة من هذا الوجود، قد رضي الله عنهم، بأشخاصهم وأعيانهم .. فكيف كان حالهم؟ وكم كانت سعادتهم في تلك اللحظة القدسية؟ وكيف تلقوا ذلك التبلغ الإلهي؟ .. التبليغ الذي يشير إلى كل أحد، في ذات نفسه، ويقول له: أنت .. أنت بذاتك .. يبلغك الله: لقد رضي عنك، وأنت تبايع تحت الشجرة، وعلم ما في نفسك، فأنزل السكينة عليك .. يا الله، إنه أمر مهول![3].

المبحث الثاني: الصلح

أدرك أشراف مكة أنهم قد انحرفوا عن الصراط السوي، وأنهم لم ينتبهوا للمصير الذي ينتظرهم إذا ركبوا رءوسهم واصطدم المسلمون بهم .. فلم يعد أمامهم إلا الصلح؛ لإنهاء هذا الحرج الذي وضعوا فيه أنفسهم .. فأرسلوا سفيرهم سهيل بن عمرو؛ يطلب صلح رسول الله ﷺ؛ كي يرجع عنهم عامهم هذا.

قال ابن إسحاق: قال الزهري: ثم بعثت قريش سهيل بن عمرو، أخا بني عامر بن لؤي، إلى رسول الله ﷺ، وقالوا له: ائت محمدًا فصالحه، ولا يكن في صلحه إلا أن يرجع عنا عامه هذا، فوالله لا تحدث العرب عنا أنه دخلها علينا عنوة أبدًا.

---

(1) المنهج الحركي، ج3، ص 22-23.
(2) المنهج الحركي، ج3، ص 22-23 بتصرف.
(3) سيد قطب، في ظلال القرآن، بتصرف.

فأتاه سهيل بن عمرو، فلما رآه رسول الله ﷺ مقبلًا، قال: قد أراد القوم الصلح حين بعثوا هذا الرجل .. فلما انتهى سهيل بن عمرو إلى رسول الله ﷺ، تكلم فأطال الكلام، وتراجعا، ثم جرى بينهما الصلح[1].

كتاب الصلح:

وقال سهيل بن عمرو لرسول الله ﷺ: هات اكتب بيننا وبينكم كتابًا. فدعا النّبي ﷺ الكاتب (وكان الكاتب عليًّا رَضِيَ اللَّهُ عَنْهُ فيما رواه مسلم)، فقال النّبي ﷺ: اكتب بسم الله الرحمن الرحيم، فقال سهيل: أما «الرحمن» فوالله ما أدري ما هي، ولكن اكتب باسمك اللّهم، فقال المسلمون: والله لا نكتب إلا بسم الله الرحمن الرحيم، فقال النّبي ﷺ: اكتب باسمك اللّهم. ثم قال: هذا ما قاضى عليه محمد رسول الله. فقال سهيل: والله لو كنا نعلم أنك رسول الله ما صددناك عن البيت، ولا قاتلناك، ولكن اكتب: محمد ابن عبد الله، فقال رسول الله ﷺ: «والله إني لرسول الله وإن كذبتموني! .. اكتب محمد ابن عبد الله». (وفي رواية مسلم: فأمر عليًّا أن يمحوها، فقال عليٌّ: لا والله لا أمحوها، فقال رسول الله ﷺ: أرني مكانها، فأراه مكانها فمحاها)، فقال له النّبي ﷺ: على أن تخلّوا بيننا وبين البيت فنطوف به. فقال سهيل: والله، لا تتحدث العرب أنا أُخذنا ضغطة، ولكن ذلك من العام القادم .. وليس مع المسلمين إلا السيوف في قرابها. فكتب. فقال سهيل: وعلى أن لا يأتيك منا رجل - وإن كان على دينك - إلا رددته إلينا، ومن جاء منكم لم نرده عليكم، فقال المسلمون: سبحان الله، كيف يردّ إلى المشركين وقد جاء مسلمًا؟! والتفتوا إلى رسول الله ﷺ يسألونه: أنكتب هذا يا رسول الله؟! قال: «نعم، إنه من ذهب منا إليهم فأبعده الله، ومن جاءنا منهم فسيجعل الله له فرجًا ومخرجًا»[2].

وكانت مدة الصلح - بناء على هذه الشروط، على ما رواه ابن إسحاق وابن سعد والحاكم - عشر سنين، لا إسلال فيها ولا إغلال (أي لا سرقة ولا خيانة)، وأنه من أحب

(1) البداية والنهاية 192/4.

(2) الحديث رواه البخاري مع زيادات لمسلم (4587).

أن يدخل في عقد قريش وعهدهم دخل فيه .. فتواثبت خزاعة فقالوا: «نحن في عقد محمد وعهده» .. وتواثبت بنو بكر فقالوا: «نحن في عقد قريش وعهدهم».

ولما فرغ من الصلح والكتابة، أشهد على الكتاب رجالًا من المسلمين ورجالًا من المشركين[1].

حزن وذهول:

وحدثت في معسكر المسلمين دهشة عامة للطريقة التي سلكها رسول الله ﷺ مع أوليائه ومع أعدائه، فأما مع أعدائه، فقد ذهب في ملاينتهم إلى حدود بعيدة، وأولى به أن يقسو عليهم.

وأما مع أصحابه - فإنه على غير ما ألفوا منه - لم يستشرهم في هذا الاتفاق المقترح.

مع أنه في شئون الحرب والسلم التي سلفت، كان يرجع إليهم، وربما نزل على رأيهم وهو له كاره، لكنه اليوم ينفرد بالعمل، ويقر ما يكرهون على غير ضرورة ملجئة [2].

إن موقف النبي ﷺ في عمرة الحديبية خاصة لم يُترك للنظر المعتاد، بل كان إلهامًا من الله لرسوله ﷺ، فكان بذلك هو التوجيه الصائب للأحداث والمواقف.

والله الذي عقل الناقة أن تتابع سيرها إلى مكة، لا يأذن لهذه الكتائب أن توالي زحفها وتشرع رماحها، وقد تحرز نصرًا أقل على الإسلام في جدواه من سلم مباركة النتائج.

قال المقريزي: (... وكان المسلمون يكرهون الصلح؛ لأنهم خرجوا ولا يشكون في الفتح؛ لرؤيا رسول الله ﷺ أنه حلق رأسه، وأنه دخل البيت فأخذ مفتاح الكعبة، فلما رأوا الصلح، داخلهم في ذلك أمر عظيم، حتى كادوا يهلكون)[3].

قال الزهري: فلما التأم الأمر ولم يبق إلا الكتاب، وثب عمر بن الخطاب، فأتى أبا بكر، فقال: يا أبا بكر، أليس برسول الله؟ قال: بلى، قال: وألسنا بالمسلمين؟ قال: بلى، قال:

---

(1) فقه السيرة للبوطي، ص 342-343.

(2) الغزالي: فقه السيرة، ص 358-359.

(3) إمتاع الأسماع، ج1، ص 292.

أوليسوا بالمشركين؟ قال: بلى، قال: فعلام نعطي الدنية في ديننا؟ قال أبو بكر: يا عمر الزم غرزه، فإني أشهد أنه رسول الله، قال عمر: وأنا أشهد أنه رسول الله.

ثم أتى رسول الله ﷺ، فقال: يا رسول الله، ألست برسول الله؟ قال: «بلى»، قال: أولسنا بالمسلمين؟ قال: «بلى»، قال: أوليسوا بالمشركين؟ قال: «بلى»، قال: فعلام نعطي الدنية في ديننا؟ قال: «أنا عبد الله ورسوله، لن أخالف أمره، ولن يضيعني!».

قال: فكان عمر يقول: مازلت أتصدق وأصوم وأعتق، من الذي صنعت يومئذ!؛ مخافة كلامي الذي تكلمت به حتى رجوت أن يكون خيرًا[1].

قال المقريزي: وقال عمر ورجال معه: يا رسول الله، ألم تكن حدثتنا أنك تدخل المسجد الحرام وتأخذ مفتاح الكعبة، وتعرِّف مع المعرِّفين؟ وهدينا لم يصل إلى البيت ولا نحن! فقال: «قلت لكم في سفركم هذا؟»، قال عمر: لا، فقال ﷺ: «أما إنكم ستدخلونه، وآخذ مفتاح الكعبة، وأحلق رأسي ورءوسكم ببطن مكة، وأعرِّف مع المعرِّفين»، ثم أقبل على عمر فقال: «أنسيتم يوم أحد إذ تصعدون ولا تلوون على أحد وأنا أدعوكم في أخراكم؟ أنسيتم يوم الأحزاب إذ جاءوكم من فوقكم ومن أسفل منكم وإذ زاغت الأبصار؟ أنسيتم يوم كذا؟ أنسيتم يوم كذا؟»، والمسلمون يقولون: صدق الله ورسوله .. يا نبي الله ما فكرنا فيما فكرت فيه[2].

أبو جندل:

قال المقريزي: (وبينا الناس قد اصطلحوا والكتاب لم يكتب .. أقبل أبو جندل بن سهيل .. وقد أفلت (من المشركين) يرسف في القيد متوشح السيف .. ففرح المسلمون به، وتلقوه حين هبط من الجبل، فسلموا عليه وآووه، فرفع سهيل رأسه، فإذا بابنه أبي جندل، فقام إليه، فضرب وجهه بغصن شوك، وأخذ بتلابيبه، فصاح أبو جندل بأعلى

---

(1) البداية والنهاية 4/192.

(2) إمتاع الأسماع، ج1، ص 293-294.

صوته: يا معشر المسلمين أأرد إلى المشركين يفتنوني في ديني؟! فزاد المسلمين ذلك شرًّا إلى ما بهم، وجعلوا يبكون لكلام أبي جندل. فقال حويطب بن عبد العزى لمكرز بن حفص (وكانا مشركين): ما رأيت قومًا قط أشد حبًّا لمن دخل معهم من أصحاب محمد لمحمد وبعضهم لبعض! أما إني أقول لك لا نأخذ من محمد نَصَفًا بعد هذا اليوم حتى يدخلها عنوة (أي: مكة)! فقال مكرز: وأنا أرى ذلك، وقال سهيل بن عمرو: هذا أول من قاضيتك عليه، رُدَّهُ! فقال رسول الله ﷺ: «إنا لم نقض الكتاب بعدُ»، فقال سهيل: والله لا أكاتبك على شيء حتى تردَّه إليَّ، فرده عليه، وكلمه أن يتركه، فأبى سهيل وضرب وجهه بغصن من شوك، فقال رسول الله ﷺ. «هبه لي، أو أجره من العذاب». فقال: والله لا أفعل، فقال مكرز وحويطب: يا محمد نحن نجيره لك .. فأدخلاه فسطاطًا، فأجاراه، فكفَّ عنه أبوه، ثم رفع رسول الله ﷺ صوته، فقال: «يا أبا جندل، اصبر واحتسب؛ فإن الله جاعل لك ولمن معك فرجًا ومخرجًا .. إنا عقدنا بيننا وبين القوم صلحًا، وأعطيناهم على ذلك عهدًا، وإنا لا نغدر». فوثب عمر إلى أبي جندل يمشي إلى جنبه، وسهيل يدفعه، وعمر يقول: اصبر أبا جندل، فإنما هم المشركون، وإنما دم أحدهم دم كلب! وإنما هو رجل، ومعك السيف. (يحرضه على قتل أبيه)، وجعل يقول: يا أبا جندل: إن الرجل يقتل أباه في الله! والله لو أدركنا آباءنا لقتلناهم في الله فرجل برجل، فقال له أبو جندل: ما لك لا تقتله أنت؟ قال عمر: نهاني رسول الله عن قتله وقتل غيره، قال أبو جندل: ما أنت أحق بطاعة رسول الله مني [1]. لقد كان درس أبي جندل امتحانًا قاسيًا ورهيبًا لهذا الوفاء بالعهد، أثبت فيه الرسول ﷺ والمسلمون نجاحًا عظيمًا في كبت عواطفهم، وحبس مشاعرهم، وقد صبروا لمنظر أخيهم أبي جندل، وتأثروا من ذلك المشهد، عندما كان أبوه يجتذبه من تلابيبه، والدماء تنزف منه، ومما زاد في إيلامهم، حتى أن الكثيرين منهم أخذوا يبكون بمرارة إشفاقًا منهم على أخيهم، وهم ينظرون إلى أبيه المشرك وهو يسحبه بفظاظة الوثني الجلف؛ ليعود به مرةً أخرى إلى سجنه الرهيب في مكة .

(1) المصدر السابق، ج1، ص 292-296.

وقد صبر أبو جندل، واحتسب لمصابه في سبيل دينه وعقيدته، وتحقق فيه قول الله تعالى: ﴿وَمَن يَتَّقِ ٱللَّهَ يَجْعَل لَّهُۥ مَخْرَجًا ۝٢ وَيَرْزُقْهُ مِنْ حَيْثُ لَا يَحْتَسِبُ ۚ وَمَن يَتَوَكَّلْ عَلَى ٱللَّهِ فَهُوَ حَسْبُهُۥٓ ۚ إِنَّ ٱللَّهَ بَٰلِغُ أَمْرِهِۦ ۚ قَدْ جَعَلَ ٱللَّهُ لِكُلِّ شَىْءٍ قَدْرًا ۝٣﴾ [الطلاق].

فلم تمر أقل من سنة حتى تمكن مع إخوته المسلمين المستضعفين بمكة من الإفلات من سجون مكة، وأصبحوا قوة، صار كفار مكة يخشونها، بعد أن انضموا إلى أبي بصير، وسيطروا على طرق قوافل المشركين الآتية من الشام(1)، وسيأتي تفصيل ذلك لاحقًا بإذن الله تعالى.

من شهدوا على الصلح:

قال الزهري: فلما فرغ رسول الله ﷺ من الكتاب، أشهد على الصلح رجالًا من المسلمين، ورجالًا من المشركين: أبو بكر الصديق، عمر بن الخطاب، عبد الرحمن بن عوف، عبد الله بن سهيل بن عمرو، سعد بن أبي وقاص، محمود بن مسلمة، مكرز بن حفص (وهو يومئذ مشرك)، علي بن أبي طالب وكان هو كاتب الصحيفة.

أم سلمة والرأي المبارك:

ضاقت نفوس المسلمين حرجًا، فزاغت نظراتهم، وعراهم وجوم ثقيل، وأذهلهم الغم والحزن عن أمر رسول الله ﷺ، فانتقلوا من النقيض إلى النقيض، فبعد أن بايعوا الرسول ﷺ على الموت عند الشجرة، وتزاحموا وتلاحموا كي يبايعوه على ذلك، نجدهم بعد كتاب الصلح مع سهيل بن عمرو في صورة معاكسة تمامًا .. يحكيها المقريزي، فيقول:

(فلما فرغ رسول الله ﷺ من الكتاب، وانطلق سهيل وأصحابه قال:

«قوموا فانحروا واحلقوا وحلوا». فلم يجبه أحد إلى ذلك. فرددها ثلاث مرات، فلم يفعلوا، فدخل على أم سلمة رَضِيَ اللَّهُ عَنْهَا وهو شديد الغضب، فاضطجع، فقالت: ما لك يا

---

(1) الصلابي: السيرة النبوية، ص 678.

رسول الله؟ مرارًا وهو لا يجيبها. ثم قال: «عجبًا يا أم سلمة! إني قلت للناس انحروا واحلقوا وحلوا مرارًا فلم يجبني أحد من الناس إلى ذلك، وهم يسمعون كلامي، وينظرون في وجهي». فقالت: يا رسول الله انطلق أنت إلى هديك فانحره؛ فإنهم سيقتدون بك .. فاضطبع بثوبه، وخرج، فأخذ الحربة ويمم هديه، وأهوى بالحربة إلى البدنة، رافعًا صوته: بسم الله والله أكبر، ونحر فتواثب المسلمون إلى الهدى، وازدحموا عليه ينحرونه، حتى كاد بعضهم يقع على بعض، وأشرك ﷺ بين أصحابه في الهدي .. فلما فرغ رسول الله ﷺ من نحر البدن، دخل قبة له من أدم حمراء، فيها الحلاق، فحلق رأسه، ثم أخرج رأسه من قبته وهو يقول: «رحم الله المحلقين». قيل يا رسول الله، والمقصرين! قال: «رحم الله المحلقين! » ثلاثًا، ثم قال: «والمقصرين»[1].

فكان رأي أم سلمة سديدًا ومباركًا، وقد نجى به الله المسلمين من عصيان أمر نبيهم ﷺ، وفي ذلك دليل على أنه لا فرق في الإسلام بين أن تأتي المشورة من رجل أو امرأة، طالما أنها مشورة صائبة، وهذا عين التكريم للمرأة التي يزعم أعداء الإسلام أنه غمطها حقها وتجاهل وجودها، وهل هناك اعتراف واحترام لرأي المرأة أكثر من أن تشير على نبي مرسل، ويعمل النبي ﷺ بمشورتها؛ لحل مشكلة اصطدم بها وأغضبته؟![2].

قصص ومواقف من الحديبية:

عمر بعد الحديبية:

قال الزهري: فكان عمر (بعد الحديبية) يقول: مازلت أتصدق وأصوم وأصلي وأعتق؛ من الذي صنعت يومئذ؛ مخافة كلامي الذي تكلمت به، حتى رجوت أن يكون خيرًا[3].

وفي الصحيحين: «... فما هو إلا أن نزلت سورة الفتح على رسول الله ﷺ، فأرسل إلى عمر فأقرأه إياها. فقال: يا رسول الله، أوفتح هو؟! .. قال: نعم، فطابت نفسه»[4].

---

(1) إمتاع الأسماع، ج1، ص 296.

(2) انظر: المعاهدات في الشريعة الإسلامية، ص 273، والسيرة النبوية للصلابي، ص 680.

(3) البداية والنهاية 4/192.

(4) رواه مسلم (4588).

الماء يفور من بين أصابع النبي ﷺ:

روى البخاري عن سالم، عن جابر بن عبد الله رَضِيَ اللَّهُ عَنْهُمَا، قال: عطش الناس يوم الحديبية ورسول الله ﷺ بين يديه ركوة (إناء صغير من جلد يشرب فيه الماء)، فتوضأ منها، ثم أقبل الناس نحوه، فقال رسول الله ﷺ: «ما لكم؟». قالوا: يا رسول الله، ليس عندنا ما نتوضأ به ولا ما نشرب إلا ما في ركوتك، فوضع النبي ﷺ يده في الركوة، فجعل الماء يفور من بين أصابعه كأمثال العيون.

قال: فشربنا وتوضأنا.

فقلنا لجابر: كم كنتم يومئذ؟

قال: لو كنا مائة ألف لكفانا، كنا خمس عشرة مائة.

لا يدخل أصحاب البيعة النار:

روى مسلم، عن جابر بن عبد الله رَضِيَ اللَّهُ عَنْهُمَا، قال: أخبرتني أم ميسر أنها سمعت رسول الله ﷺ يقول عند حفصة: «لا يدخل أحد النار إن شاء الله من أصحاب الشجرة الذين بايعوا تحتها».

فقالت حفصة: بلى يا رسول الله (يدخلونها)، فانتهرها، فقالت حفصة: ﴿ وَإِن مِّنكُمْ إِلَّا وَارِدُهَا ﴾ [مريم:71]، فقال رسول الله ﷺ: قد قال تعالى: ﴿ ثُمَّ نُنَجِّي الَّذِينَ اتَّقَوا وَّنَذَرُ الظَّالِمِينَ فِيهَا جِثِيًّا (72) ﴾ [مريم].

أين الشجرة؟:

روى البخاري، عن سعيد بن المسيب، عن أبيه، قال: لقد رأيت الشجرة ثم أتيتها بعد، فلم أعرفها، وفي رواية لسعيد بن المسيب عن أبيه: أنه كان فيمن بايع تحت الشجرة، فرجعنا إليها العام المقبل فعُميت علينا.

وروى البخاري أيضًا عن طارق بن عبد الرحمن، قال: انطلقت حاجًّا، فمررت بقوم يصلون، فقلت: ما هذا المسجد؟ (أي ما هذا المكان الذي تصلون فيه دون سائر الأماكن).

قالوا: هذه الشجرة؛ حيث بايع النبي ﷺ بيعة الرضوان. فأتيت سعيد بن المسيب فأخبرته، فقال سعيد: حدثني أبي أنه كان فيمن بايع رسول الله ﷺ تحت الشجرة، قال: فلما كان من العام المقبل نسيناها، فلم نقدر عليها (أي: لم نقدر على تمييزها).

ثم قال سعيد: إن أصحاب محمد لم يعلموها وعلمتموها أنتم؟! فأنتم أعلم؟!

عبد الله بن عمر يبايع قبل أبيه:

روى البخاري عن نافع، قال: إن الناس يتحدثون أن ابن عمر أسلم قبل عمر، وليس كذلك، ولكن عمر يوم الحديبية أرسل عبد الله إلى فرس له عند رجل من الأنصار؛ أن يأتي به ليقاتل عليه، ورسول الله ﷺ يبايع عند الشجرة، وعمر لا يدري بذلك، فبايعه عبد الله فانطلق (فأخبر أباه بالبيعة)، فذهب معه حتى بايع رسول الله ﷺ، وهي التي تحدث الناس أن ابن عمر أسلم قبل عمر.

وفي رواية أخرى للبخاري، عن نافع، عن ابن عمر رَضِيَ اللَّهُ عَنْهُمَا: أن الناس كانوا مع النبي ﷺ يوم الحديبية تفرقوا في ظلال الشجرة، فإذا الناس محدقون بالنبي ﷺ، فقال (عمر): يا عبد الله، انظر ما شأن الناس، قد أحدقوا برسول الله ﷺ، فوجدهم يبايعون فبايع، ثم رجع إلى عمر فخرج فبايع.

نظرات العلماء في صلح الحديبية:

قال الزهري رَحِمَهُ اللَّهُ:

فما فُتح في الإسلام فتح قبله كان أعظم منه، إنما كان القتال حيث التقى الناس، فلما كانت الهدنة ووضعت الحرب أوزارها، وأمن الناس، كلم بعضهم بعضًا (مسلمهم ومشركهم)، والتقوا فتفاوضوا في الحديث والمنازعة، فلم يُكَلَّم أحد في الإسلام يعقل شيئًا إلا دخل فيه، ولقد دخل في تينك السنين مثل من كان دخل في الإسلام قبل ذلك أو أكثر[1].

(1) البداية والنهاية 4/ 194.

قال ابن هشام: والدليل على ما قاله الزهري: أن رسول الله ﷺ خرج إلى الحديبية في ألف وأربعمائة رجل - في قول جابر - ثم خرج عام فتح مكة بعد ذلك بسنتين في عشرة آلاف.

قال الشيخ الغزالي رَحِمَهُ ٱللَّهُ:

والنظرة الأولى لشروط الصلح تدل على أنها مجحفة بحقوق المسلمين، مرضية لكبرياء قريش وحميتها الجاهلية، وقد تساءل أصحاب رسول الله ﷺ مستنكرين: لماذا يردون إلى قريش من جاء منهم مسلمًا، ولا ترد قريش من جاءها من المسلمين مرتدًّا؟!

وفسر رسول الله ﷺ هذا الشرط بأن من ذهب إليهم كافرًا، فلا رده الله، وقد وُقي المسلمون خبثه .. أما المستضعفون من المسلمين. فستعيى (تتعب) قريش بأمرهم، كما عجزت عن سابقيهم، وستكون العقبى لهم.

ألم يكن النبي ﷺ ومن معه مستضعفين، ثم نصرهم الله وخذل قريشًا أمامهم؟!

ثم هاجت في نفوس المسلمين مرة أخرى خيبة الأمل، قد حُدِّثوا أنهم داخلون في المسجد الحرام، وهاهم أولاء قد ارتدوا عنه .. لكن الرسول ﷺ يبين أنهم عائدون إلى دخوله كما وعدوا، فهو لم يذكر لهم أنهم سيطوفون به هذا العام.

ثم قال رَحِمَهُ ٱللَّهُ:

ليت نيات الخير والشر تؤتي ثمارها الحلوة والمرة بالسرعة التي ظهرت في عهد الحديبية الآنف .. إنه لم تمر أيام طوال على إبرامه حتى كان تشدد المشركين فيه وبالًا عليهم، فأخذوا يتشكون من النصوص التي فرضوها، أو فرضتها حميتهم الغليظة.

ونظر المسلمون كذلك مبهورين إلى عواقب التسامح البعيد الذي أبداه النبي ﷺ، فوجدوا من بركاته ما ألهج ألسنتهم بالحمد!

لقد انفرط عقد الكفار في الجزيرة منذ تم هذا العقد؛ فإن قريشًا كانت تعتبر رأس الكفر وحاملة لواء التمرد والتحدي للدين الجديد .. وعندما شاع نبأ تعاهدها مع المسلمين

خمدت فتن المنافقين الذي يعملون لها، وتبعثرت القبائل الوثنية في أنحاء الجزيرة، وخصوصًا لأن قريشًا جمدت على سياستها النفعية، واهتمت بشئونها التجارية .. فلم تجتهد في ضم أحلاف لها، في الوقت الذي اتسع فيه نشاط المسلمين الثقافي والسياسي والعسكري، ونجحت دعايتهم في تألف قبائل غفيرة، وإدخالها في الإسلام[1].

قال الدكتور محمد سعيد البوطي رَحِمَهُ ٱللَّهُ:

إن أمر هذا الصلح كان مظهرًا لتدبير إلهي محض، تجلى فيه عمل النبوة وأثرها، كما لم يتجل في أي عمل أو تدبير آخر .. فقد كان نجاحه سرًّا مرتبطًا بمكنون الغيب المطوى في علم الله وحده؛ ولذلك انتزع دهشة المسلمين أكثر مما اعتمد على فكرهم وتدبيرهم، ومن هنا فإنا نعتبر أمر هذا الصلح - بمقدماته ومضمونه ونتائجه - من الأسس المهمة في تقويم العقيدة الإسلامية وتثبيتها، وقد تضمن هذا الصلح حِكمًا إلهية عظيمة، تجلت للعيان فيما بعد، حتى أضحت آية من آيات الله الباهرة. ومن هذه الحكم الإلهية العظيمة التي تضمنها هذا الصلح، أنه كان مقدمة بين يدي فتح مكة؛ فقد كانت هذه الهدنة - كما يقول ابن القيّم - بابًا له ومفتاحًا. وتلك هي عادة الله سبحانه وتعالى، يوطِّئ بين يدي الأمور التي تعلقت إرادته بإنجازها، مقدمات تؤذن بها وتدل عليها.

ولئن لم يكن المسلمون قد تنبهوا لهذا في حينه، فذلك لأن المستقبل غائب عنهم، فأنّى لهم أن يفهموا علاقة الواقع الذي رأوه بالغيب الذي لم يتصوروه بعد؟!

ولكن ما إن مضت فترة من الزمن، حتى أخذ المسلمون يستشِفُّون أهمية هذه الهدنة، وعظيم ما قد انطوت عليه من خير؛ فإن الناس أَمِن بعضهم بعضًا، واختلط المسلمون بالكفار، ونادوهم بالدعوة، وأسمعوهم القرآن، وناظروهم على الإسلام جهرة آمنين، وظهر من كان متخفيًا بالإسلام[2].

(1) فقه السيرة، ص 362-363.

(2) فقه السيرة، ص 346.

قال الشيخ منير الغضبان رَحِمَهُ ٱللَّهُ:

كان النبي ﷺ يوازن بين رغبتين جامحتين: رغبة لقريش أن لا يدخل عليهم مكة هذا العام أبدًا .. ورغبة المسلمين أن يدخلوا مكة ويطوفوا بالبيت الحرام، ورجوعهم هو هزيمة عسكرية لهم.

بين هاتين الرغبتين الجامحتين، كان النبي ﷺ يوازن بآفاق أبعد وآماد أرحب. وهل من هزيمة أعظم من قبول قريش المصالحة، وبعْثها وفد بذلك .. قريش قبل عام واحد تحاصر المسلمين مع من جيشت من العرب، وتأتيهم من فوقهم ومن أسفل منهم، وهي اليوم تبعث وفدًا للمصالحة مع المسلمين على مشارف مكة.

إنه نصر ساحق - ولا شك - والنصر الآخر هو أن تقف مكة على الحياد، وتقف الحرب في جزيرة العرب، وتفتح أبواب الجزيرة أمام المد الإسلامي.

إنه نصر ساحق - ولا شك.

وأن يعود المسلمون في العام القادم ويدخلوا مكة، باعتراف رسمي، وحماية رسمية، دون أن يتعرض لهم أحد بسوء.

إنه نصر ساحق - ولا شك.

وأن تفتح قريش صفحة جديدة مع المسلمين، وتعترف بكيانهم ودولتهم، ويسود الأمن والود بين الفريقين .. ويفتح باب الحوار الجديد مع قادة مكة من موقع القوة.

إنه نصر ساحق - ولا شك.

هذا من جهة، ومن جهة ثانية: ماذا يعني إصرار المسلمين على دخول مكة عنوة.

إن أول معانيه، أن يكون الحقد والثأر هو الذي يطبع نفوس أهل مكة جميعًا .. وهذا يسد إلى فترة غير قليلة باب الدخول في الإسلام أو التفكير به.

وما كان رسول الله ﷺ يغيب عن قلبه أبدًا رغبته في إسلام أهل مكة .. وهذه خسارة فادحة، وأن تقع معركة غير متكافئة، يسقط فيها مئات الشهداء من المسلمين لدخول مكة .. وهم قرة عينه وخيرة جنده، فهذه خسارة فادحة ثانية.

وأمام هذه التوازنات جميعًا - وبتسديد الوحي - كان رسول الله ﷺ ماضٍ في خطته لا يراوده فيها أدنى شك، نلحظ ذلك من خلال إجابته الواضحة الصارمة لعمر بن الخطاب:

«أنا عبد الله ورسوله، ولن أخالف أمره، ولن يضيعني».

والملاحظ أن رسول الله ﷺ لم يفصح عما في نفسه إلا مضطرًّا، وذلك أمام إلحاح المسلمين على دخول مكة، فأعاد لهم شريط الأحداث؛ لينتقلوا منه ومعه إلى النصر الجديد القادم.

«أنسيتم يوم أحد إذ تصعدون ولا تلوون على أحد، وأنا أدعوكم في أخراكم؟ أنسيتم يوم الأحزاب، إذ جاءوكم من فوقكم ومن أسفل منكم، وإذ زاغت الأبصار وبلغت القلوب الحناجر؟، أنسيتم يوم كذا؟، أنسيتم يوم كذا؟». والمسلمون يقولون: صدق الله ورسوله، يا نبي الله ما فكرنا فيما فكرت فيه، ولأنت أعلم بالله وبأمره منا.

وعودة إلى نصوص المعاهدة، نلحظ من خلالها أول اعتراف رسمي من قريش بدولة الإسلام .. إنه اعتراف بالدولة، وليس اعترافًا بالرسالة، ومن أجل هذا ناقشوا كثيرًا بـ (الرحمن الرحيم) وبـ (رسول الله)، ولكنها الخطوة الأولى على الطريق، وإيقاف الحرب عشر سنين تهيئ لرسول الله ﷺ وللمسلمين مجالًا رحبًا للانطلاق بالإسلام إلى العرب .. كل العرب، دون مقاومة أو مواجهة من أحد؛ فقد كانت العرب تنتظر مصير الحرب بين الفريقين .. واقفة على الحياد، ولا يجرؤ أي تجمع عربي على الانضمام لأحد الفريقين؛ خوفًا من غلبة الفريق الآخر، وإن كانت بعض القبائل العربية ظاهرت قريشًا على رسول الله ﷺ، لكن تلك المظاهرة كانت منطلقة من الثقة المطلقة بقوة قريش .. أما بعد الأحزاب، وبعد فشل الهجوم الضخم، انتهت التحالفات العربية في المنطقة ضد الإسلام، وأيس الناس من إمكانية القضاء على الإسلام ورسول الإسلام[1].

---

(1) المنهج الحركي، ج3، ص 34-35.

الدكتور محمد أبو شهبة رَحِمَهُ ٱللَّهُ:

وقد عدد د. محمد أبو شهبة رَحِمَهُ ٱللَّهُ مكاسب المسلمين من صلح الحديبية، فذكر منها:

1- اعترفت[1] قريش بالمسلمين اعتراف الندِّ بالندِّ، وفي ذلك دعاية للإسلام لا يستهان بها، إن لم تكن ذات بال عند قريش، فسوف يسمع بها العرب، وفي ذلك تمهيدٌ لاتساع نفوذ الإسلام وسطوته.

2- إنَّ هذه الهدنة ضمنت للمسلمين الانصراف إلى تبليغ دعوة الإسلام في كافة أنحاء الجزيرة، وما يتاخمها من الدول والإمارات، وهذا ما كان، فقد كاتب النبي الملوك والأمراء، وبذلك انتشر الإسلام أضعاف انتشاره من قبل.

3- اعتراف المشركين بمجيء المسلمين معتمرين من العام القابل، أكسب المسلمين الحق في زيارة البيت من غير مناجزة ولا حرب، وهذا ما كان يريده المسلمون.

4- كان أشد ما أحفظ بعض المسلمين من الصلح، أن من أتى المسلمين من قريش رُدَّ، ومن جاء قريشًا من المسلمين لا يرد، وقد أثبت الواقع أنه لم يرتد مسلم، وبذلك أصبح هذا البند من الشرط غير ذي خطر، كما كان النبي يعلم - بثاقب فكره، واستضاءة قلبه بنور الوحي وفيوضاته - أن الفقرة الأولى من هذا الشرط ستجر على قريش متاعب كثيرة، قد تضطرها إلى التنازل عنه، بل والإلحاح في ذلك، وهذا ما صدَّقته الحوادث بأسرع مما كان يظن.

فقد جاء أبو بصير عروة بن أسيد الثقفي من قريش إلى المسلمين بالمدينة، فأرسلت قريش في طلبه رجلين، فسلَّمه لهما النبي، وقال له: «يا أبا بصير، إنا قد أعطينا هؤلاء القوم عهدًا، ولا يصح في ديننا الغدر، وإنّ الله جاعل لك ولمن معك من المستضعفين فرجًا ومخرجًا، فانطلق إلى قومك»، فقال أبو بصير: يا رسول الله أتردني إلى المشركين يفتنونني في ديني؟! فكرّر عليه النبي قوله. فخرج مع الرجلين، حتى إذا كان بذي الحليفة تحايل

(1) أبو شهبة، ص 340.

على أحد الرجلين، فأخذ منه سيفه، فضربه به حتى برد[1]، وفرّ الآخر يعدو حتى دخل مسجد المدينة، فلما رآه رسول الله قال: «قد رأى هذا ذعرًا» وأخبر رسول الله بما جرى فأمنه، ولم يلبث أبو بصير أن جاء، وقال: يا رسول الله قد – والله – أوفى الله ذمتك، قد رددتني إليهم، ثم أنجاني الله منهم، فقال النبي: «ويل أمه مسعر حرب لو كان له أحد»[2]. ففطن الرجل لمقالة الرسول، وخرج حتى نزل (العيص) على ساحل البحر في طريق قريش إلى الشام، ولم يلبث أن انفلت أبو جندل ولحق به، وهكذا صنع كل من ضُيّق عليه واحتُجز بمكة، حتى تكوّن منهم نحو السبعين رجلًا، فقطعوا على قريش تجارتها، فماذا كان من أمر قريش؟ لقد أرسلت إلى رسول الله تناشده الله والرحم أن يرسل إليهم ويئويهم، وأن من أتاه مهاجرًا من المسلمين فهو آمن ولا يرد.

وهكذا صدّق الله فراسة نبيّه، وعلم المسلمون – الذين امتعضوا من هذا الشرط – أن أمر رسول الله أعظم بركة من أمرهم، وأن رأيه لهم أولى من رأيهم لأنفسهم، وازدادوا إيمانًا بأن الله ناصر نبيه، وناشر دينه، ورضي الله عن الصحابي الجليل سهل بن حنيف، فقد كان يقول: (اتهموا الرأي؛ فلقد رأيتني يوم أبي جندل ولو أستطيع أن أردّ على رسول الله أمره لرددت، والله ورسوله أعلم).

البراء بن عازب رَضِيَ اللَّهُ عَنْهُ:

روى البخاري عن البراء بن عازب رَضِيَ اللَّهُ عَنْهُ قال: تعدون الفتح فتح مكة، وقد كان فتح مكة فتحًا، ونحن نعد الفتح بيعة الرضوان يوم الحديبية.

المبحث الثالث: العودة إلى المدينة

رجع المسلمون إلى المدينة، بعد أن غابوا عنها شهرًا ونصف الشهر، منها بضعة عشر يومًا (يقال عشرين يومًا)، مكثوها بالحديبية[3].

---

(1) برد: مات.

(2) **ويل أمه:** كلمة ذم، والمراد بها هنا المدح. **مسعر حرب:** مثيرها ومحركها، ومسعر بالنصب على التمييز، وهو وصف له بالإقدام.

(3) الواقدي (616/2)، وابن سعد (98/2)، ومهدي رزق الله: السيرة النبوية، ص 493.

معجزات نبوية في طريق العودة:

وفي طريق العودة تكررت معجزة النبي ﷺ في تكثير الطعام والماء، مثلما حدث في طعام جابر يوم الخندق، وتكثير ماء بئر الحديبية، فقد ذكر سلمة بن الأكوع أنهم عندما أصابهم الجوع، وكادوا أن يذبحوا رواحلهم، دعا الرسول ﷺ بأزواد الجيش (ما لدى كل منهم من طعام)، فلم يتجاوز ربضة العنز (مقدار ما يُحلب منها)، وهم أربع عشرة مائة، فأكلوا حتى شبعوا جميعًا، وحشوا جربهم[1].

وقال المقريزي: «... ثم أذن رسول الله ﷺ بالرحيل، فلما ارتحلوا مُطروا ما شاءوا وهم صائفون (أي كان الوقت صيفًا)، فنزل ونزلوا معه، فشربوا من ماء السماء»[2].

وروى البخاري عن زيد بن خالد رَضِيَ اللَّهُ عَنْهُ، قال: خرجنا مع رسول الله ﷺ عام الحديبية، فأصابنا مطر ذات ليلة، فصلى بنا رسول الله ﷺ الصبح، ثم أقبل علينا بوجهه فقال: «أتدرون ماذا قال ربكم؟»

فقلنا: الله ورسوله أعلم.

فقال: «قال الله تعالى: أصبح من عبادي مؤمن وكافر بي، فأما من قال مُطرنا برحمة الله وبرزق الله وبفضل الله، فهو مؤمن بي كافر بالكوكب، وأما من قال مُطرنا بنجم كذا، فهو مؤمن بالكوكب كافر بي.

نزول سورة أحب إلى النبي مما طلعت عليه الشمس:

قال الزهري: ثم انصرف رسول الله ﷺ من وجهه ذلك قافلًا (راجعًا)، حتى إذا كان بين مكة والمدينة، نزلت سورة الفتح: ﴿إِنَّا فَتَحْنَا لَكَ فَتْحًا مُّبِينًا ۝١ لِّيَغْفِرَ لَكَ اللَّهُ مَا تَقَدَّمَ مِن ذَنبِكَ وَمَا تَأَخَّرَ﴾ [الفتح].

---

(1) مسلم (3/1354، حديث 1729)، والبخاري، الفتح (16/ حديث 4152)، والسيرة النبوية لمهدي رزق الله، ص 493.

(2) إمتاع الأسماع، ج1، ص 291.

وقال المقريزي[1]: (... وبينما عمر بن الخطاب رَضِيَ اللَّهُ عَنْهُ يسير مع رسول الله ﷺ فسأله فلم يجبه .. ثم سأله فلم يجبه .. ثم سأله فلم يجبه، فقال (لنفسه): ثكلتك أمك يا عمر! بدرت رسول الله ثلاثًا، كل ذلك لا يجيبك! وحرك بعيره (مبتعدًا) حتى تقدم الناس، وخشي أن يكون نزل فيه قرآن فأخذه ما قرب وما بَعُد لمراجعته بالحديبية، وكراهته القضية. وبينما هو يسير مهمومًا متقدمًا على الناس، إذا منادي رسول الله ﷺ ينادي: يا عمر بن الخطاب، فوقع في نفسه ما الله به أعلم، ثم أقبل حتى انتهى إلى رسول الله ﷺ فسلَّم. فردَّ عَلَيْهِ السَّلَامُ وهو مسرور، ثم قال: أأنزلت عليَّ سورة هي أحب إليَّ مما طلعت عليه الشمس.

فإذا هو يقرأ: ﴿إِنَّا فَتَحْنَا لَكَ فَتْحًا مُّبِينًا ①﴾ [الفتح]، فأنزل الله في ذلك سورة الفتح، فركض الناس وهم يقولون: أُنزل على رسول الله! حتى توافوا عنده وهو يقرؤها .. ويقال: لما نزل بها جبريل قال:

(نهنئك يا رسول الله! فلما هنأه جبريل هنأه المسلمون ...)[2].

لقد كان اتجاه رسول الله ﷺ إلى المصالحة منذ اللحظة التي بركت فيها ناقته، فقال الناس: خلأت[3] القصواء، خلأت القصواء، فقال النبي ﷺ: «ما خلأت القصواء، وما ذاك لها بخلق، ولكن حبسها حابس الفيل» .. ثم قال: «والذي نفسي بيده لا يسألوني خطة يعظمون فيها حرمات الله إلا أعطيتهم إياها».

والظاهر أن الوحي نزل على رسول الله ﷺ بالصلح (قبل إبرامه) مع العدو؛ لأن رسول الله ﷺ لم يستشر - كما تشير النصوص - أحدًا في هذا الأمر، واكتفى بإعلان هذا

---

(1) إمتاع الأسماع، ج1، ص 301-302، مختصرًا.

(2) مقتطفات من إمتاع الأسماع للمقريزي، ج1، ص 291 - 302.

(3) **خلأت:** بركت.

الاتجاه بعد بروك الناقة، وفي ذلك إشارة دقيقة: حبسها حابس الفيل عن مكة. وهذا يعني أن احتمال الرجوع عن مكة وارد.

ومع وصول سهيل بن عمرو، الذي تفاءل به عليه الصلاة والسلام قائلًا: سهل أمرهم. وانتهاء المفاوضات الأولى بتبادل الأسرى بين الفريقين .. لكن وصول هذا الوفد والبيعة على أشدها كان المهماز الأخير في اتجاه قريش إلى الصلح، وكان هدفها الأول: ألا تتحطم سمعتها العسكرية، وتمرغ كرامتها بالتراب؛ نتيجة دخول الرسول ﷺ مكة عنوة، أما بقية البنود فقابلة للأخذ والرد.

وقال أصحاب رسول الله: هنيئًا مريئًا (مغفرة الله لرسوله)، فما لنا[1]؟ (أي: فما نصيبنا من هذه المغفرة)، فأنزل الله: ﴿ لِّيُدْخِلَ ٱلْمُؤْمِنِينَ وَٱلْمُؤْمِنَٰتِ جَنَّٰتٍ تَجْرِى مِن تَحْتِهَا ٱلْأَنْهَٰرُ ﴾ [الفتح:5].

وروى الإمام أحمد بسنده عن مجمع بن حارثة الأنصاري رَضِيَ اللَّهُ عَنْهُ – وكان أحد القراء الذين قرأوا القرآن – قال: شهدنا الحديبية، فلما انصرفنا عنها إذا الناس ينفرون الأباعر (أي تجري منهم ذعرًا)، فقال الناس بعضهم لبعض: ما للناس؟ قالوا: أوحي إلى رسول الله ﷺ، فخرجنا مع الناس نوجف (أي: مسرعين مضطربين)، فإذا رسول الله ﷺ على راحلته عند كراع الغميم، فاجتمع الناس عليه، فقرأ عليهم: ﴿إِنَّا فَتَحْنَا لَكَ فَتْحًا مُّبِينًا ﴿١﴾﴾ [الفتح] .. قال: فقال رجل من أصحاب رسول الله ﷺ: أي رسول الله، أوفتح هو؟ قال ﷺ: «أي والذي نفس محمد بيده إنه لفتح».

فلما علم أصحاب رسول الله ﷺ أن ما تم في الحديبية كان فتحًا مبينًا، انقلبت كآبتهم فرحًا، وعلموا أن التسليم لأمر الله ورسوله فيه الخير – كل الخير – لهم وللإسلام ودعوته.

(1) البخاري، كتاب المغازي، باب غزوة الحديبية (78/5)، رقم (4172).

قال سيد قطب رَحِمَهُ ٱللَّهُ:

هذا هو الجو الذي نزلت فيه السورة .. الجو الذي اطمأنت فيه نفس الرسول ﷺ إلى إلهام ربه، فتجرد من كل إرادة إلا ما يوحيه هذا الإلهام العلوي الصادق، ومضى يستلهم هذا الإيحاء في كل خطوة، وفي كل حركة، لا يستفزه عنه مستفز، سواء من المشركين أو من أصحابه الذين لم تطمئن نفوسهم في أول الأمر لقبول استفزاز المشركين وحميتهم الجاهلية .. ثم أنزل الله السكينة في قلوبهم، ففاءوا إلى الرضى واليقين والقبول الخالص العميق؛ كإخوانهم الذين كانوا على هذه الحال منذ أول الأمر .. شأن الصديق أبي بكر، الذي لم تفقد روحه لحظة واحدة صلتها الداخلية المباشرة بروح رسول الله ﷺ؛ ومن ثم بقيت على اطمئنانها دائمًا، ولم تفارقها الطمأنينة أبدًا.

ومن ثم جاء افتتاح السورة بشرى لرسول الله ﷺ، فرح لها قلبه الكبير فرحًا عميقًا: ﴿إِنَّا فَتَحْنَا لَكَ فَتْحًا مُّبِينًا ﴿١﴾ لِّيَغْفِرَ لَكَ ٱللَّهُ مَا تَقَدَّمَ مِن ذَنۢبِكَ وَمَا تَأَخَّرَ وَيُتِمَّ نِعْمَتَهُۥ عَلَيْكَ وَيَهْدِيَكَ صِرَٰطًا مُّسْتَقِيمًا ﴿٢﴾ وَيَنصُرَكَ ٱللَّهُ نَصْرًا عَزِيزًا ﴿٣﴾﴾ [الفتح].

كما جاء في الافتتاح، الامتنان على المؤمنين بالسكينة، والاعتراف لهم بالإيمان السابق، وتبشيرهم بالمغفرة والثواب، وعون السماء بجنود الله: ﴿هُوَ ٱلَّذِىٓ أَنزَلَ ٱلسَّكِينَةَ فِى قُلُوبِ ٱلْمُؤْمِنِينَ لِيَزْدَادُوٓا۟ إِيمَٰنًا مَّعَ إِيمَٰنِهِمْ ۗ وَلِلَّهِ جُنُودُ ٱلسَّمَٰوَٰتِ وَٱلْأَرْضِ ۚ وَكَانَ ٱللَّهُ عَلِيمًا حَكِيمًا ﴿٤﴾ لِّيُدْخِلَ ٱلْمُؤْمِنِينَ وَٱلْمُؤْمِنَٰتِ جَنَّٰتٍ تَجْرِى مِن تَحْتِهَا ٱلْأَنْهَٰرُ خَٰلِدِينَ فِيهَا وَيُكَفِّرَ عَنْهُمْ سَيِّـَٔاتِهِمْ ۚ وَكَانَ ذَٰلِكَ عِندَ ٱللَّهِ فَوْزًا عَظِيمًا ﴿٥﴾﴾ [الفتح] .. ذلك مع ما أعده لأعدائهم من المنافقين والمنافقات والمشركين والمشركات من غضب وعذاب: ﴿وَيُعَذِّبَ ٱلْمُنَٰفِقِينَ وَٱلْمُنَٰفِقَٰتِ وَٱلْمُشْرِكِينَ وَٱلْمُشْرِكَٰتِ ٱلظَّآنِّينَ بِٱللَّهِ ظَنَّ ٱلسَّوْءِ ۚ عَلَيْهِمْ دَآئِرَةُ ٱلسَّوْءِ ۖ وَغَضِبَ ٱللَّهُ عَلَيْهِمْ وَلَعَنَهُمْ وَأَعَدَّ لَهُمْ جَهَنَّمَ ۖ وَسَآءَتْ مَصِيرًا ﴿٦﴾﴾ [الفتح].

ثم التنويه ببيعة رسول الله ﷺ، واعتبارها بيعة الله، وربط قلوب المؤمنين مباشرة بربهم عن هذا الطريق، بهذا الرباط المتصل مباشرة بالله الحي الباقي الذي لا يموت: ﴿ إِنَّآ

﴿أَرْسَلْنَٰكَ شَٰهِدًا وَمُبَشِّرًا وَنَذِيرًا ﴿٨﴾ لِّتُؤْمِنُوا۟ بِٱللَّهِ وَرَسُولِهِۦ وَتُعَزِّرُوهُ وَتُوَقِّرُوهُ وَتُسَبِّحُوهُ بُكْرَةً وَأَصِيلًا ﴿٩﴾ إِنَّ ٱلَّذِينَ يُبَايِعُونَكَ إِنَّمَا يُبَايِعُونَ ٱللَّهَ يَدُ ٱللَّهِ فَوْقَ أَيْدِيهِمْ ۚ فَمَن نَّكَثَ فَإِنَّمَا يَنكُثُ عَلَىٰ نَفْسِهِۦ ۖ وَمَنْ أَوْفَىٰ بِمَا عَٰهَدَ عَلَيْهُ ٱللَّهَ فَسَيُؤْتِيهِ أَجْرًا عَظِيمًا ﴿١٠﴾﴾ [الفتح].

وبمناسبة البيعة والنكث يلتفت - قبل إكمال الحديث عن المؤمنين ومواقفهم في الحديبية - إلى الأعراب الذين تخلفوا عن الخروج، فيفضح معاذيرهم، ويكشف ما جال في خواطرهم من سوء الظن بالله، ومن توقع السوء للرسول ﷺ، ومن معه .. ويوجه الرسول ﷺ إلى ما ينبغي أن يكون موقفه منهم في المستقبل.

وبعد هذه اللفتة، يعود سياق السورة للحديث عن المؤمنين ومواقفهم وخوالج نفوسهم، حديثًا كله رضى وشفافية ووضاءة وتكريم، وكله بشريات لهذه النفوس الخالصة القوية، البائعة المتجردة .. حديثًا يتجلى فيه الله جل جلاله على هذه المجموعة المختارة من البشر .. يتجلى عليهم برضوانه وبشرياته وامتنانه وتثبيته، ويبلغهم بأشخاصهم وأعيانهم أنه عنهم راض، وأنه كان حاضرهم وهم يبايعون في مكان بعينه: «تحت الشجرة»، وأنه اطلع على ما في نفوسهم، وأنه رضيهم ورضي عنهم، وأنه كتب لهم النصر في المستقبل والغنائم والفتوح، وربط هذا كله بناموس الوجود وسنة الوجود .. وهو أمر يقف له الوجود كله يشهد ويرقب ويتأثر ويسجل في أطوائه ذلك الحادث العظيم الفريد: ﴿لَّقَدْ رَضِىَ ٱللَّهُ عَنِ ٱلْمُؤْمِنِينَ إِذْ يُبَايِعُونَكَ تَحْتَ ٱلشَّجَرَةِ فَعَلِمَ مَا فِى قُلُوبِهِمْ فَأَنزَلَ ٱلسَّكِينَةَ عَلَيْهِمْ وَأَثَٰبَهُمْ فَتْحًا قَرِيبًا ﴿١٨﴾ وَمَغَانِمَ كَثِيرَةً يَأْخُذُونَهَا ۗ وَكَانَ ٱللَّهُ عَزِيزًا حَكِيمًا ﴿١٩﴾ وَعَدَكُمُ ٱللَّهُ مَغَانِمَ كَثِيرَةً تَأْخُذُونَهَا فَعَجَّلَ لَكُمْ هَٰذِهِۦ وَكَفَّ أَيْدِىَ ٱلنَّاسِ عَنكُمْ وَلِتَكُونَ ءَايَةً لِّلْمُؤْمِنِينَ وَيَهْدِيَكُمْ صِرَٰطًا مُّسْتَقِيمًا ﴿٢٠﴾ وَأُخْرَىٰ لَمْ تَقْدِرُوا۟ عَلَيْهَا قَدْ أَحَاطَ ٱللَّهُ بِهَا ۚ وَكَانَ ٱللَّهُ عَلَىٰ كُلِّ شَىْءٍ قَدِيرًا ﴿٢١﴾ وَلَوْ قَٰتَلَكُمُ ٱلَّذِينَ كَفَرُوا۟ لَوَلَّوُا۟ ٱلْأَدْبَٰرَ ثُمَّ لَا يَجِدُونَ وَلِيًّا وَلَا نَصِيرًا ﴿٢٢﴾ سُنَّةَ ٱللَّهِ ٱلَّتِى قَدْ خَلَتْ مِن قَبْلُ ۖ وَلَن تَجِدَ لِسُنَّةِ ٱللَّهِ تَبْدِيلًا ﴿٢٣﴾﴾ [الفتح].

ويتلطف معهم، فيكشف لهم عن حكمته في كفهم هذا العام عنهم، وفضله في ترضيتهم بما كان، وإنزال سكينته في قلوبهم؛ لأمر يراه، وهو أعظم مما يرون .. وهو فتح مكة، ثم هيمنة هذا الدين على الدين كله بأمر الله وتدبيره: ﴿وَهُوَ ٱلَّذِى كَفَّ أَيْدِيَهُمْ عَنكُمْ

وَأَيْدِيَكُمْ عَنْهُم بِبَطْنِ مَكَّةَ مِنْ بَعْدِ أَنْ أَظْفَرَكُمْ عَلَيْهِمْ ۚ وَكَانَ ٱللَّهُ بِمَا تَعْمَلُونَ بَصِيرًا ﴿٢٤﴾ هُمُ ٱلَّذِينَ كَفَرُوا۟ وَصَدُّوكُمْ عَنِ ٱلْمَسْجِدِ ٱلْحَرَامِ وَٱلْهَدْىَ مَعْكُوفًا أَن يَبْلُغَ مَحِلَّهُۥ ۚ وَلَوْلَا رِجَالٌ مُّؤْمِنُونَ وَنِسَآءٌ مُّؤْمِنَٰتٌ لَّمْ تَعْلَمُوهُمْ أَن تَطَـُٔوهُمْ فَتُصِيبَكُم مِّنْهُم مَّعَرَّةٌۢ بِغَيْرِ عِلْمٍ ۖ لِّيُدْخِلَ ٱللَّهُ فِى رَحْمَتِهِۦ مَن يَشَآءُ ۚ لَوْ تَزَيَّلُوا۟ لَعَذَّبْنَا ٱلَّذِينَ كَفَرُوا۟ مِنْهُمْ عَذَابًا أَلِيمًا ﴿٢٥﴾ إِذْ جَعَلَ ٱلَّذِينَ كَفَرُوا۟ فِى قُلُوبِهِمُ ٱلْحَمِيَّةَ حَمِيَّةَ ٱلْجَٰهِلِيَّةِ فَأَنزَلَ ٱللَّهُ سَكِينَتَهُۥ عَلَىٰ رَسُولِهِۦ وَعَلَى ٱلْمُؤْمِنِينَ وَأَلْزَمَهُمْ كَلِمَةَ ٱلتَّقْوَىٰ وَكَانُوٓا۟ أَحَقَّ بِهَا وَأَهْلَهَا ۚ وَكَانَ ٱللَّهُ بِكُلِّ شَىْءٍ عَلِيمًا ﴿٢٦﴾ لَّقَدْ صَدَقَ ٱللَّهُ رَسُولَهُ ٱلرُّءْيَا بِٱلْحَقِّ ۖ لَتَدْخُلُنَّ ٱلْمَسْجِدَ ٱلْحَرَامَ إِن شَآءَ ٱللَّهُ ءَامِنِينَ مُحَلِّقِينَ رُءُوسَكُمْ وَمُقَصِّرِينَ لَا تَخَافُونَ ۖ فَعَلِمَ مَا لَمْ تَعْلَمُوا۟ فَجَعَلَ مِن دُونِ ذَٰلِكَ فَتْحًا قَرِيبًا ﴿٢٧﴾ هُوَ ٱلَّذِىٓ أَرْسَلَ رَسُولَهُۥ بِٱلْهُدَىٰ وَدِينِ ٱلْحَقِّ لِيُظْهِرَهُۥ عَلَى ٱلدِّينِ كُلِّهِۦ ۚ وَكَفَىٰ بِٱللَّهِ شَهِيدًا ﴿٢٨﴾ ﴾ [الفتح].

وتختم السورة بالصفة الكريمة الوضيئة، التي تميز هذه المجموعة المختارة من البشر، وتفردها بسمتها الخاصة، وتنوه بها في الكتب السابقة: التوراة والإنجيل. وبوعد الله الكريم بالمغفرة والأجر العظيم: ﴿ مُّحَمَّدٌ رَّسُولُ ٱللَّهِ ۚ وَٱلَّذِينَ مَعَهُۥٓ أَشِدَّآءُ عَلَى ٱلْكُفَّارِ رُحَمَآءُ بَيْنَهُمْ ۖ تَرَىٰهُمْ رُكَّعًا سُجَّدًا يَبْتَغُونَ فَضْلًا مِّنَ ٱللَّهِ وَرِضْوَٰنًا ۖ سِيمَاهُمْ فِى وُجُوهِهِم مِّنْ أَثَرِ ٱلسُّجُودِ ۚ ذَٰلِكَ مَثَلُهُمْ فِى ٱلتَّوْرَىٰةِ ۚ وَمَثَلُهُمْ فِى ٱلْإِنجِيلِ كَزَرْعٍ أَخْرَجَ شَطْـَٔهُۥ فَـَٔازَرَهُۥ فَٱسْتَغْلَظَ فَٱسْتَوَىٰ عَلَىٰ سُوقِهِۦ يُعْجِبُ ٱلزُّرَّاعَ لِيَغِيظَ بِهِمُ ٱلْكُفَّارَ ۗ وَعَدَ ٱللَّهُ ٱلَّذِينَ ءَامَنُوا۟ وَعَمِلُوا۟ ٱلصَّٰلِحَٰتِ مِنْهُم مَّغْفِرَةً وَأَجْرًا عَظِيمًۢا ﴿٢٩﴾ ﴾ [الفتح] (1).

في المدينة:

عاد رسول الله ﷺ إلى المدينة، فما استقر المقام له حتى جاءت نسوة من قريش مؤمنات مهاجرات من دار الكفر بمكة إلى دار الإسلام بالمدينة، فسأل أولياؤهن رسول الله ﷺ أن يرجعهن بالعهد الذي تم بينه وبين قريش بالحديبية، فأبى النبي ﷺ؛ لأن المعاهدة كانت خاصة بالرجال فحسب، فلم تدخل النساء في العقد رأسًا، فما كتب في المعاهدة بهذا الصدد كان ينص على: (وعلى أنه لا يأتيك منا رجل، وإن كان على دينك إلا رددته علينا)(2).

---

(1) في ظلال القرآن، سورة الفتح، باختصار.

(2) صحيح البخاري (380/1).

قال ابن إسحاق: وهاجرت إلى رسول الله ﷺ أم كلثوم بنت عقبة بن أبي معيط في تلك المدة، فخرج أخواها عمارة والوليد ابنا عقبة، حتى قدما على رسول الله ﷺ؛ يسألانه أن يردها عليهما بالعهد الذي بينه وبين قريش في الحديبية، فلم يفعل .. أبى الله ذلك، أي أن الله ﷻ أبى أن يرجعن إلى الكفار .. فقد أنزل بشأنهن: ﴿ يَٰٓأَيُّهَا ٱلَّذِينَ ءَامَنُوٓاْ إِذَا جَآءَكُمُ ٱلۡمُؤۡمِنَٰتُ مُهَٰجِرَٰتٖ فَٱمۡتَحِنُوهُنَّۖ ٱللَّهُ أَعۡلَمُ بِإِيمَٰنِهِنَّۖ فَإِنۡ عَلِمۡتُمُوهُنَّ مُؤۡمِنَٰتٖ فَلَا تَرۡجِعُوهُنَّ إِلَى ٱلۡكُفَّارِۖ لَا هُنَّ حِلّٞ لَّهُمۡ وَلَا هُمۡ يَحِلُّونَ لَهُنَّۖ وَءَاتُوهُم مَّآ أَنفَقُواْۚ وَلَا جُنَاحَ عَلَيۡكُمۡ أَن تَنكِحُوهُنَّ إِذَآ ءَاتَيۡتُمُوهُنَّ أُجُورَهُنَّۚ وَلَا تُمۡسِكُواْ بِعِصَمِ ٱلۡكَوَافِرِ وَسۡـَٔلُواْ مَآ أَنفَقۡتُمۡ وَلۡيَسۡـَٔلُواْ مَآ أَنفَقُواْۚ ذَٰلِكُمۡ حُكۡمُ ٱللَّهِ يَحۡكُمُ بَيۡنَكُمۡۚ وَٱللَّهُ عَلِيمٌ حَكِيمٞ ١٠ ﴾ [الممتحنة] .. وبهذا صدَّق الله نبيه فيما فعل، وشرع للمسلمين أحكامًا تتعلق بأمر المهاجرات إليهم بعد الهدنة من قريش، وبأمر إمساكهم بالزوجات المشركات، فكانت هذه الأحكام:

1- **امتحان المهاجرات:**

فإن كن خرجن بسبب الإسلام، استبقاهن مع دفع مهورهن لأزواجهن المشركين (وكان قبل الصلح لا يعيد إليهم مهور الزوجات).

وكانت صيغة الامتحان، كما روى ابن جرير عن ابن عباس رضي الله عنهما: أن تقسم بالله ما خرجت من بغض زوج، وبالله ما خرجت رغبة عن أرض إلى أرض، وبالله ما خرجت التماس دنيا، ولا عشقًا لرجل، وبالله ما خرجت إلا حبًّا لله ولرسوله، فإذا قالت ذلك اكتفي به في إيمانها، وحرم إرجاعها إلى المشركين(1).

2- **حرمة النساء المسلمات على أزواجهن المشركين:**

وذلك لقوله تعالى: ﴿ فَلَا تَرۡجِعُوهُنَّ إِلَى ٱلۡكُفَّارِۖ لَا هُنَّ حِلّٞ لَّهُمۡ وَلَا هُمۡ يَحِلُّونَ لَهُنَّ ﴾ [الممتحنة:10]، فقد حرمت الآية النساء المؤمنات على أزواجهن من المشركين، فإن أسلم زوجها فهو أحق بها (دون عقد جديد) ما لم تتزوج غيره، وقد رد رسول الله ﷺ ابنته زينب لأبي العاص بن الربيع لما أسلم بالعقد الأول(2).

---

(1) أبو شهبة: السيرة النبوية، ج2، ص 350.

(2) المصدر السابق.

3- الزواج من هؤلاء المهاجرات:

أحلت الآية الزواج من هؤلاء المؤمنات المهاجرات، بشرط إعطائهن مهورهن، وبعد انقضاء عدتهن: ﴿وَلَا جُنَاحَ عَلَيْكُمْ أَن تَنكِحُوهُنَّ إِذَآ ءَاتَيْتُمُوهُنَّ أُجُورَهُنَّ﴾ [الممتحنة:10].

4- نهْيُ المسلمين عن الاستمرار مع زوجاتهم المشركات:

وأمرت الآية المسلمين أن يطلقوا زوجاتهم الكافرات: ﴿وَلَا تُمْسِكُوا۟ بِعِصَمِ ٱلْكَوَافِرِ﴾ [الممتحنة:10]، والمراد المشركات لا الكتابيات. فطلق المسلمون أزواجهم المشركات.

قال الزهري: كان ممن طلق عمر بن الخطاب، طلق امرأته (قريبة بنت أبي أمية بن المغيرة)، فتزوجها بعده معاوية بن أبي سفيان وهما على شركهما بمكة، و(أم كلثوم بنت جرول أم عبيد الله بن عمر)، فتزوجها أبو جهم بن حذيفة بن غانم وهما على شركهما.

5- رد المهر:

وذلك لقوله تعالى: ﴿وَسْـَٔلُوا۟ مَآ أَنفَقْتُمْ وَلْيَسْـَٔلُوا۟ مَآ أَنفَقُوا۟﴾ [الممتحنة:10].

فإذا لحقت امرأة مسلمة بالمشركين مرتدة، رد من تزوجها منهم المهر لزوجها المسلم، وللمشركين الذين لحقت زوجاتهم المؤمنات بالمسلمين أن يسألوا ما أنفقوا من المهر ممن تزوجها، وقيل: لم ترتد امرأة مسلمة قط، وقيل ارتدت واحدة، ثم عادت فأسلمت فيما بعد.

أبو بصير: (مسعر حرب لو كان معه رجال):

بقي القلق يساور المسلمين على المستضعفين في مكة، ومنظر أبي جندل بن سهيل بن عمرو رَضِيَ اللَّهُ عَنْهُ فتت أكبادهم، غير أن أبا بصير رَضِيَ اللَّهُ عَنْهُ قدم إلى المدينة، فقلب الموازين كلها، وكتب قصة العقيدة المجاهدة للؤم الأعداء في وحشة من الأصحاب.

قال المقريزي: (فلما قدم رسول الله ﷺ المدينة، أتاه أبو بصير عتبة بن أسيد، وكان ممن حبس بمكة .. فلما قدم على رسول الله كتب فيه (أي: في رده) أزهر بن عبد عوف،

والأخنس بن شريق، إلى رسول الله كتابًا مع خنيس بن جابر من بني عامر، وخرج معه مولى له يقال له كوثر، وفي كتابهما ذكر الصلح، وأن يرد عليهم أبا بصير، فقدما بعد أبي بصير بثلاثة أيام، فقرأ أبي بن كعب الكتاب على رسول الله ﷺ، فإذا فيه: قد عرفت ما شارطناك عليه وأشهدنا بيننا وبينك، من ردِّ من قدم عليك من أصحابنا، فابعث إلينا بصاحبنا. فأمر رسول الله ﷺ أبا بصير أن يرجع معهم ودفعه إليهما، فقال يا رسول الله: أتردني إلى المشركين يفتنوني في ديني! فقال: «يا أبا بصير، إنا قد أعطينا هؤلاء القوم ما قد علمت، ولا يصلح لنا في ديننا الغدر، وإن الله جاعل لك ولمن معك من المسلمين فرجًا ومخرجًا». فقال: يا رسول الله، أتردني إلى المشركين! قال: «انطلق يا أبا بصبر؛ فإن الله سيجعل لك مخرجًا»[1] .. فانطلق معهما حتى إذا كان بذي الحليفة جلس إلى جدار، وجلس معه صاحباه، فقال أبو بصير: أصارم سيفك هذا يا أخا بني عامر؟ فقال: نعم، قال: أرينة أنظر إليه؟ قال: انظر إن شئت، قال: فاستله أبو بصير، ثم علا به حتى قتله، وخرج المولى سريعًا حتى أتى رسول الله ﷺ وهو جالس في المسجد، فلما رآه رسول الله ﷺ طالعًا، قال: إن هذا الرجل قد رأى فزعًا، فلما انتهى إلى رسول الله ﷺ قال: «ويحك .. ما لك؟»، قال: قتل صاحبكم صاحبي، فوالله ما برح حتى طلع أبو بصير متوشحًا بالسيف حتى وقف على رسول الله ﷺ، فقال: يا رسول الله، وفت ذمتك، وأدى الله عنك، أسلمتني بيد القوم وقد امتنعت بديني أن أفتن فيه أو يعبث بي. قال رسول الله ﷺ: «ويل أمه محش[2] حرب لو كان معه رجال»[3]. وقدَّم سلب العامري ورحله وسيفه ليخمسه رسول الله ﷺ، فقال: إني إذا خمسته رأوا أني لم أوف لهم بالذي عاهدتهم عليه، ولكن شأنك بسلب صاحبك. ثم قال لكوثر: ترجع به إلى أصحابك (بمكة)؟ فقال: يا محمد، ما لي به قوة ولا يدان، فقال ﷺ لأبي بصير: «اذهب حيث شئت»[4].

---

(1) إمتاع الأسماع، ج1، ص 303.

(2) **محش حرب**: مسعر حرب وموقدها.

(3) ابن هشام، ج3، ص 337-338.

(4) إمتاع الأسماع، ج1، ص 304.

فخرج حتى أتى العيص، فنزل منه ناحية على ساحل البحر على طريق عير قريش إلى الشام، وعندما خرج لم يكن معه إلا كف تمر، فأكله ثلاثة أيام، وأصاب حيتانًا قد ألقاها البحر بالساحل فأكلها .. وبلغ المسلمين الذين حُبسوا بمكة خبره، فتسللوا إليه. وكان عمر بن الخطاب رَضِيَ اللَّهُ عَنْهُ هو الذي كتب إليهم بقول رسول الله ﷺ لأبي بصير: ويل أمه محَشّ حرب لو كان معه رجال، وأخبرهم أنه بالساحل، فاجتمع عند أبي بصير قريب من سبعين مسلمًا، فكانوا بالعيص .. وضيقوا على قريش، فلا يظفرون بأحد منهم إلا قتلوه، ولا تمر عير (قافلة) إلا اقتطعوها، ومر بهم ركب يريدون الشام، معهم ثمانون بعيرًا فأخذوا ذلك، وأصاب كل رجل منهم قيمة ثلاثين دينارًا، وكانوا قد أمروا عليهم أبا بصير .. فكان يصلي بهم، ويقرئهم ويُجمِّعُهم، وهم له سامعون مطيعون .. فغاظ قريشًا صنيع أبي بصير، وشق عليهم، وكتبوا إلى رسول الله ﷺ يسألونه بأرحامهم إلا أدخل أبا بصير إليه (المدينة) ومن معه؛ فلا حاجة لنا بهم. فكتب ﷺ إلى أبي بصير أن يقدم بأصحابه معه، فجاءه الكتاب وهو يموت .. فجعل يقرؤه ومات وهو في يده، فدفنوه رَضِيَ اللَّهُ عَنْهُ، وأقبل أصحابه إلى المدينة وهم سبعون»[1].

* * *

(1) انظر: المنهج الحركي للغضبان، ص 40-41.

الفصل الثالث

مكاتبة النبي ﷺ الملوك والأمراء

بعد أن رجع رسول الله ﷺ من الحديبية، وفي أواخر السنة السادسة من الهجرة، كاتب الملوك والأمراء؛ يدعوهم إلى الإسلام، دين الله الحق الذي أُرسل به لهداية الناس جميعًا .. ففرق رجالًا من أصحابه إلى ملوك العرب والعجم، فانساحوا إلى أطراف الجزيرة، بل وتجاوزوها إلى بلاد فارس والروم وبلاد الحبشة، يحملون كتبًا كريمة من رسول الله ﷺ إلى كسرى وقيصر والنجاشي والمقوقس والمنذر بن ساوى ملك البحرين، والحارث بن شمر الغساني بالشام، وهوذة بن علي الحنفي باليمامة .. فكانت هذه الخطوة نقطة تحول في مسار دعوة الإسلام، وفي تبليغ رسالته للبشر جميعًا: ﴿ وَمَآ أَرۡسَلۡنَٰكَ إِلَّا كَآفَّةٗ لِّلنَّاسِ ﴾ [سبأ:28]، ﴿ قُلۡ يَٰٓأَيُّهَا ٱلنَّاسُ إِنِّي رَسُولُ ٱللَّهِ إِلَيۡكُمۡ جَمِيعًا ﴾ [الأعراف:158].

روى مسلم عن أنس رَضِيَ اللَّهُ عَنْهُ، أن رسول الله ﷺ كتب إلى كسرى وقيصر، وإلى النجاشي (وهو غير الذي صلى عليه النبي ﷺ]، وإلى كل جبار، يدعوهم إلى الله عز وجل. وروى ابن سعد في طبقاته: «إنه ﷺ لما رجع من الحديبية في ذي الحجة سنة ست، أرسل الرسل إلى الملوك؛ يدعوهم إلى الإسلام، وكتب إليهم كتبًا، فقيل: يا رسول الله، إن الملوك لا يقرءون كتابًا إلا مختومًا .. فاتخذ رسول الله ﷺ يومئذ خاتمًا من فضة، نقشه ثلاثة أسطر: محمد (في سطر) .. رسول (في سطر) .. الله (في سطر)، وختم به الكتب»[1].

وهناك اضطراب في الروايات التي تناولت تواريخ إرسال الرسائل .. فقد روى ابن سعد أن رسول الله ﷺ لما رجع من الحديبية في ذي الحجة سنة ست، أرسل إلى الملوك يدعوهم إلى الإسلام، وكتب إليهم كتابًا، فخرج ستة نفر في يوم واحد، وذلك في المحرم سنة سبع [2].

---

(1) طبقات ابن سعد (2/23) مختصرًا.

(2) المصدر السابق.

ويذكر الطبري أن بعث هؤلاء النفر الست كان في ذي الحجة [1]. أما ابن إسحاق فلا يحدد تاريخًا دقيقًا لإرسال الرسل، بل جعل ذلك ما بين الحديبية ووفاته ﷺ [2]، واختار رسول الله ﷺ من أصحابه رسلًا لهم سمات خاصة، تؤهلهم للقيام بالمهمة الموكلة إليهم .. **وكان من أهم هذه السمات:**

1- **الإيمان العميق**، والولاء المطلق لله ولرسوله ﷺ وللمؤمنين؛ كي لا يتردى السفير في مزالق الانحراف إذا ما تعرض للإغراء المادي والمعنوي، فيعف عن المغريات والانحراف في جميع الظروف والأحوال.

2- **الفصاحة:** فقد اختار النبي ﷺ سفراءه من الذين برزوا في مجتمعهم بفصاحتهم، فكان ذلك ظاهرًا بوضوح في أقوالهم، ومناقشتهم وعرضهم للمهمة التي جاءوا من أجلها، وفي طريقة الدعوة إلى الله تعالى وإلى الإسلام، وبالرد على المعترضين ومدافعة المنحرفين، ومحاورة المتشككين.

3- **العلم:** وقد اختار النبي ﷺ سفراءه إلى الملوك والأمراء من صفوة الصحابة في العلم، وكانوا من العلماء العاملين المخلصين؛ لذلك أينعت جهودهم، وأثمرت أطيب الثمرات.

4- **حسن الخلق:** فقد كانت أخلاق السفير النبوي، هي أخلاق الإسلام، التي بينها الله سبحانه وتعالى في القرآن الكريم، وفصلها رسول الله ﷺ في سنته .. ولا مجال لضرب الأمثال على حسن خلق سفراء النبي ﷺ؛ لأن حسن الخلق في الصحابة جميعًا من المزايا التي لا تحتاج إلى دليل.

5- **الصبر:** وكان سمة واضحة المعالم بارزة الأثر في سفراء النبي ﷺ.

6- **الشجاعة:** كان سفراء النبي ﷺ من صفوة الصحابة المتميزين بالشجاعة، فبلغوا دعوة الله إلى من أرسلهم النبي ﷺ إليهم من الملوك والأمراء، دون أن يخشوا في الله

---

(1) التاريخ (2/644).

(2) انظر: السيرة النبوية لمهدي رزق الله، ص 513-514.

لومة لائم، وسلموا الكتب النبوية، وتحدثوا إلى من أُرسلوا إليهم حديث الند بالند، وأدوا مهمتهم دون خوف أو وجل أو تردد.

7- **الحكمة:** وقد تميز سفراء النبي ﷺ بالحكمة في تصرفهم، فالتزموا بما جاء في كتاب ربهم: ﴿ ٱدۡعُ إِلَىٰ سَبِيلِ رَبِّكَ بِٱلۡحِكۡمَةِ وَٱلۡمَوۡعِظَةِ ٱلۡحَسَنَةِۖ وَجَٰدِلۡهُم بِٱلَّتِي هِيَ أَحۡسَنُۚ إِنَّ رَبَّكَ هُوَ أَعۡلَمُ بِمَن ضَلَّ عَن سَبِيلِهِۦۖ وَهُوَ أَعۡلَمُ بِٱلۡمُهۡتَدِينَ ١٢٥ ﴾ [النحل]، فوفقوا رَضِيَ ٱللَّهُ عَنۡهُمۡ في مهمتهم، ونجحوا نجاحًا كبيرًا.

8- **المظهر:** حرص النبي ﷺ على اختيار سفرائه من بين أصحابه الذين تتوافر فيهم صفات شكلية جميلة، إلى جانب سماتهم العقلية والنفسية التي ذكرناها، ولا تناقض بين ذلك وبين كون الإسلام ينظر لمخبر المسلم لا مظهره؛ لأن الأمر هنا يتعلق بالأوضاع الوظيفية ومقتضياتها؛ فالصورة تسبق اللسان، والجثمان يستر الجنان، ومظهر المرء يؤثر في من يراه، فإذا كان مظهره حسنًا كان بداية طيبة لتقبل ما يعرض .. وصدق رسول الله ﷺ: «إذا أبردتم (أي أرسلتم) إليَّ بريدًا، فابعثوه حسن الوجه حسن الاسم» (1) (2).

وهذه قائمة(3) بالرسل الذين أرسلهم رسول الله ﷺ إلى الملوك والأمراء بعد عودته ﷺ من الحديبية في السنة السادسة من الهجرة، وسنكتفي في هذا الباب بذكر من أرسلهم في هذه السنة فقط.

* * *

---

(1) حديث حسن، رواه البزار (4383)، انظر مختصر شرح الجامع الصغير للمناوي (23/1).

(2) من كتاب: سفراء النبي، محمود شيت خطاب، ج2، ص 252-317، مختصرًا.

(3) المصدر السابق، ج1، ص 16-18.

سفراء (رُسُل) النبي ﷺ إلى ملوك وأمراء زمانه[1]

التسلسل	اسم السفير	اسم الملك أو الأمير	التوقيت بالهجري	الملحوظات
1	جعفر بن أبي طالب	النجاشي ملك الحبشة	8 ق . هـ	1- أول سفير في الإسلام 2- أسلم النجاشي الأول
2	عمرو بن أمَية الضمري الكناني	النجاشي ملك الحبشة	أواخر سنة 6هـ	أسلم النجاشي الثاني أيضًا
3	دِحية بن خليفة الكلبي	هرقل قيصر الروم	أواخر سنة 6هـ	صرف السفير النبوي بالحسنى
4	عبد الله بن حذافة السهمي	كسرى أبرويز بن هرمز ملك الفرس	أوائل سنة 7 هـ	مزق الكتاب النبوي
5	حاطب بن أبي بلتعة اللخمي	المقوقس ملك مصر	أواخر سنة ستٍ هـ	أهدى للنبي ﷺ وصرف السفير النبوي بالحُسنى
6	شُجاع بن وهب الأسَدي	الحارث بن شمر الغساني ملك الغساسنة بالشام	أواخر سنة 6 هـ	لم يسلم
7	سليط بن عمرو العامري القرشي	هوذة بن علي الحنفي ملك اليمامة	أواخر سنة 6 هـ	أسلم
8	عمرو بن العاص القرشي السهمي	جَيْفَر وعبد ابنا الجُلُنْدِي في عمان	أواخر سنة 8 هـ	أسلما

(1) محمود شيت خطاب، ص 16 – 18.

التسلسل	اسم السفير	اسم الملك أو الأمير	التوقيت بالهجري	الملحوظات
9	العلاء بن الحضرمي	المنذر بن ساوي العبدي في البحرين	أواخر سنة ست هـ	أسلم
10	الحارث بن عمير الأزدي	ملك بُصرى في الشام	أواسط سنة ثمان هـ	استشهد السفير النبوي قبل وصوله إلى ملك بصرى
11	المهاجر بن أبي أمية القرشي المخزومي	الحارث بن عبد كلال الحميري في اليمن	سنة تسع هـ	أسلم
12	جرير بن عبد الله البَجَلي	ذو الكلاع وذو عمرو في اليمن	سنة 11 هـ	أسلما
13	معاذ بن جبل الأنصاري الخزرجي	الحارث وشُرَحبيل ونُعَيم بن عبد كُلال	أواخر سنة 9 هـ	أسلموا
14	أبو موسى الأشعري	الحارث بن عبد كلال وإخوته	أواخر سنة 9 هـ	أسلموا
15	عمرو بن حزم الأنصاري الخزرجي	الحارث بن عبد كُلال وإخوته وبنو الحارث بن كعب في نجران	أواخر سنة 10 هـ	أسلموا

لقد بلغ عدد السفراء النبويين خمسة عشر سفيرًا، استشهد واحد منهم فقط وهو في طريقه إلى ملك بصرى، فقتل قبل أن يبلغ رسالته النبوية إلى ملك بصرى.

ومزقت رسالة نبوية واحدة، ولم تمزق غيرها من رسائل النبي ﷺ، حتى من الذين لم يسلموا.

ورفض اعتناق الإسلام بشدة وبالتهديد، كسرى أبرويز بن هرمز ملك الفرس، والحارث بن شَمِر الغساني ملك الغساسنة في الشام.

وصرف بالحسنى السفير النبوي كل من هرقل قيصر الروم، والمقوقس ملك مصر، وقدم المقوقس هدية للنبي ﷺ.

ومعنى ذلك، أن أربعة من الملوك بقوا على دينهم ولم يُسلموا، إلا أن ملكين منهم صرفا سفيري النبي ﷺ بالعنف، وملكين منهم صرفا سفيري النبي ﷺ بالحسنى.

وقد أسلم الملوك الآخرون، وأسلم مع قسم منهم كثير من أتباعهم، وأسلم مع قسم منهم قليل من أتباعهم، أي أن المسلمين أصبحوا الأكثرية في قسم من تلك الأقطار، بينما بقي المسلمون أقلية في القسم الباقي من تلك الأقطار.

وإذا أردنا أن نعبِّر بدقة أكثر من تعبيرنا الأول حول انتشار الإسلام بالسفارات النبوية، فلابد أن نذكر أنه انتشر انتشارًا واسعًا في تسعة أقطار، هي: اليمامة، وعمان، والبحرين، واليمن في أربع مناطق شاسعة منها وحضرموت، وكان انتشاره محدودًا في الحبشة؛ لأن إسلام النجاشي لا يؤدي بالضرورة إلى إسلام شعبه جميعًا[1].

وفيما يلي نصوص كتب النبي ﷺ، وبعض ما تمخضت عنه:

1- كتاب النبي ﷺ إلى النجاشي:

وكان أول سفير بعثه رسول الله ﷺ من مجموعة السفراء[2] الذين أرسلهم إلى ملوك العالم المعروفين يومئذٍ - هو عمرو بن أمية الضمري، إلى النجاشي، وكتب إليه كتابين:

(1) المصدر السابق، ج1، ص 18.

(2) محمود شيت خطاب، ص 68.

يدعوه في أحدهما إلى الإسلام، ويتلو عليه القرآن، فأخذ النجاشي كتاب رسول الله ﷺ، فوضعه على عينيه، ونزل من سريره، وجلس على الأرض تواضعًا، ثم أسلم وشهد شهادة الحق، وقال: «لو كنتُ أستطيع أن آتيه لأتيته» .. وكتب إلى رسول الله ﷺ بإجابته وتصديقه وإسلامه. وفي الكتاب الآخر يأمره (رسول الله ﷺ) أن يزوِّجه أم حبيبة بنت أبي سفيان بن حرب، وكانت قد هاجرت إلى الحبشة مع زوجها عبيد الله بن جحش الأسدي، فتنصر هناك ومات، وأمره رسول الله ﷺ أن يبعث إليه بمن قِبَله من أصحابه ويحملهم، ففعل، فزوجه أم حبيبة بنت أبي سفيان، وأصدق عنه أربعمائة دينار، وأمر بجهاز المسلمين وما يُصلحهم.

وقد أورد الإمام البيهقي في كتابه (دلائل النبوة) نص كتاب النبي ﷺ الذي حمله عمرو بن أمية الضمري رَضِيَ اللَّهُ عَنْهُ إلى النجاشي، فكان هذا نصه:

«بسم الله الرحمن الرحيم

من: محمد النبي

إلى: النجاشي أصحمة عظيم الحبشة

سلام على من اتبع الهدى وآمن بالله ورسوله، وأشهد أن لا إله إلا الله وحده لا شريك له .. لم يتخذ صاحبة ولا ولدًا، وأن محمدًا عبده ورسوله.

وأدعوك بدعاية الإسلام، فإني رسول الله، فأسلم تسلم ﴿يَٰٓأَهۡلَ ٱلۡكِتَٰبِ تَعَالَوۡاْ إِلَىٰ كَلِمَةٖ سَوَآءِۭ بَيۡنَنَا وَبَيۡنَكُمۡ أَلَّا نَعۡبُدَ إِلَّا ٱللَّهَ وَلَا نُشۡرِكَ بِهِۦ شَيۡـٔٗا وَلَا يَتَّخِذَ بَعۡضُنَا بَعۡضًا أَرۡبَابٗا مِّن دُونِ ٱللَّهِۚ فَإِن تَوَلَّوۡاْ فَقُولُواْ ٱشۡهَدُواْ بِأَنَّا مُسۡلِمُونَ ٦٤﴾ [آل عمران]، فإن أبيت فعليك إثم النصارى من قومك»(1).

(1) طبقات ابن سعد (1/258-259)، الطبري (2/653).

ولما سلم عمرو بن أمية الضمري رَضِيَ اللَّهُ عَنْهُ كتاب النبي ﷺ إلى النجاشي، قال له:[1] «يا أصحمة! إن عليّ القول وعليك الاستماع .. إنك كأنك في الرِّقَّة علينا، وكأنا في الثقة بك، منك؛ لأنا لم نظن بك خيرًا قط إلا نلناه، ولم نخفك على شيء إلا أمنّاه .. وقد أخذنا الحجة عليك من فيك: الإنجيل بيننا وبينك شاهد لا يرد، وقاضٍ لا يجور، وفي ذلك الموقع الحز، وإصابة المِفصل، وإلا فأنت في (شأن) هذا النبي الأمي كاليهود في عيسى ابن مريم، وقد فرّق النبي ﷺ رسله في الناس، فرجاك لما لم يرجهم، وأمنك على ما خافهم عليه، بخيرٍ سالفٍ، وأجر ينتظر».

وأجابه النجاشي إجابة المؤمن، فقال: «أشهد أنه النبي الأمي الذي ينتظره أهل الكتاب، وأن بشارة موسى براكب الحمار، كبشارة عيسى براكب الجمل، وأن العيان ليس أشفى من الخبر».

وأردف ذلك بأن حَمَّل عمرو بن أميَّة كتابًا إلى رسول الله ﷺ، وهذا نصه:

«بسم الله الرحمن الرحيم

إلى: محمد ﷺ

من: النجاشي أصحمة

سلام عليك يا رسول الله من الله ورحمة الله وبركاته.

أما بعد، فإني زوجتك امرأة من قومك، وعلى دينك، هي السيدة أم حبيبة بنت أبي سفيان، وأهديتك هديةً جامعة: قميصًا وسراويل، وعطافًا، وخفين ساذجين.

والسلام عليك ورحمة الله وبركاته»[2].

توقيع النجاشي

---

(1) البداية والنهاية (3/ 83).

(2) محمود شيت خطاب، سفراء النبي، ص 66.

وأردف النجاشي هذا الكتاب بكتاب آخر إلى النبي ﷺ، هذا نصه:

«بسم الله الرحمن الرحيم

إلى: محمد ﷺ

من: النجاشي أصحمة

سلام عليك يا رسول الله من الله ورحمة الله وبركاته .. لا إله إلا الله الذي هداني للإسلام.

أما بعد، فقد أرسلت إليك يا رسول الله مَنْ كان عندي من أصحابك المهاجرين من مكة إلى بلادي، وها أنا أرسلت إليك ابني أُريحا في ستين رجلًا من أهل الحبشة، وإن شئت أن آتيك بنفسي فعلتُ يا رسول الله، فإني أشهد أن ما تقوله حق.

والسلام عليك يا رسول الله ورحمة الله وبركاته»[1].

توقيع النجاشي

ودعا النجاشي بحُق (وعاء) من عاج، وجعل فيه كتابي رسول الله ﷺ، وقال: (لن تزال الحبشة بخير، ما كان هذان الكتابان بين أظهرها»[2].

وأرسل النجاشي إلى النواتي[3]، فقال: «انظروا ما يحتاج فيه هؤلاء القوم من السفن؟»، فقالوا: يحتاجون إلى سفينتين»، فجهزهم. وكلمه قوم من الحبشة أسلموا، في أن يبعث بهم إلى رسول الله ﷺ يسلموا عليه، وقالوا: «نصاحب أصحاب هؤلاء، فنجذف بهم في البحر ونُغنِّيهم»، فأذن لهم، فشخصوا مع عمرو بن أمية الضمري والمسلمين، وأمر عليهم جعفر بن أبي طالب»[4].

---

(1) الطبري (2/653)، البداية والنهاية (3/84)، زاد المعاد (3/60-61).

(2) طبقات ابن سعد (1/258-259)، وانظر الطبري (2/653).

(3) **النواتي**: مفردها نوتي، وهو الملاح الذي يدير السفينة في البحر.

(4) جوامع السيرة (211)، والدرر (218) عن قدوم جعفر بن أبي طالب من أرض الحبشة إلى المدينة المنورة، وانظر أنساب الأشراف (1/229).

ويبدو أن النبي ﷺ، أرسل عمرو بن أمية الضمري إلى النجاشي سنة ست هجرية، فعاد من سفارته إلى المدينة سنة سبع هجرية (628م)؛ لأن مهاجري الحبشة المسلمين - وعلى رأسهم جعفر بن أبي طالب - عادوا من أرض الحبشة إلى المدينة في أعقاب غزوة خيبر، التي كانت في شهر محرم من سنة سبع هجرية[1].

2- كتاب النبي ﷺ إلى القيصر (هرقل):

وبعث رسول الله ﷺ في مدة هدنة الحديبية دحية بن خليفة الكلبي رَضِيَ اللَّهُ عَنْهُ بكتاب إلى هرقل قيصر الروم، وأمره أن يدفعه إلى حاكم (بصرى) ليوصله إلى هرقل، وكان نص الكتاب (كما ثبت في الصحيحين)[2]:

«بسم الله الرحمن الرحيم، من محمد عبد الله ورسوله إلى هرقل عظيم الروم .. سلام على من اتبع الهدى، أما بعد، فإني أدعوك بدعاية الإسلام، أسلم تسلم، وأسلم يؤتك الله أجرك مرتين. فإن توليت فعليك إثم الأريسيين[3]. ﴿قُلْ يَٰٓأَهْلَ ٱلْكِتَٰبِ تَعَالَوْاْ إِلَىٰ كَلِمَةٍ سَوَآءٍ بَيْنَنَا وَبَيْنَكُمْ أَلَّا نَعْبُدَ إِلَّا ٱللَّهَ وَلَا نُشْرِكَ بِهِۦ شَيْـًٔا وَلَا يَتَّخِذَ بَعْضُنَا بَعْضًا أَرْبَابًا مِّن دُونِ ٱللَّهِ ۚ فَإِن تَوَلَّوْاْ فَقُولُواْ ٱشْهَدُواْ بِأَنَّا مُسْلِمُونَ ﴿٦٤﴾﴾ [آل عمران].

فوافق دحية رَضِيَ اللَّهُ عَنْهُ هرقل وهو مقبل على بيت المقدس، يزوره عقب انتصاره على الفرس.

وقد روى الطبراني أن دحية الكلبي رَضِيَ اللَّهُ عَنْهُ، قال: «بعثني رسول الله ﷺ إلى قيصر صاحب الروم بكتاب، فقلت (للروم): استأذنوا لرسول رسول الله ﷺ، وأتى قيصر، فقيل له، إن على الباب رجلًا يزعم أنه رسول رسول الله، ففزعوا لذلك، وقال: أدخله. فأدخلني عليه، وعنده بطارقته، فأعطيته الكتاب، فإذا فيه: بسم الله الرحمن .. من محمد رسول الله.. إلى: قيصر صاحب الروم. فخر ابن أخ له أحمر أزرق سَبْط[4]، فقال: لا تقرأ

---

(1) انظر: سفراء النبي، لمحمود شيت خطاب، ج 1، ص 60.

(2) البخاري، الفتح (12/ 69 – 72، حديث 2940 – 2941)، ومسلم (3/ 1391- 1393، حديث 113).

(3) **الأريسيون:** الأكارون، أي الفلاحون.

(4) **سبط:** بفتح السين، وسكون الباء وفتحها وكسرها، والسبط من الرجال: الطويل.

الكتاب اليوم، فإنه (أي: رسول الله ﷺ) بدأ بنفسه، وكتب صاحب الروم، ولم يكتب ملك الروم. قال: فقرئ الكتاب حتى فرغ منه، ثم أمرهم فخرجوا من عنده، ثم بعث إليَّ، فدخلت عليه، فسألني فأخبرته، فبعث إلى الأسقف فدخل عليه، وكان (الأسقف) صاحب أمرهم، يصدرون عن رأيه وعن قوله، فلما قرأ الكتاب، قال الأسقف: هو والله الذي بشرنا به موسى وعيسى الذي كنا ننتظر. قال قيصر: فما الذي تأمرني؟ قال الأسقف: أما أنا فإني مصدقه ومتبعه. فقال قيصر: أعرف أنه كذلك، ولكن لا أستطيع أن أفعل، إن فعلت ذهب ملكي وقتلني الروم»[1].

وأراد هرقل استقصاء أخبار النبي محمد ﷺ، فأمر بالبحث عن بعض المتصلين به، وفضل أن يكونوا من قومه وعشيرته، فعلم بوجود جماعة من التجار فيهم أبو سفيان، فدعاهم لمجلسه مع الترجمان، فقال: «أيكم أقرب نسبًا بهذا الرجل الذي يزعم أنه نبي؟»، فقال أبو سفيان: «أنا أقربهم نسبًا»، فأدناه منه وقرب أصحابه منه؛ لئلا يستحيوا أن يواجهوه بالتكذيب إن كذب، فأخذ يسأله عن جميع أحوال النبي ﷺ، كما في الحديث الطويل المشهور (حديث هرقل مع أبي سفيان)، المروي في الصحيحين، واستنتج (هرقل) من أجوبة أبي سفيان أن محمدًا ﷺ نبي، وقال في ختام كلامه مع أبي سفيان: «فإن كان ما تقول حقًّا فسيملك موضع قدمي هاتين. وقد كنت أعلم أنه خارج ولم أكن أظن أنه منكم، فلو أني أعلم أني أخلص لتجشمت لقاءه، ولو كنت عنده لغسلت عن قدمه»[2].

ثم سار قيصر إلى حمص، وأذن (بالدخول عليه) لعظماء الروم في دسكرة له (قرية)، ثم أمر بأبوابها فأغلقت، ثم قال: يا معشر الروم، هل لكم في الفلاح والرشد، وأن يثبت ملككم، فتبايعوا هذا النبي؟ فحاصوا حَيْصة حُمُر الوحش إلى الأبواب، فوجدوها مغلقة، فلما رأى قيصر نفرتهم وغضبهم، قال: ردوهم عليَّ، ثم قال لهم: إنما قلت مقالتي آنفًا أختبر بها شدتكم على دينكم، فسجدوا له ورضوا عنه[3]. وهكذا غلبه حب ملكه على

---

(1) رواه الطبراني في الكبير، انظر البداية والنهاية (4/ 267).

(2) مهدي رزق الله: السيرة النبوية، ص 518، من حديث أبي سفيان عند البخاري (سبق ذكره في باب سابق).

(3) أبو شهبة: السيرة النبوية، ج2، ص 360.

الإسلام، فذهب بإثمه وإثم رعيته، كما قال الرسول ﷺ، ولكنه مع هذا كرَّم دحية، ورده ردًّا جميلًا.

3- كتاب النبي ﷺ إلى كسرى ملك الفرس:

وبعث رسول الله ﷺ عبد الله بن حذافة السهمي رَضِيَ اللهُ عَنْهُ إلى كسرى أبرويز بن هرمز ملك الفرس، الذي حكم بلاده سبعًا وثلاثين سنة، وكان رجلًا أحمق غلب عليه السفه في تصريفه لشئون ملكه، حتى ضاق به قومه، بل ضاق به أقرب الناس إليه، وهو ابنه (شيرويه)، خاصة وأنه كان قد اندحر أمام هرقل وهزمه الروم هزيمة منكرة، فر على إثرها هاربًا من المدائن.

روى البخاري بسنده عن ابن عباس رَضِيَ اللهُ عَنْهُمَا، قال: (بعث رسول الله ﷺ بكتابه إلى كسرى مع عبد الله بن حذافة السهمي، فأمره أن يدفعه إلى عظيم البحرين، فدفعه عظيم البحرين إلى كسرى، فلما قرأه مزقه، قال الراوي (الزهري): فحسبت أن ابن المسيب قال: (فدعا عليهم رسول الله ﷺ أن يمزقوا كل ممزق)[1].

وكان نص كتاب رسول الله ﷺ إلى كسرى أبرويز[2]:

بسم الله الرحمن الرحيم

من: محمد رسول الله

إلى: كسرى عظيم فارس.

سلام على من اتبع الهدى، وآمن بالله ورسوله، وشهد أن لا إله إلا الله، وأني رسول الله إلى الناس كافة؛ لينذر من كان حيًّا، فإن أبيت فعليك إثم المجوس»[3].

(1) الفتح (16/256- 257، حديث 4424).

(2) محمود شيت خطاب: سفراء النبي، ص 99 - 102.

(3) الطبري (2/654).

وفي رواية أخرى، أن نص الكتاب النبوي كان:

بسم الله الرحمن الرحيم

من: محمد رسول الله

إلى كسرى عظيم فارس

سلام على من اتبع الهدى، وآمن بالله ورسوله، وشهد أن لا إله إلا الله وحده لا شريك له، وأن محمدًا عبده ورسوله.

وأدعوك بدعاء الله، فإني أنا رسول الله إلى الناس كافة؛ لأنذر من كان حيًّا ويحق القول على الكافرين.

فأسلم تسلم، فإن أبيت، فإن إثم المجوس عليك[1].



قال عبد الله بن حذافة: «فدفعت إليه كتاب رسول الله ﷺ، فقرئ عليه، ثم أخذه فمزقه. فلما بلغ ذلك رسول الله ﷺ قال: اللّٰهم مزق ملكه».

وكتب كسرى إلى باذان[2] عامله على اليمن: «أن ابعث من عندك رجلين جلدين إلى هذا الرجل الذي بالحجاز، فليأتياني بخبره»، فبعث باذان قُهرمانه[3] ورجلًا آخر معه، وكتب معهما كتابًا، فقدما المدينة المنورة. ودفعا كتاب باذان إلى النبي ﷺ، فتبسم رسول الله ﷺ ودعاهما إلى الإسلام، وفرائصهما ترعد، وقال: «ارجعا عني يومكما هذا حتى تأتياني الغد، فأخبركما بما أريد».

---

(1) الطبري (2/654- 655) وابن الأثير (2/213)، وصبح الأعشى (6/296)، والقسطلاني (1/291)، وانظر تفاصيل المصادر والمراجع في: مجموعة الوثائق السياسية (76- 77).

(2) باذان الفارسي: من الأبناء، وهم من أولاد الفرس الذين سيرهم كسرى أنو شروان مع سيف ذي يزن إلى اليمن لقتال الحبشة، فأقاموا باليمن، وكان باذان بصنعاء، فأسلم في حياة النبي ﷺ، وكان له أثر كبير في قتل المرتد الأسود العنسي، انظر: أسد الغابة (1/163) والإصابة (1/176).

(3) **القُهرمان:** أمين الملك ووكيله الخاص بتدبير دخله وخرجه (فارسي مغرب).

وجاءاه من الغد، فقال لهما: «أبلغا صاحبكما (باذان) أن ربي قد قتل ربّه كسرى في هذه الليلة لسبع ساعات منها، وهي ليلة الثلاثاء لعشر ليال مضين من جمادى الأولى سنة سبع، وأن الله تبارك وتعالى سلط عليه ابنه شيرويه فقتله»، فرجعا إلى باذان بذلك، فأسلم هو والأبناء الذين باليمن(1).

وفي رواية أخرى، أن كسرى مزق كتاب النبي ﷺ واستخف به، وكتب إلى باذان: «أن عبدًا من عبيدي قد كتب يدعوني إلى دينه، فابعث إليه رجلين جلدين يأتياني به مربوطًا، وإن أبا عليهما فليضربا عنقه»، فلما بلغ النبي ﷺ تمزيقه كتابه قال: «مزق كتابي، مزق الله ملكه»(2).

وقد انتشر الإسلام انتشارًا عظيمًا في اليمن بعد أن وقع الإيمان في قلب (باذان) ورجاله، فدخل في الإسلام من كان باليمن من مجوس ونصارى.

4- كتاب النبي ﷺ إلى المقوقس عظيم مصر:

أوفد رسول الله ﷺ حاطب بن أبي بلتعة رَضِيَ اللَّهُ عَنْهُ بكتاب إلى المقوقس عظيم مصر وأميرها من قِبلَ الروم، سنة ست من الهجرة، وكان يسمى (ملك الإسكندرية)؛ لأنه جعل الإسكندرية عاصمة لمصر في أيامه، وكان أيضًا بطريقًا للإسكندرية، فجمع السلطتين الدنيوية والدينية في مصر.

ومضى حاطب رَضِيَ اللَّهُ عَنْهُ بكتاب رسول الله ﷺ، فلما انتهى إلى الإسكندرية وجد المقوقس في مجلس شرف على البحر، فركب البحر، فلما حاذى مجلسه، أشار بكتاب رسول الله ﷺ بين إصبيعية. ورآه المقوقس، فأمر بالكتاب فقُبض، وأمر بحاطب فأُوصل إليه(3).

وقرأ المقوقس كتاب رسول الله ﷺ، فقال: «ما منعه إن كان نبيًّا أن يدعو عليّ، فيُسلط عليّ؟!»، فقال له حاطب: «ما منع عيسى ابن مريم أن يدعو على من أبى عليه أن يفعل ويُفْعل؟».

---

(1) طبقات ابن سعد (260/1).

(2) البدء والتاريخ (170/3).

(3) محمود شيت خطاب، ص 116 - 121.

ووجم المقوقس ساعة، ثم استعادها (أي: مقالته الأولى لحاطب)، فأعادها عليه حاطب (رد عليه برده الأول)، فسكت[1].

وسأل المقوقس حاطبًا: «أخبرني عن صاحبك، أليس هو نبيًّا؟!»، قال: «بلى!»، قال: «فما له لم يدع على قومه حيث أخرجوه من بلدته؟!»، فأجابه حاطب: «فعيسى ابن مريم رسول الله حين أراد قومه صلبه، لم يدع عليهم حتى رفعه الله»، قال: «أحسنت، أنت حكيم جئت من عند حكيم»[2].

وقال حاطب: «إنه قد كان قبلك رجل زعم أنه الرب الأعلى (يقصد فرعون موسى)، فانتقم الله به، ثم انتقم منه، فاعتبر بغيرك، ولا يُعتبر بك. وإن لك دينًا لن تدعه إلا لما هو خير منه، وهو الإسلام الكافي به الله فَقْد ما سواه، وما بشارة موسى بعيسى إلا كبشارة عيسى بمحمد، وما دعاؤنا إياك إلى القرآن إلا كدعائك أهل التوراة إلى الإنجيل، ولسنا ننهاك عن دين المسيح، ولكننا نأمرك به»[3]، فأجاب المقوقس: «إن القِبْط[4] لا يتابعني على اتباعك، وأنا أَضُنُّ بملكي (أن يضيع مني)»[5].

وقبل المقوقس كتاب رسول الله ﷺ[6]، وأخذه وجعله في حُقّ[7] من عاج، وختم عليه[8]، وأكرم حاطبًا وأحسن نُزله[9]، ولا عجب، فقد كان بطريقًا من رجال الدين.

---

(1) فتوح مصر والمغرب (65).

(2) تهذيب الأسماء واللغات (1/151).

(3) فتوح مصر والمغرب (65).

(4) القبط: انظر دائرة معارف القرن العشرين (القرن الرابع عشر)، محمد فريد وجدي (7/612- 623)، **والقبط:** جيل من النصارى بمصر، الواحد قبطي، وهي قبطية، جمعها: أقباط، والقبطي أيضًا لسان الأقباط يكتبونه من الشمال إلى اليمين كالإفرنج.

(5) البدء والتاريخ (4/229).

(6) فتوح مصر والمغرب (66)، وابن الأثير (2/210).

(7) **الحق:** وعاء صغير ذو غطاء، يتخذ من عاج أو زجاج أو غيرهما من المواد.

(8) فتوح مصر والمغرب (66).

(9) فتوح مصر والمغرب (67).

وكان نص كتاب النبي ﷺ إلى المقوقس:

«بسم الله الرحمن الرحيم

من: محمد رسول الله

إلى: المقوقس عظيم القبط

سلام على من اتبع الهدى

أما بعد: فإني أدعوك بدعاية الإسلام، فأسلم تسلم، وأسلم يؤتك الله أجرك مرتين، فإن توليت فعليك إثم القبط:

﴿يَٰٓأَهۡلَ ٱلۡكِتَٰبِ تَعَالَوۡاْ إِلَىٰ كَلِمَةٖ سَوَآءِۭ بَيۡنَنَا وَبَيۡنَكُمۡ أَلَّا نَعۡبُدَ إِلَّا ٱللَّهَ وَلَا نُشۡرِكَ بِهِۦ شَيۡـٔٗا وَلَا يَتَّخِذَ بَعۡضُنَا بَعۡضًا أَرۡبَابٗا مِّن دُونِ ٱللَّهِۚ فَإِن تَوَلَّوۡاْ فَقُولُواْ ٱشۡهَدُواْ بِأَنَّا مُسۡلِمُونَ ٦٤﴾ [آل عمران][1].

وحين عزم حاطب على العودة إلى المدينة المنورة من سفارته إلى مصر، بعث المقوقس معه هدايا إلى النبي ﷺ: ثلاث جوار؛ إحداهن مارية القبطية، أم إبراهيم بن رسول الله ﷺ، وشيرين[2] أخت مارية، وهبها لحسان بن ثابت شاعر النبي ﷺ، فأسلمت مارية وأختها، التي ولدت عبد الرحمن بن حسان بن ثابت، وكان حاطب قد دعاهما إلى الإسلام قبل أن يقدم بهما المدينة. ووهب النبي ﷺ الجارية الثالثة إلى جهم بن قيس العبدري[3]،

---

(1) انظر نص الكتاب النبوي في: فتوح مصر والمغرب (65- 66)، والقسطلاني (1/292- 293)، وصبح الأعشى للقلقشندي (6/378)، وانظر تفاصيل المصادر والمراجع في مجموعة الوثائق السياسية (72).

(2) وردت كذلك في ابن الأثير (2/225)، وهو الصحيح، معناه: الحلو، والحلوة، ولا يزال هذا الاسم شائعًا في مصر والبلاد العربية الأخرى. وقد وردت في المصادر الأخرى: سيرين.

(3) هكذا ورد في: فتوح مصر والمغرب (67)، أما في الاستيعاب (1/315)، فورد اسمه جهم بن حذيفة العدوي.

فهي أم زكريا بن جهم، الذي كان خليفة عمرو بن العاص على مصر، وأهدى بغلة للنبي ﷺ هي دُلْدُل، وحمارًا هو يَعْفُور، وبعث مع الجواري بخصّي فكان معهم[1]، وألف مثقال ذهبًا، وعشرين ثوبًا، ووهب لحاطب مالًا عظيمًا[2]، وكانت عودة حاطب من سفارته في مصر إلى المدينة سنة سبع هجرية (628)[3].

5- كتاب النبي ﷺ إلى الحارث بن أبي شمر ملك الغساسنة:

وبعث رسول الله ﷺ شجاع بن وهب الأسَدِي رَضِيَ اللَّهُ عَنْهُ إلى الحارث بن أبي شمر الغساني أمير دمشق من قِبل هرقل. وكان رجلًا متكبرًا، يفتقر إلى المرونة والحكمة، وكان محبًّا للحرب، كارهًا للسلام، متعصبًا متعطشًا للدماء.

وكان نص كتاب رسول الله ﷺ إلى الحارث[4]:

(بسم الله الرحمن الرحيم، من محمد رسول الله إلى الحارث بن أبي شمر، سلام على من اتبع الهدى، وآمن به وصدق، وإني أدعوك أن تؤمن بالله وحده لا شريك له، يبقى لك ملكك)[5].

وقد روى شجاع بن وهب رَضِيَ اللَّهُ عَنْهُ قصة وفادته على الحارث بن أبي شمر، فقال:

(فأتيت إليه وهو في غُوطة دمشق، وهو مشغول بتهيئة الإنزال والألطاف (استقبالًا) لقيصر (هرقل) وهو في طريقه من حمص إلى إيلياء (بيت المقدس)، فأقمت على بابه يومين

---

(1) في الطبري (2/465) وابن الأثير (2/211)، أن المقوقس أهدى إلى النبي ﷺ أربع جوارٍ، وفي الطبري (3/31)، وابن الأثير (2/225) أنهما جاريتان، وكذلك في فتوح مصر والمغرب (67). أما في الاستيعاب (1/315) فذكر أن عدد الجواري ثلاث، وكذلك في تهذيب الأسماء واللغات (1/151)، فأخذنا بذلك؛ لأن أصحاب الحديث أدق من المؤرخين في تسجيل الأخبار ونقلها.

(2) البدء والتاريخ (4/229).

(3) الطبري (3/20)، وابن كثير (2/225)، وتاريخ خليفة بن خياط (1/49).

(4) محمود شيت خطاب، ص 135، 136.

(5) تاريخ الطبري (2/652).

أو ثلاثة، فقلت لحاجبه: إني رسول رسول ﷺ إليه، فقال: لا تصل إليه حتى يخرج يوم كذا وكذا، وجعل حاجبه - وكان روميًّا يقال له: مري - يسألني عن رسول الله ﷺ، فكنت أحدثه عن صفة رسول الله ﷺ وما يدعو إليه، فيرق حتى يغلبه البكاء، ويقول: إني قد قرأت الإنجيل، فأجد صفة هذا النبي ﷺ بعينه، فأنا أؤمن به وأصدقه، وأخاف من الحارث أن يقتلني، وكان يكرمني ويحسن ضيافتي.

وخرج الحارث يومًا، فجلس ووضع التاج على رأسه، فأذن لي عليه، فدفعت إليه كتاب رسول الله ﷺ، فقرأه، ثم رمى به، وقال: من ينتزع مني ملكي؟ أنا سائر إليه، ولو كان باليمن جئته، عليَّ بالناس! فلم تزل تعرض حتى قام، وأمر بالخيول تُنْعَل، ثم قال: أخبر صاحبك ما ترى (من التهيؤ لقتاله)!

وكتب إلى قيصر يخبره خبري وما عزم عليه، فكتب إليه قيصر: ألا تسير إليه والْه عنه (تشاغل عنه) ووافني بإيلياء، فلما جاءه جواب كتابه، دعاني فقال: متى تريد أن تخرج إلى صاحبك؟ فقلت: غدًا! فأمر لي بمائة مثقال ذهب، ووصلَّني إلى مُرّي (حاجبه)، فأمر لي بنفقة وكسوة، وقال: أقرئ رسول الله ﷺ مني السلام، فقدمت على النبي ﷺ، فأخبرته، فقال: «باد ملكه!» وأقرأته السلام من مري، وأخبرته بما قال، فقال رسول الله ﷺ: «صدق»، ومات الحارث بن شَمِر عام الفتح[1].

6- كتاب النبي ﷺ إلى هوذة بن علي الحنفي ملك اليمامة:

كتب رسول الله ﷺ عند مقدمه من الحديبية كتابًا إلى هوذة بن علي الحنفي صاحب اليمامة، وقد حمل إليه الكتاب سَليط بن عمرو العامري رَضِيَ اللَّهُ عَنْهُ، أحد النفر الستة الذين تحركوا في وقت واحد إلى الملوك والأمراء، في شهر ذي الحجة من السنة السادسة الهجرية.

وكان هوذة شجاعًا لبيبًا، شاعرًا خطيبًا، تربطه وقومه صلات قوية بكسرى، فكانوا يحرسون

---

(1) طبقات ابن سعد (1/261) وانظر ابن الأثير (2/213)، والبداية والنهاية (4/268)، وانظر طبقات ابن سعد (3/94- 95)، وتاريخ خليفة بن خياط (1/63).

قوافله في طريقها من المدائن إلى اليمن في منطقة اليمامة، من نجد حيث يقطنون، وذلك رغم كونه نصرانيًّا.

وكان نص كتاب النبي ﷺ إلى هوذة:

«بسم الله الرحمن الرحيم

من: محمد رسول الله

إلى: هوذة بن علي

سلام على من اتبع الهدى، واعلم أن ديني سيظهر إلى منتهى الخُفّ والحافِر، فأسلم تسلم، وأجعل لك ما تحت يديك»[1].



وقدم سَليط بكتاب النبي ﷺ إلى هوذة، فأنزله وحباه (أكرمه)، وقرأ كتاب النبي ﷺ، ورد عليه ردًّا دون رد، وكتب إلى النبي ﷺ:

«ما أحسن ما تدعو إليه وأجمله، وأنا شاعر قومي وخطيبهم، والعرب تهاب مكاني فاجعل لي بعض الأمر أتبعك (أي: اجعل لي الملك من بعدك)».

وأجاز سليط بجائزة، وكساه أثوابًا من نسج هَجَر[2]، فقدم بذلك كله على النبي ﷺ، وأخبره بما قال هوذة، فقرأ للنبي ﷺ كتاب هوذة، فقال: «لو سألني سيابَة[3] من الأرض

---

(1) صبح الأعشى للقلقشندي (6/379)، والقسطلاني (1/295)، وانظر مجموعة الوثائق السياسية (91)؛ للاطلاع على تفاصيل المصادر والمراجع الأخرى.

(2) **هجر:** قاعدة البحرين، وربما قيل: الهجر، بالألف واللام، وقيل ناحية البحرين كلها هجر، وهو الصواب، انظر التفاصيل في معجم البلدان (8/145- 147).

(3) **سيابَة:** واحدة السياب، وهو البُسْر الأخضر من ثمر النخل، لا فائدة فيه. وسيابة من الأرض: ما لا فائدة فيه من الأرض.

ما فعلت! بادَ وبادَ ما في يديه!»، فلما انصرف من عام الفتح، جاء جبريل فأخبره أنه قد مات[1].

وسكت النبي ﷺ عن هوذة ومن معه، تاركًا أمرهم للأيام، بعد أن بلغهم الرسالة وأدى الأمانة. ويبدو أن هوذة أخذ المبادرة بعد أن لم يحقق له النبي ﷺ أطماعه غير المشروعة، فبعث وفدًا فيهم مُجَّاعة بن مرارة والرَّجال بن عنفوة إلى النبي ﷺ يقول له:

«إن جعل له الأمر من بعده أسلم وسار إليه ونصره، وإلا قصد حربه».

فقال رسول الله ﷺ:

«لا ولا كرامة، اللّهم اكفنيه».

فمات بعد قليل، أي في السنة الثامنة الهجرية كما ذكرنا.

7- كتاب النبي ﷺ إلى المنذر بن ساوي صاحب البحرين:

وأرسل ﷺ أبا العلاء الحضرمي بكتابه إلى المنذر بن ساوي العبدي، أمير البحرين، بعد انصرافه من الحديبية، ونقلت المصادر التاريخية أن المنذر قد استجاب لكتاب النبي ﷺ، فأسلم، وأسلم معه جميع العرب بالبحرين، فأما أهل البلاد من اليهود والمجوس فإنهم صالحوا العلاء والمنذر على الجزية من كل حامل دينار، ونقل أبو عبيد القاسم بن سلام نص كتاب النبي ﷺ إلى المنذر بن ساوي، برواية عروة بن الزبير، وجاء فيه:

«سلام أنت، فإني أحمد إليك الله الذي لا إله إلا هو، أما بعد فإن من صلى صلاتنا، واستقبل قبلتنا، وأكل ذبيحتنا فذلك المسلم الذي له ذمة الله، وذمة الرسول، فمن أحب ذلك من المجوس فإنه آمن، ومن أبى فإن الجزية عليه»[2].

---

(1) طبقات ابن سعد (262/1).

(2) السيرة للصلابي، ص 716- 717.

8- كتاب النبي ﷺ إلى أمير بُصرى:

وأرسل عليه الصلاة والسلام الحارث بن عمير الأزدي بكتاب إلى أمير بُصرى، فلما بلغ مؤتة - قرية بمشارف الشام - تعرض له شرحبيل بن عمرو الغساني، قال له: أين تريد؟ قال: الشام. قال: لعلك من رسل محمد؟ قال: نعم، فأمر به فضُربت عنقه رَضِيَ اللَّهُ عَنْهُ، ولم يُقتل لرسول الله رسول غيره[1].

* * *

(1) أبو شهبة: السيرة النبوية، ج 2، ص 364.

الفصل الرابع

تشريعات وعبادات في السنة السادسة من الهجرة

في السنة السادسة من الهجرة توالت التشريعات، وتوالت التكليفات والعبادات، فكان منها ما هو ركن اكتملت به أركان الإسلام كالحج، ومنها ما كان سُنَّة مندوبة، يتعامل من خلالها المجتمع المسلم مع الطبيعة من حوله، باللجوء إلى الله طمعًا وخوفًا .. طمعًا في فضله ورحمته، وخوفًا من نقمته وسخطه، كما في حالة الجدب وانقطاع المطر. ومنها ما حمل تشريعات قطعية، تنظم العلاقات الأسرية؛ كتحريم المسلمات على المشركين[1]، وتحريم الظهار وكفارته.

- **صلاة الاستسقاء:**

في رمضان من هذه السنة[2]، شرع الله ﷻ للمسلمين - إذا تأخر نزول المطر وأجدبت الأرض - أن يصوموا ويتصدقوا، ويخرجوا من المظالم ويتوبوا؛ لأن البلاء لا ينزل إلا بذنب ولا يرفع إلا بتوبة. وأن يَعِد الإمام الناس يومًا، يخرجون فيه لصلاة الاستسقاء، فيخرجون متواضعين، متبذلين بلا تزين، متخشعين متذللين متضرعين، فيصلي بهم ركعتين مثل صلاة العيد، في أي وقت غير وقت الكراهة، ثم يخطب بهم، فإذا انتهى من الخطبة يُندب أن يحول الخطيب رداءه (ولو كان شالًا أو عباءة)، والمصلون جميعًا يحولون أرديتهم، وذلك بأن يجعلوا ما على أيمانهم على شمائلهم، ويستقبلوا القبلة، ويدعوا الله رافعين الأيدي، مبالغين في ذلك.

عن عائشة رَضِيَ اللَّهُ عَنْهَا قالت: شكا الناس إلى رسول الله ﷺ قُحُوط المطر، فأمر بمنبر، فوضع له في المصلى، ووعد الناس يومًا يخرجون فيه، قالت عائشة: فخرج رسول الله ﷺ حين بدا حاجِبُ الشمس، فقعد على المنبر، فكبر وحمد الله ﷻ، ثم قال: «إنكم

---

(1) تقدم ذكره.

(2) عيون الأثر (313/2).

شكوتم جدب دياركم، واستئخار المطر عن إبَّانِ زمانه عنكم، وقد أمركم الله عز وجل أن تدعوه، ووعدكم أن يستجيب لكم»، ثم قال: «الحمد لله رب العالمين، الرحمن الرحيم، ملك يوم الدين، لا إله إلا الله يفعل ما يريد، اللَّهم أنت الله لا إله إلا أنت، الغني ونحن الفقراء، أَنْزِل علينا الغيث، واجعل ما أنزلت لنا قوة وبلاغًا إلى حين»، ثم رفع يديه، فلم يزل في الرفع حتى بدا بياض إبطيه، ثم حول إلى الناس ظهره، وقلب - أو حول - رداءه وهو رافع يديه، ثم أقبل على الناس ونزل، فصلى ركعتين، فأنشأ الله سحابة فرعدت وبرقت، ثم أمطرت بإذن الله، فلم يأت مسجده حتى سالت السيول، فلما رأى سرعتهم إلى الكِنِّ، ضحك حتى بدت نواجذه، فقال: «أشهد أن الله على كل شيء قدير، وأني عبد الله ورسوله»[1].

- **الحج:**

قال ابن كثير[2]: فيها (أي في سنة ست) نزل فرض الحج، كما قرره الشافعي رَحِمَهُ ٱللَّهُ، زمن الحديبية في قوله تعالى: ﴿وَأَتِمُّواْ ٱلْحَجَّ وَٱلْعُمْرَةَ لِلَّهِۚ﴾ [البقرة: 196].

والوقت الذي فرض فيه الحج على الأمة المسلمة مختلف فيه، فإن كان الشافعي رَحِمَهُ ٱللَّهُ قرر أنه كان في السنة السادسة من الهجرة، وذهب بهذا إلى أن الحج على التراخي لا على الفور؛ لأنه ﷺ لم يحج إلا في سنة عشر، فقد خالفه الثلاثة: مالك وأبو حنيفة وأحمد (رحمهم الله جميعًا)، فعندهم أن الحج يجب على كل من استطاعه على الفور؛ لأنه فرض سنة تسع من الهجرة، فحج رسول الله ﷺ في العام التالي مباشرة.

وعلى كل حال، فقد تقررت هذه الفريضة بنص قرآني قاطع، جعل الله سبحانه حق حج البيت على عباده، من استطاع فيهم إليه سبيلًا، سواء كان ذلك على التراخي (كما قال الشافعي)، فيحج العبد في العام الذي يحدده لنفسه، حتى وإن كان مستطيعًا قبل ذلك، أو كان على الفور، فيجب عليه فور استطاعته (كما قال غيره من الأئمة).

---

(1) أخرجه أبو داود (1173)، وحسنه الألباني (صحيح سنن أبي داود).

(2) البداية والنهاية (4/202).

قال سيد قطب رَحِمَهُ ٱللَّهُ:

وليس لدينا تاريخ محدد لنزول آيات الحج، إلا رواية تذكر أن قوله تعالى: ﴿فَإِنْ أُحْصِرْتُمْ فَمَا ٱسْتَيْسَرَ مِنَ ٱلْهَدْيِ﴾ [البقرة: 196]، نزلت في الحديبية سنة ست من الهجرة، كذلك ليس لدينا تاريخ مقطوع به لفريضة الحج في الإسلام، سواء على الرأي الذي يقول بأنه فرض بآية: ﴿وَأَتِمُّوا۟ ٱلْحَجَّ وَٱلْعُمْرَةَ لِلَّهِ﴾ [البقرة: 196] .. أو بآية: ﴿وَلِلَّهِ عَلَى ٱلنَّاسِ حِجُّ ٱلْبَيْتِ مَنِ ٱسْتَطَاعَ إِلَيْهِ سَبِيلًا﴾ [آل عمران: 97]. فهذه كتلك، ليس لدينا رواية قطعية الثبوت عن وقت نزولها.

ولكن ما يجب أن نتوقف عنده أن الحج قبل ذلك كله مؤتمر جامع للمسلمين قاطبة .. مؤتمر يجدون فيه أصلهم العريق الضارب في أعماق الزمن منذ أبيهم إبراهيم الخليل: ﴿مِّلَّةَ أَبِيكُمْ إِبْرَٰهِيمَ ۚ هُوَ سَمَّىٰكُمُ ٱلْمُسْلِمِينَ مِن قَبْلُ﴾ [الحج: 78] .. ويجدون محورهم الذي يشدهم جميعًا إليه .. هذه القبلة التي يتوجهون إليها جميعًا، ويلتقون عليها جميعًا .. ويجدون رايتهم التي يفيئون إليها .. راية العقيدة الواحدة التي تتوارى في ظلها فوارق الأجناس والألوان والأوطان .. ويجدون قوتهم التي قد ينسونها حينًا؛ قوة التجمع والتوحد والترابط الذي يضم الملايين .. الملايين التي لا يقف لها أحد لو فاءت إلى رايتها الواحدة التي لا تتعدد .. راية العقيدة والتوحيد.

وهو مؤتمر للتعارف والتشاور، وتنسيق الخطط، وتوحيد القوى، وتبادل المنافع والسلع والمعارف والتجارب، وتنظيم ذلك العالم الإسلامي الواحد الكامل المتكامل مرة كل عام .. في ظل دين الله، وبالقرب من بيت الله، وفي ظلال الطاعات البعيدة والقريبة، والذكريات الغائبة والحاضرة في أنسب مكان، وأنسب أجواء، وأنسب زمان(1).

- إبطال الظهار:

كان الرجل في الجاهلية يغضب لأمر من امرأته، فيقول: أنت عليَّ كظهر أمي، فتحرم عليه، ولا تطلق منه، وتبقى هكذا، لا هي حل له فتقوم بينهما الصلات الزوجية، ولا هي

(1) في ظلال القرآن، بتصرف.

مطلقة منه فتجد لها طريقًا آخر، وكان هذا طرفًا من العنت الذي تلاقيه المرأة في الجاهلية.

فلما كانت السنة السادسة من سني الهجرة، حرم الله ﷻ الظهار وأبطله، وأنزل على رسوله ﷺ: ﴿ٱلَّذِينَ يُظَٰهِرُونَ مِنكُم مِّن نِّسَآئِهِم مَّا هُنَّ أُمَّهَٰتِهِمْۖ إِنْ أُمَّهَٰتُهُمْ إِلَّا ٱلَّٰٓـِٔي وَلَدْنَهُمْۚ وَإِنَّهُمْ لَيَقُولُونَ مُنكَرًا مِّنَ ٱلْقَوْلِ وَزُورًاۚ وَإِنَّ ٱللَّهَ لَعَفُوٌّ غَفُورٌ ﴿٢﴾﴾ [المجادلة]، فكان ذلك استمرارًا لرعاية الله للجماعة المسلمة الناشئة، التي تُربى وتُقَوم، وتُعد للنهوض بدورها العالمي، بل بدورها الكوني، الذي قدره الله لها في هذا الكون ومقدراته، فيصنعها على عينه، ويربيها بمنهجه .. يربي أخلاقها وعاداتها وتقاليدها تربية تليق بالجماعة التي تنضوي إلى كنف الله، وتنتسب إليه، وترفع لواءه؛ لتعرف به في الأرض جميعًا(1).

روى الإمام أحمد بسنده عن خولة بنت ثعلبة رَضِيَ ٱللَّهُ عَنْهَا، قالت: فيَّ والله وفي أوس بن الصامت، أنزل الله صدر سورة المجادلة.

قالت: كنت عنده، وكان شيخًا كبيرًا قد ساء خلقه، قالت: فدخل عليَّ يومًا فراجعته بشيء فغضب، فقال: أنت عليَّ كظهر أمي. قالت: ثم خرج فجلس في نادي قومه ساعة، ثم دخل علي، فإذا هو يريدني عن نفسي، قالت: قلت: كلا والذي نفس خولة بيده، لا تخلص إليَّ وقد قلت ما قلت، حتى يحكم الله ورسوله فينا بحكمه، قالت: فواثبني، فامتنعت منه، فغلبته بما تغلب به المرأة الشيخ الضعيف، فألقيته عني. قالت: ثم خرجت إلى بعض جاراتي، فاستعرت منها ثيابًا، ثم خرجت حتى جئت رسول الله ﷺ، فجلست بين يديه، فذكرت له ما لقيت منه، وجعلت أشكو إليه ما ألقى من سوء خلقه. قالت: فجعل رسول الله ﷺ يقول: «يا خولة، ابن عمك شيخ كبير، فاتقي الله فيه» قالت: فوالله ما برحت حتى نزل فيَّ قرآن، فتغشى رسول الله ﷺ ما كان يتغشاه، ثم سُري عنه، فقال لي: «يا خولة، قد أنزل الله فيك وفي صاحبك قرآنًا» .. ثم قرأ عليَّ: ﴿قَدْ سَمِعَ ٱللَّهُ قَوْلَ ٱلَّتِي تُجَٰدِلُكَ فِي زَوْجِهَا وَتَشْتَكِيٓ إِلَى ٱللَّهِ وَٱللَّهُ يَسْمَعُ تَحَاوُرَكُمَآۚ إِنَّ ٱللَّهَ سَمِيعٌۢ بَصِيرٌ ﴿١﴾﴾ [المجادلة]..

(1) في ظلال القرآن، صدر سورة المجادلة، باختصار وتصرف.

إلى قوله تعالى: ﴿وَلِلْكَٰفِرِينَ عَذَابٌ أَلِيمٌ ٤﴾ [المجادلة] .. قالت: فقال لي رسول الله ﷺ: «مريه فليعتق رقبة». قالت: فقلت يا رسول الله ﷺ ما عنده ما يعتق. قال: «فليصم شهرين متتابعين». قالت: فقلت: والله إنه لشيخ ما له من صيام. قال: «فليطعم ستين مسكينًا وسقًا من تمر». قالت: فقلت: والله يا رسول الله ما ذاك عنده. قالت: فقال رسول الله ﷺ: «فإنا سنعينه بعرق من تمر». قالت: فقلت يا رسول الله وأنا سأعينه بعرق آخر. قال: «قد أصبت وأحسنت، فاذهبي فتصدقي به عنه، ثم استوصي بابن عمك خيرًا». قالت: ففعلت.

* * *



الباب العشرون

العام السابع من الهجرة

عام خيبر .. وعمرة القضاء

الفصل الأول: **فتح خيبر.**

الفصل الثاني: **غزوة ذات الرقاع.**

الفصل الثالث: **سرايا لتأديب الأعراب.**

الفصل الرابع: **زواج النبي ﷺ من أم حبيبة بنت أبي سفيان.**

الفصل الخامس: **عمرة القضاء.**

الفصل السادس: **إسلام قادة قريش.**

الباب العشرون

العام السابع من الهجرة

عام خيبر .. وعمرة القضاء

جاءت السنة السابعة من الهجرة مكملة للسنة التي سبقتها، وعلى نفس مسارها:

- فالجيش الإسلامي واصل سيادته على جزيرة العرب، فقهر اليهود في آخر معاقلهم، وساحت سراياه في صحراء الجزيرة، مؤدبة اللصوص والأعراب.

- وتمكن المسلمون من قضاء العمرة التي منعتهم قريش من أدائها في السنة السادسة.

- وأسلم نفر من قادة قريش، وأهم رجالها.

الفصل الأول

فتح خيبر

بقي أمام المسلمين فريقان من الخصوم الألداء:

* أعراب البادية الذين يسيحون في عرض الصحراء كالإبل السائمة، لا يفعلون شيئًا، فإذا لاح مغنم طاروا وراءه، وقلما يلفتهم حديث الإيمان بالله واليوم الآخر.

* وبنو إسرائيل، الذين ظنوا النبوة حكرًا عليهم، فهم لا يفتأون يُجَبِّهون ضد المسلمين، ويكذبون محمدًا ويجحدون رسالته، وقد أغرتهم القشور التي ورثوها من التوراة، فجادلوا المسلمين جدالًا طويلًا، وحرصوا - أشد الحرص - ألا يعترفوا بهم، ثم ذهبوا إلى حد التأليب عليهم كما رأيت، فكانت سيرتهم مزيجًا غريبًا من الحقد والكبر والدس، ومع ما ألهب جلودهم من سياط كاوية في صراعهم مع المسلمين، فإنهم لم يتحولوا عن خطتهم المريبة قيد أنملة.

وجمعت عداوة الإسلام بين الأعراب البُله، وأهل الكتاب اليهود، وعندما فشلت الأحزاب في اقتحام يثرب، وجنت قريظة عقبى غدرها، لم يهدأ يهود خيبر، أو يحاولوا إصلاح شئونهم مع المسلمين .. كلا، إنهم شرعوا يصلون حبالهم بغطفان والأعراب الضاربين حولهم؛ ليؤلفوا ضد الإسلام جبهة أخرى، تكيد من جديد لمحمد وصحبه، لكن المسلمين كانوا أيقاظًا لهذه المؤامرات، فما إن عادوا من عمرة الحديبية آخر السنة السادسة، حتى توجهوا في المحرم من السنة السابعة إلى خيبر؛ لكسر شوكة بني إسرائيل بها(1).

المبحث الأول: الخروج إلى خيبر

قال ابن إسحاق: ثم أقام رسول الله ﷺ بالمدينة حين رجع من الحديبية، ذا الحجة وبعض المحرم، ثم خرج في بقية المحرم إلى خيبر.

وقال موسى بن عقبة: لما رجع رسول الله ﷺ من الحديبية مكث عشرين يومًا أو قريبًا من ذلك، ثم خرج إلى خيبر(2).

خرج ﷺ في جيش تعداده ألف وأربعمائة مقاتل من أصحابه رَضِيَ اللَّهُ عَنْهُمْ، وهو عدد أصحاب الشجرة نفسه الذين شهدوا بيعة الرضوان، وكان معهم مائتا فرس (وقيل ثلاثمائة)، واستعمل على المدينة سباع بن عرفطة الغفاري رَضِيَ اللَّهُ عَنْهُ، ودفع الراية إلى علي بن أبي طالب رَضِيَ اللَّهُ عَنْهُ، وكانت بيضاء .. وصحب معه من أزواجه السيدة أم سلمة رَضِيَ اللَّهُ عَنْهَا.

- **ذرونا نتبعكم:**

ولم يقبل رسول الله ﷺ في جيشه إلا كل صادق في الإيمان راغب في الجهاد، فقد كانت خيبر وعدًا من الله لرسوله ﷺ ولمن شهد معه الحديبية بالمغانم الكثيرة:

﴿وَعَدَكُمُ ٱللَّهُ مَغَانِمَ كَثِيرَةً تَأْخُذُونَهَا فَعَجَّلَ لَكُمْ هَٰذِهِۦ﴾ [الفتح: 20]، فلما أراد بعض الأعراب الذين امتنعوا حين دعاهم للخروج معه إلى العمرة عام الحديبية أن يخرجوا معه

(1) الغزالي: فقه السيرة، ص 268.

(2) البداية والنهاية 4/206.

إلى خيبر، أمره الله ﷻ أن يردهم: ﴿ سَيَقُولُ ٱلْمُخَلَّفُونَ إِذَا ٱنطَلَقْتُمْ إِلَىٰ مَغَانِمَ لِتَأْخُذُوهَا ذَرُونَا نَتَّبِعْكُمْ يُرِيدُونَ أَن يُبَدِّلُوا۟ كَلَٰمَ ٱللَّهِ قُل لَّن تَتَّبِعُونَا كَذَٰلِكُمْ قَالَ ٱللَّهُ مِن قَبْلُ فَسَيَقُولُونَ بَلْ تَحْسُدُونَنَا بَلْ كَانُوا۟ لَا يَفْقَهُونَ إِلَّا قَلِيلًا ﴿١٥﴾ ﴾ [الفتح].

فلما تجهز ﷺ للخروج، أمر أن لا يغزو معه إلا من شهد الحديبية، وقال للأعراب الذين تخلفوا عن الحديبية: (لا تخرجوا معي إلا رغبة في الجهاد، أما الغنيمة فلا أعطيكم منها شيئًا)، أراد بذلك أن يبين لهم أن لا حاجة له بالذين لا هَمّ لهم إلا الغنيمة .. قال ابن كثير في تفسيره: ﴿ سَيَقُولُ ٱلْمُخَلَّفُونَ إِذَا ٱنطَلَقْتُمْ إِلَىٰ مَغَانِمَ لِتَأْخُذُوهَا ذَرُونَا نَتَّبِعْكُمْ ﴾ [الفتح:15]، يقول تعالى مخبرًا عن الأعراب الذين تخلفوا عن رسول الله ﷺ في عمرة الحديبية، إذ ذهب النبي ﷺ وأصحابه رضي الله عنهم إلى خيبر يفتحوها، أنهم يسألوه أن يخرجوا معهم إلى المغنم، وقد تخلفوا عن وقت محاربة الأعداء ومجالدتهم، فأمر الله تعالى رسوله ﷺ أن لا يأذن لهم في ذلك؛ معاقبة لهم من جنس ذنبهم، فإن الله تعالى قد وعد أهل الحديبية بمغانم خيبر وحدهم، لا يشاركهم فيها غيرهم من الأعراب المتخلفين(1).

- اتصال المنافقين باليهود:

أرسل رأس المنافقين عبد الله بن أبي إلى يهود خيبر: أن محمدًا قصد قصدكم، وتوجه إليكم، فخذوا حذركم، ولا تخافوا منه؛ فإن عددكم وعدتكم كثيرة، وقوم محمد شرذمة قليلون، عزل لا سلاح معهم إلا قليل. فلما علم ذلك أهل خيبر، أرسلوا كنانة بن أبي الحقيق وهوذة بن قيس إلى غطفان، يستمدونهم؛ لأنهم كانوا حلفاء يهود خيبر، ومظاهرين لهم على المسلمين، وشرطوا لهم نصف ثمار خيبر إن هم غلبوا المسلمين(2).

- إفشال حلف اليهود وغطفان:

لم يفت رسول الله ﷺ قبل مسيره أن يكسر هذه الجبهة المؤلفة من اليهود وغطفان، فأرسل إلى غطفان أبان بن سعيد بن العاص رضي الله عنه على رأس سرية من المسلمين؛ ليوهمهم

---

(1) انظر: السيرة النبوية لأبي شهبة، ج2، ص 414.

(2) المباركفوري: الرحيق المختوم، ص 365- 366.

أن الهجوم متجه إليهم، وليس إلى خيبر.

قال ابن إسحاق: بلغني أن غطفان لما سمعت بمنزل رسول الله ﷺ من خيبر جمعت له، ثم خرجوا ليظاهروا يهود عليه، حتى إذا ساروا مرحلة سمعوا خلفهم في أموالهم وأهليهم حسًّا، فظنوا أن القوم (المسلمين) خالفوهم إليهم، فرجعوا على أعقابهم، وأقاموا في أهليهم وأموالهم، وخلوا بين رسول الله وبين خيبر.

المبحث الثاني: الزحف إلى خيبر .. والفكر العسكري الفذ

سار الجيش إلى خيبر بروح إيمانية عالية، على الرغم من علمهم بمنعة حصون خيبر، وشدة بأس رجالها وعتادهم، وكانوا يكبرون ويهللون بأصوات مرتفعة إذا أشرفوا على وادٍ، فطلب منهم النبي ﷺ أن يرفقوا بأنفسهم، قائلًا: «أربعوا على أنفسكم، إنكم لا تدعون أصم ولا غائبًا، إنكم تدعون سميعًا قريبًا»[1].

وكان عامر بن الأكوع رَضِيَ اللَّهُ عَنْهُ عم سلمة بن الأكوع رَضِيَ اللَّهُ عَنْهُ رجلًا شاعرًا، فأخذ يرتجز بالمسلمين؛ رفعًا لروحهم، ودفعًا لهمتهم، وقد روى البخاري ومسلم عن سلمة بن الأكوع رَضِيَ اللَّهُ عَنْهُ، قال: خرجنا مع النبي ﷺ إلى خيبر، فسرنا ليلًا، فقال رجل من القوم لعامر: يا عامر ألا تسمعنا من هنيهاتك؟ - وكان عامر رجلًا شاعرًا - فنزل يحدو بالقوم، يقول:

اللّهم لولا أنت ما اهتدينا ... ولا تصدقنا ولا صلينا

فاغفر فِداء لك ما اتقينا ... وثبت الأقدام إن لاقينا

وألقين سكينة علينا ... إنا إذا صيح بنا أبينا

وبالصياح عولوا علينا

(1) البخاري، الفتح (50/16، حديث 4205)، وانظر: السيرة النبوية لمهدي رزق الله.

فقال رسول الله ﷺ: «من هذا السائق»؟ قالوا: عامر بن الأكوع، قال: «يرحمه الله». قال رجل من القوم: وجبت يا نبي الله، لولا أمتعتنا به[1].

وكانوا يعرفون أن رسول الله ﷺ لا يستغفر لإنسان يخصه إلا استشهد[2]، قال ابن إسحاق: (... فقتل يوم خيبر شهيدًا، وكان قتله فيما بلغني أن سيفه رجع عليه وهو يقاتل، فَكَلَمه (فجرحه) كلمًا شديدًا، فمات منه، فكأن المسلمون قد شكوا فيه (أي: شكوا في أن موته كان شهادة)، وقالوا: إنما قتله سلاحه، حتى سأل ابن أخيه سلمة بن عمرو بن الأكوع رسول الله ﷺ عن ذلك، وأخبره بقول الناس، فقال رسول الله ﷺ: «إنه لشهيد، وصلى عليه، فصلى عليه المسلمون»)[3].

- التمركز بوادي الرجيع؛ لمنع الإمدادات عن اليهود:

كان مسير رسول الله ﷺ إلى خيبر بصحبة دليلين يدلاه على الطريق الأحسن[4]، وقد اختار ﷺ أن ينزل على وادٍ يقال له (الرجيع) بين خيبر وغطفان؛ لمنع الإمدادات عن اليهود، وكانت سرية أبان بن سعيد بن العاص رضي الله عنه، التي أرسلها النبي ﷺ إلى غطفان، قد اقتربت - على ما يبدو - من ديارهم، فلما تهيئوا (أي: غطفان) للخروج إلى خيبر لإمداد اليهود، سمعوا من خلفهم حسًّا لسرية المسلمين، فظنوا أن المسلمين قد أغاروا على ديارهم فرجعوا، وخلوا بين رسول الله ﷺ وبين خيبر.

قال ابن إسحاق: وكان رسول الله ﷺ حين خرج من المدينة إلى خيبر، سلك على (عصر)، وبُني له فيها مسجد، ثم على (الصهباء)، ثم أقبل بجيشه حتى نزل به بواد يقال له: (الرجيع)، فنزل بينهم وبين غطفان؛ ليحول بينهم وبين أن يمدوا أهل خيبر، وكانوا

---

(1) صحيح البخاري، باب غزوة خيبر (2/603)، وصحيح مسلم، باب غزوة ذي قرد وغيرها (2/115).

(2) المصدر السابق.

(3) البداية والنهاية 4/208.

(4) كان اسم أحدهما حسيل.

لهم مظاهرين على رسول الله ﷺ .. فبلغني أن غطفان لما سمعوا بذلك جمعوا، ثم خرجوا ليظاهروا اليهود عليه، حتى إذا ساروا منقلة، خلفهم في أموالهم وأهليهم حسًّا، ظنوا أن القوم قد خالفوا إليهم، فرجعوا على أعقابهم، فأقاموا في أموالهم وأهليهم، وخلوا بين رسول الله ﷺ وبين خيبر.

وكان مما فعله النبي ﷺ بالصهباء ما رواه سويد بن النعمان رَضِيَ اللَّهُ عَنْهُ، أنه خرج مع رسول الله ﷺ عام خيبر، حتى إذا كانوا (بالصهباء)، وهي من أدنى خيبر، صلى العصر ثم دعا بالأزواد (الطعام الذي مع كل منهم)، فلم يؤت إلا بالسويق (طعام يصنع من دقيق القمح والشعير)، فأمر به فثري، فأكل وأكلنا، ثم قام إلى المغرب، فمضمض ثم صلى ولم يتوضأ [(1)].

- **دخول خيبر من جهة الشام؛ لمنع هروب اليهود:**

ثم دعا رسول الله ﷺ الدليلين اللذين كانا يسلكان بالجيش، وكان اسم أحدهما حسيل؛ ليدلاه على الطريق الأحسن، حتى يدخل خيبر من جهة الشمال - أي جهة الشام - فيحول بين اليهود وبين طريق فرارهم إلى الشام، كما يحول بينهم وبين غطفان.

قال أحدهما: أنا أدلك يا رسول الله ﷺ، فأقبل حتى انتهى إلى مفرق الطرق المتعددة، وقال: يا رسول الله، هذه طرق يمكن الوصول من كل منها إلى المقصد، فأمر أن يسميها له واحدًا واحدًا. قال: اسم واحد منها حزن، فأبى النبي ﷺ من سلوكه، وقال: اسم الآخر شاش، فامتنع منه أيضًا، وقال: اسم الآخر خاطب، فامتنع منه أيضًا، وقال حسيل: فما بقي إلا واحد، قال عمر: ما اسمه؟ قال: مرحب، فاختار النبي ﷺ سلوكه[(2)].

- **استطلاع:**

وكان ﷺ قد بعث عباد بن بشر رَضِيَ اللَّهُ عَنْهُ في سرية استطلاعية[(3)]؛ يلتقط أخبار العدو، ويستطلع إن كان هناك كمائن، فلقي في الطريق عينًا لليهود من أشجع، فقال له: من أنت؟

---

(1) صحيح البخاري (2/603، 605).

(2) المباركفوري: الرحيق المختوم، ص 366.

(3) انظر: المغازي للواقدي (2/640- 641)، والسيرة للصلابي، ص 698.

قال: باغ أبتغي أبعرة ضلت لي، أنا على إثرها. قال عباد: ألك علم بخيبر؟ قال: عهدي بها حديث، فيم تسألني عنه؟ قال: عن اليهود؟ قال: نعم، كان كنانة بن أبي الحقيق وهوذة بن قيس ساروا في حلفائهم من غطفان، فاستنفروهم، وجعلوا لهم ثمر خيبر سنة، فجاءوا (أي: غطفان) معدين مؤيدين بالكراع والسلاح، يقودهم عتبة بن بدر، ودخلوا معهم في حصونهم، وفيهم عشرة آلاف مقاتل، وهم أهل الحصون التي لا ترام، وسلاح وطعام كثير، لو حُصروا لسنين لكفاهم، وماء وَاتِنٌ يشربون في حصونهم، ما أرى لأحد بهم طاقة، فرفع عباد بن بشر السوط فضربه ضربات، وقال: ما أنت إلا عين لهم، اصدقني وإلا ضربت عنقك! فقال الأعرابي: القوم مرعوبون منكم خائفون، وجلون لما صنعتم بمن كان بيثرب من اليهود .. وقال لي كنانة (سيد اليهود): اذهب معترضًا للطريق؛ فإنهم (أي: المسلمون) لا يستنكرون مكانك (في الطريق)، واحزرهم لنا (أخبرنا بعددهم)، وادن منهم كالسائل لهم ما تقوى به، ثم ألق إليهم كثرة عددنا ومادتنا (كي يخافوا)، فإنهم لن يدعوا سؤلك، وعجل الرجعة إلينا بخبرهم[1].

- **(نسألك خير هذه القرية):**

وسار رسول الله ﷺ بالجيش حتى أشرف على خيبر، فدعا بدعاء صار سنة للمسلمين عند دخول أي بلدة من البلاد ..

روى الحافظ البيهقي بسنده عن أبي مروان الأسلمي، عن أبيه، عن جده، قال:

خرجنا مع رسول الله ﷺ إلى خيبر، حتى إذا كنا قريبًا وأشرفنا عليها، قال رسول الله ﷺ للناس: (قفوا)، فوقف الناس.

فقال: «اللّهم رب السماوات السبع وما أظللن، ورب الأرضين السبع وما أقللن، ورب الشياطين وما أضللن، فإنا نسألك خير هذه القرية، وخير أهلها، وخير ما فيها، ونعوذ بك من شر هذه القرية، وشر أهلها، وشر ما فيها .. اقدموا بسم الله الرحمن الرحيم».

---

(1) الصلابي، ص 698.

قال ابن إسحاق: وكان يقولها ﷺ لكل قرية دخلها.

المبحث الثالث: فتح خيبر

ظن اليهود أن زحف المسلمين صوب غطفان، فلم يعيروا الأمر التفاتا، بل أصبحوا غادين إلى حقولهم بمساحيهم ومكاتلهم، حتى فوجئوا بالمسلمين يسيرون نحوهم، فارتدوا إلى حصونهم فزعين، وهم يقولون: محمد والخميس[1].

روى ابن إسحاق، عن أنس بن مالك رَضِيَ اللَّهُ عَنْهُ، قال: كان رسول الله ﷺ إذا غزا قومًا لم يغر عليهم حتى يصبح، فإذا سمع أذانًا أمسك (وعلم أنهم على الإسلام)، وإن لم يسمع أذانًا أغار، فنزلنا خيبر ليلًا، فبات رسول الله ﷺ حتى أصبح لم يسمع أذانًا، فركب وركبنا معه، وركبت خلف أبي طلحة، وإن قدمي لتمس قدم رسول الله ﷺ، واستقبلنا عمال خيبر غادين قد خرجوا بمساحيهم ومكاتلهم[2]، فلما رأوا رسول الله ﷺ والجيش، قالوا: محمد والخميس معه، فأدبروا هرابًا. فقال رسول الله ﷺ: «الله أكبر خربت خيبر، إنا إذا نزلنا بساحة قوم فساء صباح المنذَرين».

- **حصون خيبر:**

هرب اليهود إلى حصونهم هلعين مذعورين؛ فهم يكرهون اللقاء في الميادين المكشوفة، ولا يعتمدون في حروبهم على تسيير الجيوش في الفضاء الرحب والأودية، بل ديدنهم هو القتال من وراء جدر: ﴿لَا يُقَاتِلُونَكُمْ جَمِيعًا إِلَّا فِي قُرًى مُّحَصَّنَةٍ أَوْ مِن وَرَآءِ جُدُرٍ﴾ [الحشر: 14].

ووقف المسلمون أمام حصون خيبر متأهبين للقتال، وهم كاملو العدة، وكانت حصونهم ثلاث مجاميع، وكل مجموعة حصنين أو ثلاثة حصون، تمتد من الجنوب إلى الشمال، يتخللها النخيل والزروع والمنازل المتفرقة. وهذه المجاميع هي: النطاة، والشق، والكتيبة، أما

---

(1) الغزالي: فقه السيرة، ص 369، **والخميس:** الجيش الكبير.

(2) **مساحيهم:** جمع مسحاة، وهي المجرفة من حديد، **والمكاتل:** جمع مكتل، وهو شيء يصنع من الخوص، يحمل فيه التمر والثمار، وغير ذلك.

النطاة فكانت ثلاثة حصون: ناعم، والصعب، وقلة، وكانت الشق حصنين: أبيّ، والبريء، وأما الكتيبة فكانت ثلاثة حصون: القموص، الوطيح، والسلالم.

وتشاور اليهود فيما بينهم، فأشار عليهم زعيمهم سلام بن مشكم، فأدخلوا أموالهم وعيالهم حصني الوطيح والسلالم، وأدخلوا ذخائرهم حصن ناعم، ودخلت المقاتلة وأهل الحرب حول حصن النطاة.

وقد كان يهود خيبر من أشد الطوائف اليهودية بأسًا، وأكثرها مالًا، وأوفرها سلاحًا، وكذلك كان المسلمون كثيرًا عددهم، وافرًا سلاحهم، ممتلئة قلوبهم بالإيمان، واثقة نفوسهم بنصر الله، مصممين على استئصال هذا الشر مهما كانت التضحية، فلا عجب إذا كانت قريش والجزيرة كلها وقفت تنتظر ما يسفر عنه التقاء هاتين القوتين، حتى حدث من البعض التراهن على أي الفريقين سيكون له الغلب(1).

قال ابن هشام: وكان شعار أصحاب رسول الله ﷺ يوم خيبر: يا منصور أمت أمت.

- **(لأعطين الراية غداً رجلاً، يحبه الله ورسوله):**

والتقى الجمعان حول حصن نطاة، واقتتلوا قتالًا شديدًا، وضيق المسلمون الحصار على حصون خيبر، واليهود يستميتون في الدفاع عنها؛ لأنهم يعلمون أن هزيمتهم ما هي إلا القضاء الأخير عليهم في جزيرة العرب، وتتابعت الأيام والقتال يشتد، فالمسلمون يبدون من ضروب الشجاعة والاستبسال والتضحية ما هم أهل له، واليهود يستميتون في الدفاع، فقال رسول الله ﷺ: «لأعطين الراية غدًا رجلًا يفتح الله عليه، يحب الله ورسوله، ويحبه الله ورسوله».

فبات الناس ليلتهم، يتمنى كل منهم أن يعطاها، حتى إن عمر قال: ما أ حببت الإمارة إلا يومئذ، فلما أصبح الصباح قال: «أين علي بن أبي طالب؟»، فقالوا: هو يا رسول الله يشتكي عينيه، فدعاه فبصق رسول الله في عينيه، ودعا له، فبرأ بإذن الله، فأعطاه الراية

---

(1) أبو شهبة: السيرة النبوية، ج2، ص 415- 416.

وقال له: «انفذ إليهم، ثم ادعهم إلى الإسلام، وأخبرهم بما يجب عليهم من حق الله تعالى، فوالله لأن يهدي الله بك رجلًا واحدًا خير لك من حمر النعم»[1].

وقد ساق رسول الله ﷺ هذا النصح الرشيد؛ حتى يقطع تطلع النفوس إلى المغانم المعجلة؛ فإن ثروة يهود إذا هزموا ضخمة، ولكن ثواب هدايتهم إذا اهتدوا أضخم وأعظم[2].

وقد رسخ رسول الله ﷺ بوصاياه هذه لعلي بن أبي طالب رضي الله عنه معنى، يجب ألا يغيب عن أذهان أمته .. فالدعوة إلى الله عز وجل يجب أن تكون في كل وقت وفي جميع الأحوال. (فليست الدعوة إلى الله في حالة السلم فقط؛ بل إن المسلم وهو في قلب المعركة داع إلى الله تعالى قبل أن يكون مقاتلًا، فالدعوة إلى الله تعالى هي الأصل، والهداية خير من القتل)[3].

- فتح حصن ناعم:

ذهب علي بن أبي طالب رضي الله عنه برجاله إلى حصن «ناعم» بمنطقة (النطاة) في الشمال الشرقي من خيبر، ودعا اليهود إلى الإسلام، فرفضوا، فنشب القتال، وواجه المسلمين مقاومة شديدة من يهود، وقد برزوا لقتال المسلمين ومعهم ملكهم «مرحب»، وكان فارسًا مقاتلًا عنيدًا، وكان قد قتل محمود بن مسلمة الأنصاري رضي الله عنه بحجر ألقاه عليه من أعلى الحصن قبل أن ينشب القتال، فلما خرجوا للقتال دعا (مرحب) المسلمين إلى المبارزة.

روى ابن إسحاق عن جابر بن عبد الله رضي الله عنهما، قال: «خرج مرحب اليهودي من حصنهم، قد جمع سلاحه، يرتجز وهو يقول:

---

(1) المصدر السابق، ص 416.

(2) الغزالي: فقه السنة، ص 371.

(3) الغضبان: المنهج الحركي، القسم الثالث، ص 82.

قـد علمـت خيـبرُ أني مرحـبٌ   شـاكي السـلاح بطـلٌ مجـربُ

أطعـن أحيانًـا وحينًـا أضرب   إذا الليـوث أقبلـت تحـرب

إن حمائي كالحمى لا يُقْرَب

ويقول: من يبارز؟، فقام إليه محمد بن مسلمة رَضِيَ اللَّهُ عَنْهُ وهو يقول: أنا والله الموتور الثائر، قتل أخي بالأمس.

قال: فلما دنا أحدهما من صاحبه، دخلت بينهما شجرة عمرية من شجر العشر، فجعل أحدهما يلوذ بها من صاحبه كلما لاذ بها منه اقتطع صاحبه بسيفه ما دونه منها، حتى برز كل واحد منهما لصاحبه، وصارت بينهما (الشجرة) كالرجل القائم، ما فيها فنن، ثم حمل مرحب على محمد بن مسلمة، فضربه، فاتقاه بالدرقة (ترس من الجلد)، فوقع سيفه فيها، فعضت به فأمسكته، وضربه محمد بن مسلمة حتى قتله.

مقتل ياسر أخو مرحب:

قال ابن إسحاق: ثم خرج بعد مرحب أخوه ياسر، وهو يقول: من يبارز؟ فزعم هشام ابن عروة أن الزبير بن العوام خرج إلى ياسر، فقالت أمه صفية بنت عبد المطلب: يقتل ابني يا رسول الله! قال: بل ابنك يقتله إن شاء الله، فخرج الزبير فالتقيا، فقتله الزبير.

وكان علي رَضِيَ اللَّهُ عَنْهُ جديرًا بالراية التي دفعها إليه رسول الله ﷺ في ذلك اليوم دون صناديد الصحابة رَضِيَ اللَّهُ عَنْهُمْ .. روى ابن إسحاق عن سلمة بن عمرو بن الأكوع رَضِيَ اللَّهُ عَنْهُ قال: دعا رسول الله ﷺ عليًّا رَضِيَ اللَّهُ عَنْهُ وهو أرمد (أي مريضة عيناه)، فتفل في عينه، ثم قال: خذ هذه الراية، فامض بها حتى يفتح الله عليك، قال: يقول سلمة: فخرج والله بها يأنح، يهرول هرولة، وإنا لخلفه نتبع أثره، حتى ركز رايته في رضم من حجارة تحت الحصن، فاطلع إليه يهودي من رأس الحصن، فقال: من أنت؟ قال: أنا علي بن أبي طالب. قال: يقول اليهودي: علوتم وما أُنزل على موسى، أو كما قال. قال: فما رجع حتى فتح الله على يديه. **قال ابن إسحاق:** حدثني عبد الله بن الحسن، عن بعض أهله، عن أبي رافع،

مولى رسول الله ﷺ، قال: خرجنا مع علي بن أبي طالب رَضِيَ اللَّهُ عَنْهُ حين بعثه رسول الله ﷺ برايته؛ فلما دنا من الحصن خرج إليه أهله (أهل الحصن) فقاتلهم، فضربه رجل من يهود، فطاح ترسه من يده، فتناول علي رَضِيَ اللَّهُ عَنْهُ بابًا كان عند الحصن فترس به عن نفسه، فلم يزل في يده وهو يقاتل حتى فتح الله عليه، ثم ألقاه من يده حين فرغ، فلقد رأيتني في نفر سبعة معي، أنا ثامنهم، نجهد على أن نقلب ذلك الباب، فما نقلبه.

وهذه الرواية وغيرها من الروايات التي وردت بِشأن تترس علي رَضِيَ اللَّهُ عَنْهُ بباب عظيم، كلها روايات ضعيفة، وعدم الاعتماد عليها لا ينفي قوة علي وشجاعته، فيكفيه ما ثبت في ذلك وهو كثير[1].

واستمر القتال المرير حول حصن ناعم، قُتل فيه عدة سراة من اليهود، انهارت لأجله مقاومة اليهود، وعجزوا عن صد هجوم المسلمين، ويؤخذ من المصادر أن هذا القتال دام أيامًا لاقى المسلمون فيها مقاومة شديدة، إلا أن اليهود يئسوا من مقاومة المسلمين، فتسللوا من هذا الحصن إلى حصن الصعب، واقتحم المسلمون حصن ناعم[2].

- دعوة مستجابة تفتح حصن الصعب بن معاذ:

روى ابن إسحاق، أن بني سهم من أسلم أتوا رسول الله ﷺ، فقالوا: لقد جهدنا وما بأيدينا من شيء (نأكله)، فقال: «اللّٰهم إنك قد عرفت حالهم، وأن ليست بهم قوة، ليس بيدي شيء أعطيهم إياه، فافتح عليهم أعظم حصونها عنهم غناء، وأكثرها طعامًا وودكًا»، ثم ندب النبي ﷺ المسلمين لمهاجمة حصن الصعب بن معاذ تحت قيادة الحباب بن المنذر الأنصاري رَضِيَ اللَّهُ عَنْهُ، فحاصروه ثلاثة أيام، إلى أن فتح الله عليهم الحصن، وما بخيبر حصن أكثر طعامًا وودكًا منه[3].

---

(1) انظر: السيرة النبوية الصحيحة (324/1)، والصلابي: السيرة النبوية، ص 700.

(2) المباركفوري: الرحيق المختوم، ص 370.

(3) انظر: ابن هشام 332/2، **والودك:** اللحم الدسم.

ويحدثنا المقريزي عن بعض هذه الغنائم، فيقول: (واقتحم المسلمون الحصن، يقتلون ويأسرون، فوجدوا فيه من الشعير والتمر والسمن والعسل والزيت والودك كثيرًا. فنادى منادي رسول الله ﷺ: كلوا واعلفوا ولا تحتملوا (يعني لا تخرجوا به إلى بلادكم) فأخذوا من ذلك الحصن طعامهم وعلف دوابهم، ولم يمنع أحد من شيء، ولم يُخمس (هذه الغنائم)، ووجدوا بزًّا (ثيابًا) في عشرين عِكْمًا[1] محزومة من متاع اليمن، ووجدوا خوابي سكر، فأمر بالسكر (ما يُسكر به من الخمر) فكسر في خوابيه (أوعيته)، ووجدوا آنية من نحاس وفخار كانت يهود تأكل فيها وتشرب، فقال ﷺ: «اغسلوها واطبخوا، وكلوا فيها واشربوا».

وأخرجوا منها غنمًا وبقرًا وحمرًا، وآلة الحرب، ومنجنيقًا، ودبابات، وعُدة، وخمسمائة قطيفة ...)[2].

نصيحة من يهودي تفتح قلعة الزبير:

وبعد فتح حصن ناعم والصعب تحول اليهود من كل حصون النطاة إلى قلعة الزبير، وهو حصن منيع في رأس قلة، لا تقدر عليه الخيل والرجال؛ لصعوبته وامتناعه، ففرض عليه رسول الله ﷺ الحصار، وأقام محاصرًا ثلاثة أيام. فجاء رجل من اليهود، وقال: يا أبا القاسم إنك لو أقمت شهرًا ما بالوا، إن لهم شرابًا وعيونًا تحت الأرض، يخرجون بالليل ويشربون منها، ثم يرجعون إلى قلعتهم فيمتنعون منك، فإن قطعت مشربهم عليه (على الحصن) أصحروا لك. فقطع ماءهم عليهم، فخرجوا فقاتلوا أشد القتال، قُتل فيه نفر من المسلمين، وأصيب (قُتل) نحو العشرة من اليهود، وافتتحه رسول الله ﷺ[3].

وبذلك تمت السيطرة على آخر حصون منطقة النطاة التي كان فيها أشد اليهود[4].

---

(1) **العكم:** ثوب يبسط وبوضع فيه المتاع.

(2) إمتاع الأسماع، ج1، ص 318- 319.

(3) الرحيق المختوم، ص 371.

(4) مهدي رزق الله: السيرة النبوية، ص 503.

- فتح حصون منطقة الشق:

بعد فتح قلعة الزبير انتقل اليهود إلى حصون منطقة الشق التي تضم حصني (أبي) و(النزار)، متشبثين بهما، يذودون عنهما زياد اليائس، فشدد المسلمون عليهم الحصار، وبدأوا بحصن «أبي»، فاقتحموه، وكان أول من اقتحمه أبو دجانة الأنصاري رَضِيَ اللَّهُ عَنْهُ، ومن خلفه جيش المسلمين، فجرى قتال شديد داخل الحصن، كانت الغلبة فيه للمسلمين، وفر اليهود إلى حصن (النزار).

وكان هذا الحصن أمنع حصون هذا الشطر، وكان اليهود على شبه اليقين بأن المسلمين لا يستطيعون اقتحام هذه القلعة، وإن بذلوا قصارى جهدهم في هذا السبيل؛ ولذلك أقاموا في هذه القلعة مع الذراري والنساء، بينما كانوا قد أخلوا منها (أي: الذراري والنساء) القلاع الأربعة السابقة.

وفرض المسلمون على هذا الحصن أشد الحصار، وصاروا يضغطون عليهم بعنف، ولكون الحصن يقع على جبل مرتفع منيع لم يكونوا يجدون سبيلًا للاقتحام فيه، أما اليهود فلم يجترئوا للخروج من الحصن، للاشتباك مع قوات المسلمين، لكنهم قاوموا المسلمين مقاومة عنيدة برشق النبال، وبإلقاء الحجارة.

وعندما استعصى حصن النزار على قوات المسلمين، أمر النبي صَلَّى اللَّهُ عَلَيْهِ وَسَلَّمَ بنصب آلات المنجنيق، ويبدو أن المسلمين قذفوا بها القذائف، فأوقعوا الخلل في جدران الحصن، واقتحموه، ودار قتال مرير في داخل الحصن، انهزم أمامه اليهود هزيمة منكرة؛ وذلك لأنهم لم يتمكنوا من التسلل من هذا الحصن كما تسللوا من الحصون الأخرى، بل فروا من هذا الحصن تاركين للمسلمين نساءهم وذراريهم.

وبعد فتح هذا الحصن المنيع، تم فتح الشطر الأول من خيبر، وهي ناحية النطاة والشق، وكانت في هذه الناحية حصون صغيرة أخرى، إلا أن اليهود بمجرد فتح هذا الحصن أخلوا هذه الحصون، وهربوا إلى الشطر الثاني من بلدة خيبر[1].

---

(1) الرحيق المختوم، ص 371.

- **الحصون الأخيرة:**

فر اليهود من أهل الشق من حصونهم، وتجمعوا في حصن القموص المنيع، وحصن الوطيح، وحصن السلالم، فحاصرهم المسلمون لمدة أربعة عشر يومًا حتى طلبوا الصلح[1].

وقد أرسل ابن أبي الحقيق إلى رسول الله ﷺ: أنزل فأكلمك؟ قال: نعم، فنزل، وصالح على حقن دماء من في حصونهم من المقاتلة، وترك الذرية لهم، ويخرجون من خيبر وأرضها بذراريهم (فهم ليسوا من أهل خيبر، إنما نزحوا إليه حين أجلاهم رسول الله ﷺ عن المدينة)، ويخلون بين رسول الله ﷺ وبين ما كان لهم من مال وأرض وعلى الصفراء والبيضاء - أي الذهب والفضة - والكراع والحلقة، إلا ثوبًا على ظهر إنسان، فقال رسول الله ﷺ: وبرئت منكم ذمة الله وذمة رسوله إن كتمتموني شيئًا (أي: أخفيتم من ممتلكاتكم شيئًا)، فصالحوه على ذلك[2]. وبعد هذه المصالحة تم تسليم الحصون إلى المسلمين، وبذلك تم فتح خيبر.

وعلى رغم هذه المعاهدة غيب ابنا أبي الحقيق مالًا كثيرًا، غيبا مسكًا فيه مال وحلي لحيي بن أخطب، كان احتمله معه إلى خيبر حين أجليت النضير (من المدينة).

قال ابن إسحاق: وأتي لرسول الله ﷺ بكنانة بن الربيع، وكان عنده كنز بني النضير، فسأله عنه، فجحد أن يكون يعرف مكانه، فأتى رجل من اليهود، فقال: إني رأيت كنانة يطيف بهذه الخربة كل غداة. فقال: رسول الله ﷺ لكنانة: أرأيت إن وجدناه عندك أأقتلك؟ قال: نعم! فأمر بالخربة، فحفرت، فأخرج منها بعض كنزهم، ثم سأله عما بقي، فأبى أن يؤديه. فدفعه إلى الزبير، وقال: عذبه حتى تستأصل ما عنده، فكان الزبير يقدح بزند في صدره حتى أشرف على نفسه (كاد أن يموت)، ثم دفعه رسول الله ﷺ إلى محمد بن مسلمة، فضرب عنقه (ثأرًا) بمحمود بن مسلمة (وكان محمود قُتل تحت جدار حصن ناعم أُلقي عليه الرحى، وهو يستظل بالجدار فمات).

(1) مهدي رزق الله: السيرة النبوية، ص 503.

(2) زاد المعاد 2/136.

وسبى رسول الله ﷺ صفية بنت حيي بن أخطب، وكانت تحت كنانة بن أبي الحقيق، وكانت عروسًا حديثة عهد بالدخول[1].

- قتلى الفريقين:

وجملة من استشهد من المسلمين في معارك خيبر ستة عشر رجلًا، أربعة من قريش وواحد من أشجع، وواحد من أسلم، وواحد من أهل خيبر، والباقون من الأنصار.

ويقال: إن شهداء المسلمين في هذه المعارك 18 رجلًا. وذكر العلامة المنصورفوري 19 رجلًا، ثم قال: إني وجدت بعد التفحص 23 اسمًا، واحد منها في الطبري فقط، وواحد عند الواقدي فقط، وواحد مات لأجل أكل الشاة المسمومة، وواحد اختلفوا هل قتل في بدر أو خيبر، والصحيح أنه قتل في بدر[2].

أما قتلى اليهود فعددهم ثلاثة وتسعون قتيلًا[3].

المبحث الرابع: حدث في خيبر

كانت في خيبر أحداث، منها ما ارتبط ببيت النبوة، ومنها ما حمل لنا أحكامًا فقهية، ومنها ما حمل لنا معجزات نبوية، ومنها ما حمل العبر والعظات حول سرائر النفس وخفايا ومكنونات الصدور التي تحدد علاقة العبد بربه، ومكانه في الآخرة في الجنة أم في النار.

- زواج النبي ﷺ من صفية أم المؤمنين:

قال ابن إسحاق: ولما افتتح رسول الله ﷺ القموص، حصن بني أبي الحقيق، أُتي رسول الله ﷺ بصفية بنت حيي بن أخطب، وبأخرى معها، فمُر بهما على قتلى من قتلى يهود، فلما رأتهم التي مع صفية صاحت، وصكت وجهها وألقت التراب على رأسها.

---

(1) انظر: الرحيق المختوم، ص 313- 314.

(2) رحمة للعالمين 2/268- 270.

(3) المصدر السابق، ص 311.

فلما رآها رسول الله ﷺ قال: اعزبوا عني هذه الشيطانة، وأمر بصفية فحيزت خلفه، وألقى عليها رداءه، فعرف المسلمون أن رسول الله ﷺ قد اصطفاها لنفسه.

فقال رسول الله ﷺ لبلال - فيما بلغني، حين رأى بتلك اليهودية ما رأى: «أنُزعت منك الرحمة يا بلال، حين تمر بامرأتين على قتلى رجالهما؟!».

كانت صفية قد رأت في المنام وهي عروس بكنانة بن الربيع بن أبي الحقيق، أن قمرًا وقع في حجرها، فعرضت رؤياها على زوجها، فقال: ما هذا إلا أنك تمنين مَلِك الحجاز محمدًا، فلطم وجهها لطمة خضر عينها منها. فأُتي بها رسول الله ﷺ، وبها أثر منه، فسألها ما هو، فأخبرته هذا الخبر.

- **النهي عن أكل الحمر الأهلية:**

قال ابن كثير:

وفشت السبايا من خيبر في المسلمين، وأكل الناس لحوم الحمر، فنهى رسول الله ﷺ إياهم عن أكلها.

وقد اعتنى البخاري بهذا الفصل، فأورد النهي عنها من طرق جيدة، وتحريمها مذهب جمهور العلماء سلفًا وخلفًا، وهو مذهب الأئمة الأربعة.

وقد ذهب بعض السلف (منهم ابن عباس) إلى إباحتها، وتنوعت أجوبتهم عن الأحاديث الواردة في النهي عنها، فقيل: لأنها كانت ظهرًا (يحمل عليه) يستعينون بها في الحمولة، وقيل: لأنها لم تكن خُمست بعد (حين ذُبحت)، وقيل: لأنها كانت تأكل العذرة، يعني: جلالة.

والصحيح أنه نهي عنها لذاتها، فإنه في الأثر الصحيح، أنه نادى منادي رسول الله ﷺ أن الله ورسوله ينهيانكم عن لحوم الحمر؛ فإنها رجس، فأكفئوها والقدور تفور بها[1].

(1) انظر: البداية والنهاية 4/ 219.

- سلمة بن الأكوع ومعجزة نبوية:

روى البخاري عن يزيد بن أبي عبيد، قال: رأيت أثر ضربة في ساق سلمة، فقلت: يا أبا مسلم، ما هذه الضربة؟ قال: هذه ضربة أصابتني يوم خيبر، فقال الناس: أصيب سلمة، فأتيت النبي ﷺ فنفث فيه ثلاث نفثات، فما اشتكيتها حتى الساعة.

- إنه من أهل النار:

روى البخاري عن أبي هريرة رَضِيَ اللَّهُ عَنْهُ، قال: شهدنا خيبر، فقال رسول الله ﷺ لرجل ممن معه يدعي الإسلام: «هذا من أهل النار».

فلما حضر القتال قاتل الرجل أشد القتال، حتى كثرت به الجراحة، حتى كاد بعض الناس يرتاب (أي: فيما قال رسول الله ﷺ). فوجد الرجل ألم جراحه، فأهوى بيده إلى كنانته، فاستخرج منها أسهمًا فنحر بها نفسه، فاشتد رجال من المسلمين، فقالوا: يا رسول الله صدق حديثك، انتحر فلان فقتل نفسه. فقال: «قم يا فلان فأذن أنه لا يدخل الجنة إلا مؤمن، وأن الله يؤيد الدين بالرجل الفاجر».

- (ما على هذا اتبعتك):

جاء رجل من الأعراب إلى النبي ﷺ فآمن به، واتبعه، فقال: أهاجر معك؟ فأوصى به بعض أصحابه، فلما كانت غزوة خيبر، غنم رسول الله ﷺ شيئًا فقسمه، وقسم للأعرابي، فأعطى أصحابه ما قسم له، وكان يرعى ظهورهم (إبلهم)، فلما جاء دفعوه إليه، فقال: ما هذا؟ قالوا: قسم قسمه لك رسول الله ﷺ، فأخذه، فجاء به للنبي ﷺ، فقال: ما هذا يا رسول الله؟ قال: «قسم قسمته لك»، قال: ما على هذا اتبعك، ولكن اتبعتك على أن أُرمى هاهنا، (وأشار إلى حلقه، بسهم)، فأموت فأدخل الجنة، فقال: «إن تصدق الله يصدقك»، ثم نهض إلى قتال العدو، فأُتي به إلى النبي ﷺ، وهو مقتول، فقال: «أهو هو؟»، قالوا: نعم. قال: «صدق الله فصدقه».

فكفنه النبي ﷺ في جبته، ثم قدمه، فصلى عليه، وكان من دعائه له: «اللّهم هذا عبدك خرج مهاجرًا في سبيلك، قتل شهيدًا، وأنا عليه شهيد»[1].

- (إن معه زوجتيه من الحور العين):

وجاء عبد أسود حبشي من أهل خيبر، كان في غنم لسيده، فلما رأى أهل خيبر قد أخذوا السلاح، سألهم: ما تريدون؟ قالوا: نقاتل هذا الذي يزعم أنه نبي، فوقع في نفسه ذكر النبي، فأقبل بغنمه إلى رسول الله ﷺ، فقال: ماذا تقول؟ وما تدعو إليه؟ قال: «أدعو إلى الإسلام، وأن تشهد أن لا إله إلا الله وأني رسول الله، وألا تعبد إلا الله»، قال العبد: فما لي إن شهدت وآمنت بالله عز وجل؟، قال: «لك الجنة إن مت على ذلك».

فأسلم ثم قال: يا نبي الله، إن هذه الغنم عندي أمانة، فقال رسول الله ﷺ: «أخرجها من عندك وارمها بـ (الحصباء)؛ فإن الله سيؤدي عنك أمانتك»، ففعل، فرجعت الغنم إلى سيدها، فعلم اليهودي أن غلامه قد أسلم، فقام رسول الله ﷺ في الناس، فوعظهم وحضهم على الجهاد، فلما التقى المسلمون واليهود قُتل - فيمن قُتل - العبد الأسود، واحتمله المسلمون إلى معسكرهم، فأدخل في الفسطاط، فزعموا أن رسول الله ﷺ اطلع في الفسطاط، ثم أقبل على أصحابه، وقال: «لقد أكرم الله هذا العبد، وساقه إلى خيبر، ولقد رأيت عند رأسه اثنتين من الحور العين، ولم يصل لله سجدة قط»[2].

- وقد روى الحافظ البيهقي عن أنس رَضِيَ اللَّهُ عَنْهُ، أن رجلًا أتى رسول الله ﷺ، فقال: يا رسول الله ﷺ إني رجل أسود اللون، قبيح الوجه، لا مال لي، فإن قاتلت هؤلاء حتى أُقتل أدخل الجنة؟ قال: «نعم».

فتقدم فقاتل حتى قُتل، فأتى عليه رسول الله ﷺ وهو مقتول، فقال: «لقد حسن الله وجهك، وطيب روحك، وكثر مالك».

---

(1) رواه البيهقي (15/4، 16)، والنسائي (60/4)، والحاكم (595/3).

(2) رواه موسى بن عقبة عن الزهري، وابن أبي لهيعة عن عروة، وانظر زاد المعاد 232/3- 324.

وقال: «لقد رأيت زوجتيه من الحور العين يتنازعان جبته عليه، يدخلان فيما بين جلده وجبته».

المبحث الخامس: بعد فتح خيبر

ما تم عليه الصلح بين النبي ﷺ وأهل خيبر:

تم الصلح في النهاية بين الطرفين وفق الأمور الآتية:

- بالنسبة للأراضي والنخيل - أي الأموال الثابتة: دفعها لهم رسول الله ﷺ على أن يعملوا عليها، ولهم شطر ما يخرج منها.

- أن ينفقوا من أموالهم على خدمة الأرض.

- أما بالنسبة لوضعهم القانوني، فقد تم الاتفاق على أن بقاءهم بخيبر مرهون بمشيئة المسلمين، فمتى شاءوا أخرجوهم منها.

وقد أخرجهم عمر بن الخطاب إلى تيماء وأريحاء؛ استنادًا إلى قول الرسول ﷺ في مرض موته: «أخرجوا المشركين من جزيرة العرب»، وتكرر منهم الاعتداء على المسلمين (بعد هذا الصلح). ففي المرة الأولى اتهمهم الرسول ﷺ في قتل عبد الله بن سهل، فأنكروا فلم يعاقبهم، فوداه (دفع ديته) رسول الله ﷺ من عنده.

وفي هذه المرة الثانية التي أكدت الأولى - كما أشار عمر - أنهم اعتدوا على عبد الله بن عمر، وفدعوا يديه.

- واتفقوا على إيفاد مبعوث من قِبَل النبي ﷺ إلى أهل خيبر؛ ليخرص (يقدر المتوقع من الثمار كل عام) ويقبض حصة المسلمين.

أما بالنسبة للأموال المنقولة، فقد صالحوه على أن له الذهب والفضة والسلاح والدروع، ولهم ما حملت ركائبهم، على ألا يكتموا ولا يغيبوا شيئًا، فإن فعلوه فلا ذمة لهم ولا عهد(1).

(1) انظر: السيرة لمهدي رزق الله، ص 506، 507.

- **قسمة الغنائم:**

- كانت غزوة خيبر من أكثر غزوات الرسول ﷺ غنيمة، من حيث الأراضي والنخيل والثياب والأطعمة وغير ذلك، ومن خلال وصف كتب السيرة، نلاحظ أن الغنائم تتكون من:

أ- الطعام: فقد غنم المسلمون كثيرًا من الأطعمة من حصون خيبر، فقد وجدوا فيها الشحم والزيت والعسل والسمن، وغير ذلك، فأباح رسول الله ﷺ الأكل من تلك الأطعمة، ولم يخمسها.

ب- الثياب والأثاث والإبل والبقر والغنم: لقد أخذ رسول الله ﷺ خُمسًا (من الغنيمة)، ووضعه فيما وضعه الله فيه (من الإنفاق على الفقراء والمساكين وباقي المصارف)، ووزع أربعة أخماسها على المحاربين.

ج- السبي: لقد سبى رسول الله ﷺ كثيرًا من نساء اليهود، ووزع السبي على المسلمين؛ فهو غنيمة ويأخذ حكم الغنيمة.

د- أما الأراضي والنخيل فقد قسمها النبي إلى ستة وثلاثين سهمًا، جمع لكل سهم مائة سهم، فكانت ثلاثة آلاف وستمائة سهم، فكان لرسول الله ﷺ وللمسلمين النصف من ذلك، وهو ألف وثمانمائة سهم، ووزع النصف الآخر، وهو ألف وثمانمائة سهم لنوائبه وما ينزل به من أمور المسلمين.

هـ- وكان من بين ما غنم المسلمون من يهود خيبر عدة صحف من التوراة، فطلب اليهود ردها، فأمر ﷺ بتسليمها إليهم، ولم يصنع ﷺ ما صنع الرومان حينما فتحوا أورشليم وأحرقوا الكتب المقدسة، وداسوها بأرجلهم، ولا ما صنع النصارى في حروب اضطهاد اليهود في الأندلس، حين أحرقوا كذلك صحف التوراة[1].

(1) انظر: السيرة للصلابي، ص 702- 703.

وقد أصبحت خيبر موردًا مهمًّا للمسلمين، كما قال ابن عمر رَضِيَ اللَّهُ عَنْهُ: ما شبعنا حتى فتحنا خيبر[1]، فتحسن الوضع الاقتصادي بعد فتحها، ورد المهاجرون ما أعطاهم الأنصار من النخل.

وكانت غنائم خيبر خاصة بمن شهد الحديبية من المسلمين، كما في قوله تعالى: ﴿ سَيَقُولُ ٱلْمُخَلَّفُونَ إِذَا ٱنطَلَقْتُمْ إِلَىٰ مَغَانِمَ لِتَأْخُذُوهَا ذَرُونَا نَتَّبِعْكُمْ ۖ يُرِيدُونَ أَن يُبَدِّلُوا۟ كَلَـٰمَ ٱللَّهِ ۚ قُل لَّن تَتَّبِعُونَا كَذَٰلِكُمْ قَالَ ٱللَّهُ مِن قَبْلُ ۖ فَسَيَقُولُونَ بَلْ تَحْسُدُونَنَا ۚ بَلْ كَانُوا۟ لَا يَفْقَهُونَ إِلَّا قَلِيلًا ﴿١٥﴾ ﴾ [الفتح].

ولم يغب عن فتح خيبر من أصحاب بيعة الرضوان أحد سوى جابر بن عبد الله، ومع ذلك أُعطي سهمًا مثل من حضر الغزوة (غزوة الحديبية)[2].

وأعطي أهل السفينة من مهاجرة الحبشة الذين عادوا منها إلى المدينة، ووصلوا خيبر بعد الفتح، من الغنائم. وكانوا ثلاثة وخمسين رجلًا وامرأة، بقيادة جعفر بن أبي طالب. وتقول الرواية إنه لم يقسم لأحد لم يشهد الفتح سواهم. وهم الذين فرح الرسول ﷺ بقدومهم، وقَبَّل جعفر بين عينيه والتزمه، وقال: «ما أدري بأيهما أنا أُسر، بفتح خيبر أو بقدوم جعفر»[3].

وربما يرجع سبب استثنائهم، إلى أنهم حبسهم العذر عن شهود بيعة الحديبية، ولعله استرضى أصحاب الحق من الغانمين (ممن شهد خيبر) في الإسهام لهم (قبل أن يفعل ذلك)، ولعله رأى ما كانوا عليه من الصدق، وما عانوه في الغربة، وهم أصحاب الهجرتين.

وأعطى الرسول ﷺ أبا هريرة وبعض الدوسيين من الغنائم برضاء الغانمين، حيث قدموا عليه بعد فتح خيبر.

---

(1) البخاري، كتاب المغازي، غزوة خيبر، رقم 4243.

(2) انظر: السيرة النبوية، مهدي رزق الله، ص 507- 508.

(3) سنن أبي داود (5/392، ك السنة، ب في قبله ما بين عينيه، حديث 5220).

وشهد خيبر مع رسول الله ﷺ نساء مسلمات، فأعطاهن من الفيء، ولم يضرب لهم بسهم.

وكذلك أعطي من شهدها من العبيد، فقد أعطى عميرًا، مولى أبي اللحم، شيئًا من الأثاث.

وأوصى ﷺ من مال خيبر لنفر من الداريين، سماهم ابن إسحاق[1].

- الشاة المسمومة:

روى البخاري بسنده عن أبي هريرة رَضِيَ اللَّهُ عَنْهُ، قال: لما فُتحت خيبر، أُهديت لرسول الله ﷺ شاة فيها سم، فقال رسول الله ﷺ: «اجمعوا لي من كان هاهنا من اليهود»، فجمعوا له، فقال لهم رسول الله ﷺ: «إني سائلكم عن شيء فهل أنتم صادقي عنه؟»

فقالوا: نعم يا أبا القاسم.

فقال لهم رسول الله ﷺ: «من أبوكم؟»

قالوا: فلان.

فقال رسول الله ﷺ: «كذبتم، بل أبوكم فلان».

قالوا: صدقت.

قال: «أنتم صادقي عن شيء إن سألت عنه؟»

فقالوا: نعم يا أبا القاسم، وإن كذبنا عرفت كذبنا كما عرفته في أبينا.

فقال لهم رسول الله ﷺ: «من أهل النار؟»

فقالوا: نكون فيها يسيرا ثم تخلفونا.

فقال لهم رسول الله ﷺ: «اخسئوا فيها والله لا نخلفكم فيها أبدًا».

ثم قال: «أنتم صادقي عن شيء إن سألتكم عنه؟»

---

(1) انظر: السيرة لمهدي رزق الله، ص 508- 509.

فقالوا: نعم.

قال: «هل جعلتم في هذه الشاة سُمًّا».

فقالوا: نعم.

قال: «ما حملكم على ذلك؟»

قالوا: أردنا إن كنت كاذبًا نستريح، وإن كنت نبيًّا لم يضرك[1].

قال ابن إسحاق: لما اطمأن رسول الله ﷺ - أي بخيبر بعد فتحها - أهدت له زينب بنت الحارث، امرأة سلام بن مشكم (وهو ممن قتل في خيبر من اليهود)، شاة مصلية (مشوية)، وقد سألت: أي عضو من الشاة أحب إلى رسول الله ﷺ؟

فقيل لها: الذراع؛ فأكثرت فيها من السم، ثم سمت سائر الشاة، ثم جاءت بها، فلما وضعتها بين يدي رسول الله ﷺ، تناول الذراع، فلاك منها مضغة، فلم يسغها، ومعه بشر بن البراء بن معرور، قد أخذ منها كما أخذ رسول الله ﷺ؛ فأما بشر فأساغها، وأما رسول الله ﷺ فلفظها، ثم قال (نلت): إن هذا العظم ليخبرني أنه مسموم، فاعترفت: فقال: ما حملك على ذلك؟ قالت: بلغت (نلت) من قومي ما لم يخف عليك، فقُلت: إن كان ملكًا استرحت منه، وإن كان نبيًّا فسيخبر، قال: فتجاوز عنها رسول الله ﷺ؛ ومات بشر من أكلته التي أكل.

قال ابن إسحاق: وحدثني مروان بن عثمان بن أبي سعيد بن المعلى، قال: كان رسول الله ﷺ قد قال في مرضه الذي توفي فيه، ودخلت أم بشر بنت البراء بن معرور تعوده: يا أم بشر، إن هذا الأوان وجدت فيه انقطاع أبهري من الأكلة التي أكلت مع أخيك بخيبر.

قال: فإن كان المسلمون ليرون أن رسول الله ﷺ مات شهيدًا مع ما أكرمه الله به من النبوة.

(1) البخاري، كتاب الجهاد والسير (4/79)، رقم (3169).

وقد روى البخاري في صحيحه عن عائشة رَضِيَ ٱللَّهُ عَنْهَا، قالت: كان النبي ﷺ يقول في مرض موته الذي مات فيه: «يا عائشة، ما أزال أجد ألم الطعام الذي أكلت بخيبر، فهذا أوان وجدت انقطاع أبهري[1] من ذلك السم»[2].

فدك ووادي القرى وتيماء:

لما سمع أهل فدك بفتح خيبر نزل بهم الرعب، فبعثوا إلى رسول الله ﷺ يصالحونه على النصف من فدك، فصالحهم على ذلك، وكان ذلك لرسول الله ﷺ وحده؛ لأنه فيء أفاءه الله عليه (بلا قتال)؛ إذ لم يُوجَف عليه بخيل ولا ركاب، فكان خالصًا لرسول الله ﷺ ينفقه فيما أمره الله أن ينفقه فيه: ﴿مَّآ أَفَآءَ ٱللَّهُ عَلَىٰ رَسُولِهِۦ مِنْ أَهْلِ ٱلْقُرَىٰ فَلِلَّهِ وَلِلرَّسُولِ وَلِذِى ٱلْقُرْبَىٰ وَٱلْيَتَـٰمَىٰ وَٱلْمَسَـٰكِينِ وَٱبْنِ ٱلسَّبِيلِ كَىْ لَا يَكُونَ دُولَةًۢ بَيْنَ ٱلْأَغْنِيَآءِ مِنكُمْ ۚ وَمَآ ءَاتَىٰكُمُ ٱلرَّسُولُ فَخُذُوهُ وَمَا نَهَىٰكُمْ عَنْهُ فَٱنتَهُوا۟ ۚ وَٱتَّقُوا۟ ٱللَّهَ ۖ إِنَّ ٱللَّهَ شَدِيدُ ٱلْعِقَابِ ﴿٧﴾﴾ [الحشر].

وقد بعث رسول الله ﷺ إلى أهل فدك من خيبر محيصة رَضِيَ ٱللَّهُ عَنْهُ يدعوهم إلى الإسلام فصالحوه، وكان رئيسهم يوشع بن نون اليهودي[3].

وانصرف رسول الله ﷺ إلى وادي القرى، وكان بها جماعة من اليهود، وانضاف إليهم جماعة من العرب.

فلما نزلوا استقبلتهم يهود بالرمي وهم على تعبئة، فقُتل «مدعم» عبدٌ لرسول الله ﷺ، فقال الناس: هنيئًا له الجنة، فقال النبي ﷺ: «كلا؛ والذي نفسي بيده إن الشملة التي أخذها يوم خيبر من المغانم، لم تصبها المقاسم (أي: قبل أن تُقَسَّم الغنائم)، لتشتعل عليه نارًا». فلما سمع بذلك الناس جاء رجل إلى النبي ﷺ «بشراك (نعل) أو شراكين، فقال النبي ﷺ: شراك من نار أو شراكان من نار»[4].

---

(1) عرق مستبطن بالظهر متصل بالقلب، إذا انقطع مات صاحبه.

(2) فتح الباري (9/159- 196).

(3) انظر: هذا الحبيب يا محب، للجزائري، ص 364.

(4) زاد المعاد 2/139- 140.

ثم عبأ رسول الله ﷺ أصحابه للقتال، وصفهم، ودفع لواءه إلى سعد بن عبادة، وراية إلى الحباب بن المنذر، وراية إلى سهل بن حنيف، وراية إلى عباد بن بشر، ثم دعاهم (أي: أهل وادي القرى) إلى الإسلام فأبوا، وبرز رجل منهم، فبرز إليه الزبير بن العوام فقتله، ثم برز آخر فقتله، ثم برز آخر، فبرز إليه علي بن أبي طالب رَضِيَ اللَّهُ عَنْهُ فقتله، حتى قتل منهم أحد عشر رجلًا، كلما قتل منهم رجل دعا من بقي إلى الإسلام.

وكانت الصلاة تحضر هذا اليوم، فيصلي بأصحابه، ثم يعود، فيدعوهم إلى الإسلام وإلى الله ورسوله، فقاتلهم حتى أمسوا، وغدا عليهم، فلم ترتفع الشمس قيد رمح حتى أعطوا ما بأيديهم، وفتحها عنوة، وغنَّمه الله أموالهم، وأصابوا أثاثًا ومتاعًا كثيرًا.

وأقام رسول الله ﷺ بوادي القرى أربعة أيام، وقسم على أصحابه ما أصاب بها، وترك الأرض والنخل بأيدي اليهود، وعاملهم عليها[1] (كما عامل أهل خيبر).

ولما بلغ يهود تيماء خبر استسلام أهل خيبر ثم فدك ووادي القرى، لم يبدوا أي مقاومة ضد المسلمين، بل بعثوا - من تلقاء أنفسهم - يعرضون الصلح. فقبل ذلك منهم رسول الله ﷺ، وأقاموا بأموالهم[2]، وكتب لهم بذلك كتابًا، وهاك نصه: «هذا كتاب محمد رسول الله لبني عاديًا، إن لهم الذمة، ولهم الجزية، ولا عداء ولا جلاء، الليل مد، والنهار شد»[3]، وبهذا النصر المبين انتهى ما كان لليهود من نفوذ في جزيرة العرب، ودانوا لسلطان الإسلام، وأصبحت الدولة المسلمة بمأمن من ناحية الشمال إلى بلاد الشام.

- سواد بن غزية الأنصاري أميرًا على خيبر:

استعمل رسول الله ﷺ سواد بن غزية الأنصاري رَضِيَ اللَّهُ عَنْهُ أميرًا على خيبر، وقد روى أبو سعيد الخدري رَضِيَ اللَّهُ عَنْهُ وأبو هريرة رَضِيَ اللَّهُ عَنْهُ أن النبي ﷺ بعث أخا بني عدي من الأنصار إلى خيبر، فأمره عليها[4].

---

(1) رحمة للعالمين 2/268- 270.

(2) ابن هشام 2/337 - 353.

(3) الرحيق المختوم، ص 378- 379.

(4) البخاري، 424- 4247، كتاب المغازي، باب: استعمال النبي ﷺ على أهل خيبر.

وروى أبو عوانة والدارقطني أن هذا الرجل الذي أمره رسول الله ﷺ على خيبر هو سواد بن غزية رضي الله عنه[1].

وقد روى البخاري أنه لما استعمله رسول الله ﷺ على خيبر، جاءه منها بتمر جنيب (وهو الجيد من التمر)، فقال رسول الله ﷺ: (أَكُلّ تمر خيبر هكذا؟ (أي بهذه الجودة) فقال: لا والله يا رسول الله، إنا لنأخذ الصاع من هذا بالصاعين والصاعين بالثلاثة (أي الصاع من هذا النوع الجيد نأخذه مقابل صاعين أو ثلاثة من الأصناف الأخرى)، فقال ﷺ: «لا تفعل، بع الجمع بالدراهم، ثم ابتع بالدراهم جنيبًا»[2]. فنها رسول الله ﷺ عن مبادلة التمر الجيد بالتمر الرديء مفاضلة ..

وبهذا حرم رسول الله ﷺ ربا الفضل في المطعومات، وهو أن يتبادل اثنان مطعومان من جنس واحد مع تفاضل بينهما. وقد نهى رسول الله ﷺ (عن ذلك) بأحاديث كثيرة صحيحة، منها ما رواه مسلم عن عبادة بن الصامت رضي الله عنه، قال: (سمعت رسول الله ﷺ ينهى عن بيع الذهب بالذهب، والفضة بالفضة والتمر بالتمر والبر بالبر والشعير بالشعير والملح بالملح، إلا سواء بسواء، عينًا بعين، فمن زاد أو استزاد فقد أربى).

وقد أرشد رسول الله ﷺ من يريد أن يستبدل تمرًا جيدًا برديء، أو أي نوع من المطعومات بمثله، إلى وسيلة أخرى سائغة لا ربا فيها، وهي أن يبيع الرديء بالدراهم، ثم يشتري بها الجيد الذي يبتغيه[3].

المبحث السادس: العودة إلى المدينة

أخذ رسول الله ﷺ والمسلمون في العودة إلى المدينة، ولقد تمت أمور ذات بال في طريق عودتهم، ومن تلك الأمور ما يلي:

---

(1) انظر فتح الباري.

(2) انظر فتح الباري 7/347.

(3) انظر: فقه السيرة، البوطي، ص 366.

- **بناء النبي ﷺ بصفية:**

قال ابن إسحاق: أعرس رسول الله ﷺ بصفية، بخيبر أو ببعض الطريق، وكانت التي جملتها لرسول الله ﷺ ومشطتها وأصلحت من أمرها، أم سليم بنت ملحان، أم أنس أبن مالك.

فبات بها رسول الله ﷺ في قبة له، وبات أبو أيوب خالد بن زيد، أخو بني النجار متوشحًا سيفه، يحرس رسول الله ﷺ، ويطيف بالقبة، حتى أصبح رسول الله ﷺ، فلما رأى مكانه قال: ما لك يا أبا أيوب؟ قال: يا رسول الله، خفت عليك من هذه المرأة (يقصد صفية)، وكانت امرأة قد قتلت أباها وزوجها وقومها، وكانت حديثة عهد بكفر، فخفتها عليك، فزعموا أن رسول الله ﷺ، قال: «اللّهم احفظ أبا أيوب كما بات يحفظني».

- **(إذا نسيتم الصلاة فصلوها إذا ذكرتموها):**

قال ابن إسحاق: وحدثني الزهري، عن سعيد بن المسيب، قال: لما انصرف رسول الله ﷺ من خيبر، فكان ببعض الطريق، قال من آخر الليل: من رجل يحفظ علينا الفجر لعلنا ننام؟ قال بلال: أنا يا رسول الله أحفظه عليك.

فنزل رسول الله ﷺ، ونزل الناس فناموا، وقام بلال يصلي، فصلى ما شاء الله عز وجل أن يصلي. ثم استند إلى بعيره، واستقبل الفجر يرمقه، فغلبته عينه، فنام فلم يوقظهم إلا مس الشمس، وكان رسول الله ﷺ أول أصحابه هب، فقال: ماذا صنعت بنا يا بلال؟! قال: يا رسول الله، أخذ بنفسي الذي أخذ بنفسك، قال: صدقت، ثم اقتاد رسول الله ﷺ بعيره غير كثير، ثم أناخ فتوضأ، وتوضأ الناس، ثم أمر فأقام الصلاة، فصلى رسول الله ﷺ بالناس، فلما سلم أقبل على الناس، فقال: «إذا نسيتم الصلاة فصلوها إذا ذكرتموها».

- **احتيال مباح:**

عن أنس بن مالك رَضِيَ اللَّهُ عَنْهُ قال: لما افتتح رسول الله ﷺ خيبر، قال الحجاج بن علاط: يا رسول الله، إن لي بمكة مالًا وإن لي بها أهلًا، وإني أريد أن آتيهم، فأنا في حِل إن

أنا نلت منك، وقلت شيئًا؟ (وكان أهل مكة لا يعلمون إسلامه) فأذن له رسول الله ﷺ أن يقول ما يشاء، فأتى امرأته حين قدم (مكة)، فقال: اجمعي لي ما كان عندك، فإني أريد أن أشتري من غنائم محمد وأصحابه، فإنهم قد استُبيحوا (هزموا)، أو أُصيبت أموالهم، قال: ففشا ذلك في مكة فانقمع المسلمون (الذين في مكة)، وأظهر المشركون فرحًا وسرورًا، قال: وبلغ الخبر العباس رَضِيَ اللَّهُ عَنْهُ فقعد، وجعل لا يستطيع أن يقوم.

قال معمر: فأخبرني عثمان الجزري عن مقسم، قال: فأخذ (العباس) ابنًا له يشبه رسول الله ﷺ يقال له: قثم، فاستلقى فوضعه على صدره، وهو يقول:

حبِّـــي قـــثم، حبِّـــي قـــثم شـــبيه ذي الأنـــف الأشـــم

نبـــــي رب ذي الـــــنعم بـــرغم أنـــف مـــن رغـــم

قال ثابت بن أنس: ثم أرسل غلامًا له إلى الحجاج، فقال: ويلك ما جئت به؟ وماذا تقول: فما وعد الله خيرًا مما جئت (أخبرت) به، قال: فقال الحجاج بن علاط لغلامه: اقرأ على أبي الفضل السلام، وقل له: فيُخل لي في بعض بيوته لآتيه، فإن الخبر على ما يسره، فجاءه غلامه، فلما بلغ باب الدار قال: أبشر يا أبا الفضل، قال: فوثب العباس فرحًا، حتى قبَّله بين عينيه، فأخبره بما قال الحجاج، فأعتقه، قال: ثم جاء الحجاج فأخبره أن رسول الله ﷺ قد افتتح خيبر، وغنم أموالهم، وجرت سهام الله في أموالهم، واصطفى رسول الله ﷺ صفية بنت حيي، فأخذها لنفسه، وخيرها أن يعتقها، وتكون زوجته، ولكني جئت لمالي، وإني استأذنت النبي ﷺ، فأخف عليّ يا أبا الفضل ثلاثًا (ثلاثة أيام)، ثم اذكر (أعلن) ما شئت. فجمعت امرأته (وهي لا تعلم من أمر زوجها شيئًا) ما كان عندها من حلي ومتاع فجمعه، فدفعته إليه ثم انشمر به، فلما كان بعد ثلاث أتى العباس امرأة الحجاج، فقال: ما فعل زوجك؟ فأخبرته أنه ذهب يوم كذا وكذا، وقالت: لا يخزيك الله يا أبا الفضل، لقد شق علينا الذي بلغك (من هزيمة محمد)، قال: أجل، لا يخزيني الله، ولم يكن بحمد الله إلا ما أحببنا، فتح الله خيبر على رسول الله ﷺ، وجرت فيها سهام الله، واصطفى رسول الله ﷺ صفية بنت حيي لنفسه، فإن كانت لك حاجة في زوجك فالحقي به، قالت: أظنك والله صادقًا، قال: فإني صادق، الأمر على ما أخبرتك فقال: ثم ذهب حتى أتى مجالس قريش، وهم يقولون إذ مر بهم: لا يصيبك إلا خير يا أبا الفضل،

قال لهم: لم يصبني إلا خير بحمد الله، قد أخبرني الحجاج بن علاط أن خيبر قد فتحها الله على رسول الله ﷺ، وجرت فيها سهام الله، واصطفى صفية لنفسه، وقد سألني أن أخفي عليه ثلاثًا، وإنما جاء ليأخذ ماله، وما كان له من شيء هاهنا، ثم يذهب، قال: فرد الله الكآبة التي كانت بالمسلمين على المشركين، وخرج المسلمون ومن كان دخل بيته مكتئبًا حتى أتوا العباس، فأخبرهم الخبر، فسُر المسلمون، ورد الله - تبارك وتعالى - ما كان من كآبة أو غيظ أو حزن على المشركين[1].

المبحث السابع: نظرات في فتح خيبر

كان لبعض العلماء الذين تناولوا سيرة الحبيب ﷺ بالدراسة والبحث وقفات ونظرات مهمة ونافعة في فتح خيبر، رأينا أن نسوقها للقارئ الحبيب؛ لإتمام الفائدة.

- يقول د. محمد سعيد البوطي:

«أول ما ينبغي أن يسترعي انتباهنا من أمر هذه الغزوة، ملاحظة الفرق بين طبيعتها، وطبيعة الغزوات السابقة التي تحدثنا عنها.

لقد كانت الغزوات السابقة كلها قائمة على أسباب دفاعية، اقتضت المسلمين أن يدافعوا بها عن وجودهم، وأن يردوا بها هجمات أعدائهم، كما قد رأيت لدى بيان سبب كل غزوة منها. أما هذه الغزوة - وهي أول غزوة تأتي بعد وقعة بني قريظة وصلح الحديبية - فإن لها وضعًا آخر، وإنها لتختلف - اختلافًا جوهريًّا - عن تلك التي كانت من قبلها، وهي تدل بذلك على أن الدعوة الإسلامية قد دخلت في مرحلة جديدة من بعد صلح الحديبية.

فغزوة خيبر أول غزوة بدأها رسول الله ﷺ وأغار بها فجأة على اليهود الذين استوطنوا بقاع خيبر، دون أن يبدأوا المسلمين بأي محاربة أو قتال.

لقد كان السبب الوحيد لها، هو دعوة اليهود إلى الإسلام، ومحاربتهم على كفرهم وعنادهم عن قبول الحق، وأحقادهم المتعجلة في صدورهم، على الرغم من الدعوة السلمية التي قامت مدة طويلة على الأدلة والبراهين. ولذلك بات رسول الله ﷺ الليلة

---

(1) أخرجه أحمد في المسند (3/138- 139)، انظر: السيرة للصلابي، ص 709 - 710.

الأولى من وصوله إلى خيبر دون أن يشعر أحدًا بوجوده، أو أن يقاتل أحدًا، وانتظر حتى إذا أصبح ولم يسمع أذانًا إلى الصلاة - وهي الشعيرة الإسلامية الكبرى - أغار عليهم وقاتلهم على ذلك. وقد قلنا إنه كان إذا غزا قومًا لم يغر عليهم حتى يصبح، فإن سمع أذانًا أمسك، وإن لم يسمع أذانًا أغار.

ويزداد هذا السبب وضوحًا إذا تأملت في سؤال علي رَضِيَ اللَّهُ عَنْهُ لرسول الله ﷺ بعد أن أعطاه اللواء: أقاتلهم حتى يكونوا مثلنا؟، وفي جوابه ﷺ إذ قال: «انْفُذ على رسلك حتى تنزل بساحتهم، ثم ادعهم إلى الإسلام، وأخبرهم بما يجب عليهم من حق الله فيه»[1].

يقول الشيخ محمد الغزالي:

«والعظة التي نستخلصها من هذه المعارك وما أعقبها من جلاء، أن الأرض لله يورثها من يشاء، وهو لا ينتزعها من قوم، ويعطيها آخرين محاباة .. كلا، ولكن الأمة التي تفسد على النعمة تُسلَبَها، ثم تساق النعمة إلى من يقدرها ويشكر الله عليها! والأمة التي تتكبر مع الحرية وتتبطر، تفقد امتلاكها لنفسها، وحقها، وأمرها، لتقع في إسار الآخرين فيُصْرفون شئونها كما يشتهون».

وقد طُبق هذا القانون على بني إسرائيل بقسوة، عندما أهدروا أحكام التوراة، وتبعوا الهوى! وطُبق بعد ذلك على المسلمين، يوم سدروا في الغواية، وجحدوا ما لديهم من هداية ﴿وَكَذَٰلِكَ أَخْذُ رَبِّكَ إِذَآ أَخَذَ ٱلْقُرَىٰ وَهِيَ ظَٰلِمَةٌ ۚ إِنَّ أَخْذَهُۥٓ أَلِيمٌ شَدِيدٌ ﴿١٠٢﴾﴾ [هود].

إن الحياة كر وفر، وإقبال وإدبار، والنظرة العجلى إلى تاريخ البشر توحي بأن مكان الصدارة لم يثبت لأمة من الأمم إلا ريثما تتهيأ أمة أخرى لانتزاعه.

والدول التي سادت، أشبه بلجج البحر، التي ترتفع حينًا، ثم تلبث أن تضمحل رويدًا رويدًا، حتى تنداح على الشاطئ ضعيفة متطامنة، ولا مانع من أن تعود مرة أخرى مع المد، لتبلغ الأوج، ثم تنفك عنها أسباب القوة، فتهبط مستكينة من جديد.

---

(1) فقه السيرة للبوطي، ص 362- 363.

وقد ملك بنو إسرائيل وعزوا بقَدَر حكمي، ثم سُلبوا الملك والعزة بقَدَر كذلك لترثها دولة الإسلام الفتى الناهض، وتم هذا التحول لخير البشر قاطبة.

لماذا تظاهر (تُساند) اليهودية الوثنية ضد الإسلام؟ ولمصلحة من يقع هذا؟ إن بني إسرائيل ينظرون إلى الدنيا والدين من خلال منافعهم الخاصة، وذلك ما حدا بهم إلى مقاومة الإسلام بعنف. أما القَدَر الأعلى، فيريد أن يجعل من الأمة الجديدة رسالة تغيير شامل لما شاع في العالم أجمع من مفاسد، ولما عرا حضارته من تعفن وركود. فإذا وقفت حفنة من الأعراب أو حفنة من اليهود لتعترض هذا التحول الهائل بدوافع من الحقد الرخيص أو المطامع الدنيا، فهي التي جنت على نفسها إذا غرقت في الطوفان.

لو ظل اليهود ألف سنة أخرى في جزيرة العرب ما زادوها إلا انقسامًا، وما اكتسبت أقطار الأرض من بقائهم شيئًا، ربما نالت مزيدًا من الحبوب والفواكه التي يتقنون زراعتها، بيد أنها لن تظفر بهذه الزيادة إلا ومعها كفل من الفساد الذي يصدره بنو إسرائيل إلى العالم مع معاملات الربا، وأخلاق العهر والتحلل .. أما الإسلام فقد خرج من الجزيرة - يوم خرج - رسالة إيمان وإصلاح، بما يحمله في طواياه من حق ونفع استحق الانتصار والانتشار.

فلما جرى على أمته من أسباب البلى والخمول ما جرى على اليهود الأولين، تعرضت للطرد من أوطانها، والتشرد هنا وهناك، كما تعرض غيرهم، حذو النعل بالنعل[1].

د. محمد أبو شهبة:

تناول د. محمد أبو شهبة رَحِمَهُ ٱللَّهُ بعض التشريعات التي شُرعت مع أحداث الغزوة، نختار منها ما ذكره عن تحريم نكاح المتعة:

«وفي خيبر حرم النبي نكاح المتعة، وهو النكاح لأجل، ولم يكن يستلزم طلاقًا ولا عدة، ولا يستوجب ميراثًا، وقد كان هذا النكاح معروفًا في الجاهلية، فلما جاء الإسلام

(1) فقه السيرة للغزالي، ص 378- 379.

أباحه في بعض الغزوات للضرورة القصوى، ففي حديث ابن مسعود: (أنهم كانوا إذا غزوا اشتدت عليهم العُزبة، فأذن في الاستمتاع).

وقد ورد في حل المتعة ثم تحريمها أحاديث كثيرة في الصحيحين وغيرهما، ففي الصحيحين عن علي رَضِيَ اللَّهُ عَنْهُ، قال: نهى رسول الله ﷺ عن المتعة، عام خيبر، ولحوم الحمر الأهلية. وفي صحيح البخاري عن علي أيضًا التصريح بأن نكاح المتعة نسخ. وتحرير المقال في هذا المقام الذي كثر فيه القيل والقال: إن تحريم المتعة بعد إباحتها وقع مرتين: الأولى يوم خيبر، والثانية يوم فتح مكة، أبيحت ثلاثة أيام ثم حرمت بعد ذلك تحريمًا مؤبدًا إلى يوم القيامة، ووقع الإجماع بعد ذلك على تحريمها من جميع العلماء إلا الشيعة.

وكان ابن عباس رَضِيَ اللَّهُ عَنْهُمَا يقول بإباحتها، وروي عنه أنه رجع عنه، بل قد ورد عنه أنه يبيحها للضرورة، فقد روى الخطابي والفاكهي عن سعيد بن جبير، قال: قلت لابن عباس: لقد سارت بفُتياك الركبان، وقال فيها الشعراء، فقال: والله ما بهذا أفتيت، وما هي إلا كالميتة لا تحل إلا للمضطر. فإذا ثبت ذلك وأنه رجع عن مقالته، فقد تأكد الإجماع على حرمتها بعد الفتح إلى يوم القيامة، وأجمع العلماء على أنه متى وقع نكاح المتعة الآن حكم ببطلانه، سواء كان قبل الدخول، أو بعده، إلا ما ورد عن نفر من الحنفية، في أنه يتأبد نكاحه، وكأنه يرى التوقيت من باب الشروط الفاسدة في النكاح، فإنها تلغى، ويصح النكاح.

ولا أدري كيف يستحل الشيعة نكاح المتعة، ويقولون ببقائه بعدما ثبت في الصحيحين عن الإمام علي رَضِيَ اللَّهُ عَنْهُ، أن النبي ﷺ نهى عنها، وأنها منسوخة[1]؟! والحق أحق أن يتبع[2].

* * *

---

(1) صحيح مسلم بشرح النووي، ج 9، ص 179- 181، وفتح الباري بشرح صحيح البخاري، ج 9، ص 136.

(2) السيرة لأبي شهبة، ج 2، ص 381- 382.

الفصل الثاني
غزوة ذات الرقاع

اختلف أهل المغازي والسير في تاريخ هذه الغزوة، وقد جنح البخاري إلى أنها كانت بعد خيبر، وذهب ابن إسحاق إلى أنها بعد غزوة بني النضير، وقيل بعد الخندق سنة أربع، وعند الواقدي وابن سعد أنها كانت في المحرم سنة خمس، وجزم أبو معشر أنها كانت بعد بني قريظة والخندق. والراجح عند ابن حجر ما ذهب إليه البخاري وأبو معشر؛ لأن أبا موسى الأشعري شهدها، وقد قدم من الحبشة بعد فتح خيبر مباشرة، وشهدها أبو هريرة وقد أسلم حين فتحت خيبر، وصلى فيها رسول الله ﷺ صلاة الخوف، ولم تكن شرعت في الخندق، بل شرعت في عسفان أيام الحديبية، والحديبية سنة ست[1].

- **سبب الغزوة وسبب التسمية:**

ذكر في سبب هذه الغزوة أن بني محارب وبني ثعلبة من غطفان قد جمعوا الجموع، وأجمعوا أمرهم على حرب رسول الله ﷺ، فبلغ ذلك رسول الله ﷺ، فخرج إليهم في أربعمائة مقاتل، واستخلف على المدينة أبا ذر الغفاري، أو عثمان بن عفان رَضِيَ اللَّهُ عَنْهُمَا، وسار إليهم وهم بديار نجد، فنزل (نخلًا)، وهو موضع من نجد في أرض غطفان.

ولما علم بمسيره ﷺ من أجمعوا أمرهم على قتاله، تفرقوا ولحقوا برءوس الجبال، فلم يكن قتال، وسميت هذه الغزوة بذات الرقاع؛ لأنهم كانوا يعتقبون البعير (يتناوبون الركوب عليها) كل ستة ببعير، وكان الفصل صيفًا، ولم يطيقوا الحر، فكانوا يلفون الخرق على أرجلهم، فسميت ذات الرقاع[2].

- روى في الصحيحين عن أبي موسى الأشعري رَضِيَ اللَّهُ عَنْهُ، قال: (خرجنا مع رسول الله ﷺ في غزاة ونحن ستة نفر بيننا بعير نعتقبه، قال: فنقبت أقدامنا، فنقبت قدماي،

---

(1) انظر: السيرة لمهدي رزق الله، ص 424.

(2) البخاري (5/53)، ومسلم (2/214).

وسقطت أظفاري، فكنا نلف على أرجلنا الخرق، فسميت غزوة ذات الرقاع؛ لما كنا نعصب على أرجلنا من الخرق. قال أبو موسى بهذا الحديث ثم كره ذلك، قال: كأنه كره أن يكون شيئًا من عمله أفشاه).

- **مشاهد من الغزوة تستأهل النظر:**

رغم أن هذه الغزوة لم يقع فيها قتال، إلا أنها حفلت بالمشاهد التي تستأهل النظر فيها، وأخذ العبر والدروس منها، ومن هذه المشاهد:

1- **صلاة الخوف:**

روى البخاري ومسلم، أنه ﷺ صلى في غزوة ذات الرقاع صلاة الخوف، وأن طائفة صفت معه، وطائفة (في مواجهة) وُجاه العدو. فصلى بالتي معه ركعة، ثم ثبت قائمًا وأتموا لأنفسهم، ثم انصرفوا فصفوا وُجاه العدو، وجاءت الطائفة (الأخرى) فصلى بهم الركعة التي بقيت من صلاته، ثم ثبت جالسًا، وأتموا لأنفسهم، ثم سلم بهم.

2- **عباد بن بشر وعمار بن ياسر في الحراسة:**

روى ابن إسحاق وأحمد عن جابر رَضِيَ اللَّهُ عَنْهُمَا، قال: «خرجنا مع رسول الله ﷺ في غزوة ذات الرقاع، فأصيبت امرأة من المشركين، فلما انصرف رسول الله ﷺ قافلًا وجاء زوجها، وكان غائبًا، فحلف أن لا ينتهي حتى يهريق دمًا في أصحاب محمد ﷺ، فخرج يتبع أثر النبي ﷺ، فنزل النبي ﷺ منزلًا، فقال: من رجل يكلؤنا (يحرسنا) ليلتنا هذه؟ قال: فانتدب رجل من المهاجرين وآخر من الأنصار(1)، فقالا: نحن يا رسول الله، قال: فكونا بفم الشعب، قال: وكان رسول الله ﷺ وأصحابه قد نزلوا إلى شعب من الوادي».

فلما خرج الرجلان إلى فم الشعب، قال الأنصاري للمهاجري: أي الليل تحب أن أكفيكه؟ أوله أم أخره؟ قال: بل اكفني أوله. فاضطجع المهاجري فنام، وقام الأنصاري يصلي، قال: وأتى الرجل، فلما رأى شخص الأنصاري، عرف أنه ربيئة القوم (الطليعة

(1) هما: عمار بن ياسر من المهاجرين، وعباد بن بشر من الأنصار.

الذي يحرسهم)، فرمى بسهم فوضعه فيه، فنزعه الأنصاري وثبت قائمًا يصلي، ثم رماه بسهم آخر فوضعه فيه، فنزعه وثبت قائمًا، ثم عاد له بالثالثة فنزعه، ثم ركع وسجد، وأهب صاحبه (أيقظه) قائلًا: اجلس فقد أُثبتُّ، قال: فوثب، فلما رآهما الرجل عرف أن قد نُذر به فهرب، ولما رأى المهاجري ما بالأنصاري من الدماء، قال: سبحان الله، أفلا أيقظتني أول ما رماك، قال: كنت في سورة أقرؤها، فلم أحب أن أقطعها. فلما ثابر على الرمي ركعت فآذنتك. وايم الله، لولا أن أُضيع ثغرًا أمرني رسول الله بحفظه، لقطع نفسي قبل أن أقطعها (أي: السورة) أو أنفذها.

3- من يمنعك مني؟:

روى البخاري[1] أيضًا، عن جابر رَضِيَ اللَّهُ عَنْهُمَا: «أنه لما قفل رسول الله ﷺ قفل معه، فأدركتهم القائلة (وقت القيلولة) في واد كثير العضاه (نوع من الشجر)، فنزل رسول الله ﷺ، وتفرق الناس يستظلون الشجر، ونزل رسول الله ﷺ تحت سَمُرة، فعلق بها سيفه، قال جابر: فنمنا نومة، فإذا رسول الله ﷺ يدعونا فجئناه، فإذا عنده أعرابي جالس، فقال رسول الله ﷺ: «إن هذا اخترط سيفي وأنا نائم فاستيقظت وهو في يده صلتًا، فقال لي: من يمنعك مني؟ فقلت له: الله، فها هو ذا جالس» .. ثم لم يعاقبه رسول الله ﷺ[2].

واسم الأعرابي (غوث بن الحارث)، وقد عاهد رسول الله ﷺ أن لا يقاتله، ولا يكون مع قوم يقاتلونه، فخلى سبيله، فجاء إلى أصحابه فقال: (جئتكم من عند خير الناس)[3].

وذكر قتادة وابن إسحاق، أن قوله تعالى: ﴿ يَـٰٓأَيُّهَا ٱلَّذِينَ ءَامَنُوا۟ ٱذْكُرُوا۟ نِعْمَتَ ٱللَّهِ عَلَيْكُمْ إِذْ هَمَّ قَوْمٌ أَن يَبْسُطُوٓا۟ إِلَيْكُمْ أَيْدِيَهُمْ فَكَفَّ أَيْدِيَهُمْ عَنكُمْ ۖ وَٱتَّقُوا۟ ٱللَّهَ ۚ وَعَلَى ٱللَّهِ فَلْيَتَوَكَّلِ ٱلْمُؤْمِنُونَ ﴿١١﴾ ﴾ [المائدة] قد نزل في هذا الأعرابي[4].

---

(1) صحيح البخاري/ 50 - 54.

(2) البوطي، ص 287.

(3) انظر السيرة النبوية، لمهدي رزق الله، ص 427.

(4) المصدر السابق، ص 426.

4- جمل جابر بن عبد الله:

قال جابر بن عبد الله رَضِيَ اللَّهُ عَنْهُمَا: خرجت مع رسول الله ﷺ إلى غزوة ذات الرقاع، من نخل (اسم بلدة) على جمل لي ضعيف، فلما قفل (رجع) رسول الله ﷺ قال: جعلت الرفاق تمضي، وجعلت أتخلف حتى أدركني رسول الله ﷺ، فقال: «ما لك يا جابر؟»، قال: يا رسول الله، أبطأني جملي هذا، قال: «أنخه»، فأنخته، وأناخ رسول الله ﷺ، ثم قال: «أعطني هذه العصا من يدك، أو اقطع لي عصًا من شجرة»، قال: ففعلت. قال: فأخذها رسول الله ﷺ فنخسه بها نخسات، ثم قال: «اركب»، فركبت فخرج - والذي بعثه بالحق - يواهق ناقته مواهقة (أي يسابقها ويعارضها في المشي لسرعته)[1].

- أثر غزوة ذات الرقاع:

كان لهذه الغزوة أثر في قذف الرعب في قلوب الأعراب القساة، وإذا نظرنا إلى تفاصيل السرايا بعد هذه الغزوة، نرى أن هذه القبائل من غطفان لم تجترئ أن ترفع رأسها بعد هذه الغزوة، بل استكانت شيئًا فشيئًا حتى استسلمت، بل وأسلمت، حتى نرى عدة قبائل من هؤلاء الأعراب تقوم مع المسلمين في فتح مكة، وتغزو حنينًا، وتأخذ من غنائمها، ويبعث إليها المصدقون فتعطي صدقاتها بعد الرجوع من غزوة الفتح، فبهذا تم كسر الأجنحة الثلاثة التي كانت ممثلة في الأحزاب (قريش، وغطفان، واليهود)، وساد المنطقة الأمن والسلام، واستطاع المسلمون - بعد ذلك - أن يسدوا بسهولة كل خلل وثلمة حدثت في بعض المناطق من بعض القبائل، بل بعد هذه الغزوة بدأت التمهيدات لفتوح البلدان والممالك الكبيرة؛ لأن داخل البلاد كانت الظروف قد تطورت لصالح الإسلام والمسلمين[2].

* * *

---

(1) الرحيق المختوم، ص 382.

(2) الصلابي، ص 566.

الفصل الثالث

سرايا لتأديب الأعراب

بعد أن عاد رسول الله ﷺ إلى المدينة، أقام بها إلى شوال سنة 7هـ. وبعث في خلال ذلك عدة سرايا؛ لتعقب مجرمي البدو الذين كانوا بالأمس يحاصرون دولة الإسلام، ثم انفرط عقدهم بعد الموادعة التي تمت في الحديبية بين رسول الله ﷺ وقريش. فكان بث السرايا في فيافي (نجد) من أهم ما شغل المسلمين بعدما رجعوا من خيبر في السنة السابعة من الهجرة، حتى شدوا الرحال إلى مكة لعمرة القضاء، كما نُص على موعدها في صلح الحديبية.

وكانت هذه السرايا أقرب إلى فرق الشرطة منها إلى الجيوش المعبأة. والهدف الأكبر من بعثها، توطيد الأمن، ومنع الغارات على المدينة، وتمكين الدعاة إلى الله من أن يجوبوا الآفاق بتعاليم الرسالة دون غدر أو خيانة.

والسرايا التي كان رسول الله ﷺ يسيرها إلى كل فج، كانت تحمل معها كلام الله إلى الناس جميعًا، فقد مضى المسلمون في نشر دعوة الله داخل جزيرة العرب منذ أمضوا عهد الحديبية، ونجحوا في ذلك نجاحًا ملحوظًا، فدخلت قبائل كثيرة في عهدهم، على حين انصرفت جموع الأعراب عن قريش، فلم يدخل في عهدهم أحد. وسير الأمور في هذا الاتجاه كان التمهيد الفعال لغلبة الإسلام، ثم فتح مكة نفسها فيما بعد[1].

سرية أبي بكر الصديق:

فقد بعث ﷺ أبا بكر الصديق ومعه سلمة بن الأكوع إلى نجد، حيث بنو فزارة، فغزوا وأسروا من العدو ما شاء الله تعالى، ووقع في الأسر جارية كانت في سهم سلمة، فاستوهبها منه رسول الله ﷺ، وفادى بها أسرى من المسلمين كانوا بمكة موثقين.

---

(1) الغزالي: فقه السيرة، ص 381- 382، مختصرًا وبتصرف.

سرية عمر بن الخطاب:

بعث به ﷺ في ثلاثين رجلًا إلى «تُربَة» من أرض هوازن، وكان دليله من بني هلال، فكانوا يسيرون الليل، ويكمنون النهار، فبلغ الخبر هوزان، فهربوا، ووصلت السرية إلى ديارهم، فلم يلقوا منهم أحدًا، فانصرفوا راجعين المدينة، ولم يلقوا كيدًا.

سرية بشير بن سعد الأنصاري:

بعث به ﷺ في ثلاثين رجلًا إلى بني مرّة بمنطقة فدك، فاستاقوا نعمهم، فقاتلوهم فقتلوا عامة أفراد السرية، وصبر بشير يقاتل وحده قتال الأبطال، حتى جاء جن الظلام، فلجأ إلى فدك وحده، فبات عند يهودي من أهلها، ثم كر عائدًا إلى المدينة.

سرية غالب الكلبي:

وبعث رسول الله ﷺ سرية غالب بن عبد الله الكلبي إلى الحرقات من جهينة، فصبحوهم، فهزموهم، وكان في السرية أسامة بن زيد بن حارثة، ففر رجل من القوم، فلحقه هو ورجل من الأنصار، فأدركه أسامة، فقال الرجل: لا إله إلا الله، فكف الأنصاري عنه، وطعنه أسامة بحربته، فقتل فلما قدموا إلى المدينة، أخبر بذلك رسول الله ﷺ، فقال له: «يا أسامة، أقتلته بعد ما قال لا إله إلا الله؟!»، فقال أسامة: إنما كان متعوذًا[1]، فما زال الرسول ﷺ يكررها حتى قال أسامة: تمنيت أني لم أكن أسلمت قبل ذلك اليوم، وهذه الحادثة يُنظر إليها من خلال قول الله تعالى: ﴿ يَـٰٓأَيُّهَا ٱلَّذِينَ ءَامَنُوٓاْ إِذَا ضَرَبْتُمْ فِى سَبِيلِ ٱللَّهِ فَتَبَيَّنُواْ وَلَا تَقُولُواْ لِمَنْ أَلْقَىٰٓ إِلَيْكُمُ ٱلسَّلَـٰمَ لَسْتَ مُؤْمِنًا تَبْتَغُونَ عَرَضَ ٱلْحَيَوٰةِ ٱلدُّنْيَا ﴾ [النساء: 94]؛ فإنها تدل على نوع الحادث.

سرية بشير بن سعد الأنصاري:

وبعث رسول الله ﷺ بشير بن سعد الأنصاري[2] في ثلاثمائة رجل إلى اليمن من أرض

---

(1) أي بقوله لا إله إلا الله ليحفظ نفسه من القتل.

(2) هو والد النعمان بن بشير الصحابي الجليل.

غطفان؛ وذلك من أجل جمع من المشركين، تجمعوا للإغارة على المدينة النبوية، بإغراء وإمداد عيينة بن حصن الطاغية الظالم، فساروا إليهم يمشون الليل ويكمنون النهار، وبلغ ذلك الجمع مسير بشير بن سعد الأنصاري، فهربوا، فأصاب بشير وأصحابه نعمًا كثيرة، وأسروا منهم رجلين، قدموا بهما إلى النبي ﷺ، فأسلما وحسن إسلامهما.

سرية عبد الله بن حذافة:

وبعث رسول الله ﷺ عبد الله بن حذافة على رأس سرية، وأمر أفراد السرية أن يسمعوا لعبد الله وأن يطيعوا، وسار حتى إذا كان في بعض الطريق نزل منزلًا، وطلب من أفراد السرية شيئًا فأغضبوه فيه، وهنا قال لهم: اجمعوا لي حطبًا، فجمعوا، فقال لهم: أوقدوا نارًا، فأوقدوا، ثم قال لهم: ألم يأمركم رسول الله ﷺ أن تسمعوا لي وتطيعوا؟ قالوا: بلى، قال فادخلوها، فنظر بعضهم إلى بعض، وقالوا: إنما فررنا إلى رسول الله من النار (أي: إنما دخلنا الإسلام فرارًا من النار)، وعندها سكن غضبه وطفئت النار، فلما قدموا على النبي ﷺ ذكروا ذلك له، فقال: «لو دخلوها ما خرجوا منها، إنما الطاعة في المعروف»[1].

* * *

(1) انظر: هذا الحبيب يا محب للجزائري، ص 369- 372.

الفصل الرابع

زواج النبي ﷺ من أم حبيبة بنت أبي سفيان

وفي هذه السنة – على ما رجحه ابن كثير في بدايته – تزوج النبي ﷺ السيدة أم حبيبة – رملة، وقيل هند، والأول أصح – بنت أبي سفيان بن حرب بن أمية بن عبد شمس، وأمها صفية بنت أبي العاص بن أمية، ولدت قبل البعثة بسبعة عشر عامًا، وكانت قبل النبي تحت زوجها عبيد الله بن جحش، وكانا أسلما وهاجرا إلى الحبشة، فولدت بها حبيبة وبها كانت تكنى، وقيل ولدتها بمكة ثم هاجرت بها، ثم تنصر زوجها، وبقيت على إسلامها، ثم مات، فلما انقضت عدتها، كتب رسول الله ﷺ إلى النجاشي أن يتولى له العقد عليها، وقيل أرسل له عمرو بن أمية الضمري بذلك، فولي النجاشي العقد، وأمهرها عن رسول الله ﷺ أربعمائة دينار، وتولى نكاح أم حبيبة ابن عمها خالد بن سعيد بن العاص (وسبق ذكر ذلك).

وقد بقيت السيدة أم حبيبة بالحبشة حتى قدمت إلى المدينة مع مهاجري الحبشة سنة سبع، ولما بلغ أباها أبا سفيان تزوج النبي بها، قال: (هو الفحل لا يُقْدع أنفه)[1]، وكان من سرورها بهذا الزواج أن أهدت الجارية التي أرسلها النجاشي لتعرض عليها زواج رسول الله ﷺ بها سوارين من فضة وبعض الدنانير، ولكن الجارية ردته بأمر سيدها النجاشي، وجاءت لها بعود وورس وعنبر، قالت: فقدمت به معي على رسول الله ﷺ [2].

الحكمة في تزوج النبي بها:

ومما ذكرنا يتبين للمنصف أن النبي لم يرد بزواجه منها قضاء شهوة، أو إشباع رغبة جنسية، فالنبي لم يدخل بها إلا بعد خيبر (أي: بعد سنوات)، وإنما أراد المواساة بالنفس؛

---

(1) مثل يضرب للكفء الكريم.

(2) الإصابة، ج3، ص 305- 306.

فقد تنصر زوجها وثبتت على إيمانها، ومات فأصبحت أيمًا، فكان عملًا إنسانيًّا كريمًا أن عقد عليها، وصارت بذلك في عداد أمهات المؤمنين، وحظيت بهذا الشرف الرفيع؛ كفاء هجرتها وثباتها وتحملها، وناهيك بالاحترام البالغ الذي وجدته فيما بعد في نفوس المسلمين، والحفاوة البالغة التي أحاطها بها ملك الحبشة العادل الكريم، ألا إنه موقف كريم، تغص به حلوق المتقوِّلين على الرسول العظيم.

وفاتها:

وكانت وفاتها بالمدينة سنة أربع وأربعين، فرضي الله عنها وأرضاها[1].

* * *

(1) انظر: السيرة لأبي شهبة، ج 2، ص 315- 316.

الفصل الخامس

عمرة القضاء

أوشكت السنة السابعة أن تنقضي، وحق للمسلمين أن يعودوا إلى مكة؛ ليؤدوا مناسك العمرة التي حرموا من أدائها قبلًا .. لقد تأخروا عامًا وهم كارهون، لكن مكاسبهم للدعوة في هذه الفترة أربت على الأماني[1]، وآن لهم أن يخرجوا إلى الحرم والهدي أمامهم، والانتصارات العريضة خلفهم.

- **الخروج:**

ما أن وافى ذو القعدة عام سبعة حتى أذن مؤذن رسول الله أن يتجهزوا للعمرة، وخرج مع رسول الله ﷺ كل من كان معه بالحديبية إلا من مات أو استشهد، وخرج معه آخرون، حتى بلغت عدتهم ألفين، واستخلف على المدينة عويف بن الأضبط الديلي، وقيل أبا رهم، وسار رسول الله ﷺ يلبي والمسلمون يلبون بعد أن أحرموا بالعمرة، وساقوا أمامهم الهدي، وشهدت الصحراء هذا المشهد الرائع الذي لم تشهده من قبل، وعجت الصحراء بالتهليل والتكبير والتلبية، والمسلمون يغذون السير، يحدوهم الشوق إلى بيت الله الحرام، ويستخفهم الفرح بالعودة إلى البلد الطيب الذي فيه ولدوا، وعلى ترابه ترعرعوا، وفي مغانيه كانت ذكريات الطفولة ومآرب الشباب[2].

- **الحذر:**

وكان رسول الله ﷺ - رعاية للحيطة، وأخذًا للحذر - قد ساق أمامه الخيل، وعليها محمد بن مسلمة، والسلاح مع بشير بن سعد، حتى إذا غدر أهل مكة بهم، أو أهاجهم هائج، كان السلاح قريبًا منهم، وفي مر الظهران التقى نفر من قريش بمحمد بن مسلمة في خيل المسلمين، ورأوا السلاح مع بشير بن سعد، فرجعوا سراعًا، فأخبروا قريشًا،

---

(1) الغزالي: فقه السنة، ص 393.

(2) أبو شهبة: السيرة النبوية، ص 375.

ففزعت قريش، وقالوا: والله ما أحدثنا حدثًا، وإنا على كتابنا وهدنتنا، ففيم يغزونا محمد في أصحابه؟ ولما بلغ رسول الله ﷺ بطن يأجج، حيث ينظر أنصاب الحرم[1]، ترك الخيل والسلاح، وبعثت قريش مكرز بن حفص في نفر منهم، فالتقوا بالنبي ببطن يأجج، فقالوا: يا محمد ما عُرفت صغيرًا ولا كبيرًا بالغدر، وقد شرطت أن لا تدخل مكة إلا بالسيوف في القرب، فقال له النبي ﷺ: «إني لا أدخل عليهم السلاح». فقال مكرز: هذا الذي تُعرف به: البر والوفاء[2].

- قريش تخرج إلى رءوس الجبال:

ثم رجع إلى قريش فأخبرهم، فخرجوا إلى رءوس الجبال، وأخلوا مكة للمسلمين، واكتفوا بالنظر إليهم من علٍ، واستبد الحنق والغضب ببعضهم، فذهبوا إلى «الخندمة»؛ كراهة أن ينظروا إلى النبي وإلى أصحابه، وتهيأ المسلمون لدخول البلد الحرام، وركب رسول الله على ناقته القصواء، وهؤلاء الغر الميامين والأبطال الأشاوس يحيطون به، وهم متوشحون سيوفهم، والكل يقول: «لبيك اللّهم لبيك، لبيك لا شريك لك لبيك، إن الحمد والنعمة، لك والملك، لا شريك لك» وعبد الله بن رواحة آخذ بزمام الناقة، وهو يرتجز ويقول:

خلوا بني الكفار عن سبيله	خلوا فكل الخير في رسوله
يا رب إني مؤمن بقيله	أعرف حق الله في قبوله
نحن قتلناكم على تأويله	كما قتلناكم على تنزيله
ضربًا يزيل الهام عن مقيله	ويذهل الخليل عن خليله[3]

(1) العلامات الدالة عليه.

(2) أبو شهبة: السيرة النبوية، ص 376.

(3) المصدر السابق، ص 376.

- رحم الله امرأ أراهم اليوم من نفسه قوة:

ودخل المسلمون المسجد الحرام؛ ليطوفوا بالبيت، وكان المشركون قد أرجفوا وقالوا: إنه يقدم عليكم وفد وهنتهم حمى يثرب، وتطلعوا من رءوس الجبال ليروا الذين أضعفتهم الحمى والغربة، فلما علم النبي بهذه المقالة اضطبع بردائه، وصار يهرول، وأمر المسلمين أن يضطبعوا ويهرولوا، وقال: «رحم الله امرأ أراهم اليوم من نفسه قوة». فكان إذا استلم الحجر الأسود هرول وهرولوا، حتى إذا استلم الركن اليماني وواراه البيت منهم مشى ومشوا، حتى يستلم الركن عند الحجر الأسود، هكذا فعل الأشواط الثلاثة الأولى ومشى في الأربعة الباقية، ولولا الرحمة بهم، والإشفاق عليهم لهرول بهم الأشواط كلها.

وبعد الطواف وصلاة ركعتين عند مقام إبراهيم سعوا بين الصفا والمروة ثم حلقوا وذبحوا هديهم، وبذلك تمت عمرتهم. ورأى المشركون هذا المشهد المؤثر المعبر، فخاب ظنهم، ولم يكتموا ما بأنفسهم، فقالوا: ما يرضون بالمشي، أما إنهم لينفرون نفر الظباء، وازدادوا كمدًا إلى كمد[1].

وعندما فرغ رسول الله ﷺ من أداء مناسك العمرة، أمر جماعة من الصحابة أن يذهبوا إلى أصحابهم ببطن يأجج، فيقيموا على السلاح، ويأتي الآخرون الذين كانوا في حراسة السلاح؛ ليقضوا نسكهم، ففعلوا، ثم دخل ﷺ الكعبة، ومكث بها إلى الظهر، ثم أمر بلالًا فأذن على ظهر الكعبة[2].

- إقامة النبي ﷺ بمكة:

مكث رسول الله ﷺ والمسلمون بمكة ثلاثة أيام، يطوفون بالبيت ويصلون، وأثناء إقامته ﷺ بمكة، تزوج ميمونة بنت الحارث، أخت أم الفضل زوج عمه العباس رَضِيَ اللهُ عَنْهُ، وقد وكلت العباس، فتولى عقد نكاحها، وكانت ميمونة تحت أبي رهم بن عبد العزى، وقيل تحت أخيه حويطب[3].

---

(1) المصدر السابق، ص 377.

(2) ابن سعد (122/2) معلقًا، وانظر: السيرة النبوية، لمهدي رزق الله، ص 532.

(3) انظر: ابن حجر، الفتح 97/16.

ولما مضى من دخوله عليه الصلاة والسلام مكة ثلاثة أيام (وهي المدة التي قاضى قريشًا على الإقامة بها) أتوا عليًّا رَضِيَ اللَّهُ عَنْهُ، فقالوا: قل لصاحبك اخرج عنا؛ فقد مضى الأجل، فخرج النبي ﷺ(1).

وبنى ﷺ بميمونة في طريقه إلى المدينة، في مكان اسمه (سَرِف) قرب التنعيم، ثم انصرف إلى المدينة في ذي الحجة(2).

ونزل في عمرة القضاء قول الله تعالى: ﴿لَّقَدْ صَدَقَ ٱللَّهُ رَسُولَهُ ٱلرُّءْيَا بِٱلْحَقِّ ۖ لَتَدْخُلُنَّ ٱلْمَسْجِدَ ٱلْحَرَامَ إِن شَآءَ ٱللَّهُ ءَامِنِينَ مُحَلِّقِينَ رُءُوسَكُمْ وَمُقَصِّرِينَ لَا تَخَافُونَ ۖ فَعَلِمَ مَا لَمْ تَعْلَمُوا۟ فَجَعَلَ مِن دُونِ ذَٰلِكَ فَتْحًا قَرِيبًا ﴿٢٧﴾﴾ [الفتح].

ومصداق ذلك فيما يلي:

1- فتح خيبر، وهو فتح قريب، والفتح البعيد هو فتح مكة العام القابل سنة ثمان من الهجرة؛ لأن كلمة «فتحا قريبًا» تشير إلى فتح بعيد يأتي بعد القريب.

2- دخولهم مكة في عمرة القضاء آمنين غير خائفين.

3- إذ بعد الفراغ من طوافهم وسعيهم، منهم من حلق ومنهم من قصر، فكان هذا تأويل رؤيا الرسول ﷺ التي رآها قبيل الحديبية(3).

- ابنة حمزة سيد الشهداء:

ولما أراد الرسول ﷺ الخروج من مكة، تبعتهم الطفلة عمارة ابنة حمزة بن عبد المطلب تنادي: يا عم يا عم، فأخذها عليّ ودفعها لفاطمة، وهي ابنة عمه، فاختصم فيها عليّ وزيد وجعفر، فقال علي: أنا أخذتها وهي ابنة عمي، وقال جعفر: ابنة عمي وخالتها تحتي،

(1) رواه البخاري 85/5.

(2) البوطي: فقه السيرة، ص 377.

(3) الجزائري: هذا الحبيب يا محب، ص 374.

وقال زيد: ابنة أخي، فقضى بها رسول الله ﷺ لخالتها، وقال: «الخالة بمنزلة الأم»، وقال لعلي: «أنت مني وأنا منك»، وقال لجعفر: «أشبهت خلقي وخلقي»، وقال لزيد: «أنت أخونا ومولانا»[1]، وكان هذا القضاء لأن جعفر محرم لها؛ إذ لا يجمع الرجل بين المرأة وخالتها في الزواج.

وفي هذه القصة من الفقه: أن الخالة مقدمة في الحضانة على سائر الأقارب بعد الأبوين .. وفيها حجة لمن قدم الخالة على العمة، وقرابة الأم على قرابة الأب؛ لأن الرسول ﷺ عندما قضى بعمارة لخالتها، فقد كانت صفية عمتها موجودة إذ ذاك، وهذا قول الشافعي ومالك وأبي حنيفة، وأحمد في إحدى الروايتين عنه، وفي الرواية الثانية: أن العمة مقدمة على الخالة، وهو اختيار الشيخ ابن القيم[2].

* * *

(1) البخاري، الفتح (16/90- 93، حديث 4251)، أبو داود: السنن (2/ 709- 710، حديث 2278).
(2) السيرة لمهدي رزق الله، ص 533.

الفصل السادس

إسلام قادة قريش

(عمرو بن العاص، خالد بن الوليد، عثمان بن طلحة)

ذكرنا في باب سابق ما كان من إسلام عمرو بن العاص رَضِيَ اللَّهُ عَنْهُ على يد النجاشي رَضِيَ اللَّهُ عَنْهُ بالحبشة .. وقد روى قصة إسلامه الإمام أحمد في مسنده بإسناد حسن[1]، فذكر أنه (أي عمرو رَضِيَ اللَّهُ عَنْهُ) لما رأى علو شأن الرسول ﷺ تحدث مع من يسمعون له من رجال قريش في أمر محمد ﷺ، وأقنعهم بالخروج معه إلى النجاشي؛ فهو أحب إليهم أن يكونوا عنده من أن يكونوا تحت يدي محمد إذا ظهر، وإن ظهر قومهم فلن يأتيهم منهم إلا الخير لمعرفتهم بهم. وجمعوا جلودًا؛ ليهدوها إلى النجاشي؛ لأن ذلك أحب ما يهدى إليه من أرض الحجاز. واتفق أن جاءوا النجاشي وعنده عمرو بن أمية الضمري رسولًا من النبي ﷺ، فعندما خرج من عند النجاشي دخل عليه عمرو، وطلب منه أن يعطيه إياه ليقتله؛ لأنه من عدوه، فغضب منه النجاشي، وضربه على أنفه، فخاف واعتذر، ثم قذف الله في قلبه الإسلام؛ لما رأى حماسة الناس حتى العجم في الإيمان بمحمد والدفاع عنه. ولم يتردد عمرو في مبايعة النجاشي على الإسلام، عندما اقترح عليه النجاشي ذلك، ثم خرج وكتم إسلامه عن أصحابه، وعاد إلى بلاده.

وقبيل الفتح، خرج عمرو بن العاص عامدًا إلى رسول الله ﷺ بالمدينة؛ ليسلم، فلقيه خالد بن الوليد؛ يريد ما يريد عمرو، فقدما سويًّا على الرسول ﷺ، فبايعا على الإسلام[2].

ويروي خالد رَضِيَ اللَّهُ عَنْهُ قصه إسلامه[3]، فيقول: (... لما أراد الله بي من الخير ما أراد، قذف في قلبي حب الإسلام، وحضرني رشدي، وقلت: قد شهدت هذه المواطن كلها على

---

(1) انظر الفتح الرباني (21/133- 136).

(2) انظر: السيرة لمهدي رزق الله، ص 535- 536.

(3) الصلابي، ص 729، 730، 731.

محمد، فليس موطن أشهده إلا أنصرف وأنا أرى في نفسي أني مُوضع في غير شيء، وأن محمدًا سيظهر، فلما خرج رسول الله ﷺ إلى الحديبية، خرجت في خيل المشركين، فلقيت رسول الله ﷺ في أصحابه بعسفان، فقمت بإزائه وتعرضت له، فصلى بأصحابه الظهر آمنًا منا، فهممنا أن نُغير عليه ثم لم يُعزَم لنا - وكانت فيه خيرة - فاطلع على ما في أنفسنا من الهم به، فصلى بأصحابه صلاة العصر صلاة الخوف، فوقع ذلك مني موقعًا، وقلت: الرجل ممنوع!، وافترقنا وعدل عن سَنَن خلينا، وأخذ ذات اليمين، فلما صالح قريشًا بالحديبية، ودافعته قريش بالرواح (بالعودة دون عمر)، قلت في نفسي: أي شيء بقي؟ أين المذهب؟ إلى النجاشي؟ قد اتبع محمدًا، وأصحابه آمنون عنده، فأخرج إلى هرقل؟ فأخرج من ديني إلى نصرانية أو يهودية، فأقيم مع عجم تابعًا، أو أقيم في داري فيمن بقي؟ فأنا على ذلك إذ دخل رسول الله ﷺ عمرة القضيَّة، فتغيبت فلم أشهد دخوله، وكان أخي الوليد بن الوليد قد دخل مع النبي ﷺ في عمرة القضيَّة، فطلبني فلم يجدني، فكتب إليَّ كتابًا فإذا فيه: بسم الله الرحمن الرحيم، أما بعد: فإني لم أر أعجب من ذهاب رأيك عن الإسلام، وعقلك عقلك! ومثل الإسلام جهله أحد؟ وقد سألني رسول الله ﷺ عنك فقال: «أين خالد؟» فقلت: يأتي الله به؟ فقال: «ما مثله يجهل الإسلام! ولو كان جعل نكايته وجِدَّه مع المسلمين على المشركين، لكان خيرًا له، ولقدمناه على غيره، فاستدرك يا أخي ما فاتك، فقد فاتتك مواطن صالحة».

قال: فلما جاءني كتابه نشطت للخروج، وزادني رغبة في الإسلام، وسرني مقالة رسول الله ﷺ. قال خالد: وأرى في النوم كأني في بلاد ضيقة جديبة، فخرجت إلى بلد أخضر واسع، فقلت: إن هذه لرؤيا .. فلما قدمت المدينة قلت: لأذكرنها لأبي بكر. قال: فذكرتها فقال: هو مخرجك الذي هداك الله للإسلام، والضيق الذي كنت فيه من الشرك، فلما أجمعت للخروج إلى رسول الله ﷺ، قلت: من أصاحب إلى رسول الله؟ فلقيت صفوان ابن أمية، فقلت: يا أبا وهب، أما ترى ما نحن فيه؟! إنما نحن أكلة رأس(1)، وقد ظهر محمد على العرب والعجم، فلو قدمنا على محمد فاتبعناه، فإن شرف محمد على العرب، فأبى أشد الإباء، وقال: لو لم يبق غيري من قريش ما اتبعته أبدًا، فافترقنا، وقلت: هذا

(1) أي هم قليل يشبعهم رأس واحد، وهو جمع آكل.

رجل موتور، يطلب وترًا، قد قُتل أبوه وأخوه ببدر. فلقيت عكرمة بن أبي جهل، فقلت له مثل الذي قلت لصفوان، فقال لي مثل ما قال صفوان، قلت: فاطْوِ (اكتم) ما ذكرت، قال: لا أذكره. فخرجت إلى منزلي، فأمرت براحلتي، فخرجت بها إلى أن لقيت عثمان بن طلحة، فقلت: إن هذا لي صديق، فلو ذكرت له ما أرجو، ثم ذكرت من قُتل من آبائه (في المواقع مع محمد ﷺ)، فكرهت أن أذكره، ثم قلت: وما عليّ (وما يضيرني) وأنا راحل من ساعتي، فذكرت له ما صار الأمر إليه، فقلت: إنما نحن بمنزلة ثعلب في جحر، لو صب عليه ذنوب[1] من ماء لخرج، قال: وقلت له نحوًا مما قلت لصاحبيه، فأسرع في الإجابة، وقال: لقد غدوت اليوم وأنا أريد أن أغدو، وهذه راحلتي بفج مناخة، قال: فاتعدت أنا وهو بيأجج، فغدونا حتى انتهينا إلى الهَدَّة، فنجد عمرو بن العاص بها، فقال: مرحبًا بالقوم، فقلنا: وبك! قال: مسيركم؟ قلنا: ما أخرجك؟ قال: فما الذي أخرجكم؟ قلنا: الدخول في الإسلام واتباع محمد ﷺ، قال: وذلك الذي أقدمني.

قال: فاصطحبنا جميعًا حتى قدمنا المدينة، فأنخنا بظاهر الحرة ركابنا، فأُخبر بنا رسول الله ﷺ فسُر بنا، فلبست من صالح ثيابي، ثم عمدت إلى رسول الله ﷺ، فلقيني أخي، فقال: أسرع؛ فإن رسول الله ﷺ قد أخبر بك، فسُر بقدومك، وهو ينتظركم، فأسرعت المشي، فطلعت عليه، فما زال يبتسم إليَّ حتى وقفت عليه، فسلمت عليه بالنبوة، فرد عليَّ السلام بوجه طلق، فقلت: إني أشهد أن لا إله إلا الله، وأنك رسول الله، فقال: «الحمد لله الذي هداك! قد كنت أرى لك عقلًا رجوت ألا يسلمك إلا إلى الخير»، قلت: يا رسول الله، قد رأيت ما كنت أشهد من تلك المواطن عليك معاندًا عن الحق، فادع الله أن يغفرها لي، فقال رسول الله ﷺ: «الإسلام يجبُّ ما كان قبله»، قلت: يا رسول الله، على ذلك؟ قال: «اللَّهم اغفر لخالد كل ما أوضع فيه من صد عن سبيلك»، قال خالد: وتقدم عمرو، وعثمان، فبايعا رسول الله ﷺ، وكان قدومنا في صفر سنة ثمان، فوالله ما كان رسول الله ﷺ من يوم أسلمت يعدل لي أحدًا من أصحابه فيما حزبه.

* * *

(1) **الذنوب:** الدلو العظيمة.



الباب الحادي والعشرون

العام الثامن من الهجرة

عام الفتح

الفصل الأول: **استمرار السرايا.**

الفصل الثاني: **مؤتة .. أولى المعارك مع الروم.**

الفصل الثالث: **ذات السلاسل .. مدرسة تربوية فذة.**

الفصل الرابع: **سرايا تحمل عبراً.**

الفصل الخامس: **نصر الله والفتح.**

الفصل السادس: **غزوة حنين.**

الفصل السابع: **من أخبار المجتمع المسلم في السنة الثامنة من الهجرة.**

الباب الحادي والعشرون

العام الثامن من الهجرة

عام الفتح

شهد العام الثامن من الهجرة الفتح الأعظم، الذي دخل به الناس في دين الله أفواجًا واستنقذ به الله عز وجل بلده الحرام وبيته - الذي جعله هدى للعالمين - من أيدي الكفار والمشركين، وسقطت القوة التي تحمي الوثنية وتقاتل دونها، فتلاشت الخرافة، وزالت الغشاوة من أعين الناس، وظهر الحق وزهق الباطل، فما استطاع الجلاد، وما عاد له من إمداد.

وقد بدأ هذا العام المبارك باستمرار بث السرايا في فيافي الجزيرة؛ لتوطيد الأمن، وتمكين الدعاة من أن يجوبوا الآفاق دون غدر أو خيانة، ثم كانت معركة مؤتة العظيمة، وهي أولى معارك المسلمين مع الروم.

ولم ينته هذا العام إلا وقد انتصر المسلمون على هوازن في حنين، وتعقبوا فلولهم وحلفاءهم، إلى أن حاصروا الطائف، ثم رحلوا عنها، فتبعهم وفد من قادتها مسلمين، فزال بذلك الكفر عن القريتين (مكة والطائف)، ولم يبق له في الجزيرة إلا جيوبًا، سرعان ما زالت بعد ذلك .. فكان العام الثامن من الهجرة - بحق - هو عام الفتح المبين.

الفصل الأول

استمرار السرايا

لم تنقطع السرايا التي يبعث بها رسول الله ﷺ لتعقب البدو الجفاة الغلاظ؛ لحسم شرورهم، ووقف عدوانهم .. فشهد العام الثامن من الهجرة خمس سرايا، كانت كالتالي:

1- في صفر: سرية غالب بن عبد الله الليثي إلى بني الملوح:

بعث رسول الله ﷺ غالب بن عبد الله الليثي الكلبي رضي الله عنه إلى بني الملوح، فلقيه في مسيره الحارث بن البرصاء الليثي، فأخذه أسيرًا، فقال: إنما جئت لأسلم. فقال له غالب:

إن كنت صادقًا فلن يضرك رباط ليلة، وإن كنت كاذبًا استوثقنا منك، ووكل به بعض أصحابه، وقال له: إن نازعك فخذ رأسه، وأمره بالمقام معه إلى أن يعود، ثم ساروا حتى أتوا بطن الكديد، فنزلوا بعد العصر، وأرسلوا جندب بن مكيث الجهني ربيئة[1] لهم، قال (جندب): فقصدت تلًّا هناك، يطلعني على الحاضر، فانبطحت عليه، فرآني رجل منبطحًا، فأخذ قوسه وسهمين فرماني بأحدهما فوضعه في جنبي، فنزعته ولم أتحرك، ثم رماني بالسهم الثاني فوضعه في رأس منكبي، فنزعته ولم أتحرك، فقال الرامي أما والله، لقد خالطه سهماي ولو كان ربيئة لتحرك، فأمهلناهم حتى راحت مواشيهم واحتلبوا، فشننَّا عليهم الغارة، فقتلنا منهم واستقنا منهم النعم، ورجعنا سراعًا، وأتى (بني الملوح) صريخ القوم (من ينذرهم)، فجاءنا ما لا قبل لنا به (من المشركين)، حتى إذا لم يكن بيننا وبينهم إلا بطن الوادي من «قديد»، بعث الله من حيث شاء سحابًا ما رأينا قبل ذلك مطرًا مثله، فجاء الوادي بما لا يقدر أحد أن يجوزه (من الماء)، فلقد رأيتهم ينظرون إلينا ما يقدر أحد أن يتقدم.

وكان شعارنا في هذه السرية: أمت أمت، وكنا بضعة عشر رجلًا[2].

2- في صفر: سرية غالب بن عبد الله الليثي أيضًا إلى فدك:

وبعث رسول الله ﷺ في صفر من هذا العام غالب بن عبد الله الليثي رضي الله عنه في مائتي رجل؛ ثأرًا من بني مرة بمنطقة فدك، الذين كانوا قد قتلوا عامة سرية بشير بن سعد الأنصاري رضي الله عنه في السنة السابعة من الهجرة، فلم ينج من السرية (وكان قوامها ثلاثين رجلًا) إلا بشير رضي الله عنه[3]، فلما وصل غالب بن عبد الله رضي الله عنه في سريته (وكان بها أسامة بن زيد رضي الله عنه) إلى بني مرة بفدك، أصاب منهم نعمًا، وقتل منهم قتلى[4].

---

(1) **الربيئة:** الطليعة من الجيش.

(2) أخرجه أحمد برقم (15788)، بإسناد حسن.

(3) انظر: الفصل الثالث من الباب السابق.

(4) انظر: الطبقات الكبرى لابن سعد 2/152.

3- في ربيع الأول: سرية شجاع بن وهب الأسدي إلى بني عامر من هوازن:

ثم أرسل رسول الله ﷺ شجاع بن وهب الأسدي رَضِيَ اللَّهُ عَنْهُ إلى بني عامر بالسِّيِّ، في شهر ربيع الأول، سنة ثمان، في أربعة وعشرين رجلًا، وكانت بلدتهم من المدينة على خمس ليال، وأمره أن يغير عليهم، فكان يسير الليل ويكمن النهار، حتى صبحهم وهم غارون (غافلون)، فأصابوا نعمًا كثيرًا وشاءً، واستاقوا ذلك حتى قدموا المدينة، واقتسموا الغنيمة، وغابت السرية خمس عشرة ليلة[1].

4- في ربيع الأول: سرية كعب بن عمير الغفاري إلى ذات أطلاح:

وفي ربيع الأول أيضا من هذه السنة، بعث رسول الله ﷺ كعب بن عمير الغفاري رَضِيَ اللَّهُ عَنْهُ في خمسة عشر رجلًا إلى ذات أطلاح (وهي وراء وادي القرى) من أرض الشام، فلما انتهوا إليها وجدوا جمعًا من جمعهم كثيرًا، فدعوهم إلى الإسلام، فلم يستجيبوا لهم، ورشقوهم بالنبل، فلما رأى ذلك أصحاب رسول الله ﷺ، قاتلوهم أشد القتال، حتى قُتلوا، وأفلت منهم رجل جريح في القتلى، فلما بدر عليه الليل، تحامل حتى أتى رسول الله ﷺ فأخبره الخبر، فشق ذلك عليه، وهمَّ بالبعثة إليهم، فبلغه أنهم قد ساروا إلى موضع آخر فتركهم[2].

5- سرية زيد بن حارثة إلى مدين:

بعثه إليها رسول الله ﷺ ومعه ضُمَيرَة مولى علي بن أبي طالب رَضِيَ اللَّهُ عَنْهُ، وأخ له، فأصاب سبيا من أهل ميناء، وهي السواحل، وفيها جماعات من الناس مختلطين، فبيعوا، ففُرق بين الأمهات والأولاد، فخرج رسول الله ﷺ إليه وهم يبكون، فقال: «ما لهم؟» فقيل: «يا رسول الله، فرق بينهم»، فقال رسول الله ﷺ: «لا تبيعوهم إلا جميعًا»[3]. ولم تذكر المصادر تاريخًا معينًا لهذه السرية، ويستنتج أنها وقعت قبل سرية مؤتة؛ لأن زيدا استشهد في سرية مؤتة[4].

---

(1) المصدر السابق 127/2.

(2) المصدر السابق 127/2، وانظر: الأغصان الندية، ص 413.

(3) ابن هشام (375/4- 376)، وانظر ابن حجر: الإصابة (206/2).

(4) السيرة لمهدي رزق الله، ص 541.

الفصل الثاني

مؤتة .. أولى المعارك مع الروم

لقد كان قدر هذا الجيل من صحابة رسول الله ﷺ أن يواجه أمم الأرض بهذا الدين، وها نحن أمام منعطف جديد في تاريخ دولة الإسلام، هو الصدام المباشر مع الروم[1].

فكانت معركة مؤتة .. أكبر لقاء مثخن، وأعظم حرب دامية خاضها المسلمون في حياة رسول الله ﷺ[2].

- **سبب المعركة:**

أشعل عرب الشام فتيل الصراع بين المسلمين والبيزنطيين؛ فقد دأبت قبيلة كلب من قضاعة - التي كانت تنزل على دومة الجندل - على مضايقة المسلمين، وحاولت أن تفرض عليهم نوعًا من الحصار الاقتصادي، عن طريق إيذائها للتجار الذين كانوا يحملون السلع الضرورية من الشام إلى المدينة؛ ولذلك غزا رسول الله ﷺ قبيلة كلب بدومة الجندل سنة (5 هـ)، لكنه وجدهم قد تفرقوا، كما أن رجالًا من جذام ولخم قطعوا الطريق على دحية بن خليفة الكلبي عند مروره بحسمي بعد إنجازه لمهمة أناطها به رسول الله ﷺ، واستلبوا كل ما معه، فكانت سرية زيد بن حارثة إلى حسمي في سنة 6 هـ، ويضاف إلى ذلك أيضًا ما قامت به قبيلتا مذحج وقضاعة من اعتداء على زيد بن حارثة وصحبه في العام المذكور (6 هـ)، وذلك عندما ذهبوا إلى وادي القرى في بعثة؛ بغرض الدعوة إلى الله، وبعد صلح الحديبية أخذ هذا المسلك العدواني يأخذ منحنى أكثر خطورة، بعد مقتل الحارث بن عمير الأزدي رسول رسول الله إلى حاكم (بصرى)، التابع لحاكم الروم، فقد قام شرحبيل بن عمرو الغساني بضرب عنق رسول رسول الله، ولم تجر العادة بقتل الرسل والسفراء، كما أن الحارث بن أبي شمر الغساني حاكم دمشق، أساء استقبال مبعوث رسول الله، وهدد بإعلان الحرب على المدينة، ثم حدث بعد ذلك

---

(1) المنهج الحركي للغضبان، القسم الثالث، ص: 96.

(2) الرحيق المختوم، ص: 387.

- بما يزيد قليلًا عن العام - أن بعث رسول الله ﷺ سرية بقيادة كعب بن عمير الغفاري؛ (ذكرناها في الفصل السابق) ليدعو إلى الإسلام في مكان يقال له: (ذات أطلاح)، فلم يستجب أهل المنطقة إلى الإسلام، وأحاطوا بالدعاة من كل مكان، وقاتلوهم حتى قتلوهم جميعًا إلا أميرهم، كان جريحًا، فتحامل على جرحه حتى وصل إلى المدينة، فأخبر رسول الله ﷺ [1]، وقد قام نصارى الشام - بزعامة الإمبراطورية الرومانية - بالاعتداءات على من يعتنق الإسلام أو يفكر بذلك، فقد قتلوا والي مَعَان حين أسلم، وقتل والي الشام من أسلم من عرب الشام.

كانت هذه الأحداث المؤلمة - وبخاصة مقتل سفير رسول الله الحارث بن عمير الأزدي - محركة لنفوس المسلمين، وباعثًا لهم ليضعوا حدًّا لهذه التصرفات النصرانية العدوانية، ويثأروا لإخوانهم في العقيدة، الذين سفكت دماؤهم بغير حق، إلا أن يقولوا ربنا الله ونبينا محمد رسول الله ﷺ، كما أن تأديب عرب الشام التابعين للدولة الرومانية، والذين دأبوا على استفزاز المسلمين وتحديهم، وارتكاب الجرائم ضد دعاتهم، أصبح هدفًا مهمًّا؛ لأن تحقيق هذا الهدف معناه فرض هيبة الدولة الإسلامية في تلك المناطق، بحيث لا تتكرر مثل هذه الجرائم في المستقبل، وبحيث يأمن الدعاة المسلمون على أنفسهم، ويأمن التجار المترددون بين الشام والمدينة من كل أذى يحول دون وصول السلع الضرورية إلى المدينة.

- **أكبر حشد للمسلمين:**

في جمادى الأولى من عام ثمانٍ من الهجرة[2]، الموافق أغسطس أو سبتمبر سنة 629م[3]، أمر رسول الله ﷺ المسلمين بالتجهيز للقتال، فاستجابوا للأمر النبوي، وحشدوا حشودًا لم يحشدوها من قبل؛ إذ بلغ عدد المقاتلين في هذه السرية ثلاثة آلاف مقاتل، واختار النبي للقيادة ثلاثة أمراء على التوالي: زيد بن حارثة، ثم جعفر بن أبي

(1) الصلابي، ص 722 - 733.
(2) السيرة النبوية للصلابي، ص 732- 733.
(3) الرحيق المختوم، ص 387.

طالب، ثم عبد الله بن رواحة[1]. وقد روى البخاري في صحيحه، عن عبد الله بن عمر رَضِيَ اللَّهُ عَنْهُمَا، قال: أَمَّر رسول الله ﷺ في غزوة مؤتة زيد بن حارثة، فقال رسول الله ﷺ: «إن قتل زيد فجعفر، وإن قتل جعفر فعبد الله بن رواحة»[2].

ونقف أمام هذا العدد الضخم الذي تحرك للقاء الروم، فلم يتحرك جيش خارج المدينة أكثر من ألف وخمسمائة مقاتل، وأكبر جيش حشده المسلمون داخل المدينة هو جيش الخندق، وكان قوامه ثلاثة آلاف مجاهد، وها هو الجيش الإسلامي يتحرك اليوم مغادرًا المدينة إلى الشام بثلاثة آلاف مجاهد، وهنا نشير إلى الفتح المبين في الحديبية. حيث تضاعف عدد الجيش الإسلامي بعد الحديبية بسنة ونصف على التقريب. وبدأت تظهر أسماء جديدة لم تكن تُعرف من قبل، فقائد ميمنة المسلمين قطبة بن قتادة، وهو من «بلي»، وهذا معنى مهم؛ إذ القبائل التي تواجه المسلمين فيهم تجمع كبير من هذه القبيلة.

ونضيف في الحديث عن هذا الحشد إلى شعور الرسول ﷺ بخطورة المواجهة مع دولة عظمى، فلن يصلح لهذه المواجهة عدة مئات.

ويؤكد هذا المعنى كذلك تعيين الأمراء الثلاثة، فلم يسبق لرسول الله ﷺ - خلال المراحل السابقة - أن عين أكثر من أمير على الجيش، لكنه كان يعلم ﷺ - بما أوحى الله تعالى إليه - أن الأمراء يلقون مصرعهم في هذه المعركة.

ولقد أدرك اليهود هذا المعنى؛ حيث قال أحدهم: (إن الأنبياء في بني إسرائيل كانوا إذا سموا الرجل على القوم، فقالوا إن أصيب فلان ففلان. فلوا سموا مائة أصيبوا جميعًا، ثم جعل يقول لزيد: اعهد؛ فإنك لا ترجع أبدًا إن كان محمد نبيًّا، قال زيد: أشهد أنه نبي صادق)[3].

- وصية النبي ﷺ:

قال ابن إسحاق: فتجهز الناس، ثم تهيئوا للخروج، وهم ثلاثة آلاف، فلما حضر خروجهم، ودع الناس أمراء رسول الله ﷺ وسلموا عليهم. فلما ودع عبد الله بن رواحة

---

(1) السيرة النبوية للصلابي، ص 733.

(2) البخاري، كتاب المغازي (5/102)، رقم (4261).

(3) المنهج الحركي، القسم الثالث، ص 91، والبداية والنهاية، ج4، ص 241 عن البيهقي.

من ودع من أمراء رسول الله ﷺ بكى، فقالوا: ما يبكيك يا ابن رواحة؟ فقال: أما والله ما بي حب الدنيا ولا صبابة بكم، ولكني سمعت رسول الله يقرأ آية من كتاب الله عز وجل يذكر فيها النار: ﴿وَإِن مِّنكُمْ إِلَّا وَارِدُهَا ۚ كَانَ عَلَىٰ رَبِّكَ حَتْمًا مَّقْضِيًّا ﴿٧١﴾﴾ [مريم]. فلست أدري كيف لي بالصدر بعد الورود، فقال المسلمون: صحبكم الله وردكم إلينا صالحين .. فقال عبد الله بن رواحة:

لكنني أسأل الرحمن مغفرة ... وضربة ذات فَرْغٍ تقذف الزبدا

أو طعنة بيدي حران مجهزة ... بحربة تنفذ الأحشاء والكبدا

حتى يقال إذا مروا على جدثي ... أرشده الله من غاز وقد رشدا

ثم إن القوم تهيئوا للخروج، فأتى عبد الله بن رواحة رسول الله ﷺ، فودعه، ثم قال:

فثبت الله ما آتاك من حسن ... تثبيت موسى ونصرًا كالذي نُصِروا

إني تفرست فيك الخير نافلة ... الله يعلم أني ثابت البصر

أنت الرسول فمن يحرم نوافله ... والوجه منه فقد أزرى به القدر(1)

وشيعهم رسول الله ﷺ إلى ثنية الوداع، ثم وقف وهم حوله، وقال: «أوصيكم بتقوى الله، وبمن معكم من المسلمين خيرًا، اغزوا في سبيل الله، فقاتلوا من كفر الله، لا تغدروا ولا تغلوا، ولا تقتلوا وليدًا، وإذا لقيت عدوك من المشركين، فادعهم إلى إحدى ثلاث، فأيتهن ما أجابوك إليها فاقبل منهم واكفف عنهم. ادعهم إلى الدخول في الإسلام، فإن فعلوا فاقبل منهم، واكفف عنهم، ثم ادعهم إلى التحول من دارهم إلى دار المهاجرين، فإن فعلوا فأخبرهم أن لهم ما للمهاجرين، وعليهم ما على المهاجرين، وإن دخلوا في الإسلام واختاروا دارهم، فأخبرهم أنهم يكونون كأعراب المسلمين، يجري عليهم حكم

(1) السيرة لابن إسحاق، ج3 ص: 373- 374.

الله، ولا يكون لهم في الفيء ولا في الغنيمة شيء، إلا أن يجاهدوا مع المسلمين، فإن أبوا فادعهم إلى إعطاء الجزية، فإن فعلوا فاقبل منهم، واكفف عنهم، فإن أبوا فاستعن بالله وقاتلهم. وإن أنت حاصرت أهل حصن أو مدينة فأرادوك أن تستنزلهم على حكم الله، فلا تستنزلهم على حكم الله، ولكن أنزلهم على حكمك، فإنك لا تدري أتصيب حكم الله فيهم أم لا، وإن حاصرت أهل حصن أو مدينة فأرادوك على أن تجعل لهم ذمة الله وذمة رسوله. ولكن اجعل لهم ذمتك وذمة أبيك وذمة أصحابك، فإنكم إن تخفروا ذمتكم وذمة آبائكم خير لكم من أن تخفروا ذمة الله وذمة رسوله. وستجدون رجالًا في الصوامع معتزلين الناس، فلا تتعرضوا لهم، وستجدون آخرين في رءوسهم مفاحص[1] فاقلعوها بالسيوف. لا تقتلن امرأة ولا صغيرًا ولا كبيرًا فانيًا، ولا تغرقُن نخلًا ولا تقلعن شجرًا ولا تهدموا بيتًا»[2].

قال ابن إسحاق: ثم خرج القوم، وخرج رسول الله ﷺ، حتى إذا ودعهم وانصرف عنهم، قال:

خلف السلام على امرئ ودعته   في النخل خير مشجع وخليل

وإذا كانت قوة الجيش تقاس بمعنوياته، فلن نجد أقوى من هذا الجيش، والأصل أن يكون المسلمون في ذلك اليوم في هذا الاتجاه عندهم بعض الخوف والتردد؛ فهم يقدمون على حرب في البلقاء على تخوم الروم، واحتمال المواجهة واردة معهم. ولم يسبق لهم رصيد من التجربة في الحرب مع الروم أو الفرس، والدولتان الكبريان آنذاك تتقاسمان الأرض، ومع ذلك فقد كان أحد القادة الثلاث يبكي، وقد حضره المسير، ولم يكن سبب بكائه جزعًا من الموت، إنما كان خوفًا لما بعد الموت، خوفًا من النار التي يرد عليها الناس جميعًا: ﴿وَإِن مِّنكُمْ إِلَّا وَارِدُهَا كَانَ عَلَىٰ رَبِّكَ حَتْمًا مَّقْضِيًّا﴾ [مريم: 71]، وتصور الناس أن الدعاء بالسلامة هو الذي يثلج الصدر، فقالوا له ولإخوانه: صحبكم الله ودفع عنكم،

---

(1) **المفحص:** حيث تجثم القطا وتفرخ، والمقصود عشعشة الشيطان.

(2) إمتاع الإسماع (1/345- 346).

وردكم إلينا صالحين، فكان جواب القائد الشاعر ابن رواحة طلب الشهادة في أرض الشام والمغفرة .. هذه نفسية الجيش وقيادته قبل التحرك[1].

- **هرقل في مائتي ألف مقاتل:**

قال ابن إسحاق: (... ثم مضوا حتى نزلوا مَعان، فبلغ الناس أن هرقل قد نزل مآب من أرض البلقاء في مائة ألف من الروم. وانضم إليهم من لخم وجذام والقين وبهراء وبلي مائة ألف منهم، عليهم رجل من بلي، ثم أحد إراشة يقال له مالك بن زافلة، فلما بلغ ذلك المسلمين أقاموا على معان ليلتين، يفكرون في أمرهم، وقالوا: نكتب إلى رسول الله ﷺ، فنخبره بعدد عدونا؛ فإما أن يمدنا بالرجال، وإما أن يأمرنا بأمره، فنمضي له. فشجع الناس عبد الله بن رواحة، وقال: يا قوم، والله إن التي تكرهون للتي خرجتم تطلبون (الشهادة)، وما نقاتل الناس بعدد ولا قوة ولا كثرة، وما نقاتلهم إلا بهذا الدين الذي أكرمنا الله به. فانطلقوا فإنما هي إحدى الحسنيين؛ إما ظهور وإما شهادة. قال: فقال الناس: قد صدق - والله - ابن رواحة، فمضى الناس، فقال عبد الله بن رواحة في حبسهم ذلك شعرًا).

وقد كان في تشاور أصحاب رسول الله ﷺ عندما بلغهم التجمع الهائل للروم العجب كل العجب .. فلم يكن من بين الحلول المطروحة بينهم أن يعودوا إلى المدينة أمام وجود حوالي مائتي ألف من العرب والروم، قد تهيئوا للقائهم، إنما كان نقاشهم: نكتب إلى رسول الله ﷺ فنخبره بعدد عدونا؛ فإما أن يمدنا بالرجال، وإما أن يأمرنا بأمره.

فكل ما كانوا يخشونه أن تكون المواجهة مغامرة غير جائزة شرعًا، أن يواجهوا هذا العدد الضخم بقوتهم الضئيلة. وما أعتقد أن جيشًا في الأرض لا تنهار معنوياته أمام هذه المواجهة، وبينهم هذا الفارق في العدد والعدة، ولكن هذا الدين الذي ضرب جذوره في أعماق هذه العصبة المؤمنة، جعل منهم نموذجًا آخر لا يُبَارَى في التاريخ.

---

(1) الغضبان: المنهج الحركي، ص 97- 98.

إن فكرة الشهادة، والأمل برضوان الله تعالى ودخول الجنة، هي أقوى دافع في هذا الوجود للمواجهة والموت؛ لأن المسلم على يقين أن ما عند الله خير وأبقى للمسلم من كل شيء، فلا يتوانى لحظة واحدة عن الإقبال على الموت، تغمره السعادة، ويحدوه الرضا بقضاء الله وقدره. وكلا الأمرين لا يدري أيهما أحب إليه؛ النصر أو الشهادة. وهذه الروح المعنوية التي رافقت الجيش المسلم في كل معاركه، هي التي رجحت كفته دائمًا على عدوه، ودانت له الأرض بسبب ذلك[1].

- **قتال غير متكافئ:**

قال ابن إسحاق: ثم مضى الناس، حتى إذا كانوا بتخوم البلقاء، لقيتهم جموع هرقل من الروم والعرب بقرية من قرى البلقاء، يقال لها مشارف، ثم دنا العدو، وانحاز المسلمون إلى قرية يقال لها مؤتة، فالتقى الناس عندها، فتعبأ لهم المسلمون، فجعلوا على ميمنتهم رجلًا من بني عذرة يقال له: قطبة بن قتادة، وعلى ميسرتهم رجلًا من الأنصار يقال له عباية بن مالك، ثم التقى الناس واقتتلوا. فقاتل زيد بن حارثة براية رسول الله ﷺ حتى شاط[2] في رماح القوم. ثم أخذها جعفر، فقاتل بها حتى إذا ألحمه[3] القتال اقتحم عن فرس له شقراء فعقرها، ثم قاتل القوم حتى قتل، فكان جعفر أول رجل من المسلمين عقر[4] في الإسلام.

وحدثني يحيى بن عباد بن عبد الله بن الزبير، عن أبيه عباد، قال: حدثني أبي الذي أرضعني (أي زوج أمه من الرضاع)، وكان أحد بني مرة بن عوف، وكان في تلك الغزوة (غزوة مؤتة)، قال: والله لكأني أنظر إلى جعفر حين اقتحم عن فرس له شقراء، ثم عقرها، ثم قاتل حتى قتل، وهو يقول:

يا حبذا الجنة واقترابها ... طيبة وبارد شرابها

(1) المنهج الحركي، ص 98، مختصرًا.
(2) **شاط الرجل:** إذا سال دمه فهلك.
(3) **ألحمه القتال:** نشب فيه، فلم يجد مخلصًا.
(4) **عقرها:** ضرب قوائمها وهي قائمة بالسيف.

والـــروم روم قـــد دنـــا عـــذابها كـــــافرة بعيـــــدة أنـــــسابها

عليَّ إذ لاقيتها ضرابها

قال ابن هشام: وحدثني من أثق به من أهل العلم أن جعفر بن أبي طالب أخذ اللواء بيمينه فقطعت، فأخذه بشماله فقطعت، فاحتضنه بعضديه، حتى قتل رَضِيَٱللَّهُعَنْهُ وهو ابن ثلاث وثلاثين سنة، فأثابه الله جناحين في الجنة يطير بهما حيث يشاء. ويقال: إن رجلًا من الروم ضربه يومئذ ضربة فقطعه نصفين.

قال ابن إسحاق:

فلما قُتل أخذ الراية عبد الله بن رواحة، ثم تقدم بها، وهو على فرس، فجعل يستنزل نفسه (يحضها على القتال)، ويتردد بعض التردد، ثم قال:

أقـــسمت يـــا نفـــس لتنزلنـــه لتنـــــزلن أو لتكرهنـــــــه

أن أجلـب النـاس[1] وشـدوا الرنـة[2] مـــا لي أراك تكـــرهين الجنـــة

قـــد طـــال مـــا قـــد كنـــت مطمئنـــة هـــل أنـــت إلا نطفـــة مـــن شـــنة[3]

وقال أيضًا:

يـــا نفـــس إلا تُقـــتلي تمـــوتي هـــذا حِمَـــامُ المـــوت قـــد لقيـــت

ومـــا تمنيـــت فقـــد أعطيـــت إن تفعـــلي فعلهـــما هـــديت

يريد صاحبيه زيدًا وجعفرًا، ثم نزل، فلما نزل أتاه ابن عم له بعرق[4] من لحم فقال: شد بهذا طلبك، فإنك قد لقيت في أيامك هذه ما لقيت، فأخذه من يده ثم انتهس[5] منه

---

(1) **أجلب الناس:** صاحوا واجتمعوا.

(2) **الرنة:** صوت شبيه بالبكاء.

(3) **الشنة:** السقاء البالي.

(4) **العرق:** العظم الذي عليه بعض اللحم.

(5) **انتهس:** أخذ منه بفمه يسيرًا.

نهسة، ثم سمع الحطمة[1] في ناحية الناس، فقال (لنفسه): وأنت في الدنيا! ثم ألقاه من يده، ثم أخذ سيفه فتقدم فقاتل حتى قتل.

- **القادة الثلاثة:**

ولا نستطيع ونحن نتحدث عن مؤتة إلا الوقوف عند أبطالها الكبار.

فلقد كان زيد رَضِيَ ٱللَّهُ عَنْهُ مولى رسول الله ﷺ، ومن أخص خاصته؛ فلقد كان حُب رسول الله ﷺ له حبًّا مشهورًا عند الصحابة جميعًا، فيطلقون على ابنه أسامة الحب ابن الحب. وهو أول مولى على الأرض أشرق قلبه بنور الإسلام، والمهمات الصعبة كانت عليه، فهو المكلف – بعد بدر – بإحضار أهل رسول الله ﷺ من قلب مكة، وحين يحدق الخطر في أشد أهواله، فلتكن المهمات الصعبة، وحين يُقَدم رسول الله ﷺ لهذه المخاطر أحب الناس إليه، لا يضن الناس بمهجهم وأرواحهم بين يدي رسول الله ﷺ.

وكان الرجل الثاني .. طرازًا رفيعًا من الرجال.

إنه جعفر بن أبي طالب، الذي شهدناه داعية إلى الله عز وجل في الحبشة، ورئيس الجالية الإسلامية فيها، وأكرمه الله تعالى أن تُسلم الملوك على يديه؛ فهو الذي أوضح الإسلام للنجاشي، فاعتنقه، ولم نشهده إطلاقًا مقاتلًا في معركة، إنه سفير فوق العادة لفترة خمسة عشر عامًا خلت في أرض الغربة لسانًا ووطنًا ودينًا، إذا به اليوم قائد معركة.

وليس في الإسلام ذلك الخط الفاصل بين السياسي والجندي والقائد .. فكل مسلم هو جندي في المعركة مهما علت مرتبته، واختلفت وظيفته، ولا ننسى أنه لم يمر على انضمام جعفر للصف الإسلامي في المدينة السنة، أو تزيد قليلًا عن ذلك؛ فقد وصل بعد خيبر، وكانت خيبر في ربيع الأول لسنة سبع، وكانت مؤتة لجمادى الأولى سنة ثمان.

عام واحد فقط .. متع رسول الله ﷺ نفسه برؤية حبيبه جعفر، ويكفي أن نعرف مبلغ حب رسول الله ﷺ لجعفر – بعد غربة خمسة عشر عامًا عنه – أن رؤيته له كانت تعادل هزيمة اليهود، فقال ﷺ: «والله ما أدري بأيهما أنا أُسر بفتح خيبر أم بقدوم

(1) **الحطمة:** صوت ازدحام الناس.

جعفر؟» وعلى شدة هذا الحب، وعلى طول تلك الغربة، عندما لاحت بوارق الصدام مع الروم، فكان الرجل الثاني لذلك جعفر بن أبي طالب، وكان الدرس العملي الأضخم، أن يكون المولى زيد بن حارثة أميرًا على جعفر بن أبي طالب القرشي الهاشمي.

وقد شهدنا جعفر رَضِيَ اللَّهُ عَنْهُ يمضي من أرض الغربة إلى أرض الغربة، فيسلخ قرابة نصف عمره فيها، وحين يحين القتال - وهو لم يخض معركة من قبل قط - يبدي من ضروب البسالة والقوة والمقاومة ما تتصاغر أمامه الصناديد الأبطال، يأخذ الراية بيمينه فتقطع، ثم يأخذها بشماله فتقطع، ثم يأخذها بعضديه، ثم يسقط شهيدًا، وقد أفضى إلى ربه وقد انشق نصفين، فلم يجد إخوته المؤمنون حرجًا أن ينظروا إلى عدد طعناته ورمياته، فكانت تسعين، ما بين ضربة سيف وطعنة رمح.

وكان لابد لأنصار الله ورسوله من أن يشاركوا في هذا الشرف العظيم على مستوى القيادة، فكان الأمير الثالث هو شاعر الإسلام العظيم عبد الله بن رواحة.

وأن تكون قيادة الجيش بين مولى وسفير وشاعر، ليؤكد أن طاقات الإسلام كلها في خدمة المعركة، وأن وقودها في حالة الخطر هو كل شباب الإسلام[1].

- **ثابت بن أقرم المقاتل البدري القدوة:**

بعد مقتل الأمراء الثلاثة، وانتهاء القيادة من المعركة، لم يبق إلا ذبح هذا الجيش كله. فمن هؤلاء من مضى لائذًا بالفرار إلى المدينة، لكن أكثرية الجيش عادت فتماسكت. وأخذ الراية ثابت بن أقرم رَضِيَ اللَّهُ عَنْهُ، وهو يحس بثقل الأمانة.

(وصاح: يا للأنصار!! فأتاه الناس من كل وجه وهم قليل، وهو يقول: إليَّ أيها الناس، فلما نظر إلى خالد بن الوليد، قال: خذ اللواء يا أبا سليمان! فقال: لا آخذه، أنت أحق به، أنت رجل لك سن، وقد شهدت بدرًا. قال ثابت: خذه أيها الرجل، فوالله ما أخذته إلا لك، فأخذه خالد ...)[2].

---

(1) المنهج الحركي، ص 151- 152.

(2) إمتاع الأسماع، ج1، 348.

وهكذا استطاع هذا الجيش المسلم أن يواجه ذلك البحر المتلاطم من البشر بتلك الروح المعنوية العالية، التي لم ير لها التاريخ مثيلًا إلا في المحضن الإسلامي[1].

- خالد يحمل الراية:

ولما أخذ خالد رَضِيَ اللَّهُ عَنْهُ الراية، قاتل قتالًا مريرًا .. وقد روى البخاري عنه أنه قال: لقد انقطعت في يدي يوم مؤتة تسعة أسياف، فما بقي في يدي إلا صفيحة يمانية[2]، وأصبحت الخطة الأساسية المنوطة بخالد - في تلك الساعة العصيبة من القتال - أن ينقذ المسلمين من الهلاك الجماعي، فبعد أن قَدَّر الموقف واحتمالاته المختلفة قدرًا دقيقًا، ودرس ظروف المعركة درسًا وافيًا، وتوقع نتائجها، اقتنع بأن الانسحاب بأقل خسارة ممكنة هو الحل الأفضل؛ فقوة العدو تبلغ (66) ضعفًا لقوة المسلمين، فلم يبق أمام هؤلاء إلا الانسحاب المنظم، وعلى هذا الأساس وضع خالد الخطة التالية:

أ- الحئول بين جيش الروم وجيش المسلمين؛ ليضمن لهذا الأخير سلامة الانسحاب.

ب- لبلوغ هذا الهدف، لابد من تضليل العدو؛ بإيهامه أن مددًا قد ورد إلى جيش المسلمين، فيخفف من ضغطه وهجماته، ويتمكن المسلمون من الانسحاب، وصمد خالد حتى المساء؛ عملًا بهذه الخطة، وغير في ظلام الليل، مراكز المقاتلين في جيشه، فاستبدل الميمنة بالميسرة، ومقدمة القلب بالمؤخرة. وفي أثناء عملية الاستبدال، اصطنع ضجة صاخبة وجلبة قوية، ثم حمل على العدو عند الفجر، بهجمات سريعة متتالية وقوية؛ ليدخل في روعه أن إمدادات كثيرة وصلت إلى المسلمين[3].

ونجحت الخطة؛ إذ بدا للعدو صباحًا أن الوجوه والرايات التي تواجهه جديدة لم يرها من قبل، وأن المسلمين يقومون بهجمات عنيفة، فأيقن أنهم تلقوا إمدادات، وأن جيشًا نزل إلى الميدان، وكان البلاء الحسن الذي أبلاه المسلمون قد فت في عضد الروم وحلفائهم، فأدركوا أن إحراز نصر حاسم ونهائي على المسلمين أمر مستحيل، فتخاذلوا وتقاعسوا

---

(1) المنهج الحركي، ص 99 - 100.

(2) صحيح البخاري، باب غزوة مؤتة 2/611.

(3) انظر معارك خالد بن الوليد، د. ياسين سويد، ص 175.

عن متابعة الهجوم، وضعف نشاطهم واندفاعهم، فخف الضغط عن جيش المسلمين، وانتهز خالد الفرصة، فباشر الانسحاب، وكانت عملية التراجع التي قام بها خالد في أثناء معركة (مؤتة) من أكثر العمليات في التاريخ العسكري مهارة ونجاحًا، بل إنها تتفق وتتلاءم مع التكتيك الحديث للانسحاب، فقد عمد خالد إلى سحب الجناحين بحماية القلب، ولما أصبح الجناحان بمنأى عن العدو، وفي مأمن منه، عمد إلى سحب القلب بحماية الجناحان، إلى أن تمكن وضمن سلامة الانسحاب كليًّا، ويقول المؤرخون إن خسارة المسلمين لم تتعد الاثني عشر قتيلًا في هذه المعركة.

ويمكن القول إن خالدًا بخطته تلك، قد أنقذ الله المسلمين به من هزيمة ماحقة، وقتل محقق، وأن انسحابه كان قمة النصر بالنسبة إلى ظروف المعركة؛ حيث يكون الانسحاب في ظروف مماثلة، أصعب حركات القتال، بل أجداها وأنفعها[1].

- النبي ﷺ بالمدينة يصف ما يحدث بمؤتة:

روى البخاري بسنده عن أنس بن مالك، أن رسول الله ﷺ: نعى زيدًا وجعفرًا وابن رواحة للناس قبل أن يأتيهم خبرهم، فقال: أخذ الراية زيد فأُصيب (قُتل)، ثم أخذها جعفر فأصيب، ثم أخذها ابن رواحة فأصيب - وعيناه تذرفان - قال: ثم أخذ الراية سيف من سيوف الله، حتى فتح الله عليهم[2].

وروى ابن إسحاق[3]، عن رسول الله ﷺ: لقد رُفعوا إلى الجنة على سرر من ذهب، فرأيت - فيما يرى النائم - في سرير عبد الله بن رواحة ازورارًا عن سريري صاحبيه، فقلت: مم هذا؟ فقيل لي: مضيا، وتردد عبد الله بعض التردد، ثم مضى.

ويا لها من عبرة!! فإذا كان بعض التردد من الشجاع المغوار عبد الله بن رواحة قد جعله في منزلة دون صاحبيه، فما بالك بمن ينكص على عقبيه، مؤثرًا الحياة على الشهادة؛

---

(1) الصلابي، ص 736، 737.

(2) صحيح البخاري 413/7.

(3) سيرة ابن هشام (258/1- 259).

طمعًا في جاه أو مال، أو عرض من أعراض الحياة؟! إن مثله لا يقام له عند الله وزن، وإن عرض عند سواد الناس جاهه، وبذَّ مال قارون ماله[1].

- **شهداء مؤتة:**

رغم ضراوة ما واجهه المسلمون في هذه المعركة من قتال، ورغم هذه الكثرة غير المسبوقة من عدوهم، إلا أنه لم يستشهد من المسلمين يومئذ سوى اثني عشر رجلًا .. قال ابن كثير: استشهد من المهاجرين يومئذ:

- جعفر بن أبي طالب رَضِيَ اللَّهُ عَنْهُ.

- وزيد بن حارثة الكلبي رَضِيَ اللَّهُ عَنْهُ.

- ومسعود بن الأسود بن حارثة بن نضلة العدوي رَضِيَ اللَّهُ عَنْهُ.

- ووهب بن سعد بن أبي سرح رَضِيَ اللَّهُ عَنْهُ.

فهؤلاء أربعة نفر.

ومن الأنصار:

- عبد الله بن رواحة الخزرجي رَضِيَ اللَّهُ عَنْهُ.

- وعباد بن قيس الخزرجي رَضِيَ اللَّهُ عَنْهُ.

- والحارث بن النعمان بن أساف بن نضلة النجاري رَضِيَ اللَّهُ عَنْهُ.

- وسراقة بن عمرو بن عطية بن خنساء المازني.

وهؤلاء أربعة نفر، فمجموع من قتل من المسلمين يومئذ هؤلاء الثمانية، على ما ذكر ابن إسحاق.

لكن قال ابن هشام: وممن استشهد يوم مؤتة فيما ذكره ابن شهاب الزهري:

---

(1) أبو شهبة: السيرة النبوية، ج2، ص 429.

- أبو كليب وجابر، ابنا عمرو بن زيد بن عوف بن مبذول المازنيان رضي الله عنهما، وهما شقيقان لأب وأم.

- وعمرو وعامر ابنا سعد بن الحارث بن عباد بن سعد بن عامر بن ثعلبة بن مالك بن قصي، فهؤلاء أربعة من الأنصار أيضًا.

فالمجموع على القولين اثنا عشر رجلًا، وهذا عظيم جدًّا أن يتقاتل جيشان متعاديان في الدين؛ أحدهما - وهو الفئة التي تقاتل في سبيل الله - عدته ثلاثة آلاف، والآخر كافر، وعدته مائتا ألف مقاتل، من الروم مائة ألف، ومن نصارى العرب مائة ألف، يتبارزون ويتصاولون، ثم مع هذا كله لا يقتل من المسلمين إلا اثنا عشر رجلًا، وقد قتل من المشركين خلق كثير[1].

وكان لشهداء مؤتة مكانة عظيمة عند الله تعالى؛ ولذا قال رسول الله ﷺ: (ما يسرني - أو قال ما يسرهم - أنهم عندنا)[2] .. فالجوار الذي صاروا إليه أحب لنفوسهم وأقر لعيونهم من الدنيا وما فيها[3].

- **(ليسوا بالفرار ولكنهم الكرار):**

عاد جيش مؤتة إلى المدينة:

فلما دنا منها، لقيهم الصبيان بصيحات الاستنكار، يحثون على الجيش التراب، ويقولون: يا فرار، أفررتم في سبيل الله؟! وخرج رسول الله ﷺ مع المسلمين على دابة له يتلقاهم، فقال: «خذوا الصبيان واحملوهم، وأعطوني ابن جعفر»، فأتوا إليه بعبد الله ابن جعفر، فحمله على يديه، وقال: «ليسوا بالفرار، ولكنهم الكرار إن شاء الله تعالى»[4].

---

(1) البداية والنهاية 4/295.

(2) البخاري، الفتح (12/152، حديث 3063).

(3) الغزالي: فقه السيرة، ص 400.

(4) انظر: السيرة النبوية للنووي، ص 328.

وبهذا نفى رسول الله ﷺ عن جند هذا الجيش العظيم أن يكونوا فرارًا .. والحق في ذلك هو ما قاله ابن كثير رَحِمَهُ ٱللَّهُ في البداية والنهاية[1]: (... وجمهور هذا الجيش لم يفر، وإنما فر بعضهم حين التقى الجمعان، حتى وصلوا إلى المدينة، وأما بقيتهم فلم يفروا، بل نصُروا كما أخبر بذلك رسول الله ﷺ المسلمين، وهو على المنبر في قوله:

«ثم أخذ الراية سيف من سيوف الله، ففتح الله على يديه»، فما كان المسلمون ليسموهم فرارًا بعد ذلك، وإنما تلقوهم إكرامًا وإعظامًا، وإنما كان التأنيب وحثي التراب للذين فروا وتركوهم هناك، وكان فيهم عبد الله بن عمر رَضِيَ ٱللَّهُ عَنْهُمَا.

وساق ابن كثير أدلة على أن جمهور المسلمين لم يفروا، بل فرت مجموعة من المسلمين، من ذلك حديث عبد الله بن عمر عند أحمد، الذي فيه أنه كان ممن فر، وخشوا القتل إن هم دخلوا المدينة، فهموا أن يركبوا البحر، ثم أخيرًا قرروا عرض أنفسهم على الرسول ﷺ، واعترفوا بفرارهم، فقال لهم: «لا بل أنتم العكارون، أنا فيئتكم، وأنا فيئة المسلمين»، وفي رواية قال لهم: «لا بل أنتم الكرارون»[2].

وبذا يكون ابن كثير رَحِمَهُ ٱللَّهُ قد جمع بين روايات السيرة، التي تؤكد خروج أطفال المدينة لملاقاة الجيش بالحجارة؛ لأنهم فروا من المعركة، وبين روايات البخاري عن رسول الله ﷺ بانتصار المسلمين[3].

ورغم منافحة الرسول ﷺ عن أصحاب مؤتة، فقد اعتزل بعضهم في بيته؛ خشية سماع هذه الكلمة الثقيلة على أسماع المؤمنين المجاهدين: (يا فرار). روى ابن إسحاق، عن أم سلمة زوج النبي ﷺ، أنها قالت لامرأة سلمة بن هشام بن المغيرة: ما لي لا أرى سَلمة يحضر الصلاة مع رسول الله ﷺ؟ فقالت: ما يستطيع أن يخرج، كلما خرج صاح به الناس: يا فرار، فررتم في سبيل الله، حتى قعد في بيته ما يخرج. وهذا يدل على مبلغ ما

(1) البداية والنهاية (276/4).

(2) مهدي رزق الله: السيرة النبوية، ص 548.

(3) المنهج الحركي، القسم الثالث، ص 103.

وصل إليه الخلق الإسلامي آنئذ من حب البطولة وإيثار الشهادة في سبيل الله على الفرار، والاستحياء من المثالب والمساوئ، وتقدير للقيم الخلقية، والمعاني الأدبية[1].

إكرام النبي لآل جعفر:

لما أصيب جعفر، دخل رسول الله على أسماء بنت عميس، فقال: «ائتني ببني جعفر»، فأتت بهم، فشمهم، وقبلهم، وذرفت عيناه، فقالت أسماء: أبلغك عن جعفر وأصحابه شيء؟ قال: «نعم، أصيبوا هذا اليوم»، فجعلت تصيح وتولول، فقال النبي: «لا تغفلوا عن آل جعفر أن تصنعوا لهم طعامًا؛ فإنهم قد شغلوا بأمر صاحبهم»، وهذا هو الأصل في صنع الطعام لأهل الميت، لا ما يصنعه بعض الناس اليوم بقصد التفاخر والمقابلة بالمثل، وقد لا يصيب أهل الميت منه شيء.

ولما قارب الجيش المدينة، تلقاهم الصبيان يشتدون، ورسول الله مقبل مع الجيش على دابة له، فقال: «خذوا الصبيان فاحملوهم، وأعطوني ابن جعفر»، فأُتي بعبد الله، فحمله بين يديه، وبعد ثلاث دخل على أسماء، وقال لها: «لا تبكوا على أخي بعد اليوم، ادعوا لي بني أخي»، فجيء بهم كأنهم أفرخ، فدعا بالحلاق فحلق لهم رءوسهم، ثم قال: «أما محمد فشبيه عمنا أبي طالب، وأما عبد الله فشبيه خلقي وخلقي»، ثم أخذ بيمين عبد الله، وقال: «اللّٰهم اخلف جعفرًا في أهله، وبارك لعبد الله في صفقة يمينه (ثلاثًا)». ولما ذكرت له أمهم يتمهم وضعفهم، قال لها: «العيلة تخافين عليهم، وأنا وليهم في الدنيا والآخرة»[2].

- خالد .. سيف من سيوف الله:

واستحق خالد رَضِيَ اللَّهُ عَنْهُ في هذه المعركة أرفع وسام في الجيش الإسلامي، وأعلى رتبة، ولم ينل هذا الوسام أحد بعده ولا أحد قبله، أعلنه رسول الله ﷺ على المنبر، فقال:

---

(1) انظر: السيرة لأبي شهبة، ج 2، ص 430.

(2) رواه الإمام أحمد (1761)، وانظر السيرة لأبي شهبة، ج2، ص 430.

«وأخذ الراية سيف من سيوف الله، سله الله تعالى على المشركين، جعل الله النصر على يديه»[1]. إنها لقفزة هائلة في الميدان العسكري من جندي عادي مغمور إلى قائد فذ، يقلده رسول الله ﷺ هذا الوسام، ومضى معه حتى لقي به العرب والفرس والروم، فقال له قائد جيش الروم في اليرموك: هل أنزل الله سيفًا من السماء فأعطاكه، فلا تسله على قوم إلا هزمتهم؟ ولم ينزل الله تعالى سيفًا من السماء. بل أنبت هذا السيف من صلب الوليد ابن المغيرة، الذي هجاه الله تعالى في كتابه، ونقله بعد عشرين عامًا من قلعة الشرك إلى قلعة الإيمان. فإذا معادن الرجال تبرز صارمة صارخة، كما يقول ﷺ: «الناس معادن، خيارهم في الجاهلية خيارهم في الإسلام إذا فقهوا».

خالد الذي هَمَّ قبل عام ونصف أن ينقض على محمد ﷺ في صلاة العصر في الحديبية لينهي هذا الصابئ وجنده - على حد زعمه - يُطلب منه الآن وبعد أقل من ثلاثة أشهر من إسلامه أن ينقذ جيش محمد صلوات الله وسلامه عليه من المذبحة المحتمة (مذبحة الروم).

خالد الذي انقض فعلًا على محمد ﷺ قبل خمس سنوات من الخلف، وحطم النصر المؤزر الذي حققه المسلمون في أُحد، يُطلب منه اليوم أن يعيد الكرة، فينقذ الجيش المنهزم المعروض للذبح من الفناء. مع فارق واحد هو أن جيشه الذي استعاد النصر فيه في أحد كان أربعة أضعاف جيش محمد ﷺ، بينما يطلب منه الآن أن يستعيد النصر بجيش قوامه ثلاثة آلاف مقاتل، على جيش قوامه مائتي ألف، أي يطلب منه أن يستعيد النصر على جيش يبلغ سبعين ضعفًا من جيشه على التقريب، ومع ذلك، فقد تحقق النصر، وفتح الله تعالى على يديه[2].

- مؤتة المسمار الأول في نعش الدولة الرومانية:

تعتبر هذه المعركة من أهم المعارك التي وقعت بين المسلمين وبين النصارى الصليبيين من عرب وعجم؛ لأنها أول صدام مسلح ذي بال بين الفريقين، وأثَّرت تلك المعركة على

---

(1) رواه البخاري في المناقب (3671).

(2) المنهج الحركي، القسم الثالث، ص 103.

مستقبل الدولة الرومانية؛ فقد كانت مقدمة لفتح بلاد الشام وتحريرها من الرومان. ونستطيع أن نقول إن تلك الغزوة هي خطوة عملية، قام بها النبي ﷺ للقضاء على دولة الروم المتجبرة في بلاد الشام، فقد هز هيبتها من قلوب العرب، وأعطت فكرة عن الروح المعنوية العالية عند المسلمين، كما أظهرت ضعف الروح المعنوية في القتال عند الجندي الصليبي النصراني[1]، وأعطت فرصة للمسلمين للتعرف على حقيقة قوات الروم، ومعرفة أساليبهم في القتال.

- مؤتة: تؤكد أن المسلمين من طراز فريد:

وهذه المعركة وإن لم يحصل المسلمون بها على الثأر، الذي عانوا مرارتها لأجله، لكنها كانت كبيرة الأثر لسمعة المسلمين .. إنها ألقت العرب كلها في الدهشة والحيرة؛ فقد كانت الرومان أكبر وأعظم قوة على وجه الأرض، وكانت العرب تظن أن معنى جلادها هو القضاء على النفس، وطلب الحتف بالظلف، فكان لقاء هذا الجيش الصغير - ثلاثة آلاف مقاتل - مع ذلك الجيش الضخم العرمرم الكبير - مائتا ألف مقاتل - ثم الرجوع عن الغزو من غير أن تلحق به خسارة تذكر، كان كل ذلك من عجائب الدهر، وكان يؤكد أن المسلمين من طراز آخر غير ما ألفته العرب وعرفته، وأنهم مؤيدون ومنصورون من عند الله، وأن صاحبهم رسول الله حقًّا، ولذلك نرى القبائل اللدودة التي كانت لا تزال تثور على المسلمين، جنحت بعد هذه المعركة إلى الإسلام، فأسلمت بنو سليم وأشجع وغطفان وذبيان وفزارة، وغيرها[2].

- مؤتة تسقط حساب الأرقام:

أهم ما يثير الدهشة في هذه الغزوة، تلك النسبة الكبيرة من الفرق بين عدد المسلمين فيها وعدد مقاتليهم من الروم والعرب! .. لقد رأيتَ أن عدد المشركين ومن معهم من الروم قد بلغ ما يقرب مائتي ألف مقاتل! - وذلك على ما رواه ابن إسحاق وابن سعد وعامة كتاب السيرة - على حين أن عدد المسلمين لم يتجاوز ثلاثة آلاف. ومعنى ذلك أن

---

(1) الصلابي، ص 738.

(2) الرحيق المختوم، ص 392.

المشركين والروم قد بلغوا ما لا يقل عن خمسين ضعفًا لعدد المسلمين!، وهي نسبة إذا ما تصورتها، تجعل رقعة الجيش الإسلامي، أمام حشود الروم والمشركين، أشبه ما تكون بساقية ماء صغيرة بالنسبة إلى بحر خضم مائج، هذا بالإضافة إلى ما كان قد جهز به جيش الأعداء من العدة والذخيرة والسلاح ومظاهر الأبهة والبذخ، على حين أن المسلمين كانوا يعانون من القلة والفقر!.

ومكمن الدهشة في الأمر، أن تجد المسلمين بعد هذا كله - وهم سرية ليس فيها رسول الله ﷺ - مقبلين غير مدبرين، لا يقيمون لكل هذه الحشود الهائلة أمامهم وزنًا، مع أنها - فيما يبدو ويظهر - لو التفت من حولهم وطوقتهم من جهاتهم، لانقلبوا إلى ما يشبه نواة صغيرة في جوف قطعة أرض سوداء!.

ثم إن مكمن الدهشة بعد ذلك، أن يصمد المسلمون لقتال هذا اليّم المتلاطم .. يقتل أميرهم الأول، ثم الثاني، فالثالث، وهم يقتحمون أبواب الشهادة في نشوة بالغة وإقبال عجيب، حتى يدخل الرعب الإلهي في أفئدة كثير من المشركين، دون أن يكون له سبب ظاهر، فينكشفون عن مواقعهم، ويدبر منهم الكثير، وتقتل منهم خلائق لا تكاد تحصى!.

ولكن الدهشة كلها تزول، والعجب ينتهي، إذا تذكرنا ما يفعله الإيمان بالله، والاعتماد عليه، واليقين بوعده.

بل إن المدهش بالنسبة للمسلمين - إذا كانوا مسلمين - أن لا يكونوا كذلك والعجيب فيهم حقًّا أن يكونوا مسلمين ثم يكون لأرقام العدد والعدة حساب مع ذلك في أفكارهم، إلى جانب ما وعد الله به من نصر وتأييد، أو جنة ونعيم خالدين! .. فالمسلمون - كما قال عبد الله بن رواحة رَضِيَ اللهُ عَنْهُ - لا يقاتلون بعدد ولا قوة، ولا كثرة، وإنما يقاتلون بهذا الدين الذي أكرمهم الله به[1].

مؤتة: أحكام فقهية:

1- إن في تعيين الرسول ﷺ لثلاثة أمراء على جيش سرية مؤتة، لدليل على جواز تعليق الإمارة بشرط، وتولية عدة أمراء بالترتيب.

(1) فقه السيرة للبوطي، ص 383- 384.

2- في نعي الرسول ﷺ الثلاثة قبل مجيء خبرهم، فيه جواز الإعلام بموت الميت، ولا يكون ذلك من النعي المنهي عنه، وفيه علم ظاهر من أعلام النبوة.

3- في تأمير المسلمين لخالد بعد استشهاد الأمراء الثلاثة، دليل على جواز الاجتهاد في حياة الرسول ﷺ.

4- إن ظهور الحزن على رسول الله ﷺ عندما جاءه خبر استشهاد الأمراء الثلاثة لدليل على ما جعله الله فيه من الرحمة، ولا ينافي ذلك الرضا بالقضاء. ويؤخذ منه أن ظهور الحزن على الإنسان إذا أصيب بمصيبة، لا يخرجه عن كونه صابرًا راضيًا إذا كان قلبه مطمئنًا، بل قد يقال إن من كان ينزعج بالمصيبة ويعالج نفسه على الرضا والصبر، أرفع رتبة ممن لا يبالي بوقوع المصيبة أصلًا[1].

* * *

(1) انظر: السيرة لمهدي رزق الله، ص 549.

الفصل الثالث

ذات السلاسل .. مدرسة تربوية فذة

بعد عودة سرية مؤتة إلى المدينة بأيام قليلة، وبالتحديد في جمادى الثانية من سنة ثمان هجرية - كما ذكر ابن سعد - بلغ الرسول ﷺ أن قضاعة بدأت تتجمع مرة أخرى؛ تريد الدنو من المدينة، فأرسل إلى عمرو بن العاص، فلما جاءه قال له: «... إني أريد أن أبعثك على جيش، فيسلمك الله ويغنمك، وأرغب لك من المال رغبة صالحة»، فقال له عمرو: يا رسول الله، ما أسلمت من أجل المال، ولكن أسلمت رغبة في الإسلام، وأن أكون مع رسول الله ﷺ، فقال يا عمرو: «نعم المال الصالح للمرء الصالح»(1).

ثم بعثه في ثلاثمائة من المهاجرين والأنصار؛ ليقضي عليهم في ديارهم، وأمره أن يستعين ببعض فروع قضاعة من بلي وعذرة وبَلْقَين على ذلك العدو؛ لأن أم عمرو كانت من بلي، وفي ذلك استئلاف لهم(2).

- **طلب المدد:**

ولما وصل عمرو رَضِيَ اللَّهُ عَنْهُ في مسيره إلى ماء بأرض جذام، يقال له السلسل - وبه سميت السرية - بلغه كبر جمعهم (أي: المشركين من قضاعة)، فأرسل رافع بن مكيث الجهني إلى رسول الله ﷺ، فأمده بمائتين من المهاجرين والأنصار، عليهم أبو عبيدة عامر ابن الجراح، وفيهم أبو بكر وعمرو، وطلب من عمرو وأبي عبيدة أن يتطاوعا (يتفاهما في قيادة الجيش).

قال موسى بن عقبة: فلما قدموا على عمرو، قال: أنا أميركم، وأنا أرسلت إلى رسول الله ﷺ أستمده بكم. فقال المهاجرون: بل أنت أمير أصحابك، وأبو عبيدة أمير المهاجرين. فقال عمرو: إنما أنتم مدد أمددته. فلما رأى ذلك أبو عبيدة - وكان رجلًا

(1) رواه أحمد في المسند، الفتح الرباني (21/140- 141).
(2) انظر: السيرة لمهدي رزق الله، ص 551.

حسن الخلق لين الشكيمة - قال: تعلم يا عمرو أن آخر ما عهد إليَّ رسول الله ﷺ أن قال: إذا قدمت إلى صاحبك فتطاوعا .. إنك إن عصيتني لأطيعنك، فسلم أبو عبيدة الإمارة لعمرو بن العاص.

فكان هذا هو الدرس الأول، فعمرو بن العاص ابن الثلاثة أشهر في حضن الإسلام، يمده رسول الله ﷺ بخيرة أهل الأرض، أمثال أبي عبيدة وأبي بكر وعمر، ويشمخ أنفه أن يكون أميرًا على الذين أمضوا قرابة عشرين عامًا في حضن الدعوة، ولا يرضى أن يكون تبعًا لأبي عبيدة، وعظمة أبي عبيدة وسماحته ووصية رسول الله ﷺ له أن لا يختلفا، دفعته للقول: لئن عصيتني لأطيعنك، وسلم إمرة الجيش لعمرو بن العاص، الذي كان قبل فترة وجيزة يخطط لضرب عنق رسول الله ﷺ في الحبشة[1].

- **عمرو يبدي إمكاناته الحربية الفائقة:**

قال الواقدي: حدثني ربيعة بن عثمان، عن يزيد بن رومان، أن أبا عبيدة لما آب إلى عمرو بن العاص، فصاروا خمسمائة، فساروا الليل والنهار، حتى وطئ بلاد بلي ودوَّخها. وكلما انتهى إلى موضع بلغه أنه قد كان بهذا الموضع جمع، فلما سمعوا بك تفرقوا، حتى انتهى إلى أقصى بلاد بلي وعذرة وبلقين. ولقي في آخر ذلك جمعًا ليس بالكثير، فاقتتلوا ساعة، وتراموا بالنبل ساعة، وحمل المسلمون عليهم فهُزموا، وأعجزوا هربًا في البلاد، وتفرقوا، ودوخ عمرو ما هناك، وأقام أيامًا لا يسمع لهم بجمع ولا مكان صاروا فيه. وكان يبعث أصحاب الخيل، فيأتون بالشاة والنعم (غنيمة من المشركين)، فكانوا ينحرون ويذبحون. ولم يكن في ذلك أكثر من ذلك، ولم تكن غنائم تقسم.

وهذا هو الدرس الثاني .. فاختيار رسول الله ﷺ عمرو بن العاص؛ ليكون قائدًا على أمثال أبي بكر وعمر لم يكن لأفضليته، ولا لعلو مكانته عليهم، ولكن لكونه هو الأنسب لهذه المهمة، وتوظيفًا لإمكاناته في مجالها المناسب .. وقد اتخذ الفقهاء من تأمر عمرو بن العاص على جيش فيه الصديق والفاروق، دليلًا على جواز تأمير المفضول على الفاضل إذا امتاز بصفة تتعلق بتلك الإدارة، وقد وعى عمرو رَضِيَ اللهُ عَنْهُ هذا الدرس وحكاه لنا، فيما

(1) المنهج الحركي، ص 106.

رواه الحافظ البيهقي عن أبي عثمان النهدي، قال: سمعت عمرو بن العاص يقول: بعثني رسول الله ﷺ على جيش ذات السلاسل، وفي القوم أبو بكر وعمر، فحدثتني نفسي أنه لم يبعثني على أبي بكر وعمر إلا لمنزلة لي عنده، قال فأتيته حتى قعدت بين يديه، قلت: يا رسول الله! من أحب الناس إليك؟، قال: عائشة. قلت: إني لست أسألك عن أهلك، قال: فأبوها، قلت: ثم من؟ قال: عمر، قلت: ثم من؟ حتى عدد رهطًا. قال: قلت في نفسي لا أعود أسأل عن هذا.

وقد خرجاه في الصحيحين، وفي رواية: فسكت مخافة أن يجعلني آخرهم(1).

- **الفقه المبكر لعمرو بن العاص:**

روى أبو داود عن عمرو بن العاص، قال: احتلمت في ليلة باردة في غزوة ذات السلاسل، فأشفقت إن اغتسلت أن أهلك، فتيممت ثم صليت بأصحابي الصبح، فذكروا ذلك لرسول الله ﷺ، فقال: يا عمرو وصليت بأصحابك وأنت جنب؟ قال: فأخبرته بالذي منعني من الاغتسال، وقلت إني سمعت الله يقول: ﴿وَلَا تَقْتُلُوٓاْ أَنفُسَكُمْۚ إِنَّ ٱللَّهَ كَانَ بِكُمۡ رَحِيمًا﴾ [النساء: 29]، فضحك نبي الله ولم يقل شيئًا.

واجتهاد عمرو بن العاص يدل على فقهه ووفور عقله، ودقة استنباطه الحكم من دليله. ولئن(2) وقف الفقهاء عند هذه الحادثة يفرعون عليها الأحكام، فإن الذي يستوقفنا(3) في السيرة منها تلك السرعة في أخذ عمرو للقرآن، وصلته به، حتى بات قادرًا على فقه الأمور من خلال الآيات، وهو لم يمض على إسلامه أربعة أشهر .. إنه الحرص على الفقه في دين الله.

وقد استنبط الفقهاء بعض الأحكام من هذه القصة:

أ- التيمم يقوم مقام الغسل بالنسبة للجنب، مع وجود الماء إذا خشي أن يؤدي استخدام الماء إلى الضرر، فلقد تيمم عمرو بن العاص لما أصبح جنبًا مع وجود الماء عنده، وصلى، وأقره الرسول ﷺ، ولم ينكر عليه.

(1) البداية والنهاية، ج4، ص 275- 276.
(2) الصلابي، ص 747.
(3) الصلابي، ص 746.

ب- يجوز الاجتهاد في عهده ﷺ: فقد اجتهد عمرو بن العاص، فتوضأ واغتسل وصلى، وقد احتلم في تلك الليلة الباردة؛ اعتمادًا على قوله تعالى: ﴿وَلَا تَقْتُلُوٓاْ أَنفُسَكُمْۚ إِنَّ ٱللَّهَ كَانَ بِكُمْ رَحِيمًا﴾ [النساء: 29]، فلم ينكر عليه الرسول ﷺ اجتهاده، بل أقره على أمرين؛ الأول: جواز الاجتهاد، والثاني: تصحيح اجتهاده.

ج- من الأسباب المبيحة للتيمم تعذر استخدام الماء - وإن وجد - كالبرد الشديد.

د- تجوز إمامة المتيمم بالمتوضئ؛ فقد صلى عمرو بن العاص، وهو متيمم إمامًا بخمسمائة صحابي قد توضئوا، وأقره الرسول على ذلك، ولم ينكر عليه.

* * *

الفصل الرابع

سرايا تحمل عبرًا

1- سرية ابن أبي حدرد إلى الغابة:

بلغ رسول الله ﷺ أن رجلًا يقال له قيس بن رفاعة، أو رفاعة بن قيس، أقبل في عدد كثير، حتى نزلوا الغابة؛ يريد أن يجمع قيسًا على محاربة رسول الله ﷺ، وكان ذا اسم وشرف في جُشَم، فدعا رسول الله ﷺ عبد الله بن أبي حدرد الأسلمي ورجلين من المسلمين؛ ليخرجوا إليه، فخرجوا وتمكن ابن حدرد من قتل رفاعة بن قيس، وهرب قومه، فأخذوا ما قدروا عليه من النساء والأولاد، وما خف معهم من أموالهم، واستاقوا إبلًا عظيمة وغنمًا كثيرة. وجاءوا بها إلى رسول الله ﷺ، ومع ابن أبي حدرد رأس رفاعة، فأعطاه الرسول ﷺ ثلاثة عشر بعيرًا من تلك الإبل[1].

وذكر الطبري[2] أن هذه السرية كانت في شعبان سنة ثمان من الهجرة، وأميرها أبو قتادة[3].

2- سرية أبي قتادة:

بعث رسول الله ﷺ سرية إلى إضَم، فيها أبو قتادة ومُحَلِّم بن جَثَّامة بن قيس، حتى إذا كانوا ببطن إضم، مر بهم عامر بن الأضبط الأشجعي، فسلم عليهم بتحية الإسلام، فأمسكوا عنه، ومع ذلك حمل عليه محلم فقتله؛ لشيء كان بينهم، وأخذ بعيره ومتاعه، وفي ذلك نزل قوله الله تعالى: ﴿يَٰٓأَيُّهَا ٱلَّذِينَ ءَامَنُوٓاْ إِذَا ضَرَبْتُمْ فِى سَبِيلِ ٱللَّهِ فَتَبَيَّنُواْ وَلَا تَقُولُواْ لِمَنْ أَلْقَىٰٓ إِلَيْكُمُ ٱلسَّلَٰمَ لَسْتَ مُؤْمِنًا تَبْتَغُونَ عَرَضَ ٱلْحَيَوٰةِ ٱلدُّنْيَا ...﴾

---

(1) رواه ابن إسحاق، كما عند ابن كثير في البداية والنهاية (4/249- 250)، ورواه أحمد (6/11- 12) من غير طريق ابن إسحاق.

(2) التاريخ (3/34) معلقًا، فهو إذن ضعيف.

(3) انظر: السيرة لمهدي رزق الله، ص 553.

[النساء: 94][1]. وقيل إن رسول الله ﷺ قد رفض أن يستغفر لمحلم عندما طلب منه ذلك وهم بحنين[2].

وقالوا إنه عندما مات بعد سبعة أيام من هذا دفنوه، فلفظته الأرض مرتين، فما كان من قومه إلا أن وضعوه بين جبلين، ثم رصوا فوقه الحجارة حتى واروه، فقال رسول الله ﷺ عندما بلغه ذلك: «والله إن الأرض لتطابق على من هو شر منه، ولكن الله أراد أن يعظم في حُرْم ما بينكم بما أراكم منه»[3].

وقد ذكر المحدثون أكثر من سبب في نزول هذه الآية. فقد روى البخاري[4] أنها نزلت في مسلمين مر بهما رجل في غنيمته وألقى إليهم السلام، فقتلوه، وأخذوا غنيمته. ورواه بنحو مثل رواية البخاري: أحمد والترمذي والحاكم.

وروى البزار[5] بسنده إلى ابن عباس رَضِيَ اللَّهُ عَنْهُمَا، أنها نزلت في المقداد بن الأسود عندما بُعث في سرية، وتفرق العدو، وبقي رجل معه مال كثير، وشهد أن لا إله إلا الله، فقتله المقداد، فقال رسول الله ﷺ للمقداد: «كان رجل مؤمن يخفي إيمانه مع قوم كفار، فأظهر إيمانه فقتلته، وكذلك كنت تخفي إيمانك بمكة قبل».

ويبدو من هذه التفاسير أن الحادثة قد تكررت، وأن الآية نزلت في غير واحد.

وكانت هذه السرية في أول شهر رمضان سنة ثمان من الهجرة.

وذكر الواقدي[6] عن سبب بعث هذه السرية، أن رسول الله ﷺ عندما أراد غزو مكة، بعث أبا قتادة في ثمانية نفر إلى بطن إضم؛ ليظن الظان أن رسول الله ﷺ متوجه إلى تلك الناحية، ولتذهب بذلك الأخبار[7].

---

(1) ابن هشام (4/363- 364).

(2) ابن هشام (4/365- 366).

(3) رواه الطبري في التفسير (9/72، شاكر)، وابن هشام (4/366).

(4) الفتح (17/125، حديث 4591).

(5) نقله عنه ابن كثير في التفسير (2/ 338).

(6) المغازي (2/796- 797).

(7) انظر: السيرة لمهدي رزق الله، ص 554- 555.

الفصل الخامس

نصر الله والفتح

شغل المسلمون بعد عهد الحديبية بنشر الدعوة، وعرض تعاليم الإسلام على كل ذي عقل. وكان وفاؤهم لقريش أمرًا مقررًا فيما أحبوا وفيما كرهوا .. ورأى الناس من ذلك الآيات البينات.

لكن قريشًا ظلت على جمودها القديم في إدارة سياستها، غير واعية للأحداث الخطيرة التي غيرت مجرى الأحوال في الجزيرة العربية، وتوشك أن تغيره في العالم كله.

وقد جرها فقدان هذا الوعي إلى حماقة كبيرة، أصبح بعدها عهد الحديبية لغوًا؛ وذلك أنها مع حلفائهم من بني بكر هاجموا خزاعة، وهي مع المسلمين في حلف واحد[1].

وكان من ضمن شروط صلح الحديبية، أنه من شاء أن يدخل في عقد محمد وعهده دخل، ومن شاء أن يدخل في عهد قريش وعقدهم دخل، فدخلت خزاعة في عقد محمد ﷺ وعهده، ودخلت بنو بكر في عقد قريش وعهدهم. فمكثوا في تلك الهدنة نحو السبعة عشر أو الثمانية عشر شهرًا، ثم إن بني بكر وثبوا على خزاعة ليلًا بماء يقال له «الوتير»، وهو قريب من مكة، وقالت قريش: «ما يعلم بنا محمد، وهذا الليل وما يرانا أحد»، فأعانوهم على خزاعة بالكراع والسلاح، وقاتلوهم معهم للضغن على رسول الله ﷺ[2]، وأسرع عمرو بن سالم الخزاعي، فخرج حتى قدم على رسول الله ﷺ المدينة، فوقف عليه، وهو جالس في المسجد بين ظهراني الناس، فقال:

يـــا رب إني ناشـــد محمـــدًا ... حلــف أبينــا وأبيــه الأتلــدا[3]

قـــد كنـــتم ولـــدًا وكنـــا والـــدا ... ثمـــة أســـلمنا ولم ننـــزع يـــدا

فانـــصر، هـــداك الله، نـــصرًا أيـــدًا ... وادع عبـــاد الله يـــأتوا مـــددا

---

(1) الغزالي: فقه السيرة، ص 403.

(2) انظر: السيرة لمهدي رزق الله، ص 557.

(3) **الأتلد:** القديم، يشير إلى الحلف الذي كان بين خزاعة وبني هاشم.

فـــيهم رســـول الله، قـــد تجـــردا   أبـيض مثـل البـدر، يـسموا صـعدا

إن ســـيم خـــسفًا وجهـــه تربـــدا   في فيلـــق كـــالبحر يجـــري مزبـــدا

إن قريـــشًا أخلفـــوك الموعـــدا   ونقـــضوا ميثاقـــك المؤكـــدا

وجعلـــوا لي في كـــداء رصـــدا   وزعمـــوا أن لـــست أدعـــو أحـــدا

وهـــم أذل، وأقـــل عـــددا   هـــم بيتونـــا بـــالوتير هجـــدا

وقتلونا ركعًا وسجدا[1]

فقال رسول الله ﷺ: نُصرت يا عمرو بن سالم، ثم عرضت له سحابة من السماء فقال: إن هذه السحابة لتستهل بنصر بني كعب.

ثم خرج بديل بن ورقاء الخزاعي في نفر من خزاعة، حتى قدموا على رسول الله ﷺ المدينة، فأخبروه بمن أصيب منهم، وبمظاهرة قريش بني بكر عليهم، ثم رجعوا إلى مكة[2].

المبحث الأول: التهيؤ للفتح

سرعان ما أحست قريش بغدرها، وخافت وشعرت بعواقبه الوخيمة، فعقدت مجلسًا استشاريًّا، وقررت أن تبعث قائدها أبا سفيان ممثلًا لها؛ ليقوم بتجديد الصلح.

وقد أخبر رسول الله ﷺ أصحابه بما ستفعله قريش إزاء غدرتهم. قال: كأنكم بأبي سفيان قد جاءكم ليشد العقد، ويزيد في المدة.

وخرج أبو سفيان - حسب ما قررته قريش - فلقي بديل بن ورقاء بعسفان - وهو راجع من المدينة إلى مكة - فقال: من أين أقبلت يا بديل؟ - وظن أنه أتى النبي ﷺ -

---

(1) البداية والنهاية 318/4.

(2) انظر: الرحيق المختوم، ص 395.

فقال: سرت في خزاعة في هذا الساحل وفي بطن هذا الوادي. قال: أوما جئت محمدًا؟ قال: لا.

فلما راح بديل إلى مكة، قال أبو سفيان: لئن كان جاء المدينة، لقد علف (راحلته) بها النوى، فأتى مبرك راحلته، فأخذ من بعرها ففته، فرأى فيها النوى، فقال: أحلف بالله لقد جاء بديل محمدًا.

وقدم أبو سفيان المدينة، فدخل على ابنته أم حبيبة، فلما ذهب ليجلس على فراش رسول الله ﷺ، طوته عنه، فقال: يا بنية، أرغبت بي عن هذا الفراش، أم رغبت به عني؟ قالت: بل هو فراش رسول الله ﷺ، وأنت رجل مشرك نجس. فقال: والله لقد أصابك بعدي شر.

ثم خرج حتى أتى رسول الله ﷺﷺ فكلمه، فلم يرد عليه شيئًا، ثم ذهب إلى أبي بكر فكلمه أن يكلم رسول الله ﷺ، فقال: ما أنا بفاعل، ثم أتى عمر بن الخطاب فكلمه، فقال: أأنا أشفع لكم إلى رسول الله ﷺ؟! فوالله لو لم أجد إلا الذر لجاهدتكم به، ثم جاء فدخل على علي بن أبي طالب، وعنده فاطمة، وحسن غلام يدب بين يديهما، فقال: يا علي، إنك أمس القوم بي رحمًا، وإني قد جئت في حاجة، فلا أرجعن كما جئت خائبًا، اشفع لي إلى محمد، فقال: ويحك يا أبا سفيان، لقد عزم رسول الله ﷺ على أمر ما نستطيع أن نكلمه فيه. فالتفت إلى فاطمة، فقال: هل لك أن تأمري ابنك هذا فيجير بين الناس، فيكون سيد العرب إلى آخر الدهر؟ قالت: والله ما يبلغ ابني أن يجير بين الناس، وما يجير أحد على رسول الله ﷺ، وحينئذ أظلمت الدنيا أمام عيني أبي سفيان، فقال لعلي بن أبي طالب في هلع وانزعاج ويأس وقنوط: يا أبا الحسن إني أرى الأمور قد اشتدت علي، فانصحني. قال: والله ما أعلم لك شيئًا يغني عنك، ولكنك سيد بني كنانة، فقم فأجر بين الناس، ثم الحق بأرضك. قال: أوترى ذلك مغنيًا عني شيئًا؟ قال: لا والله ما أظنه، ولكني لم أجد لك غير ذلك. فقام أبو سفيان في المسجد، فقال: أيها الناس، إني قد أجرت بين الناس، ثم ركب بعيره، وانطلق.

ولما قدم على قريش، قالوا: ما وراءك؟ قال: جئت محمدًا فكلمته، فوالله ما رد عليَّ شيئًا، ثم جئت ابن أبي قحافة، فلم أجد فيه خيرًا، ثم جئت عمر بن الخطاب، فوجدته أدنى العدو (أكثرهم)، ثم جئت عليًّا فوجدته ألين القوم، قد أشار عليَّ بشيء صنعته، فوالله ما أدري هل يغني عني شيئًا أم لا؟ قالوا: وبم أمرك؟ قال: أمرني أن أجير بين الناس، ففعلت، قالوا: فهل أجاز ذلك محمد؟ قال: لا. قالوا: ويلك، إن زاد الرجل على أن لعب بك. قال: لا والله ما وجدت غير ذلك[1]

- سِرِّية الوجهة:

لم يلبث رسول الله ﷺ أن أخذ في التجهز للخروج إلى مكة، وأذن في الناس بالتجهيز، وأخفى مقصده، وكان غرضه من ذلك أن يبغت قريشًا في عقر دارها من غير أن تأخذ أهبتها؛ حرصًا أن لا تراق دماء[2].

وأمر رسول الله ﷺ أهله أن يجهزوه، فدخل أبو بكر رضي الله عنه على ابنته عائشة رضي الله عنها، وهي تحرك بعض جهاز رسول الله ﷺ، فقال: أي بنية: أأمركم رسول الله ﷺ أن تجهزوه؟ قالت: نعم، فقال: فأين ترينه يريد؟ قالت: لا والله ما أدري.

وقبل مسيره ﷺ إلى مكة، بعث أبا قتادة في سرية إلى بطن إضم (كما ذكرنا في الفصل السابق)؛ للتمويه وإخفاء الوجهة، وفي ذلك يقول ابن سعد: لما هم رسول الله ﷺ بغزو أهل مكة، بعث أبا قتادة بن ربعي في ثمانية نفر سرية إلى بطن إضم؛ ليظن ظان أن رسول الله ﷺ توجه إلى تلك الناحية، ولتذهب بذلك الأخبار[3].

- رسول الله ﷺ يخبر الناس ويستنفر القبائل:

قال ابن إسحاق: ثم إن رسول الله ﷺ أعلم الناس أنه سائر إلى مكة، وأمر بالجد والتهيؤ، وقال: «اللّهم خذ العيون والأخبار عن قريش؛ حتى نبغتها في بلادها». فتجهز

(1) الرحيق المختوم، ص 396- 397.
(2) أبو شهبة: السيرة النبوية، ج2، ص 437.
(3) الطبقات الكبرى 132/2.

الناس، وقال حسان بن ثابت رَضِيَ اللَّهُ عَنْهُ شعرًا، يحرض الناس، ويذكر مُصاب خزاعة[1]، واستنفر رسول الله ﷺ القبائل التي حول المدينة: سليمًا وأشجع ومزينة وأسلم وغفارًا. فمنهم من جاءه وهو بالمدينة، ومنهم من لحقه بالطريق إلى مكة، حتى بلغ جيش المسلمين عشرة آلاف مقاتل[2]، ولم يتخلف أحد من المهاجرين والأنصار[3].

وكانت صيغة الاستنفار العام للعرب جميعًا من المدن والحضر الذين دخلوا في دين الله: «من كان يؤمن بالله واليوم الآخر فليحضر رمضان بالمدينة». ومع كل هذا التوسع، فقد حافظ المسلمون جميعًا على سرية التحرك.

وبمقارنة هذا العدد الهائل والاستجابة للنفير العام مع التباطؤ والتلكؤ يوم الحديبية، نلاحظ الفرق بين تحرك الناس قبل التمكين وتحركهم بعده. ولقد قرَّع القرآن الكريم في سورة الفتح أولئك الأعراب الذين تباطئوا وتخاذلوا عن هذا النفير (يوم الحديبية)، حتى حرموا من حضور خيبر بعدها .. هم هم أنفسهم اليوم ينضمون بالآلاف إلى الجيش الإسلامي، وهذا المعنى يرتبط بالفتح المبين يوم الحديبية .. فثبات النفر القليل أيام المحنة هو الدرس الحي الذي يقود جحافل الناس بعد المحنة .. وثبات النفر القليل هو الذي هيأ الجو لمثل هذه المعاهدة، وهذا الجو هو الذي فتح القلوب للإسلام، والجو المفتوح البعيد عن الخوف، الخالي من المخاطر، هو الذي هيأ المجال للتحرك الجاد من القاعدة الصلبة إلى نفوس الناس المتعطشة لهذا الدين، وما كان لمثل هذا التجمع أن يعطي فعاليته لولا ثبات الرواد الأوائل على الطريق، وقدرتهم على ضم هذه الأعداد الهائلة إلى المعركة[4].

استخبارات:

وبث رسول الله ﷺ رجال الاستخبارات داخل المدينة وخارجها؛ حتى لا تنتقل أخباره إلى قريش.

---

(1) ابن هشام (4/56- 57).

(2) من رواية البخاري، الفتح (16/111، حديث 4276).

(3) ابن هشام (4/60)، ومهدي رزق الله: السيرة النبوية، ص 559).

(4) المنهج الحركي، القسم الثالث، ص 120.

وأخذ رسول الله ﷺ بالأنقاب (جمع نقب، وهو العريف على القوم)، فكان عمر بن الخطاب رَضِيَ اللَّهُ عَنْهُ يطوف على الأنقاب قيمًا بهم، فيقول: لا تدعوا أحدًا يمر بكم تنكرونه إلا رددتموه .. إلا من سلك إلى مكة؛ فإنه يتحفظ به ويسأل عنه[1].

- **ما كان من حاطب بن أبي بلتعة:**

ولما أجمع ﷺ المسير إلى مكة، كتب حاطب بن أبي بلعتة كتابًا يخبرهم بالذي أجمع عليه رسول الله ﷺ، ثم أعطاه مولاة لبعض بني عبد المطلب، تسمى سارة، وجعل لها جُعْلًا على أن تبلغه قريشًا، فجعلته في عقاص شعرها، ثم خرجت به، فإذا الوحي ينزل على رسول الله بما صنع حاطب، فبعث عليًّا والزبير والمقداد، وقال: «انطلقوا حتى تأتوا (رَوْضة خاخ)؛ فإن بها ظغينة معها كتاب، فخذوه منها». فانطلقوا تتعادى بهم خيلهم، حتى أدركوها، فقالوا لها أخرجي الكتاب، فقالت: ليس معي كتاب، فقالوا لها: لتخرجن الكتاب، أو لنكشفن الثياب، فخافت وأخرجته من عقاصها، فأتوا به إلى النبي، فإذا فيه: «يا معشر قريش، فإن رسول الله جاءكم بجيش كالليل، يسير كالسيل، فوالله لو جاءكم وحده لنصره الله، وأنجز له وعده، فانظروا لأنفسكم، والسلام»[2].

فقال النبي: «يا حاطب ما هذا؟»، فقال: يا رسول الله لا تعجل علي، إني كنت امرأ ملصقًا في قريش - يعني حليفًا ولم يكن من أنفسها - وكان من معك من المهاجرين من لهم قرابات يحمون بها أهليهم وأموالهم، فأحببت إذ فاتني ذلك من النسب فيهم أن أتخذ عندهم يدًا يحمون بها قرابتي بها، ولم أفعله ارتدادًا عن ديني، ولا رضًا بالكفر بعد الإسلام، فقال الرسول العظيم: «أما إنه قد صدقكم».

فقال عمر: يا رسول الله دعني أضرب عنق هذا المنافق، فقال رسول ﷺ: «إنه قد شهد بدرًا، وما يدريك لعل الله قد اطلع على من شهد بدرًا، فقال: اعملوا ما شئتم فقد غفرت لكم»، فبكى عمر، وقال: الله ورسوله أعلم!! فأنزل الله هذا التأديب الإلهي، وهو صدر سورة الممتحنة:

---

(1) مغازي الواقدي، ص 797، والسيرة للصلابي، ص 752.

(2) فتح الباري، ج8، ص 420.

﴿يَٰٓأَيُّهَا ٱلَّذِينَ ءَامَنُواْ لَا تَتَّخِذُواْ عَدُوِّي وَعَدُوَّكُمۡ أَوۡلِيَآءَ تُلۡقُونَ إِلَيۡهِم بِٱلۡمَوَدَّةِ وَقَدۡ كَفَرُواْ بِمَا جَآءَكُم مِّنَ ٱلۡحَقِّ يُخۡرِجُونَ ٱلرَّسُولَ وَإِيَّاكُمۡ﴾، إلى قوله سبحانه: ﴿فَقَدۡ ضَلَّ سَوَآءَ ٱلسَّبِيلِ﴾ [الممتحنة: 1] (1).

قال الشيخ الغزالي رَحِمَهُ ٱللَّهُ:

إن حاطبًا خرج عن جادة الصواب بهذا العمل.

وما كان له أن يواد المشركين وهم الذين تبجحوا بالكفران، وتظاهروا على العدوان، وصنعوا بالمسلمين ما «حاطب» أعلم به من غيره.

لكن الإنسان الكبير تعرض له فترات يصغر فيها، والله أبر بعباده من أن يؤاخذهم بسورات الضعف التي تعرو نورهم فيخبو، وسعيهم فيكبو.

وقد استكشف النبي ﷺ خبيئة حاطب، فعرف أنه لم يكذبه في اعتذاره .. إنهم مقبلون على معركة كبيرة، قد ينهزمون فيها، فتقوم العصبيات القديمة بحماية الأقارب الشاردين، ويبقى حاطب لا حمى له، فليتخذ تلك اليد عند قريش؛ حيطة للمستقبل.

ذلك ما فكر فيه حاطب، وهو خطأ؛ فإن المشركين لم يذكروا في عداوة الإسلام رحمًا ولا أهلًا، وما ينبغي - ولو دارت علينا الدوائر - أن نبقي لهم ودًّا، وقد خاصمناهم في ذات الله، وأخذ علينا العهد أن نبذل في حربهم أنفسنا وأموالنا.

ولو جاز اتخاذ يد عندهم، فكيف يُتوسل بعمل يعد خيانة كبيرة فادحة للإضرار بالإسلام، وأهله؟!

على أن حاطبًا شفع له ماضيه الكريم، فجبرت عثرته، وأمر النبي ﷺ المسلمين أن يذكروا الرجل بأفضل ما فيه، وبهذا التقدير السمح علمنا الإسلام ألا ننسى الحسنات والفضائل لمن يخطئون حينًا بعد أن أصابوا طويلًا(2).

(1) انظر: السيرة لأبي شهبة، ج2، ص 437- 438.

(2) فقه السيرة، ص 407- 408.

المبحث الثاني: الطريق إلى مكة

اتفق أهل السير والمغازي أن رسول الله ﷺ خرج للفتح في عاشر رمضان، ودخل مكة لتسع عشرة ليلة خلت منه، واختلفوا في تاريخ الفتح، ما بين ثنتي عشرة وثلاث عشرة وست عشرة وسبع عشرة وثمان عشرة وتسع عشرة، من رمضان، واتفقوا على أنه في رمضان سنة ثمان، كما جاءت بذلك الروايات عند مسلم[1].

فقد مضى رسول الله لغزوته، واستخلف على المدينة أبا رهم كلثوم بن حصين الغفاري، وكان خروجه لعشر مضين من رمضان، فصام وصام الناس معه، حتى إذا كان بالكديد - موضع بين مكة والمدينة - أفطر حتى قدم مكة وانسلخ الشهر، وخرج معه المهاجرون والأنصار، لم يتخلف منهم أحد، وانضم إليهم آلاف من سليم ومزينة وغطفان وغيرها، وما إن وصل مر الظهران، حتى صار تعداد الجيش عشرة آلاف، وقيل اثنا عشر ألفًا، وشهدت الصحراء العربية الجيش العرمرم، الذي لم تشهد له مثيلًا له من قبل[2].

- **في الجحفة:**

وفي الجحفة لقي رسول الله ﷺ عمه العباس بن عبد المطلب رضي الله عنه، وقد خرج مهاجرًا بعياله، فسر رسول الله ﷺ[3].

وقيل إن العباس أسلم قبل بدر[4]، بل قيل قبل الهجرة إلى المدينة[5]. قال ابن حجر[6]: «وكان إسلامه - على المشهور - قبل فتح مكة، يعني حين سار الرسول ﷺ إلى مكة فاتحًا، وقيل قبل ذلك، وليس ببعيد، فإن حديث أنس في قصة الحجاج بن علاط (التي ذكرناها آنفًا) ما يؤيد ذلك».

---

(1) السيرة لمهدي رزق الله، ص 560- 561، وانظر صحيح مسلم (2/حديث 113- 116).
(2) السيرة النبوية لأبي شهبة، ج2، ص 439.
(3) البداية والنهاية (4/286).
(4) ابن سعد (2/10).
(5) المصدر السابق (2/31).
(6) الفتح (14/223، حديث 3710).

وقد جزم ابن عبد البر بإسلامه قبل خيبر؛ استنادًا إلى حديث الحجاج بن علاط هذا[1].

- في الأبواء:

ثم لما كان رسول الله ﷺ بالأبواء، لقيه ابن عمه أبو سفيان بن الحارث بن عبد المطلب، أخو رسول الله ﷺ من الرضاعة، وعبد الله بن أبي أمية بن المغيرة ابن عمته وأخو أم المؤمنين أم سلمة رَضِيَ اللَّهُ عَنْهَا لأبيها، وكانا من ألد أعداء الإسلام.

ولقد رفض رسول الله ﷺ بادئ ذي بدء قبولهما، بقوله: «أما ابن عمي فقد هتك عرضي، وأما ابن عمتي فهو الذي قال لي بمكة ما قال». وقول عبد الله بن أبي أمية بقي جرحًا غائرًا يحفر في قلب النبي ﷺ بعد مرور ما ينوف عن خمسة عشرة عامًا. فهو الذي قال: (والله لا أؤمن بك حتى تصعد إلى السماء، وتدخل فيها، ثم ترجع ومعك كتاب، ومعك أربعة من الملائكة يشهدون أن هذا من عند الله، ولو فعلت هذا ما أظن أني أصدقك)، وضاقت الأرض بما رحبت بهذين الطريدين، فقال أبو سفيان: والله ليأذنن لي، أو لآخذن بيدي بني هذا، ثم لنذهبن في الأرض حتى نموت عطشًا .. ويلجأ أبو سفيان بن الحارث لابن عمه علي بن أبي طالب، ويشكو عبد الله بن أمية لأم المؤمنين أم سلمة، (فقالت: يا رسول الله، لا يكون ابن عمك وابن عمتك أشقى الناس بك، وقال علي لأبي سفيان بن الحارث: ائت رسول الله ﷺ من قِبَل وجهه، فقل له ما قال إخوة يوسف ليوسف: ﴿تَاللَّهِ لَقَدْ آثَرَكَ اللَّهُ عَلَيْنَا وَإِن كُنَّا لَخَاطِئِينَ ﴿٩١﴾﴾ [يوسف:91]؛ فإنه لا يرضى أن يكون أحد أحسن قولًا منه. ففعل ذلك أبو سفيان، فقال له رسول الله ﷺ: «لا تثريب عليكم اليوم، يغفر الله لكم وهو أرحم الراحمين». ومُسحت حرب عشرين عامًا من الهجاء والإقذاع بكلمة واحدة أمام أعظم نفس بشرية؛ لأن مفتاحه أنه لا يرضى أن يكون أحد أحسن منه قولًا؛ فلقد أدرك علي رَضِيَ اللَّهُ عَنْهُ مفتاح

(1) انظر: السيرة لمهدي رزق الله، ص: 562.

شخصية النبي ﷺ، وهذا المفتاح هو أنه قمة الكمال البشري. فلا يرضى عليه الصلاة والسلام لنفسه موقفًا أدنى من غيره، وهو المؤهل للقدوة العليا للبشرية في الأرض.

وقد حسن إسلام أبي سفيان بن الحارث رَضِيَ اللَّهُ عَنْهُ، ويقال: إنه ما رفع رأسه إلى رسول الله ﷺ منذ أسلم؛ حياءً منه، وكان رسول الله ﷺ يحبه، وشهد له بالجنة، وقال: أرجو أن يكون خلفًا من حمزة، ولما حضرته الوفاة، قال: لا تبكوا عليَّ؛ فوالله ما نطقت بخطيئة منذ أسلمت[1].

أما عبد الله بن أمية رَضِيَ اللَّهُ عَنْهُ، فقد جاهد في سبيل الله، ودافع عن الإسلام، واستشهد في حصار الطائف[2].

وفي الأبواء أيضًا، جاء مخرمة بن نوفل إلى رسول الله ﷺ مسلمًا[3]. وكان كبير بني زهرة من قريش، وكان والده نوفل ابن عم آمنة بنت وهب بن عبد مناف الزهرية والدة النبي ﷺ، ولهذا أكرمه النبي ﷺ وبش به، وخلع عليه حلة مثمنة[4].

- **في مر الزهران:**

تجمعت جيوش المسلمين بمر الظهران - مكان بين مكة والمدينة - ولم تكن الأنباء قد وصلت قريشًا بعد، ولكنهم كانوا يتوقعون أمرًا بسبب فشل سفارة أبي سفيان إلى المدينة، حين أعانوا بني بكر على خزاعة، فأرسلوا أبا سفيان، وحكيم بن حزام، وبديل بن ورقاء؛ ليستحسوا الأخبار عن رسول الله ﷺ[5].

وكان رسول الله ﷺ قد وصل مر الظهران عشاءً، فأمر الجيش فأوقدوا النيران، فأوقدت عشرة آلاف نار، وجعل رسول الله ﷺ على الحرس عمر بن الخطاب

---

(1) انظر: زاد المعاد 2/162- 163.
(2) انظر: الاستيعاب لابن عبد البر (2/263).
(3) تاريخ الطبري 3/31.
(4) سير أعلام النبلاء، ج2، ص 543- 544.
(5) مهدي رزق الله: السيرة النبوية، ص 563.

رَضِيَٱللَّهُعَنْهُ[1].. فلما رأى العباس رَضِيَٱللَّهُعَنْهُ هذه الآلاف المؤمنة، التي لا يقدر على أن يصدها عن غايتها صاد، والتي لا قبل لمكة ولا لغيرها بهم، قال: (واصباح قريش ... والله لئن دخل رسول الله ﷺ مكة عنوة قبل أن يأتوه فيستأمنوه، إنه لهلاك قريش إلى آخر الدهر، فركب بغلة رسول الله ﷺ البيضاء، وذهب ناحية (الأراك)؛ عسى أن يجد حطابًا، أو صاحب لبن، أو ذا حاجة ذاهبًا إلى مكة، فيخبرهم بمكان رسول الله ﷺ؛ حتى يخرجوا إليه فيستأمنوه، فكان أن التقى بأبي سفيان وصحبه[2].

قال ابن إسحاق: فلما نزل رسول الله ﷺ مر الزهران، قال العباس بن عبد المطلب: فقلت: واصباح قريش، والله لئن دخل رسول الله ﷺ مكة عنوة قبل أن يأتوه فيستأمنوه، إنه لهلاك قريش إلى آخر الدهر.

قال: فجلست على بغلة رسول الله ﷺ البيضاء، فخرجت عليها. قال: حتى جئت الأراك، فقلت: لعلي أجد بعض الحطابة أو صاحب لبن أو ذا حاجة يأتي مكة، فيخبرهم بمكان رسول الله ﷺ؛ ليخرجوا إليه فيستأمنوه قبل أن يدخلها عليهم عنوة.

قال: فوالله إني لأسير عليها، وألتمس ما خرجت له، إذ سمعت كلام أبي سفيان وبديل بن ورقاء، وهما يتراجعان، وأبو سفيان يقول: ما رأيت كالليلة نيرانًا قط ولا عسكرًا، قال: يقول بديل: هذه والله خزاعة حمشتها الحرب. قال: يقول أبو سفيان: خزاعة أذل وأقل من أن تكون هذه نيرانها وعسكرها، قال: فعرفت صوته، فقلت: يا أبا حنظلة، فعرف صوتي، فقال: أبو الفضل؟ قال: قلت: نعم، قال: ما لك؟ فداك أبي وأمي، قال: قلت: ويحك يا أبا سفيان، هذا رسول الله ﷺ في الناس، واصباح قريش والله، قال: فما الحيلة؟ فداك أبي وأمي، قال: قلت: والله لئن ظفر بك ليضربن عنقك، فاركب في عجز هذه البغلة حتى آتي بك رسول الله ﷺ فأستأمن لك، قال: فركب خلفي، ورجع صاحباه.

---

(1) انظر: السيرة للصلابي، ص 755.

(2) أبو شهبة، السيرة النبوية، ج2، ص 440.

قال: فجئت به لما مررت بنار من نيران المسلمين، قالوا: من هذا؟ فإذا رأوا بغلة رسول الله ﷺ وأنا عليها، قالوا: عم رسول الله ﷺ على بغلته.

حتى مررت بنار عمر بن الخطاب رَضِيَ اللَّهُ عَنْهُ، فقال: من هذا؟ وقام إليَّ؛ فلما رأى أبا سفيان على عجز الدابة، قال: أبو سفيان عدو الله! الحمد لله الذي أمكن منك بغير عقد ولا عهد، ثم خرج يشتد نحو رسول الله ﷺ، وركضت البغلة، فسبقته بما تسبق الدابة البطيئة الرجل البطيء. قال: فاقتحمت عن البغلة، فدخلت على رسول الله ﷺ، ودخل عليه عمر، فقال: يا رسول الله، هذا أبو سفيان أمكن الله منه بغير عقد ولا عهد، فدعني فلأضرب عنقه.

قال: قلت: يا رسول الله، إني قد أجرته، ثم جلست إلى رسول الله ﷺ، فأخذت برأسه، فقلت: والله لا يناجيه الليلة دوني رجل، فلما أكثر عمر في شأنه، قال: قلت: مهلًا يا عمر، فوالله أن لو كان من بني عدي بن كعب (قوم عمر وعشيرته) ما قلت هذا، ولكنك قد عرفت أنه من رجال بني عبد مناف، فقال: مهلًا يا عباس، فوالله لإسلامك يوم أسلمت كان أحب إليَّ من إسلام الخطاب لو أسلم، وما بي إلا أني قد عرفت أن إسلامك كان أحب إلى رسول الله ﷺ من إسلام الخطاب لو أسلم، فقال رسول الله ﷺ: اذهب به يا عباس إلى رحلك، فإذا أصبحت فائتني به، قال: فذهبت به إلى رحلي، فبات عندي، فلما أصبح غدوت به إلى رسول الله ﷺ، فلما رآه رسول الله ﷺ، قال: ويحك يا أبا سفيان! ألـم يأن لك أن تعلم أنه لا إله إلا الله، قال: بأبي أنت وأمي، ما أحلمك وأكرمك وأوصلك! والله قد ظننت أن لو كان مع الله إله غيره، لقد أغنى عني شيئًا بعد، قال: ويحك يا أبا سفيان! ألـم يأن لك أن تعلم أني رسول الله. قال: بأبي أنت وأمي، ما أحلمك وأكرمك وأوصلك! أما هذه والله فإن في النفس منها حتى الآن شيئًا.

فقال له العباس: ويحك! أسلم واشهد أن لا إله إلا الله وأن محمدًا رسول الله قبل أن تضرب عنقك.

قال: فشهد شهادة الحق، فأسلم.

قال العباس: قلت يا رسول الله، إن أبا سفيان رجل يحب الفخر، فاجعل له شيئًا، قال: نعم، من دخل دار أبي سفيان فهو آمن، ومن أغلق بابه فهو آمن، ومن دخل المسجد فهو آمن، فلما ذهب لينصرف قال رسول الله ﷺ: يا عباس، احبسه بمضيق الوادي عند خطم الجبل، حتى تمر به جنود الله فيراها.

قال: فخرجت حتى حبسته بمضيق الوادي، حيث أمرني رسول الله ﷺ أن أحبسه.

أما بديل بن ورقاء وحكيم بن حزام، رفيقا أبي سفيان، فقد أسلما بمجرد دخولهما على رسول الله ﷺ [1].

ونحن نجد أن حلم رسول الله ﷺ مع أبي سفيان لا يخرج عن رغبته ﷺ في أن تستسلم مكة دون قتال.

وهو حريص على حقن الدماء في مكة؛ لتسلم له قلوب أهلها، وتكون مستعدة - بالمعاملة الحسنة الكريمة الطيبة - أن تنضم إلى الإسلام.

فنحن لسنا أمام قائد عسكري فقط - وهو سيد القادة في الأرض تهيئة وتخطيطًا وإعدادًا ومواجهة - لكننا كذلك أمام رسول رب العالمين، لا يريد أن يشقى أحد على يديه - فهو الرحمة المهداة - ولكن كان حريصًا على هداية قومه، حتى ليعاتبه ربه عز وجل (على شدته على نفسه) بذلك: ﴿ فَلَعَلَّكَ بَاخِعٌ نَّفْسَكَ عَلَىٰٓ ءَاثَٰرِهِمۡ إِن لَّمۡ يُؤۡمِنُواْ بِهَٰذَا ٱلۡحَدِيثِ أَسَفًا ﴾ [الكهف: 6]. ولم تغير حرب عشرين عامًا من نفسه الطاهرة الشريفة، بأن يكون الانتقام رائده، بل بقي النور الذي يغمر الظلام مهما اشتد. ويمثل هذه النفسية العليا في الأرض رؤيا أبي بكر، وتفسير النبي عليه الصلاة والسلام لها: (فرأى أبو بكر الصديق رَضِيَ اللَّهُ عَنْهُ، في الليلة التي أصبح فيها بالجحفة، أن النبي ﷺ لما دنوا من مكة خرجت عليهم كلبة تهر، فلما دنوا منها استلقت على ظهرها، فإذا أطباؤها[2] تشخب لبنًا، فذكرها أبو بكر، فقال رسول الله ﷺ: ذهب كلبهم[3]، وأقبل درُّهم، هم سائلوكم بأرحامكم! وأنتم لاقون بعضهم، فإن لقيتم أبا سفيان فلا تقتلوه) [4].

---

(1) ابن سعد (2/135)، الواقدي (2/815).

(2) **أطباؤها**: جمع طبي، وهي حلمات الضرع التي فيها اللبن.

(3) **كلبهم**: سعار يأخذ الكلاب فتنبح وتعض.

(4) إمتاع الإسماع، ج1، ص 367- 368، وانظر: المنهج الحركي، القسم الثالث، ص 121- 122.

المبحث الثالث: دخول النبي ﷺ مكة فاتحًا منتصرًا

في صباح يوم الثلاثاء السابع عشر من شهر رمضان سنة 8 هـ، غادر رسول الله ﷺ مر الظهران إلى مكة، ومر جند الله بمضيق الوادي عند خطم الجبل[1]، حيث حبس العباس رَضِيَ اللَّهُ عَنْهُ أبا سفيان - كما أمره رسول الله ﷺ - حتى يرى القبائل وهي تمر على راياتها[2]؛ فتتحطم في نفسه - وفي نفوس المكيين - أي فكرة يمكن أن تحملهم على مقاومة هذا الجيش المبارك[3].

قال ابن إسحاق مستكملًا ما رواه عن العباس رَضِيَ اللَّهُ عَنْهُ:

(... ومرت القبائل على راياتها، كلما مرت قبيلة قال (أي أبو سفيان): يا عباس من هذه؟ فأقول: سليم، فيقول: ما لي ولسليم، ثم تمر القبيلة، فيقول: يا عباس، من هؤلاء؟ فأقول: مزينة، فيقول: ما لي ولمزينة، حتى نفدت القبائل، ما تمر به قبيلة إلا يسألني عنها، فإذا أخبرته بهم، قال: ما لي ولبني فلان، حتى مر رسول الله ﷺ في كتيبته الخضراء (كتيبته ﷺ في فتح مكة، **قال ابن هشام:** وإنما قيل لها الخضراء لكثرة الحديد وظهوره فيها. **قال ابن إسحاق:** فيها المهاجرون والأنصار رَضِيَ اللَّهُ عَنْهُمْ، لا يرى منهم إلا الحدق من الحديد)، فقال: سبحان الله: يا عباس من هؤلاء؟ قال: قلت: هذا رسول الله ﷺ في المهاجرين والأنصار، قال: ما لأحد بهؤلاء قِبَل ولا طاقة، والله يا أبا الفضل، لقد أصبح مُلك ابن أخيك الغداة عظيمًا، قال: قلت: يا أبا سفيان، إنها النبوة، قال: فنعم إذن).

أبو سفيان يحذر أهل مكة:

قال (العباس): قلت: النجاء إلى قومك (أي: أسرع في نجاة قومك)، حتى إذا جاءهم صرخ بأعلى صوته: يا معشر قريش، هذا محمد جاءكم فيما لا قبل لكم به، فمن دخل دار

(1) **الخطم:** شيء يخرج من الجبل يضيق به الطريق.
(2) الرحيق المختوم، ص 401.
(3) السيرة للصلابي، ص 757.

أبي سفيان فهو آمن، فقامت إليه هند بنت عتبة، فأخذت بشاربه، فقالت: اقتلوا الحميث الدسم الأحمس، قُبح من طليعة قوم!

قال: ويلكم، لا تغرنكم هذه من أنفسكم؛ فإنه قد جاءكم ما لا قبل لكم به، فمن دخل دار أبي سفيان فهو آمن، قالوا: قاتلك الله! وما تغني عنا دارك؛ قال: ومن أغلق عليه بابه فهو آمن، ومن دخل المسجد فهو آمن، فتفرق الناس إلى دورهم وإلى المسجد.

- قادة الفتح:

عندما وصل رسول الله ﷺ إلى ذي طوى، وزع المهام، فجعل خالد بن الوليد على المجنبة اليمنى، وجعل الزبير على المجنبة اليسرى، وجعل أبا عبيدة على البياذقة[1].

وبعث رسول الله ﷺ الزبير بن العوام على المهاجرين وخيلهم، وأمره أن يدخل من كداء من أعلى مكة، وأمره أن يغرز رايته بالحجون، ولا يبرح حتى يأتيه، وبعث خالد بن الوليد في قبائل قضاعة وسليم وغيرهم، وأمره أن يدخل من أسفل مكة، وأن يغرز رايته عند أدنى البيوت، وبعث سعد بن عبادة في كتيبة الأنصار في مقدمة رسول الله ﷺ، وأمرهم أن يكفوا أيديهم ولا يقاتلوا إلا من قاتلهم، وبهذا كانت المسئوليات واضحة، وكل قد عرف ما أسند إليه من مهام، والطريق الذي ينبغي أن يسير فيه[2].

- (اليوم يوم تعظم فيه الكعبة):

ولما مر سعد بن عبادة رَضِيَ اللَّهُ عَنْهُ ومعه راية الأنصار بأبي سفيان، قال له: اليوم يوم الملحمة، اليوم تُستحل الحرمة، اليوم أذل الله قريشًا. فلما حاذى رسول الله ﷺ أبا سفيان، قال: يا رسول الله ألم تسمع ما قال سعد؟ قال: وما قال؟ فقال: كذا وكذا. فقال عثمان وعبد الرحمن بن عوف: يا رسول الله ما نأمن أن يكون له في قريش صولة، فقال رسول الله ﷺ: بل اليوم يوم تُعظم فيه الكعبة، اليوم يوم أعز الله فيه قريشًا، ثم أرسل

---

(1) الرجالة.

(2) الصلابي، ص 758.

إلى سعد فنزع منه اللواء، ودفعه إلى ابنه قيس، ورأى أن اللواء لم يخرج عن سعد، وقيل: بل دفعه إلى الزبير[1].

- قريش تجمع الأوباش للمقاومة:

وفي مكة .. جمعت قريش جموعًا من الأوباش، ومن قبائل شتى من أتباعها لحرب المسلمين، وقالوا نقدم هؤلاء، فإن كان لهم شيء (من النصر) كنا معهم، وإن أُصيبوا (قُتلوا) أعطينا الذي سئلنا، وقاد هذا الجمع صفوان بن أمية، وعكرمة بن أبي جهل، وسهيل بن عمرو، واختاروا الخندمة (جبل بمكة) ليقاتلوا فيها[2].

- إعلان منع التجوال بمكة:

لما أرسل رسول الله ﷺ أبا سفيان بن حرب إلى مكة - قبيل دخول جيش المسلمين - أُعلن فيها حظر التجوال؛ لكي يتمكن المسلمون من دخولها بأقل قدر من الاشتباكات والاستفزازات، وإراقة الدماء، وكان الشعار المرفوع: من دخل دار أبي سفيان[3] فهو آمن، ومن أغلق بابه فهو آمن، ومن دخل المسجد فهو آمن، وجعل ﷺ لدار أبي سفيان مكانة خاصة؛ كي يكون أبو سفيان ساعده في إقناع المكيين بالسلم والهدوء، ويستخدمه كمفتاح أمان يفتتح أمامه الطريق إلى مكة دون إراقة دماء، ويشبع في نفسه عاطفة الفخر، التي يحبها أبو سفيان؛ حتى يتمكن الإيمان في قلبه.

- كتائب الفاتحين تدخل مكة:

ودخلت قوات المسلمين مكة من جهاتها الأربع في آن واحد، ولم تلق تلك القوات مقاومة. وكان في دخول جيش المسلمين من الجهات الأربع ضربة قاضية لفلول المشركين؛ حيث عجزت عن التجمع، وضاعت منها فرصة المقاومة، وهذا من التدابير الحربية الحكيمة التي لجأ إليها رسول الله ﷺ عندما أصبح في مركز القوة في العدد

---

(1) الرحيق المختوم، ص 402.

(2) انظر السيرة لمهدي رزق الله، ص 565.

(3) الصلابي، ص 759، 760.

والعتاد، ونجحت خطة الرسول ﷺ، فلم يستطع المشركون المقاومة ولا الصمود أمام الجيش الزاحف إلى أم القرى، فاحتل كل فيلق منطقته التي وجه إليها، في سلم واستسلام؛ إلا ما كان من المنطقة التي توجه إليها خالد[1]؛ فقد قاتلهم عند (الخندمة) متطرفو قريش، وحلفاؤهم من القبائل والأوباش، بقيادة صفوان بن أمية وعكرمة بن أبي جهل وسهيل بن عمرو، فأمر خالد رَضِيَ اللَّهُ عَنْهُ بقتالهم.

فقتل المسلمون منهم اثني عشر رجلًا، وانهزم المشركون، ولم يُقتل من أصحاب خالد رَضِيَ اللَّهُ عَنْهُ سوى كرز بن جابر الفهري وخنيس بن خالد بن ربيعة رَضِيَ اللَّهُ عَنْهُمَا، وكانا قد شذا عن الجيش، فسلكا طريقًا غير طريقه، فقتلا جميعًا.

وقد حدثتنا كتب السيرة عن قصة «حماس بن خالد» من قبيلة بني بكر، فقد أعد سلاحًا لمقاتلة المسلمين، وكانت امرأته إذا رأته يصلحه ويتعهده تسأله: لماذا تعد ما أرى؟ فيقول: لمحمد وأصحابه، وقالت امرأته له يومًا: والله ما أرى أنه يقوم لمحمد وصحبه شيء! فقال: إني والله لأرجو أن أُخْدِمَكَ بعضهم .. ثم قال:

إن يُقبلوا اليوم فما لي علة ... هذا سلاح كامل وألَّة[2]

وذو غرارين سريع السَّلة

فلما جاء يوم الفتح، ناوش حماس هذا شيئًا من قتال مع رجال عكرمة، ثم أحس بالمشركين يتطايرون من حوله، أمام جيش خالد، فخرج منهزمًا حتى بلغ بيته، فقال لامرأته: أغلقي عليَّ الباب.

فقالت المرأة لفارسها المعلم: فأين ما كنت تقول؟

فقال يعتذر لها:

إنك لو شهدت يوم الخندمة ... إذا فر صفوان وفر عكرمة

---

(1) الصلابي، ص 759.

(2) الصلابي، ص 758.

وأبـــو يزيـــد قـــائم كالمؤتمـــة ... واســـتقبلتهم بالـــسيوف المـــسلمة

يقطعـــن كـــل ســـاعد وجمجمـــة ... ضربًـــا فـــلا تـــسمع إلا غمغمـــة

لهـــم نهيـــت خلفنـــا وهمهمـــة ... لم تنطقـــي بـــاللوم أدنـــى كلمـــة

- الفاتح الخاشع:

ودخل رسول الله ﷺ من الكداء بأعلى مكة، وبين يديه أبو عبيدة بن الجراح رضي الله عنه في فرقة من الجيش، دخلها وهو راكب ناقته، ومطأطئ رأسه، حتى إن شعر لحيته ليمس واسطة رحله؛ تواضعًا لله وشكرًا، ومعظمًا له ومكبرًا[1]، وهو يقرأ سورة الفتح، مستشعرًا نعمة الفتح وغفران الذنوب، وإفاضة النصر العزيز[2].

إن هذا الفتح المبين ليذكره بماض طويل الفصول .. كيف خرج مطاردًا؟ وكيف يعود اليوم منصورًا مؤيدًا؟ وأي كرامة عظمى حفه الله بها هذا الصباح الميمون؟! وكلما استشعر هذه النعماء ازداد لله على راحلته خشوعًا وانحناء[3].

وقد أردف رسول الله ﷺ وراءه أسامة بن زيد، فلما بلغ الحجون (مكان بأعلى مكة) أمر أن تركز رايته هناك، وأن تُضرب له قبة، فضُربت، فاستراح بها هو وزوجتاه ميمونة وأم سلمة، فقال له أسامة بن زيد: أين تنزل غدًا يا رسول الله؟ فقال: «وهل ترك لنا عقيل من رباع أو دور؟»، وفي رواية أخرى: «منزلنا غدًا إن شاء الله بخَيْف بني كنانة حيث تقاسموا على الكفر»[4].

يعني المكان الذي تحالفت عنده قريش على حصار بني هاشم في الشعب، وقد اختار النبي ﷺ ذلك المكان؛ ليتذكر المسلمون ما أصابهم من بلاء، فيشكروا الله على ما أنعم

---

(1) السيرة لأبي شهبة، ج2، ص 444.

(2) السيرة للصلابي، ص 761.

(3) فقه السيرة للغزالي، ص 412.

(4) رواهما البخاري (1569)، (1570).

عليهم من الفتح العظيم، ومبالغة في الصفح عن الذين أساءوا، ومقابلتهم بالعفو والإحسان[1].

ولم يكن لرسول الله ﷺ دار بمكة؛ لأن داره ﷺ قد أخذها عقيل بن أبي طالب، وهو لا يرثه لأنه كافر، ولم يرث علي وجعفر شيئًا من الدور؛ لأنهما مسلمان، وقد مات أبوهما كافرًا، إضافة إلى أن عقيلًا وطالبًا باعا كل الدور[2].

أما حرص النبي ﷺ على دخول مكة من الكداء (جبل بأعلى مكة)، فكان لتحقيق ما قاله صاحبه شاعر الإسلام حسان بن ثابت رَضِيَ اللَّهُ عَنْهُ (في الحديبية) حين هجا قريشًا، وأخبرهم بأن خيل الله ستدخل عليهم من كداء، حيث قال:

عـــدمنا خيلنــا إن لم تروهـــا[3]	تثــير النقــع[4] موعــدها كــداء
ينــازعن الأعنـــة مـــصعدات	عـــلى أكتافهـــا الأســـل الظـــماء
تظـــل جيادنـــا متمطـــرات	يلطمهـــن بــــالخمر النــــساء
فإمـــا تعرضـــوا عنـــا اعتمرنـــا	وكــان الفــتح وانكــشف الغطــاء
وإلا فاصـــبروا لجـــلاد يـــوم	يعـــز الله فيـــه مـــن يـــشاء
وجبريـــل رســـول الله فينـــا	وروح القـــدس لـــيس لـــه كفـــاء
وقـــال الله قـــد أرســـلت عبـــدًا	يقـــول الحـــق إن نفـــع الـــبلاء
شـــهدت بـــه فقومـــوا صـــدقوه	فقلـــتم لا نقـــوم ولا نـــشاء
وقـــال الله قـــد ســـيرت جنـــدًا	هـــم الأنـــصار عرصـــتها اللقـــاء
لنـــا في كـــل يـــوم مـــن معـــد	ســـباب أو قتـــال أو هجـــاء

(1) السيرة لأبي شهبة، ج2، ص 44.
(2) انظر: السيرة لمهدي رزق الله، ص 570.
(3) الصلابي، ص 76، 761.
(4) **النقع**: موضع قرب مكة، أو الغبار.

فنحكم بالقوافي من هجانا ... ونضرب حين تختلط الدماء

ألا أبلغ أبا سفيان عني ... مغلغلة[1] فقد برح الخلفاء

بأن سيوفنا تركتك عبدًا ... وعبد الدار سادتها الإماء

هجوت محمدًا فأجبت عنه ... وعند الله في ذاك الجزاء

أتهجوه ولست له بكفء ... فشركما لخيركما الفداء

هجوت مباركًا برًّا حنيفًا ... أمين الله شيمته الوفاء

فمن يهجو رسول الله منكم ... ويمدحه وينصره سواء

فإن أبي ووالده وعرضي ... لعرض محمد منكم وقاء

لساني صارم لا عيب فيه ... وبحري لا تكدره الدلاء

ومما يؤيد حرص النبي ﷺ على دخوله من كداء، ما جاء عن ابن عمر رضي الله عنهما، قال: لما دخل رسول الله ﷺ عام الفتح رأى النساء يلطمن وجوه الخيل بالخمر، فتبسم إلى أبي بكر، فقال: «يا أبا بكر كيف قال حسان؟»، فأنشده قوله:

تظل جيادنا متمطرات ... تلطمهن بالخمر النساء

- **(قد أجرنا من أَجرْتِ يا أم هانئ):**

وكانت السيدة أم هانئ بنت أبي طالب زوج هبيرة بن أبي وهب المخزومي، فر إليها يوم الفتح رجلان من أحمائها[2]، وهما: الحارث بن هشام، وزهير بن أمية المخزوميان، فدخل عليها أخوها علي بن أبي طالب يريد قتلهما، فمنعته أم هانئ، ثم جاءت إلى رسول الله ﷺ وهو في أعلى مكة، فلما رآها قال: «مرحبًا بك وأهلًا يا أم هانئ، ما جاء بك؟» فقالت: يا نبي الله كنت أمنت رجلين من أحمائي، فأراد علي قتلهما، فقال رسول الله ﷺ:

---

(1) **مغلغلة:** رسالة محمولة من بلد إلى بلد.

(2) **أحماؤها:** أقارب زوجها.

«قد أجرنا من أجرت يا أم هانئ»[1]. وقد أسلم الحارث وزهير، وأما هبيرة زوجها فلم يسلم، وأقام بمكة حتى مات كافرًا[2].

المبحث الرابع: إلى الكعبة

وسكنت مكة، واستسلم سادتها وأتباعها، وعلت كلمة الله في جنباتها، ثم نهض رسول الله إلى البيت العتيق، فطوف به، وأخذ يكسر الأصنام المصفوفة حوله، ويضربها بقوسه ظهرًا لبطن، فتقع على الأرض مهشمة متناثرة.

كانت هذه الحجارة - قبل ساعة - آلهة مقدسة، وهي - الآن - جص وتراب وأنقاض، يهدمها نبي التوحيد، وهو يقول: ﴿جَآءَ ٱلْحَقُّ وَزَهَقَ ٱلْبَٰطِلُ ۚ إِنَّ ٱلْبَٰطِلَ كَانَ زَهُوقًا ﴿٨١﴾﴾ [الإسراء] [3].

ثلاثمائة وستون صنمًا تهاوت جميعًا، وسقطت إلى غير رجعة .. وعادت الكعبة كما كانت على عهد الخليل إبراهيم عَلَيْهِ ٱلسَّلَامُ رمزًا للتوحيد، وإفراد الله وحده بالعبادة .. عادت الكعبة إلى أتباع إبراهيم من المسلمين الموحدين، الذين ينبغي لهم وحدهم أن يقولوا نحن على دينه وملته ﴿إِنَّ أَوْلَى ٱلنَّاسِ بِإِبْرَٰهِيمَ لَلَّذِينَ ٱتَّبَعُوهُ وَهَٰذَا ٱلنَّبِىُّ وَٱلَّذِينَ ءَامَنُوا۟ ۗ وَٱللَّهُ وَلِىُّ ٱلْمُؤْمِنِينَ﴾ [آل عمران: 68]، ﴿مِّلَّةَ أَبِيكُمْ إِبْرَٰهِيمَ ۚ هُوَ سَمَّىٰكُمُ ٱلْمُسْلِمِينَ مِن قَبْلُ وَفِى هَٰذَا لِيَكُونَ ٱلرَّسُولُ شَهِيدًا عَلَيْكُمْ وَتَكُونُوا۟ شُهَدَآءَ عَلَى ٱلنَّاسِ﴾ [الحج: 78].

قال ابن هشام: وحدثني من أثق به من أهل الرواية في إسناد له، عن ابن شهاب الزهري، عن عبيد الله بن عبد الله، عن ابن عباس رَضِيَ ٱللَّهُ عَنْهُمَا، قال: دخل رسول الله ﷺ مكة يوم الفتح على راحلته، فطاف عليها وحول البيت أصنام مشدودة بالرصاص، فجعل النبي ﷺ يشير بقضيب في يده إلى الأصنام، ويقول: ﴿جَآءَ ٱلْحَقُّ وَزَهَقَ ٱلْبَٰطِلُ ۚ إِنَّ

(1) رواه البخاري (355)، ومسلم (1619).
(2) انظر السيرة لأبي شهبة، ج2، ص 445.
(3) أخرجه البخاري (2435)، وانظر: فقه السيرة للغزالي، ص 414.

﴿ٱلۡبَٰطِلَ كَانَ زَهُوقٗا﴾. فما أشار إلى صنم منها في وجهه إلا وقع لقفاه، ولا أشار إلى قفاه إلا وقع لوجهه، حتى ما بقي منها صنم إلا وقع. فقال تميم بن أسد الخزاعي في ذلك:

وفي الأصنام معتبر وعلم ... فلمن يرجو الثواب أو العقابا

وقد طاف رسول الله ﷺ بالبيت من غير إحرام، وكان على رأسه المغفر (الخوذة) يوم دخل مكة، ثم لبس عمامة سوداء، وكان يستلم الركن بمحجنة[1]؛ كراهة أن يزاحم الناس في طوافهم، وتعليمًا للأمة[2].

- **دخول النبي ﷺ الكعبة:**

ولما قضى رسول الله ﷺ طوافه، دعا عثمان بن طلحة، فأخذ منه مفتاح الكعبة، ففتحت له، فدخلها، وكبر في نواحيها، ثم صلى، وقد روى ابن عمر رضي الله عنهما أن رسول الله ﷺ دخل الكعبة هو وأسامة وبلال وعثمان بن طلحة، فأغلقها عليه، ثم مكث فيها، قال ابن عمر: فسألت بلالًا حين خرج ما صنع رسول الله؟

قال: جعل عمودين عن يساره وعمودًا عن يمينه وثلاثة أعمدة وراءه، وكان البيت يومئذ على ستة أعمدة، فصلى[3]. وروى مسلم وأحمد، أن رسول الله ﷺ دخل الكعبة وفيها ست سوارٍ، فقام إلى كل سارية ودعا ولم يصل فيه.

وكان بداخل الكعبة صور لإبراهيم وإسماعيل وإسحاق وهم يستقسمون بالأزلام، فلطخت بالزعفران، ولم يدخل رسول الله ﷺ الكعبة إلا بعد إخراجها منها.

قال ابن هشام: وحدثني بعض أهل العلم، أن رسول الله ﷺ دخل البيت يوم الفتح، فرأى فيه صور الملائكة وغيرهم، فرأى إبراهيم عليه السلام مصورًا في يده الأزلام يستقسم بها، فقال: قاتلهم الله، جعلوا شيخنا يستقسم بالأزلام، ما شأن إبراهيم والأزلام؟! ﴿مَا كَانَ إِبۡرَٰهِيمُ يَهُودِيّٗا وَلَا نَصۡرَانِيّٗا وَلَٰكِن كَانَ حَنِيفٗا مُّسۡلِمٗا وَمَا كَانَ مِنَ ٱلۡمُشۡرِكِينَ﴾ [آل عمران: 67]. ثم أمر بتلك الصور كلها فطمست.

(1) أداة معوجة الرأس تجذب بها الأشياء كالخطاف.
(2) انظر: السيرة النبوية لمهدي رزق الله، ص 571.
(3) السيرة النبوية لابن هشام (4/61- 62).

وفي رواية للبخاري أن صورة مريم أيضًا كانت داخل الكعبة[1].

وروى الإمام أحمد عن جابر، قال: كان في الكعبة صور، فأمر رسول الله ﷺ أن يمحوها، فبلَّ عمر ثوبًا ومحاها به، فدخلها رسول الله ﷺ وما فيها منها شيء.

ووجد رسول الله ﷺ داخل الكعبة أيضًا حمامة من عيدان فكسرها، ورمى بها خارج الكعبة[2].

- **مفتاح الكعبة:**

ثم خرج رسول الله ﷺ من الكعبة، فأعطى مفتاح الكعبة لعثمان بن طلحة، وأبقى الحجابة في أيدي بني شيبة كما كانت في الجاهلية[3].

قال ابن إسحاق: (... ثم جلس رسول الله ﷺ في المسجد، فقام إليه علي بن أبي طالب ومفتاح الكعبة في يده (أي في يد رسول الله ﷺ)، فقال: يا رسول الله، اجمع لنا الحجابة مع السقاية صلى الله عليك، فقال رسول الله ﷺ: أين عثمان بن طلحة؟ فدعي له، فقال: هاك مفتاحك يا عثمان، اليوم يوم بر ووفاء[4].

وكان رسول الله ﷺ قد طلب من عثمان بن طلحة مفتاح الكعبة قبل أن يهاجر إلى المدينة، فأغلظ له القول ونال منه، فحلم عنه، وقال: «يا عثمان؛ لعلك ترى هذا المفتاح يومًا بيدي، أضعه حيث شئت»، فقال: لقد هلكت قريش يومئذ وذلت، فقال: «بل عمرت وعزت يومئذ»، ووقعت كلمته من عثمان بن طلحة موقعًا، وظن أن الأمر سيصير إلى ما قال، ولقد أعطى له رسول الله ﷺ مفاتيح الكعبة، قائلًا له: «هاك مفتاحك يا عثمان، اليوم يوم بر ووفاء، خذوها خالدة تالدة لا ينزعها منكم إلا ظالم»، وهكذا لم يشأ النبي أن يستبد بمفتاح الكعبة، بل لم يشأ أن يضعه في يد أحد من بني هاشم، وقد تطاول

(1) البخاري، الفتح (129/13، حديث 3351).

(2) من رواية ابن إسحاق بإسناد حسن، كما عند الذهبي في مغازيه، ص 552، انظر السيرة لرزق الله، ص 570.

(3) انظر: السيرة لمهدي رزق الله، ص 571.

(4) انظر: السيرة لابن هشام 4/ 61.

لأخذه رجال منهم؛ لما في ذلك من الإثارة أولًا، ولما به من مظاهر السيطرة وبسط النفوذ، وليست هذه من مهام النبوة بإطلاق .. هذا مفهوم الفتح الأعظم في شرعة رسول الله ﷺ .. البر والوفاء، حتى للذين غدروا ومكروا، وتطاولوا[1].

ولا يزال مفتاح الكعبة في بني شيبة إلى يومنا هذا، وإلى ما شاء الله، ويقال للحجبة: الشيبيون؛ نسبة إلى شيبة بن عثمان بن أبي طلحة، وهو ابن عم عثمان هذا لا ولده، وله أيضًا صحبة للنبي ورواية، فقد انتقلت من عثمان بن طلحة إلى ابن عمه شيبة، وما زالت في نسله إلى اليوم[2]، وفي هذه الحادثة نزل قوله تعالى:

﴿إِنَّ ٱللَّهَ يَأۡمُرُكُمۡ أَن تُؤَدُّواْ ٱلۡأَمَٰنَٰتِ إِلَىٰٓ أَهۡلِهَا وَإِذَا حَكَمۡتُم بَيۡنَ ٱلنَّاسِ أَن تَحۡكُمُواْ بِٱلۡعَدۡلِ﴾

[النساء: 58].

- **خطبة النبي ﷺ يوم الفتح:**

ووقف رسول الله ﷺ على باب الكعبة، وقريش قد ملأت المسجد صفوفًا؛ ينتظرون ماذا يصنع بهم.

قال ابن إسحاق: وأمسك بعضادتي الباب وهم تحته، فقال: لا إله إلا الله وحده لا شريك له، صدق وعده، ونصر عبده، وهزم الأحزاب وحده، ألا كل مأثرة أو مال أو دم فهو تحت قدمي هاتين، إلا سدانة البيت وسقاية الحاج، ألا وقتيل الخطأ شبه العمد - السوط والعصا - ففيه الدية مغلظة، مائة من الإبل، أربعون منها في بطونها أولادها.

يا معشر قريش، إن الله قد أذهب عنكم نخوة الجاهلية وتعظمها بالآباء، الناس من آدم، وآدم من تراب، ثم تلا هذه الآية: ﴿يَٰٓأَيُّهَا ٱلنَّاسُ إِنَّا خَلَقۡنَٰكُم مِّن ذَكَرٖ وَأُنثَىٰ وَجَعَلۡنَٰكُمۡ شُعُوبٗا وَقَبَآئِلَ لِتَعَارَفُوٓاْۚ إِنَّ أَكۡرَمَكُمۡ عِندَ ٱللَّهِ أَتۡقَىٰكُمۡۚ إِنَّ ٱللَّهَ عَلِيمٌ خَبِيرٞ﴾ [الحجرات: 13].

---

(1) الصلابي، ص 762، 763.

(2) السيرة لأبي شهبة،ج2، ص 447.

ثم قال: يا معشر قريش، ما ترون أني فاعل بكم؟ قالوا: خيرًا، أخ كريم وابن أخ كريم، قال: فإني أقول لكم كما قال يوسف لإخوته: ﴿لَا تَثْرِيبَ عَلَيْكُمُ﴾، اذهبوا فأنتم الطلقاء.

وكان هذا الموقف من رسول الله ﷺ لما نزل من القرآن: ﴿وَإِنْ عَاقَبْتُمْ فَعَاقِبُوا بِمِثْلِ مَا عُوقِبْتُم بِهِۦ ۖ وَلَئِن صَبَرْتُمْ لَهُوَ خَيْرٌ لِّلصَّـٰبِرِينَ﴾ [النحل: 126]، فقال ﷺ: (نصبر ولا نعاقب)، مختارًا العفو والصبر، تفضلًا واحتسابًا[1]، فطويت العداوة، ودفنت في غياهب الماضي؛ لتغتسل قريش من بقية أدرانها، ولتنضم إلى القافلة، وتسير مع الركب، ولتصبح مكة بعد ذلك اليوم مركز النور والهداية للبشرية، تُلبس الدنيا كلها حلة من السعادة الإنسانية الشاملة[2]، بعد أن عادت دارًا للنسك ومتعبدًا للخلق، وحرمًا لله تعالى.

- بلال على الكعبة يؤذن:

وحانت الصلاة، فأمر رسول الله ﷺ بلالًا أن يصعد فيؤذن على الكعبة، وقريش في فناء البيت العتيق، وفوق الجبال وسطوح البيوت تنصت، وكأنها في حلم .. فبلال الذي كان يهمس يومًا ما تحت أسواط العذاب: أحد، أحد، يجلجل اليوم فوق الكعبة: لا إله إلا الله محمد رسول الله .. لقد سقط الشركاء جميعًا .. ولطالما خضعت قريش للوهم، وأملت الخير فيمن لا يملك لنفسه نفعًا، وانتظرت النجدة ممن لا يدفع عن نفسه عدوان ذبابة[3].

ولطالما آذت قريش رسولها وهو يهيب بها أن تقبل على الخير، وأن تنشط إلى توحيد ربها ومرضاته، وأن تعتنق الحق، فتحيا حياة طيبة صحيحة، ويجزيها ربها في الآخرة بأحسن ما كانت تعمل .. لكنها أخرجته من وطنه مستخفيًا في بطون الشعاب والأودية،

---

(1) مسند أحمد (135/5)، والألباني: صحيح الترمذي (67/3، التفسير، حديث 3349)، وقال: حسن صحيح الإسناد، وانظر السيرة لمهدي رزق الله، ص 569.

(2) البوطي: فقه السيرة، ص 414، بتصرف.

(3) فقه السيرة للغزالي، ص 416، بتصرف.

مهاجرًا إلى يثرب وقد سبقه من قبله ولحقه من بعده أصحابه القلة المستضعفون، يتسللون مهاجرين، وقد تركوا المال والأهل والأرض؛ من أجل أن يبقى لهم الدين.

وها هم أولاء وقد رجعوا إلى الوطن والأهل والمال، وقد كثروا بعد قلة، وتقووا بعد ضعف، واستقبلهم أولئك الذين أخرجوهم بالأمس خاشعين أذلاء خاضعين.

ألا إنها لحقيقة واحدة لا ثانية لها: هي الإسلام، فما أحمق الإنسان وما أجهله!!، حينما يكافح أو يناضل أو يجاهد في غير سبيل الإسلام، إنما يكافح حينئذ عن وهم لا حقيقة له ولا طائل(1).

- ما فعله أذان بلال بشيوخ مكة:

لما أخذ بلال في الأذان اشتعلت قلوب شيوخ مكة حقدًا، فمنهم من تذكر قتل أبيه أو أخيه في بدر وأحد، ومنهم من قال: الحمد لله الذي أكرم أبي فلم يسمع هذا اليوم، ومنهم من قال: واثكلاه!! ليتني مت قبل هذا اليوم قبل أن أسمع بلالًا ينهق فوق الكعبة، ومنهم من قال: إن كان هذا سخطًا لله فسيغيره، وإن كان رضى فسيقره .. قال ابن هشام: وحدثني بعض أهل العلم أن رسول الله ﷺ دخل الكعبة عام الفتح ومعه بلال، فأمره أن يؤذن، وأبو سفيان بن حرب وعتاب بن أسيد والحارث بن هشام جلوس بفناء الكعبة، فقال عتاب بن أسيد: لقد أكرم الله (أسيدًا) ألا يكون سمع هذا، فيسمع منه ما يغيظه، فقال الحارث بن هشام: أما والله لو أعلم أنه محق لاتبعته. فقال أبو سفيان: لا أقول شيئًا، لو تكلمت لأخبرت عني هذه الحصى، فخرج عليهم النبي ﷺ، فقال: قد علمت الذي قلتم، ثم ذكر لهم، فقال الحارث وعتاب: نشهد أنك رسول الله، والله ما اطلع على هذا أحد كان معنا، فنقول أخبرك.

وهكذا انضم الحارث شيخ بني مخزوم إلى الإسلام، وهو أخو أبي جهل، وانضم أيضًا عتاب بن أسيد الفتى المبرز في قريش.

---

(1) فقه السيرة للبوطي، ص 397، 398 بتصرف.

وقد أسلم كل من امتلأ حقدًا على الإسلام ورسوله ﷺ وحسن إسلامه بعد ذلك، بعد أن منَّ الله عليهم، فأشرقت نفوسهم بالإيمان، وذهبت ظلمة الشرك والجهل من قلوبهم بعد أن ذهبت دولة الوثنية من ديارهم.

محاولة اغتيال رسول الله ﷺ:

روى ابن هشام، أن فضالة بن عمير بن الملوح الليثي أراد قتل الرسول ﷺ وهو يطوف بالبيت عام الفتح. فلما دنا منه. قال رسول الله ﷺ: أفضالة؟ قال: نعم، فضالة يا رسول الله، قال: ماذا كنت تحدث به نفسك؟ قال: لا شيء، كنت أذكر الله، قال: فضحك النبي ﷺ، ثم قال: استغفر الله، ثم وضع يده على صدره فسكن قلبه. فكان فضالة يقول: والله ما رفع يده عن صدري حتى ما من خلق الله شيء أحب إليَّ منه. قال فضالة: فرجعت إلى أهلي، فمررت بامرأة كنت أتحدث إليها، فقالت: هلم إلى الحديث، فقلت: لا، وانبعث فضالة يقول:

قالت هلم إلى الحديث فقلت لا ... يأبى عليك الله والإسلام

لو ما رأيت محمدًا وقبيله ... بالفتح يوم تكسر الأصنام

لرأيت دين الله أضحى بيننا ... والشرك يغشى وجهه الإظلام

- **إسلام أبي قحافة:**

روت أسماء بنت أبي بكر رَضِيَ اللَّهُ عَنْهَا، قالت: لما دخل رسول الله ﷺ مكة، ودخل المسجد، أتى أبو بكر بأبيه يقوده، فلما رآه رسول الله ﷺ، قال: «هلا تركت الشيخ في بيته؛ حتى أكون أنا آتيه فيه؟» قال أبو بكر: يا رسول الله، هو أحق أن يمشي إليك من أن تمشي إليه أنت، قالت: فأجلسه بين يديه، ثم مسح صدره، ثم قال له: «أسلم»، فأسلم، قالت: فدخل به أبو بكر وكان رأسه ثغامة، فقال رسول الله ﷺ: «غيروا هذا من شعره»[1].

(1) الصلابي، ص 773.

المبحث الخامس: تسعة عشر يومًا في مكة

وأقام رسول الله ﷺ بمكة تسعة عشر يومًا، يجدد معالم الإسلام، ويرشد الناس إلى الهدى والتقى(1)، ويبايع الناس على الإسلام، وقد دخلوا في دين الله أفواجًا.

قال ابن كثير: لا خلاف أنه ﷺ أقام بقية شهر رمضان بمكة يقصر الصلاة ويفطر. وروى البخاري، عن ابن عباس رَضِيَ اللَّهُ عَنْهُمَا، قال: أقام رسول الله ﷺ تسعة عشر يومًا يصلي ركعتين. وروى أبو داود عن عمران بن حصين رَضِيَ اللَّهُ عَنْهُمَا، أنه ﷺ كان إذ صلى قال: «يا أهل البلد صلوا أربعًا فإنا قوم سفر».

- من أمر النبي ﷺ بقتلهم:

إلى جانب الصفح الجميل الذي عامل رسول الله ﷺ به قريشًا، كان هناك الحزم الأصيل الذي لابد أن تتصف به القيادة الحكيمة الرشيدة، ولذلك استثنى قرار العفو الشامل بضعة عشر رجلًا أمر بقتلهم، وإن وُجدوا متعلقين بأستار الكعبة؛ لأنه عظمت جرائمهم في حق الله ورسوله، وحق الإسلام، ولما كان يخشاه منهم من إثارة الفتنة بين الناس بعد الفتح(2).

وكان في إهدار دمهم عبرة للطغاة والمستهترين بأرواح الأبرياء في كل زمان ومكان(3).

قال ابن إسحاق: وكان رسول الله ﷺ قد عهد إلى أمرائه من المسلمين حين أمرهم أن يدخلوا مكة أن لا يقاتلوا إلا من قاتلهم، إلا أنه قد عهد في نفر سماهم، أمر بقتلهم وإن وجدوا تحت أستار الكعبة.

قال الحافظ بن حجر في الفتح: وقد جمعت أسماؤهم من متفرقات الأخبار، وهم:

عبد العزى بن خطل، وعبد الله بن سعد بن أبي سرح، وعكرمة بن أبي جهل، والحويرث بن نقيد – مصغرًا – ومقيس بن حبابة، وهبار بن الأسود، وقينتان كانتا لابن

(1) الرحيق المختوم، ص 409.
(2) الصلابي، ص 764.
(3) انظر: السيرة لمهدي رزق الله، ص 568.

خطل: فرتني وقريبة، وسارة مولاة بني عبد المطلب، وذكر أبو معشر فيمن أهدر دمه الحارث بن طلال الخزاعي، وذكر الحاكم أنه فيمن أهدر دمه كعب بن زهير، ووحشي بن حرب، وهند بنت عتبة.

ومن هؤلاء من قتل، ومنهم من جاء مسلمًا تائبًا، فعفا عنه الرسول وحسن إسلامه، وإليك بعضًا منهم:

1- عبد الله بن خطل وقينتاه:

كان اسمه عبد العزى، فلما أسلم (قبل الفتح) سمي: عبد الله، وقد بعثه رسول الله ﷺ مصدِّقًا (يجمع الصدقات)، وبعث معه رجلًا من الأنصار، وكان معه مولى له، فغضب عليه فقتله، ثم ارتد مشركًا، وكانت قينتاه تغنيان بهجاء رسول الله والمسلمين، فلهذا أهدر النبي دمه ودم قينتيه، وقد اشترك في قتله أبو برزة الأسلمي، وسعيد بن حريث المخزومي، وقتلت إحدى قينتيه، واستؤمن للأخرى.

2- عبد الله بن أبي سرح:

كان ممن يكتب الوحي لرسول الله، ثم ارتد، وزعم أنه كان يزيف الوحي على الرسول، ولما أهدر الرسول دمه ذهب مع أخيه من الرضاع عثمان بن عفان؛ كي يطلب له الأمان، فأعرض عنه الرسول طويلًا، ثم قال: «نعم»، فلما انصرف مع عثمان قال الرسول: «أما كان فيكم رجل رشيد يقوم إلى هذا حين رآني قد صمت فيقتله؟» فقالوا: يا رسول الله، هلا أومأت إلينا؟، فقال: «إنه لا ينبغي لنبي أن تكون له خائنة الأعين»، وقد حسن إسلامه فيما بعد، وولاه الفاروق عمر بعض أعماله، وكذلك فعل عثمان.

3- الحويرث بن نقيد:

لما تحمل العباس بن عبد المطلب بفاطمة وأم كلثوم ليذهب بهما إلى المدينة؛ ليلحقهما برسول الله، نخس بهما الحويرث الجمل الذي هما عليه فسقطتا على الأرض، وهي نذالة وعمل عار عن المروءة، وقد قتله سيدنا علي بن أبي طالب رَضِيَ اللَّهُ عَنْهُ.

4- مقيس بن صبابة:

كان قُتل أخ له مسلم خطأ، فأخذ ديته ورضي، ثم التمس من القاتل غرة فقتله، وارتد مشركًا، فقتله رجل من قومه نميلة بن عبد الله.

5- هبار بن الأسود:

كان أبو العاص بن الربيع - زوج السيدة زينب بنت الرسول - قد أُسر في بدر، فأطلقه المسلمون، فأخذ عليه رسول الله أن يرسل إليه ابنته، فوفى بما وعد، وأرسل بصحبتها أخاه كنانة بن الربيع، فلما علمت قريش بخروجها علانية، سعوا إليها كي يردوها، فكان أول من أدركها هبار بن الأسود، فروعها بالسيف وهي في هودجها، فسقطت وكانت حاملًا فأجهضت، و لم يزل يعاودها المرض بسبب هذا حتى توفاها الله.

فلما أهدر النبي دمه هرب، حتى إذا كان رسول الله ﷺ بالجعرانة بعد الفتح، لقيه فأسلم، وقال: يا رسول الله، هربت منك وأردت اللحاق بالأعاجم، ثم ذكرت عائدتك وصلتك وصفحك عمن جهل عليك، وكنا يا رسول الله أهل شرك، فهدانا الله بك، وأنقذنا من الهلكة، فاصفح الصفح الجميل، فقال العفوّ الكريم: «قد عفوت عنك، وقد أحسن الله إليك حيث هداك إلى الإسلام، والإسلام يَجُبُّ ما قبله»(1).

6- عكرمة بن أبي جهل:

لما أهدر النبي دمه، هرب قاصدًا اليمن، وكانت امرأته أم حكيم بنت الحارث قد أسلمت قبل الفتح، فأخذت له أمانًا من رسول الله ﷺ، فلحقته قبل أن يركب البحر.

قال عبد الله بن الزبير رضي الله عنهما: قالت أم حكيم امرأة عكرمة بن أ بي جهل: يا رسول الله، قد هرب عكرمة منك إلى اليمن، وخاف أن تقتله، فأمنه، فقال رسول الله ﷺ: «هو آمن»، فخرجت أم حكيم في طلبه، ومعها غلام لها رومي، فراودها عن نفسها، فجعلت تمنيه، حتى قدمت على حي من عك، فاستغاثتهم عليه فأوثقوه رباطًا، وأدركت عكرمة وقد انتهى إلى ساحل من سواحل تهامة، فركب البحر، فجعل نُوتِيُّ السفينة يقول له:

(1) انظر: السيرة لأبي شهبة، ج2، ص 451 - 453.

أخلص! فقال: أي شيء أقول؟ قال: قل لا إله إلا الله. قال عكرمة: ما هربت إلا من هذا، فجاءت أم حكيم على هذا الكلام، فجعلت تلح عليه وتقول: يا ابن عم، جئتك من عند أوصل الناس وأبر الناس وخير الناس، لا تهلك نفسك. فوقف لها حتى أدركته فقالت: إني استأمنت لك محمدًا رسول الله ﷺ، قال: أنت فعلت؟ قالت: نعم، أنا كلمته فأمنك، فرجع معها، وقال: ما لقيت من غلامك الرومي؟ فخبرته خبره، فقتله عكرمة، وهو يومئذ لم يسلم، فلما دنا من مكة، قال رسول الله ﷺ لأصحابه: «يأتيكم عكرمة بن أبي جهل مؤمنًا مهاجرًا، فلا تسبوا أباه؛ فإن سب الميت يؤذي الحي، ولا يبلغ الميت».

قال: وجعل عكرمة يطلب امرأته يجامعها، فتأبى عليه، وتقول: إنك كافر، وأنا مسلمة فيقول: إن أمرًا منعك مني لأمر كبير، فلما رأى النبي ﷺ عكرمة وثب إليه - وما على النبي ﷺ رداء - فرحًا بعكرمة، ثم جلس رسول الله ﷺ، فوقف بين يديه، وزوجته منتقبة، فقال: يا محمد إن هذه أخبرتني أنك أمنتني. فقال رسول الله ﷺ: «صدقت، فأنت آمن!» فقال عكرمة: فإلام تدعو يا محمد؟ قال: «أدعوك إلى أن تشهد أن لا إله إلا الله وأني رسول الله، وأن تقيم الصلاة وتؤتي الزكاة ... وتفعل، وتفعل»، حتى عد خصال الإسلام، فقال عكرمة: والله ما دعوت إلا إلى الحق وأمر حسن جميل، قد كنت والله فينا قبل أن تدعو إلى ما دعوت إليه، وأنت أصدقنا حديثًا وأبرنا برًّا. ثم قال عكرمة: فإني أشهد أن لا إله إلا الله، وأشهد أن محمدًا عبده ورسوله. فسر بذلك رسول الله ﷺ، ثم قال: يا رسول الله علمني خير شيء أقوله. قال: «تقول: أشهد أن لا إله إلا الله وأن محمدًا عبده ورسوله». قال عكرمة: ثم ماذا؟ قال رسول الله ﷺ: «تقول أشهد الله وأشهد من حضر أني مسلم مهاجر ومجاهد». فقال عكرمة ذلك.

فقال رسول الله: «لا تسألني شيئًا أعطيه أحدًا إلا أعطيته»، فقال عكرمة: فإني أسألك أن تستغفر لي كل عداوة عاديتكها، أو مسير وضعت فيه، أو مقام لقيتك فيه، أو كلام قلته في وجهك أو وأنت غائب عنه، فقال رسوله الله ﷺ: «اللّٰهم اغفر له كل عداوة عادانيها، وكل مسير سار فيه إلى موضع يريد بذلك المسير إطفاء نورك، فاغفر له ما نال مني من عرض في وجهي أو أنا غائب عنه!». فقال عكرمة: رضيت يا رسول الله، لا أدع

نفقة كنت أنفقها في صد عن سبيل الله إلا أنفقت ضعفها في سبيل الله، ولا قتالًا كنت أقاتل في صد عن سبيل الله إلا أبليت ضعفه في سبيل الله، ثم اجتهد في القتال حتى قتل شهيدًا.

وبعد أن أسلم رد رسول الله ﷺ امرأته له بذلك النكاح الأول[1].

7- هند بنت عتبة بن ربيعة:

زوج أبي سفيان، وهي التي أغرت وحشيًّا بقتل حمزة، والتي مثلت بقتلى المسلمين في أحد، وكانت اختفت، ثم جاءت إلى النبي مسلمة، فعفا عنها، فقالت: والله يا رسول الله ما كان على ظهر الأرض أهل خباء أحب إليَّ أن يُذلوا من أهل خبائك، ثم ما أصبح اليوم أهل خباء أحب إليَّ أن يعزوا من أهل خبائك!![2].

8- وحشي بن حرب:

أما وحشي بن حرب (قاتل حمزة)، فقد هرب إلى الطائف، ثم جاء في وفد ثقيف وأسلم وحسن إسلامه.

وأما كعب بن زهير فتأتي قصته بعدُ.

- إسلام سادات قريش:

لم يحدث في تاريخ الأرض كلها أن يدخل قادة جيش العدو في دين عدوهم، إلا في تاريخ الإسلام .. فالثلاثة الكبار، وهم قادة جيش قريش: عكرمة بن أبي جهل، وسهيل ابن عمرو، وصفوان بن أمية، دخلوا جميعًا في الإسلام بعد الفتح .. وإسلام كل واحد منهم ملحمة فخار في تاريخ هذه الدعوة.

أما عكرمة: فهو الذي قال لابن عمه خالد عندما دعاه للإسلام: لو لم يبق غيري ما اتبعته أبدًا، وقد ذكرنا قصة إسلامه .. ويبقى أن نذكر قصه إسلام سهيل بن عمرو وصفوان بن أمية[3]:

---

(1) الصلابي، ص 771، 772.

(2) انظر: السيرة لأبي شهبة، ج2، ص 453- 454.

(3) المنهج الحركي، القسم الثالث، ص 140.

- **إسلام سهيل بن عمرو:**

قال سهيل بن عمرو: لما دخل رسول الله ﷺ مكة وظهر، انقحمت بيتي وأغلقت عليّ بابي، وأرسلت إلى ابني عبد الله بن سهيل (وكان مسلمًا): أن اطلب لي جوارًا من محمد، وإني لا آمن من أن أُقتل. وجعلت أتذكر أثري عند محمد وأصحابه، فليس أحد أسوأ أثرًا مني، وإني لقيت رسول الله ﷺ يوم الحديبية بما لم يلقه أحد، وكنت الذي كاتبته، مع حضوري بدرًا وأحدًا، وكلما تحركت قريش كنت فيها، فذهب عبد الله بن سهيل إلى رسول الله، فقال: يا رسول الله، تؤمنه؟ فقال: «نعم، هو آمن بأمان الله، فليظهر!»، ثم قال رسول الله ﷺ لمن حوله: «من لقي سهيلًا بن عمرو، فلا يشد النظر إليه، فليخرج فلعمري إن سهيلًا له عقل وشرف، وما مثل سهيل جهل الإسلام، ولقد رأى ما كان يوضع فيه أنه لم يكن له بنافع!». فخرج عبد الله إلى أبيه، فقال سهيل: كان والله (أي: رسول الله ﷺ) برًّا، صغيرًا وكبيرًا، فكان سهيل يُقبل (من الإسلام) ويُدبر، وخرج إلى حنين مع النبي ﷺ وهو على شركه حتى أسلم بالجعرانة.

لقد كانت لهذه الكلمات التربوية الأثر الكبير على سهيل بن عمرو؛ حيث أثنى على رسول الله ﷺ بالبر طوال عمره، ثم دخل في الإسلام بعد ذلك، وقد حسن إسلامه، وكان مكثرًا من الأعمال الصالحة، يقول الزبير بن بكار: إن سهيلًا بعدُ كثير الصلاة والصوم والصدقة، خرج بجماعته إلى الشام مجاهدًا، يقال إنه صام وتهجد حتى شحب لونه وتغير، وكان كثير البكاء إذا سمع القرآن، وكان أميرًا على كردوس يوم اليرموك[1].

- **إسلام صفوان بن أمية[2]:**

قال عبد الله بن الزبير رَضِيَ اللَّهُ عَنْهُ: وأما صفوان بن أمية فهرب حتى أتى الشُّعَيبة[3]. وجعل يقول لغلامه يسار - وليس معه غيره: ويحك انظر من ترى (من الناس)، قال: هذا عمير بن وهب، قال صفوان: ما أصنع بعمير؟ والله ما جاء إلا يريد قتلي، قد ظاهر محمدًا

(1) الصلابي، ص 769، 770.
(2) الصلابي، ص 770، 771.
(3) **الشعيبة:** مرفأ مكة ومرسى سفنها قبل جدة.

عليّ. فلحقه فقال: يا عمير، ما كفاك ما صنعت بي؟ حمَّلتني دَينك وعيالك، ثم جئت تريد قتلي! قال: أبا وهب جُعلت فداك! جئتك من عند أبر الناس وأوصل الناس. وقد كان عمير قال لرسول الله ﷺ: يا رسول الله، سيد قومي خرج هاربًا ليقذف نفسه في البحر، وخاف ألا تؤمنه فداك أبي وأمي! قال رسول الله ﷺ: «قد أمنته»، فخرج في أثره، فقال: إن رسول الله ﷺ قد أمَّنك. فقال صفوان: لا والله، لا أرجع معك حتى تأتيني بعلامة أعرفها، فرجع إلى رسول الله ﷺ، فقال: يا رسول الله، جئت صفوان هاربًا يريد أن يقتل نفسه، فأخبرته بما أمنته، فقال: لا أرجع حتى تأتي بعلامة أعرفها، فقال رسول الله ﷺ: «خذ عمامتي».

قال: فرجع عمير إليه بها، وهو البُرد الذي دخل فيه رسول الله ﷺ يومئذ مُعتجرًا[1] به، بُرد حَبَرة[2]. فخرج عمير في طلبه الثاني حتى جاء بالبُرد، فقال: أبا وهب، جئتك من عند خير الناس، وأوصل الناس، وأبر الناس، وأحلم الناس، مجده مجدك، وعزه عزك، وملكه ملكك، ابن أمك وأبيك. أذكرك الله في نفسك. قال له: أخاف أن أقتل. قال: قد دعاك إلى أن تدخل في الإسلام، فإن رضيت وإلا سيرك (أمهلك) شهرين، فهو أوفى الناس وأبرهم، وقد بعث إليك ببرده الذي دخل فيه معتجرًا، تعرفه؟ قال: نعم. فأخرجه، فقال: نعم، هو هو! فرجع صفوان حتى انتهى إلى رسول الله، ورسول الله ﷺ يصلي بالمسلمين العصر بالمسجد، فوقفا، فقال صفوان (لعمير): كم تصلون في اليوم والليلة؟ قال: خمس صلوات، قال: يصلي بهم محمد؟ قال: نعم. فلما سلم صاح صفوان: يا محمد، إن عمير بن وهب جاءني ببردك، وزعم أنك دعوتني إلى القدوم عليك، فإن رضيت أمرًا وإلا سيرتني شهرين. قال: «انزل أبا وهب». قال: لا والله، حتى تبين لي، قال: بل تُسيَّر أربعة أشهر، فنزل صفوان.

ولما خرج رسول الله ﷺ قِبَل هوازن، وخرج معه صفوان وهو كافر، وأرسل إليه يستعيره سلاحه، فأعاره (صفوان) سلاحه مائة درع بأداتها، فقال (صفوان): طوعًا أو

(1) **الاعتجار بالعمامة:** أن يلفها على رأسه، ويرد طرفها على وجهه.

(2) **الحبرة:** نوع من الثياب اليمنية.

كرهًا؟ (أي: تأخذ مني السلاح طوعا أو كرهًا)، قال رسول الله ﷺ: «عارية مؤداة»، فأعاره، فأمره رسول الله ﷺ فحملها إلى حنين، فشهد حنينًا والطائف (وهو مشرك)، ثم رجع رسول الله ﷺ إلى الجعرانة، فبينما رسول الله ﷺ يسير في الغنائم ينظر إليها، ومعه صفوان بن أمية، جعل صفوان ينظر إلى شعب مليء نعمًا وشاء ورعاء، فأدام إليه النظر ورسول الله ﷺ يرمقه، فقال: «أبا وهب، يعجبك هذا الشعب؟» قال: نعم. قال: هو لك وما فيه. فقال صفوان عند ذلك: ما طابت نفس أحد بمثل هذا إلا نفس نبي، أشهد أن لا إله إلا الله، وأن محمدًا عبده ورسوله وأسلم مكانه[1].

- إسلام شاعر مكة:

كان عبد الله بن الزبعري السهمي هو الناطق الرسمي باسم مكة، أمضى حياته ووطن شعره ووظفه في حرب رسول الله ﷺ والإسلام[2]. فلما فتحت مكة فر ابن الزبعري إلى نجران، فلحقته قوافي حسان (تهجوه)، فقد كان خصمًا عنيدًا للإسلام، فراح حسان يعيره الجبن والفرار، فقال له:

لا تعـدمـن رجـلا أحلـك بُغـضُهُ … نجـران مـن عـيش أحـذَّ لئـيم

أي فليبق الله لنا محمدًا رسول الله ﷺ، هذا الرجل العظيم الذي أحللك بغضه ديار نجران، وليدم الله عليك ابن الزبعري عيشًا ذليلًا مهينًا أشأم.

ثم راح حسان يستنزل غضب الله ومقته على ابن الزبعري وعلى نجله، ويسأل الله تعالى أن يخلده في سوء العذاب وأليمه:

غـضب الإله عـلى الزبعـري وابنـه … وعـذاب سـوء في الحيـاة مقـيم

فتطايرت تلك الأبيات، ووصلت إلى ابن الزبعري، فقام وقعد وقلب أموره، ثم أراد الله به الخير، فعزم على الدخول في الإسلام، ثم توجه إلى مكة، وقصد رسول الله ﷺ، وأعلن إسلامه، وطلب من رسول الله ﷺ أن يستغفر له كل عداوة له وللإسلام، فقال

---

(1) انظر: مغازي الواقدي 2/ 853 – 855.

(2) المنهج الحركي، القسم الثالث، ص 143.

رسول الله: «وإن الإسلام يجب ما قبله». ثم أدناه رسول الله منه وآنسه، ثم خلع عليه حلة، وقد أجمع الرواة أن ابن الزبعري رَضِيَ اللَّهُ عَنْهُ، قال بعد إسلامه شعرًا كثيرًا حسنًا، يعتذر فيه إلى رسول الله ﷺ، قال ابن عبد البر رَضِيَ اللَّهُ عَنْهُ: وله - ابن الزبعري - في مدح النبي ﷺ أشعار كثيرة، ينسخ بها ما قد مضى من شعره في كفره.

وكذا نص ابن حجر في الإصابة: ثم أسلم، ومدح النبي ﷺ، فأمر له بحلة.

وقال القرطبي: (وكان شاعرًا مجيدًا، وله في مدح النبي ﷺ أشعار كثيرة، ينسخ بها ما قد مضى في كفره ...). وقال ابن كثير: كان من أكبر أعداء الإسلام، ومن الشعراء الذين استعملوا قواهم في هجاء المسلمين، ثم منَّ الله عليه بالتوبة والإنابة، والرجوع إلى الإسلام، والقيام بنصره، والذب عنه[1].

ومن القصائد الرائعة التي قالها في مدح النبي ﷺ، وندمه على محاربة الإسلام، وتأخره في الدخول فيه؛ حيث قال:

منع الرقاد بلابل وهموم ... والليل معتلج[2] الرِّواق[3] بهيم[4]

مما أتاني أن أحمد لامني ... فيه فبت كأنني محموم

يا خير من حملت على أوصالها ... عيرانه[5] سرح اليدين غشوم[6]

إني لمعتذر إليك من الذي ... أسديت إذ أنا في الضلال أهيم

أيام تأمرني بأغوى خطة ... سهم وتأمرني بها مخزوم

وأمد أسباب الردى ويقُودني ... أمر الغواة وأمرهم مشئوم

---

(1) الصلابي، ص 776، 777.

(2) **معتلج:** ملتطم.

(3) **الرواق:** مقدم الليل.

(4) **بهيم:** لا ضوء فيه إلى الصباح.

(5) **عيرانة:** راحلة.

(6) **غشوم:** شجاع لا يثنيه أمر عن عزمه.

فـــاليوم آمــــن بـــالنبي محمــــد قلبـــي ومخطـــئ هـــذه محـــروم
مـضت العـداوة وانقـضت أسـبابُها ودعـــت أواصر بيننـــا وحلـــوم
فـاغفر فـدًى لـك والـدي كلاهمـا زلـــلي فإنـــك راحـــم مرحـــوم
وعليـك مـن علـم المليـك علامـة نـــور أغـــرُّ وخـــاتم مختـــوم
أعطـــاك بعـــد محبـــة برهانـــه شرفًـــا وبرهـــان الإله عظـــيم
ولقـد شـهدت بـأن دينـك صـادق حـــق وأنـــك في العبـــاد جـــسيم
والله يـــشهد أن أحمـــد مـــصطفى مـــستقبل في الـــصالحين كـــريم
قـــرم عـــلا بنيانـــه مـــن هاشـــم فـــرع تمكَّـــن في الـــذرى وأروم[1]

- **خطبة النبي ﷺ غداة الفتح:**

أحل رسول الله ﷺ لخزاعة أن تثأر من بني بكر في اليوم الأول من الفتح حتى العصر؛ وذلك لما كان منهم بالوتير. وعندما دخل العصر أمر بكف السلاح عن بني بكر، وبيَّن حرمة مكة، إلا أن خزاعة قتلت رجلًا من بني بكر اسمه (ابن الأشوع الهذلي) في اليوم التالي بمزدلفة، قتله خراش بن أمية؛ لأنه كان قد قتل من قبل أحد فرسان خزاعة واسمه (أحمر) [2]، فغضب رسول الله ﷺ غضبًا شديدًا، وقام في الناس خطيبًا، فحمد الله، وأثنى عليه، ومجده بما هو أهله، ثم قال: «يا أيها الناس، إن الله قد حرم مكة يوم خلق السماوات والأرض، فهي حرام بحرمة الله إلى يوم القيامة، فلا يحل لامرئ يؤمن بالله واليوم الآخر أن يسفك فيها دمًا، ولا يعضد - يقطع - فيها شجرًا، لم تحل لأحد كان قبلي، ولا تحل لأحد يكون بعدي، ولم تحل لي إلا هذه الساعة غضبًا على أهلها، ثم قد

---

(1) انظر البداية والنهاية (4/307، 308)، **وأروم:** أصل.
(2) انظر: السيرة لمهدي رزق الله، ص 568- 569.

رجعت كحرمتها بالأمس، فليبلغ الشاهد منكم الغائب، فمن قال لكم إن رسول الله ﷺ قد قاتل فيها، فقولوا: إن الله قد أحلها لرسوله، ولم يحلها لكم.

يا معشر خزاعة: ارفعوا أيديكم عن القتل؛ فلقد كثر إن نفع، لقد قتلتم قتيلًا لأدينَّه (أي: لأدفعن ديته)، فمن قُتل بعد مقامي هذا، فأهله بخير النظرين: إن شاءوا قُدِّم قاتله، وإن شاءوا فعقله»[1].

ثم ودي رسول الله الرجل الذي قتلته خزاعة.

- **دخول الناس في دين الله أفواجًا:**

كان من أثر عفو النبي ﷺ الشامل عن أهل مكة، والعفو عن بعض من أهدر دماءهم، أن دخل أهل مكة - رجالًا ونساءً وأحرارًا وموالي - في دين الله طواعية واختيارًا، وبدخول مكة تحت راية الإسلام، دخل الناس في دين الله أفواجًا، وتمت النعمة، ووجب الشكر، وبايع رسول الله ﷺ الناس جميعًا .. الرجال والنساء، والكبار والصغار، وبدأ بمبايعة الرجال، فقد جلس لهم على الصفا، فأخذ عليهم البيعة على الإسلام والسمع والطاعة لله ولرسوله فيما استطاعوا، وجاء مجاشع بن مسعود بأخيه مجالد بعد يوم الفتح، فقال لرسول الله ﷺ: جئتك بأخي لتبايعه على الهجرة، فقال عليه الصلاة والسلام: «ذهب أهل الهجرة بما فيها»، فقال: على أي شيء تبايعه؟ قال: «أبايعه على الإسلام والإيمان والجهاد».

وقد روى البخاري، أن رسول الله ﷺ قال يوم الفتح: «لا هجرة بعد الفتح، ولكن جهاد ونية، وإذا استنفرتم فانفروا».

ولما فرغ رسول الله ﷺ من بيعة الرجال بايع النساء ... فقد جاءت هند بنت عتبة، وأم حكيم بنت الحارث امرأة عكرمة بن أبي جهل، والبغوم بنت المعذل امرأة صفوان بن أمية، وفاطمة بنت الوليد بن المغيرة، وهند بنت منبه بن الحجاج أم عبد الله بن عمرو بن

---

(1) رواه أحمد في مسنده (16065)، وأصل الحديث في الصحيحين، **والعقل:** الدية.

العاص في عشرة نسوة من قريش، فأتين رسول الله ﷺ بالأبطح، وعنده زوجتاه وفاطمة ابنته، في نساء من نساء بني عبد المطلب، فبايعته ولم تمس يده يد امرأة. (ورؤيت فيهن هند بنت عتبة وهي متنكرة؛ لأجل صنيعها بحمزة، فقال رسول الله ﷺ: أبايعكن على أن لا تشركن بالله شيئًا، فبايع عمر النساء على أن لا يشركن بالله شيئًا، فقال رسول الله ﷺ: ولا تسرقن. فقالت هند: إن أبا سيفيان رجل شحيح. فإن أنا أصبت من ماله هنأت؟ فقال أبو سفيان: وما أصبت فهو لك حلال. فضحك رسول الله ﷺ وعرفها، فقال: وإنك لهند؟ قالت: نعم، فاعف عما سلف يا نبي الله، عفا الله عنك، فقال: ولا يزنين. فقالت: أوتزني الحرة؟! فقال: ولا يقتلن أولادهن. فقالت: ربيناهم صغارًا وقتلتهم ببدر كبارًا، فأنتم وهم أعلم. فضحك عمر حتى استلقى، فتبسم رسول الله ﷺ، فقال: ولا يأتين ببهتان، فقالت: والله إن إتيان البهتان لقبيح، وما تأمرنا إلا بالرشد ومكارم الأخلاق، فقال: ولا يعصينك في معروف، فقالت: والله ما جلسنا مجلسك هذا وفي أنفسنا أن نعصيك.

ولما رجعت جعلت تكسر صنمها، وتقول: كنا منك في غرور[1].

ها هي مكة بشيوخها وشبابها ونسائها وقادتها وشعرائها تدخل في الإسلام، أو في أمان رسول الله ﷺ. وحقق النبي ﷺ هدفه الأكبر بالنسبة لقريش: اليوم يوم المرحمة، اليوم أعز الله قريشًا.

وكان عزها في دخولها أفواجًا في دين الله، واستطاع الرسول ﷺ أن يتجنب مجزرة فيها فناء قريش كلها من جهة، وأن تدخل قريش كلها في الإسلام، وهذه هي عظمة الجهاد السياسي المسلح .. الجهاد الذي ينطلق من القوة الضخمة التي تجعل العدو قد أحيط به، فيستسلم على ضوء ذلك[2].

---

(1) مدارك التنزيل للنسفي، انظر: الرحيق المختوم، ص 460.

(2) انظر: المنهج الحركي، ص 144، 145.

- قبائل العرب وأفرادها يبادرون بالإسلام:

وكان من أبرز نتائج هذا الفتح أن أخذت قبائل العرب وأفرادها يبادرون بإسلامهم؛ لأنهم كانوا ينتظرون نتيجة الصراع بين المسلمين وقريش. فقد روى البخاري[1]، من حديث عمرو بن سلمة الجرمي، قوله: «وكانت العرب تلوم بإسلامها الفتح، يقولون: انظروا فإن ظهر عليهم فهو صادق وهو نبي، فلما جاءتنا وقعة الفتح، بادر كل قوم بإسلامهم». وكانت هذه النظرة لقريش؛ لأنها كانت زعيمة العرب وحامية البيت وصريح ولد إسماعيل وناصبة الحرب لرسول الله ﷺ، فلما افتتحت مكة، ودانت قريش لرسول الله ﷺ، ودخلت الإسلام، عرفت العرب أنه لا طاقة لهم بحرب رسول الله ﷺ وعداوته، فدخلوا في دين الله أفواجًا، كما قال عز وجل: ﴿إِذَا جَآءَ نَصۡرُ ٱللَّهِ وَٱلۡفَتۡحُ ١ وَرَأَيۡتَ ٱلنَّاسَ يَدۡخُلُونَ فِي دِينِ ٱللَّهِ أَفۡوَاجٗا ٢ فَسَبِّحۡ بِحَمۡدِ رَبِّكَ وَٱسۡتَغۡفِرۡهُۚ إِنَّهُۥ كَانَ تَوَّابَۢا﴾ [النصر][2].

- (لو أن فاطمة بنت محمد سرقت لقطع محمد يدها):

روى عروة بن الزبير، أن امرأة سرقت في عهد رسول الله ﷺ في غزوة الفتح، ففزع قومها إلى أسامة بن زيد يستشفعونه، قال عروة: فلما كلمه أسامة فيها تلون وجه رسول الله، فلما كان العشي قام رسول الله خطيبًا، فأثنى على الله بما هو أهله، ثم قال: «أما بعد .. فإنما أهلك الناس قبلكم أنهم كانوا إذا سرق فيهم الشريف تركوه، وإذا سرق فيهم الضعيف أقاموا عليه الحد، والذي نفس محمد بيده، لو أن فاطمة بنت محمد سرقت لقطعت يدها». ثم أمر رسول الله ﷺ بتلك المرأة فقطعت يدها.

فحسنت توبتها بعد ذلك وتزوجت. قالت عائشة: فكانت تأتيني بعد ذلك، فأرفع حاجتها إلى رسول الله ﷺ[3].

---

(1) البخاري، الفتح (16/ 133 – 134، حديث 4302).

(2) انظر: السيرة لمهدي رزق الله، ص 573.

(3) الصلابي، ص 774.

- **رسول الله ﷺ ومخاوف الأنصار:**

لما رأى الأنصار عفو النبي ﷺ عن أهل مكة، وحفاوته بالكعبة والمسجد الحرام، تخوفوا أن يقيم ﷺ في بلده، ولا يرجع معهم فيحرموا منه، وتحدث بعضهم لبعض بذلك، فأوحى الله إليه بما جرى بينهم، فأخبرهم ﷺ بما قالوا وطمأنهم ..

قال أبو هريرة رَضِيَ اللَّهُ عَنْهُ: أتى رسول الله ﷺ الصفا، فعلاه حيث ينظر إلى البيت، فرفع يديه، فجعل يذكر الله بما شاء أن يذكره، ويدعوه، قال: والأنصار تحته، قال: يقول بعضهم لبعض: أما الرجل فأدركته رغبة في قريته، ورأفة بعشيرته، قال أبو هريرة: وجاء الوحي، وكان إذا جاء لم يخف علينا، فليس أحد من الناس يرفع طرفه إلى رسول الله ﷺ حتى يُقضى، قال: فلما قُضي الوحي رفع رأسه، ثم قال: «يا معشر الأنصار قلتم: أما الرجل فأدركته رغبة في قريته، ورأفة بعشيرته؟» قالوا: قلنا ذلك يا رسول الله، قال: «فما اسمي إذا؟ كلا، إني عبد الله ورسوله، هاجرت إلى الله وإليكم، فالمحيا محياكم، والممات مماتكم»، قال: فأقبلوا إليه يبكون، ويقولون: والله ما قلنا الذي قلنا إلا الضن بالله ورسوله، قال: فقال رسول الله ﷺ: «فإن الله ورسوله ليصدقانكم ويعذرانكم».

- **خطب النبي ﷺ بمكة وما حكم به من أحكام:**

وخطب الرسول ﷺ أثناء إقامته بمكة عدة خطب، بيَّن فيها أمورًا وأحكامًا مختلفة، ففي الأولى - التي كانت على باب الكعبة - بين دية الخطأ شبه العمد، وألغى مآثر الجاهلية وثاراتها، واستثنى من أمور الجاهلية سقاية الحاج وسدانة البيت.

وأعلن في الخطبة الثانية: «ألا إنه لا حلف في الإسلام (بين عشائر وعشائر؛ لأن الإسلام هو الرباط الأوحد والأقوى)، وما كان من حلف في الجاهلية فإن الإسلام (برباطه) لا يزيده إلا شدة (فهو أشد منه). والمؤمنون يد على من سواهم، يجير عليهم أدناهم، ويرد عليهم أقصاهم، يرد سراياهم على قعيدتهم .. لا يُقتل مؤمن بكافر .. دية الكافر نصف دية المسلم .. لا جلب ولا خبب ولا تؤخذ صدقاتهم إلا في دورهم».

وأعلن في الخطبة الثالثة تحريم مكة، وتحريم صيدها وخلاها وشجرها ولقطتها وتحريم القتال فيها، وقال: إن الله تعالى أحلها له ساعة من نهار، وهو وقت الفتح. وقال: لا هجرة بعد الفتح، ويبقى الجهاد والنية؛ ولذلك بايع النبي ﷺ المسلمين بعد الفتح على الإسلام والإيمان والجهاد، ولم يبايعهم على الهجرة.

وبين في الخطبة الرابعة أن من قُتل له قتيل فهو بخير النظرين؛ إما أن يؤدى (يأخذ الدية)، وإما أن يقاد (يقتص له).

وقد حكم رسول الله ﷺ بكثير من الأحكام الشرعية خلال فتح مكة، منها:

1- الولد للفراش وللعاهر الحجر:

فقد تنازع سعد بن أبي وقاص في ابن وليده زمعة مع عبد بن زمعة، فادعى سعد أنه ابن أخيه عتبة، وادعى عبد بن زمعة أنه أخيه؛ لأنه ولد على فراش أبيه، فحكم له به رسول الله ﷺ.

روى البخاري (2686) عن عائشة رَضِيَ اللَّهُ عَنْهَا، قالت: كان عتبة بن أبي وقاص عهد إلى أخيه سعد أن يقبض ابن وليده زمعة، وقال عتبة: إنه ابني، فلما قدم رسول الله ﷺ مكة في الفتح أخذ سعد بن أبي وقاص ابن وليده زمعة، فأقبل به إلى رسول الله ﷺ، وأقبل معه عبد بن زمعة.

قال سعد بن أبي وقاص: هذا ابن أخي عهد إليَّ أنه ابنه.

قال عبد بن زمعة: يا رسول الله، هذا أخي، هذا ابن زمعة، ولد على فراشه، فنظر رسول الله ﷺ إلى ابن وليده زمعة، فإذا هو أشبه الناس بعتبة بن أبي وقاص، فقال رسول الله ﷺ: (هو لك، هو أخوك يا عبد بن زمعة؛ من أجل أنه ولد على فراشه).

وقال رسول الله ﷺ: (احتجبي منه يا سودة)؛ لما رأى من شبه عتبة بن أبي وقاص. قال ابن شهاب: قالت عائشة: قال رسول الله ﷺ: (الولد للفراش وللعاهر الحجر)[1].

---

(1) وقد رواه أيضًا: مسلم (3568)، وأبو داود (2274). انظر البداية والنهاية 4/363.

2- تحريم نكاح المتعة إلى الأبد:

فقد حكم رسول الله ﷺ - خلال فتح مكة - بحرمة نكاح المتعة إلى يوم القيامة .. وفي صحيح مسلم من حديث سبرة بن معبد الجهني، قال: أمرنا رسول الله ﷺ بالمتعة عام الفتح حين دخل مكة، ثم لم يخرج حتى نهى عنها.

وفي رواية قال: (إنها حرام حرام من يومكم هذا إلى يوم القيامة).

وفي صحيح مسلم أيضًا عن إياس بن سلمة بن الأكوع، عن أبيه، أنه قال: رخص لنا رسول الله ﷺ عام أوطاس في متعة النساء ثلاثًا، ثم نهانا عنه.

قال البيقهي: وعام أوطاس هو عام الفتح، فهو وحديث سبرة سواء.

قال ابن كثير: من أثبت النهي عنها في غزوة خيبر، قال: إنها أبيحت مرتين، وحرمت مرتين، وقد نص على ذلك الشافعي وغيره، وقد قيل: إنها أبيحت وحرمت أكثر من مرتين، فالله أعلم(1).

3- عقد النكاح بين الزوج المشرك والزوجة المسلمة:

اعتبر رسول الله ﷺ عقد النكاح قائمًا بين الزوج المشرك والزوجة المسلمة إذا أسلم الزوج قبل انقضاء عدة الزوجة، وذلك من خلال قصة صفوان بن أمية وعكرمة بن أبي جهل، إذ أسلمت زوجتاهما قبلهما، ثم أسلما قبل انقضاء عدتيهما(2).

المبحث السادس: سرايا وبعوث لنشر الدعوة وهدم الأصنام

كانت الخطوة الأولى بعد هدم الأصنام بالكعبة، هي أن تلاحق الأصنام في الأرض العربية كلها، وكان هبل الصنم الأعظم بمكة قد تحطم على يدي رسول الله ﷺ.

ولقد ارتبطت قدسية البيت الحرام عند العرب ارتباطًا وثيقًا بقدسية الأصنام. ولم يكن العربي بعد الله تعالى يحلف إلا باللات والعزى، فكان لابد من تحطيم هذه الأصنام؛ لاجتثاث الوثنية من جذورها، وزلزلة أركانها من القواعد.

---

(1) البداية والنهاية 4/364.

(2) السيرة لمهدي رزق الله، ص 575.

وكان التخطيط النبوي أن يحطم الصنم من كانوا يولونه القداسة والعبادة أكثر من غيرهم. فكانت العزى مهمة خالد بن الوليد رَضِيَ اللَّهُ عَنْهُ، وسواع مهمة عمرو بن العاص رَضِيَ اللَّهُ عَنْهُ؛ لأن قريشًا كانت تقدس العزى وسواع .. وكانت مناة من نصيب سعد بن زيد الأشهلي الأنصاري رَضِيَ اللَّهُ عَنْهُ؛ لأن مناة هي المقدسة عند الأوس والخزرج، فلابد أن يهدمها واحد من الأوس والخزرج .. وهكذا نلحظ أن الذي هدم اللات (صنم ثقيف) بعد ذلك هو المغيرة بن شعبة الثقفي رَضِيَ اللَّهُ عَنْهُ.

وترافق هذا الهدم مع التوجيهات النبوية العامة في مكة وحولها: «من كان يؤمن بالله واليوم الآخر فلا يدع في بيته صنمًا إلا كسره». وليس هذا الأمر سهلًا في الحقيقة .. فهذه الخطوة من حيث الضخامة والخطورة تقارب فتح مكة وتحطيم تلك الآلهة المدعاة، فتحطيم تلك الأصنام التي تملأ البيوت العربية يعني ثورة كاملة على الجاهلية، وإزالة معالمها، ومحو مقدساتها من النفوس قبل البيوت وقبل أماكن العبادة[1].

وكانت سرايا رسول الله ﷺ لتطهير الجزيرة من الأوثان كما يلي:

1- سرية خالد بن الوليد لهدم العزى:

بعث رسول الله ﷺ خالد بن الوليد رَضِيَ اللَّهُ عَنْهُ إلى «العزى» لخمس ليال بقين من شهر رمضان (سنة 8 هـ) ليهدمها، وكانت بنخلة، وكانت صنمًا لقريش وجميع كنانة ومضر، وهي أعظم أصنامهم، وكان سدنتها بنو شيبان، فخرج إليها خالد رَضِيَ اللَّهُ عَنْهُ في ثلاثين فارسًا حتى انتهى إليها[2]. فقطع السمرات وهدم البيت الذي كان عليه، وهو يردد كفرانك لا سبحانك، إني رأيت الله قد أهانك، ثم رجع خالد وأصحابه إلى رسول الله ﷺ، وقدم تقريره بإنجاز المهمة، ولكن النبي ﷺ استدرك على قائد السرية، وقال له: «هل رأيت شيئًا؟» قال: لا، فقال: «ارجع؛ فإنك لم تصنع شيئًا»[3]، فرجع خالد وهو مغيظ حنق على عدم إنهاء مهمته على الوجه المطلوب، فلما وصل إليها ونظرت السدنة

(1) المنهج الحركي للغضبان، ص 149- 150 مختصرًا.
(2) الرحيق المختوم، ص 409- 410.
(3) انظر: السيرة للصلابي، ص 767.

إليه، عرفوا أنه جاء هذه المرة ليكمل ما فاته في المرة السابقة، فهربوا إلى الجبل وهم يصيحون: يا عزى خبليه، يا عزى عوريه، فأتاه خالد فإذا امرأة عريانة ناشرة شعرها تحثو التراب على رأسها، فتقدم إليها خالد رَضِيَ اللَّهُ عَنْهُ بشجاعته المعروفة وضربها بالسيف حتى قتلها، ثم رجع إلى رسول الله ﷺ فأخبره بذلك، فقال: «تلك هي العزى».

2- سرية عمرو بن العاص لهدم سواع:

ثم بعث رسول الله ﷺ عمرو بن العاص رَضِيَ اللَّهُ عَنْهُ في الشهر نفسه إلى سواع ليهدمه، وهو صنم لهذيل برهاط، على ثلاثة أميال من مكة[1].

وسواع كان صنمًا لقوم نوح عَلَيْهِ السَّلَامُ، ثم صار بعد ذلك لقبيلة هذيل المضرية[2] .. قال تعالى مخبرًا عن قوم نوح: ﴿وَقَالُوا۟ لَا تَذَرُنَّ ءَالِهَتَكُمْ وَلَا تَذَرُنَّ وَدًّا وَلَا سُوَاعًا وَلَا يَغُوثَ وَيَعُوقَ وَنَسْرًا﴾ [نوح: 23]، وظل هذا الوثن منصوبًا تعبده هذيل وتعظمه، حتى أنهم كانوا يحجون إليه، حتى فتحت مكة ودخلت هذيل فيمن دخل في دين الله أفواجًا، فبعث رسول الله ﷺ سرية بقيادة عمرو بن العاص رَضِيَ اللَّهُ عَنْهُ لتحطيم سواع، ويحدثنا قائد السرية عن مهمته، فيقول: (فانتهيت إليه وعنده السادن، فقال: ما تريد؟ قلت: أمرني رسول الله ﷺ أن أهدمه، قال: لا تقدر على ذلك، قلت: لم؟ قال: تُمنع، قلت: حتى الآن أنت في الباطل؟، ويحك هل يسمع أو يبصر؟، قال: فدنوت منه فكسرته وأمرت أصحابي فهدموا بيت خزانته، فلم يجدوا شيئًا، ثم قلت للسادن: كيف رأيت؟ قال: أسلمت لله.

3- سرية سعد بن زيد الأشهلي لهدم مناة:

وفي الشهر نفسه أيضًا، بعث رسول الله ﷺ سعد بن زيد الأشهلي الأنصاري رَضِيَ اللَّهُ عَنْهُ لست بقين من رمضان في عشرين فارسًا إلى صنم مناة بالمشلل على ساحل البحر الأحمر من ناحية قديد (مكان بين مكة والمدينة). وهو صنم تعظمه الأوس والخزرج وغسان وغيرهم، ويُهلون منها للحج، وقد بلغ من تعظيمهم إياها أنهم كانوا لا يطوفون بين الصفا والمروة؛ تحرجًا وتعظيمًا لها؛ حيث كان ذلك سنة في آبائهم، من أحرم لمناة لم يطف

---

(1) الرحيق المختوم، ص 410.

(2) الصلابي، ص767.

بين الصفا والمروة، ولم تزل هذه عادتهم حتى أسلموا، فلما قدموا مع النبي ﷺ للحج ذكروا له ذلك، فأنزل الله تعالى هذه الآية، قال تعالى: ﴿إِنَّ ٱلصَّفَا وَٱلْمَرْوَةَ مِن شَعَآئِرِ ٱللَّهِ فَمَنْ حَجَّ ٱلْبَيْتَ أَوِ ٱعْتَمَرَ فَلَا جُنَاحَ عَلَيْهِ أَن يَطَّوَّفَ بِهِمَا وَمَن تَطَوَّعَ خَيْرًا فَإِنَّ ٱللَّهَ شَاكِرٌ عَلِيمٌ﴾ [البقرة: 158].

وقد كان أول من نصبها لهم مؤسس الشرك في الجزيرة العربية، ومبتدع الأوثان، ومحرف الحنفية دين إبراهيم عَلَيْهِ السَّلَامُ عمرو بن لحي الخزاعي، فلما فتح الله على المسلمين مكة، بعث رسول الله ﷺ إلى مناة رجلًا من أهلها سابقًا الذين كانوا يعظمونها في الجاهلية، وهو سعد بن زيد الأشهلي رَضِيَ اللَّهُ عَنْهُ، على رأس سرية قوتها عشرون فارسًا، وكان واجب السرية هو إزالة مناة من الوجود نهائيًّا.

انطلق زيد ومن معه في مسير اقترابي سريع لإنجاز المهمة المحددة حتى وصل إليها، فقابله سادنها متسائلًا: ما تريد؟ قال: هدم مناة، قال: أنت وذاك، فأقبل سعد يمشي إليها، وتخرج إليه امرأة عريانة سوداء ثائرة الرأس، تدعو بالويل، وتضرب صدرها.

فصاح بها السادن صيحة الواثق: مناة دونك بعض عصاتك، ولكن صيحته ذهبت أدراج الرياح، فلم يأبه سعد رَضِيَ اللَّهُ عَنْهُ بكل ذلك، وضربها ضربة قاتلة قضت عليها، ثم أقبل مع أصحابه على الصنم فهدموه، ولم يجدوا في خزانتها شيئًا، وانصرف راجعًا إلى رسول الله ﷺ.

4- بعث خالد بن الوليد إلى بني جذيمة داعيًا إلى الإسلام:

لما رجع خالد بن الوليد رَضِيَ اللَّهُ عَنْهُ من هدم العزى، بعثه رسول الله ﷺ في شوال من السنة نفسها 8 هـ، (وذلك خلال إقامته ﷺ بمكة أيام الفتح) إلى بني جذيمة، داعيًا إلى الإسلام، لا مقاتلًا. فخرج في ثلاثمائة وخمسين رجلًا من المهاجرين والأنصار وبني سليم(1).

(1) الرحيق المختوم، ص 410.

فلما رآه القوم أخذوا السلاح، فقال لهم خالد: ضعوا السلاح؛ فإن الناس قد أسلموا، فقام رجل منهم يسمى: جحدرًا، فقال: ويلكم يا بني جذيمة إنه خالد؛ والله ما بعد وضع السلاح إلا الإسار (أي الأسر)، وما بعد الإسار إلا ضرب الأعناق، والله لا أضع سلاحي أبدًا، فلم يزالوا به حتى وضع سلاحه.

فلما وضعوا السلاح، أمر بهم خالد فكتفوا، فدعاهم إلى الإسلام، فلم يحسنوا أن يقولوا أسلمنا، فجعلوا يقولون: صبأنا صبأنا، وخالد يأخذ فيهم أسرًا وقتلًا، فأنكر عليه بعض أصحابه ذلك، ثم دفع الأسرى إلى من كان معه، حتى إذا أصبح يومًا أمر خالد أن يقتل كل واحد أسيره، فامتثل البعض، وامتنع عبد الله بن عمر، وامتنع معه آخرون من قتل أسراهم، فلما قدموا على رسول الله أخبروه، فغضب ورفع يديه إلى السماء، قائلًا: «اللّهم إني أبرأ إليك مما صنع خالد» مرتين.

وقد أنكر على خالد عبد الرحمن بن عوف، وقال له: عملت بأمر الجاهلية في الإسلام، وكانت بينهما ملاحاة، قال له فيها عبد الرحمن: إنك ثأرت لعمك الفاكه بن المغيرة، وكان بعض بني جذيمة قتلوه في الجاهلية[1]. وكذلك أنكر على خالد بعض كتاب السير والتاريخ، ورموه بما رماه به ابن عوف.

والظن بمثل خالد أنه إنما أراد نصرة الإسلام، وأنه اجتهد في أمر وتأول فأخطأ، ففهم من كلامهم صبأنا أنهم يتبرأون من الإسلام، لا أنهم يريدون الإسلام. ولعل هذا هو السبب في أن النبي ﷺ عذره ولم يعزله، وإن كان تبرأ من فعله إلى الله، وما كان رسول الله يداهن، أو يخاف في الحق لومة لائم.

وبعض من يعذر خالدًا وينتصر له، يزعم أن خالدًا قال: ما قاتلت حتى أمرني بذلك عبد الله بن حذافة السهمي، وقال: إن رسول الله ﷺ قد أمرك أن تقاتلهم لامتناعهم عن الإسلام، وليس من شك في أن لخالد من المواقف المشهودة، والتضحية بالنفس، ما يغفر له مثل هذه الهنات، والله يغفر لهم جميعًا.

---

(1) ابن هشام، ج2، ص 431.

تعويض النبي بني جذيمة عن الدماء والأموال:

ثم دعا رسول الله ﷺ علي بن أبي طالب وقال له: «يا علي، اخرج إلى هؤلاء القوم فانظر في أمرهم، واجعل أمر الجاهلية تحت قدميك».

فخرج حتى جاءهم ومعه مال قد بعث به رسول الله معه، فودى لهم الدماء (أي: دفع لهم الدية) وما أصيب لهم من مال حتى ميلغة الكلب[1]، وبقيت معه بقية من المال، فقال لهم: هل بقي لكم دم أو مال لم يؤد لكم؟ قالوا: لا، قال: فإني أعطيتكم هذه البقية احتياطًا لرسول الله مما لا يعلم ولا تعلمون، ثم رجع إلى رسول الله ﷺ فأخبره بما صنع، فقال: «أصبت، أحسنت».

وبهذا التصرف النبوي الحكيم، واسى النبي بني جذيمة، وأزال ما في نفوسهم من أسى وحزن[2].

5- هدم ذي الكفين:

عندما أراد الرسول ﷺ المسير إلى الطائف، بعث الطفيل بن عمرو إلى ذي الكفين: صنم عمرو بن حُمَمَة الدوسي ليهدمه، وأمره أن يستمد قومه (يطلب المدد من قومه) ويوافيه بالطائف (ليقاتلوا معه أهلها). فخرج سريعًا إلى قومه، فهدم ذا الكفين، وحرقه وانحدر معه من قومه أربعمائة، فوافوا ﷺ بالطائف بعد مقدمه إليها بأربعة أيام، ومعه دبابة ومنجنيق[3].

المبحث السابع: من نظرات كُتاب السيرة في فتح مكة

- الشيخ محمد الغزالي رَحِمَهُ ٱللَّهُ:

وفي يوم الفتح قد ترجع بنا الذكريات إلى رجال لم يشهدوا هذا النصر المبين، ولم يسمعوا صوت بلال يرن فوق ظهر الكعبة بشعار التوحيد، ولم يروا الأصنام مكبوبة على وجوهها مسواة بالرغام، ولم يروا عبادها الأقدمين وقد ألقوا السلم، واتجهوا إلى الإسلام.

---

(1) إناء خشب كان يعد لشرب الكلب.

(2) السيرة لأبي شهبة، ج2، ص 464، 465.

(3) الواقدي (3/922- 923)، وانظر السيرة لمهدي رزق الله، ص 603.

إنهم قُتلوا أو ماتوا إبان المعركة الطويلة، التي نشبت بين الإيمان والكفر.

ولكن النصر الذي يجني الأحياء ثماره اليوم لهم فيه نصيب كبير، وجزاؤهم عليه مكفول عند من لا يظلم مثقال ذرة.

إنه ليس من الضروري أن يشهد كل جندي النتائج الأخيرة للكفاح بين الحق والباطل؛ فقد يخترمه الأجل في المراحل الأولى منه، وقد يصرع في هزيمة عارضة - كما وقع لسيد الشهداء «حمزة» ومن معه.

والقرآن الكريم ينبه أصحاب الحق إلى أن المعول في الحساب الكامل على الدار الآخرة، لا على الدار الدنيا، فهناك الجزاء الأوفى للمؤمنين والكافرين جميعًا: ﴿ فَٱصۡبِرۡ إِنَّ وَعۡدَ ٱللَّهِ حَقٌّۚ فَإِمَّا نُرِيَنَّكَ بَعۡضَ ٱلَّذِي نَعِدُهُمۡ أَوۡ نَتَوَفَّيَنَّكَ فَإِلَيۡنَا يُرۡجَعُونَ ﴾ [غافر: 77] (1).

- د. علي محمد الصلابي:

كان لفتح مكة نتائج كثيرة، منها(2):

1- دخلت مكة تحت نفوذ المسلمين، وزالت دولة الكفر منها، وحانت الفرصة للقضاء على جيوب الشرك في حنين والطائف، ومن ثم إلى العالم أجمع.

2- أصبح المسلمون قوة عظمى في جزيرة العرب، وبعد فتح مكة تحققت أمنية الرسول ﷺ بدخول قريش في الإسلام، وبرزت قوة كبرى في الجزيرة العربية لا يستطيع أي تجمع قبلي الوقوف في وجهها، وهي مؤهلة لتوحيد العرب تحت راية الإسلام، ثم الانطلاق إلى الأقطار المجاورة؛ لإزالة حكومات الظلم والطغيان، وتأمين الحرية لخلق الله؛ لكي يدخلوا في دين الله، ويعبدوه وحده من دون سواه.

3- كان لهذا الفتح آثار عظيمة دينية وسياسية واجتماعية، وقد بدأت هذه الآثار بصورة يلمسها كل من يمعن النظر في هذا الفتح المبارك، فأما الآثار الاجتماعية فتمثلت

(1) فقه السيرة، ص 418.

(2) الصلابي، ص 779.

في رفقه ﷺ، وحرصه على الأخذ بأيديهم ليعيد إليهم ثقتهم بأنفسهم، وبالوضع الجديد الذي سيطر على بلدهم، وتعيين من يعلمهم، ويفقههم في دينهم، فقد أبقى معاذ بن جبل رَضِيَ اللَّهُ عَنْهُ في مكة - بعد انصرافه عنها - ليصلي بالناس، ويفقههم في دينهم، وأما الآثار السياسية فقد عين عتاب بن أسيد أميرًا على مكة، يحكم في الناس بكتاب الله، فيأخذ لضعيفهم، وينتصر للمظلوم من الظالم، وأما الآثار الدينية، فإن فتح مكة وخضوعها لسلطان الإسلام، قد أقنع العرب جميعًا بأن الإسلام هو الدين الذي ارتضاه الله لعباده، فدخلوا فيه أفواجًا.

4- تحقق وعد الله بالتمكين للمؤمنين الصادقين، بعدما ضحوا بالغالي والنفيس، وحققوا شروط التمكين، وأخذوا بأسبابه، وقطعوا مراحله، وتعاملوا مع سننه؛ كسنة الابتلاء، والتدافع، والتدرج، وتغيير النفوس، والأخذ بالأسباب، ولا ننسى تلك الصورة الرائعة، وهي وقوف بلال فوق الكعبة مؤذنًا للصلاة، بعد أن عُذب في بطحاء مكة وهو يردد: (أحد أحد) في أغلاله وحديده، ها هو اليوم قد صعد فوق الكعبة، ويرفع صوته الجميل بالأذان وهو في نشوة الإيمان.

* * *

الفصل السادس

غزوة حنين

لم يكن يكفي سقوط معقل الوثنية – مكة – لانتهاء مقاومة الوثنية؛ فالقبائل المجاورة – من هوازن وثقيف – لا تزال مركز قوة ضخم، وتشكل خطرًا على الوجود الإسلامي كله، ومن أجل هذا كانت خطة النبي ﷺ تتجه إلى إنهاء كل الجيوب الوثنية المتبقية، وهي ذات قوة ضاربة فعالة[1]. وقد جاء فتح مكة عقب ضربة خاطفة أدهشت العرب، وبوغتت بها القبائل المجاورة، فلم يكن يمكن لها أن تدفع الأمر الواقع فاستسلمت له .. إلا أن بعض القبائل الشرسة القوية المتغطرسة – وفي مقدمتها هاتان القبيلتان (هوازن وثقيف) – لم تستسلم لهذا الواقع الجديد، واجتمعت إليها نصر وجشم وسعد بن بكر وناس من بني هلال، وكلها من قيس عيلان، وقد رأت من نفسها عزًّا وأنفة أن تقابل انتصار المسلمين الساحق بعد فتح مكة بالخضوع، فقررت المسير إلى حربهم[2].

المبحث الأول: الحشد للقتال

حشدت هوازن وثقيف القوات لمواجهة رسول الله ﷺ، وقد أرادوها موقعة حاسمة؛ ولذا حشدوا الأموال والنساء والأبناء؛ حتى لا يفر أحدهم ويترك أهله وماله. وكان يقودهم مالك بن عوف النصرى، واستنفروا معهم غطفان وغيرها. وممن جمعهم ابن عوف: بنو نصر (قومه)، وبنو جشم وبنو سعد بن بكر، وجماعات متفرقة من بني هلال، وهم قليل، وناس من بني عمرو بن عامر وعوف بن عامر، وثقيف كلها في أحلافها، وبنو مالك، وتخلف عنهم من هوازن كعب وكلاب .. فجاءوا حتى نزلوا بحنين.

---

(1) المنهج الحركي، القسم الثالث، ص 160.

(2) انظر: الرحيق المختوم، ص 413.

وحنين واد إلى جنب ذي المجاز قريب من الطائف، بينه وبين مكة بضعة عشر ميلًا من جهة عرفات[1].

- مالك بن عوف .. القائد الأرعن:

اجتمع رؤساء هذه القبائل على (مالك بن عوف) سيد (هوازن)، وكان شجاعًا مقدامًا، إلا أنه سقيم الرأي سيئ المشورة، فأمر قومه وهم خارجون للغزو أن يأخذوا معهم نساءهم وأموالهم وذراريهم؛ ليشعر كل رجل وهو يقاتل أن ثروته وحرمته وراءه فلا يفر عنها[2].

وخرج على رأس بني جشم يوم ذاك «دريد بن الصمة»، وكان شيخًا كبيرًا، ليس فيه شيء (ينفع) إلا التيمن برأيه؛ لأنه كان شيخًا مجربًا عارفًا بالحرب، فأنكر على مالك الخروج بالنساء والأطفال والأموال؛ إذ رأى أن المنهزم (الفارّ) لا يرده شيء، فلم يعمل مالك برأي دريد[3].

وتفصيل ذلك أنهم لما نزلوا بأوطاس اجتمع الناس إلى مالك بن عوف، وفيهم دريد ابن الصمة، فقال دريد (وكان قد ضعُف بصره): بأي واد أنتم؟ قالوا: بأوطاس، قال: نعم مجال الخيل، لا حزن ضرس، ولا سهل دهس، ما لي أسمع رغاء البعير، ونهاق الحمير، وبكاء الصبي وثغاء الشاء؟ قالوا: ساق مالك بن عوف مع الناس نساءهم وأموالهم وأبناءهم، فدعا مالكًا وسأله عما حمله على ذلك، فقال: أردت أن أجعل خلف كل رجل أهله وماله ليقاتل عنهم، فقال: راعي ضأن والله، وهل يرد المنهزم شيء؟ إنها إن كانت لك لم ينفعك إلا رجل بسيفه ورمحه، وإن كانت عليك فُضحت في أهلك ومالك. ثم سأل عن بعض البطون والرؤساء، ثم قال: يا مالك إنك لم تصنع بتقديم بيضة هوازن إلى نحور الخيل شيئًا، ارفعهم (أي: النساء والأطفال والأموال) إلى ممتنع بلادهم وعلياء قومهم (حيث حصونهم)، ثم ألق الصباة (الشباب) على متون الخيل، فإن كانت

(1) انظر: السيرة لمهدي رزق الله، ص 581.

(2) الغزالي: فقه السيرة، ص 420.

(3) السيرة لمهدي رزق الله، ص 582.

لك لحق بك من وراءك، وإن كانت عليك ألفاك ذلك وقد أحرزت (حفظت) أهلك ومالك.

ولكن مالكًا - القائد العام - رفض هذا الطلب، قائلًا: والله لا أفعل، إنك قد كبرت وكبر عقلك، والله لتطيعني هوازن أو لأتكئن على هذا السيف حتى يخرج من ظهري، وكره أن يكون لدريد فيها ذكر أو رأي، فقالوا: أطعناك. فقال دريد: هذا يوم لم أشهده ولم يفتني.

يـــا ليتنـــي فيهـــا جـــذع	أخـــب فيهـــا وأضـــع
أقـــود وطفـــاء الـــدمع	كأنهـــا شـــاة صـــدع[1]

- مالك بن عوف يرتب جيشه:

اتخذ مالك بن عوف تعبئة عالية، مرت بمراحل[2]:

1- الروح المعنوية لدى جنوده:

وقف مالك خطيبًا في جيشه، وحثهم على الثبات والاستبسال، ومما قال في هذا الجمع الحاشد: إن محمدًا لم يقاتل قط قبل هذه المرة، وإنما كان يلقى قومًا أغمارًا[3]، لا علم لهم بالحرب فيُنصر عليهم.

2- ذراري المقاتلين وأموالهم خلف الجيش:

أمر قائد هوازن بحشد نساء المقاتلين وأطفالهم وأموالهم خلفهم، وقد قصد من وراء هذا التصرف، دفع المقاتلين إلى الاستبسال والثبات أمام أعدائهم؛ لأن المقاتل - من وجهة نظره - إذا شعر أن أعز ما يملك وراءه في المعركة صعب عليه أن يلوذ بالفرار، مخلفًا ما وراءه في ميدان المعركة. عن أنس بن مالك رَضِيَ اللَّهُ عَنْهُ قال: افتتحنا مكة، ثم غزونا

---

(1) الرحيق المختوم، ص 413، 414.

(2) الصلابي، 781، 782.

(3) **أغمار**: جمع غُمر (بضم الغين وإسكان الميم)، وهو الذي لم يجرب الأمور.

حنينًا، فجاء المشركون بأحسن صفوف رأيت، قال: فصفت الخيل، ثم صفت المقاتلة، ثم صفت النساء من وراء ذلك، ثم صفت الغنم ثم صفت النعم.

3- تجريد السيوف وكسر أجفانها:

جرت عادة العرب في حروبهم أن يكسروا أجفان سيوفهم قبل بدء القتال، وهذا التصرف يؤذن بإصرار المقاتل على الثبات أمام الخصم حتى النصر أو الموت، وقد أمر مالك جنده بذلك تحقيقًا لهذا، بدليل قولهم: إذا أنتم رأيتم القوم فاكسروا جفون سيوفكم، وشدوا شدة رجل واحد عليهم.

4- وضع الكمائن لمباغتة جيش المسلمين والانقضاض عليهم:

كانت عند مالك بن عوف النصري معلومات وافية عن الأرض التي ستدور عليها المعركة، ولهذا رأى أن يستغل هذه الظروف الطبيعية لصالح جيشه، فعمل بمشورة الفارس المحنك دريد بن الصمة في نصب الكمائن لجيوش المسلمين، وقد كادت هذه الخطة أن تقضي على قوات المسلمين، لولا لطف الله عز وجل وعنايته.

5- الأخذ بزمام المبادرة في الهجوم على المسلمين:

كان ضمن الخطة التي رسمها القائد الهوازني الأخذ بزمام المبادرة ومهاجمة المسلمين؛ لأن النصر - في الغالب - يكون للمهاجم، أما المدافع فغالبًا ما يكون في مركز الضعف، ولهذا آتت هذه الخطة ثمارها بعض الوقت، ثم انقلبت موازين القوى - بفضل الله تعالى - ثم بثبات رسول الله ﷺ، حيث كسب المسلمون الجولة، وانتصروا على أعدائهم[1].

6- شن الحرب النفسية ضد المسلمين:

كان من ضمن بنود الخطة الحربية التي رسمها القائد مالك بن عوف الهوازني، استعمال سلاح معنوي له تأثير كبير في النفوس، فقد شن الحرب النفسية ضد المسلمين؛ من أجل إلقاء الخوف في نفوسهم، وذلك بأن عمد إلى عشرات الآلاف من الجمال التي صحبها معه

---

(1) الصلابي، ص 782.

في الميدان، فجعلها وراء جيشه، ثم أركب عليها النساء، فكان ذلك المشهد منظرًا مهيبًا، يحسب من يراه أن هذا الجيش مائة ألف مقاتل، وهو ليس كذلك.

- عبد الله بن أبي حدرد يأتي بخبر القوم:

لما بلغ النبي ﷺ عزم هوازن على حربه، أرسل عبد الله بن أبي حدرد الأسلمي رَضِيَ اللَّهُ عَنْهُ؛ حتى يوافيه بخبرهم. فذهب رَضِيَ اللَّهُ عَنْهُ ومكث بينهم يومًا أو يومين، ثم عاد وأخبر النبي ﷺ بما رأى.

ولقد ذهب عبد الله إلى حيث أمره الرسول ﷺ، وعاد على وجه السرعة بخبر هؤلاء الأعداء، إلا أنه قصر رَضِيَ اللَّهُ عَنْهُ في أداء هذا الواجب، حيث لم يختلط بهوازن اختلاطًا كاملًا، بحيث يسمع ويرى ما يدبر ضد المسلمين هناك، وكان من أهم ما يجب أن يعنى به معرفة مواقع المشركين التي احتلوها، وقد فوجئ المسلمون باختفاء تلك الكمائن التي نصبها الأعداء في منحنيات الوادي، حتى استطاعوا أن يمطروا المسلمين بوابل من سهامهم، فانهزموا في الجولة الأولى، فكان الجهل بهذه الكمائن أحد الأسباب الرئيسة وراء هزيمة المسلمين في أول المعركة، وما حدث نتيجة لهذا الخطأ لا يقدح في العصمة الثابتة لرسول الله ﷺ؛ لأن هذا الأمر ليس وحيًا من الله عز وجل، وإنما هو من باب الاجتهاد في الأمور العسكرية، وقد بذل النبي ﷺ جهده في سبيل الحصول على أدق المعلومات وأوفاها؛ لكي يضع على ضوئها الخطة العسكرية المناسبة لمجابهة العدو.

- استعارة النبي ﷺ السلاح من قرشيين:

وبعد جمع المعلومات عن هوازن وحلفائهم، استعد رسول الله ﷺ لمواجهتهم، فاستعار من يَعْلَى بن أمية ثلاثين بعيرًا وثلاثين درعًا (أسلم يوم الفتح وشهد حنينًا والطائف وتبوك)، واستقرض من حويطب بن عبد العزى أربعين ألف درهم[1]، وطلب من ابن عمه نوفل بن الحارث بن عبد المطلب ثلاثة آلاف رمح إعارة، ومن صفوان بن أمية مائة درع، وأعادها بعد حنين، وكان نوفل وصفوان لا يزالان على شركهما.

(1) السيرة لمهدي رزق الله، ص 583.

المبحث الثاني: خروج النبي ﷺ إلى حنين

وخرج رسول الله ﷺ إلى حنين لست خلت من شوال، وقيل لليلتين بقيتا من رمضان، وجمع بعضهم بأنه بدأ بالخروج في أواخر رمضان، وسار سادس شوال، وكان وصوله إليها في عاشره، واستعمل عتاب بن أسيد بن أبي العيص رَضِيَ اللَّهُ عَنْهُ أميرًا على مكة[1].

- قادة جيش المسلمين:

وعقد رسول الله ﷺ الألوية، فأعطى لواء المهاجرين لعلي بن أبي طالب رَضِيَ اللَّهُ عَنْهُ، ولواء الخزرج للحباب بن المنذر رَضِيَ اللَّهُ عَنْهُ، ولواء الأوس لأسيد بن حضير رَضِيَ اللَّهُ عَنْهُ، وكذلك فعل مع القبائل الأخرى. وركب النبي ﷺ بغلته، ولبس درعين والبيضة والمغفر[2].

وقد ثبت في الصحيحين[3]، أن الطلقاء قد خرجوا مع رسول الله ﷺ إلى حنين دون تحديد لعددهم، وقال أهل المغازي أنه خرج معه ألفان من أهل مكة (الطلقاء) مع عشرة آلاف من أصحابه الذين خرجوا معه لفتح مكة، فأصبحوا اثني عشر ألفًا، وهو أكبر جيش إسلامي يخرج في حياة رسول الله ﷺ إلى ذلك الحين، ولهذا ساد شعور عند بعض الناس أنهم لن يُغلبوا من قلة[4].

- (اجعل لنا ذات أنواط):

وفي الطريق إلى حنين، رأى بعض حديثي العهد بالإسلام والطلقاء شجرة سدر عظيمة خضراء، يقال لها ذات أنواط، كان العرب يأتونها كل سنة، فيعلقون أسلحتهم عليها، ويذبحون عندها، ويعكفون عليها يومًا، فقالوا لرسول الله ﷺ: اجعل لنا ذات

---

(1) المصدر السابق، ص 583.
(2) انظر السيرة لأبي شهبة، ج2، ص 468.
(3) البخاري، الفتح (170/16،حديث 4333)؛ ومسلم (735/2- 736، حديث 1059).
(4) السيرة لمهدي رزق الله، ص 584.

أنواط كما لهم ذات أنواط. فقال ﷺ: «سبحان الله، هذا كما قال قوم موسى: ﴿ٱجْعَل لَّنَآ إِلَـٰهًا كَمَا لَهُمْ ءَالِهَةٌ﴾ [الأعراف: 138] ، والذي نفسي بيده لتركبن سَنَنَ من كان قبلكم»(1). وفي هذا دليل على أن قلوب هؤلاء لم تتشرب الإسلام بعد؛ لحداثة عهدهم به، بل روي أن ثمانين من الطلقاء قد خرجوا وهم على الكفر(2).

- (**تلك غنيمة المسلمين غداً إن شاء الله**):

وعندما اقترب رسول الله ﷺ من حنين، وحضرتهم صلاة العشاء، جاءه رجل من المسلمين، فقال: إني انطلقت بين أيديكم حتى طلعت جبل كذا وكذا، فإذا أنا (بهوازن) عن بكرة أبيهم، بظعنهم، وبنعمهم، وشائهم، اجتمعوا إلى (حنين). فتبسم رسول الله ﷺ، وقال: «تلك غنيمة المسلمين غدًا إن شاء الله»(3).

- (**من يحرسنا الليلة؟**):

قال رسول الله ﷺ قبل اندلاع معركة حنين: «من يحرسنا الليلة؟». فقال أنس بن أبي مرثد: أنا يا رسول الله، قال ﷺ: «فاركب». فركب ابن أبي مرثد فرسًا له، وجاء إلى رسول الله ﷺ، فقال له ﷺ: «استقبل هذا الشعب حتى تكون في أعلاه ولا نُغَرَنَّ من قبلك الليلة».

قال سهيل بن الحنظلية: فلما أصبحنا خرج رسول الله ﷺ إلى مصلاه، فركع ركعتين، ثم قال: «هل أحسستم فارسكم؟» قالوا: ما أحسسناه، فثُوِّب بالصلاة، فجعل ﷺ يصلي، وهو يلتفت إلى الشعب، حتى إذا قضى صلاته، قال: «أبشروا فقد جاءكم فارسكم»، فجعل ينظر إلى خلال الشجر في الشعب، فإذا هو قد جاء حتى وقف عليه، فقال: إني انطلقت حتى إذا كنت في أعلى الشعب؛ حيث أمرني رسول الله ﷺ، فلما أصبحت طلعت الشعبين كليهما، فنظرت فلم أر أحدًا، فقال ﷺ: «هل نزلت الليلة؟»، فقال: لا، إلا مصليًا أو قاضي حاجة، فقال له ﷺ: «قد أوجبت، فلا عليك أن تعمل

---

(1) رواه الترمذي (6/343، حديث 2281)، وقال: حسن صحيح.

(2) انظر السيرة لمهدي رزق الله، ص 585.

(3) أخرجه أبو داود (1/391- 392)، بسند صحيح.

بعدها»، وفي هذا الخبر يظهر لنا المنهج النبوي الكريم في الاهتمام بالأفراد؛ فقد ظهر اهتمام النبي ﷺ بطليعة القوم، حتى جعل يلتفت في صلاته، وما كان ذلك ليحدث إلا لأمر مهم، ثم إنه ﷺ قال: «أبشروا قد جاءكم فارسكم». إنها الكلمة التي يستعملها النبي ﷺ في إخبارهم بما يسرهم من الأمور العظيمة .. تلك هي أهمية الفرد في المجتمع الإسلامي .. إنه ليس كمًّا مهملًا، ولا رقمًا في سجل، ولا بزالًا في آلة، يستغنى عنه عند الضرورة، ليؤتى بغيره .. إنه بعض التفسير للمنهج الإلهي في قوله تعالى: ﴿وَلَقَدْ كَرَّمْنَا بَنِيٓ ءَادَمَ وَحَمَلْنَٰهُمْ فِى ٱلْبَرِّ وَٱلْبَحْرِ وَرَزَقْنَٰهُم مِّنَ ٱلطَّيِّبَٰتِ وَفَضَّلْنَٰهُمْ عَلَىٰ كَثِيرٍ مِّمَّنْ خَلَقْنَا تَفْضِيلًا﴾ [الإسراء: 70][1].

المبحث الثالث: يوم حنين

وسار الجيش الواثق حتى وصل إلى وادي حنين، وقد أثر هذا الحشد الضخم على بعضهم، ورأوا هذه الأعداد الهائلة، فقال قائلهم: لن نغلب اليوم من قلة ..

هذا التجمع الجديد الذي وصل تعداده إلى اثني عشر ألف مقاتل، لم تتح له فرصة التمحيص المناسبة، ولم تصهره المحنة بعد؛ إذ كان أكثر من نصف هذا الجيش من حديثي العهد بالإسلام، وقد تم لهم دخول مكة دون قتال يذكر، فكان لابد من المحنة؛ سبرًا لهذه النفوس؛ حيث إن التربية جزء أساسي من حياة الفرد المسلم والجماعة المسلمة[2].

ولقد عاتبهم القرآن، وذكرهم بعدم الاتكال إلا على الله وحده، وإلا وكلهم إلى أنفسهم، ولقنهم درسًا بليغًا في هذا الشأن، فقال تعالى: ﴿لَقَدْ نَصَرَكُمُ ٱللَّهُ فِى مَوَاطِنَ كَثِيرَةٍ ۙ وَيَوْمَ حُنَيْنٍ ۙ إِذْ أَعْجَبَتْكُمْ كَثْرَتُكُمْ فَلَمْ تُغْنِ عَنكُمْ شَيْـًٔا وَضَاقَتْ عَلَيْكُمُ ٱلْأَرْضُ بِمَا رَحُبَتْ ثُمَّ وَلَّيْتُم مُّدْبِرِينَ﴾[التوبة: 25]. وحكى لهم رسول الله ﷺ قصة نبي أعجبته كثرة أمته، فسلط الله عليهم الموت[3].

(1) الصلابي، ص 799.

(2) المنهج الحركي، القسم الثالث، ص 160، بتصرف.

(3) سنن الدارمي (5/135)، ومسند أحمد (4/333)، وانظر السيرة لمهدي رزق الله، ص 585.

- **كمين:**

انتهى الجيش الإسلامي إلى حنين ليلة الأربعاء لعشر خلون من شوال، وكان مالك بن عوف قد سبقهم، فأدخل جيشه بالليل في ذلك الوادي، وفرق كمناءه في الطرق والمداخل، والشعاب والأخباء والمضايق، وأصدر إليهم أمره بأن يرشقوا المسلمين أول ما طلعوا، ثم يشدوا شدة رجل واحد.

وبالسَّحر عبأ رسول الله ﷺ جيشه، وعقد الألوية والرايات وفرقها على الناس، وفي عماية الصبح استقبل المسلمون وادي حنين، وشرعوا ينحدرون فيه وهم لا يدرون بوجود كمناء العدو في مضايق هذا الوادي، فبينا هم ينحطون إذا هم تمطر عليهم النبال، وإذا كتائب العدو قد شدت عليهم شدة رجل واحد[1]، فارتاعت المقدمة لهذه المفاجأة؛ فهي في عماية من الليل، وعماية من أمرها، لا تعرف إلا أن تستدبر، ثم تولي الأدبار.

وانتشرت موجة الفزع، فكسرت الصفوف المرصوصة وبعثرتها.

واستغل رجال مالك بن عوف هذا الارتباك، فهاجمت كتائبهم، وحملت الخيل على ما أمامها، فانكفأ المسلمون مهزومين، لا يلوي أحد على أحد.

ونظر زعماء مكة إلى الجيش المولي نظرة تشفٍّ وفرح[2].

وكانوا يقفون خلف الجيش ينظرون لمن تكون الدائرة، فقال أبو سفيان: وهو يحمل الأزلام: (لا تنتهي هزيمتهم دون البحر) [3]. وقال كلدة بن الجنيد (أخو صفوان بن أمية لأمه) وهو من الطلقاء: ألا بطل السحر اليوم!! فقال له أخوه صفوان (وهو على شركه آنذاك) فض الله فاك؛ فوالله لأن يربني (أي يكون لي ربًّا، أي ملكًا عليَّ) رجل من قريش أحب إليَّ من أن يربني رجل من هوازن[4]. وكان صفوان في المؤخرة، ويرسل غلامًا له ليأتيه بالأخبار من المقدمة. ومر به رجل قرشي، فقال له: أبشر يا صفوان بهزيمة محمد

---

(1) الرحيق المختوم، ص 415.

(2) فقه السيرة للغزالي، ص 422.

(3) ابن هشام (4/122).

(4) الهيثمي: المجمع (6/179 - 180)، وقال: رواه أحمد وأبو يعلى، ورجال أحمد رجال الصحيح.

وأصحابه، فوالله لا يجبرونها أبدًا، فزجره صفوان، وقال: تبشرني بظهور الأعراب؟! وقال عكرمة بن أبي جهل لهذا الرجل: الأمر ليس بيدك، الأمر بيد الله ليس إلى محمد منه شيء، إن أُديل عليه فإن العاقبة له غدًا!! فقال سهيل بن عمرو: والله إن عهدك بخلافه (أي: بخلاف محمد ﷺ) لحديث، فقال عكرمة: يا أبا يزيد إنا كنا على غير شيء، وعقولنا ذاهبة نعبد حجرًا لا يضر ولا ينفع[1]!.

- **(هلموا إليَّ أيها الناس .. أنا رسول الله):**

وفي ضجة الفزع الذي ساد المعركة، وقف رسول الله ﷺ ساكن الجأش، وقد أحاط به قليل من المهاجرين الأولين، ومن أهل بيته، ثم طفق يركض ببغلته تجاه الكفار وهو يقول: (هلموا إليَّ أيها الناس، أنا رسول الله، أنا محمد بن عبد الله)، ويقول:

أنا النبي لا كذب ... أنا ابن عبد المطلب

وهذا في غاية ما يكون عليه بشر من كمال الشجاعة (وهو ﷺ المثل الكامل في كل شيء) .. إنه وقد انكشف عنه جيشه، وهو على بغلة لا تصلح لكر أو فر، ينطلق نحو العدو، وينوه باسمه ليعرفه من يعرفه، لا يهاب الموت، ولا يخشى بشرًا، واثقًا بربه، متوكلًا عليه، راجيًا منه وحده إظهار الدين والنصر المبين.

وأخذ ﷺ يقاتل، والقلة التي ثبتت معه، وهم يتقون به العدو، كعادتهم في مثل هذه المواقف العصيبة؛ وذلك لشجاعته وثباته ﷺ[2].

من ثبت مع رسول الله ﷺ:

كان أول من أدبر من جيش المسلمين الخيالة، ثم المشاة، وفر معهم الطلقاء والأعراب، ثم بقية الجيش، حتى لم يثبت مع رسول الله ﷺ إلا جماعة قليلة من الناس[3].

---

(1) السيرة لأبي شهبة، ج2، ص 471.

(2) انظر صحيح مسلم (3/ 1398-1399)، حديث (1775).

(3) انظر: البخاري، الفتح (12/ 64 ، حديث 2930)، و(16/140، حديث 4315، ومسلم (2/737، حديث 1059).

قال ابن إسحاق: إلا أنه قد بقي مع رسول الله ﷺ نفر من المهاجرين والأنصار وأهل بيته. وفيمن ثبت معه من المهاجرين أبو بكر وعمر، ومن أهل بيته علي، والعباس، وأبو سفيان بن الحارث وابنه، والفضل بن العباس، وربيعة بن الحارث، وأسامة، وأيمن ابن أم أيمن بن عبيد (قُتل يومئذ) (1).

وقال ابن حجر: (وعند ابن أبي شيبة من مرسل الحكم بن عتيبة، أنه لم يبق معه إلا أربعة نفر: ثلاثة من بني هاشم ورجل من غيرهم، علي والعباس بين يديه، وأبو سفيان بن الحارث آخذ بعنان بغلته ﷺ، وابن مسعود من الجانب الأيسر، وروى أحمد والحاكم أنه ثبت معه ثمانون من المهاجرين والأنصار) (2).

وروى الترمذي بسنده عن عبد الله بن عمر رَضِيَ اللَّهُ عَنْهُمَا، قال: (لقد رأيتنا يوم حنين، وأن الناس لمولون، وما مع رسول الله ﷺ مائة رجل) (3).

وثبت مع رسول الله ﷺ فريق من النساء، منهن: أم سليم بنت ملحان (وكانت مع زوجها أبي طلحة، وهي يومئذ حامل بولدها عبد الله بن أبي طلحة)، وأم عمارة نسيبة بنت كعب، وأم سليط وأم الحارث. وقد روى مسلم بسنده عن أنس رَضِيَ اللَّهُ عَنْهُ، قال: إن أم سليم اتخذت يوم حنين خنجرًا، فكان معها، فرآها أبو طلحة، فقال: يا رسول الله، هذه أم سليم معها خنجر، فقال لها رسول الله ﷺ : «ما هذا الخنجر؟»، قالت: اتخذته إن دنا مني أحد من المشركين بقرت به بطنه، فجعل رسول الله ﷺ يضحك، قالت: يا رسول الله، اقتل من بعدنا من الطلقاء؛ انهزموابك (أي انهزموا عنك)؟

فقال رسول الله ﷺ: «يا أم سليم إن الله قد كفى وأحسن».

قال الأستاذ منير الغضبان:

ومع هول المفاجأة، فرّ الجيش الإسلامي كله، ولم يثبت مع رسول الله ﷺ إلا بضعة عشر رجلًا، وكانوا فريقين.

---

(1) ابن هشام (4/122).

(2) الفتح (16/ 141 – 142).

(3) صحيح سنن الترمذي باختصار الألباني (2/137)، وقال: صحيح.

الفريق الأول: أقرباؤه الأدنون: العباس بن عبد المطلب، والفضل بن العباس، وربيعة ابن الحارث بن عبد المطلب، وأبو سفيان بن الحارث بن عبد المطلب.

وهذه نماذج جديدة على الساحة، ورغم دخولها الجديد في الإسلام، لكنها لم تتراجع خطوة واحدة بجوار رسول الله ﷺ.

الفريق الثاني: وهم الخميرة الأولى للدعوة: أبو بكر، وعمر، وعثمان، وعلي، وأبو دجانة.

كما برز فريق ثالث من الشباب، هما: أيمن بن عبيد، وأسامة بن زيد رضي الله عنهما.

وبرز فريق رابع من النساء، هن: أم سليم بنت ملحان، هي يومئذ حامل بولدها عبد الله بن أبي طلحة، وأم عمارة بنت كعب، وأم سليط، وأم الحارث.

ولا يبعد أن يكون هناك قتال ضار في مكان آخر، غير أن هذه المجموعة الفدائية بقيت حول رسول الله ﷺ.

- يا أصحاب السَمُرة:

هدى الله رسوله ﷺ أن يأمر عمه العباس بن عبد المطلب (وكان جهير الصوت)، أن ينادي الناس بالثبات [1]، وخص منهم أصحاب السمُرة (أصحاب بيعة الرضوان)، فأسرعوا إليه كما تسرع الأمهات إلى أولادها، ثم خص الأنصار بالنداء، ثم بني الحارث ابن الخزرج، فطاروا إليه قائلين: لبيك لبيك[2]. وجعل الرجل منهم إذا لم يستطع أن يلوي عنق بعيره ينزل عنه، ويأخذ سيفه ورمحه ويؤم الصوت، حتى تجمع حول الرسول عدد كبير [3].

لقد هداه الحق أن يهتف بأصحاب العقائد، ورجال الفداء؛ فهم وحدهم الذين تنجح بهم الرسالات، وتفرج الكروب. أما هذا الغثاء من العوام، الحراص على الدنيا، السعاة إلى المغانم، فما يقوم بهم أمر، أو تثبت بهم قدم [4].

---

(1) المنهج الحركي، ص 161-162.

(2) انظر: السيرة لمهدي رزق الله، ص 588.

(3) السيرة النبوية لأبي شهبة، ج2، ص 470.

(4) فقه السيرة للغزالي، ص 423.

روى مسلم في صحيحه (1)، عن العباس بن عبد المطلب رَضِيَ اللَّهُ عَنْهُ، قال: شهدت مع رسول الله (2) ﷺ يوم حنين، فلزمت أنا وأبو سفيان بن الحارث رسول الله ﷺ، فلم نفارقه، ورسول الله ﷺ على بغلة له بيضاء، فلما التقى المسلمون والكفار ولَّى المسلمون مدبرين، فطفق رسول الله ﷺ يركض ببغلته قِبَل الكفار، قال العباس: وأنا آخذ بلجام بغلة رسول الله ﷺ أكفها؛ إرادة أن لا تسرع، فقال رسول الله ﷺ: «أي عباس، ناد أصحاب السَمُرَة»، فقال العباس - وكان رجلًا صيتًا - فقلت بأعلى صوتي: أين أصحاب السَّمُرة؟ قال: فوالله، لكأن عطفتهم حين سمعوا صوتي عطفة البقر على أولادها، فقالوا: يا لبيك يا لبيك! قال: فاقتلوا الكفار، والدعوة في الأنصار، يقولون: يا معشر الأنصار! يا معشر الأنصار! قال: ثم قصرت الدعوة على بني الحارث من الخزرج، فنظر رسول الله ﷺ وهو على بغلته، كالمتطاول عليها إلى قتالهم، فقال رسول الله ﷺ: «هذا حين حمي الوطيس».

﴿ ثُمَّ أَنزَلَ ٱللَّهُ سَكِينَتَهُۥ عَلَىٰ رَسُولِهِۦ وَعَلَى ٱلْمُؤْمِنِينَ وَأَنزَلَ جُنُودًا لَّمْ تَرَوْهَا وَعَذَّبَ ٱلَّذِينَ كَفَرُوا۟ ﴾:

واجتمع حول رسول الله عدد من الرجال الذين دعاهم، وهم يصيحون: لبيك، حتى قارب القوم مائة، فاستقبل النبي بهم المشركين، وقد ملك زمام الموقف، وأعاد الكرة عليهم، فاجتلد الفريقان اجتلادًا شديدًا.

وقصد «علي» وأحد الأنصار إلى حامل العلم في طليعة هوازن، فضرب «علي» عرقوبي جمله، فوقع على عجزه، ثم استمكن منه الأنصاري، فهوى به عن رحله.

وكان النبي على بغلته يقول:

أنا النبيّ لا كَذِبْ ... أنا ابن عبد المطلب (3)

---

(1) مسلم، كتاب الجهاد والسير، باب في غزوة حنين (3/1399)، رقم (1772).

(2) الصلابي، ص 783-784.

(3) أخرجه البخاري (2799)، ومسلم (4570)، عن البراء بن عازب.

ويدعو: اللّهم نزِّل نصرك [1].

والمهاجرون والأنصار قد التحموا مع رجال هوازن وثقيف.

قال العباس: ونظر رسول الله - وهو على بغلته كالمتطاول عليها إلى قتالهم، قال: «الآن حَمِيَ الوطيس»، ثم أخذ حصيات، فرمى بهن في وجوه الكفار، ثم قال: «انهزموا ورب محمد».

قال العباس: فذهبت أنظر، فإذا القتال على هيئته فيما أرى، فما هو إلا أن رماهم (رسول الله ﷺ) فما زلت أجد حدَّهم كليلا، وأمرهم مدبرًا [2].

ولم يطل وقت، حتى كان رجال (ثقيف) ومن معهم يُوغِلون مولِّين الأدبار، فإذا هم يرَوْنَ الأسرى مكتفين!

وفي هذه المعركة نزل قول الله عز وجل: ﴿ لَقَدْ نَصَرَكُمُ ٱللَّهُ فِى مَوَاطِنَ كَثِيرَةٍ ۙ وَيَوْمَ حُنَيْنٍ ۙ إِذْ أَعْجَبَتْكُمْ كَثْرَتُكُمْ فَلَمْ تُغْنِ عَنكُمْ شَيْـًٔا وَضَاقَتْ عَلَيْكُمُ ٱلْأَرْضُ بِمَا رَحُبَتْ ثُمَّ وَلَّيْتُم مُّدْبِرِينَ ﴿٢٥﴾ ثُمَّ أَنزَلَ ٱللَّهُ سَكِينَتَهُۥ عَلَىٰ رَسُولِهِۦ وَعَلَى ٱلْمُؤْمِنِينَ وَأَنزَلَ جُنُودًا لَّمْ تَرَوْهَا وَعَذَّبَ ٱلَّذِينَ كَفَرُوا۟ ۚ وَذَٰلِكَ جَزَآءُ ٱلْكَٰفِرِينَ ﴿٢٦﴾ ﴾ [التوبة: 25-26] [3].

شيبة بن عثمان، ومحاولة اغتيال النبي ﷺ:

أراد شيبة بن عثمان بن أبي طلحة يوم حنين قتل رسول الله ﷺ؛ ثأرًا لأبيه وعمه، اللذين قتلهما علي بن أبي طالب رضي الله عنه يوم أحد.

وقد حكى شيبة ذلك، فقال: (لما رأيت النبي ﷺ غزا مكة فظفر بها، وخرج إلى هوازن. قلت: أخرج؛ لعلي أدرك ثأري. وذكرت قتل أبي يوم أحد وعمي. فلما انهزم

(1) رواه مسلم في صحيحه (5/168).
(2) رواه مسلم عن العباس (4567).
(3) انظر: فقه السيرة للغزالي، ص 423-424.

أصحابه جئته عن يمينه. فإذا العباس قائم عليه درع بيضاء كالفضة، فقلت: عمه! لن يخذله! ثم جئته عن يساره، فإذا بأبي سفيان بن الحارث، فقلت: ابن عمه لن يخذله. فجئته من خلفه، فلم يبق إلا أن أسوره [1] بالسيف؛ إذ رفع لي فيما بيني وبينه شواظ من النار كأنه برق، وخفت أن يمحشني [2]، فوضعت يدي على بصري، ومشيت القهقرى فالتفت (رسول الله ﷺ) إلي وقال: «يا شيب! ادن مني!» فوضع يده على صدري، وقال: «اللّهم أذهب عنه الشيطان. فرفعت رأسي إليه وهو أحب إلي من سمعي وبصري وقلبي»، ثم قال:

«يا شيب قاتل الكفار!» فتقدمت بين يديه، أحب والله أقيه بنفسي كل شيء. فلما انهزمت هوازن ودخلتُ عليه، فقال: «الحمد لله الذي أراد بك خيرًا مما أردت، ثم حدثني بما هممت به» [3].

المبحث الرابع
نصر مبين .. وغنائم غير مسبوقة

فر المشركون، مخلفين وراءهم كثيرًا من القتلى والأموال؛ فقد انجلت المعركة عن نصر مبين للمسلمين، ومقتل وجرح عدد كبير من هوازن، فقد رُوي أن قتلى بني مالك من ثقيف لوحدها قد بلغ سبعين قتيلًا، وقد ذكر البخاري في «التاريخ الكبير»، عن أبي عاصم أن من قُتل من أهل الطائف (وهم ثقيف) يوم حنين مثل من قتل من المشركين يوم بدر (وكانوا سبعين كما ذكرنا ذلك في مكانه) [4]، ثم قتل بأوطاس - كما سيأتي - ثلاثمائة آخرين من بني مالك، ومعهم دريد بن الصمة، ولم يقتل من الأحلاف سوى رجلين، أحدهما من (بني غيرة) والآخر من (بني كبة)، وقتل خلق كثير من بني نصر بن معاوية،

(1) أرتفع إليه، فأعلوه، فآخذه بالسيف.

(2) يحرق جلدي حتى يبدو العظم.

(3) إمتاع الأسماع، ج1، ص411.

(4) انظر: الدلائل للبيهقي (142/5).

ثم من بني رئاب، حيث استحر فيهم القتل، حتى قال عبد الله بن قيس رَضِيَ اللَّهُ عَنْهُ - وكان من بني رئاب: «يا رسول الله، هلكت بنو رئاب، فقال رسول الله ﷺ: «اللَّهم اجبر مصيبتهم» (1).

النهي عن قتل النساء والأطفال والأجراء:

ونهى رسول الله ﷺ يومذاك عن قتل النساء والأطفال والأجراء، وكل من لا يحمل السلاح. فقد روى أبو داود وابن ماجه (2)، أن رسول الله ﷺ مر بامرأة وقد قتلها خالد ابن الوليد. فقال رسول الله ﷺ لبعض من معه: «أدرك خالدًا، فقل له: إن رسول الله ينهاك أن تقتل وليدًا أو امرأة أو عسيفًا (أجيرًا)».

خسائر المسلمين:

وكانت خسارة المسلمين طفيفة جدًّا؛ فقد استشهد أربعة منهم، وهم:

- أيمن بن عبيد رَضِيَ اللَّهُ عَنْهُ: ابن أم أيمن مولاة رسول الله ﷺ وحاضنته.
- يزيد بن زمعة بن الأسود رَضِيَ اللَّهُ عَنْهُ: جمح به فرسه فمات.
- سراقة بن الحباب الأنصاري رَضِيَ اللَّهُ عَنْهُ.
- أبو عامر الأسلمي رَضِيَ اللَّهُ عَنْهُ (3).

وجرح عدد منهم، منهم: أبو بكر وعثمان وعلي، وعبد الله بن أبي أوفى، وخالد بن الوليد رَضِيَ اللَّهُ عَنْهُمْ أجمعين (4).

- السبي والغنائم:

أما بالنسبة للسبي والغنائم، فقد روي أنها كانت:

- سبي ستة آلاف من النساء والأبناء (5).

---

(1) ابن هشام (4/139)، وابن سعد (2/152)، والواقدي (3/916)، وانظر: السيرة لمهدي رزق الله، ص591.

(2) وروى الشيخان ذلك بمعناه.

(3) ابن هشام (4/145).

(4) انظر: السيرة لمهدي رزق الله، ص593.

(5) ابن هشام (4/183)، وابن سعد (2/155).

- أربعة آلاف أوقية من الفضة.

- أربعة وعشرون ألفًا من الإبل.

- أكثر من أربعين ألفًا من الشياه (1).

وأمر رسول الله ﷺ أن تساق هذه الغنائم إلى الجعرانة، فتحبس هناك، وجعل عليها مسعود بن عمرو الغفاري رَضِيَ اللَّهُ عَنْهُ، إلى أن قسمها بعد أن فرغ من غزوة الطائف - كما سيأتي.

المبحث الخامس
تعقب الفارين من حنين

ولما انهزم العدو، صارت طائفة منهم إلى الطائف، وطائفة إلى نخلة، وطائفة إلى أوطاس، فأرسل النبي ﷺ إلى أوطاس طائفة من المطاردين، يقودهم أبو عامر الأشعري، فتناوش الفريقان القتال قليلًا، ثم انهزم جيش المشركين، وفي هذه المناوشة قتل القائد أبو عامر الأشعري.

وطاردت طائفة أخرى من فرسان المسلمين فلول المشركين الذين سلكوا نخلة، فأدركت دريد بن الصمة، فقتله ربيعة بن رفيع.

وأما معظم فلول المشركين الذين لجأوا إلى الطائف، فتوجه إليهم رسول الله ﷺ بنفسه بعد أن جمع الغنائم (2).

أولا: سرية أوطاس:

بعث رسول الله ﷺ في آثار من توجه قِبَل أوطاس سرية، وأمَّر عليهم أبا عامر الأشعري، فلما التقوا تناوشوا القتال، وقد أبلى أبو عامر بلاء حسنًا، حتى قيل: إنه قتل تسعة منهم، ثم رماه أحدهم بسهم فأثبته في ركبته، فعجز عن القتال، فاستخلف على السرية ابن أخيه: أبا موسى الأشعري، فقتل قاتل عمه.

---

(1) المصدران السابقان، والسيرة لرزق الله، ص 592.

(2) انظر: الرحيق المختوم، ص417.

ولم يلبث أبو عامر أن مات من جرحه بعد أن أوصى أبا موسى أن يقرئ رسول الله منه السلام، وأن يستغفر له، وقاتل أبو موسى القوم حتى هزمهم، فلما رجع بعد الموقعة أخبر الرسول بخبر عمه، فدعا له ولأبي موسى رَضِيَ اللَّهُ عَنْهُمَا [1].

وقد روى البخاري بسنده عن أبي بردة بن أبي موسى الأشعري رَضِيَ اللَّهُ عَنْهُ، عن أبيه، قال: (... وبعثني - أي رسول ﷺ - مع أبي عامر، فرُمي أبو عامر في ركبته. رماه جُشميٌّ بسهم فأثبته في رُكبته. فانتهيت إليه، فقلت: يا عم من رماك؟ فأشار إلى أبي موسى، فقال: ذاك قاتلي الذي رماني، فقصدت له، فلحقته، فلما رآني وَلَّى، فأتبعته وجعلت أقول له: ألا تستحي، ألا تثبت، فكفَّ. فاختلفنا ضربتين بالسيف، فقتلته، ثم قلت لأبي عامر: قتل الله صاحبك. قال: فانزع هذا السهم، فنزعته، فنزا منه الماء.

قال: يا ابن أخي، أقرئ النبي ﷺ السلام، وقل له: استغفر لي. واستخلفني أبو عامر على الناس، فمكث يسيرًا ثم مات. فرجعت، فدخلت على النبي ﷺ في بيته على سرير مُرمل [2]، وعليه فراش قد أثر رمال السرير بظهره وجنبيه، فأخبرته بخبرنا وخبر أبي عامر، فدعا بماء فتوضأ، ثم رفع يديه فقال: «اللّهم اغفر لعُبيد أبي عامر»، ورأيت بياض إبطيه. ثم قال: «اللّهم اجعله يوم القيامة فوق كثير من خلقك من الناس»، فقلت: ولي فاستغفر، فقال: «اللّهم اغفر لعبد الله بن قيس ذنبه، وأدخله يوم القيامة مدخلًا كريمًا».

قال أبو بردة [3]: إحداهما لأبي عامر، والأخرى لأبي موسى [4].

ثانيًا: مطاردة المشركين بنخلة، وقتل دُريد بن الصمة:

وتوجهت فرقة من الفارين من حنين نحو نخلة (مكان بين مكة والطائف)، وهم بنو غيرة من ثقيف، فانحازوا إلى جبيل أو أكمة، وكان عددهم ستمائة نفس، فيهم دريد بن الصمة الشيخ الكبير المجرب، صاحب الرأي، العارف بالحرب، والذي كان قد أنكر على

---

(1) السيرة لأبي شهبة، ج2، ص473.

(2) أي معمول بالرمال.

(3) هو ابن أبي موسى الأشعري، روى الحديث عن أبيه.

(4) البخاري: المغازي (120/5)، رقم (4323).

مالك بن عوف الخروج بالنساء والأطفال والأموال؛ إذ يرى أن المنهزم لا يرده شيء، فلم يعمل مالك برأيه.

فلما طارد فرسان المسلمين فلول المشركين الذين سلكوا نخلة، أدرك ربيع بن رفيع رَضِيَ اللَّهُ عَنْهُ دُريد بن الصمة وهو على راحلته، فأخذ بخطام الراحلة يقودها، وهو يظن أن عليها امرأة، فأناخ الراحلة، فإذا بالراكب رجل كبير أعمى.

وربيع بن رفيع لا يعرفه، فسأله: من أنت؟ فقال دريد، وماذا تريد مني؟ قال: أقتلك، قال: ومن أنت؟ قال: أنا ربيع بن رفيع السلمي، ثم ضربه بسيفه فلم يغن شيئًا، فقال له: بئس ما سلحتك به أمك، خذ سيفي هذا من مؤخر الرحل ثم اضرب به، وارفع عن العظام، واخفض عن الدماغ؛ فإني كنت كذلك أضرب الرجال، ثم إذا أتيت أمك فأخبرها أنك قتلت دريد بن الصمة؛ فُرب - والله - يومٍ قد منعت فيه نساءك، فلما رجع وأخبر أمه بقتله إياه، قالت: أما والله لقد أعتق أمهات لك ثلاثًا [1].

ثالثًا: غزوة الطائف:

بعد أن تعقب المسلمون فلول الهاربين من هوازن في أوطاس ونخلة، توجهوا للقضاء على ثقيف التي فرت من حنين وأوطاس، وتحصنت بحصونها المنيعة في الطائف، وأغلقت أبوابها بعد أن جمعت ما يكفيها من المؤن الغذائية؛ للصمود لمدة عام، واتخذت وسائل دفاعية تمكنها من الصمود مدة طويلة، ورممت حصونها، وأوفدت عُرْوَة بن مسعود وغَيْلان بن سَلَمَة إلى جُرَش؛ ليتعلما صنعة الدَّبابات [2] والمجانيق ، والضبور [3]، ولذا لم يحضرا حنينًا مع قومهما [4] .

سار رسول الله ﷺ إلى الطائف في الشهر نفسه (شوال سنة 8 هـ)، وقدم خالد بن الوليد طليعة في ألف رجل، ثم سلك ﷺ الطريق إلى الطائف، فمر على النخلة اليمانية،

---

(1) انظر: هذا الحبيب يا محب، الجزائري، ص411.

(2) **الدبابات:** آلات تصنع من خشب وتغشى بجلود، ويدخل فيها الرجال، ويتصلون بحائط فينقبون عن أهله.

(3) **الضبور:** شيء يتقى به عند الانصراف.

(4) ابن هشام (4/170-171)، وابن سعد (2/158)، والسيرة لمهدي رزق الله، ص 594.

ثم على قرن المنازل، ثم على لبة، فابتنى بها مسجدًا، وكان هناك حصن لمالك بن عوف، فأمر بهدمه، ثم واصل سيره حتى انتهى إلى الطائف، فنزل قريبًا من حصنها، وعسكر هناك، وفرض الحصار على أهل الحصن [1]. وللمسلمين خبرة قديمة بهذا الأسلوب من القتال، فقد حاصروا وحوصروا، وعرفوا أنجح طرائق الهجوم والدفاع. وكان وصولهم إلى الطائف في حدود العشرين من شوال، دون أن يستجم الجيش طويلًا من غزوة حنين وسرايا نخلة وأوطاس.

وعرف المسلمون أن (ثقيفًا) قد تهيأت لحصار طويل، وأن القوم لا يزالون على إصرارهم، والبقاء على جاهليتهم، وأن الخسائر التي لحقت بهم لم تكسر شوكتهم، ولم ترهق عزيمتهم [2].

وكانت الطائف تمتاز بموقعها الجبلي، وبأسوارها القوية، وحصونها الدفاعية، وليس إليها منفذ سوى الأبواب التي أغلقتها ثقيف بعد أن أدخلت من الأقوات ما يكفي لسنة كاملة، وهيأت من وسائل الحرب ما يكفل لها الصمود طويلًا [3].

جيش المسلمين في مرمى سهام أهل الطائف:

نزل الجيش في مكان مكشوف قريب من الحصن، وما كاد الجنود يضعون رحالهم حتى أمطرهم الأعداء بوابل من السهام، فأصيب من جراء ذلك أناس كثيرون، وحينئذٍ عرض الحباب بن المنذر على الرسول ﷺ فكرة التحول من هذا الموقع إلى مكان آمن من سهام أهل الطائف، فقبل ﷺ هذه المشورة، وكلَّف الحباب - لكونه من ذوي الخبرات الحربية الواسعة في هذا المجال - بالبحث عن موقع ملائم لنزول الجند، فذهب رضي الله عنه، ثم حدد المكان المناسب، وعاد فأخبر النبي ﷺ بذلك، فأمر النبي ﷺ جيشه بالتحول إلى المكان الجديد. وهذا شاهد عيان يحدثنا عما رأى، قال عمرو بن أمية الضمري رضي الله عنه: لقد أطلع علينا من نبلهم ساعة نزلنا شيء الله به عليم، كأنه رجل جراد، وترسنا لهم حتى

(1) الرحيق المختوم، ص418.

(2) فقه السيرة للغزالي، ص 431.

(3) انظر: الأغصان الندية شرح الخلاصة البهية، لمحمد طه، ص 461.

أصيب ناس من المسلمين بجراحة، ودعا رسول الله ﷺ الحباب، فقال: «انظر مكانًا مرتفعًا مستأخرًا عن القوم»، فخرج الحباب حتى انتهى إلى موضع مسجد الطائف (1) خارج من القرية، فجاء إلى النبي ﷺ فأخبره، فأمر النبي ﷺ أن يتحولوا (2).

وقد ذكر ابن سعد أن سهام ثقيف تسببت في استشهاد اثني عشر مسلمًا، وجرح عدد منهم (3).

وكان مع رسول الله ﷺ من نسائه أم سلمة، وزينب بنت جحش، فضرب لهما قبتين، فكان يصلي بينهما بأصحابه (4).

لا شيء يفلح في فتح الحصن:

استخدم رسول الله ﷺ أساليب متنوعة في محاولة اقتحام حصن الطائف المنيع، وبذل المسلمون كل الوسع في ذلك، إلا أن الحصن استعصى عليهم، ولم تفلح كل الأسلحة الجديدة التي لم يسبق للمسلمين أن استعملوها من قبل في فتح الحصن؛ فقد كان أهل الطائف من المهارة والدربة في الحرب ما حال بين المسلمين وبين الاستفادة منها.

ومن الأسلحة التي لم يسبق للمسلمين أن استعملوها من قبل (5):

1- الدبابة:

والدبابة على شكل بيت صغير، تعمل من الخشب، وتتخذ للوقاية من سهام الأعداء عندما يُراد نقض جدار الحصن، بحيث إذا دخلها الجنود كان سقفها حرزًا لهم من الرمي.

إلا أن ثقيفًا عندما رأتهم ألقت عليهم قطعًا من حديد محماة، فأحرقت الدبابة، فخرج أصحابها من تحتها فأصابوهم بسهام، فقتلوا منهم رجالًا.

---

(1) وهو المسجد المعروف الآن بمسجد ابن عباس، وقد بنته ثقيف لما أسلمت بعد.

(2) انظر مغازي الواقدي (416/1)، والسيرة للصلابي، ص 786.

(3) ابن سعد (158/2).

(4) انظر: السيرة لأبي شهبة، ج2، ص 415.

(5) انظر: السيرة لرزق الله، ص 594، والسيرة للصلابي، ص 185-186، والرحيق المختوم، ص 416.

2- المنجنيق:

ونصب النبي ﷺ المنجنيق على أهل الطائف، وقذف به القذائف، حتى وقعت شدخة في جدار الحصن، فدخل نفر من المسلمين تحت دبابة، ودخلوا بها إلى الجدار ليحرقوه، فعاد المشركون، فأرسلوا عليهم قطعًا من الحديد محماة بالنار، فخرجوا من تحتها، فرموهم بالنبل، فأصابوا منهم وقتلوا.

3- الحسك الشائك:

من الأسلحة الجديدة التي استعملها الرسول ﷺ في حصاره لأهل الطائف الحسك الشائك، وهو من وسائل الدفاع الثابتة، ويعمل من خشبتين تسمران على هيئة الصليب، حتى تتألف منها أربعة شعب مدببة، وإذا رُمي في الأرض بقيت شعبة منه بارزة، تتعثَّر بها أقدام الخيل والمشاة، فتعطل حركة السير السريعة المطلوبة في ميدان القتال[1].

وقد ذكر أصحاب المغازي والسِّير أن الرسول ﷺ استعمل هذا السلاح في حصاره لأهل الطائف، حيث أمر جنده بنشر الحسك الشائك حول حصن ثقيف.

وهكذا لم تُفد كل هذه المحاولات الجادة المبتكرة في نقب الحصن والدخول إليه.

بساتين الطائف:

وفي محاولة لإضعاف معنويات ثقيف، شرع المسلمون في حرق بساتين نخيلهم وعنبهم[2].

وكانت الطائف مشهورة بزروعها وكرومها، وكانت تمثل ثروة عظيمة لأهلها، فلما رأى المشركون أن المسلمين جادون، أرسلوا إلى رسول الله ﷺ مع أبي سفيان بن حرب، والمغيرة بن شعبة، أنه إن شاء فليأخذه لنفسه، أو ليدعه لله وللرحم، وكان رسول الله ﷺ عطوفًا رحيمًا، فتركه لهم [3].

---

(1) السيرة لمهدي رزق الله، ص 595.

(2) الصلابي، ص 785-786.

(3) السيرة لأبي شهبة، ج2، ص477.

أيما عبد نزل من الحصن فهو حر:

وأمر رسول الله ﷺ من يؤذن في ثقيف: «أيما عبد نزل من الحصن وخرج إلينا فهو حر»، فنزل إليهم ثلاثة وعشرون بعد أن تسوروا الحصن، منهم نُفيع بن مسروح الحبشي (وكان عبدًا للحارث بن كلدة فتبناه، فمن ثم ذكر في نسبه أنه نفيع بن الحارث) تدلى من الحصن ببكرة مستديرة يستقى عليها، فكناه رسول الله ﷺ (أبا بكرة)، ومنهم: المنبعث، ويحنسى، ووردان في رهط من رقيق ثقيف، فأسلموا، فأعتقهم رسول الله ﷺ، ودفع كل واحد منهم إلى رجل من المسلمين يعوله ويحمله.

فلما أسلم أهل الطائف بعد ذلك وقدموا على رسول الله ﷺ، قالوا: يا رسول الله: رد علينا رقيقنا، فقال: «لا، أولئك عتقاء الله» (1).

الرحيل عن الطائف:

ولما طال الحصار، واستعصى الحصن، وأصيب المسلمون بما أصيبوا من رشق النبال وبسكك الحديد المحماة، استشار رسول الله ﷺ نوفل بن معاوية الديلي، فقال: يا رسول الله، هم ثعلب في جحر، إن أقمت عليه أخذته، وإن تركته لم يضرك (2).

وكان رسول الله ﷺ قد رأى رؤيا قصها على صاحبه أبي بكر رَضِيَ اللَّهُ عَنْهُ. قال ابن إسحاق: وقد بلغني أن رسول الله ﷺ قال لأبي بكر الصديق وهو محاصر ثقيفًا: «يا أبا بكر، إني رأيت أني أهديت لي قبعة مملوءة زبدًا، فنقرها ديك، فأهراق ما فيها». فقال أبو بكر: ما أظن أن تدرك منهم (أي: ثقيف) يومك هذا ما تريد، فقال رسول الله ﷺ: «وأنا لا أرى ذلك».

فأمر رسول الله ﷺ عمر بن الخطاب رَضِيَ اللَّهُ عَنْهُ أن يُؤذن في الناس بالرحيل، فعظم ذلك عليهم وضجوا، وقالوا: نرحل ولم يفتح علينا الطائف؟! فأمرهم رسول الله ﷺ أن يواصلوا القتال في اليوم التالي، وقال لهم: «فاغدوا على القتال»، فخرجوا مشمرين نشطين، غير أن سكك الحديد المحماة، والسهام ومطر النبل عليهم، أدت إلى أن أثخنتهم

---

(1) المصدر السابق، ص 476، والبداية والنهاية، ج1، ص 348.

(2) الرحيق المختوم، ص 419.

الجراح. فقال رسول الله: «إنا قافلون غدًا إن شاء الله»، فسُروا بذلك وأذعنوا، وجعلوا يرحلون، ورسول ﷺ يضحك [1].

فلما ارتحلوا قال: «قولوا آيبون، تائبون، عابدون لربنا حامدون» [2]، وقيل:

يا رسول الله: ادع الله على ثقيف، فقال: «اللّٰهم اهد ثقيفًا وائت بهم» [3].

فلم يطل بعدها بقاء ثقيف على شركها، فما هي إلا شهور قلائل حتى أرسلوا وفدهم إلى المدينة، يخبر النبي ﷺ برغبتهم في الإسلام وانفساح قلوبهم له [4]. ولو أن رسول الله ﷺ أقام على حصارهم لاشتد بهم الجهد، ولاضطروا بعد القتال إلى الاستسلام، ولكن الحكمة الإلهية اقتضت أن يؤخر الفتح عامئذ؛ لئلا يستأصلوا قتلًا وأسرًا، وقد كان رسول الله ﷺ - كما هو دأبه - حريصًا على عدم الإسراف في القتل وإراقة الدماء، كما كان حريصًا على هدايتهم [5].

ولقد تباينت الروايات حول المدة التي قضاها الرسول ﷺ في حصار الطائف. فيرى عروة وابن عقبة أنها كانت بضع عشرة ليلة، وفي رواية عن عروة أنها كانت نصف شهر. ويذكر ابن إسحاق مرة أنها بضع وعشرون ليلة، ومرة أنها ثلاثون ليلة أو قريب من ذلك. ويذكر ابن هشام أنها سبع عشرة ليلة، ويروي مسلم أنها أربعون يومًا [6].

واستمرار حصار الطائف لهذه المدة كان درسًا جديدًا للمسلمين؛ لأن نصر حنين يغري، فلم يكن بُد لهم أن يتحملوا مسئولية الحصار الطويل، ويجربوا الالتزام والانضباط، هذا من جهة، ومن جهة ثانية لابد أن يشعروا أن النصر ليس دائمًا حليف المسلمين، فلئن لم يتأخر نصر حنين ساعات، فنصر الطائف لم يتم إلا بعد شهور [7].

---

(1) انظر: صحيح مسلم، كتاب الجهاد والسير، باب غزوة حنين (3/ 1403)، رقم (1778).
(2) زاد المعاد (3/ 497).
(3) زاد المعاد (3/ 497).
(4) فقه السيرة للغزالي، ص 432.
(5) السيرة لأبي شهبة، ج2، ص 477.
(6) السيرة لمهدي رزق الله، ص 596.
(7) المنهج الحركي، القسم الثالث، ص164.

شهداء يوم الطائف:

قال ابن إسحاق: وهذه تسمية من استشهد من المسلمين مع رسول الله ﷺ يوم الطائف من قريش، ثم من بني أمية بن عبد شمس: سعيد بن سعيد بن العاص بن أمية، وعرفطة بن جناب، حليف لبني أمية بن الأسد بن الغوث.

قال ابن هشام: ويقال: ابن حباب.

قال ابن إسحاق: ومن بني تيم بن مرة: عبد الله بن أبي بكر الصديق، رمي بسهم، فمات منه بالمدينة بعد وفاة رسول الله ﷺ.

ومن بني مخزوم: عبد الله بن أبي أمية بن المغيرة، من رمية رميها يومئذ.

ومن بني عدي بن كعب: عبد الله بن عامر بن ربيعة، حليف لهم.

ومن بني سهم بن عمرو: السائب بن الحارث بن قيس بن عدي، وأخوه عبد الله بن الحارث.

ومن بني سعد بن ليث: جليحة بن عبد الله.

واستشهد من الأنصار: من بني سلمة: ثابت بن الجذع.

ومن بني مازن بن النجار: الحارث بن سهل بن أبي صعصعة.

ومن بني ساعدة: المنذر بن عبد الله.

ومن الأوس: رقيم بن ثابت بن ثعلبة بن زيد بن لوذان بن معاوية.

فجميع من استشهد بالطائف من أصحاب رسول الله ﷺ اثنا عشر رجلًا، سبعة من قريش، وأربعة من الأنصار، ورجل من بني ليث.

المبحث السادس
قسمة الغنائم

عاد رسول الله ﷺ إلى (الجعرانة)، حيث ترك غنائم حنين قبل أن يتحرك لحصار الطائف. وعندما عاد لم يقسم هذه الغنائم سوى بعض الفضة، واستأنى بها بضع عشرة ليلة؛ آملًا في قدوم هوازن عليه ودخولها في الإسلام [1].

ولكنه لم يجئه أحد، فبدأ بقسمة المال؛ ليُسكت المتطلعين من رؤساء القبائل وأشراف مكة والمؤلفة قلوبهم والطلقاء [2].

إعطاء أشراف مكة والمؤلفة قلوبهم:

رأى رسول الله ﷺ أن يتألف زعماء قريش وغطفان وتميم بالغنائم؛ تألیفًا لقلوبهم، وترغيبًا لهم في الإسلام .. قال المقريزي [3]:

وانتهى إلى الجعرَّانة ليلة الخميس لخمس خلون من ذي القعدة، والسبي والغنائم بها محبوسة، وقد اتخذ السبي حظائر يستظلون بها من الشمس، وكانوا ستة آلاف، والإبل أربعة وعشرين ألف بعير، والغنم أربعين ألفًا، وقيل أكثر، فأمر بُسْرَ بن سفيان الخزاعي أن يقدم مكة، فيشتري للسبي ثيابًا يكسوهم، وكساهم كلهم، واستأنى رسول الله بالسبي، فلما رجع إلى الجعرانة بدأ بالأموال فقسمها، فأعطى المؤلفة قلوبهم أول الناس، وكان مما غنم أربعة آلاف أوقية فضة، فجاء أبو سفيان بن حرب والفضة بين يديه، فقال: يا رسول الله أصبحت أكثر قريش مالًا، فتبسم ﷺ، فقال أبو سفيان: أعطني من هذا يا رسول الله، قال: يا بلال، زن لأبي سفيان أربعين أوقية، وأعطوه مائة من الإبل. قال: ابني يزيد، قال: زنوا ليزيد أربعين أوقية، وأعطوه مائة من الإبل. قال: ابني معاوية يا رسول الله، قال: زن له يا بلال أربعين أوقية، وأعطوه مائة من الإبل. قال أبو سفيان: إنك

---

(1) السيرة لمهدي رزق الله، ص 596 – 597.

(2) انظر الرحيق المختوم، ص419.

(3) إمتاع الأسماع، ج1، ص422-425.

لكريم، فداك أبي وأمي، والله لقد حاربتك فنعم المحارب كنت، ثم سالمتك فنعم المسالم أنت، جزاك الله خيرًا. وسأل حكيم بن حزام يومئذ مائة من الإبل، فأعطاه، ثم سأل مائة فأعطاه، ثم سأل مائة فأعطاه، ثم قال: «يا حكيم بن حزام، إن هذا المال خضرة حُلوة، فمن أخذه بسخاوة نفس بورك له فيه، ومن أخذه بإشراف نفس لم يبارك له فيه، وكان كالذي يأكل ولا يشبع، واليد العليا خير من السفلى، وابدأ بمن تعول». فأخذ حكيم المائة الأولى ثم ترك ما عداها.

وأعطى النضير بن الحارث - أخا النضر بن الحارث - مائة من الإبل، وأعطى أسيد ابن جارية حليف بني زهرة مائة من الإبل، وأعطى العلاء بن جار خمسين بعيرًا، وأعطى الحارث بن هشام مائة من الإبل، وصفوان بن أمية مائة بعير. وفي صحيح مسلم عن الزهري، أن رسول الله ﷺ أعطى صفوان بن أمية ثلاثمائة من الإبل، ويقال إنه طاف مع النبي ﷺ وهو يتصفح الغنائم، إذ مر بشعب مما أفاء الله عليه، فيه غنم وإبل ورعاؤها مملوءًا، فأعجب صفوان، وجعل ينظر إليه، فقال رسول الله ﷺ: «أعجبك يا أبا وهب هذا الشِّعب؟». قال: نعم. قال: «هو لك وما فيه»، فقال: أشهد ما طابت نفس أحد بهذا قط إلا نبي، وأشهد أنك رسول الله.

وأعطى قيس بن عدي مائة من الإبل، وأعطى عيينة بن حصن الفزاري مائة من الإبل، وأعطى الأقرع بن حابس مائة من الإبل، وأعطى العباس بن مرداس السلمي دون المائة، فعاتب النبي ﷺ في شعر قاله، فقال رسول الله ﷺ: اقطعوا عني لسانه. فأعطوه مائة [1].

ذكر ابن هشام في (السيرة) ما قاله ابن مرداس من الشعر، معاتبًا به رسول الله ﷺ، ومستصغرًا ما أعطاه من الغنائم.

قال ابن هشام: وأعطى عباس بن مرداس أباعر، فسخطها، فعاتب فيها رسول الله ﷺ، فقال عباس بن مرداس يعاتب رسول الله ﷺ:

كانت نهابًا تلافيتها ... بكري على المهر في الأجرع

(1) انظر: المنهج الحركي، القسم الثالث، ص168.

وإيقــــاظي القـــــوم أن يرقــــدوا إذا هجـــــع النـــــاس لم أهجـــــع

فأصـبح نهبـي ونهـب [1] العبيـد [2] بــــــين عيينـــــــة والأقـــــــرع

وقـــد كنـــت في الحــــرب ذا تــــدرًا فلـــــم أعـــــط شــــيا ولم أمنــــع

إلا أفائـــــــــــل أعكيتهـــــــــــا عديــــــد قوائمهــــــا الأربــــــع

ومـــا كـــان حـــصن ولا حـــابس يفوقـــــان شــــيخي في المجتمــــع

ومـــا كنـــت دون امـــرئ مـــنهما ومـــــن تـــضع اليـــوم لا يرفـــع

وأورد ابن هشام [3] قائمة بأسماء تسعة وعشرين رجلًا من المؤلفة قلوبهم ممن أعطوا من غنائم حنين، ولم يحدد عدد الإبل التي نالها كل واحد منهم، وهناك من أوصل عددهم إلى سبعة وخمسين رجلًا [4].

كان رسول الله ﷺ يعلم أن بعض النفوس عبيد الإحسان، فتألفهم بذلك، وهو ضرب من ضروب السياسة الشرعية الحكيمة؛ ولهذا جعل الشارع الحكيم للمؤلفة قلوبهم سهمًا في الزكاة، ونعمًّا فعل الرسول ﷺ؛ فإن كثيرين ممن لم يسلموا قد أسلموا، وكثيرين ممن أسلموا ولم تشرب قلوبهم حب الإيمان قد صاروا بعدُ من أجلاء المسلمين، وأعظمهم نفعًا للإسلام [5]، وانخرطوا في الجهاد، إلا القليل جدًّا منهم، مثل عيينة بن حصن والأقرع بن حابس [6].

---

(1) **النهب:** النصيب.

(2) **العبيد:** فرسه.

(3) السيرة (4/192-194).

(4) السيرة لمهدي رزق الله، ص597.

(5) السيرة لأبي شهبة، ج2، ص482.

(6) السيرة لمهدي رزق الله، ص 598.

الأعراب:

وشاع في الناس أن محمدًا يعطي عطاء من لا يخشى الفقر، فازدحموا عليه؛ يبغون المزيد من المال، وأكب عليه الأعراب يقولون: يا رسول الله، اقسم علينا فيئنا، حتى ألجأوه إلى شجرة تعلق بها رداؤه، فالتفت إليهم قائلًا: «أعطوني ردائي أيها الناس، فوالله أن لو كان لكم بعدد شجر تهامة نعمًا لقسمته عليكم، ثم لا تجدونني بخيلًا ولا كذوبًا ولا جبانًا [1]، أيها الناس: والله ما لي من فيئكم إلا الخمس، والخمس مردود عليكم» [2].

وأدركه أعرابي، فجذبه جذبة شديدة، أثرت في عاتقه ﷺ؛ لخشونة الرداء الذي كان عليه، وقال: (مر لي من مال الله الذي عندك)، فالتفت إليه الرسول ﷺ فضحك، ثم أمر له بعطاء [3].

وروى مسلم في صحيحه، عن عبد الله بن مسعود، قال: فلما كان يوم حنين آثر رسول الله ﷺ ناسًا في القسمة، فأعطى الأقرع بن حابس مائة من الإبل، وأعطى عيينة مثل ذلك، وأعطى أناسًا من أشراف العرب، وآثرهم يومئذٍ في القسمة. فقال رجل: والله إن هذه القسمة ما عُدل فيها، وما أُريد فيها وجه الله. قال: فقلت: والله لأخبرن رسول الله ﷺ، قال: فأتيته، فأخبرته بما قال، قال: فتغير وجهه حتى كان كالصرف. ثم قال: «فمن يعدل إن لم يعدل الله ورسوله؟!»، قال: ثم قال: «يرحم الله موسى قد أوذي بأكثر من هذا فصبر»، قال: قلت: لا جرم لا أرفع إليه بعدها حديثًا [4].

قال الشيخ محمد الغزالي رَحِمَهُ ٱللَّهُ:

إن أعين القوم تكاد تخرج من المحاجر تطلعًا إلى الدنيا. وهؤلاء الأعراب والطلقاء والرؤساء، ما أغنوا عن الإسلام شيئًا في مآزقه الأولى؛ بل كانوا هم العقاب الصلدة التي

---

(1) البخاري، الفتح (12/ 238، حديث 3148).

(2) هذه الزيادة أخرجها أبو داود والنسائي عن عبد الله بن عمرو.

(3) البخاري، الفتح (12/238، حديث 3149).

(4) مسلم، كتاب الزكاة، باب إعطاء المؤلفة قلوبهم، حديث (1062).

اعترضت مسيله حتى تحطمت تحت معاول المؤمنين الراغبين في ثواب الآخرة، المؤثرين ما عند الله.

ولكنهم اليوم - بعدما أعلنوا إسلامهم - يبغون من الرسول أن يفتح عليهم خزائن الدنيا، فحلف لهم أنه ما يستبقي منها شيئًا لشخصه، ولو امتلك ملء هذه الأودية مالًا لوزعه عليهم.

والحق أن الرسول وسع بحلمه وكرمه مسالك بينة للطيش والجشع؛ في سبيل تألف هؤلاء الناس، وتحبيبهم في الإسلام.

ولو عاقبهم على جبنهم في «حنين» لنال منهم أي منال. والعجب أن هؤلاء الذين فرُّوا عند الفزع، هم الذين كثروا عند الطمع، وشاء النبي أن يلطف معهم، وينسى ماضيهم؛ تكرمًا وتأليفًا.

وماذا يصنع؟ إن في الدنيا أقوامًا كثيرين يقادون إلى الحق من بطونهم، لا من عقولهم فكما تهدى الدواب إلى طريقها بحزمة برسيم، تظل تمد إليها فمها حتى تدخل حظيرتها آمنة! فكذلك هذه الأصناف من البشر، تحتاج إلى فنون من الإغراء حتى تستأنس بالإيمان وتهش له [1].

ذو الخويصرة التميمي أصل الخوارج:

وجاء رجل نجدي من بني تميم يقال له: «ذو الخويصرة» متهمًا رسول الله ﷺ أنه لم يعدل حين أعطى الناس.

روى ابن إسحاق عن مقسم أبي القاسم، مولى عبد الله بن الحارث بن نوفل، قال: خرجت أنا وتليد بن كلاب الليثي، حتى أتينا عبد الله بن عمرو بن العاص وهو يطوف بالبيت معلقًا نعله بيده، فقلنا له:

(1) فقه السيرة، ص 426-427.

هل حضرت رسول الله ﷺ حين كلمه التميمي يوم حنين؟ قال: نعم، جاء رجل من بني تميم، يقال له ذو الخويصرة، فوقف عليه وهو يعطي الناس، فقال: يا محمد، قد رأيت ما صنعت في هذا اليوم، فقال رسول الله ﷺ: أجل، فكيف رأيت؟ فقال: لم أرك عدلت، فغضب النبي ﷺ، ثم قال: ويحك إذا لم يكن العدل عندي فعند من يكون؟!

فقال عمر بن الخطاب: يا رسول ألا أقتله؟ فقال: لا، دعه فإنه سيكون له شيعة يتعمقون في الدين، حتى يخرجوا منه كما يخرج السهم من الرمية، ينظر في النصل فلا يوجد شيء، ثم في القدح فلا يوجد شيء، ثم في الفوق فلا يوجد شيء، سبق الفرث والدم.

قال ابن عباس: ذو الخويصرة التميمي، هو حرقوص بن زهير أصل الخوارج، وروى الإمام مسلم في صحيحه في باب (ذكر الخوارج وصفاتهم)، عن جابر بن عبد الله رضي الله عنهما، قال: أتى رجل رسول الله ﷺ بالجعرانة، منصرفه من حنين، وفي ثوب بلال فضة، ورسول الله ﷺ يقبض منها ويعطي الناس، فقال: يا محمد، اعدل. قال: «ويلك ومن يعدل إذا لم أكن أعدل؟!، لقد خبت وخسرت إن لم أكن أعدل». فقال عمر بن الخطاب رضي الله عنه: دعني يا رسول الله فأقتل هذا المنافق. فقال: «معاذ الله أن يتحدث الناس أني أقتل أصحابي، إن هذا وأصحابه يقرءون القرآن لا يجاوز حناجرهم، يمرقون منه كما يمرق السهم من الرمية» [1].

قال أبو سعيد الخدري رضي الله عنه: «... أشهد أن عليًّا قتلهم، وأنا معه» [2].

تقسيم الغنائم بين المجاهدين:

ثم قسم رسول الله ﷺ الغنائم بين سائر المجاهدين، فأصاب الراجل أربعة من الإبل وأربعون شاة، وأصاب الفارس ثلاثة أمثال ذلك [3]. وقبل تقسيم هذه الغنائم أصدر النبي ﷺ أوامره ألا يأخذ أحد من الغنائم شيئًا بغير حق، ولو كان كبة الشعر والخيط والمخيط.

(1) صحيح مسلم، باب ذكر الخوارج وصفاتهم (2496).

(2) البخاري (9633).

(3) السيرة لأبي شهبة، ج2، ص482.

قال ابن هشام: وذكر زيد بن أسلم عن أبيه: أن عقيل بن أبي طالب دخل يوم حنين على امرأته فاطمة بنت شيبة بن ربيعة، وسيفه متلطخ دمًا، فقالت: إني قد عرفت أنك قد قاتلت، فماذا أصبت من غنائم المشركين؟ فقال: دونك هذه الإبرة تخيطين بها ثيابك، فدفعها إليها، فسمع منادي رسول الله ﷺ يقول: من أخذ شيئًا فليرده، حتى الخياط والمخيط.

فرجع عقيل، فقال: ما أرى إبرتك إلا قد ذهبت، فأخذها فألقاها في الغنائم.

وجاء رجل من الأنصار بكبة من خيوط شعر، فقال: يا رسول الله أخذتُ هذه الكبة أعمل بها بردعة بعير لي دبر. فقال رسول الله ﷺ: أما نصيبي منها فهو لك. قال: أما إذا بلغت هذا فلا حاجة لي بها، ثم طرحها من يده [1].

وفي هذا درس يحسن أن نستوعبه، فنستفيد منه التفريق بين المال العام والمال الخاص قبل توزيعه، مهما كان حجمه، ولو كان كبة الشعر والخيط والمخيط، والتساهل في التصرف فيه يقود إلى النار؛ «فإن الغلول يكون على أهله عارًا ونارًا وشنارًا يوم القيامة» [2].

لماذا أعطى رسول الله قومًا ومنع آخرين:

روى البخاري عن عمرو بن تغلب رَضِيَ اللَّهُ عَنْهُ، قال: أعطى رسول الله ﷺ قومًا ومنع آخرين، فكأنهم عتبوا عليه، فقال: «إني أعطي قومًا، أخاف هلعهم وجزعهم، وآكل قومًا إلى ما جعل الله في قلوبهم من الخير والغنى، منهم عمرو بن تغلب».

قال عمرو بن تغلب: فما أحب أن لي بكلمة رسول الله ﷺ حمر النعم.

وقال سعد بن أبي وقاص رَضِيَ اللَّهُ عَنْهُ: يا رسول أعطيت عيينة بن حصن والأقرع بن حابس مائة مائة، وتركت جعيل بن سراقة الضمري. فقال: «أما والذي نفسي بيده لجعيل ابن سراقة خير من طلاع الأرض كلها مثل عيينة والأقرع، ولكن أتألفهما ليسلما، ووكلت

(1) السيرة لابن هشام، ج4، ص492.

(2) المصدر السابق، ج4، ص492، والمنهج الحركي، القسم الثالث، ص171.

جعيل بن سراقة إلى إسلامه» [1]، فكانت هذه عند جعيل ﷺ تعدل مال الأرض كله. وبذلك نعلم أن رسول الله ﷺ قد جعل الأصل في توزيع المال مصلحة الدعوة والرسالة، فكسب به القلوب النافرة، ورد به النفوس الجامحة، وحرم صفه الأول من المهاجرين والأنصار، وهم قرة عينه، وذلك في ذات الله، وبما جعل الله في قلوبهم من الغنى، وإيثار مصلحة الدين ومكاسبه على مصالحهم ومكاسبهم. وكان ﷺ حريصًا أن يُعلمهم أن تقييمهم لا يكون بمقدار ما يأخذون من مغانم، ولكن بمقدار ما يعملون ويعطون ويؤثرون على أنفسهم. وأن المجاهد الخالص لربه، أعظم في ميزان الله من ملء الأرض من المتهافتين على الدنيا، الطامعين في المكاسب، المنطلقين من مصالحهم، لا من دينهم.

عتاب الأنصار:

كان الأنصار ممن وقعت عليهم مغارم هذه السياسة .. لقد حرموا جميعًا أعطية حنين، وهم الذين نودوا وقت الشدة، فطاروا يقاتلون مع رسول الله ﷺ، حتى تبدل الفرار انتصارًا، وها هم أولاء يرون أيدي الفارين ملأى، وأما هم فلم يمنحوا شيئًا قط [2].

وقد وجد بعض الأنصار في نفوسهم من ذلك، كما روى أنس بن مالك رَضِيَ اللَّهُ عَنْهُ، فقال: (إن ناسًا من الأنصار قالوا يوم حنين: أفاء الله على رسوله من أموال هوازن ما أفاء، فطفق رسول الله ﷺ يعطي رجالًا من قريش المائة من الإبل، فقالوا: يغفر الله لرسول الله، يعطي قريشًا ويتركنا، وسيوفنا تقطر من دمائهم ...) [3] .

فبلغ ذلك رسول الله ﷺ، فأرسل إلى الأنصار فاجتمعوا في مكان أُعد لهم، ولم يدع معهم أحدًا غيرهم، فلما اجتمعوا قام فيهم خطيبًا، ودار بينه وبينهم حوارًا لم تسمع البشرية بمثله في الرقة واسترضاء النفوس، بلا خداع أو مداهنة؛ بل بصدق يضرب على أوتار القلوب، ويهز المشاعر، ويستولي على الوجدان.

---

(1) المقريزي: إمتاع الأسماع، ج1، ص425.

(2) الرحيق المختوم، ص 420، وفقه السيرة للغزالي، ص428.

(3) صحيح مسلم، كتاب الزكاة، باب إعطاء المؤلفة قلوبهم (134/2)، رقم (1509).

عن أبي سعيد الخدري رَضِيَ اللَّهُ عَنْهُ، قال: لما أصاب رسول الله الغنائم يوم حنين، وقسم للمتألفين من قريش وسائر العرب ما قسم، ولم يكن في الأنصار شيء منها، قليل ولا كثير، وجد هذا الحي من الأنصار في أنفسهم، حتى قال قائلهم: لقي والله رسول الله قومه. فمشى (سعد بن عبادة) إلى رسول الله، فقال: يا رسول الله إن هذا الحي من الأنصار وجدوا عليك في أنفسهم. قال: فيم؟ قال فيما كان من قمسك هذه الغنائم في قومك وفي سائر العرب، ولم يكن فيهم من ذلك شيء.

قال رسول الله: فأين أنت من ذلك يا سعد؟ قال: ما أنا إلا امرؤ من قومي. فقال رسول الله: اجمع لي قومك في هذه الحظيرة، فإن اجتمعوا فأعلمني!

فخرج «سعد»، فصرخ فيهم، فجمعهم في تلك الحظيرة .. حتى إذا لم يبق من الأنصار أحد إلا اجتمع له أتاه، فقال: يا رسول الله اجتمع لك هذا الحي من الأنصار حيث أمرتني أن أجمعهم.

فخرج رسول الله، فقام فيهم خطيبًا، فحمد الله وأثنى عليه بما هو أهله، ثم قال: يا معشر الأنصار، ألم آتكم ضلالًا فهداكم الله، وعالة فأغناكم الله، وأعداء فألف الله بين قلوبكم؟! قالوا: بلى! قال رسول الله: ألا تجيبون يا معشر الأنصار؟

قالوا: وما نقول يا رسول الله وبماذا نجيبك؟ المنُّ لله ورسوله.

قال: والله لو شئتم لقلتم فصَدقتم وصُدِّقتم: جئتنا طريدًا فآويناك، وعائلًا فآسيناك وخائفًا فأمناك، ومخذولًا فنصرناك ..

فقالوا: المنّ لله ورسوله.

فقال: أوجدتم في نفوسكم يا معشر الأنصار في لعاعة من الدنيا، تألفت بها قومًا أسلموا، ووكلتكم إلى ما قسم الله لكم من الإسلام؟! أفلا ترضون يا معشر الأنصار أن يذهب الناس إلى رحالهم بالشاة والبعير، وتذهبون برسول الله إلى رحالكم؟

فوالذي نفسي بيده، لو أن الناس سلكوا شعبًا وسلكت الأنصار شعبًا، لسلكت شعب الأنصار، ولولا الهجرة لكنت امرأ من الأنصار.

اللّٰهم ارحم الأنصار، وأبناء الأنصار، وأبناء أبناء الأنصار.

فبكى القوم حتى أخضلوا لحاهم. وقالوا: رضينا بالله ربًّا، ورسوله قسمًا .. ثم انصرف، وتفرقوا[1].

قال الشيخ محمد الغزالي رَحِمَهُ ٱللَّهُ:

والأنصار - في تاريخ الدعوات - مُثل فريدة للرجال الذين تقوم بهم الرسالات العظمى، حتى إذا استوت على سوقها، وتجاوزت أيام محنتها ومؤنتها، وتدلت ثمارها وحلا جناها، جاءت أيد غير أيديهم، فقطعت ما تشتهي، ولم تكتف بذلك! بل لطمت أيدي الغارسين، حتى لا تلقط من الثمار الساقطة قليلًا ولا كثيرًا!!

ولا نقول ذلك تعليقًا على توزيع الغنائم في هذا المقام، فقد اتضح وجه الرشد في هذه القسمة الحصينة.

ولكنا نذكر في مناقب الأنصار، وافتراض ترفعهم عن الدنيا في سبيل الدين، وتأليف الناس عليه، أن شئون الحكم ابتعدت عنهم، واحتازها غيرهم وهم لها أكفاء. فلم تمض ثلاثون سنة حتى كانت في أيدي الطلقاء.

ولا ريبة في أن أولئك المتجردين لله، سوف يلقون جزاءهم الأوفى، وأن شأن الدنيا أنزل قدرًا من أن يأسى عليه رجل العقيدة [2].

المبحث السابع
قدوم وفد هوازن ورد السبي

بعد توزيع الغنائم قدم وفد هوازن مسلمًا، وهم أربعة عشر رجلًا، ورأسهم زهير بن صرد، وفيهم أبو برقان عم رسول الله ﷺ من الرضاعة، فقد كان رسول الله ﷺ مسترضعًا عندهم في ديار بني سعد بن بكر (وهم من هوازن). وسألوه أن يمن عليهم

---

(1) رواه أحمد (3/76-77)، وابن هشام (2/310-311)، وقال الألباني في فقه السيرة: حديث صحيح، والقصة في البخاري (8/38-42) بنحوها مختصرًا.

(2) فقه السيرة، ص430.

بالسبي والأموال[1] ، وأدلوا إليه بكلام ترق له القلوب [2]. وكان رسول الله ﷺ أعرف الناس بالجميل، وأرحم الناس بكليم القلب، وكسير الجناح ، فدبر لهم حتى استعادوا سباياهم. روى ابن إسحاق: عن عبد الله بن عمرو: أن وفد هوازن أتوا رسول الله ﷺ، وقد أسلموا، فقالوا: يا رسول الله إنا أصل وعشيرة، وقد أصابنا من البلاء ما لم يخف عليك، فامنن علينا، منَّ الله عليك، قال: وقام رجل من هوازن، ثم أحد بني سعد بن بكر، يقال له زهير، يكنى أبا صرد، فقال: يا رسول الله إنما في الحظائر عماتك وخالاتك وحواضنك اللاتي كن يكفلنك، ولو أنا ملحنا[3] للحارث بن أبي شمر أو للنعمان بن المنذر، ثم نزل منا بمثل الذي نزلت به، رجونا عطفه وعائدته علينا، وأنت خير المكفولين.

قال: فقال رسول الله ﷺ: أبناؤكم ونساؤكم أحب إليكم أم أموالكم؟

فقالوا: يا رسول الله خيرتنا بين أموالنا وأحسابنا، بل ترد إلينا نساءنا وأبناءنا، فهو أحب إلينا، فقال لهم: أما ما كان لي ولبني عبد المطلب فهو لكم، وإذا ما أن صليت الظهر بالناس فقوموا: فقولوا إنا نستشفع برسول الله إلى المسلمين، وبالمسلمين إلى رسول الله في أبنائنا ونسائنا، فسأعطيكم عند ذلك، وأسأل لكم.

فلما صلى رسول الله ﷺ بالناس الظهر، قاموا فتكلموا بالذي أمرهم به، فقال رسول الله ﷺ: وأما ما كان لي ولبني عبد المطلب فهو لكم.

فقال المهاجرون: وما كان لنا فهو لرسول الله ﷺ.

وقالت الأنصار: وما كان لنا فهو لرسول الله ﷺ، فقال الأقرع بن حابس: أما أنا وبنو تميم فلا. وقال عيينة بن حصن، أما أنا وبنو فزارة فلا. وقال عباس بن مرداس: أما أنا وبنو سليم فلا.

فقالت بنو سليم: بلى ما كان لنا فهو لرسول الله ﷺ.

---

(1) الرحيق المختوم، ص 421.

(2) أبو شهبة: السيرة، ج2، ص479.

(3) **ملحنا:** أرضعنا.

قال: يقول: عباس بن مرداس لبني سليم: وهنتموني.

فقال رسول الله ﷺ: أما من تمسك منكم بحقه من هذا السبي، فله بكل إنسان ست فرائض (أنصبة) من أول سبي أصيبه (في أول قتال يكون)، فردوا إلى الناس أبناءهم ونساءهم [1].

وفي رواية عند البخاري: فخطب رسول الله ﷺ في المؤمنين، فقال: «إن إخوانكم هؤلاء جاءونا تائبين، وإني قد رأيت أن أرد إليهم سبيهم، فمن أحب منكم أن يطيب ذلك فليفعل، ومن أحب منكم أن يكون على حظه حتى نعطيه إياه من أول ما يفيء الله علينا فليفعل»، فقال الناس: قد طيبنا ذلك يا رسول الله. فقال لهم: «إنا لا ندري من أذن منكم في ذلك ممن لم يأذن، فارجعوا حتى يرفع إلينا عرفاؤكم أمركم»، فرجع الناس، فكلمهم عرفاؤهم، ثم رجعوا إلى النبي ﷺ فأخبروه أنهم طيبوا وأذنوا [2].

مواقف متباينة:

تباينت مواقف الناس من حث رسول الله ﷺ لهم على رد السبايا من النساء والأبناء .. فبينما سارع المهاجرون والأنصار إلى رد السبايا، وقالوا: (ما كان لنا فهو لرسول الله)، تمنع أناس من المؤلفة قلوبهم، منهم الأقرع بن حابس، وعيينة بن حصن، والعباس بن مرداس.

ونسوق هنا موقفين، يتضح بهما هذا التباين:

فعلي بن أبي طالب وعثمان بن عفان وعبد الله بن عمر يشتدون لرد الشابات اليافعات، بينما يمتنع عيينة بن حصن عن رد عجوز أخذها إلى أن يزهده فيها زعيم وفد هوازن زهير أبو صرد، فيردها أملًا في ستة أنصبة من الغنائم يصيبها في المستقبل، كما وعدهم رسول الله ﷺ.

- **قال ابن إسحاق:** وحدثني أبو وجزة يزيد بن عبيد السعدي، أن رسول الله ﷺ أعطى علي بن أبي طالب رضي الله عنه جارية يقال لها ريطة بنت هلال بن حيان بن عميرة بن

---

(1) السيرة لابن هشام، ج4، ص490.

(2) البخاري، كتاب المغازي، رقم (4319).

هلال بن ناصرة بن قصية بن نصر بن سعد بن بكر، وأعطى عثمان بن عفان جارية، يقال لها زينب بنت حيان بن عمرو بن حيان، وأعطى عمر بن الخطاب جارية، فوهبها لعبد الله ابن عمر ابنه.

قال ابن إسحاق: فحدثني نافع مولى عبد الله بن عمر، عن عبد الله بن عمر، قال: بعثت بها إلى أخوالي من بني جمح؛ ليصلحوا لي منها ويهيئوها، حتى أطوف بالبيت، ثم آتيهم، وأنا أريد أن أصيبها إذا رجعت إليها.

قال: فخرجت من المسجد حين فرغت، فإذا الناس يشتدون، فقلت: ما شأنكم؟ قالوا: رد علينا رسول الله ﷺ نساءنا وأبناءنا، فقلت: تلكم صاحبتكم في بني جمح، فاذهبوا فخذوها، فذهبوا إليها فأخذوها.

وقال ابن إسحاق: وأما عيينة بن حصن فأخذ عجوزًا من عجائز هوازن، وقال حين أخذها: أرى عجوزًا إني لأحب لها في الحي، وعسى أن يعظم فداؤها، فلما رد رسول الله ﷺ السبايا بست فرائض، أبى أن يردها، فقال له زهير أبو صرد: خذها عنك، فوالله ما فوها ببارد، ولا ثديها بناهد، ولا بطنها بوالد، ولا زوجها بواجد، ولا درها بماكد، فردها بست فرائض حين قال له زهير ما قال، فزعموا أن عيينة لقي الأقرع بن حابس، فشكا إليه ذلك، فقال: إنك والله ما أخذتها بيضاء غزيرة، ولا نصفًا وثيرة.

إسلام مالك بن عوف:

وسأل الرسول ﷺ وفد هوازن عن مالك بن عوف، وطلب منهم أن يخبروه إن أتاه مسلمًا رد عليه أهله وماله، ومنحه مائة من الإبل، وعندما أخبروه بذلك احتال في الخروج من الطائف؛ خشية أن يقتله قومه ثقيف، ولحق بالرسول ﷺ بالجِعْرَانة أو بمكة، فأعطاه الرسول ﷺ ما وعد به، وأسلم، وحسن إسلامه، فاستعمله الرسول ﷺ على من أسلم من قومه، فكان يقاتل بهم ثقيفًا (1).

قال ابن إسحاق: (... وقال رسول الله ﷺ لوفد هوازن، وسألهم عن مالك بن عوف ما فعل؟ فقالوا: هو بالطائف مع ثقيف. فقال رسول الله ﷺ: أخبروا مالكًا أنه إن

(1) انظر: السيرة لمهدي رزق الله، ص600.

أتاني مسلمًا رددت عليه أهله وماله، وأعطيته مائة من الإبل. فأتى مالك بذلك، فخرج إليه من الطائف، وقد كان مالك خاف ثقيفًا على نفسه أن يعلموا أن رسول الله ﷺ قال له ما قال، فيحبسوه. فأمر براحلته فهيئت له. وأمر بفرس له، فأتي به إلى الطائف، فخرج ليلًا، فجلس على فرسه، فركضه حتى أتى راحلته حيث أمر بها أن تحبس. فركبها فلحق برسول الله ﷺ، فأدركه بالجعرانة، فرد عليه أهله وماله، وأعطاه مائة من الإبل، وأسلم فحسن إسلامه. فقال مالك بن عوف حين أسلم:

ما إن رأيت ولا سمعت بمثله ... في الناس كلهم بمثل محمد

أوفى وأعطى للجزيل إذا اجتُدى ... ومتى تشأ يُخبرك عما في غد

وإذا الكتيبة عردَّت أنيابها ... بالسِّمهري وضرب كل مهند

فكأنه ليث على أشباله ... وسْط الهباءة خادُرُ في مرصد

فاستعمله رسول الله ﷺ على من أسلم من قومه، وتلك القبائل: ثُمالة وسِلَمةُ وفهم، فكان يقاتل بهم ثقيفًا، لا يخرج لهم سرح إلا أغار عليه، حتى ضيقَّ عليهم، فقال أبو محجن:

هابت الأعداء جانبنا ... ثم تغزونا بني سلمة

وأتانا مالك بهم ... ناقضًا للعهد والحرُمة

وأتونا في منازلنا ... ولقد كنا أولي نقمة [1]

الشيماء أخت النبي ﷺ:

كان في السبايا الشيماء بنت الحارث بن عبد العزى، أخت رسول الله من الرضاع، وكان بعض المسلمين قد عنف عليها، فقالت: والله إني لأخت صاحبكم من الرضاعة،

(1) السيرة لابن هشام، ج4، ص488-491.

فلم يصدقوها حتى أتوا بها رسول الله ﷺ، فتعرف عليها، ومتعها وأعطاها وردها إلى قومها [1].

جاء في «البداية والنهاية» لابن كثير [2]:

قال ابن إسحاق: وحدثني بعض بني سعد بن بكر، أن رسول الله ﷺ قال يوم هوازن: «إن قدرتم على نجاد - رجل من بني سعد بن بكر - فلا يفلتنكم». وكان قد أحدث حدثًا.

فلما ظفر به المسلمون ساقوه وأهله، وساقوا معه الشيماء بنت الحارث بن عبد العزى، أخت رسول الله ﷺ من الرضاعة.

قال: فعنفوا عليها في السوق، فقالت للمسلمين: تعلمون والله إني لأخت صاحبكم من الرضاعة؟ فلم يصدقوها حتى أتوا بها رسول الله ﷺ.

قال ابن إسحاق: فلما انتهى بها إلى رسول الله ﷺ قالت: يا رسول الله إني أختك من الرضاعة.

قال: «وما علامة ذلك؟»

قالت: عضة عضضتنيها في ظهري وأنا متوركتك.

قال: فعرف رسول ﷺ العلامة، فبسط لها رداءه، فأجلسها عليه وخيرها، وقال: «إن أحببت فعندي محببة مكرمة، وإن أحببت أن أمتعك وترجعي إلى قومك فعلت؟».

قالت: بل تمتعني وتردني إلى قومي، فمتعها رسول الله ﷺ وردها إلى قومها، فزعمت بنو سعد أنه أعطاها غلامًا يقال له مكحول وجارية، فزوجت أحدهما الآخر، فلم يزل فيهم من نسلهما بقية.

---

(1) انظر: السيرة لأبي شهبة، ج3، ص480.
(2) البداية والنهاية 418/4.

وروى البيهقي، من حديث الحكم بن عبد الملك، عن قتادة، قال: لما كان يوم فتح هوازن، جاءت جارية إلى رسول الله ﷺ، فقالت: يا رسول الله أنا أختك، أنا شيماء بنت الحارث.

فقال لها: «إن تكوني صادقة فإن بك مني أثر لا يبلى».

قال: فكشفت عن عضدها، فقالت: نعم يا رسول الله، حملتك وأنت صغير فعضضتني هذه العضة.

قال: فبسط لها رسول الله ﷺ رداءه، ثم قال: «سلي تعطي، واشفعي تشفعي».

تعقيب:

ماذا كان سيفيد الإسلام من هذه المعركة إذا كان الحقد والكراهية والكفر هو الذي يسود في صفوف هوازن؟ .. إن النصر العسكري يهم القائد العسكري فقط، أما صاحب الرسالة ﷺ، فالنصر بالنسبة له هو في دخول تجمعات جديدة في الإسلام، وفتح مغاليق هذه النفوس؛ لتجد الرحمة والملاذ والأمن في ظل الإسلام. وهذا ما كان يهم رسول الله ﷺ من المعارك، ومن النصر العسكري؛ لأن هذا يعني أن فصائل جديدة تنضم إلى الإسلام ولا ترتد عنه. وهذا هو وفد هوازن، أربعة عشر رجلًا من قادتهم جاءوا إلى رسول الله ﷺ مسلمين، وكان بالإمكان أن ينضم إلى الصف الإسلامي هذا الوفد فقط؛ لأن الأوان قد فات، وتم توزيع السبايا على المسلمين، وهو حق مكتسب لهم. فكيف يفعل رسول الله ﷺ معهم؟ إنه القائد الفذ الذي لم تشهد البشرية مثيلًا له ولن تشهد. إنه يفكر في أن ينتزع هذه السبايا من اثني عشر ألف مقاتل، ومثل هذا الأمر من خلال النص الشرعي، قد يدفع الجيش كله إلى الثورة عليه. ولو صمت الجيش لصمت على مضض، وكتم على ألم وتوتر. فكيف استطاع ﷺ أن يستعيد هذه السبابا من الجيش، والجيش هانئ راضٍ، يتسابق على التخلي عنهن؟ إنها عظمة النبوة ولا شك، وهي - بالتالي - درس لكل قيادة في الأرض، أن تحقق أهدافها من خلال استخراج كل ما في النفس الإنسانية من خير ونبل، ولو كان قابعًا في أعمق أعماق هؤلاء الناس، وأن يتمكن الرسول ﷺ من استعادة السبايا من السابقين الأولين من المهاجرين والأنصار، من أصحاب الكتيبة الخضراء، من الذين أعادوا بثباتهم النصر من جديد للجيش المسلم، من الذين

استحقوا بجدارة هذه السبايا .. أن يسترد هذه السبايا من المسلمين الجدد الذين مرَّ على إسلامهم سنة ونيفًا، ولا يزالون يتحركون من خلال الرغبة الجامحة في الغنيمة. هذه هي عظمة المعاملة النبوية في فقه هذه النفوس، ولم يهدد ﷺ بسلطة، ولم يلوِّح بعصا، إنما كانت الخطوة الأولى من خلال الأريحية، والثقة، وحصر ثقته بأهله بني عبد المطلب. وبذلك خط منطلقًا لتيار كبير في الجيش أن يحذو حذوه، وكان لهذا الخط حدود، ما أمكن له أن يستوعب الجيش كله، فلجأ ﷺ إلى الخط الثاني، خط الترغيب بالعوض عن هذه السبايا. وتمكن ﷺ بهذا الخط أن يستوعب بقية الجيش حتى العجوز الشمطاء التي كانت من نصيب عيينة بن حصن، وألحَّ في الاحتفاظ بها. وترك لزعيم وفد هوازن أن يهز عيينة بن حصن بقوله له: خذها عنك، فوالله ما فوها ببارد ولا ثديها بناهد، ولا بطنها بوالد، ولا زوجها بواجد، ولا درها بماكد [1]، فردها بست فرائض. وعلى النهج نفسه، أمكن جلب قائد هوازن الذي استعصى في ثقيف، فأرسل إليه يدعوه إلى الإسلام، وسيعطيه أهله وماله ومائة من الإبل، وكان هذا العرض السخي كفيلًا بأن يستجيب مالك للإسلام. وليست استجابة سلبية فقط، بحيث يركن إلى ماله وإبله وأهله؛ بل استجابة فاعلة إيجابية، ارتضى أن يغزو ثقيفًا، الذين كان بحمايتهم، وكانوا معه في المعركة ضد محمد رسول الله ﷺ [2].

المبحث الثامن
النبي ﷺ يعتمر من الجعرانة

لما فرغ رسول الله ﷺ من أمر الغنائم في الجعرانة، أحرم والمسلمون معه، وأهلَّ معتمرًا، وأمر ببقايا الفيء، فسبقت إلى مجنة، فحبست بها، وهي بناحية مر الظهران. قال ابن كثير: والظاهر أنه ﷺ إنما استبقى بعض المغنم ليتألف به من يلقاه من الأعراب فيما بين مكة والمدينة [3].

ودخل ﷺ مكة ملبيًا بعمرة، فطاف وسعى وحلق وتحلل.

---

(1) السيرة لابن هشام، ج4، ص 490.

(2) المنهج الحركي للغضبان، ص 166-167، القسم الثالث، بتصرف.

(3) البداية والنهاية 4/ 422.

قال أنس رَضِيَ اللَّهُ عَنْهُ: اعتمر رسول الله ﷺ أربع عُمَرٍ، كلهن في ذي القعدة، إلا التي كانت مع حجته: عمرة من الحديبية في ذي القعدة، وعمرة من العام المقبل في ذي القعدة، وعمرة من الجعرانة، حيث قسم غنائم حنين في ذي القعدة، وعمرة مع حجته [1].

وروى الإمام أحمد عن مخرش الكعبي، أن رسول الله ﷺ خرج من الجعرانة ليلًا حتى أمسى معتمرًا، فدخل مكة ليلًا يقضي عمرته، ثم خرج من تحت ليلته، فأصبح بالجعرانة كبائت، حتى إذا زالت الشمس خرج من الجعرانة في بطن (سرف)، حتى جاء مع الطريق (طريق المدينة) بسرف.

قال مخرش: فلذلك خفيت عمرته على كثير من الناس.

وروى البخاري عن عطاء بن صفوان بن يعلى بن أمية أن يعلى رَضِيَ اللَّهُ عَنْهُ كان يقول:

ليتني أرى رسول الله ﷺ حين يُنَزَّل عليه (أي حين يوحى له)، قال: فبينا رسول الله ﷺ بالجعرانة وعليه ثوب قد أظل به معه، فيه ناس من أصحابه، إذ جاءه أعرابي عليه جبة متضمخ بطيب، فقال: يا رسول الله، كيف ترى في رجل أحرم بعمرة في جبة بعدما تضمخ بالطيب؟، فأشار عمر بن الخطاب إلى يعلى بيده أن تعال، فجاء يعلى فأدخل رأسه، فإذا النبي ﷺ محمر الوجه، يغط كذلك ساعة، ثم سري عنه، فقال: «أين الذي يسألني عن العمرة آنفًا؟»، فالتمس الرجل فأتي به قال: «أما الطيب الذي بك فاغسله ثلاث مرات، وأما الجبة فانزعها، ثم اصنع في عمرتك كما تصنع في حجك».

وقد حدد ابن هشام زمان هذه العمرة، فقال: وقدم رسول الله ﷺ المدينة لست ليال بقين من ذي القعدة فيما زعم أبو عمرو المدني.

استخلاف عتاب بن أسيد على مكة:

قال ابن إسحاق: (... فلما فرغ رسول الله ﷺ من عمرته انصرف راجعًا إلى المدينة، واستخلف عتاب بن أسيد على مكة، وخلف معه معاذ بن جبل؛ يفقه الناس في الدين، ويعلمهم القرآن، واتبع رسول الله ﷺ ببقايا الفيء.

(1) متفق عليه: أخرجه البخاري (1778)، كتاب العمرة، ومسلم (1253) كتاب الحج.

وعتاب بن أسيد هذا هو الذي قال حين سمع بلالًا يؤذن فوق الكعبة: لقد أكرم الله أسيدًا (يقصد أباه) ألا يكون سمع هذا، فيسمع منه ما يغيظه .. فانظر كيف تغيرت هذه القلوب التي مُلئت حقدًا وكراهية وكفرًا، بفضل من الله الهادي مقلب القلوب، ثم بحكمة رسوله وحلمه وصبره وفقهه في معاملة النفوس!. وعتاب بن أسيد رَضِيَ اللَّهُ عَنْهُ قرشي من بني أمية، أبوه: أسيد بن أبي العيص بن أمية، وأمه زينب بنت عمرو بن أمية، وكان عمره حين ولاه رسول الله ﷺ إحدى وعشرين سنة (وقيل: ثماني عشرة سنة) [1]. وقد أخلف رسول الله ﷺ معه معاذ بن جبل رَضِيَ اللَّهُ عَنْهُ؛ ليفقه الناس في دينهم، ويعلمهم القرآن؛ لأن عتابًا رَضِيَ اللَّهُ عَنْهُ لم يكن قادرًا على القيام بهذه المهمة، بل كان هو بحاجة إلى أن يتعلم من معاذ رَضِيَ اللَّهُ عَنْهُ كما يتعلم غيره.

وقد قام عتاب رَضِيَ اللَّهُ عَنْهُ حين ولاه رسول الله ﷺ، فخطب الناس، فأخبرهم أن رسول الله ﷺ قد حدد له أجرًا درهمًا في كل يوم، فهو ليس في حاجة إلى أحد منهم؛ وذلك ليعلموا أنه سيكون شديدًا على المريب، لينًا على المؤمن، منفذًا لأحكام الله، مهتديًا بهدي رسوله ﷺ.

قال ابن هشام: وبلغني عن زيد بن أسلم، أنه قال:

لما استعمل رسول الله ﷺ عتاب بن أسيد على مكة، رزقه كل يوم درهمًا، فقام فخطب الناس، فقال: أيها الناس: أجاع الله كبد من جاع على درهم، فقد رزقني رسول الله ﷺ درهمًا كل يوم، فليست بي حاجة إلى أحد.

وقد مات رسول الله ﷺ وعتاب بن أسيد رَضِيَ اللَّهُ عَنْهُ عاملًا على مكة. فلما بلغ أهل مكة موت رسول الله ﷺ أضج من بالمسجد، فبلغ عتابًا، فخرج حتى دخل شعبًا من شعاب مكة، فقال سهيل بن عمرو رَضِيَ اللَّهُ عَنْهُ: أين عتاب؟ وجعل يستدل عليه حتى أتى عليه في الشعب، فقال: ما لك؟ قال: مات رسول الله ﷺ قال: قم في الناس فتكلم، قال: لا أطيق مع موت رسول الله الكلام، قال: فاخرج معي فأنا أكفيكه. فخرجا حتى أتيا

(1) السيرة الحلبية، ج3، ص 59.

المسجد، فقام سهيل خطيبًا، فحمد الله وأثنى عليه، وخطب بمثل خطبة أبي بكر رَضِيَٱللَّهُعَنْهُ يوم موت رسول الله ﷺ، لم يخرم عنها شيئًا.

وقد عاش عتاب رَضِيَٱللَّهُعَنْهُ أميرًا على مكة إلى أن مات. وقد قال الواقدي إنه مات يوم مات أبو بكر الصديق رَضِيَٱللَّهُعَنْهُ، وقال محمد بن سلام وغيره: جاء نعي أبي بكر مكة يوم دفن عتاب بن أسيد بها، فرضي الله عنه وعن صحابة رسول الله ﷺ أجمعين.

المبحث التاسع
العودة إلى المدينة

لما فرغ رسول الله ﷺ من عمرته لست بقين من ذي القعدة سنة 8 هـ، انصرف راجعًا إلى المدينة، بعد أن مكن الله لدينه، وأزال معالم الوثنية وبيوت الشرك من مكة وما حولها، ونصر عباده المؤمنين، ودخل الناس في دين الله أفواجًا، وأعز الإسلام بقادة مكة وهوازن، فصاروا حربًا على الشرك والمشركين، سلمًا على الإسلام والمسلمين، وصارت ديارهم وبلادهم جزءًا من دولة الإسلام، وصار رسل رسول الله ﷺ يسيرون خلالها بلا خوف أو وجل؛ لتبليغ دعوة الله، وأصبح استئصال الأوثان والأصنام من جزيرة العرب سهلًا ميسورًا، وانضبط سواد الأعراب، الذين كانوا يمرحون في البادية كالسوائم الغافلة، لا يكادون يفقهون حديثًا، وصار رسول الله ﷺ سيد الجزيرة العربية، تأتيه وفود القبائل، فتضرب إليه أكباد الإبل؛ لتحاور أو تناقش أو تسلم. فاستولى سلطان الإسلام على النفوس والأفئدة، وخرج العرب عن كل سلطان غير سلطان الله تعالى، واستقر أمر الدين في جزيرة العرب، ولم يعد من حكم إلا حكم الله عز وجل.

عاد رسول الله ﷺ إلى المدينة بعد أن أقر الله عينه بالفتح، وهدى قومه الذين طالما كان حريصًا على هداهم، فمات منهم من مات دون أن يؤمن، وكان له في نفس رسول الله مكانة، وقُتل منهم من قُتل وهو يحارب الله ورسوله .. وها هم بعد ثمانية أعوام من إخراجهم له، يأذن الله لهم بالهداية، ويعزهم بدينه، ويعفو عن خطيئتهم.

وها هي المدينة .. طيبة الطيبة تستقبله منتصرًا ممكنًا بعد أن استقبلته منذ ثمانية أعوام مهاجرًا مطاردًا.

قال الشيخ محمد الغزالي رَحِمَهُ ٱللَّهُ:

لله ما أفسح المدى الذي بين هذه الآونة الظافرة بعد أن توج الله هامته بالفتح المبين، وبين مقدمه إلى هذا البلد منذ ثمانية أعوام!

لقد جاء مطاردًا يبغي الأمان، غريبًا مستوحشًا ينشد الإيلاف والإيناس، فأكرم أهله مثواه، وآووه ونصروه، واتبعوا النور الذي أنزل معه، واستخفوا بعداوة الناس جميعًا من أجله، وها هو ذا بعد ثمانية أعوام يدخل المدينة التي استقبلته مهاجرًا خائفًا؛ لتستقبله مرة أخرى وقد دانت له مكة، وألقت تحت قدميه كبرياءها وجاهليتها، فأنهضها؛ ليعزها بالإسلام، وعفا عن خطيئاتها الأولى ﴿إِنَّهُۥ مَن يَتَّقِ وَيَصۡبِرۡ فَإِنَّ ٱللَّهَ لَا يُضِيعُ أَجۡرَ ٱلۡمُحۡسِنِينَ ٩٠﴾ [يوسف] [1].

* * *

(1) فقه السيرة، ص 303.

الفصل السابع

من أخبار المجتمع المسلم في السنة الثامنة من الهجرة

شهدت السنة الثامنة من الهجرة أحداثًا مهمة داخل المجتمع المسلم؛ منها ما يتعلق ببيت النبوة، ومنها ما يتعلق بمكة وبأول موسم حج بعد الفتح، ومنها ما يتعلق بالتشريعات التي تنزلت لضبط حركة المجتمع، وعلاقات أفراده بعضهم ببعض.

المبحث الأول

من أخبار بيت النبوة

فاطمة بنت الضحاك الشقية:

في ذي القعدة من هذه السنة تزوج رسول الله ﷺ فاطمة بنت الضحاك الكلابية، فاستعاذت منه، ففارقها ولم يبن بها.

عن عائشة رَضِيَ اللَّهُ عَنْهَا أن الكلابية لما دخلت على النبي ﷺ قالت: أعوذ بالله منك. فقال رسول الله ﷺ: «لقد عُذتِ بعظيم، الحقي بأهلك» [1]، وقد أدركها الندم فيما بعد، فكانت تلقط البعر، وتقول: أنا الشقية [2].

فائدة: أمهات المؤمنين رضي الله عنهن أجمعين:

أجمل ابن الكلبي - كما ذكر ذلك ابن الأثير - القول في زوجات الرسول ﷺ، فقال: تزوج النبي ﷺ خمس عشرة امرأة، ودخل بثلاث عشرة منهن، وجمع بين إحدى عشرة منهن، وتوفي عن تسع منهن - رضي الله عنهن.

وتفصيل ذلك كالآتي:

تزوج رسول الله ﷺ - أول من تزوج - خديجة بنت خويلد، وكانت قبلُ تحت عتيق ابن عائذ بن عبد الله بن مخزوم، فمات عنها وتزوجها بعده أبو هالة بن زرارة بن النَّبَّاش

(1) النسائي، كتاب الطلاق (3417)، وابن ماجه، كتاب الطلاق (2050)، وصححه الألباني.

(2) انظر: السيرة لأبي شهبة، ج2، ص 488.

التميمي، فولدت له هند بن أبي هالة، ثم مات عنها، فتزوجها رسول الله ﷺ وهي أم أولاده كافة إلا إبراهيم؛ فإنه من مارية القبطية جاريته، التي أهداها إياه الملك المقوقس ملك القبط وهو بالمدينة النبوية.

ثم تزوج عائشة بنت أبي بكر الصديق، وكانت صغيرة السن، فلم يبن بها حتى هاجر إلى المدينة، وهاجرت أسرتها الكريمة. ثم تزوج ﷺ بمكة سودة بنت زمعة وهي ثيب؛ إذ كانت تحت السكران بن عمرو أخي سهيل بن عمرو، وكان قد هاجر إلى الحبشة فتنصر ومات بها كافرًا، فزوجه بها والدها زمعة بن قيس، وخطبتها له خولة بنت حكيم امرأة عثمان بن مظعون، فدخل بها بمكة وأصدقها أربعمائة درهم.

ثم تزوج حفصة بنت عمر بن الخطاب، وكانت قبله تحت خُنَيْسِ بن حذافة السهمي، وأمهرها ﷺ أربعمائة درهم، ثم تزوج أم سلمة بنت أبي أميّة المخزومية، وكانت عند أبي سلمة بن عبد الأسد شهيد أحد رَضِيَ اللَّهُ عَنْهُ. ثم تزوج زينب بنت خزيمة أم المساكين، وكانت عند الطُّفَيْل بن الحارث بن عبد المطلب، وماتت عند رسول الله ﷺ ولم يمت في حياته من نسائه ﷺ إلا هي وخديجة قبلها. ثم تزوج جويرية بنت الحارث بن أبي ضرار الخزاعية من بني المصطلق، وكانت عند مالك بن صفوان المصطلقي، ولم تلد له شيئًا، ثم تزوج أم حبيبة بنت أبي سفيان بن حرب، وكانت عند عُبيد الله بن جحش وهو من مهاجرة الحبشة، وتنصر، ومات بها، فأرسل النبي ﷺ إلى النجاشي فخطبها عليه، وتزوجها وهي بالحبشة، وتولى عقد نكاحها خالد بن سعيد بن العاص، ودفع مهرها النجاشي، وكان أربعمائة دينار، واسم أم حبيبة رَمْلة. ثم تزوج زينب بنت جحش وكانت عند زيد بن حارثة مولاه، فزوجه الله تعالى بها، وبعث في ذلك جبريل، فكانت رَضِيَ اللَّهُ عَنْهَا تفخر على نساء رسول الله ﷺ، وتقول: أنا أكرمهن وليًّا وسفيرًا، وهي أول من توفي من زوجات الرسول ﷺ بعد وفاته، فقد توفيت في خلافة عمر رَضِيَ اللَّهُ عَنْهُمَا وأرضاهما، ثم تزوج صفية بنت حيي بن أخطب النضرية، وكانت قبله عند سلَّام بن مشكم، فمات عنها، وخلفه عليها كنانة بن الربيع بن أبي الحقيق، فقتل في خيبر، ثم أعتقها رسول الله ﷺ وتزوجها؛ لأنها كانت من سبي خيبر، ثم تزوج ميمونة بنت الحارث الهلالية، وكانت قبله

تحت عمير بن عمرو الثقفي، ثم تزوجها بعد عمير أبو زهير بن عبد العزى، ثم تزوجها رسول الله ﷺ بعده، وهي خالة عبد الله بن عباس رَضِيَ اللَّهُ عَنْهُمَا، تزوجها رسول الله ﷺ في عمرة القضاء، عقد عليها بمكة بعد التحلل من العمرة، وبنى بها بسَرِف - كما تقدم بناؤه في عمرة القضاء - ثم تزوج شراف بنت خليفة الكلبي، وتوفيت قبل أن يبني بها، وهي أخت دحية بن خليفة الكلبي رَضِيَ اللَّهُ عَنْهُ. ثم تزوج امرأة من بني كلاب وتوفيت قبل البناء، ثم تزوج الشَنْبَاء بنت عمرو الغفارية، فلما مات ابنه إبراهيم قالت: لو كان نبيًّا ما مات ولده فطلقها، ثم تزوج عربة بنت جابر الكلابية، فلما قدمت عليه ﷺ استعاذت بالله منه، ففارقها، وقال: «منيع عائذ الله». ثم تزوج العالية بنت ظبيان، فبنى بها، ثم فارقها، وردها إلى أهلها؛ لعلة كانت بها.

المذكورات هي النسوة اللاتي تزوجهنّ رسول الله ﷺ، ذكرناهن تفصيلًا لا إجمالًا. وأما السّراري [1] فلم يكن له ﷺ سوى مارية بنت شمعون القبطية وريحانة بنت زيد القرظية أو النضريَّة.

ومما ينبغي أن يُقال هنا ويُعلم أن النبيّ ﷺ لم يتزوج بكرًا قط إلا عائشة رَضِيَ اللَّهُ عَنْهَا، وكان زواجه بها إكرامًا لوالدها الصديق الوفيّ، والأخ الصادق الأخوة، الذي آزره منذ اللحظات الأولى في دعوته، وحمل رسالته. وبهذا يتبين - بوضوح - لذي العقول والبصائر أن النبي ﷺ لم يتزوج امرأة من نسائه الثلاث عشرة، اللائي بنى بهنّ لمجرد الرغبة، وإنما كان لأهداف سامية وغايات شريفة، لم يسم إليها غير الحبيب محمد ﷺ. فقد تزوج خديجة بعد رغبتها في الزواج منه؛ لتكون قاعدة دعوته، وأمينة سِرِّه، ومأوى نفسه عند اشتداد الخوف به وحلوكة الأيام والليالي عليه. وتزوج أم حبيبة وأم سلمة وسودة وميمونة وأم المساكين، وهن أرامل مرملات؛ إيواءً لهن؛ لما فقدن أزواجهن، ولما أصابهن من عذاب واضطهاد في ذات الله تعالى.

وزوجه ربّه تبارك وتعالى زينب بنت جحش، وهو كاره لذلك، خاشٍ من أن يقول الناس: محمد تزوج امرأة زيد الذي تبناه. وتزوج حفصة بنت عمر الثيب؛ إكرامًا لعمر،

(1) جمع سريّة، وهي الجارية يتسرى بها مالكها، وإن ولدت تكون أم ولد، فلا يحل بيعها كمارية أم إبراهيم.

وتحقيقًا لرغبته في أن تكون بنته في بيت النبوة الطاهر، وتصبح حفصة بنت عمر من أمهات المؤمنين. وإذا لم يكرم رسول الله ﷺ عمر بن الخطاب من أصحابه فمن يكرم إذًا؟!

وتزوج صفية وجويرية مسحًا لدموعهما؛ وإذهابًا لحزنهما؛ لموت زوجيهما في معركة قتال دارت بين رسول الله ﷺ وبين رجالهما.

وهكذا ما تزوج رسول الله ﷺ لغير الله، ولا بدون إذن من الله ورضاه. ألا قاتل الله الطاعنين في الكمال المحمدي، وقطع ألسنة الجاهلين ببغاوات أعداء الإسلام، من يهود ونصارى ومشركين، الذين يهرفون بما لا يعرفون [1].

في ذي الحجة من السنة الثامنة ولدت مارية إبراهيم:

وفي ذي الحجة من هذا العام وُلد إبراهيم ابن النبي، من السيدة مارية القبطية، التي كان أهداها له المقوقس عظيم مصر، فتسراها، حتى ولدت له، فصارت أم ولده، وأنزلها منزلة الأزواج، وكان رسول الله ﷺ قد رزئ بفقد أولاده الذكور صغارًا، كما رزئ بفقد رقية وهو ببدر، ثم بوفاة زينب سنة ثمان؛ لذلك لا تعجب إذا كان رسول الله ﷺ قد فرح بمولد إبراهيم فرحًا شديدًا، وخرج إلى أصحابه فبشرهم قائلًا: «ولد لي الليلة غلام، فسميته باسم أبي إبراهيم»، ولدته مارية بالعالية، حيث كانت تقيم في الموضع الذي يقال له اليوم مشربة إبراهيم، وكانت قابلة مارية سلمى، مولاة النبي، امرأة أبي رافع، فبشَّر به أبو رافع النبي، فوهب له عبدًا.

وفي اليوم السابع عقَّ عنه بكبش، وحلق رأسه أبو هند، وتصدَّق بوزن شعره وَرِقًا[2] على المساكين، ثم دفعه رسول الله إلى أم سيف امرأة قَيْن (حداد) بالمدينة، يقال له: أبو يوسف لترضعه، وكان النبي ﷺ ينطلق إلى بيت مارية كل يوم، فيأخذه ويقبله، وتنافست نساء الأنصار في إرضاعه، فكان النبي يجاملهن، ولا يرد لهنَّ طلبًا، كما كان يغدق على من ترضعه الكثير من خيره وبره، وأرصد لذلك قطعة من الغنم واللقاح،

(1) أبو بكر الجزائري: هذا الحبيب محمد يا محب، ص483-486.

(2) الوَرِق (بكسر الراء): الفضة.

فتروح كل ليلة على بيت من ترضعه فتشرب من لبنها وتسقي رُضعها، حتى لقد أثار ذلك مكامن الغَيْرة في نفوس أزواجه [1].

إسلام أبي العاص بن الربيع صهر رسول الله ﷺ:

قدمنا أن أبا العاص بن الربيع صهر رسول الله كان أسر في بدر، فأرسلت السيدة زينب زوجه في فدائه قلادة، قلدتها إياها أمها السيدة خديجة، فلما رآها رسول الله رقَّ لها رقة شديدة، وقال: «إن شئتم أن تردوا عليها قلادتها وتطلقوا لها أسيرها فافعلوا»، ففعلوا، وأخذ عليه الرسول عهدًا أن يرسل إليه ابنته، فوفَّى بالعهد، وكان ما كان من ترويع هبَّار بن الأسود لها، وكانت حاملًا فأجهضت.

واستمرت السيدة زينب عند النبي، وبقي زوجها على كفره بمكة، حتى إذا كان قبيل الفتح خرج أبو العاص في تجارة لقريش، فلما قفل من الشام لقيته سرية، فأخذوا ما معه وأعجزهم هربًا، وجاء تحت جنح الليل إلى زوجته زينب، فاستجار بها فأجارته، فلما خرج رسول الله ﷺ لصلاة الصبح وكبَّر وكبَّر الناس، صرخت من صُفة النساء: أيها الناس إني قد أجرت أبا العاص بن الربيع.

فلما سلم رسول الله، أقبل على الناس، فقال: «أما والذي نفس محمد بيده ما علمت من شيء حتى سمعت ما سمعتم، وإنه يجير على المسلمين أدناهم»، ثم انصرف إلى ابنته زينب، فقال: «أي بنية أكرمي مثواه، ولا يخلصنَّ إليك، فإنك لا تحلِّين له»، ثم حثَّ رسول الله أصحابه على ردِّ ما كان معه (من تجارة قريش)، فردُّوه بأسره، فأخذه أبو العاص، وذهب به إلى مكة، فأعطى كل ذي حق حقه، ثم قال لهم: هل بقي لأحد منكم عندي مال يأخذه، قالوا: لا، فجزاك الله خيرًا، فقد وجدناك وفيًّا كريمًا، قال: فإني أشهد أن لا إله إلا الله وأن محمدًا رسول الله، والله ما منعني من الإسلام عنده إلا تخوف أن تظنوا أني إنما أردت أن آكل أموالكم، فقد أداها الله إليكم، ثم خرج حتى قدم المدينة [2].

---

(1) السيرة لأبي شهبة، ج2، ص 490-491.

(2) السيرة لأبي شهبة، ج2، ص 488-489.

وفي هذا العام توفيت السيدة زينب بنت رسول الله، وزوج أبي العاص بن الربيع، وكانت أكبر بناته ﷺ، تليها رقية، ثم أم كلثوم، ثم فاطمة - رضي الله عنهن. كان رسول الله محبًّا لها، أسلمت قديمًا، ثم هاجرت قبل إسلام زوجها بست سنين، وكانت قد أجهضت في هجرتها كما أسلفنا، ثم نزفت، وصار المرض يعاودها حتى توفيت رَضِيَ ٱللَّهُ عَنْهَا؛ ولذا كان رسول الله يقول: «هي خير بناتي، أصيبت فيّ»، ولما ماتت قال رسول الله: «اغسلنها وِتْرًا: ثلاثًا، أو خمسًا، واجعلن في الآخرة كافورًا».

وكانت ولدت من أبي العاص عليًّا، ثم مات وقد ناهز الاحتلام، وأُمامة وهي التي كان يحملها رسول الله وهو يصلِّي كما في الصحيحين، ولما كبرت تزوجها سيدنا علي بن أبي طالب بعد موت خالتها فاطمة، ثم تزوجت بعد علي المغيرة بن نوفل بن الحارث، فولدت له يحيى، وقيل إنها لم تلد لعلي ولا للمغيرة؛ ولذلك قال الزبير: ليس لزينب عقب[1].

المبحث الثاني

عبادات .. وتشريعات .. وآيات بينات

عتاب بن أُسيد أمير مكة يحج بالناس:

في هذه السنة حج المسلمون إلى البيت العتيق في أول موسم للحج بعد فتح مكة، وبعد تطهير البيت من الأوثان والصور، وكل مظاهر الشرك، حج بالناس عتاب بن أسيد رَضِيَ ٱللَّهُ عَنْهُ، أول أمير يستعمله رسول الله ﷺ على مكة.

قال ابن إسحاق: وحج الناس في تلك السنة على ما كانت العرب تحج عليه، وحج تلك السنة عتاب بن أسيد، وهي سنة ثمان [2].

إن جاءكم فاسق بنبأ فتبينوا:

بعث الرسول ﷺ الوليد بن عقبة بن أبي مُعَيط؛ لأخذ صدقات بني المصطلق، فلما علموا بقدومه خرج منهم عشرون رجلًا متقلدين السلاح؛ تحية أثناء قدومه، ومعهم إبل

(1) المصدر السابق، ج2، ص490.

(2) سيرة ابن هشام (4/79).

الصدقة، فلما رآهم الوليد هابهم، وظن أنهم يريدون حربه؛ لما كان بينه وبينهم من عداوة في الجاهلية، فرجع مسرعًا إلى المدينة، وأخبر الرسول بما ظن، فأرسل الرسول ﷺ خالد ابن الوليد في سرية؛ لتعرُّف حقيقة أمرهم، فسار إليهم حتى ديارهم، وكمُن بالقرب منهم ليلًا، فإذا بمؤذنهم يؤذن للصلوات، فأتاهم خالد، فلم ير منهم إلا الطاعة، فأخذ الصدقات، وعاد إلى المدينة، وأخبر الرسول بخبرهم.

وفي هذه الواقعة أنزل الله هذا التأديب الإلهي في قوله تعالى:

﴿ يَٰٓأَيُّهَا ٱلَّذِينَ ءَامَنُوٓاْ إِن جَآءَكُمۡ فَاسِقُۢ بِنَبَإٖ فَتَبَيَّنُوٓاْ أَن تُصِيبُواْ قَوۡمَۢا بِجَهَٰلَةٖ فَتُصۡبِحُواْ عَلَىٰ مَا فَعَلۡتُمۡ نَٰدِمِينَ ٦ ﴾ [الحجرات].

وهذه الآية أصل في التثبت في الأخبار، واشتراط العدالة في الرواة، والبحث عن أحوالهم، حتى كان من ذلك علم (الجرح والتعديل) في الإسلام [1].

وفي هذه السنة: حرم رسول الله ﷺ التسعير:

عن أنس بن مالك رضي الله عنه، قال: غلا السعر على عهد رسول الله ﷺ، فقالوا: يا رسول الله سعِّر لنا، فقال: «إن الله هو المسعِّر القابض الباسط الرزاق، وإني لأرجو أن ألقى ربي وليس أحدٌ منكم يطلبني بمظلمة في دم ولا مال» [2].

قال أهل العلم: الأصل عدم التسعير، ولكن إن احتاج إليه الناس، فلا مانع من القول به؛ لأن المسألة قد خرجت إلى أصل آخر، هو: دفع الضرر عن الناس، ومراعاة مصالحهم، وهذا مما أمرت به الشريعة الإسلامية، ولكن لا يجوز مع هذا ظلم الباعة، والتسعير دون مراعاة لمصالحهم. إن الغرض من التسعير دفع الظلم بالعدل، لا بالظلم، وعليه فلا يجوز التسعير إن لم يكن فيه مراعاة لمصحلة المشتري والبائع معًا [3].

---

(1) السيرة لأبي شهبة، ج2، ص491-492.

(2) أخرجه الترمذي (1314)، كتاب البيوع، باب ما جاء في التسعير، وقال: حسن صحيح، وصححه الألباني.

(3) علي بن عبد الرحمن دبيس، مجلة جامعة الإيمان، الثلاثاء 15 يناير 2013.

حنين جذع النخلة إلى رسول الله ﷺ:

روى البخاري بسنده، عن جابر بن عبد الله رَضِيَ اللَّهُ عَنْهُمَا، أن النبي ﷺ كان يقوم يوم الجمعة إلى شجرة أو نخلة، فقالت امرأة من الأنصار أو رجل: يا رسول الله، ألا تجعل لك منبرًا؟ قال: «إن شئتم»، فجعلوا له منبرًا، فلما كان يوم الجمعة دُفع إلى المنبر، فصاحت النخلة صياح الصبي، ثم نزل النبي ﷺ فضمها إليه، تئن أنين الصبي الذي يسكن، قال رسول الله ﷺ: «كانت تبكي على ما كانت تسمع من الذكر عندها» [1].

وقد ذكر الإمام الذهبي رَحِمَهُ اللَّهُ في (مغازيه)، أن ذلك كان في السنة الثامنة من الهجرة[2].

المبحث الثالث

إسلام كعب بن زهير شاعر العرب المخضرم

كان كعب بن زهير شاعرًا كأبيه زهير بن أبي سُلْمى، صاحب المعلقة، وكان كعب قد هجا النبي ﷺ، فكتب إليه أخوه بجير - وقد أسلم وحسن إسلامه - يخبره بأن النبي ﷺ قد أمر بقتل كل من هجوه وآذوه من الشعراء، إلا أنه من جاء مُسْلمًا تائبًا يعفو عنه ويسامحه، وعليه فأنصح لك أن تأتي النبي ﷺ بالمدينة وتسلم فتنجو، وإلا فانج بنفسك حيث تجد مكانًا للنجاة، وأن من بقي من الشعراء في قريش ابن الزبعري، وهبيرة بن أبي وهب، وقد هربوا في كل وجه، لكنَّ كعبًا لم يأخذ بنصيحة أخيه، وقال:

ألا أبلغا عني بُجيرًا رسالةً ... فهل لك فيما قلت ويحك هل لكا

فبين لنا إن كنت لست بفاعل ... على أي شيء غير ذلك دلكا

على خُلُقٍ لم تُلْف أمًّا ولا أبا ... عليه ولم تدرك عليه أخًا لكا

فإن أنت لم تفعل فلست بآسف ... ولا قائل إما عثرت: لعًا لكا

---

(1) البخاري (3584)، كتاب المناقب، باب: علامات النبوة في الإسلام.

(2) (621)، وانظر: الأغصان الندية لمحمد طه، ص 477.

سـقاك بهـا أبـو بكـر كأسـا رويّـة　　　فأنهلـك المـأمون منهـا وعلّكـا

ولما بلغ بُجَيرًا ما قاله كعب، أخبر به رسول الله ﷺ، فغضب ﷺ وأهدر دَمَه، فكتب بذلك بجير إلى كعب، وقال: إذا أتاك كتابي هذا فأسلم، وأقبل على رسول الله ﷺ؛ فإنه لا يأخذ مع الإسلام بما كان قبله، فأسلم كعب، وجاء حتى أناخ راحلته بباب المسجد، ورسول الله ﷺ مع أصحابه، قال كعب فعرفته (أي: رسول الله ﷺ) بالصفة، فتخطيت الناس إليه فأسلمت، وقلت: الأمان يا رسول الله، هذا العائذ بك، قال: «من أنت؟»، فقلت: كعب بن زهير، قال: «الذي يقول» ثم التفت إلى أبي بكر، فقال: «كيف قال؟»، فأنشده أبو بكر الأبيات التي أولها:

ألا أبلغـا عنـي بجـيرًا رسـالةً

فقال كعب ما هكذا قلت يا رسول الله، إنما قلت:

سـقاك أبـو بكـر بكـأس رويّـة

فأنهلـك المـأمونُ منهـا وعلكـا

فقال رسول الله ﷺ: «مأمون والله»، فتجهمته الأنصار، وأغلظت له القول، ولانت له قريش وأحبت إسلامه، فأنشد رسولَ الله ﷺ قصيدته التي أولها:

بانـت سـعادُ فقلبِـي اليـوم متبـول [1]　　　متـيم إثرهـا لم يُفْـدَ مكبـول [2]

فلما انتهى إلى قوله:

وقـال كـل خليـل كنـت آملـه　　　لا أُلهينَّـك إني عنـه مـشغول

نبئـتُ أنّ رسـول الله أوعـدني　　　والعفـو عنـد رسـول الله مـأمول

في فتيِـة مـن قـريش قـال قـائلهم　　　بـبطن مكـة لمـا أسـلموا زولـوا

---

(1) **متبول:** أسقمة الحب.

(2) مقيد.

زالوا مما زال أنْكاسٌ [1] ولا كُشفٌ [2] عنـد اللقـاء ولا ميـلٌ [3] معاذِيـلُ

لا يقـع الطعـن إلا في نحـورهمُ وما لهم عن حياض الموت تهليل [4]

ونظر رسول الله ﷺ إلى قريش، فأومأ إليهم أن اسمعوا حتى قال:

يمشون مشي الجمال الزهر يعصمه ضربٌ إذا عـرّد السُّودُ التنابيـل

يعرض بالأنصار؛ لغلظتهم التي كانت عليه، فأنكرت قريش قوله، وقالوا لم تمدحنا إذا هجوتهم، ولم يقبلوا ذلك منه، وعظم على الأنصار هجوه، فشكوه، فقال يمدحهم:

مـن سرّه كـرم الحيـاة فـلا يـزل في منقـب مـن صـالحي الأنـصار

البـاذلين نفوسـهم ودمـاءهم يـوم الهيـاج وسـطوة الجبـار

يتطهـرون كأنـه نـسك لهُـم بـدماء مـن قتلـوا مـن الكفـار

في أبيات كثيرة، وعندها كساه النبي ﷺ بردة كانت عليه.

ولما كان زمن معاوية بعث إليه يطلب شراءها منه فأبى، وقال ما كنت لأوثر بثوب رسول الله ﷺ أحدًا، فلما مات كعب اشتراها معاوية من أولاده بعشرين ألف درهم، وبقيت تلك البردة زمنًا طويلًا يتوارثها الخلفاء، ولعلها الآن في متحف الآثار بتركيا [5].

وبإسلام كعب بن زهير نستطيع القول إن الشعراء المعارضين للدعوة الإسلامية قد انتهى دورهم؛ فقد أسلم ضرار بن الخطاب، وعبد الله بن الزبعري، وأبو سفيان بن

(1) **أنكاس:** جمع نكس، وهو الرجل الضعيف.

(2) جمع أكشف، وهو الذي لا ترس له.

(3) جمع أميل، وهو الذي لا سيف له.

(4) تهليل: بمعنى تأخر.

(5) انظر: هذا الحبيب يا محب للجزائري، ص420-422.

الحارث، والحارث بن هشام، والعباس بن مرداس، وتحولوا إلى الصف الإسلامي واستظلوا بلوائه عن قناعة وإيمان، ولم يكتف بعضهم بأن تكون كلمته في الدفاع عن الإسلام؛ بل كان سيفه إلى جانب كلمته، وهذا من بركات فتح مكة [1].

* * *

(1) السيرة للصلابي، ص802.



الباب الثاني والعشرون

العام التاسع من الهجرة

عام تحدي الروم .. وإنهاء الوثنية

الفصل الأول: **تنظيم الأمور المالية، وتهذيب البداوة الاجتماعية.**

الفصل الثاني: **سورة الحجرات وتهذيب الأعراب.**

الفصل الثالث: **سرايا وبعوث لتحقيق سيادة الأمن.**

الفصل الرابع: **تحدي الروم (غزوة تبوك).**

الفصل الخامس: **دخول الناس في دين الله أفواجًا (الوفود).**

الفصل السادس: **بعث الصديق أميرًا على الحج وإنهاء الوثنية.**

الفصل السادس: **من أخبار المجتمع المسلم في السنة التاسعة من الهجرة.**

الباب الثاني والعشرون

العام التاسع من الهجرة

عام تحدي الروم .. وإنهاء الوثنية

في السنة التاسعة من الهجرة، استمرت الدولة الإسلامية في مسارات النمو والبناء، وإزالة ما تبقى من جيوب الوثنية في جزيرة العرب، وضرب رسول الله ﷺ أمدًا لقبائل العرب المشركين؛ ليقرروا مصيرهم بأنفسهم قبل أن تتخذ الدولة الإسلامية منهم موقفًا، فجاءت وفودهم إلى المدينة من كل وجهة، معلنة إيمانها وولاءها [1].

وفي السنة التاسعة من الهجرة، عزم رسول الله ﷺ أن يرسي قواعد جديدة للتعامل مع خطر الروم في الشمال، فلا يسمح لهم أن يهددوا الدولة المسلمة في بلدانها وديارها، ولا أن يكونوا مصدر قلق وتخوف لسكان الجزيرة، فتحداهم في ديارهم، واستنفر المسلمين لملاقاتهم عند تخومهم.

وفي السنة التاسعة من الهجرة، بعث رسول الله ﷺ أبا بكر أميرًا على موسم الحج، وبعث علي بن أبي طالب بثلاثين أو أربعين آية من سورة براءة، فقرأها على الناس، يمهل المشركين أربعة أشهر، يسيحون في الأرض، فقرأها عليهم يوم عرفة، وقال: (لا يحجن بعد عامنا مشرك، ولا يطوفن بالبيت عريان).

وفي السنة التاسعة من الهجرة، شهد مجتمع المدينة أحداثًا وأحداثًا .. ففيها ماتت أم كلثوم بنت رسول الله ﷺ، وفيها كان تخيير النبي ﷺ لزوجاته (حين ضاقت بهن النفقة)؛ بين التسريح الجميل وبين الاستمرار في بيت النبوة، وفيها مات رأس النفاق عبد الله بن أُبي بن سلول .. فإلى فصول الباب التي نستعرض فيها هذه الأحداث المهمة.

* * *

(1) انظر: السيرة للصلابي، ص816.

الفصل الأول

تنظيم الأمور المالية، وتهذيب البداوة الاجتماعية

شرع رسول الله ﷺ - بعد عودته إلى المدينة من فتح مكة - في تنظيم أمور الجباية والإدارة، فبعث المصدقين إلى المناطق المختلفة في المحرم سنة 9 هـ، فانتظم هذا الجانب من شئون الدولة. وكانت أيضًا سرية عُيينة بن حصن إلى بني العنبر من تميم في المحرم سنة 9 هـ، وفيها نزلت الآيات من سورة الحجرات: ﴿ إِنَّ ٱلَّذِينَ يُنَادُونَكَ مِن وَرَآءِ ٱلْحُجُرَٰتِ أَكْثَرُهُمْ لَا يَعْقِلُونَ ﴿٤﴾ ﴾ [الحجرات]؛ لتهذب من طباع الأعراب، وتحد من بداوتهم.

المبحث الأول

تنظيم أمور الصدقات

كان رجوع رسول الله ﷺ من فتح مكة في أواخر السنة الثامنة من الهجرة، فما أن استهل هلال المحرم من السنة التاسعة حتى بعث رسول الله ﷺ عماله إلى المناطق المختلفة؛ لجمع الصدقات واستيفائها من القبائل .. وكانت قائمة هؤلاء المصدقين كما يلي:

(1) عيينة بن حصن	إلى بني تميم.
(2) يزيد بن الحصين	إلى أسلم وغفار.
(3) عباد بن بشر الأشهلي	إلى سليم ومزينة.
(4) رافع بن مكيث	إلى جهينة.
(5) عمرو بن العاص	إلى بني فزارة.
(6) الضحاك بن سفيان	إلى بني كلاب.
(7) بشير بن سفيان	إلى بني كعب.
(8) ابن اللتبية الأزدي	إلى بني ذبيان.

(9) المهاجر بن أبي أمية إلى صنعاء (وخرج عليه الأسود العنسي وهو بها).

(10) زياد بن لبيد إلى حضرموت.

(11) عدي بن حاتم إلى طيئ وبني أسد.

(12) مالك بن نويرة إلى بني حنظلة

(13) الزبرقان بن بدر إلى بني سعد (إلى قسم منهم).

(14) قيس بن عاصم إلى بني سعد (إلى قسم منهم).

(15) العلاء بن الحضرمي إلى البحرين.

(16) علي بن أبي طالب إلى نجران (لجمع الصدقة والجزية كليهما).

وليس هؤلاء العمال كلهم بعثوا في المحرم سنة 9 هـ؛ بل تأخر بعث عدد منهم إلى اعتناق الإسلام من تلك القبائل التي بعثوا إليها .. نعم كانت بداية بعث العمال بهذا الاهتمام البالغ في المحرم سنة 9 هـ، وهذا يدل على مدى نجاح الدعوة الإسلامية بعد هدنة الحديبية، وأما بعد فتح مكة، فقد دخل الناس في دين الله أفواجًا [1].

وكان ﷺ يستوفي الحساب على العمال، يحاسبهم على المستخرج والمصروف، كما فعل مع عامله ابن اللُّتبيَّة بن الأزد حيث حاسبه عندما قال الرجل: هذا لكم، وهذا أهدي لي، فقام رسول الله ﷺ على المنبر، فحمد الله، وأثنى عليه، وقال: «ما بال عامل أبعثه فيقول: هذا لكم، وهذا أهدي لي، أفلا قعد في بيت أبيه أو بيت أمه حتى ينظر أيهدى إليه أم لا، والذي نفس محمد بيده لا ينال أحد منكم منها شيئًا إلا جاء به يوم القيامة يحمله على عنقه، إن كان بعيرًا له رغاء، أو بقرة لها خوار، أو شاة تيعر»، ثم رفع يديه حتى رأينا عفرتي إبطيه، ثم قال: «اللَّهم هل بلغت (مرتين)» [2]، وكان يقول أيضًا: «أيما عامل استعملناه وفرضنا له رزقًا، فما أصاب بعد رزقه فهو غلول» [3].

---

(1) الرحيق المختوم، ص424-425.

(2) مسلم، باب محاسبة الإمام عماله، رقم (1832).

(3) السيرة للصلابي، ص 803.

إن شأن الزكاة في الدولة الإسلامية عظيم؛ فهي من جهة حد فاصل بين الكفر والإيمان؛ حيث يكفر من منعها جاحدًا، ومن جهة أخرى فإن مصالح الدولة والأمة قائمة على المال، والزكاة هي المورد الثابت لذلك، فمن هنا كان النبي ﷺ يختار الأكفاء لهذه المهمة، ويحاسبهم هذا الحساب الدقيق.

وسميت الزكاة صدقة؛ لأنها تدل على صدق إيمان مؤديها [1].

المبحث الثاني
سورة الحجرات وتهذيب الأعراب

أغار بنو تميم على ناس من خزاعة بن كعب، أرادوا أن يؤدوا الصدقة إلى المصدق الذي بعثه إليهم رسول الله ﷺ (وهو بشر بن سفيان الكعبي رَضِيَ اللَّهُ عَنْهُ)، فأخرجوهم من محالهم، وتحرشوا بهم؛ لكي يمنعوهم من أداء الصدقة إلى عامل رسول الله ﷺ، فحذرهم الخزاعيون من مغبة هذا التصرف، وعاد ابن سفيان رَضِيَ اللَّهُ عَنْهُ، فأخبر النبي ﷺ خبرهم [2].

فبعث رسول الله ﷺ عيينة بن حصن الفزاري إلى بني العنبر من تميم في المحرم سنة تسع من الهجرة، في خمسين فارسًا من العرب، ليس فيهم مهاجري ولا أنصاري. فلما وصلوا إلى مكانهم ورأوهم هربوا، وتمكن عيينة وأصحابه من أخذ أحد عشر رجلًا، ووجدوا في المحلة إحدى عشرة امرأة وثلاثين صبيًّا، فجلبهم إلى المدينة، فأمر بهم رسول الله ﷺ، فحبسوا في دار رَمْلة بنت الحارث، فقدم في إطلاقهم عدة من رؤسائهم، ومنهم: عُطارِد ابن حَاجِب، والزبرقان بن بدر، وقيس بن عاصم، والأقرع بن حابس ... فلما رأتهم النساء والذراري بكوا [3].

---

(1) انظر: هذا الحبيب يا محب، للجزائري، ص 464.

(2) انظر: المغازي للواقدي (974/3)، والسيرة لرزق الله، ص306.

(3) السيرة لمهدي رزق الله، ص 605-606.

فدخلوا المسجد وقد أذن بلال الظهر، والناس ينتظرون رسول الله ﷺ ليخرج إليهم، فتعجل هؤلاء، فصاروا ينادون من وراء حجرات نساء النبي ﷺ: اخرج يا محمد فإنَّ مدحنا زَيْن، وذمنا شين. وأكثروا من هذا النداء الجافي، العاري عن الأدب في مخاطبة الرسول.

فخرج رسول الله ﷺ مغضبًا، وقال: «ذاك الله عز وجل (أي: أن الله وحده هو الذي مدحه زين وذمه شين)»، فأنزل الله بسببهم هذا التأديب الإلهي، موبخًا لهم على ما فعلوا، فقال عز شأنه:

﴿ إِنَّ ٱلَّذِينَ يُنَادُونَكَ مِن وَرَآءِ ٱلْحُجُرَٰتِ أَكْثَرُهُمْ لَا يَعْقِلُونَ ﴿٤﴾ وَلَوْ أَنَّهُمْ صَبَرُوا۟ حَتَّىٰ تَخْرُجَ إِلَيْهِمْ لَكَانَ خَيْرًا لَّهُمْ ۚ وَٱللَّهُ غَفُورٌ رَّحِيمٌ ﴿٥﴾ ﴾ [الحجرات: 4-5].

ولما خرج إليهم قالوا: يا محمد جئناك نفاخرك، فائذن لشاعرنا وخطيبنا، فقال: «قد أذنت لخطيبكم، فليقل [1]، فقام رئيس الوفد عطارد بن حاجب، فقال: الحمد لله الذي له علينا الفضل والمنّ وهو أهلُه، الذي جعلنا ملوكًا، ووهب لنا أموالًا عظامًا، نفعل فيها المعروف، وجعلنا أعز أهل المشرق، وأكثره عددًا، وأيسره عُدّةً، فمن مثلنا في الناس؟! ألسنا رءوس الناس وأولي فضْلهم؟! فمن فاخرنا فليعدِّد ما عدّدنا، وإنا لو نشاء لأكثرنا الكلام، ولكنا نحيا من الإكثار فيما أعطانا، وإنما نُعرف بذلك، أقول هذا لأن تأتوا بمثل قولنا، وأمر أفضل من أمرنا. ثم جلس، ثم قال رسول الله ﷺ لثابت بن قيس: «أجِبِ الرجُلَ»، فقام ثابت فقال:

الحمد لله الذي له ما في السموات والأرض خلقه، قضى فيهن أمْرَهُ، ووسع كرسيه علمه، ولم يك شيء قط إلا من فضله، ثم كان من قدرته أن جعلنا ملوكًا، واصطفى من خير خلقه رسولًا، أكرمهم نسبًا وأصدقهم حديثًا، وأفضلهم حسبًا، فأنزل عليه كتابه وائتمنه على خلقه، فكان خيرة الله تعالى من العالمين، ثم دعا الناس إلى الإيمان فآمن به المهاجرون من قومه وذوي رحمه، أكرم الناس نسبًا، وأحسن الناس وجوهًا، وخير الناس

(1) انظر: السيرة لأبي شهبة، ج2، ص 542، 543.

فعالًا، ثم كان أول الخلق استجابة له حين دعاه نحن، فنحن أنصار الله ووزراء رسوله، نقاتل الناس حتى يؤمنوا، فمن آمن بالله ورسوله منع ماله ودمه، ومن كفر جاهَدْنَاهُ في الله أبدًا، وكان قتله علينا يسيرًا. والسلام عليكم.

ثم قالوا يا رسول الله ائذن لشاعرنا، فأذن له، فقام - وهو الزبرقان بن بدر - فقال[1]:

نحن الكرام فلا حي يُعادِلنا ... منا الملوك وفينا تنصب البيع [2]

في ثماني أبيات [3].

وكان حسان بن ثابت غائبًا، فدعاه الرسول ﷺ ليجيب شاعرهم، فحضر وأجاب قائلًا:

إنَّ الذوائب من فِهْر وإخوتهم ... قد بينوا سنةً للناس تُتَّبعُ

يرضى بها كل من كانت سريرته ... تقوى الإله وبالأمر الذي شرعوا

قوم إذا حاربوا ضَرُّوا عدوَّهم ... أو حاولوا النفع في أشياعهم نفعوا

سجية تلك فيهم غير مُحْدَثة ... إنَّ الخلائق - فاعلم - شرُّها البِدَعُ

فلما فرغ حسان من قصيدته، قال الأقرع بن حابس: وأبي إن هذا لمؤتى له (يقصد رسول الله ﷺ) - أي مؤيد مستهل له - لخطيبه أخطب من خطيبنا، ولشاعره أشعر من شاعرنا، ولأصواتهم أعلى من أصواتنا. فأسلموا وجوَّزهم [4] رسول الله ﷺ، فأحسن جوائزهم [5].

وهذا الأسلوب من الدعوة والطراز الجديد فيها، يدعونا إلى أن نعطي الإعلام الإسلامي حقه، وأن نتأكد أن معركة الإسلام ليست معركة عسكرية فحسب؛ بل هي

(1) الجزائري: هذا الحبيب يا محب، ص 447.
(2) جمع بيعة، وهي مواضع الصلاة.
(3) هذا الحبيب يا محب للجزائري، ص 447-448.
(4) **جوزهم:** أي أعطاهم جوائزهم، وهي العطايا والمنح.
(5) انظر: السيرة لأبي شهبة، ج2، ص543.

معركة سياسية، ومعركة إعلامية، يمكن حين نبرز فيها أن نحول الخصوم إلى أصدقاء، أو محايدين، وننشر فكرنا وعقيدتنا ومبادئنا من هذا المنبر، ونقطع كثيرًا من الأشواط التي لا نتصور أن تقطع إلا من خلال القوة، مع الإشارة كذلك أن القوة التي ينطلق منها الإعلام، هي التي تفتح القلوب له، لكن القلوب تبقى مسدودة أمام منطق الضعفاء [1].

فضل بني تميم:

روى البخاري عن أبي هريرة رَضِيَ اللَّهُ عَنْهُ، قال: لا أزال أحب بني تميم بعد ثلاث سمعتهن من رسول الله ﷺ يقولها فيهم: «هم أشد أمتي على الدجال»، وكانت فيهم سبية عند عائشة، فقال: «أعتقيها؛ فإنها من ولد إسماعيل»، وجاءت صدقاتهم، فقال: «هذه صدقات قوم - أو قومي».

* * *

(1) المنهج الحركي للغضبان، القسم الثالث، ص 176.

الفصل الثاني

هدم صنم وإسلام زعيم

في ربيع الآخر سنة 9 هـ، أرسل رسول الله ﷺ علي بن أبي طالب رَضِيَ اللَّهُ عَنْهُ على رأس سرية إلى قبيلة طيئ؛ ليهدم صنمًا لهم يقال له (الفلس)، فكان ذلك سببًا سببه الله عز وجل لإسلام عدي بن حاتم الطائي.

المبحث الأول

سرية علي بن أبي طالب لهدم صنم (الفلس) بطيئ

في شهر ربيع الآخر (وقيل في ربيع الأول) سنة 9 هـ، بعث رسول الله ﷺ علي بن أبي طالب رَضِيَ اللَّهُ عَنْهُ في خمسين ومائة رجل على مائة بعير وخمسين فرسًا، ومعه راية سوداء ولواء أبيض، فشنوا الغارة على محلة حاتم الطائي مع الفجر، فهدموا صنمهم (الفلس) وملئوا أيديهم من السبي والنعم والشاء، وفي السبي أخت عدي بن حاتم (سفانة)، وهرب عدي إلى الشام [1].

ولما رجع عليّ رَضِيَ اللَّهُ عَنْهُ إلى المدينة، جُعلت سفانة في حجرة عند باب المسجد، كان السبايا تقيم فيها، فلما مر بها رسول الله، قامت إليه فقالت: يا رسول الله: هلك الوالد، وغاب الوافد، فامنن عليَّ منَّ الله عليك، فقال لها: «ومن وافدك؟» قالت: عديُّ بن حاتم، قال: «الفار من الله ورسوله؟!»، ثم مضى وتركها، فكررت هذا من الغد، وبعد الغد، فمنَّ عليها، وقال: «لا تعجلي بخروج حتى تجدي من قومك من يكون لك ثقة حتى يبلغك إلى بلادك، ثم آذنيني».

فلما أعلمته بأنها وجدت رفقة ثقاة، كساها وحملها وأعطاها نفقة، فشكرت النبي على هذا الجميل، وكان مما قالت: «شكرتك يد افتقرت بعد غنى؛ ولا ملكتك يد استغنت بعد فقر، وأصاب الله بمعروفك مواضعه، ولا جعل لك إلى لئيم حاجة، ولا سلب نعمة كريم إلا وجعلك سببًا لردها عليه».

---

(1) انظر: الرحيق المختوم، ص 426-427.

ثم ارتحلت حتى قدمت على أخيها عدي بالشام؛ لأنه لما سمع بخيل رسول الله ﷺ، احتمل بأهله وولده وتركها وفر إلى الشام، فلما وصلت إليه وبخته على صنيعه، فلم يجد ما يعتذر به، ثم أخبرته بما لقيت من رسول الله من كرم وحسن معاملة، وقالت له: أرى أن تلحق به سريعًا، فإن يكن نبيًّا فللسابق إليه فضله، وإن يكن ملكًا فأنت أنت، فما كان منه إلا أن أخذ بمشورتها، وقدم على النبي، ثم أسلم [1].

المبحث الثاني

إسلام عدي بن حاتم الطائي

قال ابن إسحاق:

وأما عدي بن حاتم، فكان يقول فيما بلغني: ما من رجل من العرب كان أشد كراهية لرسول الله ﷺ حين سمع به مني، أما أنا فكنت امرأ شريفًا، وكنت نصرانيًّا، وكنت أسير في قومي بالمرباع (أي: يأخذ وحده ربع الغنائم)، فكنت في نفسي على دين، وكنت ملكًا في قومي، لما كان يصنع بي.

فلما سمعت برسول الله ﷺ كرهته، فقلت لغلام كان لي عربي راعيًا لإبلي: لا أبا لك اعدد لي من إبلي أجمالًا ذللًا سمانًا، فاحتبسها قريبًا مني، فإذا سمعت بجيش لمحمد قد وطئ هذه البلاد فآذني، ففعل، ثم إنه أتاني ذات غداة، فقال: يا عدي، ما كنت صانعًا إذا غشيتك خيل محمد فاصنعه الآن، فإني قد رأيت رايات، فسألت عنها، فقالوا: هذه جيوش محمد، قال: فقلت: فقرب إليّ أجمالي، فقربها فاحتملت بأهلي وولدي، ثم قلت: ألحق بأهل ديني من النصارى بالشام، فسلكت الجوشية، ويقال: الحوشية.

قال ابن هشام: فلما قدمت الشام أقمت بها.

نصيحة ابنة حاتم أخيها بالإسلام:

قال عدي: فوالله إني لقاعد في أهلي إذ نظرت إلى ظعينة تصوب إلي تَؤُمُّنا، قال: فقلت ابنة حاتم. قال: فإذا هي هي، فلما وقفت عليَّ انسحلت تقول: القاطع الظالم، احتملت

(1) السيرة لأبي شهبة، ج2، ص493، 494.

بأهلك وولدك، وتركت بقية والدك عورتك! قال: قلت: أي أخية لا تقولي إلا خيرًا، فوالله ما لي من عذر؛ لقد صنعت ما ذكرت، قال: ثم نزلت فأقامت عندي، فقلت لها: وكانت امرأة حازمة، ماذا ترين في أمر هذا الرجل؟ قالت: أرى والله أن تلحق به سريعًا، فإن يكن الرجل نبيًّا فللسابق إليه فضله، وإن يكن ملكًا فلن تذل في عز اليمن، وأنت أنت قال: قلت: والله إن هذا الرأي.

إسلام عدي بعد قدومه على رسول الله ﷺ:

قال: فخرجت حتى أقدم على رسول الله ﷺ المدينة، فدخلت عليه وهو في مسجده، فسلمت عليه، فقال: من الرجل؟ فقلت: عدي بن حاتم، فقام رسول الله ﷺ، فانطلق بي إلى بيته، فوالله إنه لعامد بي إليه، إذ لقيته امرأة ضعيفة كبيرة، فاستوقفته، فوقف لها طويلًا تكلمه في حاجتها.

قال: قلت في نفسي: والله ما هذا بملك!

قال: ثم مضى بي رسول ﷺ، حتى إذا دخل في بيته، تناول وسادة في أدم محشوة ليفًا، فقذفها إلي، فقال: اجلس على هذه، قال: قلت: بل أنت فاجلس عليها، فقال: بل أنت، فجلست عليها، وجلس رسول الله ﷺ بالأرض.

قال: قلت في نفسي: والله ما هذا بأمر ملك.

ثم قال: إيه يا عدي بن حاتم، ألم تك ركوسيًّا؟ قال: قلت: بلى، قال: أو لم تكن تسير في قومك بالمرباع؟ قال: قلت: بلى، قال: فإن ذلك لم يكن يحل لك في دينك، قال: قلت: أجل والله.

وقال: وعرفت أنه نبي مرسل، يعلم ما يجهل.

ثم قال: لعلك يا عدي إنما يمنعك من دخول في هذا الدين ما ترى من حاجتهم، فوالله ليوشكن المال أن يفيض فيهم حتى لا يوجد من يأخذه، ولعلك إنما يمنعك من دخول فيه ما ترى من كثرة عدوهم، وقلة عددهم، فوالله ليوشكن أن تسمع بالمرأة تخرج من القادسية على بعيرها حتى تزور هذا البيت، لا تخاف.

ولعلك إنما يمنعك من دخول فيه أنك ترى أن الملك والسلطان في غيرهم، وايم الله، ليوشكن أن تسمع بالقصور البيض من أرض بابل قد فتحت عليهم، قال: فأسلمت.

وكان عدي يقول: قد مضت (وقعت) اثنتان (مما بشر به رسول الله ﷺ) وبقيت الثالثة، والله لتكونن، قد رأيت القصور البيض من أرض بابل قد فتحت، وقد رأيت المرأة تخرج من القادسية على بعيرها، لا تخاف حتى تحج هذا البيت، وايم الله لتكون الثالثة، ليفيض المال حتى لا يوجد من يأخذه.

المبحث الثالث

دروس مستفادة من قصة إسلام عدي بن حاتم

قال الصلابي في السيرة:

وفي هذه القصة دروس وعبر كثيرة، منها:

1- كان عدي - وهو مقبل على رسول الله - يحمل في تصوره أنه أحد رجلين؛ إما نبي، أو ملك، فلما رأى وقوف رسول الله مع المرأة الضعيفة الكبيرة مدة طويلة، شعر بخلق التواضع، وانسلخ من ذهنه عامل الملك، واستقر في تصوره عامل النبوة.

2- كان النبي ﷺ موفقًا حينما انتقد عديًا في مخالفته للدين الذي يعتنقه، حيث حصل لعدي اليقين بنبوة رسول الله ﷺ، الذي يعلم من دينه ما لا يعلمه الناس من حوله.

3- لما ظهر للنبي أن عديًا قد أيقن بنبوته، تحدث عن العوائق التي تحول بين بعض الناس واتباع الحق، حتى مع معرفتهم بأنه حق، ومنها ضعف المسلمين وعدم اتساع دولتهم، وما هم فيه من الفقر، فأبان له النبي ﷺ بأن الأمن سيشمل البلاد، حتى تخرج المرأة من العراق إلى مكة من غير أن تحتاج إلى حماية أحد، وأن دولة الفرس ستقع تحت سلطان المسلمين، وأن المال سيفيض حتى لا يقبله أحد، فلما زالت عن عدي هذه المعوقات أسلم.

4- كان النبي ﷺ موفقًا في دعوته؛ حيث كان خبيرًا بأدواء النفوس ودوائها، ومواطن الضعف فيها وأزمَّة قيادها، فكان يلائم كل إنسان بما يلائم علمه وفكره، وما

ينسجم مع مشاعره وأحاسيسه؛ ولذلك أثر في زعماء القبائل، ودخل الناس في دين الله أفواجًا.

5- وجد عدي سمات النبوة الصادقة في مظهر معيشته وحياته، ووجد هذه السمات أيضًا في لون حديثه وكلامه، ووجد مصداق ذلك فيما بعد، في وقائع الزمن والتاريخ، فكان ذلك سببًا في إسلامه، وزيادة يقينه، وانخلاعه عن زخارف الحياة الدنيا، ومظاهر الأبهة والترف [1].

وقال الغضبان في (المنهج الحركي):

طيئ تمتد في بادية الشام والعراق والحجاز، وحاتم الطائي من أشهر العرب في الجاهلية بالكرم وبه يضرب المثل، إذ يقول الشاعر:

إقدام عمر في سماحة حاتم   في حلم أحنف في ذكاء إياس

ومكارم الأخلاق لها وزن في هذه القبيلة، وقد أطلق رسول الله ﷺ سراح (سفانة) بنت حاتم الطائي؛ لأن أباها كان يحب مكارم الأخلاق.

ولا شك أن النماذج البشرية تختلف، فلابد من الحديث مع كل نموذج بما يناسبه. والحديث المشهور الذي رواه الترمذي عن عدي، في لقائه مع رسول الله ﷺ وهو على نصرانيته، وفي عنقه صليب ذهبي كبير، ورسول الله ﷺ يتلو: ﴿ ٱتَّخَذُوٓاْ أَحۡبَارَهُمۡ وَرُهۡبَٰنَهُمۡ أَرۡبَابٗا مِّن دُونِ ٱللَّهِ وَٱلۡمَسِيحَ ٱبۡنَ مَرۡيَمَ ﴾[التوبة:31]، قال: يا رسول الله، ما عبدناهم. قال: ألم يحلوا لهم الحرام، ويحرموا لهم الحلال؟، قال: بلى، قال: فتلك عبادتهم إياهم.

ويدرك عدي بن حاتم أعماق هذا المعنى، فهو على الركوسية، وهو يأخذ ربع الغنائم من قومه، وهذا لا يحل له، ومع ذلك يفعله. وهو بهذه النقلة الجديدة ينتقل من دين البشر إلى دين الله عز وجل، الذي لا يأتيه الباطل من بين يديه ولا من خلفه، ومن أجل ذلك

---

(1) السيرة للصلابي، ص 806.

كان إيمانه عميقًا متغلغلًا في كل ذرة من ذرات كيانه. وبقي على نهج الإسلام دون تعلثم أو تردد حتى لقي وجه ربه، وشهد كتائب الإيمان تفتح الأرض، ومدائن كسرى تهوي بين قدمي المسلمين، وشرفه الله تعالى بأن كان أحد القادة الذين حاصروا القصر الأبيض. وشهد - بأم عينه - الظعينة تمضي من القادسية إلى البيت الحرام لا تخشى إلا الله.

إن عظمة النبي ﷺ كانت في كشف المخبوء من الخلل في دينه، من حيث الفكر، وكانت في تقديم القدوة بين يديه في الصور البديلة، في مواصفات النبوة التي تعيش آلام الناس وحياتهم.

ومن هنا تدرك الجماعة المسلمة دورها الكبير في التعامل مع خصومها، بحيث تسبر أغوار نفوسهم، وحقيقة فكرهم، وزيف عقائدهم، وهي لا تنجح حين تداهنهم في هذا الباطل، وتتدسس إليهم في هذا الباطل، إنها حين تفعل ذلك يدرك خصوم الدعوة أن هذه الجماعة فكر بشري قاصر مثل فكرهم. وإن إصرار دعاة الباطل على باطلهم، لا يقتضي من الدعاة تقريظه، أوالسكوت عليه؛ فلابد في الحوار الفكري من الوضوح التام الذي لا يقبل التلجلج والتردد.

ومن المأساة حقًّا على سبيل المثال، أن نجد بعض دعاة الإسلام - بحجة الدعوة إلى الله بالحسنى - يزينون للنصارى باطلهم، ويقولون لهم: كلنا مؤمنون بالله. والنصراني الذي يعيش هذا التناقض في نفسه، سوف يستخف بهذا الداعية الذي يربت على كتفه ويبارك باطله، ويعلم أن لا مبرر لهذا الداعية أن تكون له السيادة في الأرض طالما أنه مثله في الباطل.

ومن جهة ثانية: تبقى عملية القدوة العملية في التعامل والخلق والسلوك، ويبقى شرف الخصومة، والحفاظ على العهد، والصدق في الرضا والغضب، هو مدار الدعوة الحقيقي ومحوره، فإذا تزلزل المحور تمزقت الصورة وتبعثرت في تقييم الخصوم لهذه الدعوة.

ونقول في هذا الصدد إن هذا الخط من الوضوح الفكري والقدوة العملية ليس مرتبطًا بمرحلة معينة؛ فقد رأيناه والمسلمون في أشد حالات الضعف في الحبشة، ونراه اليوم

والمسلمون أسياد الجزيرة العربية، لكن الذي يحكم هذا الخط، هو أن لا يتحول هذا الموقف إلى السباب والشتيمة، والغضب للنفس؛ فإن القيد الأكبر لهذا الحوار والجدل، هو أن يكون بالتي هي أحسن، أي بالصورة التي لا يوجد أحسن منها على الإطلاق .. وجدال التي هي أحسن هو الذي يثمر خصمًا منفعلًا مع عقيدة الإسلام، أو معترفًا بعظمة التعامل معه [1].

وقال البوطي في (فقه السيرة):

وإذا توفر عقل مفكر، وتوفرت معه [2] حرية في التأمل، فلا مفر - إذن - من قبول الحق، والإيمان به، مهما شق السبيل إلى ذلك. أما إذا فقدت حرية الفكر، وضاعت قدسية العقل، ونبتت في مكانها قدسية الحقد والهوى، فلا مناص من العكوف على الباطل، ولا مفر من معانقة الجهل أو التجاهل. وصدق رب العالمين إذ يبين لنا صفات هؤلاء: ﴿ وَقَالُواْ قُلُوبُنَا فِيٓ أَكِنَّةٖ مِّمَّا تَدۡعُونَآ إِلَيۡهِ وَفِيٓ ءَاذَانِنَا وَقۡرٞ وَمِنۢ بَيۡنِنَا وَبَيۡنِكَ حِجَابٞ فَٱعۡمَلۡ إِنَّنَا عَٰمِلُونَ ٥ ﴾ [فصلت].

* * *

(1) المنهج الحركي، ص 180-181، مختصرًا.

(2) فقه السيرة للبوطي، ص471.

الفصل الثالث

سرايا وبعوث لتحقيق سيادة الأمن

كما بعث رسول الله ﷺ عماله إلى القبائل لجباية الزكاة؛ كي تستقر الأمور المالية للدولة، بعث أيضًا السرايا والبعوث؛ كي تتحقق للدولة المسلمة السيادة الأمنية على جميع ربوع جزيرة العرب.

1- في صفر: سرية قطبة بن عامر إلى خثعم:

بعثه رسول الله ﷺ في عشرين رجلًا إلى حي من خَثْعَم بناحية تَبَالَة أو بِيشَه، فخرجوا على عشرة أبعرة يتعقبونها، قد غيبوا السلاح، يسيرون بالليل ويكمنون بالنهار، حتى وصلوا مكان العدو، فأغاروا عليهم ليلًا، ودار قتال عنيف، فهزموا المشركين، واستاقوا النعم والشاء والنساء، وفي الصباح تقاطر جمع الخثعميين، وساروا في أثرهم. وعندما أدركوهم أتى الله بسيل حال بينهم وبين المسلمين، فما قدر رجل واحد منهم أن يمضي حتى نجا المسلمون إلى المدينة [1].

2- في ربيع الأول: سرية الضحاك بن سفيان الكلابي إلى بني كلاب بالقرطاء:

قيل إنه في ربيع الأول من العام التاسع الهجري، بعث رسول الله ﷺ جيشًا إلى القرطاء، عليهم الضحاك بن سفيان الكلابي، ومعه الأَصْيَد بن سَلَمَة بن قُرْط. فلقوهم بالزُّج، زُج لاوَة [2]، فدعوهم إلى الإسلام فأبوا، فقاتلوهم، فهزموهم، فلحق الأَصْيَد أباه

(1) السيرة لمهدي رزق الله، ص 607.

(2) موضع بنجد على طريق البصرة.

سلَمة، فدعاه إلى الإسلام وأعطاه الأمان، فسبه وسب دينه فعرقب الأصيد عرقوبي فرسه، ثم جاء رجل من المسلمين فقتل سلمة [1].

3- في ربيع الآخر: سرية علقمة بن مجزر المدلجي إلى الأحباش بجدة:

بعث رسول الله ﷺ علقمة بن مجزر رَضِيَ اللَّهُ عَنْهُ في ثلاثمائة مقاتل إلى رجال من الحبشة، كانوا قد اجتمعوا بالقرب من ساحل البحر بجدة؛ للقيام بأعمال القرصنة ضد أهل مكة، فخاض علقمة البحر حتى انتهى إلى جزيرة، فلما سمعوا بمسير المسلمين إليهم هربوا [2].

فائدة: (من أمركم بمعصية الله فلا تطيعوه):

لما قفل علقمة بن مجزر رَضِيَ اللَّهُ عَنْهُ راجعًا، تعجل بعض أفراد السرية في العودة إلى أهليهم فأذن لهم، وأَمَّرَ عليهم عبد الله بن حذافة بن قيس السهمي رَضِيَ اللَّهُ عَنْهُ، وكان فيهم أبو سعيد الخدري رَضِيَ اللَّهُ عَنْهُ الذي حكى ما كان منهم، فقال:

بعث رسول الله ﷺعلقمة بن مُجَزر على بعث، وأنا فيهم، فلما انتهى إلى رأس غزاته، أو كان ببعض الطريق، استأذنته طائفة من الجيش، فأذن لهم وأَمَّرَ عليهم عبد الله بن حذافة بن قيس السهمي، فكنت فيمن غزا معه، فلما كان ببعض الطريق أوقد القوم نارًا؛ ليصطلوا، أو ليصنعوا عليها صنيعًا، فقال عبد الله - وكان فيه دعابة - أليس لي عليكم السمع والطاعة؟ قالوا: بلى، قال: فما أنا بآمركم بشيء إلا صنعتموه؟، قالوا: نعم، قال: فإني أعزم عليكم إلا تواثبتم في هذه النار، فقام ناسٌ فتحجزوا، فلما ظن أنهم واثبون قال: أمسكوا على أنفسكم، فإنما كنت أمزح معكم، فلما قدمنا ذكروا ذلك للنبي ﷺ، فقال: «من أمركم منهم بمعصية الله فلا تطيعوه» [3].

---

(1) السيرة لمهدي رزق الله، ص 708.

(2) فتح الباري (8/59)، الرحيق المختوم، ص 426.

(3) حسن، أخرجه ابن ماجه (2836)، وأحمد (3/67)، الصحيحة (2324).

4- في ربيع الآخر: سرية عكاشة بن محصن إلى الجناب:

وقد ذكرها ابن سيد الناس في (عيون الأثر) وقال: سرية عكاشة بن محصن إلى الجناب أرض عُذرة وبلي، وكانت في شهر ربيع الآخر سنة تسع من الهجرة [1].

* * *

(1) عيون الأثر (279/2)، وانظر: الأغصان الندية، ص 494.

الفصل الرابع

تحدي الروم (غزوة تبوك)

لقد أخذ الإسلام يستقر في الجزيرة العربية، واستولى سلطانه على الأفئدة والنفوس، وهذا ما كانت نصارى الروم تراقبه من بعيد في خوف وقلق.

فالرومان لم يعانقوا النصرانية إيمانًا منهم بها، وإنما كانوا قد اتخذوها ذريعة إلى استعمار شعوب تلك المنطقة، ولأجل ذلك تلاعبوا بها كما أرادوا، وغيروا منها وبدلوا، فخلطوا هديها بوثنيتهم، وأضافوا إلى ما فيها من الحق الكثير من باطلهم.

والإسلام – وهو الدين الذي تكررت الدعوة إليه على لسان جميع الرسل والأنبياء – إنما جاء ليخرج به الناس عن كل سلطان غير سلطان الله تعالى، فلا يكون لأحد عليهم من سيادة ولا سلطان، ولا حكم إلا سلطان الله وحكمه.

وهم – وقد علموا من النصرانية كل حقائقها – أدرى الناس بخطورة هذه الرسالة الأخيرة، وما تحمل في طيها من تهديد لحكم الطغاة وسلطان المتسلطين وبغي الباغين.

فلا غرو أن يكون هذا الدين – وقد استقر أمره في الجزيرة العربية – مصدر قلق وتخوف لدى طغاة الروم وأتباعهم، الذين ما دخلوا النصرانية إلا ظاهرًا، وما أرادوا من ذلك إلا ضمان بسط سلطانهم على المستضعفين.

فمن أجل ذلك تلقوا خبر فتح مكة، ونبأ انتصار الإسلام في الجزيرة العربية بالذعر، ثم أخذوا يجمعون جموعهم بين الشام والحجاز؛ علّهم يقفون في وجه هذا الدين، الذي سيكون في انتشاره القضاء عليهم وعلى سلطانهم [1].

لذلك رأى الروم أن يضربوا الإسلام في الجزيرة ضربة ترده من حيث جاء، وتوصد عليه أبواب الحدود، فلا يستطيع التسرب منها، وتضمن الكنيسة – بعدئذ – انفرادها بالضمير البشري، حتى إذا قرعت أجراسها لم يشب رنينها صدى لمؤذن يهتف بتكبير الله وتوحيده، ويدعو للصلاة والفلاح.

(1) فقه السيرة للبوطي، ص 441.

وترامت إلى النبي في المدينة أنباء هذا الإعداد الماكر، وتاريخ النصرانية - منذ تولت الحكم - يؤكد نية العدوان لدى رجال الكهنوت .. فلم ير النبي بدًّا من استنفار المسلمين؛ لملاقاة هذا العدوان المبيت ..

والتهيؤ لملاقاة الروم، جاء في أيام قيظ وقحط ..

والسير إليهم يتطلب جهدًا مضنيًا ونفقة كبيرة ..

وقتال الروم ليس صدامًا مع قبيلة محدودة العدد والعدة؛ بل هو كفاح مرير مع دولة تبسط سلطانها على جملة قارات، وتملك موارد ثرية من الرجال والأموال.

على أن أصحاب العقيدة لا ينكصون أمام الصعاب، والسكوت عن تحدي النصارى لهذا الدين ورغبتهم الملحة في القضاء عليه يعتبر انتحارًا وبوارًا، فليتحامل المسلمون على أنفسهم إذًا، وليواجهوا مستقبلهم بما يفرضه من تضحيات وتفديات [1].

خرج رسول الله ﷺ لهذه الغزوة في رجب من العام التاسع الهجري، بعد العودة من حصار الطائف بنحو ستة أشهر.

واشتهرت هذه الغزوة باسم غزوة تبوك؛ نسبة إلى مكان هو عين تبوك التي انتهى إليها الجيش الإسلامي، وأصل هذه التسمية جاء في صحيح مسلم، فقد روى بسنده إلى معاذ أن رسول الله ﷺ قال: «ستأتون غدًا إن شاء الله عين تبوك، وإنكم لن تأتوها حتى يضحى النهار، فمن جاءها منكم فلا يمس من مائها شيئًا حتى آتي» [2].

وللغزوة اسم آخر، وهو غزوة العسرة، وقد ورد هذا الاسم في القرآن الكريم، حينما تحدث عن هذه الغزوة في سورة التوبة، قال تعالى: ﴿لَّقَد تَّابَ ٱللَّهُ عَلَى ٱلنَّبِيِّ وَٱلْمُهَـٰجِرِينَ وَٱلْأَنصَارِ ٱلَّذِينَ ٱتَّبَعُوهُ فِى سَاعَةِ ٱلْعُسْرَةِ مِنۢ بَعْدِ مَا كَادَ يَزِيغُ قُلُوبُ فَرِيقٍ مِّنْهُمْ ثُمَّ تَابَ عَلَيْهِمْ ۚ إِنَّهُۥ بِهِمْ رَءُوفٌ رَّحِيمٌ ﴿١١٧﴾﴾ [التوبة]، وقد روى البخاري [3] بسنده إلى أبي موسى الأشعري، قال: أرسلني أصحابي إلى رسول الله ﷺ،

(1) فقه السيرة للغزالي، ص436.
(2) صحيح مسلم (1784/4)، رقم (706).
(3) البخاري (150/5)، رقم (4415).

أسأله الحملان لهم؛ إذ هم معه في جيش العسرة، وهي غزوة تبوك ... وعنون البخاري لهذه الغزوة بقوله: باب غزوة تبوك وهي غزوة العسرة.

لقد سميت بهذا الاسم لشدة ما لاقى المسلمون فيها من الضنك؛ فقد كان الجو شديد الحرارة، والمسافة بعيدة، والسفر شاقًّا؛ لقلة المئونة، وقلة الدواب التي تحمل المجاهدين إلى أرض المعركة، وقلة الماء في هذا السفر الطويل والحر الشديد، وكذلك قلة المال الذي يجهز به الجيش وينفق عليه، ففي تفسير عبد الرزاق، عن معمر بن عقيل، قال: خرجوا في قلة من الظهر، وفي حر شديد، حتى كانوا ينحرون البعير فيشربون ما في كرشه من الماء، فكان ذلك عسرة من الماء، وهذا الفاروق عمر بن الخطاب، يحدثنا عن مدى ما بلغ العطش من المسلمين، فيقول: خرجنا مع رسول الله ﷺ إلى تبوك في قيظ شديد، فنزلنا منزلًا أصابنا فيه عطش شديد، حتى ظننا أن رقابنا ستنقطع، حتى إن كان أحدنا يذهب يلتمس الخلاء فلا يرجع حتى يظن أن رقبته تنقطع، وحتى إن الرجل لينحر بعيره فيعصر فرشه فيشربه ويضعه على بطنه [1].

عودة إلى الماضي القريب:

عرفنا فيما تقدم أن بداية تعرض الرومان للمسلمين كانت بقتل سفير رسول الله ﷺ الحارث بن عمير الأزدي على يدي شرحبيل بن عمرو الغساني، حينما كان السفير يحمل رسالة النبي ﷺ إلى عظيم بصرى، وأن النبي ﷺ أرسل بعد ذلك سرية زيد بن حارثة التي اصطدمت بالرومان اصطدامًا عنيفًا في مؤتة، ولم تنجح في أخذ الثأر من أولئك الظالمين المتغطرسين، إلا أنها تركت أروع أثر في نفوس العرب، قريبهم وبعيدهم.

ولم يكن قيصر ليصرف نظره عما كان لمعركة مؤتة من الأثر الكبير لصالح المسلمين، وعما كان يطمح إليه بعد ذلك كثير من قبائل العرب من استقلالهم عن قيصر، ومواطأتهم للمسلمين. إن هذا كان خطرًا يتقدم ويخطو إلى حدوده خطوة بعد خطوة، ويهدد الثغور الشامية التي تجاور العرب، فكان يرى أنه يجب القضاء على قوة المسلمين قبل أن تتجسد في صورة خطر عظيم لا يمكن القضاء عليه، وقبل أن تثور القلاقل والثورات في المناطق العربية المجاورة للرومان.

(1) السيرة للصلابي، ص 808-809.

ونظرًا إلى هذه المصالح لم يقض قيصر بعد معركة مؤتة سنة كاملة؛ حتى أخذ يهيئ الجيش من الرومان والعرب التابعة لهم من آل غسان وغيرهم، وبدأ يجهز لمعركة دامية فاصلة [1].

أسباب أخرى للغزوة:

كان الحدث المهم في شمال جزيرة العرب هو إسلام فروة بن عمرو الجذامي، الذي كان قائدًا من قواد الروم، وواليًا لهم على من يليهم من العرب، وكان منزله معان وما حولها من أرض الشام. فلما بلغ الروم ذلك من إسلامه، طلبوه، حتى أخذوه فحبسوه عندهم، فقال في محبسه ذاك:

ولقد علمت أبا كبيشة أنني ... وسط الأعزة لا يحص [2] لساني

فلئن هلكتُ لتفقدُن أخاكم ... ولئن بقيتُ لتعرفُن مكاني

ولقد جمعت أجل ما جمع الفتى ... من جودة وشجاعة وبيانِ

فلما أجمعت الروم لصلبه على ماء لهم يقال له عفراء بفلسطين، قال:

ألا هل أتى سلمى بأن حليلها ... على ماء عفرا فوق إحدى الرواحل

ولما قدموه ليقتلوه، قال:

بلغ سراة المسلمين بأنني ... سَلْمٌ لربي أعظُمي ومقامي

وكما كان السبب المباشر في مؤتة مقتل الحارث بن عمير الأزدي رسول رسول الله ﷺ، كان السبب المباشر في تبوك هو مقتل فروة بن عمرو الجذامي، الذي استغاث بالمسلمين وبرسول الله [3].

---

(1) الرحيق المختوم، ص429.

(2) **لا يحص**: لا يقطع.

(3) المنهج الحركي، ص 187.

وقال ابن كثير [1]: فعزم رسول الله ﷺ على قتال الروم؛ لأنهم أقرب الناس إليه، وأولى الناس بالدعوة إلى الحق؛ لقربهم إلى الإسلام وأهله، وقد قال الله تعالى: ﴿يَٰٓأَيُّهَا ٱلَّذِينَ ءَامَنُواْ قَٰتِلُواْ ٱلَّذِينَ يَلُونَكُم مِّنَ ٱلۡكُفَّارِ وَلۡيَجِدُواْ فِيكُمۡ غِلۡظَةٗۚ وَٱعۡلَمُوٓاْ أَنَّ ٱللَّهَ مَعَ ٱلۡمُتَّقِينَ ١٢٣﴾ [التوبة] [2].

المبحث الأول
الإعداد للغزوة

كانت الأنباء تترامى إلى المدينة بإعداد الرومان؛ للقيام بغزوة حاسمة ضد المسلمين، حتى كان الخوف يتسورهم كل حين، لا يسمعون صوتًا غير معتاد إلا ويظنونه زحف الرومان، ويظهر ذلك جليًّا مما وقع لعمر بن الخطاب؛ فقد كان النبي ﷺ آلى من نسائه شهرًا في هذه السنة (9 هـ)، وكان هجرهن واعتزل عنهن في مشربة له. ولم يفطن الصحابة إلى حقيقة الأمر في بدايته، فظنوا أن النبي ﷺ طلقهن، فسرى فيهم الهم والحزن والقلق، يقول عمر بن الخطاب - وهو يروي هذه القصة: وكان لي صاحب من الأنصار إذا غبت أتاني بالخبر، وإذا غاب كنت آتيه أنا بالخبر - وكانا يسكنان في عوالي المدينة، يتناوبان إلى النبي ﷺ - ونحن نتخوف ملكًا من ملوك غسان، ذكر لنا أنه يريد أن يسير إلينا، فقد امتلأت صدورنا منه، فإذا صاحبي الأنصاري يدق الباب، فقال: افتح، افتح، فقلت: جاء الغساني؟ فقال: بل أشد من ذلك، اعتزل رسول الله ﷺ أزواجه. الحديث [3].

وفي لفظ آخر (أنه قال): وكنا تحدثنا أن آل غسان تنعل النعال لغزونا، فنزل صاحبي يوم نوبته، فرجع عشاء، فضرب بابي ضربًا شديدًا، وقال: أنائم هو؟ ففزعت، فخرجت إليه، وقال: حدث أمر عظيم، فقلت: ما هو؟ أجاءت غسان؟ قال: لا، بل أعظم منه وأطول، طلق رسول الله ﷺ نساءه. الحديث [4].

---

(1) البداية والنهاية (3/5)، وتفسير ابن كثير (98/5).
(2) انظر: السيرة لمهدي رزق الله، ص 614-615.
(3) صحيح البخاري (130/2).
(4) المصدر نفسه (334/1).

كانت هذه هي الأحوال والأخبار التي يواجهها ويتلقاها المسلمون، إذ بلغهم من الأنباط الذين يقدمون بالزيت من الشام إلى المدينة، أن هرقل قد هيأ جيشًا عرمرمًا، قوامه أربعون ألف مقاتل، وأعطى قيادته لعظيم من عظماء الروم، وأنه أجلب معهم قبائل لخم وجذام، وغيرهما من متنصرة العرب، وأن مقدمتهم بلغت إلى البلقاء. وهكذا تمثل أمام المسلمين خطر كبير [1].

الرسول ﷺ يُبادئ الروم بالغزو:

نظر رسول الله ﷺ للموقف بنظر دقيق حكيم، فقد رأى أنه لو توانى عن غزو الروم في هذه الظروف الحاسمة، وتركهم يجوسون خلال المناطق التي كانت تحت سيطرة الإسلام ونفوذه، لكان لذلك أسوأ الأثر على دعوة الإسلام، وعلى سمعة المسلمين العسكرية؛ فالجاهلية التي تلفظ نفسها الأخير ستحيا مرة أخرى، والمنافقون الذين يتربصون بالمسلمين الدوائر ستعلو حناجرهم من جديد، في حين يهجم الروم بحملة ضارية من الأمام، وهكذا تخفق الجهود التي بذلها هو وأصحابه في نشر الإسلام، وتذهب المكاسب التي حصلوا عليها بعد حروب دامية متتابعة.

كان رسول الله ﷺ يعرف كل ذلك جيدًا؛ ولذلك قرر - مع ما كان فيه من العسر والشدة - القيام بغزوة فاصلة، يخوضها المسلمون ضد الروم في حدودهم، ولا يمهلونهم حتى يزحفوا إلى دار الإسلام [2].

النفير العام:

استنفر رسول الله ﷺ أهل المدينة وما حولها، وأهل مكة وما جاورها، واستنفر أيضًا الأعراب الضاربين في الجزيرة العربية ممن أسلموا؛ كي يتكون من ذلك أكبر جيش يمكن إعداده؛ لمقاتلة الروم ذوي العدد والعدة، والدربة في الحروب [3].

(1) الرحيق المختوم، ص 430-431.
(2) المصدر السابق، ص431-432، بتصرف.
(3) السيرة لأبي شهبة، ج2، ص 495.

وأعلن رسول الله ﷺ - على غير عادته في غزواته - هدفه ووجهته في القتال؛ إذ أعلن صراحة أنه يريد قتال بني الأصفر (الروم)، وجلى الأمر للمسلمين؛ لأسباب، منها[1]:

1- بُعْد المسافة؛ فقد كان رسول الله ﷺ يدرك أن السير إلى بلاد الروم يُعدُّ أمرًا صعبًا؛ لأن التحرك سيتم في منطقة صحراوية ممتدة، قليلة الماء والنبات، ولابد حينئذٍ من إكمال المؤنة ووسائل النقل للمجاهدين قبل بدء الحركة؛ حتى لا يؤدي نقص هذه الأمور إلى الإخفاق في تحقيق الهدف المنشود.

2- كثرة عدد الروم، بالإضافة إلى أن مواجهتهم تتطلب إعدادًا خاصًّا؛ فهم عدو يختلف في طبيعته عن الأعداء الذين واجههم النبي من قبل؛ فأسلحتهم كثيرة، ودرايتهم بالحرب كبيرة، وقدرتهم القتالية فائقة.

3- شدة الزمان؛ وذلك لكي يقف كل امرئ على ظروفه، ويعدّ النفقة اللازمة له في هذا السفر الطويل لمن يعول وراءه.

4- أنه لم يعد مجال للكتمان في هذا الوقت، حيث لم يبق في جزيرة العرب قوة معادية لها خطرها، تستدعي هذا الحشد الضخم، سوى الرومان ونصارى العرب الموالين لهم في منطقة تبوك ودومة الجندل والعقبة.

المسارعة في تلبية النداء:

لم يكن من المسلمين بعد أن سمعوا نداء رسول الله ﷺ يدعو إلى قتال الروم إلا وتسابقوا إلى امتثاله، فقاموا يتجهزون للقتال بسرعة بالغة، وأخذت القبائل والبطون تهبط إلى المدينة من كل صوب وناحية، ولم يتخلف من المسلمين عن هذه الغزوة إلا الذين في قلوبهم مرض، وإلا ثلاثة نفر (سيأتي ذكرهم) [2].

---

(1) السيرة للصلابي، ص 816-817.

(2) الرحيق المختوم، ص432.

فها هو علي بن أبي طالب لا يرضى أن يُخلفه الرسول ﷺ في أهله، فيلحق بالرسول وهو نازل بالجرف، ويقول: «يا رسول الله، تخلفني في النساء والصبيان؟!» فقال له الرسول ﷺ: «أما ترضى أن تكون مني بمنزلة هارون من موسى، غير أنه لا نبي بعدي»(1).

وها هو أبو خيثمة الأنصاري، وقد سارع إلى حسم الصراع الدائر في نفسه بين البقاء والخروج، ثم يؤثر الخروج؛ رغبة في ما عند الله، وفي ذلك يقول: «تخلفت عن رسول الله ﷺ، فدخلت حائطًا لي - بستانًا - فرأيت عريشًا قد رُش بالماء، ورأيت زوجتي، فقلت: ما هذا بإنصاف، رسول الله ﷺ في السموم والحرور، وأنا في الظل والنعيم، فقمت إلى ناضح لي وتمرات فخرجت، فلما طلعت على العسكر، فرآني الناس، قال النبي ﷺ: «كن أبا خيثمة»، فجئت، فدعا لي (2).

ويروى أن أبا ذر عندما أبطأ عليه بعيره أخذ متاعه، فحمله على ظهره، ثم خرج يتبع أثر رسول الله ﷺ ماشيًا، وعندما نزل رسول الله ﷺ في بعض منازله رأى أحد المسلمين رجلًا يمشي وحده، فأخبر الرسول ﷺ، فقال: «كن أبا ذر»، فعندما وصل كان هو أبا ذر، فقال رسول الله ﷺ: «رحم الله أبا ذر، يمشي وحده، ويموت وحده، ويبعث وحده»(3).

ولقد استطاع رسول الله ﷺ أن يحشد ثلاثين ألف مقاتل، من المهاجرين والأنصار وأهل مكة والقبائل العربية الأخرى (4)، وهو ما اتفق عليه أئمة المغازي والسير، ابن إسحاق والواقدي وابن سعد (5).

---

(1) البخاري/ الفتح (240/16) حديث (4416)، ومسلم (1870/4-1871/ حديث 2404).
(2) ابن هشام (222/4).
(3) رواه الحاكم في المستدرك (50/3-51) وصححه، ووافقه الذهبي، وانظر: السيرة لرزق الله، ص 621-622.
(4) السيرة للصلابي، ص816.
(5) السيرة لمهدي رزق الله، ص624.

(ائذن لي ولا تفتني):

كان الجد بن قيس من أشراف بني سلمة، وكان منافقًا يتربص برسول الله ﷺ والمسلمين الدوائر، وحدث أن دعاه رسول الله ﷺ وهو في جهازه لغزوة تبوك للخروج معه، فاعتذر بعذر غريب هابط من أسخف الأعذار.

روى محمد ابن إسحاق، عن الزهري، ويزيد بن رومان، وعبد الله بن أبي بكر، وعاصم بن عمر بن قتادة، وغيرهم، قالوا: قال رسول الله ﷺ ذات يوم وهو في جهازه (أي لغزوة تبوك) للجد بن قيس أخي بني سلمة: «هل لك يا جد العام في جلاد بني الأصفر؟» (يعني الروم). فقال: يا رسول الله، أوتأذن لي ولا تفتني، فوالله لقد عرف قومي ما رجل أشد عجبًا بالنساء مني، وإني أخشى إن رأيت نساء بني الأصفر لا أصبر عليهن.

فأعرض عنه رسول الله ﷺ، وقال: «قد أذنت لك». ففي الجد بن قيس نزلت هذه الآية: ﴿وَمِنْهُم مَّن يَقُولُ ٱئْذَن لِّي وَلَا تَفْتِنِّيٓ ۚ أَلَا فِى ٱلْفِتْنَةِ سَقَطُوا۟ ۗ وَإِنَّ جَهَنَّمَ لَمُحِيطَةٌۢ بِٱلْكَٰفِرِينَ ﴿٤٩﴾﴾ [التوبة]، أي: إن كان إنما خشي الفتنة من نساء الروم، فما سقط فيه من الفتنة أكبر، بتخلفه عن رسول الله ﷺ، والرغبة بنفسه عن نفسه. فكان مصيره جهنم وبئس المصير.

وجاء المعذرون من الأعراب ليؤذن لهم:

ظهرت أعراض الضعف وحب السلامة على بعض طوائف من الصف المسلم .. فجاء نفر من غفار، وهم أعراب في البادية حول المدينة، يعتذرون عن التخلف، فلم يعذرهم رسول الله ﷺ، ولم يأذن لهم في التخلف، وقعد كبار المنافقين عن الاعتذار، وعن الخروج مع رسول الله ﷺ والمؤمنين [1]، وفي هؤلاء وأولئك نزل قوله تعالى: ﴿وَجَآءَ ٱلْمُعَذِّرُونَ مِنَ ٱلْأَعْرَابِ لِيُؤْذَنَ لَهُمْ وَقَعَدَ ٱلَّذِينَ كَذَبُوا۟ ٱللَّهَ وَرَسُولَهُۥ ۚ سَيُصِيبُ ٱلَّذِينَ كَفَرُوا۟ مِنْهُمْ عَذَابٌ أَلِيمٌ ﴿٩٠﴾﴾ [التوبة:90].

(1) الجزائري: هذا الحبيب يا محب، ص 425.

(عفا الله عنك لم أذنت لهم):

وجاء قوم من المنافقين يعتذرون إلى رسول الله ﷺ، ليس لهم عذر، وإنما هو النفاق والشك وكراهية الجهاد، فأذن لهم بناء على ظاهر حالهم [1]، ولكن الله عاتبه على الإذن لهم، فقال: ﴿عَفَا ٱللَّهُ عَنكَ لِمَ أَذِنتَ لَهُمْ حَتَّىٰ يَتَبَيَّنَ لَكَ ٱلَّذِينَ صَدَقُوا۟ وَتَعْلَمَ ٱلْكَـٰذِبِينَ ﴿٤٣﴾ لَا يَسْتَـْٔذِنُكَ ٱلَّذِينَ يُؤْمِنُونَ بِٱللَّهِ وَٱلْيَوْمِ ٱلْـَٔاخِرِ أَن يُجَـٰهِدُوا۟ بِأَمْوَٰلِهِمْ وَأَنفُسِهِمْ ۗ وَٱللَّهُ عَلِيمٌۢ بِٱلْمُتَّقِينَ ﴿٤٤﴾ إِنَّمَا يَسْتَـْٔذِنُكَ ٱلَّذِينَ لَا يُؤْمِنُونَ بِٱللَّهِ وَٱلْيَوْمِ ٱلْـَٔاخِرِ وَٱرْتَابَتْ قُلُوبُهُمْ فَهُمْ فِى رَيْبِهِمْ يَتَرَدَّدُونَ ﴿٤٥﴾﴾[التوبة]. فهؤلاء هم أهل الريبة، الذين يلتمسون للفرار الأعذار، وتقعد بهم كراهيتهم للإسلام عن إسداء أي عون له، فهيهات هيهات أن يعدوا للخروج عدة، أو يتمنوا للخارجين عودًا [2].

قال سيد قطب رَحِمَهُ ٱللَّهُ:

إنه لطف الله برسوله، فهو يعجل له بالعفو قبل العتاب، فلقد تدارى المتخلفون خلف إذن الرسول ﷺ لهم بالقعود حين قدموا له المعاذير، وقبل أن ينكشف صدقهم من كذبهم في هذه المعاذير، وكانوا سيتخلفون عن الركب حتى ولو لم يأذن لهم، فعندئذ تتكشف حقيقتهم، ويسقط عنهم ثوب النفاق، ويظهرون للناس على طبيعتهم، ولا يتوارون خلف إذن الرسول.

وإذا لم يكن ذلك، فإن القرآن يتولى كشفهم، ويقرر القواعد التي يمتاز بها المؤمنون والمنافقون: ﴿ لَا يَسْتَـْٔذِنُكَ ٱلَّذِينَ يُؤْمِنُونَ بِٱللَّهِ وَٱلْيَوْمِ ٱلْـَٔاخِرِ أَن يُجَـٰهِدُوا۟ بِأَمْوَٰلِهِمْ وَأَنفُسِهِمْ ۗ وَٱللَّهُ عَلِيمٌۢ بِٱلْمُتَّقِينَ ﴿٤٤﴾ إِنَّمَا يَسْتَـْٔذِنُكَ ٱلَّذِينَ لَا يُؤْمِنُونَ بِٱللَّهِ وَٱلْيَوْمِ ٱلْـَٔاخِرِ وَٱرْتَابَتْ قُلُوبُهُمْ فَهُمْ فِى رَيْبِهِمْ يَتَرَدَّدُونَ ﴿٤٥﴾ ﴾ [التوبة].

وهذه هي القاعدة التي لا تخطئ، فالذين يؤمنون بالله، ويعتقدون بيوم الجزاء، لا ينتظرون أن يؤذن لهم في أداء فريضة الجهاد، ولا يتلكئون في تلبية داعي النفرة في سبيل

---

(1) السيرة لأبي شهبة، ج2، ص489.

(2) فقه السيرة للغزالي، ص 439.

الله بالأموال والأرواح، بل يسارعون إليها خفافًا وثقالًا كما أمرهم الله؛ طاعة لأمره، ويقينًا بلقائه، وثقةً بجزائه، وابتغاء لرضاه، وإنهم ليتطوعون تطوعًا، فلا يحتاجون إلى من يستحثهم، فضلًا عن الإذن لهم، إنما يستأذن أولئك الذين خلت قلوبهم من اليقين، فهم يتلكأون ويتلمسون المعاذير، لعل عائقًا من العوائق يحول بينهم وبين النهوض بتكاليف العقيدة التي يتظاهرون بها، وهم يرتابون فيها ويترددون.

إن الطريق إلى الله واضحة مستقيمة، فما يتردد ويتلكأ إلا الذي لا يعرف الطريق، أو الذي يعرفها ويتنكبها؛ اتقاء لمتاعب الطريق [1].

(لا تنفروا في الحر):

عندما أعلن رسول الله ﷺ النفير، قال بعض المنافقين لبعض: (لا تنفروا في الحر)؛ زهادة في الجهاد، وشكًّا في الحق، وإرجافًا بالرسول ﷺ، وقال بعضهم: يغزو محمد بني الأصفر - الروم - مع جهد الحال والحر والبلد البعيد، أيحسب محمد أن قتال بني الأصفر معه اللعب، والله لكأني أنظر إلى أصحابه مقرنين في الحبال.

وتعللوا بالتعلات الباطلة من بُعد الشقة، وشدة الحر [2]، وهم الذين ذكرهم الله في قوله:

﴿وَقَالُواْ لَا تَنفِرُواْ فِي ٱلۡحَرِّۗ قُلۡ نَارُ جَهَنَّمَ أَشَدُّ حَرّٗاۚ لَّوۡ كَانُواْ يَفۡقَهُونَ ٨١ فَلۡيَضۡحَكُواْ قَلِيلٗا وَلۡيَبۡكُواْ كَثِيرٗا جَزَآءَۢ بِمَا كَانُواْ يَكۡسِبُونَ ٨٢﴾ [التوبة].

قال سيد قطب رَحِمَهُ ٱللَّهُ:

هؤلاء الذين أدركتهم ثقلة الأرض، ثقلة الحرص على الراحة، والشح بالنفقة، وقعد بهم ضعف الهمة وهزال النخوة، وخواء القلب من الإيمان.

هؤلاء فرحوا بالسلامة والراحة، وتركوا المجاهدين يلاقون الحر والجهد، وحسبوا أن السلامة العامة غاية يحرص عليها الرجال.

---

(1) في ظلال القرآن.

(2) انظر: السيرة لأبي شهبة، ج2، ص497-498.

إن هؤلاء لهم نموذج لضعف الهمة، وطراوة الإرادة .. وكثيرون هم الذين يشفقون من المتاعب، وينفرون من الجهد، ويؤثرون الراحة الرخيصة على الكدح الكريم، ويفضلون السلامة الذليلة على الخطر العزيز، وهم يتساقطون إعياءً خلف الصفوف الجادة الزاحفة، العارفة بتكاليف الدعوات. ولكن هذه الصفوف تظل في طريقها المملوء بالعقبات؛ لأنها تدرك بفطرتها أن كفاح العقبات فطرة في الإنسان، وأنه ألذ وأجمل من القعود والتخلف والراحة البليدة التي لا تليق بالرجال.

فإن كانوا يشفقون من حر الأرض، ويؤثرون الراحة المسترخية في الظلال. فكيف بهم في حر جهنم وهي أشد حرًّا، وأطول أمدًا؟! .. وإنها لسخرية مريرة، ولكنها كذلك حقيقة؛ فإما جهاد في سبيل الله فترة محدودة في حر الأرض، وإما انطراح في جهنم لا يعلم مداه إلا الله، وإنه لضحك في هذه الأرض وأيامها المعدودة، وإنه لبكاء في أيام الآخرة الطويلة، ﴿وَإِنَّ يَوْمًا عِندَ رَبِّكَ كَأَلْفِ سَنَةٍ مِّمَّا تَعُدُّونَ﴾[1].

تحريق بيت سويلم اليهودي:

قال ابن هشام:

بلغ رسول الله ﷺ أن ناسًا من المنافقين يجتمعون في بيت سويلم اليهودي[2]، وكان بيته عند جاسوم، يثبطون الناس عن رسول الله ﷺ في غزوة تبوك، فبعث إليهم النبي ﷺ طلحة بن عبيد الله في نفر من أصحابه، وأمره أن يحرق عليهم بيت سويلم، ففعل طلحة، فاقتحم الضحاك بن خلفة من ظهر البيت (هربًا)، فانكسرت رجله، واقتحم أصحابه فأفلتوا، فقال الضحاك في ذلك:

كادت وبيت الله نار محمد ... يشيط بها الضحاك وابن أبيرق

ولت وقد طبقت كبس سويلم ... أنوء على رجلي كسيرًا ومرفقي

سلام عليكم لا أعود لمثلها ... أخاف ومن تشمل به النار يحرق

---

(1) في ظلال القرآن.

(2) وهو أحد المنافقين.

(لا أجد ما أحملكم عليه):

وجاء نفر من فقراء المسلمين إلى رسول الله ﷺ ليحملهم؛ حتى يصحبوه في غزوته هذه، فلم يجدوا عنده من الظهر ما يحملهم عليه، فرجعوا وهم يبكون؛ تأسفًا على ما فاتهم من الجهاد في سبيل الله [1]. وتختلف الروايات في تعيين أسماء هؤلاء الكرام، ولكنها تتفق على الواقعة الصحيحة.

قال ابن إسحاق: وكانوا سبعة نفر من الأنصار وغيرهم:

- فمن بني عمرو بن عوف: سالم بن عمير.
- وعلبة بن زيد أخو بني حارثة.
- وأبو ليلى عبد الرحمن بن كعب أخو بني مازن بن النجار.
- وعمرو بن الحمام بن الجموح أخو بني سلمة.
- وعبد الله بن المغفل المزني (وبعض الناس يقولون: بل هو عبد الله بن عمرو المزني).
- وهرمي بن عبد الله أخو بني واقف.
- وعرباض بن سارية الفزاري [2].

وقد كان هؤلاء الرجال السبعة من أهل الإيمان الصادق والإسلام الحسن، إلا أنهم كانوا أهل حاجة وفقر، فلم يجدوا زادًا ولا راحلة [3]، وقد عرفوا بالبكائين؛ لأنهم لما لم يجدوا عند رسول الله ﷺ ما يحملهم عليه، تولوا وأعينهم تفيض من الدمع حزنًا ألا يجدوا ما ينفقون.

---

(1) البداية والنهاية 9/4.

(2) المصدر السابق 9/5.

(3) هذا الحبيب يا محب للجزائري، ص 426.

قال ابن إسحاق: فبلغني أن ابن يامين بن عمير بن كعب النضري لقي أبا ليلى، وعبد الله بن مغفل وهما يبكيان، فقال: ما يبكيكما؟

قالا: جئنا رسول الله ﷺ ليحملنا، فلم نجد عنده ما يحملنا عليه، وليس عندنا ما نتقوى به على الخروج معه، فأعطاهما ناضحًا له [1]، فارتحلاه، وزودهما شيئًا من تمر، فخرجا مع النبي ﷺ.

وزاد يونس بن بكير عن ابن إسحاق: وأما علبة بن زيد، فخرج من الليل، فصلى من ليلته ما شاء الله، ثم بكى، وقال: «اللّهم إنك أمرت بالجهاد، ورغبت فيه، ثم لم تجعل عندي ما أتقوى به، ولم تجعل في يد رسولك ما يحملني عليه، وإني أتصدق على كل مسلم بكل مظلمة أصابني فيها في مال أو جسد أو عرض (أي: عوضًا عن عجزه عن الخروج للجهاد)».

ثم أصبح مع الناس، فقال رسول الله ﷺ: «أين المتصدق هذه الليلة؟»

فلم يقم أحد:

ثم قال: «أين المتصدق؟ .. فليقم».

فقام إليه فأخبره.

فقال رسول الله ﷺ: «أبشر .. فوالذي نفسي بيده لقد كُتبت في الزكاة المتقبلة» [2].

وأرسل جماعة من الأشعريين أبا موسى الأشعري رَضِيَ اللَّهُ عَنْهُ إلى رسول الله ﷺ؛ يطلبون منه ما يركبونه، فكان في لحظة غضب، فلم يحصل لهم منه على شيء، فعاد إليهم حزينًا، وبعد قليل أرسل الرسول ﷺ بلالًا رَضِيَ اللَّهُ عَنْهُ إلى أبي موسى، فأعطاه ستة أبعرة، ابتاعهن من سعد ليركبها مع أصحابه الأشعريين [3].

---

(1) **الناضح**: الدابة يستقى عليها.

(2) البداية والنهاية 9/5.

(3) السيرة لمهدي رزق الله، ص 617.

وقد أورد الحافظ البيهقي حديث أبي موسى الأشعري رَضِيَ اللَّهُ عَنْهُ، فقال: أرسلني أصحابي إلى رسول الله ﷺ أسأله الحملان؛ إذ هم معه في جيش العسرة غزوة تبوك، فقلت: يا نبي الله: إن أصحابي أرسلوني إليك لتحملهم.

فقال: «والله لا أحملكم على شيء».

ووافقته وهو غضبان ولا أشعر، فرجعت حزينًا من منع رسول الله ﷺ، ومن مخافة أن يكون رسول الله ﷺ قد وجد في نفسه عليَّ، فرجعت إلى أصحابي، فأخبرتهم بالذي قال رسول الله ﷺ، فلم ألبث إلا سويعة إذ سمعت بلالًا ينادي: أين عبد الله بن قيس؟ (وهذا هو اسم أبي موسى رَضِيَ اللَّهُ عَنْهُ)، فأجبته، فقال: أجب رسول الله ﷺ يدعوك.

فلما أتيت رسول الله ﷺ، قال: «خذ هذين القرينين، وهذين القرينين، وهذين القرينين». لستة أبعرة، ابتاعهن حينئذ من سعد، فقال: «انطلق بهن إلى أصحابك، فقل: إن الله، أو إن رسول الله يحملكم على هؤلاء فاركبوهن».

قال أبو موسى: فانطلقت إلى أصحابي، فقلت: إن رسول الله ﷺ يحملكم على هؤلاء، ولكن والله لا أدعكم حتى ينطلق معي بعضكم إلى من سمع مقالة رسول الله حين سألته لكم ومنعه لي في أول مرة، ثم إعطائه إياي بعد ذلك، لا تظنوا أني حدثتكم شيئًا لم يقله.

فقالوا لي: والله إنك عندنا لمصدق، ولنفعلن ما أحببت.

قال: فانطلق أبو موسى بنفر منهم حتى أتوا الذين سمعوا مقالة رسول الله ﷺ من منعه إياهم، ثم إعطائه بعدُ، فحدثوهم بما حدثهم به أبو موسى سواء [1].

وذكرت بعض الروايات أنه نزل في البكائين والأشعريين قوله تعالى:

﴿ لَّيْسَ عَلَى ٱلضُّعَفَآءِ وَلَا عَلَى ٱلْمَرْضَىٰ وَلَا عَلَى ٱلَّذِينَ لَا يَجِدُونَ مَا يُنفِقُونَ حَرَجٌ إِذَا نَصَحُوا۟ لِلَّهِ وَرَسُولِهِۦ ۚ مَا عَلَى ٱلْمُحْسِنِينَ مِن سَبِيلٍ ۚ وَٱللَّهُ غَفُورٌ رَّحِيمٌ ﴿٩١﴾ وَلَا عَلَى ٱلَّذِينَ إِذَا

(1) البداية والنهاية 15/5، وأخرجه البخاري (الفتح 238/16-239، حديث 4415).

مَآ أَتَوۡكَ لِتَحۡمِلَهُمۡ قُلۡتَ لَآ أَجِدُ مَآ أَحۡمِلُكُمۡ عَلَيۡهِ تَوَلَّواْ وَّأَعۡيُنُهُمۡ تَفِيضُ مِنَ ٱلدَّمۡعِ حَزَنًا أَلَّا يَجِدُواْ مَا يُنفِقُونَ ﴿٩٢﴾ [التوبة].

قال سيد قطب رَحِمَهُ ٱللَّهُ: بمثل هذه الروح انتصر الإسلام، وبمثل هذه الروح عزت كلمته، فلننظر أين نحن من هؤلاء، ولننظر أين روحنا من تلك العصبة، ثم لنطلب النصر والعزة إن استشعرنا من أنفسنا بعض هذه المشاعر، وإلا فلنسدد ولنقارب والله المستعان[1].

من تخلفوا من غير نفاق:

وتخلف جماعة من المسلمين لا يتهمون في إيمانهم، ولكن عن كسل، وميل إلى الراحة، منهم الجماعة الذين ربطوا أنفسهم في سواري المسجد، ومنهم الثلاثة الذين خلفوا، وسنعرض لهم فيما يأتي، ومن المتخلفين من تدارك أمره، فلحق بالرسول في الطريق، أو في تبوك [2].

صعوبات تواجه الإعداد:

تحدثنا عن وقت الغزوة، وأن الزمان كان زمان قيظ شديد، وأن الناس كانوا في عسرة وجدب، وقلة من الظهر.

وللظروف العصيبة التي اكتنفت إعداد هذا الجيش سمي (جيش العسرة). والآيات التي أنزلها الله في كتابه متعلقة بغزوة العسرة، هي أطول ما نزل في قتال بين المسلمين وخصومهم [3]، ولما كان المال ضروريًّا للتجهيز للقتال؛ من سلاح وكراع وخيل ودواب، حض رسول الله ﷺ المسلمين على النفقة، ووعد المنفقين بالأجر العظيم، فأنفق كلٌّ حسب مقدرته.

(1) في ظلال القرآن.

(2) السيرة لأبي شهبة، ج2، ص 499.

(3) فقه السيرة للغزالي، ص437.

قال ابن إسحاق: ثم إن رسول الله ﷺ جد في سفره، وأمر الناس بالجهاز والانكماش، وحض أهل الغنى على النفقة والحملان في سبيل الله، فحمل رجال من أهل الغنى واحتسبوا، وأنفق عثمان بن عفان في ذلك نفقة عظيمة ما لم ينفق أحد مثلها. وقد حكى عبد الرحمن بن خباب عن نفقة عثمان رَضِيَ اللَّهُ عَنْهُ، فقال: شهدت النبي وهو يحث على جيش العسرة، فقام عثمان بن عفان، فقال: يا رسول الله، عليَّ مائة بعير بأحلاسها وأقتابها في سبيل الله، ثم حضّ على الجيش، فقام عثمان بن عفان، فقال: يا رسول الله عليَّ مائتا بعير بأحلاسها وأقتابها في سبيل الله، ثم حض على الجيش، فقام عثمان بن عفان، فقال: يا رسول الله، عليَّ ثلاثمائة بعير بأحلاسها وأقتابها في سبيل الله، فأنا رأيت رسول الله ينزل عن المنبر وهو يقول: «ما على عثمان ما عمل بعد هذه، ما على عثمان ما عمل بعد هذه» [1]، وعن عبد الرحمن بن سمرة رَضِيَ اللَّهُ عَنْهُ قال: جاء عثمان بن عفان إلى النبي ﷺ بألف دينار في ثوبه حين جهز النبي ﷺ جيش العسرة، قال: فجعل النبي ﷺ يقلبها بيده ويقول: «ما ضر ابن عفان ما عمل بعد اليوم» يرددها مرارًا [2].

وأما عمر، فقد تصدق بنصف ماله، وظن أنه سيسبق أبا بكر بذلك، وهذا الفاروق يحدثنا بنفسه عن ذلك؛ حيث قال: أمرنا رسول الله ﷺ يومًا أن نتصدق، فوافق ذلك مالًا عندي، فقلت: اليوم أسبق أبا بكر إن سبقته يوما، فجئت بنصف مالي، فقال رسول الله ﷺ: «ما أبقيت لأهلك؟»، قلت: مثله. قال: وأتى أبو بكر رَضِيَ اللَّهُ عَنْهُ بكل ما عنده، فقال له رسول الله ﷺ: «ما أبقيت لأهلك؟»، قال: أبقيت لهم الله ورسوله، قلت: لا أسابقك إلى شيء أبدًا [3].

وروي أن عبد الرحمن بن عوف أنفق ألفي درهم - وهي نصف أمواله - لتجهيز جيش العسرة.

---

(1) سنن الترمذي، مناقب (5/625-626)، رقم (3100).
(2) مسند أحمد (5/63).
(3) سنن أبي داود، الزكاة (2/312-313) رقم (1678).

وكانت لبعض الصحابة نفقات عظيمة؛ كالعباس بن عبد المطلب، وطلحة بن عبيد الله، ومحمد بن مسلمة، وعاصم بن عدي[1].

وقدم فقراء المسلمين جهدهم من النفقة على استحياء، ولذلك تعرضوا لسخرية وغمز ولمز المنافقين. فقد جاء أبو عُقَيل بنصف صاع من تمر، وجاء آخر بأكثر منه، فلمزوهما قائلين: «إن الله لغني عن صدقة هذا!! وما فعل هذا الآخر إلا رياء»، فنزلت الآية: ﴿ ٱلَّذِينَ يَلۡمِزُونَ ٱلۡمُطَّوِّعِينَ مِنَ ٱلۡمُؤۡمِنِينَ فِي ٱلصَّدَقَٰتِ وَٱلَّذِينَ لَا يَجِدُونَ إِلَّا جُهۡدَهُمۡ ﴾ [التوبة:79] [2].

وجاء أبو خَيثَمة الأنصاري بصاع تمر فلمزوه أيضًا، ولعله هو المعني أيضًا في حديث الطبري في إنفاق عبد الرحمن بن عوف، وفيه أن رجلًا من الأنصار قال: «... وإن عندي صاعين من تمر: صاعًا لربي وصاعًا لعيالي»، فلمزه المنافقون، وقالوا: «ما أعطى ابن عوف هذا إلا رياء»، وقالوا: «أولم يكن الله غنيًّا عن صاع هذا؟»، فأنزل الله الآية. وواضح من هذا أنهم يتهمون الأغنياء بالرياء، ويسخرون من صدقة الفقراء [3].

استخلاف ابن مسلمة على المدينة وعلي بن أبي طالب على بيت النبوة:

وهكذا تجهز الجيش ... ثم استخلف رسول الله ﷺ على المدينة محمد بن مسلمة الأنصاري رضي الله عنه، وقيل سباع بن عرفطة، وخلف على أهله علي بن أبي طالب رضي الله عنه، وأمره بالإقامة فيهم، فأرجف به المنافقون، وقالوا: ما خلَّفه إلا استثقالًا وتخففًا منه، فخرج علي، فلحق بالنبي ﷺ، فرده إلى المدينة، وقال: «ألا ترضى أن تكون مني بمنزلة هارون من موسى؟!، إلا أنه لا نبي بعدي» [4].

قال ابن إسحاق: (... وخلف رسول الله ﷺ علي بن أبي طالب رضي الله عنه على أهله، وأمره بالإقامة فيهم، فأرجف به المنافقون، وقالوا: ما خلفه إلا استثقالًا له، وتخففًا منه،

---

(1) انظر: السيرة، للصلابي، ص 815، 816.

(2) البخاري، الفتح (17/211-213، حديث 4668).

(3) انظر: السيرة لمهدي رزق الله، ص616-617.

(4) انظر: الرحيق المختوم، ص433.

فلما قال ذلك المنافقون، أخذ علي بن أبي طالب رَضِيَ اللَّهُ عَنْهُ سلاحه، ثم خرج حتى أتى رسول الله ﷺ وهو نازل بالجرف، فقال: يا نبي الله، زعم المنافقون أنك إنما خلفتني أنك استثقلتني، وتخففت مني، فقال: «كذبوا، ولكني خلفتك لما تركت ورائي، فارجع فاخلفني في أهلي وأهلك، أفلا ترضى يا علي أن تكون مني بمنزلة هارون من موسى؟!، إلا أنه لا نبي بعدي»، فرجع علي إلى المدينة ومضى رسول الله ﷺ على سفره، وكان استخلاف علي رَضِيَ اللَّهُ عَنْهُ في أهله ﷺ باعتبار قرابته ومصاهرته، فكان استخلافه في أمر خاص، وهو القيام بشأن أهله، وكان استخلاف محمد بن مسلمة رَضِيَ اللَّهُ عَنْهُ اسخلافًا عامًّا على المدينة، فتعلق الشيعة - ومن نهج نهجهم - بأن استخلاف عليّ رَضِيَ اللَّهُ عَنْهُ يشير إلى خلافته من بعده، ولا صحة لهذا القول؛ لأن خلافته كانت في أهله خاصة [1].

المبحث الثاني
إلى تبوك

ثم خرج رسول الله ﷺ يوم الخميس نحو الشمال؛ يريد تبوك، في جيش كبير، لم يخرج المسلمون في مثله قط، فقد خرج ﷺ في جيش يزيد عن الثلاثين ألفًا، يتقدمهم عشرة آلاف فارس، حتى وصل إلى ثنية الوداع حيث عسكر هناك.

اختيار قادة الجيش:

فلما رحل رسول الله ﷺ من ثينة الوداع، عقد الألوية والرايات، فدفع لواءه الأعظم إلى أبي بكر رَضِيَ اللَّهُ عَنْهُ، ورايته العظمى إلى الزبير رَضِيَ اللَّهُ عَنْهُ، وراية الأوس إلى أسيد بن الحضير رَضِيَ اللَّهُ عَنْهُ، ولواء الخزرج إلى أبي دجانة رَضِيَ اللَّهُ عَنْهُ، وأمر كل بطن من الأنصار والقبائل من العرب أن يتخذوا لواءً أو راية، وساروا معه ثلاثون ألفًا، وعشرة آلاف فرس، واثنا عشر ألف بعير [2].

---

(1) انظر: السيرة الصلابي، ص 817.

(2) إمتاع الأسماع للمقريزي، ج1، ص 450.

واستعمل رسول الله ﷺ على حراسة تبوك من يوم قدم إلى أن رحل منها، عباد بن بشر رَضِيَ اللَّهُ عَنْهُ، فكان يطوف في أصحابه على العسكر، وكان دليل رسول الله ﷺ في هذه الغزوة علقمة بن الغفواء الخزاعي رَضِيَ اللَّهُ عَنْهُ، فقد كان من أصحاب الخبرة والكفاءة في معرفة طريق تبوك [1].

النبي ﷺ والذين ابتعوه في ساعة العسرة:

لم يستطع المسلمون مع ما بذلوه من الأموال أن يجهزوا جيشهم تجهيزًا كاملًا، فكان في الجيش قلة شديدة في الزاد والمراكب، فكان ثمانية عشر رجلًا يعتقبون بعيرًا واحدًا، وربما أكلوا أوراق الأشجار حتى تورمت شفاههم، واضطروا إلى ذبح البعير (مع قلتها)؛ ليشربوا ما في كرشه من الماء [2].

روى الإمام أحمد في تفسير قول الله عز وجل: ﴿ لَّقَد تَّابَ ٱللَّهُ عَلَى ٱلنَّبِيِّ وَٱلْمُهَـٰجِرِينَ وَٱلْأَنصَارِ ٱلَّذِينَ ٱتَّبَعُوهُ فِي سَاعَةِ ٱلْعُسْرَةِ ﴾ [التوبة:117].

قال: خرجوا في غزوة «تبوك» الرجلان والثلاثة على بعير واحد، وخرجوا في حر شديد، وأصابهم عطش، حتى جعلوا ينحرون إبلهم؛ لينفضوا أكراشها، ويشربوا ماءها، فكان ذلك عسرة في الماء، وعسرة في النفقة، وعسرة في الظهر.

وعن عبد الله بن عباس رَضِيَ اللَّهُ عَنْهُمَا أنه قيل لعمر بن الخطاب: حدثنا عن شأن ساعة العسرة، فقال عمر: خرجنا إلى تبوك في قيظ شديد، فنزلنا منزلًا، وأصابنا فيه عطش حتى ظننا أن رقابنا ستنقطع. حتى إن الرجل لينحر بعيره، فيعتصر فرثه فيشربه. ثم يجعل ما بقي على كبده، فقال أبو بكر الصديق: يا رسول الله، إن الله عودك في الدعاء خيرًا، فادع الله لنا! فقال: أوتحب ذلك؟ قال: نعم: فرفع رسول الله يديه إلى السماء، فلم يرجعهما

(1) السيرة للصلابي، ص 818.

(2) الرحيق المختوم، ص 433-434.

حتى قالت السماء - أي آذنت تمطر - فأطلت، ثم سكبت، فملأوا ما معهم، ثم ذهبنا ننظر، فلم نجدها جاوزت العسكر [1].

أي لم يجدوا المطر قد تجاوز معسكر جيش المسلمين. قال ابن إسحاق: وكان في الجيش رجل منافق، فقالوا له: ويحك هل بعد هذا من شيء؟ [أي من دليل على صدق نبوة محمد ﷺ]، فقال: ما هي إلا سحابة مارة [2]. وهكذا لا ينفك منافق عن شكه وإرجافه.

وروى الإمام أحمد في مسنده، عن أبي هريرة، قال: «لما كانت غزوة تبوك، أصاب الناس مجاعة، فقالوا: يا رسول الله، لو أذنت لنا فنحرنا نواضحنا فأكلنا وادّهنا، فقال لهم رسول الله ﷺ: افعلوا، فجاء عمر فقال: يا رسول الله، إنهم إن فعلوا قل الظهر، ولكن ادعهم بفضل أزوادهم، ثم ادع لهم بالبركة؛ لعلَّ الله أن يجعل فيه ذلك، فدعا عليه الصلاة والسلام بنطع فبسطه، ثم دعاهم بفضل أزوادهم، فجعل الرجل يجيء بكف الذرة، والآخر بكف التمر والآخر بالكسرة حتى اجتمع على النطع من ذلك شيء يسير، ثم دعا عليه بالبركة، ثم قال لهم: خذوا في أوعيتكم، قال: فأخذوا في أوعيتهم حتى ما تركوا من المعسكر وعاء إلا ملئوه وأكلوا حتى شبعوا، وفضلت منه فضلة، فقال رسول الله ﷺ: أشهد أن لا إله إلا الله وأني رسول الله، لا يلقى الله بهما عبد غير شاكّ فتحجبُ عنه الجنة» [3].

وروى مسلم [4] بسنده إلى أبي هريرة رَضِيَ اللَّهُ عَنْهُ، ما وقع للمسلمين في طريق هذه الغزوة من نقص في الزاد، حتى مصوا النوى، وشربوا عليه الماء.

---

(1) أورد الحديث الهيثمي في (المجمع) (6/194-195)، وقال: رواه البزار والطبراني في الأوسط، ورجال البزار ثقات.

(2) انظر: فقه السيرة للغزالي، ص 440.

(3) ورواه أيضًا مسلم والبيهقي، عن البداية والنهاية، ج5، ص15.

(4) (1/55-56، حديث 27).

(كن أبا ذر):

قال ابن إسحاق: ثم مضى رسول الله ﷺ سائرًا، فجعل يتخلف عنه الرجل، فيقولون: يا رسول الله تخلف فلان، فيقول: «دعوه؛ فإن يك فيه خير فسيلحقه الله تعالى بكم، وإن يك غير ذلك فقد أراحكم الله منه»، حتى قيل: يا رسول الله، قد تخلف أبو ذر، وأبطأ به بعيره.

فقال: «دعوه؛ فإن يك فيه خير فسيلحقه الله بكم، وإن يك غير ذلك فقد أراحكم الله منه»، وتلوّم [1] أبو ذر على بعير، فلما أبطأ عليه (البعير)، أخذ متاعه فحمله على ظهره، ثم خرج يتبع أثر رسول الله ﷺ ماشيًا، ونزل رسول الله ﷺ في بعض منازله، فنظر ناظر من المسلمين فقال: يا رسول الله، إن هذا الرجل يمشي على الطريق وحده، فقال رسول الله ﷺ: «كن أبا ذر». فلما تأمّله القوم قالوا: يا رسول الله، هو والله أبو ذر، فقال رسول الله ﷺ: «رحم الله أبا ذر، يمشي وحده، ويموت وحده، ويبعث وحده»[2]، ومضى الزمان وجاء عصر عثمان، ثم حدثت بعض الأمور وسُيِّر (أُخرج) أبو ذر إلى الربذة، فلما حضره الموت أوصى امرأته وغلامه: إذا مت فاغسلاني وكفناني ثم احملاني فضعاني على قارعة الطريق فأول ركب يمرون بكم، فقولوا: هذا أبو ذر، فلما مات فعلوا به كذلك، فطلع ركب فما علموا به حتى كادت ركائبهم تطأ سريره، فإذا ابن مسعود في رهط من أهل الكوفة، فقال: ما هذا؟ فقيل: جنازة أبي ذر، فاستهل ابن مسعود يبكي، فقال: صدق رسول الله ﷺ: «يرحم الله أبا ذر، يمشي وحده، ويموت وحده، ويبعث وحده»، فنزل فوليه بنفسه حتى دفنه [3].

(كن أبا خيثمة):

قال ابن إسحاق: ثم إن أبا خيثمة رجع بعد أن سار رسول الله ﷺ أيامًا إلى أهله في يوم حار، فوجد امرأتين له في عريشين لهما في حائطه [4]، قد رشّت كل واحدة منهما

---

(1) **تلوم:** تمهل.

(2) السيرة النبوية لابن هشام (178/4).

(3) السيرة النبوية لابن هشام (178/4)، والسيرة للصلابي، ص 819.

(4) **حائطه:** بستانه.

عريشها، وبردت له فيه ماء، وهيأت له فيه طعامًا، فلما دخل قام على باب العريش، فنظر إلى امرأتيه وما صنعتا له، فقال: رسول الله ﷺ في الضح [1]، والريح والحر، وأبو خيثمة في ظل بارد، وطعام مهيأ وامرأة حسناء في ماله مقيم، ما هذا بالنَّصَف! ثم قال: والله لا أدخل عريش واحدة منكما حتى ألحق برسول الله ﷺ، فهيئا لي زادًا، ففعلتا، ثم قدم ناضحه [2] فارتحله، ثم خرج في طلب رسول الله ﷺ حتى أدركه حين نزل تبوك، وقد كان أدرك أبا خيثمة عمير بن وهب الجمحي في الطريق، يطلب رسول الله ﷺ، فترافقا، حتى إذا دنوا من تبوك، قال أبو خيثمة لعمير بن وهب: إن لي ذنبًا، فلا عليك أن تخلف عني حتى آتي رسول الله ﷺ، ففعل، حتى إذا دنا من رسول الله ﷺ وهو نازل بتبوك، قال الناس: هذا راكب على الطريق مقبل، فقال رسول الله ﷺ: «كن أبا خيثمة»، فقالوا: يا رسول الله، والله أبو خيثمة، فلما أناخ أقبل، فسلم على رسول الله ﷺ، فقال له رسول الله ﷺ: «أولى لك يا أبا خيثمة» [3][4]. ثم أخبر رسول الله ﷺ الخبر، فقال له رسول الله ﷺ خيرًا، ودعا له بالخير [5].

وقال ابن هشام: وقال أبو خيثمة في ذلك شعرًا (واسمه مالك بن قيس):

لما رأيت الناس في الدين نافقوا ... أتيت التي كانت أعف وأكرما

وبايعت باليمنى يدي لمحمد ... فلم أكتسب إثمًا ولم أغش محرمًا

تركت خضيبًا [6] في العريش وصرمة[7] ... صفايا [8] كرامًا يُسْرُها قد تحمَّما [9]

---

(1) **الضح:** الشمس.

(2) **ناضحه:** جمله.

(3) **أولى لك:** أجدر بك.

(4) البداية والنهاية (8/5).

(5) البداية والنهاية (8/5).

(6) **خضيبًا:** مخضوبة، وهي المرأة.

(7) **صرمة:** جماعة النخل.

(8) **صفايا:** كثير الثمر.

(9) **تحمما:** أخذ في الإرطاب فاسود.

وكنـت إذا شـك المنـافق أسـمحت [1] إلى الـدين نفـسي شـطره حيـث يمـما [2]

مساكن الذين ظلموا أنفسهم:

وفي الطريق مر المسلمون بالديار التي كانت ثمود تسكنها، وهي أطلال هامدة، وآثار بقيت تُذكِّر بغضب الله على من كذبوا رسله وتعجلوا عقابه [3]، وديارهم بالحجر عند وادي القرى.

قال ابن هشام: بلغني عن الزهري أنه قال:

لما مر رسول الله ﷺ بالحجر، سجى ثوبه على وجهه، واستحث راحلته، ثم قال: لا تدخلوا بيوت الذين ظلموا إلا وأنتم باكون؛ خوفًا أن يصيبكم مثل ما أصابهم.

وفي الصحيحين عن ابن عمر رَضِيَ اللَّهُ عَنْهُمَا، قال: لما مر النبي ﷺ بالحجر، قال: «لا تدخلوا مساكن الذين ظلموا أنفسهم، أن يصيبكم ما أصابهم، إلا أن تكونوا باكين»، ثم قَنَّع رأسه، وأسرع بالسير حتى جاز الوادي [4].

وروى أحمد عن جابر بن عبد الله رَضِيَ اللَّهُ عَنْهُمَا، أن رسول الله ﷺ قال: «لا تسألوا الآيات – خوارق العادات – فقد سألها قوم صالح، فبعث الله لهم ناقة، فكانت ترد من هذا الفج وتصدر من هذا الفج، فعتوا عن أمر ربهم، فعقروها، وكانت تشرب ماءهم يومًا ويشربون لبنها يومًا، فعقروها، فأخذتهم صيحة أهمد الله بها من تحت أديم السماء منهم إلا رجلًا واحدًا كان في حرم الله»، قيل: من هو يا رسول الله؟ قال: «هو أبو رغال فلما خرج من الحرم أصابه ما أصاب قومه» [5].

---

(1) **أسمحت:** انقادت.

(2) البداية والنهاية (5/8) ، والسيرة للصلابي، ص 820.

(3) فقه السيرة للغزالي، ص 441.

(4) صحيح البخاري، باب نزول النبي ﷺ الحجر 637/2.

(5) المسند (296/4)، وصححه ابن كثير والحاكم ووافقه الذهبي، وحسنه الحافظ في (الفتح) (294/6).

وقال أبو كبشة الأنصاري ﷺ: لما كان في غزوة تبوك، تسارع الناس إلى أهل الحجر يدخلون عليهم، فبلغ ذلك رسول الله ﷺ، فنادى في الناس: «الصلاة جامعة»، قال: فأتيت رسول الله ﷺ وهو ممسك بعيره، وهو يقول: «أفلا أنذركم بأعجب من ذلك؟ رجل من أنفسكم ينبئكم بما كان قبلكم وما هو كائن بعدكم، فاستقيموا وسددوا، فإن الله عز وجل لا يعبأ بعذابكم شيئًا، وسيأتي قوم لا يدفعون عن أنفسهم شيئًا» (1) وقال ابن عمر: إن الناس نزلوا مع رسول الله ﷺ أرض ثمود (الحجر)، واستقوا من بئرها، واعتجنوا به، فأمرهم رسول الله ﷺ أن يهريقوا ما استقوا من بئرها، وأن يعلفوا الإبل العجين، وأمرهم أن يستقوا من البئر التي كانت تردها الناقة (2).

ثم زجر رسول الله ﷺ ناقته زجرًا شديدًا، فأسرع بها حتى جاوز الوادي، وترك ديار ثمود.

من خالف أمر النبي ﷺ:

خالف رجلان من بني ساعدة ما أمرهم به رسول الله ﷺ بالحجر (ديار ثمود)، فخرج أحدهما لحاجته فخنق في طريقه، وخرج الآخر في طلب بعير له فاحتملته الريح حتى طرحته في جبال طيئ.

قال ابن إسحاق:

وقد كان رسول الله ﷺ حين مر بالحجر نزلها، واستقى الناس من بئرها، فلما راحوا قال رسول الله ﷺ: لا تشربوا من مائها شيئًا، ولا تتوضئوا منه للصلاة، وما كان من عجين عجنتموه فاعلفوه الإبل، ولا تأكلوا منه شيئًا، ولا يخرجن أحد منكم الليلة إلا ومعه صاحب، ففعل الناس ما أمرهم به رسول الله ﷺ، إلا أن رجلين من بني ساعدة خرج أحدهما لحاجته، وخرج الآخر في طلب بعير له، فأما الذي ذهب لحاجته فإنه خنق على مذهبه؛ وأما الذي ذهب في طلب بعيره فاحتملته الريح حتى طرحته بجبلي طيئ، فأخبر بذلك رسول الله ﷺ، فقال:

---

(1) انظر: الفتح الرباني (195/21).

(2) البخاري، كتاب الأنبياء رقم (3379).

ألم أنهكم أن يخرج منكم أحد إلا ومعه صاحبه، ثم دعا رسول الله ﷺ للذي أصيب على مذهبه فشفى، وأما الآخر الذي وقع بجبلي طيئ، فإن طيئًا أهدته لرسول الله ﷺ حين قدم المدينة.

وأخبر رسول الله ﷺ أصحابه في الطريق (أو لما بلغ تبوك على اختلاف الروايات) بأن ريحًا شديدة ستهب، وأمرهم بأن يحتاطوا لأنفسهم ودوابهم، فلا يخرجوا؛ حتى لا تؤذيهم، وليربطوا دوابهم حتى لا تؤذى، وتحقق ما أخبر به رسول الله ﷺ، فهبت الريح الشديدة، وحملت من قام فيها إلى مكان بعيد. فقد روى مسلم في صحيحه بإسناده إلى أبي حميد، قال: وانطلقنا حتى قدمنا تبوك، فقال رسول الله ﷺ: «ستهب عليكم الليلة ريح شديدة، فلا يقم فيها أحد منكم، فمن كان له بعير فليشد عقاله»، فهبّت ريح شديدة، فقام رجل فحملته الريح حتى ألقته بجبل طيئ [1].

قال النووي في شرحه على صحيح مسلم، معقبًا على هذا الحديث: هذا الحديث فيه هذه المعجزة الظاهرة من إخباره بالمغيب، وخوف الضرر من القيام وقت الريح [2].

ضياع ناقة النبي ﷺ:

لما كان رسول الله ﷺ سائرًا في طريقه إلى تبوك، ضلت ناقته، فخرج أصحابه في طلبها، وعند رسول الله ﷺ رجل من أصحابه، يقال له: عُمارة بن حزم، وكان عقبيًّا (أي: شهد بيعة العقبة) بدريًّا، وهو عم بني عمرو بن حزم، وكان في رحلة زيد بن اللصيت القينقاعي، وكان منافقًا.

قال زيد بن اللصيت وهو في رحل عمارة، وعمارة عند رسول الله ﷺ: أليس محمد يزعم أنه نبي، ويخبركم عن السماء، وهو لا يدري أين ناقته؟

---

(1) صحيح مسلم بشرح النووي (42/15)، مختصر مسلم رقم (1543).

(2) شرح النووي على صحيح مسلم (42/15)، وانظر: السيرة للصلابي، ص 826.

فقال رسول الله ﷺ وعُمارة عنده: «إن رجلًا قال: هذا محمد يزعم أنه يخبركم بأمر السماء ولا يدري أين ناقته؟ وإني والله ما أعلم إلا ما علمني الله، وقد دلّني الله عليها، وهي في هذا الوادي، في شعب كذا وكذا، قد حبستها شجرة بزمامها، فانطلقوا حتى تأتوني بها»، فذهبوا فجاءوا بها، فرجع عمارة بن حزم إلى رحله، فقال: والله لعجب من شيء حدثناه رسول الله ﷺ آنفًا، عن مقالة قائل، أخبره الله عنه بكذا وكذا، (للذي قال زيد بن اللصيت)، فقال رجل ممن كان في رحل عمارة، ولم يحضر رسول الله ﷺ: زيد، والله، قال هذه المقالة قبل أن تأتي، فأقبل عمارة على زيد، يجأ في عنقه (يطعنه فيه)، ويقول للناس: إليَّ عباد الله، إن في رحلي لداهية وما أشعر، اخرج أي عدو الله من رحلي فلا تصحبني. قال ابن إسحاق: فزعم بعض الناس أن زيدًا تاب بعد ذلك، وقال بعض الناس: لم يزل متهمًا بشر حتى هلك [1].

من سبقنا إلى ذلك الوادي فلا يستقين منه شيئًا حتى نأتيه:

ولما قرب رسول الله ﷺ من تبوك، وقبل وادي المشقق، حيث عين تبوك يخرج ماؤها من وَشّل (صخرة في جبل)، قدر ما يروي الراكب والراكبين والثلاثة، قال رسول الله ﷺ: «إنكم ستأتون غدًا إن شاء الله تعالى عين تبوك، وإنكم لن تأتوها حتى يضحى النهار، فمن جاءها فلا يمس من مائها شيئًا حتى آتي». قال معاذ: فجئنا وقد سبق إليها رجلان، والعين تبض بشيء من مائها، فسألهما رسول الله ﷺ: «هل مستما من مائها شيئًا»؟ قالا: نعم. وقال لهما ما شاء الله أن يقول، ثم غرف من العين قليلًا حتى اجتمع الوشل، ثم غسل رسول الله ﷺ فيه وجهه ويده، ثم أعاده فيها فجرت العين بماء كثير، فاستقى الناس، ثم قال رسول الله ﷺ: «يوشك يا معاذ إن طالت بك حياة أن ترى هاهنا قد ملئ جنانًا» [2].

لقد أجرى الله عز وجل على يد رسوله ﷺ بركة تكثير هذا الماء، حتى أصبح يسيل بغزارة، وأخبر رسول الله ﷺ بأنه سيستمر، وستكون هناك جنان وبساتين، ولقد تحقق

(1) انظر السيرة النبوية لابن هشام (177/4)، والسيرة للصلابي، ص 826.
(2) رواه مسلم عن معاذ بن جبل (246/2).

ما أخبر به رسول الله ﷺ بعد فترة قليلة من الزمن، ولازالت تبوك حتى اليوم تمتاز بجنانها وبساتينها ونخيلها وتمورها، تنطق بصدق نبوة الرسول ﷺ، وتشهد بأنه لا يتكلم إلا صدقًا، ولا يخبر إلا حقًّا، ولا ينبئ بشيء إلا ويتحقق [1].

المبحث الثالث

وصول الجيش إلى تبوك

انتهى مسير رسول الله ﷺ بنزوله (تبوك) من ديار قضاعة الخاضعة لسطان الروم، وهي تقع في شمال الحجاز على بعد 778 ميلًا من المدينة. ولما انتهوا إلى تبوك، لم يجدوا كيدًا ولا قتالًا؛ فقد اختفى وتفرق أولئك الذين كانوا قد تجمعوا لقتال المسلمين. فعسكر رسول الله ﷺ هناك، وهو مستعد للقاء عدوه.

خطبة النبي ﷺ:

وقام ﷺ في الناس خطيبًا، فخطب خطبة بليغة، أتى بجوامع الكلم، وحض على خير الدنيا والآخرة، وحذر وأنذر، وبشر وأبشر [2]، فبعد أن حمد الله تعالى وأثنى عليه بما هو أهله، قال: «أما بعد، فإن أصدق الحديث كتاب الله، وأوثق العُرى كلمة التقوى، وخير الملل ملة إبراهيم، وخير السنن سنة محمد ﷺ، وأشرف الحديث ذكر الله، وأحسن القصص القرآن، وخير الأمور عَوَازِمُها، وشر الأمور محدثاتها، وأحسن الهدي هدي الأنبياء، وأشرف الموت قتل الشهداء، وأعمى العمى الضلالة بعد الهدى، وخير الأعمال ما نفع، وخير الهدى ما اتبع، وشر العمى عمى القلب، واليد العليا خير من اليد السفلى، وما قلَّ وكفى خير مما كثر وألهى، وشرّ المعذرة حين يحضر الموت، وشرُّ الندامة يوم القيامة، ومن الناس من لا يأتي الجمعة إلا دبرًا، ومنهم من لا يذكر الله إلا هجرًا، ومن أعظم الخطايا اللسان الكذوب، وخير الغنى غنى النفس، وخير الزاد التقوى، ورأس الحكمة مخافة الله، وخيرُ ما وقر في القلب اليقين، والارتياب من الكفر، والنياحة من عمل الجاهلية، والغلول من حر جهنم، والسكر كي من النار، والشعر من إبليس، والخمر جماع

(1) السيرة للصلابي، ص827.

(2) الرحيق المختوم، ص435.

الإثم، وشر المال مال اليتيم، والسعيد من وعظ بغيره، والشَّقِي من شقي في بطن أمه، وإنما يصير أحدكم إلى موضع أربعة أذرع، والأمر إلى آخره، وملاك العمل خواتمه، وشر الروايا روايا الكذب، وكل ما هو آت قريب، وسبابة المسلم فسوق، وقتاله كفر، وأكل لحمه من معصية الله، وحرمة ماله كحرمة دمه، ومن يتآل على الله يكذبه، ومن يغفر يُغفر له، ومن يعفُ يعفُ الله عنه، ومن يكظم الغيظ يأجره الله، ومن يصبر على الرزية يعوضه الله، ومن يبتغ السمعة يسمع الله به، ومن يتصبر يغفر الله له، ومن يعص الله يعذبه»، ثم استغفر ثلاثًا [1].

الروم تجبن عن المواجهة:

جبنت الروم وحلفاؤها من القبائل العربية المتنصرة عن التقدم ولقاء جيش المسلمين الزاحف إلى تخومهم، وآثروا السكون والتفرق في البلاد داخل حدودهم. ومكث المسلمون عشرين ليلة في تبوك، لم يفكر الروم وحلفاؤهم خلالها في الدخول معهم في قتال.

وشاور رسول الله ﷺ أصحابه في التقدم داخل بلاد الروم، فقال عمر بن الخطاب رَضِيَ اللَّهُ عَنْهُ: إن كنت أُمرت بالمسير فسر.

فقال ﷺ: لو أُمرت به ما استشرتكم فيه.

قالوا: يا رسول الله إن للروم جموعًا كثيرة، وليس بها أحد من أهل الإسلام، وقد دنوت منهم حيث ترى، وقد أفزعهم دنوك، فلو رجعت هذه السنة حتى ترى، أو يحدث الله لك في ذلك أمرًا [2].

مصالحة حكام أطراف الشام على الجزية:

آثر حكام المدن الواقعة في أطراف الشام الصلح، ودفع الجزية لرسول الله ﷺ.

---

(1) مسند أحمد (37/3)، والبداية والنهاية (15/5-16).

(2) إمتاع الأسماع للمقريزي، ج1، ص450.

قال ابن إسحاق:

ولما انتهى رسول الله ﷺ إلى تبوك أتاه يحنة بن رؤبة، صاحب أيلة، فصالح رسول الله ﷺ، وأعطاه الجزية، وأتاه أهل جرباء وأذرح، فأعطوه الجزية، فكتب رسول الله ﷺ لهم كتابًا فهو عندهم.

وبذلك أمن رسول الله ﷺ حدود الدولة الإسلامية الشمالية، وقص أجنحة الروم؛ فقد كانت هذه القبائل تابعة للروم، ودخلوا في النصرانية؛ فإقدام من أقدم منها على مصالحة رسول الله والتزامها بالجزية، يعتبر قصًّا لهذه الأجنحة، وبترًا لحبال تبعيتهم للروم، وتحرير لها من هذه التبعية التي كانت تذلهم، وتخضعهم لسلطان الروم؛ لينالوا من تساقط فُتاتهم شيئًا يعيشون به، وخوفًا من ظلمهم لقوتهم الباطشة، وقد وفوا بعهد الصلح، والتزموا أداء الجزية، فأعطوها عن يد وهم صاغرون [1]، وهذه سياسة نبوية حكيمة، اختطها رسول الله في بناء الدولة ودعوة الناس لدين الله، فقد استطاع أن يفصل بين المسلمين وبين الروم بإمارات تدين للرسول بالطاعة، وتخضع لحكم المسلمين، وأصبحت في زمن الخلفاء الراشدين نقاط ارتكاز، سهلت مهمة الفتح الإسلامي في عهدهم، فمنها انطلقت قوات المسلمين إلى الشمال، وعليها ارتكزت لتحقيق هدفها العظيم.

بعث خالد بن الوليد إلى أكيدر بن عبد الملك الكندي:

بعد أن صالح رسول الله ﷺ حكام أطراف الشام، وأمن مجيء الروم من ناحيتهم، لم يبق إلا أُكيدر دومة الجندل، فخشي رسول الله ﷺ معاونته لجيوش الروم إذا جاءت من ناحيته [2]، وكان أكيدر نصرانيًّا، وبلاده (دومة الجندل) هي حصن وقرى من قريات وادي القرى، وحصنها يقال له مارد، وهو حصن أكيدر الخاص به [3].

---

(1) انظر: السيرة للصلابي، ص 822-823.

(2) انظر: السيرة لأبي شهبة، ج2، ص 504.

(3) انظر: هذا الحبيب يا محب، ص 433.

فأرسل إليه رسول الله ﷺ خالد بن الوليد رَضِيَ اللَّهُ عَنْهُ، وأخبره بأنه سيجده يصطاد البقر، فذهب إليه خالد في خمسمائة فارس، فإذا أكيدر وأخوه حسان في نفر من أهل بيته يصطادون بقر الوحش ليلًا (كما أخبرهم رسول الله ﷺ)، فلم يجدوا مقاومة تذكر، فقتلوا أخاه وأسروا أكيدرًا [1].

قال ابن إسحاق:

ثم إن رسول الله ﷺ دعا خالد بن الوليد، فبعثه إلى أكيدر دومة، وهو: أكيدر بن عبد الملك، رجل من كندة، كان ملكًا عليها، وكان نصرانيًّا، فقال رسول الله ﷺ لخالد: «إنك ستجده يصيد البقر». فخرج خالد حتى إذا كان من حصنه بمنظر العين، وفي ليلة مقمرة صائفة، وهو على سطح له، ومعه امرأته، فباتت البقر تحك بقرونها باب القصر (وقد بعثها الله لتخرجه من قصره)، فقالت له امرأته: هل رأيت مثل هذا قط؟ قال: لا والله! قالت: فمن يترك هذه؟ قال: لا أحد.

فنزل فأمر بفرسه، فأسرج له، وركب معه نفر من أهل بيته، فيهم أخ يقال له حسان، فركب وخرجوا معه بمطاردهم.

فلما خرجوا تلقتهم خيل رسول الله ﷺ، فأخذته، وقتلوا أخاه، وقد كان عليه قباء من ديباج مخوص بالذهب، فاستلبه خالد، فبعث به إلى رسول الله ﷺ قبل قدومه به عليه.

قال ابن إسحاق: فحدثني عاصم بن عمر بن قتادة، عن أنس بن مالك، قال:

رأيت قباء أكيدر حين قُدم به على رسول الله ﷺ، فجعل المسلمون يلمسونه، بأيديهم، ويتعجبون منه، فقال رسول الله ﷺ: «أتعجبون من هذا؟! فوالذي نفسي بيده، لمناديل سعد بن معاذ في الجنة أحسن من هذا».

قال ابن إسحاق: ثم إن خالدًا قدم بأكيدر على رسول الله ﷺ، فحقن له دمه، وصالحه على الجزية، ثم خلى سبيله، فرجع إلى قريته، فقال رجل من طيئ، يقال له بجير بن بجرة، يذكر قول

(1) السيرة لأبي شهبة، ج2، ص 504.

رسول الله ﷺ لخالد: إنك ستجده يصيد البقر، وما صنعت البقر تلك الليلة حتى استخرجته؛ لتصديق قول رسول الله ﷺ:

تبارك سائق البقرات إني رأيت الله يهدي كل هادي
فمن يك حائدًا عن ذي تبوك فإنا قد أمرنا بالجهاد

فأقام رسول الله ﷺ بتبوك بضع عشرة ليلة، لم يجاوزها، ثم انصرف قافلًا إلى المدينة.

وقد حكى البيهقي أن رسول الله ﷺ قال لهذا الشاعر: «لا يفضض الله فاك»، فأتت عليه سبعون سنة ما تحرك له فيها ضرس ولا سن[1].

- النبي ﷺ يصلي خلف عبد الرحمن بن عوف:

وفي ذات يوم من أيام تبوك، تخلف رسول الله ﷺ عن صلاة الفجر لحاجة، وعندما انتهى إلى مكان المسلمين كانوا قد قدموا عبد الرحمن بن عوف رَضِيَ اللَّهُ عَنْهُ إمامًا لهم، وشرعوا في الصلاة، فصلى رسول الله ﷺ خلف ابن عوف، ثم أكمل صلاته[2].

فعن المغيرة بن شعبة رَضِيَ اللَّهُ عَنْهُ، قال: عدل رسول الله ﷺ وأنا معه في غزوة تبوك قبل الفجر، فعدلت معه، فأناخ النبي ﷺ فتبرز، ثم جاء فسكبت على يده من الإداوة، فغسل كفيه، ثم غسل وجهه، ثم حسر عن ذراعيه، فضاق كمَّا جُبَّته، فأدخل يديه فأخرجهما من تحت الجبة، فغسلهما إلى المرفق، ومسح برأسه، ثم توضأ على خفيه، ثم ركب، فأقبلنا نسير حتى نجد الناس في الصلاة قد قدموا عبد الرحمن بن عوف، فصلى بهم حين كان وقت الصلاة، ووجدنا عبد الرحمن وقد ركع بهم ركعة من صلاة الفجر، فقام رسول الله ﷺ فصف مع المسلمين، فصلى وراء عبد الرحمن بن عوف الركعة الثانية، ثم سلم عبد الرحمن، فقام النبي ﷺ في صلاته، ففزع المسلمون، فأكثروا التسبيح؛ لأنهم سبقوا النبي ﷺ بالصلاة، فلما سلم رسول الله ﷺ قال لهم: «قد أصبتم أو قد أحسنتم»[3].

---

(1) البداية والنهاية 5/23.
(2) السيرة لمهدي رزق الله، ص 629.
(3) أخرجه مسلم (274)، كتاب الطهارة، باب: المسح على الخفين، وأبو داود (149)، كتاب: الطهارة، باب: المسح على الخفين.

- **إن أعز أهلي عليَّ أن يتخلف المهاجرون والأنصار وغفار وأسلم:**

كان رسول الله ﷺ أكثر من أحب صاحب، وأكثر من أنزل الناس منازلهم، وأكثر من قدر أهل السبق والإسلام. ولذا فقد أحزنه أن يتخلف عنه يوم تبوك أحد من هؤلاء، ويتضح ذلك جليًّا في حواره مع أبي رهم رَضِيَ اللَّهُ عَنْهُ وهو يسأله عمن تخلف من قومه من بني غفار.

قال ابن إسحاق: وذكر ابن شهاب الزهري عن ابن أخي أبي رهم الغفاري، أنه سمع أبا رهم كلثوم بن الحصين، وكان من أصحاب رسول الله ﷺ الذين بايعوا تحت الشجرة، يقول:

غزوت مع رسول الله ﷺ غزوة تبوك، فسرت ذات ليلة معه، ونحن بالأخضر قريبًا من رسول الله ﷺ، وألقى الله علينا النعاس، فطفقت أستيقظ وقد دنت راحلتي من راحلة رسول الله ﷺ، فيفزعني دنوها منه؛ مخافة أن أصيب رجله في الغرز، فطفقت أحوز راحلتي عنه، حتى غلبتني عيني في بعض الطريق ونحن في بعض الليل، فزاحمت راحلتي راحلة رسول الله ﷺ، ورجله في الغرز، فما استيقظت إلا بقوله: حس، فقلت: يا رسول الله، استغفر لي.

فقال: سر، فجعل رسول الله ﷺ يسألني عمن تخلف من بني غفار، فأخبره به، فقال وهو يسألني: ما فعل النفر الحمر الطوال الثطاط، فحدثته بتخلفهم. فقال: فما فعل النفر السود الجعاد القصار؟ قال: قلت: والله ما أعرف هؤلاء منا. قال: بلى، الذين لهم نعم بشبكة شدخ، فتذكرتهم في بني غفار، ولم أذكرهم حتى ذكرت أنهم رهط من أسلم، كانوا حلفاء فينا، فقلت: يا رسول الله، أولئك رهط من أسلم حلفاء فينا، فقال رسول الله ﷺ: ما منع أحد أولئك حين تخلف أن يحمل على بعير من إبله أمرًا نشيطًا في سبيل الله، إن أعز أهلي علي أن يتخلف عني المهاجرون من قريش والأنصار وغفار وأسلم.

- **المنافقون من جديد:**

قال رجل في غزوة تبوك في مجلس يومًا: ما رأينا مثل قرائنا هؤلاء (يقصد المسلمين)، لا أرغب بطونًا ولا أكذب ألسنة، ولا أجبن عند اللقاء .. فقال رجل في المجلس: كذبت، ولكنك منافق، لأخبرن رسول الله ﷺ، فبلغ ذلك رسول الله ﷺ، ونزل القرآن. قال عبد الله: فأنا رأيته متعلقًا بحقب[1] ناقة رسول الله والحجارة تنكبه[2]، وهو يقول: يا رسول الله، إنما كنا نخوض ونلعب، والرسول ﷺ يقول: «أبالله وآياته ورسوله كنتم تستهزئون؟».

---

(1) **الحقب:** حبل يشد به الرحل في بطن البعير.

(2) تصيبه وتؤذيه.

وفي رواية قتادة، قال: بينما رسول الله ﷺ في غزوته إلى تبوك وبين يديه أناس من المنافقين، فقالوا: يرجو هذا الرجل أن تفتح له قصور الشام وحصونها؟ هيهات هيهات!!، فأطلع الله نبيه على ذلك، فقال نبي الله ﷺ: «احبسوا على هؤلاء الركب». فأتاهم، فقال: «قلتم كذا، قلتم كذا، قالوا: يا نبي الله إنما كنا نخوض ونلعب، فأنزل الله فيهم ما تسمعون». فأنزل الله تعالى: ﴿ يَحْذَرُ ٱلْمُنَٰفِقُونَ أَن تُنَزَّلَ عَلَيْهِمْ سُورَةٌ تُنَبِّئُهُم بِمَا فِى قُلُوبِهِمْ ۚ قُلِ ٱسْتَهْزِءُوٓا۟ إِنَّ ٱللَّهَ مُخْرِجٌ مَّا تَحْذَرُونَ ﴿٦٤﴾ وَلَئِن سَأَلْتَهُمْ لَيَقُولُنَّ إِنَّمَا كُنَّا نَخُوضُ وَنَلْعَبُ ۚ قُلْ أَبِٱللَّهِ وَءَايَٰتِهِۦ وَرَسُولِهِۦ كُنتُمْ تَسْتَهْزِءُونَ ﴾ [التوبة][1].

- **قرار العودة:**

مكث رسول الله ﷺ بتبوك عشرين ليلة لم يلق حربًا من أعدائه، وقد تبين للناس جميعًا أنه ليس لأي قوة أن تعيش في العرب سوى قوة الإسلام.

قال الشيخ الغزالي رَحِمَهُ ٱللَّهُ:

وغزوة تبوك تشبه غزوة الأحزاب، فإن بلاء المسلمين أولها كان شديدًا، ثم جاء ختامها طمأنينة وعزة، ومكث الرسول هناك (عشرين يومًا)[2]، يمد بصره وراء الصحراء حيث اختفى الرومان، يرقب منهم أي حركة، فلما رأى القوم قابعين مستكينين، قرر أن يقفل عائدًا إلى المدينة، موفورًا منصورًا[3].

المبحث الرابع: إلى المدينة

أخذ الجيش الإسلامي طريق العودة إلى المدينة، بعد أن تحدى الروم في ديارهم، فجبنوا عن لقائه، وتفرقوا في بلادهم مدة إقامته بتبوك .. عاد وقد حصل له التهيؤ للجهاد والفتوحات خارج الجزيرة، وتبليغ الإسلام للناس كافة.

وفي طريق العودة كانت أحداث نوردها فيما يلي:

- **دفن عبد الله ذي البجادين:**

روى ابن إسحاق عن عبد الله بن مسعود رَضِيَ ٱللَّهُ عَنْهُ، قال:

---

(1) انظر: السيرة للصلابي، ص 828.

(2) قال الشيخ رَحِمَهُ ٱللَّهُ: بصفة عشر يومًا.

(3) فقه السيرة، ص 442.

قمت من جوف الليل، وأنا مع رسول الله ﷺ في غزوة تبوك، قال: فرأيت شعلة من نار في ناحية العسكر، قال: فاتبعتها أنظر إليها، فإذا رسول الله ﷺ، وأبو بكر، وعمر، وإذا عبد الله ذو البجادين المزني قد مات، وإذا هم قد حفروا له، ورسول الله ﷺ في حفرته، وأبو بكر وعمر يدنيانه إليه، وهو يقول: أدنيا إليَّ أخاكما، فدلياه إليه، فلما هيأه لشقه، قال: اللّهم إني أمسيت راضيًا عنه فارض عنه. قال: يقول عبد الله بن مسعود: يا ليتني كنت صاحب الحفرة. قال ابن هشام: وإنما سمي ذا البجادين لأنه كان ينازع إلى الإسلام، فيمنعه قومه من ذلك، ويضيقون عليه، حتى تركوه في بجاد ليس عليه غيره، والبجاد: الكساء الغليظ الجافي.

فهرب منهم إلى رسول الله ﷺ، فلما كان قريبًا منه شق بجاده اثنين، فاتزر بواحد، واشتمل بالآخر، ثم أتى رسول الله ﷺ، فقيل له: ذو البجادين لذلك.

- محاولة المنافقين اغتيال النبي ﷺ:

وفي طريق العودة، وعند عقبة (مكان عال) حاول اثنا عشر رجلًا من المنافقين أن يزحموا رسول الله ﷺ، فيلقوه من العقبة.

روى البيهقي عن حذيفة بن اليمان رَضِيَ اللَّهُ عَنْهُ، قال: كنت آخذًا بخطام ناقة رسول الله، وعمار يسوق الناقة، حتى إذا كنا بالعقبة إذا باثني عشر رجلًا قد اعترضوه فيها، قال: فأنبهت رسول الله ﷺ، فصرخ فيهم، فولوا مدبرين، فقال رسول الله: «هل عرفتم القوم؟»، قلنا: لا، يا رسول الله، قد كانوا متلثمين، قال: «هؤلاء المنافقون يوم القيامة، وهل تدرون ما أرادوا؟» قلنا: لا، قال: «أرادوا أن يزحموا رسول الله في العقبة، فيلقوه منها!!» قلنا: أولا تبعث إلى عشائرهم حتى يبعث إليك كل قوم برأس صاحبهم؟ قال: «لا؛ أكره أن يتحدث العرب أن محمدًا قَاتَلَ بقومه حتى إذا أظهره الله بهم، أقبل عليهم يقتلهم»، ودعا عليهم.

وقد ذكر ابن إسحاق هذه القصة، وذكر أن النبي ﷺ أعلم بأسمائهم حذيفة بن اليمان وحده؛ ولذا فقد سأل أمير المؤمنين عمر بن الخطاب رَضِيَ اللَّهُ عَنْهُ حذيفة: أقسمت عليك بالله أنا منهم؟

قال: لا، ولا أبرئ بعدك أحدًا (حتى لا يكون مفشيًا سر النبي ﷺ)؛ ولذلك كان حذيفة رَضِيَ اللَّهُ عَنْهُ يسمى بصاحب سر رسول الله ﷺ.

وذكر ابن إسحاق أن رسول الله ﷺ بعث حذيفة رَضِيَ اللَّهُ عَنْهُ، فجمعهم له، فأخبرهم رسول الله ﷺ ما كان من أمرهم، وبما تمالئوا عليه(1). وهم الذين عناهم الله بقوله: ﴿وَهَمُّواْ بِمَا لَمْ يَنَالُواْ﴾ [التوبة: 74]، يعني قتل النبي ﷺ.

- **هدم مسجد الضرار:**

كان أبو عامر الراهب ممن حمل لواء العداوة لرسول الله من أول يوم قدم فيه المدينة. وقد دعاه رسول الله إلى الإسلام، وقرأ عليه القرآن فأبى، وقد كان يسمى الراهب؛ لتنصره وترهبه في الجاهلية، فلما أبدى عداوته لله ورسوله، قال النبي: «لا تقولوا: الراهب، بل قولوا: الفاسق». وقد دعا عليه النبي أن يموت بعيدًا طريدًا، فأصابته الدعوة، وهو الذي ألب قريشًا على المسلمين في أحد، وحفر الحفائر في ميدان المعركة؛ كي يقع المسلمون.

ولم يكف عن محاربة الرسول بعد أحد، فلما رأى أمر الرسول في ارتفاع وظهور، ورأى النصر يتوالى عليه، ولا سيما بعد حنين وهزيمة هوازن، فر إلى هرقل ملك الروم، يستنصر به، فوعده ومناه، وأقام عنده، فكتب إلى جماعة المنافقين بالمدينة، يعدهم ويمنيهم أنه سيقدم عليهم بجيش يقاتل به رسول الله، وأمرهم أن يتخذوا له معقلًا يقدم عليهم فيه من يقدم من عنده لتبليغ كتبه، ويكون مرصدًا لهم إذا قدم عليهم بعد ذلك.

فشرعوا في بناء هذا المسجد، وكانوا اثني عشر رجلًا، منهم: خذام بن خالد، ومن داره أخرج مسجد الضرار، وثعلبة بن حاطب، ومعتِّب بن قشير، ونبتل بن الحارث، ومجمِّع بن جارية، وهو الذي يصلي بهم فيه. فلما فرغوا من بنائه وأحكموه جاءوا إليه ﷺ وهو يتجهز لتبوك، وسألوه أن يصلي لهم فيه؛ ليحتجوا بصلاته فيه على تقريره واعتباره، وذكروا للنبي أنهم بنوه لذي العلة والحاجة والليلة المطيرة والليلة الباردة، فعصمه الله من الصلاة فيه، وقال: «إني على جَنَاح سفر، ولكن إذا رجعنا - إن شاء الله - أتيناكم فصلينا لكم فيه».

فلما رجع النبي من تبوك، ولم يبق بينه وبين المدينة إلا يوم أو بعض يوم نزل عليه جبريل بخبر مسجد الضرار، وما أراد به بانوه من الكفر والتفريق بين جماعة المؤمنين، فدعا رسول الله مالك

---

(1) البداية والنهاية 5/26.

ابن الدخشم ومعن بن عدي، وقيل أخاه عاصمًا، وقال: «انطلقا إلى هذا المسجد الظالم أهله، فاهدماه وحرقاه»[1]، فذهبا فحرقاه وهدماه[2].

وفي هذا نزل قول الله تعالى:

﴿وَٱلَّذِينَ ٱتَّخَذُواْ مَسۡجِدٗا ضِرَارٗا وَكُفۡرٗا وَتَفۡرِيقَۢا بَيۡنَ ٱلۡمُؤۡمِنِينَ وَإِرۡصَادٗا لِّمَنۡ حَارَبَ ٱللَّهَ وَرَسُولَهُۥ مِن قَبۡلُۚ وَلَيَحۡلِفُنَّ إِنۡ أَرَدۡنَآ إِلَّا ٱلۡحُسۡنَىٰۖ وَٱللَّهُ يَشۡهَدُ إِنَّهُمۡ لَكَٰذِبُونَ ١٠٧ لَا تَقُمۡ فِيهِ أَبَدٗاۚ لَّمَسۡجِدٌ أُسِّسَ عَلَى ٱلتَّقۡوَىٰ مِنۡ أَوَّلِ يَوۡمٍ أَحَقُّ أَن تَقُومَ فِيهِۚ فِيهِ رِجَالٞ يُحِبُّونَ أَن يَتَطَهَّرُواْۚ وَٱللَّهُ يُحِبُّ ٱلۡمُطَّهِّرِينَ﴾ [التوبة].

ومعنى قوله تعالى (ضرارًا) أنهم إنما بنوه ضرارًا لمسجد قباء. وقوله تعالى: ﴿لَّمَسۡجِدٌ أُسِّسَ عَلَى ٱلتَّقۡوَىٰ مِنۡ أَوَّلِ يَوۡمٍ﴾ إشارة إلى مسجد قباء؛ ولذا فالصلاة فيه تعدل عمرة، كما روى الإمام أحمد في مسنده، عن سهل بن حنيف رَضِيَ اللَّهُ عَنْهُ، أن النبي ﷺ قال: «من خرج حتى يأتي هذا المسجد – يعني مسجد قباء – فيصلي فيه، كان كعدل عمرة»[3].

- إن بالمدينة أقوامًا ما سرتم مسيرًا ولا قطعتم واديًا إلا كانوا معكم:

روى البخاري بسنده، عن أنس بن مالك رَضِيَ اللَّهُ عَنْهُ، أن رسول الله ﷺ رجع من غزوة تبوك، فدنا من المدينة، فقال: «إن بالمدينة أقوامًا ما سرتم مسيرًا ولا قطعتم واديًا إلا كانوا معكم».

فقالوا: يا رسول الله، وهم بالمدينة؟

قال: «وهم بالمدينة؛ حبسهم العذر».

بهذه المواساة الرقيقة، كرم النبي ﷺ الرجال الذين شيعوه بقلوبهم وهو ينطلق إلى الروم، فأصلح بالهم، وأزاح همًّا ثقيلًا عن أفئدتهم.

أما من تخلف من المنافقين من مؤملي الشر، ودعاة الهزيمة، والأعراب الذين اعتبروا الإسلام نكبة حلت بهم، فهم يتربصون الدوائر بأهله! أما هؤلاء وأولئك فلهم شأن آخر[4].

---

(1) سيرة ابن هشام، ج2، ص 530.

(2) السيرة لأبي شهبة، ج2، ص 507- 508.

(3) مسند أحمد (25/358)، برقم (15981)، وقال محققوه: صحيح بشواهده.

(4) فقه السيرة للغزالي، ص 443.

- **هذه طابة:**

روى البخاري عن أبي حميد الساعدي رضي الله عنه، قال: أقبلنا مع النبي ﷺ من غزوة تبوك، حتى إذا أشرفنا على المدينة قال: «هذه طابة، وهذا أحد جبل يحبنا ونحبه» [1]... وبذا عاد الحبيب ﷺ إلى مدينته طيبة الطيبة، مأرز الإيمان، وملتقى المهاجرين والأنصار، وخير بقاع الأرض بعد مكة.

وكما خلق الله الجبال المسبحة مع نبي الله داود عليه السلام، حيث قال: ﴿يَـٰجِبَالُ أَوِّبِي مَعَهُۥ﴾ [سبأ: 15]. أي: يا جبال سبحي معه، خلق الله الجبال المحبة لرسول الله ﷺ، وفيها جبل أحد، الذي شهدت ساحاته الجنوبية ثبات وبطولة وتضحيات رسول الله ﷺ وأصحابه رضي الله عنهم[2].

عاد رسول الله ﷺ إلى المدينة في رمضان سنة (9 هـ)، وكان قد خرج منها إلى تبوك في رجب من العام نفسه، واستغرقت هذه الغزوة خمسين يومًا، أقام ﷺ منها عشرين يومًا بتبوك، والبواقي قضاها في الطريق جيئة وذهوبًا. وكانت هذه الغزوة آخر غزواته ﷺ [3].

المبحث الخامس: في المدينة

كان أول ما فعله رسول الله ﷺ عند دخوله المدينة أن صلى في مسجده ركعتين، ثم جلس للناس، فجاءه المنافقون المتخلفون عن الغزوة، فاعتذروا بشتى الأعذار، فقبل منهم علانيتهم، وبايعهم واستغفر لهم ووكل سرائرهم لله، ثم جاءه المخلفون[4]، وكان من خبر هؤلاء جميعًا ما سنسوقه فيما يلي:

- **الذين حبسهم العذر:**

وهم الذين تخلفوا عن تبوك؛ لأن لهم عذرًا شرعيًّا منعهم من الخروج .. وهم الذين قال فيهم رسول الله ﷺ حين دنا من المدينة: «إن بالمدينة رجالًا ما سرتم مسيرًا، ولا قطعتم واديًا إلا كانوا معكم؛ حبسهم العذر» .. فقد عذرهم ﷺ، ونزل فيهم قول الله عز وجل: ﴿ لَّيْسَ عَلَى

---

(1) صحيح البخاري، رقم 4422، ورواه مسلم من حديث سليمان بن بلال رقم 3437.

(2) سامي المغامسي، عكاظ، العدد 4407.

(3) انظر: الرحيق المختوم، ص 436.

(4) السيرة لمهدي رزق الله، ص 631.

ﭐﻟﻀُّﻌَﻔَﺎٓءِ وَﻟَﺎ ﻋَﻠَﻰ ﭐﻟۡﻤَﺮۡﺿَﻰٰ وَﻟَﺎ ﻋَﻠَﻰ ﭐﻟَّﺬِﻳﻦَ ﻟَﺎ ﻳَﺠِﺪُونَ ﻣَﺎ ﻳُﻨﻔِﻘُﻮنَ ﺣَﺮَجٌ إِذَا ﻧَﺼَﺤُﻮاْ ﻟِﻠَّﻪِ وَرَﺳُﻮﻟِﻪِۦۚ ﻣَﺎ ﻋَﻠَﻰ ﭐﻟۡﻤُﺤۡﺴِﻨِﻴﻦَ ﻣِﻦ ﺳَﺒِﻴﻞٖۚ وَﭐﻟﻠَّﻪُ ﻏَﻔُﻮرٞ رَّﺣِﻴﻢٞ﴾ [التوبة: 91]. فبينت الآيات أن الله تعالى - بفضله وكرمه - رفع حرج الإثم عن الضعفاء من صغار السن والشيوخ الكبار والمرضى والزمنى الذين بهم أعلال مانعة من الخروج للقتال، وعن فقراء المؤمنين الذين لا يجدون نفقة تبلغهم إلى الغزو.

- المنافقون يعتذرون:

كانت تبوك اختبارًا شديدًا من الله تعالى، امتاز به المؤمنون عن غيرهم، كما هو دأبه تعالى في مثل هذه المواطن، حيث يقول:

﴿ﻣَّﺎ ﻛَﺎنَ ﭐﻟﻠَّﻪُ ﻟِﻴَﺬَرَ ﭐﻟۡﻤُﺆۡﻣِﻨِﻴﻦَ ﻋَﻠَﻰٰ ﻣَﺎٓ أَﻧﺘُﻢۡ ﻋَﻠَﻴۡﻪِ ﺣَﺘَّﻰٰ ﻳَﻤِﻴﺰَ ﭐﻟۡﺨَﺒِﻴﺚَ ﻣِﻦَ ﭐﻟﻄَّﻴِّﺐِۗ﴾ [آل عمران: 179]، فقد خرج لهذه الغزوة من كان مؤمنًا صادقًا، حتى صار التخلف أمارة على نفاق الرجل، فكان الرجل إذا تخلف وذكروه لرسول الله ﷺ، قال لهم: «دعوه،؛ فإن يكن فيه خير سيلحقه الله بكم، وإن يكن غير ذلك فقد أراحكم منه»، فلم يتخلف إلا من حبسهم العذر، أو الذين كذبوا الله ورسوله من المنافقين، الذين قعدوا بعد أن استأذنوا للقعود كذبًا، أو قعدوا ولم يستأذنوا رأسًا.

ولما دخل رسول الله ﷺ المدينة، وجلس للناس بالمسجد، جاء المنافقون - وهم بضعة وثمانون رجلًا - يعتذرون بأنواع شتى من الأعذار، وطفقوا يحلفون له، فقبل منهم علانيتهم وبايعهم، واستغفر لهم، ووكل سرائرهم إلى الله[1].

وقد عاملهم رسول الله ﷺ باللين والصفح، واختار لمن تخلف من المسلمين الصادقين الشدة والعقوبة (كما سيأتي في قصة الذين خلفوا)؛ لأن الشدة والقسوة في هذا المقام مظهر للإكرام والتشريف، وهو ما لا يستحقه المنافقون؛ لأنهم كفرة، ولن ينشلهم شيء مما يتظاهرون به في الدنيا من الدرك الأسفل من النار يوم القيامة، وقد أمر الشارع جل جلاله أن ندعهم لما تظاهروا به، ونجري الأحكام الدنيوية حسب ظواهرهم، ففيم التحقيق عن بواطن أعذارهم وحقيقة أقوالهم؟ وفيم معاقبتهم في الدنيا على ما قد يصدر عنهم من كذب؟ ونحن إنما نعطيهم الظاهر فقط من المعاملة والأحكام، كما يبدون لنا هم أيضًا، الظاهر فقط من أحوالهم وعقائدهم، قال ابن القيم: وهكذا يفعل الرب سبحانه بعباده في عقوبات جرائهم، فيؤدب عبده المؤمن

---

(1) الرحيق المختوم، ص 436- 437.

الذي يحبه وهو كريم عنده، بأدنى زلة وهفوة، فلا يزال مستيقظًا حذرًا، وأما من سقط من عين الله وهان عليه، فإنه يخلي بينه وبين معاصيه، وكلما أحدث ذنبًا أحدث له نعمة[1].

قال تعالى: ﴿ فَرِحَ ٱلْمُخَلَّفُونَ بِمَقْعَدِهِمْ خِلَٰفَ رَسُولِ ٱللَّهِ وَكَرِهُوٓا۟ أَن يُجَٰهِدُوا۟ بِأَمْوَٰلِهِمْ وَأَنفُسِهِمْ فِى سَبِيلِ ٱللَّهِ وَقَالُوا۟ لَا تَنفِرُوا۟ فِى ٱلْحَرِّ ۗ قُلْ نَارُ جَهَنَّمَ أَشَدُّ حَرًّا ۚ لَّوْ كَانُوا۟ يَفْقَهُونَ ﴿٨١﴾ فَلْيَضْحَكُوا۟ قَلِيلًا وَلْيَبْكُوا۟ كَثِيرًا جَزَآءًۢ بِمَا كَانُوا۟ يَكْسِبُونَ ﴿٨٢﴾ فَإِن رَّجَعَكَ ٱللَّهُ إِلَىٰ طَآئِفَةٍ مِّنْهُمْ فَٱسْتَـْٔذَنُوكَ لِلْخُرُوجِ فَقُل لَّن تَخْرُجُوا۟ مَعِىَ أَبَدًا وَلَن تُقَٰتِلُوا۟ مَعِىَ عَدُوًّا ۖ إِنَّكُمْ رَضِيتُم بِٱلْقُعُودِ أَوَّلَ مَرَّةٍ فَٱقْعُدُوا۟ مَعَ ٱلْخَٰلِفِينَ ﴾ [التوبة: 81- 83].

- الثلاثة الذين خلفوا:

ذكرنا أنه قد تخلف جماعة من المسلمين لا يتهمون في إيمانهم، منهم: كعب بن مالك، ومرارة ابن الربيع، وهلال بن أمية، ما تخلفوا شكًّا ولا نفاقًا، وإنما غلبهم التسويف والميل إلى الراحة. وقد وردت قصتهم في كتب المغازي والسير والحديث والتفسير، وحظيت بشرح وتعليق من كثير من العلماء والمفكرين والدعاة؛ لما فيها من صدق اللهجة وروعة البيان والأدب الجم، ولما فيها من عمق التربية للمجتمع المسلم ولأفراده، ولما فيها من الولاء التام لله ورسوله والمؤمنين، ولما فيها من فرحة المؤمن الصادق بالعودة إلى طريق الحق والصراط المستقيم، وفرحة مجتمعه المسلم بعودته إلى الدخول تحت رضوان الله تعالى، الذي هو بغية المسلم من حياته كلها. وقد روى قصتهم البخاري ومسلم وابن إسحق وأحمد وغيرهم .. وسنذكر هنا ما ورد في صحيح البخاري، في كتاب المغازي:

قال كعب بن مالك رَضِيَ اللَّهُ عَنْهُ: لم أتخلف عن رسول ﷺ في غزوة غزاها إلا في غزوة تبوك، غير أني كنت تخلفت في غزوة بدر، ولم يعاتب أحدًا تخلف عنها؛ إنما خرج رسول الله ﷺ يريد عير قريش حتى جمع الله بينهم وبين عدوهم على غير ميعاد، ولقد شهدت مع رسول الله ﷺ ليلة العقبة حين تواثقنا على الإسلام، وما أحب أن لي بها مشهد بدر، وإن كانت بدر أذكر في الناس منها، كان من خبري أني لم أكن أقوى ولا أيسر حين تخلفت عنه في تلك الغزاة. والله ما اجتمعت عندي قبله راحلتان قط حتى جمعتهما في تلك الغزوة، ولم يكن رسول الله ﷺ يريد غزوة إلا ورى بغيرها، حتى كانت تلك الغزوة، غزاها رسول الله ﷺ في حر شديد، واستقبل سفرًا بعيدًا، ومفازًا، وعدوًّا كثيرًا، فجلى للمسلمين أمرهم؛ ليتأهبوا أهبة غزوهم، فأخبرهم

(1) انظر: السيرة للصلابي، ص 833.

بوجهه الذي يريد، والمسلمون مع رسول الله ﷺ كثير، ولا يجمعهم كتاب حافظ - يريد الديوان (الذي يكتب فيه أسماء الجند) - قال كعب: فما رجل يريد أن يتغيب إلا ظن أنه سيخفى له (فلا يعرف بتغيبه أحد)، ما لم ينزل فيه وحي الله.

وغزا رسول الله ﷺ تلك الغزوة حيث طابت الثمار والظلال، وتجهز رسول الله ﷺ والمسلمون معه، فطفقت أغدو لكي أتجهز معهم، فأرجع ولم أقض شيئًا، فأقول في نفسي: أنا قادر عليه. فلم يزل يتمادى بي حتى اشتد بالناس الجد، فأصبح رسول الله ﷺ والمسلمون معه ولم أقض من جهازي شيئًا. فقلت: أتجهز بعده بيوم أو يومين، ثم ألحقهم، فغدوت بعد أن فصلوا لأتجهز، فرجعت ولم أقض شيئًا. ثم غدوت، ثم رجعت ولم أقض شيئًا. فلم يزل بي حتى أسرعوا وتفارط الغزو[1]، وهممت أن أرتحل فأدركهم وليتني فعلت، فلم يقدر لي ذلك، فكنت إذا خرجت في الناس - بعد خروج رسول الله ﷺ - فطفت فيهم أحزنني أني لا أرى إلا رجلًا مغموصًا عليه النفاق، أو رجلًا ممن عذر الله من الضعفاء، ولم يذكرني رسول الله ﷺ حتى بلغ تبوك، فقال وهو جالس في القوم بتبوك: «ما فعل كعب؟» فقال رجل من بني سلمة: يا رسول الله حبسه برداه، ونظره في عطفه[2]. فقال معاذ بن جبل: بئس ما قلت، والله يا رسول الله! ما علمنا عليه إلا خيرًا، فسكت رسول الله ﷺ، فبينما هو على ذلك رأى رجلًا مبيضًا[3] يزول به السراب[4]، فقال رسول الله ﷺ: «كن أبا خيثمة»، فإذا هو أبو خيثمة الأنصاري، وهو الذي تصدق بصاع التمر حين لمزه المنافقون، قال كعب بن مالك: فلما بلغني أنه توجه قافلًا[5] حضرني همي، وطفقت أتذكر الكذب، وأقول: بماذا أخرج من سخطه غدًا؟ واستعنت على ذلك بكل ذي رأي من أهلي. فلما قيل لي: إن رسول الله ﷺ قد أظل قادمًا زاح عني الباطل، وعرفت أني لن أنجو منه بشيء أبدًا، فأجمعت صِدْقَه[6]، وأصبح رسول الله ﷺ قادمًا، وكان إذا قدم من سفر، بدأ بالمسجد فيركع فيه ركعتين، ثم جلس للناس، فلما فعل ذلك جاءه المخلفون، فطفقوا يعتذرون إليه، ويحلفون له، وكانوا بضعة وثمانين رجلًا، فقبل منهم رسول الله ﷺ علانيتهم، وبايعهم، واستغفر لهم، ووكل سرائهم إلى الله، فجئت، فلما سلمت، تبسم تبسم المغضب، ثم

---

(1) **تفارط الغزو:** تقدم الغزاة وسبقوا وفانوا.

(2) **النظر في عطفيه:** أي جانبيه، وهو إشارة إلى إعجابه بنفسه.

(3) لابس البياض.

(4) يتحرك وينهض.

(5) **قافلًا:** راجعًا.

(6) عزمت على صدقه.

قال: «تعال»، فجئت أمشي حتى جلست بين يديه، فقال لي: «ما خلفك؟ ألم تكن قد ابتعت ظهرك؟» قلت: بلى، إني والله لو جلست عند غيرك من أهل الدنيا، لرأيت أن سأخرج من سخطه بعذر، ولقد أُعْطيت جدلًا[1]، ولكني والله! لقد علمت لئن حدثتك اليوم حديث كذب ترضى به عني، ليوشكن الله أن يسخطك علي، ولئن حدثتك حديث صدق تجد عليَّ[2] فيه إني لأرجو فيه عُقْبى الله، لا والله ما كان لي عذر، والله! ما كنت قد أقوى ولا أيسر مني حين تخلفت عنك. فقال رسول الله ﷺ: «أما هذا فقد صدق، فقم حتى يقضي الله فيك، فقمت»، وثار رجال من بني سلمة فاتبعوني. فقالوا لي: والله ما علمناك كنت أذنبت ذنبًا قبل هذا. ولقد عجزت أن لا تكون اعتذرت إلى رسول الله ﷺ بما اعتذر به إليه المخلفون، قد كان كافيك ذنبك استغفار رسول الله ﷺ لك. قال: فوالله! ما زالوا يؤنبونني حتى أردت أن أرجع إلى رسول الله ﷺ فأكذب نفسي.

ثم قلت لهم: هل لقي هذا معي من أحد، قالوا: نعم، رجلان، قالا مثل ما قلت، فقيل لهما مثل ما قيل لك. قال: قلت: من هما؟ قالوا: مرارة بن الربيع العمري، وهلال بن أمية الواقفي، فذكروا لي رجلين صالحين قد شهدا بدرًا، فيهما أسوة. فمضيت حين ذكروهما لي.

ونهى رسول الله ﷺ عن كلامنا أيها الثلاثة من بين من تخلف عنه. فاجتنبنا الناس، وتغيروا لنا حتى تنكرت لي في نفسي الأرض، فما هي التي أعرف.

فلبثنا على ذلك خمسين ليلة، فأما صاحباي فاستكانا وقعدا في بيوتهما يبكيان. وأما أنا فكنت أشب القوم وأجلدهم[3]، فكنت أخرج، فأشهد الصلاة مع المسلمين، وأطوف في الأسواق ولا يكلمني أحد. وآتي رسول الله ﷺ، فأسلم عليه، وهو في مجلسه بعد الصلاة مع المسلمين، فأقول في نفسي: هل حرك شفتيه برد السلام علي أم لا؟ ثم أصلي قريبًا منه، فأسارقه النظر، فإذا أقبلت على صلاتي أقبل إليَّ، وإذا التفت نحوه أعرض عني، حتى إذا طال ذلك عليَّ من جفوة الناس، مشيت حتى تسورت جدار حائط أبي قتادة، وهو ابن عمي، وأحب الناس إليَّ، فسلمت عليه فوالله ما رد عليَّ السلام، فقلت: يا أبا قتادة، أنشدك بالله، هل تعلمني أحب الله ورسوله؟ فسكت.

(1) لدي فصاحة وبراعة في الكلام.

(2) تغضب عليَّ.

(3) أي أصغرهم سنًّا وأقواهم.

فعدت فنشدته فسكت، فعدت له فنشدته. فقال: الله ورسوله أعلم. ففاضت عيناي، وتوليت حتى تسورت الجدار، فبينا أنا أمشي في سوق المدينة، إذا نبطي من نبط أهل الشام[1]، ممن قدم بالطعام يبيعه بالمدينة، يقول: من يدل على كعب بن مالك، فطفق الناس يشيرون له، حتى جاءني، فدفع إليَّ كتابًا من ملك غسان. فإذا فيه: أما بعد، فإنه قد بلغني أن صاحبك قد جفاك، ولم يجعلك الله بدار هوان ولا مضيعة، فالحق بنا نواسك. فقلت حين قرأتها: وهذا أيضًا من البلاء، فتيممت بها التنور[2]، فسجرته[3] بها، حتى إذا مضت أربعون ليلة من الخمسين، إذا رسول رسول الله ﷺ يأتيني، فقال: إن رسول الله ﷺ يأمرك أن تعتزل امرأتك، فقلت: أطلقها أم ماذا أفعل؟ قال: لا، بل اعتزلها لا تقربنها. وأرسل إلى صاحبي مثل ذلك.

قال: فقلت لامرأتي: الحقي بأهلك فتكوني عندهم حتى يقضي الله في هذا الأمر، قال: فجاءت امرأة هلال بن أمية رسول الله، فقالت: يا رسول الله! إن هلال بن أمية شيخ ضائع، ليس له خادم، فهل تكره أن أخدمه؟ قال: لا، ولكن لا يقربنك، قالت: إنه والله! ما به حركة إلى شيء، والله ما زال يبكي منذ كان من أمره ما كان إلى يومه هذا. فقال لي بعض أهلي: لو استأذنت رسول الله ﷺ في امرأتك؟ كما أذن لامرأة هلال بن أمية أن تخدمه. قال: فقلت: لا أستأذن رسول الله ﷺ، وما يدريني ماذا يقول رسول الله ﷺ إذا استأذنته فيها، وأنا رجل شاب. قال: فلبثت بعد ذلك عشر ليال، حتى كملت لنا خمسون ليلة من حين نهى رسول الله ﷺ عن كلامنا، فلما صليت صلاة الفجر صبح خمسين ليلة، وأنا على ظهر بيت من بيوتنا، فبينا أن جالس على الحال التي ذكر الله عز وجل منا، قد ضاقت عليَّ نفسي، وضاقت عليَّ الأرض بما رحبت، سمعت صوت صارخ أوفى على سَلْع[4]، يقول بأعلى صوته: يا كعب بن مالك، أبشر. قال: فخررت ساجدًا، وعرفت أن قد جاء فرج، وآذن رسول الله ﷺ بتوبة الله علينا حين صلى صلاة الفجر، وذهب الناس يبشروننا، وذهب قِبَل صاحبيَّ مبشرون، وركض إليَّ رجل فرسًا، وسعى ساع من أسلم، فأوفى على الجبل، وكان الصوت أسرع من الفرس، فلما جاءني الذي سمعت صوته يبشرني، نزعت له ثوبيَّ، فكسوته إياهما ببشراه، والله! ما أملك غيرهما يومئذ،

---

(1) **نبط أهل الشام:** فلاحو العجم.

(2) **تيممت بها التنور:** قصدت بها الفرن.

(3) **سجرته:** أحرقته.

(4) رجل يصرخ من فوق جبل (سلع)، وهو جبل معروف بالمدينة.

واستعرت ثوبين فلبستهما، وانطلقت إلى رسول الله ﷺ فيتلقاني الناس فوجًا فوجًا، يُهَنُّونِي بالتوبة، ويقولون: لِتَهْنِكَ توبة الله عليك، قال كعب: حتى دخلت المسجد، فإذا رسول الله ﷺ جالس حوله الناس، فقام إليَّ طلحة بن عبيد الله يهرول حتى صافحني وهنَّاني، والله! ما قام إليَّ رجل من المهاجرين غيره، ولا أنساها له. قال كعب: فلما سلمت على رسول الله ﷺ، قال رسول الله ﷺ وهو يبرق وجهه من السرور: «أبشر بخير يوم مر عليك منذ ولدتك أمك»، قال: قلت: أمن عندك يا رسول الله، أم من عند الله، قال: «لا، بل من عند الله»، وكان رسول الله ﷺ إذا سر استنار وجهه، كأنه قطعة قمر، وكنا نعرف ذلك منه. قال: فلما جلست بين يديه، قلت: يا رسول الله، إن من توبتي أن أنخلع من مالي صدقة إلى الله وإلى رسول الله ﷺ. فقال رسول الله ﷺ: «أمسك عليك بعض مالك؛ فهو خير لك»، قلت: فإني أمسك سهمي الذي بخيبر. فقلت: يا رسول الله: إن الله إنما نجاني بالصدق، وإن من توبتي أن لا أحدث إلا صدقًا ما بقيت، فوالله! ما أعلم أحدًا من المسلمين أبلاه[1] الله في صدق الحديث منذ ذكرت ذلك لرسول ﷺ إلى يومي هذا، أحسن مما أبلاني. ما تعمدت كذبة منذ قلت لرسول الله ﷺ إلى يومي هذا، وإني لأرجو أن يحفظني الله فيما بقي. قال: فأنزل الله عز وجل: ﴿لَّقَد تَّابَ ٱللَّهُ عَلَى ٱلنَّبِيِّ وَٱلْمُهَـٰجِرِينَ وَٱلْأَنصَارِ ٱلَّذِينَ ٱتَّبَعُوهُ فِى سَاعَةِ ٱلْعُسْرَةِ مِنۢ بَعْدِ مَا كَادَ يَزِيغُ قُلُوبُ فَرِيقٍ مِّنْهُمْ ثُمَّ تَابَ عَلَيْهِمْ ۚ إِنَّهُۥ بِهِمْ رَءُوفٌ رَّحِيمٌ ﴿١١٧﴾ وَعَلَى ٱلثَّلَـٰثَةِ ٱلَّذِينَ خُلِّفُوا۟ حَتَّىٰٓ إِذَا ضَاقَتْ عَلَيْهِمُ ٱلْأَرْضُ بِمَا رَحُبَتْ وَضَاقَتْ عَلَيْهِمْ أَنفُسُهُمْ وَظَنُّوٓا۟ أَن لَّا مَلْجَأَ مِنَ ٱللَّهِ إِلَّآ إِلَيْهِ ثُمَّ تَابَ عَلَيْهِمْ لِيَتُوبُوٓا۟ ۚ إِنَّ ٱللَّهَ هُوَ ٱلتَّوَّابُ ٱلرَّحِيمُ﴾، حتى بلغ: ﴿يَـٰٓأَيُّهَا ٱلَّذِينَ ءَامَنُوا۟ ٱتَّقُوا۟ ٱللَّهَ وَكُونُوا۟ مَعَ ٱلصَّـٰدِقِينَ﴾ [التوبة].

قال كعب: والله ما أنعم الله علي من نعمة قط بعد إذ هداني للإسلام، أعظم في نفسي من صدقي لرسول الله ﷺ، أن لا أكون كذبته فأهلك كما هلك الذين كذبوا، فإن الله قال للذين كذبوا الله حين أنزل الوحي شر ما قال لأحد، قال الله: ﴿سَيَحْلِفُونَ بِٱللَّهِ لَكُمْ إِذَا ٱنقَلَبْتُمْ إِلَيْهِمْ لِتُعْرِضُوا۟ عَنْهُمْ ۖ فَأَعْرِضُوا۟ عَنْهُمْ ۖ إِنَّهُمْ رِجْسٌ ۖ وَمَأْوَىٰهُمْ جَهَنَّمُ جَزَآءًۢ بِمَا كَانُوا۟ يَكْسِبُونَ ﴿٩٥﴾ يَحْلِفُونَ لَكُمْ لِتَرْضَوْا۟ عَنْهُمْ ۖ فَإِن تَرْضَوْا۟ عَنْهُمْ فَإِنَّ ٱللَّهَ لَا يَرْضَىٰ عَنِ ٱلْقَوْمِ ٱلْفَـٰسِقِينَ﴾ [التوبة: 95- 96].

(1) **أبلاه الله:** أنعم عليه.

قال كعب: وكنا تخلفنا أيُّها الثلاثة عن أمر أولئك الذين قبل منهم رسول الله ﷺ حين حلفوا له، فبايعهم واستغفر لهم، وأرجأ رسول الله ﷺ أمرنا حتى قضى الله فيه، فبذلك قال عز وجل: ﴿وَعَلَى ٱلثَّلَٰثَةِ ٱلَّذِينَ خُلِّفُواْ حَتَّىٰٓ إِذَا ضَاقَتۡ عَلَيۡهِمُ ٱلۡأَرۡضُ بِمَا رَحُبَتۡ وَضَاقَتۡ عَلَيۡهِمۡ أَنفُسُهُمۡ وَظَنُّوٓاْ أَن لَّا مَلۡجَأَ مِنَ ٱللَّهِ إِلَّآ إِلَيۡهِ ثُمَّ تَابَ عَلَيۡهِمۡ لِيَتُوبُوٓاْۚ إِنَّ ٱللَّهَ هُوَ ٱلتَّوَّابُ ٱلرَّحِيمُ﴾ [التوبة: 118]. وليس الذي ذكر الله مما خُلِّفنا عن الغزو، إنما هو تخليفه إيانا وإرجاؤه أمرنا[1]، عمن حلف له واعتذر إليه، فقبل منه[2].

- ما قاله صاحب (الظلال) في الثلاثة الذين خلفوا:

قال سيد قطب رَحِمَهُ ٱللَّهُ:

هذه هي قصة الثلاثة الذين خلفوا، كما رواه أحدهم كعب بن مالك، وفي كل فقرة فيها عبرة، وفيها كلها صورة بارزة الخطوط عن القاعدة الصلبة للمجتمع الإسلامي، ومتانة بنائها، وصفاء عناصرها، ونصاعة تصورها لمعنى الجماعة، ولتكاليف الدعوة، ولقيمة الأوامر، ولضرورة الطاعة.

فهذا كعب بن مالك وزميلاه يتخلفون عن ركب رسول الله ﷺ في ساعة العسرة، يدركهم الضعف البشري الذي يحبب إليهم الظل والراحة، فيؤثرونهما على الحر والشدة والسفر الطويل والكد الناصب. ولكن كعبًا ما يلبث بعد خروج رسول الله ﷺ أن يحس ما فعل، يشعره به كل ما حوله: (فطفقت إذا خرجت في الناس بعد خروج رسول الله ﷺ يحزنني أنني لا أرى لي أسوة إلا رجلًا مغموصًا عليه في النفاق، أو رجلًا ممن عذر الله» - يعني الضعفاء والمرضى، والذين لا يجدون ما ينفقون.

فالعسرة لم تقعد بالمسلمين عن تلبية دعوة رسول الله ﷺ إلى الغزوة البعيدة الشقة، لم يقعد إلا المظْنون بهم النفاق، وإلا العاجزون الذين عذرهم الله. أما القاعدة الصلبة للجماعة المسلمة فكانت أقوى روحًا من العسرة، وأصلب عودًا من الشدة.

- هذه واحدة .. والثانية هي التقوى .. التقوى التي تلجئ المخطئ إلى الصدق والإقرار، والأمر بعد ذلك لله: (فقلت يا رسول الله، والله لو جلست عند غيرك من أهل الدنيا لرأيت أني

---

(1) **إرجاؤه أمرنا:** تأخيره أمرنا.

(2) البخاري، كتاب المغازي، رقم (4418).

سأخرج من سخطه بعذر، لقد أعطيت جدلًا، ولكني والله لقد علمت لئن حدثتك اليوم حديث كذب ترضى عني به ليوشكن الله أن يسخطك عليَّ، ولئن حدثتك بحديث صدق تجد عليَّ فيه إني لأرجو فيه عقبى من الله، والله ما كان لي عذر، والله ما كنت أقوى ولا أيسر مني حين تخلفت عنك».

فالله حاضر في ضمير المؤمن المخطئ، ومع حرصه البالغ على رضى رسول الله ﷺ، وهذا الرضى يومئذ يعز ويذل، ويرفع ويخفض، ويترك المسلم مرموقًا بالأنظار، أو مهملًا لا ينظر إليه إنسان، مع هذا فإن مراقبة الله أقوى، وتقوى الله أعمق، والرجاء في الله أوثق.

«ونهى رسول الله ﷺ الناس عن كلامنا أيها الثلاثة من بين من تخلف عنه، فاجتنبنا الناس (أو قال: تغيروا لنا) حتى تنكرت لي في نفسي الأرض، فما هي بالأرض التي كنت أعرف، فلبثنا على ذلك خمسين ليلة، فأما صاحبيَّ فاستكانا وقعدا في بيوتهما، وأما أنا فكنت أشب القوم وأجلدهم. فكنت أخرج فأشهد الصلاة مع المسلمين، وأطوف بالأسواق، فلا يكلمني أحد، وآتي رسول الله ﷺ فأسلم عليه في مجلسه بعد الصلاة، وأقول في نفسي: هل حرك شفتيه برد السلام أم لا؟ ثم أصلي قريبًا منه وأسارقه النظر، فإذا أقبلت على صلاتي نظر إليَّ، فإذا التفت نحوه أعرض عني، حتى إذا طال عليَّ ذلك من هجر المسلمين مشيت حتى تسورت حائط أبي قتادة – وهو ابن عمي وأحب الناس إليَّ – فسلمت عليه، فوالله ما رد عليَّ السلام، فقلت له: يا أبا قتادة، أنشدك الله تعالى، هل تعلم أني أحب الله ورسوله؟ قال: فسكت، قال: فعدت فنشدته، فسكت، فعدت فنشدته، قال: الله ورسوله أعلم، ففاضت عيناي، وتوليت حتى تسورت الجدار».

هكذا كان الضبط، وهكذا كانت الطاعة في الجماعة المسلمة – على الرغم من كل ما وقع من خلخلة بعد الفتح ومن بلبلة في ساعة العسرة – نهى رسول الله ﷺ عن كلامنا أيها الثلاثة، فلا مخلوق يفتح فمه بكلمة، ولا مخلوق يلقى كعبًا بأنس، ولا مخلوق يأخذ منه أو يعطي، حتى ابن عمه وأحب الناس إليه، وقد تسور عليه داره، لا يرد عليه السلام، ولا يجيبه عن سؤال، فإذا أجاب بعد الإلحاح لم يطمئن لهفته ولم يسكن قلقه، إنما قال: (الله ورسوله أعلم).

وكعب في لهفته – وقد تنكرت له الأرض، فلم تعد الأرض التي كان يعرف – يتلمس حركة من بين شفتي الرسول ﷺ، ويخالسه النظر؛ لعله يعلم أن رسول الله قد ألقى إليه بنظرة، يحيا على الأمل فيها، ويطمئن إلى أنه لم يقطع من تلك الشجرة، ولم يكتب له الذبول والجفاف.

وبينما هو طريد شريد، لا يلقي إليه مخلوق من قومه بكلمة – ولو على سبيل الصدفة – يجيئه من قبل ملك غسان كتاب يمنيه بالعزة والكرامة والمجد والجاه .. ولكنه بحركة واحدة يعرض عن هذا كله، وما يزيد على أن يلقي بالكتاب إلى النار، ويعد هذا بقية من البلاء، ويصبر على الابتلاء.

وتمتد المقاطعة فتعزل عنه زوجه، لتدعه فريدًا طريدًا من الأنس كله، مخلفًا بين الأرض والسماء، فيخجل أن يراجع رسول الله ﷺ في امرأته؛ لأنه لا يدري كيف يكون الجواب.

– هذه صفحة .. والصفحة الأخرى هي صفحة البشرى .. بشرى القبول .. بشرى العودة .. العودة إلى الصف .. بشرى التوبة من الذنب .. بشرى البعث والعودة إلى الحياة .. «فبينا أنا جالس على الحال التي ذكر الله منا، قد ضاقت عليَّ نفسي، وضاقت عليَّ الأرض بما رحبت، سمعت صارخًا أوفى على جبل سلع، يقول بأعلى صوته: يا كعب بن مالك أبشر، فخررت ساجدًا، وعرفت أن قد جاء الفرج. فأذن رسول الله ﷺ بتوبة الله علينا حين صلى الفجر، فذهب الناس يبشروننا، وذهب قِبَل صاحبيَّ مبشرون، وركض إليَّ رجل فرسًا، وسعى ساع من أسلم قِبلي وأوفى على الجبل، فكان الصوت أسرع من الفرس، فلما جاء الذي سمعت صوته يبشرني، نزعت له ثوبيَّ فكسوتهما إياه ببشارته، والله ما أملك غيرهما يومئذ، فاستعرت ثوبين فلبستهما، فانطلقت أؤم رسول الله ﷺ، يتلقاني الناس فوجًا بعد فوج يهنوني بالتوبة، ويقولون: لِتَهْنِك توبة الله عليك. حتى دخلت المسجد فإذا رسول الله ﷺ جالس في المسجد وحوله الناس، فقام إليَّ طلحة بن عبيد الله يهرول حتى صافحني وهناني، والله ما قام إليَّ رجل من المهاجرين غيره، قال: فكان كعب لا ينساها لطلحة».

هكذا كانت الأحداث تقدر وتقوّم في هذه الجماعة. وهكذا كانت توبة مقبولة تستقبل وتعظم، كانت بشرى يركض بها الفارس إلى صاحبها، ويهتف بها راكب الجبل؛ ليكون أسرع بشارة. وكانت التهنئة بها والاحتفاء بصاحبها جميلًا، لا ينساه الطريد الذي رُدَّ إلى الجماعة، واتصلت بها وشائجه، فهو في يوم كما قال عنه رسول الله ﷺ: «أبشر بخير يوم مر عليك منذ ولدتك أمك» .. قالها ﷺ وهو يبرق وجهه من السرور كما قال كعب، فهذا القلب الكبير الكريم الرحيم قد فاض به السرور، أن تقبل الله توبة ثلاثة من أصحابه، وردهم مكرمين إلى جماعته[1].

(1) في ظلال القرآن، سورة التوبة.

الفصل الخامس

دخول الناس في دين الله أفواجًا (الوفود)

كانت العرب تتربص بالإسلام أمر هذا الحي من قريش؛ وذلك أن قريشًا كانوا إمام الناس وهاديهم، وأهل البيت الحرام، وقادة العرب لا ينكرون ذلك، وكانت قريش هي التي نصبت لحرب رسول الله وخلافه(1).

فلما افتتح رسول الله ﷺ مكة، وهزم ثقيف وهوازن في حنين، وحطم قوى البدو التي كانت تهدد الآمنين في ربوع الجزيرة، وتوج ذلك كله بغزو الروم في تبوك، عرفت العرب أنها لا طاقة لهم بحرب رسول الله ولا عداوته، وزالت عنهم الشبهات، وتبين لهم الحق من الباطل، فتسارعوا إلى اعتناق الإسلام، وضربت وفودهم أكباد الإبل إلى رسول الله ﷺ من كل وجهة؛ معلنة إيمانها وولاءها. إن قصص الوفود وأخبارها، وكيفية تعامل رسول الله ﷺ معها من الأهمية بالمكان الكبير؛ فلقد تركت لنا تلك الأخبار منهجًا نبويًّا كريمًا في تعامله ﷺ مع الوفود، يمكننا الاستفادة من هديه ﷺ في تعامله مع النفسية البشرية، وتربيته ودقته وتنظيمه؛ ففيها ثروة هائلة من الفقه، الذي يدخل في دوائر التعليم والتربية والتثقيف، وبُعد النظر، وجمع القلوب على الغاية، وربط أفراد بأعيانهم بالمركز، بحيث تبقى في كل الظروف والأحوال مرتكزات قوية إلى الإسلام، إلى غير ذلك من مظاهر العظمة للعاملين في كل الحقول نفسيًّا واجتماعيًّا واقتصاديًّا وإداريًّا وسياسيًّا وعسكريًّا، تعطي لكل عامل في جانب من هذه الجوانب دروسًا تكفيه وتغنيه، هذا وقد تميز العام التاسع بتوافد العرب إلى المدينة، وقد استعدت الدولة الإسلامية لاستقبالهم، وتهيئة المناخ لهم، وقد تمثل هذا الاستقبال بتهيئة مكان إقامة لهم، وكانت هناك دار للضيافة، ينزل فيها الوافدون، وهناك مسجد رسول الله ﷺ، الذي كان ساحة للاستقبال، ثم كان هناك تطوع أو تكليف رسول الله ﷺ لأحد الصحابة باستضافة بعض القادمين، واهتم ﷺ بتلك الوفود، وحرص على تعليمها وتربيتها، وقد كانت تلك الوفود حريصة على فهم الإسلام، وتعلم شرائعه وأحكامه وآدابه ونظمه في الحياة، وتطبيق ما تعلموه تطبيقًا عمليًّا، جعلهم نماذج حية لفضائله، وقد كان لكثير منهم سؤالات عن أشياء كانت شائعة بينهم؛ ابتغاء معرفة حلالها وحرامها، وكان النبي ﷺ حريصًا - أشد الحرص - على تفقيههم في الدين، وبيان ما سألوه

(1) فقه السيرة للغزالي، ص 451.

عنه، وكان ﷺ يدني منهم من يعلم منه زيادة حرص على القرآن العظيم، وحفظ آياته تفقهًا فيه، ويقول لأصحابه: «فقهوا إخوانكم»، وكان ﷺ يسأل عمن يعرف من شرفائهم، فإذا رغبوا في الرحيل إلى بلادهم أوصاهم بلزوم الحق، وحثهم على الاعتصام بالصبر، ثم يجزيهم بالجوائز الحسان، ويسوي بينهم، فإذا رجعوا إلى أقوامهم رجعوا هداة دعاة، مشرقة قلوبهم بنور الإيمان، يعلمونهم مما عُلِّموا، ويحدثونهم بما سمعوا، ويذكرون لهم مكارم النبي وبره وبشره، واستنارة وجهه؛ سرورًا بمقدمهم عليه، ويذكرون لهم ما شاهدوه من حال أصحابه، في تآخيهم وتحابيهم، ومواساة بعضهم بعضًا؛ ليثيروا في أنفسهم الشوق إلى لقاء رسول الله ﷺ، ولقاء أصحابه، ويحببوا إليهم التأسي بهم في سلوكهم ومكارم أخلاقهم، واختارت بعض الوفود البقاء على نصرانيتها؛ كوفد نصارى نجران، ووافقت على دفع الجزية[1]، ونحاول أن نتحدث عن بعض الوفود؛ لما في ذلك من الفقه والدروس والعبر.

والوفود التي سردها أهل المغازي يزيد عددها على سبعين وفدًا، ولا يمكن لنا استقصاءها، وليس كبير فائدة في بسط تفاصيلها، وإنما نذكر فيها إجمالًا ما له روعة أو أهمية في التاريخ، وليكن على ذكر من القارئ أن وفادة عامة القبائل، وإن كانت بعد الفتح، ولكن هناك قبائل توافدت قبله أيضًا[2].

المبحث الأول: وفد ثقيف

لقد كانت العرب ترى في ثقيف وقريش أهم مواقع القوى فيها. وذكر القرآن هذا المعنى عن القريتين، وهو ينقل مقولتهم: ﴿وَقَالُواْ لَوْلَا نُزِّلَ هَٰذَا ٱلْقُرْءَانُ عَلَىٰ رَجُلٍ مِّنَ ٱلْقَرْيَتَيْنِ عَظِيمٍ﴾ [الزخرف: 31].

وشاءت إرادة الله تعالى أن ينتهي عظيم قريش الوليد بن المغيرة كافرًا مشركًا، بينما كان عظيم ثقيف شهيدًا، وفي قومه بالذات، وهو عروة بن مسعود الثقفي رَضِيَ اللَّهُ عَنْهُ.

وكان من حديثهم أن رسول الله ﷺ لما انصرف عن مكة راجعًا، اتبع أثره عروة بن مسعود الثقفي، حتى أدركه قبل أن يصل المدينة، فأسلم، وسأله أن يرجع إلى قومه بالإسلام، فقال له

---

(1) انظر: السيرة للصلابي، ص 862- 863.

(2) الرحيق المختوم، ص 444.

رسول الله ﷺ: «إنهم قاتلوك»، فقال عروة: يا رسول الله، أنا أحب إليهم من أبكارهم، وكان فيهم محببًا مطاعًا. فخرج يدعو قومه إلى الإسلام؛ رجاء ألا يخالفوه لمنزلته فيهم. فلما أشرف لهم على علية له (مكان مرتفع)، وقد دعاهم إلى الإسلام، وأظهر لهم دينه، رموه بالنبل من كل وجه. فأصابه سهم فقتله - فقيل لعروة: ما ترى في دمك؟ قال: كرامة أكرمني الله تعالى بها، وشهادة ساقها الله إليَّ فليس فيَّ إلا ما في الشهداء الذين قُتلوا مع رسول الله ﷺ قبل أن يرتحل عنكم (في حصار الطائف)، فادفنوني معهم. فزعموا أن رسول الله ﷺ قال فيه: إن مثله في قومه لكمثل صاحب يس في قومه[1].

- عبد يا ليل بن عمرو على رأس وفد ثقيف:

قال ابن إسحاق: ثم أقامت ثقيف بعد قتل عروة شهرًا، ثم إنهم ائتمروا بينهم، ورأوا أنه لا طاقة لهم بحرب من حولهم من العرب، وقد بايعوا وأسلموا، فائتمروا فيما بينهم، وذلك عن رأي عمرو بن أمية - أخي بني علاج - فائتمروا بينهم، ثم أجمعوا على أن يرسلوا إلى رسول الله ﷺ رجلًا منهم، فأرسلوا عبد يا ليل بن عمرو بن عمير، ومعه اثنان من الأحلاف، وثلاثة من بني مالك، وهم: الحكم بن عمرو بن وهب بن معتب، وشرحبيل بن غيلان بن سلمة بن معتب، وعثمان بن أبي العاص، وأوس بن عوف - أخو بني سالم، ونمير بن خرشة بن ربيعة.

وقال موسى بن عقبة: كانوا بضعة عشر رجلًا، فيهم: كنانة بن عبد يا ليل - وهو رئيسهم، وفيهم: عثمان بن أبي العاص - وهو أصغر الوفد.

قال ابن إسحاق: فلما دنوا من المدينة ونزلوا قناة، ألفوا المغيرة بن شعبة يرعى في نوبته ركاب أصحاب رسول الله ﷺ، فلما رآهم ذهب يشتد؛ ليبشِّر رسول الله بقدومهم، فلقيه أبو بكر الصديق، فأخبره عن ركب ثقيف أن قدموا يريدون البيعة والإسلام إن شرط لهم رسول الله شروطًا، ويكتبوا كتابًا في قومهم.

فقال أبو بكر للمغيرة: أقسمت عليك لا تسبقني إلى رسول الله حتى أكون أنا أحدثه، ففعل المغيرة، فدخل أبو بكر، فأخبر رسول الله ﷺ بقدومهم.

ثم خرج المغيرة إلى أصحابه فروح الظهر معهم، وعلمهم كيف يحيون رسول الله ﷺ، فلم يفعلوا إلا بتحية الجاهلية (والمغيرة رَضِيَ اللَّهُ عَنْهُ كان من ثقيف).

---

(1) المنهج الحركي، ص 173- 174، والبداية والنهاية 36/5.

ولما قدموا على رسول الله ﷺ، ضربت عليهم قبة في المسجد، وكان خالد بن سعيد بن العاص هو الذي يمشي بينهم وبين رسول الله، فكان إذا جاءهم بطعام من عنده لم يأكلوا منه حتى يأكل خالد بن سعيد قبلهم، وهو الذي كتب لهم كتابهم[1].

- رسول الله ﷺ وضيافة وفد ثقيف:

استقبل رسول الله ﷺ وفد ثقيف، وبنى لهم خيامًا؛ لكي يسمعوا القرآن، ويروا الناس إذا صلوا، وكانت ضيافتهم على رسول الله ﷺ، وكانوا يفدون على رسول الله ﷺ كل يوم، ويخلفون عثمان بن أبي العاص على رحالهم، فكان عثمان كلما رجعوا وقالوا بالهاجرة (ناموا قيلولتهم)، عمد إلى رسول الله ﷺ، فسأله عن الدين، واستقرأه القرآن، حتى فقه في الدين وعلم، وكان إذا وجد رسول الله ﷺ نائمًا عمد إلى أبي بكر، وكان يكتم ذلك عن أصحابه، فأعجب ذلك رسول الله ﷺ، وعجب منه، وأحبه[2].

- شروط وفد ثقيف:

جاء الوفد ومعه عزة الجاهلية. وتركه النبي ﷺ في الجو الإسلامي والبيئة الإسلامية، يتعرف على مبادئ الدعوة ومفاهيم الإسلام. وكانت نفسية الوفد منطلقة من صورة معاهدة صلح، أكثر من صورة استسلام لله عز وجل، ومن أجل ذلك قدموا شروطًا خمسة: أن (يأذن لهم بالزنا وشرب الخمور، وأكل الربا، ويترك لهم طاغيتهم اللات ثلاث سنين على الأقل، ويعفيهم من الصلاة). ورفضت الشروط كلها بلا استثناء؛ لأن الأمر ليس أمر ملك دنيوي، بل هو أمر الله تعالى وشريعته. ولا يمكن أن يكون القوم مسلمين، ويحلوا حرامًا، أو يبيحوا ترك فريضة. وإليك تفصيل حوارهم مع رسول الله ﷺ بعد أن مكثوا أيامًا يختلفون إليه، والنبي ﷺ يدعوهم إلى الإسلام، فقال له عبد ياليل: هل أنت مقاضينا حتى نرجع إلى أهلنا وقومنا؟ فقال رسول الله ﷺ: «نعم إن أنتم أقررتم بالإسلام قاضيتكم، وإلا فلا قضية ولا صلح بيني وبينكم»[3].

(1) البداية والنهاية 36/5.

(2) انظر: تاريخ الإسلامي للذهبي، المغازي (ص 670)، والسيرة للصلابي، ص 851.

(3) المنهج الحركي، ص 174- 175.

قال عبد ياليل: أرأيت الزنى؟ فإنا قوم عزّاب بغَرْب[1]، لابد لنا منه، ولا يصبر أحدنا على العزبة، قال: «هو مما حرم الله على المسلمين»، يقول الله تعالى: ﴿ وَلَا تَقْرَبُوا۟ ٱلزِّنَىٰٓ ۖ إِنَّهُۥ كَانَ فَٰحِشَةً وَسَآءَ سَبِيلًا ﴾ [الإسراء: 32]».

قال: أرأيت الربا؟ قال: «الربا حرام!»، قال: فإن أموالنا كلها ربا، قال: «لكم رءوس أموالكم»، يقول تعالى: ﴿يَٰٓأَيُّهَا ٱلَّذِينَ ءَامَنُوا۟ ٱتَّقُوا۟ ٱللَّهَ وَذَرُوا۟ مَا بَقِىَ مِنَ ٱلرِّبَوٰٓا۟ إِن كُنتُم مُّؤْمِنِينَ﴾ [البقرة: 278].

قال: أفرأيت الخمر؟؛ فإنها عصيرُ أعنابنا، لابد لنا منها.

قال: «فإن الله قد حرمها!»، ثم تلا رسول الله ﷺ هذه الآية: ﴿يَٰٓأَيُّهَا ٱلَّذِينَ ءَامَنُوٓا۟ إِنَّمَا ٱلْخَمْرُ وَٱلْمَيْسِرُ وَٱلْأَنصَابُ وَٱلْأَزْلَٰمُ رِجْسٌ مِّنْ عَمَلِ ٱلشَّيْطَٰنِ فَٱجْتَنِبُوهُ لَعَلَّكُمْ تُفْلِحُونَ ﴾ [المائدة: 90].

فارتفع القوم، وخلا بعضهم ببعض، فقال عبد ياليل: ويحكم! نرجع إلى قومنا بتحريم هذه الخصال الثلاث! والله، والله لا تصبر ثقيف عن الخمر أبدًا، ولا عن الزنا أبدًا.

قال سفيان بن عبد الله: أيها الرجل، إن يرد الله بها خيرًا تصبر عنها! قد كان هؤلاء الذين معه على مثل هذا، فصبروا وتركوا ما كانوا عليه، مع أنا نخاف هذا الرجل، قد أوطأ الأرض غلبة، ونحن في حصن في ناحية من الأرض، والإسلام حولنا فاش. والله لو قام على حصننا شهرًا لمتنا جوعًا، وما أرى إلا الإسلام، وأنا أخاف يومًا مثل يوم مكة.

وكان خالد بن سعيد بن العاص هو الذي يمشي بينهم وبين رسول الله ﷺ حتى كتبوا الكتاب، وكان خالد هو الذي كتبه.

قالوا: أرأيت الرَّبَّة، ما ترى فيها؟ قال: «هَدْمُها» (والربة: صنمهم).

قالوا: هيهات! لو تعلم الرَّبَّة أنا أوضعنا هدمها قتلت أهلنا، قال عمر بن الخطاب رضي الله عنه: ويحك يا عبد ياليل! إن الرَّبَّة حجر لا يدري من عبده ممن لا يعبده. قال عبد ياليل: إنا لم نأتك يا عمر. فأسلموا، وكمل الصلح، وكتب ذلك الكتاب خالد بن سعيد، فلما كمل الصلح كلموا النبي ﷺ يدع الرَّبَّة ثلاثة سنين لا يهدمها، فأبى. قالوا سنتين! فأبى. قالوا: سنة! فأبى. قالوا:

---

(1) أي نذهب إلى بلاد بعيدة.

شهرًا واحدًا!! فأبى أن يوقِّت لهم وقتًا، وإنما يريدون بترك الرَّبَّة لما يخافون من سفهائهم والنساء والصبيان، وكرهوا أن يروعوا قومهم بهدمها، فسألوا النبي ﷺ أن يعفيهم من هدمها، فوافق رسول الله ﷺ على طلبهم ذلك. وسألوا النبي ﷺ أن يعفيهم من الصلاة، فقال رسول الله ﷺ: «لا خير في دين لا صلاة فيه»[1].

- إسلامهم وصومهم ما تبقى من رمضان:

وقد أكرم الله وفد ثقيف، فأسلموا، وصاموا ما تبقى من رمضان، ومكثوا بالمدينة خمسة عشر يومًا، ثم رجعوا إلى الطائف.

قال ابن إسحاق: وحدثني عيسى بن عبد الله بن عطية بن سفيان بن ربيعة الثقفي عن بعض وفدهم، قال:

كان بلال يأتينا حين أسلمنا وصمنا مع رسول الله ﷺ ما بقي من رمضان، بفطرنا وسحورنا من عند رسول الله ﷺ، فيأتينا بالسحور، وإنا لنقول: إن لنرى الفجر قد طلع، فيقول: قد تركت رسول الله ﷺ يتسحر؛ لتأخير السحور .. يأتينا بفطرنا، وإنا لنقول: ما نرى الشمس كلها ذهبت بعدُ، فيقول: ما جئتكم حتى أكل رسول الله ﷺ، ثم يضع يده في الجفنة، فيلتقم منها (وفي ذلك ما يدل على حرصهم على صحة يومهم).

وروى أبو داود عن أوس بن خليفة رَضِيَ اللَّهُ عَنْهُ، أن رسول الله ﷺ كان يأتيهم كل ليلة، فيعظهم ويفقههم وهو قائم، فأبطأ عليهم ذات ليلة فسألوه، فقال: «طرأ عليَّ جزئي من القرآن فكرهت أن أجيء حتى أتمه» قال: أوس: سألت أصحاب رسول الله ﷺ: كيف تجزئون القرآن، فقالوا: (ثلاث، وخمس، وسبع، وتسع، وإحدى عشر، وثلاث عشرة، وحزب المفصل وحده)[2].

عثمان بن أبي العاص أميرًا على ثقيف:

ثم أمَّرَ عليهم رسول الله ﷺ - بمشورة الصديق رَضِيَ اللَّهُ عَنْهُ - عثمان بن أبي العاص؛ لحرصه على القرآن والتفقه في الإسلام، وكان مما أوصاه به أنه قال: «من أم قومًا فليخفف؛ فإن فيهم

(1) انظر: السيرة للصلابي، ص 851- 852.

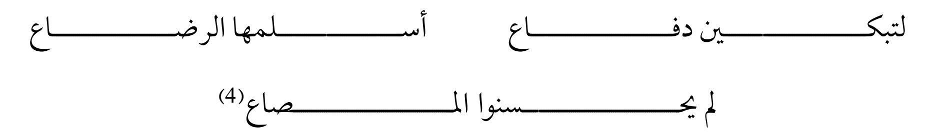
(2) ورواه أحمد وابن ماجه، انظر: البداية والنهاية 40/5.

الضعيف والكبير وذا الحاجة، فإذا صلى وحده فليصل كيف شاء»[1]. وفي سنن ابن ماجه أن النبي بين له أن يكفيه أن يقرأ بسورة ﴿ٱقۡرَأۡ بِٱسۡمِ رَبِّكَ﴾ [العلق:1] وأشباهها من القرآن، وكانت تلك حكمة بالغة من الرسول؛ فإن قومًا رغبوا أن يتحللوا من الصلاة ينبغي أن يخفف عنهم في الصلاة؛ حتى لا يسأموا[2].

- هدم (اللات):

فلما رجعوا إلى بلادهم بعث معهم رسول الله ﷺ أبا سفيان بن حرب والمغيرة بن شعبة لهدم (اللات)، فتولى المغيرة هدمها، حتى جاء على أساسها، بعد أن أشفق عليه قومه أن يصاب كما هي عقائدهم الخرافية، فأيقنوا - وقد فرغ من هدمها وهو معافًى - أنها حجارة لا تضر ولا تنفع، وهكذا طهر الله أرض ثقيف من الأصنام، ووفقهم إلى عبادة الله وحده[3].

قال ابن إسحاق: فلما فرغوا من أمرهم، وتوجهوا إلى بلادهم راجعين، بعث رسول الله ﷺ معهم أبا سفيان بن حرب والمغيرة بن شعبة، في هدم الطاغية (اللات). فخرجا مع القوم، حتى إذا قدموا الطائف أراد المغيرة بن شعبة أن يقدم أبا سفيان (ليهدمها)، فأبى ذلك أبو سفيان عليه، وقال: ادخل أنت على قومك، وأقام أبو سفيان بماله بذي الهدم، فلما دخل المغيرة بن شعبة علاها يضربها بالمعول، وقام قومه بنو معتب دونه (لحمايته من ثقيف)؛ خشية أن يرمى أو يصاب كما أصيب عروة (حين قتلته ثقيف لما دعاهم للإسلام)، وخرج نساء ثقيف حسرًا يبكين عليها ويقلن:



لتبكين دفاع   أسلمها الرضاع

لم يحسنوا المصاع[4]

وذكر موسى بن عقبة، أن المغيرة بن شعبة رَضِيَ اللَّهُ عَنْهُ لما هدم اللات، سخر منها وممن يعبدها من دون الله بحيلة طريفة[5]:

---

(1) رواه أحمد (15965).

(2) انظر: السيرة لأبي شهبة، ج2، ص 530.

(3) المصدر السابق، ج2، ص 530.

(4) **المصاع**: المضاربة بالسيوف.

(5) ابن هشام 327/2.

(... ثم قدم عليهم رسل رسول الله ﷺ، وفيهم المغيرة بن شعبة، فعمدوا إلى اللات، وقد استكفت ثقيف رجالها ونساءها والصبيان، حتى خرج العواتق عن الحجال (أي خرجت الشابات من بيت العرس)، ولا يرى عامة ثقيف أنها مهدومة، ويظنون أنها ممتنعة، فقام المغيرة ابن شعبة فأخذ الكرزين (يعني المعول) وقال لأصحابه: والله لأضحكنكم من ثقيف، فضرب الكرزين، ثم سقط يركض برجله، فارتج أهل الطائف بصيحة واحدة، وفرحوا، وقالوا: أبعد الله المغيرة، قتلته الرَّبَّه، وقالوا لأولئك: من شاء منكم فليقترب.

فقام المغيرة فقال: والله يا معشر ثقيف إنما هي لكاع حجارة (حجارة حقيرة) ومدر (الطين اللزج)، فاقبلوا عافية الله واعبدوه، ثم إنه ضرب الباب فكسره، ثم علا سورها وعلا الرجال معه، فما زالوا يهدمونها حجرًا حجرًا، حتى سووها بالأرض، وجعل سادنها يقول: ليغضبن الأساس فليخسفن بهم، فلما سمع المغيرة حفر أساسها حتى أخرج ترابها، وجمع ماءها وبناءها، وبهتت عند ذلك ثقيف، ثم رجعوا إلى رسول الله ﷺ، فقَسَّم أموالها من يومه (أي: الأموال التي جعلتها ثقيف عند اللات)، وحمدوا الله على اعتزاز دينه، ونصره رسوله[1].

- مكر حميد:

وذكر موسى بن عقبة في مغازيه أن وفد ثقيف لم يجرءوا أن يصارحوا قومهم بإسلامهم وما عاهدوا الرسول عليه، وقالوا لقومهم: إنه يريد أن يحرم علينا الربا والزنا والخمر، فنفروا جميعًا وقالوا: لا نطيع له أبدًا، وتأهبوا للقتال، ومكثوا على ذلك يومًا أو يومين، ثم ألقى الله في قلوبهم الرعب فرجعوا وقالوا لوفدهم: ارجعوا إليه فشارطوه على ذلك وصالحوه، فقالوا لهم: فإنا قد فعلنا ذلك، ووجدناه أتقى الناس، وأوفاهم، وأرحمهم، وأصدقهم، وقد بورك لنا ولكم في سيرنا، وفيما قاضيناه، فاقبلوا القضية، وقالوا: فلم كتمتمونا؟ قالوا: أردنا أن ينزع الله من قلوبكم نخوة الشيطان، فأسلموا وحسن إسلامهم.

- قضاء دين عروة بن مسعود:

كان للطاغية (اللات) مال كثير، مودع فيها، فلما هدمها المغيرة وأبو سفيان بأمر رسول الله ﷺ، وأخذ مالها، اتصل برسول الله ﷺ أبو مليح بن عروة بن مسعود، وطلب منه أن يقضي دينا كان على والده عروة من مال الطاغية، فأجابه الرسول ﷺ لذلك، وعندها قال قارب بن

---

(1) البداية والنهاية 42/5.

الأسود: وعن الأسود يا رسول الله ﷺ فاقضه، وعروة والأسود أخوان شقيقان، فقال رسول الله ﷺ: «إن الأسود مات مشركًا»، فقال قارب: يا رسول الله، لكن تصل مسلمًا ذا قرابة – يعني نفسه – إنما الدين عليَّ، وأنا مطالب به، فأمر رسول الله ﷺ أبا سفيان أن يقضي دين عروة والأسود معًا من مال الطاغية ففعل(1).

- عبر وعظات من إسلام ثقيف:

أتذكُر خبر أولئك الذين استقبلوا رسول الله ﷺ يوم أن هاجر إلى الطائف شر استقبال، وأخرجوه من ديارهم شر إخراج، وألحقوا به سفهاءهم وصبيانهم يضربونه ويؤذونه ويسخرون منه؟ .. تلك هي ثقيف التي سعت اليوم إليه، ودخلت في دين الله تعالى صادقة طائعة.

وهل تذكر إذ قال زيد بن حارثة لرسول الله ﷺ، وقد عاد أدراجه من الطائف إلى مكة: «كيف تدخل عليهم يا رسول الله وهم أخرجوك؟ فأجابه ﷺ: «يا زيد، إن الله جاعل لما ترى فرجًا ومخرجًا، وإن الله ناصر دينه ومظهر نبيه!».

إن ما حدث اليوم هو مصداق ما قاله رسول الله ﷺ لزيد، فتلك هي الطائف، وهذه مكة وشتى قبائل وبطون العرب، قد سعت جميعها تدخل في دين الله أفواجًا.

ثم تعالَ فتأمل! .. تأمل في كل ذلك الإيذاء الذي رآه من ثقيف، والخيبة التي فوجئ بها بعد أن هاجر ساعيًا على قدميه، يعبر إليهم جبالًا وأودية قاصية؛ مؤملًا عندهم استقبالًا كريمًا أو استجابة حسنة. إن أدنى ما يترك ذلك في نفس الإنسان – أيًّا كان – من الناس من الأثر، أن يفكر في الانتقام أو أن يقابل إساءة بمثلها.

ولكن أين تجد هذا – أو حتى شيئًا من هذا – في نفس رسول الله ﷺ تجاه ثقيف؟! لقد حاصر الطائف أيامًا، ثم أمر أصحابه بالرجوع، فقيل له: ادع على ثقيف، فأبى ذلك ورفع يديه يقول: «اللَّهم اهد ثقيفًا وائت بهم مؤمنين!».

ولما استجاب الله دعاء رسوله، فجاء وفد ثقيف إلى المدينة، تسابق أبو بكر الصديق والمغيرة ابن شعبة إلى رسول الله ﷺ يبشرانه بذلك؛ لما يعلم كل منهما من شدة سرور النبي ﷺ بنبأ

(1) انظر: هذا الحبيب يا محب للجزائري، ص 443- 444.

إسلام ثقيف وهدايتهم، فخرج يستقبلهم في بشر وإكرام، وراح يحبس عليهم وقته كله، يعلمهم، ويرشدهم، وينصح لهم.

طالما أرادوا به الكيد، وشفوا بإيذائه غليل أحقادهم عليه، وهو لا يريد بهم إلا الخير والسعادة والرشد في الدنيا والآخرة .. طالما فرحوا بمنظر النكبة والضر يُرى متلبسًا بهما، ولكنه لم يفرح لهم إلا بنعمة الخير والإسلام إذ أكرمهم بهما الله!.

ترى، أهذا كله طبيعة بشرية في إنسان، يدعو إلى مبدأ يراه أو عقيدة قد تخيرها؟!

أما إنها ليست إلا طبيعة النبوة .. وليست إلا من أثر تطلعه ﷺ إلى هدف واحد فقط، هو أن تؤتي هذه الدعوة ثمارها، فيلقى ربه وهو عنه راض. وما أهون الآلام والنكبات كلها في هذا السبيل!، وما أعظم الفرحة إذ يجتاز العبد تلك المفاوز كلها، ويستقر عند هذا الهدف الجليل!.

وذلك هو الإسلام: لا يعرف حقدًا ولا ضغينة ولا يريد شرًّا بإنسان.

يأمر بالجهاد، ولكن في غير ضغينة وحقد .. يعلم القوة، ولكن في غير أنانية وكبر .. يدعو إلى الرحمة، ولكن في غير مهانة أو ضعف .. ويعلم الحب، ولكن في سبيل الله وحده.

إذن، لقد كان وفد ثقيف، والوفود الأخرى التي تلاحقت متجهة إلى المدينة، داخلة في الإسلام.. كان كل ذلك وفاء بوعد (النصر العزيز) الذي وعد الله به رسوله[1].

المبحث الثاني: وفد بني عامر والمكر السيئ

قدم على رسول الله ﷺ وفد بني عامر، وفيهم عامر بن الطفيل، وأربد بن قيس. وبنو عامر هؤلاء هم من (غطفان)، التي كان نصف جيش الأحزاب منها يوم الخندق، وهم الذين عرض عليهم رسول الله ﷺ ثلث ثمار المدينة مقابل انسحابهم يومئذ من حربه. من أجل ذلك، جاء عامر بن الطفيل ينطلق ويتكلم من منطق القوة، وجاء يطالب بالوراثة بعد النبي ﷺ، أو اقتسام السلطة بين الإسلام والجاهلية[2]، فإن رفض النبي ﷺ قتله غدرًا.

---

(1) البوطي: فقه السيرة، ص 462- 464.

(2) انظر: المنهج الحركي، القسم الثالث، ص 176- 177.

وفي صحيح البخاري: أن عامرًا أتى النبي ﷺ، فقال: أخيرك بين خصال ثلاث: يكون لك أهل السهل (أي أهل الحضر) ولي أهل المدر (أي أهل البادية)، أو أكون خليفتك من بعدك، أو أغزوك بغطفان بألف أشقر وألف شقراء[1].

وروى الطبراني في الكبير بسنده إلى ابن عباس، أن أربد بن قيس بن جزء، وعامر بن الطفيل قدما المدينة على رسول الله ﷺ، فانتهيا إليه وهو جالس، فجلسا بين يديه، فقال ابن الطفيل: «يا محمد، ما تجعل لي إن أسلمت؟» فقال رسول الله ﷺ: «لك ما للمسلمين وعليك ما عليهم». قال عامر: «أتجعل لي الأمر من بعدك إن أسلمت؟» فقال رسول الله ﷺ: «ليس ذلك لك ولا لقومك، ولكن لك أعنة الخيل». قال: «أنا الآن في أعنة خيل أهل نجد، اجعل لي الوبر ولك المدر. قال رسول الله ﷺ: «لا»، فلما قفا من عنده، قال: «أما والله لأملأنها عليك خيلًا ورجالًا»، فقال رسول الله ﷺ: «يمنعك الله»[2].

- ولا يحيق المكر السيئ إلا بأهله:

قال ابن إسحاق:

(فقدم عامر بن الطفيل – عدو الله – على رسول الله ﷺ، وهو يريد الغدر به، وقد قال له قومه: يا عامر إن الناس قد أسلموا فأسلم. قال: والله لقد كنت آليت أن لا أنتهي حتى تتبع العرب عقيبي، أفأنا أتبع عقيبب هذا الفتى من قريش. ثم قال لأربد: إذا قدمنا على الرجل، فإني سأشغل عنك وجهه، فإذا فعلت ذلك فاعله بالسيف. فلما قدموا على رسول الله ﷺ، قال عامر ابن الطفيل: يا محمد، خالِنِي[3]. قال: «لا والله، حتى تؤمن بالله وحده». قال: يا محمد، خالني، وجعل يكلمه وينتظر من أربد ما كان أمره به، فجعل أربد لا يأتي بشيء. قال: فلما رأى عامر ما يصنع أربد. قال: يا محمد، خالني، قال: «لا حتى تؤمن بالله وحده لا شريك له». فلما أبى عليه رسول الله ﷺ قال: أما والله لأملأنها عليك خيلًا ورجالًا. فلما ولى قال رسول الله ﷺ: «اللّهم اكفني عامر بن الطفيل». وخرجوا راجعين إلى بلادهم[4].

---

(1) البخاري، الفتح (268/15، حديث 4091).

(2) انظر البداية والنهاية 68/5- 69.

(3) **خالني**: اتخذني خليلًا.

(4) السيرة لابن هشام، ج4، ص 562.

حتى إذا كانوا ببعض الطريق، نزل عامر في بيت امرأة من بني سلول، فأصيب بغُدَّة في عنقه (والغدة داء يصيب البعير، وهو يشبه الذبحة التي تصيب ابن آدم).

فصار يقول: أغدة كغدة الإبل، وموت في بيت سلولية؟!، فوثب على فرسه، وأخذ رمحه، وصار يعدو بفرسه حتى سقط عنه ميتًا!.

وأما أربد فقد وصل إلى أرض بني عامر، فقالوا: ما وراءك يا أربد؟ قال: لا شيء، والله لقد دعانا إلى عبادة شيء لوددت أنه عندي الآن فأرميه بالنبل حتى أقتله. فخرج بعد ذلك بيوم أو يومين معه جمل له يبيعه، فأرسل الله عليه وعلى جمله صاعقة فأحرقتهما[1].

وفي شأن عامر وأربد أنزل الله سبحانه قوله: ﴿ عَٰلِمُ ٱلْغَيْبِ وَٱلشَّهَٰدَةِ ٱلْكَبِيرُ ٱلْمُتَعَالِ ۝٩ سَوَآءٌ مِّنكُم مَّنْ أَسَرَّ ٱلْقَوْلَ وَمَن جَهَرَ بِهِۦ وَمَنْ هُوَ مُسْتَخْفٍۭ بِٱلَّيْلِ وَسَارِبٌۢ بِٱلنَّهَارِ ۝١٠ لَهُۥ مُعَقِّبَٰتٌ مِّنۢ بَيْنِ يَدَيْهِ وَمِنْ خَلْفِهِۦ يَحْفَظُونَهُۥ مِنْ أَمْرِ ٱللَّهِ ۗ إِنَّ ٱللَّهَ لَا يُغَيِّرُ مَا بِقَوْمٍ حَتَّىٰ يُغَيِّرُوا۟ مَا بِأَنفُسِهِمْ ۗ وَإِذَآ أَرَادَ ٱللَّهُ بِقَوْمٍ سُوٓءًا فَلَا مَرَدَّ لَهُۥ ۚ وَمَا لَهُم مِّن دُونِهِۦ مِن وَالٍ ۝١١ هُوَ ٱلَّذِى يُرِيكُمُ ٱلْبَرْقَ خَوْفًا وَطَمَعًا وَيُنشِئُ ٱلسَّحَابَ ٱلثِّقَالَ ۝١٢ وَيُسَبِّحُ ٱلرَّعْدُ بِحَمْدِهِۦ وَٱلْمَلَٰٓئِكَةُ مِنْ خِيفَتِهِۦ وَيُرْسِلُ ٱلصَّوَٰعِقَ فَيُصِيبُ بِهَا مَن يَشَآءُ وَهُمْ يُجَٰدِلُونَ فِى ٱللَّهِ وَهُوَ شَدِيدُ ٱلْمِحَالِ ۝١٣ لَهُۥ دَعْوَةُ ٱلْحَقِّ ۖ وَٱلَّذِينَ يَدْعُونَ مِن دُونِهِۦ لَا يَسْتَجِيبُونَ لَهُم بِشَىْءٍ إِلَّا كَبَٰسِطِ كَفَّيْهِ إِلَى ٱلْمَآءِ لِيَبْلُغَ فَاهُ وَمَا هُوَ بِبَٰلِغِهِۦ ۚ وَمَا دُعَآءُ ٱلْكَٰفِرِينَ إِلَّا فِى ضَلَٰلٍ ﴾ [الرعد].

- عامر بن مالك من غدر بئر معونة إلى الإسلام:

عامر بن مالك هو سيد (بني عامر)، وهو المدعو بملاعب الأسنة (لمهارته في الرمي والقتال) وهو الذي كان قد وفد على رسول الله ﷺ، فدعاه الرسول ﷺ إلى الإسلام فلم يسلم.

وقال[2]: يا رسول الله، لو بعثت أصحابك إلى أهل نجد يدعونهم إلى دينك، لرجوت أن يجيبوهم، فكانت قصة أهل بئر معونة كما ذكرنا ذلك في مكانه.

وروي أن عامر بن مالك بعث إلى رسول الله ﷺ يلتمس منه دواء، فبعث إليه بعكة من عسل. وروى ابن شبة أنه قدم على رسول الله ﷺ مع خمسة وعشرين رجلًا من بني جعفر ومن بني أبي بكر، فيهم الضحاك بن سفيان الكلابي، فاستعمل رسول الله ﷺ الضحاك بن سفيان

---

(1) انظر السيرة لأبي شهبة، ج2، ص 550- 551.

(2) مهدي رزق الله، ص 649.

عليهم، واستعمل عامرًا على بني جعفر، وطلب من الضحاك أن سيتوصي خيرًا بعامر. وهذا يدل على أن عامرًا قد وفد أخيرًا مسلمًا، ويبدو أن ابن حجر قد رجح أن يكون ملاعب الأسنة في الصحابة.

المبحث الثالث: وفد بني حنيفة .. قوم مسيلمة

وقدم وفد بني حنيفة، وفيهم مسيلمة بن حبيب، فنزلوا في دار رملة بنت الحارث وكانت معدة للوفود؟ فأتاهم رسول الله ﷺ ومعه ثابت بن قيس بن شماس رَضِيَ اللَّهُ عَنْهُ، فأخذ مسيلمة يرواغ ويداور مع رسول الله ﷺ؛ لعله يصل معه إلى شيء، فقد كان كثير من القيادات القبلية لا تدرك حقيقة الإسلام، وتتصور الأمر هزيمة أمام سلطان حاكم، ولم تكن بنو حنيفة أقل سطوة وقوة عن بني عامر، الذين ذكرنا وفادتهم آنفًا؛ فلقد كان الحكم في ريف اليمامة كله لهم، فأراد مسيلمة أن يجعل رسول الله ﷺ الأمر من بعده له.

روى البخاري عن ابن عباس رَضِيَ اللَّهُ عَنْهُمَا، قال: قدم مسيلمة الكذاب على عهد رسول الله ﷺ، فجعل يقول: إن جعل لي الأمر من بعده اتبعته، وقدم في بشر كثير من قومه، فأقبل إليه رسول الله ﷺ ومعه ثابت بن قيس بن شماس، وفي يد رسول الله ﷺ قطعة جريد، حتى وقف على مسليمة في أصحابه، فقال له: «لو سألتني هذه القطعة ما أعطيتُكها، ولن تعدو أمر الله فيك، ولئن أدبرت ليعقرنك الله، وإني لأراك الذي رأيت فيه ما أريت، وهذا ثابت يجيبك عني» ثم انصرف عنه.

قال ابن عباس: فسألت عن قول رسول الله ﷺ «إنك الذي رأيت فيه ما أريت» فأخبرني أبو هريرة أن رسول الله ﷺ قال: «بينا أنا نائم رأيت في يدي سوارين من ذهب، فأهمني شأنها، فأوحي إليَّ في المنام أن أنفخها، فنفختها فطارا، فأولتها كذابين يخرجان بعدي؛ أحدهما: الأسود العنسي، والآخر: مسيلمة»[1].

- مسيلمة يدعي النبوة:

فلما قدم مسيلمة اليمامة، ادعى النبوة وتنبأ كذبًا، وأخذ يسجع مضاهيًا للقرآن، ويقول - كما ذكر ابن إسحاق: (لقد أنعم الله على الحبلى، أخرج منها نسمة تسعى، من بين صفاف وحشام). ووضع عنهم الصلاة، وأباح لهم الخمر والزنا.

---

(1) البخاري، الفتح (215/16، حديث 4378).

قال ابن إسحاق: (... وكان قد تسمى بالرحمن، فكان يقال: رحمن اليمامة، وكان يعرف أبوابًا من النيرجات، فكان يدخل البيضة إلى القارورة، وهو أول من فعل ذلك، وكان يقص جناح الطير ثم يصله، ويدعي أن ظبية تأتيه من الجبل فيحلب منها[1].

وذكر السهيلي وغيره: أن الرحال بن عنفوة - واسمه نهار بن عنفوة - وكان قد أسلم وتعلم شيئًا من القرآن، وصحب رسول الله ﷺ مدة، وقد مر عليه رسول الله ﷺ وهو جالس مع أبي هريرة وفرات بن حيان، فقال لهم: «أحدكم ضرسه في النار مثل أحد».

فلم يزا لا خائفين حتى ارتد الرحال مع مسيلمة، وشهد له زورًا أن رسول الله ﷺ أشركه في الأمر معه، وألقى إليه شيئًا مما كان يحفظه يوم اليمامة من القرآن، فادَّعاه مسيلمة لنفسه، فحصل بذلك فتنة عظيمة لبني حنيفة، وقد قتله زيد بن الخطاب يوم اليمامة.

قال السهيلي: وكان مؤذن مسيلمة يقال له: حجير، وكان مدبر الحرب بين يديه: محكم بن الطفيل، وأضيف إليهم سجاح، وكانت تكنى: أم صادر، تزوجها مسيلمة، وله معها أخبار فاحشة، وقد أسلمت أيام عمر بن الخطاب فحسن إسلامها.

وقال يونس بن بكير عن ابن إسحاق: وقد كان مسيلمة بن حبيب كتب إلى رسول الله ﷺ: من مسيلمة رسول الله: سلام عليك؛ أما بعد فإني قد أُشركت في الأمر معك، فإن لنا نصف الأمر ولقريش نصف الأمر، ولكن قريشًا قوم لا يعدلون.

فقدم عليه رسولان بهذا الكتاب.

فكتب إليه رسول الله ﷺ: «بسم الله الرحمن الرحيم، من محمد رسول الله إلى مسيلمة الكذاب: سلام على من اتبع الهدى، أما بعد فإن الأرض لله يورثها من يشاء من عباده والعاقبة للمتقين».

قال: وكان ذلك في آخر سنة عشر - يعني: ورود هذا الكتاب.

قال يونس بن بكير، عن ابن إسحاق: فحدثني سعد بن طارق، عن سلمة بن نعيم بن مسعود عن أبيه، قال: سمعت رسول الله ﷺ حين جاءه رسولا مسيلمة الكذاب بكتابه يقول لهما: «وأنتما تقولان مثل ما يقول».

---

(1) البداية والنهاية 62/5.

قالا: نعم!.

فقال: «أما والله لولا أن الرسل لا تقتل لضربت أعناقكما»[1].

وقد قُتل مسيلمة في أيام الصديق رَضِيَ اللَّهُ عَنْهُ، قتله وحشي بن حرب (قاتل حمزة) في سرية لخالد ابن الوليد رَضِيَ اللَّهُ عَنْهُ، رماه بحربته فأصابه، وأجهز عليه أبو دجانة رَضِيَ اللَّهُ عَنْهُ بسيفه، فيما عرف بمعركة الحديقة، أيام حروب الردة، وكان عمره يوم قتل مائة وخمسين سنة.

المبحث الرابع: زيد الخير ووفد طيئ

قدم على رسول الله ﷺ وفد طيئ وفيهم «زيد الخيل» وهو سيدهم، وكان يجمع من صفات الخير الكثير، فسماه رسول الله ﷺ زيد الخير، وقد أسلموا جميعًا وحسن إسلامهم، وأقطع رسول الله ﷺ زيدًا فيد (اسم قرية) وأرضين، وكتب له بذلك كتابًا، ومات زيد بالحمى في طريق عودته، ولما مات أحرقت زوجته ما كان معه من الكتب، ومنها كتاب رسول الله ﷺ بما أقطعه إياه؛ لجهلها.

قال ابن إسحاق: وقدم على رسول الله ﷺ وفد طيئ، وفيهم زيد الخيل، وهو سيدهم، فلما انتهوا إليه كلموه وعرض عليهم رسول الله ﷺ الإسلام، فأسلموا فحسن إسلامهم.

وقال رسول الله ﷺ: «ما ذُكر رجل من العرب بفضل ثم جاءني إلا رأيته دون ما يقال فيه، إلا زيد الخيل؛ فإنه لم يبلغ الذي فيه»، ثم سماه رسول الله ﷺ زيد الخير، وقطع له «فيد» وأرضين معه، وكتب له بذلك، فخرج من عند رسول الله ﷺ راجعًا إلى قومه.

فقال رسول الله ﷺ: «إن ينج زيد من حمى المدينة فإنه قالٍ» قال: فلما انتهى من بلد نجد إلى ماء من مياهه يقال له: فردة، أصابته الحمى، فمات بها، ولما أحس بالموت قال:

أمرتحـــلُ قـــومي المـــشارقَ غُـــدْوَةً ... وأتـــركُ في بيـــت بفـــردةِ مُنْجِـــدِ

ألا رب يـــوم لـــو مرضـــت لعـــادني ... عَوائِـــد مـــن لم يَـــبر مـــنهنَّ يجهَـــدِ

قال: ولما مات عمدت امرأته - بجهلها، وقلة عقلها، ودينها - إلى ما كان معه من الكتب، فحرقتها بالنار.

---

(1) انظر: البداية والنهاية 62/5.

المبحث الخامس: الطفيل بن عمرو الدوسي وافد دوس

روى ابن إسحاق[1] من حديث الطفيل بن عمرو الدوسي، أنه قدم مكة ورسول الله ﷺ بها، فمشى إليه رجال من قريش؛ لأنه كان رجلًا شريفًا شاعرًا لبيبًا، وأرادوا أن يصرفوه عن الاستماع إلى الرسول ﷺ، وحاولوا إقناعه بشتى الحجج، حتى أجمع ألا يسمع من الرسول ﷺ، وحشا أذنيه قطنًا ثم أتى المسجد، وأقام قريبًا من الرسول ﷺ، وأبى الله إلا أن يسمع منه بعض قوله، فسمع كلامًا حسنًا، ثم قال في نفسه إنه ما دام رجلًا لبيبًا شاعرًا ما يخفى عليه الحسن من القبيح، فلماذا لا يسمع من الرسول ﷺ. فمكث حتى انصرف الرسول ﷺ إلى بيته، فجاءه وحكى له ما حدث من قريش، وسمع منه، فأعجبه ما قال فأسلم، وطلب أن يدعو الرسول ﷺ الله؛ ليجعل له آية تكون عونًا له على دعوة قومة. فكان أن جعل الله له نورًا في رأس سوطه. وعندما عاد كان أول من أسلم على يديه والده وأمه، وأبطأت عليه دوس، فعاد إلى الرسول ﷺ، وطلب منه أن يدعو الله عليهم، ولكن الرسول ﷺ قال: «اللّهم اهد دوسًا، ارجع إلى قومك فادعهم وارفق بهم». فرجع وأخذ يدعو إلى الإسلام إلى ما بعد غزوة الخندق، ثم قدم بمن أسلم من قومه على رسول الله ﷺ بخيبر، وهم نحو سبعين أو ثمانين بيتًا من دوس، ثم لحقوا برسول الله ﷺ بخيبر، فأسهم لهم مع المسلمين، فلم يزل مع الرسول ﷺ، حتى إذا فتح مكة طلب أن يبعثه إلى ذي الكفين، صنم عمرو بن حممة، فأحرقه[2].

المبحث السادس: وفد نصارى نجران والمباهلة

اختلفت عداوة أهل الكتاب للإسلام شدة وفتورًا، فأبى اليهود إلا إبادة الإسلام، فوقعوا في شرور نيتهم، وباد سلطانهم العسكري والسياسي قبل أن يدركوا هذه الغاية، وكان النصارى أخف خصومة، حيث ابتعدوا عن سلطان الكنيسة، فأسلم بعضهم طواعية وإعجابًا بما في الإسلام من سهولة واستقامة، وبقي الآخرون على ما ورثوا. وكانت النصرانية (مع تفوق الرومان السياسي والعسكري) تسود شمال الجزيرة، فرأى المسلمون (وهم في حرب مع دولة الروم)، أن يحددوا موقفهم من نصارى الجنوب، خصوصًا وأن الروم كانوا يغدقون العطايا على

---

(1) ابن هشام (2/25- 29).

(2) انظر: السيرة لمهدي رزق الله، ص 651.

مبشريهم هناك، ويبنون لهم الكنائس، ويبسطون عليهم الكرامات، ويشجعونهم على المضي في تنصير القبائل المتوطنة بهذه الأرجاء[1].

- كتاب رسول الله ﷺ إلى أهل نجران:

فأرسل رسول الله ﷺ كتابًا إلى أهل نجران؛ يدعوهم إلى عبادة الله وحده.

روى البيهقي عن سلمة بن يشوع، عن أبيه عن جده (وكان نصرانيًّا فأسلم)، أن رسول الله ﷺ كتب إلى نجران قبل أن ينزل عليه طس سليمان (أي: سورة النمل): «باسم إله إبراهيم وإسحاق ويعقوب، من محمد النبي رسول الله إلى أسقف نجران؛ فإني أحمد إليكم إله إبراهيم وإسحاق ويعقوب؛ أما بعد فإني أدعوكم إلى عبادة الله من عبادة العباد، وأدعوكم إلى ولاية الله من ولاية العباد، فإن أبيتم فالجزية، فإن أبيتم آذنتكم بحرب، والسلام».

فلما أتى الأسقف الكتاب فقرأه قُطع به، وذُعر به ذعرًا شديدًا، وبعث إلى رجل من أهل نجران يقال له: شرحبيل بن وداعة – وكان من همدان ولم يكن أحد يُدعى إذا نزلت معضلة قَبْله – فدفع الأسقف كتاب رسول الله ﷺ إلى شرحبيل فقرأه.

فقال الأسقف: يا أبا مريم، ما رأيك؟

فقال شرحبيل: قد علمت ما وعد الله إبراهيم في ذرية إسماعيل من النبوة، فما تأمن أن يكون هو ذاك الرجل، ليس لي في النبوة رأي، ولو كان أمر من أمور الدنيا لأشرت عليك فيه برأي، وجهدت لك.

فقال له الأسقف: تنح فاجلس.

فتنحى شرحبيل فجلس ناحيته، فبعث الأسقف إلى رجل من أهل نجران يقال له: عبد الله ابن شرحبيل، وهو من ذي أصبح من حمير، فأقرأه الكتاب، وسأله عن الرأي.

فقال له مثل قول شرحبيل:

فقال له الأسقف: تنح فاجلس.

(1) فقه السيرة للغزالي، ص 451- 458، مختصرًا.

فتنحى، فجلس ناحيته، وبعث الأسقف إلى رجل من أهل نجران يقال له: جبار بن فيض، من بني الحارث بن كعب أحد بني الحماس، فأقرأه الكتاب، وسأله عن الرأي فيه.

فقال له مثل قول شرحبيل، وعبد الله، فأمره الأسقف فتنحى فجلس ناحيته(1).

- استفتاء عام:

فلما اجتمع الرأي منهم على تلك المقالة جميعًا أمر الأسقف بالناقوس فضرب به، ورفعت النيران والمسوح في الصوامع، وكذلك كانوا يفعلون إذا فزعوا بالنهار، وإذا كان فزعهم ليلًا ضربوا بالناقوس، ورفعت النيران في الصوامع، فاجتمع حين ضرب بالناقوس، ورفعت المسوح أهل الوادي أعلاه وأسفله، وطول الوادي مسيرة يوم للراكب السريع، وفيه ثلاث وسبعون قرية، وعشرون ومائة ألف مقاتل، فقرأ عليهم كتاب رسول الله ﷺ، وسألهم عن الرأي فيه، فاجتمع رأي أهل الرأي منهم أن يبعثوا.

- تشكيل الوفد:

شكل أهل نجران وفدًا، يتكون من ستين من أشرافهم (وقيل من أربعة عشر راكبًا)، منهم ثلاثة نفر يئول إليهم أمرهم:

- العاقب: وهو أميرهم وصاحب مشورتهم، والذين يصدرون عن رأيه.
- والسيد: وهو صاحب رحلتهم.
- وأبو الحارث: أسقفهم، وحبرهم وصاحب مدارسهم.

روى يونس بن بكير، عن ابن إسحاق، عن كرز بن علقمة، قال: قدم وفد نصارى نجران ستون راكبًا، منهم أربعة وعشرون رجلًا من أشرافهم، والأربعة والعشرون منهم، ثلاثة نفر إليهم يئول أمرهم: العاقب، والسيد، وأبو حارثة أحد بني بكر بن وائل أسقفهم، وصاحب مدارستهم، وكانوا قد شرفوه فيهم، ومولوه، وأكرموه، وبسطوا عليه الكرامات، وبنوا له الكنائس؛ لما بلغهم عنه من علمه واجتهاده في دينهم، فلما توجهوا من نجران، جلس أبو حارثة على بغلة له، وإلى جنبه أخ له يقال له: كرز بن علقمة يسايره؛ إذ عثرت بغلة أبي حارثة.

---

(1) دلائل النبوة (5/382- 383).

فقال كرز: تعس الأبعد - يريد رسول الله ﷺ.

فقال له أبو حارثة: بل أنت تعست.

فقال له كرز: ولم يا أخي.

فقال: والله إنه لَلنبي الذي كنا ننتظره.

فقال له كرز: وما يمنعك وأنت تعلم هذا.

فقال له: ما صنع بنا هؤلاء القوم .. شرفونا، ومؤلونا، وأخدمونا، وقد أبوا إلا خلافه، ولو فعلت نزعوا منا كل ما ترى.

قال: فأضمر عليها منه أخوه كرز، حتى أسلم بعد ذلك[1].

- قدوم الوفد ورفض النبي ﷺ الحديث معهم:

قال البيهقي[2]: فانطلق الوفد حتى إذا كانوا بالمدينة، وضعوا ثياب السفر عنهم، ولبسوا حللًا لهم يجرونها من حبرة وخواتيم الذهب، ثم انطلقوا حتى أتوا رسول الله ﷺ، فسلموا، فلم يرد عليهم السلام، وتصدوا لكلامه نهارًا طويلًا، فلم يكلمهم وعليهم تلك الحلل والخواتيم الذهب، فانطلقوا يتبعون عثمان بن عفان وعبد الرحمن بن عوف، وكانوا يعرفونهما، فوجدوهما في ناس من المهاجرين والأنصار في مجلس.

فقالوا: يا عثمان ويا عبد الرحمن! إن نبيكم كتب إلينا بكتاب فأقبلنا مجيبين له، فأتيناه فسلمنا عليه، فلم يرد سلامنا، وتصدينا لكلامه نهارًا طويلًا، فأعيانا أن يكلمنا، فما الرأي منكما، أترون أن نرجع؟

فقالا لعلي بن أبي طالب وهو في القوم: ما ترى يا أبا الحسن في هؤلاء القوم؟

فقال علي لعثمان ولعبد الرحمن: أرى أن يضعوا حللهم هذه وخواتيمهم، ويلبسوا ثياب سفرهم، ثم يعودوا إليه، ففعلوا، فسلموا، فرد سلامهم.

---

(1) البداية والنهاية 5/67.

(2) البيهقي، دلائل النبوة (5/382- 383).

ثم قال: «والذي بعثني بالحق لقد أتوني المرة الأولى وإن إبليس لمعهم».

وكانوا لما قدموا مسجد رسول الله ﷺ قاموا يصلون ناحية المشرق (نحو بيت المقدس)، فقال رسول الله ﷺ: «دعوهم»[1].

- **جدالهم لرسول الله ﷺ:**

ثم ساءلهم رسول الله ﷺ وساءلوه، فلما دعاهم إلى الإسلام، أبوا، وقالوا: كنا مسلمين قبلكم، فقال النبي ﷺ: «يمنعكم من الإسلام ثلاث: عبادتكم الصليب، وأكلكم لحم الخنزير، وزعمكم أن لله ولدًا»[2].

ثم كثر الجدال والحجاج بينه وبينهم، والنبي يتلو عليهم القرآن، ويقرع باطلهم بالحجة، وكان مما قالوه لرسول الله ﷺ: ما لك تشتم صاحبنا (يعنون عيسى ابن مريم) وتقول إنه عبد الله، فقال: «أجل، إنه عبد الله ورسوله، وكلمته ألقاها إلى مريم العذراء البتول»، فغضبوا وقالوا: هل رأيت إنسانًا قط من غير أب؟ فإن كنت صادقًا فأرنا مثله! فأنزل الله في الرد عليهم قوله سبحانه: ﴿إِنَّ مَثَلَ عِيسَىٰ عِندَ ٱللَّهِ كَمَثَلِ ءَادَمَ ۖ خَلَقَهُۥ مِن تُرَابٍ ثُمَّ قَالَ لَهُۥ كُن فَيَكُونُ ﴿٥٩﴾ ٱلْحَقُّ مِن رَّبِّكَ فَلَا تَكُن مِّنَ ٱلْمُمْتَرِينَ﴾ [آل عمران: 59- 60].

فكانت حجة دامغة، شبه فيها الغريب بما هو أغرب منه، فلما لم تُجدِ معهم المجادلة بالحكمة والموعظة الحسنة دعاهم إلى المباهلة؛ امتثالًا لقوله تعالى: ﴿فَمَنْ حَآجَّكَ فِيهِ مِنۢ بَعْدِ مَا جَآءَكَ مِنَ ٱلْعِلْمِ فَقُلْ تَعَالَوْا۟ نَدْعُ أَبْنَآءَنَا وَأَبْنَآءَكُمْ وَنِسَآءَنَا وَنِسَآءَكُمْ وَأَنفُسَنَا وَأَنفُسَكُمْ ثُمَّ نَبْتَهِلْ فَنَجْعَل لَّعْنَتَ ٱللَّهِ عَلَى ٱلْكَـٰذِبِينَ﴾ [آل عمران: 61][3].

- **المباهلة:**

فأصبح رسول الله من الغد، وقد أقبل بنفسه وحفيديه: الحسن، والحسين، وابنته فاطمة.

واستعد أن يشترك مع وفد نجران في صلاة جامعة، تستنزل فيها لعنة الله على المفترين.

---

(1) انظر: السيرة لأبي شهبة (2/547).

(2) المصدر السابق.

(3) انظر: السيرة للصلابي.

واستمع وفد نجران إلى هذا الاقتراح، فأوجسوا خيفة من قبوله! من يدري؟!

قد يكون محمد صادقًا في أن عيسى بشر مثله، ويكونون – هم – واهمين في انتحال الألوهية له.

فلماذا يبتهلون إلى الله أن يمحقهم؟!

ونظروا إلى محمد وطفليه وابنته، فشعروا أن الكاذب منهما لن يهلك وحده؛ بل ستهلك معه أسرته، فخشوا على أولادهم وأهليهم البوار إن هم قبلوا هذه المباهلة، ثم خلصوا نجيًّا.

قال بعضهم للآخر: إن كان هذا الرجل ملكًا، فلن نأمن طعننا عليه وخصامنا له؛ فإن دولته مقبلة، وربما أصابنا قومه بجائحة، وإن كان نبيًّا مرسلًا فلاعناه، فلن يبقى على وجه الأرض منا شعرة ولا ظفرة إلا هلك. فما الرأي؟

فجاءه متحدث القوم شرحبيل بن وداعة، وقال له: رأيت خيرًا من ملاعنتك، فقال النبي: ما هو؟ قال: أدعُ لك الحُكم فينا فمهما قضيت فهو جائز!

فقال رسول الله: لعل وراءك أحدًا يثرِّب عليك؟ (فيلغي ما تتفق معي عليه)، فقال شرحبيل: سل عني، فلما سأل الرسول عنه خبر أن أهل الوادي لا يصدرون ولا يردون إلا عن رأيه، فقال: جاحد موفق.

ورجع رسول الله ولم يلاعنهم، وعقد معهم صلحًا، أصبحوا – بمقتضاه – من رعايا الدولة الإسلامية[1].

- شروط الصلح:

صالح رسول الله ﷺ أهل نجران على ألفي حلة، ألف في رجب، وألف في صفر، وعلى عارية ثلاثين درعًا، وثلاثين رمحًا، وثلاثين بعيرًا، وثلاثين فرسًا إن كان باليمن كيد، واشترط عليهم أن لا يتعاملوا بالربا، وأمنهم على أنفسهم ودينهم وأموالهم، وكتب لهم كتابًا جاء فيه:

«ولنجران وحاشيتهم جوار الله، وذمة محمد النبي رسول الله على أنفسهم، وملتهم، وأرضهم، وأموالهم، وغائبهم، وشاهدهم وبيعهم، لا يغير أسقف على أسقفيته، ولا راهب عن رهبانيته، ولا واقف عن وقفانيته». وأشهد على ذلك بعض المسلمين، ثم رجعوا إلى بلادهم، فلم

(1) انظر: فقه السيرة للغزالي، ص 461- 462.

يلبث العاقب والسيد إلا يسيرًا حتى رجعا إلى النبي فأسلما، وأنزلهما دار أبي أيوب الأنصاري، وأقام أهل نجران على ذلك حتى توفى الله نبيه.

وتولى الصديق الخلافة، فأحسن معاملتهم، وأوصى بهم عند وفاته، وفي عهد الفاروق عمر تعاملوا بالربا، فأخرجهم من أرضهم، فوقع أناس منهم بالعراق، فنزلوا البحرانية التي بناحية الكوفة، وذهب بعضهم إلى الشام(1).

المبحث السابع: تميم الداري وقصة الجساسة والدجال

هو تميم بن أوس بن خارجة، من بني الدار من قبيلة لخم، ولد بفلسطين، يكنى (أبا رقية)، بابنة له تسمى رقية، لم يولد له غيرها، كان نصرانيًّا راهبًا عابدًا، وأسلم سنة 9 هـ، في وفد من قومه بني الدار (وكانوا عشرة) حين قدموا على رسول الله ﷺ منصرفه من غزوة تبوك، فأسلموا جميعًا، وأقطع النبي ﷺ تميمًا وأخاه «نعيمًا» حَبْرَى وبيت عَيْنون وحبرون والمرطوم وبيت إبراهيم بأرض الشام .. قال عكرمة: لما أسلم تميم قال: يا رسول الله، إن الله مظهرك على الأرض كلها، فهب لي قريتي من بيت لحم (وذلك قبل أن تفتح الشام)، قال: هي لك، وكتب له بها، قال: فجاء تميم بالكتاب إلى عمر (وقد فتحت الشام في عهده)، فقال: أنا شاهد ذلك، فأمضاه عمر. وذكر الليث أن النبي ﷺ قال له: ليس لك أن تبيع. وعن زيد بن عامر، قال: قدمت على النبي ﷺ فأسلمت، فقال النبي ﷺ لتميم الداري: «سلني»، فسأله بيت عينون ومسجد إبراهيم، فأعطاهن إياه.

قال الواقدي: ليس للنبي ﷺ قطعية (أقطعها لأحد) سوى حبرى وبيت عينون، أقطعهما تميمًا وأخاه نعيمًا.

وقد صار لتميم الداري رَضِيَ اللَّهُ عَنْهُ في الإسلام مناقب عديدة، واشتهر بعلمه وعبادته وقراءته للقرآن.

- قال قتادة في قوله تعالى: ﴿وَمَنْ عِندَهُۥ عِلْمُ ٱلْكِتَٰبِ﴾ [الرعد: 43] هم: سلمان، وابن سلام، وتميم الداري.

- **وقال ابن سيرين:** جمع القرآن على عهد رسول الله ﷺ: أبي بن كعب، وعثمان بن عفان، وزيد بن ثابت، وتميم الداري.

(1) الطبقات الكبرى، ج1، ص 358.

- وروى أبو قلابة عن أبي المهلب: كان تميم يختم القرآن في سبع.

- وروى مسروق عن رجل من أهل مكة، أن تميم الداري رَضِيَ اللَّهُ عَنْهُ صلى ليلة حتى أصبح أو كاد، يقرأ آية يرددها، ويبكي: ﴿أَمْ حَسِبَ ٱلَّذِينَ ٱجْتَرَحُواْ ٱلسَّيِّـَٔاتِ أَن نَّجْعَلَهُمْ كَٱلَّذِينَ ءَامَنُواْ وَعَمِلُواْ ٱلصَّٰلِحَٰتِ سَوَآءً مَّحْيَاهُمْ وَمَمَاتُهُمْ ۚ سَآءَ مَا يَحْكُمُونَ﴾ [الجاثية: 21][1].

- قصة الجساسة والدجال:

ويكفي تميم الداري رَضِيَ اللَّهُ عَنْهُ منقبة أنه الوحيد من الصحابة الذي روى عنه النبي ﷺ:

روى مسلم في صحيحه[2]، عن فاطمة بنت قيس رَضِيَ اللَّهُ عَنْهَا، قالت: سمعت منادي رسول الله ﷺ ينادي: الصلاة جامعة، فخرجت إلى المسجد، فصليت مع رسول الله ﷺ، فكنت في صف النساء التي تلي ظهور القوم، فلما قضى رسول الله ﷺ صلاته، جلس على المنبر وهو يضحك، فقال: (ليلزم كل إنسان مصلاه)، ثم قال: أتدرون لما جمعتكم؟، قالوا: الله ورسوله أعلم، قال: إني والله ما جمعتكم لرغبة ولا لرهبة، ولكن جمعتكم لأن تميمًا الداري كان رجلًا نصرانيًّا فجاء فبايع وأسلم، وحدثني حديثًا وافق الذي كنت أحدثكم عن المسيح الدجال.

حدثني أنه ركب في سفينة بحرية مع ثلاثين رجلًا من لخم وجذام، فلعب بهم الموج شهرًا في البحر، ثم أرفئوا إلى جزيرة في البحر حتى مغرب الشمس، فجلسوا في أَقْرُب السفينة، فدخلوا الجزيرة، فلقيتهم دابة أهلب كثير الشعر، لا يدرون ما قُبُله من دُبُره؛ من كثرة الشعر، فقالوا: ويلك ما أنت؟

فقالت: أنا الجساسة.

قالوا: وما الجساسة؟

قالت: أيها القوم، انطلقوا إلى هذا الرجل في الدير، فإنه إلى خبركم بالأشواق.

قال: لما سمت لنا رجلًا فرقنا (خفنا) منها أن تكون شيطانة. قال: فانطلقنا سراعًا حتى دخلنا الدير، فإذا فيه أعظم إنسان رأيناه قط خلقًا، وأشده وثاقًا، مجموعة يداه إلى عنقه ما بين ركبتيه إلى كعبيه بالحديد. قلنا: ويلك ما أنت؟

(1) انظر: سير أعلام النبلاء، ج2، ص 52، وإمتاع الأسماع للمقريزي، ج 13، ص 140.
(2) صحيح مسلم (2942).

قال: قد قدرتم على خبري، فأخبروني ما أنتم؟

قالوا: نحن أناس من العرب، ركبنا في سفينة بحرية، فصادفنا البحر حين اغتلم (هاج)، فلعب بنا الموج شهرًا، ثم أرفأنا إلى جزيرتك هذه، فجلسنا في أقربها، فدخلنا الجزيرة، فلقيتنا دابة أهلب كثير الشعر، لا يدرى ما قبله من دبره من كثرة الشعر، فقلنا ويلك ما أنت؟ فقالت: أنا الجساسة، قلنا: وما الجساسة، قالت: اعمدوا إلى هذا الرجل في الدير؛ فإنه إلى خبركم بالأشواق، فأقبلنا إليك سراعًا، وفَزِعْناها، ولم نأمن أن تكون شيطانة.

فقال: أخبروني عن نخل بيسان.

قلنا: عن أي شأنها تستخبر؟

قال: أسألكم عن نخلها هل يثمر؟

قلنا له: نعم.

قال: أما إنه يوشك ألا يُثمر .. قال: أخبروني عن بحيرة الطبرية.

قلنا: عن أي شأنها تستخبر؟

قال: هل فيها ماء؟

قالوا: هي كثير الماء.

قال: أما إن ماءها يوشك أن يذهب .. قال أخبروني عن عين زُغَر.

قالوا عن أي شأنها تستخبر؟

قال: هل في العين ماء، وهل يزرع أهلها بماء العين؟

قلنا له: نعم، هي كثيرة الماء، وأهلها يزرعون من مائها.

قال: أخبروني عن نبي الأميين ما فعل.

قالوا: قد خرج من مكة ونزل يثرب.

قال: أقاتله العرب؟

قلنا: نعم.

قال: كيف صنع بهم؟

فأخبرناه أنه قد ظهر على من يليه من العرب وأطاعوه.

قال لهم: قد كان ذلك؟

قلنا: نعم.

قال: أما إن ذاك خير لهم أن يطيعوه، وإني مخبركم عني إني أنا المسيح، وأني أوشك أن يؤذن لي في الخروج فأخرج، فأسير في الأرض، فلا أدع قرية إلا هبطتها في أربعين ليلة، غير مكة وطيبة؛ فهما محرمتان عليَّ كلتاهما، كلما أردت أن أدخل واحدة أو واحدًا منهما استقبلني مَلَك بيده السيف صلتًا (مسلولًا) يصدني عنها، وإن على كل نقب (الفرجة بين جبلين) منها ملائكة يحرسونها.

قالت: قال رسول الله ﷺ وطعن بمخصرته في المنبر: هذه طيبة، هذه طيبة، هذه طيبة، يعني المدينة، ألا هل كنت حدثتكم ذلك؟، فقال الناس: نعم. فإنه أعجبني حديث تميم أنه وافق الذي كنت أحدثكم عنه وعن المدينة ومكة، ألا إنه في بحر الشام أو بحر اليمن، لا بل من قبل المشرق ما هو، من قبل المشرق ما هو، من قبل المشرق ما هو، وأومأ بيده إلى المشرق. قالت: فحفظت هذا من رسول الله.

المبحث الثامن: وفود جنوب الجزيرة العربية وشرقها

جاءت وفود الجزيرة من جنوبها وشرقها، معلنة دخولها في الإسلام، وذلك من خلال الدعوة إلى الله تعالى، ودون قتال، ولا سيما بعد أن رأت ما كان من إسلام قريش وثقيف وغطفان وتميم قلب جزيرة العرب. ونعرض لهذه الوفود؛ لنرى نماذج الدعوة إلى الله من خلالها[1]:

1- وفد عبد القيس .. غير خزايا ولا ندامى:

كانت لقبيلة عبد القيس وفادتان: الأولى سنة خمس من الهجرة، أو قبل ذلك. كان رجل منهم يقال له منقذ بن حيان، يرد المدينة بالتجارة، فلما جاء المدينة بتجارته بعد مقدم النبي ﷺ، وعلم بالإسلام، أسلم، وذهب بكتاب من النبي ﷺ إلى قومه فأسلموا، فتوافدوا إليه في شهر حرام في ثلاثة أو أربعة عشر رجلًا، وفيها سألوا عن الإيمان وعن الأشربة، وكان كبيرهم الأشج العصري، الذي قال فيه رسول الله ﷺ: إن فيك خصلتين يحبهما الله: الحلم والأناة.

(1) المنهج الحركي، القسم الثالث ص 181- 182.

والوفادة الثانية كانت في سنة الوفود، وكان عددهم فيها أربعين رجلًا، وكان فيهم الجارود بن العلاء العبدي، وكان نصرانيًّا فأسلم وحسن إسلامه[1].

- **الوفادة الأولى:**

روى الحافظ البيهقي من طريق هود بن عبد الله بن سعد، أنه سمع جده مزيدة العبدي، قال: بينما رسول الله ﷺ يحدث أصحابه إذ قال لهم: سيطلع من هاهنا ركب هم خير أهل المشرق، فقام عمر فتوجه نحوهم، فتلقى ثلاثة عشر راكبًا، فقال: من القوم؟

فقالوا: من بني عبد القيس.

قال: فما أقدمكم هذه البلاد؟ التجارة؟

قالوا: لا.

قال: أما إن النبي ﷺ قد ذكركم آنفًا، فقال خيرًا، ثم مشوا معه حتى أتوا النبي ﷺ، فقال عمر للقوم: وهذا صاحبكم الذي تريدون (يقصد رسول الله ﷺ)، فرمى القوم بأنفسهم عن ركائبهم، فمنهم من مشى، ومنهم من هرول، ومنهم من سعى حتى أتوا رسول الله ﷺ، فأخذوا بيده فقبلوها، وتخلف الأشج في الركاب حتى أناخها، وجمع متاع القوم، ثم جاء يمشي حتى أخذ بيد رسول الله ﷺ فقبلها. فقال النبي ﷺ: «إن فيك خلتين يحبهما الله ورسوله»، قال: جبل جبلت أم تخلقًا مني؟ قال: «بل جبل».

فقال: الحمد لله الذي جبلني على ما يحب الله ورسوله[2].

وذكر البخاري[3] أنهم عندما وفدوا على الرسول ﷺ، رحب بهم قائلًا: «مرحبا بالقوم غير خزايا ولا ندامى»، فقالوا: يا رسول الله، إن بيننا وبينك المشركين من مضر، وإنا لا نصل إليك إلا في الأشهر الحرم، حدثنا بجمل من الأمر إن عملنا به دخلنا الجنة، وندعو به من وراءنا. قال: «آمركم بأربع وأنهاكم عن أربع: الإيمان بالله، هل تدرون ما الإيمان بالله؟ شهادة أن لا إله إلا

---

(1) الرحيق المختوم، ص 445.

(2) البداية والنهاية 5/57.

(3) الفتح (208/16، حديث 4368- 4369).

الله، وإقام الصلاة، وإيتاء الزكاة، وصوم رمضان، وأن تعطوا من المغانم الخمس، وأنهاكم عن أربع: ما انتبذ في الدباء[1] والنقير[2] والحنتم[3] والمزفت[4]».

الوفادة الثانية:

قال ابن إسحاق: وقدم على رسول الله ﷺ الجارود بن عمرو بن حنش أخو عبد القيس.

قال ابن هشام: وهو الجارود بن بشر بن المعلى في وفد عبد القيس، وكان نصرانيًّا.

قال ابن إسحاق: وحدثني من لا أتهم عن الحسن، قال: فلما انتهى إلى رسول الله ﷺ كلمه، فعرض عليه الإسلام، ودعاه إليه، ورغبه فيه، فقال: يا محمد إني كنت على دين، وإني تارك ديني لدينك، أفتضمن لي ديني؟

فقال رسول الله ﷺ: «نعم أنا ضامن أن قد هداك الله إلى ما هو خير منه».

قال: فأسلم، وأسلم أصحابه، ثم سأل رسول الله ﷺ الحملان.

فقال: «والله ما عندي ما أحملكم عليه».

قال: يا رسول الله إن بيننا وبين بلادنا ضوالًا (وهي الدواب الضالة من أصحابها) من ضوال الناس، أفنتبلغ عليها إلى بلادنا؟

قال: «لا، إياك وإياها، فإنما تلك حر النار».

قال: فخرج الجارود راجعًا إلى قومه، وكان حسن الإسلام، صلبًا على دينه حتى هلك، وقد أدرك الردة، فلما رجع من قومه من كان أسلم منهم إلى دينهم الأول مع الغرور بن المنذر بن النعمان بن المنذر، قام الجارود، فتشهد شهادة الحق، ودعا إلى الإسلام فقال: يا أيها الناس إني أشهد أن لا إله إلا الله، وأن محمدًا عبده ورسوله، وأكفر من لم يشهد[5].

---

(1) النبيذ في وعاء القرع اليابس.

(2) جذع ينقر وسطه، ويوضع فيه النبيذ.

(3) جرار يحمل فيها الخمر.

(4) الأوعية التي فيها الزفت.

(5) المصدر السابق 5/58.

وقد كان الجارود رَضِيَٱللَّهُعَنْهُ في قلب قاعدة الإسلام الصلبة في البحرين، حيث سبقه حاكمها المنذر بن ساوي العبدي رَضِيَٱللَّهُعَنْهُ إلى الإسلام، وعلى رأس هؤلاء العلاء بن الحضرمي رَضِيَٱللَّهُعَنْهُ موفد رسول الله ﷺ إليهم. وتبقى القاعدة الصلبة هي الحصن الحصين للدعوة وقت الأزمات[1].

2- مراد:

قال ابن إسحاق: وقدم فروة بن مُسَيْك المرادي على رسول الله ﷺ، مفارقًا لملوك كندة، وقد كان قبيل الإسلام بين مراد وهمدان وقعة، ظفرت فيها همدان، وأكثروا القتل في مراد، وكان يقال لذلك اليوم يوم الرزم[2]، وكان رئيس همدان الأجدع بن مالك، وفي ذلك يقول فروة:

فإن نغلب فغلابون قدما ... وإن نهزم فغير مهزمينا

وما إن طبُّنا جبنٌ ولكن ... منايانا ودولة آخرينا

كذاك الدهر دولته سجال ... تكرُّ صروفه حينا فحينا

فبينا ما يُسرُّ به ويُرضى ... ولو لُبِسَتْ غضارته[3] سنينا

إذا انقلبت به كرَّات دْهر ... فألقي للألى غبطوا[4] طحينا

ومن يغبط بريب الدهر منهم ... يجد ريب الزمان له خئُونا

فلو خلد الملوك إذًا خلدنا ... ولو بقي الكرام إذًا بقينا

فأفنى ذاكم سروات[5] قوم ... كما أفنَى القرون الأولينا

ولما توجه فروة إلى رسول الله ﷺ قال:

---

(1) انظر: المنهج الحركي، القسم الثالث، ص 183.

(2) موضع.

(3) طراوته ونعمته.

(4) استحسنت حالهم.

(5) أشرافهم.

لمــا رأيــت ملــوك كنــدة أعرضــت كرجـل خـان الرجـل عِـرْقُ نـسائها[1]

قرَّبــــتُ راحلتـــــي أؤم محمـــــدًا أرجـــو فَواضِـــلها وحـــسن ثرائهـــا

فلما وصل إلى رسول الله ﷺ سأله قائلًا: «هل ساءك ما أصاب قومك يوم الرزم؟» قال: يا رسول الله، من ذا يصيب قومه مثل ما أصاب قومي يوم الرزم ولا يسوؤه ذلك؟! فقال رسول الله ﷺ له: «أما إن ذلك لا يزيد قومك في الإسلام إلا خيرًا»، واستعمله رسول الله ﷺ[2].

فالمعارك بين مراد وهمدان هي التي دفعت فروة بن مسيك لمفارقة قومه إلى المدينة، ومن أجل هذا قال ﷺ: «أما إن ذلك لم يزد قومك في الإسلام إلا خيرًا»؛ إذ دفعه ليكون من السابقين للإسلام.

ونلحظ أن رسول الله ﷺ كان يحرص على إبقاء قادة القبائل في مواقعهم من زعامة قبيلتهم، بينما يبعث معهم أحد صحابته؛ ليفقه القوم الإسلام، وبذلك تبقى النفوس على عهدها، دون أن تحس بإهانة أو تحطيم، ويبقى كيان القبيلة وزعامتها ضمن إطار الإسلام. وهذا خط نبوي واضح، يحسن أن تعيه الحركة الإسلامية في الاستفادة من الزعامات، بحيث لا تشعر أن الإسلام خطر عليها إن هي انضوت تحت لوائه، لكن دون أن يتخذ الإسلام مطية لظلمها وتعسفها[3].

3- وفد همدان:

وقد أدى دخول مراد في الإسلام إلى أن تنافسها همدان، فيتحرك وفدها إلى المدينة، فيلتقوا مع رسول الله ﷺ مرجعه من تبوك بكل ثقلها؛ من شعراء وأمراء[4].

فكتب لهم رسول الله ﷺ كتابًا، أقطعهم فيه ما سألوه، وأمر عليهم مالك بن النمط، واستعمله على من أسلم من قومه، وبعث إلى سائرهم خالد بن الوليد؛ يدعوهم إلى الإسلام، فأقام ستة أشهر يدعوهم، فلم يجيبوه، ثم بعث علي بن أبي طالب، وأمره أن يُقفل (يرجع) خالدًا، فجاء علي إلى همدان، وقرأ عليهم كتابًا من رسول الله ﷺ، ودعاهم إلى الإسلام

---

(1) هو عرق (النساء)، وهو عرق مستبطن في الفخذ.

(2) انظر: هذا الحبيب يا محب للجزائري، ص 459 - 460.

(3) المنهج الحركي، القسم الثالث، ص 184.

(4) المصدر السابق، ص 184.

فأسلموا جميعًا، وكتب علي ببشارة إسلامهم إلى رسول الله ﷺ، فلما قرأ الكتاب خر ساجدًا، ثم رفع رأسه، فقال: السلام على همدان، السلام على همدان[1].

4- إسلام ملوك حمير:

وبعد مرجع النبي ﷺ من تبوك، قدم إليه كتاب من ملوك حمير، وهم الحارث بن عبد كلال، ونعيم بن عبد كلال، والنعمان بن قيل ذي رعين، وهمدان ومعافر، ورسولهم إليه ﷺ مالك بن مرة الرهاوي، بعثوه بإسلامهم ومفارقتهم الشرك وأهله، وكتب إليهم رسول الله ﷺ كتابًا، بين فيه ما للمؤمنين وما عليهم، وأعطى فيهم المعاهدين ذمة الله وذمة رسوله إذا أعطوا ما عليهم من الجزية، وبعث إليهم رجالًا من أصحابه، أميرهم معاذ بن جبل[2].

5- بنو الحارث بن كعب .. هداهم الله بخالد:

ثم بعث رسول الله ﷺ خالد بن الوليد في شهر ربيع الآخر أو جمادى الأولى سنة عشر، إلى بني الحارث بن كعب بنجران، وأمره أن يدعوهم إلى الإسلام قبل أن يقاتلهم ثلاثًا، فإن استجابوا فاقبل منهم، وإن لم يفعلوا فقاتلهم، فخرج خالد حتى قدم عليهم، فبعث الركبان يضربون في كل وجه، ويدعون إلى الإسلام، ويقولون: أيها الناس أسلموا تسلموا، فأسلم الناس ودخلوا فيما دعوا إليه، فأقام فيهم خالد يعلمهم الإسلام وكتاب الله وسنة نبيه ﷺ، وبذلك كان أمره ﷺ إن هم أسلموا ولم يقاتلوا.

فأقبل خالد إلى رسول الله ﷺ، وأقبل معه وفد بني الحارث بن كعب. فلما وقفوا على رسول الله ﷺ سلموا عليه، وقالوا: نشهد أنك رسول الله، وأنه لا إله إلا الله. ثم قال رسول الله ﷺ، أنتم الذين إذا زجروا استقدموا فسكتوا، فلم يراجعه منهم أحد، ثم أعادها الثانية، فلم يراجعه منهم أحد، ثم أعادها الثالثة، فلم يراجعه منهم أحد، ثم أعادها الرابعة، فقال يزيد بن عبد المدان: نعم يا رسول الله، نحن الذين إذا زجروا استقدموا، قالها أربع مرار، فقال رسول الله ﷺ: لو أن خالدًا لم يكتب إليَّ أنكم أسلمتم ولم تقاتلوا لألقيت رءوسكم تحت أقدامكم، فقال يزيد بن عبد المدان: أما والله ما حمدناك ولا حمدنا خالدًا، قال: فمن حمدتم؟ قالوا: حمدنا الله عز وجل، الذي هدانا بك يا رسول الله، قال: صدقتم، ثم قال رسول الله ﷺ: بم كنتم

(1) الرحيق المختوم، ص 449- 450.

(2) المصدر السابق، ص 449.

تغلبون من قاتلكم في الجاهلية؟ قالوا: لم نكن نغلب أحدًا، قال: بلى قد كنتم تغلبون من قاتلكم، قالوا: كنا نغلب من قاتلنا يا رسول الله، أنا كنا نجتمع ولا نتفرق، ولا نبدأ أحدًا بظلم. قال: صدقتم، وأمَّر رسول الله ﷺ على بني الحارث بن كعب، قيس بن الحصين، فرجع وفد بني الحارث إلى قومهم في بقية من شوال، أو في صدر ذي القعدة، فلم يمكثوا بعد أن رجعوا إلى قومهم إلا أربعة أشهر، حتى توفي رسول الله ﷺ.

إن بني الحارث بن كعب كانت طريقة دعوتهم مختلفة؛ فقد بعث رسول الله ﷺ خالدًا إليهم؛ لأنهم مشهورون بقوة شكيمتهم وشدة بأسهم، وخالد بن الوليد قد طغت شهرته في الأرض العربية؛ من حيث كفاءته القيادية، فلابد أن يشعر القوم بالقوة المرهوبة الجانب، ومن طرف آخر فالفشل الدعوي الذي لقيه خالد رَضِيَ اللَّهُ عَنْهُ في بني جذيمة، كان لابد أن يغسله في موقف دعوي آخر، فكانت الفرصة المتاحة الجديدة في بني الحارث بن كعب. كان لابد له أن يضبط أعصابه، ويتحلى بالصبر الطويل على الخلق البشري، والتعنت البشري، وهذا أشق عليه ألف مرة من الصبر في المعارك، وتحمل ضراوتها، وأن يتعود هذا السيف الذي سله الله على المشركين، أن يغمد أمام سيل الدعوة المنطلق فترة من الفترات، هو أمر ضروري؛ فعظمة الالتزام أن يكون هذا السيف تحت إمرة الله ورسوله، وأن تجرب مشاق الدعوة ووعورتها، وأثرها الضخم في النفس الإنسانية.

ونجح ابن الوليد - أيما نجاح - في هذه الدورة التدريبية على الدعوة، وهيأ الله تعالى له في مدخر أجره، أن يكون إسلام بني الحارث بن كعب على يديه[1].

6- وفد أهل اليمن:

وقدم على النبي ﷺ في سنة تسع وفد اليمن، وقد جاءوا فوجدوا وفد بني تميم عند النبي، ولكنهم كانوا أفقه منهم وأرق. روى البخاري في صحيحه أنه لما جاء بنو تميم إلى رسول الله ﷺ، قال: «أبشروا بني تميم» فقالوا: أما إذ بشرتنا فأعنا، فتغير وجه رسول الله ﷺ، فجاء ناس من أهل اليمن، فقال النبي: «اقبلوا البشرى يا أهل اليمن إذ لم يقبلها بنو تميم» قالوا: قد قبلنا يا رسول الله، جئناك لنتفقه في الدين، ولنسألك عن أول هذا الأمر[2] ما كان؟ قال: «كان الله ولم

---

(1) انظر: المنهج الحركي، القسم الثالث، ص 185- 186.

(2) يعني بدء الخلق.

يكن شيء قبله - وفي رواية غيره - وكان عرشه على الماء، ثم خلق السماوات والأرض، وكتب في الذكر كل شيء»[1].

وفي شأن هذا الوفد روى البخاري في صحيحه أيضًا عن النبي ﷺ، قال: «أتاكم أهل اليمن، هم أرق أفئدة، وألين قلوبًا. الإيمان يمان، والحكمة يمانية، والفخر والخيلاء في أصحاب الإبل، والسكينة والوقار في أهل الغنم».

وقد ترجم البخاري في باب الوفود «باب قدوم الأشعريين وأهل اليمن»، وليس معنى هذا أن قدوم الأشعريين كان سنة تسع؛ فالثابت في الصحيح والسير أن قدومهم كان سنة سبع عقب خيبر، وهذا يشهد لما ذكرناه من عدم التقيد بالوفود التي وفدت عام تسع[2].

7- وفد الأزد[3]:

وقد وفد الأزد من اليمن، فأعجب الرسول ما رأى من زيهم وسمتهم، ثم سألهم «ما أنتم؟» فقالوا: مؤمنون، فسألهم عن حقيقة قولهم وإيمانهم، فذكروا خمس عشرة خصلة: خمس أمرتنا بها رسلك أن نؤمن بها، وخمس أمرتنا أن نعمل بها، وخمس تخلقنا بها في الجاهلية فنحن عليها إلا أن تكره منها شيئًا، فقال رسول الله ﷺ: «ما الخمس التي أمرتكم بها رسلي أن تؤمنوا بها؟» قلنا: أمرتنا أن نؤمن بالله وملائكته، وكتبه، ورسله، والبعث بعد الموت، قال: «وما الخمس التي أمرتكم أن تعملوا بها؟» قالوا: أمرتنا أن نقول: لا إله إلا الله، ونقيم الصلاة، ونؤتي الزكاة، ونصوم رمضان، ونحج البيت من استطاع إليه سبيلًا، فقال: «وما الخمس التي تخلقتم بها في الجاهلية؟» قالوا: الشكر عند الرخاء، والصبر عند البلاء، والرضا بمر القضاء، والصدق في مواطن اللقاء، وترك الشماتة بالأعداء. فقال لهم الرسول: «حكماء علماء، كادوا من فقههم أن يكونوا أنبياء».

8- وافد حضرموت:

وفد على رسول الله ﷺ وائل بن حجر، أحد أقيال حضرموت وكان أبوه من ملوكهم، ويقال إن رسول الله ﷺ بشر أصحابه قبل قدومه به، وقال: «يأتيكم بقية أبناء الملوك»، فلما

---

(1) فتح الباري، ج 8، ص9، ج 6، ص 230.
(2) انظر: السيرة لأبي شهبة، ج 2، ص 552.
(3) أبو شهبة، ص 553.

دخل عليه، رحب به، وأدناه من نفسه، وقرب مجلسه، وبسط له رداءه، وقال: «اللّهم بارك في وائل وولده وولد ولده»، واستعمله على الأقيال من حضرموت، وكتب معه ثلاثة كتب، منها: كتاب إلى المهاجر بن أبي أمية، وكتاب إلى الأقيال والعياهلة، وأقطعه أرضًا، وأرسل معه معاوية بن أبي سفيان رَضِيَ اللَّهُ عَنْهُ ليريه إياها، وكان يسير راجلًا، ووائل راكبًا، فشكا معاوية إليه حر الرمضاء، وطلب أن يردفه معه على الناقة، فزجره قائلًا: «اسكت فلست من أرداف الملوك .. انتعل ظل الناقة»، وشاء الله أن يفد وائل بن حُجْر على معاوية رَضِيَ اللَّهُ عَنْهُ وهو أمير المؤمنين، فذكره بقصته معه[1]..

وطلب الرسول ﷺ منه أن يصعد إليه على المنبر ففعل، فدعا له، ومسح رأسه، وقال: «اللّهم بارك في وائل وولده وولد ولده»، ونودي: الصلاة جامعة ليجتمع الناس؛ سرورًا بقدوم وائل إلى رسول الله ﷺ[2].

المبحث التاسع: وفود أخرى

- (يمنون عليك أن أسلموا):

وقدم وفد بني أسد، وكانوا أقوياء أشداء، يسكنون شمال شرق الحجاز، وعدد رجال هذا الوفد عشرة، وقالوا لما وفدوا على رسول الله ﷺ قالوا: أتيناك قبل أن ترسل إلينا رسولًا؛ يمنون بهذا على رسول الله ﷺ، فأنزل الله تعالى فيهم: ﴿يَمُنُّونَ عَلَيْكَ أَنْ أَسْلَمُوا ۖ قُل لَّا تَمُنُّوا عَلَيَّ إِسْلَامَكُم ۖ بَلِ اللَّهُ يَمُنُّ عَلَيْكُمْ أَنْ هَدَاكُمْ لِلْإِيمَانِ إِن كُنتُمْ صَادِقِينَ﴾ [الحجرات: 17].

وسألوا رسول الله ﷺ عن العيافة[3]، والكهانة وضرب الحصى، فنهاهم عن ذلك[4].

- وفد تجيب:

قدم هذا الوفد بصدقات قومه مما فضل عن فقرائهم، وكان الوفد ثلاثة عشر رجلًا[5]، وكانوا يسألون عن القرآن والسنن يتعلمونها، وسألوا رسول الله ﷺ أشياء فكتب لهم بها، ولم يطيلوا

---

(1) ابن عبد البر: الاستيعاب (3/642- 643)، وابن حجر: الإصابة (3/628- 629).

(2) من رواية الطبراني وأبي نعيم، كما ذكر محقق دلائل النبوة للبيهقي (5/350).

(3) **العيافة:** زجر الطير، والتفاؤل بأسمائها، وأصواتها، وممرها.

(4) انظر: هذا الحبيب يا محب للجزائري، ص 446.

(5) الرحيق المختوم، ص 453.

اللبث، ولما أجازهم رسول الله ﷺ بعثوا إليه غلامًا كانوا خلفوه في رحالهم، فجاء الغلام، وقال: والله ما أعملني من بلادي إلا أن تسأل الله عز وجل أن يغفر لي ويرحمني، وأن يجعل غناي في قلبي، فدعا له بذلك، فكان أقنع الناس، وثبت في الردة على الإسلام، وذكر قومه، ووعظهم، فثبتوا عليه، والتقى أهل الوفد بالنبي ﷺ مرة أخرى في حجة الوداع سنة 10هـ.

- «إذا أتاكم كريم قوم فأكرموه»:

قدم جرير بن عبد الله البجلي إلى رسول الله ﷺ، وكان ﷺ يخطب في المسجد عندما دخل جرير المدينة، وذكره الرسول ﷺ في خطبته قبل أن يدخل عليهم المسجد، فقال: «يدخل عليكم من هذا الباب – أو من هذا الفج – من خير ذي يمن، إلا أن على وجهه مسحة ملك»[1]. فأسلم على يدي الرسول ﷺ وبايعه. وأكرمه الرسول ﷺ بأن ألبسه حلته، وقال: «إذا أتاكم كريم قوم فأكرموه»[2].

والظاهر أن إسلامه كان متأخرًا عن الفتح؛ فإن الإمام أحمد روى عنه قوله: «أسلمت بعدما أنزلت المائدة، وأنا رأيت رسول الله ﷺ يمسح بعدما أسلمت»[3].

وذكر ابن سعد أن إسلامه وإسلام من كان معه في الوفد – وعددهم مائة وخمسون رجلًا – كان في العام العاشر، في رمضان، وهناك روايات أخرى تقول إن جريرًا قدم على النبي ﷺ في مائة رجل من بني بجيلة وبني قشير، وقيل وفد في سبعمائة، وقيل في خمسمائة[4].

- وفد صداء:

روى البيهقي[5] بإسناده إلى زياد بن الحارث الصدائي، أنه أتى رسول الله ﷺ، فبايعه على الإسلام، وعندما أخبر أن رسول الله ﷺ قد بعث جيشًا إلى قومه، طلب من الرسول ﷺ أن يرد الجيش ويأتيه هو بإسلام قومه وطاعتهم، ففعل الرسول ﷺ ما أراده زياد، فكتب الصدائي

---

(1) أحمد: الفتح الرباني (216/21)، والطبراني، ورجالهما ثقات.

(2) رواه البيهقي في الدلائل (347/5).

(3) البداية والنهاية (90/5).

(4) انظر: السيرة لمهدي رزق الله، ص 656- 657.

(5) دلائل النبوة (355/5- 356).

إلى قومه، فجاء وفدهم بإسلامهم، فأَمَّره على قومه، وكتب له كتبًا بذلك، وأمر له بشيء من صدقاتهم عندما طلب ذلك، وكتب له بذلك كتابًا آخر.

وعندما رافق النبي ﷺ في بعض أسفاره، سمع منه قوله في أحد العمال حين اشتكت منه رعيته: «لا خير في الإمارة لرجل مؤمن»، وسمع قوله لأحد الناس عندما طلب شيئًا من الصدقة: «من سأل الناس عن ظهر غنى فصداع في الرأس وداء في البطن»، عندما سمع زياد هذا كله رد الكتابين إلى النبي ﷺ، وأَمَّر الرسول ﷺ غيره من أفراد الوفد.

وعندما شاهد زياد معجزة خروج الماء من أصبعي الرسول ﷺ، حكى للرسول ﷺ قصة بئرهم التي يقل ماؤها في الصيف ويكثر في الشتاء، فَبَرَّك الرسول ﷺ في سبع حصيات، وطلب أن ترمى واحدة في البئر مع ذكر الله، ففعلوا، فجاشت بالماء صيفًا وشتاء، حتى لا يرى قعرها.

وكان مقدم زياد الصدائي على الرسول ﷺ بعد منصرفه من الجعرانة[1].

* * *

(1) انظر: ابن سعد (1/326)، وزاد المعاد (3/664- 669)، والسيرة لمهدي رزق الله، ص 658- 659.

الفصل السادس

بعث الصديق أميرًا على الحج وإنهاء الوثنية

لما رجع رسول الله ﷺ من تبوك، واتجهت العرب إلى المدينة، تعلن دخولها في دين الله، وكان موسم الحج، أراد ﷺ الحج، ولكنه قال: «إنما يحضر المشركون فيطوفون عراة، فلا أحب أن أحج حتى لا يكون ذلك». فأرسل أبا بكر رَضِيَ اللَّهُ عَنْهُ، وأردفه بعلي بن أبي طالب رَضِيَ اللَّهُ عَنْهُ، ينهيان المشركين عن الحج بعد ذلك العام، ويعطيانهم مهلة للدخول في الإسلام أربعة أشهر، ثم ليس بينهم وبين المسلمين بعد ذلك إلا القتال[1].

جاءت إذًا هذه الخطوة الحاسمة في العلاقات بين الإسلام والشرك في الجزيرة، وكان قد جاء موعدها، وتمهدت لها الأرض، وتهيأت لها الأحوال، وأصبحت هي الخطوة الطبيعية في أوانها المحتوم.

فلا يمكن التعايش في الجزيرة بين منهجين للحياة، بينهما هذا الاختلاف الجذري العميق، البعيد المدى، الشامل لكل جزئية من جزئيات الاعتقاد والتصور، والخلق والسلوك، والتنظيم الاجتماعي والاقتصادي والسياسي والإنساني.

منهجين؛ أحدهما يقوم على عبودية العباد لله وحده بلا شريك، والآخر يقوم على عبودية البشر للبشر، وللآلهة المدعاة، وللأرباب المتفرقة، ويقع بينهما التصادم في كل خطوة من خطوات الحياة؛ لأن كل خطوة من خطوات الحياة في أحد المنهجين لابد أن تكون مختلفة مع الأخرى، ومتصادمة معها تمامًا.

إنها لم تكن فلتة عارضة أن تقف قريش تلك الوقفة العنيدة لدعوة الله في مكة، ولا أن تحاربها هذه الحرب الجائرة في المدينة .. ولم تكن فلتة عارضة أن يقف اليهود في المدينة كذلك لهذه الدعوة، وأن يجمعهم مع المشركين معسكر واحد، وهم من أهل الكتاب، وأن يؤلب اليهود وتؤلب قريش قبائل العرب في الجزيرة في غزوة الأحزاب؛ لاستئصال شأفة ذلك الخطر الذي يتهدد الجميع، بمجرد قيام الدولة في المدينة على أساس العقيدة، وإقامة نظامها وفق ذلك المنهج

---

(1) انظر: فقه السيرة للبوطي، ص 451.

الرباني المتفرد .. إنها طبائع الأشياء .. إنها أولًا طبيعة المنهج الإسلامي التي يعرفها جيدًا ويستشعرها بالفطرة أصحاب المناهج الأخرى .. طبيعة الإصرار على إقامة مملكة الله في الأرض، وإخراج الناس كافة من عبادة العباد إلى عبادة الله وحده .. ثم إنها ثانيًا طبيعة التعارض بين منهجين للحياة، لا التقاء بينهما في كبيرة ولا صغيرة[1].

- أبو بكر أميرًا على الحج:

قال ابن إسحاق: ثم أقام رسول الله ﷺ بقية شهر رمضان وشوالًا وذا القعدة، ثم بعث أبا بكر أميرًا على الحج من سنة تسع؛ ليقيم للمسلمين حجهم، والناس من أهل الشرك على منازلهم من حجهم .. لم يُصدوا بعد عن البيت، ومنهم من له عهد مؤقت إلى أمد، فخرج أبو بكر رَضِيَ اللَّهُ عَنْهُ ومن معه من المسلمين[2].

روى البخاري في كتاب (المغازى)، عن أبي هريرة رَضِيَ اللَّهُ عَنْهُ، أن أبا بكر الصديق رَضِيَ اللَّهُ عَنْهُ بعث في الحجة التي أمَّره عليها النبي ﷺ قبل حجة الوداع يوم النحر، في رهط يؤذن في الناس: (لا يحج بعد العام مشرك، ولا يطوف بالبيت عريان).

قال الواقدي: وقد كان خرج مع أبي بكر من المدينة ثلاثمائة من الصحابة، منهم: عبد الرحمن بن عوف، وخرج أبو بكر معه بخمس بدنات، وبعث معه رسول الله ﷺ بعشرين بدنة[3].

- علي بن أبي طالب مأمورًا لا أميرًا:

فلما خرج أبو بكر رَضِيَ اللَّهُ عَنْهُ بمن معه من المسلمين، وفصل ركب الحجاج عن المدينة، أنزل الله عز وجل على رسوله هذه الآيات من أول سورة التوبة:

﴿بَرَآءَةٌ مِّنَ ٱللَّهِ وَرَسُولِهِۦٓ إِلَى ٱلَّذِينَ عَٰهَدتُّم مِّنَ ٱلْمُشْرِكِينَ ۝١ فَسِيحُوا۟ فِى ٱلْأَرْضِ أَرْبَعَةَ أَشْهُرٍ﴾، إلى قوله: ﴿ وَأَذَٰنٌ مِّنَ ٱللَّهِ وَرَسُولِهِۦٓ إِلَى ٱلنَّاسِ يَوْمَ ٱلْحَجِّ ٱلْأَكْبَرِ أَنَّ ٱللَّهَ بَرِىٓءٌ مِّنَ ٱلْمُشْرِكِينَ ۙ وَرَسُولُهُۥ ﴾ [التوبة:3] [4].

---

(1) سيد قطب: في ظلال القرآن.

(2) البداية والنهاية 46/5.

(3) المصدر السابق 47/5.

(4) المصدر السابق 44/5.

فنقضت الآيات ما بين رسول الله ﷺ وبين المشركين من العهد الذي كانوا عليه فيما بينه وبينهم:

1- أن لا يصد عن البيت أحد جاءه.

2- ولا يخاف أحد في الشهر الحرام.

وكان ذلك عهدًا عامًّا بينه وبين الناس من أهل الشرك، وكانت هناك أيضًا عهود خاصة بين رسول الله ﷺ وبين بعض قبائل العرب إلى آجال مسماة، فنقضت الآيات ذلك كله، فقال عز وجل: ﴿بَرَآءَةٌ مِّنَ ٱللَّهِ وَرَسُولِهِۦٓ إِلَى ٱلَّذِينَ عَٰهَدتُّم مِّنَ ٱلْمُشْرِكِينَ﴾، أي: لأهل العهد العام من أهل الشرك: ﴿فَسِيحُوا۟ فِى ٱلْأَرْضِ أَرْبَعَةَ أَشْهُرٍ﴾ أي: فامشوا حيثما شئتم آمنين في الأرض إلى أربعة أشهر، تبدأ من العاشر من ذي الحجة من السنة التاسعة للهجرة، وتنتهي في العاشر من ربيع الآخر من السنة العاشرة للهجرة، ولا أمان لكم بعدها؛ فإما إيمان وإما قتال .. ثم قال سبحانه: ﴿ إِلَّا ٱلَّذِينَ عَٰهَدتُّم مِّنَ ٱلْمُشْرِكِينَ ثُمَّ لَمْ يَنقُصُوكُمْ شَيْـًٔا وَلَمْ يُظَٰهِرُوا۟ عَلَيْكُمْ أَحَدًا فَأَتِمُّوٓا۟ إِلَيْهِمْ عَهْدَهُمْ إِلَىٰ مُدَّتِهِمْ ۚ إِنَّ ٱللَّهَ يُحِبُّ ٱلْمُتَّقِينَ ﴿٤﴾﴾ .. فاستثنت الآية بني ضمرة (حي من كنانة) لم ينقضوا عهد المسلمين، فأمر الله المسلمين أن يتموا إليهم عهدهم إلى نهاية مدتهم، وكان قد بقي منها تسعة أشهر، وأكد ذلك في قوله: ﴿كَيْفَ يَكُونُ لِلْمُشْرِكِينَ عَهْدٌ عِندَ ٱللَّهِ وَعِندَ رَسُولِهِۦٓ إِلَّا ٱلَّذِينَ عَٰهَدتُّمْ عِندَ ٱلْمَسْجِدِ ٱلْحَرَامِ فَمَا ٱسْتَقَٰمُوا۟ لَكُمْ فَٱسْتَقِيمُوا۟ لَهُمْ ۚ إِنَّ ٱللَّهَ يُحِبُّ ٱلْمُتَّقِينَ﴾، أي لا يجوز مطلقًا أن يبقى المسلمون مرتبطين بعهود عامة أو خاصة مع المشركين وقد غدروا ونقضوا العهود من قبل، إلا (بنو ضمرة)؛ فهؤلاء لم ينقضوا عهدهم، فأقيموا على عهدهم إلى أن تتم مدتهم.

فلما نزلت هذه الآيات دعا رسول الله ﷺ علي بن أبي طالب رضي الله عنه، وقال له: «اخرج بهذه الآيات فأذِّن (أعلم) بها في الناس إذا اجتمعوا».

قال ابن إسحاق: وحدثني حكيم بن حكيم بن عباد بن حنيف، عن أبي جعفر محمد، أنه قال:

لما نزلت براءة على رسول الله ﷺ، وقد كان بعث أبا بكر الصديق ليقيم للناس الحج، قيل له: يا رسول الله لو بعثت بها إلى أبي بكر، فقال: لا يؤدي عني إلا رجل من أهل بيتي. ثم دعا

علي بن أبي طالب رَضِيَ اللَّهُ عَنْهُ، فقال له: اخرج بهذه القصة من صدر براءة، وأذن في الناس يوم النحر إذا اجتمعوا بمنى، أنه لا يدخل الجنة كافر، ولا يحج بعد العام مشرك، ولا يطوف بالبيت عريان، ومن كان له عند رسول الله ﷺ عهد فهو له إلى مدته.

فخرج علي بن أبي طالب رَضِيَ اللَّهُ عَنْهُ على ناقة رسول الله ﷺ العضباء، حتى أدرك أبا بكر بالطريق، فلما رآه أبو بكر بالطريق، قال: أأمير أم مأمور؟ فقال بل: مأمور، ثم مضيا، فأقام أبو بكر للناس الحج، والعرب إذ ذاك في تلك السنة على منازلهم من الحج، التي كانوا عليها في الجاهلية[1].

قال الشيخ الغزالي رَحِمَهُ اللَّهُ: ورأى رسول الله أن يرسل بها عليًّا؛ تمشيًا مع عادة العرب في عهود الدماء والأموال، ألا ترى أنه قبل هجرته وكل إلى علي رد الأمانات إلى أهل مكة؟ إن أواصر القربى تقتضي التكافل التام في هذه الشئون، فكأن الرسول أدى بيده ما أداه عليٌّ عنه، وكأنه قال بلسانه في الموسم ما سيقرؤه عليٌّ بين الناس، وهي من النبي زيادة حيطة وإعذار[2].

وقال ابن كثير:

والمقصود أن رسول الله ﷺ بعث عليًّا رَضِيَ اللَّهُ عَنْهُ بعد أبي بكر الصديق رَضِيَ اللَّهُ عَنْهُ ليكون معه، ويتولى عليٌّ بنفسه إبلاغ البراءة إلى المشركين، نيابة عن رسول الله ﷺ؛ لكونه ابن عمه، من عصبته[3].

وروى الإمام أحمد بسنده، عن زيد بن يثيع (رجل من همدان)، قال: سألنا عليًّا بأي شيء بُعثت يوم بعثه رسول الله ﷺ مع أبي بكر في الحجة؟

قال: بأربع: لا يدخل الجنة إلا نفس مؤمنة، ولا يطوف بالبيت عريان، ومن كان بينه وبين رسول الله عهد فعهده إلى مدته، ولا يحج المشركون بعد عامهم هذا[4].

---

(1) السيرة النبوية، لابن هشام، ج2، ص 9.
(2) فقه السيرة، ص 452.
(3) البداية والنهاية 5/44.
(4) برقم (595)، ورواه الترمذي (866)، وقال: حديث علي حديث حسن، انظر: البداية والنهاية 5/46.

وخرجه النسائي أيضًا، وفيه قال علي: (فكنت أنادي حتى صَحِل (بح) صوتي).

- أبو بكر يخطب وعليٌّ ينادي في الناس بـ (براءة):

وخطب الصديق رَضِيَ اللَّهُ عَنْهُ قبل يوم التروية مُعلِّمًا الناس مناسكهم، ثم خطب يوم عرفة، ويوم النحر، وكان كلما خطب قام علي رَضِيَ اللَّهُ عَنْهُ، فقرأ على الناس صدر سورة براءة، ثم ينادي في الناس بهذه الأمور الأربعة:

1- لا يدخل الجنة إلا مؤمن.

2- ولا يطوف بالبيت عريان.

3- ومن كان بينه وبين رسول الله عهد، فعهده إلى مدته.

4- ولا يحج بعد العام مشرك[1].

وقال ابن إسحاق: (... حتى إذا كان يوم النحر، قام علي بن أبي طالب رَضِيَ اللَّهُ عَنْهُ، فأذن في الناس بالذي أمره به رسول الله ﷺ، فقال أيها الناس، أنه لا يدخل الجنة كافر، ولا يحج بعد العام مشرك، ولا يطوف بالبيت عريان، ومن كان له عند رسول الله ﷺ عهد فهو إلى مدته، وأجل الناس أربعة أشهر من يوم أذن فيهم، ليرجع كل قوم إلى مأمنهم أو بلادهم، ثم لا عهد لمشرك ولا ذمة، إلا أحد كان عند رسول الله ﷺ عهد إلى مدة، فهو له إلى مدته. فلم يحج بعد ذلك العام مشرك، ولم يطف بالبيت عريان.

وقد أمر الصديق أبا هريرة في رهط آخرين أن يؤذنوا في الناس يوم النحر بهذه الأمور، مساعدين لعلي؛ حتى يصل البلاغ إلى الناس جميعًا، فلم يكن ثم افتيات عليه، وإنما هي معاونة على الخير. روى البخاري ومسلم في صحيحيهما عن أبي هريرة، قال: (بعثني أبو بكر الصديق في الحجة التي أمره عليها رسول الله ﷺ قبل حجة الوداع، في رهط يؤذنون في الناس يوم النحر: لا يحج بعد العام مشرك، ولا يطوف بالبيت عريان). فكان حميد بن عبد الرحمن بن عوف يقول: يوم النحر يوم الحج الأكبر من أجل حديث أبي هريرة. وبيان ذلك: أن هذا الحديث مع الآية القرآنية ﴿ وَأَذَٰنٌ مِّنَ ٱللَّهِ وَرَسُولِهِۦٓ إِلَى ٱلنَّاسِ يَوۡمَ ٱلۡحَجِّ ٱلۡأَكۡبَرِ أَنَّ ٱللَّهَ بَرِيٓءٞ مِّنَ ٱلۡمُشۡرِكِينَ وَرَسُولُهُۥ... ﴾ يدلان على أن يوم النحر[2] هو يوم الحج الأكبر.

---

(1) انظر: السيرة لأبي شهبة، ج2، ص 536- 537.

(2) ومن السلف غيرهم من يرى أن يوم الحج الأكبر هو يوم عرفة.

وقد ذكر ابن إسحاق أن قريشًا ابتدعت قبل الفيل أو بعده أن لا يطوف أحد ممن يقدم عليهم من غيرهم أول ما يطوف إلا في ثياب أحدهم، فإن لم يجد طاف عريانًا، فإن خالف وطاف بثيابه ألقاها إذا فرغ، ثم لم ينتفع بها، فلما جاء الإسلام هدم ذلك كله فيما هدم من العقائد والخرافات. وقال ابن كثير: كانت العرب - ما عدا قريشًا - لا يطوفون بالبيت في ثيابهم التي لبسوها، يتأولون في ذلك أنهم لا يطوفون في ثياب عصوا الله فيها، وكانت قريش - وهم الحمس[1] - يطوفون في ثيابهم، ومن أعاره أحمسي ثوبًا طاف فيه، ومن معه ثوب جديد طاف فيه، ثم يلقيه فلا يتملكه، ومن لم يجد ثوبًا جديدًا ولا أعاره أحمسي ثوبًا طاف عريانًا، وربما كانت امرأة، فتطوف عريانة، فتجعل على فرجها شيئًا ليستره بعض الستر، وتقول:

اليـــوم يبـــدون بعـــضه أو كلـــه ... ومـــا بـــدا منـــه فـــلا أحلُّـــه

وأكثر ما كان الناس يطوفون عراة بالليل، وكان هذا ابتدعوه من تلقاء أنفسهم، واتبعوا فيه أهواءهم، ويعتقدون أن فعل آبائهم مستند إلى أمر من الله وشرع، فأنكر الله عليهم ذلك، فقال:

﴿ وَإِذَا فَعَلُوا فَاحِشَةً قَالُوا وَجَدْنَا عَلَيْهَا آبَاءَنَا وَاللَّهُ أَمَرَنَا بِهَا قُلْ إِنَّ اللَّهَ لَا يَأْمُرُ بِالْفَحْشَاءِ أَتَقُولُونَ عَلَى اللَّهِ مَا لَا تَعْلَمُونَ ﴾ [الأعراف: 28].

وقد كان المشركون يجتمعون مع المسلمين في الحج، فأراد الله أن لا يكون ذلك، فقد دالت دولة الشرك والأوثان، وأصبحت كلمة الله هي العليا، وقد امتثل المشركون، فلم يأت مشرك عام حجة الوداع، وانفرد المسلمون بالبيت، لا يشاركهم فيه أحد، قال الله تعالى:

﴿ يَا أَيُّهَا الَّذِينَ آمَنُوا إِنَّمَا الْمُشْرِكُونَ نَجَسٌ فَلَا يَقْرَبُوا الْمَسْجِدَ الْحَرَامَ بَعْدَ عَامِهِمْ هَذَا وَإِنْ خِفْتُمْ عَيْلَةً فَسَوْفَ يُغْنِيكُمُ اللَّهُ مِنْ فَضْلِهِ إِنْ شَاءَ إِنَّ اللَّهَ عَلِيمٌ حَكِيمٌ ﴾

[التوبة: 28][2].

- تعقيب:

لقد كان حج العام التاسع من حيث الشعائر فيه كامل الحرية للمسلمين والمشركين، دون وجود سلطة محددة تمنع هذا أو ذاك، ولكن ظهر المجتمع الإسلامي الضخم الذي يقوده أبو بكر

(1) سميت قريش بذلك لتحمسها، أي تشددها على أنفسها في عبادتها ودينها.

(2) انظر: السيرة لأبي شهبة، ج2، ص 537- 538.

رَضِيَ اللَّهُ عَنْهُ والمسلمون معه يحجون بحجه، ولا يبعد أن يكون كثير من المسلمين مع قبائلهم وفي مواقعها.

وكان هذا التجمع مناسبة طيبة لإعلان الأوامر الربانية في إنهاء الوجود الوثني في جزيرة العرب، والذي استمر عدة قرون، وفي الكعبة المشرفة.

ولقد تم خلال الحج الماضي إزالة الأصنام من مكة فقط، وكانت تظاهرة عمرة الجعرانة قبيل الحج فقط. غير أن إعلان الأحكام الإسلامية في منى يوم النحر كان من الأهمية بمكان، ويعني أن شريعة الله سوف تطبق كل أحكامها وعلى الناس جميعًا خلال مدة زمنية، أقصاها أربعة أشهر إلى السنة، فخلال سنة وحتى يحل الحج القادم، فيمكن التساهل وغض النظر عن بعض مظاهر الشرك في البيت الحرام، أما الذين كان لهم وجود قانوني ثابت من خلال عهود ومواثيق مع رسول الله ﷺ ﴿فَأَتِمُّوٓاْ إِلَيۡهِمۡ عَهۡدَهُمۡ إِلَىٰ مُدَّتِهِمۡ﴾، لكن استمرار الشرك بصورة دائمة، فهذا مرفوض في شريعة الله في مكة وجزيرة العرب؛ فالعهود المفتوحة بدون قيد، والتجمعات المشركة القائمة بدون عهد، حدد الإنذار النهائي لها أربعة أشهر لإعلان الانضمام إلى المسلمين، أو المواجهة معهم.

﴿بَرَآءَةٞ مِّنَ ٱللَّهِ وَرَسُولِهِۦٓ إِلَى ٱلَّذِينَ عَٰهَدتُّم مِّنَ ٱلۡمُشۡرِكِينَ (١) فَسِيحُواْ فِي ٱلۡأَرۡضِ أَرۡبَعَةَ أَشۡهُرٖ وَٱعۡلَمُوٓاْ أَنَّكُمۡ غَيۡرُ مُعۡجِزِي ٱللَّهِ وَأَنَّ ٱللَّهَ مُخۡزِي ٱلۡكَٰفِرِينَ (٢) وَأَذَٰنٞ مِّنَ ٱللَّهِ وَرَسُولِهِۦٓ إِلَى ٱلنَّاسِ يَوۡمَ ٱلۡحَجِّ ٱلۡأَكۡبَرِ أَنَّ ٱللَّهَ بَرِيٓءٞ مِّنَ ٱلۡمُشۡرِكِينَ وَرَسُولُهُۥۚ فَإِن تُبۡتُمۡ فَهُوَ خَيۡرٞ لَّكُمۡۖ وَإِن تَوَلَّيۡتُمۡ فَٱعۡلَمُوٓاْ أَنَّكُمۡ غَيۡرُ مُعۡجِزِي ٱللَّهِۗ وَبَشِّرِ ٱلَّذِينَ كَفَرُواْ بِعَذَابٍ أَلِيمٍ (٣) إِلَّا ٱلَّذِينَ عَٰهَدتُّم مِّنَ ٱلۡمُشۡرِكِينَ ثُمَّ لَمۡ يَنقُصُوكُمۡ شَيۡـٔٗا وَلَمۡ يُظَٰهِرُواْ عَلَيۡكُمۡ أَحَدٗا فَأَتِمُّوٓاْ إِلَيۡهِمۡ عَهۡدَهُمۡ إِلَىٰ مُدَّتِهِمۡۚ إِنَّ ٱللَّهَ يُحِبُّ ٱلۡمُتَّقِينَ (٤) فَإِذَا ٱنسَلَخَ ٱلۡأَشۡهُرُ ٱلۡحُرُمُ فَٱقۡتُلُواْ ٱلۡمُشۡرِكِينَ حَيۡثُ وَجَدتُّمُوهُمۡ وَخُذُوهُمۡ وَٱحۡصُرُوهُمۡ وَٱقۡعُدُواْ لَهُمۡ كُلَّ مَرۡصَدٖۚ فَإِن تَابُواْ وَأَقَامُواْ ٱلصَّلَوٰةَ وَءَاتَوُاْ ٱلزَّكَوٰةَ فَخَلُّواْ سَبِيلَهُمۡۚ إِنَّ ٱللَّهَ غَفُورٞ رَّحِيمٞ (٥) وَإِنۡ أَحَدٞ مِّنَ ٱلۡمُشۡرِكِينَ ٱسۡتَجَارَكَ فَأَجِرۡهُ حَتَّىٰ يَسۡمَعَ كَلَٰمَ ٱللَّهِ ثُمَّ أَبۡلِغۡهُ مَأۡمَنَهُۥۚ ذَٰلِكَ بِأَنَّهُمۡ قَوۡمٞ لَّا يَعۡلَمُونَ﴾ [التوبة] [1].

* * *

(1) انظر: المنهج الحركي، القسم الثالث، ص 194- 195.

الفصل السابع

من أخبار المجتمع المسلم في السنة التاسعة من الهجرة

في هذه السنة حدثت أحداث شغلت المجتمع المسلم، منها ما كان في بيت النبوة، ومنها ما كان بعيدًا عن بيت النبوة، ولكن كان محل اهتمام المسلمين جميعًا؛ كقتل ملك الفرس وتولي ابنته الملك، وموت رأس النفاق عبد الله بن أبي بن سلول في المدينة، بعد مرض دام عشرين ليلة، وصلاة رسول الله ﷺ عليه، كما حدثت أحداث أخرى اقتضت تشريعات لم تكن من قبل. وكل ذلك نعرض له في إيجاز فيما يلي:

المبحث الأول: من أخبار بيت النبوة

- وفاة أم كلثوم بنت النبي ﷺ:

قال الواقدي: وفي شعبان منها (أي من السنة التاسعة من الهجرة) توفيت أم كلثوم بنت رسول الله ﷺ، فغسلتها أسماء بنت عميس، وصفية بنت عبد المطلب، وقيل: غسلها نسوة من الأنصار، فيهم: أم عطية[1].

قال ابن سعد: خرجت أم كلثوم إلى المدينة لما هاجر النبي ﷺ مع فاطمة، وغيرها من عيال النبي ﷺ، فتزوجها عثمان بعد وفاة أختها رقية في ربيع الأول سنة ثلاث، وماتت عنده في شعبان سنة تسع، ولم تلد له[2].

وعن أنس رَضِيَ اللَّهُ عَنْهُ، قال: شهدنا بنت رسول الله ﷺ[3]، ورسول الله ﷺ جالس على القبر، فرأيت عينيه تدمعان، فقال: «هل فيكم من أحد لم يقارب (يجامع زوجته) الليلة؟» فقال أبو طلحة: أنا. قال: (فانزل في قبرها)، فنزل في قبرها فقبرها[4].

---

(1) البداية والنهاية 47/5.

(2) الطبقات 25/8.

(3) قال ابن حجر: هي أم كلثوم زوج عثمان، فتح الباري (188/3- 189، والأغصان الندية، ص 524).

(4) البخاري، كتاب الجنائز، باب: من يدخل قبر المرأة؟، (1342).

- **تخيير النبي ﷺ لزوجاته:**

كانت الحياة المعيشية في بيوت رسول الله ﷺ تجري على وتيرة واحدة، بالرغم من إمكانية التوسع في بعض الأحيان، ونساء الرسول ﷺ من البشر، يرغبن بما يرغب به الناس، ويشتهين ما يشتهيه الناس، فقد كانت مساكنهن متواضعة بسيطة غاية البساطة، فقد وصفها الدكتور أبو شهبة، فقال: إن الرسول ﷺ بنى حُجرًا حول مسجده الشريف لتكون مساكن له ولأهله، ولم تكن الحجر كبيوت الملوك والأكاسرة والقياصرة، بل كانت بيوتَ من ترفع عن الدنيا وزخرفها، وابتغى الدار الآخرة، فقد كانت كمسجده مبنية من اللبن والطين وبعض الحجارة، وسقوفها من جذوع النخل والجريد، قريبة الفناء، قصيرة البناء، ينالها الغلام الفارع بيده. قال الحسن البصري - وكان غلامًا مع أمه خيرة مولاة أم سلمة: قد كنت أنال أطول سقف في حجر النبي ﷺ بيدي، وكان لكل حجرة بابان: خارجي وداخلي من المسجد؛ ليسهل دخول النبي ﷺ إليه[1].

وأما الإضاءة: فلم يكن هناك مصباح يستضاء به، يدل على ذلك ما رواه البخاري عن عائشة رَضِيَ اللَّهُ عَنْهَا، قالت: كنت أنام بين يدي رسول الله ﷺ ورجلاي في قبلته، فإذا سجد غمزني، فقبضت رجلي، فإذا قام بسطتهما، قالت: والبيوت يومئذ ليس فيها مصابيح[2].

أما الفراش الذي يأوي إليه النبي - عليه أفضل الصلاة وأتم التسليم - فهو عبارة عن رمال حصير، ليس بينه وبينه فراش، قد أثر الرمال بجنبه، متكئ على وسادة من أدم حشوها ليف، فقد كانت معيشته ﷺ تدل على الشدة، فعن أنس بن مالك رَضِيَ اللَّهُ عَنْهُ قال: ما أعلم النبي ﷺ رأى رغيفًا مرققًا[3] حتى لحق بالله، ولا رأى شاة سميطًا[4] بعينه قط[5]، وعن عائشة قالت: إن كنا لننظر إلى الهلال، ثلاثة أهلة في شهرين، وما أوقدت في أبيات رسول الله ﷺ نار، فقال لها عروة بن الزبير: ما كان يعيشكم؟ قالت: الأسودان: التمر والماء[6].

---

(1) انظر: السيرة لأبي شهبة (2/35- 36).

(2) البخاري، كتاب الصلاة، رقم (513).

(3) **مرققًا:** رقيقًا، ضد الغليظ.

(4) **سميطًا:** الذي أزيل شعره بالماء المسخن وشوي.

(5) البخاري في الرقائق، رقم (6457).

(6) انظر: السيرة للصلابي، ص 857- 858.

لقد اختار النبي ﷺ لنفسه ولأهل بيته معيشة الكفاف، لا عجزًا عن حياة المتاع، فقد فتحت له الأرض، وكثرت غنائمها، وعم فيؤها، واغتنى بها من لم يكن له من قبل مال ولا زاد؛ بل استعلاءً عن متاع الحياة الدنيا، ورغبة خالصة فيما عند الله.

ولكن نساء النبي ﷺ كن نساء من البشر، لهن مشاعر البشر، وعلى فضلهن وكرامتهن وقربهن من ينابيع النبوة الكريمة، فإن الرغبة الطبيعية في متاع الحياة ظلت حية في نفوسهن. فلما أن رأين السعة والرخاء بعدما أفاض الله على رسوله وعلى المؤمنين، راجعن النبي ﷺ في أمر النفقة. فلم يستقبل هذه المراجعة بالترحيب، إنما استقبلها بالأسى وعدم الرضا. ولقد بلغ الأسى برسول الله ﷺ عن مطالبة نسائه له بالنفقة، أن احتجب عن أصحابه، وكان احتجابه عنهم أمرًا صعبًا عليهم، يهون كل شيء دونه، وجاءوا فلم يؤذن لهم[1]، فقد أخرج الإمام مسلم، عن جابر بن عبد الله رَضِيَ اللَّهُ عَنْهُمَا، قال:

دخل أبو بكر يستأذن على رسول الله ﷺ، فوجد الناس جلوسًا ببابه لم يؤذن لأحد منهم، قال: فأُذن لأبي بكر فدخل، ثم أقبل عمر فاستأذن فأُذن له، فوجد النبي ﷺ حوله نساؤه واجمًا ساكتًا، قال: فقال: لأقولن شيئًا أُضحك النبي ﷺ، فقال: يا رسول الله، لو رأيت بنت خارجة (زوجته) سألتني النفقة، فقمت إليها فوجأت عنقها، فضحك رسول الله ﷺ، وقال: «هن حولي كما ترى يسألنني النفقة». فقام أبو بكر إلى عائشة يجأ عنقها، فقام عمر إلى حفصة يجأ عنقها، كلاهما يقول: أتسألن رسول الله ﷺ ما ليس عنده، فقلن: والله! لا نسأل رسول الله شيئًا أبدًا ليس عنده، ثم اعتزلهن شهرًا أو تسعًا وعشرين، ثم نزلت عليه هذه الآية[2]: ﴿يَٰٓأَيُّهَا ٱلنَّبِيُّ قُل لِّأَزۡوَٰجِكَ إِن كُنتُنَّ تُرِدۡنَ ٱلۡحَيَوٰةَ ٱلدُّنۡيَا وَزِينَتَهَا فَتَعَالَيۡنَ أُمَتِّعۡكُنَّ وَأُسَرِّحۡكُنَّ سَرَاحٗا جَمِيلٗا ﴿٢٨﴾ وَإِن كُنتُنَّ تُرِدۡنَ ٱللَّهَ وَرَسُولَهُۥ وَٱلدَّارَ ٱلۡأٓخِرَةَ فَإِنَّ ٱللَّهَ أَعَدَّ لِلۡمُحۡسِنَٰتِ مِنكُنَّ أَجۡرًا عَظِيمٗا﴾ [الأحزاب].

فوقف زوجات النبي ﷺ من قضية التخيير موقفًا حاسمًا، لا تردد فيه، فإنهن اخترن الله ورسوله والدار الآخرة؛ فقد كن يطلبن منه ﷺ التوسعة في النفقة، وكن يدافعن عن ذلك ما استطعن، فلما وصل الأمر إلى وضعهن أمام خيارين: الحياة الدنيا وزينتها، أو الله ورسوله والدار الآخرة، لم يترددن لحظة واحدة في سلوك الخيار الثاني، بل قلن جميعهن: نريد الله ورسوله والدار الآخرة.

---

(1) سيد قطب: في ظلال القرآن مختصرًا.

(2) مسلم في الطلاق (2/1104).

فعن عائشة رَضِيَ اللَّهُ عَنْهَا، قالت: لما أمر رسول الله ﷺ بتخيير أزواجه، بدأ بي، فقال: إني ذاكر لك أمرًا، فلا عليك أن تعجلي حتى تستأمري أبويك، قالت: وقد علم أن أبوي لم يكونا يأمراني بفراقه، قالت: ثم قال: «إن الله – جل ثناؤه – قال: ﴿يَٰٓأَيُّهَا ٱلنَّبِيُّ قُل لِّأَزۡوَٰجِكَ إِن كُنتُنَّ تُرِدۡنَ ٱلۡحَيَوٰةَ ٱلدُّنۡيَا وَزِينَتَهَا فَتَعَالَيۡنَ أُمَتِّعۡكُنَّ وَأُسَرِّحۡكُنَّ سَرَاحٗا جَمِيلٗا ٢٨ وَإِن كُنتُنَّ تُرِدۡنَ ٱللَّهَ وَرَسُولَهُۥ وَٱلدَّارَ ٱلۡأٓخِرَةَ فَإِنَّ ٱللَّهَ أَعَدَّ لِلۡمُحۡسِنَٰتِ مِنكُنَّ أَجۡرًا عَظِيمٗا﴾». قالت: فقلت: ففي أي هذا أستأمر أبوي؟ فإني أريد الله ورسوله والدار الآخرة، قالت: ثم فعل أزواج رسول الله ﷺ مثل ما فعلت[1][2].

المبحث الثاني: أحداث .. وتشريعات

- موت النجاشي .. وصلاة الغائب عليه:

قال الواقدي: وفي رجب منها (أي من السنة التاسعة من الهجرة)، مات النجاشي صاحب الحبشة، ونعاه رسول الله ﷺ إلى الناس[3].

وعن أبي هريرة رَضِيَ اللَّهُ عَنْهُ، أن رسول الله ﷺ نعى للناس النجاشي في اليوم الذي مات فيه، فخرج بهم المصلى وكبر أربع تكبيرات[4].

وعن جابر بن عبد الله رَضِيَ اللَّهُ عَنْهُمَا، قال: قال رسول الله ﷺ: «مات اليوم عبد لله صالح، أصحمة (وهو اسم النجاشي)»، فقام فأمنا، وصلى عليه[5].

وقد استدل الشافعية والحنابلة بهذين الحديثين على مشروعية صلاة الغائب، ولم يثبت أن رسول الله ﷺ صلى على غائب سوى أصحمة النجاشي رَضِيَ اللَّهُ عَنْهُ، قال الذهبي: أصحمة ملك الحبشة معدود في الصحابة رَضِيَ اللَّهُ عَنْهُمْ، وكان ممن حسن إسلامه ولم يهاجر، ولا له رؤية (أي لم يرَ النبي ﷺ)؛ ولذا فهو تابعي، فهو صحابي من وجه وتابعي من وجه[6].

---

(1) البخاري، كتاب التفسير، رقم (4786).

(2) انظر: السيرة لأبي شهبة، ج2، ص 858.

(3) البداية والنهاية 47/5.

(4) متفق عليه: البخاري (1245)، كتاب الجنائز؛ ومسلم (951)، كتاب الجنائز.

(5) متفق عليه: البخاري (1320)، كتاب الجنائز؛ ومسلم (952)، كتاب الجنائز.

(6) انظر: سير أعلام النبلاء، ج1، ص 429.

- **(لن يفلح قوم ولوا أمرهم امرأة):**

وفي هذه السنة، قتل ملك الفرس، وملكوا ابنته (بوران) عليهم[1].

قال أبو بكر رَضِيَ اللَّهُ عَنْهُ: لما بلغ النبي ﷺ أن فارسًا ملكوا ابنة كسرى، قال: «لن يفلح قوم ولوا أمرهم امرأة» [2].

وقد استدل الفقهاء بهذا الحديث – وبغيره من الأدلة – على عدم تولي المرأة الولايات العامة، وفي مقدمتها منصب الحاكم أو رئيس الدولة.

قال الخطيب الشربيني: (... فلا تصح ولاية امرأة؛ لما في الصحيح: «لن يفلح قوم ولوا أمرهم امرأة»)[3].

وقال إمام الحرمين الجويني: (الباب الرابع: في صفات الإمام القوام على أهل الإسلام: ومن الصفات اللازمة المعتبرة: الذكورة ...)[4].

وقال ابن كثير: (... ولهذا كانت النبوة مختصة بالرجال، وكذلك الملك الأعظم؛ لقوله ﷺ: «لن يفلح قوم ولوا أمرهم امرأة») [5].

وقال القاضي أبو بكر بن العربي: (هذا نص في أن المرأة لا تكون خليفة، ولا خلاف فيه ...)[6]. **وقال ابن حزم الظاهري:** (وجميع فرق أهل القبلة ليس منهم أحد يجيز إمامة امرأة)[7].

- **اللعان:**

ذكر ابن سيد الناس أن في السنة التاسعة من الهجرة لاعن عويمر العجلاني امرأته[8].

(1) انظر: الأغصان الندية شرح الخلافة البهية، لمحمد طه، ص 525.
(2) صحيح البخاري (7099)، كتاب الفتن، باب رقم (18).
(3) مغني المحتاج للخطيب الشربيني (4/131).
(4) اختصار غياث الأمم لأبي المعالي الجويني، ص 32- 33.
(5) تفسير سورة النساء، آية 34.
(6) أحكام القرآن للقرطبي، تفسير سورة النمل، آية رقم 23.
(7) انظر: أحكام القرآن للقرطبي (1/271).
(8) عيون الأثر 374/2.

وقد روى البخاري ومسلم، عن سهل بن سعد الساعدي رَضِيَ اللَّهُ عَنْهُ، أن عويمرًا العجلاني جاء إلى عاصم بن عدي الأنصاري، قال له: يا عاصم، أرأيت رجلًا وجد مع امرأته رجلًا أيقتله فتقتلونه؟ أم كيف يفعل؟ سل لي يا عاصم عن ذلك رسول الله ﷺ.

فسأل عاصم رسول الله ﷺ عن ذلك، فكره رسول الله ﷺ المسائل وعابها، حتى كبر على عاصم ما سمع من رسول الله ﷺ.

فلما رجع عاصم إلى أهله جاءه عويمر، فقال: يا عاصم: ماذا قال لك رسول الله ﷺ؟

فقال عاصم لعويمر: لم تأتني بخير، قد كره رسول الله ﷺ المسألة التي سألته عنها.

فقال عويمر: والله لا أنتهي حتى أسأله عنها.

فأقبل عويمر حتى جاء رسول الله ﷺ وسط الناس، فقال: يا رسول الله، أرأيت رجلًا وجد مع امرأته رجلًا، أيقتله فتقتلونه؟ أم كيف يفعل؟

فقال رسول الله ﷺ: «قد أُنزل فيك وفي صاحبتك، فاذهب فائت بها».

قال سهل: فتلاعنا وأنا مع الناس عند رسول الله ﷺ، فلما فرغا، قال عويمر: كذَبْتُ عليها يا رسول الله إن أمسكتها. فطلقها ثلاثًا قبل أن يأمره رسول الله ﷺ.

فقال النبي ﷺ: «ذاكم التفريق بين كل متلاعنين»(1).

ونزل في عويمر وامرأته الآيات من سورة النور: ﴿وَٱلَّذِينَ يَرۡمُونَ أَزۡوَٰجَهُمۡ وَلَمۡ يَكُن لَّهُمۡ شُهَدَآءُ إِلَّآ أَنفُسُهُمۡ فَشَهَٰدَةُ أَحَدِهِمۡ أَرۡبَعُ شَهَٰدَٰتِۭ بِٱللَّهِ إِنَّهُۥ لَمِنَ ٱلصَّٰدِقِينَ ﴿٦﴾ وَٱلۡخَٰمِسَةُ أَنَّ لَعۡنَتَ ٱللَّهِ عَلَيۡهِ إِن كَانَ مِنَ ٱلۡكَٰذِبِينَ ﴿٧﴾ وَيَدۡرَؤُاْ عَنۡهَا ٱلۡعَذَابَ أَن تَشۡهَدَ أَرۡبَعَ شَهَٰدَٰتِۭ بِٱللَّهِ إِنَّهُۥ لَمِنَ ٱلۡكَٰذِبِينَ ﴿٨﴾ وَٱلۡخَٰمِسَةَ أَنَّ غَضَبَ ٱللَّهِ عَلَيۡهَآ إِن كَانَ مِنَ ٱلصَّٰدِقِينَ ﴿٩﴾ وَلَوۡلَا فَضۡلُ ٱللَّهِ عَلَيۡكُمۡ وَرَحۡمَتُهُۥ وَأَنَّ ٱللَّهَ تَوَّابٌ حَكِيمٌ﴾ [النور].

واللعان في الشرع هو: شهادات مؤكدات بالأيمان، مقرونة باللعن من جهة الزوج وبالغضب من جهة الزوجة، قائمة مقام حد القذف في حق الزوج، ومقام حد الزنى في حق الزوجة. وسمي اللعان بذلك لقول الرجل في الخامسة: أن لعنة الله عليه إن كان من الكاذبين، ولأن أحدهما كاذب لا محالة، فيكون ملعونًا.

(1) البخاري (4854)، كتاب الحدود؛ ومسلم (1492)، كتاب اللعان.

وإذا تم اللعان فإنه يترتب عليه ما يأتي:

1- سقوط حد القذف عن الزوج.

2- ثبوت الفرقة بين الزوجين، وتحريمها عليه تحريمًا مؤبدًا، ولو لم يفرق الحاكم بينهما.

3- ينتفي عنه نسب ولدها ويلحق بالزوجة، ويتطلب نفي الولد ذكره صراحة في اللعان، كقوله: (أشهد بالله إني لمن الصادقين فيما رميتها به من الزنى، وما هذا بولدي)؛ لحديث ابن عمر رضي الله عنهما: أن النبي ﷺ لاعن بين رجل وامرأته ففرق بينهما، وألحق الولد بالمرأة.

4- وجوب حد الزنى على المرأة، إلا أن تلاعن هي أيضًا، فإن رفضت الأيمان مع أيمان زوجها، كان في ذلك بينة قوية، توجب إقامة الحد عليها[1].

المبحث الثالث: موت عبد الله بن أبي بن سلول رأس المنافقين

قال الواقدي: مرض عبد الله بن أبي بن سلول في ليال بقين من شوال (من السنة التاسعة للهجرة)، ومات في ذي القعدة، وكان مرضه عشرين ليلة، فكان رسول الله ﷺ يعوده فيها[2].

قال أسامة بن زيد: دخلت مع رسول الله ﷺ على عبد الله بن أبي في مرضه، نعوده، فقال له النبي ﷺ: «قد كنت أنهاك عن حب يهود»، فقال عبد الله: قد أبغضهم أسعد بن زرارة فمات (أي: لم يمنعه بغضهم من الموت)[3].

ولما توفي عبد الله بن أبي، جاء ابنه عبد الله إلى رسول الله ﷺ، فسأله أن يعطيه قميصه يكفن فيه أباه، فأعطاه، ثم سأله أن يصلي عليه، فقام رسول الله ﷺ ليصلي عليه، فقام عمر، فأخذ بثوب رسول الله ﷺ، فقال: يا رسول الله، تصلي عليه، وقد نهاك ربك أن تصلي عليه؟ فقال رسول الله ﷺ: «إنما خيرني، فقال: ﴿ٱسْتَغْفِرْ لَهُمْ أَوْ لَا تَسْتَغْفِرْ لَهُمْ إِن تَسْتَغْفِرْ لَهُمْ سَبْعِينَ مَرَّةً فَلَن يَغْفِرَ ٱللَّهُ لَهُمْ ذَٰلِكَ بِأَنَّهُمْ كَفَرُوا۟ بِٱللَّهِ وَرَسُولِهِۦ وَٱللَّهُ لَا يَهْدِى ٱلْقَوْمَ ٱلْفَٰسِقِينَ﴾ [التوبة: 80]. وسأزيده على سبعين»، قال: إنه منافق، قال: فصلى عليه رسول الله ﷺ، فأنزل الله عز وجل آية: ﴿وَلَا تُصَلِّ عَلَىٰٓ أَحَدٍ مِّنْهُم مَّاتَ أَبَدًا وَلَا تَقُمْ عَلَىٰ قَبْرِهِۦٓ﴾ [التوبة: 84][4].

---

(1) انظر: الفقه الميسر في ضوء الكتاب والسنة، الباب السابع، اللعان.

(2) البداية والنهاية 42/5.

(3) أبو داود، كتاب الجنائز، باب في العبادة، رقم (3094).

(4) البخاري، كتاب تفسير القرآن، رقم (4670).

وإنما صلى عليه رسول الله ﷺ إجراء له على حكم الظاهر، وهو الإسلام، ولما فيه من إكرام ولده عبد الله - وكان من خيار الصحابة وفضلائهم - وهو الذي عرض على النبي أن يقتل أباه لما قال مقالته يوم غزوة بني المصطلق كما ذكرنا، ولما فيه من مصلحة شرعية، وهو استئلاف قومه ومتابعيه، فقد كان يدين له بالولاء فئة كبيرة من المنافقين، فعسى أن يرعووا عن نفاقهم، ويعتبروا، ويخلصوا لله ولرسوله، ولو لم يُجب ﷺ ابنه وترك الصلاة عليه قبل ورود النهي الصريح، لكان سُبَّة وعارًا على ابنه وقومه، فالرسول الكريم اتبع أحسن الأمرين في السياسة، إلى أن نُهي، فانتهى.

وهو لم يفعل ذلك لاعتقاده أنه يغفر له، وليس أدل على ذلك مما رواه أبو الشيخ عن قتادة: أنهم ذكروا القميص بعد نزول الآية، فقال ﷺ: «وما يغني عنه قميصي، إني لأرجو أن يُسلم به (أي: بتكفينه في قميص رسول الله ﷺ) أكثر من ألف من بني الخزرج»، أي يتخلصوا من نفاقهم، وينقادوا ظاهرًا وباطنًا لله ولرسوله، وأما إعطاؤه القميص فلأن الضن به يُخِل بالكرم، وقد كان من خلق رسول الله أن لا يرد طالب حاجة قط، على أنه كان مكافأة له على إعطائه العباس عم الرسول قميصه لما جيء به أسيرًا يوم بدر(1)، وكان من خلق رسول الله وآل بيته رد الجميل بخير منه(2).

وبموت عبد الله بن سلول تراجعت حركة النفاق في المدينة، حتى أننا لم نجد لهم حضورًا بارزًا في العام العاشر للهجرة، ولم يبق إلا العدد غير المعروف إلا لصاحب سر رسول الله ﷺ حذيفة بن اليمان، وكان عمر فيما بعد لا يصلي على جنازة من جهل حاله حتى يصلي عليه حذيفة بن اليمان؛ لأنه كان يعلم أعيان المنافقين، وقد أخبره رسول الله بهم(3).

***

(1) تفسير الألوسي، ج15، ص 154.
(2) انظر: السيرة لأبي شهبة، ج2، ص 533- 534.
(3) انظر: السيرة للصلابي، ص 855.



الباب الثالث والعشرون

العام العاشر من الهجرة

عام الحج الأكبر .. والتحرك الأكبر للدعاة

الفصل الأول: **دعاة إلى ربوع الجزيرة.**

الفصل الثاني: **حجة الوادع .**

الفصل الثالث: **من أخبار المجتمع المسلم في السنة العاشرة من الهجرة.**

الباب الثالث والعشرون

العام العاشر من الهجرة

عام الحج الأكبر .. والتحرك الأكبر للدعاة

كما أقبلت الوفود تسعى إلى رسول الله ﷺ لإعلان إسلامها، فقد أخذ هو أيضًا في العام العاشر من الهجرة يبعث رسله، يتفرقون في شتى الجهات، وخاصة في جنوب الجزيرة؛ لتعليم الناس مبادئ الإسلام وأحكامه، فقد انتشر أمر الإسلام في الجزيرة ومختلف أطرافها، وأصبحت الحاجة داعية إلى معلمين ودعاة ومرشدين، يشرحون للناس حقائق الإسلام؛ حتى يستقر في قلوبهم بعد أن انتشر في ربوعهم(1).

وفي هذا العام حج رسول الله ﷺ حجته التي لم يحج غيرها، وعرفت بحجة الوداع، وحجة البلاغ، وحجة الإسلام؛ فحجة الوداع لأنه ﷺ ودع الناس فيها ولم يحج بعدها، وحجة البلاغ: لأنه ﷺ بلغ الناس شرع الله في الحج قولًا وعملًا، ولم يكن بقي من دعائم الإسلام وقواعده شيء إلا وقد بينه، فلما بين لهم شريعة الحج ووضحه وشرحه، أنزل الله عليه وهو واقف بعرفه: ﴿ٱلۡيَوۡمَ أَكۡمَلۡتُ لَكُمۡ دِينَكُمۡ وَأَتۡمَمۡتُ عَلَيۡكُمۡ نِعۡمَتِي وَرَضِيتُ لَكُمُ ٱلۡإِسۡلَٰمَ دِينٗا﴾ [المائدة: 3](2).

الفصل الأول

دعاة إلى ربوع الجزيرة

كان رسول الله ﷺ حريصًا على تعليم الوفود التي سعت إلى المدينة لتعلن إسلامها وتنضوي تحت سيادة الدولة الإسلامية، تعاليم الإسلام وأحكامه قبل رجوعهم إلى أوطانهم، وكان ﷺ يرسل معهم من يعلمهم دينهم.

---

(1) انظر: فقه السيرة للبوطي، ص 471.

(2) انظر: السيرة لمهدي رزق الله، ص 680.

وشرع رسول الله ﷺ أيضًا يبعث دعاته إلى ربوع الجزيرة؛ لتعليم الناس مبادئ الإسلام وشرح حقائقه؛ لكي تتطهر القلوب وتشفى الصدور من أمراض الجاهلية وأدرانها الخبيثة .. فكانت بعوث وبعوث، نذكر منها ما يلي:

- **عمرو بن حزم إلى نجران:**

ذكرنا في الباب السابق أن رسول الله ﷺ أرسل خالد بن الوليد إلى بني الحارث بن كعب بنجران في ربيع الآخر أو جمادى الأولى من سنة عشر، وأمره أن يدعوهم إلى الإسلام، فإن استجابوا فاقبل منهم، وإن لم يفعلوا فقاتلهم، فخرج خالد حتى قدم إليهم، ودعاهم إلى الإسلام فأسلموا، فأقام فيهم خالد يعلمهم الإسلام وكتاب الله، وسنة نبيه، ثم أرسل إلى رسول الله كتابًا يخبره خبرهم، فكتب إليه أن يبشرهم وينذرهم، وأن يُقبِل، ويقبل معه وفدهم.

فأقبل خالد ومعه وفدهم، منهم قيس بن الحصين، فكلمهم (رسول الله ﷺ) وسألهم: «بم كنتم تغلبون من قاتلكم في الجاهلية؟»، قالوا: إنا كنا نجتمع ولا نتفرق، ولا نبدأ أحدًا بظلم، قال: «صدقتم»، ثم أمَّر عليهم قيس بن الحصين، وعادوا إلى قومهم في شوال، أو صدر ذي القعدة.

ثم بعث إليهم رسول الله ﷺ بعد أن ولَّى وفدهم عمرو بن حزم؛ ليفقههم في الدين، ويعلمهم السنة ومعالم الإسلام، ويأخذ منهم صدقاتهم، وكتب له كتابًا، عهد إليه فيه عهده، وأمره بأوامره، وبين له المنهج الذي يتبعه معهم في الحكم، والتربية، والتعليم، والتأديب، ثم ختمه بما يأخذه من المغانم، ومن الخمس، وبين له أنصبة الزكاة في الزروع وفي الإبل والبقر والغنم. وقد ذكر الكتاب بطوله الإمام محمد بن إسحاق[1] في سيرته، والنسائي في سننه، والبيهقي في السنن.

---

(1) ابن هشام، ج3، ص 594، وانظر: السيرة لأبي شهبة، ج2، ص 555.

- **علي بن أبي طالب إلى بني مَذْحج:**

وفي رمضان أرسل رسول الله ﷺ عليًّا في جمع إلى بني مَذْحج، وهي قبيلة يمانية، وعممه بيده، وقال: «سر حتى تنزل بساحتهم، فادعهم إلى قول: لا إله إلا الله، فإن قالوا: نعم فمرهم بالصلاة، ولا تبغ غير ذلك، ولأن يهدي الله بك رجلًا واحدًا خير لك مما طلعت عليه الشمس، ولا تقاتلهم حتى يقاتلوك».

فلما انتهى إليهم لقي جموعهم، فدعاهم إلى الإسلام فأبوا، ورموا المسلمين بالنبل، فصفَّ عليٌّ أصحابه وأمرهم بالقتال، فقاتلوا حتى هزموا عدوهم، فكف عن طلبهم قليلًا، ثم لحقهم ودعاهم إلى الإسلام، فأجابوا وبايعه رؤساؤهم، وقالوا: نحن على من وراءنا من قومنا، فخذ منها حق الله، ففعل(1).

- **أبو موسى الأشعري ومعاذ بن جبل إلى اليمن:**

روى البخاري في (باب: بعث أبي موسى ومعاذ إلى اليمن قبل حجة الوداع)، عن أبي بردة رَضِيَ اللَّهُ عَنْهُ، قال: بعث النبي ﷺ أبا موسى ومعاذ بن جبل إلى اليمن، قال: وبعث كل واحد منهما على مخلاف (وهي كالمحافظة في الاصطلاح الحديث) قال: واليمن مخلافان، ثم قال: «يسرا ولا تعسرا، وبشرا ولا تنفرا».

وفي رواية: «وتطاوعا ولا تختلفا».

وانطلق كل واحد منهما إلى عمله، قال: وكان كل واحد منهما إذا سار في أرضه وكان قريبًا من صاحبه، أحدث به عهدًا سلم عليه(2).

- **معاذ بن جبل:**

بعث رسول الله ﷺ معاذ بن جبل الأنصاري الخزرجي - الإمام المقدم في علم الحلال والحرام - إلى اليمن قاضيًا ومفقهًا، وأميرًا ومصدقًا (آخذ الزكاة)، وجعله على

(1) السيرة لأبي شهبة، ج2، ص 556.

(2) البخاري، الفتح (16/179- 181،حديث 4341- 4345).

أحد مخلافها وهو الأعلى، وفي طبقات ابن سعد أن النبي ﷺ كتب إلى أهل اليمن لما بعث معاذًا: «إني بعثت لكم خير أهلي»[1].

ولما خرج معاذ متوجهًا إلى اليمن، خرج معه رسول الله ﷺ يودعه ويوصيه، وفي مسند الإمام أحمد أنه ﷺ خرج مع معاذ إلى ظاهر المدينة يوصيه، ومعاذ راكب، ورسول الله ﷺ يمشي تحت راحلته، ثم قال: «يا معاذ إنك عسى أن لا تلقاني بعد عامي هذا، ولعلك أن تمر بمسجدي هذا وقبري» فبكى معاذ؛ لفراق رسول الله ﷺ[2]. وفي لفظ: فقال النبي ﷺ: «لا تبك يا معاذ؛ للبكاء أوان، إن البكاء من الشيطان»، ثم التفت فأقبل بوجهه نحو المدينة، فقال: «إن أولى الناس بي المتقون، من كانوا وحيث كانوا»[3]. وبين له أنصبة الزكاة[4]. ولبث معاذ رَضِيَ اللَّهُ عَنْهُ في اليمن إلى ما بعد وفاة رسول الله ﷺ، فكان الأمر كما أخبر به ﷺ[5].

ومما أوصى به رسول الله ﷺ معاذًا رَضِيَ اللَّهُ عَنْهُ حين بعثه: «إنك ستأتي قومًا أهل كتاب، فإذا جئتهم فادعهم إلى أن يشهدوا أن لا إله إلا الله وأن محمدا رسول الله، فإن هم أطاعوا لك بذلك، فأخبرهم أن الله قد فرض عليهم خمس صلوات في كل يوم وليلة، فإن هم أطاعوا لك بذلك، فأخبرهم أن الله قد فرض عليهم صدقة، تؤخذ من أغنيائهم فترد على فقرائهم، فإن هم أطاعوا لك بذلك، فإياك وكرائم أموالهم، واتق دعوة المظلوم؛ فإنه ليس بينه وبين الله حجاب»[6].

وقال الرسول ﷺ أيضًا لمعاذ رَضِيَ اللَّهُ عَنْهُ: «كيف تصنع إذا عرض لك قضاء؟» قال:

---

(1) السيرة لأبي شهبة، ج2، ص 558.

(2) مسند أحمد 214/21.

(3) أحمد: الفتح الرباني (215/21)، وقال الساعاتي: (وسنده جيد، ورجاله ثقات).

(4) أحمد: المسند (115/5)، والفتح الرباني (219/8- 220).

(5) فقه السيرة للبوطي، ص 473.

(6) البخاري، الفتح (1183/16، حديث 4341).

أقضي بما في كتاب الله، قال: «فإن لم يكن في كتاب الله؟»، قال: فبسنة رسول الله ﷺ، قال: فإن لم يكن في سنة رسول الله ﷺ؟، قال: أجتهد وإني لا آلو، فضرب رسول الله ﷺ صدره، ثم قال: «الحمد لله الذي وفق رسول رسول الله لما يرضي رسول الله ﷺ»(1).

- **أبو موسى الأشعري:**

وكذلك بعث رسول الله ﷺ أبا موسى الأشعري رَضِيَ اللَّهُ عَنْهُ – وهو يمني الأصل – إلى مخلاف اليمن الآخر، وهو الأسفل، قاضيًا ومفقهًا وأميرًا ومصدقًا.

وقد سأل أبو موسى رَضِيَ اللَّهُ عَنْهُ رسول الله ﷺ عن أشربة تصنع في بلاده (اليمن)؛ فقد كان عالمًا فطنا حاذقًا، يتحرى معرفة الحلال والحرام.

فروى البخاري عن سعيد بن أبي بردة، عن أبيه، عن أبي موسى الأشعري رَضِيَ اللَّهُ عَنْهُ، أن رسول الله ﷺ بعثه إلى اليمن، فسأله عن أشربة تصنع بها، فقال: ما هي؟ قال: البِتْع، والمِزْر.

فقلت لأبي بردة: ما البِتْع؟

قال: نبيذ العسل، والمِزْر: نبيذ الشعير.

فقال ﷺ: «كل مسكر حرام».

- **إرسال علي بن أبي طالب إلى اليمن وإسلام همدان:**

في هذه السنة العاشرة من هجرة الحبيب ﷺ، بعث النبي ﷺ علي بن أبي طالب رَضِيَ اللَّهُ عَنْهُ إلى اليمن، وقد كان أرسل قبله خالد بن الوليد رَضِيَ اللَّهُ عَنْهُ إليهم يدعوهم إلى الإسلام، فلم يجيبوه، فأرسل عليًّا، وأمره أن يُقْفِل خالدًا (أي يأمره بالرجوع إلى المدينة) أو من شاء من أصحابه ففعل(2).

---

(1) أبو داود: السنن (18- 19)، ك: الأقضية، حديث (3592)، والترمذي: السنن (8/5)، ك: الأحكام، حديث (1327).

(2) هذا الحبيب يا محب للجزائري، ص 463.

وكان من مهام علي رَضِيَ اللَّهُ عَنْهُ أن يقبض خمس الغنائم التي غنمها خالد وهو يجاهد في اليمن، ووكل إليه القضاء أيضًا. وقد روى أحمد وأبو داود والترمذي، عن علي رَضِيَ اللَّهُ عَنْهُ قال:

بعثني النبي صَلَّى اللَّهُ عَلَيْهِ وَسَلَّمَ إلى اليمن، فقلت: يا رسول الله، تبعثني إلى قوم أسن مني وأنا حديث السن لا أبصر القضاء؟ فوضع يده على صدري، وقال: «اللَّهم ثبت لسانه، واهد قلبه»، وقال: «يا علي، إذا جلس إليك الخصمان، فلا تقض بينهما حتى تسمع من الآخر؛ فإنك إن فعلت ذلك تبين لك». قال علي: فما أشكل علي قضاء بعد[1]، ثم رجع علي رَضِيَ اللَّهُ عَنْهُ إلى رسول الله صَلَّى اللَّهُ عَلَيْهِ وَسَلَّمَ، فوافاه بمكة في حجة الوداع[2].

وقد ضرب علي رَضِيَ اللَّهُ عَنْهُ أروع الأمثلة في أداء الأمانة التي أنيطت به، ومن أمثلة ذلك أن أصحابه عندما طلبوا منه أن يركبوا ويريحوا على إبل الصدقة؛ بحجة أن بإبلهم خللًا وضعفًا، أبى عليهم ذلك، وقال: «إنما لكم منها سهم كما للمسلمين»، وعندما ذهب إلى الحج سأل أصحابه خليفته ما كان علي منعهم إياه، فوافق على ذلك، فلما جاء علي عرف أن الإبل قد رُكبت، فذم خليفته ولامه، وعد بعض أصحاب عليّ ذلك منه غلظة وتضييقًا ، فشكاه أبو سعيد الخدري إلى النبي صَلَّى اللَّهُ عَلَيْهِ وَسَلَّمَ، فوافق الرسول صَلَّى اللَّهُ عَلَيْهِ وَسَلَّمَ على هذا المسلك من علي، فندم أبو سعيد الخدري على شكواه، وقال: «... والله لا أذكره بسوء أبدًا سرًّا ولا علانية»[3]، وعندما اشتكى الجند عليًّا إلى رسول الله صَلَّى اللَّهُ عَلَيْهِ وَسَلَّمَ - بحجة اشتداده في معاملتهم - قال: «أيها الناس، لا تشكوا عليًّا فوالله إنه لأخيشن في ذات الله، أو في سبيل الله، (من أن يشكى)»[4]، وقال: «من كنت مولاه فعلي مولاه»[5]، وفي رواية: «فمن كنت مولاه، فإن عليًّا مولاه، اللَّهم وال من والاه وعاد من عاداه»[6]. وكان ذلك عندما استرجع عليّ

---

(1) فتح الباري، ج8، ص 53.

(2) السيرة لأبي شهبة، ج2، ص 561.

(3) البيهقي: دلائل النبوة (5/398- 399)، ومسند أحمد (3/86).

(4) ابن هشام (4/333).

(5) ابن كثير: البداية والنهاية (5/235).

(6) المصدر السابق (5/235).

حللا وزعها عليهم نائبه، فاشتكوه، فقام الرسول ﷺ خطيبًا في الناس في اليوم الثامن عشر من ذي الحجة بغدير خُم حين منصرفه من الحج.

لقد نجح علي رَضِيَ اللَّهُ عَنْهُ في المهمة التي لم ينجح فيها خالد رَضِيَ اللَّهُ عَنْهُ؛ فقد أقام خالد ستة أشهر يدعو الناس إلى الإسلام فلم يجيبوه، وعندما قدم عليٌّ اليمن، ودعا همدان إلى الإسلام أجابوه جميعًا، فكتب عليٌّ إلى رسول الله ﷺ بإسلامهم، فلما قرأ رسول الله ﷺ الكتاب خر ساجدًا، ثم رفع رأسه، فقال: «السلام على همدان، السلام على همدان»[1][2].

* * *

(1) رواه البيهقي في الدلائل (5/396- 397)، وأصل الحديث في البخاري، الفتح (16/184، حديث 4349).

(2) السيرة لمهدي رزق الله، ص 679.

الفصل الثاني

حجة الوداع

تمت أعمال الدعوة، وإبلاغ الرسالة، وبناء مجتمع جديد على أساس إثبات الألوهية لله، ونفيها عن غيره، وعلى أساس رسالة محمد ﷺ، وكأن هاتفًا خفيًّا انبعث في قلب رسول الله ﷺ، يشعره أن مقامه في الدنيا قد أوشك على النهاية، حتى إنه حين بعث معاذًا على اليمن سنة 10 هـ قال له – فيما قال: «معاذ، إنك عسى أن لا تلقاني بعد عامي هذا، ولعلك أن تمر بمسجدي هذا وقبري»، فبكى معاذ خشوعًا لفراق رسول الله ﷺ.

وشاء الله أن يرى رسوله ﷺ ثمار دعوته، التي عانى في سبيلها ألوانًا من المتاعب بضعًا وعشرين عامًا، فيجتمع في أطراف مكة بأفراد قبائل العرب وممثليها، فيأخذوا منه شرائع الدين وأحكامه، ويأخذ منهم الشهادة على أنه أدى الأمانة، وبلغ الرسالة، ونصح الأمة[1].

والحج هذه المرة جاء مغايرًا لما ألفه الناس في جاهليتهم .. وقد مهد الصديق وعلي بن أبي طالب رَضِيَ اللَّهُ عَنْهُ لذلك بالحج سنة تسع حين علا النداء: ... لا يطوف بالبيت عريان، ولا يحج المشركون بعد عامهم هذا. ونزلت الآيات من سورة «براءة»؛ لتنقض ما بين رسول الله ﷺ والمشركين من عهد، فلم يشهد الحج في ذلك العام كافر أو مشرك، وأدى الناس مناسكهم على ما شرعه الله لهم من لدن إبراهيم عَلَيْهِ السَّلَامُ، فأخذوها عن رسول الله ﷺ قولًا وعملًا، وذكرهم رسول الله ﷺ بأصول الإسلام وأركانه وأهم شرائعه، وأشهد الله، وأشهدهم على ذلك.

- **الأذان بالحج:**

ولم يكد يحل شهر ذي القعدة من هذا العام حتى أخذ رسول الله في التجهز للحج، وأذن في الناس بذلك، وأمرهم بالتجهز، فصادفت الدعوة هوى في النفوس، فجاء الناس من كل فج وصوب .. من القرى والبوادي، والسهل والجبل، والوديان والصحاري،

(1) الرحيق المختوم، ص 458.

مشاة وركبانًا، تحدوهم الرغبة الصادقة في حج بيت الله مهوى القلوب، ومثابة الناس، والحرص على أن يحظوا بالشرف الرفيع، شرف مصاحبة الرسول، والنظر إليه، والسماع منه، وضُربت حول المدينة الخيام لمائة ألف أو يزيدون، وحد بينهم الإسلام، وربط قلوبهم على المحبة والإخاء، بعد أن كانوا أوزاعًا متفرقين، وأعداء متنابذين[1].

روى الإمام مسلم بسنده، عن جابر بن عبد الله رَضِيَ اللَّهُ عَنْهُمَا، قال: (مكث رسول الله ﷺ بالمدينة المنورة تسع سنين لم يحج، ثم أذن في الناس في العاشرة أن رسول الله ﷺ حاج، فقدم المدينة بشر كثير، كلهم يلتمس أن يأتم برسول الله، ويعمل مثل عمله)[2].

ووافاه ﷺ في الطريق خلائق لا يحصون، فكانوا من بين يديه ومن خلفه، وعن يمينه، وعن شماله، مد البصر[3]. فقد علمت وفود الله من أهل الموسم أن رسول الله ﷺ هو في هذا العام أمير حجهم، ومعلمهم مناسكهم[4].

- **خروجه ﷺ من المدينة:**

روى البخاري، عن ابن عباس رَضِيَ اللَّهُ عَنْهُمَا، قال: انطلق النبي ﷺ من المدينة بعدما ترجل (مشط شعره)، وادهن (طلاه بالطيب)، ولبس إزاره ورداءه، ولم ينه عن شيء من الأردية (جمع رداء) ولا الأزر (جمع إزار) إلا المزعفرة، حتى استوى على البيداء، وذلك لخمس بقين من ذي القعدة، فقدم مكة لخمس خلون من ذي الحجة.

وروى ابن إسحاق عن عائشة رَضِيَ اللَّهُ عَنْهَا، قالت: خرج رسول الله ﷺ إلى الحج لخمس ليال بقين من ذي القعدة[5].

---

(1) انظر: السيرة لأبي شهبة، ج2، ص 576-568.

(2) مسلم (1887/2، حديث 1218).

(3) السيرة النبوية للندوي (ص 386)، والسيرة للصلابي (ص 870).

(4) فقه السيرة للغزالي، ص 486.

(5) ابن هشام (330/4).

وقال ابن حزم: خرج رسول الله ﷺ من المدينة يوم الخميس، وبات بذي الحليفة ليلة الجمعة، وأصبح بها يوم الجمعة، وهو اليوم الخامس والعشرين من ذي القعدة[1].

وجزم ابن حجر في الفتح وابن سعد في طبقاته، أنه ﷺ خرج في يوم سبت[2].

واستعمل ﷺ على المدينة أبا دجانة (وقيل سباع بن عرفطة)، وخرج والمسلمون معه بعد أن صلى الظهر بالمدينة أربعًا[3].

روى البخاري، عن أنس بن مالك، قال: صلى رسول الله ﷺ ونحن معه الظهر بالمدينة أربعًا، والعصر بذي الحليفة ركعتين.

أما عن رَحْلِه ﷺ فقد روى الحافظ أبو يعلى الموصلي في مسنده، عن أنس بن مالك رَضِيَ اللَّهُ عَنْهُ، قال: حج رسول الله ﷺ على رحل رث وقطيفة تساوي (أو قال: لا تساوي) أربعة دراهم، فقال: «اللّهم حجة لا رياء فيها»[4].

وروى الإمام أحمد عن إسحاق بن سعيد، عن أبيه، قال: صدرت مع ابن عمر، فمرت بنا رفقة يمانية ورحالهم الأدم[5]، وخطم[6] إبلهم الجرر، فقال عبد الله (أي ابن عمر): من أحب أن ينظر إلى أشبه رفقة - وردت العام - برسول الله ﷺ وأصحابه إذا قدموا في حجة الوداع، فلينظر إلى هذه الرفقة.

- **الإحرام من ذي الحليفة:**

صلى رسول الله ﷺ - كما تقدم - الظهر بالمدينة أربعًا، ثم ركب فيها إلى ذي الحليفة، وهي وادي العقيق، صلى بها العصر ركعتين، فدل على أنه جاء ذا الحليفة نهارًا في وقت

(1) انظر: البداية والنهاية 5/188.

(2) فقه السيرة للبوطي، ص 475.

(3) انظر: السيرة النبوية للندوي (ص 386)، وصحيح السيرة النبوية (ص 664).

(4) البداية والنهاية 5/ 130، وقال ابن كثير: وقد رواه الترمذي في (الشمائل) وسفيان الثوري وابن ماجه.

(5) الجلد.

(6) الزمام الذي يقاد به الجمل.

العصر، فصلى بها العصر قصرًا، وهي من المدينة على ثلاثة أميال، ثم صلى بها المغرب والعشاء، وبات بها حتى أصبح، فصلى بأصحابه، وأخبرهم أنه جاءه الوحي من الليل بما يعتمده في الإحرام، كما روى الإمام أحمد عن عبد الله بن عمر رَضِيَ اللَّهُ عَنْهُمَا، عن النبي ﷺ أنه أتى في المعرس من ذي الحليفة، فقيل له: إنك ببطحاء مباركة.

وكما روى البخاري عن ابن عمر أيضًا، أنه قال: سمعت رسول الله ﷺ بوادي العقيق يقول: «أتاني الليلة آت من ربي، فقال: صل في هذا الوادي المبارك، وقل: عمرة في حجة».

فالظاهر أن أمره ﷺ بالصلاة في وادي العقيق، هو أمر بالإقامة به إلى أن يصلي صلاة الظهر؛ لأن الأمر إنما جاء في الليل، وأخبرهم بعد صلاة الصبح، فلم يبق إلا صلاة الظهر، فأمر أن يصليها هناك، وأن يوقع الإحرام بعدها.

وقد امتثل ﷺ ذلك، فأقام هناك، وطاف على نسائه في تلك الصبيحة، وكن تسع نسوة، وكلهن خرج معه، ولم يزل هنالك حتى صلى الظهر[1].

وقبل أن يصلي الظهر اغتسل لإحرامه، ثم طيبته عائشة بيدها بذريرة[2] وطيب فيه مسك، في بدنه ورأسه، حتى كان وبيص[3] الطيب يرى في مفارقه ولحيته، ثم استدامه ولم يغسله، ثم لبس إزاره ورداءه، ثم صلى الظهر ركعتين، ثم أهلَّ بالحج والعمرة في مصلاه، وقرن بينهما[4]، ثم أنه ﷺ أشعر الهدي وقلده، وكان معه بذي الحليفة، وقد روى مسلم عن ابن عباس رَضِيَ اللَّهُ عَنْهُمَا، أن رسول الله ﷺ لما أتى ذا الخليفة، دعا بناقته فأشعرهما في صفحة سنامها الأيمن، وسلت الدم، وقلدها نعلين، ثم ركب راحلته[5].

---

(1) انظر: البداية والنهاية 133/5.

(2) **الذريرة:** الطيب المسحوق من عود الوج، وهو نبات عشبي رائحته زكية.

(3) وبيص: بريق.

(4) الرحيق المختوم، ص 459.

(5) قال ابن كثير في البداية والنهاية 134/5: وقد رواه أهل السنن الأربعة عن قتادة.

وإشعار الهدي المقصود به: أن يشق صفحة سنام الهدي الأيمن يسيرًا، ويسلت عنه الدم، والتقليد: هو وضع قلادة على الهدي؛ ليعرف به من بين سائر الأنعام؛ وذلك لمنع الاعتداء عليها، حيث كانت العرب تعظم الهدي، فإذا كان مشعرًا لم يتعرضوا له. وقد ذكر ذلك القرطبي في تفسير آية: ﴿لَا تُحِلُّوا شَعَائِرَ اللَّهِ﴾ [المائدة:2]، وذكر قولًا لابن عباس في ذلك[1].

ثم ركب رسول الله ﷺ ناقته (القصواء) فأهلَّ، ثم أهل لما استقلت به على البيداء، ثم سار وهو يلبي، ويقول: (لبيك اللّهم لبيك، لبيك لا شريك لك لبيك، إن الحمد والنعمة لك والملك، لا شريك لك)[2].

وروى الإمام أحمد عن جابر بن عبد الله رَضِيَ اللَّهُ عَنْهُمَا، أن رسول الله ﷺ لما أتى ذا الحليفة نفست أسماء بنت عميس بمحمد بن أبي بكر، فأرسلت إلى رسول الله ﷺ كيف أصنع؟ قال: «اغتسلي ثم استثفري بثوب (أي تحفظي) به ثم أهلي».

وقد اختلفت الروايات في الصحيحين وغيرهما من كتب الحديث والسير في صفة إحرامه ﷺ اختلافًا كبيرًا، واختلف كذلك أئمة العلم والفقه والحديث: أكان رسول الله ﷺ مفردًا، أم قارنًا، أم متمتعًا[3]؟ فمنهم من يرى أنه ﷺ أهل بالحج مفردًا، ومنهم من يرى أنه قرن مع حجته عمرة، وروى بعضهم أنه دخل مكة متمتعًا بعمرة، ثم أضاف إليها حجة[4].

ومكان ذلك كله أبواب الحج من كتب فقه العبادات، وقد أفرد لها العلماء أبوابًا، بل وكتبًا، تناولوا ما جاء فيها من مناسك الحج وأحكامه، لمن أراد أن يرجع إليها.

---

(1) فتوى رقم: 1104، أحكام الهدي، الشيخ: سليمان الماجد.

(2) البخاري، كتاب الحج، باب التلبية (رقم 1549).

(3) السيرة لأبي شهبة، ج2، ص 569.

(4) انظر: فقه السيرة للبوطي، ص 475.

- **في الطريق إلى مكة:**

سار رسول الله ﷺ والمسلمون، وهم يلبون ويكبرون ويهللون، لا ينفكون عن ذلك كلما علوا شرفًا (مكانًا عاليًا) أو هبطوا واديًا، وتجاوبت الأصداء بالتوحيد والتهليل، وشهدت الصحراء هذا المشهد الفريد، الذي لم تشهد له مثيلًا من قبل[1].

وقد كان المسلمون يرفعون أصواتهم بالتلبية لأنهم أمروا بذلك؛ فقد روى الإمام أحمد عن زيد بن خالد الجهني، قال: قال رسول الله ﷺ: «جاءني جبرائيل، فقال: يا محمد، مر أصحابك فليرفعوا أصواتهم بالتلبية؛ فإنها شعار الحج»[2].

ومضى رسول الله ﷺ حتى نزل بـ (العرج) ثم سار حتى أتى (الأبواء) فوادي (عسفان) في (سرف)، فأمر من أحرم بالحج ولم يسق الهدي أن يجعل حجه عمرة، وبين لعائشة رَضِيَ اللَّهُ عَنْهَا ما تفعله وقد حاضت.

روى ابن إسحاق عن عائشة رَضِيَ اللَّهُ عَنْهَا، قالت: (... حتى إذا كان بـ (سرف) وقد ساق رسول الله ﷺ معه الهدي وأشراف من أشراف الناس، أمر الناس أن يحلو بعمرة، إلا من ساق الهدي، قالت: وحضت ذلك اليوم، فدخل عليَّ وأنا أبكي، فقال: «ما لك يا عائشة؟ لعلك نفست؟»، قالت: قلت نعم، والله لوددت أني أخرج معكم عامي في هذا السفر، فقال: «لا تقولن ذلك؛ فإنك تقضين كل ما يقضي الحاج، إلا أنك لا تطوفين بالبيت».

ثم نهض رسول الله ﷺ حتى انتهى مسيره إلى (ذي طوى)، وهو قريب من مكة، متاخم لحرمها، فأمسك عن التلبية؛ لأنه قد وصل إلى المقصود، وبات بذلك المكان حتى أصبح، فصلى هنالك الصبح في المكان الذي وصفه أصحابه رَضِيَ اللَّهُ عَنْهُمْ في أحاديثهم أنه

---

(1) السيرة لأبي شهبة، ج2، ص 568.

(2) ذكر ابن كثير في البداية والنهاية 163/5، أن ابن ماجه، وشعبة، وعبد الرزاق وموسى بن عقبة، قد رووا مثله.

بين فرضتي الجبل الطويل هنالك، ثم اغتسل ﷺ؛ لأجل دخول مكة، ثم ركب ودخلها نهارًا جهرة علانية من الثنية العليا التي بالبطحاء[1].

- **دخول مكة والبيت:**

دخل رسول الله ﷺ صباح يوم الأحد لأربع ليالٍ خلون من ذي الحجة، سنة 10هـ، وقد قضى في الطريق ثمان ليال[2]. فلما وقع بصره ﷺ على البيت، رفع يديه وكبر، وقال: «اللّهم أنت السلام ومنك السلام، فحينا ربنا بالسلام، اللّهم زد هذا البيت تشريفًا وتعظيمًا وتكريمًا ومهابة وبرًّا، وزد من حجه أو اعتمره تكريمًا وتشريفًا وتعظيمًا وبرًّا»[3].

ثم دخل ﷺ البيت - كما روى البيهقي[4]، عن عطاء بن أبي رباح - من باب بني شيبة، وباب بني شيبة هو الباب الذي دخل منه ﷺ قبل البعثة يوم أن أرادت قريش وضع الحجر الأسود بعد بنائها للبيت، واتفقوا أن يضعه أول من يدخل من هذا الباب (باب بني شيبة)، فدخل رسول الله ﷺ منه، وأمر بثوب فوضع الحجر في وسطه، وأمر كل بطن منهم أن يأخذ بطائفة من الثوب، فرفعوه، وأخذه رسول الله ﷺ فوضعه.

وطاف رسول الله ﷺ وهو راكب ناقته، يستلم الحجر الأسود بمحجن في يده؛ لأجل أن يراه الناس فيقتدوا به ويسألوه، ولأجل أن لا يصرف عنه الناس؛ فقد غشوه من كل جانب، وطاف بطوافه المسلمون، وأمرهم أن يضطبعوا ويرملوا في الأشواط الثلاثة الأولى، ويمشوا على هيئتهم في الأربعة الباقية، حتى إذا فرغ من طوافه أتى مقام إبراهيم وهو يتلو قول الله تعالى: ﴿وَٱتَّخِذُواْ مِن مَّقَامِ إِبْرَٰهِـۧمَ مُصَلًّى﴾ [البقرة:125]، فصلى وراءه ركعتين، ثم استلم الحجر مرة أخرى.

---

(1) انظر: البداية والنهاية 5/170.

(2) الرحيق المختوم، ص 459.

(3) رواه البيهقي، انظر: البداية والنهاية 5/170.

(4) المصدر السابق.

ثم خرج من باب بني مخزوم إلى الصفا، وهو يقرأ قول الله تعالى: ﴿إِنَّ ٱلصَّفَا وَٱلْمَرْوَةَ مِن شَعَآئِرِ ٱللَّهِ﴾ [البقرة:158] الآية، وقال: «أبدأ بما بدأ الله به»، فصعد عليه، حتى عاين البيت، فاستقبله قائلًا: «لا إله إلا الله وحده لا شريك له، له الملك وله الحمد، وهو على كل شيء قدير، لا إله إلا الله، أنجز وعده، وصدق عبده، وهزم الأحزاب وحده»، ثم نزل إلى المروة، ثم رجع إلى الصفا، وهكذا، حتى أتم سبعة أشواط.

فلما فرغ من السعي بينهما، أمر أصحابه بأن من لم يكن معه هدي فليجعل حجه عمرة وليتحلل منها، فتباطأ بعض الصحابة في ذلك؛ تأسفًا على عدم الاقتداء به، فطيب خاطرهم، وبين لهم السبب في عدم تحلله، فقال: «لو استقبلت من أمري ما استدبرت لما سقت الهدي، ولجعلتها عمرة»، فحل الناس كلهم وقصروا، ولم يبق محرمًا إلا النبي ومن ساق معه الهدي(1).

- **نزول النبي ﷺ بالأبطح:**

ثم سار - صلوات الله وسلامه عليه - بعد فراغه من طوافه بين الصفا والمروة، وأمره بالفسخ لمن لم يسق الهدي، والناس معه حتى نزل بالأبطح شرقي مكة، فأقام هنالك بقية يوم الأحد، ويوم الاثنين، والثلاثاء، والأربعاء، حتى صلى الصبح من يوم الخميس، كل ذلك يصلي بأصحابه هنالك، ولم يعد إلى الكعبة من تلك الأيام كلها.

روى البخاري عن ابن عباس رَضِيَ ٱللَّهُ عَنْهُمَا، قال: قدم النبي ﷺ مكة، فطاف سبعًا، وسعى بين الصفا والمروة، ولم يقرب الكعبة بعد طوافه بها، حتى رجع من عرفة.

وقدم في هذا الوقت ورسول الله ﷺ بالبطحاء خارج مكة علي بن أبي طالب رَضِيَ ٱللَّهُ عَنْهُ من اليمن، وكان النبي ﷺ قد بعثه (كما قدمنا) إلى اليمن أميرًا بعد خالد بن الوليد رَضِيَ ٱللَّهُ عَنْهُ، فلما قدم وجد زوجته فاطمة بنت رسول الله ﷺ قد حلت كما حل

---

(1) انظر: السيرة لأبي شهبة، ج2، ص 570- 571.

أزواج رسول الله ﷺ والذين لم يسوقوا الهدي، واكتحلت، ولبست ثيابًا صبيغًا، فقال: من أمرك بهذا؟

قالت: أبي:

فذهب محرشًا (محرضًا) عليها إلى رسول الله ﷺ، فأخبره أنها حلت، ولبست ثيابًا صبيغًا واكتحلت، وزعمت أنك أمرتها بذلك يا رسول الله.

فقال: «صدقت، صدقت، صدقت».

ثم قال له رسول الله ﷺ: «بم أهللت حين أوجبت الحج؟»

قال: بإهلال كإهلال النبي ﷺ.

قال: «فإن معي الهدي فلا تحل».

فكان جماع الهدي الذي جاء به علي رَضِيَ اللَّهُ عَنْهُ من اليمن، والذي أتى به رسول الله ﷺ من المدينة واشتراه في الطريق مائة من الإبل، واشتركا في الهدي جميعًا، وقد تقدم هذا كله في صحيح مسلم رَحِمَهُ اللَّهُ (1).

وكان أبو موسى الأشعري رَضِيَ اللَّهُ عَنْهُ في جملة من قدم مع علي، ولكنه لم يسق هديًا، فأمره رسول الله ﷺ بأن يحل بعدما طاف للعمرة وسعى، ففسخ حجه إلى العمرة، وصار متمتعًا، فكان يفتي بذلك في أثناء خلافة عمر بن الخطاب رَضِيَ اللَّهُ عَنْهُ، فلما رأى عمر أن يفرد الحج عن العمرة، ترك أبو موسى رَضِيَ اللَّهُ عَنْهُ فتياه؛ مهابة لأمير المؤمنين عمر رَضِيَ اللَّهُ عَنْهُ(2).

وقد ضرب لرسول الله ﷺ وهو بالأبطح قبة حمراء، كان فيها مدة إقامته هناك، ولم يزل ﷺ يقصر الصلاة حتى أتى المدينة.

---

(1) البداية والنهاية، 5/185، 186.

(2) المصدر السابق.

روى أحمد بسنده عن عون بن أبي جحيفة، عن أبيه، قال: أتيت النبي ﷺ بالأبطح وهو في قبة له حمراء، فخرج بلال بفضل وضوئه (أي وضوء النبي ﷺ)، فمن ناضح ونائل (أي تسابق الناس على فضل وضوئه تبركًا).

قال: فأذن بلال، فكنت أتتبع فاه هكذا وهكذا - يعني: يمينًا وشمالًا.

قال: ثم ركزت له عنزة (عصا أقصر من الرمح، لها سنان)، فخرج رسول الله ﷺ وعليه جبة له حمراء، أو حلة حمراء، وكأني أنظر إلى بريق ساقيه، فصلى بنا إلى العنزة (أي جعلها في قبلته) الظهر أو العصر ركعتين، تمر المرأة والكلب والحمار لا يُمْنَع (أي تمر بين الصفوف)، ثم لم يزل يصلي ركعتين حتى أتى المدينة(1).

وفي رواية عند أحمد عن أبي جحيفة أيضًا: (... ثم قام الناس فجعلوا يأخذون يده فيمسحون بها وجوههم. قال: فأخذت يده فوضعتها على وجهي، فإذا هي أبرد من الثلج، وأطيب ريحًا من المسك(2).

- **يوم التروية بمنى:**

وفي يوم الخميس الثامن من ذي الحجة، صلى رسول الله ﷺ الصبح بالأبطح، وهو يوم التروية، وقد ذكر ابن قدامة في (المغني) سبب تسمية اليوم الثامن من ذي الحجة بيوم التروية، فقال: سمي بذلك لأنهم كانوا يتروون من الماء فيه في مكة، ويخرجون به إلى منى (حيث كان معدومًا في تلك الأيام)؛ ليكفيهم حتى اليوم الأخير من أيام الحج، وقيل سمي بذلك لأن إبراهيم عَلَيْهِ السَّلَامُ رأى تلك الليلة في المنام ذبح ابنه، فأصبح يروي في نفسه أهو حلم؟ أم من الله. فسمي يوم التروية، ويقال لهذا اليوم أيضًا: يوم منى لأنه يسار فيه إليها.

ثم ركب رسول الله ﷺ قاصدًا إلى منى قبل الزوال (وقت الضحى)، وأحرم الذين كانوا قد حلوا بالحج من الأبطح، وانبعثت رواحلهم نحوها.

---

(1) قال ابن كثير في البداية والنهاية 186/5، وأخرجاه في الصحيحين من حديث سفيان الثوري.

(2) المصدر السابق، وقال ابن كثير: وقد أخرجه صاحبا الصحيح من حديث شعبة بتمامه.

وقد روى مسلم، عن جابر بن عبد الله رَضِيَ اللَّهُ عَنْهُمَا، قال: أمرنا رسول الله ﷺ لما أحللنا أن نحرم إذا توجهنا إلى منى، قال: وأهللنا من الأبطح. وكان مسيره ﷺ إلى منى وقت الزوال، والحر شديد، فقد روى الإمام أحمد عمن رأى النبي ﷺ، أنه راح إلى منى يوم التروية، وإلى جانبه بلال رَضِيَ اللَّهُ عَنْهُ، بيده عود، عليه ثوب يظلل به رسول الله ﷺ، يعني: من الحر.

ولما جاء رسول الله ﷺ منى، صلى بها الظهر والعصر والمغرب والعشاء والفجر.

وقد روى الإمام أحمد عن ابن عباس رَضِيَ اللَّهُ عَنْهُمَا، أن النبي ﷺ صلى خمس صلوات بمنى.

وروى الترمذي عنه (أي: عن ابن عباس)، قال: صلى بنا رسول الله ﷺ بمنى الظهر، والعصر، والمغرب، والعشاء، والفجر، ثم غدا إلى عرفات.

- **الوقوف بعرفة:**

وبعد شروق الشمس، خرج النبي قاصدًا عرفات، وأمر أن تضرب له قبة (بنَمِرة)[1]، فسار رسول الله ولا تشك قريش إلا أنه سيقف بالمشعر[2] الحرام، كما كما كانت قريش تصنع في الجاهلية، ولكن النبي أخلف ظنهم، وسار حتى أتى عرفات ائتمارًا بأمر الله في قوله: ﴿ ثُمَّ أَفِيضُواْ مِنْ حَيْثُ أَفَاضَ ٱلنَّاسُ وَٱسْتَغْفِرُواْ ٱللَّهَۚ إِنَّ ٱللَّهَ غَفُورٞ رَّحِيمٞ ١٩٩ ﴾ [البقرة]، فوجد القبة قد ضربت، فنزل بها حتى إذا زاغت الشمس ركب ناقته (القصواء) حتى أتى بطن الوادي (وادي عرنة)، وهنالك خطب خطبته المشهورة الجامعة[3].

- **خطبة عرفة:**

في بطن الوادي، اجتمع حول رسول الله ﷺ مائة ألف وأربعة وعشرون (أو أربعة وأربعون) ألفًا من الناس، فقام فيهم ﷺ خطيبًا[4]، وكان من يردد قوله ﷺ رافعًا

(1) **نمرة:** موضع بجانب عرفات.

(2) **المشعر الحرام:** جبل بالمزدلفة يسمى قزح.

(3) السيرة لأبي شهبة، ج2، ص 572.

(4) الرحيق المختوم، ص 459.

صوته ليسمع الناس: ربيعة بن أمية بن خلف .. **قال ابن إسحاق:** وحدثني يحيى بن عباد عن عبد الله بن الزبير، عن أبيه عباد، قال: كان الرجل الذي يصرخ في الناس بقول رسول الله ﷺ وهو بعرفة: ربيعة بن أمية بن خلف.

قال: يقول له رسول الله ﷺ: قل: يا أيها الناس، إن رسول الله ﷺ يقول: هلا تدرون أي شهر هذا؟ فيقول لهم، فيقولون: الشهر الحرام، فيقول: قل لهم: إن الله قد حرم عليكم دماءكم وأموالكم إلى أن تلقوا ربكم، كحرمة شهركم هذا، ثم يقول: قل: يا أيها الناس، إن رسول الله ﷺ يقول: هل تدرون أي بلد هذا؟ قال: فيصرخ به، قال: فيقولون: البلد الحرام. قال: فيقول: قل لهم: إن الله قد حرم عليكم دماءكم وأموالكم إلى أن تلقوا ربكم كحرمة بلدكم هذا ...

وكانت خطبة يوم عرفة خطبة جامعة، لم يسمع المسلمون مثلها في طولها، وفيما اشتملت عليه من الشرائع والأحكام والهُدى .. فقال ﷺ بعد أن حمد الله تعالى وأثنى عليه بما هو أهله:

«أيها الناس: اسمعوا قولي، فإني لا أدري لعلي لا ألقاكم بعد عامي هذا بهذا الموقف أبدًا. أيها الناس، إن دماءكم وأموالكم حرام عليكم كحرمة يومكم هذا في شهركم هذا في بلدكم هذا. ألا وإن كل شيء من أمر الجاهلية تحت قدمي موضوع، ودماء الجاهلية موضوعة، وإن أول دم أضع من دمائنا دم ابن ربيعة بن الحارث، وربا الجاهلية موضوع، وأول ربا أضع ربا العباس بن عبد المطلب، فإنه موضوع كله.

أيها الناس، إن الشيطان قد يئس من أن يعبد بأرضكم هذه أبدًا، ولكنه إن يطع فيما سوى ذلك فقد رضي به مما تحقرون من أعمالكم، فاحذروه على دينكم. أيها الناس، إن النسيء زيادة في الكفر، يضل به الذين كفروا، يحلونه عامًا ويحرمونه عامًا؛ ليواطئوا عدة ما حرم الله، فيحلوا ما حرم الله ويحرموا ما أحل الله، وإن الزمان قد استدار كهيأته يوم خلق الله السماوات والأرض، السنة اثنا عشر شهرًا، منها أربعة حرم، ثلاثة متواليات: ذو القعدة وذو الحجة والمحرم، ورجب مضر الذي بين جمادى وشعبان.

اتقوا الله في النساء؛ فإنكم إنما أخذتموهن بأمان الله، واستحللتم فروجهن بكلمة الله، إن لكم عليهن حقًّا ولهن عليكم حقًّا: لكم عليهن أن لا يوطئن فرشكم أحدًا تكرهونه[1]، فإن فعلن ذلك فاضربوهن ضربًا غير مبرح، ولهن عليكم رزقهن وكسوتهن بالمعروف.

فاعقلوا أيها الناس قولي فإني قد بلغت، وقد تركت فيكم ما لن تضلوا بعده إن اعتصمتم: كتاب الله وسنة رسوله.

يا أيها الناس، اسمعوا وأطيعوا، وإن أُمّر عليكم عبد حبشي مجدع، ما أقام فيكم كتاب الله تعالى.

أرقاءكم أرقاءكم .. أطعموهم مما تأكلون واكسوهم مما تلبسون، وإن جاءوا بذنب لا تريدون أن تغفروه، فبيعوا عباد الله ولا تعذبوهم[2].

أيها الناس، اسمعوا قولي واعقلوه، تعلمن أن كل مسلم أخ للمسلم، وأن المسلمين إخوة، فلا يحل لامرئ من أخيه إلا ما أعطاه عن طيب نفس منه، فلا تظلمن أنفسكم، اللّهم هل بلغتُ؟ وستلقون ربكم فلا ترجعوا بعدي ضلالًا، يضرب بعضكم رقاب بعض، ألا ليبلغ الشاهد الغائب، فلعل بعض من يبلغه أن يكون أوعى له من بعض من سمعه، وأنتم تسألون عني فما أنتم قائلون؟

قالوا: نشهد أنك قد بلغت وأديت ونصحت. فقال بأصبعه السبابة، يرفعها إلى السماء، وينكتها إلى الناس: اللّهم اشهد (ثلاث مرات)[3].

---

(1) المقصود بذلك أن لا يأذن لأحد ممن يكرهون دخوله عليهم، وليس وطء الفراش كناية عن الزنا كما قد يتوهم.

(2) هاتان الفقرتان جاءتا في رواية ابن سعد في الطبقات.

(3) نقل نص هذه الخطبة البوطي من صحيح مسلم، وأضاف إليها زيادة جاءت بالبخاري هي: (وستلقون ربكم ...) إلى (من سمعه)، كما أضاف إليها زيادات بسيطة أخرى، وردت في ابن إسحاق وطبقات ابن سعد وغيرهما. انظر: فقه السيرة للبوطي، ص 476- 478.

- **حدث في يوم عرفة:**

1- بعد أن فرغ رسول الله ﷺ من هذه الخطبة الجامعة، أذن بلال رَضِيَ اللَّهُ عَنْهُ، ثم أقام، فصلى النبي ﷺ بالناس الظهر، ثم أقام فصلى بهم العصر، جامعًا بينهما جمع تقديم، ولم يصل بينهما شيئًا، ثم ركب ناقته حتى جاء الصخرات التي في أسفل جبل الرحمة، فوقف عندها مستقبلًا القبلة، حتى غربت الشمس، وقال: «وقفت هٰهنا وعرفات كلها موقف»(1).

2- أفطر رسول الله ﷺ يوم عرفة، فدل ذلك على أن الإفطار هناك أفضل من الصيام؛ لما فيه من التقوي على الدعاء؛ لأنه المقصود الأهم هناك، ولهذا استطاع ﷺ أن يقف وهو راكب على الراحلة من لدن الزوال إلى أن غربت الشمس. وقد روى أبو داود الطيالسي في مسنده، عن أبي هريرة رَضِيَ اللَّهُ عَنْهُ، أن رسول الله ﷺ نهى عن صوم يوم عرفة بعرفة. وروى الإمام أحمد عن عكرمة مولى ابن عباس، قال: دخلت على أبي هريرة في بيته، فسألته عن صوم يوم عرفة بعرفات، فقال: نهى رسول الله ﷺ عن صوم عرفة بعرفات(2).

وروى الحافظ البيهقي عن ابن عباس رَضِيَ اللَّهُ عَنْهُمَا قال: نهى النبي ﷺ عن صوم يوم عرفه بعرفة.

3- أكثر رسول الله ﷺ من الدعاء لأمته في هذا اليوم العظيم، وكان أيضًا يوم جمعة، ولم يوقفه عن الدعاء شيء، وقد روى الإمام أحمد عن أسامة بن زيد رَضِيَ اللَّهُ عَنْهُمَا، قال: كنت رديف النبي ﷺ بعرفات، فرفع يديه يدعو، فمالت به ناقته، فسقط خطامها (زمامها)، قال: فتناول الخطام بإحدى يديه وهو رافع يده الأخرى(3).

وروى الحافظ البيهقي عن ابن عباس رَضِيَ اللَّهُ عَنْهُمَا، قال: رأيت رسول الله ﷺ يدعو بعرفة يداه إلى صدره، كاستطعام المسكين.

---

(1) السيرة لأبي شهبة، ج2، ص 574.

(2) رواه أبو داود، والنسائي وابن ماجه، انظر: البداية والنهاية (192/5).

(3) برقم (21442)، وهكذا رواه النسائي في الصغرى (3013)، انظر المصدر السابق.

وروى البيهقي، أن النبي ﷺ لما أكثر من الدعاء لأمته بالمغفرة، أوحى الله إليه أنه غفر كل شيء إلا ظلم بعضهم بعضًا[1].

وقد علمنا رسول الله ﷺ أفضل ما ندعو به في يوم عرفة، ونقل لنا ذلك الصحابة رَضِيَ اللَّهُ عَنْهُمْ في أحاديث كثيرة، منها:

- ما رواه الترمذي، من حديث عمرو بن شعيب، عن أبيه عن جده، أن رسول الله ﷺ، قال: «أفضل الدعاء يوم عرفة، وخير ما قلت أنا والنبيون من قبلي: لا إله إلا الله وحده لا شريك له، له الملك وله الحمد، وهو على كل شيء قدير»[2].

- وما رواه الإمام أحمد عن أبي يحيى مولى آل الزبير بن العوام، عن الزبير بن العوام رَضِيَ اللَّهُ عَنْهُ، قال: سمعت رسول الله ﷺ وهو بعرفة يقرأ هذه الآية: ﴿ شَهِدَ ٱللَّهُ أَنَّهُۥ لَآ إِلَٰهَ إِلَّا هُوَ وَٱلْمَلَٰٓئِكَةُ وَأُوْلُواْ ٱلْعِلْمِ قَآئِمَۢا بِٱلْقِسْطِ ۚ لَآ إِلَٰهَ إِلَّا هُوَ ٱلْعَزِيزُ ٱلْحَكِيمُ ﴾ [آل عمران: 18][3].

- وما رواه الترمذي في (الدعوات)، عن علي بن أبي طالب رَضِيَ اللَّهُ عَنْهُ، قال: كان أكثر ما دعا به رسول الله ﷺ يوم عرفة في الموقف: «اللّٰهم لك الحمد كالذي نقول، وخير مما نقول، اللّٰهم لك صلاتي ونسكي، ومحياي ومماتي، ولك رب تراثي، أعوذ بك من عذاب القبر، ووسوسة الصدر، وشتات الأمر، اللّٰهم إني أعوذ بك من شر ما تهب به الريح»[4].

- وما رواه الطبراني في المعجم الكبير عن ابن عباس رَضِيَ اللَّهُ عَنْهُمَا، قال: كان فيما دعا به رسول الله ﷺ في حجة الوداع: «اللّٰهم إنك تسمع كلامي، وترى مكاني، وتعلم سري وعلانيتي، ولا يخفى عليك شيء من أمري، أنا البائس الفقير، المستغيث المستجير، الوجل المشفق، المقر المعترف بذنبه، أسألك مسألة المسكين، وأبتهل إليك ابتهال الذليل،

(1) رواه أحمد (15898)، وانظر: السيرة لأبي شهبة، ج2، ص 575.

(2) برقم (3727).

(3) برقم (1433).

(4) برقم (3658).

وأدعوك دعاء الخائف الضرير، من خضعت لك رقبته، وفاضت لك عبرته، وذل لك جسده، ورَغِم لك أنفه، اللّهم لا تجعلني بدعائك رب شقيًّا، وكن بي رءوفًا رحيما، يا خير المسئولين، ويا خير المعطين»[1].

4- مات رجل بعرفة، فأخبر رسول الله ﷺ أن الله يبعثه يوم القيامة ملبيًا:

روى البخاري عن ابن عباس رَضِيَ اللَّهُ عَنْهُمَا، قال: بينا رجل واقف مع النبي ﷺ بعرفة؛ إذ وقع عن راحلته، فوقصته (أو قال: فأوقصته)، فقال النبي ﷺ: «اغسلوه بماء وسدر، وكفنوه في ثوبين، ولا تمسوه طيبًا، ولا تخمروا رأسه، ولا تحنطوه، فإن الله يبعثه يوم القيامة ملبيًا »[2].

5- وفي يوم عرفة نزل على رسول الله ﷺ قوله تعالى: ﴿ٱلْيَوْمَ أَكْمَلْتُ لَكُمْ دِينَكُمْ وَأَتْمَمْتُ عَلَيْكُمْ نِعْمَتِي وَرَضِيتُ لَكُمُ ٱلْإِسْلَٰمَ دِينًا﴾ [المائدة: 3].

روى الإمام أحمد عن طارق بن شهاب، قال: جاء رجل من اليهود إلى عمر بن الخطاب رَضِيَ اللَّهُ عَنْهُ، فقال: يا أمير المؤمنين، إنكم تقرءون آية في كتابكم، لو علينا معشر اليهود نزلت لاتخذنا ذلك اليوم عيدًا.

قال: وأي آية هي؟

قال: قوله تعالى: ﴿ٱلْيَوْمَ أَكْمَلْتُ لَكُمْ دِينَكُمْ وَأَتْمَمْتُ عَلَيْكُمْ نِعْمَتِي وَرَضِيتُ لَكُمُ ٱلْإِسْلَٰمَ دِينًا﴾ [المائدة: 3].

فقال عمر: والله إني لأعلم اليوم الذي نزلت على رسول الله ﷺ، والساعة التي نزلت فيها على رسول الله ﷺ، عشية عرفة في يوم جمعة[3].

---

(1) برقم (11405).

(2) برقم (1244)، ورواه مسلم عن أبي الربيع الزهراني، عن حماد، برقم (2845)، عن حماد، وانظر: البداية والنهاية 182/5.

(3) برقم (189)، ورواه مسلم (7469).

نزلت هذه الآية في يوم عرفة من حجة الوداع، تحمل خطابًا عامًّا للذين آمنوا في كل زمان ومكان، بأن الله أكمل هذا الدين، فما عادت فيه زيادة لمستزيد، وأتم نعمته الكبرى على المؤمنين بهذا المنهج الكامل الشامل، ورضي لهم الإسلام دينًا، فمن لا يرتضيه منهجًا لحياته إذن فإنما يرفض ما ارتضاه الله للمؤمنين. ولم يعد لأحد أن يتصور أن بهذا الدين نقصًا يستدعي الإكمال، ولا قصورًا يستدعي الإضافة .. وإلا فما هو بمؤمن، وما هو بمقر بصدق الله، وما هو بمرتض ما ارتضاه الله للمؤمنين.

إن شريعة ذلك الزمان الذي نزلت فيه هذه الآية، هي شريعة كل زمان؛ لأنها بشهادة الله شريعة الدين الذي جاء للإنسان في كل زمان وفي كل مكان، لا لجماعة من بني الإنسان في جيل من الأجيال، أو في مكان من الأمكنة، كما كانت تجيء الرسل والرسالات.

الأحكام التفصيلية جاءت لتبقى كما هي، والمبادئ الكلية جاءت لتكون هي الإطار الذي تنمو في داخله الحياة البشرية إلى آخر الزمان، دون أن تخرج عليه، إلا أن تخرج من إطار الإيمان(1).

- **الإفاضة من عرفات:**

روى الإمام مسلم، عن جابر بن عبد الله رَضِيَ اللَّهُ عَنْهُمَا، قال: (... لم يزل - أي النبي ﷺ - واقفًا (أي بعرفة) حتى غربت الشمس، وذهبت الصفرة قليلًا حين غاب القرص، فأردف أسامة خلفه، ودفع رسول الله ﷺ وقد شنق ناقته القصواء الزمام، حتى إن رأسها ليصيب مورك رجله، ويقول بيده اليمنى: «أيها الناس السكينة، السكينة» كلما أتى جبلًا من الجبال أرخى لها قليلًا حتى تصعد، حتى أتى المزدلفة، فصلى بها المغرب والعشاء بأذان وإقامتين، ولم يسبح بينهما شيئًا)(2).

وقد حكى أسامة بن زيد رَضِيَ اللَّهُ عَنْهُمَا إفاضة رسول الله ﷺ من عرفات، وكان رديفه على دابته القصواء - فيما رواه الإمام أحمد - فقال: كنت رديف رسول الله ﷺ عشية

(1) في ظلال القرآن، سيد قطب، المائدة: 3.

(2) برقم (2903).

عرفة. قال: فلما وقعت الشمس (أي غربت)، دفع رسول الله ﷺ، فلما سمع حطمة الناس خلفه (أي تدافعهم)، قال: «رويدًا أيها الناس، عليكم السكينة، إن البر ليس بالإيضاع (أي السير السريع)» (1).

قال: فكان رسول الله ﷺ إذا التحم عليه الناس أعنق (أسرع)، وإذا وجد فرجة نص، حتى أتى المزدلفة فجمع فيها بين الصلاتين المغرب والعشاء الآخرة.

ثم اضطجع رسول الله ﷺ حتى طلع الفجر فصلى، ثم ركب دابته حتى المشعر الحرام فدعا وكبر وهلل .. وقد روى ذلك جابر بن عبد الله رَضِيَ اللَّهُ عَنْهُمَا في حديثه الطويل عند مسلم، في وصف حجه مع رسول الله ﷺ، فقال: (... فصلى الفجر حين تبين له الصبح بأذان وإقامة، ثم ركب القصواء حتى أتى المشعر الحرام، فاستقبل القبلة، فدعا الله عَزَّ وَجَلَّ وكبره وهلله ووحده، فلم يزل واقفًا حتى أسفر جدًّا (وهو الوقت الذي قبل طلوع الشمس مباشرة)، فدفع قبل أن تطلع الشمس، وأردف الفضل بن عباس وراءه) (2).

ومزدلفة هي المكان الواقع بين منى وعرفات، ومنها يجمع الحجيج الحصى لرمي الجمرات بمنى، والمبيت بها واجب للحاج، إن تركه فعليه دم، وسميت بالمزدلفة - وفقًا للعلماء والمؤرخين - نظرًا لنزول الناس بها في زلف الليل، وقيل أيضًا لأن الناس يزدلفون فيها إلى الحرم، كما قيل إن السبب أن الناس يدفعون منها زلفة واحدة أي جميعًا، وقيل لأنهم يقربون فيها من «منى» والازدلاف التقريب، ومنه قوله تعالى: ﴿وَأُزْلِفَتِ ٱلْجَنَّةُ لِلْمُتَّقِينَ﴾ [الشعراء: 90]، أي قُرِّبت.

وتسمى أيضًا: (جمع)، كما قال رسول الله ﷺ: (ووقفت هاهنا وجمع كلها موقف)، وسميت جمعًا: لأنه يجمع فيها بين الصلاتين، وقيل: وصفت بفعل أهلها؛ لأنهم يجتمعون بها، ويتقربون إلى الله بالوقوف فيها.

---

(1) برقم (21381).

(2) برقم (2903).

وسمى الله المزدلفة بالمشعر الحرام، قال تعالى: ﴿فَإِذَآ أَفَضۡتُم مِّنۡ عَرَفَٰتٖ فَٱذۡكُرُواْ ٱللَّهَ عِندَ ٱلۡمَشۡعَرِ ٱلۡحَرَامِۖ وَٱذۡكُرُوهُ كَمَا هَدَىٰكُمۡ وَإِن كُنتُم مِّن قَبۡلِهِۦ لَمِنَ ٱلضَّآلِّينَ﴾ [البقرة: 198]. وجمهور المفسرين وأصحاب الحديث والسير على أن المشعر الحرام المذكور في الآية هو جميع مزدلفة، والمشعر هو (المعلم)، سمي بذلك، لأن الصلاة عنده والمقام والمبيت والدعاء من معالم الحج وفروضه التي أمر الله بها عباده.

وقيل إن المشعر الحرام هو جبل قُزح بمزدلفة وما حوله. وقد روى عبد الرزاق عن ابن عمر رَضِيَ ٱللَّهُ عَنۡهُمَا، أنه لما رأى الناس يزدحمون على جبل قزح، قال: علام يزدحم هؤلاء؟ كل ما هاهنا في المزدلفة مشعر.

- **من المزدلفة إلى منى:**

قبل طلوع شمس يوم النحر، سار رسول الله ﷺ من مزدلفة إلى منى، مردفًا الفضل ابن عباس رَضِيَ ٱللَّهُ عَنۡهُمَا وراءه على دابته القصواء، وهو يلي في مسيره، وأمر عبد الله بن عباس رَضِيَ ٱللَّهُ عَنۡهُمَا أن يلتقط له حصى الجمار سبع حصيات من مزدلفة، فلما أتى بطن وادي محسر، حرك ناقته وأسرع السير، فإن هنالك أصاب أصحاب الفيل العذاب(1)، حتى أتى (منى).

ووادي محسر واد عظيم بين جمع (مزدلفة) ومنى، وهو إلى منى أقرب، وسمي بذلك لأنه يحسر مالكه، أي: يعيقه؛ لأنه مجرى للسيل، فيكون رمليًّا يعيق سالكه، قال الأزرقي: (وادي محسر خمسمائة ذراع، وخمس وأربعون ذراعًا)(2).

وليس وادي محسر من مزدلفة ولا من منى، بل هو مسيل ما بينهما(3)، فهو خارج عن حدود المزدلفة ومنى، فمن بات به لم يجزئه المبيت.

(1) انظر: السيرة للندوي، ص 389، وصحيح السيرة، ص 662، والسيرة للصلابي، ص 873.
(2) المجموع (8/129).
(3) المجموع (8/143).

وقد تعددت الروايات عن إسراع النبي ﷺ حين أتى وادي محسر، فقال جابر بن عبد الله رَضِيَ اللَّهُ عَنْهُمَا: (... حتى أتى بطن محسر فحرك قليلًا) [1].

وعن جابر أيضًا: أن النبي ﷺ أوضع في وادي محسر[2]. والإيضاع هو سرعة السير.

وعن علي بن أبي طالب رَضِيَ اللَّهُ عَنْهُ، قال: (... ثم أفاض حتى انتهى إلى وادي محسر، فقرع ناقته، فخبت حتى جاوز الوادي)[3].

وقد أسرع رسول الله ﷺ لما أتى بطن وادي محسر؛ لأن الله أهلك فيه أصحاب الفيل، وكان ﷺ يأمر بالإسراع إذا مروا بأراضي العذاب، كما فعل حين مروا بديار ثمود في غزوة تبوك.

- **الجمرة الكبرى:**

أتى رسول الله ﷺ منى ملبيًا، وقد سلك الطريق الوسطى التي تخرج على الجمرة الكبرى مباشرة (وتسمى بجمرة العقبة، وبالجمرة الأولى)، حتى أتاها، فرماها بسبع حصيات من حصى الخذف (وهو الحصى الصغير)، يرمي من بطن الوادي ويكبر مع كل حصاة منها. وكان ﷺ راكبًا فوق القصواء.

وأسامة وبلال أحدهما آخذ بخطام ناقته، والآخر رافع ثوبه يستره من الحر، حتى رمى جمرة العقبة.

فلما رمى قطع التلبية. روى البيهقي عن عبد الله بن عمر رَضِيَ اللَّهُ عَنْهُمَا، قال: رمقت النبي ﷺ، فلم يزل يلبي حتى رمى جمرة العقبة بأول حصاة، أما عن وقت رميه ﷺ فكان ضحى، كما روى البخاري عن جابر رَضِيَ اللَّهُ عَنْهُمَا، فقال: رمى النبي ﷺ الجمرة يوم النحر ضحى، ورمى بعد ذلك بعد الزوال.

---

(1) رواه مسلم (2137).

(2) رواه الترمذي (886)، والنسائي (3053)، وصححه الألباني.

(3) رواه الترمذي (885)، وحسنه الألباني.

وأمر ﷺ أن يكون الرمي بالحصى الصغير (الخذف)، وقد روى أحمد، وأبو داود وابن ماجه، والبيهقي عن أم جندب الأزدية، قالت: رأيت رسول الله ﷺ يرمي الجمار من بطن الوادي، وهو راكب، يكبر مع كل حصاة، ورجل من خلفه يستره، فسألته عن الرجل فقالوا: الفضل بن العباس، فازدحم الناس، فقال النبي ﷺ: «يا أيها الناس، لا يقتل بعضكم بعضًا، وإذا رميتم الجمرة فارموه بمثل حصى الخذف»[1].

وروى مسلم في صحيحه عن جابر بن عبد الله رَضِيَ اللَّهُ عَنْهُمَا، قال: رأيت رسول الله ﷺ يرمي الجمرة على راحلته يوم النحر، ويقول: «لتأخذوا مناسككم؛ فإني لا أدري لعلي لا أحج بعد حجتي هذه»[2].

- **النحر بمنى:**

قال جابر رَضِيَ اللَّهُ عَنْهُمَا: ... ثم انصرف ﷺ إلى المنحر، فنحر ثلاثًا وستين بدنة بيده، ثم أعطى عليًّا فنحر ما غبر، وأشركه في هديه، ثم أمر من كل بدنة ببضعة، فجعلت في قدر فطبخت، فأكلا من لحمها، وشربا من مرقها[3].

وقد ذكرنا أن مجموع الهدي الذي قدم به علي رَضِيَ اللَّهُ عَنْهُ من اليمن، والذي جاء به رسول الله ﷺ مائة من الإبل، نحر منها ﷺ بيده الكريمة ثلاثًا وستين بدنة .. قال ابن حبان وغيره: وذلك مناسب لعمره ﷺ؛ فإنه كان ثلاثًا وستين سنة.

وثبت في صحيح مسلم أن علي بن أبي طالب رَضِيَ اللَّهُ عَنْهُ قال: أمرني رسول الله ﷺ أن أقوم على بدنه، وأن أتصدق بلحومها، وجلودها، وأجِلَّتها، وأن لا أعطي الجزار منها شيئًا، وقال: «نحن نعطيه من عندنا»[4].

---

(1) أحمد (15780)، وابن ماجه (3097) وأبو داود (1968)، واللفظ له.

(2) برقم (3091).

(3) البداية والنهاية 5/206.

(4) برقم (3134).

ولما أكمل رسول الله ﷺ نحره استدعى الحلاق، فحلق شعره، وقسم شعره بين من يليه من الناس، ثم أفاض إلى مكة راكبًا.

روى مسلم، عن أنس بن مالك رَضِيَ اللَّهُ عَنْهُ: أن رسول الله ﷺ أتى منى، فأتى الجمرة فرماها، ثم أتى منزله بمنى ونحر، ثم قال للحلاق: (خذ)، وأشار إلى جانبه الأيمن، ثم الأيسر، ثم جعل يعطيه للناس[1].

وفي رواية: أنه حلق شقه الأيمن، فقسمه بين الناس من شعرة أو شعرتين، وأعطى شقه الأيسر لأبي طلحة.

وروى الإمام أحمد عن أنس رَضِيَ اللَّهُ عَنْهُ أيضًا، قال: رأيت رسول الله ﷺ والحلاق يحلقه، وقد أطاف به أصحابه، ما يريدون أن تقع شعرة إلا في يد رجل[2].

وقد حث ﷺ أصحابه أن يحلقوا، وفضل المحلقين على المقصرين.

ففي البخاري، عن عبد الله بن عمر رَضِيَ اللَّهُ عَنْهُمَا، قال: حلق رسول الله ﷺ وطائفة من أصحابه، وقصر بعضهم .. فزاد مسلم في صحيحه: قال عبد الله: قال رسول الله ﷺ: «يرحم الله المحلقين» مرة أو مرتين، قالوا: يا رسول الله ﷺ، والمقصرين؟، قال: «والمقصرين»[3].

وفي رواية عند مسلم، عن يحيى بن الحصين عن جدته، أنها سمعت رسول الله ﷺ في حجة الوداع دعا للمحلقين ثلاثًا، وللمقصرين مرة.

ثم لبس رسول الله ﷺ، وتطيب، بعدما رمى جمرة العقبة، ونحر هديه، وحلق رأسه .. طيبته عائشة أم المؤمنين رَضِيَ اللَّهُ عَنْهَا[4].

---

(1) برقم (3106).

(2) برقم (12110).

(3) برقم (3098).

(4) البداية والنهاية 5/208.

وعند البخاري في صحيحه، أن عائشة رَضِيَٱللَّهُعَنْهَا قالت: طيبت رسول الله ﷺ بيدي هاتين حين أحرم، ولحله حين أحل قبل أن يطوف، وبسطت يديها. وعند مسلم في صحيحه، قالت عائشة رَضِيَٱللَّهُعَنْهَا: كنت أطيب رسول الله ﷺ قبل أن يحرم ويحل يوم النحر قبل أن يطوف بالبيت، بطيب فيه مسك.

- **خطبة يوم النحر:**

وخطب النبي ﷺ يوم النحر - عاشر ذي الحجة - حين ارتفع الضحى، وهو على بغلة شهباء، والناس بين قائم وقاعد، وأهل منى يسمعون في منازلهم، وأعاد ﷺ في خطبته هذه بعض ما كان ألقاه أمس.

روى الشيخان عن أبي بكرة رَضِيَٱللَّهُعَنْهُ، قال: خطبنا النبي ﷺ يوم النحر، قال: «إن الزمان قد استدار كهيئته يوم خلق السماوات والأرض، السنة اثنا عشر شهرًا منها أربعة حرم، ثلاث متواليات، ذو القعدة وذو الحجة والمحرم، ورجب مضر الذي بين جمادى وشعبان».

وقال: «أي شهر هذا؟» قلنا: الله ورسوله أعلم، فسكت حتى ظننا أنه سيسميه بغير اسمه، قال: «أليس ذا الحجة»؟ قلنا: بلى. قال: «أي بلد هذا؟» قلنا: الله ورسوله أعلم، فسكت حتى ظننا أنه سيسميه بغير اسمه، قال: «أليست البلدة؟» قلنا: بلى. قال: «فأي يوم هذا؟» قلنا: الله ورسوله أعلم. فسكت حتى ظننا أنه سيسميه بغير اسمه، قال: «أليس يوم النحر؟» قلنا: بلى. قال: «فإن دماءكم وأموالكم وأعرضكم عليكم حرام كحرمة يومكم هذا، في بلدكم هذا، في شهركم هذا».

«وستلقون ربكم، فيسألكم عن أعمالكم، ألا فلا ترجعوا بعدي ضلالًا يضرب بعضكم رقاب بعض».

«ألا هل بلغت؟» قالوا: نعم، قال: «اللّهم اشهد. فليبلغ الشاهد الغائب؛ فرب مبلغ أوعى من سامع»[1].

---

(1) صحيح مسلم، كتاب الحج (رقم 1218).

وفي رواية أنه قال في تلك الخطبة: «ألا لا يجني جان إلا على نفسه، ألا لا يجني جان على ولده، ولا مولود على والده، إلا إن الشيطان قد يئس أن يعبد في بلدكم هذا أبدًا، ولكن ستكون له طاعة فيما تحتقرون من أعمالكم، فسيرضى به».

- **إفاضته ﷺ إلى البيت العتيق:**

ثم أفاض ﷺ إلى مكة راكبًا، وطاف طواف الإفاضة، فصلى بمكة الظهر.

قال جابر رَضِيَ اللَّهُ عَنْهُمَا: ثم ركب رسول الله ﷺ، فأفاض إلى البيت، فصلى بمكة الظهر، فأتى بني عبد المطلب وهم يسقون (أي الحجيج) على زمزم، فقال: «انزعوا بني عبد المطلب، فلولا أن تغلبكم الناس على سقايتكم - أي ينافسونهم في السقاية ليفعلوا مثل رسول الله - لنزعت معكم»، فناولوه دلوًا فشرب منه(1).

وروى البخاري عن ابن عباس رَضِيَ اللَّهُ عَنْهُمَا، أن رسول الله ﷺ جاء إلى السقاية فاستقى، فقال العباس: يا فضل، اذهب إلى أمك فائت رسول الله بشراب من عندها.

فقال: «اسقني».

فقال: يا رسول الله إنهم يجعلون أيديهم فيه.

قال: «اسقني».

فشرب منه، ثم أتى زمزم وهم يسقون ويعملون فيها، فقال: (اعملوا؛ فإنكم على عمل صالح). ثم قال: «لولا أن تغلبوا - أي يأخذ الناس منكم السقاية؛ تأسيًا به ﷺ - لنزعت حتى أضع الحبل على هذه، وأشار إلى عاتقه».

ولم يطف ﷺ بين الصفا والمروة، اكتفاء بطوافه الأول، كما روى مسلم في صحيحه، عن جابر بن عبد الله رَضِيَ اللَّهُ عَنْهُمَا، قال: لم يطف النبي ﷺ وأصحابه بين الصفا والمروة إلا طوافًا واحدًا.

---

(1) رواه الترمذي (2/38، 135)، وابن ماجه، مشكاة المصابيح (1/234).

قال ابن كثير: والمراد بأصحابه هاهنا الذين ساقوا الهدي وكانوا قارنين[1].

- **رجوعه ﷺ إلى منى:**

ثم رجع ﷺ إلى منى بعدما صلى الظهر بمكة.

روى ابن إسحاق عن عائشة رَضِيَ اللَّهُ عَنْهَا، قالت: أفاض رسول الله ﷺ من آخر يومه حين صلى الظهر، ثم رجع إلى منى، فمكث بها ليالي أيام التشريق يرمي الجمرات، إذا زالت الشمس، كل جمرة بسبع حصيات، يكبر مع كل حصاة، أقام ﷺ بمنى يؤدي المناسك ويعلم الشرائع، ويذكر الله، ويقيم سنن الهدي من ملة إبراهيم، ويمحو آثار الشرك ومعالمه[2].

قال ابن إسحاق: (... فقضى رسول الله ﷺ الحج وقد أراهم مناسكهم، وأعلمهم ما فرض الله عليهم من حجهم؛ من الموقف، ورمي الجمار، وطواف البيت، وما أُحل لهم من حجهم، وما حرم عليهم، فكانت حجة البلاغ، وحجة الوداع؛ وذلك أن رسول الله ﷺ لم يحج بعدها).

وقد خطب رسول الله ﷺ الناس في بعض أيام التشريق أيضًا، فقد روى أبو داود[3] بإسناد حسن، عن سراء بنت نبهان رَضِيَ اللَّهُ عَنْهَا، قالت: خطبنا رسول الله ﷺ يوم الرءوس، فقال: أليس هذا أوسط أيام التشريق؟ ... وكانت خطبته في هذا اليوم تاكيدًا لبعض ما جاء في خطبتي عرفة، ويوم النحر بمنى[4]. ويوم الرءوس هو يوم الحادي عشر من ذي الحجة، وسمي بذلك لأنه اليوم الذي يلي يوم النحر، فكانوا يأكلون فيه رءوس الأضاحي.

---

(1) البداية والنهاية 212/5.

(2) الرحيق المختوم، ص 462.

(3) أبو داود، باب أي يوم يخطب بمنى 269/1.

(4) انظر الرحيق المختوم، ص 462.

والواقع أن تكرار الخطب في حجة الوداع كان أمرًا لابد منه؛ لحاجة المسلمين؛ فهي الحجة الوحيدة التي حجها الرسول ﷺ، وقد عز فيها الإسلام والمسلمون، وأصبحت كلمتهم هي النافذة في الجزيرة كلها، كما كانت الوداع الأخير، فما أشد حاجة المسلمين في هذا المشهد العظيم إلى التذكير والنصح والتوصية، وإلى تكرار القول، والتأكيد عليه؛ حتى يعوه ويحفظوه ولا ينسوه، وإلى تقريرهم بإبلاغ الرسالة وأداء الأمانة(1).

وفي هذه الأيام نزلت على رسول الله ﷺ سورة النصر:

روى الحافظ أبو بكر البزار، عن عبد الله بن عمر رَضِيَ اللَّهُ عَنْهُمَا، قال: نزلت هذه السورة على رسول الله ﷺ بمنى، وهو في أوسط أيام التشريق في حجة الوداع، ﴿إِذَا جَاءَ نَصْرُ اللَّهِ وَالْفَتْحُ ۝١﴾ [النصر]، فعرف أنه الوداع.

- **النفير من منى:**

خير الله ﷻ حجاج بيته العتيق بين أن ينفروا من منى ثاني أيام التشريق، ويسمى يوم النفر الأول، وبين أن ينفروا في اليوم الثالث من أيام التشريق، ويسمى يوم النفر الثاني أو الآخر. قال تعالى: ﴿فَمَن تَعَجَّلَ فِي يَوْمَيْنِ فَلَا إِثْمَ عَلَيْهِ وَمَن تَأَخَّرَ فَلَا إِثْمَ عَلَيْهِ﴾ [البقرة: 203] .

فلما كان يوم النفر الآخر، وهو اليوم الثالث من أيام التشريق، الثلاثاء الثالث عشر من ذي الحجة، ركب رسول الله ﷺ والمسلمون معه، فنفر بهم من منى، فنزل المحصب (وهو واد بين مكة ومنى) فصلى به العصر(2). كما روى البخاري عن عبد العزيز بن رفيع، قال: سألت أنس بن مالك: أخبرني عن شيء عقلته عن رسول الله ﷺ، أين صلى الظهر يوم التروية؟ قال: بمنى. قلت: فأين صلى العصر يوم النفر؟ قال: بالأبطح (وهو المحصب).

---

(1) انظر: السيرة لأبي شهبة (2/279)، والسيرة للصلابي، ص 874.

(2) البداية والنهاية 5/223.

وكما روى أيضًا (أي البخاري)، عن قتادة، أن أنس بن مالك رَضِيَٱللَّهُعَنْهُ حدثه عن النبي ﷺ أنه صلى الظهر والعصر والعشاء، ورقد رقدة في المحصب، ثم ركب إلى البيت فطاف به (يعني: طواف الوداع).

قال ابن كثير عن نزول رسول الله ﷺ بالمحصب:

أراد ﷺ أن يطوف هو ومن معه من المسلمين بالبيت طواف الوداع، وقد نفر من منى قريب الزوال (أي قرب الظهر)، فلم يكن يمكنه أن يجيء البيت في بقية يومه، ويطوف به، ويرحل إلى ظاهر مكة من جانب المدينة؛ لأن ذلك قد يتعذر على هذا الجم الغفير، فاحتاج أن يبيت قبل مكة، ولم يكن منزل أنسب لمبيته من (المحصب)، الذي كانت قريش قد تعاقدت فيه على مقاطعة بني هاشم وبني المطلب، فلم يبرم الله لقريش أمرًا، بل كبتهم، وردهم خائبين، فنزل ﷺ في الموضع الذي تقاسمت قريش فيه على الظلم والعدوان والقطيعة، نزل فيه بعد أن ردهم الله خائبين، وأظهر دينه، ونصر نبيه وأعلى كلمته، وأتم له الدين القويم، فصلى به وهجع[1].

وبعث رسول الله ﷺ عائشة أم المؤمنين رَضِيَٱللَّهُعَنْهَا مع أخيها عبد الرحمن؛ ليعمرها من التنعيم، فإذا فرغت أتته، فلما قضت عمرتها ورجعت، أذن في المسلمين بالرحيل إلى البيت العتيق. كما روى عنها أبو داود، قالت: أحرمت من التنعيم بعمرة، فدخلت فقضيت عمرتي، وانتظرني رسول الله ﷺ بالأبطح، حتى فرغت أمر الناس بالرحيل.

- **طواف الوداع:**

قالت عائشة رَضِيَٱللَّهُعَنْهَا: ... ثم جئت سحرًا (أي في وقت السحر قبل الفجر)، فأذن (أي رسول الله ﷺ) في الصحابة بالرحيل، فارتحل، فمر بالبيت قبيل صلاة الصبح، فطاف به حين خرج، ثم انصرف متوجهًا إلى المدينة[2].

---

(1) البداية والنهاية 5/225.

(2) رواه أبو داود، انظر: المصدر السابق 5/226.

فالظاهر مما قالته عائشة رَضِيَ اللَّهُ عَنْهَا أن رسول الله ﷺ صلى الصبح يومئذ عند الكعبة بأصحابه رَضِيَ اللَّهُ عَنْهُمْ، وقرأ في صلاته تلك السورة:

﴿وَالطُّورِ ﴿١﴾ وَكِتَابٍ مَّسْطُورٍ ﴿٢﴾ فِي رَقٍّ مَّنشُورٍ ﴿٣﴾ وَالْبَيْتِ الْمَعْمُورِ ﴿٤﴾ وَالسَّقْفِ الْمَرْفُوعِ ﴿٥﴾ وَالْبَحْرِ الْمَسْجُورِ ﴿٦﴾﴾ [الطور] السورة بكمالها. وذلك لما رواه البخاري عن أم سلمة رَضِيَ اللَّهُ عَنْهَا، قالت: شكوت إلى رسول الله ﷺ أني أشتكي، قال: «طوفي من وراء الناس وأنت راكبة». فطفت ورسول الله ﷺ يصلي حينئذ إلى جنب البيت، وهو يقرأ: ﴿وَالطُّورِ ﴿١﴾ وَكِتَابٍ مَّسْطُورٍ ﴿٢﴾﴾ [الطور] [1].

فلما فرغ ﷺ من صلاة الصبح، طاف بالبيت سبعًا، ووقف في الملتزم بين الركن الذي فيه الحجر الأسود، وبين باب الكعبة، فدعا الله عَزَّ وَجَلَّ، وألزق جسده بجدار الكعبة[2].

- **خروجه ﷺ من مكة:**

لما قضى رسول الله ﷺ مناسكه حثَّ الركاب إلى المدينة المطهرة، فخرج من أسفل مكة، كما روى البخاري ومسلم عن ابن عمر رَضِيَ اللَّهُ عَنْهُمَا، قال: دخل رسول الله ﷺ من الثنية العليا التي بالبطحاء، وخرج من الثنية السفلى. وفي لفظ: دخل من كداء، وخرج من كدي.

واستصحب رسول الله ﷺ معه من ماء زمزم شيئًا، كما روى الترمذي عن عائشة رَضِيَ اللَّهُ عَنْهَا، أنها كانت تحمل من ماء زمزم، وتخبر أن رسول الله ﷺ كان يحمله.

وفي طريق العودة خطب ﷺ في غدير خُمّ قريبًا من الجحفة في اليوم الثامن عشر من ذي الحجة، فبين فيها فضل علي بن أبي طالب رَضِيَ اللَّهُ عَنْهُ، وبراءته مما كان تكلم فيه بعض من كان معه بأرض اليمن؛ بسبب نهجه في توزيع الغنائم عليهم (وكان محقًّا فيما فعل)، فذكر من أمانة عليّ وعدله وقربه إليه ما أزاح به ما كان في نفوس كثير من الناس فيه.

---

(1) انظر المصدر السابق، وقال ابن كثير: وأخرجه بقية الجماعة إلا الترمذي.

(2) المصدر السابق.

وقد جاء في هذه الخطبة: «أما بعد، ألا أيها الناس، فإنما أنا بشر يوشك أن يأتي رسول ربي فأجيب، وأنا تارك فيكم ثقلين؛ أولهما: كتاب الله، فيه الهدى والنور، فخذوا بكتاب الله، واستمسكوا به»، فحثّ على كتاب الله ورغب فيه، ثم قال: «وأهل بيتي، أذكركم الله في أهل بيتي، أذكركم الله في أهل بيتي، أذكركم الله في أهل بيتي»[1]، وفي رواية: ... أخذ بيد علي رَضِيَ اللَّهُ عَنْهُ وقال: «من كنت وليه، فهذا وليه، اللّهم والِ من والاه، وعاد من عاداه»[2]، وفي رواية: «من كنت مولاه فعلي مولاه»[3].

ولما أتى رسول الله ﷺ ذا الحليفة بات بها، فلما رأى المدينة كبّر ثلاث مرات، وقال: «لا إله إلا الله وحده، لا شريك له، له الملك وله الحمد، وهو على كل شيء قدير، آيبون تائبون، عابدون، ساجدون، لربنا حامدون، صدق الله وعده، نصر عبده، وهزم الأحزاب وحده»، ثم دخلها نهارًا[4].

- **نظرات في خطب النبي ﷺ في حجة الوداع:**

لاحظنا أن النبي ﷺ كرر خطبه؛ فقد خطب بوادي عرنة في عرفة (وهي ما عرفت بخطبة الوداع)، وفي منى مرتين، وكرر ﷺ معاني كثيرة في هذه الخطب، رأى أن الناس في حاجة لتكرارها؛ ترسيخًا لها في أذهانهم وقلوبهم، فترك للأمة مبادئ وأحكامًا ووصايا، تظل تنهل منها إلى قيام الساعة.

ونسوق للقارئ الكريم بعض ما قاله العلماء الذين تناولوا سيرة الحبيب ﷺ بالدراسة، وكانت لهم نظرات في كلماته الخالدات في خطبة الوداع بعرفة، والتي كرر كثيرًا من معانيها في خطبه في منى، يوم النحر وفي بعض أيام التشريق:

---

(1) مسلم، كتاب فضائل الصحابة، باب فضل علي بن أبي طالب (رقم 2048).

(2) النسائي في خصائص علي، ص 21، صحيح السيرة النبوية، ص 688.

(3) انظر السيرة للصلابي، ص814.

(4) انظر: زاد المعاد (249/1)، وانظر: السيرة للصلابي، ص 874.

- الشيخ محمد الغزالي رَحِمَهُ اللَّهُ:

كان الرسول ﷺ يريد - بعد بلاء طويل في إبلاغ الرسالة - أن يفرغ في آذان الناس وقلوبهم آخر ما لديه من نصح.

كان يحس أن هذا الركب ينطلق في بيداء الحياة وحده، فهو يصرخ به كما يصرخ الوالد بابنه الذي انطلق به القطار، يوصيه بالرشد، ويذكره بما ينفعه أبدًا.

وكان هذا النبي الطيب، كلما أوجس خيفة من مكر الشيطان بالناس، عاود صيحات الإنذار، واستثار ما في الأعماق من انتباه، ثم ساق الهدى والعلم، وقطع المعاذير المنتحلة، وانتزع - بعد ذلك - شهادة من الناس على أنفسهم وعليه أنهم قد سمعوا، وأنه قد بلغ.

لقد ظل ثلاثًا وعشرين سنة، يصل الأرض بالسماء، ويتلو على القاصي والداني آي الكتاب، الذي نزل به الروح الأمين على قلبه، ويغسل أدران الجاهلية التي التاث بها كل شيء، ويربي من هؤلاء العرب الجيل الذي يفقه الحقائق، ويفقه العالم فيها.

وها هو ذا يقود الحجيج في أول موسم يخلص فيه من الشرك، ويتمحض فيه لله الواحد القهار.

وها هو ذا، على ناقته العضباء، يستنصت الجماهير المائجة؛ ليؤكد المعاني التي بُعث بها، والتي عرفهم عليها، ويخلي ذمته من عهدة البلاغ والتبيان التي نيطت بعنقه.

لقد أجيبت دعوة أبي الأنبياء إبراهيم، حين هتف وهو يبني البيت العتيق: ﴿رَبَّنَا وَٱبۡعَثۡ فِيهِمۡ رَسُولٗا مِّنۡهُمۡ يَتۡلُواْ عَلَيۡهِمۡ ءَايَٰتِكَ وَيُعَلِّمُهُمُ ٱلۡكِتَٰبَ وَٱلۡحِكۡمَةَ وَيُزَكِّيهِمۡۖ إِنَّكَ أَنتَ ٱلۡعَزِيزُ ٱلۡحَكِيمُ ١٢٩﴾ [البقرة].

إن العزيز الحكيم تجلى باسميه الجليلين على هذه الديار، فوهب العزة والحكمة أو قل: القوة والسياسة، لمحمد بن عبد الله، فعالج بها الآثام الجاثمة على صدر الأرض، فما استعصى على الأناة والحلم، استكان للتأديب والحكم.

وبهذا المنهج الجامع، بين العدل والرحمة، أخذت رقعة الباطل تنكمش رويدًا رويدًا حتى اختفت الجاهلية ولوثاتها، وثبت الإسلام. ثم أصاخ العرب - بعدما لان قيادهم - إلى صوت الحق الأخير في حجة الوداع[1].

- د. علي محمد الصلابي :

وقد حدد رسول الله ﷺ مصدر التلقي والطريقة المثلى لحل مشاكل المسلمين التي قد تعترض طريقهم، في الرجوع إلى مصدرين لا ثالث لهما، ضمن لهم بعد الاعتصام بهما، الأمان من كل شقاء وضلال، وهما: كتاب الله وسنة رسوله ﷺ، وإنك لتجده يتقدم بهذا التعهد والضمان إلى جميع الأجيال المتعاقبة من بعده؛ ليبين للناس أن صلاحية التماسك بهذين الدليلين ليست وقفًا على عصر دون آخر، وأنه لا ينبغي أن يكون لأي تطور حضاري أو عرف زمني، أي سلطان أو تغلب عليهما.

لقد وصف ﷺ الداء والدواء ووضع العلاج لكل المشكلات، بالالتزام التام بما جاء من أحكام في كتاب الله وسنة رسوله ﷺ: «تركت فيكم ما إن تمسكتم به لن تضلوا بعدي أبدًا: كتاب الله وسنتي». هذا هو العلاج الدائم، وقد كرر ﷺ نداءه للبشرية عامة عبر الأزمنة والأمكنة، بوجوب الاهتداء بالكتاب والسنة في حل جميع المشكلات التي تواجه البشرية؛ فإن الاعتصام بهما يجنب الناس من الضلال، ويهديهم إلى التي هي أقوم في الحاضر والمستقبل. لقد اجتازت تعاليم رسول الله ﷺ وهديه حدود الجزيرة، واخترقت حواجز الزمن وأسوار القرون، وظل يتردد صداها حتى يوم الناس هذا، وإلى أن يرث الله الأرض ومن عليها، فلم يكن يخاطب سامعيه فيقول لهم: أيها المؤمنون، أيها المسلمون، أيها الحجاج؛ بل كان يقول لهم: «يا أيها الناس»، وقد كرر نداءه إلى الناس كافة مرات متعددة دون أن يخصصه بجنس أو بزمان أو مكان أو لون؛ فقد بعثه الله للناس كافة، وأرسله رحمة للعالمين[2].

---

(1) فقه السيرة للغزالي، ص 489- 490.

(2) السيرة للصلابي، ص 876 - 877.

- د. محمد سعيد البوطي رَحِمَهُ ٱللَّهُ:

ولله ما أروعها من كلمات، تلك التي ألقاها في سفوح عرفات، وراح يخاطب فيها الأجيال والتاريخ، بعد أن أدى الأمانة، ونصح للأمة، وجاهد في سبيل الدعوة إلى ربه ثلاثة وعشرين عامًا، لا يكل ولا يمل. ولله ما أروعها من ساعة، تلك التي اجتمع حول رسول الله ﷺ فيها الآلاف المؤلفة، اجتمعوا حوله خاشعين متضرعين، وطالما تربصوا به قبل ذلك متآمرين ومحاربين. آلاف مؤلفة يملئون ما يمتد به النظر من كل الجهات، تردد بلسان حالها قول الله ﷻ: ﴿إِنَّا لَنَنصُرُ رُسُلَنَا وَٱلَّذِينَ ءَامَنُواْ فِي ٱلۡحَيَوٰةِ ٱلدُّنۡيَا وَيَوۡمَ يَقُومُ ٱلۡأَشۡهَٰدُ ٥١﴾ [غافر].

وأخذ رسول الله ﷺ ينظر من خلال وجوههم إلى الأجيال المقبلة، إلى العالم الإسلامي الكبير الذي سيملأ شرق الأرض وغربها. وراح يلقي على مسامع هذا العالم خطابه المودع:

«أيها الناس اسمعوا قولي؛ فإني لا أدري لعلي لا ألقاكم بعد عامي هذا بهذا الموقف أبدًا ...».

وأنصتت الدنيا لتسمع قوله، وأنصت الحجر والقفر والمدر إلى الكلمة المودعة، ينطق بها فم رسول الله ﷺ بعد أن أنست وسعدت به الدنيا كلها ثلاثة وستين عامًا، ها هو اليوم يلمح بالرحيل، بعد أن قام بأمر ربه، وغرس الأرض بغراس الإيمان. وها هو الآن يلخص المبادئ التي جاء بها وجاهد في سبيلها في كلمات جامعة، وبنود معدودة، يلقي بها إلى سمع العالم.

فماذا كان أول بند منها؟

يا سبحان الله ما أجلَّ وأروع!. لكأنه ﷺ إنما كان يستلهم توصياته تلك من واقع المنزلقات التي سيتنكب فيها أقوام من أمته خلال الزمن، تائهين وراء غيرهم، ضائعين عن القبس الذي سيتركه بين أيديهم؛ فلقد كان أول بند منها هو قوله: «أيها الناس، إن

دماءكم وأموالكم عليكم حرام إلى أن تلقوا ربكم، كحرمة يومكم هذا، وكحرمة شهركم هذا».

ولقد كرر هذه التوصية نفسها مرة أخرى في خاتمة خطابه، وأكد ضرورة الاهتمام بها، وذلك عندما قال: «تعلمن أن كل مسلم أخ للمسلم، وأن المسلمين إخوة، فلا يحل لامرئ من أخيه إلا ما أعطاه عن طيب نفس منه، فلا تظلمن أنفسكم .. ألا هل بلغت؟»

ونحن نقول:

أجل والله، لقد بلغت يا سيدي .. ولعلنا اليوم أولى من ينبغي أن يجيبك: اللّهم لقد بلغت! .. وإن كنا في ذلك إنما نسجل مسئولية على أعناقنا، قصرنا كل التقصير في القيام بحقها.

أما البند الثاني: فلم يكن مجرد توصية، ولكنه قبل ذلك قرار، أعلن عنه للملأ كله .. لأولئك الذين كانوا من حوله، والأمم التي ستأتي من بعده.

وهذه هي صيغة القرار:

«ألا إن كل شيء من أمر الجاهلية، تحت قدمي موضوع! .. دماء الجاهلية موضوعة، وربا الجاهلية موضوع ...».

فما المعنى الذي تتضمنه صيغة هذا القرار؟ .. إنه يقول: إن كل ما كانت الجاهلية تفتخر وتتمسك به من تقاليد العصبية والقبلية، وفوارق اللغة والأنساب والعرق، واستعباد الإنسان أخره بأغلال الظلم والمراباة، قد بطل أمره ومات اعتباره، فهو اليوم جيفة منتنة، غيبتها شريعة الله في باطن الأرض، وأصبح مكانها من حياة المسلم اليوم تحت موطئ الأقدام .. إنه رجس ولى، وعماهة أدبرت، وغاشية بادت.

فمن ذا الذي يرجع بعد ذلك لينبش التراب عن الجيفة المنتنة فيعانقها؟! .. وأي عاقل يتقمم الأدران التي تخلص منها ليتمسح ثانية بها؟! .. وأي أَبيّ يعمد إلى القيد الذي كسره البارحة وألقاه، ليصلحه ويعود فيتقيد به اليوم؟!

أرجاس من تقاليد الجاهلية، أبعدها الرسول ﷺ عن منطلق الإنسانية وتقدمها الفكري والحضاري، وأعلن أنها قد عادت حثالة مدفونة تحت قدميه؛ كي يثبت للدنيا كلها ويسجل على مسمع القرون والأجيال، أنه ما من تائه يزعم التقدم الفكري إذ يعمد فينبش شيئًا من هذا الدفين القديم، إلا وهو يرجع القهقرى يسبح في أغوارٍ قصية من التاريخ المظلم القديم، وإن خيل إليه وهمه أنه إنما يتقدم صعدًا ويخطو مترقيًا.

وأما البند الثالث: فقد أعلن فيه رسول الله ﷺ عن تطابق الزمن إذ ذاك مع أسماء الأشهر المقسم عليها، وذلك بعد طول تلاعب بها من العرب في الجاهلية وصدر الإسلام. فقد كانوا - كما قال مجاهد وغيره - يجعلون حجهم كل عامين في شهر معين من السنة، فيحجون في ذي الحجة عامين، ثم يحجون في المحرم عامين وهكذا. فلما حج رسول الله ﷺ هذا العام، وافق حجه شهر ذي الحجة، وأعلن رسول الله ﷺ إذ ذاك أن الزمان قد استدار كهيأته يوم خلق الله السماوات والأرض. أي فلا تتلاعبوا بالأشهر تقديمًا وتأخيرًا، ولا حج بعد اليوم إلا في هذا الزمن الذي استقر اسمه: ذو الحجة.

وذكر بعضهم أن المشركين كانوا يحسبون السنة اثني عشر شهرًا وخمسة عشر يومًا. فكان الحج في رمضان وفي شوال وذي القعدة .. وفي كل شهر من السنة؛ وذلك بحكم استدارة الشهر بسبب زيادة الخمسة عشر يومًا. ولقد كان حج أبي بكر في السنة التاسعة من الهجرة واقعًا في شهر ذي القعدة بسبب ذلك. فلما كان العام المقبل (وفيه قام رسول الله ﷺ بحجة الوداع)، وافق حجه ذا الحجة في العشر منه، وطابق الأهلة. وأعلن حينئذ ﷺ نسخ الحساب القديم للزمن، وأن السنة إنما تعتبر بعد اليوم اثني عشر شهرًا فقط، فلا تداخل بعد اليوم. قال القرطبي: وهذا القول أشبه بقول النبي ﷺ: «إن الزمان استدار ...» أي إن زمان الحج عاد إلى وقته الأصلي الذي عينه الله يوم خلق السماوات والأرض، بأصل المشروعية التي سبق بها علمه(1).

---

(1) انظر: الجامع لأحكام القرآن للقرطبي 8/137- 138.

وفي البند الرابع: أوصى الرسول ﷺ خيرًا بالنساء، وأكد في كلمة مختصرة جامعة القضاء على الظلم البائد للمرأة في الجاهلية، وتثبيت ضمانات حقوقها وكرامتها الإنسانية التي تضمنتها أحكام الشريعة الإسلامية.

ولقد كانت هذه الحقيقة جديرة بتأكيد التوصية بها؛ بسبب أولئك المسلمين الذين كانوا قريبي عهد بتقاليدهم الجاهلية، التي تقضي بإهمال شأن المرأة وعدم الاعتراف بأي حق لها، ولعل هنالك حكمة أخرى لهذه التوصية والاهتمام بها، وهي أن يكون المسلمون في كل عهد وطور من الزمن، على بينة من الفرق الكبير بين كرامة المرأة الطبيعية التي ضمنتها شرعة الإسلام، وما يهدف إليه بعضهم من استباحة الوسائل المختلفة إلى التمتع والتلهي بها، وهو ما حاربه الإسلام.

وفي البند الخامس: وضع النبي ﷺ الناس من جميع المشكلات التي قد تعترض حياتهم، أمام مصدرين لا ثالث لهما، ضمن لهم - بعد الاعتصام بهما - الأمان من كل شقاء وضلال، هما: كتاب الله وسنة رسوله.

وإنك لتجده يتقدم بهذا التعهد والضمان إلى جميع الأجيال المتعاقبة من بعده؛ ليبين للناس أن صلاحية التمسك بهذين الدليلين ليس وقفًا على عصر دون آخر، وأنه لا ينبغي أن يكون لأي تطور حضاري أو عرف زمني أي سلطان أو تغلب عليهما.

وأما البند السادس: فقد أوضح فيه ﷺ ما ينبغي أن يكون عليه علاقة الحاكم أو الخليفة أو الرئيس مع الرعية أو الشعب .. إنها علاقة السمع والطاعة من الشعب للحاكم، مهما كان نسبه وشأنه ومظهره، ما دام يحكم بكتاب الله وسنة رسوله، فإذا حاد عنهما فلا سمع ولا طاعة، فلا مناط لولاء الحاكم وضرورة اتباعه إلا سيره على نهج الكتاب والسنة، وليكن بعد ذلك إن شاء عبدًا حبشيًّا مجدعًا، فلا يخفضه ذلك قيد شعرة عن غيره عند الله تعالى.

ولقد أوضح لنا رسول الله ﷺ بهذا، أنه لا امتياز للحاكم من وراء حدود كتاب الله تعالى وسنة نبيه، ولا يمكن لحاكميته أن ترفعه قيد شعرة فوق مستوى المنهج والحكم

الإسلامي؛ إذ هو في الحقيقة ليس بحاكم، ولا يتمتع بأي حاكمية حقيقية، ولكنه أمين من قبل المسلمين على تنفيذ حكم الله تعالى.

وفي الختام .. يشعر رسول الله ﷺ أنه أخرج مسئولية الدعوة وتبلغيها من عنقه، فها هو الإسلام قد انتشر، وها هي ضلالات الجاهلية والشرك قد تبددت، وها هي أحكام الشريعة الإلهية قد بُلغت، وها هو الوحي ينزل عليه ﷺ، يقول الله تعالى مخاطبًا البشر كلهم: ﴿ٱلۡيَوۡمَ أَكۡمَلۡتُ لَكُمۡ دِينَكُمۡ وَأَتۡمَمۡتُ عَلَيۡكُمۡ نِعۡمَتِي وَرَضِيتُ لَكُمُ ٱلۡإِسۡلَٰمَ دِينٗا﴾ [المائدة: 3].

ولكنه ﷺ يريد أن يطمئن إلى شهادة أمته بذلك أمام الله تعالى يوم القيامة عندما يُسألون .. فأعقب توصياته هذه لهم بأن نادى فيهم، قائلًا: إنكم ستُسألون عني، فما أنتم قائلون؟

وارتفعت الأصوات من حوله تصرخ: نشهد أنك قد بلغت، وأديت، ونصحت. وحيئنذ اطمأن الرسول العظيم ﷺ!.

لقد كان يريد أن يستوثق من هذه الشهادة التي سيلقى بها وجه ربه عز وجل .. ولقد اطمأن الحبيب الأعظم ﷺ إذ ذاك، وشعشع الرضى في عينيه، ونظر بهما إلى الأعلى، مشيرًا بسبابته إلى السماء، ثم إلى الناس يقول:

«اللّهم اشهد .. اللّهم اشهد .. اللّهم اشهد».

ويا ما أعظمها من سعادة!! .. سعادة رسول الله ﷺ بشبابه الذي أبلاه، وعمره الذي أمضاه في سبيل نشر شريعة ربه جل جلاله، وذلك حينما ينظر فيرى حصيلة الجهد الذي قدم، والعمر الذي بذل، أصواتًا ترتفع وتعج بتوحيد الله، وجباهًا تعنو ساجدة لدين الله، وقلوبًا خفاقة تجيش بحب الله. ألا ما أسعد حبيب الله إذ ذاك بذكرى ما لقيه من ظمأ الهواجر، وشتات السفر في القفار، وعذاب السخرية والإيذاء، في سبيل هذا الإيمان الذي شاده فوق أرض الله! .. فلتكتحل به عيناك يا سيدي سعادة وسرورًا، وليبارك لك ربك في وجيب قلبك اليوم حمدًا ونشوة وحبورًا.

ولا والله، ما كان ذلك شهادة تلك الآلاف المحتشدة من حولك فحسب، يا سيدي رسول الله، ولكنها شهادة المسلمين في كل جيل وعصر، إلى أن يرث الله الأرض ومن عليها، تعلن بلسان حالها ومقالها: نشهد يا رسول الله أنك قد بلغت وأديت ونصحت، فجزاك الله عنا خير ما جوزي نبي عن أمته.

ولكن مسئولية الدعوة قد انتقلت من بعدك إلى أعناقنا، وما أبعدنا اليوم عن القيام بحقها!، وما أشد خيبتنا بلقائك يا سيدي غدًا!، وإن علينا أوزارًا من التقاعس والتكاسل والركون إلى زهرة الحياة الدنيا، بينما يلتف من حولك أصحابك البررة الكرام، وإن في أيديهم شهادة الدم الذي سفكوه، والجهد الذي بذلوه، والدنيا التي حطموها تحت أقدامهم؛ نصرة لشريعتك، ودفاعًا عن دعوتك، وتأسيًا بجهادك.

أصلح الله حالنا وحال المسلمين جميعًا، وأيقظنا من سكرة الدنيا ونشوة الشهوات والأهواء، وتغمدنا بلطفه وكرمه وجوده(1).

* * *

(1) فقه السيرة للبوطي، ص 481- 486.

الفصل الثالث

من أخبار المجتمع المسلم في السنة العاشرة من الهجرة

- **اعتكاف النبي ﷺ عشرين يومًا في رمضان:**

في رمضان من هذه السنة، اعتكف رسول الله ﷺ في مسجده عشرين يومًا، وعارضه جبريل عَلَيْهِ السَّلَامُ بالقرآن مرتين.

عن أبي هريرة رَضِيَ اللَّهُ عَنْهُ، قال: كان النبي ﷺ يعتكف كل عام عشرة أيام، فلما كان العام الذي قبض فيه، اعتكف عشرين يومًا، وكان يعرض عليه القرآن في كل عام مرة، فلما كان العام الذي قبض فيه عرض عليه مرتين[1].

وكان رمضان من السنة العاشرة من الهجرة هو آخر رمضان يشهده رسول الله ﷺ قبل وفاته.

وفاة إبراهيم ابن النبي ﷺ:

وفي شهر ربيع الأول من هذا العام، وقيل: في رمضان، وقيل: في ذي الحجة، مات إبراهيم ابن النبي ﷺ من مارية القبطية، وهو ابن ستة عشر شهرًا، وقيل: أكثر من ذلك، وقد كان النبي - بمقتضى الفطرة البشرية - قد فرح بمولده فرحًا عظيمًا كما قدمنا، فلا عجب أن كان حزنه عليه شديدًا، وقد دخل عليه وهو يجود بنفسه، فصارت عيناه تذرفان بالدموع، فقال عبد الرحمن بن عوف: وأنت يا رسول الله؟! فقال: «يا ابن عوف، إنها رحمة»، وقال: «إن العين تدمع، والقلب يحزن، ولا نقول إلا ما يرضي ربنا، وإنا لفراقك يا إبراهيم لمحزونون»[2].

---

(1) صحيح البخاري (4998)، كتاب: فضائل القرآن، وابن ماجه (1769)، كتاب: الصيام.

(2) رواه البخاري (1280).

وقال أيضًا: «لولا أنه أمر حق، ووعد صدق، وإن آخرنا سيلحق أولنا لحزنا عليك حزنًا أشد من هذا». ثم غسل وكفن، وصلى عليه النبي وأصحابه، ودفن بالبقيع[1] بجوار السلف الصالح: عثمان بن مظعون.

وقد وافق يوم مات إبراهيم إن كسفت الشمس، فقال الناس: كسفت الشمس لموت إبراهيم!! فقال رسول الله ﷺ: «إن الشمس والقمر لا ينكسفان لموت أحد ولا لحياته، ولكنهما آيتان من آيات الله، فإذا رأيتموهما فقوموا وصلوا وادعوا الله»[2].

- **آداب الاستئذان:**

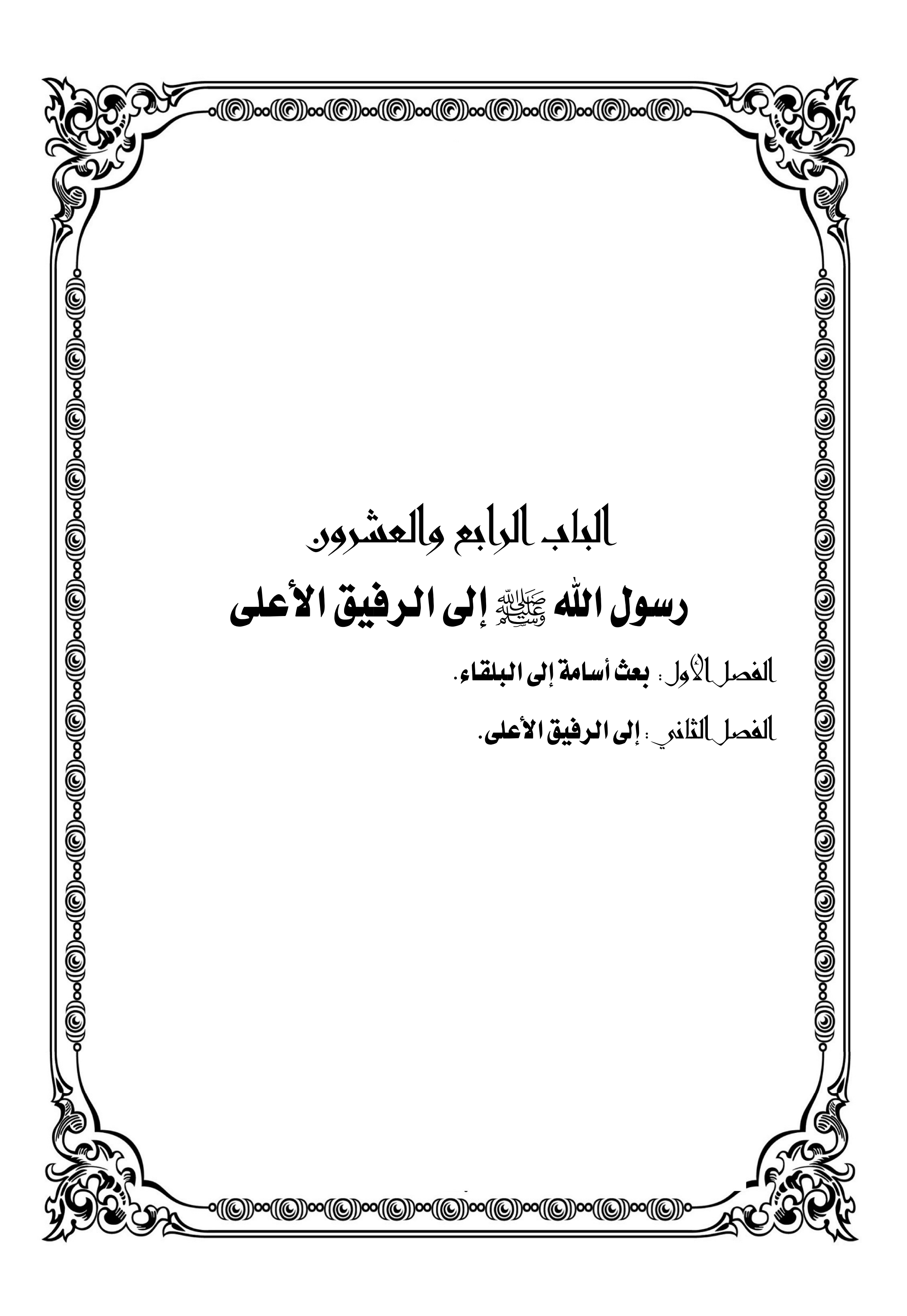
إن الإسلام منهاج حياة كامل، فهو ينظم حياة الإنسان في كل أطوارها ومراحلها، وفي كل علاقاتها وارتباطاتها، وفي كل حركاتها وسكناتها؛ ومن ثم يتولى بيان الآداب اليومية الصغيرة، كما يتولى بيان التكاليف العامة الكبيرة، وينسق بينها جميعًا، ويتجه بها إلى الله في النهاية[3]. وقد نزلت في هذه السنة آية سورة النور تبين أحكام الاستئذان في داخل البيوت: ﴿يَـٰٓأَيُّهَا ٱلَّذِينَ ءَامَنُوا۟ لِيَسْتَـْٔذِنكُمُ ٱلَّذِينَ مَلَكَتْ أَيْمَـٰنُكُمْ وَٱلَّذِينَ لَمْ يَبْلُغُوا۟ ٱلْحُلُمَ مِنكُمْ ثَلَـٰثَ مَرَّٰتٍ ۚ مِّن قَبْلِ صَلَوٰةِ ٱلْفَجْرِ وَحِينَ تَضَعُونَ ثِيَابَكُم مِّنَ ٱلظَّهِيرَةِ وَمِنۢ بَعْدِ صَلَوٰةِ ٱلْعِشَآءِ ۚ ثَلَـٰثُ عَوْرَٰتٍ لَّكُمْ ۚ لَيْسَ عَلَيْكُمْ وَلَا عَلَيْهِمْ جُنَاحٌۢ بَعْدَهُنَّ ۚ طَوَّٰفُونَ عَلَيْكُم بَعْضُكُمْ عَلَىٰ بَعْضٍ ۚ كَذَٰلِكَ يُبَيِّنُ ٱللَّهُ لَكُمُ ٱلْـَٔايَـٰتِ ۗ وَٱللَّهُ عَلِيمٌ حَكِيمٌ ﴿٥٨﴾﴾ [النور].

* * *

(1) **البقيع:** مقبرة أهل المدينة.

(2) رواه البخاري (1027)، وانظر السيرة لأبي شهبة، ج2، ص 582.

(3) سيد قطب، في ظلال القرآن.



الباب الرابع والعشرون

رسول الله ﷺ إلى الرفيق الأعلى

الفصل الأول: **بعث أسامة إلى البلقاء.**

الفصل الثاني: **إلى الرفيق الأعلى.**

نجاح الدعوة وأثرها

قبل أن نتقدم خطوة أخرى إلى مطالعة أواخر أيام الرسول ﷺ، ينبغي لنا أن نلقي نظرة إجمالية على العمل الجلل الذي امتاز به عن سائر الأنبياء والمرسلين، حتى توج الله هامته بسيادة الأولين والآخرين.

إنه ﷺ قيل له: ﴿يَٰٓأَيُّهَا ٱلۡمُزَّمِّلُ ۝١ قُمِ ٱلَّيۡلَ إِلَّا قَلِيلٗا ۝٢﴾ [المزمل] الآيات . و ﴿يَٰٓأَيُّهَا ٱلۡمُدَّثِّرُ ۝١ قُمۡ فَأَنذِرۡ ۝٢﴾ [المدثر] الآيات، فقام وظل قائمًا أكثر من عشرين عامًا، يحمل على عاتقه عبء الأمانة الكبرى في هذه الأرض، عبء البشرية كلها، وعبء العقيدة كلها، وعبء الكفاح والجهاد في ميادين شتى.

حمل عبء الكفاح والجهاد في ميدان الضمير البشري الغارق في أوهام الجاهلية وتصوراتها، المثقل بأثقال الأرض وجواذبها، والمكبل بأوهاق الشهوات وأغلالها، حتى إذا خلص هذا الضمير في بعض صحابته مما يثقله من ركام الجاهلية والحياة الأرضية، بدأ معركة أخرى في ميدان آخر؛ بل معارك متلاحقة مع أعداء دعوة الله المتألبين عليها، وعلى المؤمنين بها، الحريصين على قتل هذه الغرسة الزكية في منبتها، قبل أن تنمو وتمد جذورها في التربة، وفروعها في الفضاء، وتظل مساحات أخرى .. ولم يكد يفرغ من معارك الجزيرة العربية، حتى كانت الروم تعد لهذه الأمة الجديدة، وتتهيأ للبطش بها على تخومها الشمالية.

وفي أثناء هذا كله لم تكن المعركة الأولى – معركة الضمير – قد انتهت، فهي معركة خالدة، الشيطان صاحبها، وهو لا يفتر لحظة عن مزاولة نشاطه في أعماق الضمير الإنساني ، ومحمد ﷺ قائم على دعوة الله هناك، وعلى المعركة الدائبة في ميادينها المتفرقة، في شظف من العيش، والدنيا مقبلة عليه، وفي جهد وكد، والمؤمنون يستروحون من حوله ظلال الأمن والراحة، في نصب دائم لا ينقطع، وفي صبر جميل على هذا كله، وفي قيام الليل، وفي عبادة لربه، وترتيل لقرآنه، وتبتل إليه كما أمره أن يفعل(1).

(1) سيد قطب: في ظلال القرآن 29/168، 169.

وهكذا عاش في المعركة الدائبة المستمرة أكثر من عشرين عامًا، لا يلهيه شأن عن شأن في خلال هذا الأمد، حتى نجحت الدعوة الإسلامية على نطاق واسع تتحير له العقول؛ فقد دانت لها الجزيرة العربية، وزالت غبرة الجاهلية عن آفاقها، وصحت العقول العليلة، حتى تركت الأصنام؛ بل كسرت، وأخذ الجو يرتج بأصوات التوحيد، وسمع الأذان للصلوات يشق أجواء الفضاء خلال الصحراء التي أحياها الإيمان الجديد، وانطلق القراء شمالًا وجنوبًا، يتلون آيات الكتاب، ويقيمون أحكام الله.

وتوحدت الشعوب والقبائل المتناثرة، وخرج الإنسان من عبادة العباد إلى عبادة الله، فليس هناك قاهر ومقهور، وسادات وعبيد، وحكام ومحكومون، وظالم ومظلوم، وإنما الناس كلهم عباد الله، إخوان متحابون، متمثلون لأحكامه؛ أذهب الله عنهم عُبِّيَّة الجاهلية ونخوتها وتعاظمها بالآباء، ولم يبق هناك فضل لعربي على عجمي، ولا لعجمي على عربي، ولا لأحمر على أسود إلا بالتقوى، الناس كلهم بنو آدم، وآدم من تراب.

وهكذا تحققت - بفضل هذه الدعوة - الوحدة العربية، والوحدة الإنسانية والعدالة الاجتماعية، والسعادة البشرية في قضاياها ومشاكلها الدنيوية، وفي مسائلها الأخروية، فتقلب مجرى الأيام، وتغير وجه الأرض، وانعدل خط التاريخ، وتبدلت العقلية.

إن العالم كانت تسيطر عليه روح الجاهلية - قبل الدعوة - ويتعفن ضميره، وتأسن روحه، وتختل فيه القيم والمقاييس، ويسوده الظلم والعبودية، وتجتاحه موجة من الترف الفاجر والحرمان التاعس، وتغشاه غاشية الكفر والضلال والظلام، على الرغم من الديانات السماوية، التي كانت قد أدركها التحريف، وسرى فيها الضعف، وفقدت سيطرتها على النفوس، واستحالت طقوسًا جامدة لا حياة فيها ولا روح.

فلما قامت هذه الدعوة بدورها في حياة البشرية؛ خلصت روح البشر من الوهم والخرافة، ومن العبودية والرق، ومن الفساد والتعفن، ومن القذارة والانحلال، وخلصت المجتمع الإنساني من الظلم والطغيان، ومن التفكك والانهيار، ومن فوارق الطبقات، واستبداد الحكام، واستذلال الكهان، وقامت ببناء العالم على أسس من العفة

والنظافة، والإيجابية والبناء، والحرية والتجدد، ومن المعرفة واليقين، والثقة والإيمان والعدالة والكرامة، ومن العمل الدائب؛ لتنمية الحياة، وترقية الحياة، وإعطاء كل ذي حق حقه في الحياة[1].

وبفضل هذه التطورات شاهدت الجزيرة العربية نهضة مباركة، لم تشاهد مثلها منذ نشأ فوقها العمران، ولم يتألق تاريخها تألقه في هذه الأيام الفريدة من عمرها.

فلما كانت السنة الحادية عشرة من الهجرة[2] .. كان الخطب الأعظم .. وكانت وفاة الحبيب ﷺ ولحاقه بالرفيق الأعلى، فنقله ربه ﷻ إلى النعيم الأبدي في محلة عالية رفيعة، ودرجة في الجنة لا أعلى منها، كما قال تعالى: ﴿وَلَلْآخِرَةُ خَيْرٌ لَّكَ مِنَ الْأُولَىٰ ﴿٤﴾ وَلَسَوْفَ يُعْطِيكَ رَبُّكَ فَتَرْضَىٰ ﴿٥﴾﴾ [الضحى]. وذلك بعدما أكمل أداء الرسالة التي أمره الله تعالى بإبلاغها، ونصح أمته، ودلهم على كل خير، وحذرهم ونهاهم عما فيه مضرة عليهم في دنياهم وأخراهم. وبعدما غزا سبعًا وعشرين غزوة، قاتل في تسع منها؛ فقاتل رسول الله ﷺ في يوم بدر سنة اثنتين، وفي أحد سنة ثلاث، وفي الخندق وبني قريظة سنة خمس، وفي بني المصطلق بالمريسيع، ثم في خيبر سنة سبع، وقاتل أهل مكة سنة ثمان، ثم قاتل هوازن، وحاصر أهل الطائف.

وبعث ﷺ من البعوث والسرايا ثماني وثلاثين[3].

فزالت غبرة الجاهلية عن آفاق الجزيرة، كما تزول بقايا الليل أمام طلائع الشروق، وصحت العقول العليلة، فلم تعد تخشى وترجو إلا الله بعدما ظلت دهورًا تعبد أصنامًا جامدة، وسمع الأذان لصلوات يشق أجواز الفضاء خلال الصحراء التي أحياها الإيمان الجديد. وانطلق القراء شمالًا وجنوبًا يتلون آيات الكتاب، ويقيمون أحكام الله، ويعلمون العرب ما لم يعلموا هم ولا آباؤهم.

---

(1) من كلمة سيد قطب في مقدمة: ماذا خسر العالم بانحطاط المسلمين، ص 14.

(2) انظر: الرحيق المختوم، ص 455- 457.

(3) انظر البداية والنهاية 5/ 233- 242.

وكان النبي في المدينة يستقبل الوفود ويشيعها، بعد ما ينفخ فيها من روحه الكبير، ويزودها بحكمته الباهرة، فتعود من حيث أتت لتنشئ في مواطنها القصية معاقل للإسلام، وصحائف بيضًا في تاريخ أمة.

ولم يكتف النبي ﷺ بترقب الوفود المقبلة، بل أرسل رجاله الكبار في البقاع النائية؛ ليزيد رقعة الإسلام اتساعًا، وتتقلص الوثنية والشرك إلى غير رجعة(1).

ولما كان يوم الاثنين الثاني عشر من شهر ربيع الأول من السنة الحادية عشرة من الهجرة المباركة، توفي رسول الله ﷺ، ولحق بالرفيق الأعلى .. ﴿وَمَا مُحَمَّدٌ إِلَّا رَسُولٌ قَدْ خَلَتْ مِن قَبْلِهِ ٱلرُّسُلُ ۚ أَفَإِيْن مَّاتَ أَوْ قُتِلَ ٱنقَلَبْتُمْ عَلَىٰٓ أَعْقَٰبِكُمْ ۚ وَمَن يَنقَلِبْ عَلَىٰ عَقِبَيْهِ فَلَن يَضُرَّ ٱللَّهَ شَيْـًٔا ۗ وَسَيَجْزِى ٱللَّهُ ٱلشَّٰكِرِينَ ﴿١٤٤﴾﴾ [آل عمران].

* * *

(1) انظر: فقه السيرة للغزالي، ص 484- 485.

الفصل الأول

بعث أسامة إلى البلقاء

استُهلت السنة الحادية عشرة من الهجرة والنبي ﷺ بالمدينة، بعد أن عاد من حجة الوداع موفور الكرامة، مطمئن القلب، منشرح الصدر؛ أن بلغ الرسالة، وأدى الأمانة، وأكمل الله الدين، وأتم النعمة، وأظهر الإسلام(1). وما أن قفل إلى المدينة حتى أخذ يعبئ جيشًا يقاتل به الروم؛ فإن كبرياء هذه الدولة على الإسلام، جعلها تأبى عليه حق الحياة، وحملها على أن تقتل من أتباعها من يدخل فيه(2)، فندب رسول الله ﷺ الناس في أواخر صفر لغزو الروم بالبلقاء وفلسطين، وفيهم كبار المهاجرين والأنصار، وأمَّر عليهم أسامة بن زيد رَضِيَ اللَّهُ عَنْهُ.

قال ابن إسحاق:

ثم قفل رسول الله ﷺ، فأقام بالمدينة بقية ذي الحجة والمحرم وصفر، وضرب على الناس بعثًا إلى الشام، وأمَّر عليهم أسامة بن زيد بن حارثة مولاه، وأمره أن يوطئ الخيل تخوم البلقاء والداروم من أرض فلسطين، فتجهز الناس، وأوعب مع أسامة بن زيد المهاجرون الأولون (3).

لماذا أسامة؟:

ولما كان أسامة شابًّا لا يتجاوز الثمانية عشر، فإن البعض ساءتهم هذه الإمارة، واعترضوا أن يقود الرجال الكبار شابٌّ حدث، فراحوا يقولون مستنكرين:

أقر غلامًا حدثًا على جلة المهاجرين والأنصار!!.

فخرج رسول الله ﷺ إلى الناس، وقد عصب رأسه، وخطب فيهم قائلًا:

---

(1) السيرة لابن هشام، ج2، ص 585.

(2) فقه السيرة للغزالي، ص 491

(3) ابن هشام (33714).

«إن تطعنوا في إمارة أسامة بن زيد، فقد طعنتم في إمارة أبيه من قبله، وايم الله إن كان لأحب الناس إليَّ، وايم الله إن هذا لها لخليق - يريد أسامة - وايم الله إن كان لأحبهم إليَّ من بعده، فأوصيكم به؛ فإنه من صالحيكم»[1].

ولا شك أن النبي ﷺ لا يلتفت في ولايته إلا إلى الجدارة؛ فمن استحق منصبًا بكفايته قدمه له، غير مكترث بحداثة سنه؛ فإن كِبَر السن لا يهب للأغبياء عقلًا، ولا الصغر ينقص الأتقياء فضلًا[2].

وقد كان تأمير أسامة حكمة بالغة من رسول الله ﷺ .. فقد حطم في نفوس من ساءتهم إمارته بقايا الجاهلية ومقاييسها التي كانوا يتفاضلون بها، فلا صغر السن ولا الرق القديم الذي وقع على أبيه زيد منع رسول الله ﷺ من أن يجعله أميرًا على جيش فيه عامة الصحابة[3]، ناهيك عن أن تحريك هذا الشاب الحدث إلى موضع مقتل أبيه رَضِيَ اللَّهُ عَنْهُ فيه حث له على الاقتصاص من قتل أبيه، مع ما عنده من نية الجهاد والتضحية في سبيل الله[4] .

خروج جيش أسامة إلى ظاهر المدينة :

تجهز الناس، وأوعب مع أسامة ثلاثة آلاف من خيار المسلمين، فيهم كبار المهاجرين والأنصار، وخرج أسامة رَضِيَ اللَّهُ عَنْهُ بجيشه إلى ظاهر المدينة، فعسكر بالجرف (مكان على فرسخ من المدينة)؛ استعدادًا للسير إلى الروم، وفي هذه الأثناء اشتدت برسول الله ﷺ شكواه التي قبضه الله فيها، فأقام الجيش هناك، ينظرون ما الله قاض في هذا الأمر[5] .

---

(1) متفق عليه، واللفظ لمسلم (7/131)، ورواه البخاري عن عبد الله بن عمر (8/124)، وصححه الترمذي (4/350).

(2) فقه السيرة للغزالي، ص 492.

(3) السيرة لمهدي رزق الله، ص 686.

(4) انظر السيرة لأبي شهبة، ج 2، ص 586.

(5) انظر: فقه السيرة للبوطي، ص 489-490.

الفصل الثاني

إلى الرفيق الأعلى

بعد عودة الحبيب ﷺ من حجة الوداع، أدرك بروحه الشفافة الصافية بعض ما سيكون مخبوءًا وراء حجب الغيب بقدرة الله تعالى، وما عسى أن يحدث له فيما يستقبل من الزمان، وفهم بعقله المستنير بنور الإيمان ما وراء الألفاظ والأحداث من إشارات وتلميحات[1]، وكان ﷺ يدرك حقيقة بشريته، وأنه كغيره من البشر سوف يذوق الموت ويعاني سكراته، كما ذاقه من قبل إخوانه من الأنبياء[2]: ﴿إِنَّكَ مَيِّتٌ وَإِنَّهُم مَّيِّتُونَ ﴿٣٠﴾﴾[الزمر] .. ﴿وَمَا جَعَلْنَا لِبَشَرٍ مِّن قَبْلِكَ الْخُلْدَ أَفَإِيْن مِّتَّ فَهُمُ الْخَالِدُونَ ﴿٣٤﴾﴾ [الأنبياء]، وروى الطبراني عن ابن عباس رَضِيَ اللَّهُ عَنْهُمَا، أن رسول الله ﷺ حين نزلت عليه: ﴿إِذَا جَاءَ نَصْرُ اللَّهِ وَالْفَتْحُ ﴿١﴾ وَرَأَيْتَ النَّاسَ يَدْخُلُونَ فِي دِينِ اللَّهِ أَفْوَاجًا ﴿٢﴾ فَسَبِّحْ بِحَمْدِ رَبِّكَ وَاسْتَغْفِرْهُ إِنَّهُ كَانَ تَوَّابًا ﴿٣﴾﴾ [النصر] نُعِيَتْ إليه نفسه، فأخذ بأشد ما كان قط اجتهادًا في أمر الآخرة [3].

المبحث الأول: رسول الله ﷺ يودع أهله وأصحابه

فلما بان له ﷺ أن ساعة الفراق قد اقتربت، اختص بعض أهله وأصحابه بعلم ذلك، بل إنه ﷺ أعلم من شهد معه حجة الوداع جميعًا بأنه قد لا يحج بعد حجته هذه، في إشارة إلى توديعهم وقرب أجله.

قال ابن رجب: وما زال ﷺ يعرض باقتراب أجله في آخر عمره؛ فإنه لما خطب في حجة الوداع قال للناس: «خذوا عني مناسككم؛ فلعله لا ألقاكم بعد عامي هذا»، فطفق يودع الناس، فقالوا: هذه حجة الوداع[4].

(1) السيرة لأبي شهبة (587/2) بتصرف.

(2) السيرة للصلابي، ص 880.

(3) مجمع الزوائد (26/9) وأحد أسانيده رجاله ثقات.

(4) انظر: لطائف المعارف، ص 105، والسيرة للصلابي، ص 882.

وقد روى الإمام مسلم، عن جابر بن عبد الله رَضِيَ اللَّهُ عَنْهُمَا، قال: رأيت النبي ﷺ يرمي على راحلته يوم النحر، ويقول: «لتأخذوا مناسككم؛ فإني لا أدري لعلي لا أحج بعد حجتي هذه»(1).

وحين نزلت على رسول الله ﷺ: ﴿ ٱلْيَوْمَ أَكْمَلْتُ لَكُمْ دِينَكُمْ وَأَتْمَمْتُ عَلَيْكُمْ نِعْمَتِى وَرَضِيتُ لَكُمُ ٱلْإِسْلَٰمَ دِينًا ﴾ [المائدة:3] ، بكى عمر رَضِيَ اللَّهُ عَنْهُ، فقيل له: ما يبكيك؟ قال: إنه ليس بعد الكمال إلا النقصان، وكأنه استشعر وفاة النبي ﷺ (2).

وروى الحافظان أبو بكر البزار والبيهقي، عن ابن عمر رَضِيَ اللَّهُ عَنْهُمَا، قال: نزلت هذه السورة: ﴿إِذَا جَآءَ نَصْرُ ٱللَّهِ وَٱلْفَتْحُ ۝١﴾ [النصر] في أوسط أيام التشريق، فعرف رسول الله ﷺ أنه الوداع، فأمر براحلته القصواء فرحلت، ثم ذكر خطبته في ذلك اليوم كما تقدم(3).

وأخبر رسول الله ﷺ معاذ بن جبل رَضِيَ اللَّهُ عَنْهُ باقتراب أجله، وأنه يمكن ألا يلقاه بعد عامه هذا، حين بعثه إلى اليمن، وخرج معاذ راكبًا والنبي ﷺ يمشي تحت راحلته، فقال: «يا معاذ، عسى أنك لا تلقاني بعد عامي هذا، فتمر بقبري ومسجدي»، فبكى معاذ رَضِيَ اللَّهُ عَنْهُ لفراقه ﷺ، فقال: «لا تبك يا معاذ؛ فإن البكاء من الشيطان»(4).

ورأى العباس رَضِيَ اللَّهُ عَنْهُ في المنام كأن الأرض تنزع إلى السماء (أي تجذب) بأشطان (حبال) شداد، فقص ذلك على النبي ﷺ، فقال: «ذاك وفاة ابن أخيك»(5).

وروى البخاري في صحيحه عن عائشة رَضِيَ اللَّهُ عَنْهَا، قالت: اجتمع نساء رسول الله ﷺ عنده، لم يغادر منهن امرأة، فجاءت فاطمة تمشي، لا تخطئ مشيتها مشية أبيها، فقال:

---

(1) مسلم، كتاب الحج، (رقم 1291).

(2) البداية والنهاية 5/ 233.

(3) المصدر السابق 5/ 234.

(4) مجمع الزوائد (22/9)، وصححه الألباني في الصحيحه (رقم 2497)

(5) البزار (397/1)، وانظر السيرة للصلابي، ص 883.

«مرحبا يا بنيتي» فأقعدها يمينه أو شماله، ثم سارّها فبكت، ثم سارّها فضحكت، فقلت لها: خصك رسول الله بالسرار وأنت تبكين؟ فلما أن قامت قلت لها أخبريني ما سارّك؟ فقالت: ما كنت لأفشي سر رسول الله ﷺ، فلما توفي قلت لها: أسألك لما لي عليك من الحق لما أخبرتيني، قالت: أما الآن فنعم، قالت: سارّني في الأول قال لي: «إن جبريل كان يعارضني في القرآن كل سنة مرة، وقد عارضني في هذا العام مرتين، ولا أرى ذلك إلا اقتراب أجلي، فاتقي الله واصبري، فنعم السلف أنا لك»، فبكيت، ثم سارّني فقال: «أما ترضين أن تكوني سيدة نساء المؤمنين، أو سيدة نساء هذه الأمة» (1) .

المبحث الثاني: مرضه ﷺ

شعر رسول الله ﷺ بوعكة المرض الذي نزل به أواخر صفر من السنة الحادية عشرة، وبدأت آلامه صُداعًا حادًّا عاناه في سكون، حتى ثقل عليه الوجع (2) .

قال ابن إسحاق: فبينا الناس على ذلك (أي من انشغالهم ببعث أسامة) ابتدئ رسول الله ﷺ بشكواه الذي قبضه الله فيه إلى ما أراد به من كرامته في ليال بقين من صفر، أو في أول شهر ربيع الأول (3).

استغفاره لأهل البقيع وصلاته على شهداء أحد:

وكان ابتداء شكواه ﷺ ما رواه مولاه أبو مويهبة رَضِيَ اللَّهُ عَنْهُ، فقال: بعثني رسول الله ﷺ من جوف الليل، فقال: يا أبا مويهبة إني قد أمرت أن أستغفر لأهل هذا البقيع، فانطلق معي. فانطلقت معه، فلما وقفنا عليهم قال: «السلام عليكم يا أهل المقابر، ليهن لكم ما أصبحتم فيه مما أصبح الناس فيه، أقبلت الفتن كقطع الليل المظلم، يتبع آخرها أولها، الآخرة شر من الأولى». ثم أقبل عليَّ فقال: «يا أبا مويهبة إني قد أوتيت مفاتيح خزائن الدنيا والخلد فيها ثم الجنة، فخُيِّرت بين ذلك وبين لقاء ربي والجنة». قال: قلت:

---

(1) البخاري، كتاب الاستئذان، رقم (6285)، (62866).

(2) فقه السيرة للغزالي، ص 494.

(3) ابن هشام (4/385).

بأبي أنت وأمي! فخذ مفاتيح خزائن الدنيا والخلد فيها ثم الجنة. قال: «لا والله يا أبا مويهبة، لقد اخترت لقاء ربي والجنة». ثم استغفر لأهل البقيع، ثم انصرف، فابتدأ برسول الله وجعه الذي قُبض فيه[1].

وفي رواية عند الإمام أحمد: (... فما لبث بعد ذلك إلا سبعًا أو ثماني حتى قبض، ولم ينسَ ﷺ شهداء أحد، فقد كانت لهم في قلبه مكانة، فخرج فصلى عليهم، كالمودع للأحياء والأموات) .. وقد روى البخاري في باب الصلاة على الشهيد، عن عقبة بن عامر الجهني رَضِيَ اللَّهُ عَنْهُ، قال: خرج النبي ﷺ يومًا فصلى على أهل أحد صلاته على الميت، ثم انصرف إلى المنبر، فقال: «إني فرط لكم، وأنا شهيد عليكم، وإني والله لأنظر إلى حوضي الآن، وإني أعطيت مفاتيح خزائن الأرض - أو مفاتيح الأرض - وإني والله ما أخاف عليكم أن تشركوا بعدي، ولكن أخاف عليكم أن تنافسوا فيها - أي في الدنيا»[2].

بداية المرض:

ابتدأ المرض بالحبيب ﷺ في اليوم التاسع والعشرين من شهر صفر سنة 11 هـ، وكان يوم الاثنين، شهد فيه رسول الله ﷺ جنازة في البقيع، فلما رجع وهو في الطريق، أخذه صداع في رأسه، واتقدت الحرارة بجسده الشريف، حتى إنهم كانوا يجدون أثرها فوق العصابة التي تعصب بها رأسه[3].

روى ابن إسحاق، عن عائشة رَضِيَ اللَّهُ عَنْهَا، قالت: رجع رسول الله ﷺ من البقيع، فوجدني وأنا أجد صداعًا في رأسي وأنا أقول: وارأساه.

فقال: «بل أنا والله يا عائشة وارأساه».

---

(1) رواه ابن إسحاق بإسناد حسن، ابن هشام (4/385-386)، والحاكم في المستدرك (3/55، 56)، وأقره الذهبي.

(2) البخاري، كتاب الجنائز، باب الصلاة على الشهيد، رقم (1344).

(3) انظر: الرحيق المختوم، ص 464-465.

قالت: ثم قال: «وما ضرك لو مُتِّ قبلي فقمت عليك، وكفنتك، وصليت عليك، ودفنتك».

قالت: قلت: والله لكأني بك لو فعلت ذلك لقد رجعت إلى بيتي فأعرست فيه ببعض نسائك.

قالت: فتبسم رسول الله ﷺ وتتام به وجعه، وهو يدور على نسائه حتى استعزبه (أي اشتد به المرض) في بيت ميمونة، فدعا نساءه فاستأذنهن أن يمرض في بيتي، فأذنَّ له[1].

وكانت جميع أيام المرض ثلاثة عشر أو أربعة عشر يومًا، صلى النبي ﷺ بالناس في أحد عشر يومًا منها[2].

اشتداد المرض وتمريضه ﷺ في بيت عائشة:

لما ثقل على رسول الله ﷺ الوجع، دعا نساءه فاستأذنهن في أن يمرض في بيت عائشة رَضِيَ اللَّهُ عَنْهَا فأذِنَّ له؛ لما رأين من ارتياحه إلى خدمتها له، ولما علمن من حبه لها، فخرج من عند ميمونة رَضِيَ اللَّهُ عَنْهَا بين عمه العباس وابن عمه علي رَضِيَ اللَّهُ عَنْهُمَا، عاصبًا رأسه، تخط رجلاه الأرض، حتى أتى بيتها، فقضى عندها آخر أسبوع من حياته ﷺ.

روى البخاري عن هشام بن عروة، قال: أخبرني أبي عن عائشة، أن رسول الله ﷺ كان يسأل في مرضه الذي مات فيه: «أين أنا غدًا، أين أنا غدا»، يريد يوم عائشة، فأذِنَّ له أزواجه أن يكون حيث شاء، فكان في بيت عائشة حتى مات عندها.

وروى البخاري أيضًا عن عبيد الله بن عبد الله بن عتبة، أن عائشة زوج النبي ﷺ قالت: لما ثقل رسول الله ﷺ واشتد وجعه، استأذن أزواجه أن يمرض في بيتي، فأذِنَّ له، فخرج وهو بين الرجلين تخط رجلاه الأرض، بين عباس، قال: ابن عبد المطلب، وبين رجل آخر، قال عبيد الله: فأخبرت عبد الله يعني: ابن عباس بالذي قالت عائشة، فقال لي عبد الله بن عباس: هل تدري من الرجل الآخر الذي لم تسم عائشة؟

---

(1) ابن هشام (4/386-387).

(2) انظر الرحيق المختوم، ص 465، قال ابن حجر في الفتح (16/260) واختلف في مدة مرضه؛ فالأكثر على أنها ثلاثة عشر يومًا، وقيل بزيادة يوم، وقيل بنقصه، وقيل عشرة أيام.

قلت: لا

قال ابن عباس: هو علي.

فكانت عائشة زوج النبي ﷺ تحدث أن رسول الله ﷺ لما دخل بيتي واشتد به وجعه، قال: هريقوا عليَّ من سبع قِرَب لم تحلل أوكيتهن (لم تحل الأربطة من رأسها فلم ينقص منها شيء)؛ لعلي أعهد إلى الناس، فأجلسناه في مِخْضَبٍ (وعاء تغسل فيه الثياب) لحفصة زوج النبي ﷺ، ثم طفقنا نصب عليه من تلك القرب، حتى جعل يشير إلينا أن قد فعلتن (فكفى ذلك). قالت: عائشة: ثم خرج إلى الناس، فصلى لهم وخطبهم[1].

وكانت عائشة رَضِيَ اللَّهُ عَنْهَا ترقيه بمعوذات من القرآن، كما روى البخاري ومسلم عن عروة بن الزبير (ابن أخت عائشة)، أن عائشة رَضِيَ اللَّهُ عَنْهَا أخبرته أن رسول الله ﷺ كان إذا اشتكى نفث (نفخ) على نفسه بالمعوذات ومسح عنه بيده، فلما اشتكى وجعه الذي توفي فيه، طَفِقْتُ أنفث على نفسه بالمعوذات التي كان ينفث، وأمسح بيد النبي ﷺ عنه.

رسول الله ﷺ في المسجد يخطب:

لما صبوا على رسول الله ﷺ الماء - كما أمرهم - أحس بأن شدة الحر تخلت عن بدنه، ووجد في نفسه خفة، فاستدعى الفضل ابن عمه العباس رَضِيَ اللَّهُ عَنْهُمَا، فقال: خذ بيدي يا فضل - وهو موعوك معصوب الرأس.

قال الفضل: فأخذت بيده حتى دخل المسجد، وجلس على المنبر، ثم قال: ناد في الناس . فاجتمعوا إليه.

وكانت ظهيرة تظللها الكآبة وتغمرها الرقَّة، اشرأبت فيها الأعناق إلى الرجل الذي أحيى موات القلوب، وأخرجهم وذرياتهم ونساءهم من الظلمات إلى النور، تطلعت إليه الأعين الحائرة فرأته متعبًا.

---

(1) ورواه مسلم من طرق عن الزهري (4/1721-1724، حديث 2191-2192)، وانظر البخاري، الفتح (16/262- 281، حديث 4429-4451).

انهزمت العافية في بدنه الجَلْد أمام سطوة المرض العاتي.

إلا أنه أخذ يحدثهم ويربيهم – على عهدهم به دائمًا – وأنصتوا، فإذا هم يسمعون منه عجبًا .. إنه لما أحس بدنو أجله أحب أن يلقى الله وليس هناك بشر يطلبه بتَبِعة.

إنه تحرى العدالة طيلة حياته في شئونه كلها؛ لكن من يدري؟! ربما عرض له سهوٌ مما يعرض لبني آدم، أو خطأ، فجار، وهو الذي يبرأ من الجوْر وذويه!!.

إذن ليخطب الناس في هذا حتى يستريح ضميره .. قال: «أما بعد، أيها الناس: فإني أحمد الله الذي لا إله إلا هو.

فمن كنت جلدت له ظهرًا فهذا ظهري فليستقدْ منه! ومن كنت شتمت له عرضًا فهذا عرضي فليستقد منه!.

ألا وإن الشحناء ليست من طبعي ولا من شأني .. ألا وإن أحبكم إليَّ من أخذ مني حقًّا إن كان له، أو أحلني منه، فلقيت الله وأنا طيبُ النفس.

وقد أرى أن هذا غير مغن عني حتى أقوم فيكم مرارًا.

قال الفضل: ثم نزل فصلى الظهر، ثم رجع فجلس على المنبر، فعاد لمقالته الأولى في الشحناء وغيرها.

فقام رجل فقال: يا رسول الله، إن لي عندك ثلاثة دراهم؟ فقال: أعطه يا فضل.

ثم قال النبي: أيها الناس من كان عنده شيء فليؤده، ولا يقل: فضوح الدنيا؛ ألا و إن فضوح الدنيا أيسر من فضوح الآخرة!.

فقام رجل فقال: يا رسول الله عندي ثلاثة دراهم غللتها في سبيل الله.

قال: ولم غللتها؟ قال: كنت إليها محتاجًا. قال: خذها منه يا فضل.

ثم قال: أيها الناس، من خشي من نفسه شيئًا فليقم أدْعُ له.

فقام رجل فقال: يا رسول الله، إني لكذاب، إني لفاحش، إني لنئوم! فقال النبي: اللَّهم ارزقه صدقًا، وإيمانًا، وأذهب عنه النوم.

ثم قام رجل آخر فقال: والله يا رسول الله إني لكذاب، وإني لمنافق، وما من شيء إلا قد جنيته.

فقام عمر بن الخطاب فقال له: فضحت نفسك! فقال النبي: يا ابن الخطاب، فضوح الدنيا أهون من فضوح الآخرة، اللَّهم ارزقه صدقًا، وإيمانا، وصير أمره إلى خير»[1].

ثم أوصى ﷺ بالأنصار، فقال:

«أوصيكم بالأنصار، فإنهم كَرِشي وعَيْبتي، وقد قضوا الذي عليهم، وبقي الذي لهم، فاقبلوا من محسنهم وتجاوزوا عن مسيئهم»، وقال: «الأنصار كرشي وعيبتي، والناس سيكثرون ويقلون، فاقبلوا من محسنهم واعفوا عن مسيئهم»[2].

ثم قال: «إن عبدًا خيره الله بين أن يؤتيه زهرة الدنيا ما شاء، وبين ما عنده، فاختار ما عنده» قال أبو سعيد الخدري: فبكى أبو بكر، قال: فديناك بآبائنا وأمهاتنا، فعجبنا له، فقال الناس: انظروا إلى هذا الشيخ (يعنون أبا بكر)، يخبر رسول الله ﷺ عن عبد خيره الله بين أن يؤتيه من زهرة الدنيا، وبين ما عنده، وهو يقول: فديناك بآبائنا وأمهاتنا، فكان رسول الله ﷺ هو المخير، وكان أبو بكر أعلمنا[3].

ثم قال رسول الله ﷺ:« إن أمن الناس عليَّ في صحبته وماله أبو بكر، ولو كنت متخذًا خليلًا غير ربي لاتخذت أبا بكر خليلًا، ولكن أخوة الإسلام ومودته، لا يبقين في المسجد باب إلا سد، إلا باب أبي بكر»[4].

(1) فقه السيرة للغزالي، ص 494-496.

(2) صحيح البخاري (1/536).

(3) البخاري من كتاب فضائل الصحابة، رقم 3654.

(4) متفق عليه، مشكاة المصابيح (2/548)، صحيح البخاري (1/22، 429، 449، 2/638).

وكان ذلك في يوم الأربعاء قبل خمسة أيام من وفاته ﷺ [1].

وعاد النبي ﷺ إلى بيته؛ لينام في فراش السقام، وهو الذي لم يتعود أن يركن إليه، أو يهدأ فيه. كانت هناك مهام كثيرة ترتقب صحوه ليبت فيها، ولكن أعباء العلة حبسته في قيودها، فلم يستطع منها فكاكًا، وإذا استطاع أن يخرج في فترات قليلة، تخف فيها حدة المرض، فإلى المسجد؛ ليلقي نظرات أخيرة على الأمة التي صنعها، والرجال الذين أحبهم [2].

يوم الخميس وما يوم الخميس؟!:

شهد يوم الخميس قبل وفاة الحبيب بأربعة أيام، كتابته ﷺ كتابًا لأصحابه، أوصاهم فيه بإخراج المشركين من جزيرة العرب، وإجازة الوفود بنحو ما كان يجيزهم ﷺ، وبتجهيز جيش أسامة.

كما شهد أيضًا أمره ﷺ أن يصلي الصديق رَضِيَ اللَّهُ عَنْهُ بالناس .. فاختاره لدينهم، فلم تطب نفس أحدهم - بعد موت رسول الله ﷺ - أن يتقدمه في أمر الخلافة.

روى البخاري بسنده، عن سعيد بن جبير، قال: قال ابن عباس رَضِيَ اللَّهُ عَنْهُمَا: يوم الخميس وما يوم الخميس؟!

ثم بكى حتى بل دمعه الحصى.

قلت: يا أبا عباس، وما يوم الخميس؟

قال: اشتد برسول الله ﷺ وجعه، فقال: «ائتوني بكتاب أكتب لكم كتابًا لن تضلوا بعده أبدًا، فتنازعوا ولا ينبغي عند نبي تنازع.

فقالوا: ما له أهجر؟ استفهموه (ومعناه: أنهم أشفقوا عليه أن يُحمل نفسه مشقة فوق ثقل وشدة الحمى، فقالوا قولهم هذا؛ طالبين له الراحة وعدم إشغال نفسه بذلك).

فقال: ذروني فالذي أنا فيه خير مما تدعونني إليه.

---

(1) انظر الرحيق المختوم، ص 465.

(2) فقه السيرة للغزالي، ص 496.

فأمرهم بثلاث: قال: أخرجوا المشركين من جزيرة العرب، وأجيزوا الوفد بنحو ما كنت أجيزهم ..

والثالثة خيرٌ؛ إما أن سكت عنها، وإما أن قالها فنسيتها»[1].

ولعل الوصية التي نسيها الراوي هي الاعتصام بالكتاب والسنة، أو إنفاذ جيش أسامة[2].

وفي رواية في صحيح مسلم، عن ابن عباس رَضِيَ اللَّهُ عَنْهُمَا، قال: لما حضر رسول الله ﷺ (الوجع) وفي البيت رجال فيهم عمر بن الخطاب، فقال النبي ﷺ «هلم أكتب لكم كتابًا لا تضلوا بعده».

فقال عمر: إن رسول الله ﷺ قد غلب عليه الوجع وعندكم القرآن، حسبنا كتاب الله، فاختلف أهل البيت فاختصموا، فمنهم من يقول قربوا يكتب لكم رسول الله ﷺ كتابًا لن تضلوا بعده، ومنهم من يقول ما قال عمر.

فلما أكثروا اللغو والاختلاف عند رسول الله ﷺ، قال رسول الله ﷺ: قوموا.

قال عبيد الله فكان ابن عباس يقول إن الرزية كل الرزية ما حال بين رسول الله ﷺ وبين أن يكتب لهم ذلك الكتاب من اختلافهم ولغطهم[3].

فكان النبي ﷺ قد هم بكتابة عهد، يمنع شغب الطامعين في الحكم .. ثم بدا له، فاختار أن يدع المسلمين وشأنهم، ينتخبون لقيادتهم من يحبون[4].

وقد روت عائشة رَضِيَ اللَّهُ عَنْهَا، قالت: قال لي رسول الله ﷺ في مرضه: «ادعي لي أبا بكر أباك وأخاك، حتى أكتب كتابًا، فإني أخاف أن يتمنى متمنّ، ويقول قائل: أنا أولى، ويأبى الله والمؤمنون إلا أبا بكر»[5].

---

(1) صحيح البخاري، ج 3، ص 1155، رقم 2997.

(2) الرحيق المختوم، ص 467.

(3) صحيح مسلم، ج3، ص 1259، رقم (1637).

(4) الغزالي في فقه السيرة، ص 498.

(5) رواه مسلم في باب فضل أبي بكر (110/7)، وروى البخاري نحوه.

وكان النبي ﷺ مع ما به من شدة المرض يصلي بالناس جميع صلواته حتى ذلك اليوم يوم الخميس قبل الوفاة بأربعة أيام، وقد صلى بالناس ذلك اليوم صلاة المغرب، فقرأ فيها: بالمرسلات عرفًا[1].

وعند العشاء زاد ثقل المرض، بحيث لم يستطع الخروج إلى المسجد. قالت عائشة: فقال النبي ﷺ: «أصلى الناس؟»، قلنا: لا يا رسول الله، وهم ينتظرونك. قال: «ضعوا لي ماء في المخضب». ففعلنا، فاغتسل، فذهب لينوء فأغمي عليه، ثم أفاق، فقال: «أصلى الناس؟»، ووقع ثانيًا وثالثًا ما وقع في المرة الأولى من الاغتسال ثم الإغماء حينما أراد أن ينوء، فأرسل إلى أبي بكر أن يصلي بالناس، فصلى أبو بكر تلك الأيام[2]؛ (17 صلاة في حياته ﷺ).

وراجعت عائشة النبي ﷺ ثلاث أو أربع مرات؛ ليصرف الإمامة عن أبي بكر؛ حتى لا يتشاءم به الناس، فأبى، وقال: «إنكن صواحب يوسف، مروا أبا بكر فليصلِّ بالناس»[3].

قال الزهري: وحدثني حمزة بن عبد الله بن عمر، أن عائشة رضي الله عنها قالت: لما استعز برسول الله ﷺ المرض قال: «مروا أبا بكر فليصل بالناس». قالت: قلت: يا نبي الله، إن أبا بكر رجل رقيق، ضعيف الصوت، كثير البكاء إذا قرأ القرآن، قال: «مروه فليصل بالناس». قالت: فعدت بمثل قولي، فقال: «إنكن صواحب يوسف، فمروه فليصل بالناس»، قالت: فوالله ما أقول ذلك إلا أني كنت أحب أن يصرف ذلك عن أبي بكر، وعرفت أن الناس لا يحبون رجلًا قام مقامه أبدًا، وأن الناس سيتشاءمون به في كل حدث كان، فكنت أحب أن يصرف ذلك عن أبي بكر.

قال ابن إسحاق: وقال ابن شهاب: حدثني عبد الملك بن أبي بكر بن عبد الرحمن بن الحارث بن هشام، عن أبيه، عن عبد الله بن زمعة بن الأسود بن المطلب بن أسد، قال:

---

(1) مشكاة المصابيح 102/1.

(2) البخاري 99/1.

(3) انظر: الرحيق المختوم، ص 467.

لما استعز برسول الله ﷺ (المرض) وأنا عنده في نفر من المسلمين، قال: دعاه بلال إلى الصلاة، فقال: «مروا من يصلي بالناس». قال: فخرجت فإذا عمر في الناس. وكان أبو بكر غائبًا؛ فقلت: قم يا عمر فصل بالناس، قال: فقام، فلما كبر، سمع رسول الله ﷺ صوته، وكان عمر رجلًا مجهرًا، قال: فقال رسول الله ﷺ: «فأين أبو بكر؟ يأبى الله ذلك والمسلمون، يأبى الله ذلك والمسلمون». قال: فبعث إلى أبي بكر، فجاء بعد أن صلى عمر تلك الصلاة، فصلى بالناس: قال: قال عبد الله بن زمعة: قال لي عمر: ويحك، ماذا صنعت بي يا ابن زمعة، والله ما ظننت حين أمرتني إلا أن رسول الله ﷺ أمرك بذلك، ولولا ذلك ما صليت بالناس. قال: قلت والله ما أمرني رسول الله ﷺ بذلك، ولكني حين لم أر أبا بكر رأيتك أحق من حضر بالصلاة بالناس.

النبي ﷺ يعاقب من لده:[1]

وفي ذات مرة، غشي على رسول الله ﷺ فلدوه ..

واللد: هو أن يسقى المريض الدواء كرهًا، وقد كان الدواء الذي استعملوه لمرض آخر غير مرضه ﷺ؛ فمن ثم كرهه، فلما أفاق أمر أن يصنع بكل من في البيت مثل ما صنعوا به، أي يصب الدواء في أحد شقي فمه عنوة، إلا عمه العباس رَضِيَ اللَّهُ عَنْهُ.

روى ابن إسحاق عن عبد الله بن كعب بن مالك، قال: فاجتمع إليه نساء من نسائه: أم سلمة، وميمونة، ونساء من نساء المسلمين، فمنهن أسماء بنت عميس، وعنده العباس عمه، فاجتمعوا أن يلدوه، وقال العباس: لألدنه، قال: فلدوه، فلما أفاق رسول الله ﷺ قال: «من صنع هذا بي؟» قالوا: يا رسول الله عمك، قال: «هذا دواء أتى به نساء جئن من نحو هذه الأرض»، وأشار نحو أرض الحبشة، قال: «ولم فعلتم ذلك؟».

فقال عمه العباس: خشينا يا رسول الله أن يكون بك ذات الجنب، فقال: «إن ذلك لداء ما كان لله عز وجل ليقذفني به، لا يبق في البيت أحد إلا لد إلا عمي»، فلقد لدت ميمونة وإنها لصائمة؛ لقسم رسول الله ﷺ؛ عقوبة لهم بما صنعوا به.

(1) انظر السيرة لأبي شهبة، ج2، ص 589.

آخر صلاة صلاها الحبيب ﷺ مع المسلمين:

ولم يعد رسول الله ﷺ يطيق الخروج إلى الصلاة مع الناس، فكان أبو بكر هو الذي يصلي بالناس تلك الأيام، فلما كان يوم السبت أو الأحد(1)، وجد النبي ﷺ في نفسه خفة، فخرج بين رجلين لصلاة الظهر، وأبو بكر رَضِيَ اللَّهُ عَنْهُ يصلي بالناس، فلما رآه أبو بكر ذهب ليتأخر، فأومأ إليه بأن لا يتأخر، قال: «أجلساني إلى جنبه»، فأجلساه إلى يسار أبي بكر، فكان يقتدي بصلاة رسول الله ﷺ، ويسمع الناس التكبير(2).

وكانت هذه آخر صلاة صلاها الحبيب ﷺ مع المسلمين؛ فقد اشتدت البرحاء عليه، فلم يقدر بعدها على الخروج، رغم شوقه لحضور الجماعة ورؤية أصحابه رَضِيَ اللَّهُ عَنْهُمْ، فما عاد جسده المنهوك يقوى على ذلك.

إني لأعرف وجوه بني عبد المطلب عند الموت:

وحدث في أثناء مرضه ﷺ أن مرت أوقات خيلت للصحابة رَضِيَ اللَّهُ عَنْهُمْ أن أمانيهم في عافية الحبيب قد تحققت، وأنه يوشك أن يقوم يستأنف جهاده في سبيل الله، وليظل يحبوهم بعطفه وحرصه وإيناسه ورحمته.

فعن عبد الله بن كعب بن مالك، أن ابن عباس أخبره، أن علي بن أبي طالب خرج من عند رسول الله ﷺ في وجعه الذي توفي فيه.

فقال الناس: يا أبا حسن، كيف أصبح رسول الله ﷺ قال: أصبح بحمد الله بارئًا.

فأخذ بيده العباس بن عبد المطلب، فقال: ألا ترى؟ إنك بعد ثلاث عبد العصا (يوبخ عليًّا)، وإني أرى رسول الله ﷺ سيتوفى في وجعه هذا، وإني لأعرف وجوه بني عبد المطلب عند الموت.

---

(1) كما حكاه البيهقي عن مغازي موسى بن عقبة، وقال ابن كثير: كان ذلك يوم الخميس. انظر البداية والنهاية 256/5.

(2) صحيح البخاري (98/1، 99).

فاذهب إلى رسول الله ﷺ فسله فيمن يكون هذا الأمر (من بعده)، فإن كان فينا علمنا ذلك، وإن كان في غيرنا استوصى بنا خيرًا، قال علي: والله لئن سألناها رسول الله فمنعناها لا يعطيناها الناس أبدًا، والله لا أسألها رسول الله أبدا[1].

وظاهر أن العباس يعني الخلافة؛ فقد شعر الرجل بأن النبي في مرض الموت، وخبرته بأقاربه حين يحضرون جعلته صادق الحدس في تبين مصايرهم.

ولما كان عميد بني هاشم، فقد أهمه أن يعرف لمن ستكون سيادة الناس بعد وفاة الرسول ﷺ، وقد اتجه إلى علي يبثه مكنون نفسه؛ لأن عليًّا - بسابقته وكفايته ومنزلته في الناس، وموضعه من الرسول - يعد أول بني هاشم ترشيحًا لهذا الأمر.

بيد أن عليًّا كره أن يكلم النبي في ذلك، وآثر ترك الأمر لجمهور المسلمين[2].

اتخذ الله محمداً ﷺ نبيًّا وشهيداً :

تقدم ذكر ما كان من زينب بنت الحارث اليهودية، امرأة سلام بن مشكم بعد فتح رسول الله ﷺ خيبر، وأنها أهدته شاة مسمومة، فلما وضعتها بين يديه ﷺ لاك منها مضغة، فلم يسغها، ومعه بشر بن البراء بن معرور رَضِيَ اللَّهُ عَنْهُ، فأخذ منها كما أخذ النبي ﷺ، فمات من أكلته التي أكل، وظل رسول الله ﷺ يجد أثر هذه الشاة المسمومة ما بقي من عمره.

روى الزهري عن جابر رَضِيَ اللَّهُ عَنْهُمَا، قال: وبقي رسول الله ﷺ بعده - أي بعد هذا السم - ثلاث سنين، حتى كان وجعه الذي توفي منه، فقال: «ما زلت أجد من الأكلة التي أكلت من الشاة يوم خيبر، حتى كان هذا أوان انقطاع أبهري»[3].

وروى البخاري عن عائشة رَضِيَ اللَّهُ عَنْهَا، قالت: كان النبي ﷺ يقول في مرضه الذي مات فيه: «يا عائشة ما أزال أجد ألم الطعام الذي أكلت بخيبر، فهذا أوان وجدت انقطاع انقطاع أبهري من ذلك السم»[4].

---

(1) صحيح البخاري (8/116-117).

(2) فقه السيرة للغزالي، ص 497-498.

(3) هو شريان الأورطي الذي تتشعب منه جميع شرايين الدورة الدموية.

(4) البخاري (4165).

قال ابن إسحاق: ودخلت أم بشر بنت البراء بن معرور، تعود رسول الله ﷺ في مرضه الذي توفي فيه، فقال: «يا أم بشر، إن هذا الأوان وجدت فيه انقطاع أبهري من الأكلة التي أكلت مع ابنك بخيبر».

قال ابن إسحاق: فإن كان المسلمون ليرون أن رسول الله ﷺ مات شهيدًا مع ما أكرمه الله به من النبوة.

وعند البيهقي، أن عبد الله بن مسعود رَضِيَ اللَّهُ عَنْهُ، قال: لئن أحلف تسعًا أن رسول الله ﷺ قُتل قتلًا، أحب إليَّ من أن أحلف واحدة أنه لم يُقتل؛ وذلك أن الله اتخذه نبيًّا، واتخذه شهيدًا[1].

ولا تعارض بين قوله تعالى: ﴿ وَٱللَّهُ يَعۡصِمُكَ مِنَ ٱلنَّاسِ ﴾ [المائدة:67] مع قوله ﷺ: «وهذا أوان انقطاع أبهري»؛ لأن العصمة في الآية هي العصمة من الفتنة، ومن الضلال، ومن القتل قبل تبليغ الرسالة، وكل ذلك تحقق له ﷺ، فلم يمت إلا بعد أن أبلغ رسالة ربه، وقد قال تعالى: ﴿ ٱلۡيَوۡمَ أَكۡمَلۡتُ لَكُمۡ دِينَكُمۡ وَأَتۡمَمۡتُ عَلَيۡكُمۡ نِعۡمَتِي وَرَضِيتُ لَكُمُ ٱلۡإِسۡلَٰمَ دِينٗا ﴾ [المائدة:3] ولكن الله تعالى أبى إلا أن يجمع لنبينا ﷺ بين النبوة والشهادة[2].

مدى وجعه ﷺ:

ثم اشتدت الحمى بعدُ برسول الله ﷺ، حتى أن أبا سعيد الخدري رَضِيَ اللَّهُ عَنْهُ لما وضع يده عليه، قال: والله ما أطيق أن أضع يدي عليك من شدة حماك[3]. وقالت عائشة رَضِيَ اللَّهُ عَنْهَا: ما رأيت الوجع على أحد أشد منه على رسول الله ﷺ[4].

وقال ابن مسعود رَضِيَ اللَّهُ عَنْهُ: دخلت على النبي ﷺ وهو يوعك (يتألم من الحمى)، فمسسته، فقلت: يا رسول الله، إنك لتوعك وعكًا شديدًا.

---

(1) البداية والنهاية 5/247.

(2) انظر: الإسلام سؤال وجواب، الشيخ صالح المنجد.

(3) رواه أحمد (11638)، انظر البداية والنهاية 5/258.

(4) رواه أحمد (25000)؛ والترمذي (2439).

قال: «أجل إني أوعك كما يوعك الرجلان منكم».

قلت: إن لك أجرين؟

قال: «نعم، والذي نفسي بيده ما على الأرض مسلم يصيبه أذى من مرض فما سواه، إلا حط الله عنه خطاياه كما تحط الشجرة ورقها»[1].

وفي صحيح البخاري، أن عائشة رَضِيَ اللَّهُ عَنْهَا قالت: مات رسول الله ﷺ بين حاقنتي (ما سفل من الذقن)، وذاقنتي (ما علا منه)، فلا أكره شدة الموت لأحد بعد النبي ﷺ[2].

وفي رواية عند الترمذي، قالت رَضِيَ اللَّهُ عَنْهَا: ما أغبط أحدًا بِهَوْن موت بعد الذي رأيت من شدة موت رسول الله ﷺ[3].

ولعل العجب مما أصاب رسول الله ﷺ يزول إذا علمنا أنه ﷺ قال: «أشد الناس بلاء الأنبياء، ثم الصالحون، ثم الأمثل فالأمثل، يبتلى الرجل على حسب دينه، فإن كان في دينه صلابة شدد عليه في البلاء»[4]، وقال أيضًا ﷺ: «إنا معشر الأنبياء يضاعف لنا البلاء، كما يضاعف لنا الأجر»[5].

من وصاياه الأخيرة ﷺ:

وتعددت وصاياه ﷺ في أيامه الأخيرة لأصحابه ولأمته، فقد كان ﷺ كما وصفه ربه: ﴿عَلَيْكُم بِٱلْمُؤْمِنِينَ رَءُوفٌ رَّحِيمٌ ۝١٢٨﴾ [التوبة]، وذلك من نعم الله علينا وعلى البشرية جمعاء، فقد كان بعثه ﷺ رحمة للعالمين: ﴿وَمَآ أَرْسَلْنَٰكَ إِلَّا رَحْمَةً لِّلْعَٰلَمِينَ ۝١٠٧﴾ [الأنبياء]، وكانت سيرته كلها - كما رأينا - شفقة ورحمة وحرصًا شديدًا على أمته: ﴿لَقَدْ جَآءَكُمْ رَسُولٌ مِّنْ أَنفُسِكُمْ عَزِيزٌ عَلَيْهِ مَا عَنِتُّمْ حَرِيصٌ عَلَيْكُم﴾ [التوبة].

---

(1) البخاري (5648)؛ ومسلم (6511).

(2) فتح الباري (8/139).

(3) برقم (975).

(4) رواه أحمد (1493).

(5) رواه أحمد (11638)، وانظر: السيرة لأبي شهبة، ج2، ص 592.

قال ابن كثير: ﴿ عَزِيزٌ عَلَيْهِ مَا عَنِتُّمْ ﴾ [التوبة:128]، أي: يعز عليه الشيء الذي يعنت أمته ويشق عليها، ﴿حَرِيصٌ عَلَيْكُم ﴾ [التوبة:128]، أي على هدايتكم، ووصول النفع الدنيوي والأخروي إليكم(1).

وقال سيد قطب: ﴿ لَقَدْ جَاءَكُمْ رَسُولٌ مِّنْ أَنفُسِكُمْ ﴾ [التوبة:128]، لم يقل جاءكم رسول منكم، ولكن قال: (من أنفسكم)، وهي أشد حساسية وأعمق صلة، وأدل على نوع الوشيجة التي تربطه بهم؛ فهو بضعة من أنفسهم تتصل بهم صلة النفس بالنفس(2).

ولذا فقد تعددت وصاياه ﷺ لأمته حين أدرك أن ساعة الفراق قد اقتربت، وقد ذكرنا بعض ما قاله لما خطب الناس يوم الخميس قبل وفاته بأربعة أيام، وسيأتي ما أوصى به حال احتضاره، ونسوق هنا وصاياه ﷺ بين الموعدين:

قال جابر بن عبد الله رَضِيَ اللَّهُ عَنْهُمَا: سمعت رسول الله ﷺ يقول قبل موته بثلاث: «أحسنوا الظن بالله»(3).

وقال عبد الله بن عباس رَضِيَ اللَّهُ عَنْهُمَا: كشف رسول الله ﷺ الستر، ورسول الله ﷺ معصوب في مرضه الذي مات فيه، فقال: «اللّٰهم بلغت (ثلاث مرات)، إنه لم يبق من مبشرات النبوة إلا الرؤيا، يراها العبد الصالح أو تُرى له، ألا وإني قد نهيت عن القراءة (أي قراءة القرآن) في الركوع والسجود، فإذا ركعتم فعظموا الله، وإذا سجدتم فاجتهدوا في الدعاء، فإنه قَمِن (أي جدير وحقيق) أن يستجاب لكم»(4).

وقال علي بن أبي طالب رَضِيَ اللَّهُ عَنْهُ: أمرني رسول الله ﷺ أن آتيه بطبق يكتب فيه ما لا تضل أمته بعده، فخشيت أن تفوتني نفسه (أي يموت قبل أن أكتب) قال: قلت: إني أحفظ وأعي.

---

(1) تفسير ابن كثير، سورة التوبة، في الآية 128.

(2) في ظلال القرآن، من سورة التوبة، الآية 128

(3) صحيح مسلم، في كتاب الوصية (رقم: 163).

(4) صحيح مسلم (1/348)، كتاب الصلاة رقم 207.

قال: «أوصي بالصلاة والزكاة وما ملكت أيمانكم»[1].

المبحث الثالث: يوم الأحد حادي عشر من ربيع الأول من العام الحادي عشر للهجرة

لما كان يوم الأحد الحادي عشر من ربيع الأول من العام الحادي عشر من الهجرة - وهو اليوم الذي سبق يوم وفاته ﷺ - كان من الحبيب ﷺ ما يلي:

1- **أعتق غلمانه:**[2] وقد كان ﷺ في حياته المباركة رحيمًا بهم، وهو القائل: «إن إخوانكم خولكم، جعلهم الله تحت أيديكم، فمن كان أخوه تحت يده فليطعمه مما يأكل وليلبسه مما يلبس، ولا تكلفوهم ما يغلبهم، فإن كلفتموهم ما يغلبهم فأعينوهم»[3]. وهو القائل: «لا يقولن أحدكم عبدي وأَمَتِي؛ كلكم عبيد الله، وكل نسائكم إماء الله، ولكن ليقل: غلامي وجاريتي، وفتاي وفتاتي»[4] وقد أورد البخاري: أن رسول الله ﷺ لم يترك عند موته عبدًا ولا أمة.

2- **وتصدق بدنانير كانت عنده:**

فتصدق ﷺ بسبعة أو تسعة دنانير، هي كل ما كان عنده يومئذ[5]، وقال: «لا نورث، ما تركناه صدقة»[6]. وفي رواية: «لا يقتسم ورثتي دينارًا، ما تركت بعد نفقة نسائي ومؤنة عاملي فهو صدقة»[7]؛ ولذا لم يترك رسول الله ﷺ عند موته دينارًا ولا درهمًا ولا عبدًا ولا أمة، إلا بغلته البيضاء التي كان يركبها وسلاحه وأرضًا جعلها لابن السبيل صدقة [8].

---

(1) رواه أحمد (695). انظر: البداية والنهاية 5/259.

(2) ابن سعد (2/316-317).

(3) البخاري، كتاب الإيمان (30)، ومسلم، في كتاب الأيمان والنذور (1661).

(4) البخاري، كتاب الفتن (2414)، ومسلم، كتاب الألفاظ من الأدب (2249).

(5) ابن سعد (2/237-2389)

(6)البخاري الفتح (25/2127-2130/ حديث 6126-6128)..

(7) البخاري / الفتح (25/129/ حديث 6129).

(8) البخاري / الفتح (16/283/ حديث/ 4461).

وكانت البغلة والحربة والكسوة والسلاح والسرير وقفا للأئمة من بعده؛ يتبركون بها واحدًا بعد واحد[1].

3- وكانت درعه مرهونة عند يهودي:

قالت عائشة رَضِيَ اللَّهُ عَنْهَا: توفي رسول الله ﷺ ودرعه مرهونة عند يهودي بثلاثين صاعًا من شعير[2] .. وذلك مع أنه ﷺ كانت تأتيه الغنائم، وخيرات البلاد المفتوحة تجبى إليه من كل مكان، وكان له نصف مزارع خيبر، ولكنه كان يتصدق بذلك كله، ولما تكلم بعض الناس على تقسيم الغنائم، قال: «إنه ليس لي من هذا الفيء شيء إلا الخمس، والخمس مردود عليكم» وكان يقول ﷺ: «اللّهم اجعل رزق آل محمد قوتًا»[3]. وقالت عائشة رَضِيَ اللَّهُ عَنْهَا[4]: «ما شبع رسول الله ﷺ ثلاثة أيام تباعًا من خبز بر حتى مضى لسبيله». وقالت: «إن كنا لننظر إلى الهلال ثم الهلال ثم الهلال، ثلاثة أهله في شهرين، وما أوقد[5] في أبيات رسول الله ﷺ نار، فسئلت: فما كان يُعَيشكم؟ قالت: الأسودان؛ التمر والماء. إلا أنه قد كان لرسول الله ﷺ جيران من الأنصار، وكانت لهم منائح (جمع منيحة وهي الناقة)»، فكانوا يرسلون إلى رسول الله ﷺ من ألبانها فيسقيناه[6]. والحكمة في عدوله ﷺ عن معاملة أهل اليسر من الصحابة إلى معاملة اليهودي، أنه خشي أنهم لا يأخذون منه ثمنًا أو عوضًا.. قال النووي: (ولا يُعلم أحد من الصحابة علم حاجة النبي ﷺ وهو متمكن من إزالتها، إلا بادر إلى إزالتها، لكن كان ﷺ يكتمها عنهم؛ إيثارًا لتحمل المشاق وحملًا عنهم).

---

(1) انظر السيرة لمهدي رزق الله، ص 691.

(2) البخاري / الفتح (16/286/ حديث 4461)

(3) أبو داود (2694).

(4) مسلم (1055).

(5) البخاري (5314)، ومسلم (2970).

(6) البخاري (2561)، ومسلم (2972).

وباقي هذه الثلاثين صاعا من شعير التي من أجلها رهن ﷺ درعه، ذكرته عائشة رَضِيَ اللَّهُ عَنْهَا في قولها: «لقد توفي النبي ﷺ وما في رفِّي من شيء يأكله ذو كبد، إلا شطر شعير في رَفّ لي، فأكلت منه حتى طال عليَّ فأكلته فَفَنِيَ»[1].

4- واستعارت عائشة رَضِيَ اللَّهُ عَنْهَا الزيت للمصباح من جارتها في هذه الليلة[2].

5- وفي هذا اليوم أخبر النبي ﷺ من حوله بمقتل الأسود العنسي الكذاب مدعي النبوة قبل أن يأتيهم خبره.

فعن عبد الله بن عمر رَضِيَ اللَّهُ عَنْهُمَا قال: أتى الخبر النبي ﷺ من السماء الليلة التي قُتل فيها العنسي ليبشرنا، فقال: «قُتل العنسي البارحة، قتله رجل مبارك من أهل بيت مباركين»، قيل: من؟ قال: «فيروز - وهو فيروز الديلمي - فاز فيروز»[3].

المبحث الرابع: وفاة الحبيب ﷺ

دخل فجر يوم الاثنين ثاني عشر من هلال ربيع الأول من العام الحادي عشر للهجرة؛ ليشهد ضحى ذلك اليوم صعود أطهر روح في الدنيا إلى بارئها راضية مرضية، وخروج أكرم إنسان على الله في هذا الوجود من الدنيا كما جاء إليها[4].

توفي رسول الله ﷺ، وذلك هو حكم الله في عباده كلهم: ﴿إِنَّكَ مَيِّتٌ وَإِنَّهُم مَّيِّتُونَ ﴿٣٠﴾﴾ [الزمر]، ﴿وَمَا جَعَلْنَا لِبَشَرٍ مِّن قَبْلِكَ ٱلْخُلْدَ أَفَإِيْن مِّتَّ فَهُمُ ٱلْخَٰلِدُونَ ﴿٣٤﴾﴾ [الأنبياء].

إنها الحقيقة التي تمد صفحة هذا الوجود كله بغاشية الانتهاء والفناء، حقيقة تسربل بها طوعًا أو كرهًا الرسل والأنبياء، والمتألهون والرؤساء، والمقربون والأصفياء، والأغنياء والفقراء، والطائعون والعصاة.

---

(1) البخاري (3091)، ومسلم (2913).

(2) انظر السيرة لمهدي رزق الله، ص 691.

(3) البداية والنهاية 7/98.

(4) السيرة لأبي شهبة، ج2، ص 594، بتصرف.

إنها الحقيقة التي تعلن على مدى الزمان والمكان، وفي أذن كل سامع، وعقل كل مفكر أن: ﴿ كُلُّ نَفْسٍ ذَآئِقَةُ ٱلْمَوْتِ ﴾ [الأنبياء:35]، وأن الله لا مرد لقضائه، ولا حدود لسلطانه، ولا مخرج عن حكمه، ولا غالب على أمره، وأنه هو وحده الذي تفرد بالبقاء[1] ﴿ كُلُّ شَيْءٍ هَالِكٌ إِلَّا وَجْهَهُۥ ۚ لَهُ ٱلْحُكْمُ وَإِلَيْهِ تُرْجَعُونَ ﴿٨٨﴾ ﴾ [القصص].

مر رسول الله ﷺ في معبر هذه الدنيا، ولم يترك دينارًا ولا درهمًا، وإنما ترك هداية وإيمانًا وشريعة ومنهاجًا، وميراثًا عظيمًا لأمته، إن أخذته بحقه لن تضل بعده أبدًا.

مات رسول الله ﷺ وبقي الإسلام، وبقيت الرسالة، وانقطع الوحي وبقي الكتاب .. مات النبي وبقيت سنته، وبقيت مسئولية الأمة من بعد تجاه ذلك كله.

توفي الحبيب ﷺ يوم الاثنين الثاني عشر من شهر ربيع الأول، في مثل الوقت الذي دخل فيه المدينة، بل وفي اليوم نفسه الذي ولد فيه، وأوحي إليه فيه[2].

قال أنس: كان اليوم الذي قدم فيه رسول الله ﷺ المدينة أضاء منها كل شيء، فلما كان اليوم الذي مات فيه أظلم فيها كل شيء[3].

صلاة الصبح:

قال ابن إسحاق: أنه لما كان يوم الاثنين الذي قبض الله فيه رسول الله ﷺ، خرج إلى الناس وهم يصلون الصبح، فرفع الستر، وفتح الباب، فخرج رسول الله ﷺ، فقام على باب عائشة، فكاد المسلمون يفتنون في صلاتهم برسول الله ﷺ حين رأوه؛ فرحًا به، وتفرجوا، فأشار إليهم أن اثبتوا على صلاتكم، قال: فتبسم رسول الله ﷺ؛ سرورًا لما رأى من هيئتهم في صلاتهم، وما رأيت رسول الله ﷺ أحسن هيئة منه تلك الساعة، قال: ثم رجع، وانصرف الناس وهم يرون أن رسول الله ﷺ قد أفرق من وجعه فرجع أبو بكر إلى أهله بالسنح.

---

(1) البوطي؛ فقه السيرة، ص 498، بتصرف.

(2) انظر هذا الحبيب يا محب للجزائري، ص 476.

(3) رواه أحمد (13540).

ودخل رسول الله ﷺ الحجرة وأرخى الستر، وانصرف الناس فرحين، وهم يحسبون أن النبي ﷺ قد نشط من مرضه، ولم يدركوا أنها نظرة الوداع من الحبيب إليهم، ولم يعلموا أنه لن يأتي على رسول الله ﷺ وقت صلاة أخرى.

واطمأن أبو بكر رَضِيَ اللَّهُ عَنْهُ إلى الظن بأن رسول الله قد أفاق من وجعه؛ فقد رآه مبتسمًا، يطل من ستر حجرة عائشة، كأن وجهه ورقة مصحف، فدخل على ابنته عائشة، وقال: ما أرى رسول الله إلا قد أقلع عنه الوجع، وهذا يوم بنت خارجة (إحدى زوجتيه)، وكانت تسكن بالسنح (موضع خارج المدينة)، فركب على فرسه، وذهب إلى منزله [1].

سكرات الموت:

عاد رسول الله ﷺ إلى حجرته، فاضطجع إلى حجر عائشة رَضِيَ اللَّهُ عَنْهَا، وأسندت رَضِيَ اللَّهُ عَنْهَا رأسه إلى صدرها، وجعلت تتغشاه سكرة الموت، قالت: «وكان بين يديه ركوة فيها ماء، فجعل يدخل يديه في الماء، فيمسح بها وجهه ويقول: لا إله إلا الله، إن للموت سكرات»[2]. وكانت فاطمة رَضِيَ اللَّهُ عَنْهَا إذا رأت منه ذلك قالت: «واكرب أباه؟ .. فيقول لها ﷺ: ليس على أبيك كرب بعد هذا اليوم»[3].

وكان ﷺ يطرح خميصة (غطاء) على وجهه، فإذا اغتم وضايقه الألم كشفها عن وجهه، فقال: «لعنة الله على اليهود والنصارى؛ اتخذوا قبور أنبيائهم مساجد». تقول عائشة: (يُحذِّر ما صنعوا)[4]، أي يرهب المسلمين من منزلقتهم، ولم تفارقه ﷺ الخشية على أمته وهو في سكرات الموت، فخشي أن تغلب عليهم شهوات الغي والكبر؛ فالذين يتبعون الغي ينسون الصلاة، والذين يتبعون الكبر يطغون على ما تحت أيديهم من خدم ورقيق.

---

(1) السيرة لأبي شهبة (2/593).

(2) البخاري، الفتح (16/278، حديث 4449).

(3) البخاري، الفتح (16/286-284، حديث 4462).

(4) البخاري (1/422)، ومسلم (2/671).

فكانت عامة وصيته - كما قال أنس - حين حضره الموت: «الصلاة، الصلاة، وما ملكت أيمانكم»، حتى جعل يغرغر بها صدره، وما يكاد يفيض بها لسانه[1].

ولشدة محبته لعائشة رَضِيَ اللَّهُ عَنْهَا كان يقول: «ليهون عليَّ أني رأيت بياض كف عائشة في الجنة»[2].

ثم دعا الحسن والحسين فقبلهما، وأوصى بهما خيرًا، ودعا أزواجه فوعظهن وذكرهن[3].

وطفق الوجع يشتد ويزيد، ثم فقد النطق ﷺ، وصمت، فما عاد يقدر على الكلام، فدخل عليه حبه وابن حبه أسامة بن زيد رَضِيَ اللَّهُ عَنْهُمَا، فجعل يرفع يديه إلى السماء ثم يضعها إلى أسامة، فعرف أنه يدعو له[4].

الرحيل:

حين اشتد الضحى من يوم الاثنين 12 ربيع الأول سنة 11 هـ، بدأ احتضار الحبيب ﷺ[5]، فأسندته عائشة إليها، وكانت تقول: إن من نعم الله عليَّ أن سول الله ﷺ توفي في بيتي، وفي يومي، وبين سحري ونحري، وأن الله جمع بين ريقي وريقه عند موته. دخل عبد الرحمن بن أبي بكر وبيده السواك، وأنا مسندة رسول الله ﷺ، فرأيته ينظر إليه، وعرفت أنه يحب السواك، فقلت: آخذه لك؟ فأشار برأسه أن نعم، فتناولته، فاشتد عليه، وقلت: ألينه لك؟، فأشار برأسه أن نعم، فلينته. وفي رواية أنه استن بها كأحسن ما كان مستنًّا[6].

---

(1) صحيح، أخرجه ابن ماجه (2/155)، وأحمد (3/117).

(2) قال ابن كثير تفرد به أحمد، وإسناده لا بأس به، انظر البداية والنهاية 5/259.

(3) الرحيق المختوم، ص 468.

(4) ابن هشام (4/398).

(5) ابن هشام (4/404).

(6) صحيح البخاري (2/637).

وما عدا أن فرغ من السواك حتى رفع يده أو إصبعه، وشخص بصره نحو السقف، وتحركت شفتاه، فأصغت إليه عائشة وهو يقول: «مع الذين أنعمت عليهم من النبيين والصديقين والشهداء والصالحين، اللّهم اغفر لي وارحمني، وألحقني بالرفيق الأعلى، اللّهم الرفيق الأعلى»[1].

كرر الكلمة الأخيرة ثلاثًا، ومالت يده ولحق بالرفيق الأعلى، إنا لله وإنا إليه راجعون[2].

إنه الموت إذًا .. نهاية كل شي، فلا ينفرد بالبقاء إلا الله .. وفي الموت يستوي البشر كل البشر .. بما فيهم محمد ﷺ .. هذا هو الناموس الذي يحكم الحياة، وهذه هي السُّنة التي ليس لها استثناء .. الموت عاقبة المطاف.

وإلى الله يرجع الجميع .. محمد بشر .. والبشر جميعًا يموتون.

مات محمد ﷺ، وقامت فاطمة تبكي وتقول: «يا أبتاه، أجاب ربًا دعاه، يا أبتاه، من جنة الفردوس مأواه، إلى جبريل ننعاه»[3].

ولم تضحك فاطمة بعدها أبدًا، حتى لحقت بالحبيب كما تواعدا.

عمر النبي ﷺ حين مات:

روى البخاري ومسلم عن عائشة رَضِيَ اللَّهُ عَنْهَا، أن النبي ﷺ توفي وهو ابن ثلاث وستين[4]، وصح مثله عن ابن عباس رَضِيَ اللَّهُ عَنْهُمَا.

وفي رواية أخرى عن ابن عباس: توفي رسول الله ﷺ وهو ابن خمس وستين[5].

---

(1) صحيح البخاري، باب مرض النبي، وباب ما تكلم النبي ﷺ (2/638، 639، 640، 641).

(2) الرحيق المختوم، ص 469.

(3) البخاري، الفتح (16/284، حديث 4462).

(4) البخاري (4466)، ومسلم (2349).

(5) البخاري (3903).

وصح عن أنس رَضِيَ اللَّهُ عَنْهُ أنها ستون سنة[1].

وجمع النووي بين الأقوال، فقال: توفي ﷺ وله ثلاث وستون سنة، وقيل خمس وستون سنة، وقيل: ستون سنة، والأول أصح وأشهر، وقد جاءت الأقوال الثلاثة في الصحيح. قال العلماء: الجمع بين الروايات أن من روى ستين لم يعد معها الكسور، ومن روى خمسًا وستين عد سنتي المولد والوفاة (كاملتين)[2]، ومن روى ثلاثًا وستين لم يعدها، والصحيح ثلاث وستون[3][4].

وخلاصة القول: أن رسول الله ﷺ توفي وقد تم له ثلاث وستون سنة، وزادت أربعة أيام[5]، قضى أربعين منها قبل البعثة، وثلاثة عشر عامًا يدعو إلى الله في مكة، وعشر سنين قضاها في المدينة بعد الهجرة[6].

المبحث الخامس: «أفإن مات أو قتل انقلبتم على أعقابكم»

شتان بين بداية هذا اليوم الاثنين 12 ربيع الأول سنة 11هـ، وبين نهايته؛ ففي صبح ذلك اليوم رأى الصحابة رسول الله ﷺ ينظر إليهم من ستر حجرة عائشة وهو قائم، مبتسم يضحك، كأن وجهه ورقة مصحف - كما قال أنس - فهموا أن يفتنوا من الفرح برؤيته فيخرجون من الصلاة، ولما ارتقى الضحى من ذلك اليوم، أظلمت المدينة التي نورها رسول الله ﷺ يوم دخلها، بل أظلمت الدنيا بأسرها .. الهول عظيم والخطب جلل، واللحظات أليمة .. لقد مات رسول الله ﷺ، فطاشت العقول، وعمت الحيرة، وأقعدت الناس الدهشة.

---

(1) مسلم (2353).

(2) البخاري (5900).

(3) تهذيب الأسماء واللغات للنووي، ص 23.

(4) د.منقذ بن محمود السقار، صيد الفوائد.

(5) الرحيق المختوم، ص 469.

(6) البوطي، فقه السيرة، ص 497.

قال ابن رجب: «ولما توفي اضطرب المسلمون؛ فمنهم من دُهِش فخولط، ومنهم من أُقْعِد فلم يطق القيام، ومنهم من اعتقل لسانه فلم يطق الكلام، ومنهم من أنكر موته بالكلية»[1].

لقد كانوا يحبونه الحب الذي لم تعرف له البشرية في تاريخها كله نظيرًا، الحق الذي يفدونه معه بحياتهم أن تشوكه شوكة .. والآن هو يموت .. كانوا لا يصبرون على فراقه، فإذا عاد أحدهم من سفره أسرع إلى المسجد؛ ليراه قبل أن يرى أهله وعياله، وحتى بكى بعضهم لأنه سيفارقه يوم القيامة؛ لعلو منزلته في الجنة .. والآن هو يموت .. فأي مصيبة، وأي كارثة .. وكيف الحياة بدونه؟

قال أبو ذؤيب الهذلي[2]: قدمت المدينة ولأهلها ضجيج بالبكاء كضجيج الحجيج أهلُّوا جميعًا بالإحرام فقلت: مه؟ فقالوا: قُبض رسول الله ﷺ [3].

وقال عثمان: توفي رسول الله ﷺ، فحزن عليه رجال من أصحابه، حتى كان بعضهم يوسوس، فكنت ممن حزن عليه، فبينما أنا جالس في أطم من آطام المدينة - وقد بويع أبو بكر - إذ مر بي عمر، فسلم علي، فلم أشعر به؛ لما بي من الحزن[4].

وقال أنس: «قلّ ليلة تأتي عليَّ إلا وأنا أرى فيها خليلي - عَلَيْهِ السَّلَامُ - ويقول ذلك وتدمع عيناه»[5].

وقال حسان:

ما بال عينك لا تنام كأنما	كحلت مآقيها بكحل الأرمد
جزعا على المهدي أصبح ثاويًا	يا خير من وطئ الحصى لا تبعد

---

(1) لطائف المعارف، ص 114.

(2) من التابعين، كان مسلمًا على عهد النبي ﷺ ولم يره.

(3) انظر: فتح الباري (8/580).

(4) الطبقات الكبرى (2/54).

(5) أحمد (12855).

وجهي يقيك الترب لهفي ليتني غيبت قبلك في بقيع الغرقد

بأبي وأمي من شهدت وفاته في يوم الاثنين النبي المهتدي

فظللت بعد وفاته متبلدا متلددا[1] يا ليتني لم أولد

أظلم كل شيء .. وأصاب الحزن والكمد كل شيء .. كل شيء .. الديار، والطرق والدواب، والجبال .. إذا كان جذع النخلة لما فارقه ليخطب فوق منبر سمعوا له أنينًا، وما سكن حتى مسح بيده عليه .. إذا كان الجذع فعل ذلك لفراقه إلى منبر يبعد خطوات معدودات، فكيف بفراق لا رجعة فيه إلى قيام الساعة.

وثبت الله الأمة بثبات الصديق:

أذهلت المصيبة عقول الحكماء، فتاهوا جميعًا، وأذهبت ألباب الأشداء في أمر الله من الرجال حتى عمر .. عمر - الذي قال عنه الحبيب ﷺ فيما رواه الترمذي في حديثه عن أصحابه: «وأشدهم في أمر الله عمر» .. وقال عنه فيما رواه البخاري: «لقد كان فيما قبلكم من الأمم مُحَدَّثون (أي تحدثهم الملائكة)، فإن يك في أمتي أحد فإنه عمر» - وقف وقد أخرجته المصيبة عن وعيه، يحلف للناس بأن الرسول ما مات. قال أبو هريرة: لما توفي رسول الله ﷺ قام عمر بن الخطاب، فقال: إن رجالًا من المنافقين يزعمون أن رسول الله قد توفي، وإن رسول الله ﷺ ما مات، ولكنه ذهب إلى ربه كما ذهب موسى بن عمران، فقد غاب عن قومه أربعين ليلة، ثم رجع إليهم بعد أن قيل قد مات، ووالله ليرجعن رسول الله ﷺ كما رجع موسى، فليقطعن أيدي رجال وأرجلهم زعموا أن رسول الله ﷺ مات[2].

يقول ذلك وهو يعتقد تمام الاعتقاد أن الحبيب ﷺ لم يمت، حتى إنه ليقول في رواية أخرى: «والله ما كان يقع في نفسي إلا ذاك».

---

(1) متلفتًا متحيرًا.

(2) ابن هشام (4/406)، وانظر: أحمد، الفتح الرباني (21/241-242)، وابن سعد (2/266).

وقام يخطب الناس، ويتوعد من قال مات بالقتل والقطع، ويقول: إن رسول الله ﷺ في غشية، لو قد قام قتل وقطع، وعمرو بن قيس بن الأصم بن أم مكتوم قائم في مؤخر المسجد يقرأ: ﴿ وَمَا مُحَمَّدٌ إِلَّا رَسُولٌ قَدْ خَلَتْ مِن قَبْلِهِ ٱلرُّسُلُ ﴾ [آل عمران:144]، والناس في المسجد يبكون ويموجون، لا يسمعون، فخرج العباس بن عبد المطلب على الناس، فقال: يا أيها الناس: هل عند أحد منكم من عهد من رسول الله ﷺ في وفاته فليحدثنا.

قالوا: لا.

قال: هل عندك يا عمر من علم؟

قال: لا.

فقال العباس: اشهدوا أيها الناس أن أحدًا لا يشهد على رسول الله بعهد عهده إليه في وفاته، والله الذي لا إله إلا هو لقد ذاق رسول الله ﷺ الموت[1]. ولكن الناس ظلوا على حالهم يتمنون صدق كلام عمر.

وبينما هم كذلك جاء الصديق رَضِيَ اللَّهُ عَنْهُ وأرضاه، وجزاه عن الأمة خير الجزاء، جاء من السنح (منطقة خارج المدينة) على فرس له، بعد أن علم النبأ، فنزل عند مسجد رسول الله ﷺ، فلم يكلم الناس ودخل المسجد، ومنه إلى حجرة ابنته عائشة حيث رسول الله ﷺ نائمًا على فراشه، عليه برد حبرة، وقد غطوا وجهه، فأقبل حتى كشف عن وجهه، ثم أقبل عليه فقبله، ثم قال: بأبي أنت وأمي، لا يجمع الله عليك موتتين، أما الموتة التي كتبت عليك فقد متَّها[2].

وفي رواية لعائشة رَضِيَ اللَّهُ عَنْهَا، أن أبا بكر دخل على النبي ﷺ بعد وفاته، فوضع فمه بين عينيه، ووضع يديه على صدغيه، وقال: وانبياه، واخليلاه، واصفياه، صدق الله

---

(1) رواه الحافظ البيهقي، انظر: البداية والنهاية 264/5.

(2) البخاري، كتاب المغازي، رقم 4452.

ورسوله: ﴿ إِنَّكَ مَيِّتٌ وَإِنَّهُم مَّيِّتُونَ ﴿٣٠﴾ ﴾ [الزمر] »، ﴿ وَمَا جَعَلْنَا لِبَشَرٍ مِّن قَبْلِكَ الْخُلْدَ أَفَإِن مِّتَّ فَهُمُ الْخَالِدُونَ ﴿٣٤﴾ ﴾ [الأنبياء] ﴿ كُلُّ نَفْسٍ ذَائِقَةُ الْمَوْتِ ﴾ [الأنبياء:35][1] .

ثم خرج رَضِيَ اللَّهُ عَنْهُ في ثبات عجيب، وهو أكثر الجميع حزنًا وهمًّا وكمدًا لفراق الحبيب ﷺ، فوجد عمر في ثورته، يكلم الناس، ويحلف بالله ما مات رسول لله ﷺ، والناس من حوله يتمنون أن لو كان كلامه حقًّا .. فصاح فيه أبو بكر رَضِيَ اللَّهُ عَنْهُ: «أيها الحالف على رسلك»[2]، ولكنه استمر في كلامه مهتاجًا، فلما رآه أبو بكر لا ينصت أقبل على الناس، فأقبلوا إليه وتركوا عمر[3]، فحدثهم أبو بكر، فقال: أما بعد من كان منكم يعبد محمدًا فإن محمدًا قد مات، ومن كان منكم يعبد الله فإن الله حي لا يموت، قال الله: ﴿ وَمَا مُحَمَّدٌ إِلَّا رَسُولٌ قَدْ خَلَتْ مِن قَبْلِهِ الرُّسُلُ أَفَإِن مَّاتَ أَوْ قُتِلَ انقَلَبْتُمْ عَلَىٰ أَعْقَابِكُمْ وَمَن يَنقَلِبْ عَلَىٰ عَقِبَيْهِ فَلَن يَضُرَّ اللَّهَ شَيْئًا وَسَيَجْزِي اللَّهُ الشَّاكِرِينَ ﴿١٤٤﴾ ﴾ [آل عمران]. قال ابن عباس: والله لكأن الناس لم يعلموا أن الله أنزل هذه الآية حتى تلاها أبو بكر، فتلقاها منه الناس كلهم، فما أسمع بشرًا من الناس إلا يتلوها[4].

قال ابن المسيب: قال عمر: والله ما هو إلا أن سمعت أبا بكر تلاها فعقرت حتى ما تقلني رجلاي، وحتى أهويت إلى الأرض حين سمعته تلاها، علمت أن النبي ﷺ قد مات[5].

أفاق الناس وبدءوا في بكاء شديد؛ فقد أحدثت الآية في قلوبهم أبلغ الأثر .. صحيح أنها حملت إليهم السلوى والتعزية والجزاء للشاكرين .. ولكنهم الآن .. والآن فقط ..

---

(1) رواه أحمد (23637).

(2) رواه البخاري، انظر: الفتح (16/279- 280، حديث 4452)

(3) انظر فقه السيرة للبوطي، ص 497.

(4) صحيح البخاري (2/460-461).

(5) انظر الرحيق المختوم، ص 471.

علموا أن رسول الله ﷺ قد مات .. وأن وحي السماء قد انقطع .. وأن جبريل ما عاد لينزل على بشر إلى يوم القيامة .. وأنهم سيصلون خلف غير رسول الله .. وأنهم لن يجدوه بينهم يعلمهم ويربيهم ويبتسم في وجوههم، ويرفق بهم، ويأخذ بأيديهم، وينصح لهم، وينصتون إليه، ويعلمون منه من منهم على صواب، ومن منهم على خطأ، وبما يكون العبد من الفائزين، وبما يكون من الخاسرين، ويخبرهم عما كان، وعما هو كائن، وعما سيكون إلى يوم القيامة.

ولكنهم بكلام أبي بكر رَضِيَ اللَّهُ عَنْهُ قد انتبهوا .. انتبهوا إلى أن رسول الله ﷺ – في حقيقة الأمر – بشر، وأن البشر جميعًا يموتون، وأنهم ما عبدوه لحظة، ولكنهم جميعًا عبدوا رب العالمين، وهو حي لا يموت، وما ينبغي لهم أن يغفلوا عن هذه الحقيقة؛ فلا مبرر لفتنة أو اختلاط.

المبحث السادس: بيعة سقيفة بني ساعدة

قال ابن كثير: وقعت أمور مهمة بعد وفاته ﷺ وقبل دفنه، ومن أعظمها وأجلها وأيمنها بركة على الإسلام وأهله بيعة أبي بكر الصديق رَضِيَ اللَّهُ عَنْهُ [1].

شغل أهل بيت رسول الله ﷺ بأمر تجهيزه وتكفينه، فاعتزل علي بن أبي طالب، والعباس عم رسول الله ﷺ وأولاده، ومعهم الزبير بن العوام، وطلحة بن عبيد الله في بيت فاطمة رَضِيَ اللَّهُ عَنْهَا، أما بقية المهاجرين فقد اجتمعوا حول أبي بكر رَضِيَ اللَّهُ عَنْهُ في مسجد رسول الله ﷺ، وفيهم عمر بن الخطاب وأبي عبيدة رَضِيَ اللَّهُ عَنْهُمَا، وانحاز معهم من الأنصار أسيد بن حضير رَضِيَ اللَّهُ عَنْهُ ومعه قومه من بني عبد الأشهل؛ يتشاورون فيمن ينبغي أن يخلف رسول الله ﷺ في قيادة المسلمين ورعاية أمورهم، وقد كان منطق هذا الفريق يقوم على أن النبي ﷺ من قريش، والعرب لا تدين إلا لقريش، ولا تجتمع إلا عليها؛ إذ هم عند العرب سدنة البيت وحماته، ومحمد ﷺ منهم، ولو صار الأمر في غير

---

(1) البداية والنهاية 256/5.

قريش لما رضيت العرب بذلك، ولتنازعوا، وطالبوا بأحقيتهم بالأمر بعد رسول الله ﷺ؛ فمنهم الشيوخ ذوي الهيبة والمكانة في قلوب قبائلهم، ومنهم العظماء الذين كانت لهم الزعامة في قومهم قبل الإسلام، وأغلب هؤلاء قد دخلوا في الإسلام حديثًا فلا يؤمن عليهم من الفتن.

أما جُل الأنصار – وعلى رأسهم سعد بن عبادة رَضِيَ اللَّهُ عَنْهُ – فقد كان لهم رأي آخر، وقد اجتمعوا في سقيفة (عريش يُستظل به) لقبيلة بني ساعدة الخزرجية، في بستان لهم قرب مسجد الرسول ﷺ.

كان منطق هؤلاء الصحب الأبرار من الأنصار، أن النبي ﷺ اختارهم على غيرهم من أهل الأرض، فأوى إليهم، واختار مدينتهم من بين سائر المدن ليهاجر إليها، بل إنه بعد الفتح، لم يتخذ مكة سكنًا ومقرًّا له؛ بل عاد معهم إلى المدينة، وقال لهم: «إني عبد الله ورسوله، هاجرت إلى الله وإليكم، فالمحيا محياكم والممات مماتكم»(1)، فواجبهم، ومقتضى الأمانة التي حملهم إياها رسول الله ﷺ بالهجرة إليهم، واختيارهم على غيرهم، واختيار بلدهم من سائر البلاد، يستتبع أن يبحثوا عن أمره بعده.

قال ابن إسحاق:

ولما قُبض رسول الله ﷺ، انحاز هذا الحي من الأنصار إلى سعد بن عبادة في سقيفة بني ساعدة، واعتزل علي بن أبي طالب والزبير بن العوام وطلحة بن عبيد الله في بيت فاطمة، وانحاز بقية المهاجرين إلى أبي بكر، وانحاز معهم أُسيد بن حضير في بني عبد الأشهل، فأتى آت إلى أبي بكر وعمر، فقال: إن هذا الحي من الأنصار مع سعد بن عبادة في سقيفة بني ساعدة قد انحازوا إليه، فإن كان لكم بأمر الناس حاجة، فأدركوا قبل أن يتفاقم أمرهم، ورسول الله ﷺ في بيته لم يُفرغ من أمره، قد أغلق دونه الباب أهله، قال عمر: فقلت لأبي بكر انطلق بنا إلى إخواننا هؤلاء من الأنصار؛ حتى ننظر ما هم عليه.

---

(1) سبق بسط ذلك عند الحديث عن فتح مكة.

وقد يقول قائل لو كنا معهم في ذلك اليوم لاقتضى الأمر منا أن ندع الدنيا يتصارع عليها المتصارعون، ونبقى نحن، ويبقى الرعيل الأول بجوار الجسد الطاهر؛ حتى يجهزوه ويكفنوه ويدفنوه، وإنه لمن العقوق أن يمضي هؤلاء الخلص بعيدًا عنه، لكن عندما يكون منطق العقيدة التي تحكم العواطف وتتحكم بها هو الذي يسود، تختلف الصورة؛ فوفاة رسول الله ﷺ تقتضي أن يتفق المسلمون على أمير بعده قبل أن ينتقض الأمر، واحتمالات انتقاضه واردة لأبعد الحدود؛ فهذا مسيلمة الحنفي في اليمامة قد ارتد، وذاك الأسود العنسي في اليمن قد ارتد، وكلاهما ادعى النبوة، ومن أجل هذا لم يجد الصديق والفاروق والأمين حرجًا من أن يمضوا إلى سقيفة بني ساعدة؛ ليعالجوا الأمر هناك قبل أن ينفرد الأنصار بالرأي وتعقد البيعة .. عندئذ تتفاقم المشكلة أكثر وأكثر، ويكون نقض البيعة أدهى وأمر من عقدها ابتداء بلا شك (1).

الاجتماع في السقيفة:

روى ابن عباس عن عمر بن الخطاب رَضِيَ اللَّهُ عَنْهُ أنه كان من خبرنا حين توفى الله نبيه ﷺ أن الأنصار خالفونا، فاجتمعوا بأشرافهم في سقيفة بني ساعدة، وتخلف عنا علي بن أبي طالب والزبير بن العوام ومن معهما، واجتمع المهاجرون إلى أبي بكر، فقلت لأبي بكر:

انطلق بنا إلى إخواننا هؤلاء من الأنصار، فانطلقنا نؤمهم حتى لقينا منهم رجلان صالحان، فذكرا لنا ما تمالأ عليه القوم، وقال: أين تريدون يا معشر المهاجرين؟ قلنا: نريد إخواننا هؤلاء من الأنصار، قالا: فلا عليكم أن لا تقربوهم يا معشر المهاجرين، اقضوا أمركم.

قال: قلت: والله لنأتينهم. فانطلقنا حتى أتيناهم في سقيفة بني ساعدة، فإذا بين ظهرانيهم رجل مزمل، فقلت: من هذا ؟ فقالوا: سعد بن عبادة، فقلت: ما له؟ فقالوا: وجع.

فلما جلسنا تشهد خطيبهم، فأثنى على الله بما هو له أهل، ثم قال: أما بعد، فنحن أنصار الله وكتيبة الإسلام، وأنتم يا معشر المهاجرين رهط منا، وقد دفت دافة من قومكم، قال: وإذا هم يريدون أن يحتازونا من أصلنا، ويغصبونا الأمر.

(1) انظر المنهج الحركي، القسم الثالث، ص 206.

فلما سكت أردت أن أتكلم، وقد زورت في نفسي مقالة قد أعجبتني، أريد أن أقدمها بين يدي أبي بكر، وكنت أداري منه بعض الحد، فقال أبو بكر: على رسلك يا عمر، فكرهت أن أغضبه، فتكلم، وهو كان أعلم مني وأوقر، فوالله ما ترك من كلمة أعجبتني من تزويري إلا قالها في بديهته، أو مثلها أو أفضل، حتى سكت.

قال (أبو بكر): أما ما ذكرتم فيكم من خير، فأنتم له أهل، ولن تعرف العرب هذا الأمر إلا لهذا الحي من قريش، هم أوسط العرب نسبًا ودارًا، وقد رضيت لكم أحد هذين الرجلين، فبايعوا أيهما شئتم، وأخذ بيدي وبيد أبي عبيدة بن الجراح، وهو جالس بيننا، ولم أكره شيئًا مما قاله غيرها، كان والله أن أقدم فتضرب عنقي، لا يقربني ذلك إلى إثم، أحب إليَّ من أن أتأمر على قوم فيهم أبو بكر.

قال قائل من الأنصار: أنا جذيلها المحكك وعذيقها المرجب[1]، منا أمير ومنكم أمير يا معشر قريش، قال: فكثر اللغط، وارتفعت الأصوات، حتى تخوفت الاختلاف، فقلت: ابسط يدك يا أبا بكر، فبسط يده، فبايعته، ثم بايعه المهاجرون، ثم بايعه الأنصار، ونزونا على سعد بن عبادة، فقال قائل منهم: قتلتم سعد بن عبادة. قال: فقلت: قتل الله سعد بن عبادة.

قال ابن إسحاق: قال الزهري: أخبرني عروة بن الزبير، أن أحد الرجلين الصالحين اللذين لقوا من الأنصار حين ذهبوا إلى السقيفة عويم بن ساعدة، والآخر معن بن عدي، أخو بني العجلان، فأما عويم بن ساعدة فهو الذي بلغنا أنه قيل لرسول الله ﷺ من الذين قال الله ﷻ لهم: ﴿ فِيهِ رِجَالٌ يُحِبُّونَ أَن يَتَطَهَّرُوا۟ۚ وَٱللَّهُ يُحِبُّ ٱلْمُطَّهِّرِينَ ﴿١٠٨﴾ ﴾ [التوبة].

فقال رسول الله ﷺ: «نِعْمَ المرء منهم عويم بن ساعدة»؛ وأما معن بن عدي، فبلغنا أن الناس بكوا على رسول الله ﷺ حين توفاه الله عز وجل، وقالوا: والله لوددنا أنا متنا قبله؛ إنا نخشى أن نفتتن بعده. قال معن بن عدي: لكني والله ما أحب أني مت قبله؛ حتى أصدقه ميتًا كما صدقته حيًّا، فقتل معن يوم اليمامة شهيدًا في خلافة أبي بكر، يوم مسيلمة الكذاب.

---

(1) أنا جذيلها المحكك وعذيقها المرجب: كأنه يقول أنا داهيتها القادر على الحل، قال ابن شهاب: أخبرني سعيد ابن المسيب أن الذي قال ذلك هو الحباب بن المنذر. انظر: البداية والنهاية 5/267.

وقد زاد عمر رَضِيَ اللَّهُ عَنْهُ عن هذه الرواية، فقال: «أما والله ما وجدنا فيما حضرنا أمرًا هو أرفق من مبايعة أبي بكر، خشينا إن فارقنا القوم ولم تكن بيعة، أن يحدثوا بعدنا بيعة؛ فإما نبايعهم على ما لا نرضى، وإما أن نخالفهم، فيكون فساد، فمن بايع أميرًا عن غير مشورة المسلمين فلا بيعة له، ولا بيعة للذي بايعه؛ تغرة أن يقتلا»[1].

وقد وردت روايات أخرى تكمل صورة ما دار في اجتماع السقيفة:

فقد روى الإمام أحمد، عن ابن مسعود رَضِيَ اللَّهُ عَنْهُ، قال: لما قبض رسول الله صَلَّى اللَّهُ عَلَيْهِ وَسَلَّمَ قالت الأنصار: منا أمير ومنكم أمير، فأتاهم عمر، فقال: يا معشر الأنصار، ألستم تعلمون أن رسول الله صَلَّى اللَّهُ عَلَيْهِ وَسَلَّمَ قد أمر أبا بكر أن يؤم الناس، فأيكم تطيب نفسه أن يتقدم أبا بكر، فقالت الأنصار: نعوذ بالله أن نتقدم أبا بكر[2].

وروى الزهري عن عمر رَضِيَ اللَّهُ عَنْهُ، قال: قلت: يا معشر المسلمين، إن أولى الناس بأمر نبي الله ثاني اثنين إذ هما في الغار، وأبو بكر السابق المسن، ثم أخذت بيده، وبدرني (سبقني) رجل من الأنصار، قالوا: هو بشير بن سعد، والد النعمان بن بشير، فضرب على يده قبل أن أضرب على يده، ثم ضربت على يده (مبايعًا)، وتبايع الناس [3].

وفي رواية عند الإمام أحمد أن سعد بن عبادة رَضِيَ اللَّهُ عَنْهُ أقر بما قاله الصديق رَضِيَ اللَّهُ عَنْهُ يوم السقيفة؛ فقد روي عن حميد بن عبد الرحمن، قال: فانطلق أبو بكر وعمر يتعادان حتى أتوهم، فتكلم أبو بكر، فلم يترك شيئًا أُنزل في الأنصار، ولا ذكره رسول الله من شأنهم إلا ذكره، قال: لقد علمتم أن رسول الله صَلَّى اللَّهُ عَلَيْهِ وَسَلَّمَ قال: «لو سلك الناس واديًا وسلكت الأنصار واديًا، سلكت وادي الأنصار»، ولقد علمت يا سعد أن رسول الله صَلَّى اللَّهُ عَلَيْهِ وَسَلَّمَ قال وأنت قاعد: «قريش ولاة هذا الأمر، فبر الناس تبع لبرهم، وفاجرهم تبع لفاجرهم».

فقال له سعد: صدقت، نحن الوزراء وأنتم الأمراء.

(1) المصدر السابق.

(2) المصدر السابق.

(3) المصدر السابق.

قال البوطي: إن الخلاف الذي دار في سقيفة بني ساعدة بين كبار الصحابة بصدد التشاور في اختيار خليفة لهم، أمر طبيعي، يقتضيه طرح القضية على بساط البحث والمشورة، وهو دليل بيِّن قاطع على حماية الشارع للآراء والاقتراحات المختلفة، من أي مصادرة أو تقييد، في كل ما لم يرد به نص ثابت صريح، وإنما سبيل الوصول إلى الحق في كل ما سكت الشارع عنه هو طرح أكثر من رأي، ومناقشتها جميعًا بموضوعية وحرية وصدق.

ولقد كانت المصيبة كبيرة، والمشكلة عويصة، لو أن الصحابة رَضِيَ اللَّهُ عَنْهُمْ لم يجدوا أنفسهم إلا أمام خيار واحد، طرحوه للتصويت، ثم انفضوا عن اتفاق عليه، إذن لكانت هذه الشورى عندئذ شورى مزيفة، ولكان الاتفاق مدفوعًا إليه بجبر خارجي.

والعجب ممن ينشدون الشورى في الإسلام، ويتهمونه بالاستبداد، حتى إذا رأوا مظاهر الشورى ماثلة أمام أعينهم، سموها - جهلًا منهم أو تجاهلًا: صراعًا وشقاقًا، إذن فما هي الشورى التي في أذهانهم؟ وما هي صورتها؟ وكيف ينبغي أن تكون؟[1].

وقال الغضبان: إن اختيار القيادة بين الأقران من أعقد الأمور في أكثر النظم ديمقراطية، وسقوط القيادة المفاجئ كثيرًا ما يوقع الصراع، وإذا كانت القيادة تاريخية، فالصراع يكون أشد، فكيف إذا كانت القيادة هي خير أهل الأرض، وسيد ولد آدم، وخير الثقلين الجن والإنس؟!

إن سرعة اختيار الخليفة التي لم تتجاوز ساعات قلائل بعد وفاة النبي، ليدل - دلالة واضحة - على قوة هذا الصف وسلامته، وانصهار لحمته، وكلما كان الصف ضعيفًا ممزقًا كلما كان اختيار القيادة صعبًا عسيرًا.

البيعة العامة:

قال ابن كثير: كان هذا (أي: اجتماع السقيفة) في بقية يوم الاثنين، فلما كان الغد صبيحة يوم الثلاثاء، اجتمع الناس في المسجد، فتُممت البيعة من المهاجرين والأنصار قاطبة، وكان ذلك قبل تجهيز رسول الله ﷺ[2].

---

(1) فقه السيرة، ص 518.

(2) البداية والنهاية 5/268.

قال ابن إسحاق: حدثني الزهري، قال: حدثني أنس بن مالك، قال: لما بويع أبو بكر في السقيفة، وكان الغد جلس أبو بكر على المنبر، فقام عمر، فتكلم قبل أبي بكر، فحمد الله وأثنى عليه بما هو أهله، ثم قال: أيها الناس إني كنت قلت لكم أمس مقالة ما كانت مما وجدتها في كتاب الله، ولا كانت عهدًا عهد إليَّ رسول الله ﷺ، ولكني قد كنت أرى أن رسول الله ﷺ سيدبر أمرنا، يقول: يكونا آخرنا، وإن الله قد أبقى فيكم كتابه الذي به هدى الله رسوله ﷺ، فإن اعتصمتم به هداكم الله لما كان هداه له، وإن الله قد جمع أمركم على خيركم، صاحب رسول الله ﷺ وثاني اثنين إذ هما في الغار، فقوموا فبايعوه، فبايع الناس أبا بكر بيعة العامة بعد بيعة السقيفة.

خطبة أبي بكر بعد البيعة:

تكلم أبو بكر، فحمد الله وأثنى عليه بالذي هو أهله، ثم قال: أما بعد، أيها الناس فإني قد وُليت عليكم ولست بخيركم؛ فإن أحسنت فأعينوني وإن أسأت فقوموني، الصدق أمانة والكذب خيانة، والضعيف فيكم قوي عندي حتى أريح عليه حقه إن شاء الله، والقوي فيكم ضعيف عندي حتى آخذ الحق منه إن شاء الله، لا يدع قوم الجهاد في سبيل الله إلا ضربهم الله بالذل، ولا تشيع الفاحشة في قوم قط إلا عمهم الله بالبلاء، أطيعوني ما أطعت الله ورسوله، فإذا عصيت الله ورسوله فلا طاعة لي عليكم، قوموا إلى صلاتكم يرحمكم الله[1] .

بيعة الزبير وعلي بن أبي طالب لأبي بكر:

روى الحافظ أبو بكر البيهقي عن أبي سعيد الخدري رَضِيَ اللَّهُ عَنْهُ، قال: لما صعد أبو بكر المنبر، فنظر في وجوه القوم فلم ير الزبير، قال: فدعا بالزبير فجاء.

فقال: قلت: ابن عمة رسول الله ﷺ وحواريه، أردت أن تشق عصا المسلمين، فقال: لا تثريب يا خليفة رسول الله ﷺ (أي لا لوم ولا إفساد لما بيني وبينك)، فقام فبايعه.

ثم نظر في وجوه القوم، فلم ير عليًّا، فدعا بعلي بن أبي طالب فجاء.

---

(1) المصدر السابق، وقال ابن كثير: وهذا إسناد صحيح.

فقال: قلت: ابن عم رسول الله ﷺ وختنه على ابنته (زوج ابنته)، أردت أن تشق عصا المسلمين.

قال: لا تثريب يا خليفة رسول الله ﷺ، فبايعه(1).

أما ما يقال إن عليًّا رَضِيَ اللَّهُ عَنْهُ لم يبايع أبا بكر رَضِيَ اللَّهُ عَنْهُ إلا بعد ستة أشهر، فقد قال ابن كثير في ذلك: كانت مبايعة علي بن أبي طالب رَضِيَ اللَّهُ عَنْهُ؛ إما في أول يوم، أو في اليوم الثاني من الوفاة، وهذا حق؛ فإن علي بن أبي طالب لم يفارق الصديق في وقت من الأوقات، ولم ينقطع في صلاة من الصلوات خلفه، وخرج معه إلى (ذي القصة)، لما خرج الصديق شاهرًا سيفه؛ يريد قتال أهل الردة.

ولكن لما حصل من فاطمة رَضِيَ اللَّهُ عَنْهَا عتب على الصديق؛ بسبب ما كانت تتوهمه من أنها تستحق ميراث رسول الله ﷺ، ولم تعلم بما أخبرها به الصديق رَضِيَ اللَّهُ عَنْهُ، أنه ﷺ قال: «لا نورث، ما تركنا فهو صدقة»، فحجبها وغيرها من أزواجه وعمه عن الميراث بهذا النص الصريح، فسألته أن ينظر علي بن أبي طالب في صدقة الأرض التي بخيبر وفدك، فلم يجبها إلى ذلك؛ لأنه رأى أن حقًّا عليه أن يقوم في جميع ما كان يتولاه رسول الله ﷺ وهو الصادق البار، الراشد التابع للحق رَضِيَ اللَّهُ عَنْهُ، فحصل لها وهي امرأة من البشر عتب وتغضب، ولم تكلم الصديق حتى ماتت، واحتاج علي رَضِيَ اللَّهُ عَنْهُ أن يراعي خاطرها بعض الشيء، فلما ماتت بعد ستة أشهر من وفاة أبيها ﷺ، رأى علي رَضِيَ اللَّهُ عَنْهُ أن يجدد البيعة لأبي بكر رَضِيَ اللَّهُ عَنْهُ مع ما تقدم له من البيعة قبل دفن رسول الله ﷺ (2).

المبحث السابع: غسل النبي ﷺ وتكفينه ودفنه

قدمنا أنهم رَضِيَ اللَّهُ عَنْهُمْ اشتغلوا ببيعة الصديق بقية يوم الاثنين، وبعض يوم الثلاثاء فلما تمهدت وتوطدت وتمت، شرعوا - بعد ذلك - في تجهيز رسول الله ﷺ (3).

---

(1) المصدر السابق.

(2) البداية والنهاية 5/210.

(3) البداية والنهاية 5/280.

قال ابن إسحاق: فلما بويع أبو بكر رَضِيَٱللَّهُعَنْهُ أقبل الناس على جهاز رسول الله ﷺ يوم الثلاثاء، فحدثني عبد الله بن أبي بكر، وحسين بن عبد الله، وغيرهما من أصحابنا، أن علي بن أبي طالب، والعباس بن عبد المطلب والفضل بن العباس، وقثم بن العباس، وأسامة بن زيد، وشقران مولى رسول الله ﷺ، هم الذين تولوا غسله.

وإن أوس بن خولي أحد بني عوف بن الخزرج، قال لعلي بن أبي طالب: أنشدك الله يا علي، وحظنا من رسول الله ﷺ، وكان أوس من أصحاب رسول الله ﷺ، وأهل بدر، قال: ادخل فدخل.

فجلس وحضر غسل رسول الله ﷺ، فأسنده علي بن أبي طالب إلى صدره، وكان العباس والفضل وقثم يقلبونه معه، وكان أسامه بن زيد، وشقران مولاه هما اللذان يصبان الماء عليه، وعلي يغسله قد أسنده إلى صدره، وعليه قميصه يدلكه به من ورائه، لا يفضي بيده إلى رسول الله ﷺ.

وعلي يقول: بأبي أنت وأمي، ما أطيبك حيًّا وميتًا، ولم يُر من رسول الله شيء مما يُرى من الميت.

تكفينه ﷺ:

قال ابن إسحاق: فلما فُرغ من غسل رسول الله ﷺ، كُفن في ثلاثة أثواب؛ ثوبين صحاريين، وبرد حبرة، أدرج فيها إدراجًا، كما حدثني جعفر ابن محمد بن علي بن الحسين، عن أبيه، عن جده علي بن الحسين، والزهري عن علي بن الحسين.

قبره ﷺ:

قال ابن إسحاق: وحدثني حسين بن عبد الله عن عكرمة، عن ابن عباس، قال: لما أرادوا أن يحفروا لرسول الله ﷺ، وكان أبو عبيدة بن الجراح يضرح كحفر أهل مكة، وكان أبو طلحة زيد بن سهل هو الذي يحفر لأهل المدينة، وكان يلحد، فدعا العباس رجلين، فقال لأحدهما: اذهب إلى أبي عبيدة بن الجراح، وللآخر: اذهب إلى أبي طلحة،

اللَّهم خر (اختر) لرسول الله ﷺ، فوجد صاحب أبي طلحة أبا طلحة، فجاء به فلحد لرسول الله ﷺ.

الصلاة عليه ودفنه ﷺ:

فلما فُرغ من جهاز رسول الله ﷺ يوم الثلاثاء، وضع في سريره في بيته، وقد كان المسلمون اختلفوا في دفنه، فقال قائل: ندفنه في مسجده، وقال قائل: بل ندفنه مع أصحابه، فقال أبو بكر: إني سمعت رسول الله ﷺ يقول: «ما قُبض نبي إلا دُفن حيث يُقبض»، فرُفع فراش رسول الله ﷺ الذي توفي عليه، فحُفر له تحته، ثم دخل الناس على رسول الله ﷺ يصلون عليه أرسالًا، دخل الرجال حتى إذا فرغوا أدخل النساء، حتى فرغ النساء أدخل الصبيان، ولم يؤم الناس على رسول الله ﷺ أحد، ثم دفن رسول الله ﷺ من وسط الليل ليلة الأربعاء.

قال ابن إسحاق: وحدثني عبد الله بن أبي بكر، عن امرأته فاطمة بنت عمارة، عن عمرة بنت عبد الرحمن بن أسعد بن زرارة، عن عائشة رَضِيَ اللَّهُ عَنْهَا، قالت: ما علمنا بدفن رسول الله ﷺ حتى سمعنا صوت المساحي من جوف الليل من ليلة الأربعاء.

قال محمد بن إسحاق: وقد حدثتني فاطمة هذا الحديث.

من تولى دفنه ﷺ:

قال محمد بن إسحاق: وكان الذين نزلوا في قبر رسول الله ﷺ علي بن أبي طالب والفضل بن عباس، وقثم بن عباس وشقران مولى رسول الله ﷺ وقد قال أوس بن خولي لعلي بن أبي طالب: يا علي أنشدك الله، وحظنا من رسول الله ﷺ، فقال: انزل، فنزل مع القوم، وقد كان مولاه شقران حين وضع رسول الله ﷺ في حفرته وبني عليه، قد أخذ قطيفة وقد كان رسول الله ﷺ يلبسها ويفترشها، فدفنها في القبر، وقال: والله لا يلبسها أحد بعدك أبدًا.

قال: فدفنت مع رسول الله ﷺ.

ثم أهالوا التراب على القبر الشريف، ثم رشوا عليه الماء، وكان ذلك في ليلة الأربعاء، بعد يومين من وفاته ﷺ. قال أنس: ولما نفضنا عن رسول الله ﷺ الأيدي، وإنا لفي دفنه حتى أنكرنا قلوبنا[1].

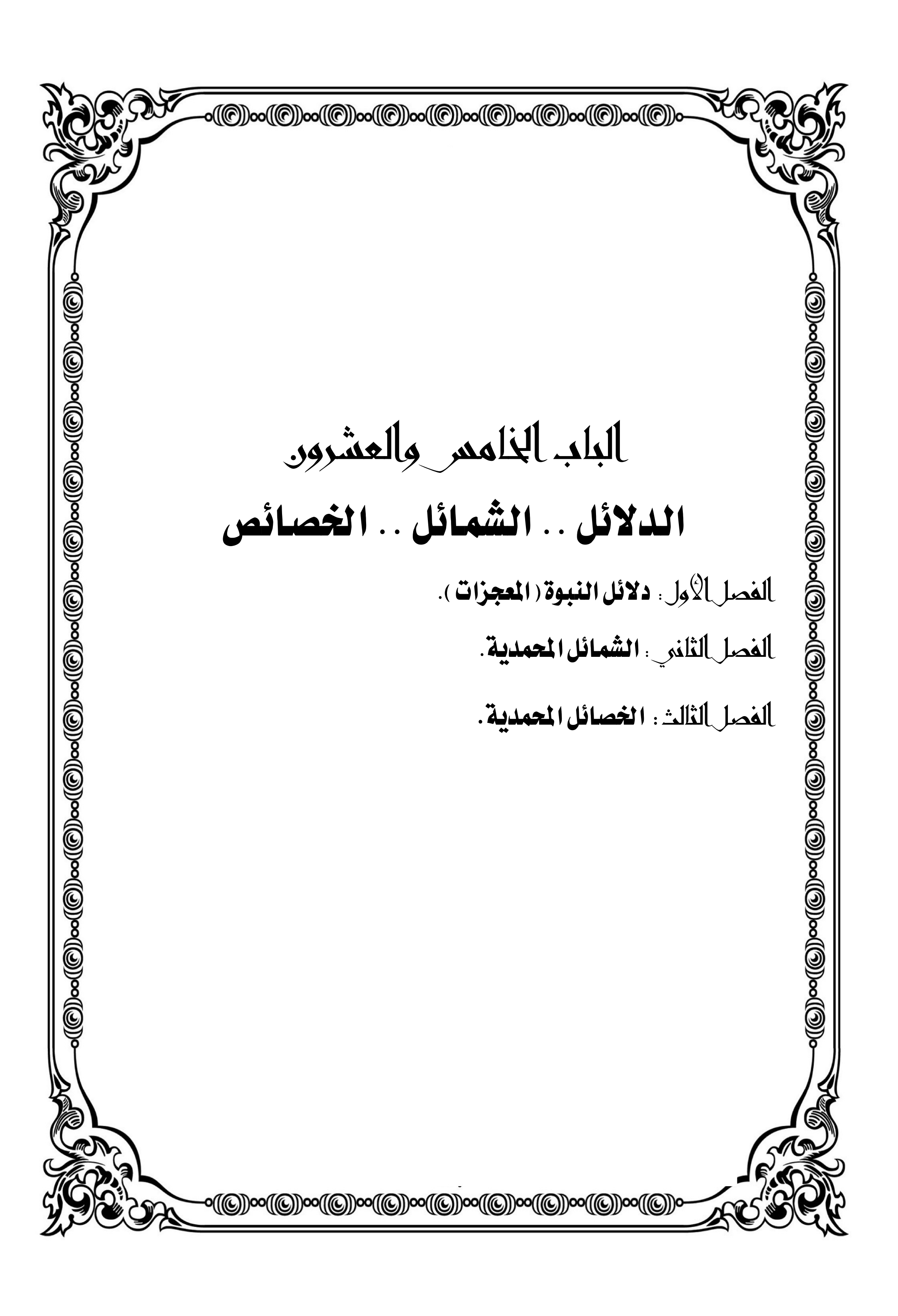
ثلاثة أقمار سقطن في حجرة عائشة:

لما توفي الصديق رَضِيَ اللَّهُ عَنْهُ دفن بجانب صاحبه ﷺ، وكان هناك موضع قبر كانت عائشة تدخره لنفسها، فلما طُعن الفاروق أوصاهم أن يستأذنوا عائشة في أن يدفن بجانب صاحبيه، فلما قُبض استأذنوها، فأذنت وآثرته على نفسها، وتحققت رؤياها؛ فقد كانت رأت أن ثلاثة أقمار سقطن في حجرتها، فكان الثلاثة، هم الثلاثة أقمار الذين ملأوا الدنيا إيمانًا وهدى، وعدلًا ورحمة ونورًا وضياء[2].

* * *

(1) الترمذي (2618)، وابن ماجه (1631).

(2) السيرة لأبي شهبة، ج2، ص 599.



الباب الخامس والعشرون

الدلائل .. الشمائل .. الخصائص

الفصل الأول: **دلائل النبوة (المعجزات).**

الفصل الثاني: **الشمائل المحمدية.**

الفصل الثالث: **الخصائص المحمدية.**

الباب الخامس والعشرون

الدلائل .. الشمائل .. الخصائص

لا تكتمل دراسة السيرة النبوية إلا بدراسة دلائل نبوته ﷺ .. فدلائل النبوة من أهم أقسام السيرة، وأنفعها في ترسيخ العقيدة وتقوية الإيمان، والدلائل هي المعجزات والبراهين الدالة على صدق نبوته ﷺ، وهي كثيرة جدًّا. وقد ذكر الإمام البيهقي في كتابه القيم (دلائل النبوة)، أنها تزيد على الألف دليل[1]، بينما ذكر النووي أنها تزيد عن الألف ومائتي دليل[2]. وأعظمها – بالقطع – القرآن الكريم، الذي تحدى الجميع إلى قيام الساعة: ﴿وَإِن كُنتُمْ فِي رَيْبٍ مِّمَّا نَزَّلْنَا عَلَىٰ عَبْدِنَا فَأْتُوا بِسُورَةٍ مِّن مِّثْلِهِ وَادْعُوا شُهَدَاءَكُم مِّن دُونِ اللَّهِ إِن كُنتُمْ صَادِقِينَ ﴿٢٣﴾﴾ [البقرة].

ولا تكتمل دراسة السيرة العطرة أيضًا دون معرفة الشمائل والأخلاق النبوية، وهي على قسمين:

القسم الأول: الصفات الخلقية التي خلقه الله عليها من هيئته ولونه.

والقسم الثاني: يتناول الصفات الخُلقية، التي وصلت إلى حد الكمال، الذي لم يصل إليه بشر من قبله، ولن يصل إليه بشر من بعده، وهي كثيرة جدًّا؛ فمنها الحياء والحلم والسماحة والبذل والعفو والتواضع والشجاعة .. وقد قال ربه: ﴿وَإِنَّكَ لَعَلَىٰ خُلُقٍ عَظِيمٍ ﴿٤﴾﴾ [القلم].

أما خصائصه ﷺ فيقصد بها الخصائص التي اختُص بها عن سائر الرسل والأنبياء، وما اختص به من أحكام عن سائر أمته، وما اختُصت به أمته – بسببه – عن سائر الأمم، وقد اهتم العلماء بهذا الباب أيضًا، فجمعوا ما ورد من خصائص في كتب ومصنفات كثيرة، من أشهرها:

---

(1) دلائل النبوة (60/1).

(2) صحيح مسلم، شرح النووي (2/1).

- الخصائص النبوية الكبرى، للسيوطي.

- أنموذج اللبيب في خصائص الحبيب، للسيوطي أيضًا.

- غاية السول في خصائص الرسول، لابن الملقن.

وسنعرض في هذا الباب الدلائل والشمائل والخصائص؛ رجاء استكمال الفائدة من دراسة السيرة النبوية العطرة، وسعيًا لتحقيق الأهداف العشرة للكتاب التي وضعناها عند إعداده وذكرناها في مقدمته .. والله من وراء القصد، وهو يهدي السبيل.

❊ ❊ ❊

الفصل الأول

دلائل النبوة (المعجزات)

دلائل النبوة هي المعجزات التي ساقها الله ﷻ للناس مع نبيه ﷺ؛ ليبرهن بها على صدق نبوته، **قال سعيد حوى رَحِمَهُ ٱللَّهُ:**

والمعجزة هي الأمر الخارق للعادة، الذي يظهره الله على يد الرسول أو النبي، وهي علامة على الرسالة؛ لأنها تخرج من عالم الأسباب كلها، بحيث يعجز الإنسان كإنسان أن يأتي بها؛ وذلك أن قدرة الإنسان محدودة ضمن قوانين الكون، وقدرة الله وحدها هي المطلقة، فكون الرسول تظهر معه آثار القدرة المطلقة، فذلك دليل على أنه له صلة مع الله [1].

وقد أيد الله رسله من قبل رسولنا محمد ﷺ بالمعجزات الدالة على صدقهم، وكانت هذه المعجزات أجناسًا كثيرة، وقد أخبر الله ﷻ أنه أعطى موسى عَلَيْهِ ٱلسَّلَامُ تسع آيات: العصا، واليد، والدم، والطوفان، والجراد، والقمل، والضفادع، والطمس، والبحر.

وألان الحديد لداود، وسخر له الجبال والطير، فكانت تُسبح معه بالعشي والإشراق، وأقدر عيسى ابن مريم على الكلام في المهد، فكان يتكلم كلام الحكماء، وكان يحيي له الموتى، ويُبْرِئ بدعائه أو بيده إذا مسح الأكْمَه والأبرص، وجعل له أن يجعل من الطين كهيئة الطير، فينفخ فيه، فيكون طيرًا بإذن الله[2].

أما محمد ﷺ، فكانت معجزته الكبرى هي القرآن الكريم، معجزة الله التي لا تبليها السنون ولا القرون، وكتابه الخالد الدائم إلى يوم القيامة، قال ﷺ: «ما من الأنبياء من نبي، إلا قد أعطي من الآيات ما مثله آمن عليه البشر، وإنما كان الذي أُوتيتُ وحيًا أوحى الله إلي، فأرجو أن أكون أكثرهم تابعًا يوم القيامة»[3]. قال ابن حجر: أي أن معجزتي

(1) الرسول، ص 15.

(2) دلائل النبوة للبيهقي (59/1).

(3) رواه البخاري، حديث (4981)؛ ومسلم، حديث (152)، واللفظ له.

التي تحدَّيتُ بها، الوحي الذي أنزل عليَّ، وهو القرآن، ومع القرآن العظيم كانت هناك دلائل ومعجزات كثيرة ومتنوعة، تنطق بصدق نبوته ﷺ:

- منها الغيوب التي أخبر بها، وتحققت حال حياته، أو بعد وفاته، كما أخبر عنها.

- ومنها المعجزات الحسية التي وهبها الله له؛ كتكثير الطعام بين يديه، وشفاء المريض، وانشقاق القمر.

- ومنها استجابة الله دعاءه، وعصمته من القتل، وغير ذلك الكثير[1].

قال البيهقي: (فأما النبي المصطفى، والرسول المجتبى، المبعوث بالحق إلى كافة الخلق من الجن والإنس، أبو القاسم: محمد بن عبد الله بن عبد المطلب، خاتم النبيين، ورسول رب العالمين، صلوات الله عليه وعلى آله الطيبين الطاهرين؛ فإنه أكثر الرسل آيات وبينات، وذكر بعض أهل العلم أن أعلام نبوته تبلغ ألفًا»[2].

ودلائل نبوة نبينا ﷺ المتنوعة والكثيرة، يجمعها أقسام ستة، سنوردها في ستة مباحث:

المبحث الأول: القرآن الكريم.

المبحث الثاني: ما وقع له ﷺ قبل البعثة.

المبحث الثالث: ما وقع على يديه من معجزات بعد البعثة.

المبحث الرابع: ما أخبر بوقوعه من الغيوب، وتحقق حال حياته.

المبحث الخامس: ما أخبر بوقوعه من الغيوب، وتحقق بعد وفاته.

المبحث السادس: ما أخبر بوقوعه من الغيوب، ولم يقع حتى زماننا، وسيقع يقينًا.

---

(1) انظر: دلائل النبوة، د. منقذ بن محمود السقار، ص 2.

(2) دلائل النبوة (1/60).

المبحث الأول: القرآن الكريم

وهو أعظم دلائل النبوة، ومعجزتها الرئيسة الباقية أبدًا، الناطقة بصدق الرسالة إلى يوم الدين، والمحفوظة بحفظ من أنزلها: ﴿إِنَّا نَحْنُ نَزَّلْنَا الذِّكْرَ وَإِنَّا لَهُ لَحَافِظُونَ ۝٩﴾ [الحجر]، ويستطيع كل إنسان – إن صدق مع نفسه – أن يعرفها ويتيقنها: ﴿بَلْ هُوَ آيَاتٌ بَيِّنَاتٌ فِي صُدُورِ الَّذِينَ أُوتُوا الْعِلْمَ ۚ وَمَا يَجْحَدُ بِآيَاتِنَا إِلَّا الظَّالِمُونَ ۝٤٩﴾ [العنكبوت]، فالوحي نفسه فيه دليل على أنه من عند الله ﷻ؛ إذ هو ذاته المعجزة؛ ولذلك عندما كان المشركون يطلبون آية، كانوا يُلفتون إلى أن الآية بين أيديهم: ﴿وَقَالُوا لَوْلَا أُنزِلَ عَلَيْهِ آيَاتٌ مِّن رَّبِّهِ ۖ قُلْ إِنَّمَا الْآيَاتُ عِندَ اللَّهِ وَإِنَّمَا أَنَا نَذِيرٌ مُّبِينٌ ۝٥٠[1] أَوَلَمْ يَكْفِهِمْ أَنَّا أَنزَلْنَا عَلَيْكَ الْكِتَابَ يُتْلَىٰ عَلَيْهِمْ ۚ إِنَّ فِي ذَٰلِكَ لَرَحْمَةً وَذِكْرَىٰ لِقَوْمٍ يُؤْمِنُونَ ۝٥١﴾ [العنكبوت].

فالقرآن معجز بحروفه وكلماته وتراكيبه ومعانيه، معجز بإخباره عن الغيوب، معجز بأحكامه الشرعية وقضاياه العقلية، التي لا قِبَل للبشر بمثلها، مع التحدي القائم إلى يوم الدين، بأن يأتي الإنس والجن متعاونين بمثله[2]: ﴿قُل لَّئِنِ اجْتَمَعَتِ الْإِنسُ وَالْجِنُّ عَلَىٰ أَن يَأْتُوا بِمِثْلِ هَٰذَا الْقُرْآنِ لَا يَأْتُونَ بِمِثْلِهِ وَلَوْ كَانَ بَعْضُهُمْ لِبَعْضٍ ظَهِيرًا ۝٨٨﴾ [الإسراء].

قال البيهقي[3]: فأما العلم الذي اقترن بدعوته ولم يزل يتزايد أيام حياته، ودام في أمته بعد وفاته، فهو القرآن العظيم، المعجز المبين، وحبل الله المتين، الذي هو كما وصفه به من أنزله، فقال: ﴿إِنَّ الَّذِينَ كَفَرُوا بِالذِّكْرِ لَمَّا جَاءَهُمْ ۖ وَإِنَّهُ لَكِتَابٌ عَزِيزٌ ۝٤١ لَّا يَأْتِيهِ الْبَاطِلُ مِن بَيْنِ يَدَيْهِ وَلَا مِنْ خَلْفِهِ ۖ تَنزِيلٌ مِّنْ حَكِيمٍ حَمِيدٍ ۝٤٢﴾ [فُصلت].

وقال: ﴿إِنَّهُ لَقُرْآنٌ كَرِيمٌ ۝٧٧ فِي كِتَابٍ مَّكْنُونٍ ۝٧٨ لَّا يَمَسُّهُ إِلَّا الْمُطَهَّرُونَ ۝٧٩ تَنزِيلٌ مِّن رَّبِّ الْعَالَمِينَ ۝٨٠﴾ [الواقعة].

---

(1) سعيد حوى: الرسول، ص 249.

(2) انظر: هذا الحبيب يا محب للجزائري، ص 498.

(3) دلائل النبوة 1/60-64، مختصرًا.

وقال: ﴿ بَلْ هُوَ قُرْءَانٌ مَّجِيدٌ ۝٢١ فِى لَوْحٍ مَّحْفُوظٍ ۝٢٢ ﴾ [البروج].

وقال: ﴿ إِنَّ هَٰذَا لَهُوَ ٱلْقَصَصُ ٱلْحَقُّ ﴾ [آل عمران:62].

وقال: ﴿ وَهَٰذَا كِتَٰبٌ أَنزَلْنَٰهُ مُبَارَكٌ فَٱتَّبِعُوهُ وَٱتَّقُوا۟ لَعَلَّكُمْ تُرْحَمُونَ ۝١٥٥ ﴾ [الأنعام].

وقال: ﴿ كَلَّآ إِنَّهَا تَذْكِرَةٌ ۝١١ فَمَن شَآءَ ذَكَرَهُۥ ۝١٢ فِى صُحُفٍ مُّكَرَّمَةٍ ۝١٣ مَّرْفُوعَةٍ مُّطَهَّرَةٍۭ ۝١٤ بِأَيْدِى سَفَرَةٍ ۝١٥ كِرَامٍۭ بَرَرَةٍ ۝١٦ ﴾ [عبس].

وقال: ﴿ قُل لَّئِنِ ٱجْتَمَعَتِ ٱلْإِنسُ وَٱلْجِنُّ عَلَىٰٓ أَن يَأْتُوا۟ بِمِثْلِ هَٰذَا ٱلْقُرْءَانِ لَا يَأْتُونَ بِمِثْلِهِۦ وَلَوْ كَانَ بَعْضُهُمْ لِبَعْضٍ ظَهِيرًا ۝٨٨ ﴾ [الإسراء].

فأبَان - جل جلاله - أنه أُنزل على وصف مُباين لأوصاف كلام البشر؛ لأنه منظوم وليس بمنثور، ونظمه ليس نظم الرسائل، ولا نظم الخطب، ولا نظم الأشعار، ولا هو كأسجاع الكهان.

ثم أمره أن يتحداهم على الإتيان به إن ادعوا أنهم يقدرون عليه أو ظنوه، فقال: ﴿ أَمْ يَقُولُونَ ٱفْتَرَىٰهُ ۖ قُلْ فَأْتُوا۟ بِعَشْرِ سُوَرٍ ﴾ [هود:13] ثم نقصهم تسعًا، فقال: ﴿ فَأْتُوا۟ بِسُورَةٍ مِّن مِّثْلِهِۦ ﴾ [البقرة:23].

غير أن من قبل ذلك دلالة، وهي أن النبي ﷺ كان غير مدفوع أن يقول للناس: ائتوا بسورة من مثل ما جئتكم به من القرآن ولن تستطيعوه، فإن أتيتم به فأنا كاذب، ولا يأمن أن يكون في قومه من يعارضه، وأن ذلك إن كان، يبطل دعوته.

فهذا دليل قاطع على أنه لم يقل للعرب ائتوا بمثله إن استطعتموه، ولن تستطيعوه، إلا وهو واثق متحقق أنهم لا يستطيعونه، ولا يجوز أن يكون هذا اليقين وقع له إلا من قِبَل ربه، الذي أوحى إليه به.

وأما ما بعد هذا، فهو أن النبي ﷺ قال لهم: ائتوني بسورة من مثله إن كنتم صادقين.

فطالت المهلة والنَّظِرَة لهم في ذلك، وتواترت الوقائع والحروب بينه وبينهم، فقُتلت صناديدهم، وسبيت ذراريهم ونساؤهم، وانتهبت أموالهم، ولم يتعرض أحد لمعارضته (بسورة من مثله)، فلو قدروا عليها لافتدوا بها أنفسهم وأولادهم وأهاليهم وأموالهم.

فلما لم يأتوا بذلك ولا ادعوه، صح أنهم كانوا عاجزين عنه، وفي ظهور عجزهم بيان، أنه ﷺ في العجز مثلهم؛ إذ كان بشرًا مثلهم، لسانه لسانهم، وعاداته عاداتهم، وطباعه طباعهم، وزمانه زمانهم، وإذا كان كذلك وقد جاء بالقرآن، وجب القطع بأنه من عند الله - تعالى - لا من عند غيره.

وأيهما كان، فقد ظهرت بذلك معجزته، واعترفت العرب بقصورهم عنه، وعجزهم عن الإتيان بمثله.

وفيما حكى الشيخ أبو سليمان حمد بن محمد الخطابي، عن بعض أهل العلم، أن الذي أورده المصطفى ﷺ على العرب من الكلام الذي أعجزهم عن الإتيان بمثله أعجب في الآية، وأوضح في الدلالة (مما جاء به عيسى عَلَيْهِ السَّلَامُ) من إحياء الموتى وإبراء الأكمه والأبرص؛ لأنه ﷺ أتى أهل البلاغة وأرباب الفصاحة ورؤساء البيان والمتقدمين في الألسن بكلام مفهوم المعنى عندهم، فكان عجزهم أعجب من عجز من شاهد المسيح عن إحياء الموتى؛ لأنهم لم يكونوا يطيقون فيه، ولا في إبراء الأكمه والأبرص، ولا يتعاطون علمه، وقريش كانت تتعاطى الكلام الفصيح والبلاغة والخطابة.

فدل أن العجز عنه إنما كان لأنه يصير علمًا على رسالته وصحة نبوته، وهذا حجة قاطعة، وبرهان واضح.

المبحث الثاني: ما وقع له ﷺ قبل البعثة

ذكرنا فيما تقدم من أبواب الكتاب بعض ما وقع له ﷺ قبل بعثه من خوارق العادات، التي تدل على تكريم ربه له، وأنه قد اصطفاه عن سائر الناس لأمر يعلمه .. ومن ذلك:

1 - بركته ﷺ على مرضعته حليمة، وهو مسترضع عندها في بني سعد بن بكر: حيث زاد لبن ثديها، وزاد اللبن في ضروع أنعامها، وكانت قبل ذلك لا تُشبع ولا تروي ولا تغني من جوع، وقوي أتانها (حمارها) الهزيل، فصار يقطع بها في السفر ما لا يقدر عليه غيره من الحمر.

وقد وصفت حليمة ذلك وغيره أبلغ الوصف، فقالت: فلما أخذته - أي محمد ﷺ - رجعت به إلى رحلي، فلما وضعته في حجري أقبل عليه ثدياي بما شاء من لبن، فشرب حتى روي وشرب معه أخوه (من الرضاع) حتى روي، ثم ناما وما كنا ننام معه قبل ذلك، وقام زوجي إلى شارفنا تلك، فإذا هي حافل، فحلب منها ما شرب، وشربت معه حتى انتهينا ريًّا وشبعًا، فبتنا بخير ليلة، قالت: يقول صاحبي حين أصبحنا: تعلمي والله يا حليمة لقد أخذت نسمة مباركة، قالت: فقلت: والله إني لأرجو ذلك، قالت: ثم خرجنا وركبت أنا أتاني وحملته عليها معي، فوالله لقطعت بالركب ما لا يقدر عليه شيء من حمرهم، حتى إن صواحبي ليقلن لي: يا ابنة أبي ذؤيب، ويحك! أربعي علينا، أليست هذه أتانك التي كنت خرجت عليها؟ فأقول لهن: بلى والله! إنها لهي هي، فيقلن: والله إن لها شأنًا، قالت: ثم قدمنا منازلنا من بلاد بني سعد، وما أعلم أرضا من أرض الله أجدب منها، فكانت غنمي تروح عليَّ حين قدمنا به معنا شباعًا لُبنًا، فنحلب ونشرب، وما يحلب إنسان قطرة لبن، ولا يجدها في ضرع، حتى كان الحاضرون من قومنا يقولون لرعيانهم: ويلكم اسرحوا حيث يسرح راعي بنت أبي ذؤيب، فتروح أغنامهم جياعًا ما تبض بقطرة لبن، وتروح غنمي شباعًا لُبنًا، فلم نزل نتعرف من الله الزيادة والخير حتى مضت سنتاه وفصلته، وكان يشب شبابا لا يشبه الغلمان، فلم يبلغ سنتيه حتى كان غلامًا جفرًا[1].

2 - حادث شق صدره ﷺ في السنة الرابعة أو الخامسة من مولده، وهو في بني سعد بن بكر أيضًا:

وقد روى مسلم في صحيحه، عن أنس رَضِيَ اللَّهُ عَنْهُ، أن رسول الله ﷺ أتاه جبريل، وهو يلعب مع الغلمان، فأخذه فصرعه، فشق عن قلبه، فاستخرج القلب، فاستخرج منه

---

(1) ابن هشام (1/162-164).

علقة، فقال: هذا حظ الشيطان منك، ثم غسله في طست من ذهب بماء زمزم، ثم لأمه، ثم أعاده إلى مكانه، وجاء الغلمان يسعون إلى أمه - يعني ظئره (مرضعته) - فقالوا: إن محمدًا قد قُتل، فاستقبلوه وهو منتقع اللون[1].

3 - استسقاء (أبي طالب) به حين أقحط الوادي وأجدبت قريش:

أخرج ابن عساكر عن جلهمة بن عرفطة قال: قدمت مكة، وهم في قحط، فقالت قريش: يا أبا طالب، أقحط الوادي وأجدب العيال، وأنت فيهم، أما تستسقي؟ فخرج أبو طالب ومعه غلام كأنه شمس دجن، تجلت عنه سحابة قتماء، وحوله أغيلمة، فأخذه أبو طالب فألصق ظهره بالكعبة، ولاذ بأصبعه، وما في السماء قزعة، فأقبل السحاب من هٰهنا وهٰهنا، وأغدق واغدودق، وانفجر له الوادي، وأخصب النادي والبادي، وفي ذلك يقول أبو طالب:

وأبيض يستسقى الغمام بوجهه ثمال اليتامى عصمة للأرامل[2]

4 - قصته مع بحيرا الراهب حين ارتحل به عمه تاجرًا إلى الشام، لما بلغ ﷺ اثنتي عشرة سنة، فلما وصل إلى (بصرى) من أرض الشام، كان في هذه البلدة راهب عرف ببحيرا، واسمه جرجيس، فلما نزل الركب خرج إليهم، وأكرمهم بالضيافة، وكان لا يخرج إليهم قبل ذلك، وعرف رسول الله ﷺ بصفته، فقال وهو آخذ بيده: هذا سيد العالمين، هذا يبعثه الله رحمة للعالمين، فقال أبو طالب: وما علمك بذلك؟ فقال: إنكم حين أشرفتم من العقبة لم يبق حجر ولا شجر إلا وخر ساجدًا، ولا تسجد إلا لنبي، وإني أعرفه بخاتم النبوة في أسفل غضروف كتفه مثل التفاحة، وإنا نجده في كتبنا، وسأل أبا طالب أن يرده، ولا يقدم به إلى الشام؛ خوفًا عليه من اليهود، فبعثه عمه مع بعض غلمانه إلى مكة[3].

---

(1) صحيح مسلم، باب الإسراء (92/1).

(2) ابن هشام (168/1).

(3) ابن هشام (180/1-183)، ومختصر سيرة الرسول للشيخ عبد الله النجدي، ص 16.

5 - تسليم الحجر والشجر عليه ﷺ: فعن جابر بن سمرة رَضِيَ اللَّهُ عَنْهُ قال: قال رسول الله ﷺ: «إني أعرف حجرًا بمكة، كان يسلم عليَّ قبل أن أُبعث، إني لأعرفه الآن»[1].

وعن علي بن أبي طالب رَضِيَ اللَّهُ عَنْهُ، قال: كنت مع النبي ﷺ بمكة، فخرجنا في بعض نواحيها، فما استقبله جبل ولا شجر إلا وهو يقول: السلام عليكم يا رسول الله[2].

المبحث الثالث: ما وقع على يديه ﷺ من معجزات بعد البعثة

وبعد بعثته ﷺ أكرمه ربه عز وجل بالمعجزات التي يعجز عن فعلها سائر البشر، بما لم يتحقق لنبي أو رسول من قبله، فكان رسول الله ﷺ أكثر الرسل معجزة، وأبهرهم آية، فله من الدلائل والمعجزات ما لا يحد ولا يعد، فقامت بذلك حجة الله على الخلق في دعوى صدق الرسالة، ولم يعد لأحد عذر في عدم متابعته ﷺ.

وكما تقوم الحجة على من عاصر رسول الله ﷺ، وشاهد هذه الخوارق والمعجزات، تقوم أيضًا على من بعدهم بثبوت معجزاته تاريخيًّا؛ إذ الثابت تاريخيًّا كالثابت مشاهدة في إقامة الحجة.

ولم يوجد رسول أبدًا كانت له معجزات كثيرة ثابتة ثبوتًا تاريخيًّا، يتحدى أدق معايير النقد التاريخي، مثل ما كان لخاتم رسول الله محمد ﷺ؛ فإن معايير النقد التي وضعها علماء المسلمين لاستخلاص الوقائع الصحيحة الثابتة عن رسول الله ﷺ، ما وصل إليها العالم قط، ولا يرقى إلى نتائجها شك [3].

ومن معجزاته الحسية العظيمة بعد البعثة [4]:

1- انشقاق القمر:

روى أحمد والبخاري ومسلم في صحيحيهما، أن أهل مكة سألوا رسول الله ﷺ أن

---

(1) رواه مسلم (5892).

(2) رواه الترمذي (3778).

(3) انظر: الرسول لسعيد حوى، ص 312.

(4) جمع أغلب هذه المادة الشيخ أبو بكر الجزائري في كتابه القيم (هذا الحبيب يا محب)، ص 498 - 516.

يريهم آية حتى يؤمنوا بما جاء به، فأراهم القمر شقين. قال «مطعم»: انشق القمر على عهد رسول الله ﷺ، فصار فرقتين؛ فرقة على هذا الجبل، وفرقة على هذا الجبل، فقالوا: سحرنا محمد، وأنزل الله تعالى مصداق ذلك وهو قوله تعالى: ﴿ٱقْتَرَبَتِ ٱلسَّاعَةُ وَٱنشَقَّ ٱلْقَمَرُ ﴿١﴾ وَإِن يَرَوْا۟ ءَايَةً يُعْرِضُوا۟ وَيَقُولُوا۟ سِحْرٌ مُّسْتَمِرٌّ ﴿٢﴾ وَكَذَّبُوا۟ وَٱتَّبَعُوٓا۟ أَهْوَآءَهُمْ ۚ وَكُلُّ أَمْرٍ مُّسْتَقِرٌّ ﴿٣﴾﴾ [القمر].

2- نزول المطر بدعائه:

لقد أمحلت البلاد، وأصابها قحط شديد، فدخل رجل المسجد ورسول الله ﷺ قائم على المنبر يخطب، فاستقبل الرجل النبي ﷺ، وقال: يا رسول الله، هلكت الأموال وانقطعت السبل، فادع الله لنا يغيثنا، فرفع الرسول ﷺ يديه، فقال: «اللّهم اسقنا، اللّهم اسقنا، اللّهم اسقنا»[1] قال أنس: والله ما في السماء من سحاب ولا قزعة ولا شيء وما بيننا وبين سلع[2] من بيت ولا دار، فطلعت من ورائه سحابة مثل الترس، فلما توسطت السماء انتشرت، ثم أمطرت، والله ما رأينا الشمس سِتًّا، ثم دخل الرجل من ذلك الباب في الجمعة المقبلة، ورسول الله ﷺ قائم يخطب، فاستقبله الرجل، وقال: يا رسول الله ﷺ، هلكت الأموال وانقطعت السبل (من كثرة المطر)، ادع الله يمسكها، فرفع رسول الله ﷺ يديه، فقال: «اللّهم حوالينا ولا علينا، اللّهم على الآكام[3] والجبال ومنابت الشجر». قال أنس: فانقطعت، وخرجنا نمشي في الشمس.

فهذه المعجزة وهي نزول المطر بدعائه ﷺ، قد كُررت مرات عديدة، وهي معجزة سماوية؛ كانشقاق القمر، لا دخل لغير الله فيها، وهي آية من آيات نبوته ﷺ.

---

(1) رواه البخاري (1000) وغيره.

(2) جبل داخل المدينة النبوية اليوم.

(3) جمع أكمة، وهي التل الصغير.

3- نبوع الماء من بين أصابعه ﷺ:

ومن معجزات الحبيب ﷺ، الدالة على نبوته وصدق رسالته، نبوع الماء من بين أصابعه الشريفة، فقد قال أنس بن مالك - خادم رسول الله ﷺ: رأيت رسول الله ﷺ وحانت صلاة العصر، والتمس الناس الوضوء، فلم يجدوه، فأتي رسول الله ﷺ بوضوء، فوضع رسول الله ﷺ يده في ذلك الإناء، وأمر الناس أن يتوضئوا منه، فرأيت الماء ينبع من بين أصابعه، فتوضأ الناس حتى توضئوا من عند آخرهم. قال قتادة: قلت لأنس كم كنتم؟ قال: زهاء ثلاثمائة رجل.

4- فيضان ماء بئر الحديبية:

ومن معجزاته ﷺ أنه لما كان بالحديبية هو و أصحابه سنة ست من الهجرة، وكان بالحديبية بئر ماء، فنزحها أصحابه بالسقي منها، حتى لم يبق فيها ما يملأ كأس ماء، وكانوا ألفًا وأربعمائة رجل، وخافوا العطش، فشكوا ذلك إليه ﷺ، فجاء فجلس على حافة البئر، فدعا بماء، فجيء به إليه، فتمضمض منه، ومج ما تمضمض به في البئر، فما هي إلا لحظات، وإذا البئر فيها الماء، فأخذوا يسقون، فسقوا وملئوا أوانيهم، وأدوات حمل الماء عندهم، وهم - كما تقدم - ألف وأربعمائة رجل.

5- قدح لبن روى فئاما من الناس ببركته ﷺ:

روى البخاري في صحيحه، عن أبي هريرة رَضِيَٱللَّهُعَنۡهُ، قال: والله إن كنت لأعتمد بكبدي على الأرض من الجوع، وإن كنت لأشد الحجر على بطني من الجوع، ولقد قعدت يومًا على طريقهم الذي يخرجون منه، فمر أبو بكر، فسألته عن آية من كتاب الله، ما سألته إلا ليستتبعني[1]، فلم يفعل، فمر بي عمر رَضِيَٱللَّهُعَنۡهُ، فسألته عن آية من كتاب الله، ما سألته إلا ليستتبعني، فمر أبو القاسم ﷺ، فعرف ما في وجهي، وما في نفسي، فقال: «أبا هريرة»، قلت له: لبيك يا رسول الله، فقال: «الحق»، واستأذنت فأذن لي، فوجدت لبنًا في

---

(1) أي يطلب مني أن أتبعه ليطعمني.

قدح، قال (رسول الله ﷺ لأهله): «من أين لكم هذا اللبن؟»، فقالوا أهداه لنا فلان، أو آل فلان، قال: «أبا هر»، قلت: لبيك يا رسول الله، قال: «انطلق إلى أهل الصفة فادعهم لي»، قال (أي أبو هريرة): وأهل الصفة أضياف الإسلام، لم يأووا إلى أهل، ولا مال، إذا جاءت رسول الله هدية أصاب منها وبعث إليهم منها، وإذا جاءته الصدقة أرسل بها إليهم، ولم يصب منها، قال أبو هريرة: وأحزنني ذلك؛ وكنت أرجو أن أصيب من اللبن شربة أتقوى بها بقية يومي وليلتي، وقلت: أنا الرسول (إلى أهل الصفة)، فإذا جاء القوم كنت أنا الذي أعطيهم، وقلت: ما يبقى لي من هذا اللبن؟ ولم يكن من طاعة الله ورسوله بُدّ، فانطلقت فدعوتهم، فأقبلوا، واستأذنوا فأذن لهم، فأخذوا مجالسهم من البيت، ثم قال: «يا أبا هريرة خذ فأعطهم»، فأخذت القدح، فجعلت أعطيهم، فيأخذ الرجل القدح، فيشرب حتى يروى، ثم يرد القدح، حتى أتيت على آخرهم، ودفعت إلى رسول الله ﷺ، فأخذ القدح فوضعه في يده، وبقي فيه فضلة، ثم رفع رأسه ونظر إليَّ وابتسم، وقال: «أبا هريرة»، فقلت: لبيك رسول الله، قال: «بقيت أنا وأنت»، فقلت: صدقت يا رسول الله، قال: «فاقعد فاشرب»، قال: فقعدت فشربت، ثم قال لي: «اشرب»، فشربت، فما زال يقول لي: اشرب، فأشرب، حتى قلت: لا، والذي بعثك بالحق ما أجد له فيَّ مسلكًا، قال: «ناولني القدح»، فرددته إليه، فشرب من الفضلة.

6- امتلاء عكة سَمْن بعد فراغها:

روى الحافظ أبو يعلى عن أنس بن مالك، خادم رسول الله ﷺ، أنه قال: كانت لأمي أم سليم شاة، فجمعت من سمنها في عكة، فملأت العكة، ثم بعثت بها ربيبة، فقالت: يا ربيبة، أبلغي هذه العكة رسول الله ﷺ يأتدم بها، فانطلقت بها ربيبة حتى أتت رسول الله ﷺ، فقالت: يا رسول الله، هذه عكة سمن بعثت بها إليك أم سليم. قال: «أفرغوا لها عكتها»، فأفرغت العكة ودُفعت إليها، قالت: فانطلقت بها وجئت وأم سليم ليست في البيت، فعلقت العكة على وتد، فجاءت أم سليم، فرأت العكة ممتلئة تقطر، فقالت: يا ربيبة أليس أمرتك أن تنطلقي بها إلى رسول الله ﷺ؟ فقالت: بلى قد فعلت، فإن لم تصدقيني فانطلقي فسلي رسول الله ﷺ، فانطلقت ومعها ربيبة، فقالت يا

رسول الله إني بعثت معها إليك بعكة فيها سمن، قال: «قد فعلت قد جاءت»، قالت: والذي بعثك بالحق ودين الحق إنها لممتلئة تقطر سمنًا. قال أنس: فقال رسول الله ﷺ: «يا أم سليم أتعجبين إن كان الله أطعمك كما أطعمت نبيه، كلي وأطعمي». فجئت إلى البيت، فقسمت (السمن) في قعب لنا وكذا أو كذا، وتركت فيها ما ائتدمنا به شهرًا أو شهرين.

7- الطعام القليل يشبع العدد الكثير:

روى البخاري عن أنس بن مالك رضي الله عنه، قال: قال أبو طلحة لأم سليم: لقد سمعت صوت رسول الله ﷺ ضعيفًا أعرف فيه الجوع، فهل عندك من شيء؟ قالت: نعم. فأخرجت أقراصًا من شعير، ثم أخرجت خمارًا لها، فلفت الخبز ببعضه، ثم دسته تحت يدي ولاثتني ببعضه، ثم أرسلتني إلى رسول الله ﷺ، قال: فذهبت به، فوجدت رسول الله ﷺ في المسجد ومعه الناس، فقمت عليهم، فقال لي رسول الله ﷺ: «أرسلك أبو طلحة؟»، فقلت: نعم. قال: «بطعام؟»، قلت: نعم. فقال رسول الله ﷺ لمن معه: «قوموا». فانطلق وانطلقت بين أيديهم، حتى جئت أبا طلحة فأخبرته، فقال أبو طلحة: يا أم سليم، قد جاء رسول الله ﷺ والناس وليس عندنا ما نطعمهم. فقالت: الله ورسوله أعلم. فانطلق أبو طلحة حتى لقي رسول الله ﷺ، فأقبل رسول الله ﷺ وأبو طلحة معه، فقال رسول الله ﷺ: «هلمي يا أم سليم ما عندك؟»، فأتت بذلك الخبز، فأمر به رسول الله ﷺ ففت، وعصرت أم سليم عكة فأدمته، ثم قال رسول الله ﷺ فيه ما شاء الله أن يقول (أي في الطعام)، ثم قال: ائذن لعشرة. فأذن لهم، فأكلوا حتى شبعوا، ثم خرجوا، ثم قال: ائذن لعشرة. فأذن لهم، فأكلوا حتى شبعوا ثم خرجوا، ثم قال: ائذن لعشرة. فأذن لهم، فأكلوا حتى شبعوا، ثم خرجوا، ثم قال: ائذن لعشرة. فأكل القوم كلهم حتى شبعوا، والقوم سبعون أو ثمانون رجلًا.

8- تكثير الطعام:

إن معجزة تكثير الطعام والشراب قد تكررت، فبلغت عشرات المرات، وفي ظروف مختلفة، ومناسبات عديدة، منها ما تقدم، ومنها هذه؛ فقد قال أبو هريرة رضي الله عنه: كنا مع

رسول الله ﷺ في غزوة غزاها – وهي غزوة تبوك – فأرمل[1] فيها المسلمون، واحتاجوا إلى الطعام، فاستأذنوا رسول الله ﷺ في نحر الإبل، فأذن لهم، فبلغ ذلك عمر رَضِيَ اللَّهُ عَنْهُ، فجاء إلى رسول الله ﷺ، فقال: يا رسول الله، إبلهم تحملهم وتبلغهم علوهم ينحرونها؟ ادع يا رسول الله بغبَّرات[2] الزاد، فادع الله عز وجل فيها بالبركة، قال: «أجل»، فدعا بغبرات الزاد، فجاء الناس بما بقي معهم، فجمعت، ثم دعا الله عز وجل فيها بالبركة، ودعاهم بأوعيتهم، فملئوها، وفضل كثير، فقال رسول الله ﷺ عند ذلك: «أشهد أن لا إله إلا الله وأشهد أني عبد الله ورسوله، ومن لقي الله عز وجل بها غير شاك دخل الجنة».

9- توفية دين جابر الذي استغرق كل ماله:

فقد روى البخاري رَحِمَهُ اللَّهُ في دلائل النبوة المحمدية قصة جابر:

فقال: حدثنا أبو نعيم، وساق السند إلى جابر بن عبد الله بن عمرو بن حرام رَضِيَ اللَّهُ عَنْهُمَا، فقال: إن أبي توفي وعليه دين، فأتيت النبي ﷺ، فقلت: إن أبي ترك دينًا وليس عندي إلا ما يخرج نخله (أي: تمر نخله)، ولا يبلغ ما يُخرج سنين (النخل) ما عليه، فانطلق معي لكيلا يفحش علي الغرماء، فمشى حول بيدر[3] من بيادر التمر فدعا، ثم آخر ثم جلس عليه، فقال: «انزعوه»، فأوفاهم الذي لهم (من دين)، وبقي مثل ما أعطاهم. وهكذا بعد أن كان الدين قد استغرق كل التمر ولسنين عدة أيضًا، وفي التمر الموجود كل الديون، وبقي التمر في البيادر مثل ما سددت به الديون الكثيرة، وذلك ببركة وجود الرسول الله ﷺ بين البيادر، ودعائه بالبركة فيها، فباركها الله ﷻ، فوفت الديون وزادت.

10- انقياد الشجر له ﷺ:

روى مسلم بسنده، عن جابر بن عبد الله رَضِيَ اللَّهُ عَنْهُمَا، قال: سرنا مع النبي ﷺ حتى نزلنا

---

(1) نفد زادهم، واحتاجوا إلى الطعام.

(2) غبرات الزاد: بقاياه.

(3) الموضع الذي يجمع فيه التمر.

واديًا أفيح[1]، فذهب رسول الله ﷺ يقضي حاجته، فأتبعته بإداوة فيها ماء، فنظر فلم ير شيئًا يستتر به، وإذ شجرتان بشاطئ الوادي، فانطلق إلى أحدهما، فأخذ ببعض من أغصانها، وقال: «انقادي علي بإذن الله»، فانقادت معه كالبعير المخشوش[2] الذي يصانع قائده، حتى أتى الشجرة الآخرة، فأخذ بعضا من أغصانها، وقال: «انقادي عليَّ بإذن الله»، فانقادت معه كالبعير المخشوش الذي يصانع قائده، حتى إذا كان بالمنتصف فيما بينهما، لاءم بينهما، أي جمعهما، وقال: «التئما علي بإذن الله»، فالتأمتا، قال جابر: فخرجت أحضر[3]؛ مخافة أن يحس بقربي منه، فيبعد، فجلست أحدث نفسي، فحانت مني التفاتة، فإذا أنا برسول الله ﷺ مقبل، وإذا الشجرتان قد افترقتا، وقامت كل واحدة منهما على ساق ... إلى آخر الحديث.

11- حنين الجذع شوقًا إليه ﷺ:

فقد روى أحمد رَحِمَهُ ٱللَّهُ، عن جابر بن عبد الله رَضِيَ ٱللَّهُ عَنْهُمَا، قال: كان رسول الله ﷺ يخطب إلى جذع نخلة، فقالت امرأة من الأنصار - وكان لها غلام نجار: يا رسول الله، إن لي غلامًا نجارًا، أفآمره أن يتخذ لك منبرًا تخطب عليه؟ قال: «بلى»، فاتخذ له منبرًا، فلما كان يوم الجمعة خطب ﷺ على المنبر، فأنّ الجذع الذي كان يقوم عليه، كما يئنّ الصبي، فقال النبي ﷺ: «إن هذا بكى لما فقد من الذكر». وفي رواية البخاري: فصاحت النخلة «جذع النخلة» صياح الصبي، ثم نزل ﷺ، فضمه إليه يئن أنين الصبي الذي يسكن، قال: «كانت تبكي على ما كانت تسمع من الذكر عندها». فحنين الجذع شوقًا على سماع الذكر، وتألمًا لفراق الحبيب الذي كان يخطب إليه واقفًا عليه، وهو جماد لا روح له ولا عقل في ظاهر الأمر، وحسب علم الناس بالجمادات آية من أعظم الآيات الدالة على نبوة الحبيب ﷺ وصدق رسالته.

---

(1) أي واسعًا رحبًا.

(2) الذي جُعل في أنفه العود لينقاد.

(3) أي أعدو بشدة.

12- تسبيح الحصى في يديه، وسلام الشجر عليه:

روى الحافظ أبو بكر البيهقي رَحِمَهُ ٱللَّهُ، عن سويد بن يزيد السلمي، قال: سمعت أبا ذر الغفاري رَضِيَٱللَّهُعَنْهُ، يقول: لا أذكر عثمان إلا بخير بعد شيء رأيته. وبين ذلك الخبر الذي رآه، فقال: كنت رجلًا أتبع خلوات رسول الله ﷺ، فرأيته يومًا جالسًا وحده، فاغتنمت خلوته، فجئت حتى جلست إليه، فجاء أبو بكر فسلم عليه، ثم جلس عن يمين رسول الله ﷺ، فجاء عمر فسلم وجلس عن يمين أبي بكر، ثم جاء عثمان فسلم ثم جلس عن يمين عمر، وبين يدي رسول الله ﷺ سبع حصيات، فأخذهن في كفه فسبّحن حتى سمعت لهن حنينًا كحنين النخل[1] ثم وضعهن فخرسن - أي سكتن - ثم أخذهن فوضعهن في كف أبي بكر، فسبحن حتى سمعت لهن حنينًا كحنين النخل، ثم وضعهن فخرسن، ثم تناولهن فوضعهن في يد عمر، فسبّحن حتى سمعت لهن حنينًا كحنين النخل، ثم وضعهن فخرسن، ثم تناولهن فوضعهن في يد عثمان فسبّحن حتى سمعت لهن حنينًا كحنين النخل، ثم وضعهن فخرسن. فقال النبي ﷺ: «هذه خلافة النبوّة».

فهذه المعجزة ذات شطرين؛ الأول: تسبيح الحصى في أيدي الراشدين، والثاني: الخلافة فعلًا قد انحصرت في الصديق والفاروق وذي النورين، ثم اضطربت.

13- سجود البعير له ﷺ وشكواه إليه:

روى النسائي وأحمد بسندهما عن أنس بن مالك رَضِيَٱللَّهُعَنْهُ، قال: كان أهل بيت من الأنصار لهم جمل يسنون[2] عليه، وأنه استصعب عليهم فمنعهم (الجمل) ظهره[3]، وأن الأنصار جاءوا إلى رسول الله ﷺ، فقالوا إنه كان لنا جمل نسني عليه، وإنه استصعب علينا ومنعنا ظهره، وقد عطش الزرع والنخل، فقال رسول الله ﷺ لأصحابه: «قوموا»،

---

(1) أي جذع النخل الذي حن حزنًا على فراق النبي ﷺ، وقد كان يخطب فوقه فتركه.

(2) يستخرجون الماء من البئر مستعينين به.

(3) أي منعهم من استخدامه.

فقاموا فدخل الحائط[1]. والجمل في ناحية، فمشى النبي ﷺ نحوه، فقال الأنصار: إنه صار مثل الكلب[2]، وإنا نخاف عليك صولته، فقال: «ليس عليّ منه بأس»، فلما نظر الجمل إلى رسول الله ﷺ أقبل نحوه حتى خرّ ساجدًا بين يديه، فأخذ رسول الله ﷺ بناصيته أذل ما كانت قط حتى أدخله في العمل. فقال له أصحابه: يا رسول الله هذه بهيمة لا تعقل تسجد لك، ونحن أحق أن نسجد لك، فقال: «لا يصلح لبشر أن يسجد لبشر، ولو صلح لبشر أن يسجد لبشر لأمرت المرأة أن تسجد لزوجها من عظم حقه عليها».

كما روى مسلم أن النبي ﷺ دخل يومًا مع بعض أصحابه حائطًا من حيطان الأنصار، فإذا جمل قد أتاه فجرجر وذرفت عيناه، فمسح رسول الله ﷺ سراته وذفراه فَسَكن، فقال ﷺ: «من صاحب الجمل؟»، فجاء فتى من الأنصار، قال: هو لي يا رسول الله، فقال له ﷺ: «أما تتقي الله في هذه البهيمة التي ملكها الله لك، إنه شكا إليّ أنك تجيعه وتدئبه»، أي تواصل العمل عليه بدون انقطاع.

14- شهادة الذئب برسالته ﷺ:

فقد روى أحمد في مسنده عن أبي سعيد الخدري رَضِيَ اللَّهُ عَنْهُ، قال: عدا الذئب على شاة فأخذها، فطلبها الراعي فانتزعها منه، فأقعى الذئب على ذَنَبه، فقال: ألا تتقي الله، تنزع مني رزقًا ساقه الله إليّ؟! فقال: يا عجبي ذئب يكلمني كلام الإنس! فقال الذئب: ألا أخبرك بأعجب من ذلك؟ محمد بشر يخبر الناس بأنباء ما قد سبق. قال: فأقبل الراعي يسوق غنمه حتى دخل المدينة فزواها إلى زاوية من زواياها، ثم أتى رسول الله ﷺ فأخبره. فأمر النبي ﷺ فنودي: الصلاة جامعة، ثم خرج فقال للراعي: «أخبرهم» فأخبرهم، فقال رسول الله ﷺ: «صدق والذي نفس محمد بيده، لا تقوم الساعة حتى يكلم السباع الإنس، ويكلم الرجل عذبة سوطه، وشراك نعله، ويخبره فخذه بما أحدث أهله بعده»[3].

---

(1) البستان.

(2) أي الذي به داء الكلب.

(3) مسند أحمد (315/18).

15- احترام الأسد لمولاه ﷺ:

ذكر ابن كثير أن «سفينة» مولى رسول الله ﷺ أخطأ الجيش بأرض الروم، أو أسر في أرض الروم، فانطلق هاربًا يلتمس الجيش، فإذا هو بأسد فقال له: يا أبا الحارث «كنية الأسد» إني مولى رسول الله ﷺ، كان من أمري كيت وكيت، فأقبل الأسد يبصبصه حتى قام إلى جنبه، لم يزل كذلك حتى أبلغه الجيش، ثم همهم ساعة، قال: فرأيت أنه يودع، ثم رجع عني وتركني[1].

فهذه وإن كانت كرامة لسفينة مولى رسول الله ﷺ، فإنها معجزة نبوية؛ إذ الأسد ألان جانبيه ورقّ لسفينة وماشاه حتى وصل به إلى الجيش، بعد أن قال له يا أبا الحارث إني فلان مولى رسول الله ﷺ، فكان ما فعله الأسد من احترام سفينة من أجل رسول الله ﷺ؛ فلذا عدت هذه من المعجزات المحمدية.

16- نطق الغزالة ووفاؤها له ﷺ:

روى أبو نعيم الأصبهاني، في كتابه دلائل النبوة، قصة الغزالة هذه، فقال: عن ثابت البناني عن أنس بن مالك رَضِيَ اللَّهُ عَنْهُ، قال: مرّ النبي ﷺ على قوم قد اصطادوا ظبية، فشدوها على عمود فسطاط، فقالت: يا رسول الله إني أخذت ولي خِشفان[2]، فاستأذن لي أرضعهما وأعود إليهم، فقال النبيّ ﷺ «أين صاحب هذه؟»، فقال القوم: نحن يا رسول الله، قال: «خلوا عنها حتى تأتي خِشفيها ترضعهما وترجع إليكم»، فقالوا: من لنا بذلك؟ قال: «أنا»، فأطلقوها، فذهبت فأرضعت خِشفيها ثم رجعت إليهم، فأوثقوها، فمر بهم رسول الله ﷺ فقال: «أين صاحب هذه»، فقالوا: هذا يا رسول الله، فقال: «تبيعونها؟»، فقالوا: هي لك يا رسول الله، فقال: «فخلوا عنها» فأطلقوها فذهبت[3].

---

(1) البداية والنهاية 6/147.

(2) **الخشف:** ولد الغزال الصغير.

(3) دلائل النبوة 2/133.

17- خروج الجن من الصبي بدعائه ﷺ:

روى أحمد بسنده عن ابن عباس رَضِيَ اللَّهُ عَنْهُمَا، قال: إن امرأة جاءت بولدها إلى رسول الله ﷺ، فقالت: يا رسول الله إن به لممًا، وإنه يأخذه عند طعامنا فيفسد علينا طعامنا، قال: فمسح رسول الله ﷺ صدره ودعا له، فثعّ [1] ثعّة، فخرج منه مثل الجرو الأسود يسعى[2].

18- شفاء الضرير بدعائه ﷺ:

روى أحمد بسنده عن عثمان بن حنيف، أن رجلًا ضريرًا أتى النبيّ ﷺ، فقال: يا رسول الله، ادع الله أن يعافيني، فقال: «إن شئت أخّرت ذلك فهو أفضل لآخرتك، وإن شئت دعوت لك»، قال: لا، بل ادع الله لي، قال: فأمره أن يتوضأ ويصلي ركعتين، وأن يدعو بهذا الدعاء: «اللّهم إني أسألك وأتوجه إليك بنبيك محمد نبّي الرحمة، يا محمد إني أتوجه بك في حاجتي هذه فتقضى، اللّهم شفعه فيّ»، ففعل الرجل فبرأ.

19- شفاء علي رَضِيَ اللَّهُ عَنْهُ بتفاله ﷺ:

ففي الصحيح: قال ﷺ في غزو خيبر: «لأعطين الراية غدًا رجلًا يحب الله ورسوله يفتح الله على يده». فلما أصبحوا نادى عليًّا فقالوا: مريض يا رسول الله يشكو عينه، فقال: ائتوني به. فأتي به فنفث في عينه بقليل من ريقه ﷺ، فبرأ لتوه، ولم يمرض بعينه بعد ذلك قط[3].

20- ردّ عين قتادة بعد تدليها:

إذ في أُحد أصيب قتادة بن النعمان في عينه، حتى سقطت وتدلت على وجنته [4]، فردها ﷺ بيده الشريفة، فبرئت على الفور، وكانت أحسن من قبل.

---

(1) **ثعَّ:** قاء، أو سعل مرة واحدة.

(2) أحمد (2142).

(3) البخاري (2875).

(4) **الوجنة:** أعلى الخد.

21- شفاء الصبي بفضل سؤره ﷺ:

روى ابن أبي شيبة أن امرأة من خثعم أتت النبي ﷺ بصبي به بلاء لا يتكلم، فأتى النبي ﷺ فمضمض فاه، وغسل يديه، ثم أعطاها إياه، وأمرها بسقيه ومسحه به، ففعلت، فبرئ الولد، وعقل عقلًا يفضل به عقول الناس.

22- تحول جذل[1] الحطب سيفًا:

انكسر سيف عكاشة بن محصن يوم بدر، فأعطاه النبي ﷺ جذل الحطب، فقال له: «اضرب به»، فانقلب في يده سيفًا صارمًا طويلًا أبيض شديد المتن، فقاتل به، ثم لم يزل عنده يشهد به المواقف إلى أن استشهد عكاشة في قتال أهل الردة.

23- عصمة الله له ﷺ:

ومن دلائل نبوته ﷺ حفظ الله ﷻ له، وحمايته له من كيد أعدائه وعدوانهم، وقد أخبره الله بذلك، فقال له: ﴿ ۞ يَـٰٓأَيُّهَا ٱلرَّسُولُ بَلِّغْ مَآ أُنزِلَ إِلَيْكَ مِن رَّبِّكَ ۖ وَإِن لَّمْ تَفْعَلْ فَمَا بَلَّغْتَ رِسَالَتَهُۥ ۚ وَٱللَّهُ يَعْصِمُكَ مِنَ ٱلنَّاسِ ۗ إِنَّ ٱللَّهَ لَا يَهْدِى ٱلْقَوْمَ ٱلْكَـٰفِرِينَ ﴿٦٧﴾ [المائدة].

قال ابن كثير: «أي بلغ أنت رسالتي، وأنا حافظك وناصرك ومؤيدك على أعدائك، ومظفرك بهم، فلا تخف ولا تحزن، فلن يصل إليك أحد منهم بسوء يؤذيك» [2].

قالت عائشة رَضِيَ ٱللَّهُ عَنْهَا: كان رسول الله ﷺ يُحرس حتى نزلت هذه الآية: ﴿ وَٱللَّهُ يَعْصِمُكَ مِنَ ٱلنَّاسِ ﴾ [المائدة:67]، فأخرج رسول الله ﷺ رأسه من القبة فقال لهم: «يا أيها الناس انصرفوا عني؛ فقد عصمني الله»[3].

قال الماوردي: فمن معجزاته عصمته من أعدائه وهم الجم الغفير، والعدد الكثير وهم على أتم حنق عليه[4].

---

(1) **الجذل:** عود غليظ من أصل الشجرة.

(2) تفسير القرآن العظيم (3/143).

(3) رواه الترمذي، حديث (3046)، وصححه الألباني في السلسلة الصحيحة، حديث (2489).

(4) أعلام النبوة (127).

وقد مر بنا - فيما تقدم - مواقف كثيرة، تجلت فيها حماية الله لنبيه ﷺ وحفظه له من المتربصين به، منذ أن جهر بدعوته في مكة، وفي طريق هجرته إلى المدينة، ثم بعد أن أقام دولته في المدينة، والأمثلة على عصمة الله وحفظه له وكف أعدائه عنه كثيرة، نكتفي بالتذكير بنماذج، منها:

- عن أبي هريرة رَضِيَ ٱللَّهُ عَنْهُ، قال: قال أبو جهل يعفر محمد وجهه بين أظهركم (يعني بالسجود والصلاة)؟، فقيل: نعم.

فقال: واللات والعزى لئن رأيته يفعل ذلك لأطأن على رقبته، أو لأعفرن وجهه في التراب، فأتى رسول الله ﷺ وهو يصلي، زعم ليطأ على رقبته، قال: فما فجأهم منه إلا وهو ينكص على عقبيه، ويتقي (أي يحتمي) بيديه.

فقيل له: ما لك؟

فقال: إن بيني وبينه لخندقًا من نار وهوْلا وأجنحة.

فقال رسول الله ﷺ: لو دنا مني لاختطفته الملائكة عضوًا عضوًا(1).

قال النووي: (ولهذا الحديث أمثلة كثيرة في عصمته ﷺ من أبي جهل وغيره ممن أراد به ضررًا)(2).

- لما خرج النبي ﷺ من مكة مهاجرًا، نجاه الله من قريش وكيدها لما رصدوا له على باب بيته من يقتلونه، فخرج ﷺ من بينهم وقد أعمى الله أبصارهم عنه، قال تعالى: ﴿ وَإِذْ يَمْكُرُ بِكَ ٱلَّذِينَ كَفَرُوا۟ لِيُثْبِتُوكَ أَوْ يَقْتُلُوكَ أَوْ يُخْرِجُوكَ ۚ وَيَمْكُرُونَ وَيَمْكُرُ ٱللَّهُ ۖ وَٱللَّهُ خَيْرُ ٱلْمَٰكِرِينَ ﴿٣٠﴾ ﴾ [الأنفال].

---

(1) رواه مسلم، حديث (2191).

(2) شرح النووي على صحيح مسلم (17/140).

فلما وصل ﷺ وصاحبه إلى الغار، ووقف المشركون ببابه، وظن أبو بكر الهلكة، أجابه ﷺ بلسان الواثق من ربه: «ما ظنك يا أبا بكر باثنين الله ثالثهما»؟![1]. قال تعالى: ﴿إِلَّا تَنصُرُوهُ فَقَدْ نَصَرَهُ ٱللَّهُ إِذْ أَخْرَجَهُ ٱلَّذِينَ كَفَرُوا۟ ثَانِىَ ٱثْنَيْنِ إِذْ هُمَا فِى ٱلْغَارِ إِذْ يَقُولُ لِصَٰحِبِهِۦ لَا تَحْزَنْ إِنَّ ٱللَّهَ مَعَنَا ۖ فَأَنزَلَ ٱللَّهُ سَكِينَتَهُۥ عَلَيْهِ وَأَيَّدَهُۥ بِجُنُودٍ لَّمْ تَرَوْهَا وَجَعَلَ كَلِمَةَ ٱلَّذِينَ كَفَرُوا۟ ٱلسُّفْلَىٰ ۗ وَكَلِمَةُ ٱللَّهِ هِىَ ٱلْعُلْيَا ۗ وَٱللَّهُ عَزِيزٌ حَكِيمٌ ﴿٤٠﴾﴾ [التوبة].

وحين أدركهما سراقة بن مالك في الطريق، كان من خبره ما رواه البخاري، عن أبي بكر رَضِيَ ٱللَّهُ عَنْهُ، قال: «فارتحلنا بعدما مالت الشمس، واتبعنا سراقة بن مالك، فقلت: أُتينا يا رسول الله، فقال: لا تحزن إن الله معنا، فدعا عليه النبي ﷺ فارتطمت به فرسه إلى بطنها، فقال: إني أراكما قد دعوتما علي، فادعوا لي، فالله لكما أن أرد عنكما الطلب، فدعا له النبي ﷺ فنجا، فجعل لا يلقى أحدًا إلا قال: كفيتكم ما هنا، فلا يلقى أحدًا إلا رده. قال: ووفى لنا».

وقد تنزلت حماية الله لرسوله ﷺ يوم أحد، حين أطبق عليه المشركون، وتفرق عنه أصحابه، كما روى سعد بن أبي وقاص رَضِيَ ٱللَّهُ عَنْهُ، فقال: «رأيت عن يمين رسول الله ﷺ وعن شماله يوم أحد رجلين، عليهما ثياب بياض، ما رأيتهما قبلُ ولا بعدُ»[2].

قال النووي: «فيه بيان كرامة النبي ﷺ على الله تعالى، وإكرامه إياه بإنزل الملائكة تقاتل معه»[3].

ومن أمثلة حفظ الله لنبيه ﷺ، ما رواه جابر بن عبد الله رَضِيَ ٱللَّهُ عَنْهُمَا، قال: غزونا مع رسول الله ﷺ قِبَل ناحية نجد، فأدركنا رسول الله ﷺ في واد كثير العضاة شجر به

---

(1) البخاري (3653)، ومسلم (2381).

(2) البخاري (6054)، ومسلم (2306).

(3) شرح صحيح مسلم (15/66).

شوك، فنزل رسول الله ﷺ تحت شجرة، فعلق سيفه بغصن من أغصانها، وتفرق الناس يستظلون بالشجر، فنمنا نومة، ثم إذا رسول الله ﷺ يدعونا فجئناه، فإذا أعرابي جالس، فقال رسول الله ﷺ: «إن هذا اخترط سيفي وأنا نائم، فاستيقظت وهو في يده صلتًا، فقال لي: من يمنعك مني؟ قلت: الله، فها هو جالس». ثم لم يعاقبه رسول الله ﷺ[1].

ومن صور حماية الله لنبيه وحبيبه ﷺ، قصة اليهودية من أهل خيبر، لما قدمت له ﷺ شاة مسمومة، فأخذ ﷺ الذراع فأكل منها، وأكل رهط من أصحابه معه، ثم قال لهم رسول الله: «ارفعوا أيديكم»، وفي رواية: «ارفعوا أيديكم؛ فإنها أخبرتني أنها مسمومة»[2].

وفي هذا كله ما يشهد لرسول الله ﷺ بالنبوة؛ لتأييد الله إياه وحفظه له: ﴿ أَلَيْسَ ٱللَّهُ بِكَافٍ عَبْدَهُۥ ۖ وَيُخَوِّفُونَكَ بِٱلَّذِينَ مِن دُونِهِۦ ۚ وَمَن يُضْلِلِ ٱللَّهُ فَمَا لَهُۥ مِنْ هَادٍ ﴿٣٦﴾ ﴾ [الزُّمَر][3].

24- الإخبار عن الأمم السابقة:

أخبر النبي ﷺ عن الأمم الماضية إخبار من عَلِمَها ووقف عليها، قال تعالى: ﴿ تِلْكَ مِنْ أَنۢبَآءِ ٱلْغَيْبِ نُوحِيهَآ إِلَيْكَ ۖ مَا كُنتَ تَعْلَمُهَآ أَنتَ وَلَا قَوْمُكَ مِن قَبْلِ هَٰذَا ۖ فَٱصْبِرْ ۖ إِنَّ ٱلْعَٰقِبَةَ لِلْمُتَّقِينَ ﴿٤٩﴾ ﴾ [هود]، وقال: ﴿ ذَٰلِكَ مِنْ أَنۢبَآءِ ٱلْقُرَىٰ نَقُصُّهُۥ عَلَيْكَ ۖ مِنْهَا قَآئِمٌ وَحَصِيدٌ ﴿١٠٠﴾ ﴾ [هود].

ولم يكن النبي ﷺ يقرأ أو يكتب، فلم يكن من المتصور أن يتلقى مثل هذه الأخبار عن كتب أهل الكتاب، وبالتالي لا سبيل إلى معرفة ذلك إلا عن طريق الوحي.

أهل الكتاب يسألونه ﷺ عن بعض أخبار الأمم السابقة، فينزل عليه القرآن يتلو عليهم من أنبائهم؛ كخبر موسى والخضر، وأصحاب الكهف وذي القرنين؛ مما صدقه فيه علماؤهم، ولم يستطيعوا تكذيبه.

---

(1) البخاري (4131)، مسلم (843).

(2) سبق بسط ذلك، وذكر ما ورد فيه من أحاديث.

(3) شرح صحيح مسلم (14/179).

ونصوص القرآن مليئة بقصص الأمم الماضية، وما فيها من أحداث وعبر، ابتداء بقصة آدم عَلَيْهِ ٱلسَّلَامُ، ومراحل تكوينه، ونفخ الروح فيه، وأمر الله للملائكة بالسجود له، وعصيان إبليس لربه، ثم خروج آدم من الجنة واستقراره في الأرض، وقصص أنبياء الله الكرام: نوح، وهود، وصالح، وشعيب، وإبراهيم، ولوط، وموسى، وعيسى، ويونس.

وقصة يوسف وإخوته ووصايا لقمان، وقصة الذي مر على قرية وهي خاوية على عروشها، وقد أماته الله مائة عام ثم بعثه؛ ليوقفه على حقيقة البعث والنشور، وغير ذلك كثير.

وجاءت السنة بتفاصيل ودقائق من أخبار ذلك، كما جاءت بقصص أخرى لم يذكرها القرآن الكريم، ومن ذلك قصة البَغِيّ التي سقت كلبًا فغفر الله لها، وقصة التاجر الذي كان يتسامح مع الدائنين، فنال بذلك المغفرة من الله، وقصة قاتل التسعة والتسعين نفسًا، وقصة الساحر والراهب والغلام، وقصة أصحاب الغار والصخرة التي سدت عليهم.

فهذه وغيرها من الأخبار التي وقعت في الأمم السابقة، وأخبر عنها النبي ﷺ في كتاب ربه وفي سنته، تضيف بُعدًا جديدًا للدلائل الكثيرة على صدق نبوته ﷺ [1].

المبحث الرابع: ما أخبر ﷺ بوقوعه من الغيوب وتحقق حال حياته

إن من أعظم دلائل نبوة رسول الله ﷺ ما أخبر بوقوعه من الغيوب فتحققت، وقد تواترت الأخبار في معناها في تحقيق ما أخبر ﷺ بوقوعه من أحداث لم تكن وقعت فوقعت، وفي ذلك دليل على أنه ﷺ مؤيد من ربه عالم الغيب وحده: ﴿ عَـٰلِمُ ٱلۡغَيۡبِ فَلَا يُظۡهِرُ عَلَىٰ غَيۡبِهِۦٓ أَحَدًا ﴿٢٦﴾ إِلَّا مَنِ ٱرۡتَضَىٰ مِن رَّسُولٍ فَإِنَّهُۥ يَسۡلُكُ مِنۢ بَيۡنِ يَدَيۡهِ وَمِنۡ خَلۡفِهِۦ رَصَدًا ﴿٢٧﴾ لِّيَعۡلَمَ أَن قَدۡ أَبۡلَغُواْ رِسَٰلَٰتِ رَبِّهِمۡ وَأَحَاطَ بِمَا لَدَيۡهِمۡ وَأَحۡصَىٰ كُلَّ شَيۡءٍ عَدَدَۢا ﴿٢٨﴾ ﴾ [الجن].

والنبي ﷺ كسائر البشر لا يعلم الغيب: ﴿ قُل لَّآ أَقُولُ لَكُمۡ عِندِي خَزَآئِنُ ٱللَّهِ وَلَآ أَعۡلَمُ ٱلۡغَيۡبَ وَلَآ أَقُولُ لَكُمۡ إِنِّي مَلَكٌ ﴾ [الأنعام:50]، ﴿ قُل لَّآ أَمۡلِكُ لِنَفۡسِي نَفۡعًا وَلَا ضَرًّا إِلَّا مَا شَآءَ ٱللَّهُۚ

(1) رابطة العالم الإسلامي، الهيئة العالمية للتعريف بالرسول ونصرته، نبي الرحمة.

وَلَوْ كُنتُ أَعْلَمُ ٱلْغَيْبَ لَٱسْتَكْثَرْتُ مِنَ ٱلْخَيْرِ وَمَا مَسَّنِىَ ٱلسُّوٓءُ ۚ إِنْ أَنَا۠ إِلَّا نَذِيرٌ وَبَشِيرٌ لِّقَوْمٍ يُؤْمِنُونَ ﴿١٨٨﴾ ﴾ [الأعراف]، ﴿ قُل لَّا يَعْلَمُ مَن فِى ٱلسَّمَٰوَٰتِ وَٱلْأَرْضِ ٱلْغَيْبَ إِلَّا ٱللَّهُ ۚ وَمَا يَشْعُرُونَ أَيَّانَ يُبْعَثُونَ ﴿٦٥﴾ ﴾ [النمل]، فإذا ما أخبر النبي عن شيء من الغيوب، فإنما يخبر بشيء من علم الله الذي خصه به وأطلعه عليه؛ ليكون برهان نبوته، ودليل رسالته، وأنه ﷺ لا ينطق عن الهوى.

ومن الغيوب التي تنبأ بها رسول الله ﷺ ووقعت حال حياته، ما يلي:

1- إخباره بهزيمة الفرس وغلب الروم، في وقت كادت دولة الفرس أن تزيل الإمبراطورية الرومانية من خارطة الدنيا، فقد وصلت جيوش كسرى أبرويز الثاني إلى وادي النيل، ودانت له أجزاء عظيمة من مملكة الرومان، مما آذن بنهاية وشيكة للإمبراطورية الرومانية، ووسط هذا كله أعلن رسول الله ﷺ في مكة أن الروم سينتصرون على الفرس في بضع سنين: ﴿ غُلِبَتِ ٱلرُّومُ ﴿٢﴾ فِىٓ أَدْنَى ٱلْأَرْضِ وَهُم مِّنۢ بَعْدِ غَلَبِهِمْ سَيَغْلِبُونَ ﴿٣﴾ فِى بِضْعِ سِنِينَ ۗ لِلَّهِ ٱلْأَمْرُ مِن قَبْلُ وَمِنۢ بَعْدُ ۚ وَيَوْمَئِذٍ يَفْرَحُ ٱلْمُؤْمِنُونَ ﴿٤﴾ بِنَصْرِ ٱللَّهِ ۚ يَنصُرُ مَن يَشَآءُ ۖ وَهُوَ ٱلْعَزِيزُ ٱلرَّحِيمُ ﴿٥﴾ ﴾ [الروم].

وتعجبت قريش من هذه النبوءة الغريبة، التي خالفت أهواءهم التي مالت إلى جانب الفرس، إخوانهم في الوثنية، بينما أحب المسلمون انتصار الروم؛ لأنهم أهل كتاب، واستبشروا بالخير، وتحدى أبو بكر رَضِيَ اللَّهُ عَنْهُ المشركين، فقالوا: اجعل بيننا وبينك أجلًا، فإن ظهرنا (أي بدوام انتصار الفرس) كان لنا كذا وكذا، أي من الرهن، وإن ظهرتم (أي بانتصار الروم) كان لكم كذا وكذا، فجعل أجلًا خمس سنين، فلم يظهر الروم، أي في هذه السنين الخمس، فذكروا ذلك للنبي ﷺ، فقال: «ألا جعلته إلى دون العشر، والله قد وعد بظفر الروم في بضع سنين، ثم ظهرت الروم بعد»(1).

(1) الترمذي (3193)، وصححه الألباني في صحيح الترمذي (2551).

ففي عام 623م وما بعدها، استطاع هرقل أن يخرج الفرس من بلاد الرومان، وفي عام 626م واصل الرمان زحفهم، حتى وصلوا إلى ضفاف دجلة.

2- وأخبر ﷺ بقتل المسلمين لأمية بن خلف؛ ذلك أن سعد بن معاذ رَضِيَ اللَّهُ عَنْهُ كان صديقًا لأمية، وكان أمية إذا مر بالمدينة نزل على سعد، وكان سعد إذا مر بمكة نزل على أمية، فلما قدم رسول الله ﷺ المدينة انطلق سعد معتمرًا، فنزل على أمية بمكة، فقال سعد: يا أمية، فوالله لقد سمعت رسول الله ﷺ يقول: «إنهم قاتلوك»، فقال أمية: بمكة ؟

قال سعد: لا أدري، ففزع لذلك أمية فزعًا شديدًا، فلما رجع أمية إلى أهله، قال: يا أم صفوان

ألم تري ما قال لي سعد؟ قالت: وما قال لك؟ قال: زعم أن محمدًا أخبرهم أنهم قاتليَّ فقلت له: بمكة؟ قال: لا أدري، فقال أمية: والله لا أخرج من مكة. فلما كان يوم بدر استنفر أبو جهل الناس، قال: أدركوا عيركم، فكره أمية أن يخرج، فأتاه أبو جهل، فقال: يا أبا صفوان، إنك متى ما يراك الناس قد تخلفت وأنت سيد أهل الوادي تخلفوا معك، فلم يزل به أبو جهل حتى قال: أما إذ غلبتني، فوالله لأشترين أجود بعير بمكة.

ثم قال أمية: يا أم صفوان جهزيني، فقالت له: يا أبا صفوان، وقد نسيت ما قال لك أخوك اليثربي؟ قال: لا، ما أريد أن أجوز معهم إلا قريبًا.

فلما خرج أمية أخذ لا ينزل منزلًا إلا عقل بعيره، فلم يزل بذلك حتى قتله الله ﷻ ببدر[1].

3- وأنبأ النبي ﷺ بهلاك عمه أبي لهب وزوجته على الكفر، حين أخبر فيما نقله عن ربه ببقائهما على الكفر وهلاكهما على ذلك: ﴿تَبَّتْ يَدَآ أَبِى لَهَبٍ وَتَبَّ ۝١ مَآ أَغْنَىٰ عَنْهُ مَالُهُۥ وَمَا كَسَبَ ۝٢ سَيَصْلَىٰ نَارًا ذَاتَ لَهَبٍ ۝٣ وَٱمْرَأَتُهُۥ حَمَّالَةَ ٱلْحَطَبِ ۝٤ فِى جِيدِهَا حَبْلٌ مِّن مَّسَدٍۭ ۝٥﴾ [المَسَد] .

قال ابن كثير: «قال العلماء: وفي هذه السورة معجزة ظاهرة ودليل واضح على النبوة، فإنه منذ نزلت هذه السورة فأخبر عنهما بالشقاء وعدم الإيمان ...» لم يقيض لهما أن يؤمنا

(1) رواه البخاري، حديث (3950).

ولا واحد منها، لا باطنًا ولا ظاهرًا، لا مسرًّا ولا معلنًا، فكان هذا من أقوى الأدلة الباهرة على النبوة الظاهرة[1].

4- ومن ذلك إخباره ﷺ قبل معركة بدر عن مصارع الطغاة من كفار قريش، والأماكن التي سيُقتلون فيها، فيقول: هذا مصرع فلان غدًا إن شاء الله، قال: عمر «فوالذي بعثه بالحق ما أخطئوا الحدود التي حد رسول الله ﷺ»[2].

5- وخبر الريح التي تنبأ ﷺ بهبوبها، وهو منطلق وأصحابه إلى تبوك، فقال: «ستهب عليكم الليلة ريح شديدة، فلا يقم فيها أحد منكم، فمن كان له بعير فليشد عقاله »[3].

قال أبو حميد - راوي الحديث: فهبت ريح شديدة، فقام رجل فحملته الريح، فألقته بجبال طيئ.

6- ومما أطلع الله نبيه عليه من الغيوب التي لا يعرفها لولا إخبار الله له، خبر كتاب حاطب بن أبي بلتعة، الذي أرسله إلى قريش مع امرأة، يخبرهم فيه بعزم النبي ﷺ على غزو مكة، فبعث عليًّا والزبير والمقداد بن الأسود، وقال: «انطلقوا حتى تأتوا روضة خاخ؛ فإن بها ظعينة ومعها كتاب فخذوه منها». يقول عليٌّ: فانطلقنا حتى انتهينا إلى الروضة، فإذا نحن بالظعينة، فقلنا: أخرجي الكتاب[4].

7- ومثل ذلك نعيه ﷺ لقادة مؤتة الثلاثة، وقد استشهدوا في الشام وهو في المدينة.

8- ومن إخباره ﷺ بالغيوب، تعريفه أبا هريرة رَضِيَ اللَّهُ عَنْهُ بحقيقة الشيطان يسرق من طعام الزكاة، فأمسك به أبو هريرة، ثم خلى عنه لما شكى الفقر والعَيْلة.

---

(1) تفسير القرآن العظيم (4/366).

(2) مسلم، حديث (1779).

(3) البخاري (1482)، ومسلم (1392).

(4) البخاري (3007)، ومسلم (2494).

يقول أبو هريرة رَضِيَ اللَّهُ عَنْهُ: فخليت عنه، فأصبحت، فقال النبي ﷺ: «يا أبا هريرة ما فعل أسيرك البارحة؟»، فقلت يا رسول الله شكا حاجة شديدة وعيالًا، فرحمته فخليت سبيله، قال: «أما إنه قد كذبك وسيعود»، قال أبو هريرة: فعرفت أنه سيعود؛ لقول رسول الله ﷺ: «إنه سيعود»، وعاد الرجل كما أخبر النبي ﷺ، وأطلقه أبو هريرة ثانية، فأخبره النبي بمقدمه ثالثة، فكان كما أخبر.

فلما غدا إلى النبي ﷺ قال له ﷺ: «تعلم من تخاطب منذ ثلاث ليال يا أبا هريرة؟»، قال: لا، قال: «ذاك شيطان»[1].

قال ابن حجر: «وفيه إطلاع النبي ﷺ على المغيبات»[2].

9- إخباره ﷺ عن سوء خاتمة رجل قاتل مع المسلمين فأحسن البلاء والجد، يقول أبو هريرة رَضِيَ اللَّهُ عَنْهُ: شهدنا مع رسول الله ﷺ (غزوة)، فقال لرجل ممن يدعي الإسلام: «هذا من أهل النار».

يقول أبو هريرة: فلما حضر القتال قاتل الرجل قتالًا شديدًا، فأصابته جراحة، فقيل: يا رسول الله، الذي قلت له إنه من أهل النار فإنه قاتل اليوم قتالًا شديدًا ثم مات، فقال النبي ﷺ: «إلى النار».

قال أبو هريرة: فكاد بعض الناس أن يرتاب، فبينما هم على ذلك، إذ قيل إنه لم يمت، ولكن به جراحًا شديدًا، فلما كان من الليل لم يصبر على الجراح، فقتل نفسه، فأُخبر النبي ﷺ بذلك، فقال: «الله أكبر، أشهد أني عبد الله ورسوله»، ثم أمر بلالًا فنادى بالناس: «إنه لا يدخل الجنة إلا نفس مسلمة، وإن الله ليؤيد هذا الدين بالرجل الفاجر»[3].

---

(1) ذكره البخاري معلقًا بصيغة الجزم في كتاب الوكالة.

(2) فتح الباري (4/571).

(3) رواه البخاري (3602)، وروى الشيخان من حديث سهل بن سعد الساعدي رَضِيَ اللَّهُ عَنْهُ نحوًا من هذه القصة في قصة رجل يدعى قزمان.

10- وبينما النبي ﷺ وأصحابه قادمون من سفر؛ إذ هاجت ريح شديدة، تكاد أن تدفن الراكب، فقال رسول الله ﷺ: بعثت هذه الريح لموت منافق، فلما قدم المدينة فإذا منافق عظيم من المنافقين قد مات[1].

11- ومن دلائل نبوته ﷺ إخباره عن موت النجاشي في أرض الحبشة في يوم وفاته، وهذا خبر تحمله الركبان يومذاك في شهر. قال أبو هريرة رضي الله عنه: نعى رسول الله ﷺ النجاشي في اليوم الذي مات فيه، خرج إلى المصلى، فصف بهم، وكبر أربعًا [2].

12- ولما انقضت غزوة الأحزاب، أخبر النبي ﷺ بنبوءة ما كان له أن يطلع عليها لولا إخبار الله تعالى له، فقال: «الآن نغزوهم ولا يغزوننا، نحن نسير إليهم»[3]. فكانت غزوة الأحزاب آخر غزوة غزتها قريش، وقد غزاهم المسلمون بعدها، وفتحوا مكة - بعون الله وقدرته. قال ابن حجر في ذلك: وفيه علم من أعلام النبوة؛ فإنه ﷺ اعتمر في السنة المقبلة، فصدته قريش عن البيت، ووقعت الهدنة بينهم إلى أن نقضوها، فكان ذلك سبب فتح مكة، فوقع الأمر كما قال ﷺ.

المبحث الخامس: ما أخبر ﷺ بوقوعه من الغيوب وتحقق بعد وفاته

ومن دلائل نبوته وأمارات رسالته ﷺ، ما أخبر بوقوعه من الغيوب التي تحققت بعد وفاته، والأحاديث في هذا القسم كثيرة جدًّا، اعتنى بجمعها وذكرها عدد من الأئمة الأعلام، والذي نعرضه هنا في هذا المبحث قليل من كثير، نجتزئ به حتى يأخذ القارئ الكريم صورة واضحة المعالم عن هذا الأمر، ومن أراد التوسع فعليه بالكتب التي استقصت هذه الأبحاث، مثل دلائل النبوة للبيهقي، والبداية والنهاية لابن كثير، والخصائص الكبرى للسيوطي.

---

(1) رواه مسلم (2782).

(2) البخاري (1254).

(3) البخاري (4110).

وسترى فيما سنعرضه أمثلة لنبوءات عن حوادث معينة لأشخاص معينين، ونبوءات وقعت قديمًا، وأخرى نراها الآن، ونبوءات عن حوادث خاصة أو عامة، تقع للأمة الإسلامية، أو فيها قريبًا من حياة الرسول ﷺ أو بعيدًا، وقد روى البخاري ومسلم عن حذيفة رَضِيَ اللَّهُ عَنْهُ، قال: قام فينا رسول الله ﷺ[1] مقامًا، فما ترك شيئًا يكون في مقامه ذلك إلى قيام الساعة إلا حدثه، حفظه من حفظه، ونسيه من نسيه.

وروى مسلم عن عمرو بن أخطب الأنصاري رَضِيَ اللَّهُ عَنْهُ، قال: صلى بنا رسول الله ﷺ الفجر وصعد المنبر، فخطبنا حتى حضرت الظهر، فنزل فصلى، ثم صعد المنبر، فخطبنا حتى حضرت العصر، فنزل فصلى، ثم صعد المنبر، فخطبنا حتى غربت الشمس، فأخبرنا بما هو كائن إلى يوم القيامة فأعلَمُنا أحفَظُنا (أي: أعلمُنا هو من حفظ ذلك).

وهذه هي الأمثلة لما قاله ﷺ فتأملها[2]:

1- روى البخاري في صحيحه عن أنس بن مالك رَضِيَ اللَّهُ عَنْهُ، قال: صعد النبي ﷺ أُحدًا ومعه أبو بكر وعمر وعثمان، فرجف بهم، فقال: «اثبت أحد؛ فإنما عليك نبي وصديق وشهيدان». هذه نبوءة، تذكر أن عمر وعثمان يُسْتشهدان[3]، وقد قتل عمر أبو لؤلؤة، وقُتل عثمان في الفتنة المعروفة.

2- روى الشيخان عن أنس بن مالك، أن رسول الله ﷺ كان يدخل على أم حرام بنت ملحان، وهي من خالاته من الرضاع، فتطعمه، وكانت أم حرام تحت عبادة بن الصامت، فدخل عليها رسول الله فأطعمته، فنام رسول الله ﷺ، ثم استيقظ وهو يضحك، قالت: فقلت: ما يضحكك يا رسول الله؟ قال ناس من أمتي عرضوا عليَّ غزاة في سبيل الله، يركبون ثبج هذا البحر ملوكًا على الأسرة، أو مثل الملوك على الأسرة. قلت: يا رسول الله ادع الله أن يجعلني منهم، فدعا لها، ثم وضع رأسه، فنام ثم استيقظ وهو

(1) فتح الباري (7/468).

(2) انظر الرسول لسعيد حوى، ص 345-367.

(3) البخاري (3593).

يضحك، فقلت له: ماذا يضحكك يا رسول الله؟ قال: ناس من أمتي عرضوا علي غزاة في سبيل الله، نحو ما قال في الأول. قالت: فقلت: يا رسول الله: ادع الله أن يجعلني منهم، قال: أنت من الأولين. وقد غزا معاوية بن أبي سفيان قبرص في سنة ثمان وعشرين هجرية، ومعه من كبار الصحابة أبو ذر وأبو الدرداء وعبادة بن الصامت، وكانت مع عبادة زوجه أم حرام بنت ملحان.

3- وأخرج الطبراني عن أبي ذر رَضِيَ اللَّهُ عَنْهُ، أن النبي ﷺ قال: «لا تصيبكم فتنة ما دام هذا فيكم» (يعني عمر). ويروى معناه عن عثمان بن مظعون وخالد بن الوليد. وكلنا يعلم أن الفتنة بين المسلمين وقعت بعد عمر. أما الردة فلم تكن فتنة بين المسلمين، وإنما كُفر بالإسلام، حاربه المسلمون وهم يد واحدة.

4- أخرج البخاري عن أبي بكرة رَضِيَ اللَّهُ عَنْهُ، قال: قال رسول الله ﷺ للحسن: «إن ابني هذا سيد، ولعل الله يصلح به بين فئتين عظيمتين من المسلمين»[1]. فهذه نبوءة عن انقسام وفُرقة وصلح بواسطة الحسن، وقد كان الانقسام وجرت الدماء، ثم أصلح الله الحال عندما تنازل الحسن لمعاوية عن الخلافة، وحقن دماء المسلمين.

5- وأخرج الشيخان، عن سعد بن أبي وقاص قول رسول الله له وقد مرض بمكة حتى أشرف على الموت: «لعلك تخلف - أي تعيش - حتى ينتفع بك أقوام ويستضر بك آخرون»[2]، فشفاه الله وفتح الله العراق على يديه، وهدى به أناسًا أسلموا على يديه وغنموا معه. وأضر الله به ناسًا من الكفار، جاهدهم وقتل منهم وسبى.

6- وأخرج الشيخان عن أبي سعيد ومسلم، عن أم سلمة وأبي قتادة، أن رسول الله ﷺ قال لعمار: «تقتلك الفئة الباغية»[3]. قال الحافظ السيوطي: هذا الحديث متواتر، رواه من الصحابة بضعة عشر.

---

(1) البخاري (9)، وأحمد (20005).

(2) الشفا يتعريف حقوق المصطفى 206/1.

(3) البخاري (442)، ومسلم (7271).

ففي الحديث ثلاث نبوءات، أن هناك فئة باغية، وأن عمارًا سيقتل قتلًا، وأن الفئة الباغية قاتلته، وقد كان كل هذا؛ إذ قتلته فئة معاوية، ولم يكن بجانبها الحق، وقد دخل كثير من الصحابة المعركة بجانب عليّ بعد مقتل عمار؛ لكون الحديث حجة له في كونه على الحق.

7- أخرج البخاري عن عدي بن حاتم، قال: بينما أنا عند رسول الله ﷺ أتاه رجل فشكا إليه الفاقة، وأتاه آخر فشكا إليه قطع السبيل، فقال: «يا عدي بن حاتم إن طالت بك حياة لترين الظعينة ترتحل من الحيرة حتى تطوف بالكعبة لا تخاف أحدًا إلا الله – قلت فيما بيني وبين نفسي: فأين دُعَّار طيئ الذين سعروا البلاد (بقطعهم للطريق) – ولئن طالت بك حياة لتُفتحن كنوز كسرى – قلت: كسرى بن هرمز، قال: كسرى بن هرمز، ولئن طالت بك الحياة لترين الرجل يخرج ملء كفيه من ذهب أو فضة يطلب من يقبله منه فلا يجد»[1]، قال عدي: قد رأيت الظعينة ترتحل من الحيرة حتى تطوف بالبيت لا تخاف إلا الله، وكنت فيمن افتتح كنوز كسرى، ولئن طالت بكم حياة سترون الثالثة. قال البيهقي: قد وقعت الثالثة في زمن عمر بن عبد العزيز، ثم أخرج عن عمر بن أسيد عن عبد الرحمن بن زيد بن الخطاب، قال: إنما ولي عمر بن عبد العزيز سنتين ونصفًا، والله ما مات عمر بن عبد العزيز حتى جعل الرجل يأتينا بالمال العظيم، فيقول: اجعلوا هذا حيث ترون في الفقراء، فما يبرح حتى يرجع بماله، نتذكر من يضعه فيهم فلا نجد فيرجع بماله، قد أغنى عمر بن عبد العزيز الناس.

8- أخرج الشيخان عن أبي سعيد الخدري رَضِيَ اللَّهُ عَنْهُ، قال: بينا نحن عند النبي ﷺ وهو يقسم قسمًا، إذ أتى ذو الخويصرة، فقال يا رسول الله: اعدل، قال: «ويلك ومن يعدل إذا لم أعدل، خبت وخسرت إن لم أكن أعدل». قال عمر: يا رسول الله، ائذن لي فيه أضرب عنقه، فقال رسول الله ﷺ: «فإن له أصحابًا يحقر أحدكم صلاته مع صلاتهم وصيامه مع صيامهم، يقرءون القرآن لا يجاوز تراقيهم، يمرقون من الإسلام كما يمرق السهم من الرمية، آيتهم رجل أسود إحدى عضديه مثل ثدي المرأة، أو مثل البضعة

(1) البخاري (3517).

تدردر، يخرجون (بغيًا) على خير فرقة من الناس». قال أبو سعيد: فأشهد أني سمعت هذا من رسول الله ﷺ، وأشهد أن علي بن أبي طالب قاتلهم، وأمر بذلك الرجل (الأسود الذي وصفه رسول الله ﷺ) فالتُمس، فوجد، فأُتي به حتى نظرت إليه على نعت رسول الله ﷺ الذي نعته.

وأخرج مسلم عن عبيدة، قال لما فرغ عليّ من أصحاب النهر (من الخوارج)، قال: ابتغوا فيهم إن كانوا القوم الذين ذكر رسول الله ﷺ، فإن فيهم رجلًا مخدج اليد، فابتغيناه، فوجدناه فدعوناه إليه، فجاء حتى قام عليه، فقال: الله أكبر ثلاثًا. والله لولا أن تبطروا لحدثتكم بما قضى الله (من أجر) على لسان رسول الله ﷺ لمن قتل هؤلاء، قلت: أنت سمعت هذا من رسول الله ﷺ؟ قال: أي ورب الكعبة، ثلاث مرات.

9- وأخرج الشيخان عن جابر بن سمرة رَضِيَ اللَّهُ عَنْهُ، قال: قال رسول الله ﷺ: «إذا هلك كسرى فلا كسرى بعده، وإذا هلك قيصر فلا قيصر بعده، والذي نفسي بيده لتنفقن كنوزهما في سبيل الله»(1).

وأخرج البخاري عن أبي هريرة، وأخرج الحارث بن أبي أسامة عن أبي محيريز، قال: قال رسول الله ﷺ: «فارس نطحة أو نطحتان، ثم لا فارس بعد هذا أبدًا، والروم ذوات القرون كلما هلك قرن خلفه قرن». ومعروف تاريخيًّا أنه بسقوط دولة الأكاسرة انتهى أمرهم تمامًا، ولم يستردوا ملكهم بتاتًا، وبقيت الروم إلى يومنا هذا.

10- وأخرج أبو داود والترمذي عن سفينة، قال: قال رسول الله ﷺ: «الخلافة بعدي في أمتي ثلاثون سنة، ثم تصير ملكًا عضوضًا بعد ذلك». وهكذا وقع، خلافة أبي بكر سنتان وثلاثة أشهر وعشرون يومًا، وخلافة عمر عشر سنين وستة أشهر وأربعة أيام، وخلافة عثمان إحدى عشر سنة، وأحد عشر شهرًا وثمانية عشر يومًا، وخلافة علي أربع سنين وعشرة أشهر أو تسعة، وخلافة الحسن ستة أشهر، فكانت ثلاثين.

---

(1) البخاري (3052)، ومسلم (7279).

11- وأخرج مسلم عن أبي ذر رَضِيَ اللَّهُ عَنْهُ، قال: قال رسول الله ﷺ: «إنكم ستفتحون أرضًا يذكر فيها القيراط، فاستوصوا بأهلها خيرًا؛ فإن لهم ذمة ورحمًا»[1]، والمقصود بالرحم أنهم أخوال إبراهيم بن الرسول ﷺ؛ إذ المقصود في ذلك أرض مصر، والآثار في الأخبار عن فتح مصر كثيرة.

12- وأخرج البيهقي عن أبي هريرة رَضِيَ اللَّهُ عَنْهُ، قال: «وعدنا رسول الله ﷺ غزو الهند» وقد غزوناها.

13- روى الستة إلا النسائي، عنه عليه الصلاة والسلام: «لا تقوم الساعة حتى تقاتلوا قومًا نعالهم الشعر، ولا تقوم الساعة حتى تقاتلوا قومًا صغار الأعين حمر الوجوه ذلف الأنوف، كأن وجوههم المجان المطرَقة»[2] وينطبق الوصف تمامًا على التتار، أما أصحاب نعال الشعر فقد ذكر البيهقي: أن قومًا من الخوارج بناحية الري، وكانت نعالهم الشعر وقوتلوا».

14- روى البخاري والحاكم في المستدرك عن أبي هريرة: «لا تقوم الساعة حتى تخرج نار من أرض الحجاز تضيء أعناق الإبل ببصرى»[3]. وروى ابن شيبة وأحمد والحاكم وصححه، عن أبي ذر، قال: قال رسول الله ﷺ: «ليت شعري متى تخرج نار من جبل وراق، تضيء لها أعناق البخت ببصرى كضوء النهار!!». ويبدو أن الحديث هنا عن بركان عظيم يخرج من أرض الحجاز من مكان عينه الرسول ﷺ. وقد وقع هذا.

قال النووي: تواتر العلم بخروج هذه النار عن جميع أهل الشام. **قال السمهودي:** وكانت في زمنه، وكان ابتداء الزلزلة بالمدينة مستهل جمادى الآخرة سنة أربع وخمسين وستمائة، لكنها كانت خفيفة، فلم يدركها بعضهم مع تكررها، واشتدت في يوم الثلاثاء، وظهرت

---

(1) مسلم (6445).

(2) البخاري (2861)، ومسلم (7259).

(3) البخاري (7118).

ظهورًا عظيمًا، ثم في ليلة الأربعاء ثالث الشهر في الثلث الأخير من الليل، حدثت زلزلة عظيمة جدًّا أشفق الناس منها، واستمرت تزلزل بقية اليوم، ثم إلى يوم الجمعة، ولها دوي أعظم من الرعد، فتموج الأرض وتتحرك الجدران، حتى وقع في يوم واحد دون ليلته ثماني عشرة حركة. وكانت هذه كلها مقدمات لظهور هذه النار، وقد وصف القسطلاني في كتاب أفرده لهذه الحادثة: «إن ضوءها استولى على ما بطن وما ظهر، حتى كأن الحرم والمدينة قد أشرقت بها الشمس، وتأثر من لهيبها النيران، وصار نور الشمس على الأرض يعتريه صفرة، ولونها هي يعتريه حمرة، والقمر كأنه كسف». وقال القسطلاني كذلك: «أنها لم تزل مارة على سبيلها وهي تسحق ما والاها، وتذيب ما لاقاها من الشجر الأخضر والحصى، وإن طرفها الشرقي آخذ بين الجبال، فحالت دونها، ثم وقفت، وإن طرفها الشامي وهو الذي يلي الحرم اتصل بجبل يقابله يقال له وعيرة على قرب من شرقي جبل أحد». وقد ذكر هذه النار السمهودي في تاريخ المدينة، وذكرها القاضي سنان والقاشاني والعماد بن كثير والمطري وغيرهم.

15- روى مسلم عن أبي هريرة، قال: قال رسول الله ﷺ: «صنفان من أمتي من أهل النار لم أرهما بعدُ. قوم معهم سياط كأذناب البقر يضربون الناس، ونساء كاسيات عاريات مميلات مائلات، رءوسهن كأسنمة البخت»(1).

وروى الإمام أحمد والحاكم عن ابن عمر قال: «يكون في آخر هذه الأمة رجال يركبون على السروج كأشباه الرجال حتى يأتوا أبواب المساجد، نساؤهم كاسيات عاريات على رءوسهن كأسنمة البخت العجاف، العنوهن؛ فإنهن ملعونات»(2).

ولعل أدق وصف لما عليه وضع النساء في زماننا من تبرج وعري وتثن وميوعة وفتنة، هو ما وصفهن به الحديث الشريف.

---

(1) مسلم (5537).

(2) أحمد (7063).

16- أخرج أحمد وأبو داود عن ثوبان رَضِيَ اللَّهُ عَنْهُ، قال: «قال رسول الله ﷺ: «يوشك الأمم أن تداعى عليكم كما تداعى الأكلة إلى قصعتها»[(1)]، فقال قائل: ومن قلة نحن يومئذ؟

قال: «بل أنتم كثير، ولكنكم غثاء كغثاء السيل، ولينزعن الله من صدور عدوكم المهابة منكم، وليقذفن في قلوبكم الوهن». قيل: وما الوهن يا رسول الله؟: قال: «حب الدنيا وكراهية الموت». والمراقب لوضع المسلمين الآن يجد هذه الظاهرة، ظاهرة طمع الأمم في العالم الإسلامي، والكيد له، والتخطيط لامتصاص خيراته واضحة جدًّا، مع ما وصف به رسول الله المسلمين.

17- إخباره ﷺ عن طاعون عمواس الذي وقع في بلاد الشام في أيام عمر بن الخطاب رَضِيَ اللَّهُ عَنْهُ، فقد روى البخاري في صحيحه عن عوف بن مالك رَضِيَ اللَّهُ عَنْهُ، قال: أتيت النبي ﷺ في غزوة تبوك، وهو في قبة من أدم (جلد) فقال: «اعدد ستًّا بين يدي الساعة: موتي، ثم فتح بيت المقدس، ثم موتان يأخذ فيكم كقُعَاصِ الغنم (داء يصيب الغنم فلا تلبث أن تموت)، ثم استفاضة المال حتى يعطى الرجل مائة دينار فيظل ساخطًا، ثم فتنة لا يبقى بيت من العرب إلا دخلته، ثم هدنة تكون بينكم وبين بني الأصفر الروم، فيغدرون، فيأتونكم تحت ثمانين غاية (راية)، تحت كل غاية اثنا عشر ألفًا»[(2)].

فأخبر ﷺ بست علامات، وقع منها: موته ﷺ، وكان في السنة الحادية عشرة من الهجرة، وفتح بيت المقدس في عهد عمر بن الخطاب رَضِيَ اللَّهُ عَنْهُ سنة خمس عشرة للهجرة، ثم الموتان (أي الوباء)، وقد وقع في بلاد الشام سنة 18 هـ، وسمي بطاعون عمواس؛ نسبة إلى بلده بين الرملة وبيت المقدس؛ لأنه نجم بها أولًا، ثم انتشر. قال الواقدي: توفي في طاعون عمواس خمسة وعشرون ألفا، وكان منهم أبو عبيدة ومعاذ بن جبل وسهيل بن عمرو وأبو جندل رَضِيَ اللَّهُ عَنْهُمْ.

---

(1) أحمد (22019)، وأبو داود (4294).

(2) البخاري (3107)، والبيهقي في سننه الكبرى (19194).

18- وقد وصف ﷺ الفتن التي ستكون من بعده، وفي مقدمتها معركتا الجمل وصفين، وقد وقعتا بعد وفاته بثلاثين سنة، فقال ﷺ: «لا تقوم الساعة حتى تقتتل فئتان، دعواهما واحدة»[1]. قال ابن كثير: وهاتان الفئتان هما أصحاب الجمل وأصحاب صفين؛ فإنهما جميعًا يدعون إلى الإسلام، وإنما يتنازعون في شيء من أمور الملك، ومراعاة المصالح العائد نفعها على الأمة والرعايا، وكان ترك القتال أولى من فعله، كما هو مذهب جمهور الصحابة[2].

19- ومن دلائل نبوته ﷺ، أنه خرج على أصحابه وهم يُعَذبون بالنار والحديد في بطحاء مكة، وفيهم خباب بن الأرت رَضِيَ اللَّهُ عَنْهُ، الذي تقدم شاكيًا، فقال: ألا تنتصر لنا؟ ألا تدعو لنا؟، فقال ﷺ: «كان الرجل فيمن قبلكم يحفر له في الأرض، فيُجعل فيه، فيجاء بالمنشار فيوضع على رأسه، فيشق باثنتين وما يصده ذلك عن دينه، ويمشط بأمشاط الحديد ما دون لحمه من عظم أو عصب، وما يصده ذلك عن دينه». ثم بشره النبي ﷺ ببشارة عظيمة مذهلة، فقال: «والله ليتمن هذا الأمر حتى يسير الراكب من صنعاء إلى حضرموت، لا يخاف إلا الله أو الذئب على غنمه، ولكنكم تستعجلون»[3].

إنه ﷺ يتنبأ بتمام أمر دينه، ويؤمن أصحابه في زمن ما كانوا يجرءون فيه على إعلان دينهم؛ خوفًا من بطش قريش وعذابها [4].

20- وكذلك أخبر رسول الله ﷺ بفتح كنوز كسرى وقيصر، وذلك في أثناء حفر الخندق في غزوة الأحزاب، حيث كاد المسلمون أن يهلكوا فيها، وكان الأمر يقينًا صادقًا كما أخبر ﷺ.

21- ومما بشر به ﷺ، فتحقق كما أخبر، بشارته بفتوح اليمن والشام والعراق، واستيطان المسلمين بهذه البلاد؛ حيث قال ﷺ: «تفتح اليمن، فيأتي قوم يبسون (يزينون

---

(1) رواه البخاري، حديث (6936).

(2) البداية والنهاية (6/214).

(3) رواه البخاري حديث (3612).

(4) د. منقذ بن محمود السقار: نبي الرحمة.

للناس السكنى في تلك البلاد)، فيتحملون بأهلهم ومن أطاعهم، والمدينة خير لهم لو كانوا يعلمون، وتفتح الشام فيأتي قوم يبسون، فيتحملون بأهليهم ومن أطاعهم، والمدينة خير لهم لو كانوا يعلمون، وتفتح العراق، فيأتي قوم يبسون فيتحملون بأهليهم ومن أطاعهم، والمدينة خير لهم لو كانوا يعلمون»[1].

وقال النووي: (قال العلماء: في هذا الحديث معجزات لرسول الله ﷺ؛ لأنه أخبر بفتح هذه الأقاليم، وأن الناس يتحملون بأهليهم إليها، ويتركون المدينة، وأن هذه الأقاليم تفتح على هذا الترتيب: اليمن، ثم، الشام، ثم العراق، ووجد جميع ذلك كذلك بحمد الله وفضله [2].

22- إخباره ﷺ عن مقتل سبطه الحسين بن علي ريحانة أهل الجنة؛ فقد قال ﷺ لإحدى أزواجه: «لقد دخل عليَّ البيت ملك لم يدخل عليَّ قبلها، فقال لي: إن ابنك هذا حسين مقتول، وإن شئت أريتك من تربة الأرض التي يقتل بها، قال: فأخرج تربة حمراء»[3].

وهكذا كان قتله رَضِيَ اللَّهُ عَنْهُ في كربلاء العراق عام 60هـ[4].

23- تنبؤ النبي ﷺ بشهادة أم ورقة بنت عبد الله بن الحارث رَضِيَ اللَّهُ عَنْهَا، فقد روى أبو داود بسنده، أن رسول الله ﷺ لما غزا بدرًا، قالت له أم ورقة بنت عبد الله بن الحارث: يا رسول الله، ائذن لي في الغزو معك، أُمرض مرضاكم؛ لعل الله يرزقني الشهادة، فقال لها: «قرِّي في بيتك؛ فإن الله يرزقك الشهادة»، فكانت تُسمى الشهيدة (قبل أن تموت)، وكانت قد قرأت القرآن، فاستأذنت النبي ﷺ أن تتخذ في بيتها مؤذنًا يؤذن لها، وكانت

(1) رواه مسلم، حديث (1875).

(2) شرح النووي على صحيح مسلم (9/159).

(3) رواه أحمد في المسند (25985)، والحاكم (5/194)، ووافقه الذهبي على تصحيحه، وصححه الألباني في السلسلة الصحيحة (882).

(4) د. منقذ بن محمود السقار: نبي الرحمة.

قد دبرت غلامًا لها وجارية، فقاما إليها بالليل فغماها في قطيفة لها حتى ماتت، وذهبا، فأصبح عمر فطلبهما، فجيء بهما فصلبهما عمر رَضِيَ اللَّهُ عَنْهُ، فكان أول من صلب بالمدينة[1].

فهذا إخبار بغيب، فكان كما أخبر ﷺ، فكان آية من آيات نبوته ﷺ، ومعجزة من معجزاته، فصلى الله عليه وآله وصحبه وسلم تسليمًا.

24- قوله ﷺ لنسائه: «كيف بإحداكن تنبح عليها كلاب الحوأب». وكان ذلك كما أخبر؛ فقد خرجت عائشة رَضِيَ اللَّهُ عَنْهَا تريد الصلح بين علي ومعاوية رَضِيَ اللَّهُ عَنْهُمَا في وقعة الجمل، فلما بلغت مياه بني عامر ليلًا نبحت الكلاب، فقالت رَضِيَ اللَّهُ عَنْهَا: أي ماء هذا، فقالوا: ماء الحوأب، فقالت: ما أظنني إلا رجعة، فقال بعض من كان معها: بل تقدمين فيراك المسلمون، فيصلح الله ذات بينهم، قالت: إن رسول الله ﷺ قال لنا ذات يوم: «كيف بإحداكن تنبح عليها كلاب الحوأب».

فهذا الخبر الصادق قد وقع كما أخبر به قبل وقوعه بكذا سنة، فكان كما أخبر[2].

25- قوله ﷺ في حديث أحمد، عن عمار بن ياسر رَضِيَ اللَّهُ عَنْهُ، قال: قال رسول الله ﷺ لعلي حين ولي غزوة العشيرة: «يا أبا تراب، ألا أحدثك بأشقى الناس رجلين؟» قلنا: بلى يا رسول الله، قال: «أحيمر ثمود الذي عقر الناقة، والذي يضربك يا علي على هذه - يعني قرنه - حتى يبل (أي بالدم) هذه (أي لحيته)». فكان كما أخبر ﷺ؛ فقد ضرب عبد الرحمن بن ملجم أحد الخوارج عليًّا بالكوفة، فقتله على نحو ما أخبر به ﷺ.

26- قوله ﷺ: «سيكون في هذه الأمة بعث إلى السند والهند». فكان كما أخبر ﷺ؛ فقد حدث أبو هريرة رَضِيَ اللَّهُ عَنْهُ، فقال حدثني خليلي الصادق المصدوق رسول الله ﷺ، قال: «يكون في هذه الأمة بعث إلى السند والهند»، فإن أدركته فاستشهدت فذاك، وإن أنا رجعت فأنا أبو هريرة المحدث، قد أعتقني من النار.

---

(1) أبو داود، حديث (571)، ورواه أحمد، حديث (26538)، وحسنه الألباني في صحيح أبي داود، حديث (552).

(2) انظر: هذا الحبيب يا محب للجزائي، ص 519-520.

فهذا الخبر الصادق قد وقع كما أخبر ﷺ؛ فقد غزا المسلمون الهند أيام معاوية سنة أربع وأربعين، ثم توالى الغزو والفتح كما أخبر ﷺ [(1)].

27- قوله ﷺ في سهيل بن عمر رَضِيَ اللَّهُ عَنْهُ: «عسى أن يقوم مقامًا يسرك يا عمر»، وذلك يوم صلح الحديبية حيث غضب عمر رَضِيَ اللَّهُ عَنْهُ من تعنت سهيل، وكان ممثلًا لقريش يومئذ، فقال له ﷺ: «عسى أن يقوم مقامًا يسرك يا عمر». وكان الأمر كما أخبر ﷺ إذ مات الرسول ﷺ، واضطربت البلاد، ونجم الكفر، ووقف سهيل بن عمرو رَضِيَ اللَّهُ عَنْهُ بباب الكعبة بمكة، فخطب، فثبت أهل مكة، وقوى بصائرهم، فحفظهم الله من الردة بسببه، وهو موقف سر عمر والمؤمنين [(2)].

28- أخبر النبي ﷺ أن أسرع أزواجه لحوقًا به أطولهن يدًا، فكانت زينب بنت خذيمة رَضِيَ اللَّهُ عَنْهَا؛ لطول يدها بالصدقة، وأخبر أن ابنته فاطمة رَضِيَ اللَّهُ عَنْهَا أول أهله لحوقًا به، فتوفيت رَضِيَ اللَّهُ عَنْهَا بعد أقل من ستة أشهر من وفاة أبيها.

29- ومن المغيبات - غير ما تقدم - إخباره ﷺ عن الردة التي ستكون بعده، فقد روى الترمذي عن ثوبان رَضِيَ اللَّهُ عَنْهُ، أن رسول الله ﷺ قال: «لا تقوم الساعة حتى تلحق قبائل من أمتي بالمشركين».

المبحث السادس: ما أخبر ﷺ بوقوعه ولم يقع حتى زماننا وسيقع يقينا

لقد أخبرنا رسول الله ﷺ عن كثير من الأمور الغيبية التي أطلعه الله عليها، ولكنها لم تتحقق حتى زماننا، واليقين في صدقه ﷺ فيما كان يبلغ عن ربه، وفي كل ما قال، وأنه ﷺ لم ينطق عن الهوى، ولم يتقول على ربه يومًا، وأنه بنبوته قد بسط الله له المستقبل مكشوفًا كصفحات الكتاب، يقرأ منه ما أذن الله به .. كل ذلك يدعونا أن نكون على يقين من أن ما أخبر به نبينا ﷺ من الغيوب التي لم تقع حتى زماننا ستقع حتمًا .. فهي النبوة

---

(1) المصدر السابق، ص 520.

(2) المصدر السابق، ص 520-521.

الحقة، ولا شيء غيرها: ﴿ فَمَن شَآءَ فَلْيُؤْمِن وَمَن شَآءَ فَلْيَكْفُرْ ﴾ [الكهف:29] .. ﴿ مَّنِ ٱهْتَدَىٰ فَإِنَّمَا يَهْتَدِى لِنَفْسِهِۦ ۖ وَمَن ضَلَّ فَإِنَّمَا يَضِلُّ عَلَيْهَا ۚ وَلَا تَزِرُ وَازِرَةٌ وِزْرَ أُخْرَىٰ ۗ وَمَا كُنَّا مُعَذِّبِينَ حَتَّىٰ نَبْعَثَ رَسُولًا ﴿١٥﴾ ﴾ [الإسراء].

ومن جملة ما أخبر رسول الله ﷺ به من الغيوب التي لم تقع بعد، وستقع في الحين الذي يحدده الله عز وجل، ما يلي:

1- إخباره ﷺ عن فتح روما، كما في مسند الإمام أحمد ومستدرك الحاكم، عن أبي قبيل، قال: كنا عند عبد الله بن عمرو بن العاص رَضِيَ اللَّهُ عَنْهُمَا، وسُئل أي المدينتين تفتح أولًا القسطنطينية أو رومية؟ قال: فدعا عبد الله بصندوق له حلق، فأخرج منه كتابًا، قال: فقال عبد الله: بينما نحن حول رسول الله ﷺ نكتب؛ إذ سُئل رسول الله ﷺ: أي المدينتين تفتح أولًا: القسطنطينية أو رومية؟ فقال رسول الله ﷺ: «مدينة هرقل تفتح أولًا». يعني: القسطنطينية(1).

وقد تحقق فتح القسطنطينية على يد السلطان محمد الفاتح سنة 857 هـ، الذي بشر به رسول الله ﷺ أيضًا حيث قال: «لتفتحن القسطنطينية، فلنعم الأمير أميرها، ولنعم الجيش ذلك الجيش»(2). فإن كان فتح روما لم يقع حتى زماننا، فسيقع بحول الله وقوته، كما أخبر الصادق المصدوق ﷺ.

2- تبشيره ﷺ باتساع دولة الإسلام، بحيث تضم المشارق والمغارب، وهذا لم يتحقق حتى زمننا بهذه الصورة، فنحن بانتظاره كما أخبر ﷺ؛ فقد روى مسلم في صحيحه وأبو داود والترمذي وابن ماجه وأحمد، عن ثوبان رَضِيَ اللَّهُ عَنْهُ، أن النبي ﷺ قال:

---

(1) مسند الإمام أحمد (176/2)، ومستدرك الحاكم (422/31) و508/4، وقال صحيح الإسناد، ووافقه الذهبي، وصححه الألباني في السلسلة الصحيحة، حديث رقم (4).

(2) رواه أحمد في المسند، والبخاري في التاريخ.

«إن الله زوى لي الأرض - أي جمعها وضمها - فرأيت مشارقها ومغاربها، وإن أمتي سيبلغ ملكها ما زوي لي منها»[1].

3- تبشيره ﷺ بانتشار دعوة الإسلام، بحيث لا يكون مكان على الأرض إلا وقد وصله الإسلام، فقال ﷺ: «ليبلغن هذا الأمر - يعني الإسلام - ما بلغ الليل والنهار، ولا يترك الله بيت مدر ولا وبر، إلا أدخله الله هذا الدين بعز عزيز، أو بذل ذليل؛ عزًّا يعز الله به الإسلام وذلًّا يذل الله به الكفر»[2].

4- تبشيره ﷺ بنصر مبين على اليهود، فقد قال ﷺ: «تقاتلون اليهود، فتسلطون عليهم حتى يختبئ أحدهم وراء الحجر، فيقول الحجر: يا عبد الله هذا يهودي ورائي فاقتله»[3].

5- ذِكره ﷺ أن المال سيكثر جدًّا في آخر أمته، كما روى مسلم في صحيحه بسنده، عن جابر بن عبد الله رَضِيَ اللَّهُ عَنْهُمَا، أن رسول الله ﷺ قال: «يكون في آخر أمتى خليفة يحثو المال حثًّا، ولا يعده عدًّا».

وروى أبو هريرة عن رسول الله ﷺ، أنه قال: «لا تقوم الساعة حتى تعود أرض العرب مروجًا وأنهارًا»[4].

وروى أبو هريرة أيضًا، عن رسول الله ﷺ قال: «لا تقوم الساعة حتى يكثر فيكم المال، فيفيض حتى يهم رب المال من يقبل منه صدقته، وحتى يعرضه، فيقول الذي يعرضه عليه: لا أرب لي»[5].

---

(1) رواه مسلم برقم (2889)، وأبو داود (4142)، والترمذي (2203)، وصححه، وابن ماجه (3952)، وأحمد (5/278، 284).

(2) رواه ابن حبان، وذكره البيهقي في موارد الظمآن (1631، 1632)، ورواه أحمد (4/103).

(3) رواه الشيخان، وذكره السيوطي في صحيح الجامع الصغير (2977).

(4) رواه مسلم في كتاب الزكاة، برقم (1512-60).

(5) متفق عليه، اللؤلؤ والمرجان (594).

ويؤكد ذلك حديث أبي موسى الأشعري رَضِيَ ٱللَّهُ عَنْهُ مرفوعًا: «ليأتين على الناس زمان يطوف الرجل فيه بالصدقة من الذهب، ثم لا يجد أحدًا يأخذها منه»[1] .

وحديث حارثة بن وهب رَضِيَ ٱللَّهُ عَنْهُ مرفوعًا: «تصدقوا؛ فإنه يأتي عليكم زمان يمشي الرجل بصدقته فلا يجد من يقلبها، يقول الرجل: لو جئت بها بالأمس لقبلتها، فأما اليوم فلا حاجة لي بها»[2].

وهذا كله دليل على أن الأمة سيأتي عليها زمان يعمها فيه الرخاء ورغد العيش، فيزول الفقر، بحيث لا يوجد فيه فقير يستحق الصدقة أو يقبلها، وسيكون هذا ببركات العدل، وأثر الإيمان والتقوى في حياة الناس[3]، كما قال تعالى: ﴿وَلَوْ أَنَّ أَهْلَ ٱلْقُرَىٰٓ ءَامَنُوا۟ وَٱتَّقَوْا۟ لَفَتَحْنَا عَلَيْهِم بَرَكَٰتٍ مِّنَ ٱلسَّمَآءِ وَٱلْأَرْضِ﴾ [الأعراف:96].

6- تحديده صَلَّى ٱللَّهُ عَلَيْهِ وَسَلَّمَ لمراحل الحكم في الأمة الإسلامية، بما يبشر بانقشاع عهود الاستبداد والظلم والطغيان، وعودة الخلافة الراشدة، المتبعة لمنهاج النبوة في إقامة العدل والشورى، ورعاية حدود الله وحقوق العباد.

روى حذيفة بن اليمان عنه صَلَّى ٱللَّهُ عَلَيْهِ وَسَلَّمَ، قال: «تكون النبوة فيكم ما شاء الله أن تكون، ثم يرفعها إذا شاء أن يرفعها، ثم تكون خلافة على منهاج النبوة، فتكون ما شاء الله أن تكون، ثم يرفعها إذا شاء أن يرفعها، ثم تكون ملكًا عاضًّا، فتكون ما شاء الله أن تكون، ثم يرفعها إذا شاء أن يرفعها، ثم تكون ملكًا جبريًّا، فتكون ما شاء الله أن تكون، ثم يرفعها إذا شاء أن يرفعها، ثم تكون خلافة على منهاج النبوة، ثم سكت»[4].

(1) متفق عليه، اللؤلؤ والمرجان (593).

(2) متفق عليه، اللؤلؤ والمرجان (592).

(3) انظر: المبشرات بانتصار السلام للقرضاوي، ص 331.

(4) رواه أحمد (273/4)، وقال الهيثمي في المجمع (189/5): رواه أحمد، والبزار أتم منه، والطبراني ببعضه في الأوسط، ورجاله ثقات.

والملك العاض: هو الذي يصيب الناس فيه عسف وظلم، كأن له أنيابًا تعض.

أما الملك الجبري: فهو القائم على الجبروت والطغيان، أشبه بالحكم العسكري المستبد في عصرنا[1].

قال الشيخ سعيد حوى رَحِمَهُ اللَّهُ: وواضح أن الدورين الأولين انتهيا بموت النبي ﷺ، وبزوال الخلافة الراشدة، وأن الدور الثالث استمر حتى زوال الدولة العثمانية، وأن الدور الرابع هو الذي نحن فيه، وأن الدور الخامس قادم بإذن الله[2].

7- أخبر ﷺ عن معركة كبرى بين المسلمين والروم الأوربيين والأمريكان والغربيين عامة، لم تحدث إلى الآن، ستكون العاقبة فيها للمؤمنين، مع كثرة عدد عدوهم، وقد جاء في حديث عوف بن مالك الأشجعي رَضِيَ اللَّهُ عَنْهُ، الذي ذكرناه في المبحث السابق، قال رسول الله ﷺ: «اعدد ستًّا بين يدي الساعة»، فذكر فيها: ثم هدنة تكون بينكم وبين بني الأصفر - وهم الروم أو الغربيون - فيغدرون، فيأتونكم تحت ثمانين غاية (أي راية)، تحت كل غاية اثنا عشر ألفًا.

وهذا يعني أن عددهم في هذه المعركة يقارب المليون مقاتل .. وهذا القتال يقع في الشام، كما دلت على ذلك الأحاديث، ومنها حديث أبي الدرداء رَضِيَ اللَّهُ عَنْهُ في سنن أبي داود، أن رسول الله ﷺ قال: «إن فسطاط المسلمين يوم الملحمة في أرض بالغوطة، في مدينة يقال لها دمشق، من خير مدائن الشام».

قال ابن المنيّر رَحِمَهُ اللَّهُ[3]: «أما قصة الروم فلم تجتمع إلى الآن، ولا بلغنا أنهم غزوا في البر هذا العدد (وذلك في زمانه بالطبع)، فهي من الأمور التي لم تقع بعد، وفيه بشارة ونذارة؛ وذلك أنه دل على أن العاقبة للمؤمنين مع كثرة ذلك الجيش، وفيه بشارة إلى أن عدد جيوش المسلمين سيكون أضعاف ما هو عليه».

---

(1) المبشرات بانتشار الإسلام للقرضاوي، ص 34.

(2) الرسول لسعيد حوى، ص 351.

(3) هو الحافظ زين الدين بن عبد اللطيف، من أعيان القرن التاسع الهجري.

8- ومن دلائل النبوة ما أخبر ﷺ أنه يكون بين يدي الساعة، وهو ما يسميه العلماء بأشراط الساعة الصغرى، وهي كثيرة جدًّا، ويصلح تقسيمها إلى ثلاثة أقسام:

- قسم منها انقضى.
- قسم لا يزال يتكرر، ونراه في حياتنا اليوم.
- وقسم لم يحدث بعد.

وقد حصر هذه الأقسام بأحاديثها الشيخ عمر الأشقر في كتابه القيّم (القيامة الصغرى)، وسنحاول تلخيص ذلك في سطور[1]:

قال الشيخ عمر سليمان الأشقر رَحِمَهُ ٱللَّهُ:

والعلامات الصغرى يمكن تقسيمها إلى قسمين: قسم وقع، وقسم لم يقع بعدً، والذي وقع قد يكون مضى وانقضى، وقد يكون ظهوره ليس مرة واحدة، بل يبدو شيئًا فشيئًا، وقد يتكرر وقوعه وحصوله، وقد يقع منه في المستقبل أكثر مما وقع في الماضي.

أ- علامات الساعة التي وقعت:

ونعني بها العلامات التي وقعت وانقضت، ولن يتكرر وقوعها، وهي كثيرة، وسنذكر بعضا منها:

1 - بعثة الرسول ﷺ ووفاته.
2- انشقاق القمر.
3- نار الحجاز التي أضاءت أعناق الإبل ببصرى - بلدة في الشام.
4- توقف الجزية والخراج.

ب- العلامات التي وقعت، وهي مستمرة، أو وقعت مرة ويمكن أن يتكرر وقوعها:

1- الفتوحات والحروب:

---

(1) القيامة الصغرى (137-206)، باختصار وتهذيب، أعده الشيخ محمد صالح المنجد.

وقد فُتحت فارس والروم، وزال ملك كسرى وقيصر، وغزا المسلمون الهند، وفتحوا القسطنطينية، وسيكون للمسلمين في مقبل الزمان ملك عظيم، ينتشر فيه الإسلام ويذل الشرك، وتفتح روما؛ مصداقا لحديث الرسول ﷺ القائل: «ليبلغن هذا الأمر ما بلغ الليل والنهار، ولا يترك الله بيت مدر ولا وبر إلا أدخله الله هذا الدين، بعز عزيز، أو بذل ذليل، عزًّا يعز الله به الإسلام، وذلًّا يذل الله به الكفر» (1).

2- قتال الترك والتتر.

3- إسناد الأمر إلى غير أهله.

4- فساد المسلمين.

5- ولادة الأَمة ربتها، وتطاول الحفاة العراة رعاة الشاة في البنيان.

6- تداعي الأمم على الأمة الإسلامية.

7- الخسف والقذف والمسخ الذي يعاقب الله به أقوامًا من هذه الأمة.

8- استفاضة المال.

9- تسليم الخاصة، وفشو التجارة، وقطع الأرحام.

10- اختلال المقاييس:

أخبرنا الرسول ﷺ أن المقاييس التي يقوم بها الرجال تختل قبل قيام الساعة، فيقبل قول الكذبة ويُصدق، ويُرد على الصادق خبره، ويؤتمن الخونة على الأموال والأعراض، ويخون الأمناء ويتهمون، ويتكلم التافهون من الرجال في القضايا التي تهم عامة الناس، فلا يقدمون إلا الآراء الفجة، ولا يهدون إلا للأمور المعوجة، فقد أخرج الإمام أحمد وابن ماجه والحاكم عن أبي هريرة، قال: قال رسول الله ﷺ: «سيأتي على الناس سنوات خداعات، يُصدق فيها الكاذب، ويُكذب فيها الصادق، ويؤتمن فيها الخائن ويخون فيها

---

(1) رواه أحمد (28/ 154)، وصححه محققو المسند.

الأمين، وينطق فيها الرويبضة»، قيل: وما الرويبضة؟ قال: «الرجل التافه يتكلم في أمر العامة»[1].

11- شرطة آخر الزمان الذين يجلدون الناس.

ج- العلامات التي لم تقع بعد:

1- عودة جزيرة العرب جنات وأنهارًا:

عن أبي هريرة رَضِيَ اللَّهُ عَنْهُ، قال: قال رسول الله ﷺ: «لا تقوم الساعة حتى يكثر المال ويفيض، حتى يخرج الرجل بزكاة ماله، فلا يجد أحدًا يقبلها منه، وحتى تعود أرض العرب مروجًا وأنهارًا»[2].

وعودتها جنات وأنهارًا إما بسبب ما يقوم أهلها به من حفر الآبار، وزراعة الأرض ونحو ذلك مما هو حاصل في زماننا، وإما بسبب تغير المناخ، فيتحول مناخها الحار إلى جو لطيف جميل، ويفجر خالقها فيها من الأنهار والعيون ما يحول جدبها خصبًا، ويحيل سهولها الجرداء إلى سهول مخضرة فيحاء، وهذا هو الأظهر، فإنه يحكي حالة ترجع فيها الجزيرة إلى ما كانت عليه من قبل.

2- انتفاخ الأهلة:

من الأدلة على اقتراب الساعة أن يرى الهلال عند بدو ظهوره كبيرًا حتى يقال ساعة خروجه إنه لليلتين أو ثلاثة، فعن ابن مسعود رَضِيَ اللَّهُ عَنْهُ، قال: قال رسول الله ﷺ: «من اقتراب الساعة انتفاخ الأهلة»[3].

وعن أنس رَضِيَ اللَّهُ عَنْهُ، قال: قال رسول الله ﷺ: «من اقتراب الساعة أن يرى الهلال قبلًا فيقال: لليلتين، وأن تتخذ المساجد طرقًا»[4].

---

(1) رواه ابن ماجه (4036)، وصححه الألباني في صحيح ابن ماجه.

(2) رواه مسلم (157).

(3) رواه الطبراني في "الكبير" (198/10)، وصححه الألباني في "صحيح الجامع" (5898).

(4) رواه الطبراني في "الأوسط" (147/9)، وحسنه الألباني في "صحيح الجامع" (5899).

3- تكليم السباع والجماد الإنس:

روى الإمام أحمد في مسنده عن أبي سعيد الخدري، قال: عدا الذئب على شاة، فأخذها، فطلبه الراعي، فانتزعها منه، فأقعى الذئب على ذَنَبه، قال: ألا تتقي الله تنزع مني رزقًا ساقه الله إلي، فقال: يا عجبي ذئب مقعى على ذَنَبِه يكلمني كلام الإنس، فقال الذئب: ألا أخبرك بأعجب من ذلك محمد ﷺ بيثرب، يخبر الناس بأنباء ما قد سبق، قال: فأقبل الراعي يسوق غنمه حتى دخل المدينة، فزواها إلى زاوية من زواياها، ثم أتى رسول الله ﷺ فأخبره، فأمر رسول الله ﷺ فنودي: الصلاة جامعة، ثم خرج، فقال للراعي: «أخبرهم»، فأخبرهم، فقال رسول الله ﷺ: «صدق والذي نفسي بيده لا تقوم الساعة حتى يكلم السباع الإنس، ويكلم الرجل عذبة سوطه وشراك نعله، ويخبره فخذه بما أحدث أهله بعده»[1].

4- انحسار الفرات عن جبل من ذهب:

روى البخاري ومسلم في صحيحيهما، عن أبي هريرة رَضِيَ اللهُ عَنْهُ، قال: قال رسول الله ﷺ: «يوشك الفرات أن يُحسر عن كنز من ذهب، فمن حضره فلا يأخذ منه شيئًا»، وفي رواية: «يحسر عن جبل من ذهب»[2].

وفي رواية عند مسلم: «لا تقوم الساعة حتى يحسر الفرات عن جبل من ذهب، يقتتل الناس عليه، فيُقتل من كل مائة تسعة وتسعون، ويقول كل رجل منهم: لعلي أكون أنا الذي أنجو»[3].

ورواه مسلم عن أبيّ بن كعب بلفظ: «يوشك الفرات أن يحسر عن جبل من ذهب، فإذا سمع به الناس ساروا إليه، فيقول من عنده: لئن تركنا الناس يأخذون منه ليذهبن به كله، قال فيقتتلون عليه، فيقتل من كل مائة تسعة وتسعون».

---

(1) رواه أحمد (315/18)، وصححه محققو المسند.

(2) البخاري (7119)؛ ومسلم (7223).

(3) مسلم (7221).

ومعنى انحساره: انكشافه؛ لذهاب مائه، كما يقول النووي، وقد يكون ذلك بسبب تحول مجراه، فإن هذا الكنز أو هذا الجبل مطمور بالتراب وهو غير معروف، فإذا ما تحول مجرى النهر لسبب من الأسباب، ومر قريبًا من هذا الجبل كشفه، والله أعلم بالصواب.

والسبب في نهي الرسول ﷺ من حضره عن الأخذ منه؛ لما ينشأ عن أخذه من الفتنة والاقتتال وسفك الدماء.

5 - إخراج الأرض كنوزها المخبوءة:

روى مسلم في صحيحه، عن أبي هريرة، قال: قال رسول الله ﷺ: «تقيء الأرض أفلاذ كبدها أمثال الأسطوان من الذهب والفضة، فيجيء القاتل فيقول في هذا قتلت، ويجيء القاطع فيقول في هذا قطعت رحمي، ويجيء السارق فيقول في هذا قطعت يدي، ثم يدعونه (يتركونه) فلا يأخذون منه شيئًا»[1].

وهذه آية من آيات الله؛ حيث يأمر الحق الأرض أن تخرج كنوزها المخبوءة في جوفها، وقد سمى الرسول ﷺ تلك الكنوز (بأفلاذ الكبد)، وأصل الفلذ: «القطعة من كبد البعير»، وقال غيره: هي القطعة من اللحم، ومعنى الحديث: التشبيه، أي: تخرج ما في جوفها من القطع المدفونة فيها، والأسطوان جمع أسطوانة، وهي السارية والعمود، وشبهه بالأسطوان لعظمته وكثرته.

وعندما يرى الناس كثرة الذهب والفضة يزهدون فيه، ويألمون لأنهم ارتكبوا الذنوب والمعاصي في سبيل الحصول على هذا العرض التافه.

6- محاصرة المسلمين إلى المدينة:

من أشراط الساعة أن يهزم المسلمون، وينحسر ظلهم، ويحيط بهم أعداؤهم ويحاصروهم في المدينة المنورة.

(1) مسلم (2294).

عن ابن عمر رَضِيَ ٱللَّهُ عَنْهُمَا، قال: قال رسول الله ﷺ: «يوشك المسلمون أن يحاصروا إلى المدينة، حتى يكون أبعد مسالحهم سلاح»(1).

والمسالح، جمع مسلحة، وهي الثغر، والمراد أبعد مواضع المخافة من العدو.

وسلاح، موضع قريب من خيبر.

7 - إحراز «الجهجاه» الملك:

الجهجاه رجل من قحطان، سيصير إليه الملك، وهو شديد القوة والبطش، ففي الصحيحين عن أبي هريرة، عن النبي ﷺ: «لا تقوم الساعة حتى يخرج رجل من قحطان يسوق الناس بعصاه»(2).

وفي رواية لمسلم: «لا تذهب الأيام والليالي حتى يملك رجل يقال له الجهجاه»(3).

ويحتمل أن يكون هذا الذي في الرواية الأخيرة غير الأول، فقد صح في سنن الترمذي عن أبي هريرة أن هذا الجهجاه من الموالي، ففي سنن الترمذي عن أبي هريرة عن رسول الله ﷺ: «لا يذهب الليل والنهار حتى يملك رجل من الموالي يقال له جهجاه»(4).

والمراد بكونه يسوق الناس بعصاه أنه يغلب الناس فينقادون له ويطيعونه، والتعبير بالسوق بالعصا للدلالة على غلظته وشدته، وأصل الجهجاه الصياح، وهي صفة تناسب العصا كما يقول ابن حجر، وهل يسوق هذا الرجل الناس إلى الخير أم الشر؟ ليس عندنا بيان من الرسول ﷺ بذلك.

---

(1) رواه أبو داود (4250)، وصححه الألباني في "صحيح أبي داود".

(2) رواه البخاري (3329)، ومسلم (2910).

(3) صحيح مسلم (2911).

(4) سنن الترمذي (2228).

8- خروج المهدي:

ثبت في الأحاديث الصحيحة أن الله تبارك وتعالى يبعث في آخر الزمان خليفة يكون حكمًا عدلًا، يلي أمر هذه الأمة من آل بيت الرسول ﷺ من سلالة فاطمة، يوافق اسمه اسم الرسول ﷺ، واسم أبيه اسم أبي الرسول ﷺ، وقد وصفته الأحاديث بأنه أجلى الجبهة، أقنى الأنف، يملأ الأرض عدلًا، بعد أن ملئت جورًا وظلمًا، ومن الأحاديث التي وردت في هذا:

عن عبد الله بن مسعود رَضِيَ اللَّهُ عَنْهُ، قال: قال رسول الله ﷺ: «لا تذهب الدنيا حتى يملك العرب رجل من أهل بيتي يواطئ اسمه اسمي»[1]، وفي رواية لأبي داود قال: «لو لم يبق من الدنيا إلا يوم لطول الله ذلك اليوم حتى يبعث فيه رجلًا مني - أو: من أهل بيتي - يواطئ اسمه اسمي واسم أبيه اسم أبي، يملأ الأرض قسطًا وعدلًا كما ملئت ظلمًا وجورًا»[2].

9- وقد أخبر النبي ﷺ أيضًا بعلامات الساعة الكبرى، التي ستكون في آخر الزمان، بداية من خروج الدجال، فنزول عيسى ابن مريم ÷، وخروج يأجوج ومأجوج، ثم نهايتهم، وموت عيسى عَلَيْهِ السَّلَامُ، ثم خروج الدابة، فالدخان، فحدوث الخسوف، فطلوع الشمس من مغربها، فخروج نار من جهة اليمن تحشر الناس جميعًا إلى الشام على أرض واحدة، ثم النفخ في الصور .. وقد ذكر القرآن الكريم بعض هذه العلامات، ووردت السنة الصحيحة بالبعض الآخر، بما يثبت به العلم اليقيني، وقد ذكر المحققون من علماء الحديث - على سبيل المثال - أن الأحاديث التي وردت في شأن نزول المسيح ÷ في آخر الزمان قد بلغت حد التواتر، جمع منها العلامة مولانا أنور الكشميري أربعين حديثًا ما بين صحيح وحسن، بخلاف الضعيف، في كتابه «التصريح بما تواتر في نزول المسيح»؛ ولذا يصعب أن نستعرض ما ورد عن هذه العلامات الكبرى، فيرجع في شأنها إلى المصنفات التي تناولتها بالتفصيل.

---

(1) رواه الترمذي (2230)، وأبو داود

(2) رواه أبو داود (4282).

الفصل الثاني

الشمائل المحمدية

لا أحد أفضل من رسل الله وأنبيائه صلوات الله وسلامه عليهم أجمعين، ولا نبي أفضل من محمد ﷺ؛ فهو أفضل الأنبياء وأفضل الخلق أجمعين؛ فقد أعطاه الله ﷻ من الكمالات ما لم يعطه بشرًا، فهو في أعلى درجات البشر خلقًا وجمالًا في الصفات والشمائل، وقد استدلت زوجه خديجة رَضِيَ اللَّهُ عَنْهَا على نبوته بما عرفته من كمال أخلاقه، وعظيم خلاله، فكانت أول أهل الأرض إيمانًا به، وقالت له - وقد رجع إليها من غار حراء خائفًا: «كلا والله ما يخزيك الله أبدًا؛ إنك لتصل الرحم وتحمل الكل وتكسب المعدوم، وتقري الضيف، وتعين على نوائب الحق»[1]. فجعلت رَضِيَ اللَّهُ عَنْهَا من كريم خلاله دليلًا على صدقه ونبوته[2].

ولقد رفع الله مكانته على العالمين، فكمله بكل فضيلة، ونزهه عن كل رذيلة وجمَّله ونوَّره، فكان نورًا مبينًا: ﴿قَدْ جَآءَكُم مِّنَ ٱللَّهِ نُورٌ وَكِتَٰبٌ مُّبِينٌ ۝١٥﴾ [المائدة].

وخلقه ليكون رحمة للعالمين: ﴿وَمَآ أَرْسَلْنَٰكَ إِلَّا رَحْمَةً لِّلْعَٰلَمِينَ ۝١٠٧﴾ [الأنبياء].

فثمة اتحاد وتلازم بينه ﷺ وبين الرحمة بالعالمين، فلا انفكاك في كل الأحوال .. فهو رحمة للمخلوقات جميعًا؛ فأما رحمته بالمؤمنين فظاهرة، وصورها أكثر من أن تحصى، ورحمته بالكافرين غالبة على مواقفه فيما تقدم من سيرته ﷺ، فكان يرفض أن يدعو عليهم، كما دعا غيره من الأنبياء، وحين طلب الصحابة منه ﷺ أن يدعو على كفار مكة يوم أحد، قال: «إني لم أُبعث لعانًا، وإنما بُعثت رحمه»[3]. وحين قالوا له بعد حنين وقد تعرض

---

(1) رواه البخاري، حديث (4)، ومسلم، حديث (160).

(2) د. منقذ بن محمود السقار: نبي الرحمة.

(3) صحيح مسلم، حديث (6613).

هو ومن معه لأذى ثقيف: يا رسول الله، ادعُ على ثقيف، قال: «اللَّهم اهد ثقيفًا»(1).

ورحمته ﷺ امتدت لتشمل الطير والحيوان والشجر والثقلين من الإنس والجن وقد تبين ما كان بينه وبين هؤلاء من علائق، فرأينا سلام الشجر والحجر عليه، وتوقير الوحش له ﷺ، وشهادة الذئب برسالته، وسجود الجمل له، وشكواه إليه، وحنين جذع النخلة إليه، واجتماع الجن عليه يستمعون القرآن.

فلم يكن ﷺ رحمة لقومه أو للبشرية كلها فحسب؛ بل كان رحمة للعالمين، وميزه ربه بكمال خلقه وكمال خلقه، بما لا يحيط بوصفه البيان، ففاضت بإجلاله القلوب، وتفانى الرجال في حياطته وإكباره بما لم ولن تعرفه الدنيا لغيره، واستأهل ثناء ربه عليه بقوله: ﴿ وَإِنَّكَ لَعَلَىٰ خُلُقٍ عَظِيمٍ ﴿٤﴾ ﴾ [القلم].

وأعلم الله عباده المؤمنين بما أوجب عليهم من الاقتداء به؛ لكماله وشرفه ورفعة منزلته وقدره، فقال: ﴿ لَّقَدْ كَانَ لَكُمْ فِي رَسُولِ ٱللَّهِ أُسْوَةٌ حَسَنَةٌ لِّمَن كَانَ يَرْجُواْ ٱللَّهَ وَٱلْيَوْمَ ٱلْأَخِرَ وَذَكَرَ ٱللَّهَ كَثِيرًا ﴿٢١﴾ ﴾ [الأحزاب].

فإن من يرجو ثواب الله والنجاة في الآخرة، لابد أن تكون له به أسوة .. ولا أسوة بغير معرفة لشمائله وأخلاقه وكريم خلاله ﷺ، وهو ما سنذكر جملًا صالحة منها، سائلين الله تعالى أن يرزقنا التحلي بها، والحياة والموت عليها.

المبحث الأول: هذا هو رسول الله ﷺ

رسم لنا أصحاب رسول الله ﷺ - ببيانهم وفصاحة لسانهم وصدق لهجتهم، في رواياتهم المتعددة - صورة صادقة تصفه ﷺ، وتصف خَلْقه أدق وصف، وقد أجمعوا رَضِيَ اللهُ عَنْهُمْ، على أن البصر إذا وقع عليه ﷺ، رأى جمالًا مدهشًا لا مثيل له، ومظهرًا مهيبًا فخمًا، لم يُر في أحد من قبله أو من بعده:

(1) رواه الترمذي، حديث (3942).

أخرج الدارمي والبيهقي، عن جابر بن سمرة رَضِيَ اللَّهُ عَنْهُ، قال: «رأيت النبي ﷺ في ليلة إضحيان، أي: مقمرة مسفرة، فجعلت أنظر إليه وإلى القمر، فلهو كان أحسن في عيني من القمر».

وأخرج الترمذي والبيهقي، عن أبي هريرة، قال: «ما رأيت شيئًا أحسن من رسول الله ﷺ كأنَّ الشمس تجري في وجهه، وما رأيت أحدًا أسرع في مشيه منه، كأن الأرض تطوى له، إنا لنجهد وإنه غير مكترث».

وأخرج الشيخان عن البراء، قال: «كان رسول الله ﷺ بعيد ما بين المنكبين، يبلغ شعره شحمة أذنيه، ما رأيت شيئًا أحسن منه».

وأخرج مسلم عن جابر بن سمرة في وصف وجه رسول الله ﷺ قال: «بل مثل الشمس والقمر مستديرًا».

وأخرج الشيخان عن البراء، قال: «كان رسول الله ﷺ أحسن الناس وجهًا، وأحسنهم خلقًا، ليس بالطويل الذاهب ولا بالقصير».

وأخرج مسلم عن أبي الطفيل، أنه قيل له: صف لنا رسول الله ﷺ، قال: «كان أبيض مليح الوجه».

وأخرج الدارمي والبيهقي والطبراني وأبو نعيم، عن أبي عبيدة، قال: قلت للربيع بنت معوذ: صفي لي رسول الله ﷺ، قالت: «لو رأيته قلت الشمس طالعة».

وأخرج البخاري عن أبي هريرة، قال: « كان رسول الله ﷺ ضخم القدمين، حسن الوجه، لم أر بعده مثله».

أخرج أبو موسى المديني في كتاب الصحابة، عن أمد بن أبد الحضرمي قال: «رأيت رسول الله ﷺ، فما رأيت قبله ولا بعده مثله».

وأخرج الدارمي عن ابن عمر، قال: «ما رأيت أشجع ولا أجود ولا أضوأ من رسول الله ﷺ».

وأخرج أحمد والبيهقي عن محرش الكعبي، قال: «اعتمر النبي ﷺ من الجعرانة ليلًا، فنظرت إلى ظهره كأنه سبيكة فضة».

وصف الحبيب ﷺ:

جمع العلماء ما توارثوه عن صحابة رسول الله ﷺ في وصف خلقه ﷺ وتكوينه الجسمي، بما يبين صفاته وكمالاته الخلقية العظيمة، وقد وصف الحبيب محمدًا ﷺ بعض من أصحابه ومواليه وآل بيته، وكل واصف لم يعد الحقيقة، بل لم ينته إليها؛ وذلك لعجزه وعدم قدرته على رسم الصورة الحقة للذات المحمدية[1]، ولكننا من مجموع ما تركوه لنا نستطيع أن نستخلص هذا الوصف للحبيب محمد ﷺ:

جسمه ﷺ وهيئته وهيبته:

- كان ﷺ فخمًا مفخمًا كما وصفه هند بن أبي هالة. وقالت عنه أم معبد الخزاعية: أجمل الناس من بعيد، وأحلاه وأحسنه من قريب[2]. وقال علي رَضِيَ اللَّهُ عَنْهُ في آخر وصفه له: من رآه بديهة هابه، ومن خالطه معرفة أحبه. ويقول ناعته: لم أر قبله ولا بعده مثله[3]. وما كان كبار الصحابة رَضِيَ اللَّهُ عَنْهُمْ يستطيعون أن ينظروا في وجهه طويلًا؛ لشدة الهيبة والإجلال، وكان إذا مس أحدًا أحس بطمأنينة، كما أخرج أحمد، عن سعد بن أبي وقاص رَضِيَ اللَّهُ عَنْهُ، قال: اشتكيت بمكة، فدخل علي رسول الله ﷺ يعودني، فوضع يده على جبهتي، فمسح وجهي وصدري وبطني، فما زلت يخيل إلي أني أجد يده على كبدي حتى الساعة.

---

(1) الجزائرى: هذا الحبيب يا محب، ص 480.

(2) ابن هشام (2/146-148).

(3) الشمائل المحمدية للترمذي (ص 8-32)، وصحيح البخاري، وكتاب أحاديث الأنبياء، وصحيح مسلم، كتاب الفضائل، والسيرة لأبي شهبة (ج2، ص 610).

وكان منظره يوحي لمن يراه بأنه أمام نبي:

أخرج الترمذي عن عبد الله بن سلام، قال[1]: «لما قدم رسول الله ﷺ المدينة جئته لأنظر إليه، فلما استبنت وجهه عرفت أن وجهه ليس بوجه كذاب».

وعن أبي رمثة التميمي، قال: «أتيت النبي ﷺ ومعي ابن لي، فأريته، فلما رأيته قلت هذا نبي الله».

ويقول عبد الله بن رواحة رَضِيَ اللَّهُ عَنْهُ:

لو لم تكن فيه آيات مبينة ... لكان منظره ينبيك بالخبر

ويقول أبو بكر رَضِيَ اللَّهُ عَنْهُ:

أمين مصطفى بالخير يدعو ... كضوء البدر زايله الظلام

وكان عمر ينشد فيه قول زهير في هرم بن سنان:

لو كنت من شيء سوى البشر ... كنت المضيء ليلة البدر[2]

قال أنس رَضِيَ اللَّهُ عَنْهُ: كان رسول الله ﷺ رجلًا مربوعًا، ليس بالطويل ولا بالقصير، وكان إلى الطول أقرب[3]. وقد ورد عند البيهقي وابن عساكر أنه ﷺ لم يكن يماشي أحدًا من الناس إلا طاله، ولا جلس في مجلس إلا يكون كتفه أعلى من الجالسين، وقال عنه علي ابن أبي طالب رَضِيَ اللَّهُ عَنْهُ: لم يكن بالطويل الممغّط (أي المفرط في الطول)، ولا القصير المتردد، وكان ربعة من القوم[4].

---

(1) سعيد حوى: الرسول ﷺ، ص 18.

(2) انظر: الرحيق المختوم، ص 482.

(3) ذكره ابن كثير عن أبي هريرة، البداية والنهاية (6/21).

(4) ابن هشام (1/401، 402).

فكان ﷺ – بصفة عامة – حسن الجسم، متناسق الأعضاء، متماسك البدن، قال عنه أبو الطفيل رَضِيَ اللَّهُ عَنْهُ: كان أبيض مليح الوجه، مقصدًا[1].

والمقصد: هو الذي ليس بجسيم ولا نحيف، ولا طويل ولا قصير.

لونه ﷺ:

كان ﷺ أزهر اللون، أي أبيض اللون مشربًا بحمرة، ليس بالأبيض الأمهق، أي لم يكن شديد البياض والبرص، ولا بالأدم الأسمر.

هكذا قال أنس رَضِيَ اللَّهُ عَنْهُ: «كان رسول الله ﷺ أزهر اللون، ليس بالأدهم ولا بالأبيض الأمهق، يتلألأ نورًا»[2].

وقال أبو طالب في وصفه:

وأبيض يستسقى الغمام بوجهه   ثمال[3] اليتامى عصمة[4] للأرامل

فلونه ﷺ إذًا كان أبيض بياضًا نيرًا مشربًا بحمرة، لو رأيته رأيت الشمس طالعة، كما قالت الربيع بنت معوذ [5]، أو كأنها تجري في وجهه، كما قال أبو هريرة رَضِيَ اللَّهُ عَنْهُ [6].

رأسه وشعره ﷺ:

كان ﷺ ضخم الرأس[7]، عظيم الهامة، شديد سواد الشعر[8]، ولم يكن شعره بالجعد القطط (شديد الجعودة)، ولا بالسبط (المرسل)، كان جعدًا رجلًا (فيه تتن قليل

---

(1) صحيح مسلم (2/258).

(2) روا ه البخاري، حديث رقم (2547).

(3) مطعم.

(4) مانع من الظلم.

(5) رواه الدارمي، مشكاة المصابيح 2/517.

(6) جامع الترمذي مع شرح تحفة الأحوذي (4/306).

(7) رواه أحمد (686).

(8) البداية النهاية، ج6، ص21.

على هيئة المتمشط)[1]، وكان شعره ﷺ يصل إلى أنصاف أذنيه حينًا، ويرسله أحيانًا فيصل إلى شحمة أذنيه، أو بين أذنيه وعاتقه، وغاية طوله أن يضرب منكبيه (كتفيه)، إذا طال زمان إرساله بعد الحلق، وبهذا يجمع بين الروايات الواردة في هذا الشأن، حيث أخبر كل واحد من الرواة عما رآه في حين من الأحيان.

قال الإمام النووي: هذا ولم يحلق النبي ﷺ رأسه - أي بالكلية - في سني الهجرة إلا عام الحديبية، ثم عام عمرة القضاء، ثم عام حجة الوداع.

وقال علي بن أبي طالب رَضِيَ اللهُ عَنْهُ: كان رسول الله ﷺ كثير شعر الرأس راجله[2].

ولم يكن في رأسه ﷺ شيب إلا شعيرات في مفرق رأسه، قال أنس رَضِيَ اللهُ عَنْهُ: توفي ﷺ وليس في رأسه عشرون شعرة بيضاء[3].

وفي بعض الأحاديث ما يفيد أن شيبه ﷺ لا يزيد على عشر شعرات، وكان ﷺ إذا ادهن شعره وارى هذا الشيب (أي أخفاه)، وكان يدهن بالطيب والحناء.

وكان ﷺ يرسل شعره، ثم ترك ذلك، وصار يفرقه من وسط رأسه.

فعن ابن عباس رَضِيَ اللهُ عَنْهُمَا، قال: كان النبي ﷺ يحب موافقة أهل الكتاب فيما لم يؤمر فيه، وكان أهل الكتاب يسدلون أشعارهم، وكان المشركون يفرقون رءوسهم، فسدل النبي ﷺ ناصيته، ثم فرق[4].

وكان ﷺ يترجل غبًّا (أي يمشط شعره ويتعهده من وقت إلى آخر)، وكان يبدأ في ترجيل شعره من الجهة اليمنى، فكان يفرق شعره، ثم يمشط الشق الأيمن ثم الشق الأيسر.

---

(1) رواه ابن عبد البر في كتابه الاستذكار، عن علي بن أبي طالب، ج7، ص 336.

(2) رواه أحمد (947).

(3) رواه البخاري في صحيحه رقم (3547).

(4) أخرجه البخاري (5917)، ومسلم (6015).

وجهه الكريم ﷺ:

كان رسول الله ﷺ أحسن الناس وجهًا، لم يرَ أصحابه رَضِيَ اللَّهُ عَنْهُمْ قبله ولا بعده مثله ، فكان وجهه ﷺ مثل الشمس والقمر مستديرًا، إذا سُر استنار حتى كأنه قطعة قمر، ولما سئل البراء رَضِيَ اللَّهُ عَنْهُ: أكان وجه النبي ﷺ مثل السيف[1]؟ قال: لا، بل مثل القمر، وفي رواية كان وجهه مستديرًا[2].

وكان ﷺ أسيل (أملس) الوجه، مسنون الخدين، ولم يكن وجهه ﷺ مستديرًا غاية التدوير، بل كان بين الاستدارة والإسالة (الاستطالة)، وهو أجمل عند كل ذي ذوق سليم، وكان مليحًا كأنما صيغ من فضة، فلا أوضأ ولا أضوأ منه.

جبينه ﷺ وخداه:

والجبين هو ما اكتنف الجبهة من يمين وشمال، فهما جبينان، وتكون الجبهة بينهما، وكان ﷺ واسع الجبين، أي ممتد الجبين طولًا وعرضًا، وإذا طلع بوجهه على الناس تراءى جبينه كأنه السراج المتوقد يتلألأ.

وعن أبي هريرة رَضِيَ اللَّهُ عَنْهُ، قال: كان رسول الله ﷺ أسيل مستوي الجبين[3]. وكان إذا غضب احمر وجهه، حتى كأنما فقئ في وجنتيه حب الرمان[4]، وكان سهيل الخدين، فكان ﷺ إذا سلم على يمينه وشماله يُرى بياض خده[5].

---

(1) البخاري (502/1).

(2) البخاري (502/1) ومسلم (259/2).

(3) أخرجه عبد الرزاق والبيهقي وابن عساكر.

(4) رواه الترمذي في أبواب القدر، باب ما جاء في التشديد في الخوض في القدر (35/2).

(5) رواه ابن ماجه عن عمار بن ياسر رَضِيَ اللَّهُ عَنْهُ.

عيناه ﷺ:

كان ﷺ أدعج العينين، أي شديد سواد العينين، أشكل (أي: طويل شق العينين)، طويل أهدابهما (أي أن شعر أجفانه كان كثيرًا مستطيلًا)، وكان حاجباه قويين مقوسين، متصلين اتصالًا خفيفًا، لا يُرى اتصالهما، بينهما عِرْق يدره الغضب.

وكان ﷺ مع نصاعة بياض عينيه، أحمر المآقي (جمع مؤق وهو مؤخر العين)، وكانت هذه العروق الحمر في مؤخر عينيه من علامات نبوته ﷺ. قال الحافظ العراقي: هي إحدى علامات نبوته ﷺ، ولما سافر مع ميسرة إلى الشام، سأل عنه راهب ميسرة فقال: في عينيه حمرة؟ فقال: ما تفارقه، قال الراهب: هو[1].

وكان ﷺ إذا نظرت إليه قلت أكحل العينين، وليس بأكحل[2].

وعن عائشة رَضِيَ اللَّهُ عَنْهَا قالت: كانت عيناه ﷺ نجلاوين واسعتين أدعجهما (شديد سواد الحدقة)، وكان أهدب الأشفار (الرموش) حتى تكاد تلتبس من كثرتها[3].

أنفه ﷺ وفمه وأسنانه:

كان ﷺ يحسبه من لم يتأمله جيدًا أشمًّا ولم يكن أشمًّا، بل كان مستقيم الأنف (والشمم ارتفاع في قصبة الأنف) أقنى (طويل الأنف في وسطه بعض ارتفاع)، مع دقة أرنبته (هي الجزء اللين من الأنف).

أما عن أسنانه، فقد قال هند بن أبي هالة رَضِيَ اللَّهُ عَنْهُ: كان رسول الله ﷺ أشنب (في أسنانه رقة وتحدد)، مفلج الأسنان (متفرق الأسنان)، بعيد ما بين الثنايا والرباعيات[4].

وكان ﷺ إذا تكلم رؤي كالنور يخرج من بين ثناياه.

---

(1) كذا في شرح المواهب.

(2) رواه الترمذي (3798).

(3) أخرجه البيهقي في الدلائل، وابن عساكر في تهذيب تاريخ دمشق.

(4) أخرجه الطبراني في المعجم الكبير، والترمذي في الشمائل، وابن سعد في الطبقات، والبغوي في شرح السنة.

وكان فمه ﷺ ضليعًا[1] (واسعًا)، وكان أحسن الناس شفتين، وألطفهم ختم فم.

ريقه المبارك ﷺ:

أعطى الله تعالى رسوله ﷺ خصائص كثيرة لريقه الشريف، ومن ذلك أن ريقه ﷺ فيه شفاء للعليل، ورواء للغليل، وغذاء وقوة وبركة ونماء.

فكم داوى ﷺ بريقه الشريف من مريض، فبرئ من ساعته، وقد تقدم ما ذكرناه عن شفاء عين علي رَضِيَ اللَّهُ عَنْهُ يوم خيبر بريقه ﷺ.

وروى الطبراني وأبو نعيم أن عميرة بنت مسعود الأنصاري رَضِيَ اللَّهُ عَنْهَا وأخواتها دخلن على النبي ﷺ يبايعنه وهن خمس، فوجدنه يأكل قديدًا (لحمًا مجففًا)، فمضغ لهن قديدة، قالت عميرة: ثم ناولني القديدة، فقسمتها بينهن، فمضغت كل واحدة قطعة، فلقين الله تعالى ما وجد لأفواههن خلوف (أي رائحة كريهة).

لحيته ﷺ:

كان رسول الله حسن اللحية، وكان ﷺ كث اللحية (أي كثيف شعر اللحية)[2]. قالت عائشة رَضِيَ اللَّهُ عَنْهَا: كان ﷺ كث اللحية، وكانت عنفقته (الشعر تحت الشفة السفلى) بارزة، وحولها كبياض اللؤلؤ، في أسفل عنفقته شعر منقاد حتى يقع انقيادها على شعر اللحية، حتى يكون كأنه منها[3].

وعن عبد الله بن بسر رَضِيَ اللَّهُ عَنْهُ، قال: كان في عنفقة رسول الله ﷺ شعرات بيض[4].

---

(1) رواه مسلم في صحيحه عن جابر بن سمرة، رقم (2339).

(2) أخرجه أحمد (686)، وصححه أحمد شاكر.

(3) أخرجه أبو نعيم 230/3، والبيهقي في دلائل النبوة، ص 286، وابن عساكر في تهذيب تاريخ دمشق 139/3.

(4) أخرجه البخاري (3470).

وكان شعر لحيته ﷺ أسود، يحسنه ويطيبه، أي يضع عليه الطيب، ويكثر تسريحه، وكان من هديه ﷺ حف الشارب وإعفاء اللحية.

عنقه ﷺ:

كانت عنقه ﷺ كأنها جيد (عنق) دمية (وهي الصورة التي بولغ في تحسينها)، وفي صفاء الفضة، وقد وصفها علي بن أبي طالب رَضِيَ ٱللَّهُ عَنْهُ فقال: كأن عنق رسول الله ﷺ إبريق فضة(1).

وقالت عائشة رَضِيَ ٱللَّهُ عَنْهَا: كان أحسن عباد الله عنقًا لا ينسب إلى الطول ولا إلى القصر، ما ظهر من عنقه للشمس والرياح فكأنه إبريق فضة مشرب ذهبًا، يتلألأ في بياض الفضة وحمرة الذهب، وما غيب في الثياب من عنقه فما تحتها، فكأنه القمر ليلة البدر(2).

منكباه ﷺ وخاتم النبوة:

المنكب هو مجمع العضد والكتف، وكان ﷺ عريض ما بين المنكبين، وكان أشعر المنكبين، أي عليهما شعر كثير، وكان كتفاه ﷺ عريضين عظيمين. أما خاتم النبوة، فكان غدة حمراء مثل الهلال، أو مثل بيضة الحمامة بين كتفيه، فيها شعرات مجتمعات، كما وصفه سلمان الفارسي رَضِيَ ٱللَّهُ عَنْهُ(3)، وقد عرف سلمان أنه نبي من هذا الخاتم، وكما وصفه جابر ابن سمرة رَضِيَ ٱللَّهُ عَنْهُ في صحيح مسلم، فقال: رأيت الخاتم بين كتفي رسول الله ﷺ غدة حمراء مثل بيضة الحمامة يشبه جسده. وكما روى البخاري ومسلم عن الجعد بن عبد الرحمن، قال: سمعت السائب بن يزيد رَضِيَ ٱللَّهُ عَنْهُ يقول: ذهبت بي خالتي إلى رسول الله ﷺ، فقالت: يا رسول الله إن ابن أختي وجع، فمسح رأسي، ودعا لي بالبركة، وتوضأ فشربت من وضوئه، وقمت خلف ظهره، فنظرت إلى الخاتم بين كتفيه، فإذا هو مثل زر (بيضة) الحجلة (طائر معروف).

---

(1) أخرجه ابن سعد في الطبيقات والبيهقي.

(2) أخرجه البيهقي وابن عساكر.

(3) رواه الهيثمي في مجمع الزوائد، ج9، ص 343.

وخلاصة القول: أن خاتم النبوة شامة ناتئة، كانت كقطعة لحم بين كتفيه ﷺ، بقدر بيضة الحمامة، وعليها شعرات مجتمعات.

صفة إبطيه ﷺ:

كان ﷺ أبيض الإبطين، وبياض الإبطين من علامة نبوته ﷺ؛ إذ إن الإبط من جميع الناس يكون - عادة - متغير اللون.

وقد روى البخاري بسنده، عن عبد الله بن مالك رَضِيَ اللَّهُ عَنْهُ، قال: كان النبي ﷺ إذا سجد فرج بين يديه (أي باعد)، حتى نرى بياض إبطيه.

وقال جابر بن عبد الله رَضِيَ اللَّهُ عَنْهُمَا: كان رسول الله ﷺ إذا سجد جافى حتى يُرى بياض إبطيه [1].

صدره وبطنه ﷺ:

كان ﷺ عريض الصدر ذا مسربة، وهي الشعر الدقيق من الصدر إلى السرة كالقضيب، أشعر المنكبين والذراعين وأعالي الصدر، سواء البطن والصدر (أي ليس له بطن ضخم بارز) قالت أم معبد: رَضِيَ اللَّهُ عَنْهَا في وصفه ﷺ: لم تعبه ثُلجة[2]، والثلجة كبر البطن.

وكان ﷺ عاري الثديين والبطن، أي لم يكن عليها شعر كثير.

قال هند بن أبي هالة رَضِيَ اللَّهُ عَنْهُ: كان رسول الله ﷺ دقيق المسربة (خط الشعر من الصدر إلى السرة)، موصول ما بين اللبة والمنحر، وهو النقرة التي فوق الصدر والسرة بشعر يجري كالخط، عاري الثديين والبطن مما سوى ذلك[3].

---

(1) أخرجه أحمد (13846)، وقال الهيثمي في المجمع: رجال أحمد رجال الصحيح.

(2) ابن هشام (1/ 401، 402).

(3) أخرجه الطبراني في المعجم الكبير، والترمذي في الشمائل، وابن سعد في الطبقات، والبغوي في شرح السنة.

ذراعاه وكفاه وأصابعه ﷺ:

كان ﷺ عَبْل (ضخم) العضدين والذراعين والأسافل، رحب (واسع) الكفين والقدمين، سائل (طويلًا طولًا معتدلًا) الأطراف[1].

أي أنه ﷺ كان طويل الذراعين، ضخم الكفين، فكانت كفه ﷺ ممتلئة لحمًا، ناعمة لينة رغم ضخامتها، وقد قال أنس رَضِيَ اللَّهُ عَنْهُ: ما مسست حريرًا ولا ديباجًا ألين من كف النبي ﷺ[2].

وقال أبو جحيفة رَضِيَ اللَّهُ عَنْهُ: أخذت بيده فوضعتها على وجهي، فإذا هي أبرد من الثلج، وأطيب رائحة من المسك[3].

وقال جابر بن سمرة رَضِيَ اللَّهُ عَنْهُ - وكان صبيًّا: مسح خدي، فوجدت ليده بردًا أو ريحًا، كأنما أخرجه من جونة عطار (التي يعد فيه الطيب)[4].

وأما ما ورد في روايات أخرى عن خشونة كفيه وغلاظتها، فهو محمول على ما إذا عمل في الجهاد أو مهنة أهله، فإن كفيه الشريفة تصير خشنة؛ للعارض المذكور (أي العمل)، وإذا ترك رجعت إلى النعومة.

أما أصابعه الشريفة فكانت طويلة انسيابية، كما وصفها هند بن أبي هالة رَضِيَ اللَّهُ عَنْهُ، قال: كان رسول الله ﷺ سائل الأطراف (أي أن أصابعه طويلة ليست بمنعقدة)[5].

صفة مفاصله وركبتيه وساقيه وقدميه ﷺ:

كان ﷺ ضخم الكراديس (المفاصل كالركبتين والمرفقين والمنكبين). وكل ذلك من دلائل قوته ﷺ.

---

(1) انظر: السيرة لأبي شهبة (2/609).

(2) البخاري (1/503)، ومسلم (2/257)

(3) البخاري (1/502).

(4) مسلم (2/256).

(5) تقدم تخريجه.

وكان أبيض الساقين، كما روى البخاري عن أبي جحيفة رَضِيَ اللَّهُ عَنْهُ، فقال: وخرج رسول الله ﷺ كأني أنظر إلى بيض ساقيه.

وفي وصف هند بن أبي هالة رَضِيَ اللَّهُ عَنْهُ لرسول الله ﷺ، قال: كان النبي ﷺ خمصان الأخمصين (أي أن الجزء من القدم ما بين صدرها وعقبها مرتفع لا يلتصق بالأرض)، مسيح القدمين (ملساوين)، ينبو عنهما الماء (يعني أنه لا ثبات للماء عليهما؛ لكونهما ملساوين)، ششن الكفين والقدمين (أي غليظ الأصابع والراحة)[1].

صفة عرقه ﷺ وطيب ريحه:

هذا إلى نظافة جسمه، وطيب ريحه وعرقه، ونزاهته عن الأقذار، والروائح الكريهة، وقد خصه الله بذلك، ثم تممها وزادها بنظافة الشرع، وخصال الفطرة، والمداومة على التطيب والتطهر، ومجانبة الأطعمة الكريهة الرائحة.

عن أنس رَضِيَ اللَّهُ عَنْهُ، قال: «ما شممت عنبرًا قط، ولا مسكًا، ولا شيئًا أطيب من ريح رسول الله ﷺ، ولا مسست شيئًا قط ديباجًا ولا حريرًا، ألين مسًّا من رسول الله ﷺ»[2]. وعن جابر بن سمرة: أنه ﷺ مسح خده، قال: فوجدت ليده بردًا وريحًا كأنما أخرجها من جونة[3] عطار.

وكانت تلك رائحته، سواء مس طيبًا أو لم يمس، وكان يصافح المصافح، فيظل يومه يجد ريحها، ويضع يده على رأس الصبي، فيعرف من بين الصبيان بريحها، وكان إذا مر في طريق يعرف أنه سلكه؛ مما يخلفه فيه من طيبه. وثبت في صحيح مسلم أنه نام في دار أنس فعرق، فجاءت أمه بقارورة، فجمعت فيها عرقه، فسألها رسول الله ﷺ عن ذلك،

---

(1) رواه الترمذي في الشمائل والطبراني.

(2) رواه مسلم (6006) وغيره.

(3) الوعاء الذي يضع العطَّار فيه متاعه.

فقالت: نجعله في طيبنا، وهو من أطيب الطيب. وفي رواية أخرى لمسلم: فقالت: يا رسول الله، نرجو بركته لصبياننا، قال: أصبت [1].

فصاحة لسانه ﷺ:

وكان ﷺ فصيح اللسان، قوي العارضة، يفصِّل الكلام تفصيلًا، مع سلاسة طبع، ونصاعة لفظ، وقلة تكلف، وجزالة معنى، وليس هذا بعجيب ممن كان في الذؤابة من قريش، واستُرضع في بني سعد، ونشأ بمكة، وأنزل عليه القرآن بلسان عربي، بلغ أعلى درجات الفصاحة والبلاغة.

وكان مما آتاه الله، العلم بلغات العرب ولهجاتها، فكان يخاطب كل قوم بلغتهم؛ مما كان يدهشهم ويدهش الحاضرين من الصحابة، حتى قالوا له: ما رأينا الذي هو أفصح منك، فقال: «وما يمنعني، وإنما أنزل القرآن بلسان عربي مبين». وقال مرة أخرى: أنا أفصح العرب، بيد أني من قريش، ونشأت في بني سعد[2].

فجمع الله له بذلك قوة عارضة البادية وجزالتها، ورقة ألفاظ الحاضرة ورونقها، إلى المدد الإلهي بالوحي المتتابع، ولاسيما وحي القرآن الذي لا يحيط بعلمه وأسراره إنسي ولا جني، فلا عجب إذا قال: «أوتيت جوامع الكلم، واختصر لي الكلام اختصارًا» [3].

المبحث الثاني: محمد ﷺ المثل الكامل

إن رسول الله ﷺ كان المثل الكامل في كل فضيلة من الفضائل أو خلق من الأخلاق، بحيث إذا ما درست واحدة من هذه الفضائل أو الأخلاق، أدركت أن صاحبها ﷺ رسول حقًّا، وأنه قد حاز الكمال فيها بما لا يستطيعه بشر غيره.

---

(1) انظر: السيرة لأبي شهبة، ص 611-612.

(2) ذكره القاضي عياض في الشفاء وروى نحوه الطبراني وابن سعد.

(3) انظر السيرة لأبي شهبه، ج2، ص 612-613.

وإذا كان الناس يتفاضلون ويتمايزون بقدر ما يكون عندهم من الفضائل والأخلاق الكريمة، وأن بعضهم يختص بفضائل لا يختص بها غيره، وتنقص عنده فضائل يمتاز بها غيره، فتقوى بعض الصفات عند بعضهم حتى تصير كأنها خصوصية، ويكون لهم فيما عداها من الصفات حظ، ولكن ليس بعلو ما امتازوا به، فالناس طبائع ومعادن، وفطرتهم ليست واحدة .. إلا أن الفضائل كلها كانت أوفى وأكمل ما تكون في محمد ﷺ؛ فقد فطره ربه على أجمل الصفات وخير الخلال وأعظم الأخلاق، حتى صارت بالغة الكمال؛ ليكون القدوة العليا للبشر في كل جانب من جوانب الحياة؛ لأنه كان في كل جانب في الذروة العليا من الكمال: ﴿ لَّقَدْ كَانَ لَكُمْ فِي رَسُولِ ٱللَّهِ أُسْوَةٌ حَسَنَةٌ لِّمَن كَانَ يَرْجُوا۟ ٱللَّهَ وَٱلْيَوْمَ ٱلْءَاخِرَ ﴾ [الأحزاب:21].

قال الشيخ سعيد حوى رَحِمَهُ ٱللَّهُ: إن أبرز سمة في شخصية الرسول ﷺ المتعددة الجوانب، أخلاقياته التي لا مثيل لها. فلو جمعت كل خلق عظيم في البشر، وكل تصرف أخلاقي سليم تصرفه في يوم من الأيام إنسان، فإن ما تجده في حياة رسول الله ﷺ يربو على هذا كله مجتمعًا، مع انعدام التصرفات غير الأخلاقية في حياته ﷺ، مما لا تستطيع معه أن تجد في حياته كلها تصرفًا، يمكن أن ترى أعظم منه.

بل إنه ﷺ كان منفردًا عن إخوانه من الرسل والأنبياء بميزات، إن شاركوه في بعضها، فلم يشاركوه في الكل؛ فشخصية الرسول ﷺ تمثلت فيها كل جوانب الحياة، وما كل رسول كان له مثل هذا، فالرسول ﷺ كان أبًا، وما كل رسول كان أبًا، وكان زوجًا، وما كل رسول تزوج، وكان رئيس دولة ومؤسسها، وما كل رسول أقام دولة، وكان القائد الأعلى لجيش الإسلام والمحارب الفذ، وما كل رسول حارب، وبُعث للإنسانية عامة، فشرع لها بأمر الله ما يلزمها في كل جوانب حياتها العقدية والعبادية والاقتصادية والاجتماعية والأخلاقية والسياسية، ولم يبعث رسول قط إلى الإنسانية عامة غيره، وكان المستشار والقاضي والمربي والمعلم والمهذب والعابد والزاهد والصابر

والرحيم ... إلى آخر صفاته ﷺ التي استوعبت كل جوانب الحياة، فكان بذلك بين الرسل الرسول المفرد العلم الممتاز: ﴿ ۞ تِلْكَ ٱلرُّسُلُ فَضَّلْنَا بَعْضَهُمْ عَلَىٰ بَعْضٍ ﴾[البقرة].

وإنما كان ذلك لأن الله – جلت حكمته – جعل الإسلام المُنزَّل على محمد ﷺ نظامًا شاملًا لجوانب حياة البشر كلها، وجعل حياة رسوله نموذجًا لدينه كله في كل جوانبه؛ حتى تقوم الحجة على الناس مرتين؛ مرة بالبيان النظري، ومرة بالبيان العملي، وشيء آخر، هو أن البشر فيهم الأب والابن والزوج، وفيهم السياسي والاقتصادي ورجل الشورى، وفيهم المحارب والمسالم، وفيهم المبتلى والمعافى، وفيهم الراعي والرعية، وفيهم العامل والتاجر، فالحياة البشرية متعددة الجوانب، وكل إنسان يعيش حياة تختلف في بعض جوانبها أو تتفق مع الآخرين، وقد فرض الله على البشر – على اختلاف مستوياتهم – أن يكون الرسول قدوتهم في كل شيء، فما لم تكن شخصية الرسول متعددة الجوانب والمـواقف

هذا التعدد، لا يكون قدوة لكل البشر في كل شيء(1).

بعض من صفاته ﷺ:

لأن معرفة حقيقة ما كان عليه رسول الله ﷺ من كمال الصفات وعظيم الخلق، غاية لا تدرك في فصل من كتاب، في مصنف كهذا المصنف، الذي يتناول سيرته العطرة بإجمالها وعمومها؛ لذا فقد اخترنا أن تكون إطلالتنا على مكارم أخلاقه ﷺ إطلالة عامة، تترك للراغب في الاستزادة الرجوع إلى كتب الشمائل، التي حاولت أن تجمع جانبًا كبيرًا من مظاهر كماله وعظيم صفاته، وأن تستقصي كل ما ينبغي معرفته عن خصال النبي ﷺ وأحواله، فجمعت مادة غزيرة بهذا الشأن، وإن كنا نوقن أن كل ذلك نقطة من بحر؛ فمن ذا الذي يدعي أنه أدرك كنهه ﷺ، وسبر غوره ووصل إلى حقيقة ما كان عليه من كمال، تمثل كل خصلة حميدة ذكرت في كتاب الله حتى صار خلقه القرآن؟!

---

(1) انظر: الرسول لسعيد حوى، ص 123-126 مختصرًا.

ولنبدأ بهند بن أبي هالة رَضِيَ اللَّهُ عَنْهُ، وهو يصف لنا الحبيب ﷺ، فيقول فيما قال: «كان رسول الله ﷺ متواصل الأحزان، دائم الفكرة، ليست له راحة، طويل السكت، لا يتكلم في غير حاجة، يفتتح الكلام ويختمه باسم الله تعالى، ويتكلم بجوامع الكلم، كلامه فصل، لا فضول، ولا تقصير، ليس بالجافي، ولا المهين، يُعظم النعمة وإن دقت، لا يذم منها شيئًا، غير أنه لم يكن يذم ذواقًا - ما يطعم - ولا يمدحه، ولا تغضبه الدنيا، ولا ما كان لها، فإذا تُعدي الحق، لم يقم لغضبه شيء، حتى ينتصر له، ولا يغضب لنفسه، ولا ينتصر لها - سماحة - وإذا أشار أشار بكفه كلها، وإذا تعجب قلبها، وإذا تحدث اتصل بها، وضرب براحته اليمنى بطن إبهامه اليسرى، وإذا غضب أعرض وأشاح، وإذا فرح غض طرفه، جُل ضحكه التبسم، ويفتر عن مثل حب الغمام.

وكان يخزن لسانه إلا عما يعنيه، يؤلف أصحابه ولا يفرقهم، يكرم كريم كل قوم، ويوليه عليهم، ويحذر الناس، ويحترس منهم من غير أن يطوي عن أحد منهم بِشْره.

يتفقد أصحابه، ويسأل الناس عما في الناس، ويُحَسِّن الحسن ويصوبه، ويقبح القبيح ويوهنه، معتدل الأمر، غير مختلف، لا يغفل مخافة أن يغفلوا أو يملوا، لكل حال عنده عتاد، لا يقصر عن الحق، ولا يجاوزه إلى غيره ... الذين يلونه من الناس خيارهم، وأفضلهم عنده أعمهم نصيحة، وأعظمهم عنده منزلة أحسنهم مواساة ومؤازرة.

كان لا يجلس ولا يقوم إلا على ذكر، ولا يوطن الأماكن - لا يميز لنفسه مكانًا، إذا انتهى إلى القوم جلس حيث ينتهي به المجلس، ويأمر بذلك، ويعطي كل جلسائه نصيبه؛ حتى لا يحسب جليسه أن أحدًا أكرم عليه منه، من جالسه أو قاومه لحاجته صابره حتى يكون هو المنصرف عنه، ومن سأله حاجة لم يرده إلا بها، أو بميسور من القول، وقد وسع الناس بسطه وخلقه، فصار لهم أبًا، وصاروا عنده في الحق متقاربين، يتفاضلون عنده بالتقوى، مجلسه مجلس حلم وحياء وصبر وأمانة، لا ترفع فيه الأصوات، ولا تؤبن فيه الحرم - لا تخشى فلتاته - يتعاطفون بالتقوى، يوقرون الكبير، ويرحمون الصغير، ويرفدون ذا الحاجة، ويؤنسون الغريب.

كان دائم البِشر، سهل الخلق، لين الجانب، ليس بفظ، ولا غليظ، ولا صخاب، ولا فحاش، ولا عتاب، ولا مداح، يتغافل عما لا يشتهي، ولا يقنط منه. قد ترك نفسه من ثلاث: الرياء، والإكثار، وما لا يعنيه، وترك الناس من ثلاث: لا يذم أحدًا، ولا يعيره، ولا يطلب عورته، ولا يتكلم إلا فيما يرجو ثوابه، إذا تكلم أطرق جلساؤه، كأنما على رءوسهم الطير، وإذا سكت تكلموا. لا يتنازعون عنده الحديث، من تكلم عنده أنصتوا له حتى يفرغ، حديثهم حديث أولهم، يضحك مما يضحكون منه، ويعجب مما يعجبون منه، ويصبر للغريب على الجفوة في المنطق، يقول: إذا رأيتم صاحب الحاجة يطلبها فأرفدوه، ولا يطلب الثناء إلا من مكافئ»[1].

هذا الوصف الرائع للحبيب ﷺ، يضاف إليه أنه ﷺ كان لا يغضب لنفسه ولا ينتقم لها، وإنما يغضب إذا انتُهكت حرمات الله، فلا يقوم لغضبه شيء حتى ينتصر للحق، وكان أكثر الناس تواضعًا، يقضي حاجة أهله، ويخفض جناحه للضعفة، وكان من أشد الناس حياء، وما عاب طعامًا قط، وإن اشتهاه أكله وإلا تركه، وكان يخصف النعل، ويرقع الثوب، ويعود المريض، ويجيب من دعاه من غني وفقير، وكان متقللًا من أمتعة الدنيا كلها، وقد أعطاه الله تعالى مفاتيح خزائن الأرض كلها، فأبى أن يأخذها، واختار الآخرة عليها[2].

وكان الحلم والاحتمال والعفو عند المقدرة، والصبر على المكاره، صفات أدبه الله بها، وكل حليم قد عُرفت منه زلة، وحفظت عنه هفوة، ولكنه ﷺ لم يزد مع كثرة الأذى إلا صبرًا، وعلى إسراف الجاهل إلا حلمًا. قالت عائشة: ما خُير رسول الله ﷺ بين أمرين إلا اختار أيسرهما، ما لم يكن إثمًا، فإن كان إثمًا كان أبعد الناس عنه، وما انتقم لنفسه إلا أن تنتهك حرمة الله، فينتقم لله بها[3]، وكان أبعد الناس غضبًا وأسرعهم رضًا.

---

(1) انظر الشفا للقاضي عياض (14/121-126)، والرحيق المختوم، ص 486-487.

(2) انظر فقه السيرة للبوطي، ص 560.

(3) البخاري (1/503).

وكان من صفة الجود والكرم على ما لا يقادر قدره، كان يعطي عطاء من لا يخاف الفقر، قال ابن عباس: كان النبي ﷺ أجود الناس، وأجود ما يكون في رمضان حين يلقاه جبريل، وكان جبريل يلقاه في كل ليلة من رمضان، فيدارسه القرآن، فكان رسول الله ﷺ أجود بالخير من الريح المرسلة[1]، وقال جابر: ما سئل شيئًا قط فقال: لا [2].

وكان من الشجاعة والنجدة والبأس بالمكان الذي لا يُجهل، كان أشجع الناس، حضر المواقف الصعبة، وفر عنه الكماة (أي الشجعان) والأبطال غير مرة، وهو ثابت لا يبرح، ومقبل لا يدبر، ولا يتزحزح، وما شجاع إلا وقد أحصيت له فرة (أي موقف جَبُن فيه)، وحُفظت عنه جولة سواه ﷺ، قال عليّ: كنا إذا حمي البأس واحمرت الحدق (الحدق: العيون؛ كناية عن شدة الخوف) اتقينا برسول الله ﷺ، فما يكون أحد أقرب إلى العدو منه[3]. قال أنس: فزع أهل المدينة ذات ليلة، فانطلق ناس قِبَل الصوت، فتلقاهم رسول الله ﷺ راجعًا وقد سبقهم إلى الصوت، وهو على فرس لأبي طلحة عري، في عنقه السيف، وهو يقول: لم تراعوا، لم تراعوا[4] [5].

فهذه صورة موجزة، تحدد بعض شمائل الحبيب ﷺ، ولا يزال ثَمَّ صفات ومكارم وفضائل كثيرة، لم نلسمها من قريب أو بعيد، وقصارى القول إن محمدًا ﷺ كان قرآنًا في فرد، جمع الله له كل ما ذكره في كتابه من الفضائل والصفات المحمودة، فيما لم يجمعه في أحد من ولد آدم حتى الأنبياء والمرسلين، حتى يرث سبحانه الأرض ومن عليها، فكان فريدًا في البشرية كلها، وكان بحق (المثل الكامل).

---

(1) البخاري (1/502).

(2) البخاري (1/502).

(3) مسلم (2/252)، والبخاري (1/407).

(4) صحيح مسلم (2/252)، وصحيح البخاري (1/407).

(5) انظر: الرحيق المختوم ص 484-485.

ولله در شوقي حين قال:

يا من له الأخلاق ما تهوى العُلا … منها وما يتعشَّق الكُبَراء

لو لم تُقَم دينًا لقامت وحدها … دينًا يضيء بنوره الآناء

زانتك في الخُلُق العظيم شمائلٌ … يغرَى بهن ويُولَعُ الكرماء

وإذا سخوتَ بلغت بالجود المدى … وفعلت ما لا تفعل الأنواء

وإذا عفوتَ فقادرًا ومقدرًا … لا يستهين بعفوك الجهلاء

وإذا رحمت فأنت أم أو أب … هذان في الدنيا هما الرحماء

وإذا غضبت فإنما هي غَضبة … في الحق لا ضَغْنٌ ولا بغضاء

وإذا رضيتَ ففي مرضاته … ورضى الكثيرِ تَحلُّمٌ ورِياء

وإذا خطبتَ فللمنابر هزة … تعرو النَّدِيَّ وللقلوبِ بُكاء

وإذا قضيتَ فلا ارتياب كأنما … جاء الخصومَ من السماء قضاءُ

وإذا أخذتَ العهد أو أعطيتَه … فجميعُ عهدِك ذِمَّة ووفاء

بك يا ابْنَ عبد الله قامت سمحةٌ … بالحق من ملل الهُدى غرَّاء

بُنِيتْ على التوحيد وهي حقيقة … نادى بها (الحكماء والعقلاء)

الله فوق الخلقِ فيها وحدَه … والناسُ تحت لوائها أكفاء

والدين يُسرٌ والخلافة بيعة … والأمرُ شورى والحقوقُ قضاءُ

أنصفت أهل الفقر من أهلِ الغنى … فالكلُّ في حقِّ الحياة سواء

ظلموا شريعتك التي نِلنا بها … ما لم يَنَلْ في رُومة الفقهاء

صلى عليك الله ما صَحِب الدُّجى ... حادٍ وحنَّتْ بالفلا وجناء[1]

المبحث الثالث: أسماء النبي ﷺ

بقدر شرف الذات وسموها وكمالها، تكثر أسماؤها وصفاتها، حتى تجلى عن الحصر، فإن لله تعالى مائة اسم إلا اسمًا، وقد ذكرت في القرآن متفرقة، وذكرت في السنة مجملة.

وأما الحبيب ﷺ فإن له خمسة أسماء، وليس هذا لغيره من سائر إخوانه الأنبياء، فضلًا عمن دونهم[2]، وقد جاء ذكر أسمائه الخمسة في قوله ﷺ: «لي خمسة أسماء: أنا محمد، وأنا أحمد، وأنا الماحي الذي يمحو الله بي الكفر، وأنا الحاشر الذي يُحشر الناس على قدمي، وأنا العاقب الذي ليس بعده نبي»[3].

وأما صفاته ﷺ - مثل نبي الرحمة، ونبي اللحمة، ونبي التوبة - فهي كثيرة جدًّا ولا مجال لذكرها.

***

(1) الشمائل المحمدية، لشوقي، ص 125.

(2) الجزائري: هذا الحبيب يا محب، ص 482.

(3) البخاري (3456)؛ ومسلم (6058).

الفصل الثالث

الخصائص المحمدية

لقد خص الله ﷻ نبينا محمدًا ﷺ بخصائص دون غيره من الأنبياء، ودون غيره من أمته، فله ﷺ خصائص لذاته في الدنيا، وخصائص لذاته في الآخرة، وخص الله عز وجل أمته - بسببه ﷺ - بخصائص في الدنيا والآخرة، بما نوضح بعضه - في إيجاز - في هذا الباب؛ لأن معرفة هذه الخصائص تزيدنا إدراكًا لمنزلة الحبيب ﷺ وقدره، وتزيدنا له تبجيلًا وتوقيرًا وشوقًا وحبًّا .. وكل ذلك من كمال الإيمان.

المبحث الأول: خصائصه ﷺ في الدنيا

اختص الله تعالى رسوله ﷺ في الدنيا بخصائص لم يجعلها لبشر غيره، ففضله بها على الناس أجمعين، وعلى إخوانه من الأنبياء والمرسلين، **ومن هذه الخصائص**(1):

1- من خصائصه ﷺ أن رسالته عامة لجميع البشر؛ فقد كان الأنبياء والرسل يبعثون إلى أقوامهم خاصة، كلُّ نبي إلى قومه خاصة، كما قال تعالى: ﴿إِنَّآ أَرْسَلْنَا نُوحًا إِلَىٰ قَوْمِهِۦٓ﴾ [نوح:1] .. ﴿۞ وَإِلَىٰ عَادٍ أَخَاهُمْ هُودًا﴾ [الأعراف:65] ﴿وَإِلَىٰ ثَمُودَ أَخَاهُمْ صَٰلِحًا﴾ [الأعراف:73] ﴿وَلُوطًا إِذْ قَالَ لِقَوْمِهِۦٓ﴾ [الأعراف:80] ﴿وَإِلَىٰ مَدْيَنَ أَخَاهُمْ شُعَيْبًا﴾ [الأعراف:85].

وأما محمد ﷺ فقد قال الله تعالى في شأنه: ﴿وَمَآ أَرْسَلْنَٰكَ إِلَّا مُبَشِّرًا وَنَذِيرًا ﴿٥٦﴾﴾ [الفرقان] .. ﴿قُلْ يَٰٓأَيُّهَا ٱلنَّاسُ إِنِّى رَسُولُ ٱللَّهِ إِلَيْكُمْ جَمِيعًا﴾ [الأعراف:158].

قال العز بن عبد السلام رَحِمَهُ ٱللَّهُ: ومن خصائصه ﷺ أن الله تعالى أرسل كل نبي إلى قومه خاصة، وأرسل نبينا محمد ﷺ إلى الجن والإنس، ولكل نبي من الأنبياء ثواب

(1) جمعت هذه الخصائص من كتاب منية السول في تفضل الرسول ﷺ للشيخ عز الدين بن عبد السلام، تحقيق: الشيخ ماجد المبارك، والشيخ محمد المنجد.

تبليغه إلى أمته، ولنبينا ﷺ ثواب التبليغ إلى كل من أرسل إليه، فإذًا النبي ﷺ له أجر كل الإنس الذين اتبعوه، وله أجر كل الجن الذين اتبعوه إلى قيام الساعة؛ ولذلك فهو أكثر الأنبياء أجرًا، ولا يوجد لواحد من الأنبياء أتباع مثل أتباع نبينا ﷺ؛ فهو أكثر الأنبياء أتباعًا على الإطلاق.

2- ومن خصائصه ﷺ أن الله ختم به الأنبياء والمرسلين، فلا نبي بعده، فهو آخر نبي، ومن ادعى الرسالة من بعده فهو كذاب أفاك: ﴿مَّا كَانَ مُحَمَّدٌ أَبَآ أَحَدٍ مِّن رِّجَالِكُمْ وَلَٰكِن رَّسُولَ ٱللَّهِ وَخَاتَمَ ٱلنَّبِيِّـۧنَ﴾ [الأحزاب:40].

3- وأن الله ﷻ قد أخذ العهد والميثاق على جميع الأنبياء والمرسلين، من لدن آدم عَلَيْهِ ٱلسَّلَامُ إلى عيسى عَلَيْهِ ٱلسَّلَامُ، أنه إذا ظهر النبي ﷺ في عهده وبُعث، أنه سيؤمن به ويتبعه، ولا تمنعه نبوته من أن يتابع نبينا محمدًا ﷺ، وكل نبي أخذ العهد والميثاق على أمته، أنه لو بعث محمد بن عبد الله فيهم أن يتابعوه - عليه الصلاة والسلام، لا يتبعون نبيهم، بل يتبعون محمدًا ﷺ إذا ظهر فيهم، والدليل على ذلك قوله تعالى: ﴿وَإِذْ أَخَذَ ٱللَّهُ مِيثَٰقَ ٱلنَّبِيِّـۧنَ لَمَآ ءَاتَيْتُكُم مِّن كِتَٰبٍ وَحِكْمَةٍ ثُمَّ جَآءَكُمْ رَسُولٌ مُّصَدِّقٌ لِّمَا مَعَكُمْ لَتُؤْمِنُنَّ بِهِۦ وَلَتَنصُرُنَّهُۥ ۚ قَالَ ءَأَقْرَرْتُمْ وَأَخَذْتُمْ عَلَىٰ ذَٰلِكُمْ إِصْرِى ۖ قَالُوٓا۟ أَقْرَرْنَا ۚ قَالَ فَٱشْهَدُوا۟ وَأَنَا۠ مَعَكُم مِّنَ ٱلشَّٰهِدِينَ ﴿٨١﴾﴾ [آل عمران].

4- وأنه ساد الكل، قال ﷺ: «أنا سيد ولد آدم ولا فخر». والسيد من اتصف بالصفات العلية، والأخلاق السنيّة، وهذا مشعر بأنه أفضل منهم في الدارين؛ أما في الدنيا فلما اتصف به من الأخلاق العظيمة، وأما في الآخرة فلأن الجزاء مرتب على الأخلاق والأوصاف، فإذا كان أفضلهم في الدنيا في المناقب والصفات، كان أفضلهم في الآخرة في المراتب والدرجات، وإنما قال ﷺ: «أنا سيد ولد آدم ولا فخر»؛ ليخبر أمته عن منزلته من ربه عز وجل، ولما كان ذكر مناقب النفس إنما تذكر افتخارًا - في الغالب - أراد ﷺ أن يقطع وهم من توهم من الجهلة أن يذكر ذلك افتخارًا، قال: «ولا فخر».

5- ومنها أن الله تعالى أخبره بأنه غفر له ما تقدم من ذنبه وما تأخر، قال الله تعالى: ﴿إِنَّا فَتَحْنَا لَكَ فَتْحًا مُّبِينًا ۝١ لِّيَغْفِرَ لَكَ ٱللَّهُ مَا تَقَدَّمَ مِن ذَنۢبِكَ﴾ [الفتح]، ولم ينقل أنه أخبر أحدًا من الأنبياء بمثل ذلك، بل الظاهر أنه لم يخبرهم؛ لأن كل واحد منهم إذا طلبت منه الشفاعة في الموقف، ذكر خطيئته التي أصابها، وقال: «نفسي نفسي»، ولو علم كل واحد منهم بغفران خطيئته، لم يوجل منها في ذلك المقام، وإذا استشفعت الخلائق بالنبي ﷺ في ذلك المقام قال: «أنا لها».

6- ومنها أن الله تعالى أقسم بحياته ﷺ، فقال: ﴿لَعَمْرُكَ إِنَّهُمْ لَفِى سَكْرَتِهِمْ يَعْمَهُونَ ۝٧٢﴾ [الحِجر]، والإقسام بحياة المقسم بحياته، يدل على شرف حياته وعزتها عند المقسم بها، وأن حياته ﷺ لجديرة أن يقسم بها من البركة العامة والخاصة، ولم يثبت هذا لغيره ﷺ.

7- ومنها أن الله تعالى وقره في ندائه، فناداه بأحب أسمائه وأسنى أوصافه، فقال: ﴿يَٰٓأَيُّهَا ٱلنَّبِىُّ﴾، وفي مواضع أخرى: ﴿يَٰٓأَيُّهَا ٱلرَّسُولُ﴾، وهذه الخصيصة لم تثبت لغيره؛ بل ثبت أن كلًّا منهم نودي باسمه، فقال تعالى: ﴿يَٰٓـَٔادَمُ ٱسْكُنْ﴾، ﴿يَٰعِيسَى ٱبْنَ مَرْيَمَ ٱذْكُرْ نِعْمَتِى عَلَيْكَ﴾، ﴿يَٰمُوسَىٰٓ إِنِّىٓ أَنَا ٱللَّهُ﴾، ﴿يَٰنُوحُ ٱهْبِطْ بِسَلَٰمٍ﴾، ﴿يَٰدَاوُۥدُ إِنَّا جَعَلْنَٰكَ خَلِيفَةً فِى ٱلْأَرْضِ﴾، ﴿وَنَٰدَيْنَٰهُ أَن يَٰٓإِبْرَٰهِيمُ ۝١٠٤ قَدْ صَدَّقْتَ ٱلرُّءْيَآ﴾، ﴿يَٰلُوطُ إِنَّا رُسُلُ رَبِّكَ﴾، ﴿يَٰزَكَرِيَّآ إِنَّا نُبَشِّرُكَ بِغُلَٰمٍ﴾، ﴿يَٰيَحْيَىٰ خُذِ ٱلْكِتَٰبَ بِقُوَّةٍ﴾ ولا يخفى على أحد أن السيد إذا دعا أحد عبيده بأفضل ما وجد به من الأوصاف العلية والأخلاق السنية، ودعا الآخرين بأسمائهم الأعلام، لا يُشعر بوصف من الأوصاف، ولا بخلق من الأخلاق، أن منزلة من دعاه بأفضل الأسماء والأوصاف، أعز عليه وأقرب إليه ممن دعاه باسمه العلم، وهذا معلوم بالعرف.

8- ومنها أن معجزة كل نبي تصرمت وانقرضت، ومعجزة سيد الأولين والآخرين - وهي القرآن العظيم - باقية إلى يوم الدين.

9- ومنها أنه وجد في معجزاته ما هو أظهر في الإعجاز من معجزات غيره؛ كتفجير الماء من بين أصابعه؛ فإنه أبلغ - في خرق العادة - من تفجيره من الحجر؛ لأن جنس

الأحجار مما يتفجر منه الماء، وكانت معجزته بانفجار الماء من بين أصابعه أبلغ من انفجار الحجر لموسى عَلَيْهِ السَّلَامُ.

10- ومنها أنه أُحلت له الغنائم، ولم تُحل لأحد قبله، وجعلت صفوف أمته كصفوف الملائكة، وجُعلت له الأرض مسجدًا، وترابها طهورًا، وهذه الخصائص تدل على علو مرتبته، والرفق بأمته.

11- ومنها أن الله تعالى أثنى على خُلقه، فقال: ﴿وَإِنَّكَ لَعَلَىٰ خُلُقٍ عَظِيمٍ ۝٤﴾ [القلم] واستعظام العظماء للشيء يدل على إيغاله في العظمة، فما الظن باستعظام أعظم العظماء؟!

12- ومنها أن الله تعالى كلمه بأنواع الوحي، وهي ثلاثة؛ أحدها: الرؤيا الصادقة، والثاني: الكلام من غير واسطة، والثالث: مع جبريل. وزاد الألباني النفث في الروع.

13- ومنها أن كتابه ﷺ مشتمل على ما اشتمل عليه التوراة والإنجيل والزبور، وفُضل بالمفصل.

14- ومنها أن الله عز وجل عرض عليه مفاتيح كنوز الأرض، وخيَّره أن يكون ملكًا أو نبيًّا عبدًا، فاستشار جبريل عَلَيْهِ السَّلَامُ، فأشار إليه أن تواضع.

15- ومثلها حفظ كتابه، فلو اجتمع الأولون والآخرون على أن يزيدوا فيه كلمة أو ينقصوا منه، لعجزوا عن ذلك، ولا يخفى ما وقع من التبديل في التوراة والإنجيل.

16- ومنها أنه بُعث بجوامع الكلم، واختصر له الحديث اختصارًا، وفاق العرب في فصاحته وبلاغته، كما قال ﷺ: «أُعطيت فواتح الكلم، وجوامعه وخواتمه».

17- ومن خصائصه ﷺ أنه نُصر بالرعب وهو الفزع والخوف، يلقيه الله في قلوب أعدائه وهو متجه إليهم لحربهم، أو حتى ينوي أن يتوجه إليهم، فيخافون وهو على بعد شهر، فيلقي الله الرعب في قلوبهم، فلا يملكون لأنفسهم استعدادًا أو منعة، وإنما تنحل عزائمهم، وينفرط عقدهم، ويخافون غاية الخوف .. وقد قال ﷺ: «أُعطيت خمسًا لم يعطهن أحد قبلي: نُصرت بالرعب مسيرة شهر» ... الحديث.

18- ومن خصائص نبينا ﷺ الإسراء والمعراج، وتحضير الأنبياء له في السماوات يستقبلونه، وأنه ﷺ أمهم جميعًا فكانوا وراءه، وأن الله تعالى كلم موسى عَلَيْهِ ٱلسَّلَامُ بالطور بالوادي المقدس، وكلم محمدًا ﷺ عند سدرة المنتهى في السماوات العلا.

المبحث الثاني: خصائصه ﷺ في الآخرة

وقد اختص الله تعالى رسول الله ﷺ بخصائص في الآخرة، لم يجعلها لغيره، ومن هذه الخصائص:

1- أن له ﷺ الوسيلة والفضيلة، والوسيلة - على الراجح - هي منزلة النبي ﷺ في الجنة، وهي أعلى الجنة، وهي أقرب أمكنة الجنة إلى العرش، وهي درجة لا ينالها إلا واحد، هو النبي ﷺ، لا يشاركه فيها غيره.

وقد روى مسلم في صحيحه، أن رسول الله ﷺ قال: «... ثم سلوا الله لي الوسيلة؛ فإنها منزلة في الجنة، لا تنبغي إلا لعبد من عباد الله، وأرجو أن أكون أنا هو، فمن سأل لي الوسيلة حلت له الشفاعة»[1].

وفي رواية للإمام أحمد، أن رسول الله ﷺ قال: «الوسيلة درجة عند الله، ليس فوقها درجة، فسلوا الله أن يؤتيني الوسيلة»[2].

2- والنبي ﷺ هو صاحب المقام المحمود، قال تعالى: ﴿ وَمِنَ ٱلَّيْلِ فَتَهَجَّدْ بِهِۦ نَافِلَةً لَّكَ عَسَىٰٓ أَن يَبْعَثَكَ رَبُّكَ مَقَامًا مَّحْمُودًا ﴿٧٩﴾ ﴾ [الإسراء]، **قال ابن جرير الطبري رَحِمَهُ ٱللَّهُ:** أكثر أهل العلم على أن ذلك هو المقام الذي يقومه ﷺ يوم القيامة للشفاعة للناس؛ ليريحهم ربهم من عظيم ما هم فيه من شدة ذلك اليوم [3].

---

(1) مسلم (800).

(2) أحمد (11528).

(3) خصائص النبي ﷺ للشيخ محمد المنجد.

3- والنبي ﷺ هو أول من تنشق عنه الأرض يوم القيامة، فعن أبي هريرة رَضِيَ اللَّهُ عَنْهُ، أن رسول الله ﷺ قال: «أنا أول من تنشق عنه الأرض يوم القيامة»[1].

4- وكل الأنبياء يوم القيامة يكونون تحت لوائه ﷺ، فعن أبيّ بن كعب رَضِيَ اللَّهُ عَنْهُ، أن رسول الله ﷺ قال: «آدم فمن دونه تحت لوائي ولا فخر»[2].

5- وهو أكثر الأنبياء تبعًا يوم القيامة، فعن أنس بن مالك رَضِيَ اللَّهُ عَنْهُ، أن رسول الله ﷺ قال: «أنا أكثر الأنبياء تبعًا يوم القيامة» [3].

6- وهو أول من يقرع باب الجنة، وأول من يدخلها، وفي حديث أنس السابق قال ﷺ: «أنا أول من يقرع باب الجنة» [4]. وعن أنس رَضِيَ اللَّهُ عَنْهُ أيضًا، أن رسول الله ﷺ قال: «آتي باب الجنة يوم القيامة، فأستفتح، فيقول الخازن: من أنت؟ فأقول: محمد، فيقول: بك أمرتُ لا أفتح لأحد قبلك»[5].

7- وهو سيد الأولين والآخرين يوم القيامة، فعن أبي هريرة رَضِيَ اللَّهُ عَنْهُ، قال: قال رسول الله ﷺ: «أنا سيد الناس يوم القيامة» [6].

8- وقد أعطاه الله «الكوثر» نهرًا في الجنة، قال تعالى: ﴿إِنَّآ أَعۡطَيۡنَٰكَ ٱلۡكَوۡثَرَ ۝١﴾ [الكوثر]، وقد روى الإمام مسلم في صحيحه، عن أنس رَضِيَ اللَّهُ عَنْهُ، قال: بينما نحن عند النبي ﷺ إذ غفا إغفاءة، ثم رفع رأسه متبسمًا، فقلنا: ما أضحكك يا رسول الله؟ قال: «نزلت عليَّ سورة، فقرأ بسم الله الرحمن الرحيم: ﴿إِنَّآ أَعۡطَيۡنَٰكَ ٱلۡكَوۡثَرَ ۝١ فَصَلِّ

(1) انظر: هادي الأرواح لابن القيم، ص 267.
(2) رواه أحمد في مسنده، ج4، ص187، وقال أحمد شاكر: إسناده صحيح.
(3) رواه مسلم في صحيحه، رقم (196).
(4) تقدم تخريجه.
(5) رواه مسلم في صحيحه رقم (197).
(6) صحيح مسلم (601).

لِرَبِّكَ وَٱنْحَرْ ﴿٢﴾ إِنَّ شَانِئَكَ هُوَ ٱلْأَبْتَرُ ﴿٣﴾﴾ [الكوثر]، ثم قال: أتدرون ما الكوثر؟ قلنا: الله ورسوله أعلم، قال: فإنه نهر وعدنيه ربي عليه خير كثير، وهو حوض ترد عليه أمتي يوم القيامة».

وعند الترمذي، عن ابن عمر رَضِيَ ٱللَّهُ عَنْهُمَا، عن النبي ﷺ قال: «الكوثر نهر في الجنة، حافتاه من ذهب، ومجراه على الدر والياقوت»[1] وروى البخاري في صحيحه عن أنس رَضِيَ ٱللَّهُ عَنْهُ، أن النبي ﷺ قال: «بينا أنا أسير في الجنة إذ أنا بنهر حافتاه قباب اللؤلؤ المجوف، فقلت: ما هذا يا جبريل؟ قال: هذا الكوثر الذي أعطاك ربك، قال: فضرب الملك بيده، فإذا طينه أو طيبه مسك أزفر».

وفي رواية، عن أنس رَضِيَ ٱللَّهُ عَنْهُ، في مسند أحمد[2]، أن النبي ﷺ سئل عن الكوثر، فقال: «ذاك نهر أعطانيه الله - يعني في الجنة - أشد بياضًا من اللبن، وأحلى من العسل، فيه طير أعناقها كأعناق الجزر (الإبل)». وقال عمر: إن تلك لطير ناعمة، فقال رسول الله ﷺ: «أكلتُها أنعم منها يا عمر».

المبحث الثالث: خصائصه ﷺ في بعض الأمور والأحكام

لقد كان للحبيب ﷺ خصائص في بعض الأمور والأحكام، لم تكن لغيره من أفراد أمته، وهذا طرف منها:

1- النبوة: فليس لأحد بعده أن يدعيها، أو تكون له بحال؛ لأن الله تعالى ختم بنبوته سائر النبوات، وبرسالته سائر الرسالات، قال تعالى: ﴿وَلَٰكِن رَّسُولَ ٱللَّهِ وَخَاتَمَ ٱلنَّبِيِّـۧنَ﴾ [الأحزاب:40]، فمن ادعى النبوة معه كمسليمة الكذاب، أو بعده، فهو كاذب كافر، يستتاب، فإن تاب وإلا قُتل كفرًا.

(1) رواه الترمذي (2384)، وقال حسن صحيح، وصححه الألباني كما في صحيح سنن الترمذي (135/3).
(2) مسند أحمد (12828)، وصححه الألباني في صحيح الترغيب والترهيب (3140).

2- **الوحي:** فليس لأحد بعده أو معه أن يدعي أنه أوحي إليه بكذا، أو يوحى إليه في كذا، لا يقظة ولا منامًا، ولا بالإلقاء في الروع، ولا بهتاف ملك، فضلًا عن رؤية الملك والتلقي عنه؛ وذلك لانقطاع الوحي بموت النبي ﷺ، ولكمال الشريعة وتمامها، وعدم حاجتها إلى إكمال أو إتمام، فمن ادعى الوحي، وإن قل، فهو كافر، يعامل معاملة مدعي النبوة.

3- **نوم العينين دون القلب:** فهذا من خصائصه ﷺ؛ إذ هو الذي تنام عينه ولا ينام قلبه، وهي خصوصية لم تكن لغيره، فمن ادعاها هو كاذب مفتر، لا تقبل منه دعواه.

4- **إباحة الله تعالى له نكاح أكثر من أربع زوجات، وعدم إباحة ذلك لغيره من سائر رجالات أمته؛** إذ قال تعالى: ﴿ إِنَّآ أَحۡلَلۡنَا لَكَ أَزۡوَٰجَكَ ٱلَّٰتِيٓ ءَاتَيۡتَ أُجُورَهُنَّ وَمَا مَلَكَتۡ يَمِينُكَ ﴾ [الأحزاب:50]، وكان تحته تسع نسوة يوم نزلت هذه الآية، هذا له، ولأمته قال تعالى: ﴿ فَٱنكِحُواْ مَا طَابَ لَكُم مِّنَ ٱلنِّسَآءِ مَثۡنَىٰ وَثُلَٰثَ وَرُبَٰعَ ﴾ [النساء:3]، فلم يحل لهم أكثر من أربع، فكانت الزيادة على الأربع من خصائص النبي ﷺ.

5- **وصال الصيام:** إذ من خصائصه ﷺ مواصلة الصوم، فيصوم يومين متتاليين لا يفطر إلا في نهاية اليوم الثاني، ولم يُؤذن لأحد من أمته في ذلك، وقد قيل له في ذلك، فقال ﷺ: «إني لست كأحدكم، إني أبيت عند ربي يطعمني ويسقيني»[1].

6- **حرمة أكل الصدقة:** ويشاركه في هذه الخصوصية آل بيته دون سائر أفراد أمته؛ فإنه يحل لأي فقير ومحتاج أن يأكل الصدقة، ويطلبها إن احتاج إليها، إلا رسول الله ﷺ وآل بيته.

7- **قيام الليل:** فإنه ﷺ كان يقوم الليل على سبيل الوجوب؛ لقوله تعالى ﴿ قُمِ ٱلَّيۡلَ إِلَّا قَلِيلٗا ﴿٢﴾ ﴾ [المزّمل]، وقوله: ﴿ وَمِنَ ٱلَّيۡلِ فَتَهَجَّدۡ بِهِۦ نَافِلَةٗ لَّكَ ﴾ [الإسراء:79]، بخلاف أفراد أمته، فقيام الليل ليس واجبًا على أحد منهم، إنما يقومونه تطوعًا ونافلة لا غير.

(1) جامع الترمذي (778)، وأحمد (4843).

8- عدم إرثه ﷺ: فما تركه كان صدقة، فلم ترث فاطمة نصفها، ولا أزواجه أمهات المؤمنين ثُمُنهن، ولا العباس العاصب ما أبقت الفرائض، بل قال ﷺ: «إنا معاشر الأنبياء لا نورث، ما تركناه صدقة»، وقوله تعالى: ﴿وَوَرِثَ سُلَيْمَانُ دَاوُودَ﴾ [النمل:16] فليس المراد منه إرث المال، بل النبوة والملك.

9- هبة النكاح: وهي من خصائصه ﷺ، فأيما امرأة وهبت نفسها للنبي ﷺ، له أن يتزوجها بدون مهر يقدمه لها، ولم يكن هذا لأحد من أفراد أمته قط؛ إذ لابد للنكاح من مهر، معجلًا أو مؤجلًا، إلا ما كان لرسول الله ﷺ؛ لقوله تعالى: ﴿وَامْرَأَةً مُّؤْمِنَةً إِن وَهَبَتْ نَفْسَهَا لِلنَّبِيِّ إِنْ أَرَادَ النَّبِيُّ أَن يَسْتَنكِحَهَا خَالِصَةً لَّكَ مِن دُونِ الْمُؤْمِنِينَ﴾ [الأحزاب:50]، ومن لم تهب له نفسها، فعليه أن يدفع لها مهرًا، وقد أمهر الكثير من نسائه أربعمائة درهم.

10- حرمة نكاح نسائه بعده: وليس لأحد سواه، قال تعالى: ﴿النَّبِيُّ أَوْلَىٰ بِالْمُؤْمِنِينَ مِنْ أَنفُسِهِمْ ۖ وَأَزْوَاجُهُ أُمَّهَاتُهُمْ﴾ [الأحزاب:6]، فلا يحل لمؤمن أن يتزوج امرأة من نساء النبي اللاتي توفي عنهن، بخلاف أفراد أمته من علماء وصلحاء، وكلهم أولياء، فلا يحل لأحدهم أن يمنع امرأته من الزواج بعده، إلا أن تشاء هي ذلك، فلها ما شاءت ما شاء الله تعالى لها ذلك.

المبحث الرابع: خصائصه ﷺ في أمته

لقد كانت للنبي ﷺ خصائص في أمته، اختصها الله تعالى بها دون سائر الأمم، ومن هذه الخصائص:

1- أُحلت الغنائم لهم، وكانت الغنائم من قبل تأتي النار من السماء فتأكلها.

2- وجُعلت الأرض لهم مسجدًا وطهورًا.

3- وهداهم الله إلى يوم الجمعة.

4- وتجاوز الله لرسوله ﷺ عن أمته الخطأ والنسيان وما استُكرهوا عليه.

5- وحفظهم من الهلاك والاستئصال، فلا يمكن أن ينزل بأمة محمد ﷺ عذاب يفنيهم تمامًا، ولا يمكن أن يسلط عليهم عدو يستبيح بيضتهم جميعًا.

6- ولا تجتمع أمته على ضلالة.

7- وهم شهداء لله على الناس، وشهداء للأنبياء يوم القيامة.

8- وصفوفهم كصفوف الملائكة في الصلاة.

9- ويبعثون يوم القيامة غرًّا محجلين؛ من أثر الوضوء (بياض في جباههم ومواضع الوضوء منهم).

10- وهم أول من يجتاز على الصراط يوم القيامة، ورسول الله ﷺ أمامهم.

11- وأمته ﷺ هي أول أمة تدخل الجنة، وهو أولهم، قال ﷺ: «نحن الآخرون من أهل الدنيا، والأولون يوم القيامة، المقضي لهم قبل الخلائق، ونحن أول من يدخل الجنة» (1).

12- وثلثا أهل الجنة من هذه الأمة.

13- ويدخل الجنة من أمته ﷺ سبعون ألفًا بغير حساب، ولم يثبت ذلك لغيره ﷺ.

14- ومنها قوله ﷺ: «نحن الآخرون السابقون»، الآخرون زمانًا، السابقون بالمناقب والفضائل.

15- ومنها أن أمته أقل عملًا ممن قبلهم، وأكثر أجرًا، كما صح عنه ﷺ.

* * *

---

(1) رواه مسلم (1932).



الباب السادس والعشرون

ما له علاقة بالحبيب ﷺ

الباب السادس والعشرون

ما له علاقة بالحبيب ﷺ

نتناول في هذا الباب بعض ما له علاقة بالحبيب محمد ﷺ؛ كأولاده وإمائه ومواليه، وكُتَّابه الذين كانوا يكتبون له الوحي والرسائل إلى الملوك والأمراء، وخيله وإبله، وما كان عنده ﷺ من سلاح(1) .. أما زوجاته أمهات المؤمنين - رضي الله عنهن أجمعين - فقد تحدثنا عنهن بشيء من التفصيل فيما تقدم من أبواب الكتاب، وتحدثنا عن الحكمة من تعدد زوجاته ﷺ، والشبهات المثارة حول ذلك، والرد عليها.

أولاده ﷺ:

إن النبي ﷺ مثله مثل غيره من أنبياء الله ورسله؛ إذ كانت لهم أزواج، وكان لهم أولاد من بنين وبنات، وهذا من الكمال، لا من النقصان، قال تعالى: ﴿ وَلَقَدْ أَرْسَلْنَا رُسُلًا مِّن قَبْلِكَ وَجَعَلْنَا لَهُمْ أَزْوَاجًا وَذُرِّيَّةً ﴾ [الرعد: 38]، وقال تعالى في خطابه إياه ﷺ: ﴿فَبِهُدَاهُمُ اقْتَدِهْ ﴾ [الأنعام: 90]. ومن هنا تزوج رسول الله ﷺ ما سبق بيانه، من النساء اللائي شرفهن الله تعالى بصحبة نبيه وخليله محمد ﷺ، إلا أنه لم يُنجب من نسائه إلا اثنتان، هما خديجة بنت خويلد الأسدية القرشية، ومارية بنت شمعون القبطية المصرية، فخديجة أنجبت من الذكور: القاسم، وعبد الله الطيب أو الطاهر، وماتوا صغارًا لم يبلغ الحدث منهم أحد، وماتوا ودفنوا بمكة قبل الهجرة، وأنجب من الإناث زينب، ورقية وأم كلثوم، وفاطمة، كلهن كبرن وتزوجن؛ فزينب تزوجت من أبي العاص بن الربيع، ورقية وأم كلثوم تزوجهن عثمان بن عفان واحدة بعد واحدة، وتوفاهن الله تعالى عندهُ، وفاطمة تزوجها علي بن أبي طالب رَضِيَ اللَّهُ عَنْهُ، وأنجبت الحسن والحسين.

ومارية القبطية أنجبت إبراهيم، ومات وهو رضيع، لم يفطم بعدُ، ودفن بالبقيع، كما دفنت كل من أم كلثوم ورقية بالبقيع، وكذا فاطمة رَضِيَ اللَّهُ عَنْهَا.

(1) أخذنا هذه المادة من كتاب: (هذا الحبيب يا محب)، للجزائري، ص 486-494.

موالي الحبيب ﷺ:

إن المراد من الموالي أولئك الأرقاء الذين عتقهم رسول الله ﷺ، وشرفوا بخدمته يومًا من الدهر، وهذه قائمة بأسمائهم:

* زيد بن حارثة الكلبي، وولده أسامة بن زيد، وهما الحب وابن الحب رَضِيَ اللَّهُ عَنْهُمَا.

* ثوبان، ويُكنى بأبي عبد الله، أصابه من السَّراة، سكن حمص بعد وفاة رسول الله ﷺ، ومات بها.

* شقران، واسمه صالح، قيل إنه من الحبشة وقيل من الفرس، وغالب الظن أنه من الفرس الذين كانوا يسكنون اليمن، من بقايا الجيوش التي دخلت اليمن من الفرس في الجاهلية قبل الإسلام.

* أبو رافع: واسمه إبراهيم القبطي، كان لآل العباس، فأسلم، ووهبه العباس لرسول الله ﷺ، فأعتقه وزوجه، فأنجب أولادًا، وكان ينحت القِداح، وكان كاتبًا، واستكتبه عليّ رَضِيَ اللَّهُ عَنْهُمَا.

* سلمان الفارسي الأصبهاني: كان مملوكًا في آخر أيامه قبل الإسلام ليهودي، فكاتب اليهودي، وأعانه رسول الله ﷺ حتى عتق.

* سفينة[1]، وكان لأم سلمة فأعتقته، واشترطت عليه خدمة رسول الله ﷺ مدة حياته، فقبل بالشرط ونفّذه، فخدم رسول الله ﷺ، وشرف بذلك.

* أنَسَة ويكنى أبا مَسْروح، وهو من من مولدي السراة، وكان يأذن[2] على رسول الله ﷺ إذا جلس، توفي في حياة أبي بكر رَضِيَ اللَّهُ عَنْهُ.

---

(1) سُمي سفينة لأنه كان في سفر، فكان الرجل إذا أعيا يرمي عليه درعه أو سيفه، فيحمل ذلك، فقال له رسول الله ﷺ: «أنت سفينة»، فلقب بسفينة.

(2) بمعنى يستأذن في الدخول لمن أراد أن يدخل على رسول الله ﷺ.

* أبو كبشة، واسمه سُلَيم، اشتراه الرسول ﷺ وأعتقه، وشهد بدرًا والمشاهد كلها، وتوفي يوم استُخلف عمر رَضِيَ اللَّهُ عَنْهُ.

* رُوَيْفع، ويكنى أبا مويهبة، كان من مولدي مزينة، اشتراه النبي ﷺ وأعتقه.

* رباح الأسود، وكان يأذن على رسول الله ﷺ في المجلس، وهو الذي أخذ الإذن لعمر حتى دخل على رسول الله أيام آلى من نسائه.

* فضالة اليماني، نزل الشام.

* مِدْعَم، قُتِل بوادي القرى بسهم عاثر، أي بسهم لا يُعرف من رماه به.

* أبو ضُمَيْرة، قيل كان من الفرس، أصابه رسول الله ﷺ في بعض الوقائع وأعتقه.

* يسار، وكان نوبيًّا أصابه رسول الله ﷺ في بعض غزواته فأعتقه، وهو الذي قتله العرنيون الذين أغاروا على لِقاح النبي ﷺ.

* مهران مولاه، حدَّث عن النبي ﷺ.

* حُنَين، مولى رسول الله ﷺ، وهو جد إبراهيم بن عبد الله بن حنين، كان يخدم رسول الله ﷺ ويوضّئه، ثم وهبه رسول الله ﷺ لعمه العباس فأعتقه.

* زيد أبو يسار، راوي حديث: «من قال: أستغفر الله الذي لا إله إلا هو الحيّ القيوم وأتوب إليه غُفر له، وإن كان فرّ من الزحف»[1].

* كركرة كان على ثقل النبيّ ﷺ في بعض غزواته، ومات وهو غالّ عباءة، فقال النبيّ ﷺ: «هو في النار».

* كيسان راوي حديث: «إنا أهل بيت نهينا أن نأكل الصدقة»[2].

---

(1) رواه أبو داود (1518) والترمذي (3720).

(2) شرح معاني الآثار (2973).

* أبو بكرة نويفع الثقفي: تدلى ببكرة من حصن الطائف (هربًا من ثقيف يوم حاصر المسلمون الطائف)، فأعتقه رسول الله ﷺ مع أعبد كانوا قد هربوا معه، وطالب أهل الطائف بهم بعد إسلامهم، فلم يردهم رسول الله إليهم، وقال: «هم عتقاء الله».

إماء رسول الله ﷺ:

وكان للحبيب ﷺ إماء كثيرات، منهن:

* بركة أم أيمن، وأم أسامة بن زيد، فازت بحضانة النبيّ ﷺ مع والدته آمنة، وكان قد زارها أبو بكر وعمر بعد وفاة رسول الله ﷺ، فبكت أمامهما، فقالا لها: أما تعلمين أن ما عند الله خير لرسول الله ﷺ؟ فقالت: بلى، ولكني أبكي لأن الوحي قد انقطع من السماء، فجعلا يبكيان رَضِيَ اللَّهُ عَنْهُمْ أجمعين.

* خولة، خادمة رسول الله ﷺ.

* رَضْوى بنت كعب.

* ريحانة بنت شمعون القرظية أو النضرية.

* سانية مولاة رسول الله ﷺ.

* سلمى أم رافع، امرأة أبي رافع.

* ميمونة بنت سعد، روى عنها الستة.

* عنقودة، أم مليح الحبشية، جارية عائشة، كان اسمها عِنَبَة، فسماها رسول الله عنقودة.

* أم عياش، بعثها رسول الله ﷺ مع ابنته تخدمها حين زوجها عثمان رَضِيَ اللَّهُ عَنْهُ.

* ميمونة بنت أبي عسيب، راوية حديث: «ضعي يدك اليمنى على فؤادك فامسحيه وقولي: بسم الله، اللّهم داوني بدوائك، واشفني بشفائك، وأغنني بفضلك عمن سواك» حيث طلبت دعوة من رسول الله ﷺ، يسكن بها قلبها، وتطمئن بها نفسها، فقال لها رسول الله ﷺ: «قولي ...» الحديث.

هؤلاء مواليه وهم خدمه، أما مواليه وخدمه من الأحرار[1]، فأفضل الصحابة كأبي بكر الصديق؛ فقد خدمه واعتز بخدمته؛ فلذا من خدمه من أصحابه لا يقلون عن عدد الموالي الذين خدموه، بل هم أكثر.

كُتَّابه ﷺ:

إن من صفات الكمال المحمدي الأمية؛ إذ بها نُعت في الكتب الأولى، ومعناها:

أنه لا يقرأ في كتاب ولا يكتبه؛ إذ لو كان كذلك لارتاب المبطلون، فكانت الأمية صفة كمال له، دون غيره من سائر الناس.

ومن هنا كان لابد من كُتَّاب يكتبون له ﷺ الوحي النازل إليه من ربه تعالى، وغير الوحي مما لابد من كتابته؛ كالوثائق والعهود السياسية، وكمراسلة الملوك والرؤساء؛ لإبلاغ دعوة الله عز وجل. وللحبيب ﷺ كتاب كثيرون، هذا طرف منهم:

* أبو بكر الصديق.

* عمر بن الخطاب.

* عثمان بن عفان.

* على بن أبي طالب.

* أبان بن سعيد.

* العلاء بن الحضرمي.

* أبي بن كعب، وهو أول من كتب له بالمدينة.

* زيد بن ثابت، وقد أمره أن يتعلم العبرانية، فتعلمها كتابة وقراءة في نصف شهر لا غير.

* عبد الله بن سعد بن أبي السرح، ثم ارتد، وعاد إلى الإسلام يوم الفتح، وحسن إسلامه.

(1) من أشهر من خدم رسول الله ﷺ من الأحرار أنس بن مالك الأنصاري رَضِيَ اللَّهُ عَنْهُ.

* حنظلة الأسَيِّديّ.

* الزبير بن العوام، حواري رسول الله ﷺ وابن عمته.

* خالد بن الوليد المخزومي، صاحب المواقف البطولية في الجهاد.

* ثابت بن قيس بن شماس.

* عامر بن فهيرة، مولى أبي بكر الصديق رضي الله عنهما.

* عبد الله بن أرقم بن أبي الأرقم المخزومي.

* عبد الله بن زيد بن عبد ربه، صاحب رؤيا الأذان.

* محمد بن سلمة الأنصاري.

* معاوية بن أبي سفيان، وكان يكتب بين يدي رسول الله ﷺ.

* المغيرة بن شعبة الثقفي، راوي حديث المسح على الخفين.

أسماء خيله ﷺ:

إن تسمية الدواب من إنسان وحيوان وغيرهما أمر مقرر في الشرع والعقل؛ إذ لا نعرف الذات إلا بسمة، أي علامة تدل عليها، ومن ذلك كان تسمية الأشياء.

وللحبيب ﷺ خيل يركبها للجهاد عليها، لا للفخر والمباهاة؛ إذ ذلك شأن أبناء الدنيا. وأما الحبيب ﷺ فقد كان أرقى البشر فكرًا، وأرجحهم عقلًا، وأصفاهم ذهنًا، وأطهرهم روحًا، وأزكاهم نفسًا، فكيف يكون للدنيا ابنًا وهي بئست الأم؟! ومن خيول النبي ﷺ التي عرفت بأسمائها ما يلي:

* السكْبُ: وهو أول فرس ملكه، وغزا غزوة أحد عليه، وسُمّي بالسكب لأنه كثير الجري.

* مُلاح.

* المُرْتجز.

* اللحيف: أهداه إليه ربيع بن أبي البراء.

* الظَّرْب: أهداه إليه فروة بن عمرو الجذامي.

* الورد: أهداه إليه تميم الداري، فوهبه ﷺ لعمر بن الخطاب رَضِيَ ٱللَّهُ عَنْهُ.

* اللزاز: أهداه إليه المقوقس، كما أهدى إليه مارية والبغلة «الدلدل».

أسماء بغال الحبيب ﷺ:

لقد كان للنبي ﷺ بغلتان؛ الأولى: الدلدل، وهي بغلة بيضاء أهداها إليه المقوقس ملك القبط، وهي أول بغلة رؤيت في الإسلام. والثانية: «فضة»، أهداها إليه فهروة بن عمرو، فوهبها ﷺ إلى أبي بكر الصديق، وكان له حمار واحد، يقال له يعفور أو عفير، أهداه إليه المقوقس ملك القبط.

أسماء إبله ولقاحه ومنائحه ﷺ:

أما الركائب من الإبل فلم يكن له ﷺ سوى القصْوى، ويقال لها العضباء، والجذعى أيضًا، أخذها من أبي بكر بأربعمائه درهم. وهاجر عليها من مكة إلى المدينة، وبقيت معه مدة طويلة. وأما اللقاح فكان له عشرون لقحة ترعى بالغابة، وهي التي أغار عليها العرنيون، ومنهن الحسناء والسمراء والعريس والسعدية والبغوم[1]، واليسيرة والربا، ومهرة، والشقراء، كان يأتي لبنها أهله كل ليلة.

وأما المنائح[2] فقد كان له ﷺ سبع منائح من الغنم، وهي: عجوة، وزمزم، وسقيا، وبركة، وورسة، وأطلال، وأطراف. كما كان له سبع أعنز، كان يرعاهن أيمن، ابن أم أيمن مولاة رسول الله ﷺ.

---

(1) **البغام:** صوت الإبل.

(2) جمع منيحة، وهي الشاة تعطى لأجل لبنها.

أسماء سلاح الحبيب ﷺ:

من أشهر سلاحه ﷺ سيفه: «ذو الفقار»، الذي غنمه يوم بدر، وكان لمنبّه بن الحجاج، وغنم من بني قينقاع ثلاثة أسياف، هي القليّ، والبتّار، والخيف، وكان له سيف يُدعى المخذم، وآخر يسمَّى رسوبًا، وكان له بمكة سيفان، قدم بهما المدينة، وحمل أحدهما معه إلى بدر وهو القضب.

وأما الرماح والقسيّ، فقد كان له ﷺ ثلاثة رماح، وثلاث قسيّ؛ إحداها تسمى الروحاء، والثانية البيضاء، والثالثة الصفراء.

وأما الدروع فقد كان له ثلاث دروع؛ الأولى: تسمى الفضة، غنمها من بني قينقاع، والثانية تسمى ذات الفضول، كانت عليه يوم أحد مع الفضة، والثالثة الصعدية. وكان له تُرْسٌ واحد، فيه تمثال رأس كبش، فكرهه لذلك، فأصبح وقد أذهبه الله تعالى عنه، وكان له قضيب يُسمى الممشوق.

هذا ويقول الإمام ابن كثير رَحِمَهُ ٱللَّهُ: نظرًا إلى ما صح من قول عليّ وخبر الصحابة، أن النبي ﷺ مات ولم يترك دينارًا ولا درهمًا، وأن درعه مرهونة في ثلاثين صاعًا من شعير، أن جميع ما ذكر من العبيد والإماء والحيوان والسلاح قد تصدق به قبل موته، وهو كذلك، وكيف وقد قال:

«إنا معاشر الأنبياء لا نورث ما تركنا صدقة».

* * *



الباب السابع والعشرون

السيرة النبوية في مائة بيت

الباب السابع والعشرون

السيرة النبوية في مائة بيت

نعرض بين يدي القارئ الكريم منظومة شعرية من مائة بيت، نظمها صاحب «شرح العقيدة الطحاوية»، الإمام القاضي علي بن علي بن محمد بن أبي العز الدمشقي رَحِمَهُ ٱللَّهُ، المتوفى سنة (192) للهجرة. سلك فيها مسلك الاختصار، فنظمها في مائة بيت فقط، واستوعب فيها أهم موضوعات السيرة النبوية العطرة بكلمات سهلة، وألفاظ واضحة، وقد عُرفت بـ(الأرجوزة الميئية) لقول ناظمها رَحِمَهُ ٱللَّهُ في خاتمتها:

وتمت الأرجوزة الميئية   في ذكر حال أشرف البرية

فإلى هذه المنظومة النافعة المختصرة، بأبياتها العذبة المستوعبة - مع وجازتها - لكثير من أحداث السيرة العطرة:

[1] الحمدُ للهِ القَدِيمِ البَارِي   ثُمَّ صَلاتُهُ عَلَى المختَارِ

[2] وَبَعْدُ هَاكَ سِيرَةَ الرَّسُولِ   مَنْظُومَةً مُوجَزَةَ الفُصُولِ

[3] مولِدُهُ في عاشِرِ الفَضِيلِ   ربيعِ الأوَّلِ عامَ الفِيلِ

[4] لكنَّما المشهُورُ ثَاني عَشْرِهِ   في يَوْمِ الاثْنَيْنِ طُلُوعَ فَجْرِهِ

[5] ووَافَقَ العشرينَ من نَيْسانَا   وقَبلَهُ حَيْنُ أبيهِ حانَا

[6] وبعدَ عَامَيْنِ غَدَا فَطِيمَا   جاءتْ بِه مُرضِعُهُ سَلِيمَا

[7] حليمةٌ لأمِّهِ وعَادَتْ   بِهِ لأَهْلِهَا كَمَا أَرادَتْ

[8] فبَعْدَ شَهْرينِ انْشِقاقُ بَطْنِهِ   وقِيلَ بعدَ أَرْبعٍ مِن سِنِّهِ

[9] وبعدَ ستٍّ معَ شهرٍ جَائِي   وفَاةُ أمِّهِ عَلَى الأَبْواءِ

[10] وجـدُّهُ لـلأبِ عبـدُ المطَّلِـبْ ... بعـدَ ثـمانٍ مـاتَ مـن غَـيْرِ كَـذِبْ

[11] ثُـمَّ أبـو طالـبٍ العَـمُّ كَفَـلْ ... خِدمَتَـــهُ ثُـــمَّ إلى الـــشَّامِ رَحَـــلْ

[12] وذاك بعـدَ عَـامِ اثْنَـيْ عَـشَرْ ... وكـانَ مـن أَمْـرِ بَحِـيرَا مَـا اشْـتَهَرْ

[13] وَسَارَ نحوَ الشَّامِ أَشْرفُ الوَرَى ... في عَـــامِ خَمْـسةٍ وعـــشرين اذْكُـــرَا

[14] لأُمِّنَـــا خَدِيجَـــةٍ مُتَّجِـــرَا ... وَعَـــادَ فيـــهِ رَابِحًـــا مُسْتَبْـــشِرَا

[15] وَوُلْـدُهُ مِنْهَـا خَـلا إبْـرَاهِيمْ ... فــالأوّلُ القاسِـــمُ حَـــازَ التَّكْـــرِيمْ

[16] وزينـــبٌ رُقَيّـــةٌ وفَاطِمَـــهْ ... فــالأوّلُ القاسِـــمُ حَـــازَ التَّكْـــرِيمْ

[17] وزينـــبٌ رُقَيّـــةٌ وفَاطِمَـــهْ ... وأُمُّ كُلثـــــومٍ لَهُــــنَّ خَاتِمَــــهْ

[18] والطَّـاهِرُ الطَّيِّـبُ عبـدُ اللهِ ... وَقيـــل كـــلُّ اســـمٍ لِفَـــرْدٍ زَاهِـــي

[19] والكـلُّ في حَياتـه ذَاقُـوا الحِمَامْ ... وَبَعْـــدَهُ فاطمـــةٌ بِنِـــصْفِ عَـــامْ

[20] وبعـدَ خمْـسٍ وثَلاثـينَ حَـضَرْ ... بُنْيَـــانَ بيـــتِ اللهِ لَمَّـــا أَنْ دَثَـــرْ

[21] وحكَّمُـوهُ ورَضُـوا بـما حَكَـمْ ... في وَضْـعِ ذَاكَ الحجَـرِ الأَسْـوَدِ ثَـمْ

[22] وبَعْـدَ عَـامِ أَرْبعـينَ أُرْسِـلا ... في يَـــوْمِ الاثنـــين يَقِينًـــا فَـــانْقُلا

[23] في رَمَـــضَانَ أو ربيـــعِ الأوَّلِ ... وسُـــــورَةُ اقْـــرَأْ أَوَّلُ المُنَـــــزَّلِ

[24] ثـمَّ الوُضُـوءَ والـصلاةَ علَّمَـهْ ... جبريـــلُ وَهْـــيَ ركعتَـــان مُحْكَمَـــهْ

[25] ثـمَّ مَضَتْ عشرُونَ يومًا كَامِلَهْ ... فرَمَـــتِ الجِـــنَّ نجـــومٌ هَائِلَـــهْ

[26] ثــمَّ دعــا في أَرْبَــعِ الأَعْــوَامِ ... بـــالأمْر جَهْـــرةً إلى الإِسْـــلامِ

[27] ورَابـعٌ مـن النِّسَا واثْنَـا عَـشَرْ ... مـن الرِّجَـال الـصَّحْبِ كـلٌّ قَـدْ هَجَـرْ

[28] إلى بلادِ الحُبْشِ في خَامِسِ عَامْ وفيـه عـادوا ثـم عَـادُوا لا مَـلامْ
[29] ثَلاثَـةٌ هُـمْ وثَمانُـونَ رَجُـلْ وَمَعْهُـمُ جَمَاعَـةٌ حتّـى كَمُـلْ
[30] وَهُـنَّ عَـشْرٌ وثَـمَانٍ ثُـمَّ قَـدْ أَسْـلَمَ في الـسَّادِسِ حَمْـزةُ الأَسَـدْ
[31] وَبَعْدَ تِسْعٍ مِن سِنِيْ رِسَالَتِهْ مَـاتَ أَبُـو طالـبَ ذُو كَفَالَتِـهْ
[32] وبعـدَهُ خَدِيجَـةٌ تُوُفِّيَّـتْ مِـنْ بعـدِ أَيَّـامٍ ثلاثـةٍ مَـضَتْ
[33] وبعـدَ خَمـسينَ ورُبْـعِ أَسْـلَمَا جِـنٌّ نَـصِيبِينَ وعَـادُوا فَـاعْلَمَا
[34] ثـمَّ عَـلَى سَـوْدَةَ أَمْـضَى عَقْـدَهُ في رَمَـضانَ ثُـمَّ كَـانَ بَعْـدَهُ
[35] عقـدُ ابنـةِ الـصّدِّيقِ في شَـوَّالِ وبعْـدَ خَمْـسِينَ وَعَـامٍ تَـالِ
[36] أُسْرِيْ بِـه والـصَّلواتُ فُرِضَتْ خمـسًا بخمـسينَ كَـمَا قَـدْ ذُكِـرَا
[37] والبَيْعـةُ الأُولَى مَعَ اثْني عَشَرَا مِـنْ أَهْـلِ طَيْبـةٍ كَـما قَـدْ ذُكِـرَا
[38] وَبَعْـدَ ثِنْتَـيْنِ وَخَمْـسِينَ أَتَـى سـبعونَ في المَوْسِـمِ هَـذَا ثَبَتَـا
[39] مِـنْ طَيْبـةٍ فَبـايَعُوا ثُـمَّ هَجَـرْ مكـةَ يَـوْمَ اثْنَـيْن مِـنْ شَـهْرِ صَـفَرْ
[40] فَجَـاءَ طَيْبَـةَ الرِّضَـا يَقِينَـا إِذْ كَمَّـلَ الـثَّلاثَ والخَمْـسينَا
[41] في يَـوْمِ الاثْنَـيْنِ ودامَ فِيهَـا عَـشْرَ سِـنِينَ كُمَّـلًا نَحْكِيهَـا
[42] أَكْمَـلَ في الأُولَى صَلاةَ الحَـضَرِ مِـنْ بَعْـدِ مَـا جَمَّـعَ فَاسْـمَعْ خَـبَرِي
[43] ثـمَّ بَنَـى المـسجدَ في قُبَـاءِ وَمـسجِدَ المَدِينَـةِ الغَـرَّاءِ
[44] ثـمَّ بَنَـى مِـنْ حَوْلِـه مَـسَاكِنَهْ ثُـمَّ أَتَـى مِـنْ بعـدُ في هَـذِيْ الـسَّنَهْ
[45] أقلُّ مِنْ نِصفِ الَّذِينَ سَافَرُوا إلى بـلادِ الحُـبْشِ حِـينَ هَـاجَرُوا

[46] وفيـهِ آخَـى أَشْرَفُ الأَخْيـارِ بَـيْنَ المهـاجِرينَ والأَنْـصَارِ
[47] ثـمَّ بَنَـى بابنَـةِ خَـيْرِ صَـحْبِهِ وَشَرَعَ الأَذَانَ فَاقْتَـدِي بِـهِ
[48] وَغَـزْوَةُ الأَبْـوَاءِ بَعْـدُ في صَـفَرْ هَـذَا وفي الثَّانيـةِ الغَـزْوُ اشْـتَهَرْ
[49] إلى بُـوَاطٍ ثُـمَّ بَـدْرٍ ووَجَـبْ تَحَـوُّلُ القِبْلَـةِ في نِـصْفِ رَجَـبْ
[50] مِنْ بَعْدِ ذِي العُشَيْرِ يَا إِخْوَانِي وَفَـرْضُ شَـهْرِ الـصَّوْمِ في شَـعْبَانِ
[51] وَالْغَـزْوةُ الكُـبْرَى الَّتِـي بِبَـدْرِ في الـصَّوْمِ في سَـابِعِ عَـشْرِ الـشَّهْرِ
[52] ووَجَبَـتْ فِيـهِ زَكَـاةُ الفِطْـرِ مِـنْ بَعْـدِ بَـدْرٍ بِلَيَـالٍ عَـشْرِ
[53] وفي زكـاةِ المـالِ خُلْـفٌ فَـادْرِ وماتَـتِ ابْنَـةُ النَّبِـيِّ الـبَرِّ
[54] رُقَيَّـةٌ قبـلَ رُجـوعِ الـسَّفْرِ زوجـةُ عـثمانَ وعُـرْسُ الطُّهـرِ
[55] فاطمـةٍ عَـلَى عـليٍّ القَـدْرِ وأَسْـلَمَ العَبَّـاسُ بَعْـدَ الأَسْرِ
[56] وَقَيْنُقَـاعُ غَـزْوُهُمْ في الإِثْـرِ وبَعْـدُ ضَـحَّى يـومَ عيـد النَّحْـرِ
[57] وغَـزْوةُ الـسَّوِيقِ ثُـمَّ قَرْقَـرَهْ وَالغَـزْوُ في الثَّالثـةِ المـشْتَهِرَهْ
[58] في غَطَفَـانَ وبَنِـي سُـلَيْمِ وأمُّ كُلْثُـومَ ابنـةُ الكَـريمِ
[59] زوَّجَ عـثمانَ بهـا وَحَـصَّهْ ثُـمَّ تَـزَوَّجَ النَّبِـيُّ حَفْـصَهْ
[60] وَزَيْنبًـا ثُـمَّ غَـزَا إلى أُحُـد في شَـهْرِ شـوَّالٍ وَحَمْـراء الأَسَـد
[61] والخَمْرُ حُرِّمتْ يقينًا فاسْمَعَنْ هـذا وفيهـا وُلِـدَ الـسِّبْطُ الحـسَنْ
[62] وكـانَ في الرَّابعـةِ الغـزْوُ إلى بنـي النَّـضيرِ في رَبيـعٍ أوَّلا
[63] وَبَعْـدُ مـوتُ زينـبَ المقدَّمـهْ وبعـدَهُ نكـاحُ أمِّ سـلَمهْ

[64] وبنتِ جَحْشٍ ثمَّ بَدْرِ الموعِدِ وبَعْدَها الأَحْزابُ فَاسْمَعْ واعْدُدِ

[65] ثمَّ بَنِي قُرَيْظَةٍ وفِيهِمَا خُلْفٌ وفي ذَاتِ الرِّقَاعِ عُلِّمَا

[66] كيفَ صلاةُ الخوْفِ والقَصْرُ وآيةُ الحِجَابِ والتَّيَمُّمِ

[67] قيل ورَجْمُهُ اليَهُودِيَّيْنِ ومَوْلدُ السِّبْطِ الرِّضَا الحُسَيْنِ

[68] وكانَ في الخامِسةِ اسْمَعْ وَثِقِ الإفكُ في غَزْوِ بَنِي المصْطَلِقِ

[69] وَدُومَةُ الجَنْدَلِ قَبْلُ وحَصَلْ عَقْدُ ابنةِ الحارثِ بَعْدُ واتَّصَلْ

[70] وَعَقْدُ رَيْحَانةَ فِي ذِي الخَامِسَةْ ثُمّ بَنُو لِحْيَانَ بَدْءَ السَّادِسَهْ

[71] وبعدَهُ اسْتِسْقَاؤُه وذُو قَرَدْ وَصُدَّ عن عُمْرتِهِ لمَّا قَصَدْ

[72] وبَيْعةُ الرِّضْوانِ أَوَّلْ وَبنَى فِيها بِرَيْحَانةَ هَذا بُيِّنَا

[73] وفُرِضَ الحجُّ بخُلْفٍ فاسْمَعَهْ وَكَانَ فَتْحُ خَيْبرٍ في السَّابِعَهْ

[74] وَحَظْرُ لَحْمِ الحُمُرِ الأَهْلِيَّهْ فِيهَا ومُتْعةِ النِّسَا الرَّدِيَّهْ

[75] ثُمَّ عَلى أُمِّ حَبِيبةٍ عَقَدْ وَمَهْرَهَا عَنْهُ النَّجَاشِيُّ نَقَدْ

[76] وسُمَّ في شَاةٍ بِها هَدِيَّهْ ثُمَّ اصْطَفَى صَفِيَّةً صَفِيَّهْ

[77] ثم أَتَتْ وَمَنْ بَقِيْ مُهَاجِرا وَعَقْدُ ميمونةَ كَانَ الآخِرَا

[78] وَقَبْلُ إسلامُ أبي هُرَيْرَهْ وَبَعْدُ عُمْرَةُ القَضَا الشَّهِيرَهْ

[79] وَالرُّسْلَ في المُحَرَّمِ المُحَرَّمِ أَرْسَلَهُمْ إلى المُلوكِ فَاعْلَمِ

[80] وَأُهْدِيتْ مارِيةُ القِبْطِيَّةْ فِيهِ وفِي الثَّامِنَةِ السَّرِيَّةْ

[81] لِمُؤْتَةٍ سَارَتْ وَفِي الصِّيَام قَدْ كَانَ فَتْحُ البَلَدِ الحَرَام

[82] وَبَعْدَهُ قَدْ أَوْرَدُوا مَا كَانَ فِي يَوْمِ حُنَيْنٍ ثُمَّ يَوْمِ الطَّائِفِ

[83] وَبَعْـدُ فِي ذِي القَعْـدَةِ اعْـتِمارُه مِـــنَ الجِعِرَّانَــــةِ وَاسْـــتِقْرَارُه

[84] وبنْتُــهُ زَيْنــبُ مَاتَــتْ ثُــمّا مَوْلِـــدُ إبــــراهيمَ فِيهَـــا حَـــتْما

[85] ووَهَبَــتْ نَوْبَتَهــا لِعَائِـــشَهْ سَـوْدَةُ مَـا دَامَـتْ زَمَانًـا عَائِـشَهْ

[86] وعُمِـلَ المنْـبرُ غَـيْرَ مُخْتَفَـي وَحَـــجَّ عَتَّـــابٌ بأَهْـــلِ المَوْقِـــفِ

[87] ثُـمَّ تَبُـوكَ قَـدْ غَـزَا فِي التَّاسِعَهْ وَهَـــدَّ مَـــسْجِدَ الـــضِّرَارِ رَافِعَـــهْ

[88] وَحَـجَّ بالنَّـاسِ أبُـو بَكْـرٍ وثَـمْ تَـــلا بَـــرَاءَةً عَـــلِيٌّ وَحَـــتَمْ

[89] أنْ لا يَحُـجَّ مُـشْرِكٌ بَعْـدُ وَلا يَطُـــوفَ عَـــارٍ ذا بِـــأَمْرٍ فَعَـــلا

[90] وجَـاءَتِ الوُفُـودُ فِيهَـا تَـتْرَى هَـــذَا وَمِـــنْ نِـــسَاهُ آلَـــى شَـــهْرَا

[91] ثُـمَّ النّجـاشيَّ نَعَـى وصَـلَّى عَلَيْـــهِ مِـــن طَيْبَـــةَ نَـــالَ الفَـــضْلا

[92] وَمَاتَ إبْرَاهِيمُ فِي العَامِ الأَخِيرْ وَالـــبَجَلِيْ أَسْـــلَمَ وَاسْـــمُهُ جَرِيـــرْ

[93] وَحـجَّ حَجَّـةَ الـوَدَاعِ قَارِنَـا ووَقَـــفَ الجُمْعَـــةَ فِيهَـــا آمِنَـــا

[94] وَأُنْزِلَـتْ في اليَـوْمِ بُـشْرَى لَكُـمُ اليَـــومَ أَكْمَلْـــتُ لَكُـــمْ دِيـــنَكُمُ

[95] وَمَـوْتُ رَيْحانَـة بَعْـدَ عَـوْدِهِ وَالتِّـسْعُ عِـشْنَ مُـدَّةً مِـنْ بَعْـدِهِ

[96] وَيَـوْمَ الاثْنَـيْنِ قَـضَى يَقِينَـا إِذْ أَكْمَـــلَ الـــثَّلاثَ والـــسِّتِينَا

[97] والـدَّفنُ فِي بَيْـتِ ابْنَـةِ الـصِّدِّيقِ فِي مَوْضِـــعِ الوَفَـــاةِ عَـــن تَحْقيـــقِ

[98] وَمُـدَّةُ التَّمْـرِيضِ خُمْـسَا شَـهْرِ وَقِيـلَ بَـلْ ثُلْـثٌ وخُمْـسٌ فَـادْرِي

[99] وَتَمَّـــتِ الأُرْجُـــوزَةُ المِيئيَّـــهْ في ذِكْـــرِ حَـــالِ أَشْرَفِ البَرِيَّـــهْ

[100] صَـلَّى عَلَيْـهِ اللهُ رَبِّي وَعَـلَى أصْـــحَابِه وَآلِـــه وَمَـــنْ تَـــلا

* * *

خاتمة

وبعد ...

فهذا جهدي، وهذا وسعي، وهذه بضاعتي المزجاة ...

وما كان لمثلي ممن أثقلته الذنوب والأوزار، وخانه الجَلد والصبر على الطاعات، أن يتصدى لدراسة سيرة أكرم مخلوق، وأشرف بشر، وسيد الأولين والآخرين .. ولكن أرهقتُ نفسي، وحملتها فيما انتدبتها إليه عسرًا، وكلفتها مرتقًا صعبًا؛ رغبةً في رضا ربي، وخدمة لديني، وحبًّا لحبيبي، ونور قلبي، وقرة عيني، وطبيبي وشفاء سقمي، محمد ﷺ .. النبي المصطفى، والرسول المجتبى، والسراج المنير، ورحمة رب العالمين للعالمين، وشفيع الخلائق يوم الدين، خير من وطئ الحصى، رسول الأمة الهادي، محمد ﷺ .. النبي الأمي، الزكي النقي، كامل الصفات، عظيم الأخلاق، عليّ المحاسن، البشير النذير.

ورجوت من هذا العمل ثواب ربي، وطاعةً تنفعني، وعلمًا يُنتفع به في حياتي وبعد مماتي، وهبةً أرجو ثوابها لأبوي وأبنائي، وزوجتي وشريكة عمري ورفيقة دربي، وإخواني وأساتذتي وكل من كان له فضل عليَّ بتعليم وإرشاد ونصح وصحبة في طريق الله صادقة.

وإن كان عمل كهذا العمل يقتضي - مع العلم والبحث والاطلاع - نيةً وإخلاصًا، وطاعة لله وكثرة عبادة، وقلبًا مخمومًا موصولًا بخالقه، متخفف من الدنيا، منشغل بالآخرة .. وكل ذلك ليس عندي .. إلا أن حسن ظني بربي، ورجائي فيه الذي لم ينقطع ساعةً من ليل أو نهار، يدفعني أن أظل طيلة عمري سالكًا إليه، أتقرب إليه شبرًا كي يتقرب إليَّ ذراعًا، وذراعًا كي يتقرب إليَّ باعًا .. وهو دومًا مطلع عليّ .. يسمع ويرى، وأنا على عهده ووعده ما استطعت.

أيها القارئ الحبيب ...

ما كان من توفيق في هذا الكتاب فمن الله وحده، وما كان من خطأ وتقصير وسوء فهم وتأويل فمن نفسي، والله ورسوله بريء من ذلك كله.

والله أسأل أن يرزقني ويرزقك شفاعة نبيه وصحبته يوم الدين، وأن تكون الأهداف العشرة التي توافقنا عليها في أول الكتاب قد تحققت لك (كلها أو جلها)، وأن تذكرني بدعوة بظهر الغيب، بأن يعفو الله عني، وعمن وهبته معي ثواب عملي، وأن ينصر دينه وجنده، وأن يرد الأمة إلى رشدها؛ لتكون - بحق - خير أمة أخرجت للناس.

وآخر دعوانا أن الحمد لله رب العالمين.

المصادر والمراجع

1- تفسير ابن كثير، لأبي الفداء إسماعيل بن عمر بن كثير الدمشقي (ت: 774هـ)، مكتبة دار السلام.

2- تفسير الطبري (جامع البيان)، لأبي جعفر محمد بن جرير الطبري (224-310هـ) دار الفكر، بيروت.

3- تفسير القرطبي الجامع لأحكام القرآن، لأبي عبد الله محمد بن أحمد الأنصاري القرطبي (ت: 671هـ)، دار الكتب المصرية.

4- في ظلال القرآن، سيد قطب، دار الشروق.

5- التحرير والتنوير [تفسير]، الشيخ محمد الطاهر بن عاشور، دار الكتب الشرقية، تونس.

6- سنن الترمذي، لأبي عيسى محمد بن عيسى الترمذي (209-219هـ)، دار الفكر.

7- صحيح البخاري، للإمام أبي عبد الله محمد بن إسماعيل البخاري (ت: 256هـ).

8- صحيح مسلم، للإمام مسلم بن حجاج القشيري (ت: 206-261هـ).

9- سنن الدارقطني، لعلي بن عمر الدارقطني، عالم الكتب، لبنان.

10- سنن أبي داود، لأبي داود سليمان بن الأشعث السجستاني (202-215هـ).

11- سنن ابن ماجه، لأبي عبد الله محمد بن يزيد بن ماجه القزويني (209-213هـ).

12- السنن الكبرى لأبي بكر أحمد بن حسين بن علي البيهقي (384-458هـ).

13- سنن النسائي، لأبي عبد الرحمن أحمد بن شعيب النسائي (215-303هـ)، مطبعة الحلبي، القاهرة.

14- شرح صحيح مسلم، لأبي زكريا محيي الدين بن شرف النووي (ت: 676هـ)، المطبعة المصرية ومكتبتها، القاهرة.

15- فتح الباري، للحافظ ابن حجر أحمد بن علي بن محمد العسقلاني (113-852هـ)، المطبعة السلفية، الروضة، مصر.

16- مجمع الزوائد، للحافظ نور الدين علي بن أبي بكر الهيثمي (807هـ)، مكتبة المعارف، بيروت.

17- المستدرك على الصحيحين، لأبي عبد الله محمد بن عبد الله بن محمد بن حمدويه، المعروف بالحاكم النيسابوري (321-405هـ) دار المعرفة، بيروت.

18- مسند الإمام أحمد، للإمام أحمد بن محمد بن حنبل الشيباني (164-241هـ)، دار الفكر العربي، تحقيق أحمد شاكر، دار المعارف، مصر.

19- صحيح سنن ابن ماجه، ناصر الدين الألباني، مكتب التربية العربية، الرياض.

20- الفتح الرباني في ترتيب مسند الإمام أحمد الشيباني، لأحمد عبد الرحمن البنا، الشهير بـ (الساعاتي)، دار إحياء التراث العربي، بيروت.

21- مسند البزار، لأبي بكر أحمد بن عمرو بن عبد الخالق البزار (ت: 292هـ).

22- مسند الدارمي، للإمام أبي محمد عبد الله بن عبد الرحمن بن الفضل بن بهرام الدارمي (181-255)، دار إحياء السنة النبوية.

23- مسند أبي داود الطيالسي، لأبي داود سليمان بن داود بن الجارود الفارسي البصري، المعروف بالطيالسي (204هـ)، دار المعرفة، بيروت.

24- مسند أبي يعلى، لأبي يعلى أحمد بن علي بن المثنى التميمي (10-307هـ)، دار المأمون للتراث.

25- مغازي الواقدي، لمحمد بن عمر بن واقد (ت: 207هـ)، عالم الكتب، بيروت.

26- أسد الغابة في معرفة الصحابة، لعز الدين بن الأثير، أبي الحسن علي بن محمد الجزري (555-630هـ)، دار الفكر.

27- الإصابة في تمييز الصحابة للحافظ ابن حجر، دار الكتب العلمية، بيروت.

28- البداية والنهاية، للحافظ ابن كثير، أبي الفداء إسماعيل بن عمر بن كثير الدمشقي (ت: 774هـ)، مكتبة المعارف، بيروت.

29- الأصنام لأبي المنذر، هشام بن محمد الكلبي (ت: 204هـ)، دار الكتب المصرية.

30- تهذيب تاريخ دمشق لابن عساكر، علي بن حسن بن هبة الله (ت: 571هـ)، دار المسيرة، بيروت.

31- زاد المعاد في هدي خير العباد، لابن القيم، شمس الدين أبي عبد الله محمد بن بكر بن أيوب (691-751هـ)، المطبعة المصرية.

32- السيرة النبوية، لأبي محمد، عبد الملك بن هشام بن أيوب الحميري (ت: 213 أو 218هـ) مطبعة الحلبي.

33- الطبقات الكبرى، لمحمد بن سعد (168-230هـ) ، دار صادر، بيروت.

34- مختصر سيرة الرسول، للشيخ عبد الله بن محمد بن عبد الوهاب النجدي (ت: 1242)، المكتبة السلفية، الروضة، مصر.

35- دلائل النبوة، لأبي بكر أحمد بن حسين البيهقي (384-458هـ)، دار الكتب العلمية، بيروت.

36- شمائل الترمذي لأبي عيسى الترمذي.

37- الأحاديث الواردة في فضائل المدينة صالح الرفاعي، دار الخضيري، المدينة.

38- تاريخ الإسلام، للذهبي، دار الكتاب العربي.

39- الرحيق المختوم، لصفي الرحمن المباركفوري، دار الوفاء، المنصورة، مصر.

40- سفراء النبي، للواء الركن: محمود شيت خطاب، مؤسسة الريان.

41- سير أعلام النبلاء، للإمام الذهبي، مؤسسة الرسالة.

42- السير والمغازي، لابن إسحاق، دار الفكر.

43- السيرة النبوية، لأبي الحسن الندوي، دار الشروق.

44- السيرة النبوية في ضوء القرآن والسنة، لمحمد أبي شهبة، دار القلم، دمشق.

45- السيرة النبوية في ضوء المصادر الأصلية، لمهدي رزق الله، مركز الملك فيصل للبحوث والدراسات الإسلامية، الرياض.

46- عيون الأثر في فنون المغازي والشمائل والسير، لابن سيد الناس، دار المعرفة بيروت.

47- فقه السيرة، لمحمد سعيد رمضان البوطي، دار الفكر، دمشق.

48- فقه السيرة، للشيخ لمحمد الغزالي، دار القلم، دمشق.

49- القاموس المحيط، لمجد الدين محمد الفيروز آبادي، مطبعة مصطفى البابي وأولاده، مصر.

50- محمد رسول الله، لمحمد رشيد رضا، دار الكتب العلمية، بيروت.

51- المنتظم في تاريخ الملوك والأمم، لأبي الفرج بن الجوزي، دار الكتب العلمية، بيروت.

52- المنهج الحركي للسيرة النبوية، لمنير الغضبان، مكتبة المنار، الأردن.

53- هذا الحبيب محمد يا محب، لأبي بكر الجزائري، مكتبة لينة.

54- السيرة النبوية .. عرض وقائع وتحليل أحداث، لعلي محمد الصلابي، دار المعرفة، بيروت.

55- أصول الفكر السياسي في القرآن المكي، للتجاني عبد القادر حامد، دار البشير، عمان، الأردن.

56- السيرة النبوية .. أهميتها وأقسامها ومقاصد دراستها، لمحمد بن صامل السلمي، شبكة تراثيات الثقافة.

57- قطوف من الشمائل المحمدية والأخلاق النبوية والآداب الإسلامية، لمحمد جميل زينو.

58- ديوان شوقي، الأعمال الشعرية الكاملة، دار العودة، بيروت.

59- السيرة النبوية من خلال أهم كتب التفسير، لعصام بن عبد المحسن الحميدان.

60- الأغصان الندية شرح الخلاصة البهية، بترتيب أحداث السيرة النبوية، لمحمد طه، المكتبة الشاملة.

61- الرسالة المحمدية، للسيد سليمان الندوي، ثماني محاضرات في السيرة النبوية ورسالة الإسلام، دار الفتح، القاهرة.

62- تهذيب السيرة النبوية، للإمام الحافظ أبي زكريا يحيى بن شرف النووي الدمشقي، تحقيق د. خالد بن عبد الرحمن الشايع، البرنامج العالمي للتعريف بنبي الرحمة، سلسلة رحمة للعالمين.

63- شرح الأرجوزة الميئية في ذكر حال أشرف البرية، للعلامة ابن أبي العز الحنفي (ت: 792هـ)، شرح عبد الرازق بن عبد المحسن البدر، مكتبة الملك فهد الوطنية، الرياض.

64- الطفولة في حياة المعصوم، لخالد بن عبد الرحمن الشايع، دار بلنسية.

65- صحيح السيرة النبوية (ما صح من سيرة الرسول وغزواته وسراياه والوفود إليه للحافظ ابن كثير، لمحمد ناصر الدين الألباني، المكتبة الإسلامية، عمان، الأردن.

66- جزيرة العرب بين التشريف والتكليف، لناصر بن سليمان العمر، وزارة الأوقاف والشئون الإسلامية، قطر.

67- الرسول، لسعيد حوى.

68- الأطلس التاريخي لسيرة الرسول، لسامي بن عبد الملك المغلوث، مكتبة العبيكان، الرياض.

69- خصائص جزيرة العرب، لبكر بن عبد الله أبي زيد، من مطبوعات وزارة الشئون الإسلامية والأوقاف السعودية، الرياض.

70- أبو عامر الراهب، لظافر أكرم قدوري وسماهر محيي موسى، مجلة ديالي، جامعة ديالي، العدد الثالث والثلاثون.

* * *

فهرس الجزء الثاني

الموضوع **الصفحة**

الباب الخامس عشر
العام الرابع من الهجرة
الدولة الإسلامية
بين تأهب الطامعين وطعنات الغادرين

الموضوع **الصفحة**

الباب السادس عشر
في العام الخامس من الهجرة
أحداث كشفت حقيقتها الآيات

الموضوع | الصفحة

الموضوع **الصفحة**

الباب السابع عشر
غزوة الأحزاب .. آخر الحروب الدفاعية

الموضوع الصفحة

الموضوع | الصفحة

الباب الثامن عشر
أحداث وتشريعات .. في السنة الخامسة من الهجرة

الموضوع **الصفحة**

الباب التاسع عشر
العام السادس من الهجرة
عام الحديبية

الموضوع | الصفحة

الموضوع	الصفحة

الموضوع **الصفحة**

الباب العشرون
العام السابع من الهجرة
عام خيبر .. وعمرة القضاء

الموضوع	الصفحة

الباب الحادي والعشرون
العام الثامن من الهجرة
عام الفتح

الموضوع الصفحة

الموضوع **الصفحة**

الموضوع | الصفحة

الموضوع | الصفحة

الموضوع **الصفحة**

الموضوع **الصفحة**

الباب الثاني والعشرون
العام التاسع من الهجرة
عام تحدي الروم .. وإنهاء الوثنية

الموضوع | الصفحة

الموضوع | الصفحة

الموضوع الصفحة

الموضوع الصفحة

الباب الثالث والعشرون
العام العاشر من الهجرة
عام الحج الأكبر .. والتحرك الأكبر للدعاة

الموضوع الصفحة

الموضوع **الصفحة**

الباب الرابع والعشرون
رسول الله ﷺ إلى الرفيق الأعلى

الباب الخامس والعشرون
الدلائل .. الشمائل .. الخصائص

الموضوع **الصفحة**

الباب السادس والعشرون
ما له علاقة بالحبيب ﷺ

الباب السابع والعشرون
السيرة النبوية في مائة بيت

***